

# مجموع الفتاوى

وَتَحْلِيلُهَا بِمَعْرِفَةِ تَرَمَّا لَهَا وَعَلَيْهَا

مَشْرُوعٌ مُؤَصَّرٌ صَوِّفِيٌّ بِنُزَارِي

وَبِلَايَةِ كِتَابِ  
الْمَرَاتِي الْحِصَانِ

تَأْلِيفُ الْإِمَامِ

عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي حَمْزَةَ الْأَنْدَلُسِيِّ

تَحْقِيقُ وَتَمْدِيدُ

الدُّكْتُورُ بَكْرِي شَيْخُ أَمِينٍ

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

دارُ الْعِلْمِ لِلْمَلَكِيِّينَ



# جہانگیر افغانی

وَتَحْلِيهَا بِمَعْرِفَتِهَا مَا لَهَا وَعَلَيْهَا

سُرْعَ مَخْصَرِ صَحِيحِ الْبَغَارِي

وَبِلَيْهِ كِتَابُ

الْمَرَاتِي الْحِسَانِ

تَأْلِيفُ الْإِمَامِ

عَبْدُ بَنِ أَبِي جَمْرَةَ الْأَنْدَلُسِيِّ

تَحْقِيقٌ وَقَدِيمٌ

الدُّكْتُورُ بَكْرِي شَيْخُ أَمِينٍ

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

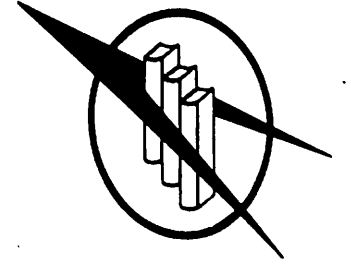
دارالعلم للملایین



# دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف مكتبة العلم  
ص.ب. ١٨٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٥ - ٧٠١٦٥٥  
ببرقيا، ملايين - تلکس: ٢١١١ سلاويين  
ببروت - لبتات



## جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل  
من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية  
أو الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي  
والسجّل على أشرطة أو غيرها أو حفظ المعلومات واسترجاعها  
- دون إذن خطي من الناشر.

الطبعة الأولى

أيلول / سبتمبر ١٩٩٧



# تقديم الكتاب



# الكتب النادرة التي تفتح لأول مرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فإن أشرف ما يتعلمه الإنسان في حياته كتاب الله تعالى وسنة نبيه المصطفى، ﷺ، فهما النور الهادي إلى الصراط المستقيم في الحياة، والقائد المُسَدِّد إلى دار الخلود، وجَنَّة عرضها السماوات والأرض.

أنا وابن أبي جَمْرَة

أحمد الله العليَّ العظيم أن جعلني أحد خدَمَة كتابه وسَنَة نبيّه، عليه السلام، وأمدني بالعافية والفراغ والوقت لأنهض بتحقيق أحد كتب السَنَة النبوية، المسمى (بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وعليها) كتبه عالم عارف، ومحدث متقن، وبحر زاخر هو (الشيخ عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي).

والذي حبّني إلى العمل في هذا الكتاب أني حين كنت أقرأ فيه ذات يوم حديث (بدء الوحي) والشرح الذي كتبه ابن أبي جمرة عليه، أدركت أن العلم نوعان: نوع نتعلمه من أساتذتنا والكتب التي بين أيدينا، ونوع آخر يمنحه الله تعالى لمن يحب، هو أكبر وأوسع وأعمق بدرجات لا تقارن بالأول، ولا تقاس به. الأول: علم دنيوي، والثاني: علم لدني. وما علم موسى والخضر، عليهما السلام، إلا شاهد عليهما.

وأدركت بعد الانتهاء من قراءة الحديث الأول فقط أن مؤلف هذا الكتاب عنده من العلم الثاني الشيء الكثير الخطير، وأن الكتب والشيوخ وأكابر المعلمين لا يمكن أن يبلغوا بالشرح ما بلغه ابن أبي جمرة.

وازداد حبي للكتاب حديثاً بعد حديث، وكان (حديث عبادة بن الصامت في البيعة) الحد الفاصل بين مجرد القراءة فيه، وبين اتخاذ القرار على تقديم هذا الكتاب للناس كافة، والمسلمين بخاصة، محققاً، مخدوماً، بشكل علمي، ليربع في بيت كل مسلم، وليقرأه العالم والمتعلم، وكل منهما سيجد بغيته في ثنياه، ويتنفع به أيما انتفاع.

\*\*\*\*\*



وأكثر من هذا أني كنت أزور بين الفينة والفينة كوكب حلب، وعلمها، والحبيب إلى أتقيائها وصالحها وأتقياء وصالحي العالم الإسلامي، وأعني به الشيخ محمد الثَّنَّان، رحمه الله، فكنت أجد هذا الكتاب، بطبعته القديمة على طاولته، وكان يشيد بمؤلفه، ويشني عليه أئمة ثناء، وينصح بقرائه، والتمعن فيه، وإعادة النظر في أسرارهِ وجواهر محتواه.

كذلك سألت العالم المفضل، والرجل الذي يحبه كل مسلم وتقيٍّ وصالح في مدينة حلب وغير حلب، والذي يتسابق الناس لحضور مجالسه واقتناء كتبه التي هي أئمن من الجواهر والآلئ، وأعني به الشيخ عبد الله سراج الدين بن الشيخ العلامة الشيخ نجيب سراج الدين. أقول: سألت هذا الرجل عن كتاب ابن أبي جمرة، فأثنى عليه، وجعله في المقام الأمثل بين الكتب الإسلامية الرائعة، وتمنى لو يسر الله له من يخدمه وينشره بين الناس على صورة تليق به، ليكون مرجعاً لكل مسلم في كل بيت.

وسألت عنه عالم حضرموت ونزيل جدة حالياً، السيد الشريف، والعلامة المفضل، والمحدث الثقة، الشيخ عبد القادر السقاف، وهو من هو في العالم الإسلامي، فوضعه في ذروة الكتب الإسلامية، وتحدث عن ابن أبي جمرة حديثاً لا أحلى منه ولا أروع، وحشني بشدة على العمل به، وخدمته، وبشّرني بحسن الختام إن قَدِمْتُ للناس هذا الكتاب النفيس، فضلاً من الله ونعمة، وأن الله لا يضيع أجر من يخدمون سنة نبيه، ﷺ.



وشرح الله صدري لهذا العمل، وبقيت سنوات أستجمع مخطوطاته من مكتبات العالم، وحصلت على مخطوطتين من إنكلترا، ومخطوطتين من فرنسا، ونسخة من مكتبة الأحمدية بحلب، إضافة إلى المطبوعة بالقاهرة أولاً، ثم في بيروت تصويراً بعد ذلك.

وواجهتني مشكلة تخريج الأحاديث النبوية التي كان المؤلف يوردها بمعانيها، وهي كثيرة جداً، وصممت على أن أردّها إلى مصادرها، وأدل على مكان وجودها في كتب السّنة، وأوردها بلفظها الأصيل ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

ولم يكن باعِي في التخريج واسعاً، ولا في مكتبتي الخاصة ما يعينني على ما أصبو إليه، وحيثُ لجأت إلى عالمين جهّذين في هذا الفن، ومكتبة كلٍّ منهما تحوي كل ما يبهج ويفرح في هذا الموضوع، بل إن عند كل منهما من المصادر النادرة ما تشهاه مكتبات الدولة العامرة، وتتمنى وجوده على رفوفها.

كان هذان العالمان، أمدّ الله بحياتيهما، وجزاهما عني وعن المسلمين كل خير، الشيخ محمد



نعمان حبوش<sup>(١)</sup>، والشيخ محمد عدنان الفشيم. وتقاسما العمل في الأحاديث الواردة، ثم دفعها إلى محققة، مخزجة، على خير ما يكون التحقيق والتخريج. وكان عملهما خالصاً لله تعالى، لم يطلبوا جزاء ولا شكوراً، واحتسبا جهدهما عند الله تعالى.

ورجل ثالث، قريب لي، وذو رحم، كان بجانب الوقت كله، يدفعني ويشجعني، ويراجع ما عملت، ويساعدني إن احتجت إلى مساعدة، فيقدم لي سيرة بعض من يشكل عليّ وجود سيرته في مكتبي، أو يصحح ما يزلّ به قلبي، ويحاول أن يمدّ يد العون في كثير من الأوقات، وأقسم عليّ ألا أذكر اسمه، ولا شكره، ولا التنويه به. وها أنذا أبرّ اليوم بقسمه، واحتفظ بذاكرتي باسمه، وأدع شكره وجزاءه لله تعالى.

وحين انتهى التحقيق للكتاب كله، عرضته على أخ عالم كريم، وصديق ودود، له باع طويل في التحقيق والتأليف هو الأستاذ الدكتور فخر الدين قباوة، لعله ينظر فيه، ويقوم ما أخطأ فيه اجتهدني. فتطوع متبرعاً، وراجعته من أوله إلى آخره، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة فيه، حتى النقاط والفواصل وإشارات الاستفهام والأقواس وسواها. فجزاه الله وأحسن جزاءه، وبارك له في عمره وعلمه وعمله وذريته، إنه سميع قريب مجيب.

\*\*\*

الرائع في هذا الكتاب أنني كنت خلال عملي فيه أشعر بالسعادة والاطمئنان، وكذلك حدثني كل من شاركني العمل فيه، وكان الله سبحانه وتعالى استجاب دعوة مؤلفه في أن يكون كتابه هذا نوراً لمن قرأه أو سمعه أو تملّكه، إلى يوم القيامة، وكذلك كان طلب ابن أبي جمرة من النبي، ﷺ، في أحد مرثياته أن يجعل البركة في كتابه هذا، وأن يحفظ قارئه، ومقتنيه في الدنيا والآخرة.

\*\*\*

لقد أيقنت أن الله تعالى استجاب دعوة ابن أبي جمرة في كتابه في موطين، كنت فيهما في غاية الشدة والبلاء، وكدت أرى الهلاك بأم عيني بين لحظة وأخرى، وسألت الله، واستغثت به، ودخلت عليه بأحبابه، وما هي إلا ساعة من زمن حتى تغير الجو كله، وكان الدنيا أصبحت غير الدنيا، فلقد ابتسمت الوجوه بعد عبوس، وحلّ الكلام اللطيف بعد الكلام الخشن، والاعتذار بعد الإنذار، والسماح بعد التهديد والوعيد، ثم ختم الموقف بطلب الدعاء مني.

وأشهد أنني كنت خلال عملي في هذا الكتاب المبارك، والذي استغرق العمل فيه ست

---

(١) انتقل إلى رحمة الله تعالى في أواخر عام ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.

سنوات، في فرح دائم، ونشوة مستمرة، وكنت كلما ضاقت بي الدنيا لأمر من الأمور، أو طرأ عليّ طارئ، آتي إلى مكتبي فأفتح كتاب ابن أبي جمرة، وأبدأ بالعمل فيه، فلا تمرّ عليّ دقائق إلا وقد شرح الله صدري، وأزال همّي، وفرّج كربّي، وإذا أنا في نشوة وفرحة، وإذا الدنيا تضيء في عيني، والفرح يغمرني، والسعادة تشعّ من كل أطرافي وجوانحي.

اللهم اني أشهد أن أحبابك خالون عليك.

وقريب من هذه الحادثة ما حدّثني أحدٌ ممن أشرت إليه قبل قليل، وأن الله تعالى أنجاه من شر عظيم ببركة اللجأ إلى الله، ومحبة أحبابه. والأمثلة على مثل هذه كثيرة لا تكاد تحصى.

\*\*\*

### من هو ابن أبي جمرة؟

المصادر التي تحدثت عن هذا الرجل كثيرة، لكن حديثها عنه لم يكن بالمستوى الذي كان يستحقه، فهناك كثير من العلماء ممن لم يكونوا بمستواه نالوا من الاهتمام والحديث والترجمة أضعاف ما كتب عن هذا الإنسان، حتى إن ابن كثير في البداية والنهاية لم يكتب عنه سوى سطر واحد، ومثله السيوطي في حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، وقريب منهما عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين، والزركلي في الأعلام، والشعراني في الطبقات الكبرى، والشيخ محمد ابن محمد مخلوف في شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، وأبو الطيب الحسيني البخاري القنوجي في التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، وابن الملقن في طبقات الأولياء، وعبد الله محمد الصديق الغماري الحسيني الإدريسي في بدع التفاسير.

أما الرجل الذي أنصفه وأظهره للناس، وكتب عنه عشرات الصفحات، وأبان علمه، ودينه، وخلقه، وتحدّث عن كراماته، وزهده، وكثير من خفايا حياته الخاصة فهو تلميذه العالم الفاضل الملقب بابن الحاج، والمسمى بالشيخ محمد العبدري الفاسي، ثم المصري، المالكي، في كتابه المشهور (المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات، والتنبية على بعض البدع والعوائد ببيان شناعتها وقبحها)، والمشهور بين الناس باسم (المدخل).

والحق يقال: إن معظم معلوماتنا عن ابن أبي جمرة مصدرها الأكبر ابن الحاج في (المدخل)، ومن خلال هذا الكتاب في الدرجة الأولى، ثم من الكتب الأخرى عرفنا أن اسمه الكامل: عبد الله بن سعد (ويقال: سعيد) بن أحمد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي، أبو محمد. وأن أصله من مدينة (مُرْسِيَّة) بالأندلس، وهي تقع في الجنوب الشرقي من الأندلس، على نهر كبير يسقي جميعها كنيل مصر، رخيصة الفواكه، كثيرة الشجر والأعشاب وأصناف الثمر، ولها حصون



وقلاع وقواعد وأقاليم معدومة المثال، ومنها إلى بلنسية خمس مراحل، ومنها إلى قرطبة عشر مراحل.

واستخلصنا من حديث تلميذه (ابن الحاج) أنه كان في الأندلس يتسبب بصناعة الفلاحة والغراسة في الأرض التي كان يملكها، فلما أن ورد الديار المصرية أراد أن يتسبب بذلك لأجل العائلة، وحين رأى أكثر حال المزارعين في هذه الديار، وما هم عليه من الشظف قال: لا يحلّ لي أن أتسبب ههنا، ثم وقع له أن التسبب في حقه متأكد لأجل العائلة، فأراد أن يتسبب بغير الفلاحة، ثم قال: إذا اضطررت إلى التسبب تسببت لهم في غيرها، فانقطع إلى الله تعالى وترك الأسباب، واشتغل بالعبادة وإلقاء العلم، ففعل الله معه ما هو أهله، فأغنائه الغنى الكلي عن الناس.

كذلك لا نعرف الشيء الكثير عن أسرته، من زوجة، وأولاد، وخدم أو غير ذلك، وكل الذي نعرفه أنه أمر زوجته، بُعِدَ زواجه أن تخبره بكل صغيرة أو كبيرة تنصرفها في المنزل في غيابه، ليعلمها ما هو شرعي، وما هو غير شرعي، وما يجب أن تداوم عليه، أو تبتعد عنه.

وعرفنا من سياق حديث ابن الحاج عن العقيقة أنه وُلِدَ له وَلَدٌ في مدينة تونس، وفي مكان آخر يقول على لسانه: في بعض الأوقات تكون في البيت الحركة الكثيرة والبكاء الكثير من الأولاد وغير ذلك مما يشوش خاطر فلا أسمع، ولا أعرف به، وكل ذلك راجع إلى حالي، وبعض الأوقات أشعر به، وما ذلك إلا بحسب الحضور والفرقة.

أما شيوخه فقد كان الحديث عنهم نادراً، ولم نعرف منهم سوى أبي الحسن الزيات، وعبد الله بن محمد العرشي المرجاني، المتوفى سنة ٦٦٩ هـ، والذي كان واعظاً ومفسراً وفقهياً ومتصوفاً، وقدم إلى مصر واشتهر بها، وفيها مات، كما يقول الشعراني عنه في الطبقات الكبرى.

وأما تلامذته فهم كثر، وأشهرهم على الإطلاق ابن الحاج، وهو الذي نشر اسم ابن أبي جمرة في الآفاق، وتحدث في مواطن كثيرة عن حياته الخاصة، وعلاقته بأهله، وطلابه، وحكام زمانه، والناس جميعاً.

وأما علومه فإن قارئ كتابه (بهجة النفوس) يستنبط أنه كان حافظاً للقرآن الكريم حفظاً متقناً، وكان محدثاً، وأصولياً، ومفسراً، وفقهياً، ومطلعاً على المدارس الصوفية، وأخبار المتصوفة، وله معهم موافقات ومخالفات، كما له سلوك خاص به، يقوم على الاعتدال، وأن لا إفراط ولا تفريط، وخير الأمور الوسط. وفي هذا المقام لا بد من الإشارة إلى أن ابن حَجَر العسقلاني كان يذكر الشيخ ابن أبي جمرة كثيراً في كتابه (فتح الباري)، وينقل آراءه، ويسميه بـ(العارف)، ويشني عليه ثناء عطرأ. وابن حجر، كما هو معروف، مناوئ للمتصوفة، ويحمل عليهم، وينكر كثيراً من أقوالهم وتصرفاتهم.

أما مؤلفات ابن أبي جمرة فمختلف في عددها، لكن المؤكد ثلاثة كتب، هي: (جمع النهاية في بدء الخير والغاية)، وهو مكون من مائتين وستة وتسعين حديثاً نسلها من صحيح البخاري، وكتاب (بهجة النفوس وتحليلها بمعرفة ما لها وعليها)، وهو شرح لأحاديث جمع النهاية. والثالث كتاب: (المراثي الحسان) وهو مكون من سبعين رؤيا، رأها حين شرح (جمع النهاية) فيما سناه (بهجة النفوس)، وهو، كما يقول الزركلي، تقاريط ربانية ونبوة.

ولقد ذكر القنوجي أن لابن أبي جمرة تفسيراً، ووصفه بـ(المشهور). ونعتقد أن هذا المؤلف كثير الوهم والتخليط، فلقد قال عن ابن أبي جمرة: إنه توفي سنة ٥٢٥ هـ ثم أردف قائلاً: وقبل سنة ٦٩٥ هـ.

بقي أن نتساءل عن سبب هجرة المؤلف من الأندلس إلى تونس بادية الأمر، ثم إلى القاهرة، وموته فيها. ونعود إلى جميع الكتب التي تحدثت عن حياته الخاصة، ثم إلى الكتب التي أرخت للفترة التي عاش فيها فلا نجد لهذا التساؤل جواباً.

ويخيل إلينا أن قوله في بعض مجالسه في بلده مرسية بأنه يجتمع مع رسول الله ﷺ يقظة، كما يذكر الشعراني، كان السبب القوي لهذه الهجرة. فلقد سادت بلاد الأندلس في عهده العصبية الدينية، بل التشنج الفكري، ومقاومة كل من خرج باجتهاد يخالف ما تواضع عليه الناس، أو اعتادوا عليه، حتى لقد أحرقوا كتب كثير من العلماء والفقهاء والفلاسفة والمفكرين، واضطهدوا كثيراً من العلماء.

ولو قرأنا المراثي بإمعان، وتمعنّا ما بين سطورها، وتنقلنا من رؤيا إلى رؤيا، وتساءلنا عما وراء هذه العطايا الكبيرة والهائلة التي يرى رسول الله ﷺ يقدمها إليه، ويعدّه بأن الله تعالى أعدّ له في الجنة عشرات أمثالها، وأكثر مما يتخيله هو والناس جميعاً، لأدركنا أن الرجل كان يعيش في محنة شديدة، وأن أعداءه كثيرون، بل هم أكبر مما يقدر على تحمّله، ويذكر كثيراً للنبي عليه السلام أنه في محنة، وأنه في وحدة، وأن الخصوم يتآمرون عليه، وغير ذلك من ألوان الآلام، فيرى أن الله سينقذه، وأنه راضٍ عنه، وأنه ناصرُه، وأن الرسول عليه السلام أخذ بيده، ومبشّره.

وبهذه المراثي يجد نفسه ممسكاً بحبال الله، متمسكاً أمام العواصف الهائجة في وجهه، ولا يبالي ما دام الله ورسوله معه، وهو يرى النبي عليه السلام في مراء متوالية، ويبشّره دائماً بالبشارات المتوالية، إذن فلتقم الدنيا وتقعده فهو لا يخاف ما دام الله ورسوله معه، وهو معهما في اليقظة وفي المنام، وفي السراء والضراء.

\*\*\*\*

ونعتقد أن وضع بلاد الأندلس في أيامه كان في أشد حالات الاضطراب والفوضى، فاليمانيون الذين تبنا المذهب الشيعي في حروب مستمرة مع المضربين الذين تبنا المذهب السني، حتى لقد نشبت حرب بين الفريقين بضع سنين في مرسية ذاتها بسبب ورقة شجرة عنب قطعها مضري من بستان يماني، كما يقول ابن عذارى.

زد على ذلك الحروب المستمرة بين العنصر البربري والعنصر العربي، ومحاولة كل منهما الاستئثار بالحكم دون الآخر، وما جرّ ذلك إلى سفك دماء وإزهاق أرواح.

ولا ننسى انتشار المذهب الظاهري على يد ابن حزم وتغلغله بين البرابرة، وما يجيزه هذا المذهب من تكفير من يخالفه الرأي أو يسلك غير سبيله، أو يجتهد في الشريعة، فذلك كله بدعة، والبدعة مرفوضة، حسنة كانت أو سيئة. وقد كان الظاهريون البرابرة أعداء للأمويين واليمانيين في الأندلس على طول المدى.

وما لنا نذهب بعيداً في استقصاء الأسباب وننسى أن الله تعالى أمر المسلم بالهجرة إن خاف على دينه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوءَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً...﴾ وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا...﴾ وقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَامِيعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا...﴾ وقال: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَاً كَثِيراً وَسَعَةً﴾ والآيات كثيرة في هذا الموضوع.

أما وفاته فكثرة المترجمين يذكرون أنها كانت في سنة ٦٩٥ للهجرة النبوية، كما ذكر آخرون أنها سنة ٦٩٩ هـ، وقال جماعة إنها كانت في سنة ٦٧٥ هـ، وانفرد الشعراني في تحديدها بسنة ٥٩٩ هـ، ولا ندري السبب الذي حمل القنوجي على تحديدها بسنة ٥٢٥ هـ.

## كتاب بهجة النفوس

### أصله ومضمونه

قال ابن أبي جمرة في مقدمة كتابه (بهجة النفوس): «فلما كان من متضمن ما أودعناه برنامج الكتاب الذي سميناه (جمع النهاية في بدء الخير والغاية) إشارة إلى تكثير فوائد أحاديثه، وتعميم محاسنه، وكنت عزمت على تبينها، لأن أتبع خيراً بخير، فيكون ذلك أصله وهذا ثمره، فإن كمال فائدة الثمار باجتناء الثمر، ويعرف مجتنيه قدر الفائدة، بل الفوائد التي فيه.

«ولما كان الإمام البخاري، رحمه الله، قد جعل لكل وجه مما يدل عليه الحديث باباً، ولربما كرر الحديث الواحد في أبواب شتى مراراً، ولربما قطع الحديث الواحد، وأتى في كل باب منه بقدر الحاجة إليه، رأيت أن أجعل كل حديث من تلك الأحاديث التي جمعت قائماً بنفسه مقام باب، وهو



باب وأَيَّ باب، ومفتاحه ظاهر الحديث، والأبواب التي تتفرع منه وجوه تتبعه. ثم تتبعت ألفاظ الحديث لأقتبس من بركات تلك الألفاظ العذبة الزلال ما يكون منه ريباً لظلم جهالات الفؤاد، لأنه، عليه السلام، لا يكون منه زيادة حرف ولا نقص حرف من الحروف إلا لمعنى مفيد، لأنه لا ينطق عن الهوى».

«وهذا الكتاب يحتوي على جُملي من درر فرائض الشريعة وسننها ورغائبها وأحكامها، والإشارة إلى الحقيقة بحقيقتها، والإشارة إلى كيفية الجمع بين الحقيقة والشريعة، وتبيين الطرق الناجية التي أشار عليه السلام إليها، والإشارة إلى بيان أضرارها، والتحذير منها».

«وربما استدلت على بعض الوجوه التي ظهرت من الحديث بأي وبأحاديث تناسبها وتقويها، فمنها باللفظ، ومنها بالمعنى. وأتبع ذلك بحكايات ليشحذ الفهم بها، ولتبيين بها المعنى، وربما أشرت إلى شيء من توبيخ النفس على غفلتها، لعلها تنتهي عن غيها».

«وأودعت فيه شيئاً من بيان طريقة الصحابة وآدابها، وما يستنبط من حسن عباراتهم، وتحزّزهم في نقلهم وحسن مخاطبتهم، وما يُستنبط من ذلك من آداب الشريعة إذا تعرّض لفظ الحديث لشيء من ذلك، لأنه لا ينبغي أن يغفل عن شيء من ذلك، لأنهم هم الصفوة المقربون، والخيرة المرفوعون».

### مخطوطات الكتاب

المخطوطات التي اعتمدت عليها كانت كما يلي:

مخطوطة باريس الأولى: رقمها في المكتبة الوطنية (LA BIBLIOTHÈQUE NATIONALE)

هو: ٥٣٥٢.

تضم هذه النسخة ٤١٦ ورقة. في الورقة بين ٣٨ - ٣٥ سطراً، وفي السطر ١٤ كلمة كتبت بخط مشرقى واضح جميل.

وهي كثيرة الطمس والأحبار السوداء التي أكلت كثيراً من الكلمات، ولولا وجود نسخ أخرى لما استطعنا قراءة المطموس.

أما ميزتها فتكاد تكون كاملة بدءاً من المقدمة وانتهاء بالحديث رقم (١٠٠).

على ورقة الغلاف كتب ما يلي: (الجزء الأول من كتاب بهجة النفوس وتحليها... الشيخ الإمام... أبو محمد عبد الله [ابن] أبي جمرة... شرح كتابه جمع النهاية في بدء الخير والغاية مختصر كتاب الإمام البخاري... الله آمين آمين).

وفي وسط الورقة تبين ما يلي: (... الشيخ محمد بن أحمد بن... بدائع الزهور في وقايح

الأمور توفي الإمام العالم العلامة العامل البارع . . . الناسك أبو محمد . . . عبد الله بن أبي جمرة المالكي المذهب في ذي القعدة سنة خمس وتسعين وستمائة بمصر ودفن بجدار تربة الشيخ ال . . . رضي الله عنهما وهو الذي جمع الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ التي تقرأ عند قبره في أول يوم من السنة فيجتمع الناس هناك ويفتتحون العام بزيارته ويسمعون ما جمعه من الأحاديث الشريفة . انتهى).

وفي أسفل الورقة كتب : . . . محمد بن المقنع أحمد الرواس حماد بن . . .

في الورقة الثانية كتب في مطلعها : (بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين . قال الشيخ الإمام العالم ولي الله محمد بن عبد الله بن سعد بن أبي العباس بن أبي جمرة رحمه الله تعالى ورضي عنه . الحمد لله الذي فتق رتق ظلمات جهالات العالم . . .).

رغم كل الطمس في هذه النسخة فإن ميزنها كبيرة، حيث تجد في كل ورقة تعليقات، وتصويبات، وشرح لبعض المفردات، ومقابلات على الهوامش، بخط مشرقى حيناً وأندلسي حيناً آخر .

كذلك تمتاز بتباين خط لفظ الحديث عن خط الشرح، ومن السهل جداً تمييز هذا عن ذاك .

وفي الورقة الأخيرة طمس شديد، وبصعوبة بالغة تبينت ما يلي : . . . في تاريخ يوم الجمعة المبارك من شهر جمادى الآخر سنة ١١٠٧، ويبدو أن هذا تاريخ نسخها .

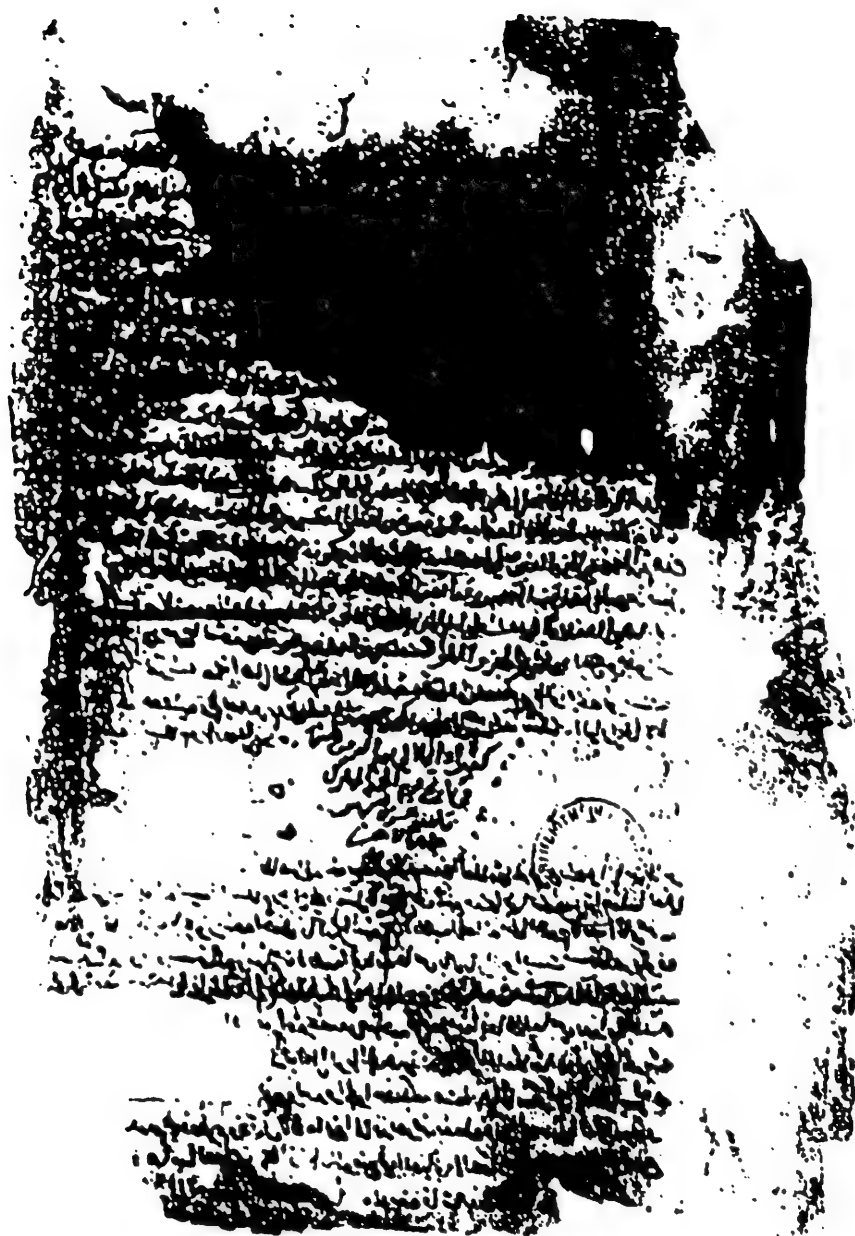
\*\*\*

الكتب النادرة التي تُفَسِّحُ لَهَا مَرْتَبَةً









صورة الورقة الأخيرة من مخطوطة باريس الأولى ذات الرقم ٥٣٥٢  
في المكتبة الوطنية LA BIBLIOTHÈQUE NATIONALE

مخطوطة باريس الثانية: رقمها في المكتبة الوطنية (LA BIBLIOTHEQUE NATIONALE) هو : ٦٩٥ .

تحتوي على ٤٦٢ ورقة، كل ورقة فيها ما بين ٢٩ - ٣١ سطراً، وفي السطر الواحد حوالي ١٤ كلمة، وكلها بخط أندلسي جميل وواضح. ويظهر لي أن هذه النسخة تنمى أو جزء ثانٍ لنسخة باريس الأولى المكتوبة بخط مشرقى بالرغم من كتابة هذه بالخط الأندلسي، كما أخذت المراتي من هذه الأوراق ٣٦ ورقة، اشتملت على سبع وستين رؤيا وجزءاً من الثامنة والستين، وهي كذلك بالخط نفسه.

والفرق بين الجزء الأول الذي كان بالخط المشرقي وبين هذه النسخة ذات الخط المغربي أو الأندلسي هو أن الأولى مفعمة بالحواشي والمدخلات، وأما هذه فقد خلت، تقريباً، من تلك المميزات. أول الأوراق تحميدات كثيرة، وصلوات على النبي ﷺ، وإيداع شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله لتشهد لكتابها بالتوحيد يوم القيامة.

أما الورقة الأولى الأم فقد تصدّرت بالبسملة والصلاة على النبي ﷺ ثم بدعاء الكاتب: (يا ربّ يسر لنا وأعِن، وأتم لنا الخير يا معين) ثم شرع الكاتب في النسخ فكتب: (قال الشيخ الفقيه الإمام العالم الحجة العارف بالله والمحب في رسول الله البركة سيدي عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي رحمه الله ورضي عنه ونفعنا به وبأمثاله بمنّه وجوده وكرمه).

وبدأ بنسخ الحديث الأول، وكان (حديث الإفك). والملاحظ على الناسخ في هذه النسخة أنه لا يورد الحديث كاملاً، وإنما يورد الكلمات الأولى منه اعتماداً على القارىء بأنه يعرفه، أو يحفظه.

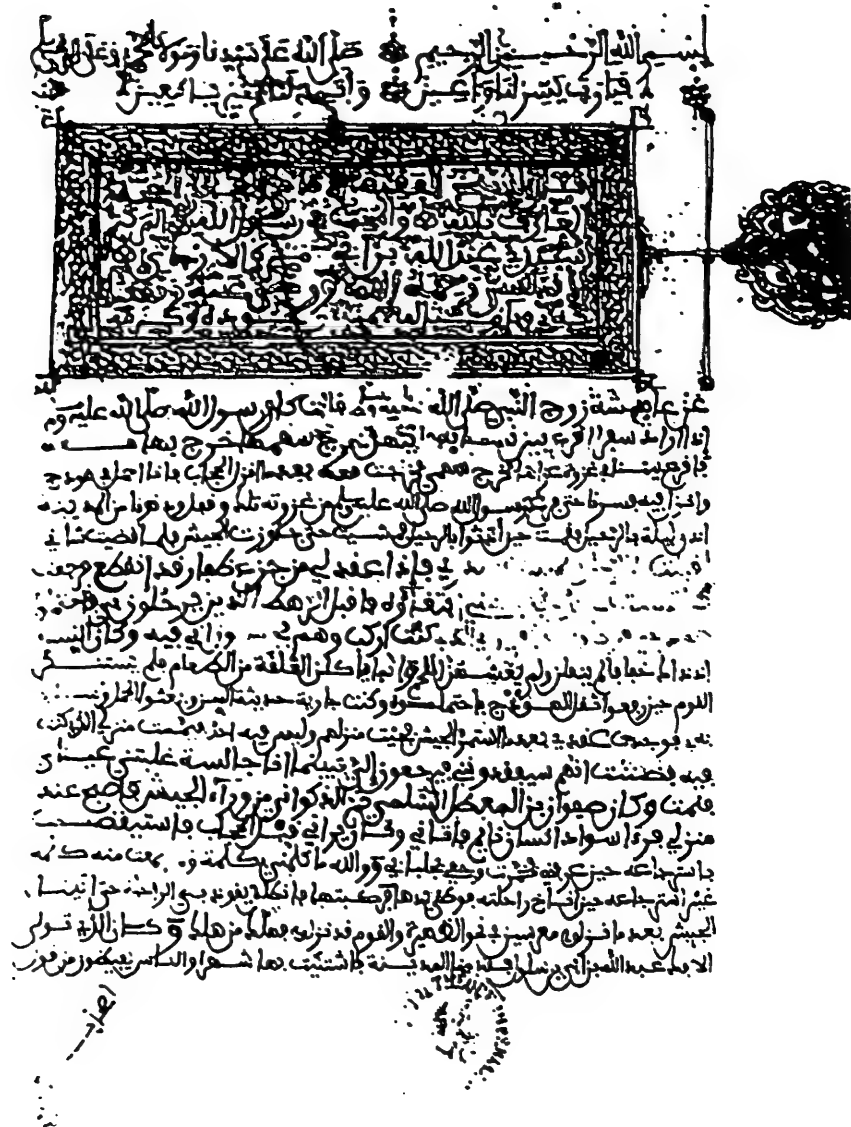
ولا بد من الإشارة إلى أن الناسخ أهمل نسخ شرح الأحاديث التي أرقامها من ١٠١ - ١١٨.

في نهاية هذه النسخة قال الناسخ: (كمل الجزء الثاني من الكتاب المسمى ببهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وعليها، شرح مختصر البخاري المسمى بجمع النهاية في بدء الخير [وغيابة]، مما عنا بجمعه الشيخ أبو محمد عبد الله بن [سعيد] بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي، رضي الله عنه ورضي عنا به، وأعاد علينا من بركاته بمنّه وفضله فإنه لا رب سواه، والحمد لله رب العالمين، وغفر لمن [دعى] وكاتبه ومؤلفه وكاسبه ولوالديهم بالرحمة والمغفرة، آمين، آمين، آمين، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبدّه وسلّم تسليماً).

وكان الفراغ من نسخه يوم الأربعاء لثمانية عشر خلت من شهر شوال من السنة ستة ومائة وألف، رزقنا الله خيره، وكفانا بفضل شـره، بجاه نبيّه محمد بن عبد الله ﷺ.

على يد كاتبه العبد الفقير الذليل الحقيق المرتجي رحمة مولاه القدير وسر ذنبه أحمد مولود  
ابن الحاج علي الغرناطي نسباً، المستغامي داراً ومنشأً.  
غفر الله له ولكل والديه ولأنسابه وأحبابه وكافة المسلمين بمنه وجوده وكرمه).

\*\*\*\*\*



صورة الورقة الأولى من مخطوطة باريس الثانية ذات الرقم ٦٩٥  
في المكتبة الوطنية LA BIBLIOTHÈQUE NATIONALE







[illegible]

صورة الورقة الأخيرة من مخطوطة باريس الثانية المتضمنة لقسم المراثي

LA BIBLIOTHÈQUE NATIONALE في المكتبة الوطنية

مخطوطة لندن الأولى: رقمها في المكتبة البريطانية (THE BRITISH LIBRARY) هو

٩٦٨١.

صُوِّرت على فيلم ونحن تولينا تكبيرها وإظهارها. ويبدو أن الذين نسخوا هذه المخطوطة لم يشاؤوا نسخها كاملة، وإنما كانوا يختارون ما يرونه المناسب والأهم في نظرهم، فلقد بدؤوا بحديث (بدء الوحي) وهو الأول عند المؤلف، ونسخوا الثاني وهو (حلاوة الإيمان)، والثالث وهو (حديث عبادة بن الصامت في البيعة)، ثم توقفوا عن نسخ ما بعدها، ثم اختاروا من بقية الكتاب حديثين: حديث الإفك وحديث الإسراء والمعراج، وانتقوا جزءاً صغيراً من المرائي لا يزيد على سبع.

كان نسخ هذه المخطوطة أكثر من واحد، فلقد تغير الخط في الورقة ١١٧ عند حديث الإسراء والمعراج، كما توقف التعليق والتصحيح والمقابلة.

تحتوي المخطوطة على ١٦٠ ورقة، (غير المرائي) في الورقة الواحدة ٢٧ سطراً، وفي السطر

١٤ كلمة.

الورقة الأولى فيها اضطراب، إذ تجد في القسم العلوي منها جزءاً من حديث الإسراء والمعراج، وفي النصف الثاني قول الناسخ في أول مقدمة ابن أبي جمرة: (قال الشيخ الفقيه الإمام الحجة العارف الولي المكاشف الصوفي المحقق الثقة العدل الجامع الذي اشتهر فضله وانتشر في الأنام دينه وعدله سيدنا ووسيلتنا إلى ربنا الشيخ العلامة أبو محمد عبد الله بن سعد بن أبي جمرة الأزدي نفعنا الله به ورضي عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثواه. الحمد لله الذي فتق ظلمات جهالات القلوب . . . )

تمتاز هذه النسخة في مقدمتها وفي الأحاديث الثلاثة الأول بميزة المقابلة والتصحيح التي لا تخلو منها صفحة من الصفحات. أما القسم الثاني الذي أشرنا إليه ففيه نقص عن الأصل، وفيه سطور كثيرة غير واضحة، ولا سيما صفحات المرائي، وكانت إحداها بيضاء.

\*\*\*\*









صورة الورقة الأخيرة من مخطوطة لندن الأولى المتضمنة لقسم المراتي  
 في المكتبة البريطانية THE BRITISH LIBRARY

مخطوطة لندن الثانية: رقمها في (THE BRITISH LIBRARY) هو: ٨٣٩.

صورت هذه المخطوطة على فيلم، ونحن تولينا تكبيرها وإظهارها.

تحتوي هذه النسخة على ٢٣٢ ورقة، كتبت بخط شرقي واضح، وكل ورقة فيها ٢٣ سطراً، وفي السطر الواحد حوالي ١٣ كلمة.

هذه النسخة ناقصة، إذ بدأت من الحديث ١٢١ الذي عنوانه (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم) إلى الحديث ١٦٣ الذي عنوانه (صفة مجيء الوحي للنبي ﷺ). وقد كتب الناسخ في آخر ورقة: (تم الجزء الثاني من كتاب بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وعليها... شرح البخاري [المسما] بجمع النهاية).

أما التعليقات والمداخلات والتصحيحات فقليلة جداً، كذلك لم نثر على تاريخ نسخها، ولا نعتقد أنها قديمة جداً، لا تبعد عن القرن الحادي عشر الهجري.

سُطرًا واحدًا من السُّطر وهو السُّطر الرابع: نؤمن بولادة  
رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نصدّقوا أهل الكتاب ولا يكذبوهم  
أخذت هذا الحديث بدلًا من تصديق أهل الكتاب وتكرارهم  
ثم الكلام عليه من وجوه الأول من الذي عام في كل ما يدعوهم في كسب  
وعبروا من الشبهات أو هو خاص بما يدعوهم في كسب ما لا يحسن  
الوديع من الكرامات الحديث منقضي أن المراد به ما يدعوهم في كسب  
لأنه عليه السلام قال بعد المعركة: يا أيها الناس يا أيها  
الذين آمنوا من المؤمنين والذين آمنوا من المؤمنين يا أيها  
النور والذين آمنوا من المؤمنين يا أيها الذين آمنوا من المؤمنين  
فروا شياؤا دعوا أنه من النور أو الالحاح استحل أن يكون  
ذلك شياؤا لا هم لم يسلوا الكتاب كله وإنما بدلوا بعضه واحتجوا  
أن يكون ذلك مما يدكوه وغيره فلما أن حصل الرخص معانع عليه  
السلام التصديق لهم حذر من أن يسبب به عمل ما يقتله ومنع  
السُّدب حذر من أن يكذبوا سلام الله على أكاره أو أكاره حقا  
وبه يستدل ذلك رعي على القول بشد الدريعة وقد منع عنها  
بعد منهم من واحد كان ذلك في كسبهم أو غير ما مع الحديث قد  
أخطوا من الإشارة إلى ذلك ووجه المنع من تصديقهم في كل ما يأتون  
به أنه لما أن أخطوا بالاول وهو دسهم وكسبهم الذي أنزل عليهم فكدروا  
ببعضه أو الحق كيف تصدقوا لا غير فان هذا الحديث على  
العموم من غير تقييد على ما دعت إليه بعض الفتا فلا يجب وأن  
جملناه على الخصوص لمعناه عليه السلام وقولوا ما يابسه وما أنزل  
اليكم كان الحق ما ذكرناه لمحصل من كل الوحي العموم لعدم صلاهم  
في الاملا وهذا هو الحكم وعليه عمل السلف وتداخا اليوم بعض



صورة الورقة الأولى من مخطوطة لندن الثانية ذات الرقم ٨٣٩

في المكتبة البريطانية THE BRITISH LIBRARY



مخطوطة حلب: رقمها في المكتبة الأحمدية ٢١٥/ خاص.

تتألف هذه المخطوطة من جزأين كبيرين، أوراقهما ٣٨٤ ورقة، وفي الورقة صفحتان، أي أن مجموع صفحات المخطوط ٧٦٨ صفحة. في الصفحة ٣٣ سطراً، وفي السطر من ١٩ إلى ١٤ كلمة.

الخط نسخي واضح، أقرب ما يكون إلى الخط الجميل، كما أن هذه النسخة تكاد تكون كاملة نسبياً، وليس على هوامشها تعليقات كثيرة، ولا مقابلات، أو قراءات، إلا ما ندر.

من سماتها: أن ناسخها جعل ألفاظ الحديث بحجم أكبر من بقية الشرح ليميزه، وأنه - وأعني الناسخ - كما يبدو لي، لم يكن متعلماً بشكل كافٍ، وإنما كان مجرد ناسخ أو ناقل، ذلك لأن الأخطاء الإملائية، والنحوية، بل تركيب الكلمات، كان فاحشاً، مما يدل على أنه كاتب شبه جاهل.

زد على ذلك أنه كان يقفز قفزات كبيرة في نقل الشرح، ولا يبالي إن تم تركيب الجملة أو لم يتم، ويا ليت القفز كان في بعض الكلمات فإن الأمر حينئذ يهون، لكن القفز كان في عدد كبير من الصفحات قد يصل أحياناً إلى تسع وعشرين صفحة من النسخة المطبوعة دفعة واحدة، وكذلك كان في أحاديث كاملة متناً وشرحاً مثل حديث (عمرة في حجة).

تاريخ نسخ الجزء الأول كما سُجِّل في آخر ورقة كان سنة ١١٦٦ هـ. ولم يذكر الناسخ اسمه.

أما الجزء الثاني فقد كان غلافه كغلاف الجزء الأول، كتب الناسخ عليه: (كتاب بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وعليها. تأليف الإمام العالم العلامة ولي الله [أبو] محمد عبد الله بن سعيد بن أبي العباس ابن أبي جمرة الأزدي رحمه الله تعالى ورضي عنه بفضله، وهو شرح مختصر صحيح البخاري، رحمه الله تعالى، آمين).

والشيء الذي قلناه عن الجزء الأول ينطبق على الجزء الثاني.

وختم الناسخ هذا الجزء بما يلي: تمّ جميع الديوان المسمى ببهجة النفوس [وتحليتها] بمعرفة ما لها وعليها شرح مختصر البخاري المسمى بجمع النهاية في بدء الخير والغاية مما عني بجمعه الشيخ الإمام العلامة أبو محمد عبد الله بن سعيد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي، رضي الله عنه، ورضي عنا به، آمين.

جزاهُ اللهُ خيراً من تأملٍ صنعتي      وقابلَ ما فيها من السهو بالعفو  
وأصلحَ ما أخطأتُ فيها بفضله      وفطنته، وأستغفرُ الله من سهوي

وكان الفراغ من هذا الشرح المبارك يوم السبت ختام شهر ربيع الآخر من شهر سنة سبع وستين ومائة وألف، على صاحبها أفضل الصلاة، على يد أفقر العباد إلى ربه، المضطر إلى عفوه

• • • •

۱۵، < خاص

۳. باب ۲: عناصر

ما فيها وعليها تاليف الامام العالم العلامة

ولمّا انشأ أبو محمد عبد الله بن سعيد بن أبي العباس

ابن أبي حمزة الأزدي رحمه الله تعالى

ورضى عنه بفضله

وهو شرح مختصر

الإمام الغزالي رحمه الله

الشيخ

ایضاً:



ذات الرقم ٢١٥ خاص

ض



بسم الله الرحمن الرحيم  
 في بيان ما كان عليه حال المسلمين في زمانه  
 من قسوة القلوب وقسوة الألبان  
 وقسوة الأسماع وقسوة الأبصار  
 وقسوة الأفعال وقسوة الأقوال  
 وقسوة الأفعال وقسوة الأقوال  
 وقسوة الأفعال وقسوة الأقوال

بسم الله الرحمن الرحيم

قال سيدنا مولانا العبد المذنب العلامة والي الله أبو محمد عبد الله بن سعيد بن أبي الحسن  
 ابن أبي جعفر الأزدي رحمه الله تعالى وحسن عنه بفضله ومنه أمين الحمد لله الذي  
 وفق رفق ظلمات جهالات القلوب بيد أنوار مكات سحرات آثار النبوة الهاشمية القرشية  
 القاسمية الهديفة فكشف لنا على حقائق حواهرها وأغوارها من حسن حكمتها لها بما به  
 برتبه التي علمها لعباده وأطلعها بصديق فضلها على من غيبه والعدنان اتبع ما به  
 تسبها وحظيرها من فضله عليهم وعلى خير ما نزل من كتابها وأمرها من نفعه  
 وطوبى له فمنها نصالحها ومنها معقها بطنا وبياشارها رقيقة وبشارة فائقة شريفا  
 من فروعها ما بها إشارة تتبعها إشارة ويصدق بعضها حسنا يتبع الفرج بعد العودا  
 وتتهج النورس بحسن أخبارها سابقا وبقفا وجميعها تصدقها الوعد من لا يخلف وعدا  
 أخبر عن رجلها التزويل وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه  
 وحسنهم بنصرته وجعلهم للخيرات وموجباتها أصلا وزعا فقال عز من قائل وكانوا أنس بأرضها  
 صلاة تفوق الشمس وتلو المسك عرفان القرآءة وحسننا ما أدرى المؤمنين في الحسن شدة لفتنة  
 المؤمن بالأسوة والمودع وعلى ما بهد فلما كان من تفتن ما ودعاه برزايح لكتاب الله  
 حينئذ جمع الهبة في يد الغيرة الحفائية إشارة إلى كثرة ذلها لعلها في جبر معاشه وكنز عزه  
 على بينة الانساج خير من يكون في ذلك لصلته وهذا أمر وفاته فان كان قايده النمار يطيقا الأمر  
 ويعرف بحسبه ضد الغلبة بل الغلبة الغلبة ولما كان الأنا مصلح الصلح وهو الغار في حمة الله  
 فمجدد لكل صفة عليه كسب الهبة بأولئك كسب الحديث الواحد في أمية شتى من أوله بالفتح  
 وفي كمالها بفتح الحجة اليه فزيت من كمال حديث من تلك الأحداث التي جمعت بنفسه منها  
 باب ومولف في باب من تلهه قلة الحديث والأول التي تفرق من وجوه تتبعه ثم تتبع  
 القاطع الحديث لا تقبس من كانت تلك الألفاظ العنيفة الزلا لا يكون شذوذا الظاهرية القواد  
 لأن على الصلاة واللا لا يكون منه زيادة مفرقا ونقصا من تحت المعنى مفيدة لا لا ينطق  
 عن الطوى ولذلك قال جلالها لا ينقل الحديث إلا بالافعال والاكما ينقل الكتاب العزيز لا ينقل عن الله  
 امل حتى يأسف تلك وهو القرب لو طهرت عليه السلام في سنة انه أخبر به عن الله عز وجل من غيبه

صورة الورقة الأولى من الجزء الأول من مخطوطة المكتبة الأحمدية بحلب

ذات الرقم ٢١٥ خاص

المكتبة النادرة التي توضع لأول مرة

ظ



رقم اللبنة الأحمديّة  
٢١٥، خاص

### الجزء الثاني من

كتاب برهجة النفوس وتحليتها بمعرفة  
مالها وما عليها تأليف الدمام العالم المبرور  
ولي الله أبي محمد عبد الله بن سعيد بن أبي  
العباس بن أبي حمزة الأزدي رحمه الله  
ورضى عنه بفضلته وصوابه شرع مختصر  
صحيح الدمام البخاري رحمه الله تعالى  
آمين

صورة الورقة الأولى من الجزء الثاني من مخطوطة المكتبة الأحمديّة بحلب  
ذات الرقم ٢١٥ خاص

ورحمته من سمعها وقراءه فامن بها على من آمن بها من المؤمنين آمين يا رب العالمين  
 وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم والى رفع اللهم انت سنتك عليهما  
 الشريخ واخبرني في النور انك اخبرني به ادعوك الى الصلوة والسلام قبل موتك  
 لاني اني انزل الاخف واجعل لي حجة ولا تجعل حجة علي في جعل النور من انوار النور  
 واجعل لي قراءه او سمعها وتمكك نور انما الى يوم القيمة ولا تعلم انك ببيتك  
 اياه واحرمه من بركته وتمكك ولا تعلم انك ببيتك فاعمل لي حجة واجعل لي  
 دليلا ما كان الحق قابلا ليدعوني لانا في قلوبنا ونور القلوبنا وانا افضل من الدنيا  
 والاخرة واجعلنا من رحمتك ولا تجعلنا من حرمتك واعد علينا بركته في الدنيا  
 والاخرة برحمتك يا رحيم الرحمن وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم  
 تسليما وهذا الدعاء الاخر هو بركته مولانا سبحانه والنور لله من انوار النور  
 فرغ من الكتاب وامر ان يخبر به الكتاب بعد ان عده بفضله من الخير والبر والهدى  
 وعلى من قرأه او عمل به او سمعته او تمكك حسب ما هو مكتوب في الكتاب في الدنيا والاخرة  
 هذا الشريخ وقد جعلت لك كتابا خاصا به جعله الله نعمة تامة بمنه وصلى الله  
 على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم **جميع الديوان الحسيني حجة**  
**النفوس وتخليتها بمعرفة ما لها وما عليها شرح مختصر النجاشي**  
 المستخرج النجاشي في ديوان الغاية ما عني به من الشرح الامام العلامة ابو محمد  
 بن سعيد بن ابي جعفر الانباري لا تدلي به في شرفه وصحة ما به امين  
 جز الله خير من تامل صنعتي وقابل ما فيها من السهول والعفوي  
 واسلم ما اختلف فيها بفضله وقضته واستغفره من ذنوبه  
 وكان الفراغ من هذا الشرح المبارك يوم السبت ختام شهر ربيع  
 الاخر من شهر ربيع سنة سبع وستين ومائة والف على صلوات  
 افضل الصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله والى المصطفى العفو ورحمة الله  
 الناطقة عليه جوارحه بشوه عمل الفقير الحق نفسه برحمته وحسنه الفقير الحق  
 ابراهيم محفوظ بن محمد بن ابراهيم بن حافظ الدين بن حسن الدين السروي الخافعي المقدسي  
 الحنفية هذا فقره له ولوالديه ولزواجه ودعاه  
 وكل المسلمين وتاب الله عليه قبل ان يتوفاه  
 وتلافاه اذا اقترب الموت لا يناله فاه  
 وصلى الله على سيدنا محمد سيد  
 الكونين والقلين وآله  
 وصحبه وسلم  
 واجعله  
 آمين

صورة الورقة الأخيرة من الجزء الثاني من مخطوطة المكتبة الأحمدية بحلب  
 ذات الرقم ٢١٥ خاص

## المطبوعة المصرية

تقع هذه النسخة في أربعة أجزاء، الأول فيه ٢٣٦ صفحة، والثاني كذلك، والثالث ٢٣٨، والرابع ٢٩٢ صفحة. وتضم الصفحة الواحدة ٢٦ سطراً، والسطر فيه حوالي ١٨ كلمة.

طبعت هذه النسخة في (مطبعة الصدق الخيرية) بالقاهرة سنة ١٣٥٥ هجرية، وقام على تصحيحها ومقارنتها بنسخة مخطوطة موجودة برواق المغاربة بالجامع الأزهر، ونسختين أخريين كانتا في مكتبة الأزهر كذلك: إسماعيل بن عبد الله المغربي الصاوي، المشرف على طباعته، ويشيد إسماعيل بمعاونة الشيخ الهادي عبد القادر التونسي، والشيخ عبد الصمد الحسيني السنان الأزهرى له أثناء عمله فيه، كما ذكر في آخر صفحة من الجزء الرابع.

ثم جاءت (دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ببيروت) فصوّرت المطبوعة المصرية مرة بعد مرة، ونشرتها بين الناس، ولم تحذف كلمة إسماعيل بن عبد الله المغربي الصاوي، المشرف على الطباعة، والملتزم لطبعه كما هو شأن كثيرين من الناشرين المصوّرين اليوم.

تمتاز هذه النسخة بقلّة الأخطاء، وبكثير من الدقة والعناية، وهذا لا يعني أنها خلت تماماً من الهنات والأوهام، كما أنها صدرت على النسق القديم من الطباعة، فلا إشارات ترقيم، ولا ما يدلّ على بدء مقطع أو نهايته، فالكلام كله متصل متلاحق متتابع، ومثل هذه الصورة من الكتب تتعب القارئ، وقد ترهده بمتابعة القراءة، أو تضيع عليه الكثير من الفوائد في الكتاب.

## منهج التحقيق

اعتمدت بادية ذي بدء على المطبوعة المصرية، وجعلتها أساساً في العمل، لما فيها من جهد ودقة ووضوح

ثم بدأت أقارن أحاديث (جمع النهاية) التي كانت أساس (بهجة النفوس)، ومدار شرح ابن أبي جمرة، بمثيلها في صحيح البخاري، خشية أن يكون في النقل أو في الطبع شيء من الغلط.

وحين انتهيت من هذه المرحلة انتقلت إلى العملية الثانية الأكبر، وهي مقارنة المطبوعة بالمخطوطات، التي كانت بحوزتي، واحدة بعد أخرى، وسجلت الفروق الصغيرة والكبيرة بينها، دون أن أهمل شيئاً، حتى ولو كان نقطة أو حرفاً بزيادة أو نقص. واستغرقت هذه العملية ما يزيد على ثلاث سنوات، بمعدل عشر ساعات في اليوم الواحد.

وجاءت المرحلة الثالثة، وهي اختيار الأصحّ والأقوم بين مختلف الفروقات. وباعتقادي أن هذه العملية شديدة الخطر، وفيها غير قليل من المزالق، إذ قد يكون المؤلف أراد شيئاً ونحن اخترنا شيئاً غيره، ثم نقول: إنه مراد المؤلف. وهنا تكمن خطورة هذه المرحلة.

في عملية الاختيار درست أسلوب ابن أبي جمرة دراسة متأنية، وسجلت مميزات من خلال قراءتي لبهجة النفوس قبل عملية الاختيار والترجيح، وعرفت طريقته في الشرح والمعالجة لكافة القضايا التي يدور بحثه حولها، من تحليل، واستنباط، ومقارنات، وتصوف، وأصول، ونسب، وإرشاد، وغير ذلك.

ولقد ساعدتني هذه الدراسة كثيراً، وكشفت لي الطريق عند اضطراب النسخ واختلافها الكبيرة، وأعانتني على الترجيح.

ولا أزعج أنني لم أخطئ في اختياري أو في ترجيحي، فلقد أكون أخطأت كثيراً، وابتعدت عن الحقيقة، ويشفع لي أنني اجتهدت صادقاً، وعملت مخلصاً، وكنت محباً لابن أبي جمرة، مريداً أن يظهر كتابه للناس خالياً من الأخطاء، قريباً من الشكل الذي كتبه بيده، أو محاذراً للشكل الذي دونه. ومثل هذا الحب يدفع إلى الإخلاص، ويستنهين بالجهد، والوقت، والنعيب، والغالي، والنفيس.

ولم أكتف باجتهادي وحده، وإنما رجعت إلى العلماء الموثوقين، وعرضت عليهم العمل كاملاً، وحين كان يختلف اجتهدانا نتشاور، ونتناقش حتى نصل إلى قناعة ترضينا جميعاً.

وأخيراً، لست أدري ماذا أسمي عملي في بهجة النفوس، أهو تحقيق، والمهد بالتحقيق أن يسجل المحقق اختلاف النسخ في هامش كل صفحة، ولم أفعل أنا هذا، ولم أسجل أي اختلاف، ولا أشرت إلى نسخة مما كان بين يدي، أم أسميه مقارنة، أم مراجعة، أم تصحيحاً، أم تحديداً، أم شيئاً آخر؟

في الحق كنت مهتماً أن أظهر هذا الكتاب الذي أحبيته إلى الناس صحيحاً، سهل القراءة، محبباً إلى العين، كما هو محبب إلى النفس، ليقراه العالم والمتعلم، والصغير والكبير، والعربي والمستعرب، والقاصي والداني، فيستفيد منه الخلق جميعاً، ويكتب الله لي بقراءتهم واستفادتهم حسنات بعد حسنات، وأجرأ فوق أجر، ويمرّ الزمان، وتتوالى الأيام والسنون والدهور ويبقى بهجة النفوس من العمل الخالد الذي لا ينقطع أجر صاحبه إلى يوم القيامة، وأكون أنا تحت لواء هذا العمل المأجور إلى يوم القيامة، وكفاني بذلك فخراً، وحسبي من الله أن يرضى عني، وعن والدي، وذريتي، ومن كان له فضل عليّ إلى يوم الدين.

اللهم إني أتوسل إليك أن تقبل هذا العمل، وتجعله في صحيفتي وصحيفة أبوي، ويكون لي شاهداً يوم الحساب، لا عليّ، إنك سميع قريب مجيب. وصلّ اللهم على سيدنا ومولانا وحبيبنا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلّم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

حلب المحروسة: ١٦ ذو الحجة ١٣١٥ هـ/ الموافق ١٦ أيار (مايو) ١٩٩٥ م.

# كتاب بهجة النفوس

وتحليها بما لها وعليها  
للشيخ عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي

الكتاب النادر الذي تفرغ له المؤلف





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبالله أستعين  
وصلّى الله على سيّد المرسلين

﴿ رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَّنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾<sup>(١)</sup>

قال سيّدنا ومولانا العُمدَةُ العَلّامة العالم البارِع، وليُّ الله الشيخ أبو محمد عبد الله بن سعد بن أبي العباس ابن أبي جمرة الأزدي، نفعنا الله به ورضي عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثواه:

الحمد لله الذي فتق رَتَقَ ظلمات جهالات القلوب، بيد أنوار بركات معجزات آثار النبوة، الهاشمية القرشية، القاسمية المحمدية، فكشف لنا بمدلولات جواهر دُرر ألفاظها، عن حُسنِ حكمة خالقها، بما به تَعَبَّدَ بَرِيَّتُهُ، التي خلقها لعبادته، وأطْلَعَهَا بِصَدَقِ نَقْلِهَا عَلَى جُمْلَةٍ مِنْ غَنِيهِ، وما أَعَدَّ لِمَنْ أَتْبَعَ ما به تَعَبَّدَهَا مِنْ عَظِيمِ إِحْسَانِهِ عَلَيْهِمْ وَإِنْعَامِهِ، وعلى خطير ما تَوَعَّدَ به لِمَنْ كَذَّبَ بِهَا أو تركها مِنْ نِقَمِهِ وَعِقَابِهِ؛ فَمِنْهَا ما كان نَصّاً ظاهراً، أو معنى باطناً، بادياً بإشارة راقية، وبشارة فائقة، ثمر لسامعها من فنون معانيها، بشارة تتبعها بشارة، ويصدق بعضها بعضاً، تُهَيِّجُ الْفَرَحَ بَدْءاً وَعَوْدًا، وتبهج النفوس بحسن أخبارها مساقاً ونظماً، وجاءت جميعها تصديقاً لوعده من لا يُخْلَفُ وَعْدًا، كما أخبر، عز وجل، في محكم التنزيل ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> صلّى الله عليه وعلى من اختارهم لصحبته، وخصَّهم بِنُصْرَتِهِ، وجَعَلَهُمُ لِلْخَيْرَاتِ وَمَوْجِبَاتِهَا أَصْلًا وفرعاً، فقال عز من قائل: ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾<sup>(٣)</sup> صلاة تفوق الشمس نوراً، والمِسْكُ عَرْفًا، والقمر بهاءً وحُسْنًا، ما دام للعيون في الحُسْنِ شُغْلٌ، وللقلوب إلى الخير مَيْلٌ. وسلّم ووالى، ورفع وأعلى.

أما بعد، فلمّا كان من متضمّن ما أودعناه برنامج الكتاب الذي سَمَّيناه: «جَمْعُ النّهَايَةِ فِي بَدْءِ

(١) سورة الكهف، من الآية ١٠.

(٢) سورة الأنبياء، من الآية ١٠٧.

(٣) سورة الفتح، من الآية ٢٦.

الْخَيْرُ وَالْغَايَةُ<sup>(١)</sup>» إشارة إلى تكثير فوائد أحاديثه، وتعميم محاسنه، وكنت عرّضت على تبيينه، لأن أُتبع خيراً بخير، فيكون ذلك أصله، وهذا ثمره. فإن كمال فائدة الثمار باجتماع الثمر. ويعرف مجتنبه قدر الفائدة، بل الفوائد التي فيه. ولما كان الإمام صاحب الأصل، وهو الحديثي، رحمه الله، قد جعل لكل وجه مما يدل عليه الحديث الواحد باباً، ولربما كثّر الحديث الواحد في أبواب شتى مراراً، ولربما قطع الحديث الواحد، وأتى في كل باب منه بقدر الحاجة إليه، رأيت أن أحمل كل حديث من تلك الأحاديث التي جمعت قائماً بنفسه مقام باب، وهو باب «أني باب» ومقتضاه ظاهر الحديث، والأبواب التي تنفرع منه وجوه تتبعه.

ثم تتبعت ألفاظ الحديث، لأقتبس من بركات تلك الألفاظ العذبة الزلال، ما يكون منه رزقاً لظم جهالات الفؤاد، لأنه، عليه الصلاة والسلام، لا يكون منه زيادة حرف، أو نقص حرف من الحروف، إلا لمعنى مفيد، لأنه لا ينطق عن الهوى. ولذلك قال جلّ العلماء: لا ينقل الحديث إلا بالفاء والواو، كما ينقل الكتاب العزيز. لأنه كله عن الله، إما وحي بواسطة الملك، وهو القرآن، أو ما أخبرنا عليه السلام في سنته أنه أخبر به عن ربه، جلّ جلاله، من علم غيبه، وإما وحي إلهام، وهو السنة. وقد جعل، عز وجل، ذلك حكماً نافذاً. فقال تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتَكَ اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup> في عموم ما أنزل عليه، وفيما يظهر له على المشهور من الأقاويل وأرجحها. وقالت طائفة من العلماء: يجوز نقل الحديث بالمعنى، بشرط فهم المعنى. وما يعرف حقيقة ما ذكرناه عن جلّ العلماء والأظهر من القولين اللذين أشرنا إليهما إلا الصحابة، رضي الله عنهم، وأئمة الدين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم كانوا إذا وقع لأحدهم شك في صيغة اللفظ، وإن كان لا يخل بالمعنى، يبدون ذلك فيقولون: إخاله كذا، أو أظنه كذا، ولا ذاك إلا من وجهين:

أحدهما: الصدق في النقل.

الثاني: المحافظة على بركة ذلك اللفظ الخاص، لئلا تفوتهم بركته.

ومثل ذلك ما حكى عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، أنه أدار راحلته بموضع في طريق الحجّ، فسئل: لم فعل ذلك؟ فقال: لا أعرف، إلا أنني رأيت رسول الله ﷺ، فعل ذلك، ففعلت.

(١) اقتبس فيه من صحيح البخاري ثلاثمائة حديث غير بضع. وأولها حديث (كيف كان بدء الوحي لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ) وآخرها حديث (دخول أهل الجنة وإنعام الله عليهم بدوام رضاه فيها). وكان عنوان الكتاب يشير إلى هذه البداية الخيرة والنهاية السعيدة.

(٢) سورة النساء، من الآية ١٠٥.

كما فعل<sup>(١)</sup>، فكانت ألفاظه وحركاته، عليه السلام، كلها عندهم بركاتٍ وأنواراً. وكيف لا؟ وقد حضر، عز وجل، على ذلك في مُحْكَم كتابه، وَبَّه عليه حيث قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup>. وعموم الأمر بالاتباعية يقتضي حقيقة الاتباع في الدق والجَل من الفعل والقول وغير ذلك، وهذا النوع من أفعال الصحابة كثير، وَمَنْ تَتَّبَعَهُ وَجَدَهُ.

وأما أئمة الدين، رحمهم الله، فإنهم كانوا يحترمون الحديث أعظم الاحترام، حتى إنه كان عندهم مثل القرآن، يستنبطون من ألفاظه وحروفه أحكاماً، وأي أحكام؟ وعليها يبنون قواعد مذاهبهم.

أما احترامهم للحديث فمثل ذلك ما حُكي عن مالك، رحمه الله، حين أتاه الخليفة إلى بيته، فأبطأ عليه بالخروج، فلما أن خرج قال الخليفة: يا مالك، ما زِلْتَ تُذِلُّ الأمراء. فقال: لا، والله، إلا أنني سمعتك، فعلمتُ أنك لم تأتِ إلا لتسألني عن الحديث، وكنت على غير طهارة، فكرهتُ أن أتكلَّم فيه، وأنا على غير طهارة، فما عملتُ شيئاً إلا أن توضأتُ وخرجتُ.

ومن ذلك أيضاً ما حُكي عنه أنه إذا طلبه الفقهاء لأن يدرّسهم يسألهم: ماذا تريدون؟ فإن أخبروه أنهم يريدون الفقه خرج على الحالة التي يجدونه عليها. وإن أخبروه أنهم يريدون الحديث تطهَّر وتطيَّب، ولبس أحسن ثيابه، وتبخَّر بالمسك والعود، ثم جلس للحديث. ومثل هذا عنه كثير؛ فلما كان شأنه التعظيم لهذا سَمِيَ أمير المؤمنين في الحديث.

وأما استنباطهم للأحكام من ألفاظ الحديث وتتبع فوائده فمثل ذلك ما رُوي عن مالك، رحمه الله، في الأحكام التي استخرج من قوله عليه السلام: «إِذَا وَقَعَتِ الْخُدُودُ، وَصُرِفَتِ الطُّرُقُ، فَلَا شُفْعَةَ»<sup>(٣)</sup>، فأخذ مالك، رحمه الله، من هذا الحديث ثلاثة أحكام:

الأول: أن الشُّفْعَةَ لا تكون إلا بين الشركاء، لا للجار وإن كان ملاصقاً؛ لأنه لا يسمَّى شريكاً.

(١) رواه الإمام أحمد في المسند والبراز بإسناد جيد.

(٢) سورة آل عمران، من الآية ٣١.

(٣) رواه الإمام مالك في الموطأ مرسلاً، وابن ماجه، والبيهقي وأبو داود والترمذي في السنن والطبراني في المعجم الصغير وكثيرون بألفاظ متعددة. والشُّفْعَةُ لغة: الضَّمُّ. ومنه الشُّفْعُ في الصلاة، وهو ضم ركعة إلى أخرى. والشُّفْعُ: الزوج الذي هو ضد الفرد. والشُّفْعُ: الانضمام رأيه إلى رأي المشفوع له في طلب النجاح. وشفاعة النبي ﷺ للمذنبين لأنها تضمهم إلى الصالحين. والشُّفْعَةُ في العقار لأنها ضم ملك البائع إلى ملك الشفيع. وجاء في حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: الْجَارُ أَحَقُّ بِشُفْعَتِهِ، وقال في حديث آخر: جَارُ الدَّارِ أَحَقُّ بِشُفْعَةِ الدَّارِ. لكن الإمام مالك لم يثبت عنده إلا شُفْعَةَ الْأَرْضِ، بينما المذاهب الأخرى رأت أن الشُّفْعَةَ تكون في الأراضي كما تكون في الدور والبساتين وما أشبهها. وللشُّفْعَةِ أحكام كثيرة فصلتها كتب الفقه في المذاهب كلها.

الثاني: أن الشُّفعة لا تكون إلا فيما ينقسم، وما لا ينقسم لا شفعة فيه، بدليل قوله: (فإذا وقعت الحدود).

الثالث: أنها لا تكون إلا في الأرض أو ما شاكلها، بدليل قوله: (فإذا<sup>(١)</sup> صُرِفَ الطُّرُق)، لأن الطُّرُق لا تكون إلا في الأرض.

ومثل هذا عنه وعن غيره من الأئمة كثير، ومن تتبعه يجده. فبقيت النفس متشوقة على الدوام لما ذكرت أولاً، وهو أن تُلحق خيراً بخير، تتردد في ذلك تردداً تنقطع به الأيام تسويفاً، إلى أن رغب مني بعض من قرأ الأصل إبداء تلك المعاني، وما كانت النفس في ذلك أكثت. فأجبتُه إلى ذلك رجاء أن ينفعني الله وإياه بذلك، ومن قرأه بُعدُ فصدقَ ورقاً.

وهذا الكتاب يحتوي على جملي من درر فرائض الشريعة وسُننها ورغائبها وأحكامها، والإشارة إلى الحقيقة بحقيقتها، والإشارة إلى كيفية الجمع بين الحقيقة والشريعة، وتبيين الطرق الناجية التي أشار، عليه السلام، إليها، والإشارة إلى بيان أضرارها، والتحذير منها، وربما استدلتُ على بعض الوجوه التي ظهرت من الحديث بأي وبأحاديث تناسبها وتقويها، فمنها باللفظ، ومنها بالمعنى. وأتبعُ ذلك بحكايات ليشحذ الفهم بها، وليتبين بها المعنى. وربما أشرتُ إلى شيء من توبيخ النفس على غفلتها؛ لعلها تنتهي عن غيها.

وأودعت فيه شيئاً من بيان طريقة الصحابة وآدابها، وما يستنبط من حسن عباراتهم، وتحرزهم في نقلهم، وحسن مخاطبتهم، وما يُستنبط من ذلك من آداب الشريعة إذا تعرض لفظ الحديث لشيء من ذلك؛ لأنه لا ينبغي أن يُغفل عن شيء من ذلك، لأنهم هم الصفوة المقربون، والخيرة المرفوعون. وقد قال العلماء في معنى قوله تعالى ﴿وَرَتَّبَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُولَوْهُ مَا قَوْلٌ﴾<sup>(٢)</sup> إن المراد بذلك: الصحابةُ والصِّدِّيقُ الأول، لأنهم هم الذين تلقوا مواجهة الخطاب بذواتهم السَّنيَّة وانتفعوا بحسن السَّؤال عما وقع في النفوس من بعض الإشكال، فجأوبهم عليه السلام بأحسن جواب، وبيَّن لهم بآتمَّ تبيان، فسمعوا وفهموا، وعملوا وأحسنوا، وحفظوا وضبطوا، ونقلوا وصَدَّقُوا؛ فلهم الفضل العظيم علينا، إذ بهم وُصِّلَ حبُّنا بحبل سيدنا محمد، ﷺ، وبحبل مولانا، جَلَّ جلاله، فلهم اليدُ العليا حقاً وسَبْقاً. فجزاهم الله عنا أفضل ما جزى محسناً قد أحسن. وكيف نغفل ألفاظهم وما قلنا العُشر مما يجب علينا؟

(١) كذا.

(٢) سورة النساء، من الآية ١١٥ وتامها: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُولَوْهُ مَا قَوْلٌ وَنُصْلٍ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

وإن ملحد تعرّض إليهم، وكفر نعمةً قد أنعم الله بها عليهم، فجهل منه وحرمان، وسوء فهم وقلة إيمان؛ لأنه لو كان يلحقهم تنقيص لما بقي في الدين ساق قائمة، لأنهم هم الثقلّة إلينا. فإذا جرح الثقلّة الكرام دخل في الأحاديث والآي الأمر المَخُوف الذي به ذهاب الأنام؛ لأنه لا وحي بعد رسول الله، ﷺ. وقد قال عز وجل في كتابه: ﴿لَا تُذِرْكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغٌ﴾<sup>(١)</sup> وعدالة المبلغ شرط في صحة التبليغ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (تركْتُ فيكم الثَّقَلَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُم بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَعِزَّتِي، أَهْلَ بَيْتِي)<sup>(٢)</sup>. فمنهم ورَدْنَا ماءَهَا السَّلْسِيلِ وعذبها الزلال. وحُسْنُ المنيع والمقر شرط في صفاء الشراب. وما أشكل على بعض الناس من بعض الآثار فلتشبيههم بنا، والجهل بطريقتهم العليا. وكيف الإشكال وقد قال عليه الصلاة والسلام: (أضحائي كالتَّجُومِ بِأَيْهِمْ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ)<sup>(٣)</sup> وما من نجم إلا وله نور وضياء؟ جعلنا الله ممن أحبهم، وأتبع طريقتهم.

وبعد هذا، فإنني ما أرى نفسي من الهفوات، لكنني جعلت قدوتي في ذلك ما قاله الإمام، وهو ابن عباس<sup>(٤)</sup>، رضي الله عنهما؛ حين سئل عن زواج التفويض إذا مات الرجل قبل الدخول، وقبل أن يفرض لها، فبقي شهراً لم يجاب في ذلك بشيء، فقليل له: يا صاحب رسول الله، ﷺ: ما لنا غيرك مجاب في المسألة. فقال: «إذا عزمتم فأجتهد». فإن أصبتُ بفضل الله ورحمته، وإن أخطأتُ فمني ومن الشيطان. وصدق الله ورسوله، ﷺ<sup>(٥)</sup>. فجعلته، رضي الله عنه وأصحابه، وسيلةً إلى الله فيما أملت، وسميتُ الكتاب (بهجة النفوس وتخليها بمعرفة ما لها وعليها). وبالله أستعين، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو حسبي ونعم الوكيل. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم أفضل التسليم.

(١) سورة الأنعام، من الآية ١٩.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند والدارمي في السنن والترمذي في السنن والحاكم في المستدرک بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي...»

(٣) أورده كثير من علماء الحديث من مثل الحافظ في التلخيص، والدارقطني في غرائب مالك، والبرزالي في مسند الشهاب، والهروي في كتاب السنة، والبيهقي في الاعتقاد، وابن عبد البر في جامع بيان العلم، والذهبي في الميزان، وابن الجوزي في العلل، والعجلوني في كشف الخفاء، وكثيرون آخرون. واتفقوا على ضعف سنده وتجريح بعض رواته. لكن اللكنوي في إقامة الحجة يرى أن الحديث بسبب كثرة طرقه وصل إلى درجة (الحسن) ولذلك حسنه الصَّغَانِي كما ذكره السيد الجرجاني في حاشية المشكاة، ويميل الشيخ عبد الفتاح أبو غدة إلى إثباته.

(٤) المسؤول عن زواج التفويض عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. انظر سنن أبي داود والترمذي والحافظ في التلخيص وعبد الرزاق في المصنف والبيهقي. والتفويض: هو الذي يكون بلا مهر.

(٥) حكم ابن مسعود رضي الله عنه في الْمُفُوضَةِ بأن لها مَهْرَ المِثْلِ. وخالفه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: لا مهر لها.



## مقدمة الإمام ابن أبي جَمْرَةَ على مختصر صحيح البخاري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حقَّ حمده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الخيرة من خلقه، وعلى الصحابة السادة المختارين لصحبته.

وبعد، فلما كان الحديث وحفظه من أقرب الوسائل إلى الله، عز وجل، بمقتضى الآثار في ذلك - فمنها قوله، ﷺ: (مَنْ أَدَّى إِلَى أُمَّتِي حَدِيثًا وَاحِدًا يُقِيمُ بِهِ سُنَّةً، أَوْ يَرُدُّ بِهِ بَذْعَةً، فَلَهُ الْجَنَّةُ) <sup>(١)</sup> ومنها قوله ﷺ: (مَنْ حَفِظَ عَلَى أُمَّتِي حَدِيثًا وَاحِدًا كَانَ لَهُ أَجْرُ أَحَدٍ وَسَبْعِينَ نَبِيًّا صِدِّيقًا) <sup>(٢)</sup>، والآثار في ذلك كثيرة. ورأيت الهمم قد قصرت عن حفظها مع كثرة كتبها من أجل أسانيدھا، فرأيت <sup>(٣)</sup> أن آخذ من أصح كتبه كتاباً أختصر منه أحاديث بحسب الحاجة إليها، وأختصر أسانيدھا ما عدا راوي الحديث، فلا بدَّ منه، فيسهل حفظها، وتكثر الفائدة فيها، إن شاء الله تعالى.

فوقع لي أن يكون كتاب البخاري، لكونه من أصحها، ولكونه، رحمه الله تعالى، كان من الصالحين، وكان مجاب الدعوة، ودعا لقارئه. وقد قال لي من لقيته من القضاة الذين لهم المعرفة والرحلة عمن لقي من السادة المقر لهم بالفضل: إن كتابه ما قرئ في وقت شدة إلا فرجت، ولا رُكب به في مركب فغرقت قط. فرغبت مع بركة الحديث في تلك البركات، لما في القلوب من الصِّدَا، فلعلَّه بفضل الله أن يكشف عما بها، وأن يفرج عنها شدائد الأهوال التي تراكمت عليها، ولعلَّ بحمل تلك الأحاديث الجليلة، تُغفَى من الغرق في بحور البدع والآثام.

فلما كملت، بحسب ما وفق الله إليه، فإذا هي ثلثمائة حديث غير بضع، فكان أولها (كيف

٧٠٠ ١٠٠ ١٠٠

- (١) رواه أبو نُعَيْمٍ في الحلية والسيوطي في الجامع الصغير والمناوي في الفيض. واتفقوا على ضعفه.
- (٢) رواه البكري في كتاب الأربعين والنووي في المقاصد والحافظ ابن حجر والبيهقي رواية عن الإمام أحمد. وطرقه كلها ضعيفة.
- (٣) كذا.

كان بدء الوحي لرسول الله، ﷺ، وآخرها (دخول أهل الجنة الجنة، وإنعام الله عليهم بدوام رضاه فيها) فسميَّته بمقتضى وضعه (جَمْعُ النهاية في بَدْءِ الخير والغاية)، ولم أفرق بينها بتسوية، رجاء أن يتم الله لي ولكل من قرأه أو سمعه بدء الخير بغايته.

فنسأل الله الكريم، رب العرش العظيم، أن يجعلها لقلوبنا جلاء، ولداء ديننا شفاء، بسمه، لا رب سواه، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين. والحمد لله رب العالمين

الكتب النادرة في تاريخ الإسلام



## حديث بدء الوحي

عن عائشة أم المؤمنين<sup>(١)</sup>، رضي الله عنها، أنها قالت: أول ما بُدِيَءَ به رسولُ الله، ﷺ، من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح<sup>(٢)</sup>، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغارٍ حراء، فيتحنَّث فيه - وهو التعبّد - الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزوّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء. قال: فأخذني فغطّني<sup>(٣)</sup> حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني. فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني. فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطّني الثالثة، ثم أرسلني. فقال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمَاءِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾<sup>(٤)</sup>. الحشر ١-٥.

فرجع بها رسولُ الله، ﷺ، يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد<sup>(٥)</sup>، رضي الله عنها، فقال: زملوني زملوني. فزملوه، حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة وأخبرها

(١) عائشة أم المؤمنين هي بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، وأمها أم رومان. كانت أفقّة نساء المسلمين وأعلمهنّ بالدين والأدب. تزوجها النبي ﷺ في السنة الثانية بعد الهجرة، فكانت أحب نساته إليه، وأكثرهن رواية للحديث عنه - روي عنها (٢٢١٠) أحاديث. توفيت سنة ٥٨ هـ / ٦٧٨ م ودفنت بالبقيع.

(٢) فلق الصبح: وضوحه وظهوره.

(٣) غطّني: ضغطني وعصرني عصراً شديداً.

(٤) سورة العلق، الآيات ١-٣.

(٥) خديجة بنت خويلد: أم المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ الأولى. نشأت في بيت شرف ويسار، وكانت أسنّ منه بخمس عشرة سنة، وهي أول من آمن به من الرجال والنساء. ولدت له القاسم وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. توفيت في السنة الثالثة قبل الهجرة بمكة المكرمة ودفنت بالمعلاة.

الخبر: لقد خشيتُ على نفسي. فقالت خديجة: كلاً، والله ما يُخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة. وكان امرأ تنصر في الجاهلية. وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ، خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى. يا ليتني فيها جذعاً، لبتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أومخرجني هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم يلبث ورقة أن توفي. وفتر الوحي.

قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي: فقال في حديثه: <sup>(١)</sup> بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ فقلت: دثروني دثروني. فأنزل الله، عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَنِيُّ قُرْآنٌ دُثِرَ رَبِّكَ فَكْذِبْ. وَيَا بَلَدَ طَهِّرْ. وَالْجَزَاءُ هَاجِرٌ﴾ <sup>(١)</sup>، فحمي الوحي وتتابع.

\* \* \*

ظاهر هذا الحديث يحتوي على فوائد كثيرة من أحكام وآداب، ومعرفة بقواعد جمّة من قواعد الإيمان، ومعرفة بالسلوك والترقي في المقامات. ولأجل ما فيه من هذه المعاني حدث به النبي ﷺ، عائشة رضي الله عنها، لتبدي ذلك للناس، لكي يتأسوا بتلك الآداب، ويحصل لهم معرفة بكيفية الترقّي من مقام إلى مقام، مع ما فيه من فائدة المعرفة بابتداء أمره عليه السلام، كيف كان؛ لأن النفوس أبداً تتشوّف <sup>(٢)</sup> إلى معرفة مبادئ الأمور كلّها، وتنشرح الصدور للاطلاع عليها، فكيف بها لابتداء هذا الأمر الجليل الذي فيه من الفوائد ما قد ذكرناه، ويُعرف منه مقتضى الحكمة في تربيته وتأديبه، ولأجل ما فيه من هذه الفوائد حدثت به عائشة رضي الله عنها، وأخذ عنها. ونحن، إن شاء الله، نشير إلى شيء منها، وننبّه عليها، بحسب ما يوفق الله إليه فنقول: الكلام عليه من وجوه:

(١) سورة المدثر، الآيات ١-٥.

(٢) تشوّف: تتطلع.

الوجه الأول: قولها: (أَوَّلُ مَا بُدِيَءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ) فيه دليل على أن الرؤيا من النبوة، وهي وحْيٌ من الله، إذ إن أَوَّلَ نبوة النبي ﷺ، والوحي إليه كان بها. وقد صرح الشارع عليه السلام بذلك في غير هذا الحديث. وسيأتي الكلام على المراتي وما يتعلق بها، والجمع بين متفقيها ومختلفيها؛ ومجموع أحاديثها في موضعه من آخر الكتاب، إن شاء الله.

الوجه الثاني: قولها: (مِثْلَ فَلَقِ الصَّبْحِ) تريد بذلك صدق الرؤيا، وكيف كانت تخرج في الحين من غير تراخ ولا مهلة، على قدر ما رآه، عليه السلام، سواءً بسواء. ولقائل أن يقول: لِمَ عُبِّرَتْ عن صدق الرؤيا بِفَلَقِ الصَّبْحِ ولم تعبر بغيره؟ والجواب: أن شمس النبوة كانت مبادئ أنوارها صحة المراتي وصدقها، فما زال النور يتشعشع ويبين حتى بدا شمسها، وهو ما أنزل عليه من الهدى والفرقان، فمن كان باطنه نورياً كان في التصديق بما أنزل بكرياً<sup>(١)</sup>، آمن وصدق، ومن كان أعمى البصيرة كان خفاش زمان الرسالة، الشمس تسطع وهو لا يرى شيئاً، فإن الخفاش يخرج بالليل ويتخبأ بالنهار، لأنه لا يبصر مع ضوء الشمس شيئاً. وبأقي الناس بين هاتين المنزلتين<sup>(٢)</sup> يترددون. كلٌّ منهم يُبْصِرُ بقدر ما أُعْطِيَ من النور. جعلنا الله ممن أجزل له من هذا النور وحسن الاتباع أوفر نصيب يمنة وبفضله. ولأجل هذه النسبة التي بين ابتداء النبوة وظهورها مع فلق الصبح وقعت العبارة به ولم تقع بغيره.

الوجه الثالث: قولها: (ثُمَّ حُبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ) فيه دليل على أن الهداية منه ربانية، لا بسبب من بشر ولا غيره؛ لأن النبي ﷺ، جُيِّلَ على الخير ابتداءً من غير أن يكون معه مَنْ يُحَرِّضُهُ على ذلك. والخلوة كناية عن انفراد الإنسان بنفسه، فحُبَّبَ إليه، عليه السلام، أصلُ العبادة في شريعته وعُمْدَتُهَا، لأنه عليه السلام قال: (الْخَلْوَةُ عِبَادَةٌ)<sup>(٣)</sup>. فالخلوة نفسها عبادة، فإن زيدَ عليها شيء من الطاعات فهو التحنُّث. ومعنى التحنُّث: التعبد، وهو نورٌ على نور.

الوجه الرابع: قولها: (فَكَانَ يَخْلُوُ بَغَارِ جِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ) التحنُّث قد تقدم الكلام عليه<sup>(٣)</sup>، وبقي هنا سؤال وارد، وهو أن يقال: لِمَ اخْتَصَرَ، عليه السلام، بغار جِراء، فكان يخلو فيه ويتحنَّث به، دون غيره من المواضع، ولم يُبَدِّلْهُ في طول تحنُّثه؟ والجواب: أن ذلك الغار له فضل زائد على غيره، من قبل أنه يكون فيه منزوياً مجموعاً لتحنُّثه، وهو يبصر بيتَ ربِّه؛ والنظرُ إلى البيت عبادة،

(١) بكرياً: نسبة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.  
(٢) لعله مستفاد من معنى الأحاديث التي تحضُّر على الخلوة، أو التي تدفع إلى العزلة في أيام الفتن. أما عبارة (الخلوة عبادة) فقد وردت في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي في بحث آداب العزلة منسوبة إلى ابن سيرين.  
(٣) التحنُّث: التعبد.

فكان له اجتماع ثلاث عبادات، وهي: الخلوة، والتحنُّت، والنظر إلى البيت وجمع هذه الثلاث أولى من الاقتصار على بعضها دون بعض، وغيره من الأماكن ليس فيه ذلك المعنى، فجمع له عليه السلام، في المبادي كلُّ حُسن بادي.

الوجه الخامس: قولها: (وهو التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ) و (هو التَّعَبُّدُ) تفسير منها لَتَحَنُّتٍ ما هو؟ والليالي ذوات العدد، تريد به: كثرة الليالي؛ لأن العدد على قسمين: عدد فتن، وعدد ذنوب، وبمجموع القلة والكثرة يكون فيه ليالي كثيرة. فلذلك كتبت عنه به (ذوات العدد) أي مجموع أقسام العدد، وهي مجموع القلة والكثرة.

الوجه السادس: قولها: (قَبْلَ أَنْ يَتَزَعَ إِلَى أَهْلِهِ) تريد: قبل أن يرجع إليهم، فم، ير، عليه السلام، في التَّعَبُّدِ، الليالي المذكورة، حتى يرجع إلى أهله.

الوجه السابع: فيه دليل على أن المستحب في التَّعَبُّدِ أن يكون مستمراً، لأن الشيء، يستمر، كان يستمر على عبادته تلك، ولم يقطعها إلا لما لا بد منه، وسيأتي الكلام عليه؛ ولأن التَّعَبُّدَ إن لم يكن مستمراً فلا يقال لصاحبه: متَّعِبِدٌ، لأنه لا ينسب المرء إلا إلى الشيء الذي يكثر منه.

الوجه الثامن: قولها: (ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا) فيه دليل على أن التَّبَثُلَ<sup>(١)</sup> الكلِّي والانتقطاع الدائم ليس من السنَّة، لأنه، عليه السلام، لم يقطع في الغار ويترك أهله بالكلية، وإنما كان: عليه السلام، يخرج إلى العبادة تلك الأيام التي يتحنُّت فيها، ثم يرجع إلى أهله لضرورتهم، ثم يخرج لتحنُّته. وقد نهى، عليه السلام، عن التَّبَثُلِ في غير هذا الحديث، فقال: (لا رهبانية في الإسلام)<sup>(٢)</sup>. وهذا النهي إنما هو فيمن اتخذ ذلك سنَّة يُسَنَّ بها. وأما من تبثَّل لعدم القدرة على التأهل من قِلَّةِ قَلَّةِ ذات اليد، أو عدم الموافقة<sup>(٣)</sup>، فلا يدخل تحت هذا النهي.

الوجه التاسع: فيه دليل على أن العبادة لا تكون إلا مع إعطاء الحقوق الواجبات وتوفيتها<sup>(٤)</sup>؛ لأنه، عليه السلام، لم يكن ليرجع لأهله إلا لإعطاء حقهم. فكذاك غيره من الحقوق يجب إعطاؤه وتوفيته، وحينئذ يرجع إلى المندوبات.

الوجه العاشر: فيه دليل على أن الرجل إذا كان صالحاً في نفسه، تابعاً للسنَّة، يُرجى له أن

(١) التَّبَثُلُ: التفرغ لعبادة الله تعالى.

(٢) نقل المطيعي في تكملة لمجموع الإمام النووي أن الحافظ ابن حجر قال: لم أره بهذا اللفظ. وأورده الطبراني عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه والإمام أحمد في مسنده عن عروة رضي الله عنه، والدارمي في سننه عن سعد رضي الله عنه بغير هذه العبارة، لكن في معناها نفسه.

(٣) لعلَّه يريد عدم القدرة البدنية على النكاح.

(٤) يعني: أن العبادة لا تقبل إلا بعد توفية الإنسان ما عليه من حقوق وواجبات للآخرين.

الله، سبحانه وتعالى، يُؤنسُهُ بالمرائي الحميدة إذا كان في زمان مخالفةً وبدعٍ؛ لأن النبي، ﷺ، لما انعزل للعبادة، وخلا بنفسه آنسَهُ الله، عز وجل، بالمرائي الجميلة، لما أن كان ذلك الزمان زمان كُفْرٍ وشقاق. وسيأتي شفاء لهذا المعنى في الكلام على المرائي، إن شاء الله. فالمَتَّبِعُ للنبي، ﷺ، يُرجى له مثل ذلك أو قريب منه. أعني في المرائي.

الوجه الحادي عشر: فيه دليل على أن البداية ليست كالنهاية: لأن النبي، ﷺ، أول ما بُدِءَ في نبوته بالمرائي. فما زال، عليه السلام، يرتقي في الدرجات والفضل حتى جاءه المَلَكُ في اليقظة بالوحي، ثم ما زال يرتقي حتى كان كقَابِ قَوْسَيْنِ<sup>(١)</sup> أو أدنى، وهو النهاية. فإذا كان هذا في الرسل فكيف به في الأتباع؟

لكن بين الرسل والأتباع فرق. وهو: أن الأتباع يترقون في مقامات الولاية ما عدا مقام النبوة - فإنه لا سبيل لهم إليها؛ لأن ذلك قد طُوِيَ بِسَاطُهُ - حتى ينتهوا إلى مقام المعرفة والرضا، وهو أعلى مقامات الولاية. ولأجل هذا يقول أهل الصوفة: من نال مقاماً فدام عليه بأدبه ترقى إلى ما هو أعلى منه، لأن النبي، ﷺ، أخذ أولاً في التَحَنُّث، ودام عليه بأدبه، إلى أن ترقى من مقام إلى مقام حتى وصل إلى مقام النبوة. ثم أخذ في الترقى في مقامات النبوة حتى وصل به المقام إلى قَابِ قَوْسَيْنِ أو أدنى كما تقدم. فالوارثون له بتلك النسبة مَن دام على التأدب في المقام الذي أقيم فيه، يرقى في المقامات حيث شاء الله، عدا مقام النبوة التي لا مشاركة للغير فيها بعد النبي، ﷺ.

يشهد لذلك ما حكى عن بعض الفضلاء أنه مَن عليه بَاتِّبَاعِ السَّنة والأدب في السلوك بتأدبه في كل مقام بحسب ما يحتاج إليه من الأدب. فما زال يرتقي من مقام إلى أعلى منه حتى أُسْرِيَ بِسِرِّهِ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، إلى قَابِ قَوْسَيْنِ أو أدنى، ثم نودي: هنا أُسْرِيَ بِذَاتِ مُحَمَّدٍ السَّيِّئَةِ حيث أُسْرِيَ بِسِرِّكَ.

الوجه الثاني عشر: فيه دليل على أن التربية للمريد أفضل من غيرها، لأن النبي، ﷺ، أول نبوته كانت في المنام. فما زال يرتقي حتى كَمُلَتْ حَالَتُهُ، وهو، عليه السلام، أفضل البشر. فلو كان غير التربية أفضل لكان أولى بها من غيره.

الوجه الثالث عشر: فيه دليل على أن الأَوَّلَى بأهل البداية الخلوة والاعتزال، لأن النبي، ﷺ، كان في أول أمره يَخْلُو بنفسه. فلما انتهى، عليه السلام، حيث قُدِّرَ له، لم يزل يفعل ذلك. وبقي

(١) قَابِ قَوْسَيْنِ: قال في القاموس: أي قدر قوسين عربيتين، أو قدر ذراعين. وقال مؤلف كتاب: رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الشيخ محمود محمود الغراب: هي إشارة إلى التقريب الصوري.

يتحنّث بين أهله، وصار حاله إلى أنه إذا سجد غمز<sup>(١)</sup> أهله، فنضمّ رجلها حيث يسجد . في السجدة لم يُقنعه، عليه السلام، أن ينعزل عنهم في البيت حتى خرج إلى الغار، على ما تقدّم

الوجه الرابع عشر: فيه دليل على أن الخلوة عونٌ للإنسان على تعبده وصلاح دينه . لأن النبي ﷺ، لما اعتزل عن الناس، وخلا بنفسه، أناه هذا الخير العظيم . وكلّ أحد إذا امتثل ذلك أدركه لحيته بحسب ما قسّم الله له من مقامات الولاية .

والوجه الخامس عشر: فيه دليل على لزوم التسبّب في الزاد عند دخول المعتكف أو الخلوة . الوجهة به؛ لأن النبي ﷺ، كان يخرج إلى التحنّث بما يصلحه من زاده للعيش طويلاً مُقدّماً فيه والحكمة في ذلك: أن الخروج بالزاد فيه إظهارٌ لوصف العبودية وافتقارها وضعفها . لأن المريد إذا ليس له قوة على تلك الأمور إلّا بإعانة من الله سبحانه، والخروج بغير زاد فيه شيء ما من الازدراء . وإن كان لم يُنطق به، ولم يُنوّه، فيخاف على فاعل ذلك أن يكله الله لنفسه، فيعجز عن توفيقه ما أراد في توجّبه .

ولأجل هذا المعنى، كان بعض أهل الصوفة من شدة ملاحظته للسنة إذا دخل لحلوته وتعبده أخذ رغيفاً من خبز، وألقاه تحت وسادته، ويواصل الأيام العديدة، ولا يأكل منه شيئاً . فراه بعض تلامذته كذلك، فأخذ الرغيف من تحت الوسادة، ثم تفقّد الشيخ الرغيف فلم يجده . فصاح على مَنْ لا ذ به صيحة منكّرة، وأغلظ عليهم فيما فعلوا . فقالوا: ليس لك به حاجة، فلم تتخذها هناك؟ فقال لهم: أتظنون أنّ ما تزؤون من قوة هي مني؟ بل فضل من الله ومنة . أرايتم إن رددت إلى حال البشرية كيف أفعل؟ فكان يعمل على حال ضعفه والعادة الجارية التي يقدر البشر عليها . وما كان من غير ذلك يراه فضلاً من الله عليه وهو حامله . كل ذلك على ما أشرنا إليه أولاً عن النبي ﷺ .

وفيه أيضاً وجه آخر من الحكمة، وهو: أن الخروج بالزاد من باب سدّ الذريعة؛ لأن الزاد إذا كان حاضراً لم يبق للنفس تشوّف ولا تعلق . وقد جاء في الحديث: (إنّ النفس إذا كان معها قوتها اطمأنت)<sup>(٢)</sup> . هذا مع إمكان وجود القوت من جلّه ووجهه، وإلّا فالله الرزاق ذو القوة المتين . وقد كان عليه السلام، عند عدم القوت من وجهه يربط على بطنه ثلاثة أحجار<sup>(٣)</sup> من شدة الجوع والمجاهدة، ولا يتسبّب في الزاد، ولا ينظر إليه .

الوجه السادس عشر: فيه دليل على أن المريد إذا خرج لتعبده أن يُعلّم أهله ومَنْ يلوذ به

(١) غَمَزَهُ بيده يَغْمِزُهُ: شَبِهَ نَحَسَهُ.

(٢) لم يتيسّر الوقوف على مصدر هذا الحديث الذي أورده المؤلف رحمه الله .

(٣) في صحيح البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ عصب بطنه بحجر . أما رواية (ثلاثة أحجار) فلم يتيسر الوقوف عليها .

بموضعه؛ لأن النبي، ﷺ، كان يخرج إلى الغار وأهله يعلمون بموضعه، وماذا يريد بخروجه .  
والحكمة في ذلك من وجوه:

(الوجه الأول) أنه معرّض هو وأهله لما يطرأ عليهم من الأمراض وغيرها من الأعراض . فإذا كان للأهل علم بموضعه علموا إلى أين يذهبون إليه إذا طرأ شيء من ذلك .

(الوجه الثاني) أن في إخبار الأهل بذلك إدخال سرور عليهم، وإزالة وسواس عنهم، لأنهم يتوقعون مسيره إلى مواضع مختلفة ممكنة . فإعلامه لهم بذلك إزالة لما ذكرناه، وإدخال السرور عليهم، لكونهم يعلمون أنه منقطع للتعب ومشغول به . وفي إدخال السرور من الأجر والثواب ما قد علم<sup>(١)</sup> .

(الوجه الثالث) ما في ذلك من الدعوة للأهل والإخوان للتعبّد وإن كان لم يطلب ذلك منهم، لأن الغالب من النفوس الانبعاث لما يتكرر عليها من الأمور .

(الوجه الرابع) أن من عرفه منقطعاً للتعبّد ومشغولاً به فإن أراد صحبته صحبته على ما هو بسبيله من غير أن يُدخِل عليه خللاً في طريقه، ومن أراد غير ذلك لم يصحبه، فاستراح منه وزال عنه ما يلحقه من التشويش في مخالطته .

الوجه السابع عشر: فيه دليل على أن الشغل بالسير الضّروري لا يكون قاطعاً للعبادة؛ لأنها أخبرت أنه عليه السلام، كان يخرج إلى التعبّد الليليّ العديدة، ولم تذكر ذلك في رجوعه إلى أهله . فدلّ على أن ذلك ضدّ الكثير، وهو اليسير . واليسير مع الكثير في حكم التّبع، ثم رجوعه ثانية إلى التعبّد دالّ على تعلّق قلبه بالعبادة ما دام في الضرورة التي خرج إليها فهو تعبّد مستمرّ .

ومثل ذلك المعتكف؛ يخرج لحاجة الإنسان وشراء القوت، ولم يحكم له إلاّ بأنه معتكف متوجّه، وإن كان يتصرف فيما ذكرناه، ويشهد لما قرّناه قوله عليه السلام: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ)<sup>(٢)</sup> . وذكر فيهم رجلاً قلبه متعلّق بالمساجد . فلم يضرّه خروجه عنها لتعلّق قلبه بها، وأجزل له هذا الخير العظيم . ولأجل هذا المعنى أخذ أهل الصّوفة في عمارة قلوبهم بالحضور والأدب على أيّ حال كانوا من شغل مُباح أو تَخَلٍّ، فلما صَفّت بواطنهم تسمّوا باسم الصّوّفة، وهو مشتقّ من الصفاء .

(١) هذه العبارات مستوحاة من الأحاديث التي تحض على قضاء الحاجة، وتفريج كربة المكروب، ولقاء المسلم أخاه بما يحبّ ليدخل السرور إلى قلبه .

(٢) حديث صحيح . أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم ومالك والترمذي والنسائي (وسيرد له شرح مسهب في هذا الكتاب) .

الوجه الثامن عشر: (حتى جاءه الحق) تريد: بئذ الوحي، لأن العرب تسمي الشيء بمصادته، وتسمي البعض بالكُلّ، والكُلّ ببعض.

الوجه التاسع عشر: قولها: (فجاءه الملك فقال: اقرأ) فيه دليل على جواز التورية، وهي إظهار شيء والمراد غيره، لأن جبريل عليه السلام، كان يعلم أن النبي ﷺ، كان لا يفهم، ولكن قال له ذلك ليتوصل به إلى ما يريد من التأديب، على ما سيأتي، وكذلك كان النبي ﷺ، يفعل بد. أراد أن يخرج إلى جهة يغزوها أو مأ إلى غيرها إلا في غزوة<sup>(١)</sup> واحدة لينفذها. وكذلك فعلت عائشة رضي الله عنها، على ما سنبينه في حديث الإفك، إن شاء الله. لكن يشترط في هذه التورية ألا يقع للغير بها ضرر ممنوع شرعاً، لأن جبريل عليه السلام، لم يفعل ذلك، وللسبي، ﷺ، فيه مصاد، من كان ذلك مصلحة له على ما نذكره بعد؛ لأنه لو كان التأديب بغير سبب لكان ذلك ردة في الشعار والوحشة. فانظر مع السبب والتلطف في الأدب كيف رجع، عليه السلام، يقول: (أرؤيتي زمّلوني). ولزلا ما جُبل عليه، ﷺ، من الشجاعة، وما مذ به من العون ما استطاع تنفي ذلك لأن الأمر جليل.

الوجه العشرون: فيه دليل على أن أمر السائل إذا كان يحتمل وجهين أو وجهاً واحداً، فليجواب المسؤول على الأظهر من المحتملات ويترك ما عداها؛ لأنه لما أن كان لفظ جبريل، عليه السلام، يحتمل طلب القراءة من النبي ﷺ، ابتداءً - وهو الأظهر - ويحتمل طلب القراءة منه لما يلقى إليه - وهو المقصود في هذا الموضع - بما ظهر بعد، أجاب النبي ﷺ، على أظهر الوجوه. وهو المعهود من الفصحاء في تخاطبهم.

الوجه الحادي والعشرون: قوله: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾. فيه دليل لمن ذهب من العلماء إلى أن أول الواجبات الإيمان، دون النظر والاستدلال. وأن النظر والاستدلال شرط كمال لا شرط صحة، لأن قوله: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ تمت به الفائدة، وحصل به الإيمان المجزئ. وقوله بعد ذلك: ﴿الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ هو طلب النظر والاستدلال، وهو زيادة كمال الإيمان، لأن الأنبياء عليهم السلام، أكمل الناس إيماناً، ولم يفرض الله، عز وجل، على الناس على أيديهم إلا الإيمان المجزئ، وبقي الكمال يهبه الله

(١) الغزوة تطلق على التي حضرها عليه السلام بنفسه، عكس: السرية. وغزوة مؤتة لم يحضرها عليه السلام، ولكنها رُفعت له، ووصفها لصحابته الكرام، فكانت قد حضرها. والمقصود بالغزوة التي صرح بها (غزوة تبوك) لجُغْد المسافة بين المدينة المنورة وتبوك، فهي تقارب السبع مائة كيلومتر.



لمن يشاء من أتباعهم . يشهد لما قرناه قوله عليه السلام : (أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)<sup>(١)</sup> فلم يطلب منهم إلا النطق بكلمة الإخلاص ، ولم يشترط في ذلك نظراً ولا استدلالاً .

الوجه الثاني والعشرون : لقائل أن يقول : لِمَ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ<sup>(٢)</sup> أولاً قبل غيرها من آي القرآن ؟ أعني : قوله عز وجل : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ ﴾ والجواب أن نقول : إن كان ذلك تعبداً فلا بحث ، وإن كان ذلك لحكمة فحينئذٍ يحتاج إلى البحث فيها . ومعنى قولنا : «تعبداً» أي : تَعَبَّدْنَا اللَّهَ بِذَلِكَ ، ولم يُطْلَعْنَا عَلَى الْحِكْمَةِ فِيهَا ، وأما الأمر في نفسه فلا بد فيه من حكمة وهو ، عز وجل ، يَعْلَمُهَا ، ومن شاء إطلاعاً عليها أطلعته . وظاهرُ مسألتنا هذه أنها لحكمة تُفْهَم وتُعرَف من لفظ الآي .

بيان ذلك : أن هذا الكلام دالٌّ بمنطوقه وما يتضمَّن من الفوائد على ما تضمنته القرآن إجمالاً .

بيان : أن كل ما كان في القرآن من آيات الإيمان والتوحيد والتنزيه دلَّ عليه مضمون اسم (الرُّبُوبِيَّة) . وما كان فيه من الأمر ، والنهي ، والترغيب ، والترهيب ، والندب ، والإرشاد ، والمحكم ، والمتشابه<sup>(٣)</sup> دلَّ عليه مضمون حكمة الربوبية ، وما كان فيه من استدعاء الفكرة ، والنظر ، والاستدلال ، وما أشبه ذلك دلَّ عليه متضمَّن مقتضى قوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ﴾ ، وما كان فيه من الرحمة ، والمغفرة ، والإيناس ، والإنعام ، والترجي ، والإحسان ، والإباحة ، وما أشبه ذلك دلَّ عليه متضمَّن كَرَم الربوبية . فلما كان بعد هذا الإجمال نزلت الآيات بحسب ما احتيج إليها مبيّنة بالنص ، لِمَا تضمنته هذا الكلام الجليل من الإجمال ؛ فَلَمَّا كَمَلَتْ معاني ذلك الإجمال تبييناً وتفسيراً ، قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ۝ ﴾<sup>(٤)</sup> أي ما أجملته لكم أولاً اليوم أكملته لكم في التنزيل مفصلاً ، لأن متضمَّن الكمال يقتضي قبله أجزاء ، والأجزاء هو ما أشرنا إليه من الإجمال . فكان الأول مصدقاً للثاني ، والثاني مصدقاً للأول . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝ ﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) حديث صحيح متواتر .

(٢) كذا ، وهي آيات ثلاث .

(٣) المُحْكَم : ما وضع معناه ، أو ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً . والمُتَشَابِه : ما غمض معناه ، أو ما احتمل من التأويل أوجهاً .

(٤) سورة المائدة ، من الآية ٣ .

(٥) سورة النساء ، من الآية ٨٢ .

الوجه الثالث والعشرون: في الآية شَبَّهُ الحال والإشارة بالتسلي للنبي، بـ...، فخصه عند نزول الحوادث، والوعد له بالنصر والظفر: لأن نسبته عليه السلام، الآن منفرداً في أول أمره كسبته في خلقه. أولاً عِلَاقَةً<sup>(١)</sup>، فالإشارة إلى الامتحان بانتقال العِلَاقَة بالتطوير حتى يرجع بشيء، ثم الخروج إلى هذه الدار، وهي دار المكابدة. فالإخراج مقابلته الخروج، والتطويرات مقابلته التغييرات، والإشارة إلى اللطف بالإلطف في إخراجها من ظلمة الأحشاء بلا نصب ولا أدنى، وتيسير اللطف له بالغذاء مثل إخراج اللبن له من بين فَرْثٍ<sup>(٢)</sup> ودم بلا نصب ولا عيب...، وإشارة إلى النصر والظفر بما رُزِقَ بعد ذلك الضعف من كمال القوى والعقل والتصرف ودفع المعصية وحبب المنافع، فلم تضره تلك التطويرات حتى صار أمره إلى هذه الحال.

فكذلك خروجه، عليه السلام، الآن بالضعف، لأنه وحيد فيما يأتي به ويدعو لشيء، لا ينفعه عنه ولا يُعرف، للعوائد التي جَزَتْ بضد ما يدعو إليه. فكانه، عز وجل، يقول له في معنى ذلك الكلام: لا تهتم لشيء من ذلك، فإن العاقبة بالنصر لك وبالظفر. يؤيد ما أشرنا إليه قوله تعالى ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ<sup>(٣)</sup> فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ. يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ<sup>(٤)</sup>﴾ فما سُلِّيَ به بالضمن فيما نحن بسبيله صُرح له به في هذه الآية، لأنه، عز وجل، مثله بالزرع الذي يخرج وحده أولاً منفرداً ثم أخرج شطأه، أي أفرأه، فاستمرت الأفرأ والأصل، وتلاحقت بالسنبيل، فنورت وأينعت، فأعجب الزُّرَّاع، وأغاظ الكُفَّار. فسبحان القادر على ما يشاء كيف يشاء.

وبهذه الإشارة تعلق أهل الصوفة، فأخذوا في الاتباع في الأقوال والأفعال وفي كل الأحوال، ولم يلتفتوا إلى ضعفهم، ولم يعرجوا على عوائد غيرهم، وزادهم على ذلك يقيناً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٥)</sup>﴾ فأيقنوا بالنصر، ثم جَدَّوا في الطلب، فأجزل لهم ما وعدوا، كما أجزل ذلك لنبيهم، ﷺ، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ

(١) العِلَاقَة: لها معان عدة. والمراد هنا: طَوْر من أطوار الجنين، وهي قطعة الدم التي يتكوّن منها. قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾.

(٢) الفَرْث: بقايا الطعام في الكرش.

(٣) الشَّطْأ: ورق النبات أو الشجر أول ما يبدو.

(٤) الكُفَّار: ج كافر. من كَفَرَ الزارعُ البذر: إذا ستره بالتراب. والرجل الزارع يسمى كافراً باللغة. وللكلمة معانٍ أخرى. الآية من سورة الفتح، من الآية ٢٩.

(٥) سورة الأنفال، من الآية ٦٤.

يُوقِنُونَ ﴿١١﴾ فانتبه إن كنت لبيبا تفهم المعنى الغريب، واسلك الطريق النجيب، فإن أتيت فعند كشف عذر الواقعة يبين لك قدر ما ضيقت وفي ماذا قرطت.

الوجه الرابع والعشرون: قوله: (فَقَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ) يريد أنه ضمه إليه حتى بلغ منه الجهد، والجهد عبارة عن شدة الغط والضم.

الوجه الخامس والعشرون: فيه دليل على المبالغة في التأديب ما لم يؤد ذلك إلى المحذور، لأن شدة الغط مبالغة في التأديب، وقد أمر، عليه السلام، بذلك، وحض عليه فقال: (لَأَنْ يُؤدَّبَ أَحَدُكُمْ إِيَّاهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِصَاعِ طَعَامٍ) <sup>(٢)</sup>. فجعل، عليه السلام، تأديب الابن أعلى من الصدقة، وهي من أفعال البر بحيث لا يخفى موضعها. وبه يستدل أهل الصوفة على تأديب النفس، لأنها أجل من تأديب الابن، يشهد بذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ <sup>(٣)</sup> ومجاهدة النفس هي تأديبها. فأورثهم هذا التأديب الهداية إلى سبيل الحق. ولا يوجد هذا القدر من الخير بغيرها من أفعال الطاعات. فلما أن كان في التأديب هذا الخير العظيم بُدِيَء به النبي، ﷺ، على القاعدة التي قررتها، وهو أنه، عليه السلام، بُدِيَء في المبادي بكل حُسنٍ بادي.

الوجه السادس والعشرون: فيه دليل على جواز التأديب من المعلم للمتعلم، لأن جبريل، عليه السلام، ضم النبي، ﷺ، إليه تأديبا له حتى يحصل له التأديب بما يُلقَى إليه، لكن يكون التأديب بحسب حال المؤدَّب والمؤدِّب له؛ لأن هذا التأديب - أعني تأديب جبريل، عليه السلام، للنبي، ﷺ - تأديب حبيبٍ لمحبوب، فكان بالضم والغَط لا بالضرب والإهانة.

الوجه السابع والعشرون: فيه دليل لمن ذهب من الفقهاء على أنه ليس للمؤدِّب أن يضرب فوق الثلاث، لأن النبي، ﷺ، لم يكن له هذا التأديب إلا ثلاثاً.

الوجه الثامن والعشرون: فيه دليل على أن كتاب الله تعالى لا يؤخذ إلا بقوة، وقد قال، عز وجل، ليحيى عليه السلام: ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ <sup>(٤)</sup>. فهناك بالقول، وهنا بالفعل والأمر.

الوجه التاسع والعشرون: فيه دليل على أن كلام الله، عز وجل، حين نزوله ثَقِيل، يشهد لذلك قوله، عز وجل: ﴿إِنَّا سُلِّقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ <sup>(٥)</sup>. فشدَّة الغَط هنا تدريج لحمل الثقل.

(١) سورة المائدة، من الآية ٥٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند والترمذي في السنن والحاكم في المستدرک.

(٣) سورة العنكبوت، من الآية ٦٩.

(٤) سورة مريم، من الآية ١٢.

(٥) سورة المزمل، من الآية ٥.

الوجه الثلاثون: فيه دليل على أن اتصال جِزْم الغاط بالمُعِط<sup>(١)</sup> وضّمه إليه يحدث به في الباطن قوّة نورانيّة متشعّعة تكون عوّناً على حمل ما يُلقَى إليه، لأن جبريل، عليه السلام، لقد انفصل حرّمه بذات محمّد السّنيّة حدّث له بذلك ما ذكرناه، وهو حملُه ما أُلقي إليه ووقوفه لسماع حفظ الحث، ولم يكن قبلُ له ذلك. وقد وجد ذلك أهل الميراث من أهل الصّوفة المتّبعين المتحقّقين، حتى لقد حُكي عن بعض فضلّاتهم أنه أتاه ناس ينتقدون عليه، فأبى عن إجابتهم. وكان بحصّره، حل من العوام راعياً لغنم، فدعاه الشيخ فضّمه إليه، ثم قال له: أجِب هؤلاء عما سألوأ عنه. فأجاب برّحيل وأبلغ في الجواب. ثم أوردوا عليه مسائل، فبقي يُفصّل ويمنع ويُجيز حتى قطع من حصّره من الفقهاء في البحث. ثم دعاه الشيخ فضّمه إليه، فإذا هو قد رجع إلى حاله الأول لا يعرف شيئاً فقال له الرجل: يا أيها السيّد، إن الفقراء إذا وهّبا شيئاً لا يرجعون فيه. فقال له: نعم، هو كذلك. ولكن ليس لك نسبة في ذلك الشأن. ثم بشره بخير، وكان كذلك. فهذا قد وُجد في ملامسة بشر لبشر، وهو وارث<sup>(٢)</sup>، فكيف بملامسة جسّد الموروث<sup>(٣)</sup> لجسّد الروح الأمين؟

الوجه الحادي والثلاثون: لقائل أن يقول: قد اختلف العلماء: هل البشر أفضل من الملائكة أو بالعكس؟ على قولين، فعلى قول من يقول بأن البشر أفضل من الملائكة، فمستحيل أن تحصل القوّة للأفضل بملامسة المفضول. والجواب عنه: إننا لا ننظر ههنا إلى الأفضليّة بالذوات، وإنما ننظر من قِبَل المعنى، وهي موجودة هنا، لأن جبريل، عليه السلام، كان حاملاً لكلام الله، عز وجلّ، في ذلك الوقت، فحصلت له الفضيلة، لأجل ما احتمل. والنبي، ﷺ، لم يكن عنده القرآن إذ ذاك... ويشهد لهذا ما رُوي أن النبي، ﷺ، كان أجودّ الناس، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، فيدارسه القرآن. فَلَرسُولُ الله، ﷺ، حين يلقاه جبريل أجودّ بالخير من الريح المرسلّة<sup>(٤)</sup>.

الوجه الثاني والثلاثون: فيه دليل لأهل الصّوفة حيث يقولون: «إنّ التّخلّي لا يكون إلا بعد التّخلّي» لأن النبي، ﷺ، تَخَلَّى أولاً حتى لم يبق من مجهوده غاية، فلما كان تخلّيه أفضل وأشرف من تخلّيه غيره، والبشر قاصر عن تخلّيه، ضّمّه جبريل، عليه السلام، حتى حصل له تخلّ من نسبة ذلك التّخلّي، ولذلك قال: (حتّى بَلَغَ مِنِّي الجُهد) لأن التّخلّي هو ضّمّه إليه حتى بلغ من مجاهدة النفس الغاية. والتّخلّي هو إلقاء الوحي إليه، وفي هذا دليل على ما قدّمناه، وهو أنّ مَنْ دخل في

(١) كذا، والصواب: المغطوط.

(٢) الوارث: في هذا المقام الآخذ والمستفيد.

(٣) الموروث: في هذا المقام المُعْطِي والمفيد. ويقصد به رسول الله ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

الطريق بالتربية والتدريب أفضل ممّن لم يكن له ذلك، إذ هذا كله تربية وتدريب للنبي، ﷺ. فما كان، عليه السلام، يَرْقى إلى مقام حتى يُحَكِّم أدبَ الأول وَيَفْهَم معناه، وما احتوى عليه من الفوائد. ولأجل هذا المعنى الذي أشرنا إليه كان الناس أبدأً ينتفعون على يد مَنْ كان مرتباً، وقلّ من ينتفع على يد من كان دخوله بغير ذلك.

الوجه الثالث والثلاثون: لقائل أن يقول: لِمَ كان الغُطُّ ثلاثاً ولم يكن أقلّ ولا أكثر؟ والجواب عنه من وجهين:

(الأول): أن البشرية فيها عوالم مختلفة. فمنها العقل وموافقته وهو المَلَك. ومنها النفس والطبع والشيطان ومُوافِقُها وهو الهوى والغفلة والعادة المذمومة، وهي أشدّها لِقول الأُمم الماضية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾<sup>(١)</sup>، فلم يجدوا حجة إلا بالعادة الجارية فيهم وفي آبائهم. وقد قالت الأطباء: إن العادة طَبْعٌ خامس. فكانت الثلاث غَطَّت مُدْهَبَةً لتلك الخصال الثلاث ومُوافِقُها، وبقي العقل والمَلَك اللذان هما قبالان لِلْحَقِّ والنُّور. وإن كان النبي، ﷺ، قد خُلِقَتْ ذاته المَكْرُومة على الطهارة ابتداءً، ونُزِعَتْ من قلبه عِلْقَةُ الشَّيْطَانِ<sup>(٢)</sup>، وأُعِينَ على شيطانه حتى أَسْلَمَ<sup>(٣)</sup>، وجُبِلَ على كل خير ومَكْرُومة، لكن هذه الثلاث غَطَّت مُقَابِلَةً لتلك الثلاث، إذ لو كانت هناك، لأنها من أصناف البشرية، وهو عليه السلام المشرع. ومثل ذلك قوله، عز وجل: ﴿وَيَأْتِكَ فَطَهِّرْ﴾<sup>(٤)</sup>. وثيابه، عليه السلام، كانت طاهرة على كل التأويلات. لكن هذا مقتضى الحكمة في تكليف البشرية وتَرْقِيْهَا وهو، عليه السلام، الأصل لكل خير، والمشرع له، فعومل على ما تقتضيه البشرية لهذا المعنى.

(الثاني): أن الإيمان على ثلاث مراتب: إيمان وإسلام وإحسان، فكانت الثلاث غَطَّت مُبَالِغَةً في التخلّي. كل درجة في التخلّي مقابلها درجة في التحلّي، حتى أكمل أعلى الإيمان، وهو الإحسان؛ لأن من ضرورات الأنبياء عليهم السلام، أن يكون إيمانهم أقوى من إيمان أتباعهم، لأن مقامهم أجل وأرفع.

الوجه الرابع والثلاثون: فيه دليل على أن التخلّي على ضربين: مُكْتَسَبٌ وفيض من الله، سبحانه. فالمكْتَسَبُ: في مثل ما تقدم عن النبي ﷺ، من الخلوة في الغار، والتحنّث فيه.

(١) سورة الزخرف، من الآية ٢٢.

(٢) مستوحى من حديث الإسراء الذي أخرجه البخاري ومسلم وعبد الله بن الإمام أحمد في زوائد أبيه وابن حبان والحاكم والضياء في المختارة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) سورة المُدَّثِّر، الآية ٤.

والفيض: هو ما نحن بسبيله من الغَطِّ والظَمِّ. فقد يكون من السَّالِكِينَ مَنْ تخلَّيه بالكسب لا غير، وقد يكون تخلَّيه بالفيض لا غير، مثل إبراهيم بن أدهم<sup>(١)</sup>، والفَضِيل بن عياض<sup>(٢)</sup> وغيرهما. وقد يُجَمَّع لبعضهم بين الحالتين، فيكتسب ويُفاض عليه، كما فُعِلَ للنبي، ﷺ، وكثير ما هم. وهو فضل الله يؤتيه من يشاء.

الوجه الخامس والثلاثون: قول جبريل، عليه السلام، للنبي، ﷺ: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ - يريد: اذكر اسم ربك - وفيه دليل على أَنَّ الإنسان إنما يخاطب أولاً بما يعرف أنه يصل إلى فهمه بسرعة من غير مشقة ولا بحث يحتاج إليه؛ لأنَّ الله، عزَّ وجلَّ، قد أحال نيته، عليه السلام، أولاً على أن ينظر في خَلْقِ نفسه بقوله، عزَّ وجلَّ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ولم يقل له: الذي خلق السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، والأفلاكَ وغير ذلك، وإنما قال له، عزَّ وجلَّ، ذلك بعد ما تقرَّر له خلق نفسه وما هو عليه، وحصل له من المادة الإلهية ما يتسلط به على ذلك.

الوجه السادس والثلاثون: فيه دليل على أَنَّ الفكرة أفضل الأعمال؛ لأنَّ في ضمن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ما يستدعي الفكرة فيما قيل حتى يحصل للمخاطب بذلك علم قطعي وإيمان صادق. وليس الإيمان به والتصديق بعد الفكرة كالإيمان به على البديهة، ولهذا المعنى أشار عليه السلام، بقوله: (تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ)<sup>(٣)</sup> وفي رواية: (خيرٌ من عبادة الدهر). لأنَّ المرء إذا تفكَّر قَوِيَ إيمانه، وبانَّ له الحقَّ واتَّضح. وبقدَّر تعمقه في الفكرة يَتَقَوَّى الإيمان. ولهذا المعنى قال بعض الفضلاء: أنا أوصيك بأن تديم النظر في مرآة الفكرة مع الخلوة، فهناك يَبِينُ لك الحق.

الوجه السابع والثلاثون: فيه دليل على أَنَّ المتفكر في عظمة الله وجلاله ينبغي أن يفكر بعد ذلك في عفو الله وكرمه وإحسانه، لأنَّ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ معناه ما تقدم، وهو

(١) إبراهيم بن أدهم: (ت ١٦١هـ/ ٧٧٨م) زاهد مشهور. كان أبوه من أهل الغنى في بلخ. فتفقَّه ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز، وأخذ عن كثير من علماء الأقطار الثلاثة. وكان يعيش من العمل بالحصاد والحمل والطحن، ويشترك مع الغزاة في قتال الروم. مات أبوه وخلف له مالاً عظيماً فلم يعبأ به وورَّعه على الفقراء. وكان يلبس في الشتاء فُرَّواً ولا قميص تحته، ولا يتَّعَمُّ في الصيف ولا يحتدي. وكان يصوم في السَّفر والحَضَر، وينطق بالعربية الفصحى ولا يَلْحَن. تُوْفِيَ في سوقين (حصن ببلاد الروم) وقيل بجبلَّة. يرحمه الله.

(٢) الفَضِيل بن عياض: (ت ١٨٧هـ/ ٨٠٣م) شيخ الحَزَمِ المَكِّي؛ من أكابر العبَادِ الضُّلَّحاء. كان ثقةً في الحديث. أخذ عنه خَلْقٌ كثير منهم الإمام الشافعي. ولد في سَمَرْقَنْد، ونشأ بأَبِيزَرْد، ودخل الكوفة وهو كبير، وأصله منها، ثم سكن مكة وتوفي بها.

(٣) أورده الشوكاني في الفوائد المجموعة بلفظ (فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة) وقال: رواه أبو الشيخ عن أبي هريرة مرفوعاً. وأورد روايات أخرى له منها ما وافق نصَّ المصنف ابن أبي جمرة، ومنها بعبارة: خير من ستين سنة، أو ثمانين سنة، أو ألف سنة، وفي جميع هذه الروايات ضعف وجرح في عدد من زوَادِ سَنَدِهِ.

استدعاء الفكرة فيما نصر الله عليه، وذلك يقتضي العظمة والإجلال، ثم قال، عز وجل، بعد ذلك : ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ وهذا الاسم يتضمن معاني الأسماء كلها الموجبة للطف والإحسان . نسأل الله بمنه أن يعاملنا بمقتضى متضمنه . والحكمة في منع التفكير في عظمة الله، دون ما يُضادها، أن المتفكر إذا تفكر فيها وحدها قد يُخاف عليه، لئلا يذهب به الخوف إلى بحر التلف من القنوط، فإذا أعقبه بالتفكر في مقتضى الرحمة والإحسان أمن من ذلك .

الوجه الثامن والثلاثون : فيه دليل على أن من أصابه أمر فله أن يتداوى بحسب ما اعتاد، ما لم يكن فيه حرام، لأن النبي ﷺ، لما أن أصابه الرعب رجع إلى ما اعتاد من التدبير يقول : (زَمَلُونِي) وقد قال عليه السلام : (تُدَاوِي كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَتَادَتْ) (١) .

الوجه التاسع والثلاثون : قولها : (فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَرْجُفُ فُؤَادَهُ) رجع بها : بمعنى حفظها . فظهرت هنا ابتداء فوائد الغط لسرعة الحفظ لما أُلقي إليه . والرجف : كناية عما لحقه، عليه السلام، من الخوف والوجل . والفؤاد : كناية عن باطن القلب ؛ لأن الخوف والفرح فيه .

الوجه الأربعون : قولها : (فَأَخْبَرَهَا (٢) الْخَبَرُ) فيه دليل على أن الاختصار في الكلام هو المطلوب، وأنه هو الأولى ؛ لأنها ذكرت خبره مع الملك، فأعادت الضمير عليه، ولم تحتج إلى إطالة الكلام بإعادة ذكر الملك ثانية . وهو من فصيح كلام العرب .

الوجه الحادي والأربعون : قوله، عليه السلام : (لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي) خشيته، عليه السلام، هنا تحتمل وجهين، أحدهما : أن تكون خشيته من الرعب الذي أصابه من قيل الملك، فخشي أن يقيم بالمرض من أجل ذلك . الثاني : أن تكون خشيته، عليه السلام، من الكهانة، وهو الأظهر، لأنه، عليه السلام، كان يُبغض الكهنة وأفعالهم، فلما جاءه الملك، ولم يصرح له بعد بأنه نبي أو رسول، لأنه قال له : ﴿ أَقْرَأْ ﴾ وتلا عليه الآية (٣) . وليس في ذلك ما يدل على أنه نبي أو رسول، خشى، عليه السلام، إذ ذاك أن يُصيبه من الكهانة شيء، لأنها كانت في زمانه كثيرة . وهذا منه، عليه السلام، كثرة مبالغة في الاجتهاد، وتمحيص في الأفعال ؛ لأنه قد صح أن الحجر كان يخاطبه قبل ذلك (٤)، ويشهد له بالرسالة، والمدّر والشجر (٥) كذلك، وقد أخبره بعض

(١) لم نقف على مصدره .

(٢) كذا . ولفظ الحديث : وأخبرها .

(٣) كذا . والأصح : الآيات .

(٤) في مخاطبة الحجر وشهادته لرسول الله ﷺ بالرسالة روايات كثيرة أوردها الترمذي في المناقب والدارمي ١٢ / ١ والحاكم في المستدرک ٦٢٠ / ٢ والبيهقي في دلائل النبوة ١٥٣ / ٢ و ١٥٤ .

(٥) في شهادة المدّر والشجر روى الترمذي في المناقب وأبو يعلى وابن جبان والبيهقي عن ابن عباس رضي الله =

الرَّهْبَانُ<sup>(١)</sup> بذلك . لكن بعد هذا كله لَمَّا أن أصابه ، عليه السلام ، هذا الأمر - وهو محتمل لوجهين أحدهما ضعيف ، والآخر قويّ بتلك الأدلة التي ظهرت له قبل - لم يترك الوجه المحتمل ، وإن كان ضعيفاً ، حتى تحقق بطلانه بيقين .

وبه يستدل أهل الصوفة في الواقع إذا وقع لهم أمر محتمل لوجهين أو وجوه . وأحدها يُخاف منه ، والوجوه الأخر من المبشرات ، أنهم يبحثون عن الشيء الذي يخافون منه . وإن كان ضعيفاً بالنسبة إلى غيره . يشهد لما قررناه من أن النبي ﷺ ، كانت خشيتُه من الكهانة جواب خديجة إليه ، وكيف رفعته إلى وَرَقَة ، فلو كانت خشيتُه ، عليه السلام ، من المرض لما كان جواب خديجة إليه بتلك الألفاظ ، ولما احتاج أن يبتّ خبره ، عليه السلام ، لَوَرَقَة .

الوجه الثاني والأربعون : قول خديجة له ، عليه السلام : كَلَّا والله ما يُخْزِيكَ الله أبداً . إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتُقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . فيه دليل على أن من طُبع على أفعال الخير لا يُصيبه مكروه . هذا إذا كان ذلك طبعاً ، وأما من لم يكن له ذلك طبعاً وكان يستعملها ، فَيُرْجَى له ما دام يفعلها ألا يُصيبه مكروه ، لأن النبي ﷺ ، لما أن طُبع على تلك الأوصاف الحميدة حُكِمَ له بأنه لا يُصيبه مكروه للعادة التي أجراها الله تعالى لمن كان ذلك حاله ، وقد قال ، عليه السلام : (صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السَّوِّ)<sup>(٢)</sup> .

الوجه الثالث والأربعون : فيه دليل على جواز الحكم بالعادة ، لكن ذلك بشرط يُشترط فيها ، ألا يقع بذلك خلل في الأمر والنهي ، لأن خديجة ، رضي الله عنها ، حكمت بما أجرى الله من العادة فيما أدعته ، ولم يعارض ذلك شيء مما ذكرناه .

- = عنهما قال : جاء أعرابيٌّ إلى النبي ﷺ فقال : بِمَ أعرفُ أنك نبيٌّ؟ قال : إن دعوتُ هذا العَذْقَ من هذه النخلة أنشهد أني رسولُ الله؟ فدعاه رسولُ الله ﷺ فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ . ثم قال : ارجع . فعاد . فأسلم الأعرابيُّ . وأحاديث سلام الحجر على رسول الله ﷺ كثيرة وصحيحة .
- (١) أخرجه الترمذي في باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ رقم ٣٦٢٤ عن أبي موسى الأشعري عن أبيه قال : خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش ، فلما أشرفوا على الزاهب هبطوا فحلوا رحالهم ، فخرج إليهم الزاهب . وكانوا قبل ذلك يَمُرُّون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت (قال : فهم يَحُلُّون رحالهم) فجعل يَتَخَلَّلُهُم الزاهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ فقال : هذا سيّد العالمين ، هذا رسول ربِّ العالمين ، يبعثه الله رحمةً للعالمين . فقال له أشياخ من قريش : ما عِلْمُكَ؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجرٌ ولا شجر إلا خرَّ ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبِي ، وإني أعرفه بخاتم النبوة . . إلى آخر الحديث ، ورواه الحاكم في المستدرک وصححه ، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .
- (٢) أخرجه الطبراني في الكبير بسند حسن .



الوجه الرابع والأربعون: فيه دليل على أن للمرء أن يحلف على عادة أجزاها الله، عز وجل، لعباده، لأن خديجة، رضي الله عنها، حلفت على ما تقدم ذكره.

الوجه الخامس والأربعون: فيه دليل على أن المرء إذا أصابه أمر مهم فله أن يحدث بذلك أهله ومن يعتقده من أصحابه إذا كانوا ذوي دين ونظر، لأن النبي، ﷺ، لما أن وقع له ما وقع حدث به خديجة، رضي الله عنها، وهي في الدين والنظر السديد والعقل الرشيد بحيث لا يخفى.

الوجه السادس والأربعون: فيه دليل على أن من ادعى شيئاً فعليه بالدليل على صدق دعواه. وإن كانت تشهد له أدلة على مقاله، وله ما يستدل به زائداً على تلك الأدلة، فليأت به أولاً ليقوي ما ادعاه، وإن كان صادقاً في نفسه، مصداقاً عند غيره؛ لأن خديجة، رضي الله عنها، كانت في الصدق والتحري حيث كانت، وكان النبي، ﷺ، في تصديقها حيث كان، على ما تقرّر من أحوالهم وعلم. ولكن بعد ذلك كله لما أن قالت للنبي، ﷺ، (والله ما يُخزيك الله أبداً) لم تقتصر على ما ادعته، حتى أتت له بالأدلة التي هي سبب ما أخبرت به من محامده، عليه السلام، ومآثره، ثم لم تقنعها تلك الأدلة حتى ذهبت معه إلى ورقة نصرة لدعواها حتى أثبتت ما ادعته بغير شك ولا احتمال.

الوجه السابع والأربعون: فيه دليل على أن المرء إذا وقع له واقع أن يسأل عنه أهل العلم والشهي، لأن النبي، ﷺ، لما أن وقع له ما وقع، ذهب إلى ورقة الذي هو أعلم أهل زمانه وأفضلهم بعد النبي، ﷺ.

الوجه الثامن والأربعون: فيه دليل على جواز خروج المرأة مع زوجها لأن النبي، ﷺ، خرج مع خديجة، رضي الله عنها، إلى ورقة، وقد روي عنه، عليه السلام (أنه خرج مع عياله ليلاً بعد الرسالة، فلقيته بعض الصحابة، فقال لهم: إنها صفيّة<sup>(١)</sup>). لكن ذلك بشرط يُشترط، وهو أن يكون فيما أباحتها الشريعة، وعلى ما تقتضيه الشريعة من الستر وغير ذلك.

الوجه التاسع والأربعون: فيه دليل على أن من وصّف امرأ لا يزيد على ما فيه من الصفات الحميدة شيئاً، لأن خديجة<sup>(٢)</sup>، رضي الله عنها، أخبرت، عن ورقة بما كان فيه من المحامد، ولم تزد عليها.

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن علي بن الحسن رضي الله عنهما. و (صفيّة) هي إحدى أمهات المؤمنين. أبوها حبي بن أخطب: من بني إسرائيل من سبط هارون بن عمران. استصفها رسول الله ﷺ لنفسه من سبي خيبر، ثم أعتقها وتزوجها، وأسلمت. ويروى أنه عليه السلام دخل عليها يوماً وهي تبكي، فسألها فقالت: بلغني أن عائشة وحفصة تنالان مني وتقولان: نحن خير من صفيّة، نحن بنات عم رسول الله وأزواجه. فقال عليه السلام: ألا قلت لهن: كيف تكن خيراً مني، وأبي هارون، وعمي موسى، وزوجي محمد؟ توفيت سنة خمسين.

(٢) كذا، والصواب عائشة رضي الله عنها، وهي راوية الحديث.

الوجه الخمسون: فيه دليل على أن أهل الفضل والشؤد إذا استشاروا امرأ في شيء أن يبادر المستشار في عونهم ومشاركتهم، لأن خديجة، رضي الله عنها، بادرت إلى الخروج مع النبي ﷺ، حين استشارها من غير أن تقول له: إمض إلى فلان.

الوجه الحادي والخمسون: فيه دليل على أن المرء إذا عرضت له حاجة عند أهل الفضل فالسنة فيه أن يقدم إليهم من يدل عليهم، إن وجد ذلك، لأن النبي ﷺ، لم يعض وحده لورقة، وإنما مضى مع خديجة، رضي الله عنها، التي هي من قرابة ورقة.

الوجه الثاني والخمسون: فيه دليل على أن من كان سفيراً بين أهل الفضل أن يتحرز في كلامه بينهم، ويُعطي لكل واحد منهم مرتبة ومنزلة، لأن خديجة، رضي الله عنها، قالت لورقة: (اسمع من ابن أخيك) تحرزاً منها على منزلة النبي ﷺ، لئلا تُجَلَّ بمنصبه؛ لأن العرب تقول لمن فوقه (أب) ولمن هو مثلها (أخ) ولمن هو دونها (ابن)، فاستعملت هي (ابن الأخ) لأنه أعز للنبي ﷺ، فإنها لو قالت: (ابن) لكان يقتضي ترفيع المسمى بالأب على المسمى بالابن. لأن النبوة أحفض رتبة من منصب الأبوة. ولو قالت (أخ) لم يكن ذلك حقاً، لأن الأخوة تقتضي المعاملة في السن على عادة العرب، فأعطت كل ذي حق حقه، وتحززت في لفظها؛ لأن العرب كانت عاداتهم في الخطاب لمن يكرّم عليهم وهو صغير في السن ينادونه: يا ابن الأخ؛ لأن العم ليس له حق على ابن أخيه مثل ابنه.

الوجه الثالث والخمسون: فيه دليل على التقدم في الكلام على أهل الفضل نيابة عنهم، وترفعاً لهم؛ لأن خديجة، رضي الله عنها، بادرت بالكلام لورقة قبل النبي ﷺ، خدمة له وتكريماً.

الوجه الرابع والخمسون: فيه دليل على أن الواقع إذا وقع لامرئ فهو أولى أن يحدث به للعالم من غيره؛ لأن خديجة، رضي الله عنها، قالت لورقة: (اسمع من ابن أخيك) وقد كان النبي ﷺ، حدثها بالواقع، فلم تحدث به، وأحالت على صاحب القضية.

الوجه الخامس والخمسون: قول ورقة: (هذا التاموس الذي نزل الله على موسى). التاموس عند العرب هو الجاسوس الخير، أي صاحب سر الخير. والجاسوس بضده؛ أي صاحب سر الشر. وفي هذا دليل للوجه الذي قدمناه. وهو الحكم بالعادة التي أجراها الله، عز وجل، لعباده، وأن يُحلف عليها؛ لأن ورقة ما أخبر بأن الآتي هو الملك، لما أن ذكرت له الصفات والعلامات إلا لما يعهد من عادة الله، عز وجل، ألا يرسله إلا للنبئين والمرسلين.

الوجه السادس والخمسون: فيه دليل على أن للإنسان أن يتمنى الخير لنفسه، لأن ورقة تمنى

أن يكون جذعاً في زمان إرسال النبي، ﷺ، فينضّره. والجذع عند العرب هو الشاب، وقد اختلف العلماء في إيمان ورقة. فمن قائل يقول: لم يحصل له الإيمان بعد، لأنه لم يبلغ عمره زمن الرسالة، ومن قائل يقول: قد حصل له الإيمان، وهو الأظهر، لأنه تمنى أن ينصّر النبي، ﷺ. ومن جملة النصرة أن يكون على طريقته، وقد حصل له الإقرار بالرسالة، حيث قال: (هذا الناموس الذي نزل الله على موسى) فأقر أن الله عز وجل، موجود، وأنه هو الذي يرسل جبريل، عليه السلام، إلى أنبيائه، عليهم السلام. وهذا هو الذي يمكنه في ذلك الوقت، لأن النبي، ﷺ، لم يكن أرسل بعد.

الوجه السابع والخمسون: فيه دليل على أن العالم بالشيء يعرف مآله على جزئ العادة، فله أن يحكم بالمآل إذا رأى المبادئ، لأن ورقة لما أن علم أن النبي، ﷺ، أرسل إليه، علم أنه لا بد له من أن يخرج، فبصدق المبادي علم حقيقة التناهي. لأن تلك عادة أجراها الله، عز وجل، لم تتخلف في أحد من رسله، على ما ذكر. وفي هذا دليل على ما قدمناه من الحكم بالعادة، على الشرط الذي ذكرناه.

الوجه الثامن والخمسون: قوله، عليه السلام: (أَوْمُخْرِجِي هُم)؟ تعجباً منه، عليه السلام، لكونه من أشرفهم وأفضلهم، وهم يحترمون ويقرّون له بالفضل والسؤدد، حتى إن اسمه عندهم كان الصادق والأمين، ثم إنهم مع ذلك إذا جاءهم بالحق والنور يخرجونه فوقه منه، عليه السلام، التعجب على ما يقتضيه العقل والنظر والقياس، وهو أن من كان رفيعاً وأتى بزيادة في ترفيعه يزداد في الترفيع والخزمة، ولم يكن، عليه السلام، ليعلم العادة المستمرة، وهو أن كل من أتى للنفوس بغير ما تحب وما تألف، وإن كان ممن تحب وتعتقد، تعافه<sup>(١)</sup> وتطرده. وقد قال، عز وجل، حكاية عنهم: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

الوجه التاسع والخمسون: فيه دليل على أن التجربة تُحدث علماً زائداً على العلوم لا يلحق بالعقل ولا بالنظر ولا بالقياس، لأن النبي، ﷺ، اقتضى نظره ما قدمناه، لكونه أطرّد الحكم وقاس عليه على الوجه الذي أبديناه. وورقة أخبر بما جرت به العادة وأفادته التجربة، ولذلك قال له: (لم يأت أحد<sup>(٣)</sup> بمثل ما جئت به إلا عودي) موافقةً منه للنبي، ﷺ، على مقتضى العقل والنظر والقياس، وبياناً للحكم بما جرت به العادة، وأفادته التجربة، ولأجل هذا المعنى أوصى لقمان ابنه بذلك فقال له: يا بني عليك بذوي التجارب.

(١) تعافه: تكرهه فتركه.

(٢) سورة الأنعام، من الآية ٣٣.

(٣) كذا، ولفظ الحديث: رجل.

الوجه الستون: قولها: (ثم لم يَنْشَبْ ورقة أن تُوقِي) تريد: أن ورقة لم تَظُلْ حياته لوقت الرسالة، بل اخترمته<sup>(١)</sup> المنية قبلها.

الوجه الحادي والستون: قولها: (وَقَسَرَ الوحي) تريد: أن الوحي أَبْطَأَ بعد هذه المرة، والحكمة في إبطائه هي أن النبي، ﷺ، قد حصلت له رُزْعة أَوَّلًا عند نزول المَلَك عليه، على ما تقدّم، فكان الإبطاء بعد ذلك لكي يتهدّن، عليه السلام، من روعته، وتبقى نفسه المكزّمة منشوّفةً لمثله. كما روي عنه، عليه السلام، حين أَبْطَأَ الوحي عنه كثر اشتياقه إلى عَوْدِهِ، حتى لقد كان يزوم أن يلقي بنفسه من شواحق الجبال.

الوجه الثاني والستون: قوله عليه السلام: (فرفعتُ بَصْرِي فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض). هذا إظهارُ قدرة الله، عزّ وجلّ، إذا أراد شيئاً أن يقول له: كُنْ فيكونُ. فكما جعل، عزّ وجلّ، الأرض لبني آدمَ يتصرّفون فيها كيف شاؤوا، فكذلك جعل الهواءَ للملائكة يتصرّفون فيه كيف شاؤوا، فالذي أمسك الأرضَ بمن يمشي عليها هو المُمْسِكُ للهواءِ ومن يمشي عليه، ليس في قدرته عِلَّةٌ لمعلول، لكن ذلك مغطى عن الأبصار، وإنما أراد ذلك للنبي، ﷺ، تربيةً له، وترقياً، لِيَتَقَوَّى الإيمانُ واليقين، فيرجع له علم اليقين عين اليقين. وكذلك خرق العادة للمباركين أصحاب الميراث، إذا رأوا منها شيئاً قوي إيمانهم، وازداد يقينهم، وكان ذلك تربيةً لهم، وترقياً في مقامات الولاية.

الوجه الثالث والستون: قوله، عزّ وجلّ: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْيَنُ﴾ إنما سمّاه، عزّ وجلّ، بذلك من جهة الإناس له واللطف به، لأن عادة العرب لا تُسمّي الإنسان بحالته التي هو فيها إلا من جهة الإناس واللطف. ومنه قوله، عليه السلام، لعلي رضي الله عنه: (قُمْ أبا تراب)<sup>(٢)</sup>، لأنه كان في وقته ذلك مضطجِعاً على الأرض، فسّمّاه بذلك من جهة اللطف والإناس.

الوجه الرابع والستون: فيه دليل على أنه، عليه السلام، أُمِرَ بالإنذار حين نزول الوحي عليه من غير تراخٍ في ذلك ولا بَطْءٍ، لأنه أتى بالفاء، في قوله: ﴿فَأَنْذِرْ﴾ وذلك يفيد التّعقيب والتسبيب.

الوجه الخامس والستون: لقائل أن يقول: النبي، ﷺ، قد أُرْسِلَ بشيراً ونذيراً، فلمَ أُمِرَ في هذه الآية بالإنذار، دون البشارة؟ والجواب: أنه إنما أُمِرَ بالإنذار أَوَّلًا، لأن البشارة لا تكون إلا لمن دخل في الإسلام، ولم يكن إذ ذاك مَنْ دخل في الإسلام. وفيه دليل لما قدمناه من أن خشية النبي، ﷺ، كانت من الكهانة، لأنه طالما بقي له، عليه السلام، الاحتمال الذي ذكرناه بقي على خشيته

(١) اخْتَرَمَتْهُ الْمَنِيَّةُ: أَخَذَتْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ورغبته، فلما أن صُرِّح له بالرسالة، وأُمر بالإندار زال عنه ذلك، فقام، عليه السلام، من حينه مسرعاً لِلأمر، ليس به بأس.

الوجه السادس والستون: قوله، عز وجل: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ قد اختلف العلماء في معناه. فمن قائل يقول: إن المراد به القلب، ومن قائل يقول: المراد به الثياب التي تلبس، وهذا هو الأظهر، والله أعلم. لأنه قال بعد ذلك: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ومعناه: طهر قلبك من الرُّجْز. والرُّجْز هو الأصنام وغير ذلك مما كانت العرب تعبد. فإذا حملنا قوله عز وجل ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾<sup>(١)</sup> على القلب، فيكون التطهير يعود على القلب مرتين. وليس من الفصيح.

فإن قال قائل: يكون بمعنى التأكيد، قيل له: القاعدة في ألفاظ الكتاب والحديث أنه مهما أمكن حملها على كثرة الفوائد كان أولى من الاختصار على بعضها، ولا يُقتصر على بعض الفوائد التي يدل عليها اللفظ ويترك بعضها إلا لمعارض لها، وههنا ليس لنا معارض في الحمل على الفائدتين المتقدمتين. بيان ذلك: أن هذا الخطاب كله ظاهر للنبي ﷺ، والمراد أمته، لأنه، عليه السلام، كان طاهراً مطهراً، خُلِقَ على ذلك، ورُبِّي فيه، وطُبع عليه، ولكن يدخل عليه السلام في الخطاب مع أمته من قَبْل أنه كان يفعله أولاً على النَّدب، أعني ما أمر به الآن من التَّعَبُّد، ثم صار الآن على الوجوب، كالصَّيِّ يُصَلِّي أَوَّلَ النَّهَارِ على النَّدب ثم يصلي آخره على الوجوب، إذا بلغ من يومه.

الوجه السابع والستون: قوله، عز وجل: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾<sup>(٢)</sup>. قد اختلف العلماء في معناه. فمن قائل يقول: معناه لا تُبطل صدقتك بالَمَنِّ. ومنه قوله، عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾<sup>(٣)</sup> ومن قائل يقول: معناه لا تَمْنُنْ بكثرة العمل فتكسل عن العبادة. ومن قائل يقول: معناه لا تُعطِ بِالْمَنِّ والأذى الهدية لثَنَابٍ عليها. وهذا كله جارٍ على القاعدة التي قررناها، وهو أن الخطاب للأمة وهو، عليه السلام، المتلقي للخطاب، والعموم يشمل الكل على ما بيناه.

الوجه الثامن والستون: فيه دليل لأهل الصَّوْفَةِ في قولهم: باستحباب العمل وترك الالتفات،

(١) يطلق كثير من فصحاء العرب على القلب لفظ «ثياب». وقد ورد ذلك في الشعر الجاهلي من شعر عترة بن أوس العبيسي وهو يصف قتله لخصمه:

فَشَكَّكْتُ بِالرُّنَجِ الْأَصْمَ ثِيَابَهُ      لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَاءِ بِمُحَرَّمٍ  
وثيابه: قلبه. بدلالة السياق.

(٢) هذه الآية الكريمة وما بعدها الواردة في الوجه التاسع والستين لم ترد في نص الحديث.

(٣) سورة البقرة، من الآية ٢٦٤.

ودوام الإقبال والحضور والعمل، لأن النظر إلى كثرة العمل يحدث الكسل، كما تقدّم. فكيف به إذا كان النظر لغير العمل؟ ومنه قولهم: الوقتُ سيفٌ، يريدون به: إقطعَ الوقتَ بالعمل لئلا يقطعك بالتسويق، ولأن الالتفات للحفظ وكثرة العمل وغير ذلك هلاك، والسالك إذا التفت إلى الهلاك كان هالكا.

الوجه التاسع والستون: قوله، عز وجل: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ معناه: اصبر على عبادة ربك، ومنه قوله، عز وجل: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾<sup>(١)</sup> لأن الشأن في العبادة الدوام والصبر عليها، ولهذا المعنى كان، عليه السلام، إذا عمِلَ عملاً أثبتَهُ وواظبَ عليه<sup>(٢)</sup>.

الوجه السبعون: قد اختلف العلماء في هاتين الآيتين، أثبتهما أنزلت قبل صاحبتها، بعد اتفاقهم على أنهما أول ما نزل من القرآن، أعني آية (المُدَّثِّر) وآية (اقْرَأ) فمن قائل يقول: آية المدَّثِّر. ومن قائل يقول: آية اقْرَأ. وكلاهما، والله أعلم، حق، لأنه يمكن الجمع بينهما بأن يقال: أول ما نزل من التنزيل آية (اقْرَأ) وأول ما نزل من الأمر بالإندار في التنزيل آية (المُدَّثِّر).

ومثله قوله عليه السلام: (أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ)<sup>(٣)</sup>. وقوله، عليه السلام: (أَوَّلُ مَا يُقْضَى فِيهِ الدَّمَاءُ)<sup>(٤)</sup>. وهذان أيضاً حديثان متعارضان. ويمكن الجمع بينهما على ما قررناه في الجمع بين الآيتين. وهو أن يقال: أول ما يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ من الفرائض البدنية: الصلاة. وأول ما يحكم فيه من المظالم التي بين العباد: في الدماء. فصَحَّ الجمع بين الآيتين والحديثين بهذا الذي ذكرناه. والله أعلم.

الوجه الحادي والسبعون: قولها: (فَحَمِيَّ الْوَحْيِ، وَتَتَابَعٌ). تريد: أنه كثر نزوله بعد نزول هذه الآية، ولم ينقطع. ولقائل أن يقول: لِمَ عُبِّرَ عَنْ تَتَابُعِ نَزُولِ الْوَحْيِ بِهَذَا اللَّفْظِ، وَلَمْ تَعْبَرْ بِغَيْرِهِ؟

الجواب: أنه إنما عُبِّرَ بِذَلِكَ تَمِيمًا مِنْهَا لِلتَّمْثِيلِ الَّذِي مَثَلَتْ بِهِ أَوَّلًا، وَهُوَ كَوْنُهَا جَعَلَتْ الْمَرَائِيَّ الَّتِي قَبْلَ الرِّسَالَةِ مِنَ الرِّسَالَةِ، وَهِيَ مِنْهَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ. فَنَسَبَ الْمَرَائِيَّ إِلَى الرِّسَالَةِ كَنَسَبِ انْصِدَاعِ الْفَجْرِ مَعَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، كَمَا تَقَدَّمَ أَوَّلَ الْحَدِيثِ، لِأَنَّ الْحَقَّ إِذَا بَدَأَ يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، فَكَذَلِكَ انْتِشَارُهَا وَكَثْرَةُ ظُهُورِهَا، أَعْنِي: الرِّسَالَةَ، كَتَمَكَّنَ الشَّمْسُ فِي ارْتِفَاعِهَا، وَظُهُورُ نُورِهَا، وَكَثْرَةُ حَرِّهَا، لِأَنَّ ضَوْءَ الشَّمْسِ لَا يَشْتَدُّ وَيَتَمَكَّنُ إِلَّا مَعَ قُوَّةِ حَرِّهَا عِنْدَ اسْتَوَائِهَا. وَلِذَلِكَ قَالَتْ: (فَحَمِيَّ)

(١) سورة الحجر، من الآية ٩٩.

(٢) أخرجه البخاري والنسائي وأبو داود عن السيدة عائشة رضي الله عنها بألفاظ مختلفة.

(٣) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ) أي حمي وتتابع على مقتضى تلك الزيادة ولم ينقص، لأنها شَبَّهت بالشمس، والشمس إذا استوت في كبد السماء أخذت في الفَيءِ وَقَلَّ حَرُّهَا، والْحَرَّ هنا عبارة عما تَضَمَّنَه التنزيل من الثَّور والهُدَى، فتحرزت بقولها: (وتتابع)، لئلا تمثل بالشمس من كل الجهات، لأن الشمس يلحقها الأفول والكسوف وما أشبه ذلك، فأفاد لفظها أن النور والكمال وتوالي البيان والمنافع بقي على الحال الذي أبدته وشَبَّهت به، لم يلحقه نقص بعد ذلك.

في هذا المعنى دليل لأهل الصوفة حيث يقولون: شمسُ كُلِّ مقام بحسب حاله. ولأن شمس النبي، ﷺ، نزول القرآن عليه. ثم كذلك بتلك النسبة في الوارثين له، فشمس المريد: عِلْمُهُ، وشمس الصَّديق: معرفته. ولكل مقام شمسُه بحسب حاله.

فاحذر من رياح طبعك أن تثير سحائب شهوتك، فتغطي على شمس حالك، فتوجب زَلَّة قَدَمِكَ، فتدخل في ضمن قوله، عليه السلام: (لا يَخْتَلِسُ الْخَلَسَةُ حِينَ يَخْتَلِسُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ) <sup>(١)</sup>، أي كامل الإيمان، لأن تغطية نور الإيمان نَقْصٌ فيه.

أعاذنا الله من نقصه، وأدام لنا كماله حتى يقبضنا به إليه بِمَنِّهِ.  
وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليماً كثيراً.

الكتب النادرة التي توضع لأول مرة

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ (لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن).

## حديث حلاوة الإيمان

عن أنس، رضي الله عنه، أن النبي، ﷺ، قال: (ثلاثٌ من كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوةَ الإيمان. أن يكونَ اللهَ ورسولُهُ أَحَبَّ إليه ممَّا سِوَاهُمَا. وأنَّ يُحِبَّ المِرَّةَ لا يُحِبُّهُ إلاَّ اللهَ، عَزَّ وَجَلَّ، وأنَّ يَكْرَهُ أن يعودَ في الكفرِ كما يَكْرَهُ أن يُقَذَّفَ في النارِ).

\*\*\*

ظاهر هذا الحديث يدل على أن الإيمان على قسمين: بحلاوة وبغير حلاوة. ومنه قوله، عليه السلام: (الإيمان إيمانان، إيمانٌ لا يُدْخِلُ صاحِبَه النارَ، وإيمانٌ لا يَخْلُدُ صاحِبَه في النارِ)<sup>(١)</sup>. فالإيمان الذي لا يُدْخِلُ صاحِبَه النارَ هو ما كان بالحلاوة، والإيمان الذي لا يَخْلُدُ صاحِبَه في النارَ هو ما كان بغير حلاوة. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: الحلاوة المذكورة هل هي محسوسة أو معنوية؟

قد، اختلف العلماء في ذلك. فَحَمَلَهَا قوم على المعنى، وهم الفقهاء. وحملها قوم على المحسوس، وأبقوا اللفظَ على ظاهره من غير أن يتأولوه، وهم أهل الصوفة، والصواب معهم في ذلك، والله أعلم؛ لأن ما ذهبوا إليه أبقوا به لفظَ الحديث على ظاهره من غير تأويل، وهو أحسن من التأويل ما لم يعارض لظاهر اللفظ معارضٌ. ويشهد لما ذهبوا إليه أحوال الصحابة، رضي الله عنهم، والسلف الصالح وأهل المعاملات، لأنه قد حكى عنهم أنهم وجدوا الحلاوة محسوسةً. فمن جملة ما حكى عنهم في ذلك حديث بلال، رضي الله عنه، حين صُنِعَ به ما صُنِعَ في الرَّمْضَاءِ، إكراهاً على الكفر وهو يقول: (أَحَدٌ، أَحَدٌ)<sup>(٢)</sup> فمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان، وكذلك أيضاً عند موته، أهله يقولون: (واكزباه) وهو يقول: (واطرَباه).

مَحْمُوداً وَجَزَبَةً<sup>(٣)</sup>

غَدَاً أَلْقَى الْأَجْبَةَ

(١) لم نعرف مصدره.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢٣٢/٣.

(٣) هذا البيت من مجزوء الرجز أورده ابن سعد في الطبقات ١٠٦/٤ على لسان وفد الأشعرين حين دنوا من المدينة ومعهم أبو موسى الأشعري رضي الله عنه.



فمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء، وهي حلاوة الإيمان.

ومنها حديث الصحابي الذي سُرِقَ فرسه بَلِيل، وهو في الصلاة، فرأى السارق حين أخذه، فلم يقطع لذلك صلاته، فقيل له في ذلك، فقال: ما كنتُ فيه أَكْبَرُ من ذلك<sup>(١)</sup>. وما ذاك إلا للحلاوة التي وجدها محسوسة في وقته ذلك.

ومنها حديث الصحابيَّين اللَّذَيْنِ جَعَلَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ، في بعض مغازيه ليلة يحرسان جيش المسلمين. فنام أحدهما وقام الآخر يصلي، فإذا بجاسوس من قِبَل العدو قد أقبل، فرآهما فَكَبَدَ<sup>(٢)</sup> الجاسوسُ القوسَ، ورمى الصحابيَّ، فأصابه، فبقي على صلاته ولم يقطعها، ثم رماه ثانية فأصابه، فلم يقطع لذلك صلاته، ثم رماه ثالثة فأصابه، فعند ذلك أَيْقَظَ صاحبه، وقال: لولا أنني خفتُ على المسلمين ما قطعتُ صلاتي<sup>(٣)</sup>. وما ذاك إلا لشدة ما وَجَدَ فيها من الحلاوة، حتى أذهبت عنه ما يجده من ألم السهام.

ومثل هذا ما حكى عن كثير من أهل المعاملات، يطول الكلام عليه، وفيما ذكرناه كفاية.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام: (أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ، لا يحبُّه إلا الله عزَّ وجلَّ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقَذَّفَ في النار) هذه الثلاثة الألفاظ<sup>(٤)</sup> ترجع إلى اللَّفْظِ الأول منها، وهو أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، لأن من ضرورة المحبة لله ولرسوله أن يدخل ما ذُكِرَ بعدُ في ضِمْنِهِ. لكن فائدة إخباره عليه السلام، بِتَيْنِكَ الْحَالَتَيْنِ اللَّتَيْنِ ذُكِرَتَا بعد ذلك اللَّفْظِ يريد به: أن من ادعى حُبَّ الله وحُبَّ رسوله ﷺ فليختبر نفسه في حُبِّ المرءِ، لماذا يحبُّه؟ وفي الإكراه على الكفر. كيف يجد نفسه إن ابتلي بذلك؟ لأنه قد يسبق للنفوس دَعَاوَى بحُبِّ الله وحُبِّ رسوله ﷺ. فجعل، عليه السلام، هاتين العلامتين ليفرق بين الدعوى والحقيقة.

ومثل هذا قوله، عز وجل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٥)</sup>، لأن حقيقة الإيمان أن يتوكل صاحبه في كل أموره على ربِّه، ويعتمد عليه، وإن كان بغير ذلك فإنما هو دعوى،

(١) لم نعرف مصدره.

(٢) كذا. وفي القاموس، تَكَبَّدَ الْفَلَاةُ إِذَا قَصَدَ وَسَطَهَا وَمُعْظَمَهَا.

(٣) رواه البخاري في كتاب الوضوء تعليقا، ووصله ابن إسحاق في المغازي ورواه عنه الإمام أحمد في المسند وأبو داود، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم.

(٤) يريد: حُبَّ الله ورسوله، وحُبَّ المرءِ، وكراهة الكفر.

(٥) سورة المائدة، من الآية ٢٣.

وكذلك من ادعى حبَّ الله وحبَّ رسوله، ﷺ، ثم لم يصدق في تبيينك العلامتين المذكورتين، فحبه دعوى لا حقيقة.

الوجه الثالث: يرد على الحديث سؤال وهو أن يقال: لِمَ عُبِّرَ عليه السلام، عن تناهي الإيمان بالحلاوة، ولم يعبرَ بغيرها؟

والجواب: أنه إنما عُبِّرَ، عليه السلام، بالحلاوة لأن الله عزَّ وجلَّ، قد شبه الإيمان بالشجرة في كتابه حيث قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾<sup>(١)</sup>؟ والكلمة الطيبة هي كلمة (الإخلاص) وهي أَسُّ الدِّينِ، وبها قوامه<sup>(٢)</sup>.

فكلمة الإخلاص في الإيمان كأصل الشجرة لا بدَّ منه أولاً، وأغصانُ الشجرة في الإيمان عبارة عما تضمنته كلمة (الإخلاص) من اتباع الأمر، واجتناب النهي. والزهر في الشجرة هو في الإيمان عبارة عما يحدث للمؤمن في باطنه من أفعال البر؛ لما روي عنه، عليه السلام، أن (من هم بحسنة خَرَجَتْ على فيه رائحة عَظِرَة، فَيَسْمُهَا الْمَلَكُ، فَيَكْتُبُ له حسنة)<sup>(٣)</sup>. والزهر في الشجرة كذلك له رائحة عطرة، وما ينبت في الشجرة من الثمر هو في الإيمان عبارة عن أفعال الطاعات. وحلاوة الثمرة في الشجرة هي في الإيمان عبارة عن كماله. وعلامة كماله ما ذكر، عليه السلام، في الحديث، لأن غاية فائدة الشجرة تناهي حلاوة ثمرها وكماله.

ولهذا قال تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾<sup>(٤)</sup> وأكلها - على أحد الأقاويل - دائم. فثمرة المؤمن لا تزال أبداً بين زهر وإبار<sup>(٥)</sup> وبُدُوُ صلاح وتناهي طيب، فلم تنزل معطرة مثمرة يانعة دائمة. ولهذا فَضِّلَتْ شجرة الإيمان على غيرها لأن الشجرة - عدا شجرة الإيمان - يأتي فيها كل شيء فريد، ثم يذهب عنها كل ذلك في بعض السنة، فالزهر فريد، والإبار فريد، وبُدُوُ الصلاح فريد، وتناهي الطيب فريد.

والمؤمن لا تزال ثمرة إيمانه - بمجموع ذلك كله - رائقة عطرة، ولهذا المعنى قال، عليه السلام: (نَيَّةُ الْمُؤْمِنِ أَبْلَغُ مِنْ عَمَلِهِ)<sup>(٦)</sup>. قال العلماء معناه: أن المؤمن في عمل، ونيته - عند

(١) سورة إبراهيم، الآية ٢٤ ومن الآية ٢٥.

(٢) قوام الشيء: عِمادته ونظامه.

(٣) لم نعرف مصدره.

(٤) سورة إبراهيم، من الآية ٢٥.

(٥) أبر النخل: أثراً وإباراً؛ لقمه. وأبر الزرع: أصلحه.

(٦) قال العجلوني في كشف الخفاء عنه: رواه العسكري في الأمثال والبيهقي عن أنس مرفوعاً. وما أخرجه الطبراني =

فراغه - لعمل ثانٍ<sup>(١)</sup>. فالزهر هو النية، والثمر هو العمل الصالح الحالي. وبُذِرَ الصّلاح هو اتباع السنّة في العمل، لقوله عليه السلام: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ عَمَلٍ أَمْرِيءٍ حَتَّى يُتَقِنَهُ. قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا إِتْقَانُهُ؟ قَالَ: يُخْلِصُهُ مِنَ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ)<sup>(٢)</sup>. فترك النية في العمل عاهة فيه تمنع من بُدْوِ صلاحه، فإذا لم يَبْدُ صلاحه فمن باب أَوْلَى الْأَيُّ إِلَى تَنَاهِي الْحَلَاوَةِ.

وَبَرِدُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى بَحْثٌ دَقِيقٌ، لِأَنَّ الثَّمَرَةَ إِذَا لَمْ يَبْدُ صِلَاحُهَا لَا يَجُوزُ بَيْعُهَا، بِمَقْتَضَى مَنَعَ الشَّارِعَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذَلِكَ. وَالْبَيْعُ فِي هَذِهِ الثَّمَرَةِ هُوَ الْقَبُولُ لِقَوْلِهِ، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾<sup>(٣)</sup> الْآيَةُ.

ولهذا المعنى أشار، عليه السلام، بقوله: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ عَمَلٍ أَمْرِيءٍ حَتَّى يُتَقِنَهُ). فإذا لحقت العاهة فلا إتقان، فلا يكون مقبولا. وهذه هي دائرة بعض العوام لجهلهم بالسنّة، وإن كان بعضهم يدّعي علوماً. فإن كل علم يجهل صاحبه علم السنّة داخل تحت قوله، عليه السلام: (إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ لَجَهْلًا)<sup>(٤)</sup>.

وتناهي الطيب إنما يكون للخواص، وكيفية تناهي الطيب في العمل هو أن يعمل العمل حباً في الله وفي رسوله، ﷺ، على ما جاء في الحديث، لا يريد غير ذلك، فيكون عمله مشكوراً، لقوله، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيُوبًا فَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَةً وَسُرُورًا. وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا. مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا. وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذِيلًا. وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِمَائِيَّةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا. قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا نَقِيرًا. وَرُسُقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا. عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا. وَطُوفٌ عَلَيْهِمْ وَالدَّانُ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا. وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلُكًا كَبِيرًا. عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مِّنْ سُندُسٍ خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٍ وَحُلُوعًا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا. إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا﴾<sup>(٥)</sup>.

= عن سهل بن سعد الساعدي مرفوعاً (نية المرء خير من عمله).

(١) كأنه يريد أن يقول: إن المؤمن لا ينقطع عن عمله وعن نيته التي تسبق العمل ولا تنفصل عنه، وتؤدي إليه لا محالة.

(٢) لم نعرف مصدره.

(٣) سورة التوبة، من الآية ١١١.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه عن بريدة رضي الله عنه. وضعفه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء، والسيوطي في الجامع الصغير، والمتاوي في فيض القدير.

(٥) سورة الإنسان، الآيات ٩ - ٢٢. العَبُوسُ وَالْقَمْطَرِيرُ: الشديد، المخيف. نَصْرَةٌ: حلاوة وطراوة، الزَمْهَرِيرُ: =

فلأجل هذه النسبة وهذا الاتحاد الذي بين الشجرة والإيمان عبّر عنه، عليه السلام في الحديث بالحلاوة ولم يعبر بغيرها ليقع المثال في كل الحالات. ومنه قوله، عليه السلام: (الأساس كشجرة ذات جَنَى، وَوُشِيكَ أَنْ يَعُودُوا كَشَجَرَةِ ذَاتِ شَوْكٍ) (١). الحديث... فسننهم، عليه السلام، أيضاً بالشجرة وهم كذلك لا شك فيه؛ لأن من تقدّم من السلف كان إيمانهم كاملاً لنتنهم للأمر والنهي، وحبهم لله ورسوله، ﷺ والنصيحة التي كانت بينهم، حتى لقد كانوا إذا التقى بعضهم مع بعض يقولون: (تَعَالَ نُؤْمِنُ) (٢). فكانت شجرة إيمانهم تنامت في الطيب والحلاوة.

وأما اليوم فقد ذهب ذلك، وظهر ما أخبر به، عليه السلام، لرجوعهم كشجرة ذات شوك، لعدم اتباعهم للأمر والنهي، وترك النصيحة بينهم، والغش الذي في صدورهم، فرجع موضع النصيحة غشاً، وموضع الامتثال مخالفة، فلم يبق معهم من صفة الإيمان في غالب أحوالهم إلا النطق بالكلمة (٣)، وما عداها من الأفعال بضد ما يقتضيه الإيمان، فبقي لهم الأصل، وذهبت ثمرته التي هي الأعمال، كما هي شجرة السُّدْر (٤) مع شجرة الثمر إذا أبدلت مكانها. فالأولى كانت تطعمهم الثمر وله حلاوة، والثانية تنبت الشوك. هذا هو حال عامتهم اليوم، اللهم إلا القليل النادر لقوله، عليه السلام: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة، لا يضُرُّهُمْ من خالفهم) (٥). فهذه الطائفة التي أخبر بها، عليه السلام، هي التي لم تزل ثمرة إيمانهم تُطعم وتتناهى في الحلاوة، كما كان السلف رضي الله عنهم، ولولاهم ما أمطرت السماء قطرة، ولا أنبت الأرض خَضِرَةً (٦)، وَلَوْ قَعَّ الهلاك بمن تقدم ذكرهم، ولكنه، عز وجل، يمهّلهم لمجاورتهم لأهل الإيمان المتحقيقين، إكراماً لأوليائه، وترفعاً. جعلنا الله من أوليائه بِمَنِّهِ وَيُمْنِهِ. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

= البرد الشديد. ذُلَّتْ قُطُوفُهَا: لا تمتنع على قطفها كيف شاؤوا. قوارير: ج قارورة وهي الوعاء - من الزجاج - تحفظ فيه السوائل. السُّلْسِيل: الشراب السهل المرور في الحلق لعدوبته، واسم عين في الجنة. إِسْتَبْرَق: الديباج الغليظ.

- (١) انفرد الديلمي في مسند الفردوس بإخراجه عن أبي أمامة رضي الله عنه.
- (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
- (٣) يريد به (الكلمة) شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.
- (٤) السُّدْر: شجر النَّبَق، واحده: سِدْرَةٌ. وسدرة المنتهى: شجرة في الجنة.
- (٥) حديث صحيح متواتر.
- (٦) الخَضِرَة (بضم فسكون): لون الأخضر. والخَضِرَة (بفتح فكسر) الزرع الأخضر. وفي التنزيل ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ (الأنعام، من الآية ٩٩).

## حديث البيعة

عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، رضي الله عنه، أن رسولَ الله، ﷺ، قال: (بَايَعُونِي عَلَى الْإِسْلَامِ، لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ. وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ. وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ). فبايعناه على ذلك.

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على أن مَنْ وقع في شيء مما نُهي عنه، فاقْتَصَرَ منه أن القصاصَ يُسْقِطُ عنه في الآخرةِ وَزْرَهُ<sup>(١)</sup>، وَيُكَفِّرُ ذَنْبَهُ. وقد اختلف العلماء في ذلك، هل يسقط، أم لا؟ على قولين. والحديث دليل لمن قال منهم بالإسقاط لأنه نص في موضع الخلاف.

والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله عليه السلام: (بَايَعُونِي) هذه البيعة يُحتاج فيها إلى بيان: ما هي في الاصطلاح العُرْفِي، وكم أنواعها، وما حقيقة معناها، وما المقصود بها في هذا الموضع، وما الفائدة فيها، وما الحكمة في وضعها على هذا الأسلوب، ولِمَنْ تَجِبُ، وبِمَاذَا تَجِبُ، وعلى من تجب، وشروط الإجزاء فيها، وبِمَاذَا تصحَّ، وبِمَاذَا تفسد؟

فأما أنواعها: فهي على ضربين: عامة وخاصة.

والعامة منها على وجوه، وهي أيضاً على ضربين: منها ما يصحّ دون شرط، ومنها ما لا يصحّ إلا بشروط.

(١) الوزر: الذنب، الجمل الثقيل.

فالتى تصحّ منها بغير شروط هي مثل ولاية الأب على ابنه، والرجل على أهله وعبيده. لأن هذه قد صحت بأمر من الله تعالى، فلا تحتاج إلى شروط، وسيأتي بيان ذلك في الكلام على الحديث الذي قال فيه، عليه السلام: (كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)<sup>(١)</sup>.

والتي لا تصحّ إلا بشروط فمنها: ما هي ثابتة، والشروط تأكيد لها، ولوجه ما مع ذلك بمقتضى الحكمة الربانية. ومنها: ما هي ثابتة، والشروط تأكيد للحق، وزيادة حقّ ثان.

فأما التي هي ثابتة، والشروط تأكيد لها، ولوجه ما مع ذلك بمقتضى الحكمة الربانية فهي مثل بيعة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> لأن كلّ بيعة عهد، فيذات الربوبية ثبت الحق على العبودية، وهذه البيعة هنا تأكيد للحق، ولوجه ما اقتضته الحكمة، وهو تعليق التكليف بهذه البيعة، ليثبت على الامتثال، ويعاقب على الضد، علّة شرعية لا عقلية ولا عليّة<sup>(٣)</sup>. ولهذا المعنى أشار صاحب الأنوار<sup>(٤)</sup> بقوله: (فرض في فرض لفرض لازم) يريد: أن الفرض وجب على العبودية بنفس إيجاد الإلهية لهم، ثم تأكد بالعهد المأخوذ عليهم في هذا الموطن المذكور. والفرض اللازم هو: ما حكم، عز وجل، من الحكم المحتوم ألا يستقرّ في دار كرامته إلا من امتثل أمره، ووفى بعهده، أو بيعضه، وسامحه، عز وجل، من طريق الفضل والمن لقوله، عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(٥)</sup>. هذا من طريق المن والفضل. وأما العدل، فهو ما تضمنه قوله، عز وجل، في كتابه جواباً لعيسى عليه السلام: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾<sup>(٦)</sup>.

وأما التي هي ثابتة، والشروط تأكيد للحق وزيادة حقّ ثان، فهي مثل البيعة للنبي، ﷺ. لأنه لما أرسله، عز وجل، ثبتت البيعة له لقوله، عز وجل، في كتابه: ﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾<sup>(٧)</sup> فقد قدّمه، عز وجل، عليهم. فالبيعة له، عليه السلام، تصديق منهم لرسالته، وإذعان لحكمه، وتصديقهم له تأكيد لما من الله به عليه.

وأما التي لا تصحّ إلا بشروط، والشروط هي الموجبة لها، فهي على نوعين: إما بتقديم الخليفة لشخص يرتضيه للمسلمين بعده، كما فعل أبو بكر، رضي الله تعالى عنه، في توليته عمر،

(١) حديث صحيح، متفق عليه، وسيرد شرح مفصل له في هذا الكتاب في الحديث ذي الرقم (٥١).

(٢) سورة الأعراف، من الآية ١٧٢.

(٣) العلّة: نسبة إلى العلّة. والعلّة في علم الأصول هي التي تدور مع المعلول.

(٤) صاحب الأنوار: هو الشيخ الإمام أبو عبد الرحمن الصقلي. (انظر كتاب المدخل لابن الحاج ٣/ ٢١٣).

(٥) سورة النساء، من الآية ٤٨.

(٦) سورة المائدة، من الآية ١١٩.

(٧) سورة الأحزاب، من الآية ٦.

رضي الله عنه، بعده، وإما بإجماع المسلمين عليه بعد موت الخليفة، كما فعل الصحابة، رضوان الله عليهم في إجماعهم على عثمان، رضي الله عنه، بعد موت عمر، رضي الله عنه، فهذا حُكْم ثابت إلى يوم القيامة، لقوله عليه السلام: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء بعدي)<sup>(١)</sup>.

وأما الخاصة منها فهي ما بين الشارع، عليه السلام، في الجماعة إذا سافروا أن يُقَدِّمُوا رجلاً منهم عليهم، وكذلك ما في معناه، لأن ذلك كان لوجه خاص. ويتبين ما فيه من المنفعة ببيان منفعة العامة إذا ذكرناها، إن شاء الله تعالى، لأن فيها شَبَهاً منها.

وأما حقيقة معناها على التقسيم المتقدم، فهي بَيْع من البيوع، لأنه، عليه السلام، قال: (بایعونی) ولم يقل: (عاهدوني). وهذا النص يتضمّن بمعناه شيئاً من أوصاف الرِّقِّ، على ما أبينه بعد، إن شاء الله تعالى، وإذا كانت بَيْعاً من البيوع فيحتاج إلى بيان المَبِيع ما هو؟ والثمن ما هو؟

فأما المَبِيع في هذا الموضع فهو ترك ما للنفس من الاختيار، وتفويض الأمر لصاحب البيعة. ليتصرف صاحب البيعة فيمن بايعه بحسب ما أمره الله عزّ وجلّ. وهذا ضرب من الرِّقِّ، لأن السيد قد مَلَكَ رقبة العبد، فلم يبق للعبد اختيار ولا تصرف، لأنّ مَنْ مَلَكَ الرقبة فقد مَلَكَ جميع المنافع. فأشبه ذلك العبد في انقياده دون استرقاق الرقبة، وبقي المال لمالكه لا لصاحب البيعة، ليس كما هو مال العبد لسيدته، لأنه لم يشبه العبودية إلا في الذي ذكرناه لا غير.

وأما الثَّمَنُ على هذا البيع، على أي وجه كان من الوجوه المتقدم ذكرها، فهو (الجَنَّة) بشرط التَّوْفِية فيها لقوله، عليه السلام، في بيعة العقبة إذ سأله الصحابة، رضي الله عنهم، على ما لَهُمْ من العَوَاض على بيعتهم فقال: (الجَنَّة). فقالوا: رَضِينَا، لا نَنْقُضُ البَيْعَ<sup>(٢)</sup>. فقد سَمَّى الشارع، عليه السلام، البيع والثمن والمُثَمَّن. وكذلك كلّ من بايَعَ بيعةً من البيوع بعد ذلك على مقتضى لسان العلم - على التقسيم الذي ذكرناه - فهذا ثمنه إذا لم يقع نقضها، لأنّ كل بيعة من البيوع التي ذكرناها إنما هي تجديد لبيعة النبي، ﷺ. وتأكيدها. وبيعة النبي، ﷺ، بيعةٌ لله عزّ وجلّ، لقوله تعالى في كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾<sup>(٣)</sup> وبيعتهُم لله تعالى وفاءً وتأكيدهُ لبيعةٍ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾<sup>(٤)</sup>.

وأما المقصود بها في هذا الموضع، على التقسيم المتقدم، فهو تقبيل اليد على الأوصاف

(١) أخرجه الإمام أحمد والدارمي وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن العرياض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والحاكم والبيهقي في السنن الكبرى عن أبي الزبير المكي عن جابر رضي الله عنه.

(٣) سورة الفتح، من الآية ١٠.

(٤) سورة الأعراف، من الآية ١٧٢.

المذكورة في الحديث بعد . ويتعلق بهذا النوع من الفقه أن للخليفة أن يُجَدِّد بَيْعَةَ أُخْرَى على وجه ما من المصالح الدينية إذا ظهر له ذلك مصلحةً، لمن ظهر له، كان بالخصوص أو بالعموم؛ لأن معنى البيعة في هذا الموضع تأكيد على الوفاء بما تقتضيه الألفاظ المذكورة بعد . وسأبين ما الحكمة في ذلك، إن شاء الله تعالى .

وأما الفائدة فيها، على التقسيم المتقدم، أعني في أنواع البيعة مطلقاً، لا في هذه الخاصة، لأن الكلام على فائدة الخاصة يأتي في تبيان ألفاظ الحديث - إن شاء الله تعالى - فهي جَمْعُ كلمة المسلمين، لأنه إذا دار الأمر على واحد كان أجمع للأمر، وأعظم للفائدة، لأن في ذلك نكايَةً للعدو، وعوناً على إقامة أحكام الله وحدوده، ولهذا قال، عليه السلام: (يَنْتَرِغُ اللَّهُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَنْتَرِغُ بِالْقُرْآنِ)<sup>(١)</sup>، وأمر بقتال العدو مع كلِّ بَرٍّ وفاجرٍ من الولاية<sup>(٢)</sup>، وأمر بحفظ البيعة وقال: (وإن كان أسود ذا رَيْبَيْنِ، منفوخ الخيشوم، فاسمَعْ وأطع، وإن ضربَ الظَّهْرَ وأخذَ المالَ)<sup>(٣)</sup>. فقيل: يا رسولَ الله: أرايتَ إن وُلِّيَ علينا أمراءٌ يطلبون منا حقوقَهم، ولا يعطونا حقوقنا؟ فقال، عليه السلام: (أعطوهم حقوقَهم، واطلبوا حقوقكم من الله، فإن الله سائلهم عما استرعاهم)<sup>(٤)</sup>. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وذلك لما يترتب عليه من عزِّ الإسلام، وإظهار الأحكام، وقمع الأعداء، والتشيت يوجبُ ضدَّ ذلك.

وأما الحكمة في وضعها على هذا الأسلوب: على التقسيم المتقدم، وهو تقبيل اليد، فلفوائد:

الفائدة الأولى: أن في ذلك تحصيلَ المقصود بالأمر اليسير . وتحصيلُ المقصود بالأمر اليسير أولى من تحصيله بالأمر الكثير، ولا سيما إذا كان مقتضى الأمر من عالمٍ كثير .

الفائدة الثانية: أن بعض الأقوال قد يصطَلَحُ صاحبُها في اعتقاده لأمرٍ ما مخالفاً لما قصد منه . وقد اختلف العلماء في المبتدي للكلام إذا نوى شيئاً ووارى عليه، هل يلزمه ما نوى أو صيغة

(١) أورده ابن الأثير في جامع الأصول ٨٣/٤ برقم ٢٠٧١ وذكر محقق هذا الكتاب «بهجة النفوس» أنه أخرجه رزين، وإسناده منقطع، وهو مشهور من كلام عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أبو داود والدارقطني والبيهقي في الكبرى عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) مؤلف من أحاديث عدة: منها في البخاري في الأحكام - باب السمع والطاعة للإمام - عن أنس رضي الله عنه، وعن أبي ذر، رضي الله عنه، وفي صحيح مسلم في الإمارة عن أم الحصين الأحمسية، رضي الله عنها، وفي البخاري ومسلم عن حذيفة رضي الله عنه .

(٤) مؤلف من حديثين: الأول: عن مسلمة بن يزيد الجعفي في صحيح مسلم - كتاب الإمارة - وعن ابن مسعود الذي أخرجه البخاري ومسلم . والثاني: أخرجه البخاري في الأنبياء ومسلم في الإمارة عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .



اللفظ؟ على قولين: فقرر الشارع، عليه السلام، هذه البيعة بفعل، لأن الفعل إذا ثبت له حكم خاص من الشارع، عليه السلام، لم ينفع فيه التأويل. ولو جعل، عليه السلام، هذه البيعة بأيمان، لكان كل واحد من الناس باختيار نفسه متى أراد خرج عن البيعة، لأن الأيمان قد جعلت لها كفارات، فإذا أراد المبايع النقص في البيعة كفر عن يمينه، وارتفع الإثم عنه. فجعل عليه السلام، هذه عهداً وشبهاً بالبيع - كما ذكرناه - لأن المتبايعين ليس لأحدهما خيار دون صاحبه والعهد ليس فيه ثنياً<sup>(١)</sup>، ولا كفارة، فجعلت هذه البيعة بهذين الوجهين الشديدين تحضيضاً على حفظ فائدة الخاصة والعامّة للمؤمنين.

الفائدة الثالثة: أن في ذلك رفع الدّلة عن المؤمنين، لأنهم لو كلفوا أن يقولوا معنى هذه البيعة - كما قدمناه - وهو أن يقول البائع: «قد ملكتك قيادي، وأنا لك مثل العبد، وأنت المتصرف فيّ كيف شئت» لكان يعزّ على بعض الناس النطق بذلك، وقد يعجز بعضهم عنه، فزُفيت تلك الكلفة بأدنى إشارة، وهذا من بديع الحكمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وأما قولنا: ولمن تجب؟، على التقسيم المتقدم، فتجب لله ولرسوله ﷺ، ولمن ولاه الله ذلك بمقتضى لسان العلم - على ما ذكرناه قبل - بتوليّته أو بإجماع المسلمين عليه.

وأما قولنا: بماذا تجب؟، على التقسيم المتقدم، فتجب بالإسلام، والدُّكورية، والعقل، وبلوغ حدّ التكليف، والأهلية، للمعرفة بمصالح الناس وذّب العدو، وخشية الله تعالى.

وأحد الشرطين المتقدمين - وهما: إمّا بتوليّة من الخليفة، أو بإجماع المسلمين عليه - يشهد لذلك قول النبي ﷺ، للصحابه، رضي الله عنهم، حين ولّى أسامة، وتكلّم بعضهم فيه، فقال: (إنكم طعنتم فيه وفي ولاية أبيه قبل، وإنه لجديرٌ بها، لما فيه من الدين، والخشية لله، عز وجل والشجاعة)<sup>(٣)</sup>. وأسامة، بحيث لا يُجهل حاله، كُفّ، له من الفضيلة خدمته لخير البشر. فلم يلحظ، عليه السلام، كونه من الموالي، لما كانت فيه الشروط المتقدم ذكرها.

وإنما قلنا: إنها تجب بالإسلام لقوله، جلّ وعزّ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾<sup>(٤)</sup>، ولقوله عليه السلام: (الإسلام يُغْلُو ولا يُغْلَى عليه)<sup>(٥)</sup>. ويترتب على هذا النوع من

(١) الثُّنيا: استثناء بلفظ (إن شاء الله) مثلاً.

(٢) سورة المائدة، من الآية ٥٠.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) سورة النساء، من الآية ١٤١.

(٥) أخرجه الدارقطني من حديث عائذ المزني رضي الله عنه والبيهقي في السنن.

الفقه أن من ولّاه الله شيئاً من أمور المسلمين - كانت التولية خاصة أو عامة - ألا يؤلّي عليهم من ليس بمسلم؛ إذ إنه لا يجوز بدليل ما ذكرناه من الكتاب والسنة.

وإنما اشترطنا: (الذكورية) فيها، لقوله، عليه السلام: (ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة) (١).

وأما ما ذكرناه من بقية الشروط، فلأنه خليفة عن الله، ولا يكون خليفة عن الله حتى تكون فيه أوصاف يُنال بها الخوف من الله، والمعرفة بأحكامه، والقدرة على توفية ذلك.

وأما قولنا: على من تجب؟، على التقسيم المتقدم، فتجب على كل ذكرٍ، حرٍّ، بالغٍ، عاقلٍ. إذا لم يكن في عنقه بيعَةٌ للغير وحقُّ البيعة باقٍ عليه، لأن النساء والصبيان والعبيد تحت حكم الرجال، لأنهم تحت إياتهم (٢)، فبيعة الرجال بيعة عنهم وعن كل من تحت إياتهم من النساء والعبيد والصبيان.

فإن قال قائل: قد بايع النساء النبي، ﷺ، فيجب أطراد ذلك الحكم. قيل له: ذلك خاصٌّ بالنبي، ﷺ، لأنه إنما فعل ذلك جبراً لقلوبهن؛ لأنهن طلبن منه البيعة تبرّكاً، ففعل ذلك جبراً لهنّ، ومع أن بيعته، ﷺ، لهنّ لم تكن على صفة بيعة الرجال، بدليل قول عائشة، رضي الله عنها، في حديث مسلم: (إنما كانت يبيعه لهنّ بالقول لا باليد) (٣). ويدل على خصوصيته، عليه السلام، بذلك أن الخلفاء، رضي الله عنهم، قد وقعت لهم البيعات مراراً بعد النبي، ﷺ، ولم يُنقل عن أحد منهم أنه بايع النساء.

وأما شروط الإجزاء فيها، على التقسيم المتقدم، فهي ثلاثة شروط: قول، وعمل، واعتقاد. أما القول فتسميتها (بيعة) قبل تقبيل اليد، ويُجزىء في ذلك لفظ واحد من الجماعة عن الكل مرة واحدة في ابتداء الأمر، إذا كان قولهم في قَوْلٍ (٤) واحدٍ متصلٍ.

وأما العمل فهو تقبيل اليد إثر القول من الكل، كما فعل عمر، رضي الله عنه، مع أبي بكر، رضي الله عنه، في سقيفة الأنصار حين قال له: مُدَّ يَدَكَ نبأيعك، فمدَّ أبو بكر يده، فبايعه عمر ومن حضر هناك في ذلك الموطن من حينهم (٥). فأغنى لفظ عمر، رضي الله عنه، مرة واحدة عنه وعن كل من حضر ذلك الموطن.

(١) أخرجه البخاري في الفتن والترمذي والنسائي والإمام أحمد عن أبي بكره رضي الله عنه.

(٢) أي: تحت إشرافهم. من آل الملك رعيته: ساسها وأشرف على أمورها.

(٣) أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٤) في قَوْلٍ واحدٍ: في وقتٍ واحدٍ.

(٥) أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه والإمام أحمد في المسند.

وأما الاعتقاد فهو أن تكون امتثالاً لأمر الله، عز وجل، ولرسوله، ﷺ، لأنها من جملة المأمور به شرعاً، لا يُراد بها غير ذلك لقوله، عليه السلام: (ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم) وعدّ فيهم (رجلاً بايع رجلاً لا يبايعه إلّا لدنيا، فإن وفّى وفى له، وإلّا لم يف له)<sup>(١)</sup>.

وأما قولنا: بماذا نصيحت؟، على التقسيم المتقدم، أعني: بماذا يصح لصاحبها ما أعد له من الخير، ويكون خليفة حقاً بمقتضى لسان العلم؟ فهو أن يتقي الله عز وجل فيما كلّفه، وأن يوفّي لكل ذي حقّ حقّه، على مقتضى ما أمره الله به، ويبدل جهده في نصحه لمن استرعاه الله إياه، ويحفظهم ابتغاء مرضاة الله، لا أن يكون له حظوة عليهم، ولا يتكبر، ولا يتجبر، ولذلك قال، عليه السلام: (سبعة يظلمهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه): وعدّ فيهم الملك العادل<sup>(٢)</sup>، وكذلك كانت سنة النبي، ﷺ؛ لأنه عليه السلام، كان يقعد مع أصحابه ويحدثهم، ويقعد مع الخادم ويطحن معها؛ وكذلك كان الخلفاء، رضوان الله عليهم، بعده.

مثّل ذلك ما حكى عن عمر، رضي الله عنه، أنه كان يحرس المدينة بنفسه، فخرج في بعض الليالي ومعه بعض أصحابه يُعيّنه على ذلك، فمرّ معه ما شاء الله، ثم أشار إليه عمر أن اقعد هنا، فقعده ينتظره، فدخل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، في خربة<sup>(٣)</sup>، فعلم صاحبُه على تلك الخربة، فلما كان من الغد أتى تلك الخربة، فوجد بها عجوزاً مُقعّدة عمياء، فسألها: من الشخص الذي يأتيك ليلاً وما يصنعُ عندك؟ فقالت: لا أعرف، إلّا أن شخصاً يسوق لي غذائي، ويُخرج عني أذائي. فقال في نفسه: أعثراتِ عمرَ تتبّع؟<sup>(٤)</sup>

ومثّل هذا عنه وعن غيره من الخلفاء كثير، وإنما ذكرنا هذه الحكاية إشارةً وتنبيهاً على طريقهم المبارك، الذي هو طريق الحق والصراط المستقيم.

وأما قولنا: بماذا تفسد؟، على التقسيم المتقدم، وهو آخر التقسيم، فالكلام فيه على نوعين: خاصّ وعامّ.

فالخاص: هو ما يخصه في نفسه من أفعال يفعلها، فتذهب عنه تلك الخيرات المذكورة قبل،

- (١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه.
- (٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً. وسيرد في الحديث رقم (٤١).
- (٣) الخربة: المكان الخراب.
- (٤) روى هذه القصة أبو نعيم في الحلية، والدميري في حياة الحيوان، وسَمّى الرجل «طلحة».

مع إبقاء الخلافة عليه، وهو أن يفعل شيئاً من الظلم، أو يغير حكماً من أحكام الله، عز وجل، أو  
يجور في الحكم.

أما الظلم فلقوله، عليه السلام: (إِنَّ الظَّالِمَ يُحْشَرُ مَغْلُولَ الْبَيْدِ إِلَى عَنَقِهِ، لَا يَفْكَهُمَا إِلَّا  
عَدْلُهُ)<sup>(١)</sup>.

وأما تغيير الحكم: فلقوله، عليه السلام: (إِنَّ الْغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوَاءٌ عِنْدَ اسْتِنَةِ<sup>(٢)</sup>  
بَقْدَرِ غَدْرَتِهِ، يُنَادَى عَلَيْهِ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ بَيْنَ فُلَانٍ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ غَدَرَ فِي صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ، لَوَاؤُهُ  
بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ)<sup>(٣)</sup>.

وأما الجور في الحكم فلأنه إذا كان المَلِكُ العادل أعلى الناس منزلةً يوم القيامة، بمقتضى  
الحديث، فكذلك أبخسُ الناس منزلة يوم القيامة ضِدُّهُ، وهو الجائر بمقتضى الشَّئَةِ.

وأما العام الذي يجب على جميع مَنْ بايعه خَلْعُهُ من تلك البيعة وَقَتْلُهُ فهو تَرْكُ الصلاة. لقوله،  
عليه السلام، حين قيل له: (أَرَأَيْتَ إِنْ لَوْ لَوِيَّ عَلَيْنَا أَمْرًا فُسِّقَ، أَنْقَتْلُهُمْ؟) فقال: لا، ما صَلَّوْا، لا،  
ما صَلَّوْا<sup>(٤)</sup>، فكان ذلك دليلاً على أنهم مهما صَلَّوْا لم يُقْتَلُوا، ومتى تَرَكَوا الصلاة قُتِلُوا، لأنه قد  
تقرَّر في الشريعة أَنَّ مَنْ تَرَكَ الصلاة قُتِلَ، ولا فرق في ذلك بين الأَمْرِ والمأمور، لأن حكم الله، عز  
وجل، يتناول الكلَّ. وتارك الصلاة مرتدٌّ عند بعض العلماء، والمرتدُّ كافر، والكافر لا تجوز ولايته  
على المسلمين، كما تقدم.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام: (على الْأَثَرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً) هذا لفظ عام، لأن (الشيء)  
يتناول القليل والكثير، ويتخصص هذا اللفظ اِفْتَرَقَتِ الشَّيْعَ كلها. وبتحقيقه والعمل على عمومهِ  
بانت الفِرقة المَحْمَدِيَّة الناجية من تلك الشَّيْع كلها. يدل على ذلك، قوله، عليه السلام: (اِفْتَرَقَتِ  
بنو إِسْرَائِيلَ على اثْنَيْنِ وسبعين فرقةً، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا  
واحدة، ما أنا عليه وأصحابي)<sup>(٥)</sup>. فأراد، عليه السلام، بهذه البيعة هنا بشروطها لكي يتبيَّن بها

(١) لعله معنى للحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ما من  
أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه إلا العدل). وإسناده جيد رجاله رجال الصحيح كما في  
الترغيب للمنزدي.

(٢) استه: عَجُزُهُ.

(٣) أخرجه الإمام مالك والإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان عن ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه  
الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) لعله معنى لما أخرجه مسلم في الإمارة عن عوف بن مالك رضي الله عنه، وما رواه الإمام أحمد في المسند  
ومسلم وأبو داود من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٥) حديث صحيح متواتر. أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما والحاكم في المستدرک =

طريقه وطريق أصحابه، لأنهم المخاطبون بهذه البيعة فيتبين بذلك الفرقة الناجية، فمن تبعهم في حقيقة هذا العموم المذكور كان منهم، وإلا كان من المخالفين لهم بحسب تخصيصه لذلك العموم، قليلاً كان أو كثيراً.

فعلى هذا، فيحتاج، إذاً، إلى بيان بعض هذه الطرق الفاسدة، وكيف تخصيهم لذلك العموم، ليتبين بذلك ما عداهم من أهل الطرق الفاسدة، ولولا التطويل لذكرناهم قسماً قسماً. ولكن بالمثال لمن له نظر يتبين له الباقي، مع أنه لا بد لنا من بيان الطريق المحمدي، وتبين الفرقة الناجية. ويتبين ذلك يتبين ما عداه من أنواع المخالفات. لكن نذكر منها شيئاً زيادة بيان، وإيضاح لفساد مذاهبهم، وكيفية سوء اعتقادهم.

\* \* \*

فمن جملة الشيع المخصصة لهذا العموم الذي به مرقوا من الدين (القدرية)، لأنهم يقولون بخلق أفعالهم، وهذا منهم خطأ واضح، بدليل العقل والنقل.

وأما العقل فقد أجمع العقلاء على أن خالق الوجود واحد، ليس له ثان.

وأما النقل فقول، عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾<sup>(١)</sup> وهم قد جعلوا لله تعالى شركاء عدداً لا يحصره إلا هو، عز وجل، فلم يحصل منهم الإيمان بمقتضى هذا العموم، ولاجل ذلك بكى، عليه السلام، حين ذكرهم وقال: (تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَأَعْمَالَكُمْ مَعَ أَعْمَالِهِمْ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يَجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ)<sup>(٢)</sup>، وسماهم: (مجوس هذه الأمة)<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

ومنهم (الجبرية)، فإنهم يقولون: بأن لا أفعال لهم. وأنهم مُجْبَرُونَ على الأفعال كلها. دَقَّهَا وَجَلَّهَا<sup>(٤)</sup>، ولا تأثير لفعلهم في شيء منها، ويقولون: إن الله إذا عَذَّبَهُمْ على المعاصي فهو ظالمٌ لهم، لأنهم - في زعمهم - لم يفعلوا شيئاً. وهذا منهم جَحْدٌ لِلضَّرُورَةِ<sup>(٥)</sup>، وتكذيبٌ للتَّنْزِيلِ.

= والبزار في مسنده والبيهقي في المدخل.

(١) سورة الأنبياء، من الآية ٢٢.

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، والإمام أحمد في المسند، والبخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه والبيهقي في السنن وشعب الإيمان وأبو يعلى وابن حبان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم في المستدرک وصححه على شرط الشيخين.

(٤) دَقَّهَا وَجَلَّهَا: صغرها وكبيرها.

(٥) شرح (الضرورة) سيورها المؤلف بعد قليل بالتفصيل والشواهد.

فَأَمَّا جَعْدُ الضَّرُورَةِ فهو ما يتصرفون فيه بحواسهم واختياراتهم، ونحن نشاهد ذلك منهم عياناً. وأما التنزيل فقوله، عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾<sup>(١)</sup> وقوله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ. إِنْ أُنْتُمْ تُزْعِفُونَ، أَمْ تَنْحُنُّ الزَّرْعُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فثبت، عز وجل، الفعل للعبد، وأثبت الفعل لنفسه معاً.

فَأَمَّا ما هو من فعل العبد فهو أن النبي ﷺ، أخذ غُرْفَةً من تراب بيده ثم رماها<sup>(٣)</sup>. وهذا حقيقة فعلٍ من البشر مرئياً محسوساً.

وأما ما هو من فعل الرب، سبحانه، فهو أن تلك الغُرْفَةُ ليس للبشر قوة على إيصالها إلى جميع أعين الأعداء، وقد وصلت إلى جميع أعينهم، حتى أوقعت الهزيمة فيهم.

يُبَيِّنُ هذا المعنى وَيَزِيدُهُ إِيضاحاً، قوله، عز وجل: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾<sup>(٤)</sup> فثبت، عز وجل، لنفسه مشيئة، وَلَخَلَقَهُ مشيئةً، لكن مشيئة خَلَقَهُ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِمَشِئَتِهِ، عز وجل. هذا ما هو من طريق النقل والملاحظة.

وأما من طريق العقل والنظر، فما يجد الإنسان في نفسه من الفرح، إذا شاء شيئاً، فساعده القدرة على بلوغه، فَرِحَ بذلك لنفوذ مشيئته وبلوغ أمله. وإذا شاء شيئاً ولم تساعده القدرة على نفوذه حَزِنَ لعدم نفوذ مشيئته. فهذا أدل دليل على أن للعبد مَشِئَةً. وما جعل الله، عز وجل، لعبيده من المشيئة وربط الأسباب بالمسببات وربط العوائد في بعض الأشياء بما جرت، فهو أثر حكمته، وحكمته عز وجل، وصف قائم بذاته، فإنكارهم لهذه الصفة تخصيص لذلك العموم.

\* \* \*

ومنهم (المُجَسِّمَةُ)، لأنهم يقولون بالجسم والحلول، ومُعتقِد هذا لا يصح منه الإيمان بعموم اللَّفْظ المذكور في الحديث، لأنه لا يصح الإيمان بمقتضى لفظ الحديث حتى يصح الإيمان به<sup>(٥)</sup>، عز وجل، بمقتضى ما أخبر به عن نفسه حيث يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾<sup>(٦)</sup>. و (شيء)

(١) سورة الأنفال، من الآية ١٧.

(٢) سورة الواقعة، الآيتان ٦٣ و ٦٤.

(٣) أخرجه أبو نعيم والبيهقي في دلائلهم، وعزاه السيوطي في الدر لابن جرير الطبري وابن المنذر وابن مردويه. وفيه انقطاع بين ابن عباس وعلي بن أبي طلحة رضي الله عنهما كما في التقريب.

(٤) سورة الإنسان، من الآية ٣٠.

(٥) به: أي بالله.

(٦) سورة الشورى، من الآية ١١.

ينطلق على القليل والكثير، وعلى كل الأشياء. فمن خصّص هذا العموم، وهو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لم يصحّ منه الإيمان لعموم لفظ الحديث، وإن ادّعاءه، لأن من لا يعرف معبوده كيف يصحّ له الإيمان به؟ وذلك محال.

ثم نرجع الآن إلى البحث معهم في بيان اعتقاداتهم الفاسدة بإشارة، الناظر فيها بالتناصف<sup>(١)</sup> تكفيه. فنقول: ادّعواؤهم الجسمانيّة والحلول - تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً - لا يخلو إمّا أن يدّعوا ذلك من طريق المشاهدة، أو من طريق الإخبار، أو من طريق القياس بالنظر العقلي، ولا رابع.

فإن ادّعوا المشاهدة فذلك باطل بالإجماع، ولا يخالف فيه بَر ولا فاجر.

وإن ادّعوا الإخبار وتعلّقوا بقوله، عز وجل، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾<sup>(٢)</sup> فباطل أيضاً، لأن هذا اللفظ محتمل لأربعة معان، وتأويلهم الفاسد خامس لها، فكيف تقوم لهم حجة بلفظ محتمل لخمس معان، والحجة لا تكون إلا بدليل قطعي، ومع تلك الأربعة معان لها دلائل تقويها وتوضحها من طريق النقل والعقل؟ وتأويلهم الفاسد عليه دلائل تُضعفه من طريق النقل والعقل. وكيف يكون المرجوح دليلاً يُعمل به ويُترك الرَّاجح؟ هذا من أكبر الغلط.

ثم نذكر الآن تلك الوجوه، وما يشهد لها من طريق العقل والنقل.

الوجه الأول: أنه قيل في معناه: عَمَدَ إِلَى خَلْقِ الْعَرْشِ، كما قال، عز وجل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾<sup>(٣)</sup> أي: عَمَدَ إِلَى خَلْقِهَا. والحروف في لسان العرب سائغ إبدال بعضها من بعض. يدل على ذلك، قوله، عليه السلام، في حديث الإسراء (فأتينا على السماء السادسة)<sup>(٤)</sup>، يريد (إلى السماء السادسة)، وسنذكر ذلك في موضعه، إن شاء الله تعالى، ونشير هناك إلى شيء من فساد مذاهب الشّيعة كلها، وإلى بيان طريقة الفرقة الناجية في سلامة اعتقاداتهم.

الوجه الثاني: أنه قيل في معناه: السُّمُوّ والرَّفْعَة. كما يقال: علا القوم زيداً، أي: ارتفع، ومعلوم أنه لم يستقرّ عليهم قاعداً. وكما يقال: عَلَتِ الشَّمْسُ فِي كِبِدِ السَّمَاءِ، أي ارتفعت، وهي لم تستقرّ. يشهد لذلك قول جبريل، عليه السلام للنبي، ﷺ، حين سأله (هل زالت الشمس؟) فقال جبريل عليه السلام: (لا، نعم) فقال له النبي، ﷺ: (لم قلت: لا، ثم قلت نعم؟) فقال:

(١) التناصف: إنصاف بعضهم بعضاً من أنفسهم بملء حريتهم واختيارهم.

(٢) سورة طه، الآية ٥.

(٣) سورة فصلت، من الآية ١١.

(٤) في حديث الإسراء: ثم عرج بي إلى السماء السادسة.

(بينما قلت لك : (لا) جَزَتْ الشَّمْسُ مسيرة خمسمائة سنة)<sup>(١)</sup> وقد نصّ، عزّ وجلّ، على ذلك في كتابه حيث قال : (والشمسُ تجري لا مُسْتَقَرًّا لها)<sup>(٢)</sup> على قراءة من قرأها بالنفي .

الوجه الثالث : قيل في معناه : الحكم والقهر ، كما يقال : استوى زيد على أرض ددا ، أي مَلَكَهُمْ وقَهَرَهُمْ .

الوجه الرابع : قيل : إنه اسم من أسماء الله ، عزّ وجلّ ، ولم يصحّ اسمه بذلك حتى تمّ خلُق العرش ، فسُمِّي بهذه الجملة ، كما سماوا الرجل بـعَلْبَك . وكَرَّبَ العالمين ، فلم يصحّ هذا الاسم إلا بعد تمام الخلق . ومعنى (لم يصحّ) أي : لم يصحّ فهُنَا عندنا ، كما هو من أسمائه ، عزّ وجلّ ، معيّرٌ لِمَا غَايَرَهُ ، ولم يصحّ اسمه به إلا بعد ظهور الخلق .

وقد قال بعض الصوفية في معنى هذا اللفظ شيئاً ، وهو حسن ، لولا ما فيه من التكلف من جهة العربية ، فقال : (الرَّحْمَنُ عَلَاً) ووقف هنا ، ثم قال : (العرشُ استوى) .

الوجه الخامس : ما ذهبوا إليه ، بتأويلهم الفاسد ، من أنّ الموضع يقتضي الحلول والاستقرار ، فانظر إلى هذا النظر الفاسد ، كيف يصحّ مع هذه الوجوه الظاهرة . وكيف يصحّ مع مقتضى لسان العربية الذي يقتضي الحقيقة والمجاز ، فجعلوا هذا حقيقة لا يقتضي المجاز ، ولم ينظروا إلى دليل يخصّص أحد الوجهين من الحقيقة أو المجاز ؟ فضغفَ مرَّكبٌ على ضعف . وكيف يسوغ اعتقاد هذا الوجه المرجوح مع عموم قوله ، عزّ وجلّ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ؟ كفى بعموم هذه الآية دليلاً على أنّ ما تأولوه ليس بحقيقي ، فأبطلوا نصّاً لا يحتمل التأويل ، وعموماً لا يحتمل التخصيص ، وهو قوله ، عزّ وجلّ ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ بأحد خمس محتملات ، على ما تقدم ، وهو مرجوحها .

وأما ما احتجّ به بعضهم لمذهبهم الفاسد بما روي عن الإمام مالك ، رحمه الله ، لما أن سُئِلَ عن حقيقة (الاستواء) ما هو ؟ وكان من بعض جوابه : هذا مُشْكِلٌ ، فليس لهم في ذلك حُجَّةٌ ، لأنه سُئِلَ عن تحقيق شيءٍ محتملٍ لأربعة أوجه صحيحة ، وهي ما ذكرناه أولاً ، فأجاب ، بأن قال : هذا مُشْكِلٌ ، لأن تخصيص أحد تلك المحتملات الأربعة - وكل واحد منها صحيح - فترجيح أحدها على

(١) لم نعرف مصدره .

(٢) سورة يس ، من الآية ٣٨ . والقراءة المشار إليها قرأها عبد الله بن مسعود وابن عباس وعكرمة وعطاء بن رباح وعلي بن الحسين وزين العابدين وأبو جعفر الباقر وجعفر الصادق وابن أبي عبدة . (انظر البحر المحيط لأبي حيان ٣٣٦/٧ وجامع الأحكام للقرطبي ٢٨/١٥ والكشاف للزمخشري ٣/٣٢٢ والمحتسب لابن جني ٢/٢١٢) . كما قرئت (لا مُسْتَقَرًّا لها) وقد نُسبت في الألوسي ١٥/٢٣ إلى ابن أبي عبيدة حيث قال : وقرأ ابن أبي عبيدة بـ (لا) أيضاً إلا أنه رفع (مستقر) على إعمالها إعمال ليس . (انظر معجم القراءات القرآنية للدكتورين أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم ٥/٢٠٨) .



الثلاثة بغير دليل هو المُشْكِل، فكان تأويلهم على الإمام فاسداً بغير ما ذهب إليه الإمام، كما تأولوا ذلك في «الكتاب» تأويلاً فاسداً.

وأما ما احتجوا به لمذهبهم الفاسد بقول ابن أبي زيد<sup>(١)</sup>، رحمه الله، في العقيدة التي ابتدأ «الرسالة»<sup>(٢)</sup> بها بقوله: (وَأَنَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، الْمَجِيدُ بِذَاتِهِ) فلا حجة لهم فيه أيضاً، لأنهم خفّضوا (المجيد) وجعلوه صفة (للعرش) وافترّوا على الإمام بذلك. والوجه فيه رفع (المجيد) لأنه قد تَمَّ الكلام بقوله: فوق عرشه. و (المجيدُ بذاته) كلام مستأنف، وهو من غاية التنزيه؛ لأنَّ مجدَّ الله، عزَّ وجلَّ، بذاته ليس مكتسباً، ومجد عباده مكتسب. فافتروا على الإمام هنا، كما افتروا على الآخر هناك. وكيف يجوز من طريق الدين أو العقل لمن له عقل أن يقول في لفظ محتمل لوجهين من طريق العربية أن يقول عن أحدهما، وهو الفاسد: هذا ما أراد القائل، وهذا ممنوع شرعاً؛ لأنَّ المؤمن لا يُحمل عليه الشؤُّ بالاحتمال، وإنما يُحمَل الأمرُ على أصلحه - وهو الأليق بالإيمان - أو يحمل على ظاهره، وهو الاحتمال للوجهين معاً، وهو أقلُّ المراتب.

وأما البحث معهم، من طريق العقل والنظر، فلا يخلو أن يدَّعوا أن لهم على ذلك دليلاً من طريق العقل والنظر، أو لا. فإن ادَّعوا ذلك فهو منهم افتراء، لأنَّ أهل العقل قد أجمعوا على أن مُوجد الوجود غير محتاج لِمَا أوجَدَه. لأنه لو كان محتاجاً لِمَا أوجده كاحتياج مَنْ أوجده إليه لاستَويا، ولم يكن للموجد تفرُّدٌ بالكمال دون مَنْ أوجَدَه، وذلك محال.

ثم لا يخلو على زعمهم من الانتقال والاستقرار أن يدَّعوا أنه، عزَّ وجلَّ، كان قبل خلق العرش على شيء آخر غير خلافه، أو كان على غير شيء، فإن ادَّعوا أنه كان على شيء لزمهم أن يكون قبل ذلك الشيء شيء، وقبل ذلك الشيء شيء، إلى ما لا نهاية له، وهذا باطل بالإجماع والعقل.

ثم لا يخلو أن يدَّعوا أنه لم يَزَلْ على شيء، أو أنه كان على غير شيء، وبعد ذلك انتقل إلى تلك الأشياء من بعضها إلى بعض. فإن ادَّعوا أنه لم يزل على شيء، لزمهم من ذلك سَبْقُ المخلوق للخالق. وذلك مستحيل إجماعاً وعقلاً ونقلاً وشرعاً.

وإن ادَّعوا أنه كان أولاً على غير شيء، ثم انتقل إلى تلك الأشياء بعضها بعد بعض، فلا يخلو أن يدَّعوا أن يكون انتقاله إليها احتياجاً أو لغير احتياج.

فإن ادَّعوا أن ذلك كان للاحتياج فقد سقط البحث معهم؛ لأنهم نفَّوا ما يليق بصفة الرُّبوبيَّة من

(١) هو عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن المالكي القيرواني. فقيه مالكي ومفسر. له كتاب في إعجاز القرآن. توفي سنة ٣٨٦ هـ / ٩٥٥ م.

(٢) طبعت في فاس في المغرب دون تاريخ، وفي بولاق مع شرح لعبد المجيد الشرنوبلي سنة ١٣١٤ هـ.

الجلال والكمال، ورجع محتاجاً كسائر المخلوقات، وذلك مُحالٌ بإجماع كل الطوائف من المتكلمين وأهل العقل والنظر في حق الباري، جلّ جلاله .

وإن ادَّعوا أن ذلك كان لغير احتياج، لَزَمَهُم من ذلك أنهم وصفوه، عزّ وجلّ، بصفة النقص . لأن ما يُفَعَّل لِغَيْرِ احتياج كان عَبَثاً، وهذه صفة النقص، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

فإن ادَّعوا أن ذلك كان لغير احتياج ولا عَبَث، وإنما كان ذلك لوجه خاصٍ من الحكمة . ثم خلق الخلق، وهو غير محتاج إليه، وليس خَلْقُهُم عَبَثاً، قيل لهم: الحكمة في الخلق قد بانت، وهي ما أراد الله، عزّ وجلّ، من تبين أهل الشقاء وضدّهم، وإظهار أوصاف القدرة التي ليس للعبيد اتّصالٌ إليها، ولا معرفة بها إلا بالاستدلال بما ظَهَرَ من آثارها . وما بذعونه فليس للحكمة هناك دليل على ما ادَّعوه، بل الحكمة تقتضي ضدّ ذلك لأن من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ينبغي بدليل الحكمة أن من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لا يَخْلُ في شيء، ولا يخلُ فيه شيء، ولا يحاطه شيء، لعدم التّناسب . فقد بان بطلان ما ذهبوا إليه في هذه الثلاثة وجوه، ولا رابع .

ومما يزيد ذلك بياناً قول سيّدنا محمّد، ﷺ: (لَمَّا قَضَى اللهُ الخلق، كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غَلَبَتْ غَضَبِي) <sup>(١)</sup> فيؤخذ من قوله أن الذي كُتِبَ فيه فوق العرش: أن حكمته، جلّ جلاله، اقتضت أن يكون العرش حاملاً ومستودعاً لما شاء من أثر حكمته وقدرته وغامض غَيْبِهِ، ليستأثر هو، جلّ جلاله، بذلك الكتاب، من طريق العلم والإحاطة، عن جميع العالم كلّ . فيكون ذلك من أكبر الأدلة على انفراده بعلم الغيوب التي لا يعلم مفاتيحها إلا هو .

وقد يكون هذا الحديث <sup>(٢)</sup> تفسيراً لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أي: أن ما شاء من أثر قدرته وحكمته وكتابه هو الذي استقرّ على العرش، لا ذاته الجليّة . ولو أراد ذلك لأكّده بالمصدر، كما فعل في كلامه حيث قال: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ <sup>(٣)</sup> فأكّده بالمصدر، لأن العرب تقول: «جاء زيد» ويعنون: خبره أو كتابه، أو رسوله، فإذا أرادوه بذاته قالوا: «جاء زيد نفسه» فأثبتوا بذلك الحقيقة حقّاً . فذهب ما زعموه بنظرهم الفاسد، والحمد لله .

وأما ما ادَّعوه من (التجسيم)، وتعلقوا فيه بظواهر آي وأحاديث، فليس لهم فيه حجة، بدليل ما سنفضّله، إن شاء الله . فمن جملة ما تعلقوا بظواهره، بحسب نظرهم الفاسد، قوله عليه السلام

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) يريد به الحديث المتقدّم: لَمَّا قَضَى اللهُ الخلقَ كَتَبَ في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سَبَقَتْ غَضَبِي .

(٣) سورة النساء، من الآية ١٦٤ .

(حتى يضع الجبار فيها قدمه)<sup>(١)</sup> وفي رواية (ساقه) قال علماء أهل السنة: في معنى هذا اللفظ عشرة أوجه، ونحن نذكر بعضها، لكي يتبين فساد ما ذهبوا إليه بها، وقد ذكرها أبو البقاء<sup>(٢)</sup> في كتابه وغيره من الفقهاء.

فمن جملة ما قالوا فيه - وهو أظهرها وأرجحها - أنهم نقلوا عن أهل اللغة أن (الكافر) عندهم يسمى (قدماً)<sup>(٣)</sup>. فإذا كانت هذه اللغة فكيف يعوجون عنها إلى غيرها؟ كفى بهذا الوجه رداً عليهم.

ومنهم من قال: إنه كما سُمِّي الحجر الأسود (يمين الله) وهو حجر مرثيٍ مشاهد، لا خفاء فيه. لكن لما أن كان مَنْ لَمَسَ الحجرَ رُجِمَ، وشهد يوم القيامة لِلإمِيسِ، على ما جاء الخبر به سُمِّي (يمين الله)، لكونه رحمةً، فكذلك لما أن كان ذلك موضع الغضب سمي: (قدماً)، فلو لم يكن نقل اللغة، وكان الموضع يحتمل عشرة أوجه مثل هذا الذي ذكرناه وما أشبهه، وتأويلهم الفاسد أحدها، على زعمهم، كيف يسوغ أن يجزم بواحد دون التسعة مع أنه هو أضعفها، لأنه ينافي التنزيه ويخصص عموم قوله، عز وجل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾؟ وكيف يخصص نصً بمحتمل؟ كفى بهذا أدل دليل في الرد عليهم. فكيف واللغة لا تُحَوِّج إلى ذلك؟

ثم مع ذلك يرد عليهم قوله، عز وجل، عن المؤمنين ﴿أَنَّهُمْ قَدَّمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾<sup>(٤)</sup> وقد وقع الإجماع من أهل العقل والنقل أن ذلك بالمعنى لا على ظاهره. فإن هم تأولوه كما تأول الكافة لزمهم أن يتأولوا الآخر، ويعتقدوه كما فعل الكافة. وإن هم حملوه على ظاهره، وقالوا بأن (الصدق)<sup>(٥)</sup> جسد مجسّد، وقدمه عند الحق، سبحانه، وباقيه عند المؤمنين، فقائل هذا لا خفاء في حُقمه. فالبحث معه قد سقط.

والكلام معهم على رواية (الساق)<sup>(٦)</sup> مثله أيضاً، لأن الساق يُطلق في اللغة على أشياء غير واحدة، لأنهم يقولون: ساق من جراد، وساق من قوم، ويقولون: (الساق) ويريدون به الجارحة. والأظهر في هذا الموضع والأليق به أن يكون المراد بالساق (عدداً من الكفار)، فإذا كملوا

(١) رواه البخاري في تفسير سورة (ق) ومسلم في الجنة.

(٢) لم نقف على ترجمته.

(٣) أورد ابن حجر في فتح الباري في تفسير سورتي يونس وق عدداً من المعاني لكلمة (قدم).

(٤) سورة يونس، من الآية ٢.

(٥) الصدق: هنا - جزء من قوله ﴿وَيُثِيرُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُمْ قَدَّمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

(٦) يريد - هنا - ما ذكره قبل قليل أن حديث (حتى يضع الجبار فيها قدمه) روي أيضاً (حتى يضع هذا الجبار فيها ساقه). ولم نقف على مصدر هذه الرواية الثانية.

فيها تقول: قَطَّ<sup>(١)</sup>. فبان فساد ما ذهبوا إليه بما ذكرناه. وفيه كفاية هذا البحث معهم من طريق النقل.

وأما البحث معهم من طريق العقل: فلو كان ما زعموا حقاً لما صَحَّ تعذيب أهل النار، ولا حُجِّبوا عن الله، وقد حصل لهم العذاب والحجاب، لأنه لو كان ذلك حقاً، على زعمهم، لكان أهل النار في النعيم حين وضع القدم، ولشاهدوا الذات الجليلة، كما شاهدا أهل الجنة. لأن مشاهدة الحق لا يكون معها عذاب. وقد أخبر، عز وجل، أنهم محجوبون، لأن الرؤية مع العذاب لا تُمكن، فبان بطلان ما زعموا بدليل النقل والعقل.

وأما ما زعموا من (اليد) وتعلقوا في ذلك بقوله، عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِن مَّحَا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾<sup>(٢)</sup> إلى غير ذلك من الآي والأحاديث التي جاءت بالنص في هذا المعنى، فليس لهم فيها حُجَّة أيضاً، لأن (اليد) عند العرب تُطلق على أشياء غير واحدة. فمنها الجارحة، ومنها النعمة، لأنهم يقولون: لفلان يدٌ على فلان، يريدون بها النعمة. ومنها القوة لقولهم: لفلان في هذا الأمر يدٌ، يريدون: له معرفة به، وقوة عليه. وكذلك ما أشبه هذه الأوجه وهي عديدة. فكيف يحققون أحد مُحتمَلات في اللغة، ويجزمون به، مع أنه منافٍ لقوله، عز وجل: ﴿لَيْتَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾؟ فبان بطلان ما ذهبوا إليه بدليل ما ذكرناه من النقل.

وأما البحث معهم من طريق العقل: فلأن الملوك في الدنيا لا يفعلون بأيديهم شيئاً، والذين يفعلون بأيديهم إنما هم عامة الناس، وهذا منافٍ للعظمة والجلال. فبان بطلان ما ذهبوا إليه من طريق العقل أيضاً.

وأما ما زعموا من (الوجه) وتعلقوا في ذلك بغير ما آية وغير ما حديث، فليس لهم فيه حُجَّة أيضاً، لأنه يَحتمِلُ في اللغة معاني عديدة. فمنها: الجارحة، ومنها: الذات، كقولهم: وجه الطريق، يريدون ذاته. ومنها: الحقيقة، كقولهم: وجه الأمر، أي: حقيقته، وما أشبه هذا المعنى، وهي عديدة، فكيف يأتون بشيء محتمل لأوجه عديدة في اللغة، فيأخذون بأحد المحتملات، ويجزمون به؟ ذلك باطلٌ لا خفاء فيه.

وبعد بطلان ما ذهبوا إليه بما ذكرناه يرِدُ عليهم قوله، عز وجل: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَؤُوا فَسَمَّ وَجْهَهُ

(١) هذا معنى لحديث رواه الإمام أحمد في المسند ١٦/٣ والبخاري في تفسير سورة (ق) ومسلم في باب (النار يدخلها الجبارون).

(٢) سورة يس، من الآية ٧١.

اللَّهُ<sup>(١)</sup> فَإِنْ حَمَلُوهُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَهِيَ الْجَارِحَةُ، فَيَكُونُ الْوَجْهَ قَدْ أَحَاطَ بِجَمِيعِ الْجِهَاتِ، فَلَمْ يَبْقَ لِلذَّاتِ مَحَلٌّ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ النُّقْلِ وَالْعَقْلِ. وَإِنْ هُمْ تَأَوَّلُوهُ لَزِمَهُمُ التَّأْوِيلُ فِي الْآخِرِ. وَكَذَلِكَ أَيْضاً يَرِدُ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾<sup>(٢)</sup> فَإِنْ هُمْ وَقَفُوا أَيْضاً فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَعَ ظَاهِرِهَا فَقَطَّ سَقَطَ بِحُثْمِهَا مَرَّةً وَاحِدَةً، لِأَنَّ الذَّاتَ الْجَلِيلَةَ بِالْإِجْمَاعِ لَا تَفْنَى وَلَا تَتَجَدَّدُ. وَإِنْ هُمْ خَرَجُوا عَنِ الظَّاهِرِ وَحَادُوا إِلَى التَّأْوِيلِ لَزِمَهُمْ نَقْضُ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ فِي الْوَجْهِ الْآخِرِ، وَلَزِمَهُمُ الرُّجُوعُ فِيهِ إِلَى التَّأْوِيلِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ، عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى الذَّاتِ الْجَلِيلَةِ، لَا عَلَى الْجَارِحَةِ، وَالْاعْتِرَاضَاتُ وَارِدَةٌ عَلَيْهِمْ، كَثِيرَةٌ. وَفِيمَا أَبْدَيْنَاهُ كِفَايَةً مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾<sup>(٣)</sup> يَنْفِي ذَلِكَ كُلَّهُ، وَيَبْقَى مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ لَا غَيْرَ.

وَأَمَّا مَا زَعَمُوا مِنَ (الْجِسْمَانِيَّةِ) وَتَعَلَّقُوا فِي ذَلِكَ بِظَاهِرِ قَوْلِهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ (يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا)<sup>(٤)</sup>، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيِ وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي جَاءَتْ فِي هَذَا الْمَعْنَى، فَلَيْسَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ أَيْضاً، لِأَنَّ ذَلِكَ فِي اللُّغَةِ مُحْتَمِلٌ لِأَوْجُهٍ عَدِيدَةٍ، كَقَوْلِهِمْ «جَاءَ زَيْدٌ» يَرِيدُونَ ذَاتَهُ، وَيَرِيدُونَ: غَلَامَهُ، وَيَرِيدُونَ: كِتَابَهُ، وَيَرِيدُونَ خَبْرَهُ. وَ(النُّزُولُ) مِثْلُهُ كَقَوْلِهِمْ: (نَزَلَ الْمَلِكُ) يَرِيدُونَ: ذَاتَهُ، وَيَرِيدُونَ: أَمْرَهُ، وَيَرِيدُونَ: كِتَابَهُ، وَيَرِيدُونَ: نَائِبَهُ. فَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يَخْصِّصُوا الذَّاتَ قَالُوا: نَفْسُهُ، أَوْ يُؤَكِّدُونَهُ بِالمَصْدَرِ، وَحِينَئِذٍ تَرْتَفِعُ الاحْتِمَالَاتُ. وَلِذَلِكَ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾<sup>(٥)</sup> فَأَكَّدَهُ بِالمَصْدَرِ دَفْعاً لِلْمَجَازِ، فَلَوْ قَالَ الشَّارِعُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، هُنَا: يَنْزِلُ رَبُّنَا نَفْسُهُ أَوْ ذَاتُهُ، أَوْ أَكَّدَهُ بِالمَصْدَرِ، لَكَانَ الْأَمْرُ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ. وَلَكِنْ لَمَّا أَنْ تَرَكَ اللَّفْظَ عَلَى عُمُومِهِ، وَلَمْ يُؤَكِّدْهُ بِالمَصْدَرِ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ الذَّاتَ، وَإِنَّمَا أَرَادَ نَزُولَ رَحْمَةٍ وَمَنْ وَفَضْلٍ وَطَوِيلٍ عَلَى عِبَادِهِ. وَشَبَّهَ هَذَا مَعْرُوفٌ عِنْدَ النَّاسِ، لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: تَنَازَلَ الْمَلِكُ لِفُلَانٍ، وَهُمْ يَرِيدُونَ: كَثْرَةَ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِ وَأَفْضَالِهِ عَلَيْهِ، لَا أَنَّهُ نَزَلَ إِلَيْهِ بِذَاتِهِ، وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِجِسَدِهِ، فَهَذَا مُشَاهِدٌ فِي الْبَشَرِ، فَكَيْفَ بِمَنْ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾<sup>(٦)</sup>؟ لَقَدْ أَعْظَمُوا الْفِرْيَةَ.

وَأَمَّا مَا زَعَمُوا مِنَ (الْأَصَابِعِ) وَتَعَلَّقُوا فِي ذَلِكَ بِمَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ: (أَنَّ السَّمَاءَ تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِصْبَعٍ وَاحِدٍ، وَالْأَرْضَ عَلَى إِصْبَعٍ وَاحِدٍ)<sup>(٧)</sup> الْحَدِيثُ بِكَمَالِهِ، فَلَيْسَ لَهُمْ فِيهِ حُجَّةٌ أَيْضاً،

(١) سورة البقرة، من الآية ١١٥.

(٢) سورة القصص، من الآية ٨٨.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سورة النساء، من الآية ١٦٤.

(٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة الزمر ومسلم في صفة القيامة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وأوله: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن الله يضع السماء على إصبع.

لأنه محتَمِل في اللغة لأوجه عديدة، لأن العظمة، يستعار لها: اليد، كما قال: بيد عظمته، وبيد قدرته، فَكُنِيَ هنا عن بعض أجزاء العظمة، وعن بعض أجزاء القدرة بالإصبع، لأنَّ أضعف ما في اليد: الإصبع، فصَرَحَ هنا بأن بعض أجزاء القدرة وبعض أجزاء العظمة هي الفعلة لما دد، وإن كانت العظمة والقدرة لا تتجزأان، لكن هذا تمثيل لمن له عقل، لأن المنحيز لا يعرف إلا منحيزاً، فضُرب له مثل بما يتوصل الفهم إليه حتى يحصل له معرفة بعظم القدرة، ولا يلزم المثل أن يكون كالممثل من كل الجهات. فبطل ما ذهبوا إليه بدليل ما ذكرناه.

ثم بعد ذلك يرد عليهم قوله، عليه السلام: (ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن)<sup>(١)</sup> ومعناه عند أهل السنة: بين أمرين من أمر الرحمن. فإن هم تأولوه كما تأوله أهل السنة لزمهم التأويل في الآخر. وإن هم حملوه على ظاهره لزمهم أن يقولوا: بأن أصابع الرحمن عدد الخلق مرتين، لأن ما من عبد إلا وهو بين إصبعين، وأن الذات الجلية تخالط ذات العبد. بأجمعهم. ومعتقد هذا لا خفاء في حمقه، ولا شك فيه. والبحث معه قد سقط.

فانظر إلى هذا العمى الكلبي الذي مرقوا به من الدين، كيف منعوا به فائدة ما احتوى عليه قوله، عز وجل: ﴿قُلْ: أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ . ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنَبِّئَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾<sup>(٢)</sup>. وقد أخبر الشارع، عليه السلام، أن في هذه الأرض الواحدة ألف عالم<sup>(٣)</sup> فإذا كان هذا العالم كله في هذه الأرض الواحدة، فكيف في الأرضين الأخرى، وفي السماوات السبع وما بينهما؟ وقال عز وجل في خلق هذا كله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾<sup>(٤)</sup> أي: من تعب.

وفائدة مدلول هذا والإخبار به: إنما هو أن يعلم أن هذا الخلق كله، بعظمه وكثرة ما فيه من المخلوقات في هذا القدر من الزمان، لا يمكن أن يكون بجارحة ولا آلة. هذا ما هو من طريق النقل.

وأما من طريق العقل والتَّظَرُّر، فهو أن العمل إذا كان بجارحة لا يكون إلا بعضه يتلو

(١) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه مرفوعاً في كتاب القدر.

(٢) سورة فصلت، الآيات ٩ - ١٢.

(٣) لم نعرف مصدره.

(٤) سورة ق، من الآية ٣٨.

بعضاً، ولو كان ذلك كذلك لاستحال أن يكون ذلك الخلق العظيم المذكور في هذا الزمان القليل، وهو ستة أيام.

ووجه آخر أيضاً مشاهد مرئيٌّ مُدْرَك، وهو أن الجارحة التي تعمل الكثيف لا تستطيع أن تعمل الرفيع. ومثاله الذي يعمل في الحلفاء<sup>(١)</sup> أو في الفاعل<sup>(٢)</sup>، وما أشبههما، إن مَدَّ يَدَهُ إِلَى الْخَزْرِ<sup>(٣)</sup> أو الحرير أو الرفيع من الكَتَان<sup>(٤)</sup> أتلفه مرةً واحدة، فكيف يفعل فيه شيئاً يكون فيه فائدة؟ وكذلك الآلة التي يُعمل بها الأشياء، لأن الآلة التي يُعمل بها الرفيع لا يُعمل بها الكثيف، ومثاله منشار المِشْط لا يتأتى أن تُنْشَر به الخشبة، وكذلك جميع الآلات لا يجزي بعضها عن بعض، فلا يجزي الرفيع عن الكثيف، ولا الكثيف عن الرفيع. وقد شاهدنا في المخلوقات مثل البعوضة والفيل إلى غير ذلك من اللطيف والكثيف مع كثرتها. فكثرتها مع اختلاف أنواعها في قِصَر الزمان المذكور أدل دليل على ما ذكرناه، وهو أن خالقها اخترعها بقدرته دون جارحةٍ ولا آلة.

ولذلك جعلها، عَزَّ وَجَلَّ، دليلاً لإبراهيم، عليه السلام، في عظيم اليقين، فقال، عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِىْ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَلِيَكُوْنَ مِنَ الْمُوقِنِيْنَ﴾<sup>(٥)</sup> فلما أن أراد الله، عَزَّ وَجَلَّ، من خليله، عليه السلام، قوة اليقين ألهمه إلى النَّظَر - بالتوفيق - في الملكوت، فبان له ما ذكرناه، فكان من الموقنين، يشهد لذلك قوله، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿شَهِدَ اللّٰهُ اَنَّهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ﴾<sup>(٦)</sup> وشهادته عَزَّ وَجَلَّ، لنفسه هي ما تضمَّنه مدلولُ مخلوقاته بوضعها على أنه جلَّ جلاله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهٖ شَيْءٌ﴾<sup>(٧)</sup> نحو ما تقدم.

فالبحت مع هذه الثلاث فرق على ما تقدَّم، والتَّبَيُّنُ لتخصيصهم ذلك العموم يُبَيِّن لك فسادَ ما ذهب إليه غيرهم من الاثنتين والسَّبعين فرقة<sup>(٧)</sup>، وكيف تخصيصهم لِلْفَظِّ عام؟

\*\*\*

ثم نرجع الآن إلى بيان اعتقاد أهل السُّنَّة، وبه يتبيَّن فساد مذهب الغير، لأن الحق إذا بان فما خالفه فهو الباطل. لكن نحتاج إلى تقديم الكلام في بعض مسائل بقيت لبعض أهل السُّنَّة

(١) الحَلْفَاء: نبات صحراوي يكثر في صحروات إفريقية، يُسْتَغَلَّ في حشو الأرائك وصنع الورق.

(٢) الفاعل: الرجل الذي يعمل في البناء والحفر والطين، إذ تكون يداه خَشِيتَيْنِ.

(٣) الْخَزْر: من الثياب: ما ينسج من صوف وإِبْرَيْسَم. والإِبْرَيْسَم: أحسن الحرير.

(٤) الرفيع من الكَتَان: الرقيق الدقيق من نسيج الكَتَان. والكَتَان: نبات زراعي يتخذ من أليافه نسيج معروف.

(٥) سورة الأنعام، من الآية ٧٥.

(٦) سورة آل عمران، من الآية ١٨.

(٧) يشير إلى الحديث: افترقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين فرقة إلخ. . . وقد تقدم نَصُّه قبل قليل في سياق شرح هذا الحديث ذاته في البيعة.

يعتقدونها، وهي مما يشبه ما فضلنا عنه، وإن كانت ليست مثله، لكن بينهما تناسبٌ ما، وأنا أقول فيها، كما قال أبو الوليد الباجي<sup>(١)</sup>، رحمه الله، عن شيخه القاضي أبي جعفر السمناني<sup>(٢)</sup>، رحمه الله، أنه كان يقول: بأن (النظر والاستدلال أول الواجبات)<sup>(٣)</sup> مسألة من الاعتزال بقيت في المذهب لمن اعتقدها. وأنا أقول في المسائل التي بقيت لبعض أهل السنة مثله، على نحو ما تقدّم من أنها تُشبهها، وليست كمثليها لمن اعتقدها.

فمنها قول بعضهم: إن جميع مخلوقات الله، عز وجل، جواهر وأعراض، ولا ثالث<sup>(٤)</sup>، ومعتقد هذا يرد عليه أنه معارض للكتاب والسنة، وما تضمنته السنة بإرشادها، على نحو ما يذكر بعد بما اعتقد من ذلك.

فأما معارضة الكتاب والسنة فهي على نوعين: تخصيص لعمومها، ومعارضة لها بالكلية.

أما التخصيص لعمومها فلأنهم قد خصصوا الكتاب والسنة بما ظهر لهم من دليل عقلهم، وهذا ممنوع شرعاً وعقلاً. وقد قال العلماء بأن عموم القرآن يخصّص بالقرآن، وعموم الحديث يخصّص بالحديث، واختلفوا: هل عموم القرآن يخصّص بالسنة المتواترة، أو لا؟ على قولين: فمن قائل يقول بالجواز، ومن قائل يقول بالمنع. وكذلك اختلفوا في أخبار الأحاد، هل تُخصّص عموم القرآن، أو لا؟ على قولين أيضاً. وهؤلاء قد خصّصوها معاً بما ظهر لهم من دليل عقلهم وذلك باطل بالإجماع.

وأما المعارضة بالكلية فهي من يعتقد منهم أن ما يقرؤونه من علم الكلام من واجبات الدين، أو كماله، أو مندوباته، لأنهم عارضوا بذلك قوله، عز وجل: ﴿أَلَيْسَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾<sup>(٥)</sup> وهم لا يخلو أن يقولوا بكمال الدين في ذلك الوقت، أو لا.

(١) هو سليمان بن خلف القرطبي. فقيه مالكي كبير، ومن رجال الحديث. رحل إلى مختلف بلاد المشرق وألف

كتباً عدة في الفقه وعلوم الحديث. توفي سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م.

(٢) هو محمد بن أحمد. قاضي حنفي. أصله من سمنان العراق. كان مقدّم الأشعرية، وشنع عليه ابن حزم. له

تصانيف في الفقه. توفي سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م.

(٣) النظر والاستدلال أول الواجبات وهذا لمن يتعلم بدليل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت: ١٩ و ٢٠). والأمر للوجوب لمن يبحث عن الدليل ليخلص من الشوائب

الطارئة على فطرته، أو للاستزادة من الأدلة على الهداية علماً وتعليماً ودعوة، وإلا فالإيمان فطرة وهبة لا كسب. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (يونس، من الآية ١٠٠).

(٤) هذه غير مسلمة إذ الملائكة ليسوا جواهر ولا أعراض. والأعراض لا تنفصل عن الجواهر.

(٥) سورة المائدة، من الآية ٣.



فإن قالوا بكمال الدين في ذلك الوقت، فهذا العلم لم يكن في ذلك الوقت، ولا تكلموا فيه،  
فالكلام فيه بعد ذلك نقص في الدين، إذ إنه لا يكون بعد الكمال إلا النقص، وقد قال، عليه الصلاة  
والسلام: (ما كان قومٌ على هدى، فضّلوا، إلّا ابتلاهم الله بعلم الجدَل)<sup>(١)</sup>، ثم تلا، عليه السلام،  
قوله، عزّ وجلّ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وإن هم لم يقولوا بكمال الدين، إذ ذاك، فقد كذبوا بالتنزيل، وهي الآية المذكورة. وقد  
كذبوا السنة أيضاً وأبطلوها، وهي قوله، عليه السلام: (تركتُ فيكم الثَّقَلَيْنِ، لن تَضِلُّوا ما تمسَّكتمُ  
بهما، كتابَ الله، وعِترتي، أهل بيتي)<sup>(٣)</sup>، وقد جعل هؤلاء للثَّقَلَيْنِ ثالثاً.

وأما ما تضمنته السنة فقوله، عليه السلام: (عليكم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ بَعْدِي)<sup>(٤)</sup>، وقوله،  
عليه السلام: (أصحابي مثلُ النجوم، بأيُّهم اقتديتم اهتديتم)<sup>(٥)</sup>، وقوله عليه السلام: (خيرُ القرون  
قُرْنِي، ثم الذين يلونهم)<sup>(٦)</sup>، ومجموع هؤلاء لم يتكلموا في هذا العلم شيئاً، فكيف يرجع الفاضل  
مفضولاً، والمفضول فاضلاً؟ كفى بذلك غلطاً.

وأما ما ذكرناه من تخصيص البعض أولاً، فهو بما يرد عليهم من الآي والأحاديث، وهي جملة،  
تتضمّن الردّ عليهم. فمن جملة ما يرد عليهم ما روي أنّ اليهود لما أن أرادوا أن يختبروا النبي ﷺ،  
هل هو نبيّ أو لا؟ أتوه بمسائل جملة، يسألونه عنها. ومن جملتها (الروح) فقالوا: إن أخبركم بجملة  
المسائل وبالروح، فاعلموا أنه ليس بنبيّ، وإن سكّت عن الروح وأجاب عن الغير، فهو نبيّ حقّاً. فأتوه،  
فسألوه فأجابهم، عليه السلام، على الكل، عدا الروح، فلم يدر ما يجاب عنه، فنزلت ﴿وَيَسْأَلُونَكَ  
عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾<sup>(٧)</sup> فأخبر عزّ وجلّ، أن أحداً لا يعلم الروح غيره، فلما أن تلا  
عليهم الآية قَبِلُوا قَدَمَيْهِ، وقالوا: نشهد أنك نبيّ، لأن أحداً من الأنبياء، لا يعرف الروح<sup>(٨)</sup>.

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ولفظه: ما ضلّ قومٌ بعد هدى كانوا  
عليه إلا أوتوا الجدَل.

(٢) سورة الزخرف، من الآية ٥٨.

(٣) انظر تخريجه في مقدمة المؤلف، رحمه الله.

(٤) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن العزْباض بن سارية رضي الله عنه.

(٥) انظر الكلام على هذا الحديث في حاشية مقدمة المؤلف - رحمه الله -.

(٦) حديث صحيح متواتر. أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم. ولفظه من حديث عمران بن حصين رضي الله  
عنه أن النبي ﷺ قال: خيرُ النَّاسِ قُرْنِي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. ولم يرد في الصحيحين (خير القرون)  
بهذا اللفظ، وإنما ورد (خيرُكم قُرْنِي) و (خيرُ الناس قُرْنِي) و (إن خيركم قُرْنِي).

(٧) سورة الإسراء، من الآية ٨٥.

(٨) أخرجه الإمام أحمد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، والبخاري ومسلم. أما تقبيل قدميه فقد ورد في  
حديث آخر رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه وابن ماجه، وفيه: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا =

يعتقدونها، وهي مما يشبه ما فصلنا عنه، وإن كانت ليست مثله، لكن بينهما تناسب ما، وأنا أقول فيها، كما قال أبو الوليد الباجي<sup>(١)</sup>، رحمه الله، عن شيخه القاضي أبي جعفر السمناني<sup>(٢)</sup>، رحمه الله، أنه كان يقول: بأن (النظر والاستدلال أول الواجبات)<sup>(٣)</sup> مسألة من الاعتزال بقيت في المذهب لمن اعتقدها. وأنا أقول في المسائل التي بقيت لبعض أهل السنة مثله، على نحو ما تقدم من أنها تُشبهها، وليست كمثليها لمن اعتقدها.

فمنها قول بعضهم: إن جميع مخلوقات الله، عز وجل، جواهر وأعراض، ولا ثالث<sup>(٤)</sup>، ومعتقد هذا يرد عليه أنه معارض للكتاب والسنة، وما تضمنته السنة بإرشادها، على نحو ما يذكر بعد بما أعتقد من ذلك.

فأما معارضة الكتاب والسنة فهي على نوعين: تخصيص لعمومها، ومعارضة لها بالكلية.

أما التخصيص لعمومها فلأنهم قد خصصوا الكتاب والسنة بما ظهر لهم من دليل عقلهم، وهذا ممنوع شرعاً وعقلاً. وقد قال العلماء بأن عموم القرآن يخص بالقرآن، وعموم الحديث يخص بالحديث، واختلفوا: هل عموم القرآن يخص بالسنة المتواترة، أو لا؟ على قولين: فمن قائل يقول بالجواز، ومن قائل يقول بالمنع. وكذلك اختلفوا في أخبار الآحاد، هل تُخصص عموم القرآن، أو لا؟ على قولين أيضاً. وهؤلاء قد خصصوها معاً بما ظهر لهم من دليل عقلهم وذلك باطل بالإجماع.

وأما المعارضة بالكلية فهي من يعتقد منهم أن ما يقرؤونه من علم الكلام من واجبات الدين، أو كماله، أو مندوباته، لأنهم عارضوا بذلك قوله، عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾<sup>(٥)</sup> وهم لا يخلو أن يقولوا بكمال الدين في ذلك الوقت، أو لا.

(١) هو سليمان بن خلف القرطبي. فقيه مالكي كبير، ومن رجال الحديث. رحل إلى مختلف بلاد المشرق وألف

كتباً عدة في الفقه وعلوم الحديث. توفي سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م.

(٢) هو محمد بن أحمد. قاضي حنفي. أصله من سمنان العراق. كان مقدّم الأشعرية، وشنع عليه ابن حزم. له تصانيف في الفقه. توفي سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م.

(٣) النظر والاستدلال أول الواجبات وهذا لمن يتعلم بدليل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت: ١٩ و ٢٠). والأمر للوجوب لمن يبحث عن الدليل ليخلص من الشوائب الطارئة على فطرته، أو للاستزادة من الأدلة على الهداية علماً وتعليماً ودعوة، وإلا فالإيمان فطرة وهبة لا كسب. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (يونس، من الآية ١٠٠).

(٤) هذه غير مسلمة إذ الملائكة ليسوا جواهر ولا أعراض. والأعراض لا تنفصل عن الجواهر.

(٥) سورة المائدة، من الآية ٣.

فإن قالوا بكمال الدين في ذلك الوقت، فهذا العلم لم يكن في ذلك الوقت، ولا تكلموا فيه،  
فالكلام فيه بعد ذلك نقص في الدين، إذ إنه لا يكون بعد الكمال إلا النقص، وقد قال، عليه الصلاة  
والسلام: (ما كان قومٌ على هدى، فضّلوا، إلّا ابتلاههم الله بعلم الجدَل) <sup>(١)</sup>، ثم تلا، عليه السلام،  
قوله، عز وجل: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ <sup>(٢)</sup>.

وإن هم لم يقولوا بكمال الدين، إذ ذاك، فقد كذبوا بالتنزيل، وهي الآية المذكورة. وقد  
كذبوا السنة أيضاً وأبطلوها، وهي قوله، عليه السلام: (تركتُ فيكم الثَّقَلَيْنِ، لن تَضِلُّوا ما تمسَّكْتُم  
بهما، كتابَ الله، وعِترتي، أهل بيتي) <sup>(٣)</sup>، وقد جعل هؤلاء للثَّقَلَيْنِ ثالثاً.

وأما ما تضمنته السنة فقوله، عليه السلام: (عليكم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ بعدي) <sup>(٤)</sup>، وقوله،  
عليه السلام: (أصحابي مثلُ النجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم) <sup>(٥)</sup>، وقوله عليه السلام: (خيرُ القرون  
قُرْنِي، ثم الذين يلونهم) <sup>(٦)</sup>، ومجموع هؤلاء لم يتكلموا في هذا العلم شيئاً، فكيف يرجع الفاضل  
مفضولاً، والمفضول فاضلاً؟ كفى بذلك غلطاً.

وأما ما ذكرناه من تخصيص البعض أولاً، فهو بما يرد عليهم من الآي والأحاديث، وهي جملة،  
تتضمن الرد عليهم. فمن جملة ما يرد عليهم ما روي أن اليهود لما أن أرادوا أن يختبروا النبي، ﷺ،  
هل هو نبيّ أو لا؟ أتوه بمسائل جملة، يسألونه عنها. ومن جملتها (الروح) فقالوا: إن أخبركم بجملة  
المسائل وبالروح، فاعلموا أنه ليس بنبي، وإن سكت عن الروح وأجاب عن الغير، فهو نبيّ حقاً. فأتوه،  
فسألوه فأجابهم، عليه السلام، على الكل، عدا الروح، فلم يدر ما يجاب عنه، فنزلت ﴿وَنَسْتُلُوكَ  
عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ <sup>(٧)</sup> فأخبر عز وجل، أن أحداً لا يعلم الروح غيره، فلما أن تلا  
عليهم الآية قبلوا قديمته، وقالوا: نشهد أنك نبي، لأن أحداً من الأنبياء، لا يعرف الروح <sup>(٨)</sup>.

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ولفظه: ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدى كانوا  
عليه إلا أوتوا الجدَل.

(٢) سورة الزخرف، من الآية ٥٨.

(٣) انظر تخريجه في مقدمة المؤلف، رحمه الله.

(٤) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن العزْباض بن سارية رضي الله عنه.

(٥) انظر الكلام على هذا الحديث في حاشية مقدمة المؤلف - رحمه الله -.

(٦) حديث صحيح متواتر. أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم. ولفظه من حديث عمران بن حصين رضي الله  
عنه أن النبي ﷺ قال: خيرُ الناسِ قُرْنِي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. ولم يرد في الصحيحين (خير القرون)  
بهذا اللفظ، وإنما ورد (خيرُكم قُرْنِي) و (خيرُ الناسِ قُرْنِي) و (إن خيرَكم قُرْنِي).

(٧) سورة الإسراء، من الآية ٨٥.

(٨) أخرجه الإمام أحمد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، والبخاري ومسلم. أما تقبيل قدميه فقد ورد في  
حديث آخر رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه وابن ماجه، وفيه: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا =

ثم بعد هذه الآية الواضحة وهذا الأثر البين أتى بعض أهل هذا العلم وادّعوا أنهم يعرفون ما أخير، عز وجل، أنه لا يعلمه غيره. كفى بهذا رداً عليهم، ومنها قوله، عز وجل ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup> وهم قد قالوا بأنهم يعلمون العالم كله في قولهم: بأن جميع المخلوقات جواهر وأعراض. والآي في ذلك كثيرة، وفيما أشرنا كفاية لمن عقل.

وأما ما يرد عليهم من السنة فمنها قوله، عليه السلام، في حجة الوداع لأصحابه (اللهم هل بلغت؟ فقالوا: نعم. فرفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم اشهد، اللهم اشهد)<sup>(٢)</sup> فإن كان هذا العلم مما لا يكمل الدين إلا به، وكان، عليه السلام، يعلمه ولم يبلغه، فكيف يصح على ذلك قوله: (اللهم هل بلغت؟) ومعتقد هذا كيف يصح دينه؟ وبماذا يلقى نبيه؟ وإن كان هو، عليه السلام، لم يعلمه، ولا يكمل الدين إلا به، فيكون هو أعلم من نبيه، فكيف يصح الإيمان مع هذا؟

ومنها قوله، عليه السلام: (لله عز وجل سبعة عشر نوعاً من الخلق، السماوات السبع، والأرضون السبع، وما فيهما عالم واحد)<sup>(٣)</sup> فإذا كانت السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهما وما بينهما عالماً واحداً، فبقية العوالم ما هي؟ ومثل ذلك أيضاً قولهم في الإيمان والحكمة إنها أعراض. وسنبتين فساد ما ذهبوا إليه من ذلك في موضعه، وهو حديث الإسراء، إن شاء الله تعالى.

هذا البحث معهم من طريق النقل.

وأما من طريق العقل، فلأنهم خصصوا أثر قدرة القادر. وقدرة القادر، عز وجل، صفة قائمة بذاته. فمن خصص آثارها بغير دليل شرعي لزمه تخصيص الصفة. وتخصيص الصفة يلزم منه تخصيص الموصوف. وهذا ممنوع عقلاً وشرعاً. فلحق معتقد هذا بالأصناف المذكورة أول التقسيم - وهو لم يشعر - أعني المخالفين للسنة. فالبحث معه كالبحث معهم، وقد تقدم.

فإن قال قائل: قد تكلم في هذا العلم من تقدم عصرنا هذا من السادة الفضلاء، قيل له: إنهم لم يكونوا يعتقدون هذا الاعتقاد الفاسد الذي يعتقده بعض أهل هذا العصر، ولم يكن في هذا العلم هذا الحضر الكلي الذي فيه الآن، ولم يتكلموا فيه إلا بعد تضلعهم بالعلوم الشرعية، وعلموا ما

= النبي نسأله. فأتياه فسألاه عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ﴾ فذكر الحديث، وفيه: فقبلاً يديه ورجليه. وصححه الحاكم.

(١) سورة النحل، من الآية ٨.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي بكره رضي الله عنه في القسامة.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة وأبو نعيم في الحلية مقطوعاً من قول وهب بن منبه كما في الدر المنثور ١٣/١ بلفظ (إن لله ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا فيها عالم واحد).

أوجب الله عليهم من الاعتقاد والأقوال والأفعال من الكتاب والسنة، فلم يضُرَّهم نظرهم في هذا العلم إذا جعلوه عِدَّةً لمن مَرَّقَ من الدين، فردَّوه به إلى دائرة التوحيد.

وقد اختلف العلماء: هل <sup>(١)</sup> لا يقطع الخصم إلا بالحق، أو بأي وجه قطع من الحجج كائناً ما كان، حتى يرجع إلى الحق؟ على قولين: فعلى القول بأن المقصود القطع بأي وجه كان، إذ المقصود الرجوع إلى الحق. فبهذا ساغ لهم الأخذ فيه مع سلامة الاعتقاد لمقصدهم الجميل، وهو أن مقصودهم إظهار الحق لا غير. وعلى القول بأنه لا يقطع إلا بالحق، ولا يسوغ القطع بغيره، فلا يجوز الكلام فيه مرة واحدة.

ولأجل هذا القول تاب بعض من تقدم من الفضلاء عن الكلام فيه، وأقلع عنه، فمنهم إمام المتكلمين ورئيسهم أبو المعالي <sup>(٢)</sup>، ومنهم الإمام الوليد بن أبان الكرابيسي <sup>(٣)</sup>، ومنهم الإمام أبو الوفاء ابن عقيل <sup>(٤)</sup>، ومنهم الإمام الشهرستاني <sup>(٥)</sup> صاحب (نهاية الإقدام في علم الكلام). يشهد لما نقلناه عنهم ما نقله الإمام الجليل أبو العباس القرطبي <sup>(٦)</sup> في كتابه الذي وضعه على مختصر مسلم.

وقد كان الأكابر من فضلاء الأندلسيين من ابتدأ عندهم بهذا العلم قبل تضلعه بالعلوم الشرعية يقولون بزندقته، ولا يلتفتون إليه، فإن قرأه بعد تضلعه من العلوم الشرعية وفهمته منه الاستقامة، فحينئذ يُسَلِّمون له فيه.

ومنهم من تكلم في كتاب الله، عز وجل، فقال بعضهم بـ (الحُلُول)، وقال بعضهم بأنه (دالٌّ)

---

(١) كذا، بإدخال (هل) على (لا)، وهو لحن.

(٢) هو عبد الملك بن عبد الله الجَوْنِي: أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي. ولد في جُوَيْن من نواحي نيسابور، ورحل إلى بغداد فمكة فالمدينة، فأفتى فيها ودرَّس، ثم عاد إلى نيسابور، وبها توفي سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م. له عدد من المصنفات في العقيدة والأصول والفقه.

(٣) الوليد بن أبان الكرابيسي: معتزلي من علماء الكلام، من أهل البصرة، له مقالات في تقوية مذهب الاعتزال، ثم رجع عنها وفاءً إلى مذهب أهل السنة والجماعة. توفي سنة ٢١٤هـ/٨٢٩م.

(٤) هو علي بن عقيل البغدادي، أبو الوفاء، ويعرف بابن عقيل. عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته. اشتغل بمذهب المعتزلة في حداثته، ثم رجع عنه. له تصانيف في الفقه والأصول والعقيدة والفِرَق. توفي سنة ٥١٣هـ/١١١٩م.

(٥) هو محمد بن عبد الكريم، أبو الفتح الشهرستاني، كان إماماً في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة، ولد في شهرستان، وانتقل إلى بغداد، ثم عاد إلى بلده وبها توفي سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م. له مصنفات كثيرة منها: المِلل والنحل، ونهاية الإقدام في علم الكلام، وتفسير سورة يوسف، ومفاتيح الأسرار ومصايح الأبرار في التفسير، وسواها.

(٦) هو أحمد بن عمر أبو العباس الأنصاري القرطبي، فقيه مالكي، من رجال الحديث. كان مدرّساً بالإسكندرية وبها توفي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وأصله من قرطبة. وله مصنفات في الحديث منها: المُفهِم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، وكتاب اختصار صحيح البخاري، ومختصر الصحيحين.

ثم بعد هذه الآية الواضحة وهذا الأثر البين أتى بعض أهل هذا العلم وأدعوا أنهم يعرفون ما أخبر، عز وجل، أنه لا يعلمه غيره. كفى بهذا رذاً عليهم، ومنها قوله، عز وجل ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup> وهم قد قالوا بأنهم يعلمون العالم كله في قولهم: بأن جميع المخلوقات جواهر وأعراض. والآي في ذلك كثيرة، وفيما أشرنا كفاية لمن عقل.

وأما ما يرد عليهم من السنة فمنها قوله، عليه السلام، في حجة الوداع لأصحابه (اللهم هل بلغت؟ فقالوا: نعم. فرفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم اشهد، اللهم اشهد)<sup>(٢)</sup> فإن كان هذا العلم مما لا يكمل الدين إلا به، وكان، عليه السلام، يعلمه ولم يبلغه، فكيف يصح عني ذلك قوله: (اللهم هل بلغت؟) ومعتقد هذا كيف يصح دينه؟ وبماذا يلقي نبيه؟ وإن كان هو، عليه السلام، لم يعلمه، ولا يكمل الدين إلا به، فيكون هو أعلم من نبيه، فكيف يصح الإيمان مع هذا؟

ومنها قوله، عليه السلام: (لله عز وجل سبعة عشر نوعاً من الخلق، السماوات السبع، والأرضون السبع، وما فيهما عالم واحد)<sup>(٣)</sup> فإذا كانت السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهما وما بينهما عالماً واحداً، فبقية العوالم ما هي؟ ومثل ذلك أيضاً قولهم في الإيمان والحكمة إنها أعراض. وسنبتن فساد ما ذهبوا إليه من ذلك في موضعه، وهو حديث الإسراء، إن شاء الله تعالى.

هذا البحث معهم من طريق النقل.

وأما من طريق العقل، فلأنهم خصصوا أثر قدرة القادر. وقدرة القادر، عز وجل، صفة قائمة بذاته. فمن خصص آثارها بغير دليل شرعي لزمه تخصيص الصفة. وتخصيص الصفة يلزم منه تخصيص الموصوف. وهذا ممنوع عقلاً وشرعاً. فلحق معتقد هذا بالأصناف المذكورة أول التقسيم - وهو لم يشعر - أعني المخالفين للسنة. فالبحث معه كالبحث معهم، وقد تقدم.

فإن قال قائل: قد تكلم في هذا العلم من تقدم عصرنا هذا من السادة الفضلاء، قيل له: إنهم لم يكونوا يعتقدون هذا الاعتقاد الفاسد الذي يعتقد بعض أهل هذا العصر، ولم يكن في هذا العلم هذا الحضر الكلي الذي فيه الآن، ولم يتكلموا فيه إلا بعد تضلّعهم بالعلوم الشرعية، وعلموا ما

= النبي نسأله. فأتياه فسألاه عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى إِسْحَاقَ آيَاتِنَا﴾ فذكر الحديث، وفيه: فقَبَلَا يديه ورجليه. وصححه الحاكم.

(١) سورة النحل، من الآية ٨.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي بكره رضي الله عنه في القسامة.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة وأبو نعيم في الحلية مقطوعاً من قول وهب بن منبه كما في الدر المنثور ١٣/١

بلفظ (إن الله ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا فيها عالم واحد).

أوجب الله عليهم من الاعتقاد والأقوال والأفعال من الكتاب والسنة، فلم يضربهم نظرهم في هذا العلم إذا جعلوه عدة لمن مَرَقَ من الدين، فردّوه به إلى دائرة التوحيد.

وقد اختلف العلماء: هل<sup>(١)</sup> لا يُقَطَّع الخصم إلا بالحق، أو بأي وجه قُطِعَ من الحجج كائناً ما كان، حتى يرجع إلى الحق؟ على قولين: فعلى القول بأن المقصود القطع بأي وجه كان، إذ المقصود الرجوع إلى الحق. فبهذا ساغ لهم الأخذ فيه مع سلامة الاعتقاد لمقصدهم الجميل، وهو أن مقصودهم إظهار الحق لا غير. وعلى القول بأنه لا يقطع إلا بالحق، ولا يسوغ القطع بغيره، فلا يجوز الكلام فيه مرة واحدة.

ولأجل هذا القول تاب بعض من تقدم من الفضلاء عن الكلام فيه، وأقلع عنه، فمنهم إمام المتكلمين ورئيسهم أبو المعالي<sup>(٢)</sup>، ومنهم الإمام الوليد بن أبان الكرابيسي<sup>(٣)</sup>، ومنهم الإمام أبو الوفاء ابن عقيل<sup>(٤)</sup>، ومنهم الإمام الشهرستاني<sup>(٥)</sup> صاحب (نهاية الإقدام في علم الكلام). يشهد لما نقلناه عنهم ما نقله الإمام الجليل أبو العباس القرطبي<sup>(٦)</sup> في كتابه الذي وضعه على مختصر مسلم. وقد كان الأكابر من فضلاء الأندلسيين من ابتدأ عندهم بهذا العلم قبل تضلعه بالعلوم الشرعية يقولون بزندقته، ولا يلتفتون إليه، فإن قرأه بعد تضلعه من العلوم الشرعية وفهمته منه الاستقامة، فحينئذ يُسَلِّمون له فيه.

ومنهم من تكلم في كتاب الله، عز وجل، فقال بعضهم بـ (الحلول)، وقال بعضهم بأنه (دال)

- 
- (١) كذا، بإدخال (هل) على (لا)، وهو لحن.
- (٢) هو عبد الملك بن عبد الله الجويني: أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي. ولد في جُوَيْن من نواحي نيسابور، ورحل إلى بغداد فمكة فالمدينة، فأفتى فيها ودّرس، ثم عاد إلى نيسابور، وبها توفي سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م. له عدد من المصنفات في العقيدة والأصول والفقه.
- (٣) الوليد بن أبان الكرابيسي: معتزلي من علماء الكلام، من أهل البصرة، له مقالات في تقوية مذهب الاعتزال، ثم رجع عنها وفاءً إلى مذهب أهل السنة والجماعة. توفي سنة ٢١٤هـ/٨٢٩م.
- (٤) هو علي بن عقيل البغدادي، أبو الوفاء، ويعرف بابن عقيل. عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته. اشتغل بمذهب المعتزلة في حياته، ثم رجع عنه. له تصانيف في الفقه والأصول والعقيدة والفِرَق. توفي سنة ٥١٣هـ/١١١٩م.
- (٥) هو محمد بن عبد الكريم، أبو الفتح الشهرستاني، كان إماماً في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة، ولد في شهرستان، وانتقل إلى بغداد، ثم عاد إلى بلده وبها توفي سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م. له مصنفات كثيرة منها: المِلل والنحل، ونهاية الإقدام في علم الكلام، وتفسير سورة يوسف، ومفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار في التفسير، وسواها.
- (٦) هو أحمد بن عمر أبو العباس الأنصاري القرطبي، فقيه مالكي، من رجال الحديث. كان مدرّساً بالإسكندرية وبها توفي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وأصله من قرطبة. وله مصنفات في الحديث منها: المُفهِم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، وكتاب اختصار صحيح البخاري، ومختصر الصحيحين.

وليس بحال، وكلاهما غلط بيّن. والبحث معهم فيه أن نقول: لا يخلو أن يكون ذلك مما كلفنا به شرعاً، أو مما لم نكلف به.

فإن قلنا بأنه مما كُلفنا به شرعاً، والنبى ﷺ لم يُبَيَّنْه ولا الخلفاء، فيلزم على هذا ما لزم في الكلام قبل، وهو قوله، عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾<sup>(١)</sup> وقوله، عليه السلام: (اللهم هل بلغت؟) والقول بأن التكليف واقع فيه برّد معنى هذين، وهو أن يكون الدّين حين نزول الآية لم يكمل، وأن يكون النبى ﷺ، مات ولم يبلغ، والبحث في هذا كالبحث فيما تقدم، سواء.

وإن قلنا بأنه مما لم نكلف به شرعاً فلا يخلو أن يكون الكلام فيه جائزاً أو ممنوعاً، فإن قلنا بالمنع فلا كلام، ويسعنا فيه ما وسع النبى ﷺ، والخلفاء والصحابه والسلف، لأنهم لم يأخذوا فيه أصلاً.

ومثل هذا الكلام في البسملة: هل الاسم هو المسمى، أو الاسم غير المسمى؟ قد تكلم فيه بعض المتأخرين، فقالت طائفة بأن (الاسم) هو المسمى، وقالت طائفة بأن (الاسم) غير المسمى، ثم أتى الفضلاء من أهل السنة المتبعين، فقالوا: إن من تقدم لم يتكلموا في ذلك، فليسعنا فيه ما وسعهم، ولم يجابوا في ذلك بأكثر.

وإن قلنا بجواز الأخذ فيه فلا يخلو أن نقول بجوازه مطلقاً، أو لا بدّ فيه من قيد. فإن قلنا بالجواز مطلقاً فممنوع، وإن قلنا بالتقييد فسانح.

والتقييد هو أن يكون الكلام فيه لا يخلّ بقاعدة من قواعد اعتقاد أهل السنة، ولا بالقاعدة الكلية التي اجتمع عليها أهل العقل.

فأما القاعدة الكلية التي اجتمع عليها أهل العقل فهي أن خالق المخلوقات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وأن صفاته القائمة بذاته الجليلة ليس كمثله شيء. فطالب الكيفية في هذه الصفة التي هي (الكلام) هل هو حال أو غير حال؟ يلزمه أن يطلب كيفية صفة القدرة القائمة بالذات الجليلة التي جميع المخلوقات صادرة عنها. أعني صفة القدرة كيف اتصالها؟ أعني: القدرة بالمقدور عليه، الذي هو جميع المخلوقات عند بروزها من العدم إلى الوجود.

فإن ادعى معرفة الكيفية هنا فذلك محال بالإجماع من أهل العلم وغيرهم؛ لأن الكل قد أقرّوا أن جميع المخلوقات صادرة عن القدرة، وعجزوا عن معرفة كيفية اتصالها بالمقدور عليه. فلما كان

(١) سورة المائدة، من الآية ٣.



العجز هنا واجباً فكذاك في الأخرى واجباً. أعني أن الكلام في هذه مثل هذه<sup>(١)</sup>، لأن هذه صفة قائمة بالذات الجلية، وهذه صادرة عنها، فوجب الإيمان بهذه كما وجب الإيمان بهذه، ووجب العجز عن معرفة الكيفية في هذه كما وجب العجز عن معرفة الكلية في هذه. وكذلك جميع الصفات الكيفية فيها ممنوعة، كما هي في الذات؛ لأن الكيفية إنما تكون في البشر وصفاتهم، وفي المحدثات وصفاتها، على ما أُجريت عليه.

وأما القواعد الشرعية فقوله، عز وجل: ﴿وَزَلَّاتُهَا تَلَوَاتٌ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله، عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾<sup>(٣)</sup> فأكدّه بالمصدر، والعرب إذا أكدت بالمصدر نفت المجاز وأثبتت الحقيقة. فإن هم قالوا بأنه (دال) لم يصدق عليه اسم (التنزيل)، فأخرجوا الحقيقة إلى المجاز بغير دليل عقلي ولا شرعي. وإن هم قالوا: ب (الحلول) فقد ردوا أيضاً مقتضى قوله، عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ يَلِسَانُكَ﴾<sup>(٤)</sup>. وهذه الحروف مُحدثة؛ لأن اللغة العربية محدثة، فكيف يجعلون المحدث قديماً؟ فنفوا الحقيقة، وأثبتوا المجاز بغير دليل عقلي ولا شرعي، كما فعلت الطائفة الأولى. وقد قال، عليه السلام: (سبعة لعنتهم أنا وكلُّ نبيٍّ مُستجاب)<sup>(٥)</sup> وعدَّ فيهم المحرّف لكتاب الله. فعلى هذا يجب الإيمان بالآيتين معاً. أعني قوله، عز وجل: ﴿وَزَلَّاتُهَا تَلَوَاتٌ﴾ وقوله عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ يَلِسَانُكَ﴾ فيكون كتاب الله مقروءاً ومُتلواً بالعربية. هذا هو الذي يجب؛ لأنه متضمن الآيتين من غير إبطال إحداهما، ولو كان غير ذلك لكان النبي، ﷺ، والخلفاء والصحابة يشيرون إليه.

\* \* \*

ثم بقي بحث مع بعض معاصرينا في مسائل يفعلونها تؤول بهم إلى ضرب من تخصيص ذلك العموم.

فمنهم من يرى (الفتوى بمجرّد العادة) مطلقاً في بعض المعاملات والبيوع، ولسان العلم يمنعها، ويقول: قد جرت العادة بذلك، فلا بأس به. وهذا ليس بشيء، لأنه يلزم على القول بذلك نسخ الشريعة بالعادة ولا قائل به. فإن احتج بقول من قال من الفقهاء: (العادة شرع) قيل له: إنما العادة شرع عند الفقهاء، بقيد يقيدونها به لا على العموم، وهي أن تكون تلك العادة لا تُخلّ بقاعدة من قواعد الشريعة. ومثال ما جعلوه عادةً شرعاً - أعني الفقهاء - هو مثل شخص استأجر أجيراً ولم

(١) بمعنى أن الكلام عن الكيفية يشبه الكلام عن القدرة. والنتيجة هي العجز عن المعرفة في كليهما.

(٢) سورة الإسراء، من الآية ١٠٦.

(٣) سورة الإنسان، من الآية ٢٣.

(٤) سورة مريم، من الآية ٩٧.

(٥) أخرجه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها بلفظ (سته).

يُعَلِّمُهُ بِأَجْرَتِهِ، فَإِذَا فَرَغَ مِنَ الْعَمَلِ طَلَبَ الْأَجِيرَ كَثِيرًا، وَأَعْطَى الْمُسْتَأْجِرَ قَلِيلًا. فَهَذَا يَسَانُ الْحَاكِمُ أَهْلَ الْمَعْرِفَةِ بِذَلِكَ الْعَمَلِ، مَا ثَمَنَهُ؟ فَتَحْكُمُ بِالْعَادَةِ فِيهِ. فَهَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ هُوَ الَّذِي أُرَادَ لَعَنَهُمْ بِقَوْلِهِمْ (الْعَادَةُ شَرْعٌ) لَا عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لَا يُقَدَّرُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ إِلَّا بِهَذَا الْأَمْرِ.

وَقَدْ نَصَّ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِالْمَنْعِ عَلَى مَا هُوَ أَقْلٌ مِنْ هَذَا وَأَخْفَ، فِي حَدِيثِ بَرِيرَةَ قَالَتْ: (كُلُّ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ وَلَوْ مِائَةً شَرْطًا) (١) فَإِذَا كَانَ الشَّرْطُ لَا يُحْكَمُ بِهِ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَكَيْفَ بِالْعَادَةِ إِذَا كَانَتْ مُخَالَفَةً لِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ هَذَا مِنْ أَسْرَرِ الْعَمَلِ.

ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ الْوَاضِحِ يَحْتَجُّونَ عَلَى الْجَوَازِ بِكَوْنِ أَنَّ بَعْضَ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ الْفَاسِدَةِ كَانَتْ فِي زَمَنِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الْفَضْلَاءِ وَلَمْ يَتَكَلَّمُوا فِيهِ وَيُرُونَ أَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ وَإِنْ ظَهَرَ الْفَسَادُ بِالْدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ، لَكُنْ مِنْ تَقَدَّمَ لَمْ يَتَكَلَّمْ فِيهِ. وَهَذَا غَلَطٌ آخَرٌ أَيْضًا؛ لِأَنَّ مِنْ دُونِ فَسَادِهِمْ، وَدُونَ هَذَا الْوَاقِعِ فِي زَمَانِهِمْ، يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْوَاقِعُ عَلَى هَذِهِ الصِّيْغَةِ الْفَاسِدَةِ وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْوَاقِعُ الْإِسْمُ الْإِسْمُ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى هَذِهِ الصِّيْغَةِ الْفَاسِدَةِ.

فَإِنْ كَانَ فِي وَقْتِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ عَلَى هَذِهِ الصِّيْغَةِ الْفَاسِدَةِ فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي زَمَانِهِمْ صَالِحًا، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا يَتَكَلَّمُونَ، وَهُوَ الْآنَ فَاسِدٌ، فَجَوَّبَ الْكَلَامَ حِينَ الْفَسَادِ. وَلِهَذَا الْمَعْنَى قَالَ رَزِينُ (٢) رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا أَتَيْتُ عَلَى بَعْضِ الْفُقَهَاءِ الْمَتَأَخِّرِينَ إِلَّا مِنْ وَضَعَهُمُ الْأَسْمَاءَ عَلَى غَيْرِ مُسَمِّيَّاتٍ، لِأَنَّهُ كَانَتْ تِلْكَ الْأَسْمَاءُ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ عَلَى صِيَغِ جَائِزَةٍ بِوُجُوهِ شَرْعِيَّةٍ، وَهِيَ الْيَوْمَ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ جَائِزٍ، فَأَجَازُوا غَيْرَ الْجَائِزِ لِاشْتِرَاكِهِ فِي الْأِسْمِ مَعَ الْجَائِزِ.

وَإِنْ كَانَتْ فِي زَمَانِهِمْ عَلَى تِلْكَ الْأَحْوَالِ الْفَاسِدَةِ فَهُوَ مُحْتَمَلٌ أَيْضًا لِأَنَّهُ يَكُونُوا غَفَلُوا عَنْهَا لَشُغْلِهِمْ بِمَا كَانَ عَنْدهُمْ أَكْثَرُ وَأَهَمُّ، فَلَمْ يَلْقُوا إِلَيْهَا بِالْهَمِّ، أَوْ نَظَرُوا إِلَيْهَا وَغَفَلُوا فِيهَا؛ لِأَنَّهُ لَا أَحَدٌ مَعْصُومٌ مِنَ الْغَلَطِ، فَإِذَا غَلَطَ أَحَدٌ فَكَيْفَ يُتَّبَعُ فِي غَلَطِهِ؟

وَالظَّاهِرُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ، وَالثَّلَاثُ مَرْجُوحٌ، لِأَجْلِ الْإِيجَابِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا الْوَجْهَ الْأَصْلَحَ، وَلَا سِيَّمَا مَنْ تَقَدَّمَ. وَالْوَجْهَانِ هُمَا مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ صَالِحَةً، أَوْ فَاسِدَةً، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهَا لَشُغْلِهِمْ بِغَيْرِهَا، لِأَنَّهُمْ لَوْ التَّفَتُّوا إِلَيْهَا لَتَكَلَّمُوا عَلَيْهَا، وَعَلَّلُوهَا، إِمَّا بِالْجَوَازِ أَوْ بِالْمَنْعِ. وَلَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَنُقِلَّ عَنْهُمْ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْهُمْ شَيْءٌ فِي ذَلِكَ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ، وَلَفْظُهُ فِي رِوَايَةِ الشَّيْخَيْنِ: مَنْ اشْتَرَطَ شَرْطًا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَيْسَ لَهُ وَإِنْ شَرَطَ مِائَةً شَرْطًا.

(٢) هُوَ رَزِينُ بْنُ مَعَاوِيَةَ بْنِ عِمَارٍ الْعَبْدِيُّ السَّرْقُسْطِيُّ الْأَنْدَلُسِيُّ، أَبُو الْحَسَنِ: إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ. نُسِبَتْهُ إِلَى سَرْقُسْطَةَ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ. جَاوَرَ بِمَكَّةَ زَمَنًا طَوِيلًا، وَتُوفِيَ بِهَا. لَهُ تَصَانِيفٌ. مِنْهَا (التَّجْرِيدُ لِلصَّحَاحِ السِّتَةِ). تُوُفِيَ سَنَةَ ٥٣٥هـ/١١٤٠م.

فإذا لم يتكلموا فيها فكيف يُعطى الحُكْمُ للساكت؟ ولا قائل بذلك، مع أن الأصل تطرُق الفساد إلى الأحكام لقوله، عليه السلام: (لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الإسلام عُرْوَةُ عُزْوَةٍ، وكلما انتقضت عروة تشبَّث الناس بالتي تليها، وأولهن نقضُ الحُكْم، وآخرهن الصَّلَاة) <sup>(١)</sup>، فيتطرق الفساد إلى الأحكام شيئاً فشيئاً ولا يُشعر به، كما أخبر الصادق، عليه السلام. فالعاقل يكون مَعْنٍ جَبَرٍ ما نُقِضَ، ويحذر لئلا يكون ممن أعان على النقض، وقد قال، عليه السلام: (من أحيا سنة من سنتي قد أميتت فكأنما أحياني، ومن أحياني كان معي في الجنة) <sup>(٢)</sup>. فاحذر أن تكون مع الخلق، وكن مع الحق حيث كان؛ لأنه، عليه السلام، قال: (لا يَكُنْ أحدكم إمعةً يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساؤوا أسأت، ولكن وُطِنُوا أنفُسَكُمْ إن أحسنَ الناسُ أن تحسِنوا، وإن أساؤوا ألا تظلموا) <sup>(٣)</sup>.



ومنهم من يرى بمطالعة كتاب الزمخشري <sup>(٤)</sup>، ويؤثره على غيره من السادة الفضلاء المشهود لهم بالشؤدد كابن عباس الذي شهد له، عليه السلام، بأنه ترجمان <sup>(٥)</sup> القرآن، ومثله ابن عطية <sup>(٦)</sup> من المتأخرين الذي قد اجتمع العلماء على فضله ودينه، ثم إنهم يسمونه بـ (الكشاف) تعظيماً منهم، وترفعاً لقدره. وهذا لا يخلو الناظر فيه أن يكون من أحد قسمين: إما أن يكون عارفاً دعواه، فيعرف تلك الدسائس التي دسَّ فيه من مذهب الاعتزال، ولا يضره ويأخذ منه فوائد أخر مثل العربية والمنطق وما أشبه ذلك، أو لا يكون في هذه الرتبة.

فإن لم يكن في هذه الرتبة، فلا يحلَّ له النظر فيه لوجهين (أحدهما) وهو أشدهما - أن تسبق تلك الدسائس إليه، وهو لم يشعر، فيكون في جهل مرگب، لأنه معتزلي، وهو يظن أنه سُني. و (الوجه الآخر) أن يقدم مرجوحاً ويضع راجحاً؛ لأنه يقدم شرح معتزلي على شرح سُني.

- (١) أخرجه الإمام أحمد وصححه ابن حبان والحاكم عن أبي أمامة رضي الله عنه.
- (٢) أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
- (٣) أخرجه الترمذي عن حذيفة رضي الله عنه وحسنه.
- (٤) هو محمود بن عمر الزمخشري، جاز الله. ولد في زَمَخْشَر من قرى خَوَارِزْم، وسافر إلى مكة المكرمة وجاور بها زمناً، وتنقل في البلدان ثم عاد إلى الجرجانية وتوفي بها سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٤م. له كثير من المؤلفات منها التفسير المعروف بـ (الكشاف) وأساس البلاغة، والمفصل، والفائق - في غريب الحديث - وغيرها. وكان معتزلياً.
- (٥) حديث شهادة النبي ﷺ لابن عباس بأنه ترجمان القرآن أخرجه الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرک موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه وصححه على شرط الشيخين، وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد وأبو نُعَيْم في الحلية.
- (٦) هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي، من محارب قيس، الغرناطي. أبو محمد. مفسر، فقيه أندلسي. عارف بالأحكام والحديث. ولي قضاء المَرِيَّة، وكان يكثر الغزوات في جيوش المُلَّثَمِينَ. له كتاب (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) وسواه من التصانيف. توفي سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٨م.

وإن كان في الرتبة المتقدم ذكرها فلا يحلّ له النظر فيه لوجوه: (الأول) أنه لا يأمن من الغفلة، فيسبق إليه من تلك الدسائس شيء، وهو لم يشعر. (الثاني): أنه يحمل الجهل بتعظيمه له، والنظر فيه، وتطريز مجالسه به على تقديمه، لأنهم إذا رأوا فاضلاً يطرز مجالسه بكلامه، ويقول: قال الكشاف، كان ذلك ترغيباً للعوام في تقليده وتزهيده في غيره. (الثالث): أنه وضع راجحاً ورفع مرجوحاً، لأنه وضع كتاب أهل السنة ورفع كتاب المعتزلي.

ولو كان صادقاً في دعواه، وهو أن فيه أهلية للعلم، وكان في الرتبة المتقدم ذكرها، لما خفيت عليه تلك المكيدة التي كادها، ولما رضي من علمه أن يكون شواشاً لمعتزلي، وهذا كان قصده، وهو أن يرفعه العالم، ويقلده الجاهل. والشواش هو الذي يثني على الغير ليجمع الناس عليه، فكانت قصارى هذا الفقيه المدعي للرتبة المتقدم ذكرها أن يرجع شواشاً لمعتزلي، فعمد الله من التبديل بعد الهدى. وقد قال عليه الصلاة والسلام (لا تقولوا لِمَنَافِرٍ (سَيِّدًا) فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ أَسْخَطْتُمُ اللَّهَ)<sup>(١)</sup>، وكذلك كل من رفع صاحب هذا الكتاب فقد أسخط الله في ترفيعه إياه. لأجل ما هو عليه من الاعتقاد.



ثم بقي بحث مع بعض المنتسبين للمتصوفة حيث يأتون بالفاظ يدعونها:

فمنها قولهم: بـ (العلم اللدني) ويؤثرونه على علم الشرع المنقول، ويقولون بأنهم أخذوا بغير واسطة، وغيرهم أخذ بالواسطة، وهذا منهم جهلٌ وخطأ لا شك فيه ولا خفاء، لقوله، عليه الصلاة والسلام: (إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ)<sup>(٢)</sup> وقد أنكر عليهم بعض الفقهاء ما ادعوه من ذلك وقالوا: ليس هذا بحق. ومُنْكَرُ هذا غَلَطٌ منه أيضاً؛ لأن الشريعة دلت عليه في غير ما آية وغير ما حديث.

فمنها قوله، عليه السلام: (إِنَّ مِنْ أُمَّتِي لَمُحَدَّثِينَ وَإِنَّ عَمْرَ لَمَنْهُمْ)<sup>(٣)</sup>، وقد ظهر ذلك من عمر، رضي الله عنه، عياناً حين نادى لسارية، وهو على المنبر في المدينة: يا ساريةُ الجبل. وكان ساريةُ بالعراق أميراً على جيش المسلمين، فسمعه سارية، فطلع بالمسلمين الجبل، فنجوا من العدو لتحصنهم بالجبل منهم<sup>(٤)</sup>.

- 
- (١) نسبه في الفتح الكبير ٣/٣٣٣ للإمام أحمد وأبي داود والنسائي عن بريدة رضي الله عنه بلفظ آخر.  
(٢) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير وعزاه للدارقطني عن أبي هريرة رضي الله عنه وللخطيب عن أبي الدرداء رضي الله عنه، ورواه ابن أبي عاصم والطبراني عن معاوية رضي الله عنه.  
(٣) أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.  
(٤) رواه البيهقي في دلائل النبوة، وصححه الحافظ في الإصابة وابن تيمية في المقاصد الحسنة.

ومنها قوله، عز وجل في كتابه: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾<sup>(١)</sup>. وقد أخبر، عز وجل، في كتابه حكاية موسى والخضر، عليهما السلام، ما هو نصر فيما نحن بسبيله حيث قال الخضر لموسى ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾. وكيف نصبر على ما لم يحط به خبراً. قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا. قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا. فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا. فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا. ﴿وَاللَّهُ أَقْبَلُ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾. قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا فَلَا تُصْجِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا. فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنِيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَنَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْنَا لَنَخَذَتْ عَلَيْهِ جُرًا. قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّتُكَ يَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا. أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا. وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا. لَلْجِدَارِ فَكَانَ لِفُلْتَيْنِ إِتِمَمَ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾<sup>(٢)</sup>. قال المفسرون في معناه: إنه قال له: أنا على علم من علم الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله لا أعلمه أنا. فعلم موسى عليه السلام هو التشريع وهو المنقول الذي هو بالواسطة، وعلم الخضر عليه السلام هو اللدني الذي هو الإلهام، بغير واسطة.

والحق في هذه المواضع أن يقال: العلم اللدني حق لا شك فيه، بدليل ما تقدم، لكن الدليل على تصديقي من ادعى وجوده أن يكون عمله على الكتاب والسنة، خالصاً من الشوائب، صادقاً في توجهه، عارفاً بالخواطر، صالحها وفاسدها معرفة كلية، لأن علم الخواطر علم قائم بذاته.

ونحن نذكر الآن شيئاً منه نشير به لبعض ما يحتاج الموضع إليه، فنقول: قد اختلفت المتصوفة اختلافاً كثيراً في هذه الخواطر، وأحسن ما قيل فيها وأجزه: أن الخواطر على أربعة أقسام: نفساني، وشيطاني، وملكي، ورباني.

فالرباني أولها: هو مثل لمحة البرق لا يثبت، ثم يليه النفساني، مثل المصلي مع السابق،

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٨٢.

(٢) سورة الكهف، من الآية ٦٧ إلى ٨٢.

رَأْسُ الْمُصَلِّي فِي عُنُقِ السَّابِقِ<sup>(١)</sup>، عَلَى مَا يُعْرَفُ فِي سَبْقِ الْخَيْلِ، وَلَا يَفْرَقُ بَيْنَ النَّفْسَانِي وَالرُّبُوبِي إِلَّا مَنْ كَانَتْ فِيهِ الصِّفَاتُ الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرَهَا، وَرَزَقَ التَّوْفِيقَ، فَإِذَا حَصَلَ لَهُ التَّفَرُّقُ بَيْنَهُمَا لَمْ يَجِدْ فِي الرِّبَانِيِّ قَطْعَ شَيْئاً مُخَالَفاً لِكِتَابِ اللَّهِ وَلِسَنَةِ رَسُولِهِ ﷺ، لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، سَوَاءٌ كَانَ بِوَاسِطَةِ أَوْ بَغَيْرِ وَاسِطَةٍ، فَلَا خِلَافَ فِيهِمَا لِأَنَّ الْكُلَّ حَقٌّ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوُجِدُوا فِيهِ آخِلَافًا كَثِيرًا﴾<sup>(٢)</sup> فَنَصَّ، عَزَّ وَجَلَّ، عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا يَأْتِي مِنْ قَبْلِهِ فَلَيْسَ بِهِ مُحَدِّثٌ، وَالْكُلُّ حَقٌّ.

وَلِهَذَا الْمَعْنَى كَانَ بَعْضُ الْفَضَلَاءِ، وَأَهْلُ هَذَا الشَّأْنِ إِذَا خَطَرَ لَهُ الْخَاطِرُ يَقُولُ: لَا أَصْدُقُكَ حَتَّى تَأْتِيَنِي بِدَلِيلَيْنِ: دَلِيلٍ مِنَ الْكِتَابِ، وَدَلِيلٍ مِنَ السُّنَّةِ، لِعَلِّمَهُ أَنَّ الرِّبَانِي لَا يَخَالَفُ الْكِتَابَ وَلَا السُّنَّةَ، فَيَجْتَمِعُ لَهُ الْعَمَلُ بِالْعِلْمَيْنِ مَعاً: الدُّنْيَا وَالشَّرْعِي. وَقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ إِذَا احْتِاجَ إِلَى مَعْرِفَةِ أَجْزَاءِ أَوْقَاتِ اللَّيْلِ يَرْفَعُ بَصَرَهُ وَهُوَ فِي فِرَاشِهِ، وَيَبْتِغِي مَغْلَقَ عَلَيْهِ، فَيَرَى الْكَوَاكِبَ فِي مَوَاضِعِهَا الَّتِي هِيَ فِيهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَيَعْرِفُ فِي أَيِّ وَقْتٍ هُوَ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَا يَقْنَعُهُ ذَلِكَ، وَلَا يَعْمَلُ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ لَيْسَ هَذَا الْعِلْمُ الْمُنْقُولُ، فَيَقُومُ فَيَفْتَحُ الْبَابَ، وَيُخْرِجُ، فَيَنْظُرُ إِلَى النُّجُومِ بِعَيْنِ بَصَرِهِ، فَيَرَاهَا فِي مَوْضِعِهَا الَّذِي رَأَاهَا فِيهَا وَهُوَ فِي فِرَاشِهِ. وَيَتَكَرَّرُ ذَلِكَ مِنْهُ مَرَاراً، وَلَمْ يَنْتَقِلْ عَنْ عَادَتِهِ.

وَهَذَا هُوَ حَالُهُمْ، لَا يَنْفَرِدُونَ أَبَداً بِالْعِلْمِ بِاللَّدُنِّي حَتَّى يُوَافِقَهُ الْمُنْقُولُ، فَيَعْمَلُونَ بِهِمَا مَعاً، اللَّهُمَّ إِلَّا عِنْدَ ضَرُورَةٍ لَا يُمْكِنُهُمُ الْعَمَلُ بِالْوَاقِعِ مِنْ جِهَةِ الْمُنْقُولِ، فَيَبْتِغِي لَهُمُ الْعِلْمَ فِي ذَلِكَ، أَعْنِي الْعِلْمَ اللَّدُنِّي، فَيَعْمَلُونَ بِهِ لَانْتِحَامِ الْوَقْتِ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ يَنْظُرُونَ فِي الْعِلْمِ الْمُنْقُولِ بَعْدَ ذَلِكَ فَيَجِدُونَهُ مُوَافِقاً لِمَا هَدَوْا إِلَيْهِ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا حَكَى عَنِ الثَّوْرِيِّ<sup>(٣)</sup>، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، حِينَ جُمِعَ الْخُلَيفَةُ بِيَعْدَادِ أَهْلِ هَذَا الشَّأْنِ، لَمَّا وَشِيَ إِلَيْهِ فِيهِمْ، وَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ عَلَى غَيْرِ اسْتِقَامَةٍ. فَأَمَرَ الْخُلَيفَةُ بِقَتْلِهِمْ. فَلَمَّا جَاءَ السِّيَافُ إِلَيْهِمْ يَطْلُبُهُمُ لِلْقَتْلِ، بَادَرَ إِلَيْهِ الثَّوْرِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فَتَعَجَّبَ السِّيَافُ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ فَقَالَ: أَوْثُرُ أَصْحَابِي بِحَيَاةِ سَاعَةٍ. فَتَرَكَهُمْ وَرَجَعَ إِلَى الْخُلَيفَةِ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبِيرَ.

(١) الْمُصَلِّي مِنَ الْخَيْلِ: الَّذِي يَجِيءُ بَعْدَ السَّابِقِ، لِأَنَّ رَأْسَهُ يَلِي صَلَا الْمُتَقَدِّمِ وَهُوَ تَالِي السَّابِقِ. وَقَالَ اللَّحْيَانِي: إِنَّمَا سَمِّيَ مُصَلِّياً لِأَنَّهُ يَجِيءُ وَرَأْسَهُ عَلَى صَلَا السَّابِقِ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الصَّلَواتِ لَا مُحَالَةٍ، وَهُمَا مَكْتَنِفَا ذَنْبِ الْفَرَسِ، فَكَأَنَّهُ يَأْتِي وَرَأْسَهُ مَعَ ذَلِكَ الْمَكَانِ (اللِّسَانِ).

(٢) سُورَةُ النِّسَاءِ، مِنَ الْآيَةِ ٨٢.

(٣) هُوَ سَفْيَانُ بْنُ سَعِيدِ الثَّوْرِيِّ، مِنْ بَنِي ثَوْرٍ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْحَدِيثِ. كَانَ سَيِّدَ أَهْلِ زَمَانِهِ فِي عُلُومِ الدِّينِ وَالتَّقْوَى. وَلَدَ بِالْكُوفَةِ. وَرَاوَدَهُ الْمَنْصُورُ الْعَبَّاسِيُّ عَلَى أَنْ يَلِيَ الْحُكْمَ، فَأَبَى، وَخَرَجَ مِنَ الْكُوفَةِ فَسَكَنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ. ثُمَّ طَلَبَهُ الْمُهَدِّي فَتَوَارَى، وَانْتَقَلَ إِلَى الْبَصْرَةِ وَمَاتَ فِيهَا مُسْتَخْفِياً سَنَةَ ١٦١ هـ/ ٨٨٧ م. مِنْ كُتُبِهِ: الْجَامِعُ الْكَبِيرُ، وَالْجَامِعُ الصَّغِيرُ فِي الْحَدِيثِ، وَآخَرُ فِي الْفَرَائِضِ.

فتعجب الخليفة ومن حضره . فسأل القاضي الخليفة أن يتركهم حتى يذهب إليهم ، فيبحث معهم في أمرهم ، حتى يتبين له طريقهم ، فأذن له الخليفة في ذلك .

فأتى القاضي إليهم ، فطلب منهم شخصاً ليبحث معه ، فقام الثوري ، رحمه الله ، فسأله القاضي عن مسائل فقهية ، فنظر عن يمينه وقال : نعم ، ثم نظر عن يساره وقال : نعم ، ثم أطرق ساعة ثم رفع رأسه ، وأجاب القاضي بجوابٍ مقنع في تلك المسائل . فتعجب القاضي من أمره ، فسأله عن ذلك . فقال له : لما أن سألتني عن تلك المسائل لم يكن لي بها علم ، فسألتُ ملكَ اليمين عنها ، فقال : لا علم لي ، فسألتُ ملكَ الشمال فقال ، لا علم لي ، فسألتُ ربَّ العِزَّة ، فأخبرني في قلبي بما قلتُ لك . فرجع القاضي إلى الخليفة ، وقال له : إن كان هؤلاء زنادقة فليس على وجه الأرض مُسلم .

فما كان مثل هذا وما أشبهه هو الذي ينفردون فيه بالعلم اللدني للضرورة ولإنجتنام الوقت ، ثم يجدونه بعد ذلك على وفق المنقول لا زيادة ولا نقصان . فمن لا يعرف هذا الشأن تسبق إليه الخواطر النفسانية والشیطانية والمَلَكِيَّة فيعمل على كل خاطر يخطرُ له منها ، ولا يفرق فيها بين الصالح والفساد ، فيكون في عمى وضلال ، وكل من اتبعه كذلك ، فيصدق عليهم قوله ، عز وجل ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾<sup>(١)</sup> .

ولأجل هذه الخواطر وما فيها من الاختلاف أخذ الفضلاء العارفون بها العهدَ على المبتدئين للسلوك ألا يُخفوا عنهم كلَّ خاطر يَرُدُّ عليهم ، كائناً ما كان ، ليبينوا لهم تلك الخواطر الفاسدة والصالحة وما فيها بعد المشاهدة والبيان . فنقل الجهال من المدَّعين للطريق هذه الصيغة إلى صيغة البينة ، وجعلوها من ضرورات الطريق لجهلهم باللفظ والمعنى .

يشهد لِمَا أشرنا إليه عنهم ما حُكي عن بعض الفضلاء منهم ، أعني : الفضلاء المتحققين ، أنه أتاه شخصٌ يريد السلوك ، فأدخله الخلوة ، وتركه أياماً ، ثم دخل عليه وقال له : كيف ترى صورتي عندك؟ فقال : صورة خنزير . فقال الشيخ : صدقت . ثم تركه في خلوته أياماً ، ثم دخل عليه ، وسأله مثل الأولى ، فقال له : صورة كلب ، ثم كذلك إلى أن قال له : صورة القمر ليلة كماله . فقال له : صدقت ، الآن كُمِّلْ حالك . وحينئذٍ أخرجه من الخلوة .

وما ذاك إلا أن النفس إذا كانت في رعونتها وشهوتها مثل المرأة الصَّديَّة . فإذا أخذ صاحبها في المجاهدة فهي صقالةٌ لها ، كصقالة الصَّقَالِ للمرأة ؛ فقبل أن تتمَّ صِقالتها إذا قابلتها الأشياء وقع

(١) سورة الكهف ، من الآية ١٠٤ .

المثال فيها فاسداً لبقاء بعض الصِّدأ فيها، فإذا تَمَّتْ صِقالُتها وارتفع عنها ذلك الصِّدأ كَلَهَ ظهر فيها مثال الأشياء من غير زيادة ولا نقصان، ورجعت تميز كلَّ خاطر بِحدِيثِه لصفانها.

ومنهم قوم يأتون بلفظ شنيع فيقولون: (أنا هو وهو أنا) ويدَّعون ذلك حالاً، ويحملونه من الأحوال الرفيعة العظيمة. وقائل هذا منهم يدور بين ثلاثة أقسام:

إمّا أن يكون قد غُطِّيَ على عقله، فقال هذا، وهو لا يعقل ما قال. فقد ارتفع الخطأ عن هذا، فلا يُلتفت لكلامه، ولا يُؤبَّه له، ولا يُحسب مقاماً. وهو ضرب من الجنون.

وإمّا أن يكون جاهلاً يحكي عن غيره، وليس له بذلك حال. فهذا ينبغي تأديبه، لأن ذلك مستحيل عقلاً وشرعاً، وهو أن يرجع الخالق مخلوقاً، والمخلوق خالقاً.

وإمّا أن يكون له مذهب فاسد، فلما أن تعلق بطريق القوم صرَّح به وجمله حالاً. وهذا الأخير لا يخلو من أن يدَّعي ذلك بـ (المعنى) أو يدَّعيه بـ (الحلول)<sup>(١)</sup>. والمعنى هو: أن يدَّعي أنه ليس له تصرف، والتصرف لغيره، فإن ادَّعى هذا فهو جبري. وقد تقدم الكلام معه، وإن كان ادَّعاه بالحلول فهو مجسّم؛ وقد تقدم الكلام معه في ذلك أيضاً.

وإنما حكي عن السادة الفضلاء من أهل هذا الشأن التأدب والاحترام والوقار، في مقاماتهم، ولم يُخلَوْا قطُّ بأدبٍ من آداب الشريعة، لا في حال حضورهم، ولا في حال غيبتهم.

مثل ما حكي عن الثوري، رحمه الله، حين أخذه الحال، وبقي في بيته سبعة أيام، يدور لا ينام ولا يقعد ولا يأكل ولا يشرب ويقول: أحد أحد، لا يزال كذلك. فبلغ ذلك شيخه فقال: أمحفوظٌ عليه أوقاتٌ صلواته؟ فقالوا: نعم. فقال: الحمد لله الذي لم يجعل الشيطان عليه سبيلاً.



ثم بقي بحث مع بعض العوام في عوائد اتَّخذوها، ولم يُنكَر عليهم فيها. فالذِّكْر للعوام، والكلام مع من سامحهم من العلماء فيما فعلوه، لأن مَنْ رأى منكراً ولم ينكره كَمَنَ فَعَلَهُ، وهو ما اتَّخذوه من (الرِّشا عند التَّوَّازُل)<sup>(٢)</sup>، وما اتَّخذوا من أصحاب الجاه لأن يحموهم ويعطوهم على ذلك

---

(١) الحلول: هو التجسيد، أو بمعنى أن الله جلَّ جلاله قد حلَّ متجسداً في الذات البشرية، أو هو الصلة بين الرب الذي هو (اللاهوت) والعبد الذي هو (الناسوت)، ويقابله في اللغات الأوروبية كلمة (Incarnation) وعكسه (الاتحاد) ويعني: امتزاج الذات الإلهية بالذات الإنسانية حتى يصيرا شيئاً واحداً. أو هو الاستهلاك بالكامل في الله، والغناء عما سواه، وهو يعرف باسم (Unification) وكلاهما: الحلول والاتحاد مرفوض شرعاً.

(٢) الرِّشا: بضم الراء وكسرها. ج: رشوة. وهي ما يعطى لقضاء مصلحة، أو ما يُعطى لإحقاق باطل، أو إبطال حق.



شيئاً معلوماً، وهذا كله لا يَجَلّ ولا يجوز، لأن الله عز وجل، يقول في كتابه ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾<sup>(١)</sup> وقال: عز وجل ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup> وقال، ﷺ (مَنْ شَفَعَ لَاحِيَةٍ شَفَاعَةً فَأَهْدَى لَهُ مِنْ أَجْلِهَا هَدِيَّةً، فَقَبِلَهَا، فَقَدْ فَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ بَاباً عَظِيماً مِنْ أَبْوَابِ الرَّبِّ)<sup>(٣)</sup>. هذا مما هو بعد قضاء الحاجة دون شرط، فكيف بها قبل قضاء الحاجة بالشرط؟

وكيف يأخذون على الحماية ثمناً، والحماية لا تخلو أن تكون في حق من حقوق الله، تعالى، أو في مَظْلَمَةٍ؟<sup>(٤)</sup> فإن كانت في حق من حقوق الله، تعالى، فلا يَجَلّ لأحد أن يُعَيَّن أحداً على ألا يوفي حقاً من حقوق الله تعالى، فإذا كان هذا لا يَجَلّ فكيف يأخذون عليه شيئاً؟ وإن كانت في مَظْلَمَةٍ تَعَيَّن عليه نصرُ المظلوم، لقوله، عليه السلام: (انصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أو مَظْلوماً)<sup>(٥)</sup>. فكيف يأخذون أجرة على ما تعيَّن عليهم فعله شرعاً؟

فتشبهوا بفعلهم هذا بالجاهلية حيث كانوا إذا نزلوا يَؤَادٍ أو بموضع يقولون: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر أهله، وقد أخبر، عز وجل، عنهم في كتابه حيث قال: ﴿وَأَنْتُمْ كَانِ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾<sup>(٦)</sup> أي غيظاً عليهم. وكذلك هؤلاء المساكين طالما يُعطون الرِّشَاءَ، ويتخذون الجاه، يزداد عليهم مَنْ يعطونه ذلك غيظاً، وهو أشدَّ عليهم من الظالمين لهم بالظلم صراحاً، لأنهم الذين يأكلون أكثر أموالهم. فنعوذ بالله من العمى والضلال.

وإنما يحتاج المؤمن أن يكون على أحد قسمين:

إن كان قوياً أخذَ بالقوة، وإن كان ضعيفاً أخذَ باللطف والرأفة. فالمؤمن القوي، في تصديقه، صفته أن يسلم لله في أمره، ويعمل بمقتضى ما تضمنته قوله، عز وجل: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾<sup>(٧)</sup> وقوله، عز وجل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٨)</sup>.

وإن كان من القسم الآخر - وهو الضعيف - فقد أثبتت السنة له الدواء فشأنه أن يتداوى،

(١) سورة البقرة، من الآية ١٨٨.

(٢) سورة آل عمران، من الآية ٦٤.

(٣) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود عن أبي أمامة رضي الله عنه كما في الفتح الكبير ٢٠٢/٣.

(٤) المَظْلَمَةُ: هي الظلامة، وهي ما يطلبه المظلوم.

(٥) أخرجه الإمام أحمد والبخاري والترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه كما في الفتح الكبير ٢٨١/١.

(٦) سورة الجن، من الآية ٦.

(٧) سورة التوبة، من الآية ٥١.

(٨) سورة المائدة، من الآية ٢٣.

والدواء هو ما روي عنه، عليه السلام أنه قال: (ادفعوا البلاء بالصدقة)<sup>(١)</sup> وقال، عليه السلام: (استعينوا على حوائجكم بالصدقة)<sup>(٢)</sup>.

وقد حكي أنه كان في بني إسرائيل رجل يؤذي الناس، فاشتكوا به لنبي ذلك الزمان، فدعا عليه، ثم أخبرهم أنه يصيبه بلاء في يوم كذا وكذا، وكان الرجل قصاراً. فلما كان في ذلك اليوم المعين فإذا بالرجل راجع إلى البلد وعلى رأسه رزمة ثياب. فأتوا لنبيهم فقالوا له: ها هو اليوم قد رجع ولم يصبه شيء. فدعا النبي به فأحضر، فسأله: ما فعلت اليوم؟ فأخبره أنه كان معه رغيفان أخرجهما لغدائه، ثم عرض له مسكين يسأله، فأعطاه الرغيفين. فأمره النبي، عليه السلام، أن ينزل تلك الرزمة التي على رأسه، وأخذ ما فيها من الثياب، ففتحها فإذا حبة عظيمة ملجمة بلجام من نار. فقال النبي، عليه السلام: هذا البلاء، كان أرسل عليه، وهذا اللجام المطوق به هو الصدقة التي تصدق بها.

وقد أبقي الله، عز وجل، هذا الخير لهذه الأمة بإخبار الشارع، عليه السلام، وهو ما تقدم. وقد وصف، عليه السلام، الفتن، ووصف الدواء لها، وكيفية النجاة منها، فقال: (الجاؤا إلى الإيمان والأعمال الصالحات)<sup>(٣)</sup>. وأشد من هذا كله أن قوماً منهم جهلوا هذا الأمر، وجعلوا الرشا المذكورة من باب المداراة. وهذا منهم جهل بالمداراة ما هي، وإنما المداراة الممدوحة في الشرع بذل الدنيا، في صلاح الدين، مثل ما كان النبي، ﷺ، يفعل حين كان يعطي للمؤلفة قلوبهم الأموال الطائلة، حتى لقد كان، عليه السلام، يُعطي لبعضهم وادياً من غنم، ووادياً من بقر، حتى حُبب إليهم الإيمان بالضرورة لكثرة عطائه لهم، فكانوا يرجعون إلى قبائلهم وأهلهم، فيقولون لهم: أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاءً من لا يخاف الفقر<sup>(٤)</sup>.

وقد حكي عن بعض المتبعين الذين فهموا هذا المعنى أنه رأى يباعاً، وهو متغير، فسأله عن حاله، فقال البياع: أنا مستأجر على بيع هذا الطعام بدرهمين في اليوم، وأخذه موزوناً، والسعر معلوم، ولا أعطي للناس في الرطل إلا رطلاً غير ثمن، وبعد ذلك ينقص في كل يوم رأس مالي سوى أجرتي درهمان، وأحتاج في داري إلى نفقة، فطلع عليّ الدين، فأنا مهتمٌ لذلك. فقال له ذلك

(١) مروي بالمعنى. وقد أخرج الطبراني وأبو نعيم والخطيب عن ابن مسعود رضي الله عنه: حَصَّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ، وَدَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَاعْدُوا لِلْبَلَاءِ الدُّعَاءَ.

(٢) مروي بالمعنى. وقد أخرج الديلمي في الفردوس ١/١٢٥ والمناوي في الفيض ١/٤٩٥ استعينوا على الرزق بالصدقة.

(٣) لم نعرف مصدره.

(٤) أخرجه مسلم من حديث أنس رضي الله عنه في الفضائل.

السيد : كم يكفيك في دارك من النفقة؟ فقال : درهمان . فقال له : أنا أعطيك درهمين . فأعطاه ذلك السيد ثمانية دراهم نفقة أربعة أيام . ثم أتاه بعد الأربعة أيام فأعطاه ثمانية دراهم عن أربعة أيام آخر . فلما أن جاءه في الثالثة ، يعطيه قال له : والله لا آخذ منك شيئاً . قال : ولم؟ قال : لأنه منذ تركتُ الأخذ من الناس رجعتُ أجدُ كلَّ يوم درهمين فاضلةً عن أجرتي وعلى رأس مالي ودون نفقتي . فهذا وما أشبهه هي المداراة الممدوحة في الشرع .

فمن كانت فيه إحدى هذه الأوصاف المتقدم ذكرها<sup>(١)</sup>، وهي ما ذكرناه في بعض العلماء وبعض النُسَّاك وبعض العوام المتقدم ذكرهم وما أشبه ذلك ، كيف يسوغ له أن يدَّعي أنه من القسم الناجي؟ والنبِّي، ﷺ، يقول في صفة الناجين (ما أنا عليه وأصحابي)<sup>(٢)</sup>؟ وكيف يدخل بما يفعل من ذلك تحت توفية عموم الحديث، وهو قوله، عليه السلام، في حديث البيعة : (لا تُشركوا بالله شيئاً؟) . و (الشيء) ينطبق على القليل والكثير، كما تقدم، فهلاً ينتبه المسكين من غفلته فيقيم ميزان الشرع على نفسه، حتى يصحَّ له حقيقة ما ادَّعى من الاتباعية، وقد قال، عليه السلام : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا)<sup>(٣)</sup> .



ثم نرجع الآن إلى بيان ما اشترطنا أن نبينه من اعتقاد أهل السنة وأحوالهم . فأما اعتقادهم فهو على ما يقتضيه عموم قوله عز وجل : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ، ووافق ذلك العقل والنقل .

أما النقل فالآية الموردة هنا .

وأما العقل فلأن خالق الوجود لا يُشبهه من خلق، إذ إن الصانع لا يشبه الصنعة، ونفى التكيف والتَّحديد، لأن التكيف والتَّحديد لا يكونان إلا في المخلوق لأنهما صفتان للمُحدَث، وتعالى الخالق، جلَّ جلاله، عن التكيف والتَّحديد والحلول .

وأن صفاته، عز وجلّ، صفاتُ الجلال والكمال، على ما يقتضي ذلك من الحياة والقدرة

(١) يعني ما ذكره قبل من الأوصاف الذميمة .

(٢) حديث صحيح . أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما والحاكم في المستدرک والبخاري في مسنده والبيهقي في المدخل . وأوله : افترقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين فرقة .

(٣) أخرج الترمذي وابن ماجه في صفة القيامة عن شداد بن أوس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (الكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا) ثم أردف الترمذي قائلًا : ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزيّنوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه) . ورواه ابن الجوزي في مناقبه ١٧٨ .

والعلم والحكمة والإرادة وإدراك جميع المدركات على ما هي عليه مع نفى الكيفية في الذات والصفات، وأنه محيط بالجزئيات والكلّيات ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾<sup>(١)</sup>؟

وأنه هو المخترع لجميع المخلوقات، العرش وما حوى، والسموات والأرض وما بينهما، وما تحت الثرى، كما أخبر، عز وجل في مقتضى التنزيل.

وأن خلقه لذلك من غير احتياج إليه، ولم يدركه نصب في اختراعها وإبدانها ولا شريك له ولا مماثل.

وأنه ليس في خلقه علة لمعلول، ولا في تقديم بعضها على بعض لحق موجب ولا تأخير متأخر منها لاضطرار لازم، ولا نفى جمع الضدين لعجز واقع، ولا تنافي مخلوقاته وانحصارها لضعف لاحق، بل كان ذلك لاختيار وحكمة. وكل نعمة وهداية منه منة وفضل، وكل ضلالة ومحنة عدل منه وحكمة<sup>(٢)</sup>. لا يدرك بالعقل، ولا يتصور بالوهم، بل السبيل إلى معرفته العجز عن معرفته كما قال أبو بكر، رضي الله عنه: «سبحان من لا يوصل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته»، ويشهد لذلك قوله، عليه السلام: (يا دليل الحائرين، زدني فيك تحييراً)<sup>(٣)</sup>. فهو الواحد، الأحد، الموجود، الذي لم يتقدم وجوده عدم، كان، ولا شيء معه، وهو الآن على ما كان عليه، ولا يزال على ما هو عليه. تنزه عن الحوادث والتغيرات والأعراض والممكنات، وأنه المتصرف في خلقه بمقتضى حكمته وقدرته وإرادته، وأن جميع ما يصدر في العالم من حركات وسكنات وخواطر وهما<sup>(٤)</sup>ات ولما<sup>(٥)</sup>ت وأرق من ذلك وأجل خلق من خلقه، وتصرفات العباد فيها كسب لهم. فالخلق له، عز وجل، من جهة الاختراع والكسب للعباد من جهة الفعل والاختيار.

يشهد لذلك النقل والعقل.

أما النقل فقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾<sup>(٥)</sup> فأثبت عز وجل، الرمي للبعد، وحقيقته للرب، والآي في ذلك كثيرة.

وأما العقل فلأنه لو انفرد أحد من الخلق بذرة من الخلق دونه لكان له شريكاً، ولا شريك له.

(١) سورة الملك، من الآية ١٤.

(٢) نهاية العبارة تفسر بدايتها.

(٣) لم نعرف مصدره.

(٤) الهمة واللمة: الخطرة التي تقع في القلب.

(٥) سورة الأنفال، من الآية ١٧.

قال، عز وجل، في كتابه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾<sup>(١)</sup>، فكيف لو كان شركاء عدة؟ فكان ذلك مستحيلاً عقلاً ونقلاً، وكذلك أيضاً، لو لم يكن للعبد كسب ما وقع التكليف عليه، ولا صح الخطاب بما في الكتاب من قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿بِمَا عَمِلْتُمْ﴾<sup>(٣)</sup>، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٤)</sup>، ولا صح أن يقول النبي ﷺ، لأبي بكر في الدعاء الذي علمه أن يدعو به: (اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت)<sup>(٥)</sup>.

فصح مذهب أهل السنة بلا شك فيه، ولا ريب. وهو أن أفعال العباد خلق للرب وكسب للعبد، ولا التفات للكيفية، وأن تعليق الثواب على الطاعات، والعقاب على المخالفات علة شرعية لا عقلية ولا علية<sup>(٦)</sup>، يجب الإيمان بها والاستسلام إليها بمقتضاها، وأن ربط العوائد بعضها ببعض لحكمة اقتضتها الإرادة الأزلية، وقد يُزيلها، عز وجل، لحكمة أخرى، أو يزيد عليها. كل ذلك ممكن بحسب القدرة والحكمة، لا مانع لما أراد، ولا راد لما قضى. وأن الخواص وجواهرها خلق من خلقه، وخاصيتها خلق من خلقه. فقد يزيل الخاصية أحياناً ويبقي الجوهر، وقد يزيد فيها تارة ويزيلها أخرى. كل ذلك سائح بحسب القدرة والإرادة. وأن القرآن كلامه، عز وجل، منزلاً حقاً مُبشراً صدقاً، من غير التفات للكيفية، كما قال، جل جلاله: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً﴾<sup>(٧)</sup> وقال ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾<sup>(٨)</sup>.

والإيمان بالكتاب والسنة، بخاصه، وعامه، ومُجمله، على مقتضى اللسان العربي، ما عرفت العقول معناه، وما لم تعرف، سلم فيه، وأذن إليه من غير اعتراض ولا تأويل، لقوله، عز وجل: ﴿وَمَا يَعْصِمُكُمْ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾<sup>(٩)</sup> ولذلك قال، عليه السلام لما أن سأله الصحابة، رضي الله عنهم، فقالوا: (إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، فقال: أوجدتموه؟ فقالوا: نعم. فقال: ذلك صريح الإيمان)<sup>(١٠)</sup> يعني: في دفعه عنهم، لا في نفس وجوده. وإنما هو الإيمان في نفس

(١) سورة الأنبياء، من الآية ٢٢.

(٢) سورة البقرة، من الآية ١٣٤.

(٣) سورة التغابن، من الآية ٧.

(٤) سورة المائدة، من الآية ١٠٥.

(٥) أخرجه البخاري في صفة الصلاة ومسلم في الذكر والدعاء.

(٦) علية: نسبة إلى العلة، كما مرَّ سابقاً.

(٧) سورة الإسراء، من الآية ١٠٦.

(٨) سورة مريم، من الآية ٩٧.

(٩) سورة آل عمران، من الآية ٧.

(١٠) أخرجه البخاري في العتق ومسلم في الإيمان.

تعاظم الأمر ودفعه. وقد قال عمر، رضي الله عنه: «ديننا هذا دين المعجز، يعني في المعجز والتسليم، وقد قال الإمام مالك، رحمه الله: «كل ما يقع في القلب فالله بخلاف ذلك» لأن كل ما يقع في القلب، على ما تقدم، إنما هو خلق من خلق الله، فكيف يشبه الخالق المخلوق؟ وقد قال الإمام الشافعي، رحمه الله، «آمنت بالله كما أمر الله. وآمنت برسول الله كما أمر رسول الله، ﷺ». والسادة الفضلاء عن آخرهم على هذا الأسلوب سالكون، وإنما اختلفت في التعبير مبيّهم لا غير، والمعنى واحد في الكل.

وكفى في هذا الموضوع بياناً حديث جبريل، عليه السلام، حين أتى لتعليم الدين، الحديث المشهور، وقال فيه: (فإن لم تكن تراه فإنه يراك)<sup>(١)</sup> وطريقة النبي، ﷺ، وأصحابه، التي هي طريقة النجاة، كانت على هذه القدم.

ومتضمن هذه القدم يعطي المسارعة في كل أفعال البر بكل ممكن، لأن المعاينة تقتضي التصديق والمبادرة وترك الالتفات والتأويل. ولأجل هذا المعنى ضرب الله، عز وجل، المثل للمؤمنين بمريم، عليها السلام، حيث قال في صفتها: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينِ﴾<sup>(٢)</sup> وما ضلّ من ضلّ وانحرف من انحرف إلا بسوء التأويل. نعوذ بالله من ذلك. هذا ما تضمنه اعتقادهم.

وأما أحوالهم فهي الصدق، والتصديق، والاتباع، وترك الابتداع، وبذل الجهد، والاعتراف بالتقصير، والتوكل، والتسليم، والافتقار، والتعظيم، وبذل النصيحة دون غش، والتواضع دون تماوت، والتراحم، والإشفاق، والإيثار، والإحسان، والتواد بينهم، والتعاطف بمقتضى الإيمان، كما وصفهم الله، عز وجل، في التنزيل ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾<sup>(٣)</sup> فهذا بعض أحوالهم وعقيدتهم على ما تقدم.

فإن اتبعتمهم كنت معهم، لقوله، عليه السلام: (أنت مع من أحببت)<sup>(٤)</sup> فإن المحبة تقتضي الاتباع، والحب بغير اتباع دعوى بغير حقيقة، لأن المحب لمن يحب مطيع، يشهد لذلك قوله،

- 
- (١) قطعة من حديث طويل أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن عمر عن أبيه رضي الله عنهما أوله: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا. . .
- (٢) سورة التحريم، من الآية ١٢.
- (٣) سورة الفتح، من الآية ٢٩.
- (٤) أخرجه البخاري في الأدب، ومسلم في كتاب البر من حديث أنس رضي الله عنه.

عليه السلام: (لا يختلِسُ الخَلْسَةُ حين يختلسها وهو مؤمنٌ، ولا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)<sup>(١)</sup> لأن حقيقة الإيمان تقتضي الاتباع والتسليم.

والمخالفة لا تكون إلا من أحد قسمين: إما من ضعف في الإيمان، أو عاهة تأتي عليه. فإن وقعت منك مخالفة في بعض أحوالهم فحافظ على اعتقادهم، واحذر من وقوع الخلل فيه، لأن المخالفة في الحال والاعتقاد قَطْعُ بينك وبينهم. وسلامة الاعتقاد مع الخلل في الحال كَسْر، والكسر قد ينجر، والقطع لا يلتصق، يشهد لذلك الحديث الذي نحن بسبيله، لأنه، عليه السلام، طلب البيعة أولاً على حقيقة التوحيد على ألا يشركوا بالله شيئاً، و (شيء) ينطلق على ما تقدم البحث في عموم لفظه، وألا يأتوا من المحرمات شيئاً، فإن وقع شيء مما حُرِّم، فوقع الحد لأجله، كانت الحدود تطهيراً للمحدود، وجبراً لكسره، وإن لم يُحدَّ بقي في المشيئة، إن شاء، عز وجل، عذبه، وإن شاء عفا عنه. وفي حقيقة الإيمان لم يُعطِ عليه السلام، فيه فترة ولا عذراً. ثم نرجع الآن لتتبع ألفاظ الحديث.



الوجه الثالث: <sup>(٢)</sup> قوله، عليه السلام: (ولا تسرقوا ولا تنزوا ولا تقتلوا أولادكم) إنما نصّ، عليه السلام، على هذه الثلاثة لشناعتها وقبحها لأنها من الكبائر بالإجماع.

الوجه الرابع: لقائل أن يقول: لم خصّ، عليه السلام، بالقتل البنين، دون غيرهم، وقد جاء النهي عن القتل مطلقاً، ولم يفرّق فيه بين الصغير والكبير؟ والجواب من وجوه: (الأول): أن العرب كانت تنهون بقتل أولادها، لما ذكر في المؤؤودة، وغيرها، فخصص عليه السلام، ذكرهم تأكيداً في شأنهم حتى لا يفعلوا ذلك. (الثاني) أن الصغير لا يدفع عن نفسه، فازداد لذلك التحريض في حقه. (الثالث): أنه قد يحمل بعض الناس قلة ذات اليد إلى قتل الولد، وقد نصّ، عز وجل، على ذلك في كتابه فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمَلِكُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾<sup>(٣)</sup> فنهى عن ذلك تأكيداً في حق الأولاد، ولكي يُعلم أن الله هو الذي يرزق الصغير والكبير، فلا يتعلق بهم.

الوجه الخامس: قوله، عليه السلام: (ولا تأتوا بيهتان). البهتان على نوعين: بهتان من طريق المباينة، وهي الموافقة للشخص في وجهه حتى يَبْهَتَهُ. والنوع الثاني: هو ذكر شيء لم يقع منه، أنه قد وقع.

(١) أخرجه البخاري في المظالم ومسلم في الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هذا الوجه تابع لتفسير حديث البيعة الأساسي، فليُنْتَبَه.

(٣) سورة الأنعام، من الآية ١٥١.

الوجه السادس: قوله، عليه السلام: (تفترونه بين أيديكم وأرجلكم). هذا اللفظ يحتمل وجهين: أحدهما أن يُحمَل على ظاهره، والثاني يحتمل أن يكون المراد به معنى ثانياً غير الظاهر.

فإن كان الأول فيكون المراد بما بين الأيدي: الرأس وما فيه من الجوارح، والصدر وما فيه وهو القلب، ويكون المراد بما بين الأرجل ما بينهما من الجوارح وهو الفرج. فكل من ذكر عن جارحة من هذه الجوارح المذكورة فعلاً أو قولاً أو اعتقاداً لم يقع فقد بهت<sup>(١)</sup> المقول عنه، لقوله: عليه السلام، حين سئل عن الغيبة فقال: (أن تقول في المرء ما يكره. قيل: وإن كان حقاً؟ قال: تلك الغيبة، وإن كان باطلاً فهو البهتان)<sup>(٢)</sup>.

وإن كان الثاني - وهو أن يكون المراد به معنى ثانياً غير الظاهر - فهو يحتمل وجوهاً:

(الوجه الأول): أن يكون ذلك كناية عن الدنيا وعن الآخرة، كما قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾<sup>(٣)</sup> قالوا: ذلك كناية عن الدنيا وعن الآخرة. فالأرجل: الدنيا، لقوله تعالى: ﴿وَأُخْذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾<sup>(٤)</sup>. قيل أخذوا من تحت أرجلهم، والدنيا هي أقرب المنازل. فكُنَى بالأرجل عنها لقربها، وكُنَى بالأيدي عن الآخرة لأنها بعد الدنيا.

(الثاني) أن يكون المراد بذلك: الباطن والظاهر، فما بين الأيدي هو القلب، وكُنَى به عن الباطن، وما بين الأرجل هو التخطي، وهو فعل ظاهر. قال تعالى في كتابه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾<sup>(٥)</sup>.

(الثالث) أن يكون المراد بما بين الأيدي: الحال، والمراد بما بين الأرجل الماضي والمستقبل، لأن ما بين الأيدي حال، إذ إنه لا يحتاج فيه لحركة، وما بين الأرجل يكون من وجهين ماضي أو مستقبل، لأنه لا يتأتى إلا بالسعي، والسعي إما أن يكون قد وقع، أو مستأنف. فمَنع، عليه السلام، هذه الثلاثة، الماضي والمستقبل والحال.

(الرابع) أن يكون المراد بما بين الأيدي: ما يكون من كسب العبد بافترائه، والمراد بما بين الأرجل: ما يكون من افتراء غيره، لأن فائدة الأرجل، كما تقدم، ليس فيها إلا النقل والتخطي. فإذا وقع الاشتقاق جاز التأويل عليه من وجه ما.

(١) بهت فلاناً بهتاً وبهتة وبهتاناً: قذفه بالباطل.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سورة فصلت، من الآية ١٤.

(٤) سورة سبأ، من الآية ٥١.

(٥) سورة الأعراف، من الآية ٣٣.



وقد يحتمل أن يكون المراد جميع ما ذكرناه وأكثر منه، مع أن ما ذكرناه هنا منصوص على منعه في غير ما آية وغير ما حديث، فيجب الحذر عن كل ما تأولناه هنا، فيكون هذا اللفظ من الشارع، عليه السلام، من بديع الفصاحة والبلاغة، إذ إنه أتى بلفظ يسير يحوي معاني كثيرة. وقد أجمل، عليه السلام، ذلك كله، وزاد عليه في حديث آخر حيث قال: (اتَّقِ مُحَارِمَ اللَّهِ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ)<sup>(١)</sup> وكل ما ذكرناه من جملة المحارم.

الوجه السابع: قوله، عليه السلام: (وَلَا تَعُصُوا فِي مَعْرُوفٍ) هذا أيضاً من أفصح الكلام وأبدعه، لأنه، عليه السلام، جمع فيه المعروف كله شرعاً وعقلاً واجباً وندباً، فكان ذلك تصديقاً لقوله، عليه السلام: (يُعِثُّ لَأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)<sup>(٢)</sup>. ومكارم الأخلاق مما عرفت حُسْنُهَا شرعاً وطبعاً. فبهاتين الصفتين - أعني تَزَكُّ ما تقدم التَّهَيُّ عنه، وامتنال ما ندب إليه هنا - تَمَّتْ البيعة.

ولا يُتوهم أن البيعة كانت لأولئك لا لغيرهم، بل هي لكل من دخل في الإسلام، أو ولد فيه إلى يوم القيامة. قال، عز وجل، في محكم التنزيل ﴿لَا تُذِرْكُم بِهِمْ وَمَنْ يُلَغْ﴾<sup>(٣)</sup> ولا فرق في ذلك بين الكتاب والسنة، لأن الإنذار بهما معاً على حد سواء إلى يوم القيامة. فمن ترك شيئاً مما ذكر فقد نكث في البيعة، ونكثه بقدر ما ترك. فليراجع نفسه قبل التلف.

الوجه الثامن: قوله، عليه السلام: (فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) يريد: من وفى منكم، على مقتضى ما ذكرناه. ولقائل أن يقول: لِمَ أُنَبِّهَ، عليه السلام، هنا الأجر ولم يَحْدِثْ؟ والجواب: أنه إنما أُنَبِّهَ، عليه السلام، هذا الأجر للعلم به وشهرته، لأنه، عليه السلام، قد حَدَّثَ في غير ما موضع، وقد حَدَّثَ، عز وجل، في غير ما موضع أيضاً، منها حديث معاذ حيث قال له، عليه السلام: (وهل تدري ما حقُّ الله على عباده، وما حقُّ العباد على الله؟ فقال: الله ورسوله أعلم). فقال: حقُّ الله على عباده أن يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وحقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك ألاَّ يَعَذَّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وإذا لم يعذبهم فقد دخلوا الجنة<sup>(٤)</sup>، لأنه ليس هناك غير الدارين: الجنة والنار. ومنها قوله، عليه السلام: (الْإِيمَانُ إِيمَانَانِ)<sup>(٥)</sup>. وقد تقدم معناه في الحديث قبل هذا، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عزَّ أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في حُسْنِ الخلق. وهو حديث صحيح.

(٣) سورة الأنعام، من الآية ١٩.

(٤) حديث متفق عليه.

(٥) لم نعرف مصدره.

تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١١﴾ . والاستقامة هي بمقتضى الحديث الذي نحن بسبيله . والآي والأحاديث في ذلك كثيرة .

الوجه التاسع : قوله ، عليه السلام : (ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة) وقد تقدم الكلام على ذلك الفصل أولاً في كونه دليلاً على أن الحدود كفارة للذنوب .

الوجه العاشر : قوله : (ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه) وهذا أدل دليل على صحة معتقد أهل السنة ، وهو ما قدّمناه من أن تعليق الثواب على الطاعات والعقاب على المعاصي والمخالفات ليس علة عقلية ولا علة شرعية ، لأنه لو كان ذلك لعلّة عقلية أو علية لكان يؤخذ عليها على كل حال في الدنيا أو في الآخرة ، فلما كان ذلك تعبداً شرعاً كان العبد تحت المشيئة ، فإن شاء ، عز وجل ، أخذاً أخذه بالعدل ، وإن شاء عفواً ، عفا عنه بالفضل .

الوجه الحادي عشر : قوله : (فبايعناه على ذلك) هذا إخبار من عبادة بن الصامت ، رضي الله عنه ، بأنهم امتثلوا ما أمرهم النبي ، ﷺ ، له على تلك الأوصاف المذكورة بالرضا والتسليم . وفائدة إخباره ، رضي الله عنه ، بذلك إنما هو تحريض لمن يأتي بعد على توفية تلك البيعة ، إذ إنها لازمة لمن يأتي بعدهم ، كما هي لازمة لهم ، وفيه من الفقه أن كل ما ندب الإمام إليه لمصلحة من مقتضى الدين أن يُبادر إليه ، ولا يُترك ؛ لأنه تجديد لما تقدم لا أنه استئناف أمر ثان . وبالله التوفيق .



اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ وَفَى بْبَيْعَةِ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى ، ﷺ ، فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَأَذْهَبْتَ عَنْهُ الشُّكُوكَ وَالْإِعْتِرَاضَاتِ ، وَعَافَيْتَهُ مِنَ الْوَسَاوِسِ وَالنَّزَعَاتِ ، وَسَلَكْتَ بِهِ مِنْهَاجَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالسُّنَنِ ، وَعَدَلْتَ بِهِ عَنْ طَرِيقِ الزَّيْغِ وَالزَّلَلِ ، وَحَمَيْتَهُ بِعَنَائِكَ فِي الْإِعْتِقَادِ وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ .

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً .

## حديث قتال المسلمين

عن أبي بكرَةَ قال: سمعتُ رسولَ الله، ﷺ، يقول: إذا التقى المسلمانِ بسَيِّئِيهِمَا فالقاتلُ والمقتولُ في النار). فقلت: يا رسولَ الله، هذا القاتلُ، فما بالُ المقتولِ؟ قال: إنه كان حريصاً على قتلِ صاحبه.

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على لحوق الوعيد بمن اتصف بهاتين الصفتين المذكورتين. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله، عليه السلام، (إذا التقى المسلمانِ بسَيِّئِيهِمَا) هل يُحمَل على العموم أو على الخصوص؟ ظاهر اللفظ العموم، وليس هو كذلك في الحقيقة، وإنما هو محمولٌ على الخصوص. وبيان ذلك أنهما قد يلتقيان بغير قصد، وإذا وقع القتل على هذه الحالة كان قتلَ خطيئة، والإجماع قائم على سقوط الإثم عن قاتل الخطأ. وقد يكون التقاؤهما على اختلافِ تأويل، فيكون كلُّ منهما تأوّل، فظهر له في تأويله الحقُّ، فقاتلَ على الحقِّ، وإذا كان قتالهما على هذه الحالة لم يتناولهما عموم الحديث، ومثل ذلك قتالُ بعض السلف، وهم مشهودٌ لهم بالجنة، الفريقان معاً. وقد يكون التقاؤهما لتعلم الحرب، فتكون الضربةُ خاطئةً فيقع القتل، ولا يقع الوعيد، لأنه خطأ. وقد يكون أحدهما يدفع عن نفسه، والآخر طالب له بالظلم، فيتناول الوعيدُ الظالمَ ولا يتناول الآخر.

ولهذا وجوه عديدة يطول تتبعها، فبان بهذا أن اللفظ محمول على الخصوص لا على العموم. والخصوص هو أن يكون كل واحد منهما قاصداً لقتل صاحبه ظلماً وعدواناً بغير تأويل ولا شبهة ولا حق.

وهنا تنبيه لمن أتاه لص أو محارب ليسفك دمه، أو يأخذ ماله، ألا يقاتله، بنية أن يسفك دمه، وإنما يقاتله بنية أن يدفع عن نفسه وماله، فإن خرجت الضربة منه خاطئة فمات بها اللص كان شرّاً

قتيل، وإن قُتل هو كان شهيداً لقوله عليه السلام (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)<sup>(١)</sup>. وقد قال الفقهاء في هذا الموضوع: إنه إذا كان في سَعَةِ ناشده الله، عَزَّ وَجَلَّ، في التَّرك، وإن لم يكن في سَعَةِ دفع عن نفسه، بالنية التي ذكرناها. ثم إذا خرج له بهذه النية، فإن جرحه فلا يجهز عليه، وإن هرب عنه فلا يتبعه، وإن سبقت منه الضربة فمات بها اللَّصَّ فليس له في سَلْبِهِ<sup>(٢)</sup> شيء.

الوجه الثاني: فيه دليل لأهل السَّنة في كونهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب، لأنه، عليه السلام، قال: (إذا التقى المسلمان بِسَيِّئَيْهِمَا) فسأهما (مسلمين) مع ارتكاب هذا الذنب العظيم، ولم يخرجهما عن دائرة الإسلام.

الوجه الثالث: لقائل أن يقول: لم خصَّ، عليه السلام، هذا الالتقاء بالسيف دون غيره من الأسلحة؟ والجواب: أن ذلك من باب الخاص، والمراد به العام، لأن السيوف كانت في الغالب من عَدَةِ العرب، فنَبَهَ عليه السلام، بالغالب على الكل، فكل من تلاقى بأي نوع من السلاح المعدَّ عادةً للقتل بهذه النية المحذورة يتناوله الحديث. وقد جاء عن الشارع، عليه السلام، النهي عن أقل من هذا، وهي الإشارة بالحديدة، ويؤيد ذلك عموم قوله، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾<sup>(٣)</sup> فلم يُخَصَّصْ آلَةٌ من غيرها.

الوجه الرابع: قوله، عليه السلام: (القاتل والمقتول في النار) إثم هذين هل هو واحد، ويسمَّى المقتول قاتلاً، كما سُمِّي القاتل قاتلاً؟ أو ليس إثمهما واحداً؟ وإنما يستوجبان جميعاً دخول النار بإثمين مختلفين، كما يدخل المؤمن العاصي والكافر، وليس دخولهما على حدٍّ سواء.

أما صيغة قوله، عليه السلام: (القاتل والمقتول في النار) فلا يؤخذ منه تفرقة، وما ذكر عليه السلام، آخر الحديث يقتضي أن لا تفرقة بينهما، وهو قوله، عليه السلام (إنه كان حريصاً على قتل صاحبه) لأنه لما سُئِلَ: (هذا القاتلُ فما بالُ المقتول؟)، لأنهم قد علموا بمقتضى التنزيل أن القاتلَ محكومٌ له بالنار، وأن المقتولَ محكومٌ له بمغفرة الذنوب لقوله تعالى حكاية عن ولدي آدم، عليه السلام ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَآ بِإِثْمِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٤)</sup> فأزال، عليه السلام الإشكال الذي وقع للصحابة بما تقدم ذكره، فأعلمهم بأنه استوجب ذلك بحرصه وفساد

(١) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

(٢) السَّلْبُ (بفتح السين واللام): ما على القتل من سلاح ونحوه. ومنه الحديث: من قتل قتيلاً فله سَلْبُهُ. وهو التنفيل من الإمام لحث الجند.

(٣) سورة النساء، الآية ٩٣.

(٤) سورة المائدة، من الآية ٢٩. وقوله التالي «فأزال» جواب «لما» في قوله: «لأنه لما سُئِلَ».

نِيَّتِهِ، وَلأنَّ الْحَرَصَ عَمَلٌ، وَيتضمنه فساد النية. فقد تساوى المقتول مع القاتل في هاتين الصفتين، لأن ما في قوة البشر قد عمله كل واحد منهما، وإبقاء عمر أحدهما وإنفاذ عمر الآخر ليس من قوة البشر، ولأنه قد خَتَمَ عمره بالحرص على قتل مسلم.

وقد قال، عليه السلام: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لم يبق بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النار)<sup>(١)</sup>، ولأن الشريعة قد شددت في القتل حيث جعلت أقل الأجزاء منه كالفعل كله، وهو أنه إذا اجتمع جماعة على قتل واحد وتوَلَّى القتلَ واحدٌ منهم، ولم يحصل من الكل إلا المساعدة بالحضور، فالكُلُّ عند الشرع قاتلون، يجب قتلهم عن آخرهم. فإذا كان هذا في حق مَنْ حَضَرَ، ولم يحصل منه غير ذلك، فَتَاهِيكَ به فيمن حضر وحَرَصَ واجتهد. وقد جاء في القتل ما هو أشد من هذا كله، وهو قوله، عليه السلام: (مَنْ أَعَانَ على قتل مسلم ولو بشَطْرِ كلمةٍ جاء يوم القيامة وبين عينيه مكتوب: يائس من رحمة الله)<sup>(٢)</sup>. فإذا كان هذا الْمُعِينِ بِشَطْرِ كلمةٍ فمن باب أَوْلَى مَنْ جَمَعَ ثَلَاثًا، وهي غاية ما يمكن من قوة البشر وهي: الحضور، والحرص، والاجتهاد. فبان بهذه العلة التي أعطاها، عليه السلام، أنه لا يَبْوءُ القاتل بِإِثْمِ صاحبه إلا إذا كان صاحبه لم يَنْوِ لَهُ نِيَّةً فَاسِدَةً، ولم يَسَعِ له في ضَرَرٍ، فلما كانت نية هذا أو عمله فَاسِدَيْنِ استوى مع صاحبه في دخول النار كما تقدم.

الوجه الخامس: فيه دليل على أن بعض العصاة من هذه الأمة يدخلون النار لأنه، عليه السلام، سَمَّاهُمَا مُسْلِمَيْنِ، وأخبر بأنهما يدخلان النار. وقد زاد، عليه السلام، هذا بياناً وإيضاحاً في حديث آخر حيث قال: (الإيمان إيمانان)<sup>(٣)</sup>. وقد بيَّنا معنى ذلك حين أوردناه في الحديث المتقدم، وهو حديث المحبة في الله، والبغض في الله<sup>(٤)</sup>.

الوجه السادس: إخباره، عليه السلام، عن القاتل بدخوله النار، هل المراد به التأييد، تاب أو اقْتَصَرَ منه، أو في الحال، فإن تاب أو اقْتَصَرَ منه ارتفع الإثم عنه، ولم يدخل النار؟

قد اختلف العلماء في توبة القاتل، فمن قائل يقول: ليس له توبة، وهو ابن عباس وزيد بن ثابت في أحد قوليهما، ومن قائل يقول: له توبة، وهو المشهور، وهو مذهب أهل السنة. واحتج

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) عزاه في الجامع الصغير إلى ابن ماجه في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال في فيض القدير ٧٢/٦: قال ابن حجر كما قال المنذري: ضعيف جدا. ونقل عن ابن الجوزي تبعاً لأبي حاتم في العلل: إنه باطل موضوع. والله أعلم. ورواه الإمام أحمد في المسند.

(٣) سبق القول: لم نعرف مصدره.

(٤) كذا، وسماه هناك: حديث حلاوة الإيمان.

القلب<sup>(١)</sup>. وليس المراد بالقلب هنا: الجارحة، وإنما المراد ما يكون في القلب يزيد هذا إيضاحاً وبياناً قوله، عليه السلام لابن عباس، (إن قدرت أن تسمي وتصبح وليس في قلبك غشٍّ لأحدٍ فافعل، ثم قال له: يا بُنَيَّ وذلك من سِتِّي، ومن أحيا سِتِّي فكأنما أحياني، ومن أحياني كان معي في الجنة)<sup>(٢)</sup>، وقال عليه السلام: (من أصبح وأمسى لا ينوي ظلم أحدٍ غفر له ما جنى)<sup>(٣)</sup>، وقال عليه السلام في ضده: (من غشَّنَا فليس منا)<sup>(٤)</sup>، (وَمَنْ ضَارَ بِمُسْلِمٍ ضَارَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ مَكَرَ بِمُسْلِمٍ مَكَرَ اللَّهُ بِهِ)<sup>(٥)</sup>، والآي والأحاديث في ذلك كثيرة.

وأما الذي هو النية والعمل فهو مثل قطيعة الرحم، لأنهما إذا تقاطعا معاً لا يتفصّل كل واحد منهما من الوعيد الذي توعد على ذلك شيئاً، ولا عذر له أن قاطعه غيره قبله، لقوله، عليه السلام: (وأن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك)<sup>(٦)</sup>، وإخباره، عليه السلام: (بأن الله عزّ وجلّ لما أن خلق الخلق قالت الرّحِم: يا ربّ هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب. قال: فهو لك)<sup>(٧)</sup>.

وأما الذي هو بالنية والتسبّب فهو مثل الذي يسعى لشخص في خديعة أو مكر أو ما يضره، وإن لم يصل إليه ما قصده من الأذى، لأن نيته الفاسدة وتسببه فيما فيه الأذى لمسلم ممنوعان معاً، وصل ذلك أم لم يصل، وكان مثل من تقدم لا ينقص من ظلم أحدهما للآخر شيء، لأن كل واحد

- 
- (١) متفق عليه، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه. وأوله: الحلال بين والحرام بين.
- (٢) أخرجه الترمذي عن أنس رضي الله عنه وقال: هذا حديث حسن غريب. وكلمة (يا بُنَيَّ) مراد بها أنس وليس ابن عباس رضي الله عنهم جميعاً، وليس كما أوهم كلام المؤلف رحمه الله، من أن المراد ابن عباس.
- (٣) رواه السيوطي في الجامع الصغير، ونقل المناوي أن الحافظ العراقي ضغفه ولفظه: من أصبح وهو لا بهم ظلم أحد غفر له ما اجتزم.
- (٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الإيمان.
- (٥) ورد هذا المعنى في أحاديث مختلفة، منها ما رواه الترمذي عن أبي بكر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ملعون من ضارّ مؤمناً أو مكر به، وما رواه الإمام أحمد عن أبي صرمة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: من ضارّ ضارّ الله به، ومن شاقّ شاقّ الله عليه.
- (٦) مؤلف من عدة أحاديث، منها ما رواه الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه لقي النبي ﷺ فأخذت يده فقلت: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: يا عقبة، صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك. وما رواه الطبراني في الأوسط عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ألا أدلك على أكرم الأخلاق في الدنيا والآخرة؟ أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وأن تعفو عمن ظلمك.
- (٧) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: نعم. أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذلك لك. ثم قال رسول الله ﷺ اقروا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾.

منهما قد سعى في ظهر الغيب لأخيه فيما منع شرعاً من نية فاسدة وتسبب فاسد. ولأجل هذا كان الفضلاء من أهل العلم والعمل الذين رزقوا نور البصيرة لم يبغضوا أهل المعاصي والمخالفات لذواتهم، وإنما أبغضوا منهم تلك الأفعال التي نهى الشرع عنها وذمها، وأشفقوا عليهم لما به ابتلوا من سابق القدر عليهم، وخافوا على أنفسهم لاحتمال تعدي الأمر إليهم، فكانوا بين بغض لأجل ما به أمروا، وإشفاق لأجل ما به طُبعوا، وخوف من ممكن يتوقعون، وكفى بذلك تنبيهاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup> أي لا يحملكم ما جبلتم عليه من رافة الإيمان على أن تضيّعوا ما كُلفتم به من توفية الحدود. والله الموفق.

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة النور، من الآية ٢.

## حديث قيام ليلة القدر

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: من يقم ليلة القدر، إيماناً واحتساباً، غُفِرَ لَهُ ما تقدم من ذنبه.

• • •

ظاهر الحديث يدل على فضيلة ليلة القدر، والكلام عليه من: -

الوجه الأول: قوله، عليه السلام: (من يقم) هذا القيام يحتمل أن يكون له: -  
ويحتمل أن يكون المراد به الخصوص، فإذا كان المراد به العموم فهو قيام الليل كله، وإن كان المراد به الخصوص، فهو محتمل لوجهين أيضاً: (أحدهما) أن يكون له: - قيام أول الليل بعد صلاة العشاء تشبيهاً بقيام رمضان. (الثاني): أن يكون المراد آخر الليل الذي هو التهجد، وكفى عنه بالقيام توسعةً، ومنه قوله تعالى: ﴿قُرْآنُ اللَّيْلِ وَالْأُفْلَاقِ﴾ (١). والمراد به التهجد، لأن النبي ﷺ، بعدما أنزلت هذه الآية عليه إنما كان قيامه بعد النوم، وهو التهجد، لغةً. وكل هذه الأوجه محتملة لما نحن بسبيله، وأظهرها - والله أعلم - القيام بعد النوم الذي هو: التهجد، لأن النبي ﷺ، أخذ به، واستقر عمله عليه، ولا يأخذ ﷺ، إلا بما هو الأفضل والأولى والأرجح، ولو كان غير ذلك أفضل لكان، ﷺ، فعله وترك المفضول.

الوجه الثاني: قيام النبي ﷺ، كان مما ثبت عنه الإحدى عشرة ركعة أو الثلاث عشرة ركعة، على اختلاف الروايات، وأنه لم يزد عليها في رمضان ولا في غيره. هل ذلك أقل ما يجزىء من القيام في ليلة القدر، أو هو النهاية في الأجزاء فيها؟ الظاهر أن ذلك هو نهاية الأجزاء فيها، والدليل على ذلك من وجهين: (الأول): أنه، ﷺ، إنما يأخذ في حق نفسه المكرومة بالأعلى والأرجح ولا

(١) سورة المزمل، الآية ٢.



يترك شيئاً من ذلك ويأخذ بالأقل . (الثاني): ما روي عنه عليه السلام، أنه قال: (من قام بالآيتين من آخر سورة البقرة كَفَتاه) <sup>(١)</sup>، وفي رواية: (من آخر سورة آل عمران) <sup>(٢)</sup>. ومعنى (كَفَتاه) أي: أجزأته عن قيام الليل وسمي بهما مُتَهَجِدًا. وإذا قلنا: إنه حصل له التهجد، الذي كُنِيَ به عن القيام، فقد حصل له بهما ما يفضل على ألف شهر، ليس فيه ليلة القدر، لقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ <sup>(٣)</sup>.

فإن قال قائل: كيف يكون إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة ركعة تناهياً في الإجزاء والكمال، وقد يزيد الإنسان في ذلك فيقوم الليل كله، ومن قام الليل كله كيف يكون من قام بالإحدى عشرة ركعة أفضل منه؟ قيل له: من قام بالإحدى عشرة ركعة أو الثلاث عشرة ركعة أفضل ممن قام الليل كله، بدليل حديث عبد الله بن عمرو. والكلام على هذا السؤال يأتي في الكلام عليه، إن شاء الله، فمن أراد فليقف عليه هناك.

فإن قال قائل: قد يقوم المرء بالآيتين المذكورتين في ركعات جملة، يردها <sup>(٤)</sup>، وإذا كان كذلك فلا يسوغ أن تكون ركعتان، لا غير، تجزئان عنه. قيل له: لو كان المراد ذلك لنَصَّ، ﷺ، عليه، وَلَبَّيْنَهُ، كما فعل ذلك في ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ <sup>(٥)</sup> فقال: يكررها كذا مرة، وكذلك في آية الكرسي، وفي سورة ليلة القدر <sup>(٦)</sup>، إلى غير ذلك من الأحاديث التي جاءت بالنص في التكرار، فلما سكت هنا عن ذكر التكرار حُكِمَ بأنه لم يُردّه، مع أنه قد استمر فعل الصحابة، رضي الله عنهم، على ما قررناه، لأنهم لا يقولون: «قام فلان بكذا» إلا حيث انتهت قراءته من غير تكرار يكررها في الركعة الثانية، ولأن النبي، ﷺ، خصَّ هذا التهجد، الذي هو القيام، وقال: (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المُقْنَطِرِينَ) <sup>(٧)</sup>. فلو كان، عليه السلام، يعني بهاتين الآيتين التكرار لنَصَّ عليه، كما نص عليه في الأحاديث التي أوردناها، ولأن عمله، ﷺ، كان على الوجه الذي ذكرناه أبداً، لا يتحول عنه، وهو عدم التكرار

- (١) أخرجه البخاري ومسلم (والرواية: من قرأ) ولم ترد (من قام).
- (٢) أخرجه الدارمي في السنن ٣٢٥ / ٢ بلفظ: من قرأ آخر آل عمران في ليلة كُتِبَ له قيام ليلة. وإسناده ضعيف.
- (٣) سورة القدر، الآية ٣.
- (٤) أي: لا ينال ثواب التهجد من قرأ هاتين الآيتين في ركعتين، لا في ركعات - حسب نص الحديث.
- (٥) سورة الإخلاص، الآية ١.
- (٦) آية الكرسي هي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾ وهي في (سورة البقرة، الآية ٢٥٥). وسورة ليلة القدر هي: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ...﴾ الخ.
- (٧) أخرجه أبو داود، وصححه ابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه. و (المقنطر) هو من يملك الأموال الكثيرة المكسدة.

البيض<sup>(١)</sup>، وغير ذلك مما جاء به تضعيف الأجر للعامل فيه. وأما البقع فما روي في مكة، والمدينة، وبيت المقدس، في تضعيف الأجر فيها. هذا ما هو من جهة القياس، وهو لا يتم، لأن من العلماء من ينازع في هذا ويقول: إن هذه الأمور لا تؤخذ بالقياس، وإنما هي متوقفة على ما نقل عن الشارع، رحمته، ولم ينقل عنه في مسألتنا هذه شيء، ولم نجد لذلك دليلاً قطعياً إلا ما أتت به، والخصم ينازع فيه.

الوجه السادس: من قام في هذه الليلة بأقل من ركعتين، هل يحصل له الفضل المذكور، أو بعضه، أو لا يحصل له شيء؟ أما الفضل كله فلا، لقوله، رحمته: (كفناه). فما يكون أقل من ذلك ولا يكفي، وقد تقدم هذا بما فيه كفاية. وبقي هنا الكلام على: هل يحصل له البعض أو لا يحصل له شيء؟ محتمل لهما معاً.

والظاهر من الاحتمالين أن له نصيباً منها، بدليل قول التابعي، رضي الله عنه، وهو سعيد بن المسيب<sup>(٢)</sup>: من شهد العشاء في جماعة فقد أخذ بحظه منها، يعني: ليلة القدر. ومعناه: أن صلاة الجماعة بالنسبة إلى الواحد مندوبة، فمن شهدا في جماعة فقد أتى مندوباً من جنس الصلاة، فحصل له بهذا المندوب جزء من فضلها، لا أنه حصل له فضلها كله، ولأجل هذا تحرز التابعي فجعلها عشاء، وجعلها في جماعة. فتحرز بذكر (العشاء) من المغرب لأجل أنه قيل إنها وتُصلى صلاة النهار. وتحرز بقوله (في جماعة) خيفة أن يصلي أحد العشاء منفرداً فيقول: قد أخذت بحظي منها، وهو لم يأت إلا بالفرض. وليس المطلوب في هذه الليلة ذلك، وإنما المطلوب التنفل بالصلاة عدا الفرائض، كما تقدم في الاحتمال: هل أولاً، أو آخراً، أو كلاً؟ فقول التابعي هنا محمول على أحد الاحتمالات المذكورة بأقل ما يمكن من العمل. وإذا حكم له التابعي بأنه قد أخذ بحظه منها، وهو لم يزد على الفرض شيئاً، خارجاً عنه، فمن باب أولى أن يقول فيمن زاد على الفرض ركعة إنه أخذ بحظه منها، إذ إنه أتى بالتنفل من الصلاة، عدا الفرض.

الوجه السابع: فيه دليل على أن الصلاة في هذه الليلة هي المطلوبة، وأن غيرها من أفعال البر لا يجزىء عنها، لأنه لو فهم التابعي، رضي الله عنه، جواز غير ما هو متن الحديث، أعني في تضعيف الأجر، لذكر غيرها من الطاعات، وقال: قد أخذ بحظه منها.

---

(١) الأيام البيض: هي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر قمرى. وقيل: سميت بذلك لأنه لما عمّ النور لياليها ناسب أن تعم العبادة نهارها. وأصل التسمية: أي أيام الليالي البيض لوجود القمر طوال الليل.

(٢) سعيد بن المسيب: سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة في المدينة المنورة. جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع. توفي سنة ٩٤ هـ/ ٧١٣ م.

الوجه الثامن: فيه دليل على فضل الصلاة لهذه الأمة على غيرها من أفعال الطاعات، إذ إن ركعتين نافلة في هذه الليلة تفضلُ عمل ألف شهر يُحمل فيها السلاح في سبيل الله، على ما سيأتي بعد.

الوجه التاسع: قوله، عليه السلام: (ليلة القدر) هذه الليلة سميت بهذا الاسم، هل لحكمة فيها تقتضي تسميتها بذلك أم ذلك تعبد؟ الظاهر أن ذلك مشتق مما قُدر فيها من الأحكام، لأنه قيل: إن الله تعالى يقدر فيها ما يكون في السنة كلها. ومعنى التقدير هنا: إبرازه للملائكة وإعلامهم بما يفعلون في جميع السنة. وقيل: سميت ليلة القدر لعظم قدرها، لأن فيها أنزل، عز وجل، القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وفيها قُدر هذا الأمر العظيم، ولأجل عظم قدرها، وعظم ما قُدر فيها قال الله تعالى في تعظيمها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾<sup>(١)</sup> كما تقدم.

الوجه العاشر: هل هي باقية أو رفعت؟ قد اختلف العلماء في ذلك فمن قائل يقول برفعها، واحتجوا بأن قالوا: كانت من خصائص النبي، ﷺ، ثم رفعت لموته. ومن قائل يقول ببقائها، وسلموا بأنها من باب الخصوصية للنبي، ﷺ، لكنهم زادوا بأنهم أدخلوا أمة النبي، ﷺ، في التخصيص، وهذا هو الأظهر لوجوه منها: ما روي في البساط<sup>(٢)</sup> الذي لأجله من هذه الليلة، وهو أنه كان، ﷺ؛ أخيراً بأن رجلاً كان في بني إسرائيل حمل السلاح في سبيل الله ألف شهر، فاستقل، عليه السلام، أعمال أمته لِقَصَر أعمارهم، فسأله الله بأن أنعم عليه وعلى أمته بأن جعل لهم ليلة القدر<sup>(٣)</sup>.

فلو كانت خاصة به دون أمته لَمَا وقعت التسلية بها عند هذا البساط. و (الأمة) تطلق على من لحقه، ومن أتى بعده، ولم يذكر له، ﷺ، تقاضرُ عُمر أصحابه، وإنما ذكر أنه تقاضرَ أعمار أمته، ولأن العلامة التي أخبر بها ﷺ، موجودة الآن، وهي ما روي عنه، ﷺ: (أن الشمس تطلع في صبيحتها بيضاء نقية، لا شعاع لها)<sup>(٤)</sup> وكذلك يجدها أهل المراقبة لها إلى هَلُمَّ جَرًا. هذا منقول من سَلَف إلى خَلَف، إلى زماننا هذا. فلو رفعت لما روي من تلك العلامات شيء، ولأنه لم يزل أهل الخير والصلاح من الصدر الأول إلى هَلُمَّ جَرًا يعاينونها عياناً، فبطل القول برفعها مرة واحدة.

الوجه الحادي عشر: هل هذه الليلة بنفسها خير من ألف شهر، أو العمل فيها خير من العمل في ألف شهر؟ محتمل للوجهين معاً. لكن الذي عليه العلماء أن المراد بالأفضلية هو العمل فيها، وهو الحق الواضح، لأنه لو كان التفضيل فيها نفسها لم يكن في ذلك كبير فائدة، وإنما الفائدة في

(١) سورة القدر، من الآية ٣.

(٢) البساط هنا: هو الحال التي كان عليه السلام فيها، المؤدية لهذه النعمة المسببة لها.

(٣) عزاه في الدر المنثور ٦/ ٣٧١ لابن المنذر وابن حاتم والبيهقي في السنن. وهو حديث مرسل.

(٤) رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن جبان والبيهقي عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

تعظيم الأجر فيها، كما هي حكمة الله أبداً في تفصيل نفع الأيام، يستدعي من ذلك لأحوار  
للعاملين فيها مئة على عبادته وتعطفاً.

الوجه الثاني عشر: هل هي ليلة معينة لا تتبدل، أو هي تدور في ليال عديدة؟ قد اختلف  
العلماء في ذلك اختلافاً كثيراً. فمن قائل يقول: بأنها في رمضان مطلقاً ومن قائل يقول: بأنها في  
العشر الأوسط من رمضان. والقائلون بهذا اختلفوا في أي ليلة تكون منه ومن قائل يقول: بأنها في  
العشر الأخير من رمضان. والقائلون بهذا اختلفوا في أي ليلة تكون منه ومن قائل يقول: إنها ليلة  
النصف من شعبان. وكل واحد من هؤلاء له مستند صحيح من طريق الآحاد ومنهم من قال: بأنها  
تدور في السنة كلها استعمالاً لكل الآثار التي جاءت فيها، ومن مذهب مالك، رحمه الله، ومعه  
السلف. وهذا هو الأظهر<sup>(١)</sup>، والله أعلم، إذ إن الأحاديث كلها تجمع على هذا أنه حية ويعمل بها  
كل من غير إبطال أحدها. ولا يعترض على هذا بقوله، عليه السلام: (أرأيي أسجد في مسبحتها في  
ماء وطين)<sup>(٢)</sup> فأصبح كذلك ليلة ثلاث وعشرين من رمضان، لأننا لم ننف أنها في رمضان، ولكن  
نقول: هي تدور، فقد تكون في رمضان، وقد تكون في غيره، فكانت تلك السنة في تلك الليلة التي  
أخبر بها.

والحكمة في إختافها لطف بالأمة ورحمة بهم، لأنها لو كانت معينة لكان من قامها يقع له  
الانكال إما وعد فيها من الخير العظيم، فيقع التفريط في الأعمال. وهذا مثل إحقاق الصلاة الوسطى  
وغير ذلك، لكي تقع المحافظة على هذه الأفعال العظيمة، فيحصل للمرء من الثواب ما لا يصفه  
الواصفون.

فعلى هذا ينبغي للمرء أن ينوي قيامها أول ليلة من السنة. فيقول: إن كانت الليلة ليلة القدر  
فأنا أقومها إيماناً واحتساباً، وينوي أن يفعل ذلك في كل ليالي السنة، ثم يستصحب قيام ليالي تلك  
السنة كلها، فإذا أكمل سنة بقيام لياليها، من غير أن يُخلَّ بواحدة منها، فيزجي له أن يكون قد صادف  
الليلة قطعاً، وتجزئه النية الأولى، على مذهب مالك<sup>(٣)</sup>، رحمه الله، على أصله في العمل المتتابع،  
مثل الصوم وغيره، ولا يجزئه على مذهب الشافعي، رحمه الله، على أصله هو أيضاً في العمل  
المتتابع، إلا أن يجدد نية كل ليلة.

(١) يقول الشيخ محيي الدين بن عربي في فتوحاته المكية: «إنني رأيته في شعبان وفي شهر ربيع وفي رمضان، وأكثر  
ما رأيته في شهر رمضان وفي العشر الأخير منه، ورأيته في العشر الوسط من رمضان في غير ليلة وتر، وفي  
الوتر منها. وأنا على يقين أنها تدور في السنة في وتر وشفع من الشهر» حاشية ابن عابدين ١٣٧/٢.

(٢) متفق عليه.

(٣) النية مرة واحدة تكفي صيام رمضان كله، وكذلك نية قيامه أول ليلة من السنة التماساً لليلة القدر في السنة كلها.

الوجه الثالث عشر: قوله، عليه السلام: (إيماناً واحتساباً) الإيمان والاحتساب هل هما بمعنى واحد، أو هما صفتان متغايرتان؟ محتمل للوجهين معاً. فإذا قلنا: بأنهما بمعنى واحد فهو ظاهر لا خفاء فيه، لأن الإيمان يتضمن الاحتساب إذا كان حقيقياً، فيكون فائدة تأكيده، عليه السلام، بهذه الصفة التي هي الاحتساب، ليفرق بين الإيمان الحقيقي والإيمان الضعيف، فيكون الفضل المذكور لا يحصل إلا لمن كانت له الدرجة العليا في الإيمان.

وإذا قلنا بأنهما لمعنيين فهو ظاهر أيضاً لا خفاء فيه، لأن العمل بغير إيمان لا يقبل بالإجماع. فالإيمان شرط في القبول، وإذا حصل الإيمان فبنفس حصول العمل معه يحصل الفضل على عمل ألف شهر، كما تقدم، وبقي الاحتساب. فإذا حصل كان مقابله مغفرة ما تقدم، وهذا جارٍ على قواعد الشريعة وآثارها، فمن ذلك قيام رمضان الذي قال فيه، ﷺ: (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما بين رمضان إلى رمضان)<sup>(١)</sup>. وقيام رمضان فيه الأجر ابتداءً، لكن لما أن زاد فيه هذه الصفة، وهي الاحتساب، زيد له بمقابلها مغفرة ما بين رمضان إلى رمضان. ومن ذلك النفقة على العيال التي قال فيها، ﷺ: (إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها، فهي له صدقة)<sup>(٢)</sup>، والنفقة على العيال واجبة، وفي عمل الواجب الأجر، فإذا زاد الاحتساب زيد له في مقابله أجر الصدقة، إلى غير ذلك مما جاء في هذا المعنى وهو كثير.

الوجه الرابع عشر: فيه دليل على أن استصحاب الإيمان مطلوب في جزئيات الأعمال، لأنه، ﷺ، شرط هنا أن يكون قيام هذه الليلة بتصحيح النية فيما ذكر فيه، وقد اختلف العلماء في ذلك. فمن قائل يقول: المطلوب منه عند الشروع في الأعمال، واستحصائه في الأجزاء شرط كمال. وعلى هذا هم الجمهور.

الوجه الخامس عشر: فيه دليل على أن استحضار الإيمان زيادة فيه، لأن الإيمان قد ثبت أولاً، وإحضاره في النية قام مقام الزيادة.

الوجه السادس عشر: فيه دليل على أن من لم يتوَّ قِيَامَ هذه الليلة لم يحصل له الثواب المذكور، وإن قامها، لأنه، ﷺ، شرط أن يكون قيامها بنية الإيمان والاحتساب، وذلك لا يتأتى حتى ينوي.

الوجه السابع عشر: قوله، عليه السلام: (غُفر له ما تقدم من ذنبه): فيه دليل على أن أجلَّ

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ (من صام رمضان وقامه إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه).

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الثواب على الأعمال المغفرة، لأن المغفرة جعلت ثواباً على قيام هذه الليلة، وفيها خير من العمل في ألف شهر يُحْمَلُ فيها السلاح في سبيل الله، على ما تقدم، ولأن المعصية هي الأصل، وهي المنجية من الهلاك، ولو كان من الرحمة ما عسى أن يكون مع عدم المعصية والهلاك ممكن، ولا حل ما فيها من هذا المعنى خص، عز وجل، نبيه، ﷺ، بها، فقال: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾<sup>(١)</sup>، ولم يذكر له غير ذلك من الثواب، فدل بالعقل والنقل أن أفضل ما أعطي المرء المغفرة؛ لأنه وإن كثرت الحسنات فهو محتمل للخلاص وضده، كما تقدم، ومن عُمر له لم يبق عليه شيء يخاف منه، كما تقدم.

الوجه الثامن عشر: فيه دليل على أن أعلى الأعمال الإيمان، لأنه إن حصل قيام هذه الليلة خَلِيَّةً من أنوار الإيمان فيها لم يحصل الثواب المذكور، فإذا حصل فيها أنوار الإيمان كان حراً ذلك أعلى الثواب، وهي المغفرة.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ غُفِرَتْ لَهُ فِي الدارين بلا محنة، إنك جواد كريم  
وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً.

---

(١) سورة الفتح، من الآية ٢.

## حديث إِنَّ الدِّينَ يُسْرُ

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، ﷺ قال: إِنَّ الدِّينَ يُسْرُ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدًا إِلَّا غَلَبَهُ. فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغُدُوزِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ.

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على أن الدين يسر وليس بعسر، وعلى طلب الرفق فيه. والكلام عليه من وجوه:

### الوجه الأول

قوله ﷺ (إِنَّ الدِّينَ يُسْرُ): هذا اللفظ يحتمل وجوهاً، وعلى كل وجهٍ كلام من وجوه، إلى آخر الحديث. فنبدأ أولاً بوجه، ونبين معناه، ثم نبين الحديث على ما يقتضيه ذلك الوجه إلى آخره، ثم نرجع إلى الوجه الثاني، ونبيته أيضاً إلى آخر الحديث، ثم كذلك إلى أن تفرغ الوجوه المحتملة لللفظ، ليكون ذلك أيسر على المطالع، وأسرع لفهم، فنقول:

الوجه الأول: قوله، عليه السلام: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرُ) احتمل أن يكون أراد به الإيمان، واحتمل أن يكون أراد به الإسلام، واحتمل أن يكون أرادهما معاً. والإيمان هو التصديق، والإسلام هو الانقياد.

والأظهر أن يكون المراد هما معاً بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ ثم قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾<sup>(١)</sup> فلم يقبل منهم الظاهر لعدم تصديق الباطن، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾<sup>(٢)</sup> مع أنهم قد أظهروا الانقياد، الذي هو الإسلام. لكن لما أن لم يكن معهم الإيمان لم ينفعهم الإسلام إذ ذاك، وكذلك أيضاً في العكس، وقد تقدم.

(١) سورة الحجرات، من الآية ١٤.

(٢) سورة النساء، من الآية ١٤٥.

الثواب على الأعمال المغفرة، لأن المغفرة جعلت ثواباً على قيام هذه الليلة، وقيامها خير من العمل في ألف شهر يُحْمَلُ فيها السلاح في سبيل الله، على ما تقدم، ولأن المغفرة هي الأصل، وهي المنجية من الهلاك، ولو كان من الرحمة ما عسى أن يكون مع عدم المغفرة فالحلاك ممكن. ولأجل ما فيها من هذا المعنى خص، عز وجل، نبيه، ﷺ، بها، فقال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾<sup>(١)</sup>، ولم يذكر له غير ذلك من الثواب، فدل بالعقل والنقل أن أفضل ما أعطي المرء المغفرة؛ لأنه وإن كثرت الحسنات فهو محتمل للخلاص وضده، كما تقدم، ومن غفر له لم يبق عليه شيء يخاف منه، كما تقدم.

الوجه الثامن عشر: فيه دليل على أن أعلى الأعمال الإيمان، لأنه إن حصل قيام هذه الليلة خَلِيتَ من أنوار الإيمان فيها لم يحصل الثواب المذكور، فإذا حصل فيها أنوار الإيمان كان جزاء ذلك أعلى الثواب، وهي المغفرة.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ غَفَرْتَ لَهُ فِي الدَّارَيْنِ بِلَا مَحْنَةٍ، إِنَّكَ جَوَادٌ كَرِيمٌ.  
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

---

(١) سورة الفتح، من الآية ٢.



## حديث إِنَّ الدِّينَ يُسْرُ

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي، ﷺ قال: إِنَّ الدِّينَ يُسْرُ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ. فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغُدُوءِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن الدين يسر وليس بعسر، وعلى طلب الرفق فيه. والكلام عليه من وجوه:

### الوجه الأول

قوله ﷺ (إِنَّ الدِّينَ يُسْرُ): هذا اللفظ يحتمل وجوهاً، وعلى كل وجه كلام من وجوه، إلى آخر الحديث. فنبدأ أولاً بوجه، ونبين معناه، ثم نبين الحديث على ما يقتضيه ذلك الوجه إلى آخره، ثم نرجع إلى الوجه الثاني، ونبينه أيضاً إلى آخر الحديث، ثم كذلك إلى أن تفرغ الوجوه المحتملة لللفظ، ليكون ذلك أيسر على المطالع، وأسرع لفهم، فنقول:

الوجه الأول: قوله، عليه السلام: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرُ) احتمل أن يكون أراد به الإيمان، واحتمل أن يكون أراد به الإسلام، واحتمل أن يكون أرادهما معاً. والإيمان هو التصديق، والإسلام هو الانقياد.

والأظهر أن يكون المراد هما معاً بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ ثم قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾<sup>(١)</sup> فلم يقبل منهم الظاهر لعدم تصديق الباطن، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾<sup>(٢)</sup> مع أنهم قد أظهروا الانقياد، الذي هو الإسلام. لكن لما أن لم يكن معهم الإيمان لم ينفعهم الإسلام إذ ذاك، وكذلك أيضاً في العكس، وقد تقدم.

(١) سورة الحجرات، من الآية ١٤.

(٢) سورة النساء، من الآية ١٤٥.

فإذا قلنا بأن الإيمان والإسلام متلازمان فالمراد به (الدين) المذكور هنا هما معاً، وإذا كان المراد هما معاً فنحتاج إذاً إلى بيان يُسرهما.

فأما الإيمان فيكفي فيه من التيسير حديث الجارية المشهور، وهو حين سألت النبي ﷺ (أين الله؟ فقالت: في السماء، فقال: لها: من أنا؟ قالت: رسول الله. فقال لصاحبه: اعتقها فبنتها مؤمنة)<sup>(١)</sup>. فافتتح، ﷺ، منها بأنها أقرت بأنه رسول الله، وأن الله موجود، وهو قاهر حاكم، لأنها أشارت إلى السماء، والسماء عند العرب كل ما علا وارتفع، فكل من علا قهر وعلت ولا يلزم منه ما قاله بعض الملحدين من التحيز<sup>(٢)</sup>، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، لأنه ليس في الحديث - بمقتضى اللغة - ما يوجب القول بذلك.

ولأجل هذا قال بعض علماء أهل السنة بأن الجاهل ببعض الصفات ليس بكافر، وهو الحق الواضح، لأنه إن قيل بغير هذا القول يتضمنه تكفير عوام المؤمنين، وقد وقع الإجماع من الصحابة والسلف بصحة إيمانهم، وقد قال النبي ﷺ: (نحن أمة أئمة، لا نقرأ ولا نكتب)<sup>(٣)</sup>، وهذا بخلاف من ينسب إلى الذات الجليلة ما لا يليق بها، فإذا اجتزىء في الإيمان بهذا القدر فهو يُسر لا شك فيه.

وأما الإسلام فيكفي فيه من التيسير حديث ضمام<sup>(٤)</sup> الحديث المشهور الذي (سأل عن الإسلام، فقال له رسول الله ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة. قال: هل علي غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع. قال رسول الله ﷺ: وصيام رمضان. قال: هل علي غيره؟ قال: لا، إلا أن تطوع. قال: وذكر رسول الله ﷺ، الزكاة. قال: هل علي غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع. قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول الله ﷺ: أفلح إن صدق)<sup>(٥)</sup> والفالح هو من بلغ في الآخرة ما يؤمل، فإذا اجتزىء في الإسلام بهذا القدر، وكان صاحبه من المفلحين، فهو يُسر لا شك فيه.

الوجه الثاني: قوله، ﷺ: (ولن يُشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه). هذا اللفظ من أبنية المفاعلة، من فعل بمقتضاه غلبه الدين، فإن شدد في دينه بحيث لم يبلغ به حدَّ المغالبة فقد خرج عن هذا النهي، وكان من القسم المحمود، لأن ذلك قوة في الدين، ورفعة في الهمم والمناصب لقوله، ﷺ:

- (١) رواه مسلم عن معاوية بن الحكم رضي الله عنه برقم ٥٣٧.
- (٢) التحيز: انضمام الأجزاء بعضها إلى بعض ووجودها في مكان.
- (٣) رواه الشيخان البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
- (٤) ضمام بن غَلْبَةَ السَّعْدِي من بني سَعْد بن بَكْر. قديم وقد ألقومه في السنة الخامسة الهجرية، وعاد مسلماً يدعو قومه للإسلام. يقول فيه عمر رضي الله عنه: ما رأيت أوجز ولا أصرح منه.
- (٥) متفق عليه من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وفي كل خير)<sup>(١)</sup>. فأفاد هذا الإخبار بأن الضعيف أقل مرتبة من القوي، وأن الضعيف له من الخير بقدر ما يخلص به نفسه، إذا وفي القدر المُجْزِئ من إيمانه، على ما تقدم قبل، فلم يخرج به، ﷺ، وإن كان ضعيفاً، من باب الأفضلية.

وهذا يدل بما يتضمن أن المطلوب الكمال، الذي هو القوة والترفق، فمن لم يقدر على الكمال فحيثنذ يرجع إلى ما هو أدنى منه قليلاً بقدر طاقته، ويحذر أن يأخذ في طرف الكمال حتى يبلغ به الحال إلى حد المغالبة، فيَقْلِبُ الدين، كما تقدم، لأنه إن تعمق في أخذ الوجهين المذكورين اللذين هما الإيمان والإسلام فالدين قد يغلبه بالضرورة، لأنه يفني عمره ولا يبلغ من أحدهما معشاره.

مثال ذلك في الإيمان من يريد أن يأخذ إيمانه بغير تقليد، فيشتغل بالاستدلالات والاستنباطات، فيفرغ منه العمر ولم يبلغ في ذلك ما أمل، وقد أقر بالغلبة هنا رئيس من أراد أن يأخذ الإيمان بغير تقليد، وهو أبو المعالي<sup>(٢)</sup> رحمه الله، فإنه حكى عن الثقات أنه قال: لقد خَلَّيت أهل الإسلام وعلومهم، وركبت البحر الأعظم، وغصت في الذي نهوا عنه، كل ذلك رغبة في الحق، وهروباً من التقليد، والآن قد رجعت من الكل إلى كلمة الحق، والويل لابن الجويني، يعني نفسه. فإذا كان هذا قول رئيس من أراد أن يأخذ بغير تقليد، وأقر بالعجز والغلبة، فكيف بمن جاء بعده يقفو أثره؟

ومثل ذلك من يريد أن يُوفي ما يجب للتربوية على العبودية من الحقوق، فهذا أيضاً يفني عمره وهو لم يبلغ معشار ما أمل، لأن الله، عز وجل، يقول في كتابه العزيز: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾<sup>(٣)</sup> وهذا لا يطبق البشر بعضه إلا وينقطع. ويكفي في هذا بياناً حديث عبد الله بن عمرو حين أراد أن يقوم الليل ويصوم النهار، فقال له، ﷺ (إنك لا تطيق ذلك)<sup>(٤)</sup>. هذا ما هو في أمرين من أمور الدين، فكيف به في باقي أجزائه على مقتضى التعظيم؟ فصدق عليه بالضرورة أن الدين غلبه.

وإنما الطريق المخلص والحال المحمود هو الأخذ بالكمال دون أن يصل إلى حد المغالبة. وكيفية ذلك في الإيمان أن يأخذ أولاً إيمانه بالجزم والتصديق على ما طُلب منه، وينفي عنه الشكوك، فإذا حصلت له هذه القاعدة وخلصت فحيثنذ يأخذ في النظر والاستدلال على مقتضى ما

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم ٢٦٦٤.

(٢) سلفت ترجمته في الحديث الثالث.

(٣) سورة آل عمران، من الآية ١٠٢.

(٤) رواه الإمام أحمد والبخاري والنسائي. (وقد أثر عن ابن عمرو رضي الله عنه أنه قال في آخر حياته: ليتني أخذت برخصة رسول الله ﷺ).

أمر الله تعالى في كتابه من النظر إلى ملكوت السماوات والأرض، ليكون ذلك دليلاً على وحدانيته عز وجل.

ومن ذلك ما في السماء من الكواكب على اختلافها، والشمس والقمر ومحافه<sup>(١)</sup> وكماله وغير ذلك، وما في الأرض من البقع واختلافها كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِزَةٌ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْصَانٍ زَرْعٌ وَنَحِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَصْرٌ صِنَوَانٌ﴾<sup>(٢)</sup> وكذلك ما فيها من المياه عذبها ومالحها كما قال تعالى: ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ نَاقِلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرٌ﴾<sup>(٣)</sup> وكذلك ما فيها من الثمار واختلاف طعمها مع كونها تُسقى بماء واحد، وتنب في بقعة واحدة كما قال تعالى: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ كُلُّهُمْ مِنْهُ عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾<sup>(٤)</sup>.

وهذا النظر والاستدلال على ما أشرنا إليه يكفي في كمال الإيمان، لأن الله، عز وجل، جعل ذلك لخليله، عليه السلام، سبباً لعلم اليقين، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾<sup>(٥)</sup>. ولهذا العلم أشار، عليه السلام، بقوله: (تعلموا اليقين فأني أعلمه)<sup>(٦)</sup>، ولم يقل ذلك في الإيمان، ولا طلبه جزءاً ابتداءً. فلما كان الأصل وهو الخليل لم يصل لعلم اليقين إلا بالدليل الذي ذكره، عز وجل، في كتابه، اتخذ النبي ﷺ، حالاً، ودلاً عليه سبيلاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾<sup>(٧)</sup>.

فمن أراد الزيادة على هذا الحد الذي به يبلغ علم اليقين فقد دخل في المغالبة، وهو لا يطبق ذلك، فغلبه الدين بالضرورة، إما لِقَصْرِ الزمان مع كثرة الأدلة، وإما لشك يعرض له أو شبهة. وكيفية ذلك في الإسلام أن يأخذ أولاً بالفرض من كل الجهات حتى يوفيه، فإذا وفي حينئذ فليأخذ من المندوب بقدر استطاعته، ولا يتغال في طرف من المندوب حتى لا يُخِلَّ بالآخر، لأن هذه هي المغالبة في الأعمال، وهي تؤول إلى الخسارة إلا أن يتداركه الله باللطف والتوبة.

(١) المحاق: ما يرى في القمر من نقص في جرمه وضوئه بعد انتهاء ليالي اكتماله.

(٢) سورة الرعد، من الآية ٤.

(٣) سورة فاطر، من الآية ١٢.

(٤) سورة الرعد، من الآية ٤.

(٥) سورة الأنعام، من الآية ٧٥.

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية من رواية ثور بن يزيد مرسلًا، وهو معضل (العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٧٢/١).

(٧) سورة آل عمران، من الآية ٦٨.

يشهد لهذا ما روي أن أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، لقي النبي ﷺ، يوماً فقال: يا رسول الله بماذا بُعِثْتَ؟ فقال رسول الله ﷺ: بعثت بالعقل. قال: ومَنْ لنا بالعقل يا رسول الله؟ قال: إن العقل لا حَدَّ له، ولكن مَنْ حَرَّمَ حرامَ الله، وحلَّ حلاله، سُمِّيَ عاقلاً، فإن اجتهد سُمِّيَ عابداً، فإن اجتهد سُمِّيَ جواداً، فإن اجتهد في العبادة وسمح في نوائب المعروف بغير حظٍّ من عقل يدلّ على اتباع ما أمر الله، واجتناب ما نهى الله، فأولئك ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيهِمْ فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾<sup>(١)</sup>.

وكذلك أيضاً إنَّ طالبَ نفسه بتوفية العبادات من كل الجهات إلى حَدِّ الكمال، فهذا أيضاً يقع في المغالبة من وجهين: (أحدهما): العجز لقوله، ﷺ: (إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضاً قَطَعَ، وَلَا ظَهراً أَبْقَى)<sup>(٢)</sup> لأن البشرية لا تحتل ذلك. (الثاني): أنه قد يجتمع عليه في وقت أو في جل الأوقات أنواع من الواجبات والمندوبات في زمن فردٍ، ولا يقدر إلا على أحدها. فقد وقع في المغالبة لأجل ما أخذ نفسه به. وإنما حال الكمال في هذا: أن يأخذ نفسه أولاً بما أشرنا إليه، ويعمل على متضمن الكلام على بقية الحديث، على ما سيأتي، إن شاء الله تعالى.

ولقائل أن يقول: لمَ لم يقل، عليه السلام: ولن يُشَادَّ (رجل أو امرأة) وقال بدله (أحد)؟ قيل له: ذلك يدل على فصاحته، وبلاغته، لأن (أحداً) في اللفظ أقل كلاماً، وأكثر فائدة، ولأنه يطلق على الذَّكَر والأنثى، والقوي والضعيف، والحر والعبد، والعالم والجاهل، والعَلِيّ والدُّنْي، على اختلاف أحوال العالم.

الوجه الثالث: قوله، ﷺ: (فَسَدُّوا وَقَارِبُوا). احتمل أن يكون هذان اللَّفْظَانِ لمعنى واحد، واحتمل أن يكونا لمعنيين.

فإن كانا لمعنى واحد فيكون المراد بهما الأخذ بالحال الوسط، لأن السداد والتقريب هو ما قارب الأعلى، ولم يكن بالدُّون، فهو متوسط بينهما.

وإن كانا لمعنيين فيكون المراد به (سدُّوا) الأخذ بالحال الوسط، على ما تقدم، والحال الوسط هو ما نصَّ النبي، ﷺ، عليه في حديث عبد الله بن عمرو حين قال له النبي، ﷺ: (صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، وَإِنْ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلَاهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا)، ثم عمَّم بعد ذلك فقال: (وَأَعِطْ

(١) لم نعرف مصدر الحديث. أما الآية الكريمة فهي في سورة الكهف، من الآية ١٠٤.  
(٢) رواه البيهقي في السنن وفي شعب الإيمان. قال الزبيدي: فيه اضطراب. روي موصولاً ومرسلاً ومرفوعاً وموقوفاً. والمنبت: هو من جهد دابته حتى أعبت. والحديث يقال لمن يبالغ في طلب الشيء ويفرط حتى ربما يفوته على نفسه.

لكل ذي حقِّ حقّه). فهذا هو السداد، وهو أن يمشي المرء في الأمور كلها على ما فرض وندب من غير تغالٍ ولا تقصير في جهة من الجهات.

ويكون المراد به (قاربوا) أي من بلغ منكم إلى حد السداد، الذي هو ما ذكرناه، ويعجز عن ذلك لعذر به فليقارب منه، لأن ما قرب من الشيء أعطي حكمه، وهذا بشرط ألا يقع بهذا التقريب خلل ولا نقص في شيء من الواجبات، لأن الواجب إذا كان فيه شيء من ذلك لم يجز، وغيره من المندوبات لا يقوم مقامه، بل إنه لا يطلق عليه أنه قارب إلى السداد إلا بعد توفية الواجبات من كل الجهات، ثم يأخذ من المندوب بعد ذلك ما يستطيع عليه ويعجز عن الوصول إلى حد السداد المذكور لعجز، إما لمرض أو غيره، فحينئذ يطلق عليه: أنه قارب.

وقد نصّ، عز وجل، على هاتين الطائفتين معاً في كتابه، أعني: الطائفة التي أخذت بالسداد، والطائفة التي أخذت بالتقريب، فقال تعالى في حق الطائفة الأولى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾<sup>(١)</sup> وقال في حق الطائفة الثانية التي لم تستطع الوصول لذلك المقام، لكنهم قاربوا إليه ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد نضرب لهذا مثلاً ليكون أسرع للفهم، أعني في كيفية السداد وفي كيفية التقريب. فمثال ذلك أن يأتي الطالب أولاً لطلب العلم، ويعمل جهده على أن يكون من العلماء، فإن قدر على ذلك فيها ونعمت، لأنه يكون بذلك في الطائفة التي أخذت بالكمال، وهو السداد، فإن عجز عن ذلك فلا يخلي نفسه من طرف منه بحسب ما استطاع، لأن النبي، ﷺ، قال: (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)<sup>(٣)</sup>، فيكون قد أخذ بالتقريب حين عجز عن التسديد.

وكذلك أيضاً يأخذ نفسه في التعبّد بعد توفية الفرائض، وإن قدر أن يكون من العابدين فليفعل، لأن الله، عز وجل، يقول على لسان نبيه، ﷺ (لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها)<sup>(٤)</sup>، فإن عجز أن يكون من العابدين فلا يخلي نفسه من طرف منه، لإخباره، عليه السلام، أنه (إذا كان يوم

(١) سورة الواقعة، الآيتان ١٠ و ١١.

(٢) سورة النساء، من الآية ٣١.

(٣) رواه ابن ماجه. وقال في الزوائد: إسناده ضعيف. وقال السيوطي كما نقل محقق مصابيح السنة: سئل النووي عن هذا الحديث فقال: ضعيف. وقال تلميذه المزي: هذا الحديث روي من طرق تبلغ رتبة الحسن. وقال الشيخ أبو غدة في تحقيق الأجوبة الفاضلة: صححه السيوطي ولم يسبق بتصحيحه، وعده من المتواتر، حيث ذكره في الأزهار (النظم المتناثر ٢٦/٢٧).

(٤) جزء من حديث أخرجه البخاري مرفوعاً في الرقاق، ومطلعه: من عادي لي ولياً.

القيامة يُنظر إلى صلاة العبد، فإن وَفَى وإلا قال تعالى: انظروا إن كان له نافلة فأكملوها له منها<sup>(١)</sup>، وكذلك في جميع الفرائض إذا نقص منها يُنظر في النفل الذي هو من جنس ذلك الفرض الذي نقص فيُجبر منها. فالمقتصر على الفرض، التارك للأخذ بالتقريب الذي أشرنا إليه هنا، يُخاف عليه من عدم التوفية، فيستحق العذاب.

يدل على ذلك ما روي أن النبي ﷺ، رأى رؤيا في منامه، وكان مما رأى فيها رجلٌ يُشدخ<sup>(٢)</sup> رأسه، فسأل عنه، فقيل له: رجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار، يُفعل به ذلك إلى يوم القيامة<sup>(٣)</sup>. ومعلوم أن قيام الليل ليس بواجب، وكيف يعذب على ما ليس بواجب، والعذاب لا يقع إلا على ترك الواجب، أو وقوع الخلل فيه؟ لكنه، وإن كان قيام الليل مندوباً، فالعذاب إنما يقع على وقوع الخلل في الواجب. بيان ذلك: أنه لما لم يكن ليعمل فيه بالنهار فقد أخلّ بالواجب، وهو لم يعمل المندوب الذي هو قيام الليل من حيث أن يجبر له الفرض به، فوقع العذاب على ترك الواجب في الحقيقة، وهو في الظاهر عليهما معاً.

ثم كذلك أيضاً: إن قدر أن يكون من الموقنين بعد توفية الإيمان المجزئ فليُفعل، فإن عجز عنه فلا يُخلّي نفسه من طرف منه، لقوله، عليه السلام: (تعلموا اليقين فأني أعلمه).

وقد حصل بما أشرنا إليه كفاية في ضرب المثال لما أردنا بيانه في التسديد والتقريب فترجع الآن إلى الكلام على الحديث.

الوجه الرابع: قوله، عليه السلام: (وأبشروا) البشارة هنا على ضربين (أحدهما) معلوم محدود، و (الثاني) معلوم لا حد له.

فأما المعلوم المحدود فهو ما يُرجى من قبول الأعمال والثواب عليها، لأن الثواب عليها محدود بإخبار الشارع، عليه السلام، على ما نقل عنه، وقد قال عز وجل، في كتابه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ<sup>(٤)</sup> وقال عز وجل: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾<sup>(٥)</sup>. وأما المعلوم الذي هو غير محدود فهو ما وعد عز وجل في كتابه حيث قال: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾<sup>(٦)</sup> فالزيادة معلومة عند الله تعالى، مجهولة عندنا.

(١) رواه النسائي والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يشدخ: يشق.

(٣) رواه البخاري ومسلم (وسيرد شرح له).

(٤) سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و ٨.

(٥) سورة الأنبياء، من الآية ٤٧.

(٦) سورة النساء، من الآية ١٧٣.

وفيه دليل على أن البشارة إنما تكون للعاملين، لأنه، عليه السلام، لم يقل (أبشروا) إلا بعد ما نصّ على العمل الذي يوجب البشارة، وهو التّسديد والتقريب لمن عمل بهما، فأتى بالبشارة للعاملين بذلك، وهو مثل قوله تعالى، في كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>، فنصّ، عزّ وجلّ، على أن من فعل ما ذكره من الأعمال هو الذي يرجو رحمته، عزّ وجلّ. وكذلك فيما نحن بسبيله، من أخذ بالتسديد والتقريب، على نحو ما تقدم، فهو الذي يستبشر.

ولقائل أن يقول: لِمَ قال عليه السلام (أبشروا) ولم يقل: أيقنوا؟ والجواب من وجهين:

(الأول): أن الإيقان قَطْعٌ بالأمر، والقطع لا يكون إلا لله وحده، وإنما لغيره قوة الرجاء لا غير، لأنه ليس للعبيد حق وجوب على الإله، وإنما هو من طريق الفضل والمنّ، وما كان من طريق الفضل والمنّ فلا يطمع فيه إلا بقوة الرجاء، لا أنه يكون حتماً، وقد قال الله تعالى، في كتابه: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup>. فتكون قوة الرجاء في هذا الوعد بحسب ما يرجى من عظيم الفضل اللائق بالجلال والكمال.

(الثاني): أن ذلك سُدٌّ للذريعة، لأنه لو قال: (أيقنوا) لحصل به للضعفاء اغترار، وهو عين الهلاك، وربما يكون ذلك سبباً للتقصير في العمل مع كونه مهلكاً، وهذا بخلاف البشارة، لأن البشارة رجاء، ونفس الرجاء يشرح الصدر، وينشط للعمل، وتنتعش به الروح الأبية.

الوجه الخامس: قوله، عليه، السلام: (واستعينوا بالغُدوة والزَّوْحَة وشيء من الدَّلْجَة). الاستعانة هنا تنقسم ثلاثة أقسام: مستعين، ومستعان به، ومستعان عليه. فالمستعين هو المؤمن. والمستعان به أصله إعانة بعض لبعض لغرض ما من الأغراض، كما روي في الحديث (ويعين الرجل على دابته يحمله عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة)<sup>(٣)</sup> أي يحمله له حتى يبلغه للموضع الذي أمل. والاستعانة هنا على وجهين: استعانة بالزمان واستعانة بالعمل.

فأما الاستعانة بالزمان فهي ما في طَرْفِي النهار من اعتدال الهواء ونشاط النفس فيهما، وما روي أن العمل فيهما أزكى مما في غيرهما. قال، عزّ وجلّ، في كتابه خطاباً لنبيه، عليه السلام: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغُدُوَّةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾<sup>(٤)</sup> وقال تعالى على لسان

(١) سورة البقرة، من الآية ٢١٨.

(٢) سورة التوبة، من الآية ١١١.

(٣) متفق عليه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سورة الكهف، من الآية ٢٨.



نبيه، عليه السلام: (أذكرني ساعة بعد الصُّبح وساعة بعد العصر أَكْفِكَ ما بينهما)<sup>(١)</sup>. والدَّلْجَةُ أيضاً كذلك لأن الدَّلْجَةَ هي آخر الليل. وآخر الليل هو أبداً للبدن أقوى، لأنه قد أخذ راحته من النوم والغذاء، وقد ورد فيه من الفضل كثير. فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (يَنْزِلُ رَبُّنَا تَلًّا لَيْلَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا - وفي رواية: كلَّ ليلة في ثُلث الليل الأخير - فيقول: هل من داعٍ فاستجب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه)<sup>(٢)</sup>؟ فإذا كان، عزَّ وجلَّ، ينادي هكذا كلَّ ليلة في آخرها فمحال أن يدعو أحد إذ ذاك، أو يتوب، أو يستغفر، فَيُرَدِّدَ، لأن الله لا يُخْلِفُ الميعاد. والمراد بالتزول هنا نزول طَوَّلٍ وَمَنْ وَرَحْمَةٍ، دون حلول ولا انتقال.

وأما الاستعانة بالأعمال فهي أن تُعَمَّرَ هذه الأوقات المذكورة بأنواع الطاعات، وإذا عُمرت بذلك لم يبق بعدها إلا الأوقات التي جُعِلَت للراحات، وهي ما نصَّ، عزَّ وجلَّ، عليها في كتابه حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَذِينَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾<sup>(٣)</sup>.

فعلى هذا فمفهوم هذا الحديث ما نصَّ، عليه السلام، عليه في حديث آخر حيث قال: (رَوَّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ)<sup>(٤)</sup>، لكنه، عليه السلام، زاد في الحديث الذي نحن بسبيله تعيينَ الأوقات التي جعلت للعبادة، أي جُعِلَت العبادة فيها أفضل من غيرها من سائر الأوقات.

وإذا قلنا بهذا - وهو أن المطلوب عمارة هذه الأوقات بالطاعات - فهل ما يُعَمَّرُ بها من الأعمال معيَّن أو غير معيَّن؟ احتمل الوجهين معاً.

فإن قلنا بالتعيين فهي الصلاة، لأنها هي التي تَسْبِقُ للذهن. وإذا قلنا بأنها الصلاة فما الحكمة في تعيينها دون غيرها؟ فنقول - والله أعلم - إنها إنما اختصت بهذه الأوقات، وجعلت سبباً للاستعانة لما فيها من التعظيم لله، والافتقار إليه، والدعاء واللُّجَأُ إليه، وما فيها من أنواع الخير، على ما سيأتي بيانه في موضعه من داخل الكتاب، إن شاء الله.

وإن قلنا بعدم التعيين فيكون ذلك من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى؛ لقوله، عليه السلام:

(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سورة النور، من الآية ٥٨.

(٤) رواه الديلمي ٣٧٨/٢ برقم ٣٠٠٤ وعزاه الجامع الصغير لأبي داود في مراسيله. وروى مسلم عن حنظلة بلفظ: يا حنظلة ساعة وساعة.

(مَوْضِعُ الصَّلَاةِ مِنَ الدِّينِ مَوْضِعُ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ)<sup>(١)</sup>، وهذا هو الأظهر، والله أعلم، لأنه قد تُفَرِّضُ في بعض الأوقات أعمالاً تكون أفضل من الصلاة بحسب الأحوال، وهي كثيرة تتعدد.

فعلى ما ذكرناه من هذا التعليل يترتب عليه من الفقه وجهان:

(أحدهما): اغتنام نشاط النفس وخلو الشغل. وقد نص، عليه السلام، على ذلك حيث قال: (اغتنم خمساً قبل خمس) وعدّها منها: (فراغك قبل شغلِك) ~~وخمسة قبل ستتك~~.

~~والثاني: اغتنام الفراغ من العمل والعبادة، وقد نص، عليه السلام، على ذلك حيث قال: (أبردوا بالصلاة)<sup>(٢)</sup>.~~

وأما المستعان عليه فهو يحتمل وجوهاً: (الأول): وهو أهمّها، صلاح الحال في الدنيا والفلاح في الآخرة، وهو بلوغ ما يؤمل من الخير، على ما نص عليه العلماء. (الثاني): أن يكون عائداً على التسديد والتقريب. (الثالث): أن يكون عائداً على البشارة وما تتضمن، إلى غير ذلك من الوجوه، على مقتضى ما يحتمله الحديث، على ما أذكره بعد، إن شاء الله تعالى.

هذا ما تضمنه البحث على هذا الوجه، إن كان المراد بالدين (الإيمان والإسلام) معاً. ثم نرجع الآن على ما اشترطنا إلى بيان الوجه الثاني، فنقول:

## الوجه الثاني

الأول منه: قوله، عليه السلام: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ) قد يريد به الإسلام دون غيره، وهي أفعال الدين على ما بيّناه.

بيان ذلك: أن الخطاب بالحديث إنما كان للمؤمنين، والإيمان قد كان حاصلًا، وإذا كان المراد به الإسلام فالكلام على بقية ألفاظ الحديث تَضَمَّنَهُ الكلام على الوجه قبله، فأغنى عن إعادته.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ) قد يريد به أن الشيء الذي وُعدتم أنكم تتخلّصون به من الأعمال، وَضُمِّنَتْ لكم به النجاة، هو توفية ما فُرض عليكم.

(١) جزء من حديث رواه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر رضي الله عنه، بلفظ: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا صلاة لمن لا طهور له، ولا دين لمن لا صلاة له. وموضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد.

(٢) رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه الإمام مالك والإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الوجه الثالث: قوله، عليه السلام: (ولن يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ) أي لا تُوْغِلُوا في المندوبات فيؤول بكم الأمر إلى أن تُخْلُوا بالفرائض فيغلبكم الدِّينُ. ومثال هذا من يُكثِر في طرف من المندوب ويترك شيئاً واجباً عليه من طرف آخر لم يفعله، وكذلك أيضاً من يتوسوس في الطهارة حتى يفضي به الأمر إلى إيقاع الخلل فيها، وكذلك في سائر التَّعَبُّدَات إن تعمق فيها حتى يُخِلَّ بالفرض منها فَيَقْدِرُ عَلَيْهِ الدِّينُ لِأَنَّ الدِّينَ هُوَ الْأَصْلُ الذي يتقرب به إلى ربه قد أُخِلَّ به، ولا يسوغ أن يتقرب بالفرع مع عدم توفيه الأصل، لأن الله، عز وجل، يَقُولُ عَلَى كَسَاكَ بِيَهُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ. لَكِنَّ يَلْكُوبَ إِلَى الْكَلْبِ يَوَلَّى بِأَحَبِّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ. ثم لا يزال العبد يتقرب إلى بالتوافل حتى أحبه، فإذا أحبه كنتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وبصره الذي يُبْصِرُ به، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها<sup>(١)</sup>. وفي هذا إشارة إلى التربية بالتدريج في السلوك والترقي، ومنع الأخذ بالقوة أولاً في التَّعَبُّدَات من نوافل الليل والنهار وغير ذلك، لأن من يأخذ بذلك في بداءة أمره يغلبه الدِّينُ بالضرورة لقلة الرياضة فيما أخذ بسبيله.

ومثل هذا ما روي أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فَقَدَ سُلَيْمَانَ بْنَ أَبِي حَثْمَةَ<sup>(٢)</sup> في صلاة الصبح، فلما كان من الغد مرَّ على الشَّفَاءِ أُمِّ سُلَيْمَانَ، فقال لها: لم أر سليمان في الصبح. فقالت: إنه بات يصلي، فغلبته عيناه. فقال عمر: لأن أشهد صلاة الصبح في الجماعة أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُومَ لَيْلَةً.

فانظر كيف فَضَّلَ حُضُورَ الصَّلَاةِ في الجماعة على قيام الليل كله، مع أن قيام الليل فيه من المشقة ما هو معلوم، لكن لما أن كان ذلك القيام كله من جنس المندوب، وآل أمره إلى أن أوقع الخلل في فَضْلٍ مِنْ فَضَائِلِ الْمَفْرُوضَاتِ كرهه عمر، رضي الله عنه. فلو قام من الليل بعضه، ونام بعضه، وَحَضَرَ الصَّلَاةَ فِي جَمَاعَةٍ، لَكَانَ مِنَ الْآخِذِينَ بِالْكَمَالِ، وَلَمْ يَقَعْ عَلَيْهِ بِذَلِكَ غَلْبَةٌ فِي نَقْصِ فَضِيلَةٍ، وَلَا غَيْرَهَا. فإذا أخذ المرء أولاً نفسه بالرفق والرياضة في تعبداته حتى يصير له ما أخذ من ذلك عادة، كانت العبادة عليه يسيرة، لا مشقة عليه فيها حتى يبلغ بها النهاية، وهو كأنه لم يزد على نفسه شيئاً كما يروى عن ابن السَّمَاكِ<sup>(٣)</sup>، رحمه الله، وهو من أحد شيوخ الرسالة، أنه انتهت به نافلته في دكانه مع بيعه ألف ركعة في اليوم.

- 
- (١) رواه البخاري مرفوعاً في الرَّقَاقِ، ومطلعه: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ.
- (٢) سليمان بن أبي حَثْمَةَ: هاجر صغيراً مع أمه الشَّفَاءِ، وكان من فضلاء المسلمين وصالحينهم، واستعمله عمر رضي الله عنه على السوق، وهو معدود من كبار التابعين.
- (٣) اسمه: عبد بن أحمد الهروي ثم المكي المعروف بابن السَّمَاكِ المالكي. توفي سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٣م. محدث، حافظ، صوفي. أصله من هراة، وسمع ببغداد والبصرة وهراة وسرخس وبلخ ومرو ودمشق ومصر. وحدث بخراسان وبغداد. وجاور بمكة وبها توفي. من مصنفاته: تفسير، ومستدرک على الصحيحين، والسنة والصفات، ومناسك الحج، ودلائل النبوة، وفضائل القرآن، وفضائل مالك، وكتاب الجامع، وكتاب الدعاء، وكتاب شهادة الزور، وكتاب العيدين، ومعجمان أحدهما فيمن روى عنهم الحديث، والثاني فيمن لقيهم ولم يأخذ عنهم.

الوجه الرابع: قوله، عليه السلام، (فَسَدُّوا وَقَارِبُوا) أي قاربوا الجد، ولا تأخذوا الأخذ الكلِّي الذي تَصِلُون به إلى المشادة فيغلبكم الدِّين. و (سدّدوا) أي: ليكن جذُّ كلِّ شخص على ما تقتضيه بِنِيَّتِهِ وطاقته ومزاجه.

ومن هذا الباب راح كثير من العباد، لأنهم يأخذون أنفسهم أولاً بأن يعاندوا من ليس مثلهم من أهل النهايات، فيأخذوا مأخذهم، ويسلكوا مسلكهم، فيقطع بهم في الحال عنهم، لأنه قد يكون مَنْ أَرَادُوا التَّشَبُّهَ به أكثر قوة في بدنه منهم، وأعدل مزاجاً، وأخذ نفسه أولاً فيما هو بسبيله الآن بالتدرّج في السلوك والترقي، حتى صار له ما هو بسبيله من التعبد مزاجاً، كما حكيناه عن ابن السماك، ولهذا قال يُمْنُ بن رزق<sup>(١)</sup> - رحمه الله - الإمام في الطريقين - : (حذارِ حذارِ، أهل البدايات، أن تَتَشَبَّهُوا بأهل النهايات، فإن هناك مقاماتٍ لم تُحَكِّمُواها). فعلى هذا فالشأن الذي يُبلغ به المقصود، إن شاء الله، ويكون صاحبه من أهل السداد أن يُحَكِّمَ أولاً الخَمْسَ التي فُرِضت عليه، وهي السَّيْرُ بواجباتها ومندوباتها والمحافظة عليها. فإذا رجع له ذلك مزاجاً أخذَ إذ ذاك بالرفق والسداد على ما أشرنا إليه، في النوافل.

الوجه الخامس: قوله، عليه السلام: (وأبشروا). البشارة هنا هي لمن زاد على الفرض، ولم يقتصر عليه، لأن الفرض قد جاء فيه ما جاء من الوعد الجميل في الكتاب والسنة في غير ما موضع. فإن حملنا البشارة هنا على ذلك فهو تحصيل حاصل، ونكون قد حملنا ألفاظاً جملةً على معنى واحد، وليس ذلك بالمَرْضِي عند العلماء، وإنما يحمل كل لفظ على فائدة أو فوائد دون غيره من الألفاظ، إن وُجِدَ لذلك سبيل، وكفى في هذا دليلاً قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ولا ذاك إلا في النفل دون الفرض، والبشارة هنا على معنيين:

(الأول): هو أنه إذا أخذ بعد الفرض بالسير من النفل فَلْيَسْتَبْشِرْ بالزيادة، لمقتضى قوة البشارة، حتى يبلغ ما أمل من الأحوال الشريفة والمنازل المنيفة، بلا كلفة، لأن حقيقة البشارة لا تكون إلا في المستقبل، والبشارة بما قد وُعد تحصيل حاصل. وإنما سميت بشارة مجازاً لا حقيقة، وإنما البشارة الحقيقية مثل ما تضمنه إخباره، عليه السلام، لكعب بن مالك<sup>(٣)</sup>، أحد الثلاثة الذين

(١) يمن بن رزق: إمام الطريقين. أصله من طليطلة. له مستدرک على الصحيحين، وقضاء مالك، وكتاب التوبة. حدّث في بغداد وخراسان. وجاور بمكة، وفيها توفي سنة ٣٦٠هـ-٩٧٠م.

(٢) سورة السجدة، من الآية ١٧.

(٣) كعب بن مالك: أنصاري خزرجي صحابي. من أهل المدينة، من أكابر الشعراء، وكان من شعراء النبي ﷺ. شهد العقبة وأحداً والمشاهد كلها إلا تبوك فإنه تخلف عنها، وهو أحد الثلاثة الأنصار الذين قال الله فيهم: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ...﴾ الآية. وهم: كعب بن مالك وهلال =

خَلَفُوا حَيْثُ تَبَّ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: (أَبَشِّرْ يَا كَعْبُ بِخَيْرٍ يَوْمَ طَلَعَتْ عَلَيْكَ فِيهِ الشَّمْسُ)<sup>(١)</sup>. هذه هي البشارة الحقيقية، وهي خَفِيَّةٌ دَقِيقَةٌ، لأنَّ ظاهر اللفظ قد يستشكله السامع، وقد استشكله بعض العلماء، وقال: كيف يكون هذا خَيْرَ يومٍ طلعت عليه فيه الشمس، وقد تقدمه يومُ إسلامه، وهو خروجه من الكفر إلى الإيمان؟ وهذا القائل قد توهم أن هذا إشكال في الحديث، وليس ذلك بإشكال.

بيان ذلك: أنه أعقَبَ يومَ إسلامه بهذا الذنب العظيم الذي استوجب به هُجْرَ النَّبِيِّ ﷺ، له والصحابَة. فلما تبَّ عليه هذه التوبة التي علم النَّبِيُّ ﷺ، أنه لا معصيةَ بعدها، أخبره، عليه السلام، بأن ذلك خيرُ يومٍ طلعت عليه فيه الشمس؛ لأنه لم يقع منه بعد ذلك معصية ولا مخالفة، والتزم الصدق والعبادة حتى قبضه الله إليه على أحسن حال. فلو أراد النَّبِيُّ ﷺ، البشارة في الماضي، لقال: (أَبَشِّرْ فَقَدْ غُفِرَ لَكَ وَتَبَّ عَلَيْكَ) وتحصل بذلك الكفاية. ولكن لما أن أراد، عليه السلام، البشارة في المستقبل أتى بصيغة ما ذكر. ولأجل ما فهم الصحابي من هذه البشارة خلق إذ ذاك ثيابه ولم يكن ليملك غيرها، فأعطاها في البشارة، لعلمه بعظيم ما بُشِّرَ به.

وكل بشارة وردت من الشارع، عليه السلام، مبهِمَةٌ، فالمراد بها ما ذكرناه من مقتضى هذه البشارة. ولهذا قال أهل السلوك فيمن بلغ بعض المنازل فدام عليه بأدبه: إنه يترقى إلى ما هو أعلى منه، فما دام على هذه الحال لا يزال في ترقٍّ حتى يبلغ غاية المنازل الرفيعة، عملاً منهم على مقتضى البشارة، وهي ما ذكرناه.

(الثاني): هو أنه إذا أخذ بتوفية الفرض، وما تيسر عليه من النفل، فدام على ذلك، ولم يزد في عمله شيئاً، فنفس البقاء على ذلك زيادة، وهي: البشارة. يؤيد هذا قوله، عليه السلام، حين أخبر عن الأخوين اللذين مات أحدهما قبل صاحبه بأربعين ليلة، فذكرت فضيلة الأول بين يديه، عليه السلام، فقال، عليه السلام: عن الآخر: (وما يُدْرِيكُمْ ما بَلَغَتْ به صَلَاتُهُ؟ إنما مثْلُ الصَّلَاةِ كَمَثَلِ نَهَرٍ عَذْبٍ، غَمْرٍ<sup>(٢)</sup>، يبابِ أحديكم، يَقْتَحِمُ فيه كُلُّ يَوْمٍ خُمْسَ مَرَاتٍ، فما تَرَوْنَ ذلك يُبْقِي من دَرَنِيهِ؟ فإنكم لا تَدْرُونَ ما بَلَغَتْ به صَلَاتُهُ)<sup>(٣)</sup>. ولهذا قال أهل السلوك: الدوام على الحال فيه زيادة وترقٍّ، عملاً بالحديث الذي أوردناه.

= ابن أمية ومرارة بن ربيعة قتابة الله عليهم، وعذَرَهُمْ، وَغَفَرَ لَهُمْ، ونزل القرآن المثلُّ في شأنهم. وكان كعب بن مالك يوم أُحُدٍ لبس لأمة النَّبِيِّ ﷺ وكانت صفراء، وليس النَّبِيُّ ﷺ لَأَمَتَهُ (تمويهاً للأعداء) فجرح كعب بن مالك أحدَ عشرَ جرحاً. وتوفي كعب سنة ٥٠هـ / ٦٧٠ م.

(١) متفق عليه. ولفظه: أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك.

(٢) غَمْرٌ: الغمر من الماء خلاف الضُّحْل، وهو الذي يعلو من يدخله ويغطيه.

(٣) رواه الإمام مالك والإمام أحمد بإسناد حسن وصححه ابن خزيمة.

الوجه السادس: قوله، عليه السلام: (واستعينوا بالغَدوةِ والرَّوْحَةِ وشيءٍ من الدُّلْجَةِ).  
(استعينوا بالغَدوةِ) أي: بصلاة الضحى، و (الرَّوْحَةِ) أي: الصلاة بين الظهر والعصر و (الدُّلْجَةِ)  
أي: قيام آخر الليل.

فإن قال قائل: لم عمّ، عليه السلام، الوقتين جميعاً وجعل من الثالث البعض؟  
قيل له: إن هذين الوقتين قريبان محدودان، وهما معاً جزء من النهار، وآخر الليل جزء من  
الليل. لكنه غير محدود، وإن كان عليه السلام، قد حدَّ الفضلَ فيه في حديث داود، عليه السلام،  
حيث قال: (أفضلُ الصلاةِ صلاةُ داود، عليه السلام، كان ينام نصفَ الليل، ويقوم ثلثه، وينام  
سُدُسَه)<sup>(١)</sup>. فالحد إنما حصل على الأفضلية، وما نحن بسبيله إنما وقع على الإجزاء الذي به  
تحصل الاستعانة. فمن قدر على الأخذ بالأفضل، فَبِهَا ونَعَمَتْ، وإلا فقد أخذ بالإجزاء الذي  
يستعين به، وهذا من باب التوسعة، لأن ذلك وقت نوم وأعدار، وليس النهار كذلك. وفي هذا دليل  
على التحريض على تعمير هذه الأوقات بأنواع العبادات، إذ إنَّ ذلك مما يُستعان به، وما يستعان به  
لا يُترك، لأنه إن ترك ما يستعين به خيف عليه ألا يبلغ ما أمل. ولهذا استُجِبَ له الابتداء أولاً باليسير  
أبدأً، ويعمل عليه، ويكون ذلك دأبه، لئلا يخلي نفسه من الاستعانة. فإن وجد النهاية لم يتركها،  
وإن حدث له ضعف أو شغل لم يترك قدر ما يطلق عليه اسم (الاستعانة).

وقد نص، عليه السلام، على هذا المعنى الذي أبديناه في غير هذا الحديث حيث قال: (لِكُلِّ  
عابِدٍ شِرَّةٌ، ولكل شِرَّةٍ فِتْرَةٌ، فطوبى لمن كانت فترته إلى سُنَّةٍ)<sup>(٢)</sup>. والسُنَّةُ التي هي الفترة هي ما  
أشار إليها، عليه السلام، في هذا الحديث من الأخذ بالتعبد في هذه الأوقات اليسيرة. فسبحان مَنْ  
مَنَّ علينا بالخير به، وعلى يديه.

وفي هذا دليل لأهل السلوك والتربية حيث يستحبون أن تكون البداية أولاً في الليل وفي النهار  
ركعتين ركعتين، ثم يزيد على ذلك ما يشاء، وبحسب النشاط، لئلا يخلي نفسه من الاستعانة، كما  
تقدم، حتى يبلغ بالتدرّج ما أمل، لأن من أخذ من هذه الأوقات بقدر طاقته من العبادات ترقى إلى  
ما شاء الله من المراتب السنية، ولا يدركه في ذلك تعب. فإذا أخذ بذلك كان أبدأً في الترقى  
بالزيادة، تاركاً للنقص حتى يبلغ بذلك إلى نهاية ما يقتضيه حال البشرية.

وذلك مثل ما حكى عن بعض الفضلاء أنه أتاه أخ له يزوره، فوجده يصلي الظهرَ، فجلس  
ينتظر فراغه من صلاته، فلما فرغ من الصلاة قام إلى النَّقْلِ، فجلس ينتظر فراغه من التنفل. فما زال

(١) متفق عليه من عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) الشِّرَّةُ: الحِدَّةُ، والنشاط. والحديث رواه الإمام أحمد وابن حبان والترمذي وقال: حسن صحيح غريب.

كذلك إلى صلاة العصر، فصلّى العصر ثم جلس للذكر، فخاف أن يقطع عليه ذكره، فجلس ينتظر فراغه، فما زال كذلك إلى صلاة المغرب، فقام إلى الصلاة، فلما فرغ منها قام إلى التنفل، فخاف أن يقطع عليه تنفله، فجلس ينتظر فراغه، فما زال كذلك إلى صلاة العشاء، فلما فرغ منها قام إلى التنفل، فجلس ينتظر فراغه من التنفل. فما زال كذلك إلى الصباح، فقام إلى صلاة الصبح، فلما فرغ منها جلس إلى الذكر، فجلس ينتظر فراغه. فبينما هو جالس في مصلّاه لذكره غلبته عيناه قليلاً، ثم استيقظ من حينه فجعل يمسح عينيه، ويقول: أستغفر الله، أعوذ بالله من عين لا تشيع من النوم. فانظر لما صار به من الحال، وهو يتنعم بذلك؛ لأنه لولا الحلاوة التي وجدها في العبادة لما جعل هذه السنّة التي لا تنقض الطهارة ذنباً يستغفر منه، فزال عنه التعب والمشقة اللذان يدركان البشر من ذلك، ورجع له عوض الحلاوة والتنعم، وذلك ببركة الرفق والرياضة في التربية في السلوك.

نسأل الله أن يمنّ علينا بما مرّ به عليهم، وأن يعيد علينا من بركاتهم.

ثم نرجع الآن إلى البحث المتقدم والكلام على الوجه الثالث:

### الوجه الثالث

الأول منه: قوله، عليه السلام: (إن الدين يُسر) قد يريد به أن ما تديّنتم به بالنسبة إلى من كان قبلكم يُسر، وما كُلفتم إلا بما تُطيقون، لأن الله، عزّ وجلّ، قد رفع عن هذه الأمة الإضرّ الذي كان قد جعل على الأمم الماضية، فجعل لهم عند الضيق المخرج. مثال ذلك: ما شرع لنا في التوبة، وهو الندم والإقلاع والاستغفار، وقد كانت لمن قبلنا بالقتل. وكذلك أيضاً النجاسة، طهارتها بالغسل، ولمن قبلنا بالقطع والمقراض. وكذلك أيضاً تحلّة اليمين بالله، شرعت لنا ولم تشرع لمن كان قبلنا. وكذلك أيضاً أكل الميتة. وكذلك أيضاً لو كلفنا الله، عزّ وجلّ، بما لا نطيق لكان ذلك سائغاً، لأنه الحاكم القاهر، لا رادّ لما قضى، ولكن بفضلّه، عزّ وجلّ، ومنته عافانا، فلم يكلفنا إلا قدر استطاعتنا فقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾<sup>(١)</sup> ومن كُلفَ قدرٌ وسعِه فهو يُسرُّ عليه لا تعسير.

ومثال ذلك أنه، عزّ وجلّ، عفا عن الخطأ والنسيان وحديث النفس وما استُكْرِهنا عليه. وكذلك أيضاً شرع لنا، عزّ وجلّ، عند العجز عن القيام في الصلاة القعود، وعند العجز عن القعود الاضطجاع، وعند العجز عن التحرك الإيماء. وكذلك شرع لنا، عزّ وجلّ، التيمّم عند عدم الماء،

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٨٦.

وَقَصَّرَ الصَّلَاةَ فِي السَّفَرِ وَالْفِطْرِ فِيهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَهُوَ كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ. وَقَدْ قَالَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَتُهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عِزَاتُهُ) <sup>(١)</sup>.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام: (وَلَنْ يَشَاءَ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ) يريد أن من شدد على نفسه بالأخذ بالأشد، وترك ما رُخِّصَ له فيه، فقد شَاءَ الدين، وإذا شَاءَ الدين غَلَبَهُ الدين، ومثال ذلك من شدد على نفسه فترك اليمين المشروعة وحلف بالمشي إلى مكة، والطلاق والعَتَاق، وترك التيمم عند العجز عن الطهارة بالماء، وأراد القيام في الصلاة مع العجز عنه، إلى غير ذلك، وهو كثير، فيريد الأخذ بالكمال في كل الجهات، ويترك الرخص. فمن فعل هذا فقد شَاءَ الدين، فيغلبه الدين لأجل ما أدخل على نفسه. وقد ذم، عز وجل، مَنْ فعل ذلك من الأمم الماضية، فقال، عز من قائل: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ <sup>(٢)</sup>.

الوجه الثالث: قوله، عليه السلام: (فَسُدُّوا وَقَارِيَا). (قاربوا) أي: قاربوا أولاً بالأخذ وقوة العزم على الأخذ بالحزم. والحزم هو ترك المحذور والعمل على براءة الذمة، والأعلى من المراتب، والأفضل من الأحوال. فإن وقع لكم عجز أو غفلتم أو وقعتم في شيء مما نُهيتم عنه، فسُدُّوا. أي: أصلحوا حالكم بالخروج على المخارج التي جُعِلت لكم، والأخذ بالرخص التي تُصَدَّقُ بها عليكم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ <sup>(٣)</sup>.

الوجه الرابع: قوله، عليه السلام: (وَابْشِرُوا). أي: أبشروا، فإن ذلك مخلص لكم ومبلغكم إلى رضا مولاكم، وحسن العاقبة لكم، يؤيد هذا قوله عليه السلام: (رُبَّ ذَنْبٍ ادْخَلَ صَاحِبَهُ الْجَنَّةَ) <sup>(٤)</sup> قال العلماء: معناه أن ذلك الذنب كان سبباً لتوبته، فتاب توبةً نصوحاً، فكان هو السبب الذي أدخله الجنة. يزيد هذا إيضاحاً وبياناً ما قيل لبعض الفضلاء، حين غَلَبَ عليه، في وقتٍ ما، خوفٌ من أجل التقصير في حق مولاه، ثم تَلَمَّحَ سَعَة رحمته، فخالط ذلك الخوف طمعٌ في سَعَة رحمة مولاه، فخطب بأن قيل له: مَنْ أَرَدَنَاهُ اصْطَفَيْنَاهُ، فخَوَّفْنَاهُ، وَرَجَّيْنَاهُ، وَمَنْ أَبْغَضْنَاهُ أَبْعَدْنَاهُ، وَالْهَيْئَةُ.

الوجه الخامس: قوله، عليه السلام: (وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ).

(١) العزائم: ج عزيمة، وهي فرائض الله التي أوجبها. والحديث أخرجه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٤٠.

(٣) سورة النساء، من الآية ٢٩.

(٤) لم نعرف مصدره.



الاستعانة هنا هي أن مَنْ واطَّاب على الأعمال في الأوقات المذكورة، يرزق بها العَوْن على ما أخذ بسبيله من أفعال الطاعات، وَيُسَّرُّ له ما عسر عليه من أمر دينه، وَيُزَاد قوة في إيمانه، فيتبين له قَدْرُ ما لطف به، وماذا أريد منه، وهذا من أكبر أسباب العون، فإن به يسهل العمل، وتسمو الهمم إلى المراتب العلية.

ولأجل ما يحدث من هذه المعاني بعمارة تلك الأوقات قال بعض الفضلاء من أئمة التحقيق: وأنا أوصيك بدوام النظر في مرآة الفكرة مع الخلوة. فهناك يَبِين لك الحق. ومن بان له الحق رُجِيَ له اتباعه، وكان من أهله. فنسأل الله أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه.

ومما يناسب ما نحن بسبيله، من وجه ما، قوله، عليه السلام، (وَيَلِّ لِمَنْ غَلَبَتْ آحَاذُهُ عَشْرَاتِهِ)<sup>(١)</sup> ومعنى ذلك: أن الحسنات جُعِلَتْ بفضل الله عشراً إلى سبعين، إلى سبعمائة، والله يضاعف بعد ذلك لمن يشاء، والسيئة بواحدة، ثم بعد هذا الفضل العميم يَغْفُلُ ابنُ آدَمَ المسكينُ عن نفسه، حتى لا يجد لنفسه مَخْرَجاً، إما بتغالٍ في الدين، وإما بتضييع محاسبة نفسه، فيهلك مع الهالكين، وهو لم يشعر. ولهذا قال، عليه السلام: (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَحَاسِبُوا)<sup>(٢)</sup>. فيحق لمن غفل عن نفسه وألزمها هذا التغالي المذكور، أو غفل عن المحاسبة، ذلك الوعيد العظيم. أعاذنا الله وإياكم من ذلك بِمَنِّهِ.

فينبغي للعاقل أن يعين نفسه بما أشار الشارع، عليه السلام، إليه، وأن يقيم على نفسه ميزان الشرع، ولا يغفل عن محاسبة نفسه، ولا يشأد دينه لئلا يهلك بأحد هذه الوجوه. ثم نرجع الآن إلى البحث المتقدم والكلام على الوجه الرابع:

### الوجه الرابع

الوجه الأول منه: قوله، عليه السلام: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرُ). قد يُراد به: أنه يُسَرُّ على من عَرَفَهُ، لأن مَنْ جَهِلَهُ عَسُرَ عليه بمقتضى أدلته لجهله به، فيكون هذا مثل قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾<sup>(٣)</sup> وشهادته لنفسه هي ما أظهر في جميع مخلوقاته من آثار قدرته الدالة على وحدانيته وعظمته، فيكون الحاصل من هذا التحضيض على علوم الدين بمقتضى الكتاب والسنة على ما أشرنا إليه قبل.

الوجه الثاني: منه، قوله، عليه السلام: (وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ) المشادة هنا هي: أن

(١) لم نعرف مصدره.

(٢) رواه البيهقي في الزهد، وذكره في مناقب عمر.

(٣) سورة آل عمران، من الآية ١٨.

من أراد أن يأخذ علوم الدين بغير هذين الطريقين، وهما: الكتاب والسنة، إما بعلم العقل أو ما شابهه، واقتصر على ذلك، فيغلبه الدين إذ ذاك بالضرورة، لأنه إذا فعل ذلك عاد عليه مقام الحق مشكلاً، ومقام الحقيقة محتملاً، فانقلب بصفقة خاسرة، خسر الدنيا والآخرة.

الوجه الثالث: قوله، عليه السلام: (فسدّوا وقاربوا) السداد هنا بمعنى سداد الحال. يقال: سدّد فلان حاله: إذا أصلحه. سدد الله فلاناً: أي: أصلح الله فلاناً. سدد القاضي: أي: حكم بينهم بالعدل. لا يباع إلا على وجه سداد: أي: بوجه صالح على مقتضى الشريعة. وصلاح الحال هنا هو صلاحه في الدين، بمعرفته، ومعرفة أحكامه، والعمل على ذلك، واتباعه، ويشهد لهذا قوله عليه السلام: (طَلَبَ الْعِلْمَ فَرِيضَةً عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)<sup>(١)</sup>. قال العلماء المحققون: معناه ما وجب على المرء عمله وجب عليه العلم به، لأنه لا يمكن توفية ما أمر به إلا بالعلم بحدوده.

وقد اختلفوا فيمن عمل العمل بغير علم فصادف عمله لسان العلم على ثلاثة أقوال، فمن قائل يقول: بأن له الثواب على عمله، واحتج بأن قال: هذا عمل وقع على ما أمر به، ومن فعل ما أمر به كان له الثواب على الامتثال. ومن قائل يقول: بأن عليه الإثم في ذلك، واحتج بأن قال: إن الله، عز وجل، لم يتعبد أحداً بالجهل، وإنما يجوز له الإقدام على العمل بالعلم به، وأما مع الجهل فلا. قال الله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فلما قديم على العمل بغير علم كان مرتكباً للنهي، ومن ارتكب النهي أثم. ومن قائل يقول: بأنه ليس له ثواب وليس عليه عقاب، واحتج بأن قال: إنه لم يقع بعمله في شيء مما نهى عنه فلم يكن مأثوماً، وأمر بالآل يُقَدِّم على العمل إلا بالعلم، فلم يفعل ذلك، لم يكن له أجر عليه.

فإن العجز عن هذا السداد، الذي هو صلاح الحال بالعلم، كما تقدم، فلْيُؤْخَذْ بما تضمنه قوله، عليه السلام: (قاربوا) ومعناه: السؤال لأهل العلم، كما تقدم، لأن الله، عز وجل، يقول: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> والنبي ﷺ، يقول: (شفاء العي السؤل)<sup>(٤)</sup>.

الوجه الرابع: قوله، عليه السلام: (وأبشروا). البشارة هنا هي: أن من أخذ بالطريق المذكور الذي أبدىناه فليستبشّر بأن الله يرفعه في الدنيا والآخرة، ويرزقه من حيث لا يحتسب، إذا كان ذلك لله خالصاً. يشهد لهذا قوله، عليه السلام: (تكفل الله برزق طالب العلم)<sup>(٥)</sup>. وهو، عز

(١) رواه ابن ماجه برقم ٢٢٤.

(٢) سورة النحل، من الآية ٤٣.

(٣) رواه الإمام أحمد والدارمي وأبو داود وابن ماجه والدارقطني كما في كشف الخفا رقم ٦٤٦.

(٤) الرواية المشهورة: (من طلب العلم تكفل الله عز وجل برزقه) رواه الخطيب البغدادي في تاريخه ١٨٠/٣ وفي =

وجلّ، قد تكفل برزق الخلق كلهم، لكن فائدة هذه الأخبار البشارة لطالب العلم بأن الله تعالى قد رفع عنه التعب في طلب الرزق، والكّد عليه، ويسّره له، وسهّله عليه من غير تعب يدخل عليه في ذلك بلا مشقّة. يزيد هذا إيضاحاً قوله، عليه السلام: (إذا ابتدع في الدين بدعة كيد الدين، فعليكم بمعالم الدين، واطلبوا من الله الرزق. قيل: وما معالم الدين؟ قال: مجالس الحلال والحرام)<sup>(١)</sup>.

الوجه الخامس: قوله، عليه السلام: (واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة). الاستعانة هنا هي: أن من عمّر هذه الأوقات المنصوص عليها، بالتعب فإن الله، عزّ وجلّ، يعينه على ما أخذ بسبيله من التعلم، ويوفّهمه، وينور بصيرته. وهذا قد وجده كل من عمل ذلك بإخلاص وصدق، وقد قال، عزّ وجلّ، في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ثم نرجع إلى البحث المتقدم والكلام على الوجه الخامس:

### الوجه الخامس

الأول منه: قوله، عليه السلام: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ). قد يراد به أن ما كُلفتُم به بالنص ولا يمكن فيه التأويل: يُسْرٌ. وأن أكثر ما كُلفتُم به محتمل للتأويل وقابل له، وإذا كان القابل للتأويل المحتمل له هو الأكثر فهو تيسير وتوسعة من المولى على عبده. وقد نشير إلى شيء من ذلك بالنص على مسائل مما تحتمل التأويل ليتنبه بها لما ذكرناه.

فمن ذلك حديث بني قُرَيْظَةَ، الحديث المشهور، الذي قال فيه عليه السلام، للصحابه: (لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ. فَأَدْرَكَهُمُ الْعَصْرُ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نَصَلِّي، فَإِنَّهُ لَمْ يَرِدْ مِنَّا ذَلِكَ. فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يَعْنُفْ أَحَدًا مِنْهُمْ)<sup>(٣)</sup>.

ومن ذلك اختلاف الفقهاء في معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾<sup>(٤)</sup>. فمن قائل يقول به على الإطلاق في الصلاة، وفي غيرها، ومن قائل يقول مثل الأول، لكنه قيدها بالأ تكون إلا قبل القراءة، ومن قائل يقول بأنها لا تكون إلا بعد القراءة.

= الجامع لأدب الراوي والسماع ٣٨/١ والقضاعي في مسند الشهاب ٢٤٤/١ و ٣٩١ والديلمي في مسند الفردوس ٧٥/٤. وقال عنه الذهبي في الميزان ٤٨٢/٤ والسلفي في تحقيق الشهاب: موضوع.

(١) لم نعرف مصدره.

(٢) سورة العنكبوت، من الآية ٦٩.

(٣) متفق عليه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) سورة النحل، من الآية ٩٨.

ومن ذلك اختلافهم في معنى قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾<sup>(١)</sup>.

فمن قائل يقول به على العموم، ومن قائل يقول به على الخصوص، ومن قائل يقول بجواز التيمم به منقولا كان أو غير منقول، ومن قائل يقول بعدم الجواز عند النفل.

ومن ذلك أيضاً اختلافهم في قوله تعالى: ﴿ وَرَبِّبْكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمْ ﴾<sup>(٢)</sup> فمن قائل يقول بتحريمها ابتداءً، ومن قائل يقول بعدم التحريم حتى تكون في حجره ويكون كفيلاً لها.

ومن ذلك اختلافهم في الربا، وما العلة فيه؟ فخرج كل واحد منهم على ما أعطاه اجتهاده من التأويل في الاحتمال، وكل ما اختلفوا فيه أبداً إنما هو من أجل الاحتمال الذي في الآية أو الحديث. وهذا الاختلاف توسعة ورحمة. وقد كان بعض من لقيته من الفضلاء الجلة يقول: لا يحل أن يتدين إلا بالمشهور، ولا يُفتى إلا به. وتكون فائدة الخلاف في أمر إذا وقع وفات ولم يُمكن تلافيه، على المشهور، فيُخرج إذ ذاك على قول قائل؛ لأنه أحسن من خرق الإجماع.

ولعمري لقد أحسن هذا في الفتوى، لأن به يستعمل جميع الوجوه، فيكون الأخذ أولاً بالكمال في الدين وهو القوة، عملاً بقوله، عليه السلام: (المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وفي كل خير)<sup>(٣)</sup>. فإن تعسر عليه الأخذ بالكمال رجع إلى الخلاف وأخذ بالتيسير فيكون بينه وبين المحارم حاجز كبير، لأنه إن تعذر عليه الأخذ بالكمال وجد ما يرجع إليه من غير أن يخرق الإجماع، بخلاف من يأخذ أولاً نفسه بالعمل على الرخص؛ لأنه إن تعذر عليه الأمر في وقت ما فلا يجد حيلة إلا الوقوع في المحارم، وقد قال عليه السلام: (إن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه)<sup>(٤)</sup>.

الوجه الثاني: منه: قوله عليه السلام، (ولن يشأ الدين أحد إلا غلبه). معناه: أن من يريد الأخذ بالكمال، فيريد أن يعمل في كل مسائله بالإجماع فيغلبه الدين؛ لأجل ما ألزم نفسه، لأنه يجد كثيراً من المسائل لا ينعقد عليها إجماع.

الوجه الثالث: قوله، عليه السلام: (فسدّوا وقاربوا). السداد هنا على معنيين.

(الأول): أن يكون بمعنى صلاح الحال بالأخذ بما عليه الجمهور. والجمهور هم الصحابة

(١) سورة النساء، من الآية ٤٣.

(٢) سورة النساء، من الآية ٢٣.

(٣) رواه الإمام أحمد ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) جزء من حديث رواه الستة من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

والصدر الأول لقوله تعالى: ﴿وَتَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾<sup>(١)</sup> قال العلماء: هم الصدر الأول، ولقوله، عليه السلام: (خَيْرُ الْقُرُونِ قُرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)<sup>(٢)</sup>.

(الثاني): أن يكون الآخذ بالأظهر من الأدلة، وبالوجه الراجح من الوجوه المحتملات في اللفظ الواحد، ولا يلتفت إلى الشواذ من الطرفين، طرف التشديد وطرف الترخيص. وإنما الشأن الأخذ بالوسط، كما قال الخليفة لمالك، رحمه الله، حين أراد أن يجمع كتاب الموطأ، فقال له: اترك تشديد ابن عمر، ورخص ابن عباس، وألف بعد ذلك ما شئت. فقال مالك: فخرجت من عنده فقيهاً. ويكون معنى التقريب هنا عند العجز عن الأخذ بما أشرنا إليه في السداد لأجل العذر، فيخرج على قول قائل عند العذر، ولا يأخذ بطرف التشديد، ولا بطرف الترخيص مع عدم العذر.

ويكفي في هذا ما روي عن عمر، رضي الله عنه، حين قيل له عن رجل أتى إلى المدينة يطلب غريب التفسير وغريب الحديث، فأمر، رضي الله عنه، بإحضاره، وقال له: من أنت؟ فقال له: عبد الله بن فلان. فقال له عمر: وأنا عمر بن الخطاب، ثم أخذ جريداً من نخل، فجعل يضربه بها على رأسه حتى أدماه وهو يقول: أنا عمر بن الخطاب. فقال له الرجل: جزاك الله عني خيراً، قد زال ما كان في رأسي<sup>(٣)</sup>. ولا ذاك إلا أنه من يطلب ذلك. فالغالب عليه أن يعمل على أحد الطرفين، إما بطرف التشديد، فيأخذ بالمشادة، ويترك السداد، وإما بطرف الترخيص فيكون له ذريعة لأن يقع في المحارم، ويترك الأخذ بالتقريب.

الوجه الرابع: قوله، عليه السلام: (وَأَبْشُرُوا). معنى البشارة هنا هي أن من عمل بما ذكرناه فَلْيَسْتَبْشِرْ بِأَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ عِنْدَ الْعَمَلِ يَسْرًا، وعند الضيق مخرجاً، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَنَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾<sup>(٥)</sup> وقد حصل له زيادة لتلك البشارة أن الله عز وجل، قد جعله من المتقين.

(١) سورة النساء، من الآية ١١٥.

(٢) جزء من حديث متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ولفظه (خير الناس قرني... إلى آخر الحديث).

(٣) الرجل المشار إليه اسمه: صبيغ بن عسل، كان يسأل عن المشابه، وكان سؤاله لعمر رضي الله عنه عن مشكلات القرآن، فأمر عمر الناس ألا يجالسوه، وضربه حتى أدمى رأسه. فقال: حَسْبُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قد ذهب الذي كنت أجده في رأسي. (انظر: الإصابة ١٩١/٢، ومسند البزار ٤٢٣/١ رقم ٢٩٠، والدارمي والخطيب وابن عساكر في التاريخ ٢٣١/٢، والدارقطني في الأفراد ٢٠/٢).

(٤) سورة الطلاق، من الآيتين ٢ و ٣.

(٥) سورة الطلاق، من الآية ٥.

ولأجل الجهل بمعنى هذه البشارة دخل بعض الناس عندما ضاق عليهم شيء من الدنيا في المكروهات والمحرمات، ويقولون بأنهم معذورون لأنهم لا يجدون سبباً على زعمهم غير ما هم فيه. وهذا من العلامات الدالة على اقتراب الساعة، لأن النبي، ﷺ، يقول: (من أشراط الساعة طلب الرزق بالمعاصي)<sup>(١)</sup>. فنعوذ بالله من العمى والضلال.

فانظر إلى هذا العمى الكلبي والصنم السرمدي كأنهم لم يسمعوا قط هذه البشارة، ولم يعرفوا مقتضاها، وكأنهم لم يروا في الكتاب، ولم يسمعوا منه الآيتين المتقدمتي الذكر، وكأنهم لم يسمعوا قوله، عليه السلام: (لا يُنالُ ما عند الله إلا بطاعة الله)<sup>(٢)</sup>. وكل هذا يدل على أن من طلب الرزق بغير طاعة فقد طلب الشيء من غير بابه، ومن طلب الشيء من غير بابه تعب في طلبه، ورجع بصفقة خاسرة.

وقد نشير إلى شيء من مآثر من مضى حيث كانوا يطلبون الرزق بطاعة ربهم، لِيُتَنَبَّهَ بذلك لما أردنا بيانه. فمن ذلك ما روي عن بعضهم أنه كان ذا عيال وضاق عليه الوقت، ولم يقدر على شيء، فوقع في باله الأخذ بالطاعة التي هي سبب للرزق. فخرج إلى مسجد خرب، فنظفه، وبقي يتعبد فيه. فيخرج غدوة ويخبر أهله أنه يتسبب، ثم يروح عشية، فيقولون له: أين الأجرة؟ فيقول: الذي خدمت عنده كريم، فاستحييت أن أطلبه حتى يكون هو الذي يعطيني. فبقي ذلك أياماً يسيرة. ثم أتى ليلة على العادة إلى منزله، فلما كان بقربه شَمَّ روائح طعام عطرة، فتعجب من ذلك لأجل أنه يعلم أن جيرانه في ضعف بحيث لا يقدر على ذلك. فلما أتى منزله فإذا الذي شَمَّ من ذلك في منزله. فتعجب من ذلك أكثر من تعجبه أولاً، ثم نظر فإذا في بيته طعام وإدام وقماش ودراهم، ووجد أهله بكسوة حسنة، فسألهم: من أين لكم هذا؟ فقالوا له: إن الكريم الذي أنت تخدم عنده بعث إليك بما ترى، وهو يقول لك: لا تقطع الخدمة. فقال: أجل.

فانظر. مَنْ طلب الشيء من بابه كيف نجح سعيه، وظفر بمراده.

الوجه الخامس: قوله، عليه السلام: (واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة). الاستعانة هنا هي التعرض لنفحات الله تعالى في هذه الأوقات المذكورة، وتجدر إذ ذاك لطفه بك كثيراً، وخيره عليك عميماً. يؤيد هذا، قوله، عليه السلام: (إذا سألتَ فاسألِ الله)<sup>(٣)</sup> وقوله، عليه

(١) لم نعرف مصدره.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية وابن أبي الدنيا والحاكم والبيهقي في المدخل، وصححه الحاكم في المستدرک على شرط مسلم.

(٣) جزء من حديث رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

السلام: (تَعَرَّضُوا لِنَفْحَاتِ اللَّهِ)<sup>(١)</sup> وقوله، عَزَّ وَجَلَّ، على لسان نبيه، عليه السلام، (يَنْزِلُ رُبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فِي الثُّلُثِ الْآخِرِ مِنَ اللَّيْلِ، فيقول: هل من تائبٍ فأتوبَ عليه؟ هل من مستغفرٍ فأغفرَ له؟ هل من داعٍ فاستجيبَ له؟)<sup>(٢)</sup> فكيف يقول، عَزَّ وَجَلَّ، هذا ويستغفر أحدٌ إذ ذاك، أو يتوب، أو يدعو، فَيُسْرَدُ؟ ذلك محال من طريق قوة الرجاء في فضله سبحانه ومِنَّتِهِ.

وقد نشير إلى شيء من مآثر من مضى في هذا أيضاً ليتبين به المقصود الذي أردنا بيانه. فمن ذلك ما روي أن بعض الثوار نزل بحصن فضتيق على أهله حتى هَمَّوا بإعطائه. ثم قال بعضهم: لا تعطوه حتى تستشيروا فلاناً على ما أردتم فعله. وكان فلان عندهم رجلاً صالحاً متمسكاً بالخير والسادات. فاستشاروه، فقال لهم: لا يحل لكم أن تملكوا رقابكم لمن يخالف لسان العلم، ويسفك الدماء بغير حقها. فبلغ ما قال لهم إلى الثائر. فأرسل إليه يهدده، وهو يقول له: أما تعرف بطشي وصغَرَ سِنِّي؟ فأرسل الشيخ إليه الجواب، وهو يقول له: أما تعرف كِبَرَ سِنِّي وقيامي له بالليل، ودعائي له في الأسحار؟ فلما أن وقف الثائر على الجواب لَحِقَهُ الرعب، وأقلع من حينه.

ومما يزيد هذه الأوقات شرفاً وترفعاً وترغيباً في المحافظة عليها قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾<sup>(٣)</sup> فمن رغب في هذه الأوقات، وحافظ عليها، أُعِينَ على ما أخذ بسبيله، ثم زاده على ذلك بشارة، وأي بشارة ترتاح لها نفوس العاملين العارفين؛ وهي ما أخبر، عَزَّ وَجَلَّ، في كتابه حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾<sup>(٤)</sup>.

يا لها من بشارة ارتاحت لها نفوس الموفقين، وسكن بها حزن الخائفين، وتسابقت لها أقدام السابقين! منحنا الله منها من فضله ما يليق بفضله.

ثم نرجع الآن إلى البحث المتقدم والكلام على الوجه السادس:

## الوجه السادس

الأول منه: قوله، عليه السلام: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ). قد يراد به أن ما طلب منكم، وهو الإذعانُ

(١) رواه الطبراني والترمذي في النوادر والبيهقي في شعب الإيمان والسيوطي في جمع الجوامع من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سورة الكهف، من الآية ٢٨.

(٤) سورة محمد، من الآية ١٧.

والاستسلام، يُسرّ، يشهد لهذا قوله، عليه السلام، للصحابه حين أنزل عليه: ﴿وَلِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبَكُم بِهٖ اللّٰهُ﴾<sup>(١)</sup> فشق ذلك عليهم فقال لهم: (لا تكونوا مثل بني إسرائيل، ولكن قولوا: آمنا بالله، وما أنزل) فآمَنُوا وأذعنوا فانزل الله إذ ذاك ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكِيَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ . لَا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾<sup>(٢)</sup> فجاءهم هذا الفرح العظيم لاستسلامهم وإذعانهم لأمر ربهم. والإذعان والاستسلام يُسرّ، لا شك فيه، لأنه قد عمل بالقلب دون جارحة تتحرك فيه.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام: (ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه). معناه: أن من لم يرض بالمقدور ولم يقع منه الإذعان والاستسلام لما فرض عليه، ويرى أن ما كلفه من باب المشقة فقد شادَّ دينه، وإذا شادَّ دينه غلبه. وذلك مثل ما حكى عن بني إسرائيل حين أمروا بالقتال فأبوا، وقالوا لنبيهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾<sup>(٣)</sup> فشدد عليهم حين لم يرضوا ولم يذعنوا لما كلفوا به فابتلوا لأجل ذلك بالتيه أربعين سنة، حتى مات فيه كبارهم، ونشأ فيه صغارهم.

يزيد هذا إيضاحاً قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ شَيْءًا مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾<sup>(٤)</sup> فمن رزق الإذعان للمقدور، والصبر عند نزوله، عظم أجره، ولطف به. وإن ضجر وتسخط كان مأثوماً، والمقدور لم يتغير، فشادَّ دينه، فغلبه الدين. نعوذ بالله من ذلك.

الوجه الثالث: قوله، عليه السلام: (فسدّدوا وقاربوا). السدّد هنا بمعنى صلاح الحال في توطين النفوس للتسليم والانقياد. والمقاربة هنا أي إن لم تبلغوا هذا المقام فقاربوا إليه، لأن ما قارب الشيء أعطي حكمه.

الوجه الرابع: قوله، عليه السلام: (وأبشروا). البشارة هنا هي أن من فعل ما ذكرناه، ووطّن نفسه على ذلك واستسلم، فليستبشّر بما تضمّنته بقية الآية الموردة إلى آخر السورة، وهو قوله، عز وجل: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٨٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨٥ ومن ٢٨٦.

(٣) سورة المائدة، من الآية ٢٤.

(٤) سورة البقرة، الآيات ١٥٥ و ١٥٦ و ١٥٧.



الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا تَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾.

الوجه الخامس: قوله، عليه السلام: (واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة). الاستعانة هنا هي أن من عُسِرَ عليه العمل بما ذكرناه من نفسه، فليقف بالباب الجليل في هذه الأوقات المعينة، ويلزم ذلك، يُرَزَقُ العونَ إذ ذاك على النفس ويظفر بالتُّجَحُّجِ. ولأجل تضييع هذه الاستعانة غلبت بعض الناس نفوسهم، فلم يحصل منهم ما أريد منهم من الإذعان والاستسلام لأجل أنهم وُكِّلُوا إلى أنفسهم، لكونهم لم يستعينوا بما شُرِعَ لهم الاستعانة به. ومثل هذا قوله، عليه السلام، للصحابه حين أخبر بالفتن، فقالوا له: ما النجاة من ذلك؟ فقال: (الْجَاؤُا إِلَى الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ) (٢).

وهذه الفتن قد كثرت، وتكاثرت، والقليل النادر من أخذ بالدواء الذي يعينه على النجاة منها. لا جرم أن الهالك قد كثر، والناجي قد قلَّ، لقلة الامتثال لما به أُمِرَ. فبادر أيها المسكين للعمل، واترك الكسل قبل ورود الحمام وتراكم المِخْنِ، ويقال لك: (الصَّيْفَ صَيَّغْتَ اللَّبْنَ) (٣).

ثم نرجع إلى البحث المتقدم والكلام على الوجه السابع:

## الوجه السابع

الوجه الأول منه: قوله، عليه السلام: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ). قد يراد به الأخذ بأقرب الوجوه التي اختُلِفَ فيها دون تعمق في أحد الطرفين، طرف التشديد وطرف الترخيص، وترك الالتفات، والمبادرة إلى الامتثال. وإذا كان المراد هذا، وهو المبادرة إلى الامتثال وترك الالتفات، فهو يسر، لا شك فيه.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام: (وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ). أي لا يشدد أحد على نفسه إلا ويشدد الله عليه، لأجل تنطُّعه أو تسامحه في دينه. وذلك مثل ما حكى عن بني إسرائيل في البقرة التي أُمِرُوا بذبحها. لو أخذوا في امتثال ما به أُمِرُوا، وذبحوا بعض البقر دون سؤال عن كيفيتها لأجزأت عنهم وكانوا بذلك ممثلين للأمر، ولكنهم شددوا فسألوا عن صفتها وكيفيتها،

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٨٦.

(٢) لم نعرف مصدره.

(٣) مثل يضرب لمن يطلب الشيء في غير أوانه.

فشدّد عليهم فيها، فطلبوها فلم يجدوها زماناً، ثم وجدوها بقرة واحدة عند شخص واحد، فطلبوها منه للشراء، فأبى عليهم، فما زالوا به إلى أن أنعم عليهم بالبيع، فاشتروها منه بمِلءِ جلدها ذهباً وفضة. قيل: مرة، وقيل عشراً. فشدّدوا فشدّد عليهم.

ولأجل هذا كان النبي ﷺ، يكره كثرة السؤال<sup>(١)</sup>، ويذمّ فاعله، خيفة التشديد، حتى كان الصحابة، رضي الله عنهم، يتمنّون أن يقدّم على النبي ﷺ، غريب يسأله، فيسمعون الجواب<sup>(٢)</sup>. وهذا المعنى إنما كان الخوف منه في زمن النبي ﷺ، لأن الأحكام كانت إذ ذاك تتجدد في كل وقت وحين، فلما انتقل إلى ربه طاهراً مطهّراً، ﷺ، زال ذلك.

لكن بقي في بعض الناس ما يشبه ذلك، وهو كثير. فمن ذلك الوسواس، الذي لبعضهم في شيء من تعبداتهم، حتى يُخلّوا بلسان العلم فيه، فيبقى في تعبدته على ضلال، وهو يحسب أنه يُحسِّنُ صنْعاً. وقد قال يُمنُّ بنُ رزق - الإمام في الطريقتين - رحمه الله: إن الشيطان يأتي لابن آدم، فيرغبه في المعاصي، هذا بعد عجزه عن أن يوقع له شبهة في عقيدته، فإن قدر عليه فهو مقصوده، وإن لم يقدر عليه رجع إليه من طريق الوسواس في تعبدته حتى يجعله يُخلِّ بشيء من لسان العلم. فإذا نال ذلك منه قنع به، ثم تركه وحَبَّبَ إليه العبادة، ومدَّ له في الصوت، وربما تعرض له بعد ذلك مارِدٌ من الشياطين يريد أن يُغويّه، فيقول له: دَعُه، فإنه بعلمي يعمل. فسادَّ دينه فقلبه الدّين، فانقلب بصفقة خاسرة. نعوذ بالله من العمى والضلال.

الوجه الثالث: قوله، عليه السلام: (فسدّوا وقاربوا). سدّدوا أي سدّدوا حالكم باتّباع الفروض والسُنن. وقاربوا، أي إن لم تقدروا على هذا السداد فقاربوا إليه، فإن لم تقدروا فجاهدوا النفوس في الحمل عليه ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾<sup>(٣)</sup>؟

الوجه الرابع: قوله، عليه السلام: (وأبشروا). أي إن فعلتم ما أمرتم به، كما ذكرناه لكم، فأبشروا عند تلك المجاهدة بتيسير سُبُل الخير والهداية، يشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) روى البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال.

(٢) مروي بمعنى الحديث الذي أخرجه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الأعرابي فيسأل رسول الله ﷺ... إلى آخر الحديث.

(٣) سورة يونس، من الآية ٣٢.

(٤) سورة العنكبوت، من الآية ٦٩.

الوجه الخامس: قوله، عليه السلام: (واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة). الاستعانة هنا هي الملازمة على قرع الباب في هذه الأوقات، والمحافظة على ذلك عند نزول المِحن والفِتن، لأن ذلك هو سبيل النجاة، فيأتيكم العون من عالم الخَفَيَات، يشهد لهذا قوله، عليه السلام: (مَنْ فُتِحَ له في الدعاء، فقد فُتِحَتْ له أبوابُ الخيرات)<sup>(١)</sup>، وقوله، عليه السلام، إخباراً عن ربه، عز وجل، (من شَغَلَهُ ذِكْرِي عن مسألتي أعطيتُه أفضلَ ما أعطي السائلين)<sup>(٢)</sup>.

ثم نرجع الآن إلى البحث المتقدم والكلام على الوجه الثامن:

### الوجه الثامن

الوجه الأول منه: قوله عليه السلام: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ). قد يريد به قِصَرُ الأمل؛ لأن قِصَرَ الأمل من الأسباب المُعِينة على الدين، فيصير الدِّينُ بسببه يُسْرًا. بيان ذلك أن الأمل إذا قَصُرَ قَلَّ الحرص، وسَهَّلَ الزهد، وخَفَّ العمل. وقد جاء هذا نصًّا منه، عليه السلام، حيث قال: (إذا أَصْبَحْتَ فلا تَحَدِّثْ نَفْسَكَ بالمساء، وإذا أَمْسَيْتَ فلا تَحَدِّثْ نَفْسَكَ بالصُّباح)<sup>(٣)</sup>.

وقد رُوي أن عيسى، عليه السلام، مرَّ في سياحته بشيخ كبير، وهو يخدم في حائط<sup>(٤)</sup> له، فتعجَّب عيسى، عليه السلام، من كِبَرِ سِنِّه، وشِدَّةِ حرصه على التَّكسُّب. فلما أن وقع منه التعجب في ذلك رآه قد أزال المِسحاة من يده وأقبل على العبادة متوجِّهاً يشتغل بأنواع الخير، فبقي على ذلك برهة من الدهر، ثم قام إلى الخدمة، كما كان أولاً، فتعجَّب عيسى، عليه السلام، من ذلك أكثر من تعجبه أولاً، ثم أتى الشيخَ فسأله: ما الموجب في تركك الخدمة، وما الموجب في عودك إليها؟ فقال له الشيخ: كانت خدمتي أولاً لِمَا طُبِعَ عليه البشر من التَّكسُّب في هذه الدار لتحصيل ضروراتهم، فخطر لي فكرة في كِبَرِ سِنِّي، وأن الموت قد دنا مني، فقلت: ما لي وللتعب، أَتَتَعَبُ لغيري؟ فتركْتُ الخدمةَ، وأخذت فيما أنا سائر إليه. ثم خطر لي أن قلت: ولعل أن يَطُولَ عُمرِي، فأحتاج إلى الغير، ففضلت التَّكسُّبَ على ما كنت أخذتُ بسبيله، فعدتُ إلى حالتي الأولى.

وهذه سِتَّةُ الله تعالى مع أوليائه، ما سَهَّلَ عليهم العملَ، وقطعوا مفاوِزَ أعمالهم بالشغل بعبادته، والإقبال عليه إلا أنه، عز وجل، قَصَرَ آمالهم، فتيَسَّرَ عليهم من أجل ذلك ما تَعَسَّرَ على

(١) رواه الترمذي والحاكم في المستدرک وحسنه البغوي في المصابيح عن ابن عمر، رضي الله عنهما، مرفوعاً.

(٢) رواه البخاري في التاريخ والبزار في المسند والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وأوله: كن في الدنيا كأنك غريب.

(٤) حائط: بستان، حديقة.

غيرهم. وقد قال، عليه السلام، لأسامة حين باع أو اشترى نسيئة إلى شهرٍ فقال: (إن أسامة لطويل الأمل)<sup>(١)</sup>.

الوجه الثاني منه: قوله، عليه السلام: (ولن يُشأَّ الدِّينَ أحدٌ إلا غلبه). معناه أن من أطال الأمل وقع له الكسلُ إذ ذاك، فغلبه الدِّينُ لأجل طول أمله. ومن آخر كلام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: «يا هذا لا تُدخِلَ هَمَّ غَدِكَ على يومك، فإن عشتَ فسيأتيك الله برزقٍ جديدٍ، وإن متَّ فلا تَشغَلْ وقتك بما لا تلحقه». ومن هذا الباب ضاع كثير من العباد.

الوجه الثالث: قوله، عليه السلام: (فسدّوا وقاربوا). سدّدوا أي: وطّنوا النفسَ على قَصْرِ الأمل، لأن ذلك عين السداد. وقاربوا أي: إن لم تقدروا على الأعلى في هذا السداد فقاربوا إليه، ولا تَبعدوا عن الأعلى، والأخذ بالكمال، فتسبّّّوا، والمسبوق محروم.

الوجه الرابع: قوله، عليه السلام: (وأبشروا). أي: أبشروا بصلاح دينكم ودنياكم إن قبلتم ما به قد أُشير عليكم، وأرشدتم إليه.

الوجه الخامس: قوله، عليه السلام: (واستمعينا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة). الكلام على الاستعانة هنا كالكلام على الوجه قبله.

ثم نرجع الآن إلى البحث المتقدم والكلام على الوجه التاسع:

### الوجه التاسع

الوجه الأول منه: قوله، عليه السلام: (إن الدِّينَ يُسر). قد يريد به الرضا، لأنه معنى من المعاني يبلغ به أعلى المقامات، لأنه أعلى درجات السالكين، يشهد لذلك قوله، عليه السلام، لابن عباس: (يا بني إن قدرت أن تعمل لله باليقين في الرضا فافعل، وإلا فالصبر على ما تكره، فيه خير كثير)<sup>(٢)</sup>.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام: (ولن يُشأَّ الدِّينَ أحدٌ إلا غلبه). أي من لم يرض بالمقدور، وتسخط، شأَّ دينه، فيغلبه الدين. ولهذا قال بعض الفضلاء من أهل السلوك: تحرّ

(١) رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني في مسند الشاميين، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان بإسناد ضعيف. قاله العراقي في تخريج الإحياء.

(٢) جزء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي أوله: (يا غلام، إني محدثك كلمات، احفظ الله يحفظك) رواه الإمام أحمد والبيهقي في الشعب والترمذي في السنن والحاكم في المستدرک. ورواية الشيخ ابن أبي جمرة بالمعنى.

المقادير، فإن رَضِيَتْ جَرَتْ وأنت مأجور، وإن سَخَطَتْ جَرَتْ وأنت مأزور<sup>(١)</sup>. فغلبه الدين لأجل ما ترتب عليه من الوزر عند عدم الرضا.

الوجه الثالث: قوله، عليه السلام: (فسددوا وقاربوا). سدّدوا أي: خذوا بحقيقة الرضا، و (قاربوا) أي إن لم تطبقوا ذلك فقاربوا إليه. والمقاربة إليه هي: الصبر كما تقدم، من قوله، عليه السلام، لابن عباس: (فالصبر على ما تكره فيه خير كثير). وفائدة الرضا لا تظهر إلا عند الشدائد وتراكم المحن، وأما عند العافية والرخاء فلا، لأن كل أحد يرضى بذلك.

الوجه الرابع: قوله عليه السلام: (وأبشروا). البشارة هنا هي: أن من أخذ بالوجه المذكور أو بالوجه بعده فَلْيَسْتَبْشِرْ بِنَجْحِ سَعْيِهِ، وظفره بمراده، كلٌّ على قَدَرِ رضاه أو صبره، ثم يزداد له عند ذلك بشارة أخرى، وأيُّ بشارة، زيادة على ما احتوى عليه لفظ الحديث، وهي ما تضمنه قوله تعالى في كتابه ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾<sup>(٢)</sup> فإذا كانت الزيادة بحسب الفضل، فكيف يكون عظم البشارة؟ منحنا الله سبحانه منها ما يليق بفضله.

الوجه الخامس: قوله، عليه السلام: (واستمعوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة). الاستعانة هنا كما هي في الوجه قبله.

ثم نرجع إلى البحث المتقدم والكلام على الوجه العاشر:

### الوجه العاشر

الوجه الأول منه: قوله، عليه السلام: (إن الدِّينَ يُسْرٌ). قد يريد به اليقين، لأنه معنى من المعاني، وَيُكْتَسَبُ به أعلى الدرجات والمقامات. يشهد لهذا قوله عليه السلام في حق أبي بكر: (ما فضلكم بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وَقَرَّ في صدره)<sup>(٣)</sup>. والشيء الذي كان وَقَرَّ في صدره هو قوة اليقين. فنال أبو بكر، رضي الله عنه، أعلى المقامات، وَفَضَّلَ غيره بذلك المعنى الذي وَقَرَّ في صدره دون تعب في العمل بجارحة. وهذا يُسْرٌ لا شك فيه.

ولأجل هذا حضَّ، عليه السلام، على تكسبه ليتيسر على أمته حيث قال: (تعلموا اليقينَ فإنني

(١) مأزور: من الوزر وهو الذنب. وهي عكس (مأجور).

(٢) سورة النساء، من الآية ١٧٣.

(٣) قال السخاوي في المقاصد ٣٦٩ رقم ٩٧٠: قال العراقي: لم أجده مرفوعاً، وهو عند الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من قول بكر بن عبد الله المزني.

ولأجل النظر إلى هذه الدقائق التي أشرنا إليها، قوِّي إيمان الأولياء والصالحين بزيادة اليقين، حتى قيل لبعضهم: بم عرفت الله تعالى؟ فقال: بنقضه لعزائي.

فانظر لَمَّا أَن قَوِيَ يَقِينُهُمْ بِثِقَتِهِمْ بِرَبِّهِمْ زَال عَنْهُمْ رَعِبٌ مَا أَخْبَرُوا بِهِ، وَانْقَلَبُوا بَعْدَ ذَلِكَ بِالْفَضْلِ الْعَمِيمِ وَالنِّعْمَةِ الشَّامِلَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَرَبِحُوا الدَّارَيْنِ بِتِلْكَ اللَّحْظَةِ الَّتِي فَوَّضُوا الْأَمْرَ فِيهَا إِلَى رَبِّهِمْ، وَاسْتَنْدُوا إِلَيْهِ بِقُوَّةِ يَقِينِهِمْ.

الوجه الثالث: قوله، عليه السلام: (فسدّوا وقاربوا). أي خذوا بالأعلى من اليقين، واعملوا عليه. وقاربوا، أي إن لم تقدروا على الكمال فلا تبخسوا أنفسكم منه، فيتعسر عليكم الدين. ومن تعسر عليه دينه بآء بالخسران والضلال. نعوذ بالله من ذلك.

(٤) سورة النساء، من الآية ١٢٠.

الوجه الرابع: قوله، عليه السلام: (وأبشروا). أي أبشروا باليقين الفيضي الآتي من الفضل العميم إن أنتم امتثلتم الأمر بما أشير به عليكم، فكسبتم من اليقين ما آل بكم إلى تكسبه.

الوجه الخامس: قوله، عليه السلام: (واستمعوا بالقُدوة والرَّوْحَة وشيء من الدُّلْجَة). الاستعانة هنا كالوجه قبله، يستعان بالعمل في هذه الأوقات المذكورة، ويُلبَّجاً إلى الله فيها، لعله بفضله يجود، وبفضله أن يلهمنا النظر بالاعتبار في الأشياء التي يتقوَّى بها اليقين، ويؤيدنا بالتوفيق من عنده، ويزيدنا على ذلك.

الضرب الآخر: هو الذي لا يؤخذ بالكسب، وإنما يؤخذ بالفيض، فمن تمسَّر عليه شيء من هذا، أو حُرِّم منه البتَّة، أو هو يريد الزيادة على ما حصل له، فليقف بالباب في هذه الأوقات، ينجح له سعيه، ويظفر بمُرادِه، لأن المخبر صادق، ومن أُحِيلَ عليه كريم، وهو لا يخلف الميعاد.

ثم نرجع إلى البحث المتقدم والكلام على الوجه الحادي عشر:

### الوجه الحادي عشر

الأول منه: قوله، عليه السلام: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ). قد يريد به ترك ما للنفس من الحفظ، واستسلامها بين يدي مولاها، لأن طلبها حفظها وترك استسلامها هو الحجاب الأعظم، ولأنها ما أشرفت قطُّ على شيء إلا أفسدته إلا من عصمه الله من شرِّها، فقمعها بالاستسلام والانقياد، وتركها يسير على من يسره الله عليه. وقد سئل بعض الفضلاء من السالكين عن كيفية الوصول، فقال: اترك نفسك وقد وصلت.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام: (ولن يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ). أي أن من عمل على حفظ نفسه، فبلغها آمالها، وترك استسلامها، فقد شادَّ دينه، وإذا شادَّ دينه، غلبه الدين، لأنه يُخرَم بحجاب نفسه ما أُعِدَّ له من الخيرات عند الاستسلام من الألفاظ والعون وغير ذلك.

الوجه الثالث: قوله عليه السلام: (فسدِّدوا وقاربوا). فسدِّدوا أي: اعملوا على ترك ما للنفس من الحفظ مرة واحدة، وأزيلوها عن ذلك وسلموها إلى خالقها تسدِّدوا. (وقاربوا) أي: إن لم تقدروا على ذلك، وغلبتكم نفوسكم، فخذوا في الرياضة والمجاهدات حتى يأتي لكم منها ما قد أُشِيرَ به عليكم.

الوجه الرابع: قوله، عليه السلام: (وأبشروا). أي أبشروا إن أنتم فعلتم ما ذكر لكم بأن الله خَيْرٌ لكم من أنفسكم، وأرحمُ بكم منكم، وأنه يبلغكم آمالكم. كيف لا، وقد قال تعالى في كتابه:

﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾<sup>(٣)</sup>.

الوجه الخامس: قوله، عليه السلام: (واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة). أي استعينوا بهذه الأوقات، وحافظوا عليها تعانوا على ما أريد منكم، وتفوزوا برضا ربكم عنكم.

فهل من مشمّر يغتنم حصول زمن الإعانة قبل أن يفوته، ثم لا يجد لنفسه على ما فُرِط فيه

إقالة؟

ثم نرجع إلى البحث المتقدم والكلام على الوجه الثاني عشر:

### الوجه الثاني عشر

الوجه الأول منه: قوله، عليه السلام: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ). قد يريد به إذا كان الدين لله خالصاً، ويكون به وله، فيعمل على التعظيم لحق مولاه، فإذا فعل هذا تيسر عليه الدين، لأنه يجد إذ ذاك حلاوة الطاعة، وتخف عليه، بل يتغذى بها، فيرجع ملكي<sup>(٤)</sup> الباطن، بشري الظاهر. ولهذا قال بعض الفضلاء من أهل السلوك: مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا ولم يذوقوا من نعيمها شيئاً. قيل: وما نعيمها؟ قال: حلاوة الطاعة. وقد ندب، عز وجل، لذلك في كتابه وحض عليه حيث قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾<sup>(٥)</sup>، ثم جعله، عز وجل متلوّاً في كل ركعة، مبالغة في الحض على ذلك، حتى يكون حالاً، فإذا كان الله معينه وهاديه حُمل باللطف والعناية، وتوّج بالبر والكرامة.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام: (ولن يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلِبَهُ). أي من اعتمد في دينه على نفسه، ولم يتعلق بالله فيه، فقد شادَّ دينه، وإذا شادَّ دينه غلبه الدين، بما يظهر له من عيوب نفسه، وعجزه عن الخروج عنها، ثم يلحقه إذ ذاك أحد وجهين، وكل واحد منهما إذا وجد في الشخص علم أنه هالك به إلا أن يتداركه الله باللطف والإقالة.

(١) سورة الأحزاب، من الآية ٤٣.

(٢) سورة التوبة، من الآيتين ٢١ و ٢٢.

(٣) سورة النازعات، من الآيتين ٤٠ و ٤١.

(٤) ملكي: نسبة إلى الملك.

(٥) سورة الفاتحة، الآية ٥.



(أحدهما): القنوط من عدم بلوغ ما يؤمل، فإذا اتصف بهذه الصفة خيف عليه إذ ذاك، لقوله عليه السلام إخباراً عن ربه، عز وجل، يقول: (لو كنتُ معجلاً عقوبةً لعجلتها على القانطين من رحمتي)<sup>(١)</sup>.

(ثانيهما): رضاه بما هو عليه من الحال، ودوامه عليه. فإذا اتصف بهذه الصفة أيضاً خيف عليه، لقوله تعالى في كتابه: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾<sup>(٢)</sup> قال المفسرون: معناه: أنهم يصبرون على الأفعال التي يعلمون أنها توجب لهم النار، فكان الصبر في الحقيقة على النار، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهَتِنِمْ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾<sup>(٣)</sup>، ونحن نشاهدهم يأكلون طعاماً طيب المذاق، ولكن لما أن كان ذلك الأكل يؤول بهم إلى النار جعله، عز وجل، كأنه النار.

الوجه الثالث: قوله، عليه السلام: (فسدّوا وقاربوا). (سدّدوا) أي سدّدوا ما بينكم وبين أنفسكم، وتعلّقوا بربكم في كل لحظاتكم، واستعينوا به في كل أموركم. و (قاربوا) أي إن لم تقدروا على هذا السداد فقاربوا إليه، وخذوا أنفسكم بالرياضة في الوصول إليه، ولا تغتروا بطول المهلة لئلا يقال لكم: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ﴾<sup>(٤)</sup>.

الوجه الرابع: قوله، عليه السلام: (وأبشروا). أي إن تعلّقتُم به، واستسلمتم إليه، فأبشروا أنكم تجدونه حيث تؤملون. كيف لا؟ وقد قال تعالى على لسان نبيه، عليه السلام (أنا عند ظنّ عبدي بي)<sup>(٥)</sup>.

الوجه الخامس: قوله، عليه السلام: (واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة). أي استعينوا بهذه الأوقات، واغتنموا العمل والوقوف فيها بباب مولاكم، تُعانوا على ما أريد منكم، ويسهل عليكم ما عسر. فالحاصل من هذا الوجه لمن امثله زيادة بشرى على البشرى المتقدمة، لأن الإعانة تقتضي البشرى، وقد تقدمها بشرى أخرى. والبشارات هنا متعددة، والمخير صادق والمقصود غني كريم، يقبل من المُخسِن، ويتجاوز عن المسيء. فهل من مشمّر صادق؟

ومثل هذه البشارة ما تضمنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ؟ أَلَمْ يَجْعَلْ

(١) لم نعرف مصدره.

(٢) سورة البقرة، من الآية ١٧٥.

(٣) سورة النساء، من الآية ١٠ و (ناراً) مجاز مُرْسَل علاقته المستقبليّة.

(٤) سورة فاطر، من الآية ٣٧.

(٥) حديث قدسي. متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ؟ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ؟ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِيلٍ؟ فَعَمَلَهُمْ كَمِصْفٍ  
 مَّاكُولٍ<sup>(١)</sup> وذلك أن الله، عز وجل، لما أن قال للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾  
 فقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾<sup>(٢)</sup> فغضب، عز وجل، عليهم  
 ففزعوا، فطافوا بالعرش أسبوعاً، فغفر عز وجل لهم، وأقالهم، ثم قال لهم: ابنوا في الأرض بيتاً  
 يطوف به المذنبون من بني آدم أسبوعاً، كما طفتم أنتم بالعرش فأغفر لهم وأرحمهم، كما فعلت  
 بكم. ففعلوا.

فلما جاء الطوفان رُفِعَ، وبقي أساسه، ثم أمر، عز وجل، خليله إبراهيم، عليه السلام،  
 بينانه، وأمره أن ينادي إليه، وقال له: عليك بالنداء وعلينا البلاغ. فامتثل ما قيل له، فأوقع الله صوته  
 لكل من كان سبق في علم الله أنه يحج إليه من ولد آدم في الأرحام والأصلاب. فلما أن تعرض صاحب  
 الفيل إلى هدم هذا البيت الذي جعله، عز وجل، سبباً لرحمة بني آدم، وللمغفرة لهم، وأراد أن يحج  
 الناس إلى بيت بناه صاحب الحبشة، وكان جيشه لا يطاق، فعل الله به ما قد نص في السورة.

ومتضمن الأخبار بذلك وفائدته أن تعلم عظم رحمة الله، عز وجل، ولطفه بخلقه، لأنه، عز  
 وجل، يقول بمتضمن ذلك الأخبار: (يا أيها المؤمن المذنب؛ انظر إلى أثر قدرتي، كيف أهلك  
 مَنْ أراد أن يقطع عنك رحمتي، مع تمردك عليّ، وأخذك لنعمي لتستعين بها على المعاصي؟ هذا ما  
 أنا لك، وأنت على هذا الحال. فكيف أكون لك إذا أقبلت عليّ، وامثلت أمري، وأتبع كتابي،  
 وسنة نبيي؟ أيقدر أحد على ضرك، أو يصل إليك بسوء؟ كيف تكون لو تركتك لنفسك، أو تركت  
 نصرتك إلى غيري أو أحوجتك إلى غيري؟ أقبل عليّ تجدني بك رحيماً، وعليك منعماً، ولك ولياً  
 وناصرأ. أولم تسمع خطابي لك ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup> فاستنصر بي أنصرك،  
 وتضرع إليّ أرحمك، إني أرحم بك منك وأقوى على نصرتك منك.

فمن تأمل هذه البشارة ففهمها، وعمل عليها، وجدها صدقاً حقاً. ولقد رأيت بعض الفقهاء،  
 وكانت سنه فوق المائة سنة، يقول: منذ رأيت شيخي لم أطلب حاجة من أحد. فيقال له في ذلك،  
 فيقول: إنه أوصاني وقال لي في وصيته: اجعل حاجتك في كفك. فكنْتُ كلما أردت حاجة بسطت  
 يدي إلى الدعاء، فدعوت الله في قضائها، فإن كانت خيراً قضأها لي، وإن كانت شراً أبعدأها عني.

ثم نرجع الآن إلى البحث المتقدم والكلام على الوجه الثالث عشر.

(١) سورة الفيل، الآيات ١ - ٥.

(٢) سورة البقرة، من الآية ٣٠.

(٣) سورة الروم، من الآية ٤٧.

### الوجه الثالث عشر

الأول منه : قوله ، عليه السلام : (إن الدَّيْنَ يُسْرٌ) . قد يريد به جميع الوجوه المتقدم ذكرها ، وما يتشعب منها ، أو أكثر منها ، لولا التطويل لذكرنا منها جُمْلًا كلها بأدلتها . لكن من نظر وتأمل ما أشرنا إليه على تنويع احتمالاته سهل عليه النظر فيما عداه ، وبانت له طرق الرشاد ، وتبين له اليسر على مقتضى احتمالاته ومشادة كل وجه بما يضاده ، وبشارته بحسبه ، والاستعانة فيه بحسب مناطه ، والزيادة في الكل بحسب الفضل العميم .

جعلنا الله ممن هداه لذلك بمنه ، وأسعده بما إليه هداه .

وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

## حديث وفد عبد القيس

عن ابن عباس، رضي الله عنهما قال: إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ، قال: مَنْ القوم؟ أو مَنْ الوفد؟ قالوا: ربيعة. قال: مرحباً بالقوم، أو بالوفد، غير خزايا ولا ندامى. فقالوا: يا رسول الله، إننا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، فمُرنا بأمرٍ فضّل، نُخبر به مَنْ وراءنا، ونَدْخُلُ به الجنة. وسألوه عن الأشربة، فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع. أمرهم: بالإيمان بالله وحده. قال: أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تُعطوا من المَغَنَمِ الخمس<sup>(١)</sup>. ونهاهم عن أربع: عن الحَتَم، والدِّبَاءِ، والتَّقِيرِ والمَرْقَتِ. وربما قال المُقَيَّر. وقال: احفظوهن، وأخبروا بهن مَنْ وراءكم.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على وجوب الأربعة المأمور بها فيه، وترك الأربعة المنهي عنها فيه، والحض على ذلك بالحفظ والتبليغ. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله (مَنْ الْقَوْمُ أو مَنْ الْوَفْدُ). هذا شك من الراوي في أيهما قال، عليه السلام، هل القوم أو الوفد؟ وفي هذا دليل على صدقهم وتحرزهم في النقل، لأنه لما أن وقع له الشك أبدى ما كان عنده.

الوجه الثاني: فيه دليل على أن من السنة سؤال المقصود للمقاصد عن نفسه حتى يعرفه؛ لأنه، عليه السلام، سأل عن هذه القبيلة حين قدمت عليه حتى عرفها.

(١) لعلها إشارة منه ﷺ إلى نصرهم على كفار مضر، وأخذ الغنائم منهم.

الوجه الثالث: في هذا من الفقه أن يُنزَلَ كل إنسان منزلته؛ لأن سؤاله عليه السلام إنما كان لأجل هذا المعنى، ولأنه، عليه السلام، قد نصَّ على ذلك في غير هذا الحديث حيث قال: (أنزِلُوا النَّاسَ منازلَهُمْ)<sup>(١)</sup>. فما نص عليه في هذا الحديث فعله فيما نحن بسبيله، فإذا لم يعرف الإنسان القادم عليه لم يتأتَّ له أن يُنزَلَ منزلته. ولهذا كان الخلفاء، رضوان الله عليهم، إذا جلس أحد بلزائهم، وهم في المسجد سألوه: ما معك من القرآن؟ ولا ذاك إلا لأن يُنزَلوه منزلته، لأن الفضل كان عندهم بحسب ما يكون عنده من القرآن.

الوجه الرابع: قوله (قالوا ربعة) فيه دليل على ما خصَّ الله عزَّ وجلَّ به العرب من الفصاحة والبلاغة؛ لأنه لما أن سأل، عليه الصلاة والسلام: مَنْ هم؟ لم يذكروا له أسماء أنفسهم، ولا انتسبوا إلى آبائهم وأجدادهم، لأن ذلك، يطول الكلام فيه، وقلَّ أن تتأتَّى المعرفة بهم عن آخرهم. لذلك أضرَبوا عن ذلك، وسَمُوا القبيلة التي يحصل بها المقصود، دون إطالة كلام، إبلاغاً في البيان، وإيجازاً في الاختصار.

الوجه الخامس: فيه دليل على جواز الإخبار بالكل عن البعض، لأن من قَدِم في هذا الوفد لم يكن قبيلة ربعة كلها، وإنما كان بعضها، فسموا البعض بالكل، وهذا مستعمل في السنة العرب، كثيراً ما يسمون البعض بالكل، والكل بالبعض. وهذا من فصيح الكلام.

الوجه السادس: قوله، ﷺ: (مرحباً بالقوم أو بالوفد) مرحباً، أي صادفتهم رَحْباً وَسَعَةً. وفيه دليل على التأنيس للوارد، وذلك بشرط أن يكون ما يأنسون به مطابقاً لحال المتكلم، لئلا يدرك الوردَ ظَمْعٌ في المورد عليه فيما لا يقدر عليه، لأن الرَّحْبَ والسَّعة التي أخبر بها، عليه الصلاة والسلام، للقادمين عليه كانت عنده حقيقة حِسّاً ومعنى.

الوجه السابع: فيه دليل على أن من حسن المخاطبة تسمية الوارد حين الكلام معه، لأنه، عليه السلام، قد سَمَى هذه القبيلة التي وردت عليه حين مخاطبتهم، حيث قال: (مرحباً بالقوم أو بالوفد) على شكِّ الراوي في أيَّهما قال عليه الصلاة والسلام، ولأن تسمية القادم زيادة في التأنيس وإدخال سرور عليه، وفي إدخال السرور عليه من الثواب ما قد علم، ولأنه قد يظن القادم أن الكلام مع غيره لأجل قلة أنسيه بالمَحَلِّ.

الوجه الثامن: قوله عليه السلام: (غير خزايا). أي أنتم مسعوفون<sup>(٢)</sup> في كل مطلوباتكم، لأن مَنْ لم يَخْزَ فقد أجيب وأُسْعِف، لأن نفي الشيء يوجب ضده.

(١) أورده مسلم في مقدمة صحيحه عن عائشة رضي الله عنها معلقاً.

(٢) كذا. والصواب: «مُسْعِفُونَ». وفي نسخة الأحمدية: مسعودون.

الوجه التاسع: قوله، عليه السلام: (ولا ندامي). هذا إخبار لهم بالمسرة في الآجل، لأن الندامة في الغالب لا تكون إلا في العاقبة، لأن حُبَّ الإنسان في الشيء أولاً قد يَخْفَى عليه، لأجل حبه فيه، فائدة ما ترك من أجله. فقد يتبين له بعد حصول المراد فائدة ما ترك، فيندم عليه أو يسر. فأخبرهم عليه السلام، أولاً بالخير عاجلاً وآجلاً، فلا يزال الخير لهم، والفرح متصلاً. وكذلك هو أبداً كل من قصد جهة من جهات الحق، سبحانه، حصل له الفرح والفرح عاجلاً وآجلاً، لأن النبي، ﷺ، قال: (مَنْ ترك شيئاً لله عَوْضَهُ الله خيراً منه من حيث لا يحتسب)<sup>(١)</sup>. فكل من ترك جهةً لله فهو قاصدٌ لأخرى بدلاً منها. فالوعد الجميل خير، وإنما يكون الندم والحزن والخسران في غير هذه الجهة المباركة.

الوجه العاشر: في هذا دليلٌ لأهل الصُوفة في عملهم على ترك ما سواه وإقبالهم به عليه، إذ إنَّ ذلك يُنالُ به حسنُ الحال في الحال والمآل.

الوجه الحادي عشر: قولهم: (يا رسول الله) فيه دليل على أنَّ هذا الوفد كانوا مؤمنين حين قدومهم، لأنه لو كانوا غير مؤمنين حين قدومهم لم يكونوا ليذكروا هذا الاسم، وَلَذَكَرُوا غَيْرَهُ من الأسماء.

الوجه الثاني عشر: فيه دليل على التأدب والاحترام مع أهل العلم والفضل والصَّلاح والخير، وأن يُنادَوْا بأحب أسمائهم إليهم، لأنهم نادوا النبي، ﷺ، بأحبِّ أسمائه إليه وأعلاها، وذلك من التأدب منهم معه والاحترام له.

الوجه الثالث عشر: قولهم: (إنَّا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام) هذا الشهر هو رجب الفرد، شهر الله الأصم<sup>(٢)</sup>. فيه دليل على تعظيم هذا الشهر وفضله، إذ إن الله، عزَّ وجلَّ، جعل له حرمة منذ كان في الجاهلية وفي الإسلام.

الوجه الرابع عشر: فيه دليل على عِظَم قدرة الله عزَّ وجلَّ، لأن الجاهلية قد عَظُمَت هذا الشهر، ولم تَذَرِ لماذا عَظُمَت، إلا أن ذلك وقع في نفوسها فعَظُمَت. والمؤمنون عَظَّمُوهُ لأجل إعلامهم بحرمة. فأبدى القادر ما شاء، كيف شاء، مرةً بواسطة، ومرةً بغير واسطة.

الوجه الخامس عشر: فيه دليل على لطف الله تعالى بجميع خلقه ورافته بهم، كانوا مؤمنين أو

(١) لم نعرف مصدره.

(٢) سُمِّيَ بِالْأَصَمِّ لأن العرب فيه كانوا لا يتصايحون لحرب.

كافرين، لأن إلهام الجاهلية لتعظيم هذا الشهر حتى يرفعوا فيه القتال، ويسلكوا فيه السبيل حيث شاقوا لا يعترض أحد أحداً، لطف<sup>(١)</sup> منه، عز وجل، ورحمة بهم في هذه الدار.

الوجه السادس عشر: فيه دليل على أن كل من جعل الله فيه سِرّاً من الخير وألهم أحداً إلى تعظيمه وحرمة، عادت عليه بركته، وإن كان لا يعرف حقه لأن الله، عز وجل، قد حرّم هذا الشهر، وجعل له حرمة يوم خلق السماوات والأرض. فلما ألهم هؤلاء تعظيمه مع كونهم جاهلين بحرمة عادت عليهم البركات التي أشرنا إليها.

الوجه السابع عشر: قولهم: (بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر) أي أن هؤلاء الكفار يقطعون بينهم وبين النبي ﷺ، فلا يستطيعون المجيء إليه بسببهم إلا في الشهر الفرد الذي يرتفع فيه القتال. وفيه دليل على إبداء العذر عند المعجز عن توفية الحق، واجباً كان أو مندوباً، لأنهم ذكروا العذر الذي يمتنعون بسببه من المجيء إليه ويؤنوه.

الوجه الثامن عشر: في هذا دليل لما قدمناه من أن هذا الوفد كانوا مؤمنين، لأنهم سموا مضر كفاراً؛ فلو كانوا غير مؤمنين لما سمّوهم كفاراً.

الوجه التاسع عشر: فيه دليل على أن التوفيق تخصيص بالقدرة، ولا يؤثر فيه قرب النسب، ولا قرب المكان ولا قرب الزمان، لأن قبيلة مضر<sup>(٢)</sup> أقرب فمُنِعوا، وقبيلة ربيعة أبعد فأسعدوا، ولهذا قال ابن الجوزي، رحمه الله: لو كان الظفر بالهاكل والصور ما ظفر بالسعادة بلال الحبشي وحُرِم أبو لهب القرشي.

الوجه العشرون: قولهم: (فمُرْنَا بِأَمْرِ فَضْلٍ) أي قطع، لا نَسَخَ بعده ولا تأويل، وذلك حذراً منهم لئلا يحتاجوا في أثناء السّنة للسؤال أيضاً والتعليم فلا يجدوا سبيلاً إليه، لأجل العذر الذي كان لديهم. وفيه دليل على طلب الإيجاز في التعليم مع حصول الفائدة فيه، وهو من الفقه والتيسير.

الوجه الحادي والعشرون: قولهم: (نُخِيزُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا) فيه دليل على جواز النيابة في العلم.

الوجه الثاني والعشرون: قولهم (ونَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ) فيه دليل على أنه يُبْدَأُ أولاً في السؤال عن أمر بما هو الآكد والأهم، لأنهم سألوا أولاً عن الأمر الذي يدخلون به الجنة، وهو الأهم، ثم بعد ذلك سألوا عن غيره.

الوجه الثالث والعشرون: فيه دليل على أن الأعمال هي الموجبة لدخول الجنة، ولا يظن ظان

(١) لطف: خبر لـ (أن) مرفوع بالضمة.

(٢) إن سيدنا محمداً ﷺ من مضر.

أن هذا معارض لقوله عليه السلام: (لن يدخل أحدٌ بعمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضلِهِ ورحمته) <sup>(١)</sup>.

والجمع بينهما أن يقال <sup>(٢)</sup>: الحديث الذي نحن بسبيله خطاب للعوام، لأنه مقتضى الحكمة، وعادة الله تعالى أبداً أنما يخاطبهم بما تقتضيه الحكمة، والقرآن بذلك ملآن. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ <sup>(٣)</sup> إلى غير ذلك من قوله تعالى: ﴿بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ <sup>(٤)</sup> ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ <sup>(٥)</sup> ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ <sup>(٦)</sup> ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ <sup>(٧)</sup> ﴿بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ <sup>(٨)</sup> إلى غير ذلك وهو كثير. والخطاب في الحديث الآخر لأهل الخصوص، وهم المنهمكون في التوحيد، والمحققون بالقدرة. فلو قيل لمن يتحقق بالقدرة هذا الحديث لأدى بهم الأمر إلى ترك مقتضى الحكمة، وترك العمل بمقتضى الحكمة كفر بإجماع، وإن اعتمد على القدرة والعمل بمقتضى الحكمة، وإن إجلال القدرة إيمان محض. ويدخل بذلك في ضمن قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ <sup>(٩)</sup>. والنهاية هي الجمع بين مقتضى الحكمة بتصحيح العمل وإجلال القدرة بتفويض الأمر لها.

ولهذا قال بعض الفضلاء: اعمل عمل من لا يرى خلاصاً إلا بالعمل، وتوكل توكل من لا يرى خلاصاً إلا بالتوكل. ولأجل العمل على هذه الصفة أثنى، عز وجل، في كتابه على يعقوب، عليه السلام، حيث قال: ﴿وَأَنذَرْتُ لَدُوَّ عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ <sup>(١٠)</sup> لأنه جمع بين الحقيقة والشرعية. وسأذكر ذلك وأبينه في موضعه من داخل الكتاب، إن شاء الله تعالى.

الوجه الرابع والعشرون: قوله: (وسألوه عن الأشربة). الأشربة في اللغة تطلق على كل شراب، عدا المحرّم، لأن المحرّم عندهم يسمى بالخمير. والأشربة المعهودة عندهم هي ما كان من نقيع التمر ونقيع الزبيب وغير ذلك مما فيه مصلحة لهم. وفي سؤالهم عن الأشربة دليل على أنه

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق ومسلم في صفة القيامة والجنة وابن ماجه في الزهد بألفاظ مختلفة.  
(٢) جاء في النسخ الأخرى بدلاً من هذا التعليل ما يلي: (إن الأعمال هي سبب لدخول الجنة. ثم إن التوفيق للأعمال، والهداية للإخلاص فيها، وقبولها برحمة الله تعالى وفصله. فصَحَّ أنه لم يدخل الجنة بمجرد العمل، وصَحَّ أنه دخل بالأعمال، أي بسببها، وهي من الرحمة. فدخول الجنة برحمة الله تعالى، والدرجات بحسب الأعمال).

(٣) سورة النحل، من الآية ٣٢.

(٤) سورة التغابن، من الآية ٧.

(٥) سورة الأعراف، من الآية ٣٩.

(٦) سورة البقرة، من الآية ١٤١.

(٧) سورة الحاقة، من الآية ٢٤.

(٨) سورة النمل، من الآية ٨٨.

(٩) سورة يونس، من الآية ٢.

(١٠) سورة يوسف، من الآية ٦٨.



بلغهم في بعضها تحريم أو نهى، لأنه لو لم يبلغهم في ذلك شيء لما سألوه عنها. وفيه زيادة دليل لما قدمناه من أنهم كانوا مؤمنين قبل قدومهم.

الوجه الخامس والعشرون: قوله: (فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع) فيه دليل على أن الجواب لا يكون إلا بعد تمام الخطاب، لأنه، عليه السلام، لم يجاوبهم حتى أتوا جميع سؤالهم.

الوجه السادس والعشرون: فيه دليل على أن الفصيح من الكلام: الإجمال أولاً، ثم التفسير للإجمال بعده، لأنه، عليه السلام، أجملَ لهم أولاً، ثم بعد ذلك فسّر ما أجملَ. والحكمة في ذلك أنه عند الإخبار بالإجمال يحصل للنفس المعرفة بغاية المذكور، ثم تبقى متشوقة إلى معرفة معناه، فيكون ذلك أوقع في النفس، وأعظم في الفائدة.

الوجه السابع والعشرون: (أمرهم بالإيمان بالله وحده). فيه دليل على أنه يبدأ من الجواب بما هو الأهم والآكد، لأنه، عليه السلام، بدأ أولاً بالأصل الذي هو الإيمان، ثم بعد ذلك أجاب عن الغير.

الوجه الثامن والعشرون: فيه دليل لقول من يقول بأن الكفار ليسوا بمخاطبين بفروع الشريعة، لأنه، عليه السلام، لم ينص على الأعمال حتى أثبت الإيمان.

الوجه التاسع والعشرون: قوله (أتدرون ما الإيمان بالله وحده). فيه دليل على استفهام المعلم للمتعلم عما يريد إلقاء إليه، لأنه، عليه السلام، استفهم عن حقيقة فهمهم في الإيمان، ثم بعد ذلك بيّنه لهم.

الوجه الثلاثون: قوله: (قالوا: الله ورسوله أعلم). فيه دليل على التأدب والاحترام مع أهل الفضل والدين، لأنهم التزموا الأدب بين يدي النبي ﷺ، فردوا الأمر إليه فيما استفهم عنه تأدباً واحتراماً منهم له، والحكمة في ردهم الأمر إليه من وجوه: (الأول): التأدب كما تقدم. (الثاني): أن سمعهم منه تحقيق وتثبيت لما كان عندهم. (الثالث): خيفة التوقع لئلا يكون زاد في الأمر شيء أو نقص، لأن الله، عز وجل، يحدث من أمره ما شاء بالزيادة والنقص، وهذا الوجه قد انقطع بانتقال الشارع، عليه السلام، والوجهان الأولان باقيان، لأن عليهما موجودة.

الوجه الواحد والثلاثون: في هذا دليل لما قدمناه من أن هذا الوفد كانوا مؤمنين، لأنهم التزموا الأدب بين يدي النبي ﷺ، واحترموا غاية الاحترام، وذلك مثل ما التزم الصحابة، رضي الله عنهم، من التأدب والاحترام حين قال لهم، ﷺ: (أي بلد هذا؟ أي شهر هذا؟ أي يوم هذا؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم<sup>(١)</sup>). وقد أقرّوا في هذا اللفظ لله بالوحدانية، وله، ﷺ، بالرسالة.

(١) رواه البخاري في الحج، ومسلم في القسامة.

الوجه الثاني والثلاثون: قوله: (قال شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله) فيه دليل لمن يقول بأن أول الواجبات الإيمان دون نظير ولا استدلال، لأنه، عليه السلام، لما أن ذكر لهم الإيمان لم يذكر لهم بعده نظراً ولا استدلالاً.

الوجه الثالث والثلاثون: فيه دليل على جواز الجواب بأكثر مما سئل عنه، بل يلزم ذلك إذا كان هو الأصل الذي عليه يتقرر الجواب، وبعد صحته يتقرر السؤال، لأنهم إنما سألوه عن الأفعال التي توجب لهم الجنة، فأجابهم عليه السلام، عن الأفعال والاعتقاد، وهذا مثل قوله، ﷺ، حين سئل عن ماء البحر، فقال: (هو الطهور ماؤه، الجِلُّ مَيْتُهُ)<sup>(١)</sup>، فأجاب بأكثر مما سئل عنه، لأن الحاجة دعت إليه.

الوجه الرابع والثلاثون: قوله: (وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، وصيامُ رمضان، وأن تعطوا من المَغْنَمِ الخُمْسَ) فيه دليل على أن الفروع لا ترتب على الأصول إلا بعد تحققها، لأنه، ﷺ، لم يذكر لهم فروع الإيمان حتى تحقق منهم به، وإن كان ما تقدم له من قرائن الحال يقتضي أنهم مؤمنون، كما ذكرنا، لكن لم يقنع بذلك حتى كان بالمشاهدة والتعليم.

الوجه الخامس والثلاثون: قد اختلف العلماء في ترك النبي، ﷺ، ذكر الحج هنا. فمن قائل يقول: إنما سكت عن الحج لعلم الناس به من كثرة شهرته، وهذا ليس بالجيد، لأنه يلزم على ذلك ألا يذكر الصلاة من باب أولى، لأن الصلاة تتكرر في اليوم خمس مرات، وذلك أعظم ما يكون من الشهرة. والحج إنما هو مرة في السنة، فقد لا يعرف، ولا يعهد، ولا سيما في أول الإسلام. ومن قائل يقول: إنما لم يذكره لأنه لم يكن فرض بعد. وهذا لا بأس به، لكن بقي عليه شيء. وهو: أن هذا الوفد قد اختلف في قدومه، فقليل: كان قدومه سنة خمس، وقيل سنة سبع، وقيل سنة تسع. فعلى القول بأن قدومه سنة خمس أو سبع فهذا التوجيه صحيح، لأن الحج لم يكن فُرِضَ بَعْدُ، وعلى القول بأن قدومه كان سنة تسع فيبطل التوجيه بذلك مرة واحدة.

ويظهر لي في هذا أنه إن كان القدوم سنة خمس أو سبع فالتوجيه ما قاله هذا القائل من أن الحج لم يكن فُرِضَ بَعْدُ، وإن كان قدومه سنة تسع فالتوجيه الذي لا خفاء فيه هو أنه إنما سكت عن الحج لأن الله، عز وجل، لم يفرضه إلا مع الاستطاعة، وهؤلاء ليس لهم استطاعة، لأن العدو قد حال بينهم وبين البيت، وهم كفار مضر. فكيف يذكر لهم الحج وهم قد نصوا له أولاً على العلة التي هي موجبة لسقوطه عنهم؟ فيكون تكليف ما لا يطاق؟ وذلك ممنوع في هذه الشريعة السمحة.

(١) رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن الأربع وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم انظر إلى ما يؤيد هذا ويوضحه، وهو أنه لما أن ذكروا له أنهم في المضاربة مع أعدائهم، والمضاربة إذا كانت فللغالب الغنيمة، فأضرب لهم عمّا لا يجب عليهم، وهو الحج، لأجل العذر الذي ذكروا له، ونص لهم على الخمس الذي لم ينصّ لغيرهم عليه، لأجل علمه بأنهم محتاجون إلى ذلك، لأجل أن الغنيمة في ضمن القتال، كما تقدم<sup>(١)</sup>.

الوجه السادس والثلاثون: في هذا دليل على أن يخبر كل إنسان بما هو واجب عليه في وقته ولا يلزم غير ذلك، لأنه، عليه السلام، ذكر لهم ما هو الواجب عليهم في وقتهم، وترك ما عداه، وإن كان يلزمهم بعد ذلك. ولأجل هذا قال بعض العلماء في معنى قوله، ﷺ: (طلب العلم فريضة على كل مسلم)<sup>(٢)</sup> قالوا: المراد به ما هو واجب عليه في وقته<sup>(٣)</sup>.

الوجه السابع والثلاثون: لقائل أن يقول: قد قال أولاً فأمرهم بأربع، ثم أتى في التفسير بخمس، وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وإعطاء الخمس؟ والجواب: أنهم سألوا عن الأعمال الموجبة لدخول الجنة. فأمرهم، عليه السلام أولاً بالأصل الذي تترتب عليه الأعمال، وهو الإيمان، ثم أجابهم بعد ذلك بالأربع.

فإن قال قائل: نعدّ الإيمان من الأربع ونجعل الآخر زائداً على الأربع. قيل له: ليس الأمر كذلك، لأنه قد علم أنهم مؤمنون، بالأدلة التي تقدمت في الحديث على ما بيّناه، لكن احتاج إلى ذكر الإيمان هنا للمعنى الذي قدمناه، وهو ألا يكون فرع إلا عن أصل متحقق، فذكره ليقعّد هذه القاعدة الشرعية. وفيه أيضاً معنى ثانٍ وهو أنه لو كان الزائد الخامس لأبداه الراوي، فقال: وزادهم على ذلك، لأنه قد تحرى فيما هو أقل من هذا في أول الحديث حيث قال: مَنِ الوفاء أو مَنِ القوم؟ فكيف به في هذا؟ وعادة الصحابة أبدأ التحري الكلي والضبط الكلي في نقلهم، فلما كان الأمر ظاهراً، كما ذكرنا، لم يحتج إلى بيان، ولا إلى عذر.

(١) جاء في حاشية نسخة باريس نقلاً من ابن حجر، ما يلي: «... قول من قال: إن ترك ذكره - يعني الحج - لأنهم لم يكن لهم إليه سبيل من أجل كفار مضر ليس بمستقيم، لأنه لا يلزم من عدم الاستطاعة في الحال ترك الإخبار به ليعمل به عند الإمكان كما في الآية. بل دعوى أنهم كانوا لا سبيل لهم إلى الحج ممنوعة، لأن الحج يقع في الأشهر الحرم، وقد ذكروا أنهم كانوا يأمنون فيها. لكن يمكن أن يقال: إنه إنما أخبرهم ببعض الأوامر لكونهم سألوه أن يخبرهم بما يدخلون بفعله الجنة، فاقصر لهم على ما يمكنهم فعله في الحال، ولم يقصد إعلامهم بجميع الأحكام التي يجب عليهم فعلاً وتركاً. ويدل على ذلك اقتصره في المناهي على الانتباه في الأوعية مع أن في المناهي ما هو أشد في التحريم من الانتباه، لكن اقتصر عليها لكثرة تعاطيهم لها».

(٢) رواه ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه. (انظر النظم المتناثر ٢٦/٢٧).

(٣) كان هذا الحديث يشير إلى وجوب إتقان العلوم المستجدة في كل عصر، لتبقى الأمة الإسلامية رائدة وسابقة لغيرها، ولتلا تكون عالة في هذه المخترعات والاكتشافات الجديدة على غيرها فيسهل استنزاف خيراتها وثرواتها وخيرة أبنائها.

الوجه الثامن والثلاثون: فيه دليل على أن تارك هذه الأفعال المذكورة لا يدخل الجنة، وإن كان مُقِرّاً بها، لأنهم سألوا عن الأعمال التي بها يدخلون الجنة، فنص لهم، عليه السلام، على هذه الأعمال بعدما قرر لهم الإيمان، كما تقدم. فالحاصل من هذا: أنهم إن لم يعملوا ما نص لهم لم يدخلوا الجنة، وإذا لم يدخلوا الجنة دخلوا النار، لأنه ليس هناك إلا الداران. وبهذا يحتج من يقول: بأن التارك لها مع إقراره بها يقتل كفراً، وهو القليل، والجماعة على أنه يقتل حداً لا كفراً. وهو في المشيئة إن شاء، عز وجل، عذبه، وإن شاء ففر له. وإذا عذبه فالتخليد ليس هناك لاعتقاده الإيمان.

الوجه التاسع والثلاثون: في هذا دليل على أنه يُبدأ أولاً بالفرائض، ويبدأ من الفرائض بالأوكد فالأوكد، لأن الفرائض كثيرة مثل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك، ولكنه ﷺ، قد فضل هذه على غيرها، وما فضل على الغير فالمحافظة عليه أكد، مع أن المحافظة على الكل واجبة. الوجه الأربعون: فيه دليل على فضل العلم على غيره من الأعمال، لأنه لا يُعلم هذا وأمثاله إلا بالعلم. وعدم العلم به سبب لوقوع الخلل فيه. وإذا وقع الخلل فيه أو ترك وقع الحرمان من دخول الجنة والهلاك، نعوذ بالله من ذلك.

الوجه الحادي والأربعون: فيه دليل على أن أفضل العلوم علم الكتاب والسنة، لأنه لا يعرف هذا وأمثاله إلا من الكتاب والسنة، وهو المقطوع به والمخلص<sup>(١)</sup>.

الوجه الثاني والأربعون: قوله: (ونهاهم عن أربع: الحثم، والدُّبَاء، والنَّقِير، والمزَقَّت وربما قال المقيّر) الحثم: اختلف فيه، فقيل: هو المظليّ بالزجاج، وقيل: هو الخليّ عن ذلك. والدُّبَاء هي اليقطين. والنَّقِير هو عود النخل كانت العرب تحفر عود النخل وتنبذ فيه. والمزَقَّت هو ما طلي بالزفت، وربما قال: المقيّر. شك من الراوي في أيهما قال ﷺ، ولكن المعنى يجمعه مع الأربع، وإن كان لم ينص عليه، لأن المقيّر هو ما طلي بالقار.

الوجه الثالث والأربعون: ظاهر هذا النهي يدل على تحريم الانتباز في هذه الأواني، لأن النهي يقتضي التحريم، وليس كذلك لقوله، عليه السلام، حين سئل عنها ثانية فقال: (إنبذوا، وكلُّ منكرٍ حرام)<sup>(٢)</sup>. فأخبر، عليه السلام، أن النهي إنما كان خيفة إسراع التخمر، فإذا أُمن من ذلك، فلا بأس به.

الوجه الرابع والأربعون: فيه دليل لمذهب مالك، رحمه الله، حيث يقول بسدِّ الذرائع، لأنه، ﷺ، إنما نهى عن الانتباز في هذه الأواني، لأن التخمر يسرع فيها.

(١) كأنه يريد: المتفق عليه.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائي بألفاظ مختلفة.

الوجه الخامس والأربعون: فيه دليل لمذهب مالك، رحمه الله، أيضاً في المشهور عنه أن المرء يخاطب بالإيمان وإن لم تبلغه الدعوة، لأن نهي، عليه السلام، عن الانتباز في هذه الأواني إنما هو من أجل التخمير الذي يسرع إليه، كما قدمنا، وصاحبه لم يشعر به فيشر به جاهلاً به، فيكون قد شرب حراماً، وهو لم يشعر، فيعاقب عليه. فنهى، عليه السلام، عنها لأجل هذا المعنى، وإنما أحلها لهم بعد ذلك لأنهم قالوا: إن أرضنا لا تحمل الأزقاق<sup>(١)</sup> من أجل حيوان عندهم يقطعها لهم. فلما أن تبين له هذا العذر منهم، ورأى أنهم مضطرون إليها، قال: (انبذوا، وكلّ منكرٍ حرام) إيقاظاً لهم وتنبيهاً على تفقدها في كل وقت وحين، لئلا يسرع التخمير لها وهم غافلون.

الوجه السادس والأربعون: فيه دليل على فصاحته، عليه السلام، وإبلاغه في إيجاز الكلام مع إيصال الفائدة بالبيان، لأنهم سألوا عن الأشربة، وهي كثيرة. فلو ذكرها لاحتاج إلى تعددها كلها ووصفها، ولكنه، عليه السلام، أضرب عن ذلك وأجاب عن الأواني المذكورة لا غير. فكأنه، عليه السلام، يقول: الأشربة كلها حلال إلا ما نبذ في هذه الأواني. فكان هذا تصديقاً لقوله، عليه السلام: (أوتيت جوامع الكلم)<sup>(٢)</sup>.

الوجه السابع والأربعون: ظاهر هذا الإخبار يدل على أن الأشربة كلها حلال. وليس كذلك، لنهي، عليه السلام، في حديث آخر، عن شراب الخليطين مثل التمر والزبيب<sup>(٣)</sup>، أو الزبيب والعنب، إلى غير ذلك، مع أن العلة واحدة في الكل، وهي إسراع التخمير. فعلى هذا يجب اطراد هذه العلة، فحيثما وجدت وقع المنع، وحيثما فقدت اطردت الإباحة.

الوجه الثامن والأربعون: قوله، عليه السلام: (احفظوهن) فيه دليل على الأمر بحفظ العلم، والوصية عليه.

الوجه التاسع والأربعون: قوله، عليه السلام: (وأخبروا بهن من وراءكم) فيه دليل على الحض على نشر العلم وتبيينه، وفيه دليل لما قدمناه وهو جواز النيابة في العلم.

وصلّى الله على سيّدنا مولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

(١) الأزقاق: ج زق (بكسر الزاي) وهو السقاء من جلد الحيوان الذي يجزّ ولا يُتَف.

(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عمر رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

## حديث احتساب النفقة على الأهل

عن أبي مسعود البدري<sup>(١)</sup>، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: إذا أنفق الرجل على أهله، يَحْتَسِبُهَا، فهي له صدقة.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن الإنفاق مع الاحتساب صدقة. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله، عليه السلام: (إذا أنفق الرجل). النفقة هنا هي: ما أوجب الله تعالى على الرجل لعياله من الطعام والشراب والكسوة والخدمة والسكنى، وغير ذلك من ضروراتهم المعلومه عادة وشرعاً. ولذلك قال: (أنفق) ولم يقل (أطعم)، لأن (أنفق) يعم كل ما ذكرناه، و (أطعم) لا يفيد إلا المأكل لا غير.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام: (على أهله) الأهل هنا يحتمل وجهين: (الأول): أن يكون المراد الزوجة، ليس إلّا. (الثاني): أن يكون المراد الزوجة وكل ما تلزمه نفقته شرعاً، لأن العرب تقول: أهل الرجل، وهي تريد زوجته. وتقول: أهل الرجل، وهي تريد أهله وأولاده. وقد جاء المعنيان في الكتاب وفي الحديث. أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾<sup>(٢)</sup> وكان ذلك زوجته وبنيه وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ﴾<sup>(٣)</sup>. وأما الحديث فقول أسامة للنبي ﷺ: أهلك يا رسول الله<sup>(٤)</sup>. يريد زوجته لا غير. والأظهر من هذين الوجهين: العموم، لأنه وإن

(١) اسمه: عقبة بن عمرو. يعرف بـ (البدرى) لأنه سكن أو نزل ماء بَدْر - في أصح الأقوال - وشهد العقبة. ت ٤١هـ / ٦٦١م.

(٢) سورة ص، من الآية ٤٣.

(٣) سورة الأعراف، من الآية ٨٣.

(٤) جزء من حديث الإفك. رواه البخاري ومسلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

كان المراد الزوجة لا غير، فغيرها من باب أولى، لأن الزوج له الاستمتاع بها في مقابلة النفقة عليها<sup>(١)</sup>، والنفقة على الأهل ما عداها ليس فيه ذلك، وفيه زيادة صلة الرحم.

الوجه الثالث: قوله، عليه السلام: (يحتسبها) الاحتساب: هنا هل يشترط فيه إحضار الإيمان، أو لا؟ احتمل الوجهين معاً.

فإذا كان المراد الإيمان والاحتساب معاً فيكون ترك ذكر الإيمان هنا للعلم به وشهرته، ولأنه قد ذكره في غير ما حديث. من ذلك قوله، عليه السلام: (من قام رمضان إيماناً واحتساباً)<sup>(٢)</sup> إلى غير ذلك، فيكون الاحتساب يتضمن الإيمان.

وإن كان المراد به الاحتساب دون شرط إحضار الإيمان فيكون لفظ الحديث على ظاهره. وهذا أظهر وأرجح، والله أعلم، بدليل أنه، عليه السلام، لما أن ذكر هنا الاحتساب وحده جعل ثوابه ثواب الصدقة. ولما أن ذكر الإيمان وحده في حديث آخر جعل ثوابه حسنات. والحديث هو قوله عليه السلام: (مَنْ احْتَبَسَ فِرْسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِيْمَانًا بِاللَّهِ، وَتَصَدِيقًا بِوَعْدِهِ فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَهُ حَسَنَاتٌ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)<sup>(٣)</sup>. ولما أن ذكر الإيمان والاحتساب معاً جعل ثوابه مغفرة للذنوب، وهو أعلى الثواب، كما تقدم في حديث ليلة القدر.

الوجه الرابع: هل هذه الصدقة مقصورة في هذا الموضع لا تتعداه، أو هي متعدية؟ احتمل الوجهين معاً. والظاهر التعدي، لأنه، عليه السلام، قد نص على ذلك في غير هذا الحديث حيث قال: (ويميط الأذى من الطريق صدقة، والكلمة الطيبة صدقة)<sup>(٤)</sup> إلى غير ذلك مما جاء في هذا المعنى وهو كثير، ولأنه، عليه السلام، قد جعل لإحضار الإيمان والاحتساب أجراً زائداً، وذلك يدل على أنه مقصود بنفسه، وإذا كان مقصوداً بنفسه اقتضى تعديه لكل الأعمال، واجباً كان أو ندباً، ولأنه، عليه السلام، قد قال: (أوقع الله أجره على قدر نيته)<sup>(٥)</sup>. والنية هي القصد لفعل من

---

(١) إذا كان استمتاع الرجل بزوجه في مقابلة النفقة عليها، فاستمتاعها به في مقابل ماذا؟ ونرى أن الاستمتاع حق مشترك على السواء، كما قرره المحققون من الفقهاء، وليس للزوج حق هجر زوجته (الإيلاء منها) أكثر من أربعة أشهر. وليس المراد تعليق الاستمتاع بشرط الإنفاق، فقد يبقى استمتاع الزوج بزوجه من غير إنفاق عليها لفقره المدقع، ويبقى ينفق عليها إذا كانت مريضة دون أن يستمتع بها.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في الصلح ومسلم في الزكاة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأوله: كل سُلَامَى من الناس عليه صدقة.

(٥) جزء من حديث أخرجه الإمام مالك في الموطأ، والإمام أحمد في المسند، والنسائي من حديث جابر بن عتيك رضي الله عنه، وأوله: ما تعدون الشهادة؟ قالوا: القتل في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: الشهداء سبعة.

الأفعال، واجباً كان أو ندباً، فهي معنى لا تزيد ولا تنقص، وإنما ترتفع وتسمو بانضمام أحد هذين الوجهين لها أو كليهما، وهما الإيمان والاحتساب.

الوجه الخامس: في هذا دليل لأهل الصوفة حيث يأخذون في تنمية أفعالهم، واجباً كان أو ندباً، بحسن نياتهم. أما الواجب فيزيدون فيه الإيمان والاحتساب. وأما المندوب فيزيدون فيه أكثر من ذلك، لأنهم يندرونه أولاً على أنفسهم، فيصير واجباً، ثم بعد الوجوب يزدون فيه نية الإيمان والاحتساب، وأما المباح فيتخذونه عوناً على طاعة ربهم، فيصير مندوباً، ثم بعد ذلك يزدون له الإيمان والاحتساب، فترتفع أعمالهم لأجل ذلك، وتسمو همهم. ولأجل هذا المعنى كان لهم القدم السابق على غيرهم، وإن كانت أفعالهم مع أفعال غيرهم في الظاهر على حد سواء، وقد قال عليه السلام: (إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم)<sup>(١)</sup>.

الوجه السادس: قوله، عليه السلام: (فهو له صدقة). الصدقة هنا بمعنى الأجر، لأنه ليس الفائدة في الصدقة إعطاءها، وإنما الفائدة فيها ما يترتب عليها من الأجر. وهذا الأجر المنصوص عليه هنا ليس هو ثواب ذلك العمل وحده، وإنما هو زيادة الأجر الذي له في النفقة، لأن النفقة عليه واجبة. ومن فعل الواجب كان مأجوراً لامثاله الأمر، وزيد بحسب ما زاد من إحضار الاحتساب أو الإيمان، أو هُما معاً، أجراً ثانياً.

الوجه السابع: في هذا دليل على أن إحضار الإيمان والاحتساب مندوب إليهما في الأفعال، وليسوا واجبَيْن، لأنه، عليه السلام، عَيَّن لفاعلهما الثواب، ولم يخبر أن على تاركهما عقاباً، وهذه الصفة هي للمندوب.

الوجه الثامن: لقائل أن يقول: لِمَ جعل في الإيمان والاحتساب هذا الثواب المذكور، مع أنه ليس فيهما تعب ولا كبير مشقة، لأن الجوارح لا تتحرك فيهما ولا تتصرف؟ والجواب: أنه إن قلنا إن ذلك تعبد فلا بحث يرد عليه. وإن قلنا: إنه معقول المعنى، فحيث يحتاج إلى البيان: والأظهر من الوجهين أنه: معقول المعنى.

بيان ذلك: أن القلب جارحة بنفسه، وإحضار النية فيه بهذه الأوصاف تعب للنفس، وزيادة تعب النفس يزيد به الأجر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾<sup>(٢)</sup> وكل نوع من الأنواع التي تتعب النفس يسمى مجاهدة - وقد تقدم في الحديث قبل - ولأن له أن يفعل ما أمر به على حدة، واجباً أو مندوباً دون إحضار الإيمان والاحتساب، بل له أن يفعل بعض الأفعال دون

(١) رواه مسلم في باب البر والصلة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة العنكبوت، من الآية ٦٩.



إحضار النية البتة، بدليل قوله عليه السلام: (خير الأعمال ما تقدمته النية)<sup>(١)</sup>. فقد جعل، عليه السلام، إحضار النية في العمل من باب الخيرية. وإذا كان ذلك في باب الخيرية فإيقاع العمل دونها جائز مجزئ. وإلى هذا ذهب أكثر العلماء.

لكن هذا ليس على العموم بمقتضى ما يدل عليه صيغة اللفظ، وإنما هو في بعض الأعمال دون بعض، بحسب ما تقتضيه قواعد الشريعة، لأن الأعمال تختلف، فمنها ما يكون واجباً، ومنها ما يكون مندوباً، لا يعمل إلا لله، ومنها ما يكون مندوباً. وقد يعمل لله، وقد يعمل لغير الله.

أما الواجب فلا بد من إحضار النية فيه، لأن الواجبات جعل لها حدود وصفات وأسماء، فلا بد من تعيين ذلك بالنية وإلا فالعمل باطل، مثال ذلك الصلوات المفروضة، لها أسماء وصفات وحدود، فلا بد من تعيين الصلاة لتمييزها عن غيرها. فيحتاج إلى النية عند الإحرام لهذه العلة، وتكون نيته بخمسة شروط على مذهب الشافعي: (الشرط الأول): تعيين الصلاة. (الثاني): اعتقاد وجوبها. (الثالث): العمد إلى أدائها. (الرابع): إحضار الإيمان إذ ذاك. (الخامس): ما قدمناه من اقتران النية بالإحرام.

أما عند الإمام مالك رحمه الله، فلم يحك عنه في ذلك شيء، واختلف أصحابه في ذلك كثيراً. فمنهم من شرط فيها مثل شرط الإمام الشافعي، رحمه الله، منهم من قال: إن وقعت بتلك الأوصاف قبل الإحرام بيسير أجزاء. ومنهم من قال: يكفي في ذلك العمد إلى الصلاة بعينها، وزيادة تلك الأوصاف زيادة كمال. وهذا هو الأظهر من مذهب مالك، رحمه الله، في هذه المسألة، لأنه لو كان ذلك واجباً، وترك الكلام فيه لما صح أن يكون إماماً، وقد أجمعوا على أنه إمام. واختلف في تعيين الركعات، وتعيين الزمان، إلى غير ذلك، وهو مذكور في كتب الفقه.

ومثل ذلك أيضاً تحلّة اليمين<sup>(٢)</sup>، إن أعتق المرء، أو تصدق، أو صام، ولم ينو تحلّة اليمين لم يجزئه عن كفارته، وأعاد مرة أخرى. وكذلك أيضاً كفارة الظهار<sup>(٣)</sup>، وصدقة المال، إلى غير ذلك من سائر الواجبات، إن لم يحضر النية لذلك لم تنفعه ويعيد.

وأما المندوب الذي لا يعمل إلا لله، فهذا هو الذي يدخل في ضمن قوله، عليه السلام، (خير الأعمال ما تقدمته النية) ففعله دون نية مجزئ، وتقديم النية فيه زيادة خير. مثال ذلك من قام يتنفل

(١) لم يعرف مصدره.

(٢) تحلّة اليمين: من حلّ اليمين تحليلاً وتحلّة وتحلاً: جعلها حلالاً بكفارة، أو بالاستثناء المتصل نحو: والله لأفعلن ذلك إلا أن يكون كذا.

(٣) الظهار: هو طلاق الجاهلية ونهى عنه الإسلام. يقول الرجل لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي. أي أنت عليّ حرام.

بركعتين، فهو مأجور في إيقاعهما، وإن لم يحضر نية، لأن هذا الفعل بوضعه لا يكون إلا لله، وتقدم النية فيه أفضل. كذلك أيضاً إعطاء الصدقة التي ليست بواجبة، إذا أعطاها لمن لم يتقدم له به معرفة، ولم يكن له عليه حق، فبنفس الإعطاء حصل الأجر، وإن لم يكن له نية، وتقدم النية أفضل. وأما المندوب الذي يعمل لله، ويعمل لغير الله، فهذا لا بد من إحضار النية فيه لأنه مشترك، فيحتاج إلى إحضار النية ليخلصه الله. مثال ذلك الغسل للجمعة، على قول من يقول بأنه سنة، لأنه يشترك فيه التعبد وغيره. فقد يغتسل تعبدًا، وقد يغتسل تبردًا وتنظيفًا، فيوقع النية ليفرق بين المباح والتعبد.

الوجه التاسع: لقائل أن يقول: لم جعل في أعمال الباطن هذا الثواب، وهو أعظم من الثواب على أعمال الظاهر، وجعل إحضار الباطن سبباً في صحة جل أعمال الظاهر؟

الجواب: أنه إن قلنا: إن ذلك تعبد فلا بحث، وإن قلنا: إنه معقول المعنى، فحينئذ يحتاج إلى بيان. والأظهر أن ذلك لحكمة، وهي - والله أعلم - أنه لما كان أجل الأشياء من جميع النعم والتعبدات الإيمان، ومحله القلب، فكل ما كان صادراً عن المحل الذي هو وعاء للإيمان كان أجلاً من غيره. يؤيد هذا قوله، عليه السلام: (مُضَغَّةٌ فِي الْجَسَدِ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)<sup>(١)</sup>. فصلاحه أعظم من صلاح غيره، وفساده، أعظم من فساد غيره، لأن الجوارح كلها متقادة إليه.

جعلنا الله ممن أصلح منه الظاهر والباطن بَمَنِّهِ.

وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

(١) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

## حديث مَنْ يُرِدُ اللَّهَ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ

البخاري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، ﷺ: مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ. وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ.

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على تعليق الخير بالفقه، وأن العلم لا يُنال إلا بالتعلم. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله، عليه السلام (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً). الإرادة المذكورة هنا، هل هي على بابها، أي على ما تقتضيه صيغة اللفظ فيكون في المستقبل أو يكون بمعنى الماضي؟ احتمال الوجهين معاً، لأن العرب تستعمل المعنيين في كلامها. وقد جاء القرآن والحديث بذلك في غير ما موضع. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَأَمَرَ آلَ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup> وهو يأتي بعد الخطاب، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾<sup>(٢)</sup> والمراد به يوم القيامة. فإن كان المراد بصيغة لفظ الحديث هذا المعنى، وهو أن يكون للماضي، فمعناه ما سبق من حكمته، عز وجل، وقدرته.

وإن كان المراد به الوجه الثاني - وهو أولى، لأن اللفظ يُحمَل على صيغته في المستقبل، ويكون بذلك مطابقاً للفعل الصادر من العبد، لأن فعل العبد لا يكون إلا بإرادة المولى وقدره، قال تعالى في كتابه: ﴿فَسَتِيسِرُ لِلْيَشْرَى﴾<sup>(٣)</sup> ﴿فَسَتِيسِرُ لِلْمُشْرَى﴾<sup>(٤)</sup> وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ

(١) سورة النحل، من الآية ١.

(٢) سورة المائدة، من الآية ١١٦.

(٣) سورة الليل، من الآية ٧.

(٤) سورة الليل، من الآية ١٠.

الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ<sup>(١)</sup> وهو، عز وجل، قد علم من هو الصادق، ومن هو الكاذب. لكن المراد بهذا العلم العلم الذي يقع عليه الجزاء بمقتضى الحكمة - فإن كان المراد به هذا المعنى فتكون الإرادة في العاقبة.

ولأجل احتمال هذين المعنيين لهذه الألفاظ وما شاكلها افترق المؤمنون على طائفتين. فطائفة غلب عليها الخوف من السابقة، وطائفة غلب عليها الخوف من الخاتمة. وإن كان المعنيان متلازمين لأن السابقة إذا تضمنت الخير أو الشر فالخاتمة في ضمنها داخله، وكذلك بالعكس.

لكن بينهما فرق ما من طريق المشاهدة وعدمها، وهو أن السابقة لا يعلمها أحد إلا الله، عز وجل، أو من شاء إطلاعها عليها بالإخبار له، وذلك من باب (خرق العادة) وهي لا تكون إلا للأفراد، فلا يقع بالسابقة علم إلا عند معاينة الخاتمة، لأنها تدل عليها، إذ هي تتضمنها. والخاتمة بخلاف السابقة، لأنها مشاهدة مدركة حين يقضي الله بها، يعاينها الناس بعضهم من بعض، ويعاينونها من أنفسهم، ولهذا قال، عليه السلام: (من مات على خير عمله فارجوا له خيراً)<sup>(٢)</sup>.

وقد نطق الكتاب والحديث بهما معاً، فقال تعالى في السابقة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى في الخاتمة: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٤)</sup>. قال العلماء: معنى التثبيت في الحياة الدنيا عند الموت، والثبات في الآخرة: عند سؤال الملكين في القبر. وأما الحديث فقوله عليه السلام، لأبي هريرة: (جفَّ القلمُ بما أنتَ لاقِ فاقْتَصِرْ)<sup>(٥)</sup> على ذلك أو زد، فدل على السابقة، وقوله عليه السلام: (إنما الأعمال بخواتيمها)<sup>(٦)</sup>، فدل على الخاتمة.

الوجه الثاني: قوله (خيراً). احتمال أن يكون (الخير) هنا محمولاً على صيغة لفظه، فيكون على العموم، لأن الصيغة منكّرة، واحتمل أن يكون معناه الخصوص، لأن ذلك سائغ في السنة العرب. فإن كان المراد به العموم فيكون معناه الخير في الدنيا وفي الآخرة. وإن كان المراد به الخصوص فيكون معناه ما قاله بعض العلماء أن المراد بالخير المطلق (الجنة)، وهذا ليس بالقوي، والأول أولى.

(١) سورة العنكبوت، من الآية ٣.

(٢) رواه الديلمي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٣) سورة الأنبياء، من الآية ١٠١.

(٤) سورة إبراهيم، من الآية ٢٧.

(٥) رواه البخاري في النكاح عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه الطبري، حكاه الحميدي في الجمع بين الصحيحين. وفي رواية (فاختصر) من الخصاء، وهو تعطيل قوة الذكر عن الجماع والإنجاب.

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده عن معاوية رضي الله عنه.

الوجه الثالث : قوله ، عليه السلام : (يفقهه) . الفقه هو الفهم يقال : فقه فلان إذا فهم . قال تعالى : ﴿ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾<sup>(١)</sup> أي لا يفهمون حديثاً . والفهم هنا يحتمل معنيين :

(الأول) : أن يكون المراد الفهم في أحكام الله . (الثاني) : أن يكون المراد الفهم عن الله .

فإن كان المراد الأول فيكون الحديث الآتي بعده مفسراً لهذا المجمع ، لأنه قال فيه : (يفقهه في الدين) ، وإذا اجتمع مطلق ومقيّد حُمل المطلق على المقيّد . وهذا الفقه لا يؤخذ إلا بالتعلم على ما أشار إليه ، عليه السلام ، في الحديث بعد ، فيأخذ أولاً في الحفظ والضبط والاجتهاد في مطالعة الكتب الصحاح ، فإذا فعل هذا كان له الأجر على نفس فعله ذلك ، إذا كان خالصاً لا يشرك فيه غيره ، وأجره أجر الناقل للفقه ، ولذلك قال ، عليه السلام : (رُبَّ حَامِلٍ فِقْهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ)<sup>(٢)</sup> ، وكذلك قوله ، عليه السلام في حجة الوداع : (أَلَا فَلْيُبْلِغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ)<sup>(٣)</sup> .

ثم بعد تحصيل ما أشرنا إليه والعمل به يأتيه إذ ذلك الفقه ، وهو نور يقذفه الله في قلبه يكون معه الفهم أو به ، بقدرة الله ، عزّ وجلّ . ولذلك قال الإمام مالك ، رحمه الله : ليس العلم بكثرة الرواية ، وإنما العلم نورٌ يضعه الله في القلوب ، لأن الحفظ مع قلة الفهم قلّ أن يكون معه علم . وقد ذم الله ، عزّ وجلّ ، مَنْ صَدَّرَ مِنْ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ ، حيث قال : ﴿ كَمْثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا ﴾<sup>(٤)</sup> .

ولأجل عدم تحصيل هذا الشرط الذي أشرنا إليه الذي هو سبب لحصول هذا الفقه ، كان كثير ممن يدعي العلم بزعمهم لما حفظوا بعض الكتب وطالعوا بعض الشروحات ، إذا سمعوا معنى من المعاني لم يروه منقولاً في الكتب التي حفظوها أو طالعوها ، يقع منهم الإنكار مرة واحدة ، ويحتجون بأن يقولوا : ما سمعنا من قال هذا . وإن رأوا في بعض الكتب مسألة وهم<sup>(٥)</sup> قائلها ، أو صُحِّفَتْ فِي النُّقْلِ ، أو أُرْتِجَتْ عَلَيْهِ ، أَخَذُوهَا بِالْقَبُولِ ، ووقع لها التسليم ، وقالوا : هي منقولة ، ونسبوها إلى صاحب الكتاب .

(١) سورة النساء ، من الآية ٧٨ .

(٢) جزء من حديث رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن زيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما .

(٣) جزء من خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع رواها البخاري عن أبي بكر رضي الله عنه .

(٤) سورة الجمعة ، من الآية ٥ .

(٥) وهم (بكسر الهاء) في الحساب على وزن وجَلّ . وَوَهْم (بفتح الهاء) في الشيء على وزن وَعَدَ . وهنا من الثاني .

ولا ذاك إلا لعدم النور الذي به يفهمون، لأجل أن البساط<sup>(١)</sup> الذي عليه يأتي لم يفعلوه، مع أن البساط قد وقع من بعضهم في الظاهر الذي هو النقل، كما أشرنا إليه، لكن حرموا من أحد وجهين: إما أن يكون عملهم لغير الله، وإذا كان كذلك فالنور عليهم حرام، لأن النبي ﷺ، يقول: (مَنْ عَمِلَ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُرَادُّ لِلْآخِرَةِ شَيْئاً يَرِيدُ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ، وَرَائِحَةُ الْجَنَّةِ تُشَمُّ عَلَى مَسِيرَةِ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ)<sup>(٢)</sup>. وإما أن يدخل عليهم العُجب في نقلهم، فيظنوا أن ذلك هو غاية العلم، فيحسبوا أنفسهم من العلماء، فيحرموا لأجل دعواهم. فلو رُزق المسكين معرفة نفسه، وأنه إنما يطلق عليه (ناقل) إن كان نقله على وجهه، لرجي له عند الاعتراف بحاله وعجزه بأن الله تعالى يمن عليه بشيء من النور. ومن رُزق شيئاً من النور رُجي له التوفيق والزيادة حتى يلحق بأهل الخير العليم المتقدمي الذكر.

فالحاصل من أحوالهم اليوم أن الكتب رجعت عندهم أسفاراً منقولة الأصول، والشروح أسفار محمولة، وهذا هو نفس ما ذمَّ الله، تعالى، في كتابه، كما تقدم، وقلماً يكون مع ذلك توفيق. نعوذ بالله من العمى والضلال.

وإن كان المراد بـ (الفقه) الوجه الثاني، وهو: الفهم عن الله، فيكون هذا الحديث مستقلاً بنفسه، والحديث الآتي بعده مستقل بنفسه، لأن هذا يُراد به الفهم عن الله، والآخِر يُراد به الفهم في أحكام الله، عز وجل، وحمل الحديثين على معنيين أظهر وأقيد من حملهما على معنى واحد.

وقد يجوز أن يكون الحديث الذي نحن بسبيله على معنيين، والحديث الآتي بعده مؤكِّد للمعنى الواحد منهما، وهو ظاهر بين، لأن الفهم في أحكام الله أكد. وهذا الفقه هو النور والإلهام، وهو مأخوذ من السنَّة، كما قد أشرنا إليه في حديث البيعة.

وهذا لا يجده إلا أهل التحقيق والصدق والإخلاص والهدى والنور، والحكمة والبرهان، ففهموا ففهموا، وأريدوا فأرادوا. أولئك الصفوة الكرام، عيون الله من خلقه في أرضه، كما قال عمر، رضي الله عنه، عن علي، رضي الله عنه، «إن الله عيوناً في أرضه من خلقه، وإن علياً لَمِنْهُمْ»<sup>(٣)</sup>. وكان، رضي الله عنه، يقول: نعوذ بالله من معضلة لا يكون فيها علي. مع أن الخلفاء، رضي الله عنهم، كلهم عيون في العيون، لكن كل واحد منهم يرفع صاحبه تواضعاً في نفسه،

(١) البساط - هنا - بمعنى الوسيلة والأداة.

(٢) مروي بالمعنى. وأصله (بشر هذه الأمة بالسنة والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له من نصيب) رواه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم والبيهقي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. والله أعلم.

(٣) لم تقف على مصدره.

وتعظيماً لصاحبه، لما خصّه الله به. كذلك التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، فكل من فهم عن الله فهِمَ أحكامه، ولا ينمكس. اختارهم، عزّ وجلّ، من خلقه، فاخترأوه على خلقه وعلى ما سواه، فهم به ولّه، بلا مثنوية<sup>(١)</sup> ولا التفات.

نسأل الله بحرمتهم عنده أن يمنّ علينا كما منّ عليهم، ولا ربّ سواه.

الوجه الرابع: يترتب على هذا من الفقه أن من منّ عليه بأحد هذين الوجهين فليستبشر بالخير العظيم والفضل العميم، إذ إن الشارع، عليه السلام، قد جعل ذلك علامة على من أراد الله للخير ويسرّه إليه. وكيف لا تحقّ لهم البشارة، وبهم يُرسل الله الغيث، ويرفع الجذب، ويرحم البلاد والعباد؟

الوجه الخامس: لقائل أن يقول: لمّ قال، عليه السلام، هنا (من يُرد الله به خيراً يُفقهه في الدين) وذكر في غيره من سائر الأعمال الثواب، وعيّن وحدّه، ومثل ذلك أيضاً قوله، عليه السلام، في العلم: (ما أعمال البرّ في الجهاد إلا كبصقة في بحر، وما أعمال البرّ والجهاد في طلب العلم إلا كبصقة في بحر)<sup>(٢)</sup>؟

والجواب أنه، عليه السلام، إنما لم يحدد هنا الأجر ولم يعيّن، إشعاراً منه وتنبيهاً على أن ذلك إذا وجد على حقيقته فليعلم صاحبه بأن السعادة قد حصلت له، وليستبشر بأن الله، عزّ وجلّ، لا ينكسه على عقيبه، ولا يُخيّب مقصده، لأن ما عدا هذا العمل من أعمال البر من جهاد وغيره هو محتمل لأن يكون عارية<sup>(٣)</sup>، ومحتمل لأن يكون حقيقة، فإن كان حقيقة فيكون له فيه ما وعد، وإن كان عارية فكانه لم يكن، كما قال، عليه السلام: (إن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى إذا لم يبق بينه وبينها إلا شبر أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار)<sup>(٤)</sup>.

وهذا العمل الخاص إذا منّ به صحّ، ولا يمكن عدم الصحة، لأن الإرادة قد سبقت بالخير وإنفاذه، وما أراده، عزّ وجلّ، وحكم به لا ناقض له، على ما بيّناه. فهي بشارة عظيمة، ونعمة كبيرة، وترغيب في هذا العمل الخاص. فليستبشر من فهم، وليلجأ من عجز، فلعل الكريم الجواد يمنّ بنفحة من نفحات جوده بعجوده، إنه وليّ كريم.

(١) كأنه يريد: هؤلاء الصفوة موحّدون لله توحيداً كاملاً. . يرون كل ما في الوجود يشهد أن الله واحد وموجود، وآياته بارزة ﴿لَمَنْ كَانَ لَمَقْلَبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾. فهم لا يرون إلا الله ولا يلتفتون إلى ما سواه. . إنه ملا عليهم قلوبهم وعقولهم وسمعهم وبصرهم ووجودهم.

(٢) سبق تخريجه في الحديث الخامس.

(٣) العارية: ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك. والمراد هنا: غير المخلص.

(٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في خلق الجنين في بطن أمه. متفق عليه.

الوجه السادس: قوله، عليه السلام: (وإنما العلم بالتعلم). إنما أتى، عليه السلام، هنا بـ (إنما) التي هي للحصر، ليبين أن العلم لا يُتَوَصَّلُ إليه إلا بالتعلم، ولا سبيل إلى غير ذلك، ومن حاول غير ذلك فقد ضل عن الطريق. وإنما أتى، عليه السلام، بالألف واللام في (العلم والتعلم) ليبين به، أن العلم هو الذي يكون علماً على الخير، لأن العلوم كثيرة، فأتى بالألف واللام التي هي للعهد، لينبه على العلم الخاص النافع الذي أراده منا.

فإن قال قائل: قد تكون الألف واللام للجنس.

قيل له: ذلك لا يسوغ هنا، لأن علوم الشرائع من آدم، عليه السلام، إلى النبي، ﷺ، كلها من الله، تعالى، إلى الرسل، عليهم السلام، إما بواسطة المَلَكِ، وإما بغير واسطة المَلَكِ بحسب ما مشت الحكمة على ما عرف من قواعد الإخبار بالشرائع، والمكلفون يتلقون ذلك من الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فأصله النقل. وإذا كان أصله النقل، فلا تكون الألف واللام هنا إلا للعهد، لأن المراد بالعلم العلم الشرعي، وغير العلم الشرعي ليس أصله النقل، وإنما أصله الاستنباط، والاستنباط أيضاً منه ما يكون جائزاً شرعاً، ومنه ما يكون ممنوعاً شرعاً.

فلأجل هذه العلة التي أبديناها، وهي كثرة العلوم، وفيها ما هو ممنوع، لم يسعُ أن تكون الألف واللام للجنس، والمراد بـ (العلم) المشار إليه هنا قد نص، عليه السلام، عليه في غير هذا الحديث حيث قال: (تركت فيكم الثقلين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وعترتي، أهل بيتي)<sup>(١)</sup> وما تضمننا من المعاني من علوم الفرائض وغيرها.

وقد نص، عليه السلام، على أشياء جملة، وهي تتفرع من (الثقلين) كما تقدم. فمن ذلك قوله، عليه السلام: (تعلموا الفرائض، فإنها من دينكم، وهي أول ما يُنسى)<sup>(٢)</sup>، وقال أيضاً في هذا المعنى بنفسه: (تعلموا الفرائض، وعلموها الناس. فإني امرؤ مقبوض، وإن العلم يُقبَض من بعدي، حتى إن الاثنين يختلفان في الفريضة فلا يجدان من يفصل بينهما)<sup>(٣)</sup>، وكذلك كل ما حضت الشريعة عليه فهو منها.

وأما (العلم) المعروف بالألف واللام فهو ما عرف بالشرع أو بالعادة التي ليس فيها خلل من جهة الشريعة. أما الذي يعرف من جهة الشرع فهو كأمره، عليه السلام، بالتبليغ في حجة الوداع،

(١) سبق تخريجه في الحديث (٣).

(٢) رواه ابن ماجه وصححه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه. والفرائض: هي علم المواريث.

(٣) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.



كما تقدم، وكقوله، عليه السلام: (يسروا ولا تعسروا) إشارة إلى الرفق في التعليم، وكقوله، عليه السلام: (إنما أنا قاسم والله يعطي)<sup>(١)</sup> على ما أبيته بعد في الحديث الآتي.

وأما ما يعرف بالعادة فهو مثل المؤدب يعلم أولاً الصبيان الهجاء ومعرفة الحروف، ثم شيئاً من القرآن، ثم شيئاً من اللغة، ليفهموا به كتاب ربهم وسنة رسولهم، وما أشبه هذا على ما تقتضيه الشريعة من الإجارة<sup>(٢)</sup> على ذلك، أو الجعل<sup>(٣)</sup> عليه، على الخلاف في ذلك، وما سوى ذلك ممنوع مثل الألفاظ والاصطلاحات التي أحدثت، ودلائل الشرع تمنعها. وقد أشرنا إلى شيء من ذلك في الأحاديث قبل، وقد نص، عليه السلام، على منع ذلك حيث قال: (يأتي في آخر الزمان قوم يحدثونكم بما لا تعرفون أنتم ولا آباؤكم، فخذوا ما تعرفون ودعوا ما تنكرون)<sup>(٤)</sup>.

الوجه السابع: في هذا من الفقه أنه لا يكون الفقه إلا بعد معرفة العلم المنقول أو معه، على ما قررناه قبل، لأنه هو الأصل. ولذلك عطف بالواو التي تقتضي التشريك والتسوية بين الشيتين.

أوزعنا<sup>(٥)</sup> الله من كليهما أوفر نصيب بمنه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

---

(١) متفق عليه من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٢) الإجارة: الأجرة على العمل.

(٣) الجعل: والجعل والجعالة: ما يجعل على العمل من أجر أو رشوة.

(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ مختلف.

(٥) أوزعنا الله: جعل الله لنا، قسّم لنا.

## حديث من سلك طريقاً يطلب به علماً

البخاري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: من سلك طريقاً يطلب به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن من حاول أمراً ليكون له عوناً على طلب العلم، سهل الله عليه الوصول إلى الجنة. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله، عليه السلام: (من سلك طريقاً)، السلوك بمعنى الدخول قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾<sup>(١)</sup>، أي ما أدخلكم؟ وقال النبي ﷺ: (لو سلكوا جُحَرَ ضَبَّ لَسَلَكْتُمُوهُ)<sup>(٢)</sup>، أي لو دخلوا لدخلتم. فإذا كان المراد به الدخول، فهل هو مقصور على الدخول في طلب العلم، أو يتعدى إلى غيره؟ احتمل الوجهين معاً.

والظاهر تعدّيه، لأن ذلك في الشريعة كثير، فمن ذلك قوله عليه السلام: (لا يقضي القاضي حين يقضي وهو غضبان)<sup>(٣)</sup>، وقوله، عليه السلام: (ينفق على عياله يحتسبها)<sup>(٤)</sup>، على ما مرّ الكلام عليه. وإذا كان متعدياً فترتب عليه من الفقه أن كل ما كان عوناً على الخير فهو خير، وقد وقع النص على ذلك، وهو ما جاء في نوم المجاهد أنه عبادة، لكونه عوناً له على الجهاد، لكن ليس يؤخذ هذا على عمومته، وإنما هو بشرطين:

(الشرط الأول): أن يكون الذي يستعان به جائزاً شرعاً، ولا يكون حراماً ولا مكروهاً، يشهد

(١) سورة المدثر، الآية ٤٢.

(٢) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأوله: لتبعن سنن من قبلكم.

(٣) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن أبي بكره رضي الله عنه، بلفظ: (لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان).

(٤) نص الحديث في البخاري: (إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها، فهي له صدقة) وهو موضوع الحديث الثامن.

لهذا قوله، عليه السلام، للذي طلب منه الوصية، وأراد أن يوجز له فيها، فقال له: (لا تقل شيئاً تستعذر عنه في يوم القيامة)<sup>(١)</sup>.

وقد حكى عن بعض الفضلاء أنه أصابه من العبادة تعب وجوع لقلة ذات اليد، ثم فتح عليه في لبن لم يطب له طريقه، فامتنع منه. فقالت له والدته، لما امتنع: اشربه وارحُ الله أن يغفر لك. فقال لها: أرجو الله أن يغفر لي، ولا أشربه. فانظر كيف امتنع من شربه، وإن كان عوناً له على ما كان بصده. لكن لما أن كان فيه كراهية ما لم يُقدِّم عليه، وتركه البتة، لأن الخسارة التي تعود عليه منه أكثر من الفائدة، بل هو عريٌّ عن الفائدة، لأنه لا يعين على الطاعة إلا الحلال.

(الشرط الثاني): أن ينوي به العون على طلب العلم أو على وجه من وجوه الخير، على القول بتعدية الحكم، وعلى القول الآخر فيكون في طلب العلم ليس إلّا، لأن المباح لا يؤجر عليه، ولا يُقَرَّبُ إلى الجنة، حتى ينوي به العون على الطاعة. فإذا كان الشيء الذي ينوي به العون على الطاعة، من طلب العلم وغيره، فرضاً كان أو مندوباً، كان له أجر المندوب وزيادة القرب إلى الجنة، لأنه، عليه السلام، أتى به (الطريق) نكرةً، والنكرة عامة في أن يكون فرضاً أو ندباً أو مباحاً، والرابع<sup>(٢)</sup> ممنوع على ما بيناه.

وهل يتصور هذا في الفرض؟ أعني أن يكون له أجر الفرض وزيادة القرب إلى الجنة إذا اعتقد به العون على طلب العلم؟ فالمشهور من مذاهب الفقهاء منع ذلك، لأنهم اختلفوا في فرض وندب إذا اجتماعاً بنية واحدة، هل تجزئ أم لا؟ على قولين:

ومسألتنا من ذلك الباب، وعموم لفظ الحديث يقتضي الجواز لكن من أراد أن يخرج عن الخلاف، ويعمل بنص الحديث ليعظم له الأجر، فينوي في هذا الفرض مثلما ينوي المغتسل يوم الجمعة من الجنابة وللجمعة، الذي يريد أن يخرج من الخلاف يقول: طهوري هذا لجنابتي وأرجو أن يجزيني عن غُسل جمعتي، فيحصل له الخروج عن الخلاف، ويكون متبعاً للفظ الحديث، عاملاً عليه.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام: (يطلب به علماً). الطلب هنا يحتمل وجهين: (الأول): أن يكون المراد به تحصيل العلم والاشتغال به. (الثاني): أن يكون المراد الاهتمام به والمسارة إليه. يدل على هذا قوله، عليه السلام: (تعلموا العلم فإن تعلمه الله حسنة وطلبه عبادة)<sup>(٣)</sup>. ففرق

(١) لم نعرف مصدره.

(٢) والرابع: أي القسم الرابع من أقسام (المستعان به). وقد بين الأقسام الثلاثة قبله، فذكر أن منها الفرض، والندب، والمباح، وأما الرابع فهو الحرام.

(٣) جزء من حديث طويل هذا مطلقه. رواه أبو الشيخ وابن حبان في كتاب الثقات وابن عبد البر وقال: ليس له إسناد قوي. (انظر تخريج الحافظ العراقي لأحاديث إحياء علوم الدين ٢٢/١).

بين التعلم وطلب العلم، وجعل نفس الطلب أعلى من نفس التعلم، لأنه، عليه السلام، شبه الطلب بالعبادة، وجعل نفس التعلم إذا كان لله حسنة، والحسنة من بعض ما تتضمنه العبادة.

الوجه الثالث: لقائل أن يقول: لم كانت الوسيلة هنا أفضل من الشيء المقصود، وينبغي أن يكون بالعكس على ما عرف من قواعد الشريعة والعوائد؟

والجواب: أن الشيء المقصود لم يجعل أخفض رتبة من الوسيلة ولا مثلها، لأن الشيء المقصود إنما هو نور يضعه الله في القلوب على ما نقلناه عن العلماء، والدرس والنقل والرواية سبب لتحصيل ذلك النور الذي يكون به العلم، كما تقدم من قول مالك، رحمه الله: «ليس العلم بكثرة الرواية».

فالحاصل من هذا: أن الشئين المذكورين سبيان إلى تحصيل النور، وأحدهما أشق على النفس وأشد، وهو الحث والطلب، فجعل له مقام العبادة التي فيها مشقة النفس ومجاهدتها. والثاني أخف وهو الدرس والنقل، فجعل فيه حسنة. وهذا نص صريح من الشارع، عليه السلام، فيما نقلناه عن العلماء من أن العلم ليس بكثرة الرواية.

الوجه الرابع: لقائل أن يقول: لِمَ أتى بـ (العلم) نكرة، ولم يأت به مَعْرَفًا، كما أتى به مَعْرَفًا في الحديث قبله؟

والجواب: أن قرينة الحال هنا أَغْنَتْ عن التعريف، وهي قوله، عليه السلام: (سهل الله له طريقاً إلى الجنة). والتسهيل للجنة لا يكون إلا بالعلوم الشرعية. ولما أن كانت العلوم الشرعية متعددة أتى به نكرة، من ذلك علم الفرائض، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك. فلمجموع الأمرين أتى به نكرة - وهما البساط<sup>(١)</sup> - وكثرة العلوم.

ثم انظر إلى الحديث الذي استدللنا به، لما أن أتى به في معرض مدح العلم وما لصاحبه من الخير أتى به مَعْرَفًا، وقَيِّده بأن يكون لله، ثم عطف بالواو، وجميع الخيرات التي ذُكِرَتْ في الحديث بعد ذلك اللفظ حتى يكون الوصفان شرطاً في الخيرات المذكورة بعد. والوصفان هما ما تقدم، من أن (العلم) مَعْرَفًا يشير به إلى العلم الشرعي ويترك ما عداه، وأن يكون لله خالصاً.

وبقية الحديث هو قوله، عليه السلام: (وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، وتعليمه لمن لا يَعْلَمُه صدقة، وبَذْلُه لأهله قُرْبَة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنازل سُبُل أهل الجنة، والأُنَيْسُ في الوحشة، والصَّاحِب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح

(١) البساط: سبق أن قلنا: إن المراد به (الوسيلة والأداة).

على الأعداء، والزَّين عند الأخلاء. يرفع الله به قوماً ويجعلهم في الخير قادة وأئمة. تُقْتَبَس آثارهم، ويُقْتَدَى بفعالهم، ويُنتَهَى إلى رأيهم. تَرْغَب الملائكة في خُلَّتْهم، وبأجنتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، حتى الحيتان في البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه. لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلمة. بالعلم تُبْلَغ منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يُعَدِّل بالصيام، ومدارسته بالقيام، وبه تُوصَل الأرحام، ويُعرَف الحلال والحرام. والعلم إمام العمل، والعمل تابعه. فَيُلْهَمُ السعداء، ويحرمة الأشقياء). فكل هذه الخيرات والنعم لا تحصل إلا بعد حصول ذينك الشرطين وصحتهما، وحينئذ تكون هذه الخيرات تابعة لهما. والحديث أخرجه صاحب الجلية<sup>(١)</sup>. فإن احتج محتج بتضعيفه، قيل له: قد صحح إسناده الأستاذ السمرقندي<sup>(٢)</sup>، رحمه الله.

الوجه الخامس: قوله، عليه السلام: (سهل الله له طريقاً إلى الجنة). سهل أي قَرَب. ولقائل أن يقول: لم جعل ثواب هذا العمل التسهيل ولم يجعل له حسنة ولا غير ذلك، كما جعل في الحديث الذي أوردناه.

والجواب: أنه إن قلنا بأن الحسنة كناية عن الأجر، والتسهيل كناية عن تسهيل الطريق له إلى نيل العلم، فالحسنة أرفع. وإن قلنا بأن التسهيل كناية عن التسهيل إلى الجنة، فهو أرفع من الحسنة، لأنه لا يُقَرَّبُ أحد إلى الجنة إلا وقد عوفي من النار. والمعافة من النار أفضل من كثير من الحسنات مع دخول النار، ولذلك قال، عليه السلام: (لو لم يكن إلا النجاة من النار فقد فاز فوزاً عظيماً)<sup>(٣)</sup>. فعلى هذا يكون التسهيل أرفع من الحسنة وأفضل.

الوجه السادس: لقائل أن يقول: لم لم يقل (أدخله الجنة) عوض هذا التسهيل، كما قال في أحاديث غير هذا؟

والجواب: أن دخول الجنة هو بالأعمال، بفضل الله، كما تقدّم. وقد قدمنا أن ما هو فيه الآن سبب إلى تحصيل العلم ليس العلم نفسه، وليس السبب للعلم كالعلم. فلذلك عدل عن ذكر دخول الجنة، وأتى بصيغة التسهيل.

- 
- (١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: كتاب في عشرة أجزاء. ألفه أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني المتوفى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م. حافظ، مؤرخ، من الثقات في الحفظ والرواية.
- (٢) الأستاذ السمرقندي: هو الحسن بن أحمد القاسمي. إمام زمانه في الحديث. استوطن نيسابور. له بحر الأسانيد في صحاح المسانيد. جمع فيه مئة ألف حديث في ثمانية أجزاء. توفي سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م.
- (٣) مروي بالمعنى لحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٢٣١/٥ والترمذي في السنن كتاب الدعوات وفيه (فإن تمام النعمة دخول الجنة والفوز من النار).

الوجه السابع : هذا الثواب المذكور على هذا الفعل احتمال أن يُراد به الآخرة ليس إلا ، واحتمل أن يكون ذلك عامًّا في الدنيا وفي الآخرة . فإن رجعنا إلى صيغة لفظ الحديث فهو للآخرة ليس إلا .

وإن نظرنا لغيره من الأحاديث فنقول بعمومه في الدنيا وفي الآخرة ، وهو الأظهر ، بدليل قوله ، عليه السلام : (من خرج إلى المسجد ، ليعلم خيراً أو ليتعلمه ، كان في ذمة الله ، فإن مات أدخله الله الجنة ، وإن رجع كان كالمجاهد ، رجع بالأجر والغنيمة)<sup>(١)</sup> . فقد نص ، عليه السلام ، على ما لهُ في الدنيا من الثواب ، فلا سبيل إلى القول بغيره . لكن هذا لا يكون إلا إذا كان (العلم) المعروف ، الذي أشار إليه ، عليه السلام ، ويكون لله خالصاً . وفي تخلصه ، وحصول حقيقة الفقه الذي أشرنا إليه قبل ، هو<sup>(٢)</sup> الشأن . فإذا حصل أحدهما أو مجموعهما فقد حصلت حقيقة السعادة ، لأنه قد قدمنا أن ذلك إذا وجد فهو علامة على أن صاحبه لا يمكر به ، ولا ينكص على عقبه . ومثل هذا ما قاله هرقل ، وهو الحق الواضح : إن الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب لم يخرج منها .

مَنْ الله علينا بمجموعهما بِمَنْتهِ وَبُيْنِهِ .

الوجه الثامن : لقائل أن يقول : لِمَ أتى بـ (الطريق) نكرة في الأول والثاني ولم يأت به مُعرِّفاً؟ والجواب : أن العلوم الشرعية كثيرة ، كما ذكرنا ، منها علم القرآن ، وعلم الحديث ، إلى غير ذلك من العلوم الشرعية . فلما كانت كثيرة كانت طرقها كثيرة مختلفة ، لأنه ليس ما يتوصل به إلى علم القرآن هو الذي يتوصل به إلى علم الحديث . وكذلك العلوم كلها ، لكل علم اصطلاح يخصه ، وهو الطريق إليه . فلكثرة هذه الطرق أتى بها<sup>(٣)</sup> نكرة . فمن أتى لعلم واحد منها سهل عليه ذلك الطريق الواحد ، وإن أتى لمجموعها سهلت عليه الطرق كلها . وهذا مثل ما أخبر ، عليه السلام ، عن الأعمال (أن كل صاحب عمل يُدعى من باب من أبواب الجنة ، يختص بذلك العمل ، حتى قال في آخره ويدعى الصائم من باب الرِّئَافِ) فقال أبو بكر ، رضي الله عنه ، ما على كلِّ مَنْ يُدعى من تلك الأبواب كلها؟ فقال عليه السلام : (وأرجو أن تكون منهم)<sup>(٤)</sup> . فكَذلك من طلب العلوم الشرعية كلها قَرُبَ من كل باب من تلك الأبواب . فإن طلب البعض وترك البعض قَرُبَ من بعض دون بعض . جعلنا الله مِمَّنْ طلب الكلَّ ، وسَهَّلَ عليه الوصولَ إلى الكلِّ ، ونودي من الكلِّ بِمَنْتهِ ، وكرمه ، لا ربَّ سواه ، والحمد لله وحده .

وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً .

(١) لم نعرف مصدره بهذا اللفظ .

(٢) كذا ، بزيادة (هو) .

(٣) أي بالطريق .

(٤) أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، بلفظ مختلف .

## - ١١ -

### حديث قيام الأمة المحمدية على الحق إلى يوم القيامة

عن معاوية، رضي الله عنه، قال: سمعت النبي، ﷺ، يقول: من يُردِ الله به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدين. وإنما أنا قاسمٌ، والله يُعطي. ولن تزال هذه الأمة قائمةً على أمر الله، لا يضرُّهم من خالفهم، حتى يأتي أمرُ الله.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام:

(الحكم الأول): تعلق النخير بالفقه في الدين.

(الثاني): أن حقيقة الإعطاء إنما هي لله، عز وجل، دون غيره.

(الثالث): إبقاء هذه الأمة على الحق إلى يوم القيامة حتى يأتي أمر الله، لا يضرهم من خالفهم. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله، عليه السلام: (مَنْ يُردِ الله به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدين). الكلام عليه كالكلام على الحديث قبله، لكن هنا زيادة (الدين)، وهو يحتمل وجهين:

(الأول): أن يكون المراد به العلم الذي يقوم به الدين.

(الثاني): أن يكون المراد به التدين.

فإن كان المراد به الأول فيكون تأكيداً لأحد المحتملات في الحديث قبله.

وإن كان المراد به الثاني فمعناه أن يفهم المرء ما تدبّر به، وحقيقة الحكمة في التدين به، وفي أمثاله نوعاً نوعاً، فيزداد إذا ذاك إيمانه ويقينه عند فهمه لحسن ما تدبّر به. وذلك أن حكمة الحكماء لو جمعت في حكيم واحد، ثم رُزق صاحبها التوفيق وقوة اليقين، ما كان يرى أن يزيد فيما حُدَّ وُشِّع ذرة، ولا ينقص منه ذرة، لما فيه من الحسن واللطف في الحكمة. ومن ظهر له هذا المعنى

فقد أُعْطِيَ خَيْراً لَمْ يُعْطَ غَيْرُهُ مِثْلَهُ . قال، عز وجل، في كتابه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾<sup>(١)</sup>، وإليه أشار علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، الذي هو باب العلم، لأن النبي، ﷺ، قال في حقه: (أنا مدينة العلم وعليّ بائنها)<sup>(٢)</sup> فقال، رضي الله عنه: لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حدّ ومطلّع<sup>(٣)</sup>. فالحدّ والبطن والظهر يتقارب الناس في ذلك بعضهم فوق بعض درجات، والمطلّع خصّ الله، عز وجل، به الخصوص من خلقه، وأكرمهم به، وهو الحكمة في وضع هذا على هذه الصفة.

والأظهر من الوجهين: هذا الوجه الذي نحن بسبيله، وهو صعب عسير، لا يستطيع الوصول إليه إلا مَنْ خالط الإيمان قلبه وأبلج اليقين فؤاده، وكان علمه وعمله لله خالصاً، وأوتي النور والحكمة، وأمدّ بالعون والرحمة، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء.

والألف واللام للعهد لأن المراد به دين الإسلام.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام: (وإنما أنا قاسم؛ والله يعطي). هذا أدل دليل على علو منزلته، عليه السلام، عند ربه وخصوصيته، إذ إن هذا الخير العظيم الذي رحم الله به المؤمنين جعله على يديه. وقد روي في الأثر (أن الله، عز وجل، يقول: أنا الله لا إله إلا أنا، خلقتُ الخير، وخلقتُ له أهلاً، فطوبى لمن خلقتُ للخير، وخلقتُ الخير له، وأجريتُ الخير على يديه)<sup>(٤)</sup>. فالنبي، ﷺ، هو أجل من أُجريتُ الخير على يديه.

الوجه الثالث: لقائل أن يقول: لِمَ سَمِيَ، عليه السلام، نفسه المكرمة بهذه الصفة، وهي (القاسم)، وحقيقة هذه الصفة إذا تحققت هي: إذا كان الإنسان يَقْسِم شيئاً محسوساً على أشخاص معينين؟

والجواب: أنه، عليه السلام، إنما وَصَفَ نفسه المكرمة بهذه الصفة للمعنى الذي ذكرنا، وهو أن الله، عز وجل، قد قسم هذا الخير الذي رحم به المؤمنين على يديه، فبيّن، عليه السلام، الشريعة بأتم بيان، ثم حدّ الحدود، ورغّب وحذّر، فقال: مَنْ فعل كذا فعليه كذا، على ما جاء في الأحاديث. وكذلك القاسم في الشيء المحسوس سواء. مثّل ذلك الفَرَضِيّ، يحقّق لكل إنسان قِسْطَهُ، فبيّن له قَدْرَ مَا لَهُ من الحق، وما عليه من اللوازم. فهذا من أبداع التمثيل وأفصحه.

(١) سورة المائدة، من الآية ٥٠.

(٢) رواه العقيلي وابن عدي والطبراني والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) المطلع: مكان الطلوع. أي لكل حرف مصعد يصعد إليه من معرفة علمه.

(٤) عزاه المدني في الإتحافات السنّية والنبهاني في الفتح الكبير للطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.



ثم انظر إلى الفَرَضِيَّ فإنه ليس عليه أن يبلغ صاحب الحق حَقَّهُ، وإنما يبلغه ويعطيه مَنْ بيده الأمر والنهي. والنبى ﷺ، جعل نفسه المكرمة كذلك سواء، لأنه أخير عن نفسه بأنه هو القاسم، ثم أخبر بأن المنقذ لذلك، والمعطي إنما هو الله، جلّ جلاله، وذلك بقوله: (والله يعطي). فالله، عزّ وجلّ، هو المعطي، وهو المانع، لأن الأمور كلها بيده، ومصدرها عن قضائه. وقد نص، عزّ وجلّ، على هذا المعنى وبينه في كتابه، في غير ما موضع. فمن ذلك قوله، عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾<sup>(١)</sup> وقوله، تعالى: ﴿إِن أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله، تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَخِلَافِينَ﴾. إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلَٰذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله، تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾<sup>(٤)</sup> إلى غير ذلك وهو كثير. وقد ظهر هذا المعنى ورُئي في الوجود حسياً، لأنه، عليه السلام، بين طريق الهدى، على حدّ واحد، ولم يخصّ بذلك بعض الناس دون بعض، فهدى، عزّ وجلّ، من شاء بفضلِهِ إلى التصديق والاتباع، وخذل من شاء بعَدْلِهِ، فكذّب وأعرض، وهدى من شاء بحكمته إلى قبول البعض، والإعراض عن البعض.

الوجه الرابع: في هذا دليل على أن للعالم أن يضرب الأمثال في تقرير الأحكام بقدر ما يفهم المخاطب ما أريد منه، إذ إنه، عليه السلام، شبّه نفسه المكرمة بـ (القاسم)، على ما تقدم، ولهذا المعنى قال مالك، رحمه الله: بالمعاني استُعِيدْنَا لَا بِالْأَلْفَاظ. وكذلك قالت ذات النطاقين<sup>(٥)</sup> للمؤدّب، حين أتته بولدها ليعلمه القرآن: (أدّبته، وأحسّن تأديبُهُ، والرحمنُ علّم القرآن). فمثل هؤلاء فهموا من هو المعطي، وكيف تصريف الحكمة في الأشياء، ومن غلب عليه الجهل بهذا المعنى ينسب قلة حفظ الصبي للمؤدّب. وليس كما يزعم، وإنما المانع والمعطي هو الله، جلّ جلاله، في الأشياء كلها، دِقَّهَا وجِلَّهَا<sup>(٦)</sup>، رزقاً كان أو علماً أو عملاً. وإنما وظيفة المكلف في ذلك عمل الأسباب امتثالاً للحكمة، والتعلق في حصول الفائدة بربه، عزّ وجلّ.

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٧٢.

(٢) سورة فاطر، من الآية ٢٣.

(٣) سورة هود، من الآيتين ١١٨ و ١١٩.

(٤) سورة الأنعام، من الآية ٣٥.

(٥) ذات النطاقين: هي أسماء بنت أبي بكر الصديق. صحابية، من الفضليات، آخر المهاجرين والمهاجرات (ت ٧٣ هـ/ ٦٩٢ م). وهي أخت السيدة عائشة لأبيها، وأم عبد الله بن الزبير. تزوجها الزبير بن العوام فولدت له عدة أبناء بينهم عبد الله، ثم طلقها الزبير فعاشت مع ابنها عبد الله بمكة إلى أن قتل، فعميت بعد مقتله. وخبرها مع الحجاج مشهور. سميت بذات النطاقين لأنها صنعت للنبي ﷺ طعاماً حين هاجر إلى المدينة، فلم تجد ما تشده به، فشقت نطاقها، وشدت به الطعام. لها ٥٦ حديثاً.

(٦) دِقَّهَا وجِلَّهَا: صغيرها وكبيرها.

الوجه الخامس: في هذا من الفقه وجهان: (الأول): أن الأسباب لا تأثير لها بذواتها إلا بحسب ما شاء القادر. (الثاني): أنه لا بد من الأسباب، إذ إنها أثر الحكمة، وتركها مخالفة وعناد.

الوجه السادس: لقائل أن يقول: قد حضت الشريعة وندبت في أعمال البر، ومن ذلك ما نحن بسبيله، وقد ذمّت الدنيا، وزهّدت في أسبابها، وذلك كثير، ومن ذلك قوله، عليه السلام: (لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها. فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب)<sup>(١)</sup>؟ والجواب: أنه لما كانت هذه الدار قد قُسمت فيها الأرزاق، وضمنت بمقتضى الآي والأحاديث، أمر الشارع، عليه السلام، لأجل ذلك بالزهد في التسبب، لأنه مقتضى الإيمان، لأن الله، عزّ وجلّ، يقول في كتابه: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾<sup>(٢)</sup>.

والحرص في التسبب عاهة في الإيمان، وضعف في التصديق وتعب في تحصيل حاصل. والريّة في التسبب في أعمال البر يقوى به الإيمان ويكون موافقاً<sup>(٣)</sup> لما به قد أمر، ومع ذلك فرزقه الذي قدّر له في الدنيا لا بدّ أن يأتيه حتماً، لقوله، عليه السلام: (مَنْ بدأ بحظّه من آخرته نال من آخرته ما أَرادَه ولم يَفْتَهُ من دنياه ما قُسِمَ له)<sup>(٤)</sup>. والآي والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

والحث<sup>(٥)</sup> هنا من حقيقة الإيمان، وكل ما هو من حقيقة الإيمان أو لازمه كان صاحبه مشكوراً مثوباً. ومثل هذا: المجتهد إذا اجتهد، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، لأنه قد بذل جهده في الأدوات، فلما أخطأ لم يضيع الله، عزّ وجلّ، له تعب، لأنه لم يترك من جهده شيئاً بمقتضى ما أمر، بخلاف العامل بالجهل، فإنه لا يُوجَر، وإن أصاب الحق، على أظهر الوجوه وأولاهها.

الوجه السابع: في هذا دليل على أن الزهد لا يسهل إلا بالتقوى، لأنه عليه السلام، قال: (فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب)، ومثل ذلك قوله، تعالى ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(٦)</sup>. والواو فيهما: واو الحال<sup>(٧)</sup>. فالأصل هو التقوى فإذا حصل ذلك حالاً أتى إذ ذاك الزهد راغباً.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في القناعة، والحاكم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وصححه على شرط الشيخين، ورواه البيهقي في شعب الإيمان وقال: إنه منقطع. ولفظه: ( . . . وإن الروح الأمين نفث في روعي: إن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب).

(٢) سورة البقرة، من الآية ٣.

(٣) كذا بالتذكير.

(٤) لم نعرف مصدره.

(٥) الحث: التحضيض والإعجال. ويراد به هنا: الرغبة في التسبب.

(٦) سورة البقرة، من الآية ٢٨٢.

(٧) هذا يقتضي تقدير (أنتم) بين الواو والفعل المضارع، لأن واو الحال لا تباشره.

ولأجل هذا المعنى كان أهل الصوفة أكثر من غيرهم زهداً ورفضاً للتسبب، لكثرة تقواهم. وقد قال، عليه السلام: (لو توكلتم على الله حقَّ توكلِهِ لَرَزَقَكُمْ كما يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصاً، وَتَرُوحُ بِطَاناً)<sup>(١)</sup>، مع أنه قد قال بعض مَنْ غلبت عليه شهوة الطلب في معناه: إن طيران الطير في الهواء سبب في رزقه، فهو تحضيض على التسبب، وهذا ليس بشيء. وقد أجابه بعض أهل التحقيق بجواب مقنع، وهو الحق الذي لا خفاء فيه، فقال: طيران الطائر كحركة يد المرتعش سواء، لا حكم لها.

والمجاوب بهذا هو الذي فهم تخصيص الشارع، عليه السلام، الطير بالذكر من بين سائر الحيوانات من الوحوش والحشرات، وغير ذلك، لأن الوحوش والحشرات تتبع أسباب معاشها. فمن كان منها يرى تراه أبداً يتبع أرض الخصب ويترك أرض الجذب، فلا تراها قط في أرض جذبية، ومن كان منها يقتنص تراه أبداً يتبع أثر الصيد بالشَّم حتى يقتنصه. فلما كان هؤلاء يشبهون بني آدم في التسبب عدل، عليه السلام، عن ذكرهم وذكر الطير الذي يطير في الهواء، وليس في الهواء جهة تُقصد، ولا حَبٌّ يُلتقط، ولا شيء يُرعى إلا هواء وضياء، ثم يمرح في ذلك، ويتردد فيه حتى يؤتى به إلى رزقه، أو برزقه إليه. فلأجل هذا المعنى خصَّ الطير بالذكر دون غيره من الحيوانات، وإن كانت الكل تغدو خِمَاصاً، وتروح بِطَاناً.

الوجه الثامن: قوله، عليه السلام: (ولن تزال هذه الأمة). (الأمة) هنا هل المراد بها العموم أو الخصوص؟ محتمل للوجهين معاً.

فإن كان المراد بها الخصوص، فهو ظاهر من وجوه.

(الأول): أن العرب تسمي البعض بالكل، والكل بالبعض.

(الثاني): أنه، عليه السلام، قد أخبر بالفتن التي تكون في آخر الزمان من رَفَعِ العلم وظهور الجهل وظهور الجور<sup>(٢)</sup> إلى غير ذلك مما جاء في أحاديث الفتن، وكلها أخبار. وما نحن بسبيله خَبَر. والأخبار لا يدخلها نسخ. فإذا حملنا الخبر، الذي نحن بسبيله، على الخصوص، صحت الأخبار التي تعارضه كلها، يؤيد هذا قوله، عليه السلام: (افترقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين

(١) رواه الإمام أحمد في المسند والترمذي والنسائي وابن ماجه وصححه الحاكم وابن حبان. والخِمَاص: جمع خَمَصَان وخَمَصَانَة وهو من كان ضامر البطن وخاليه من الطعام من شدة الجوع أو الضعف. وعكسه: الْبَطْن. وتغدو: تكرر في الذهاب. وتروح: تعود في المساء.

(٢) أحاديث آخر الزمان من رفع العلم وظهور الجهل والجور كثيرة. منها ما رواه البخاري في كتاب الفتن، ومسلم في العلم باب رفع العلم، والإمام أحمد في ظهور الجور.

فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة<sup>(١)</sup>. فهذه الواحدة الباقية في هذا الخبر هي: هذه الأمة المنصوص عليها فيما نحن بسبيله، فتكون الطائفة الناجية من الثلاث والسبعين هي هذه الأمة المنصوص عليها.

وقد ثبت في بعض الروايات ما هو نص فيما نحن بسبيله فقال فيها: (لا تزال طائفة من هذه الأمة). ومعنى هذا، على ما قاله بعض العلماء: أنه لا تزال طائفة من (أهل العلم) قائمين بوظيفة العلم، على ما يُرضي الله، وطائفة من (أهل الحقيقة) كذلك، وطائفة من (أهل الأعمال الزاكية) كذلك، وكذلك في كل نوع من أنواع الخير، علماً كان أو عملاً أو حالاً، لا تزال (طائفة من المؤمنين) قائمين بذلك الشأن، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله<sup>(٢)</sup>.

وإن كان المراد بالأمة المذكورة العموم فوجهه ظاهر أيضاً، لأن الأمة الحقيقية هي التي اتصفت بهذا الوصف المذكور في الحديث، وهي المراد بقوله، عليه السلام: (أمتي كلها في الجنة)<sup>(٣)</sup> يعني الأمة الحقيقية الماشية على سُنَّته وسُنَّتِهِ، وما عداهم في حكم المشيئة.

فمنهم من لا يكون من الأمة أصلاً، وهم الذين يدل بهم<sup>(٤)</sup> عند الخاتمة. نعوذ بالله من ذلك. ومنهم من يدخل في ضمن قوله، عليه السلام، يوم القيامة: (فُسْحَقاً فُسْحَقاً)<sup>(٥)</sup>. فيكون لهم طَرَف من الإيمان، لأنهم يحشرون بعلامة هذه الأمة عليهم.

ومنهم من تناله الشفاعة بعدما ينال ما قدّر له من ذلك الأمر العظيم. يدل على ذلك قوله، عليه السلام: (اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)<sup>(٦)</sup>.

ومنهم من يعذب بأنواع العذاب بحسب اختلاف معاصيهم، لأنه روي في غير ما حديث أن لكل نوع من المعاصي عذاباً يخصّه أو ما في معناه.

(١) صحيح متواتر. (انظر الحديث ٣).

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري - كتاب الاعتصام - بلفظ (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى... الخ).

(٤) لعله يعني: تسوء عاقبتهم والعياذ بالله.

(٥) جاء ذكر هذه الألفاظ في البخاري، في حديث الذود عن الحوض، وفي الرقاق، وفي الأنبياء، وفي بعض مواطن التفسير. وكذلك في صحيح مسلم في الجنة. باب فناء الدنيا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (وفيه فأقول فُسْحَقاً). ورواية مسلم (وفيه فأقول: سُحْقاً سُحْقاً لمن بدّل بعدي). وأما اللفظ الثالث فلم يرد في كلا الصحيحين.

(٦) رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي، وصححه ابن حبان والحاكم عن جابر رضي الله عنه بلفظ (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي).

الوجه التاسع : في هذا دليل على أن من وجدت فيه الصفات المذكورة في هذا الحديث، ومات عليها، قطع له بالسعادة حتماً للوعد الجميل . ومن كان على غير الصفة المذكورة بقي في المشيئة متوقفاً لما ذكرناه من هذه الأمور الخطيرة .

أيقظنا الله من سِنَةِ الغفلة، وَحَمَلْنَا عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى بِفَضْلِهِ .

الوجه العاشر : في الحديث بشارة عظيمة، وأي بشارة لمن أراد الخير، وَصَدَقَ فِيهِ، لأنه، عليه السلام، قد أخبر أن هذه الأمة لا تزال أبداً على هذا الحال الذي أخبر به إلى يوم القيامة . فعلى هذا فخيرهم متعدياً، لأنه لو كان غير متعدياً لانقطعت آثارهم، ولكنهم يخلفون جيلاً جيلاً . فمن أراد الخير وصدق فيه يُرَجَى له أن الله، تعالى، ييسر له من هذه الطائفة من يدلّه عليه، وَيُلْهِمُهُ إِلَيْهِ، لأن المخبر صادق، والأمر كذلك فيه . ولولا هذا الخير لكاد لكثرة ما ظهر من الفساد أن يَقْطَعَ الْإِنْسَانُ بِأَن هَذِهِ الطَّرِيقُ قَدْ انْقَطَعَتْ، أو يَقْطَعَ الْيَأْسُ مِنْ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَى هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَلَا يَجِدُ مِنْ يَدْلُهُ عَلَيْهِ، وَلَا مَنْ يَرْشِدُهُ إِلَيْهِ .

الوجه الحادي عشر : قوله، عليه السلام : (قائمة على أمر الله) . (قائمة) يحتمل وجهين : (الأول) : أن يكون معناه (مُوقِفَةً)، لأن العرب تقول : فلان قام بالأمر، أي : وقاه حقه . (الثاني) : أن يكون معناه (ثابتة على أصولها) وقد جاء ذلك في الكتاب، وهو قوله، تعالى : ﴿ قَائِمَةٌ عَلَى أُصُولِهَا ﴾<sup>(١)</sup> أي ثابتة على أصولها .

وقوله : (على أمر الله) : أي : بأمر الله، لأن العرب تبدل الحروف بعضها ببعض . هذا إذا كان المراد بـ (قائمة) الوجه الأول . وإن كان الثاني فتكون (على) هنا على بابها . و (أمر الله) هنا هو : اتباع ما أمر، واجتناب ما نهى، على واجبه ومندوبه، ولذلك أتى بلفظ الأمر الذي يحتمل الوجوب والتدب، وجميع محتملاته على ما هو معروف بين المتكلمين .

الوجه الثاني عشر : في هذا دليل على ظهور الباطل وكثرته لأنه إذا لم يكن على الحق إلا طائفة واحدة فالباقي على الضلال . قال، عز وجل، في كتابه : ﴿ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾<sup>(٢)</sup> . فإذا وجد الحق فما سواه هو الباطل . وقد وصف، عز وجل، هذه الطائفة في كتابه حيث قال : ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾<sup>(٣)</sup> . فإن كنت ليبياً فافزع<sup>(٤)</sup> عن الأكثر، وميل إلى الأقل تحفظاً بالسلامة . ولهذا

(١) سورة الحشر، من الآية ٥ .

(٢) سورة يونس، من الآية ٣٢ .

(٣) سورة ص، من الآية ٢٤ .

(٤) فافزع عن الأكثر : انفر وابعد .

قال، عليه السلام: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء من أمتي. قيل يا رسول الله: ومن الغرباء من أمتك؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس)<sup>(١)</sup>.

الوجه الثالث عشر: قوله، عليه السلام: (لا يضرهم من خالفهم). الضر هنا يحتمل ثلاثة أوجه: (الأول): أن يكون المراد به الأشخاص القائمين بالأمر، لا يقدر أحد على ضرهم. (الثاني): أن يكون المراد أن الضر لا يلحق فعلهم، ويقبل منهم، ولا ينقص لهم من أجورهم شيء، إن كانوا مجاورين للمخالفين لهم، ومخالطين لهم. (الثالث): أن يكون: لا يضرهم، ولا يضر عملهم. وهذا هو أظهر الوجوه، بدليل قوله، تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله، تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾<sup>(٣)</sup>.

الوجه الرابع عشر: في هذا بشارة عظيمة لمن اتصف بالصفة المذكورة في هذا الحديث، إذ إنه لا يخاف الضرر، وإن كثر أهله، فيكون أبدأ مطمئن النفس، منشرح الصدر، لأن المخبر صادق، والمخبر عنه عالم قادر. وقد تبه، عز وجل، على هذا المعنى، وصرح به في كتابه، حيث قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كما تقدم. والمؤمنون الذين أوجب لهم النصر بمجرد الفضل هم الموصوفون في هذا الحديث. ولهذا قال بعض الفضلاء، وهو يُمن بن رزق، رحمه الله: إذا وافقت الشريعة، ولأحظت الحقيقة، فلا تبال، وإن خالف رأيك جميع الخليقة.

الوجه الخامس عشر: قوله، عليه السلام: (حتى يأتي أمر الله). (حتى) احتملت الوجهين: (الأول): أن تكون على بابها للغاية. (الثاني): أن تكون بمعنى (قرب).

و (أمر الله) احتمل وجهين: (الأول): أن يكون المراد به قيام الساعة. (الثاني): أن يكون المراد به الآيات الكبار، ونعني به (الآيات الكبار) هنا: ما روي أنه بعد ما ينزل عيسى، عليه السلام، ويحيي الله به هذا الدين، ويعيش ما شاء الله، بحسب ما جاء في الأحاديث، ويموت، ويدفن بين المسلمين، ثم يبقى المسلمون بعده يسيراً، ثم يقع فيهم الخلل، ويكثر، فإذا تفاحش ذلك فيهم يرسل الله ريحاً لينة من تحت العرش تقبض أرواح المؤمنين، ثم يرفع القرآن، ولا يبقى إذ ذاك إلا الأشرار، فيخرج إليهم الشيطان، فيغويهم حتى يرجعوا إلى الجاهلية الأولى.

فإن كان المراد به (الأمر) هذا الوجه فتكون (حتى) على بابها للغاية. وإن كان المراد به الوجه الأول فتكون (حتى) بمعنى: (قرب) كما تقدم.

(١) رواه الآجري في كتاب فضل العلم بهذا اللفظ، ورواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ آخر.

(٢) سورة الروم، من الآية ٤٧.

(٣) سورة المائدة، من الآية ١٠٥.

الوجه السادس عشر : في هذا دليل على أفضلية هذه الأمة على غيرها من الأمم، إذ إن الله، عزَّ وجلَّ، أبقاها على دينها إلى قيام الساعة من غير أن يدخل عليها في ذلك خلل، ولا تتعبد بغير ما شُرِّع لها، وغيرها من الأمم ليس كذلك، لأنه لم تأت قطُّ أمةٌ حتى تنقرض الأخرى.

الوجه السابع عشر : في هذا دليل على شرف النبي، ﷺ، وعلو منزله عند ربه، إذ إن تشریف أمته وتفضيلها يتضمن تشریفه من باب أولى، ورفع قدره، إذ إن بسببه حصلت لها هذه السعادة العظمى. جَعَلَنَا اللهُ مِنْ أَمَتِهِ، وَأَسْعَدَنَا بِاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ، إِنَّهُ وَلِيُّيْ كَرِيمٍ.

الوجه الثامن عشر : في الحديث إشارة لأهل الصوفة، وهو أن أمر الله، تعالى، عندهم عام، والمراد به الخصوص، أي يختص بكل واحد بِحَدِيثِهِ، دون مشاركة غيره، وهو الموت. فيكون المراد بسياق الحديث بأن يموتوا على الخير، فتشرح صدورهم للوعد الجميل، ويبتغون الموت يفرحون به كالغائب يَقدُّمُ على أهله.

جعل الله به فَرْحَنَا، وجعل يومه خَيْرَ أَيَّامِنَا بِمَنِّهِ وَيُؤْمِنُهُ، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، والحمد لله وحده.

وصلَّى اللهُ على سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

## حديث سؤال القبر وفتنته

عن أسماء، رضي الله عنها، أن النبي، ﷺ، حَمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي هذا، حتى الجنة والنار. فأوجي إلي: أنكم تُفْتَنُونَ في قبوركم - مِثْلَ أو قَرِيباً (لا أدري أي ذلك قالت أسماء) - من فتنة المسيح الدجال. يقال: ما عَلِمْتُك بهذا الرجل؟ فأما المؤمنُ أو الموقِنُ (لا أدري أيهما قالت أسماء) فيقول: هو مُحَمَّدٌ، رسولُ الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبناه وأتبعناه. هو مُحَمَّدٌ، ثلاثاً. فيقال: نَمَّ صالحاً. قد عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا بِهِ. وأما المنافقُ أو المرتابُ (لا أدري أي ذلك قالت أسماء) فيقول: لا أدري، سمعتُ الناسَ يقولون شيئاً، فقلته.

\* \* \*

ظاهر الحديث: يدل على فتنة القبر، وسؤاله. والكلامُ عليه من وجوه:

الوجه الأول: (حَمِدَ الله). فيه دليل على أن الأمور المهمة تستفتح بحمد الله، لأن هذا الذي استفتح، عليه السلام، بالحمد فيه كان أمراً مُهِمّاً عظيماً، وهو أنه، عليه السلام، كان قد انصرف من صلاة كسوف الشمس، ثم أقبل على الناس يعظهم ويذكّرهم، وكذلك كانت سُنَّتُهُ، عليه السلام، في كل أمرٍ له بال، يستفتحه أولاً بالحمد، وكذلك السُنَّةُ في خطبة النساء، لأنه أمرٌ له بال. وقد تقرر ذلك من فعله، عليه السلام، ومن فعل الصحابة.

الوجه الثاني: قولها: (وأثنى عليه). فيه دليل على أن الثناء بعد الحمد من السُنَّةِ، ومرغَّب فيه، لأنه، عليه السلام، كان يفعل ذلك، واستقر عمله وعمل الصحابة عليه. هذه هي السُنَّةُ فيما يخصه، عليه السلام. وأما غيره فلا بُدَّ له من الصلاة عليه لقوله، عليه السلام: (عليكم بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاء من بعدي)<sup>(١)</sup>. والخلفاء بعده، والصحابة عن آخرهم، كانوا يُصَلُّون عليه، ﷺ، بعد الحمد والثناء على الله، عز وجل.

(١) سبق تخريجه في الحديث (١).



الوجه الثالث: قوله، عليه السلام: (ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي هذا). فيه دليل على أنه، عليه السلام، لم يكن يرى من الغيب جميعه في الزمان المتقدم على هذا الموطن إلا البعض، وأنه في هذا الموطن تكملت له الرؤية لتلك الأشياء كلها.

ويرد على هذا سؤال، وهو: أن يقال ما المراد بقوله، عليه السلام: (ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته)؟ هل المراد به جميع الغيوب؟ أو المراد به ما يحتاج به الإخبار إلى أمته، وما يخصه، عليه السلام، في ذاته المكرمة؟

والجواب: أن لفظ الحديث محتمل للوجهين معاً، والظاهر منهما الوجه الأخير، وهو: أن يكون المراد به ما يحتاج به الإخبار إلى أمته، وما يخصه، عليه السلام، في ذاته المكرمة، أو ما أكرمه الله بالاطلاع عليه.

والأول ممنوع، يدل على ذلك الكتاب والسنة. أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup> وأما الحديث فقوله، عليه السلام: (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله. لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله)<sup>(٢)</sup>، وأنه لا يمكن أن يُحمل هذا على جميع الغيوب، لأن ذلك يؤدي إلى استواء الخالق والمخلوق، وهو مستحيل عقلاً، وقد قال، عز وجل، في كتابه: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾<sup>(٣)</sup> والأشياء منها ما قد وقع قبل خلقي بني آدم، ومنها ما يقع بعد موتهم، فكان ذلك مستحيلًا من طريق العقل والنقل.

الوجه الرابع: فيه دليل على أن ما أري له، عليه السلام، من الغيوب، فله الإخبار به، وله ألا يخبر به، وله أن يخبر ببعضه ولا يخبر بالبعض، بخلاف الوحي، فإن عليه أن يخبر به كله، لأنه، عليه السلام، لما أري له هنا ما أري أخبر ببعض ما رأى، وهو الجنة والنار، وسكت عن الغير، ولم يكن ليفعل ذلك في الوحي، إلا أن يخبر به كله، كما أوحى إليه.

والحكمة في ذلك - والله أعلم - أنه قد يكون فيما يرى أشياء لا يمكن لأحد الاطلاع عليها، ولا يقدر على ذلك إلا هو، عليه السلام، لِمَا أمدّه الله به من القوة والعون، بخلاف الوحي، فإنه لا يكون إلا بقدر ما تقدر الأمة على تلقيه.

(١) سورة النمل، من الآية ٦٥.

(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) سورة الرحمن، من الآية ٢٩.

الوجه الخامس: فيه دليل على عِظَم قدرة الله، تعالى، إذ إنه، عليه السلام، رأى في هذه الدار، في هذا الزمن اليسير، ما لم يره ليلة المعراج، في العالم العلوي، ومشاهدة الملكوت.

الوجه السادس: فيه دليل على أن القدرة لا تتوقف على ممكن، لأنه، عليه السلام، رأى في هذا الزمن اليسير أموراً عظماً، ثم عَقَلَهَا جميعها، مع إبقاء أوصاف البشرية عليه.

الوجه السابع: قوله، عليه السلام: (حتّى الجنة والنار). هذا اللفظ محتمل لوجهين:

(الأول): أن يكون، عليه السلام، أراد أن يخبرهم بأنه عاين كلّ ما يَلْقَوْنَ بعد خروجهم من هذه الدار حتى يستقروا في الجنة والنار.

(الثاني): أن يكون، عليه السلام، أراد أن يخبرهم بعِظَم ما رأى من أمور الغيب، فذكر الجنة والنار، تنبيهاً على ذلك، لأن الجنة قد رُوي أن سقفها عرش الرحمن، والنار في أسفل السافلين تحت البحر الأعظم. فإذا رأى هذين الطرفين فمن باب أولى أن يرى ما بينهما.

الوجه الثامن: فيه دليل لأهل السنة، حيث يقولون: بأن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان حقيقة، إذ إنه، عليه السلام، عاينهما في هذا المقام.

الوجه التاسع: فيه دليل على أن الجواهر لا تُحجَّب بذواتها، لأنه، عليه السلام، قد رأى الجنة من هذه الدار، وهي في العالم العلوي فوق السبع الطباق، وسقفها عرش الرحمن - كما تقدم - وهي محدِّقة بالسُّور، ولها شُرَفَات وأبواب إلى غير ذلك، مما قد علم من صفتها وعلوها. ورأى النار وهي في أسفل سافلين تحت البحر الأعظم الذي عليه قرار الأرضين - على ما قد علم - ثم مع هذا البعد والكثافة العظمى لم يحجبه شيء من ذلك عن الرؤية والمعانية.

الوجه العاشر: فيه دليل على عِظَم قدرة الله، تعالى، وأنها لا تُحصَر بالعقل، ولا تجري على قياس، لأنه، عليه السلام، قد رأى الجنة من هنا، وعاينها. وليلة أسري به لم يرها، وإنما رأى سِدْرَةَ الْمُنتَهَى، وهي ليست في الجنة - على ما سيأتي بيانه في حديث المعراج، إن شاء الله - ورأى النهرين اللذين ينبعان من أصلها، ويمضيان إلى الجنة - وكل هذا يأتي في حديث المعراج، إن شاء الله - فكان هذا أدلّ دليل على أن القدرة تحجب ما شاءت كان بواسطة أو بغير واسطة، وتُبدي ما شاءت كان بحجاب أو بغير حجاب.

الوجه الحادي عشر: يترتب على فائدة الإخبار بهذا ترك الالتفات للعوائد، وتقوية الإيمان، وترك الهمّ والفرح لإصابة شيء أو ذهابه، إذا تحقق المرء بعِظَم القدرة التي هو صادر عنها، فيشرح صدر المؤمن إذ ذاك للتعليق بجناب مولاه، وعدم الالتفات إلى ما سواه، وتكون يده لا تعويل عليها فيما يتصرف فيه من الأشياء، إبقاءً لأثر الحكمة.

الوجه الثاني عشر: قوله، عليه السلام: (تفتنون في قبوركم). (تفتنون) بمعنى: تُختَبِرون. قال، عز وجل في كتابه: ﴿الْحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾<sup>(١)</sup> أي: لا يُختَبَرُونَ؟ لكن الاختبار هنا بوجه خاص، كما أخبر في باقي الحديث، على ما سيأتي بيانه.

الوجه الثالث عشر: فيه دليل على أن الله، عز وجل، قد عافى نبيّه، عليه السلام، من فتنه القبر، وأكرمه بذلك، لأن قوله، عليه السلام، (تُفْتَنُونَ) خطاب مواجهة، فلم يكن هو، عليه السلام، داخلاً في الخطاب، ولو كان داخلاً مع أمته في ذلك لقال: (تُفْتَنُ في قبورنا). يزيد هذا إيضاحاً وبياناً قوله، عليه السلام، في باقي الحديث: (يقال: ما علّمك بهذا الرجل؟) ولا يمكن أن يسأل عن نفسه المكرومة.

فإن قال قائل: لعل أن تكون له فتنة خاصة به، ليست على هذه الصيغة.

قيل له: لو كانت له فتنة خاصة لذكرها وبيّنها، ليسلي أمته بذلك، ويهون عليهم ما هم إليه سائرون، كما فعل، عليه السلام، ذلك في غير ما موضع. فمن ذلك قوله، عليه السلام: (لِيُعْزَى المسلمون في مصابهم المصيبة بي)<sup>(٢)</sup>، ومن ذلك قوله، عليه السلام، لفاطمة حين قالت: (واكرّباة) فقال: (لا كَرْبَ على أبيك بعد اليوم)<sup>(٣)</sup>.

ومن ذلك إخباره، عليه السلام، عن نفسه المكرومة بأنه يصعق يوم القيامة فيمن يصعق، ثم يُنْفِق من تلك الصّعقة، ويكون هو أول من يُفْق، فيجد موسى، عليه السلام، متعلقاً بساق العرش، لا يدري أصعق فيمن صُعِق<sup>(٤)</sup>، وقام قبله، أم لم يصبه شيء؟ إلى غير ذلك مما جاء في هذا المعنى. فلو كانت له، عليه السلام، فتنة تخصّه، لما ترك ذكرها، كما لم يترك ذكر ما أشرنا إليه، ولأن في ذكره لذلك لطفاً بأمته، وتهويناً عليهم فيما بين أيديهم - كما تقدم - وكان، عليه السلام، ينظر أبداً ما هو أحسن لهم فيفعله، لأنه كان بالمؤمنين رحيماً.

الوجه الرابع عشر: هذه الفتنة، هل هي عامة في الخلق كلهم صغاراً وكباراً؟ أو هي مختصة

(١) سورة العنكبوت، الآيات ١ - ٢.

(٢) نص الحديث: عن سعد بن سهل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: سَيُعْزَى الناس بعضهم بعضاً من بعدي... إلى آخر الحديث. رواه أبو يعلى في المسند والطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان. والمسلمون: نائب فاعل للفعل المبني للمجهول: (يعزى). و (المصيبة) مفعول مطلق للمصدر (مُصاب).

(٣) رواه البخاري في المغازي باب مرض النبي ﷺ والإمام أحمد في المسند وابن ماجه والنسائي عن أنس رضي الله عنه بلفظ: لما ثقل رسول الله ﷺ جعل يتغشاها الكرب، فقالت فاطمة: واكرّب أبناه. فقال: ليس على أبيك كَرْبٌ بعد اليوم... الخ.

(٤) صعقة النبي ﷺ رواها البخاري في كتاب الخصومات، وفي الأنبياء. ورواها مسلم في الفضائل في حديث طويل عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بمن بلغ التكليف دون غيره؟ لفظ الحديث محتمل للوجهين معاً، والأظهر من الوجهين: العموم، لأنه، عليه السلام، قد صلى على صبي، ودعا له بأن يعافيه الله من فتنة القبر، فلو لم تكن الفتنة عامة لما صح أن يدعو له بذلك.

الوجه الخامس عشر: إذا كانت الفتنة عامة هل<sup>(١)</sup> هي على حد سواء، للصغير والكبير، أو هي تختلف؟ محتمل للوجهين معاً، لأن القدرة صالحة لكليهما، وأمور الآخرة لا تؤخذ بالعقل ولا بالقياس، وإنما هي موقوفة على إخبار الشارع، عليه السلام، ومسالتنا هذه لم يرد فيها نص، فيتعين فيها الإيمان بالفتنة مطلقاً، والتعيين فيما نص عليه، وعدم التعيين فيما لم ينص عليه وتركه للاحتمال.

الوجه السادس عشر: فيه دليل على رد الأرواح إلى الأجساد في القبور، لأن الفتنة لا تكون إلا للحَيِّ، وأما الميت فلا يتأتى أن يُفْتَنَ، لأنه لا يفهم ولا يعقل ولا يُحَسَّ بألم ولا تنعم، وهذه الحياة التي في القبر، والموتة التي تكون بعدها هي إحدى الحياتين وإحدى الموتتين اللتين أخبر بهما، عز وجل، في كتابه حيث قال: ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا آثَنَيْنَ وَأَحْيَيْتَنَا أَثَلَّتَيْنِ﴾<sup>(٢)</sup>، على ما قاله بعض العلماء.

الوجه السابع عشر: في هذا دليل على عظم قدرة الله، تعالى، وأنه لا يعجزها ممكن، نحو ما تقدم، لأن الحي أبداً مهما أهيل عليه شيء من تراب ينطفئ ويموت، وهو الآن يحيا تحت التراب، ولا يضُرُّه. وهذا مما يجب الإيمان به، على ما جاء الخبر، ويُترك الالتفات للكيفية، لأنه من جملة الغيوب، والله عز وجل، يقول في صفة المؤمنين: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

الوجه الثامن عشر: قوله، عليه السلام: (مثل أو قريباً من فتنة المسيح الدجال). مثل أو قريباً شك من الراوي الذي روى عن أسماء في أيهما قالت، وفيه دليل على تحريمهم في النقل وصدقهم، لأنه لما أن أشكل عليه ما قالت أسماء أبدى الإشكال ولم يأخذ بقوة الظن فيخبر به.

الوجه التاسع عشر: تمثيله، عليه السلام، فتنة القبر بفتنة المسيح الدجال، تحتمل وجهين:

(الأول): أن يكون مثل بها لعظمها، إذ إنه ليس في الدنيا فتنة أعظم منها. أعادنا الله منها يَمَنَّهُ.

(الثاني): أن يكون مثل بها تنبيهاً منه، عليه السلام، على حال المنافق أو المرتاب في قَصْرِ الْعِلَّة. وذلك أن الدجال يدَّعي الربوبية، ويستدل عليها بأشياء، منها: أنه يُخَيِّسِي وَيُمِيت، ومنها أنه يسير لِسِيرِهِ مِثْلُ الْجَنَّةِ عن يمينه، ومثل النار عن يساره، ومنها: أن أموال من يأبى عن اتباعه تَتَبَّعُهُ، إلى غير ذلك مما جاء في عظم فتنته. وبعد هذا كله: ذاته تكذب كل ما استدلل به، لأنه أعور،

(١) كذا بحذف الفاء قبل (هل).

(٢) سورة غافر، من الآية ١١.

ومركوبه أعور ، فلم تعطه قدرته أن يحسّن خَلْق نفسه ، ولا خَلْق مركوبه . ثم بعد ذلك يَنْزِل عيسى ، عليه السلام ، فيقتله بحربته ، حتى يُرى دمه في الحربة . فلو كان إلهاً لَدَفَعَ النقصَ والهلاكَ عن نفسه .

والمنافق أو المرتاب أشبه في هذا المعنى ، لأنه أظهر الإيمانَ في الدنيا ، وتلبّس به في الظاهر ، ولم يكمل ما شرط عليه فيه ، فإذا احتاج إلى الإيمان ، واضطر إليه لم ينفعه ، فأشبهَ الدجالَ في علته القاصرة ، ولُحوقِ الهلاك به .

وقد يحتمل أن يكون عليه السلام ، مثّل به تنبيهاً على هذين الوجهين معاً ، وهو الأظهر ، والله أعلم ، لأنه أجمع للفائدة .

الوجه العشرون : قوله ، عليه السلام : (يقال : ما عِلْمُكَ بهذا الرجل؟) . هذا الرجل المراد به : ذاتُ النبي ، ﷺ ، ورؤيتها بالعين . وفي هذا دليل على عِظَم قدرة الله تعالى ، إذ الناس يموتون في الزمان الفرد في أقطار الأرض على اختلافها وبعدها وقربها ، كلهم يراه ، عليه السلام ، قريباً منه ، لأن لفظ (هذا) لا تستعمله العرب إلا في القريب .

الوجه الواحد والعشرون : في هذا ردّ على من يقول بأن رؤية ذات النبي ، ﷺ ، في الزمن الفرد في أقطار مختلفة على صور مختلفة ، لا تمكن ؛ لأن القدرة صالحة بمقتضى ما نحن بسبيله ، وقد قال ، عليه السلام : (من رآني في المنام فقد رآني حقاً)<sup>(١)</sup> . فَمَنْ يقول بعدم الرؤية فقد كَذَبَ هذا الحديث ، وقد حَصَرَ القدرة التي لا تُحَصَر ، ولا ترجع إلى حدّ ، ولا إلى قياس .

الوجه الثاني والعشرون : فيه دليل لمن يقول : بأن رؤية النبي ، ﷺ ، في الزمن الفرد في أقطار مختلفة سائغة ممكنة . فدليلهم من طريق النقل : ما نحن بسبيله . ودليلهم من طريق العقل : أنهم جعلوا ذاته السَّيِّئَةَ كالمرأة ، كل إنسان يرى فيها صورته على ما هي عليه من حسن أو قبح ، والمرأة على حالها من الحسن لم تتبدل<sup>(٢)</sup> .

الوجه الثالث والعشرون : فيه دليل على أن الإبهام عند الاختبار من الشدة في الامتحان ، لأنهما عدلا عن ذكر الاسم المعلوم بالإشارة إلى الذات المكرمة ، وعدلا عن ذكر الإيمان إلى ذكر العلم ، فكان ذلك إبهاماً على إبهام ، كل ذلك شدة في الامتحان . ولو لم يريدا شدة الامتحان بذلك لقالا له : كيف إيمانك بمحمد هذا؟ فيكون أخفّ عليه ، بل فيه شَبَه من تلقين الحُجَّة .

نسأل الله أن يلهمنا الحجة عند عِظَم هذا الامتحان .

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، بلفظ آخر .

(٢) جاء في نسخة باريس ما يلي : (ومنهم من جعلها كالشمس ، وهو أولى ، لأنها تُرى من جميع أقطار الدنيا وهي في محل واحد) .

الوجه الرابع والعشرون: فيه دليل لما قدمناه من أن الجواهر لا تحجب بذواتها، لأن الناس كلهم يرون النبي، ﷺ، وهم في بطون الثرى، ويسألون عنه. والثرى أكثر كثافة من الجواهر كلها. وكلهم يرونه قريباً متدانياً، لأن (هذا) لا تستعمل إلا للقريب المتداني.

الوجه الخامس والعشرون: فيه دليل على صحة كرامة الأولياء في اطلاعهم على الأشياء البعيدة، يرونها رؤية العين قريبة منهم، ويخطون الخطوات البسيطة فيقطعون بها الأرض الطويلة، لأن القدرة صالحة لكل ذلك، ولهذا قال بعضهم: (الدنيا خطوة مؤمن)، ومثل هذا اطلاعهم على القلوب مع كثافة الأبدان.

وقد حكي عن بعض الفضلاء منهم في هذا الشأن أنه اجتمع مع بعض إخوانه بموضع، وكان في القوم رجل من العوام، ليس منهم، فاطَّلَعَ بعض إخوانه على قلب ذلك الرجل، فرأى شيئاً منه لا يعجبه، فخرج عنهم، فخرج إليه هذا السيد المتمكن، فقال له: ارجع. ما رأيتَ فقد رآه غيرك، وإن لم يُحَمَلْ هذا هنا فأين يُحَمَلْ؟ فرَّده من طريق الفتوة<sup>(١)</sup>.

الوجه السادس والعشرون: فيه تفسير وبيان وإيضاح لأحاديث ومسائل جملة، تُشَكِّلُ على بعض الناس عند سماعها.

فمن ذلك ما رُوِيَ في الموت أنه يُعرَضُ يوم القيامة على أهل الدارين، ويعرفونه.

ومن ذلك معرفة المؤمنين ربهم، عز وجل، يوم القيامة حين يتجلَّى لهم، ويقول: (أنا ربكم). فيقولون: (أنت ربنا). ولم يتقدم لأكثرهم رؤيته، عز وجل، ولا معرفته.

ومن ذلك ما يتفق لبعض الأولياء من معرفتهم ببعض المسائل الفقهية من غير أن يتقدم لهم بها علم، ثم يجدون ذلك موافقاً للعلم المنقول، سواء بسواء، إلى غير ذلك مما يشبه هذا المعنى. وهذا كله في القدرة مع هذه القاعدة التي تقدم ذكرها، لا إشكال فيه، لأن القدرة تصنع ما شاءت، كيف شاءت.

الوجه السابع والعشرون: قوله، (فأما المؤمن أو الموقن). هذا شكٌّ من الراوي في أيهما قالت أسماء، وفيه دليل على ما تقدم من صدقهم وتحريمهم في النقل. والمؤمن والموقن صفتان متقاربتان على ما سيأتي بيانه في باقي الحديث، إن شاء الله.

الوجه الثامن والعشرون: قوله: (فيقول: هو محمد رسول الله). جاءنا بالبينات والهدى، فأجبناه، وأتبعناه. وهو محمد، ثلاثاً) هذا جوابٌ أجَلُّ ما يُمكن من المعرفة والإيمان، لأنهم أخبروا

(١) الفتوة - هنا - بمعنى: المكاشفة القلبية.

باسمه، عليه السلام، وشَهِدُوا له بالرسالة وبالهُدَى وباليَتَنَات، وادَّعَوْا أَنَّهُمْ أَجَابُوا لذلك وَاتَّبَعُوا، وهذا غاية ما يُمْكِنُ البَشْرُ في الفعل والجواب. ثم مع هذا الجواب المقنع لم يُقْنَعْ منهم بالجواب مرةً واحدة، حتى أعادوها ثلاثاً.

الوجه التاسع والعشرون: يَرِدُ على هذا سؤال، وهو، أن يقال: إعادتهم السؤالَ، ثلاثاً، هل هو تعبُّدٌ أو معقولُ المعنى؟ والجواب: أنه محتمل لهما معاً. فإن قلنا بالتعبد، فلا بحث. وإن قلنا بأنه معقول المعنى فهو ظاهر من طريق العقل والنقل.

أما العقل فلأنَّ من فعل شيئاً وأتقنه مرة واحدة لم ينسب بفعله ذلك، لا إلى صنعة ولا إلى إتقان، لأن الواحدة قد تكون بحكم الوفاق، والاثنين كذلك محتملان. فإذا فعل ذلك ثلاثاً نُسِبَ إلى حُسْنِ الصَّنعة والإتقان في ذلك الشيء الذي فعل، لأنه لا يمكن أن يقع الشيء في الغالب ثلاث مرات حَسَنًا إلا عن تدريب به ومعرفة.

ومثال ذلك (الرامي) إن رمى أولاً، فأصاب، فإنه لا يحسب رامياً، إذ إنها قد تكون وفاقاً، وكذلك في المرتين، فقد تكونان وفاقاً. فإن كرر ذلك ثلاثاً عُلِمَ أنه لم يصب إلا لمعرفته وحسن صنعته، لأن الثلاثة في الغالب لا تكون وفاقاً.

وأما النقل فلأنه، عليه السلام، كان أبداً يكرر السؤال ثلاثاً، في كل أمر ذي بال. وهذا أمر له خطر وبآل، فكان التكرار فيه ثلاثاً.

الوجه الثلاثون: في هذا دليل على أن الأحكام في الآخرة جارية على مقتضى الأصول الشرعية في هذه الدار.

الوجه الحادي والثلاثون: تكرار هذه الثلاث هل المراد به: تكرار الجواب فقط، فيكون المملكان، عليهما السلام، سألاه مرة واحدة، وأجاب هو ثلاث مرات؟ أو المراد به تكرار السؤال والجواب؟

محتمل لهما معاً. لكن ظاهر اللفظ يَنْصَرُّ على أن المراد السؤال والجواب معاً، لأنه ذكر السؤال والجواب، ثم بعد ذلك قال: (ثلاثاً) فدل على أن ما ذكر قَبْلَ ذكر الثلاث يُعاد بِرُؤْيَيْهِ<sup>(١)</sup>.

الوجه الثاني والثلاثون: في هذا دليل على أن الحق لا يتبدل، وإن اُمتَحِنَ صاحِبُهُ به مراراً،

(١) في حاشية نسخة باريس ما يلي:

(قال محشيه، قلت: أفاد هذا أن الذي تكرر ثلاثاً هو لفظ (محمد)، وظاهره أن السؤال لا يتكرر، وكذا الجواب، وإنما المكرر هذا اللفظ فقط. فقله (ثلاثاً) معمول لـ (يقول)، لكنه قَيَّدَ في قوله (هو محمد) خلافاً لما قَيَّده كلام الشارح).

لأنه لَمَّا أن كان هذا المسؤول على الحق، وأعيد عليه السؤال ثلاثاً، لم ينزع<sup>(١)</sup> عن الجواب، وبقي متمسكاً به، لمعرفته وتحققه. ولو كان الجواب بالباطل لدهش عند السؤال الثاني أو الثالث، ونزع عنه خيفة أن يكون لم يصب الحق، فيكون إعادة السؤال لأجل ذلك وقد قال، عز وجل، في كتابه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾<sup>(٢)</sup> فما كان من عند الله فهو حق، والحق لا خلاف فيه، ولا يتبدل.

الوجه الثالث والثلاثون: فيه دليل على أن (المَيِّزَ)<sup>(٣)</sup> خَلَقَ من خَلْقِ الله، يعطيه، عز وجل، من شاء، بمقدمة وبغير مقدمة، لأن أكثر هذه الأمة لم يتصلع بالعلوم حتى يعلم ذات النبي، ﷺ، وصفاته بالعلم، وإنما ذلك القليل منهم، ثم مع الجهل بصفته وذاته إذا رأوه يقولون: هو محمد. ويكرر عليهم السؤال ثلاثاً، ثم لم ينزعوا عن ذلك، ويعرفون أنه الحق. وهذا أدل دليل على ما قدمناه من رفع الإشكال في بعض الأحاديث وبعض المسائل. وكذلك أيضاً في الآي، إذ إن القدرة صالحة بمقتضى ما نحن بسبيله لكل ما ورد من ذلك.

الوجه الرابع والثلاثون: في هذا دليل لأهل السنة، حيث يقولون بأن الجهل ببعض صفات الباري - عز وجل - مع اتباع أمره ونهيه لا يضر، وأن معرفته، عز وجل، بالدليل والبرهان مع ترك الاتباع لأمره ونهيه لا تنفع، لأن المؤمنين كلهم: مَنْ عَرَفَ منهم صفة النبي، ﷺ، ومن لم يعرفها؛ إذا رأوه عرفوه أشدَّ المعرفة، لأنهم يُسألون عنه ثلاث مرات، وهم يجيبون بأنه هو محمد رسول الله، ﷺ، ولم ينزعوا عن ذلك.

ومن المنافقين أو المرتابين من رآه، عليه السلام، في الدنيا وعرفه بحقيقة المعرفة، ثم عند فائدة المعرفة تنكرت المعرفة عليه، وما ذاك إلا لأن المؤمنين كانوا متبعين لسنَّته، والمنافقين لم يتبعوها، فعاد عليهم العلم جهلاً. فهل من مستيقظ من غفلته، مشمر عن ساق صدقه، ليسلك محجة خلاصه؟

الوجه الخامس والثلاثون: قوله: فيقال له: (نَمْ صالحاً). النوم، هنا، يحتمل أن يكون حقيقة، ويحتمل أن يكون مجازاً.

فإن كان حقيقة فيكون فيه دليل على أن النفس تبقى في القبر مع الجسد. هذا على قول من

(١) لم ينزع عن الجواب: لم يكف، أو ظل على جوابه ولم يغيّره.

(٢) سورة النساء، من الآية ٨٢.

(٣) المَيِّز: التمييز والفرز. يقال: مازَه: فرزه. ويراد منه النور الذي يعطيه الله تعالى لعبده يعرف فيه رسول الله ﷺ، كما يعرفه النائم في رؤيا صالحة.



يقول: بأن النفس والروح اسمان لمُسَمَّيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ. والذين يقولون بهذا يقولون: بأن النائم تقبض روحه وتبقى نفسه في الجسد. فإذا أراد، عزَّ وجلَّ، أن يميته، وهو نائم، قبض الذي في الجسد فألحقه بالمقبوض. وإن أراد بقاءه ردَّ المقبوض إلى الجسد، فرجع نَبْهَانِ حياً، ولا تقبض الروح والنفس معاً إلا عند الانتقال من هذه الدار. وعلى هذا حملوا قوله، عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسَلِكٍ إِلَىٰ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾<sup>(١)</sup>.

فإذا كان المراد بالنوم هذا، وهو النوم الحقيقي الذي يعهد في دار الدنيا، فيكون فيه دليل على أن الموتة التي في القبر لا يوجد لها ألم، كما يوجد في هذه الدار، إذ إن النائم لا تعب عليه في نومه، بل هو راحة له ورحمة. هذا البحث فيه على قول من يقول: بأن النفس والروح اسمان لمُسَمَّيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ.

وأما على قول من يقول بأن النفس والروح اسمان لمسمى واحد، فليس يكون النوم حقيقة، وإنما هو موت، فكنا عنه بالنوم، وهي إحدى الموتات المتقدم ذكرها. وإنما عدلا عن الحقيقة إلى المجاز لِحُسْنِنا له في العبارة لئلا يلحقه رعب، لأن الميت يلحقه التنغيص والتألم عند موته، والنائم لا يلحقه تألم ولا تشويش. فهذا كناية منهم<sup>(٢)</sup> على أنه لا تعب عليه بعد هذا.

الوجه السادس والثلاثون: الصلاح هنا، يحتمل أن يكون مجهولاً لا يُعرَف، ويحتمل أن يكون معروفاً.

أما الاحتمال الأول فهو ظاهر الحديث، لأنه أتى بالصلاح منكرّاً، فهو لا يُعرَف. وأما الاحتمال الثاني فقد تؤخذ معرفة الصلاح المذكور هنا من حديث آخر، قال فيه: إنهما يَفْتَحَانِ لَهُ كُوَّةً عِنْدَ رَأْسِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَكُوَّةً عِنْدَ رِجْلَيْهِ إِلَى النَّارِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ الَّذِي عَافَاهُ اللَّهُ مِنْهُ وَأَعْطَاهُ إِلَى الْكَفَّارِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ الَّذِي مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهِ، ثُمَّ يَقُولَانِ لَهُ: مِنْ هَذَا عَافَاكَ اللَّهُ، يَا وَلِيَّ اللَّهِ - يَعْنِيَانِ الْكُوَّةَ الَّتِي إِلَى النَّارِ - ثُمَّ يُغْلِقَانِهَا، وَيَقُولَانِ لَهُ: هَذَا مَا وَعَدَكَ اللَّهُ، يَا وَلِيَّ اللَّهِ - يَعْنِيَانِ مَا رَأَى لَهُ فِي الْجَنَّةِ - وَيُبْقِيَانِ لَهُ الْكُوَّةَ الَّتِي إِلَى الْجَنَّةِ يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ عَزْفِهَا وَنَعِيمِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَى بَصَرِهِ<sup>(٣)</sup>. وكفى بهذا صلاحاً. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ومتعددة.

(١) سورة الزمر، من الآية ٤٢.

(٢) كذا. والصواب: منهما. والضمير عائد على المَلَكَيْنِ المذكورين في الوجه الحادي والثلاثين.

(٣) مرَّكَبٌ من أحاديث عدة رواها مسلم في صحيحه في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار، ورواها الترمذي في كتاب الزهد - باب ذكر القبر والبلى.

الوجه السابع والثلاثون: قوله: (قد علمنا). العلم، هنا، يحتمل أن يكون المراد به علم الحال الذي يقع عليه الجزاء، ويحتمل أن يكون المراد به ما عَلِمناه من طريق الغيب، فيكونان يعرفان المؤمن والكافر حين يعاينانه. والأظهر من هذين الاحتمالين: الأول، للقرينة التي قارنته، وهو: سؤالهما ثلاثاً، ثم بعد الثلاث يقولان: قد علمنا. وهذا يدل على أن المراد علم الحال الذي يقع عليه الجزاء، وهذا مثل قوله، تعالى: ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾<sup>(١)</sup>. وهو، عز وجل، قد عَلِمَ الصادق والكاذب قبل، وقد كتب في اللوح المحفوظ قبل خلقه، وعَلِمَ الله تعالى لا يتجدد. لكن هذا العلم المراد به العلم الذي يقع عليه الجزاء، وتنقله الحفظه بالضبط والشهادة، على ما قاله العلماء، وما نحن بسبيله مثله.

الوجه الثامن والثلاثون: قوله: (إن كنت). يريدان: فيما سلف من دار الدنيا، لأنهما لو أرادا في الوقت لقالا: إنك.

الوجه التاسع والثلاثون: في هذا دليل على جواز الحكم بالشاهد على الغائب، لأنهما عرفا من حاله كيف كان في دار الدنيا، ويُسْتَدَلَّ بِحُسْنِ المقال على حُسْنِ الحال في الدنيا، لأن بحسن مقاله استدلالاً على حسن حاله في الدنيا. لكن هذا لا يمكن إلا إذا قامت قرينة لا يمكن معها التزوير.

الوجه الأربعون: قوله: (لَمُوقِنًا به). إنما ذكر (الموقن) لأن الموقن أعلى من المؤمن، فكل موقن مؤمن ولا ينعكس.

الوجه الحادي والأربعون: في هذا دليل على أن الموقنين محفظون في الجواب عند السؤال، وأنهم يَخْلُصُونَ من الفتنة التي تطرأ عليهم في هذا الموطن. وأما المؤمن فسيأتي بيانه في باقي الحديث، إن شاء الله.

الوجه الثاني والأربعون: قوله: (وأما المنافق أو المرتاب، لا أدري أي ذلك قالت أسماء). المنافق والمرتاب متقاربان في المعنى، لأن كليهما صاحبه مظهر للإيمان، مُسِرٌّ للكفر. وفيه دليل على تَحَرِّيهِمْ في النقل وصدقهم كما تقدم.

الوجه الثالث والأربعون: قوله: (فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته). فيه دليل على أن أتباع الناس دون علم مهلك، لأن السبب المهلك لهذا أن جعل دينه تبعاً للناس من غير علم ولا معرفة. فالعاقل يأخذ دينه من القواعد الشرعية التي بها الخلاص، كما تقدم، للناس قبل.

الوجه الرابع والأربعون: لقائل أن يقول: لِمَ ذكر، عليه السلام، هذا الطرف، وهو الهالك، وذكر الطرف الآخر، وهو الناجي، وسكت عن الطرف الوسط؟ والجواب:

(١) سورة العنكبوت، من الآية ٣.

أنه إذا وُجد حُكَّمان مُنوطان بعلتين مختلفتين، ثم وُجدت تانك العلتان في شيء واحد مجتمعتين، فلا بد من أثر الحُكَّمين أن يظهر في ذلك الشيء. ومثل هذا ما قاله بعض العلماء في معنى قوله، تعالى ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾<sup>(١)</sup>، أنهم هم الذين خرجوا إلى الغزو بغير إذن أبيهم، فاستشهدوا. فالشهادة تمنعهم من دخول النار، وعقوق الوالدين يمنعهم من دخول الجنة.

يزيد هذا إيضاحاً وبياناً ما حكى عن بعض الصالحين أنه كان خطيباً بأحد الأمصار بجامعها الأعظم، فلما انتقل رآه صاحب له في النوم، فسأله: ما فعل بك المَلَكُان في القبر؟ فقال: سألاني، فأزَيجَ عَلَيَّ<sup>(٢)</sup>، فلم أذر ما أجابهما، فبقيت متحيراً ساعة، فإذا أنا بشاب حَسَنِ الصورة، قد خرج من جانب القبر، فلَقَّنِي الحُجَّةَ، فلما جاوبتُهما وذهبا عني أراد أن ينصرف فتعلقتُ به، فقلت له: من أنت، يرحمك الله، الذي أغاثني الله بك؟ فقال: أنا عملُك. قلت: وما أبطأك عني حتى بقيت متحيراً في أمري؟ فقال لي: كنت تأخذُ أجرَةَ الخطابة من السُلْطَنَةِ. فقلت: والله ما أكلتُ منها شيئاً، وإنما كنتُ أتصدَّقُ بها. فقال لي: لو أكلتها ما أتيتك، ولأخذك إياها أبطأتُ عنك.

فتبين بهذا ما ذكرناه من أن العلتين إذا اجتمعتا في الشيء الواحد يظهر حكمهما، لأنه لما أخذ، بَطَأَ<sup>(٣)</sup> عنه، ولما لم يأكل أناه بعد البطء، فحصل له من أجل الأخذ رَجْفَةٌ، ومن أجل عدم الأكل والتصرف إعانة ورحمة، وعلى هذا فَيُقَسَّن.

الوجه الخامس والأربعون: لما بَيَّنَّ حكم الموقن أو المؤمن الكامل الإيمان اللَّذِينَ هما متقاربان بقي الإيمان الضعيف الذي هو مختلط. فقد يكون بعض الناس تغلب حسناته سيئاته، وقد يكون بعضهم بالعكس، وقد يكون بعضهم بالسُّوِيَةِ، ثم يتفاوتون في ذلك بحسب الأحوال والأعمال. فأحوالهم بالنظر إلى هذا المعنى كثيرة متعددة. فلو ذكره لاحتاج أن يبين كلَّ شخص بِحِدَّتِهِ كيف تكون فتنته، وكيف يكون جوابه، وكيف يكون خلاصه أو هلاكه، فيطول الكلام في ذلك أكثر ما يكون، بل إنه قد لا يُخَصَّرُ لكثرة اختلاف الأحوال. فذكر، عليه السلام، الطرفين، وبَيَّنَّ حكمَيهما اللَّذِينَ هما محصوران، وترك الطريق الوسط لكثرتِه يُؤَخَذُ بالاستقراء. وهذا أبلغ ما يمكن من الاختصار والفصاحة وحسن الإدراك في العبارة، إذ إنه ذَكَرَ الطرفين وبَيَّنَّ علَّتَهما. وعلَّتَهما إذا تؤملت تدل على أحوال الغير.

(١) سورة الأعراف، من الآية ٤٦.

(٢) أُرْزِجَ عَلَيَّ: أُغْلِقَ عَلَيَّ باب النطق أو التفكير، من رَجَجَ الباب أي أَغْلَقَهُ.

(٣) الصواب: بَطَّؤَ أو أَبْطَأَ.

فإن قال قائل : إنما ذكر، عليه السلام، (المؤمن) على الإطلاق، ولم يقيده، فلمَ قيّدتموه بصفة، وهي الكمال؟

قيل له : إنما قيدناه بصفة الكمال، لأنه قد سَوَّى في الإخبار بين الإيمان واليقين . واليقينُ أعلى من الإيمان الكامل، على ما تقرر وعُلِمَ، ولا يمكن أن يُسَوَّى في الإخبار بين ناقص وكامل، وإنما يُسَوَّى بين صفتين متماثلتين أو متقاربتين . وقد تقدم أن الإيمان الكامل يقارب اليقين . وقد نص، عليه السلام، على أن المؤمنَ الناقص الإيمان لا بدُّ له من العذاب في الغالب، فكيف يقع له الخلاص هنا، وهو بعدُ يُعَذَّب؟ والنص الذي ورد في ذلك ما روي عنه، عليه السلام، أنه قال : (الإيمان إيمانان، إيمانٌ لا يُدْخِل صاحبه النارَ، وإيمانٌ لا يُخَلِّدُ صاحبه في النار)<sup>(١)</sup> . فالإيمان الذي لا يُدْخِل صاحبه النارَ هو الإيمان الكامل، وصاحبه هو الذي يقع منه الجواب عند السؤال بصيغة ما ذكر في الحديث . والإيمان الذي لا يخلد صاحبه في النار هو الإيمان الذي يكون معه بعض المخالفات .

الوجه السادس والأربعون : يترتب على مجموع هذا الحديث من الفقه وجهان :

(الأول) : تقوية الإيمان، ورسوخ اليقين، لكثرة ما فيه من الأدلة على عِظَم القدرة، وعِظَم القادر، كما تقدم، في غير ما موضع قبل هذا .

(الثاني) : أخذ الأهبة للارتحال، والأخذ بطريق الخلاص والعمل على ذلك، ما دام المرء يجد لنفسه مهلة في هذه الدار؛ لكثرة ما فيه من الإخبار والتبيين لطرق الخلاص وغيرها .

فهل من مُشْمَرٍ لخلاص نفسه قبل حُلُوله في رَمْسِهِ، لأنه لا ينفع الاعتذار مع تقدم الإنذار؟  
وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

---

(١) لم نعرف مصدره .

## حديث أسعد الناس من قال لا إله إلا الله

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه قال: قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله، ﷺ: لقد ظننت - يا أبا هريرة - أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه، أو نفسه.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أنه لا يسعد بشفاعة النبي، ﷺ، يوم القيامة، إلا من قال: لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه أو نفسه. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله: (يا رسول الله) فيه دليل على تقديم ذكر المسؤول على المسألة. وإذا كانت أسماء المسؤول متعددة، فلْيُذكر منها أعلاها وأحبها إلى الشخص، إذا كان ذلك الاسم على لسان العلم، لأن هذا الصحابي، رضي الله عنه، لما أن أراد أن يسأل النبي، ﷺ، لم يسأله، حتى ناداه باسمه. ولما كانت أسماؤه، عليه السلام، متعددة، ناداه بأعلاها وأحبها إليه، وهو: (رسول الله)، ﷺ.

الوجه الثاني: في هذا دليل على ترك الدعاء والتملق عند السؤال، لأنه لم يذكر بعد الاسم المعظم إلا حاجته، دون دعاء ولا تملق.

الوجه الثالث: فيه دليل على أن حب الرسول، عليه السلام، بالاتباع دون المقال، لأن هذا الصحابي، رضي الله عنه، كثير الحب للرسول، ﷺ - على ما قد تقرر وعلم - وكان في الاتباع بحيث لا يُجهل ذلك منه، لكنه لما نادى النبي، ﷺ، هنا لم يزد على الاسم المعلوم شيئاً. والصحابة عن آخرهم مثله في هذا المعنى، وهم المهاجرون والأنصار والصفوة المحبّون، ثم مع تأكيد هذه المحبة لم يأت عن واحد منهم أنه أطراه يوماً واحداً، ولم يقصّروا في تعظيمه وترفيعه، على ما قد علم بالضرورة من أحوالهم.

الوجه الرابع: فيه دليل لأهل الصوفة حيث يَسْتَجِبُونَ استفتاح الكلام بذكر الحبيب، ويقولون بأن استفتاح الكلام بذلك يُؤَوِّز القلب، ويَهْدِي إلى الصراط المستقيم، ويأتي بالفوائد دوماً، وبالمسرات يجيء. لأنه لما أن نادى أولاً بأحب الأسماء إليه أثمر له ذلك تضعيف المسرة والبشارة، على ما سيأتي.

يزيد هذا إيضاحاً وبياناً ما روي عن عبد الله بن عمر، أنه أصاب يده أو رجله ألم، فلم يستطع مدّها، فاشتكى ذلك إلى الطبيب، فقال له الطبيب: لا تمدّ يدك أو رجلك حتى تنادي بأحبّ الأسماء إليك، فنادى (وأمحمد) فامتدّت يده.

الوجه الخامس: قوله، رضي الله عنه: (مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟). فيه دليل على أن من أدب العلم حُسن السؤال، لأنه سأل عن الشفاعة، ولم يذكر ما عنده من خبرها، وما وقع له من النظر والتردد حتى اضطر إلى ذكرها.

الوجه السادس: لقائل أن يقول: لم قال: (من أسعد؟) ولم يقل: (من هم أهل شفاعتك؟) والجواب: أن هؤلاء المشفوعَ فيهم يوم القيامة أصنافٌ مختلفة. فمنهم المؤمنون المذنبون، ومنهم الكفار، والمنافقون - على ما سيأتي بيانه - . والمنافقون في الذُّكْرِ الأسفل من النار. والمؤمنون المذنبون يدخلون النار بذنوبهم. فمنهم من يخرج منها بعد القصاص بغير شفاعة، ومنهم من يخرج بالشفاعة. فمن شُفِعَ له ثم عُذِّبَ لم تحصل له سعادة تامة، وإنما حصلت له سعادة خاصة، لأنه عوفي في الوقت من بلاء، ثم أعقبه بعد ذلك بلاء أشد منه، على ما سيأتي بيانه.

وشفاعته، عليه السلام، على ضربين: عامة، وخاصة. فالعامة أذكرها بعد. والخاصة: هي لأمتة المذنبين. فإذا شَفِعَ فيهم أخرجوا من النار، وعُفِيَ عنهم، وأدخلوا الجنة: هذه هي الشفاعة الخاصة، والسعادة التامة. فلأجل ذلك قال: (أسعد) التي هي من أحد أبنية المبالغة، لأنها سعادة، لا شقاء بعدها أبداً.

الوجه السابع: فيه دليل على قوة إيمان الصحابة وفضلهم؛ لأنه لا يسأل عن المسعود بالشفاعة وغير المسعود إلا مَنْ تحقق إيمانه بها، وقوي تصديقه بذلك؛ ولذلك قال، عليه السلام: (ما فضلكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره)<sup>(١)</sup>. وما قر في صدره، رضي الله عنه، هو قوة الإيمان واليقين. وكذلك الصحابة، رضي الله عنهم، عن آخرهم، إنما فضّلوا غيرهم بما قر في صدورهم من ذلك. وما خُذِلَ من خُذِلَ وارتدّ من ارتدّ إلا عند ضعف الإيمان

(١) ذكره الغزالي في الإحياء. قال العراقي: لم أجده مرفوعاً، إنما هو عند الحكيم الترمذي من كلام بكر بن عبد الله المزني.

والتصديق، فيطلبُ إذ ذاك الكيفيةَ في أمور الآخرة، وفي القدرة، فيمرق من الدين كما يَمَرُقُ السهمُ من الرَّمِيَّةِ<sup>(١)</sup>، وهو المسكين لا يشعر بنفسه<sup>(٢)</sup>. أعاذنا الله من بلائه بمنه.

الوجه الثامن: فيه دليل على طلب السعادة، والاهتمام بها، والعمل على أسبابها، لأن من عرف طريق السعادة عمل عليها، وترك ما عداها؛ فلذلك سأل عنها.

الوجه التاسع: لقائل أن يقول: لم قال: (الناس) ولم يقل: (أمتك)؟ والجواب: أنه إنما عدل عن ذكر (الامة) إلى ذكر (الناس)، لأن شفاعة النبي، ﷺ، على ضريين - كما تقدم - عامة وخاصة. فالعامة هي لجميع العالم، من الجن والإنس، للكافر والمنافق والمؤمن، على ما جاء في الحديث الصحيح: أن العالم ييقون في المحشر بتلك الأحوال المهلكة - التي قد نُصَّ عليها في غير ما آية، وغير ما حديث - والنار قد أهدت من كل الجهات، والشمس قد دنت منهم، حتى يكون بينها وبينهم قدر المِرْوَد، الذي تكحل به العين، رَجُلُ الرَّجُلِ على رَجُلِ المرأة، ورجل المرأة على رَجُلِ الرَّجُلِ، ثم لا يعرف أحدهما صاحبه.

حتى قالت عائشة رضي الله عنها، حين سمعت شيئاً من هذا: يا رسول الله؛ الرجال ينظرون إلى النساء<sup>(٣)</sup>؟ قال: يا عائشة، الأمرُ أشدُّ من أن يُهْمَّهُمْ ذلك. ثم يَغْرِقُونَ من شدة ما هم فيه حتى يبلغ عَرَقُهُمْ في الأرض سبعين ذراعاً. فمنهم من يُلْجِئُهُ العَرَقُ، ومنهم من يبلغ أذنيه، ومنهم من يبلغ عنقه، ومنهم من يبلغ ثديه. ثم هم كذلك يتفاضلون في ذلك الأمر العظيم بحسب أعمالهم.

ثم ييقون مع شدة هذه الأحوال التي أشرنا إليها وغيرها، على ما قد عُلِمَ من الأحاديث والآي، قدر ثلاثمائة سنة من أيام الدنيا، لا يأتيهم خبر من السماء، ولا يعرفون ماذا يُراد بهم؟

ثم يلهمهم الله، عز وجل، طلب الشفاعة، فيأتون إلى آدم، عليه السلام، فيقولون له: يا آدم؛ أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ إشفع لنا إلى ربنا، فمن كان من أهل الجنة مَرَّ إلى الجنة، ومن كان من أهل النار مَرَّ إلى النار. فيذكر آدم، عليه السلام، خطيئته فيبكي ويقول: نَفْسِي نَفْسِي؛ اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، عليه السلام.

فيذهبون إلى نوح، عليه السلام، فيقولون له: أنت أول الأنبياء والرسل، وقد سمّاك الله عبداً

(١) الرَّمِيَّةُ: الصَّيْدُ الذي ترميه.

(٢) وهو الذي يتساءل ويتشكك - من خلال ضعف إيمانه - عن أمور الآخرة، وعن قدرة الله تعالى خلافاً لمن كمل

إيمانه أو بلغ اليقين، وانقطع تساؤله، وانعدم شكه.

(٣) متفق عليه من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

شكوراً. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ إشفَعْ لنا إلى ربِّنا، فمن كان من أهل الجنة مرَّ إلى الجنة، ومن كان من أهل النار مرَّ إلى النار. فيذكر نوح عليه السلام، خطيئته، وهي دعاؤه على قومه، فيبكي ويقول: نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، عليه السلام.

فيذهبون إلى إبراهيم، عليه السلام، فيقولون له مثل مقالتهم الأولى، فيجوابهم، عليه السلام، كجوابهم<sup>(١)</sup>. ثم يرسلهم إلى موسى، عليه السلام، فيكون سؤالهم وجواب موسى، عليه السلام، كما كان السؤال والجواب الأول، ثم يرسلهم إلى عيسى، عليه السلام، فيقول لهم مثل الأول.

ثم يرسلهم إلى محمَّد، عليه الصلاة والسلام، فيقولون له: أنت حبيب الله، وصفوته من خلقه، وقد أنزل عليك كتابه الحكيم، وقد خصك بالفضل العميم. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ إشفَعْ لنا إلى ربِّنا، فمن كان من أهل الجنة مرَّ إلى الجنة، ومن كان من أهل النار مرَّ إلى النار.

فيقول: أنا لها. فيقوم في الشفاعة، فيشفَع - على ما جاء في الحديث - فيأمر الله، عزَّ وجلَّ، بالفصل بين العباد، ويُنصَّب الصُّراط على متن جهنم، ويوضع الميزان، ويقع الحساب. فهذه هي الشفاعة العامة التي ينتفع بها كل العالم من الجنِّ والإنس والحشرات. فلاجل ذلك عدل عن ذكر (الأمة) إلى ذكر (الناس). وأما الشفاعة الخاصة فقد تقدم بيانها<sup>(٢)</sup>.

الوجه العاشر: في هذا دليل على أن السؤال بالجنس<sup>(٣)</sup> أقيد من السؤال بالنوع، لأنه، رضي الله عنه، يعلم أن أسعد الناس بالشفاعة من أمة النبي ﷺ، المؤمنون. ثم عدل، مع علمه بذلك، لذكر الجنس، لاحتمال أن يكون ثمَّ حُكْمٌ آخر، لا يعرفه. فلما أُخبر بالأمر، على ما هو عليه، رجع له ذلك حكماً قطعياً، لا احتمال فيه.

الوجه الحادي عشر: في هذا دليل على أن أمور الآخرة لا تؤخذ بالعقل ولا بالقياس والاجتهاد، لأنه، رضي الله عنه، قد علم الشفاعتين اللَّتين في يوم القيامة، وترجح عنده من هو الأسعد بالشفاعة، وغيره إذ ذاك معلوم بالضرورة، لكنه لم يلتفت إلى ما ظهر له من مدلول جميعها حتى تلقاه من صاحب الشرع مشافهة. وهذا يدل على أن هذا عندهم حكم ثابت، لا يسوغ فيه غير النقل، كما تقدم.

(١) يريد: كجوابهما.

(٢) أحاديث الشفاعة متواترة، وقد رواها أصحاب المسانيد والصحاح والسنن والمعاجم عن عدد كثير من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

(٣) يريد بـ (الجنس) الألف واللام الداخلتين على كلمة (الناس) فهما لإرادة الجنس، أي جميع عباد الله من المؤمنين وغير المؤمنين. ولو كانت الألف واللام للنوع لقصد بهما أمة محمد ﷺ، دون غيرها من الأمم.



الوجه الثاني عشر: لقائل أن يقول: لم قَيِّد الشفاعة بيوم القيامة، وهي مستمرة أبداً على الدوام في الدنيا وفي الآخرة، لا يزال، عليه السلام، يَشْفَعُ وَيُشَفَّعُ؟

والجواب: أنه إِنَّمَا قَيَّدَها بيوم القيامة، لأنه قد عاين هذه الشفاعة التي في الدنيا وعرفها، وإن كانت على المشيئة، لكنها وقعت كالمقطوع به، لأنه، عليه السلام، لم يشفع قطُّ لأحدٍ في هذه الدار إلا أجيبَ وأُسْعِفَ، فلم يكن ليسأل عن شيء قد عاينه وعرفه، لأن السؤال عن ذلك كتحصيل حاصل، والصحابة أجل من ذلك.

الوجه الثالث عشر: قوله، عليه السلام: (لقد ظننتُ، يا أبا هُرَيْرَةَ، أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أوَّل منك، لما رأيتُ من حرصك على الحديث). ظننت: يحتمل أن تكون على بابها، ويحتمل أن تكون بمعنى (علمتُ). والأظهر منهما: (العلم) للقرينة التي تقوِّيه في الحديث بعد، وهي قوله: (لَمَّا رأيتُ من حرصك على الحديث).

الوجه الرابع عشر: في هذا دليل على أن من السَّئَةِ إدخال السرور على السائل قبل ردّ الجواب عليه، لأنه، عليه السلام، قدم قوله: (لقد ظننت) على رد الجواب عليه. والسرّ الذي في هذا الإخبار من إدخال السرور هو: أنه لا يتأتى ما أخبر به حتى يكون كما قال: (لَمَّا رأيتُ من حرصك على الحديث). ولا يظهر له، عليه السلام، منه الحرص على الحديث إلا إذا كان يلتفت إليه على الدوام، ويراعي أقواله وأفعاله. والتفاتُهُ، عليه السلام، لحظةً واحدةً للشخص كان عند الصحابة أعظمَ ما يكونُ من السرور، فكيف بها في مرور الليالي والأيام؟

الوجه الخامس عشر: فيه دليل على استنباط الأحكام بالأظهر من الأدلة، لأنه، عليه السلام، جعل الظنَّ هنا قطعياً، لقوة الدليل الذي ظهر له على ذلك، وهو الحرصُ على الحديث.

الوجه السادس عشر: فيه دليل على أن إتباع المَسْرَّةِ بالمَسْرَةِ أَوْلَى وأبلغُ في المَسْرَةِ، لأنه، عليه السلام، لو سكت عند قوله: (أول منك) لكان الصحابي يُسَرُّ بذلك، فلما زاد له السبب الموجب لذلك، وهو من كُشِبِ الذي هو الحرص، كان ذاك إدخال مَسْرَةٍ على مَسْرَةٍ. ومثل هذا قوله، عليه السلام، لسيد وفد عبد القيس: (فيك خصلتان يحبُّهما الله ورسوله. قال: يا رسول الله ذلك شيء أتصنَّعه أنا، أو شيء جبلني الله عليه؟ قال: بل شيء جبلك الله عليه. فقال: الحمد لله الذي جبلني على خصلتين يحبُّهما الله ورسوله)<sup>(١)</sup>.

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه مسلم والنسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وعبد القيس: أبو قبيلة من أسد، وسميت القبيلة به، وكان موطنها البحرين. والأشج لقب غلب عليه. وقد لقبه به رسول الله ﷺ، واسمه: المنذر بن عائد (انظر الاستيعاب ص ١٤٤٨).

ومثل هذا أيضاً ما وصف، عز وجل، في كتابه المؤمنين حين يدخلون الجنة، فقال لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. ﴿بِمَا آسَفْتُمْ فِي الْآيَاتِ الْخَالِيَةِ﴾<sup>(٣)</sup>، كل ذلك إعظام في إدخال السرور عليهم والزيادة لهم منه.

نسأل الله بمتنه أن يمن علينا بذلك بكرمه.

الوجه السابع عشر: فيه دليل على تسمية السائل عند رد الجواب عليه، لأنه، عليه السلام، ناداه باسمه قبل رد الجواب عليه. والحكمة في ذلك تظهر من وجهين:

(الأول): أن ندائه باسمه أجمع لخاطره، فيكون ذلك سبباً لتحصيل جميع ما يلقي إليه، ومثل ذلك نداؤه، عليه السلام، لمعاذ بن جبل ثلاث مرات، وهو معه على الراحلة، ثم بعد الثلاث ألقى إليه ما أراد. كل ذلك ليأخذ الأهبة للإلقاء، ويصني لسمع الخطاب.

(الثاني): أن في ندائه باسمه إدخال سرور عليه، لأن النداء أبداً إذا وقع من الفاضل إلى المفضول يحصل له به ابتهاج وسرور، فكيف به وهو نداء سيّد الأولين والآخرين لتلك السادة المباركين الذين قد ثبت حبّهم له بالتواتر، وكانوا يتبركون منه بلمحة أو لحظة، أو أي نوع كان؟ يؤيد ما ذكرناه من هذا الوجه ما روي عن عبد الله بن عمر أنه أصاب يده أو رجله أَلَمٌ، القصة بكمالها، وقد تقدم ذكرها في الحديث قبل هذا<sup>(٤)</sup>.

الوجه الثامن عشر: فيه دليل على أن من السنة إدخال السرور بكل ممكن يمكن، لأنه، عليه السلام، قد أدخل السرور على هذا السائل في ثلاثة مواضع: في هذا الموضع، وفي الموضعين المتقدمين الذكر. هذا ما فعل واللفظ قليل، فكيف به فيما عداه؟

الوجه التاسع عشر: فيه دليل على تقديم الأولى في حق السائل، وإن كان لم يسأل عنه، لأنه، عليه السلام، عدّل عن الجواب الذي هو عام للسائل ولغيره، وذكر قبله ما هو الأولى في حقه، وما يُسرُّ به.

الوجه العشرون: فيه دليل على جواز الاستدلال على حال المرء بفعله، لأنه، عليه السلام، استدل على حاله بما ظهر له من فعله، وهو الحرص، والحرص عمل من الأعمال، فعلى هذا

(١) سورة النحل، من الآية ٣٢.

(٢) سورة الأعراف، من الآية ٤٣.

(٣) سورة الحاقة، من الآية ٢٤.

(٤) كذا، والصحيح أن ذكر حديث عبد الله بن عمر تقدم في هذا الحديث نفسه قبل صفحات.

فالاستدلال بالأعمال أولى من الاستدلال بالمقال، لأن المقال قد يحتمل التجويز في الكلام وغيره، والفعل ليس كذلك.

الوجه الحادي والعشرون: فيه دليل على أن ما يخص الشخص نفسه أكد عليه مما هو مشترك فيه مع غيره، لأنه، عليه السلام، لم يذكر له ما هو له ولغيره إلا بعد ما حصل له ما يخصه في نفسه، وهو قوله (أول منك) بهذا الحديث.

الوجه الثاني والعشرون: فيه دليل على أن السنة في الحكمة لا تُلقَى إلا لأهلها، وأن الأشياء لا يُتَعَدَّى بها وقتها، لأنه، عليه السلام، لم يخبر بفضل هذا السيد إلا عند سؤاله عن هذا الحديث، الذي قد يغفل عنه كثير من السادة الفضلاء.

الوجه الثالث والعشرون: فيه دليل على أن تسمية الحديث (حديثاً) من الشارع، عليه السلام، لأنه، عليه السلام، قد سماه بذلك هنا، حيث قال: (أن لا يسألني هذا الحديث)، و (لما رأيت من حرصك على الحديث). فسمى المفرد والجمع باسم: (الحديث).

الوجه الرابع والعشرون: فيه دليل على فضل هذا الحديث على سائر الأحاديث، لأنه، عليه السلام، قد أشار إليه بالأفضلية، وخصه من بين الأحاديث، بقوله: (أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك) فلو لم يكن لهذا الحديث مزية على غيره من الأحاديث لما جعله أولى به من غيره، لأن ذلك مدح للسائل، وتعظيم له، لأنه أصاب بسؤاله كنزاً عظيماً. وكيف لا، وقد حصل له فيه من أدلة الإيمان غير ما واحد - على ما تقرر قبل، وما أذكره بعد - وحصل له فيه من علوم الآخرة أوفر نصيب، وعلوم الآخرة السؤال عنها نادر من أجل الاشتغال بعلوم الدنيا؟ إذ إن الأعمال مرتبة عليها، فلا يمكن تحصيل علوم الآخرة إلا بعد تحصيل علوم الدنيا التي بها التكليف منوط، اللهم إلا قدر<sup>(١)</sup> ما يتضمّنه الإيمان منها، فلا بدّ منه.

ويكفي في ذلك ما نصّ عليه جبريل، عليه السلام، حين أتى ليعلم الدين، فسأل عن الإيمان، فقال عليه السلام: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر)<sup>(٢)</sup>. فكان هذا السيد، رضي الله عنه، ممن حصّل ما يحتاج إليه من علوم دنياه، ثم بعد ذلك أخذ العلم الآخر. فلذلك حصلت لهم مزية بهذا الحديث. ولا يحصل بهذا ذم لغيره من الصحابة، رضوان الله عليهم، ممن كان متكسباً، لأنهم أيضاً حصلت لهم مزية امتازوا بها، وهي معرفتهم بأحكام الله.

يدل على هذا ما حكى عنهم، رضي الله عنهم، أن أكثرهم مالا كان أكثرهم علماً، فأصلوا،

(١) قَدَر: مستثنى من (علوم الآخرة).

(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

رضي الله عنهم، قواعد الأحكام على جملة أنواعها، مما يتعلق بالأبدان والذمم والأموال علماً وعملاً.

ولما تجرّد هذا السيّد عن كثير من الدنيا حصل معرفة ما أحكمته الحكمة الربانية في أمور الآخرة، وبلغه إلينا، مثل هذا الحديث وغيره. فجزاهم الله عنا جميعاً خيراً.

الوجه الخامس والعشرون: فيه دليل على فضل الحديث جملة، وأنه أعظم ما يُتَقَرَّب به إلى الله تعالى من بين سائر العلوم كلها، عدا الكتاب العزيز، لأنه، عليه السلام، قد مدح هذا السائل وعظّمه، وجعله أول من يسأل عن هذا الحديث، ولمعرفة ما احتوى عليه من الفوائد، ولكونه كان حريصاً على الحديث. وكيف لا، وقد قال، عليه السلام: (تركت فيكم الثقلين، لن تضلّوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وعترتي أهل بيتي)<sup>(١)</sup>. يريد: سُنَّتَه، عليه السلام، لأن أهل بيته لا يفعلون إلا ما كان، عليه السلام، يفعل. فليس بعد القرآن إلا الحديث؛ مَنْ تمسك بهما فقد نجا، ومن خالفهما فقد هوى.

الوجه السادس والعشرون: فيه دليل على أن مدح العمل لصاحبه مندوب إليه، لأنه، عليه السلام، قد مدح هذا السيّد، لأنه جعله أول من يسأل عن هذا الحديث للعمل الذي صدر منه، وهو الحرص. وهذا بخلاف مدح الذات، لأنه ممنوع. والفرق بينهما أن مدح العمل يزيد صاحبه فيه تغبّطاً وحرصاً، ومدح الذات يخاف منه العجب والالتفات.

الوجه السابع والعشرون: فيه دليل على إبداء الدليل من الفاضل إلى المفضول لأنه، عليه السلام، أفضل الناس وأعلاهم قدراً، ثم مع ذلك لما أن ذكر لهذا أنه أول من يسأل عن هذا الحديث أتاه بالدليل على ذلك، وهو الحرص الذي كان منه، ولم يقتصر على إعطاء الحكم دون دليل عليه.

الوجه الثامن والعشرون: لقائل أن يقول: لِمَ خصّ، عليه السلام، هذا بالحرص على الحديث، ومعلوم أن الصحابة، رضي الله عنهم، عن آخرهم كانوا يحرسون على الحديث أعظم الحرص ويعظّمونه ويحبّونه؟

والجواب: أنهم كلّهم كذلك حقاً، لكن لهذا السيّد زيادة في هذا الشأن على غيره. ويتبيّن ذلك ويتضح بما روي عنه، رضي الله عنه، أنه قال: كان إخواني من الأنصار يشتغلون بإصلاح حوائطهم في بعض الأوقات، وإخواني من المهاجرين يشتغلون بالتسبّب في الأسواق، وأنا التزمت النبي ﷺ، لِمَلَأَ بطني، فوعيتُ ما لم يُعُوا. فلهذه الزيادة - وهي الملازمة - حصل له هذا التشريف. وكذلك الصحابة، رضي الله عنهم، كلّهم كانوا يتنافسون في هذا وأشباهه، مهما كان شيء

(١) سبق تخريجه في الحديث ٣.

من الخير تراهم يبادرون إليه ويسارعون . فإذا زاد أحدهم ذرة في وجه من وجوه الخير على غيره نُسبت تلك الطريقة إليه ، وكان هو إمامها ، وكذلك التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين .

يبين ما قررنا هنا ، ويوضحه قوله ، عليه السلام : ( أنا مدينة السخاء وأبو بكر بابها ، وأنا مدينة الشجاعة وعمر بابها ، وأنا مدينة الحياء وعثمان بابها ، وأنا مدينة العلم وعلي بابها )<sup>(١)</sup> ، مع أن الأربعة ، رضي الله عنهم ، كانت فيهم تلك الصفات كلها ، لكن كان كل واحد منهم يفوق صاحبه بشيء ما من تلك الصفة المذكورة ، فنُسبت إليه .

الوجه التاسع والعشرون : في هذا دليل لأهل الصوفة ، وأي دليل ، لأنهم لما أن أربوا على إخوانهم المؤمنين بقطع العلائق ، والتعلق بالله ، والاضطرار إليه ، والتوجه إليه في جلّ أوقاتهم ، صَفَّت بواطنهم ، فخصّوا باسم الصفاء والصفوة ، مع أن المؤمنين لا بدّ فيهم من الصّفاء ، إذ إن الإيمان يقتضي ذلك . لكن لما أن كان لهم زيادة في ذلك الشأن خُصُّوا به دون غيرهم .

أعاد الله علينا من بركتهم بمنّه ويمنه .

الوجه الثلاثون : قوله ، عليه السلام : ( أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله ، خالصاً من قلبه أو نفسه ) ، ( أسعد الناس بشفاعتي ) : الكلام عليه كالكلام على قول السائل : ( من أسعد الناس بشفاعتك ؟ ) وقد تقدم بما فيه كفاية ، وبقي الكلام هنا على قوله ، عليه السلام : ( من قال : لا إله إلا الله ، خالصاً من قلبه أو نفسه ) .

فأما قوله ، عليه السلام : ( من قال : لا إله إلا الله ) فهي تحتل وجهين أيضاً .

(الأول) : أن يكون المراد بها : العموم . (الثاني) : أن يكون المراد بها : الخصوص . فإن كان المراد بها : العموم فهي تحتل وجهين : (الأول) : أن يكون المراد : من قال : لا إله إلا الله ، ولو مرة واحدة في عمره . (الثاني) : أن يكون المراد من قالها وداوم عليها حتى توفي عليها . وإن كان المراد : الاحتمال الثاني - وهو الخصوص - فهو مَنْ يقولها عند الموت .

والضرب (الثاني) : من العموم المتقدم يرجع إلى هذا الخاص ، لأنه وإن قالها على الدوام ، ثم لم يتلفظ بها ، ولم يعتقد عند الموت ، كان ما قال قبل ذلك هباءً منثوراً . وهذا هو أظهر الاحتمالات وأولها ، بل لا يسوغ غيره في هذا الموضع ، بدليل قوله ، عليه السلام : ( الأعمال بخواتيمها )<sup>(٢)</sup> وقوله ، عليه السلام : ( يعمل أحدكم بعمل أهل الجنة ، حتى إذا لم يبق بينه وبين الجنة

(١) لم نعرف مصدره بهذه الصورة المذكورة .

(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي وابن حبان وابن خزيمة بالفاظ أخرى .

إلا شبر أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، وإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى لم يبق بينه وبينها إلا شبر أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة<sup>(١)</sup>، وقوله عليه السلام: (مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ)<sup>(٢)</sup>، وهذا نص في المسألة نفسها، فلا يسوغ الجنوح إلى غير ما نص عليه .

الوجه الواحد والثلاثون: فيه دليل على أن من خالط إيمانه شائبة ما لا يسعد به، لأنه، عليه السلام، شرط فيه الإخلاص، والإخلاص يتضمن عدم الشوائب، دَقَّهَا وَجِلُّهَا .

الوجه الثاني والثلاثون: فيه دليل على أن من اعتقد الإيمان، دون النطق به، لا يسعد به، ولا تناله هذه الشفاعة الخاصة، لأنه، عليه السلام، شرط في ذلك التلفظ، والشرط إذا عُدِمَ عُدِمَ المشروط .

الوجه الثالث والثلاثون: من آمن بالله مخلصاً، لكنه لم يتلفظ بالشهادة لعذر كان لَدَيْهِ يَمْنَعُهُ من ذلك، ثم اختَرَمَتْهُ المَيتَةُ قبلَ زوال ذلك العذر، هل تلحقه الشفاعة، أم لا، أو يكون من أهل الإعذار؟ هذا موضع بحث ونظر . وأرجح ما في ذلك وأظهره أنه يكون من أهل الإعذار، لأن الله، عز وجل، يقول في كتابه ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾<sup>(٣)</sup> .

الوجه الرابع والثلاثون: قوله: (من قلبه أو نفسه) . هذا شك من الراوي في أيهما قال النبي، ﷺ، وكلاهما بمعنى واحد، لأن المراد بالنفس ما بَطَّنَ، وما بَطَّنَ المراد به (القلب)، لأن فيه يستقرُّ الإيمان، وهو الأميرُ على الجوارح، يؤيد هذا قوله، عليه السلام: (مُضْغَةٌ فِي الْجَسَدِ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)<sup>(٤)</sup> .

وفيه دليل على صدق الصحابة، رضي الله عنهم، وتحريمهم في النقل، لأنه لما أن حصل له الشك في أي اللفظين قال، عليه السلام، أُنْذِيَ ذَلِكَ، مع أن اللفظين بمعنى واحد، لا يقع في الإخبار بأحدهما دون الآخر خلل في المعنى ولا في الحكم .

نسأل الله بمنه أن يمنَّ علينا بالاعتداء بهم، وبِنَبِيِّهِ، إِنَّهُ وَلِيُّي كَرِيم .

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا .

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم وصححه .

(٣) سورة النحل، من الآية ١٠٦ .

(٤) سبق تخريجه في الحديث ٨ .

## حديث رفع العلم بقبض العلماء

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً، ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن قبض العلم يكون شيئاً بعد شيء، ولا يكون مرة واحدة. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله، عليه السلام: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً، ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء). فيه دليل لأهل السنة حيث يقولون: بأن الأعمال خلق للرب، وكسب للعبد، لأنه لا يقبض إلا ما قد أعطى. فالقبض بمعنى الاسترجاع، وقد صرح، عليه السلام، بإعطاء الله ذلك لعبيده وبَيَّنَّه في حديث تقدم بيانه، قال فيه: (من يُرد الله به خيراً يُفقهه في الدين)<sup>(١)</sup>. فهذا الخلق لله قد ثبت بالنقل، وأما الكسب فهو مشاهد مرئي محسوس، لأن العلماء ينقلون العلوم، ويدرسون، وهو تكسبهم.

الوجه الثاني: الألف واللام في هذا (العلم) المذكور يحتمل أن تكون للجنس، ويحتمل أن تكون للعهد، والأظهر من الاحتمالين: العهد، للقرينة التي أتت في الحديث بعد تبيينه، وهو قوله: (ضَلُّوا<sup>(٢)</sup> وأضَلُّوا). والضلال المحذور إنما هو فيما عدا العلوم الشرعية، لأن العلوم الشرعية هي التي بها الهداية، ولا يقال لغيرها من العلوم: هداية مطلقة، حتى تخصص باللفظ، فيقال: هداية لكذا، وضلال عن كذا. والعلم المذكور هنا المراد به: الفهم في كتاب الله، وسُنَّة نبيه، عليه السلام.

(١) هو الحديث التاسع من هذا الكتاب.

(٢) الرواية: فضَلُّوا.

الوجه الثالث: لقائل أن يقول: ظاهر هذا الحديث مُعارض لما روي عنه، عليه السلام، في الكتاب العزيز: أنه يُرفع جملة واحدة. وقيل له: يا رسول الله، أوليس قد وعيناه في صدورنا، وأثبتناه في مصاحفنا، وعلمناه أبناءنا ونساءنا؟ فقال، عليه السلام: (تأتي عليه ليلة يرفع من الصدور والمصاحف فلا يبقى في الصدور ولا في المصاحف منه شيء)<sup>(١)</sup>، ثم تلا قوله، عز وجل ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾<sup>(٢)</sup>.

والجواب: أنه لا تعارض بينهما، بدليل ما نقلناه عن الأئمة بأن العلم نور يضعه الله في القلوب، فيقع بذلك النور الفهم في كتاب الله، وفي سنة نبيه، عليه السلام، وقد نطق الكتاب والحديث بهذا المعنى وبنيته<sup>(٣)</sup> أتم بيان.

فأما الكتاب فقوله، عز وجل: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُمْ مِنْهُمْ﴾<sup>(٤)</sup>. ولا يفهم معاني القرآن وأحكامه إلا بالنور، ومهما فقد النور وقع الضلال. نعوذ بالله من ذلك.

وأما الحديث فقوله، عليه السلام: (إنكم أصبحتم في زمن كثير فقهاؤه، قليل قزاؤه وخطباؤه، قليل سائلوه، كثير مُعطوه، العمل فيه خير من العلم. وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه، كثير خطباؤه، قليل مُعطوه، كثير سائلوه، والعلم فيه خير من العمل)<sup>(٥)</sup>. فقد جعل، عليه السلام، أولئك يفهمون، وهؤلاء لا يفهمون، مع أن هؤلاء أكثر حفظاً، وأكثر ضبطاً للحروف. وأتى بذلك في معرض الذم لهؤلاء لكونهم لا يفهمون الأحكام، فلم يبق إلا أن يكون النور الذي كان عند أولئك عديمه هؤلاء، فرجع المساكين مثل بعض من تقدم من الأمم الماضية، نَقَلَةً وَحَمَلَةً، لأن الله عز وجل، قد وصفهم بذلك في كتابه حيث قال: ﴿كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَثْفَارًا﴾<sup>(٦)</sup>.

وها هو اليوم قد كثر هذا الأمر وتفاش، لأن النَقْلَةَ والأثْفَارَ قد كثرتا، والقليل النادر من تجد عنده طرفاً من العلم الذي هو النور. فهذا العلم هو الذي يُقبَضُ شيئاً فشيئاً، فما يزال يرتفع

(١) رواه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود موقوفاً عليه.

(٢) سورة الإسراء، من الآية ٨٦.

(٣) يريد: وبنيته.

(٤) سورة النساء، من الآية ٨٣.

(٥) أخرجه الطبراني من حديث حزام بن حكيم عن عمه، وقيل عن أبيه، وإسناده ضعيف (العراقي على الإحياء ١٧/١).

(٦) سورة الجمعة، من الآية ٥.



شيئاً فشيئاً حتى يُرفع المصحف . فإذا رُفِع المصحف ارتفع معه ذلك الطرف من النور الذي بقي عندهم ، فيبقون بعد ذلك في الضلالة يتخبطون ، وعن طريق الحق زاهقون ، مع أن الأحكام تبقى عندهم مسطورة في الكتب ، لكن لعدم النور وارتفاع الأصل لا يفهمون تلك الأحكام . ففي ابقاء الأصل بشارة ببقاء ذلك النور ، وإن قلَّ .

الوجه الرابع : لقائل أن يقول : لِمَ نعت ، عليه السلام ، القبض أولاً بالتَّزَع ، ثم نعت بعد ذلك بصفته التي هي : القبض ؟

والجواب : أن الانتزاع فيه شدة وغلظة ، والقبض فيه لينٌ وتسهيل . فأخبر ، عليه السلام ، بأن شدة الانتزاع لا تكون ، وإنما يكون قبضاً برفق ، لا سيما وقد جعله ، عزَّ وجلَّ ، مغطى بحكمة قبض الوعاء ، وذلك ألطف وأخف ، لأنه لو كان قبضه بادياً دون حكمة تستره لكان العالمُ يجد منه خوفاً ووحشة ، وهو ، عزَّ وجلَّ ، بعباده رؤوف رحيم ، لأن العالم إذا مات لم يقطع الناسُ إياهم<sup>(١)</sup> بأن الله ، عزَّ وجلَّ ، يقيم عالماً مقامه . فإذا أقيم ذلك العالم مقام الأول انجبرت النفوس ، ولم يحصل لها علم بمقدار من قبض ، ومن أقيم ؛ فبقيت الآمال في الفضل راجية ، والعين بما أبدلت قريرة . وهذا أبدع ما يكون من اللطف والحكمة .

الوجه الخامس : إذا قبض العالم ، ثم أُقيم آخرُ مكانه ، هل يكون مثله ، فيجبر تلك الخلَّة التي وقعت في الإسلام ، أم لا ؟

ظاهر الحديث يفيد أن : لا . ويعارضه قوله ، عليه السلام : (إذا مات العالمُ ثُلِمَتْ في الإسلام ثُلمة ، لا يَسُدُّها إلا عالمٌ آخر)<sup>(٢)</sup> . فظاهر هذا معارض لما نحن بسبيله ، وليس بينهما تعارض في الحقيقة ، لأنه إذا مات الأول ، وقام الثاني فسدَّ تلك الثُلمة ، فهو معلوم بالضرورة أنه ليس كالأول على حدٍّ سواء ، لأن الثوب المرقع ليس كالصحيح ، وكلاهما يَسْتُرُ ، وإن كان لا بخس<sup>(٣)</sup> في المرقع . وهذا موجود حساً ، ولا سيما إذا قلنا : بأن العلم - كما قدمناه عن أئمة الدين - نور يضعه الله في القلوب ، فنقصه معلوم بالضرورة ، وموجود حساً ؛ لأن نور الصحابة رضي الله عنهم ليس كنور

(١) الإياس : من آيسْتُ منه آيسُ يأساً لغة في يست من آياس يأساً ، ومصدرها واحد . والإياس واليأس بمعنى واحد . (اللسان : آيس) .

(٢) مروى بالمعنى . عن أبي الدرداء مرفوعاً : موت العالم مصيبة لا تجبر ، وثُلمة لا تسد . رواه الطبراني وفيه مجاهيل . وعن عائشة رضي الله عنها رفعت : موت العالم ثُلمة في الإسلام لا تسد ما اختلف الليل والنهار . رواه البزار بإسناد ضعيف ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان من كلام ابن مسعود رضي الله عنه ٢٦٨/٢ بإسناد صحيح .

(٣) البخس : النقص ، العيب .

التابعين ، ونور التابعين ليس كنور تابعي التابعين ، ثم كذلك جيلاً بعد جيل ، ففي كل جيل يرتفع منه شيءٌ ويقلّ .

ولأجل هذا المعنى كان العلم أولاً في صدور الرجال ، ثم انتقل إلى الأوراق والكتب ، وبقيت مفاتيحه في صدور الرجال . ثم الآن كثرت الكتب والأسفار ، وقلّت المفاتيح ، وإن وجد مفتاح فقلما يكون مستقيماً إلا النادر القليل .

ثم رجعت العلوم الشرعية مثل علوم القرآن والحديث كقدح الراكب<sup>(١)</sup> ، وما بقي النظر إلا في بعض علوم الفروع ، وانصرفت الهمم إلى علم الجدل والمنطق وعلم النجوم وعلم الطبائع ، وما أشبه ذلك ، فارتكبوا النهي ، واستقرت سننهم الدّميمة عليه ، لأن النبي ﷺ يقول : ( لا تجعلوني كقدح الراكب )<sup>(٢)</sup> . وهؤلاء قد اتخذوا القرآن والحديث كذلك ، ثم يريدون الكلام في دين الله بتلك العلوم الرديئة . فمن كان باكياً فليكن على ذهاب العلم وأهله ، والدّين وضعفه . فإنا لله ، وإنا إليه راجعون .

فمنذ انتقل النبي ﷺ ، إلى رحمة ربه ، أخذ العلم في النقص شيئاً بعد شيء إلى هلمّ جرأ ، إلى أن يُرفع القرآن . وقد نصّ بعض الصحابة على هذا المعنى وبينه حيث قال : لم ننفض أيدينا من التراب حين دفنّا النبي ﷺ ، إلا ووجدنا النقص في قلوبنا<sup>(٣)</sup> . لكن كان النقص في ذلك الوقت لا يعرفه إلا أهل القلوب ، وكذلك في القرن الذي بعده ، وكذلك في القرن الثالث ، الذين شهد لهم النبي ﷺ ، بأنهم خير القرون . فالعلم إذ ذاك ينقص ، وهو في الظاهر متوافر متزايد لكثرة العلماء وكثرة الكتب .

والمعنى الخاص الذي أشرنا إليه لا يعرفه إلا من أشرنا إليه ، وهم أهل القلوب ، ولذلك قال أسامة بن زيد ، رضي الله عنه : إني لأسمع منكم في اليوم أشياء مراراً ، لا تبالون بها ، كنا نعدّها في زمان رسول الله ﷺ ، من الموبقات . أو كما قال . ثم بعد القرن الثالث رجع النقص يظهر لسائر الناس ويستبين ، وها هو اليوم أظهر من الشمس في الظهيرة ليس دونها سحب .

---

(١) قدح الراكب : هو الإناء المعدّ للشرب . وجمعه أقداح . وقدح الراكب : يعلقه الراكب في آخر رحله عند فراغه من ترحاله ، ويجعله خلفه .

(٢) أي لا تؤخروني في الذّكر . والحديث : عزاه السخاوي في القول البديع لعبد بن حميد والبخاري في مسنديهما ، وعبد الرزاق في الجامع ، وابن أبي عاصم في الصلاة ، والتميمي في الترغيب ، والبيهقي في الشعب ، وأبو نعيم في الحلية ، وغيرهم كثير ، وكلهم من طريق موسى بن عبيدة الربذي . وهو ضعيف ، والحديث غريب .

(٣) لعله معنى لحديث أنس رضي الله عنه قال : والله ما دفنّا رسول الله ﷺ وما نفضنا أيدينا من ترابه حتى أنكرنا قلوبنا . رواه البخاري والإمام أحمد والدارمي وابن ماجه والنسائي .

الوجه السادس: لقائل أن يقول: هذا الحديث معارض لقوله عليه السلام، في الحديث المتقدم: (لن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله)<sup>(١)</sup>. وأخبر هنا: بأن العلم يقبض، وإذا قبض العلم بقي الجهل، فيقع الضلال، كما قد نصَّ النبي، ﷺ، عليه.

والجواب: أنه لا تعارض بينهما، لأن المراد بالطائفة المذكورة - في الحديث المتقدم - أنها تبقى موفية بالحق الذي يلزمها، لا تخل منه بشيء. وأما العلم الذي هو النور فليس هو عندهم كما كان عند من تقدمهم. يؤيد هذا المعنى قوله، عليه السلام: (أنتم في زمان من ترك عُشْرَ ما أُمِرَ به هلك، ويأتي زمان من فعل عُشْرَ ما أُمِرَ به نجا)<sup>(٢)</sup>. يريد في أعمال البر، من المندوبات، عدا الفرائض، لأن الفرض في أول الزمان وآخره مطلوب على حد سواء، وإنما المعتبر هنا الذي عليه وقع النص (ما عدا الفرض) من أعمال البر، لأن الدين مطلوب بفرضه وندبه وأدابه ونفله.

وكان الصدر الأول، رضي الله عنهم، يحافظون على توفية جميع ذلك. وكان النبي، ﷺ، يطلب ذلك منهم، ويحرضهم عليه، مثل ما روي عنه، عليه السلام، أنه همَّ أن يحرق بيوت قوم كانوا لا يشهدون الجماعة، وشهود الجماعة على الواحد مندوب. وكذلك ما روي عن الصحابة، رضوان الله عليهم، أنهم كانوا يطلبون من الناس تسوية الصفوف<sup>(٣)</sup>، وتسوية الصفوف في الصلاة من المندوب. فكانوا، رضي الله عنهم، يحضون على ذلك أكثر الحضر، ويحرسون عليه أكثر الحرص لئلا يقع لهم خلل في شيء من ذلك، فيقعون في ترك ما حُدَّ لهم.

وأما اليوم فذلك لا يُتَصَوَّرُ لِمَا حَدَّثَ في الأعمال من البدع والمنكرات، وقُلَّ أن يتخلص العُشْرُ إلا بالجهد الكبير. ونعني بالخلاص هنا أن يقع العمل على ما حُدَّ وشُرِعَ، دون بدعة ولا منكر. ومثال ذلك شهود الجنازة والصلاة عليها، أو حضور العرس وما أشبه ذلك، قلَّ أن يقدر الإنسان أن يفعل شيئاً من ذلك، لِمَا كَثُرَ فيه من البدع الفاحشة والمنكر المتلفة إلا نادر قليل، فليس تركهم للتسعة الأعشار رغبة عنها، ولا زهداً فيها، ولو كان كذلك لما نَجَّوْا، وإنما هو من أجل ما قررناه. فالطائفة المذكورة المراد بها ما بيناه هنا من أنها لاتنقص مما يلزمها شيئاً.

الوجه السابع: يظهر من الحكمة في نقص هذا العلم وجهان:

الأول: أنه لما كان العلماء ورثة الأنبياء، عليهم السلام، فمعلوم بالضرورة القطعية أن

(١) متفق عليه من حديث معاوية رضي الله عنه بلفظ (لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس). انظر الحديث (١١).

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي بسند ضعيف. وأوله: إنكم في زمانٍ إلخ. . (انظر فيض القدير للمناوي).

(٣) معنى الحديث رواه مسلم: كتاب المساجد.

العلماء ليسوا كالأنبياء . وذلك موجود مشاهد في عالم الحسن ، لأن الوارث أبداً ليس كالموروث من كل الجهات ، وإن كان يرث جميع المال ، لأن المتوفى ينفرد بالكفن ، ومؤنة الدفن ، وما يحتاج إليه في تجهيزه . فقد نقص من المال شيء<sup>(١)</sup> ما دخل مع الموروث في قبره ، لا ينتفع الوارث به ، ولا يستطيع الوصول إليه . هذا إذا لم يُوصر ، فإن أوصى فقد أباحت له الشريعة الوصية بالثلث ، فقال ، عليه السلام : (إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم ، تتصدقون بها عند موتكم)<sup>(٢)</sup> ، فحجزه عن الوارث . والحكمة فيما نحن بسبيله من هذا القبيل لأن كل من أنعم عليه بشيء لا بد أن يختص منه بشيء ، لا يناله غيره بمقتضى الحكمة .

الثاني : أن الوعاء له اشتراك ما مع ما أُودِع فيه ، فلا بد أن يصحبه منه شيء يدل على ما كان فيه ، وذلك الشيء الباقي في الوعاء نقص من الشيء المودع فيه ، مثال ذلك : أوانٍ مملوءة إحداها زيتاً ، والأخرى عسلاً ، والأخرى سمناً ، إلى غير ذلك من الأشياء . فلا بد أن يبقى في الوعاء بقية تدل على ما كان فيه ، وذلك الشيء الباقي في الوعاء نقص من الشيء المودع فيه . وإن كانت العلوم أنواراً لا ينقص من أعيانها شيء ، لكن لما أن شاء الحكيم أن يُرفع من أوعيتها شيء منها وقع ظهور النقص في هذا العالم ، فاتحدت النسبة بمقتضى الحكمة كما أشرنا .

ولذلك قال أهل التحقيق : عدد الطرق إلى الله ، عز وجل ، على عدد الأنفاس ، لأنه ليس كل شخص حاله كمثال حال الآخر من كل الجهات ، وإن وقع الشبه بين الحالتين فلا بد من فرق ما بينهما ، كما هو مشاهد في عالم الحسن . فصور الناس في وضع الخلقة على حد واحد ، وليس في حقيقة الشبه كذلك ، لأن كل واحد يختص بصفة ما يمتاز بها في النعت عن غيره ، وإن أشبهه في أكثر الصفات . وكذلك جميع الحيوانات على اختلاف أصنافها على حد واحد في صفة وضع الخلقة ، وليس كذلك في حقيقة الشبه . فسبحان من أظهر أثر عظم قدرته بجميل وضع حكمته في جميع بريته .

ولأجل هذا المعنى - الذي أشرنا إليه - أحال ، عز وجل ، في كتابه بالنظر إليه ليستدل به على وحدانيته ، فقال عز من قائل ﴿ سَتَرْنَاهُمْ عَنْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾<sup>(٣)</sup> .

الوجه الثامن : قوله ، عليه السلام : (حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا) . فيه دليل على أن الضلال المخوف لا يقع مهما بقي من الطائفة

(١) يريد : هو ما .

(٢) رواه الترمذي بلفظ : إن الله تصدق عليكم عند وفاتكم ، بثلث أموالكم ، زيادة لكم في أعمالكم .

(٣) سورة فصلت ، من الآية ٥٣ .

المذكورة واحد، لأن تلك الطائفة هم الذين تمسكوا بالعلم، وعملوا به، لأنه مهما بقي عالم واحد على الحق لم تضر الضلالة، وإن ظهرت، لعدم الاجتماع عليها، وقد قال، عليه السلام: (لن تجتمع أمتي على ضلالة)<sup>(١)</sup>. وكثير ما بين الظهور والاجتماع، لأن الاجتماع هي الحالقة<sup>(٢)</sup>. أعاذنا الله من ذلك بمنه.

يبين هذا ويوضحه ما روي أن أحد أنبياء بني إسرائيل مرّ على قرية، وقد أهلكها الله تعالى، فقال: «يا رب! كيف أهلكتهم وكنت أعرف فيهم رجلاً صالحاً؟ فأوحى الله إليه أنه لم يغر<sup>(٣)</sup> لي قط يوماً واحداً». فأفاد ذلك أن موافقته لهم على الباطل، وإن كان يعرف الحق، كانت سبب هلاكهم، ولو خالفهم ما هلك، ولا هلكوا.

الوجه التاسع: في هذا المعنى وجه من الحكمة والاعتبار، وذلك أنه لما أن جعل، عز وجل، هذه الدار للتغيير والذهاب جعل كل ما فيها بمقتضى الحكمة بتلك النسبة يلحقه النقص والذهاب، لأن أجل ما فيها العلم والإيمان، وما هما يلحقهما النقص حتى يذهبا، فلحقت علة الدار لسكانها وما فيها.

الوجه العاشر: في هذا المعنى دليلٌ ترغيبٌ للزهد في هذه الدنيا وتحريضٌ على تركها، إذ هي وما فيها للنقص، ففي ماذا الرغبة، وعلى ماذا التعب؟

الوجه الحادي عشر: فيه دليل على أن بلاء هذه الدار أكثر من خيرها، لأنه إذا قلّ العلم والإيمان، وهما عينُ الخير، كثر ضدهما، وهما الكفر والجهل، فهما موجبان للشرّ، بل هما عينه.

الوجه الثاني عشر: يؤخذ من هذا الفقه تأكيدُ التخلّي عن الالتفات لهذه الدار وما فيها لمن عقل، إذ إن خيرها يقلّ، وشرّها يزيد. فخيرها نادر، وشرّها كثير موجود، وقد قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: «لو كانت الآخرة من خَزَف، وهي باقية، والدنيا من فضة، وهي فانية، لكان يقتضي الزهد في الدنيا، وإن كانت من فضة لكونها فانيةً، والرغبة في الآخرة، وإن كانت من خزف، لكونها باقية، فكيف والأمر بضد ذلك؟»

الوجه الثالث عشر: فيه دليل على أن حقيقة الرياسة لا تكون إلا بالعلم، إذا كان على حقيقته -

- 
- (١) رواه الإمام أحمد والطبراني والترمذي وابن ماجه والحاكم عن عدد من الصحابة الكرام.
- (٢) يريد بـ(الاجتماع): اتفاق الناس جميعاً على ضلالة، دون أن يكون فيهم رجل واحد ينكر تلك الضلالة. وذلك ما عبّر عنه المؤلف، رضي الله عنه، بكلمة (الحالقة)، ويعني بها: التي تحلق الدين لا التي تحلق الشعر.
- (٣) لم يغر: لم تثر نفسه غيرة. والفعل: غار يغار غيرةً. يقال: غار الرجل على زوجته: أي ثارت نفسه لإبدائها زيتها ومحاسنها لغيره. فهو غيران وهي غيرى والجمع: غيارى، وغُير.

وهو أن يكون لله خالصاً، على مقتضى الكتاب والسنة - وأن رياسة غير العالم ليست بحقيقة، لأنه، عليه السلام، نصَّ على أن العالم ما دام بين أظهر الناس دام به الخير، وأن الجاهل إذا كان مكانه وقع به الضلال والهلاك. والعلة في هذا المعنى ظاهرة بادية، لأن كل الناس يحتاجون إلى العالم ليرشدهم لطريق ربهم، ويبيِّن لهم أمره ونهيه، وغير العالم ليس كذلك، لأنه قد يحتاج إليه بعض الناس في تلك اللحظة التي رأس بها، وقد لا يحتاج إليه، وهو الكثير، ولهذا المعنى قال، عليه السلام: (نعم الرجلُ العالمُ، إن احتيجَ إليه نفع، وإن استُغني عنه أغنى نفسه)<sup>(١)</sup>. ومعنى الغنى هنا: الغنى بالله، عز وجل، فهذه هي حقيقة الرئاسة.

وقد بدا الآن ظهور ما أخبر عنه الصادق عليه السلام: رأسوا بغير علم فاستفتوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وضلَّ من اتبعهم. فليتبَّه الجاهلُ المسكينُ من غفلته، وليفك من سكرته، وليحذر من هذا الأمر العظيم الذي حلَّ به.

الوجه الرابع عشر: فيه دليل على أنه لا بدَّ للناس من رؤوس، بمقتضى الحكمة لأنه، عليه السلام، أخبر أن العالم إذا عُدِم لم يبق الناس لأنفسهم كذلك، وإنما يتخذون رؤوساً غير ذلك الصَّنَف لتشبههم بهم، فيقعون إذ ذاك في الضلال، كما أخبر، عليه السلام.

الوجه الخامس عشر: فيه دليل على أن أخذَ الأشياء على غير ما أحكمته الشريعة لا يوجد لها فائدة، بل تنعكس الفائدة بالضرر، لأن العوام لم يتخذوا هؤلاء الجهال رؤوساً إلا لأجل الفائدة التي عهدوها ممن تشبَّهوا بهم؛ وهو الإرشاد لما يصلحهم، كما تقدم. فلمَّا لم تكن فيهم الشروط التي أحكمتها الشريعة جاءهم إذ ذاك ضدَّ ما أرادوه، وهو الضلال.

الوجه السادس عشر: فيه دليل لمن يقول بأن العالم لا يلزمه التعليم قبل السؤال، لأن الفتيا لم تقع حتى وقع السؤال.

الوجه السابع عشر: فيه دليل على أن البهجة لا تجوز<sup>(٢)</sup> على عالم، لأن العوام إنما اتَّخذوا هؤلاء الجهال رؤوساً لأجل تشبُّههم بأهل العلم في الكتب مثلاً وفي جنس الكتب والنظر فيها. فلما رأى الناس ما جرت العادة به يكون علماً على العلم - وهو النور كما تقدم في وصفه قبل - ظنَّوهم من الرؤوس حقيقة، فصَحَّت البهجة عليهم. ولهذا قال يُمنُّ بن رزق<sup>(٣)</sup>، رحمه الله: «لِقَلَّةِ الْعُقَلَاءِ لَمْ يُعْرِفِ الْحَقَقَى».

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس ١٠/٥ وذكر محقق الفردوس عن سلسلة الأحاديث الضعيفة أنه موضوع.

(٢) لا تجوز: لا تنطلي، لا تخفى.

(٣) تقدمت ترجمته في الحديث (٢).

وهذا المعنى بنفسه قد ظهر اليوم في زماننا هذا، وكَثُرَ وتفاحش، قوم يقرؤون النحو والأصول والمنطقَ وعلمَ الكلامَ وعلمَ الطبائع وما أشبه ذلك، ثم يدعون بها الرئاسة، ويريدون أن يفتوا في دين الله بتلك العلوم، ويرجع ذلك عندهم بقولهم الفاسدة، حتى إن بعضهم يدعي الاجتهاد على زعمه ويُخطيء مَنْ تقدّم من الفضلاء وأئمة الدين، وذلك لقلّة فهمه لما قالوا، وسوء ظنه بهم، لأنه لو حسّن بهم الظن لعاد عليه من بركتهم بما يفهم من كلامهم.

فالحذرُ الحذرُ من هذه الطائفة الرديئة. وقد حذّر، عليه السلام، منها وبينها أتمّ بيان، فقال: (يأتي في آخر الزمان أقوام يحدثونكم بما لم تعرفوا أنتم ولا آبائكم)<sup>(١)</sup>، أو كما قال، عليه السلام: (فخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، عليك بخويصة نفسك).

الوجه الثامن عشر: فيه دليل على أن العامّي وظيفته السؤال والامتنال دون بحث، لأنه، عليه السلام، لم يجعل لهم في الحديث وظيفة إلا السؤال وامتنال ما أشير عليهم في ذلك السؤال، وإنما ضلوا إذ إنهم لم يصادفوا الرأس الحقيقي.

الوجه التاسع عشر: فيه دليل على أن مَنْ عمل بفتوى على غير وجهها يلحقه من الإثم مثلما يلحق المفتي بها، لأنه، عليه السلام، قد جعله ضالاً، كما جعل ضلال المفتي له بذلك سواء. يؤيد هذا المعنى ويزيده إيضاحاً، ما روي عنه، عليه السلام، في الضد أنه قال: (العالم والمتعلم شريكان في الأجر)<sup>(٢)</sup>.

الوجه العشرون: فيه دليل على أن الجاهل لا يُعذّر بجهله عند وقوعه في المحذور، لأنه، عليه السلام، قد جعل العوام الذين لم يصيبوا بفتياهم أهلها ضالين مثل الذين أفتوهم بها، مع أنهم المساكين جاهلون بالأمر، ليس لهم معرفة بما يميزون الفتيا الصحيحة من السقيمة.

فارجع أيها الهائم إلى طريق الرشاد قبل سبق الحرمان بغلق الباب.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ومسلم في المقدمة.

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

## حديث الحساب والعرض

عن عائشة، زوج النبي، ﷺ أنها كانت لا تسمع شيئاً، لا تعرفه، إلا راجعت فيه، حتى تعرفه، وأن النبي، ﷺ قال: مَنْ حَوَسِبَ عُذْبَ. قالت عائشة: فقلت: أوليس يقول الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾<sup>(١)</sup>. فقال: إنما ذلك العَرَضُ، ولكن مَنْ نَوَقِشَ الحِسَابَ يَهْلِك.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن الهلاك مع المناقشة. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله، عليه السلام: (مَنْ حَوَسِبَ عُذْبَ) هل هو على عمومه، أو على الخصوص؟ فالظاهر: أنه خاص، لكونه خصصه بعد بالمناقشة وعلى مقتضى الآثار، مع اختلافها، ينقسم الحساب على أقسام.

فمنه عَرَضٌ - كما أخبر في باقي الحديث - وقد جاء ما يبين كيفية هذا العرض في حديث ثانٍ، حيث قال: (إِنَّ اللَّهَ، عز وجل، يحاسب عبده المؤمن سراً، فيلقي كَنَفَهُ<sup>(٢)</sup> عليه، ويقول: يا عبدي، فعلت كذا في يوم كذا، فعلت كذا في ساعة كذا. فلا يمكنه إلا الاعتراف، حتى يَظُنُّ أنه هالك. فيقول: يا عبدي، أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. اذهبوا بعبدي إلى الجنة. فإذا رآه أهل المَحْشَرِ يقولون: طُوبَى لهذا العبد، لم يَعْصِ اللَّهَ قَطُّ)<sup>(٣)</sup>. فهذا بيان العَرَضِ المجمل هنا، لأنه عَرَضٌ ولا عقاب فيه.

ومنه نوع آخر، وهم الذين لهم وعليهم، فَيُؤْخَذُ منهم، فَيُعْطَى فيما عليهم، فتكون حسناتهم بالسوية مع سيئاتهم، فيبقى لهم الإيمان، يدخلون به الجنة. وهذا نوعٌ من العَرَضِ.

(١) سورة الانشقاق، الآية ٨.

(٢) كَنَفُ اللَّهِ: رحمته وسِتْرُهُ وحِفْظُهُ.

(٣) رواه الإمام أحمد والشيخان والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنه. والحديث هنا مروى بالمعنى.



وآخرون قد تبقى عليهم التبعات، فيسبب الله لهم من يشفع فيهم وهؤلاء من نوع الملطوف بهم.

وآخرون تفضل عليهم صفائر، فيلطف بهم، ويعفَى عنهم، لمتضمن الوعد الجميل؛ وهو قوله، تعالى ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾<sup>(١)</sup>.

وآخرون لهم سيئات كبائر وصفائر، فيأمر الله، عز وجل، الملائكة أن يبدلوا لهم صفائهم حسنات، فإذا رأوها، قالوا: يا ربنا، كانت لنا كبائر، ولم نرها هنا، طمعاً أن تبدل لهم الكبائر بالحسنات، فأولئك كما أخبر الله، عز وجل، عنهم في كتابه بقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾<sup>(٢)</sup> وهؤلاء ممن تفضل الله عليهم.

وآخرون ترجح حسناتهم سيئاتهم، وأولئك هم المفلحون.

وآخرون لم يحاسبوا البتة إلا من قبورهم إلى قصورهم، كما جاءت بذلك الآثار، مثل الشهداء وغيرهم.

وآخرون يناقشون الحساب، فأولئك الذين يهلكون، أي: يُعَذَّبُونَ، لأن الهلاك هنا، الذي هو كناية عن العدم، ليس بموجود هناك، وهذا مثل قوله تعالى ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِحَيِّتٍ﴾<sup>(٣)</sup> أي يأتيه أن لو كان يأتيه مثله في دار الدنيا لكان يموت. فهنا يقاسي مثل الموت من كل جهة وليس بميت. وفي هذا الهلاك يأتيه من الأمور المهلكة أن لو كان في دار الفناء لكان يهلك بها. وهنا يقاسي مثل الهلاك وليس بهالك. والهالكون هنا، أي المعذبون، على أحوال مختلفة بقدر أحوالهم، كل شخص بقدر حاله.

الوجه الثاني: فيه دليل على أن من السنة أن من سمع شيئاً لا يعرفه فليراجع فيه حتى يعرفه. يؤخذ ذلك من قوله: (كانت لا تسمع شيئاً، لا تعرفه، إلا راجعت فيه، حتى تعرفه). فلو لم يكن ذلك من سنن الإسلام لما أقرها، عليه السلام، في حقها (خذوا عنها شطر دينكم)<sup>(٤)</sup>. لكن هذا

(١) سورة النساء، من الآية ٣١.

(٢) سورة الفرقان، من الآية ٧٠.

(٣) سورة إبراهيم، من الآية ١٧.

(٤) قال الحافظ ابن حجر في تخريج كتاب (مختصر ابن الحاجب): لا أعرف له إسناداً، ولا رأيته في شيء من كتب الحديث إلا في النهاية لابن الأثير، ولم يذكر من خرجه. وذكر ابن كثير أنه سأل الحافظين المزي والذهبي فلم يعرفاه. وقال السيوطي في الدرر: لم أقف عليه. هـ. من كشف الخفا ١/ ٣٧٤.

ليس على العموم، وإنما ذلك لمن فيه أهلية. وأما العوام فوظيفتهم السؤال - كما تقدم - في الأحاديث قبل.

الوجه الثالث: وفيه: أن تكون المراجعة بحسن الأدب. يؤخذ ذلك من قولها: (أوليس يقول الله تعالى: فسوف يحاسب حساباً يسيراً؟) فلم تُظهر صورة الإنكار، ولكن عرضت بالآي، ليجتمع لها في ذلك وجوه من الفقه، منها: تفسير الآية ممن يعرفها حقاً، ومنها معرفة كيفية الجمع بينها وبين متن الحديث، فاجتمع لها في ذلك ما أرادت. وهو كونه، عليه السلام، بَيَّن لها معنى الآي، وكيفية الجمع بين الآي والحديث.

الوجه الرابع: فيه دليل على تخصيص الكتاب بالسنة، لأن هذا الحديث خصَّص تلك الآية بوجه ما، لقوله، عليه السلام: (إنما ذلك العرض). ويؤخذ منه الدليل لمذهب مالك، رحمه الله، حيث يرى بأن جَمْع الآثار أولى من نَسْخها، لأن الجمع يقتضي زيادة حكم، والنسخ يقتضي نفي حكم. هذا ما لم يُعلم النسخ، لأنه إذا عُلِمَ النسخ فلا جمع، وذلك مثل ما فعل في الحديثين: (إنما الماء من الماء)<sup>(١)</sup>، و(إذا جاوز الختان الختان فقد وجب الغسل)<sup>(٢)</sup>، فحمل قوله، عليه السلام: (إذا جاوز الختان الختان): على الجِماع، وحمل قوله، عليه السلام: (إنما الماء من الماء) على الاحتلام، وما أشبهه، وما نحن بسبيله مثله.

الوجه الخامس: يؤخذ منه أن الاستبداد مع حضور المعلم ممنوع، وإنما الاستبداد بالتأويل مع الغيبة عنه. يؤخذ ذلك من استدلالها بالآية حين سمعت ما ذكر، عليه السلام، فلم تستبدَّ برأيها مع حضوره، عليه السلام، لأنه هو المشرع والمعلم، فالتشريع خاص به، والتعليم موروث عنه.

الوجه السادس: فيه دليل على أن التفرقة بين اللفظين لافتراق الحكم جائزة، بقرينة ما يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام: (مَنْ حَوَسِبَ عُذْبٌ) وقوله، تعالى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾<sup>(٣)</sup>. فاللفظ واحد في الحساب ووقعت التفرقة بينهما بالصفة، لأنه، عليه السلام، قال في الواحد: (لو لم يُيسَّرَ عليه لهلك) فوصفه باليسير وفي الآخر أضاف إليه الهلاك، فليس من يُيسَّرَ عليه يَهْلِك.

الوجه السابع: فيه دليل على أن بساط الحال يستدل به على حقيقة المعنى، لأنه قال: ﴿فَأَمَّا

(١) رواه مسلم في كتاب الحيض.

(٢) رواه مسلم في كتاب الحيض، ورواه الإمام أحمد والترمذي عن السيدة عائشة عليها السلام مرفوعاً، ولفظه عند

مسلم: إذا جلس بين شعبها الأربع، ومن الختان الختان، فقد وجب الغسل.

(٣) سورة الانشقاق، الآية ٨.

مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا<sup>(١)</sup> فدلَّ بذلك أَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْتَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ،  
فليس بمُحَاسَبٍ حِسَابًا يَسِيرًا .

الوجه الثامن : فيه دليل لمن يقول بأن الأمر بالشيء نهْيٌ عن ضده<sup>(٢)</sup> . يؤخذ ذلك من إخباره ،  
عليه السلام ، بأن أَمَرَ الله ، عزَّ وجلَّ ، قد نفذ ، أَنَّ مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِالْيَمِينِ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ،  
وأخبر ، عليه السلام ، في نفوذ الأمر فيمن لَمْ يُؤْتَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ بالمناقشة .

ويُرد هنا سؤال على قوله : ( شيئاً لا تعرفه ) ، هل هو على العموم فيما يكون من أمور الدنيا  
والآخرة ، أو هو خاص ، بمعنى أمور الآخرة ليس إلا ؟

والجواب : أن هذا على العموم ، لأنه من الشَّيْءِ العالية ، وشماثل السُّودد المنيفة ، وتلك  
السيدة كانت ممن لهنَّ صفاتُ السُّودد العَلِيَّة ، والرتبة السَّيِّئَة . وقد قيل : قيمة المرء ما يُحْسِن . وقد  
قال علي ، رضي الله عنه ، لما لقي أعرابياً ، فأعجبه حاله ، فقال له : يَمْ نَلَتْ هذه الحالة ؟ فقال : لم  
أسمع شيئاً لا أعرفه إلا بحثتُ فيه حتى أعرفه ، ولم أعرف شيئاً ، فامتنعت أن أعلمه من لا يعرفه .  
فقال له : بهذا سُذَّت . وقد قالوا : من دَرَسَ رَأْسَ ، ومن عرف ارتفع .

وهنا بحث في قوله : ( لا تعرفه إلا راجعت فيه ) . ولمَّ لم يقل : ( أنكرته ) ؟ .

والجواب : أن المراجعة تَرُدُّ الأمرَ لِيَتَبَيَّنَ حَقُّهُ من باطله ، والإنكار دَفَعُهُ مرة واحدة ، ومن له  
عقل لا ينفي شيئاً لا يعرفه حتى يراجع فيه ويعرف حقه من باطله ، لئلا يكون فيه حق أو منفعة . فإن  
كان فيه حق أو منفعة قَبْلَهُ ، وإلَّا رَدَّهُ على بصيرة .

ومن علامات الجهل : ردَّ الشيء عند الجهل ، لأنه قد يكون فيه مصلحة لا يعرفها ، فيكون  
رده وجهله سبباً لحرمانه من تلك المنفعة ، ولذلك ، قال السادة العلماء : مَنْ جَهِلَ شيئاً عاداه . هذا  
إذا كان الأمر من خلاف كلام النبوة ، وأما ما يكون من كلام النبوة فالمراجعة فيه ليتبين ما فيه من  
الأنوار والحكم والفوائد لأنه خيرُ كلِّه .

الوجه التاسع : فيه دليل على منع بعض البحوث التي لبعض الناس في زماننا هذا ، لأن ما  
قصد بعضهم إلا قطع خصمه ، فيكون جوابه : ممنوع ، أو : لا أسلم ، وهو لا يعلم حقيقة ما قال  
صاحبه ، فحُرِّمَ الفائدة لجهله بأدب البحث . وقد قال الشافعي ، رحمه الله ، والسادة العلماء : ما

(١) سورة الانشقاق ، الآيتان ٧ و ٨ .

(٢) بنى علماء الأصول على هذه العبارة أحكاماً كثيرة ؛ وهي من قواعدهم الأساسية الكبيرة . و(الأمر) - هنا -  
بالمعنى لا باللفظ ، إذ الموضوع يتعلق بمفهوم المخالفة ، وهل هي حجة ؟ وما هنا دليل لمن يحتج به .

باحثٌ أحدًا فاخترت أن يكون الحق يجري على لساني ليس إلا، وإنما قصدي أن يظهر الله الحق على لسان من شاء من ألسنتنا<sup>(١)</sup>، لأن الحكمة ضالة المؤمن، فمن أتى بها فرح بها.

ويترتب عليه من الفقه على من يزدد قبل أن يعرف مقالة خصمه وجهان، لأنه لا يخلو أن يكون ما قاله المتكلم حقًا، فيراجعه بقوله: (ممنوع) أو: (لا أسلم)، فيدخل بذلك في عموم قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ يَأْفُكُونَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> فهذا حرام ممنوع، أو يكون ما قاله خصمه منكراً، لا يجوز، فيرده قبل أن يعرفه، وتغيير المنكر لا يجوز إلا بعد المعرفة بأنه مُنكَرٌ. . هذه المسألة بإجماع، وهو: أنه لا يجوز تغيير المنكر حتى يعلم أنه منكراً. فكيف يقدم هذا المنكر على هذين الوجهين، وفيهما من الخطر ما فيهما، ولا سيما إذا انضاف لذلك حظوظ النفس، وطلب الظهور، والفخر؟ فشقاوة على شقاوة. أعاذنا الله من ذلك بِمَنِّهِ.

ومما يقرب من هذا الوجه من القبح - وهو عند بعض أهل هذا الوقت من النبل والكَيْس وبُسَ الحال - وهو<sup>(٣)</sup>: أن يسمع مَنُّ الله عليه بالعلم وجهاً من العلوم لا يعرفه هو، فيأتي إليه يسأله أن يبحث معه في ذلك الوجه، لكي يشعره أنه يعرفه، ولا يريد أن يتنازل إليه أن يقول له: عَلَّمَنِي تلك المسألة - فهذا فيه وجوه محذورة، منها: الكذب، لأنه يخبر بلسان حاله أنه يعرف ذلك الشيء، وليس كذلك، وفيه استنقاص بمن هو أعلم منه في ذلك الحال وتلك المسألة، وقد قال، علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: لا تَحْقِرَنَّ أحداً آتاه الله علماً، فإن الله لم يَخْفِرْهُ حين آتاه العلم. وقد قال أئمة الدين: . . . وأن تتواضعوا لمن تعلمونه، وتتواضعوا لمن تتعلمون منه. فإن التواضع من أدب العلم. ومن ترك أدب العلم قلَّ أن يَخْطِئَ به، أو يناله على وجهه، بل يُخَرِّمُهُ<sup>(٤)</sup>.

فانظر إلى حسن العبارة في قوله: (لا تعرفه) فدل على أن المراجعة تَعَلُّمٌ لا إنكار. فلما راجعت وعرفت أمسكت. فتلك الفائدة التي قصدت، والفائدة عند أصحاب البحث المتقدم ذكرهم قطع الخصم بـ(لا أسلم) أو (ممنوع)، لأنه يقال: فلان قطع فلاناً، أو أسكت فلاناً. فإنا لله، وإنا إليه راجعون على قلب الحقائق، وردَّ المعروفِ منكراً، والمنكرِ معروفاً.

الوجه العاشر: فيه دليل على أن زيادة البحث إذا كان بأدبه زادت الفائدة. يؤخذ ذلك من أنها لما سمعت قوله، عليه السلام، راجعت بالأدب - كما تقدم - فازداد لها بذلك فائدة أن خصص لها

(١) انظر تفصيل نظرات الإمام الشافعي في آداب العلم والتعلم في الإحياء ٣٨/١.

(٢) سورة التوبة، من الآية ٣٢.

(٣) كذا، والصواب إسقاط «وهو».

(٤) راجع إحياء علوم الدين - كتاب ذم الكبير والمعجب - ٣/٣٥٥ - ٣٩٨.

ذلك العامّ بقوله، عليه السلام: (مَنْ نَوَّشَ الْحَسَابَ هَلَكَ)، ثم خصص لها ذلك العموم بقوله عليه السلام: (إنما ذلك العَرَضُ).

الوجه الحادي عشر: في الحديث إشارة صوفية، لأن تلك المناقشة هي التي حملتهم على الزهد في متاع الدنيا. وقد أشار، عليه السلام، إليه في حديث آخر حين قال له رجل: أوصني، ولا تُشْطِطْ، فقال له، عليه السلام: (لا تقل شيئاً تَسْتَغْذِرُ عنه في القيامة)<sup>(١)</sup>. فعملوا في القول على هذه الوصية، ليكون قولهم صدقاً، ويكون حسابهم تجاوزاً وعرضاً.

جعلنا الله ممن تجاوز عنه، وسَلِّكْ به مسلَكهم الرشيد، وسَنَنَّهُم السديد.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

---

(١) لم نعرف مصدره.

## حديث القتال في سبيل الله

عن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبي، ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غَضَبًا، ويقَاتِل حَمِيَّةً. فرفع إليه رأسه. قال - وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائمًا - فقال: مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كلمةُ الله هي العُلْيَا فهو في سبيل الله.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن القتال في سبيل الله لا يكون إلا بِنِيَّةٍ أن تكون كلمةُ الله هي العُلْيَا. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله: (يا رسول الله) فيه دليل على أن من الأدب والسنة تقدمة مناداة المسؤول بأعلى أسمائه على الحاجة، لأنه قال أولاً قبل أن يذكر حاجته: (يا رسول الله)، و(رسول الله) أعلى أسمائه، عليه السلام.

الوجه الثاني: فيه دليل على جواز مناداة المفضل للفاضل لحاجته، أو في أمر أشكل عليه؛ لأن هذا الأعرابي سأل النبي، ﷺ، مع أصحابه - وأصحابه أفضل ذلك الزمان بعده، عليه السلام - فلم يُنْكِرْ عليه واحد منهم رفع صوته بينهم وعليهم، وانفرادَه بسؤاله فيما احتاج إليه دونهم. ولو كان ذلك غير جائز لما أقره الشارع، عليه السلام، على شيء من ذلك.

الوجه الثالث: قوله: (ما القتال في سبيل الله؟) فيه دليل على إبداء العلل الواردة للعارف بها، ليبين فيها الفاسد من الصالح؛ لأن هذا الأعرابي قال أولاً: (ما القتال في سبيل الله؟) ثم بيّن بعد ذلك وجوه القتال التي كانت عادة العرب يقاتلون عليها.

الوجه الرابع: فيه دليل على جواز حذف الصفة وإقامة الموصوف مقامها. يؤخذ ذلك من قوله: (ما القتال في سبيل الله؟) وهو يريد ما صفة القتال الذي يكون في سبيل الله؟ فحذف الصفة للاختصار.

الوجه الخامس: فيه دليل على أن من السنة تقديم العلم على العمل. يؤخذ ذلك من قوله: (ما القتال في سبيل الله؟) ليعلم كيف يقاتل في سبيل الله.

الوجه السادس : فيه دليل لمذهب مالك ، رحمه الله ، حيث يقول : بأن الفرض لا بد له من حدٍّ يُحدُّ به ، من الكتاب أو السنة أو منهما معاً ، كي يُعرَف بذلك . يؤخذ ذلك من قوله : ( ما القتال في سبيل الله ؟ ) ليعرف الصفة التي إذا فعلها وفَّى ما أمر به .

الوجه السابع : فيه دليل على إيجاب النية في العمل . يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام : ( لتكون كلمة الله هي العليا ) فأضرب عن الصفة وأجاب عن النية .

الوجه الثامن : فيه دليل على أن تخصيص الظواهر لا يكون إلا بالنيات . يؤخذ ذلك من قوله بعد تعداد السائل الوجوه التي يقاتلون عليها : ( من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ) فدل على أن الشأن النية ، لا الصورة الظاهرة .

وهنا بحث : هل قوله ، ﷺ : ( من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ) لا لغيرها مما ذكر في الحديث ، ولا تكون لله إلا إذا عري المقصود عما سواه ، وأنه لا يبالى بتلك المقاصد إذا كان مقصده الأصلي فيها : ( لتكون كلمة الله هي العليا ) ؟ ولهذا قال مالك ، رحمه الله ، في الرجل يحب أن يرى في طريق المسجد ، ولا يحب أن يرى في طريق السوق : لا يضره ذلك إذا كان عند الشروع لله خالصاً .

فالجواب : أن هذا الأمر هنا احتمل وجوهاً ، لكل واحد منها حكم .

أحدها : - وهو أعلاها بلا خلاف - وهو : أن يكون لله ، عز وجل ، ولا يكون هناك غير ذلك .

الثاني : أن يكون المثير للقتال أحد الوجوه المذكورة في هذا الحديث ، أو الزيادة التي في غيره وهي أن يقاتل طبعاً ، ثم عند الشروع فيه يجرد النية لأن تكون كلمة الله هي العليا . فهذا هو الذي يعطيه نص الحديث ، لأن المثير للشيء لا يُلْتَفَتُ إليه ، إذا لم يُستصَحَب به الحال حتى يكون الفعل له ، لأن الحكم للأحدث فالأحدث .

الثالث : أن يكون القتال لذلك المؤثر والله معاً . فهذا ليس من الله في شيء ، لما جاء أن الله ، جلّ جلاله ، إذا كان في العمل شرك لغيره ، يقول الله يوم القيامة لصاحب العمل : ( أنا أغنى الشركاء ، اذهب فاطلب الأجر من غيري )<sup>(١)</sup> .

الرابع : أن يكون لأحد الوجوه المذكورة لا غير ، فهذا له ما يقتضيه فعله ونيتُهُ من إثم أو إباحة ، بحسب قواعد الشرع في كل قضية .

الوجه التاسع : فيه دليل على أن من السنة أن يواجه المسؤول السائل بوجهه عند الجواب . يؤخذ ذلك من قوله : ( فرفع إليه رأسه ) ثم استعذر عن رفع رأسه ، ﷺ ، بأن قال : ( وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً ) .

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (بلفظ آخر) ورواه الترمذي وابن ماجه وصححه ابن حبان .

الوجه العاشر: فيه دليل على أن الصحابة، رضوان الله عليهم، كانوا يقتدون بأفعاله، عليه السلام، كما يقتدون بأقواله. يؤخذ ذلك من قوله: (فرغ إليه رأسه) فلولا أنهم كانوا يقتدون بأفعاله ما كانت حاجة إلى ذكر رفع رأسه، لأنه ليس ذلك من لازم الجواب.

الوجه الحادي عشر: فيه دليل على وقار النبي، ﷺ، وعلم الصحابة بذلك، لأنه، عليه السلام، كان لا يلتفت إلا عن حاجة لا عبتاً. فلولا ما كان كذلك ما احتاج الراوي أن يبدي العلة التي من أجلها رفع النبي، ﷺ، رأسه، وهي أن السائل كان قائماً.

الوجه الثاني عشر: فيه دليل على حفظ الجوارح، حتى لا يكون تصرفها إلا عن ضرورة لا عبثاً، لما تقدم في تعليل رفع رأسه، عليه السلام.

الوجه الثالث عشر: فيه دليل على أن المخبر إذا أخبر بشيء لا يعرف، فعليه أن يستدل عليه بما يصدق به حديثه. يؤخذ ذلك من تعليل الصحابي سبب رفع رأسه، عليه السلام، لأنه لو لم يقل ذلك لكان ذلك سبباً ألا يقبل الصحابة قوله، أو يتوقفوا فيه، لعلهم بخلاف ذلك. فبين العلة، لأن تصديق مقالته هنا حقيقتها تقعيده قاعدة شرعية. فكان احتياطه، رضي الله عنه، من أجل ذلك، لا من أجل نفسه.

الوجه الرابع عشر: فيه دليل على جواز السؤال على كل الأحوال قاعداً أو قائماً، لأن ذكره هنا (القيام) عند السؤال، أو تعليله لذلك، دال على أن المعروف عندهم كان الجلوس. فلما أخبر هنا بالقيام دل على جوازه على كل حال. ولو كان عندهم ذلك مما قد عرفوه لكان ذلك إخباراً بتحصيل حاصل، والصحابة، رضي الله عنهم، منزهون عن ذلك.

الوجه الخامس عشر: فيه دليل على منع القتال على حطام الدنيا.

الوجه السادس عشر: فيه دليل على منع القتال على أن يكون لسفك دماء الكفار غيظاً عليهم. يؤخذ ذاك الحكم من قوله، عليه السلام: (لتكون كلمة الله هي العليا).

الوجه السابع عشر: هنا إشارة صوفية، لأن الجهاد عندهم، هو جهاد النفس، وهو الجهاد الأكبر، كما أخبر، ﷺ، في غير هذا الحديث حين رجع من الجهاد، فقال للصحابة: (هبطتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)<sup>(١)</sup>، والجهاد الأكبر هو جهاد النفس، فتكون مجاهدتهم لها لأن تكون كلمة الله أيضاً هي العليا. وصفتها، كما أخبر، عز وجل، على لسان نبيه عليه السلام: (لا

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير عن جابر رضي الله عنه. ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (بلفظ مختلف). وللشيخ عدنان الغشيم رسالة في هذا الحديث ورجاله.



يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها<sup>(١)</sup>. هذا هو طريق السادة الفضلاء منهم.

وأما الذي يقوله أهلُ الجهل: نواصِلُ ونجاهد، حتى نرى شيئاً من خرق العادات والكرامات، فأولئك عندهم جهال. ومنهم من قال: إنهم يدخلون تحت قوله، عزَّ وجلَّ، في كتابه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾<sup>(٢)</sup> وأي فائدة في ذلك على هذا الوجه، والله عزَّ وجلَّ، يقول في كتابه ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾<sup>(٣)</sup>؟ ثم تلمح إلى قوله، عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾<sup>(٤)</sup>، يتبين لك ما أخبرتك به.

وفقنا الله لذلك بمنته.

وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

- 
- (١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.  
(٢) سورة الحج، من الآية ١١. والمعنى: يَعْبُدُهُ فِي السَّرَّاءِ لَا فِي الضَّرَّاءِ.  
(٣) سورة النساء، من الآية ١٤٧.  
(٤) سورة العنكبوت، من الآية ٦٩.

## حديث الرجل يخيل إليه أنه يجد ريحاً وهو في الصلاة

عن عباد بن تميم، عن عمّه<sup>(١)</sup>، رضي الله عنهما، أنه شكّا<sup>(٢)</sup> إلى رسول الله ﷺ، الرجل<sup>(٣)</sup> الذي يخيل إليه أنه يجد الشيء<sup>(٤)</sup> في الصلاة، فقال: (لا يفتل<sup>(٥)</sup>) - أو لا ينصرف - حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً).

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أنه لا يقطع الصلاة من يخيل إليه شيء حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: هذا (الشيء) هل هو على العموم، أو شيء مخصوص اللفظ بنفسه؟ محتمل، لكن القرينة التي في آخر الحديث تشعر أنه شيء مخصوص، وهو قوله: (حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً)، فدل أن (الشيء) هنا هو من النوع الذي هاتان الصفتان وصفه، وهو الريح، بصوت أو بغير صوت.

الوجه الثاني: يردُّ هنا سؤال، وهو: هل هذا الحكم مختص بالريح وحده، أو هو له ولغيره من الأحداث؟<sup>(٦)</sup>

فالظاهر تعدّيه إلى غيره من الأحداث، بدليل قول سعيد بن المسيّب: لو سال على فخذي ما

- 
- (١) عمه: هو عبد الله بن زيد بن عاصم المازني الأنصاري. سمّاه مسلم وغيره في روايتهم لهذا الحديث.
- (٢) شكّا: الضمير يعود على الراوي الذي هو عبد الله بن زيد. وفي رواية لمسلم (شكّي) ببناء الفعل للمجهول، ولم يسم الراوي.
- (٣) الرجل: بالضم على الحكاية.
- (٤) الشيء: أي الحدث خارجاً منه.
- (٥) لا يفتل: بالجزم على النهي، وبالرفع على أن (لا) نافية.
- (٦) الأحداث: ج حُدُث، وهو، عند الفقهاء، نجاسة حكمية معنوية ترتفع بالوضوء أو بالغسل أو التيمم.

انصرفْتُ حتى أَقْضِي صَلَاتِي، فدلَّ ذلك على أن الحكم: إذا كان العبدُ في الصلاة، وَيَتَخَيَّلُ له أَيْ نوع من أنواع الأحداث الناقضة للطهارة، أنه لا يقطع صلاته إلا بيقين.

الوجه الثالث: فيه من الفقه: أن الشك لا يَقْدَحُ في اليقين إذا كان في الصلاة اتفاقاً؛ لنص الشارع، عليه السلام، على ذلك وَعَمَلِ التابعي، رضي الله عنه، ويقصد ذلك لقوله، عزَّ وجلَّ، في كتابه: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾<sup>(١)</sup> فمنع الشارع، عليه السلام، بمقتضى الحديث التطرق إلى فساد الأعمال بالشك أو الظن، سَدّاً للذريعة، وتعظيماً للعمل.

الوجه الرابع: هنا إشارة لطيفة، وذلك أنه لما كان العبد قد توجه إلى الحضرة العلية فلا يَلْتَفِتُ إلى البشرية وعوارضها، فإنه خلل في الحال. فإن جاءه أمر متحقق فهو حكم رباني، وَجَبَ الامتثال له. ولذلك نهى ﷺ، عن الصلاة مع مدافعة الأخبثين<sup>(٢)</sup>.

وبقي الكلام على خارج الصلاة، يكون الشك قادحاً في اليقين أم لا؟ مثال ذلك أن يكون الرجل يتيقن بالطهارة، وشكَّ في الحدث.

اختلف العلماء في ذلك، فذهب مالك، رحمه الله، ومن تَبَّعَهُ من العلماء إلى أنه يَقْدَحُ، ولا يَسْتَفْتَحُ الصلاة إلا بطهارة مُتَيَقَّنَةٍ، لقوله عزَّ وجلَّ، في كتابه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً﴾<sup>(٣)</sup> وقال غيره: لا يقْدَحُ الشك في اليقين.

الوجه الخامس: في هذا من الفقه وجهان:

أحدهما: أن الخاطر اليسير المشوِّش في الصلاة معفو عنه.

الثاني: أن تَحَدُّثَ النفس في الصلاة بما يصلحها جائز. يؤخذ ذلك من قوله: (يُخَيَّلُ إليه أنه يَجِدُ الشيءَ). فإذا تخيل له قيل له: أنظر ما الذي أُمِرْتَ به؟ وما الحكم عليك فيه؟ وذلك حديث مع النفس لأجل تقرير الحكم. وينبغي تعديهِ إلى غير ذلك من العوارض التي تعرض للمصلي أن ينظر في حكم الله عليه ما هو؟ حتى يخرج على مقتضاه. ولذلك قال بعض أهل العلم: صلاةٌ بسهْوٍ خَيْرٌ من سبعين صلاةً بغير سَهْوٍ. قيل: وكيف؟ قال: لأن الصلاة إذا كانت بغير سهو احتملت القبول وغيره، وإذا كانت بالسهو وخرج على لسان العلم فقد أرغم أنف الشيطان؛ كما قال، ﷺ: (فتلك

(١) سورة محمد، من الآية ٣٣.

(٢) الأخبثان: البول والغائط. والحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٣) سورة البينة، من الآية ٥.

ترغيم للشيطان<sup>(١)</sup>. وما يُرغم أنف الشيطان يُرجى معه رضا الرحمن، فَفَضَّلْتُ غَيْرَهَا بتلك الصفة .

الوجه السادس : في هذا إشارة إلى فضل العلم الشرعي ، لأنه لا يعلم ذلك إلا بالعلم . وكذلك يتعدى هذا الحكم إلى جميع الأحكام ، وهو : أنه يؤمر أولاً بالإخلاص ، تقريراً على لسان العلم في كل الأشياء . فإن عَرَضَهُ عارض نظر فيه بلسان العلم ، وعمل بما يؤمر به . وذلك كله عبادة .

الوجه السابع : فيه دليل على الإشارة والتكنية عن الأشياء المستقذرات ، ولا يُفصح بها . يؤخذ ذلك من قوله : (يجد الشيء) فكُنِيَ عن الحدث بـ(الشيء) .

الوجه الثامن : فيه دليل على أن ذكر المستقذرات عند الضرورة لا شيء فيه . يؤخذ ذلك من قوله : (حتى يسمع صوتاً، أو يجد ريحاً) ، لأنه عند ضرورة تبين الحكم ذكر مشافهة ما كنى عنه أولاً .

الوجه التاسع : هنا سؤال ، وهو : لم قال : (الرجل) ولم يذكر النساء؟

والجواب : أنه لما علم أن النساء شقائق الرجال اجتراً بالأعلى عن الأدنى ، لأن الذَّكَرَ - من طريق اللغة - أعلى ، لأنهم إذا اجتمع مذكر ومؤنث غلبوا المذكر على المؤنث .

الوجه العاشر : قوله : (لا يفتل أو لا ينصرف) هل ذلك بمعنى واحد ، أو بمعنىين؟

الظاهر : أنهما بمعنىين ، لأن الانفتال هو ميلٌ ما عن الموضع الذي هو فيه ، والانصراف كناية عن الذهاب بالكلية . ففي العبارة - بهذين الوجهين - إشارة إلى أنه يبقى على حاله ، ولا يخلّ منها بشيء لا كثير ، ولا يسير .

الوجه الحادي عشر : فيه من الإشارة لأهل القلوب ألا يلتفتوا إلى الشكوك ، ولا إلى العوارض ، لا قليلاً ولا كثيراً ، ولذلك يقولون : إن الملتفت عندهم هالك .

الوجه الثاني عشر : هنا سؤال وهو : لم قال : (يجد ريحاً) ولم يقل : (يشم ريحاً) كما قال : (يسمع صوتاً)؟

والجواب : أن الحدث إذا كان بصوت سُمع ، فلا يحتاج إلى زيادة صفة ، لأن الصوت أعلى ، وإن كان دون ذلك سُمع . وإذا لم يكن له صوت فإمّا أن يُشتمَّ من حينه - ولذلك قال : يجد ريحاً - وإما أن يلتمس المحلّ فيجد في العضو الذي يمسّ به المحل رائحةً من صفة الحدث ، فيقوم ذلك مقام التحقيق بالحدث . فأخبر هنا بأقل ما يستدل به من الشمّ عليه .

الوجه الثالث عشر : فيه من الفقه : أن مَسَّ الدُّبُر لا ينقض الطهارة ، خلافاً للشافعي ، رحمه

---

(١) لم نعرف مصدره .

الله، فلا يعتبر بتلك الريح حتى يكون معها ما يشم. فإنه ما لا صوت فيه فلا بد من الشم، فإنه اليقين في هذا الموضع.

الوجه الرابع عشر: فيه أيضاً بشارة لهم، بأن دفع تلك العوارض لا تُخرجهم عن حالهم الخاص.

جعلنا الله ممن خصه بالخير، واختصه به، لا ربَّ سواه.  
وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

## حديث البول والاستنجاء والشرب

عن أبي قتادة<sup>(١)</sup>، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: إذا بال أحدكم فلا يأخذَنَّ ذَكَرَهُ يَمِينَهُ، وَلَا يَسْتَنْجِي يَمِينَهُ، وَلَا يَتَنَفَّسُ فِي الْإِنَاءِ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام (الأول): ألا يأخذ ذَكَرَهُ يَمِينَهُ (الثاني): ألا يستنجي يَمِينَهُ. (الثالث): ألا يتنفس في الإناء. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: هل هذا تعبد غير معقول المعنى، أو هو معقول المعنى؟

وقد تقدم أن أمور الشرع كلها لا بدَّ لها من معنى بمقتضى حكمة الحكيم، لكن منها ما نعرفه، ومنها ما لا نعرفه، ونُخبر عنه بالتعبد ليس إلّا. فأما هنا، بفضل الله، فالمعنى ظاهر، لأن اليمين لما جُعِلَ للأكل والشرب وما يقرب منه، جُعِلَ اليسار لصد ذلك، وهي الفضلات وما يتعلق بذلك، وما يقرب منه. فمَسَّ الذَّكَرَ والاستنجاء من ذلك القليل. وأيضاً فلَمَّا كان أهل اليمين في الآخرة هم أهل الجنان والنعيم جُعِلَ في هذه الدار لذلك النوع. ولَمَّا كان أهل الشمال في الآخرة أهل المعاصي والنكال جعل هنا لما يتولّد عن المعاصي وما شاكلها، لأن أول ما وقعت المعصية من البشر تولّد عنها الحدث. وكذلك المعبرون للرؤيا يعبرون لمن رأى شيئاً من الأحداث أنها دالة على المعاصي.

الوجه الثاني: هنا إشارة إلى أن المراد من المكلف معرفة حكمة الحكيم في الأشياء واتباعها، ولذلك قال عليه السلام، حين جاء إلى السعي بين الصفا والمروة: (نبدأ بما بدأ الله

(١) أبو قتادة: هو الحارث (أو النعمان، أو عمرو) بن ربيعة الأنصاري الخزرجي السلمي. صحابي من الأبطال الولاة، وكان يقال له: فارس رسول الله، وفي حديث أخرجه مسلم: (خير فرساننا أبو قتادة). شهد الوقائع مع النبي ﷺ ابتداءً من وقعة أحد. ولما ولي عبد الملك بن مروان إمرة المدينة أرسل إليه ليريه مواقف النبي ﷺ فانطلق معه وأراه. ولَمَّا صارت الخلافة إلى علي رضي الله عنه ولّاه مكة، وشهد معه صفين، ومات في المدينة سنة ٥٤ هـ / ٦٧٤ م.

به<sup>(١)</sup>. وإن كانت الواو لا تعطي رتبة في كلام العرب،<sup>(٢)</sup> لكن لما عَلِمَ صاحب النور<sup>(٣)</sup> أن الحكيم لا يبتدىء بشيء إلا لحكمة فاتبع مقتضى حكمة الحكيم.

الوجه الثالث: هنا إشارة إلى معنى قوله: (ولا يتنفس في الإناء) فإن قلنا - كما تقدم - ما الحكمة في ذلك؟ ففيه وجهان: (أحدهما): في حق الشارب، لعله عند تنفسه في الإناء يشرق بالماء. و(الثاني): في حق الغير، لعله يتعلق من نفسه شيء ما في الإناء، فيستقذره الغير.

وفيه أيضاً إظهار الشهامة وقلة النهم<sup>(٤)</sup> في الشراب، وفيه أيضاً تفرقة<sup>(٥)</sup> الشراب أقرب إلى الري. وفيه إشارة لعله ينتبه لما ندب إليه من قطع الشراب ثلاثاً، فيحصل له ما رغب فيه من الخير، لأنه جاء عنه، ﷺ: (أن من شرب الماء، ونوى به العون على الطاعة، وسمى، ثم قطع، وحمد، يفعل ذلك ثلاث مرات، أن الماء يستح في جوفه ما بقي في جوفه)<sup>(٦)</sup>.

ويترتب على هذا من الفقه أن يُقدّم أولاً النهي عن الأشياء المحذورات وحيثنذ يشار إلى زيادة الخير. يؤخذ ذلك من قوله: (ولا يتنفس في الإناء) نهياً منه، عليه السلام، وقال في الذي يشربه ثلاثاً - كما تقدم - على طريق الإرشاد: من فعل كذا.

الوجه الرابع: فيه دليل على أن مجاور الشيء يُعطى حكمه. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام: (إذا بال أحدكم فلا يأخذن ذكره بيمينه). ففي حين كان الذكر مجاوراً للبول منع أخذه باليمين، وفي غير ذلك من الزمان<sup>(٧)</sup> لم يمنع منه. يؤيد ذلك قوله، عليه السلام، حين سأله السائل في مس ذكره، فقال: (وهل هو إلا بضعة منك؟)<sup>(٨)</sup> فدل على جواز أخذه كسائر جسده. ولهذه الإشارات - أعني أن المستخبثات كلها تكون بالشمال - قال أهل المعرفة بالخواطر: إن خاطر الشيطان يأتي من جهة الشمال، شمال القلب.

ويحتاج الآن أن نعرف شمال القلب أين هو؟ فعندهم<sup>(٩)</sup> أن شمال القلب مخالف لشمال

---

(١) رواه سلم في الحج، والنسائي، والإمام أحمد والإمام مالك وابن الجارود، وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان.

(٢) يريد أن الواو لمجرد الجمع، كما يقول النحاة.

(٣) صاحب النور: في هذا السياق تعني رسول الله، ﷺ. ويمكن أن يراد بها العالم بالشريعة، كما تقدم.

(٤) النهم: الشهوة في الشيء، الحاجة.

(٥) تفرقة: تجزئة، من فرقت الشيء تفرقاً وتفرقة.

(٦) لم نعرف مصدره.

(٧) يريد: وفي غير ذلك من الأوضاع، أي في غير حالة التبول.

(٨) رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن والدارقطني. و(البضعة): الجزء أو القطعة.

(٩) فعندهم: أي عند أهل المعرفة بالخواطر.

الجثة، لأنهم يقولون: وجه القلب، ويعنون بوجهه (الباب) - الذي هو للغيوب مفتوحاً - هو إلى جهة الصُّلب، فمن ذلك الباب هو يمين القلب، ومنه يشاهدون ما يشاهدون من أمر المكاشفات والكرامات وما سوى ذلك مما خص الله، عزَّ وجلَّ، به أوليائه، على مقتضى الحكمة، كما دلت عليه أدلة الشرع.

ولجهل من جهل هذا المعنى الذي أشرنا إليه لما أن سمع أن خاطر الشيطان يأتي من جهة الشمال، والملك يأتي من جهة اليمين، جعل ما سمع على وضع البنية<sup>(١)</sup>، فانعكس عليه الأمر، لأن الخواطر عندهم أربعة: ملكي، وشيطاني - وهما من حيث أشرنا أولاً - ونفساني، وهو من أمام القلب، ورباني، وهو من داخل القلب.

وهنا بحث، وهو: هل النهي هنا على التحريم أو على الكراهة؟ محتمل، والظاهر أنه على الكراهة، وهذه الكراهة مع عدم العذر. وأما أصحاب الأعداء فلا يدخلون في هذا الباب مثل الذي ليس له إلا يمين، أو له في اليسار عذر يمنع من التصرف للعذر الذي منعه. وهي أيضاً أعني الأشياء التي أمر بها هنا سنة، كما جاء في الحديث أنه، ﷺ، كانت يمينه لطعامه وشرابه، وشماله لغير ذلك. فتأكد ما أخبر به هنا بما كان يفعله هو، ﷺ.

الوجه الخامس: فيه دليل على أن من الفصاحة الاختصار إلا إذا كان في الكلام ما يدل عليه، يؤخذ ذلك من قوله: (ولا يتنفس في الإناء)، لأن مفهومه: إذا شرب، لا غير.

الوجه السادس: فيه دليل على أن المعطوف يكون مثل المعطوف عليه في الوجوب، أو غير ذلك، وهو أيضاً من الفصاحة. يؤخذ ذلك من أنه لما نهى أولاً عطف ما بعده عليه، ولم يُعِدِ النهي.

الوجه السابع: يرد هنا بحث: هل النهي مقصور على هذه الأشياء، أو يتعدى حيث وجدنا العلة؟ فعلى القول بأنه تعبدى فلا يتعدى، وإذا قلنا: بفهم العلة - كما أبدينا - فحيث وجدنا العلة عدنا الحكم. وهذا هو الأظهر، والله أعلم.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) أي على الشكل الظاهري لجسم الإنسان.



## حديث الرأفة بالحيوان

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي، ﷺ، أن رجلاً رأى كلباً يأكل الثرى من العطش. فأخذ الرجل خُفَّهُ، فجعل يغرف له به حتى أرواه، فشكر الله له، فأدخله الجنة.

✽ ✽ ✽

ظاهر الحديث يدل على أن إدخال الرجل الجنة بإروائه الكلب. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: هل هذا خاص بهذا الحيوان، وهذا الرجل؟ أو هو عام في جميع الحيوان والمخلوقات؟ احتمال، لكن الأظهر فيه العموم. يؤيد ذلك قوله، ﷺ، في حديث غير هذا: (في كل كبد حرى أجر)<sup>(١)</sup> فعمَّ جميع الحيوان، وقال تعالى في كتابه: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَخْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾<sup>(٢)</sup> والآي والأحاديث في ذلك كثيرة.

الوجه الثاني: فيه دليل على معرفة الحال بالقرينة. يؤخذ ذلك من قوله: (رأى كلباً يأكل الثرى)، لأن أكله الثرى لا يكون إلا دليلاً على العطش.

الوجه الثالث: فيه دليل على أن الحاجة تُخرج الحيوان - عاقلاً كان أو غير عاقل - عن مألوفه وعاداته. يُؤخذ ذلك من أكل الكلب الثرى - وهو التراب المبلول بالماء - من أجل ما يجد فيه من أثر الماء، وليس يفعل ذلك عند استقامة مزاجه.

ويؤخذ من ذلك أن ما قُرب من الشيء يُعطى حكمه عند عدمه عقلاً وطبعاً. فعقلاً في غير ما موضع من العقل والشرع. وأما الطبع ففي هذا الموضع، لأن الكلاب وجميع الحيوان - غير بني آدم والجن - لا عقل لهم، لكن طبعوا على معرفة منافعهم، فالذي يجدون فيه منفعتهم أنسوا به، وإذا لم يجدوه ووجدوا ما يقرب منه استعملوه. يؤخذ ذلك من أكل الكلب الثرى لأنه يجد بالماء التبريد، فلما عدمه، ووجد في الثرى ما يقرب منه في التبريد، استعمله، ولم يبال بثقل الثرى.

(١) حَرَّى حَرَّى: عطش... فهو حَرَّان وهي حرى. والحديث رواه مسلم في كتاب السلام بلفظ آخر.

(٢) سورة المائدة، من الآية ٣٢.

ويترتب عليه من معرفة الحكمة أن الثقل عند الحاجة إليه يخفّ، ويلزم ضده أن الخفيف عند الاستغناء عنه يثقل. ولهذا المعنى خَفَّتِ المجاهدة على أهل الحقيقة لاحتياجهم لمولاهم وتحققهم بذلك، وثقلت على أهل الدنيا لحبهم للدنيا، وكثرة احتياجهم إليها، وثقلت عليهم العبادة التي يتنعم بها أهل المعرفة، وخَفَّتِ عليهم<sup>(١)</sup> لمعرفتهم بما فيها، ولذلك قال، عز وجل، في كتابه: ﴿وَلِئَلَّا لَكِبْرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ويؤخذ منه الدلالة على لطفه، عز وجل، بجميع خلقه. يؤخذ ذلك من إلهامه الكلب أكل الثرى حتى يكون ذلك سبباً لرحمة الرائي له حتى يرويه بالماء.

ويؤخذ منه أن من أحسن الصفات إيصال الخير لجميع الخلق. يؤخذ ذلك من جزيل الثواب على هذا الفعل اليسير، وإخبار النبي ﷺ، بذلك ليتأسى المؤمنون بهذه الصفة المقربة.

الوجه الرابع: فيه دليل لمالك، رحمه الله، الذي يقول: إن التعريض بالشيء كالمنطوق به. يؤخذ ذلك من إخباره، عليه السلام، بهذا الحديث، لأن إخباره يدور بين أمرين:

إما أن يخبر به لغير فائدة - وأعوذ بالله أن يخطر ذلك على قلب أحد - ومن خطر ذلك بقلبه فليس بمؤمن، لأن الله، عز وجل، يقول: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾<sup>(٣)</sup>، وهذا عموم.

وإما أن يكون لفائدة، أو فوائد جملة، وهو الحق، فظهر ما أشرنا إليه من الفائدة قبل، وما فيه من الفوائد بعد، لأنه، عز وجل، قصّ علينا في كتابه العزيز القصص وقال: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِكَ بِفُؤَادِكَ﴾<sup>(٤)</sup>، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾<sup>(٥)</sup> الآية وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾<sup>(٦)</sup>. فكَذَلِكَ قَالَ فَقَهَاءُ الدِّينِ: إن القصص طلب منا مقتضاها بالضمن، والأمثال كذلك، ولذلك قال عز وجل: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾<sup>(٧)</sup>.

الوجه الخامس: فيه دليل على أن من أكبر القرب: الخَيْرُ المتعدّي. يؤخذ ذلك من حسن

(١) وخَفَّتِ عليهم: الضمير يعود على أهل المعرفة وليس على أهل الدنيا.

(٢) سورة البقرة، من الآية ٤٥.

(٣) سورة النجم، من الآية ٣.

(٤) سورة هود، من الآية ١٢٠.

(٥) سورة الحشر، من الآية ١٩.

(٦) سورة يوسف، من الآية ١٠٩.

(٧) سورة العنكبوت، من الآية ٤٣.

الجزاء على هذه الفعلة اليسيرة مع هذا الحيوان الذي قد أمرتنا الشريعة بقتله، فكيف بمن هو عاقل مكلف، وكيف بمن هو صالح منهم؟ وهذا إذا تتبعته يتعدد كثيراً، وعلى هذا فقس.

الوجه السادس: فيه دليل على التحضيض على جميع أعمال الخير، إذ لا يُدْرَى بِمَ تكون السعادة؟ إذ بهذا حصلت تلك السعادة، وهي دخول الجنة، فلا يضيع منها شيء.

الوجه السابع: فيه دليل على أن الإخلاص هو الموجب لكثرة الأجر. يؤخذ ذلك من شرح حال الحديث، لأن هذا الحال المذكور، وهو كونه: كان في البرية، وسقى هذا الكلب، ولم يكن هناك أحد يبصره، فكان خالصاً حقيقة. يزيد هذا بياناً قوله، ﷺ، في صدقة السر: (حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)<sup>(١)</sup>.

الوجه الثامن: فيه دليل على أن كمال الأجر يكون بكمال العمل. يؤخذ ذلك من قوله: (حتى أرواه). فلما أكمل له ربه أكمل الله له نعمته عليه، وهو دخوله الجنة، وقد قال، ﷺ: (الخير كله بحذافيه في الجنة)<sup>(٢)</sup>.

ويؤخذ منه تغليب فساد هذه الدار إذا كان في إصلاح تلك الدار. يؤخذ ذلك من غَرْف الرجل الماء بخفه، لأن الماء مما يفسد الخف، فلما كان في إصلاح الآخرة فهو صلاح.

ويؤخذ منه تعب الفاضل للمفضول، إذا احتاج المفضول إليه. يؤخذ ذلك من تعب الرجل في إسقاء الكلب عند حاجته إليه، وإحسان المولى على ذلك. وبنو آدم أفضل من غيرهم من الحيوان، ما عدا الملائكة. ففيهم خلاف.

الوجه التاسع: قوله، عليه السلام: (فشكر الله له). هل الشكر من الكلب لله، أو هل هو من الله لعبده؟ احتمل. فإذا قلنا: «إن الشكر يكون بالقول أو بالحال» احتمل، والقدرة صالحة. وإذا قلنا: «إن الشكر من الله لعبده» فما معناه؟ فيكون الشكر هنا بمعنى (القبول) فكأنه عليه السلام يقول: قَبِلَ الله عمله، فأثابه عليه بالجنة، واحتمل جميع الوجوه، فإن القدرة صالحة.

وقفنا الله لما فيه رضاه، بلا محنة، بمته.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) جزء من حديث أوله: سبعة يظلهم الله في ظله. رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لم نعرف مصدره.

## حديث النعاس في الصلاة

عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله، ﷺ، قال: إذا نَعَسَ أحدُكم، وهو يصلي، فليرقُدْ حتى يذهب عنه النوم. فإن أحدكم إذا صَلَّى، وهو ناعِس، لا يدري لعله يستغفرُ فيسبُّ نفسه.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على النهي عن الصلاة وهو نائم. والكلام عليه من وجوه:  
الوجه الأول: فيه دليل لمن يقول: إن للعالم أن يُعَلِّمَ، وإن لم يُسأل. يؤخِّدُ ذلك من قوله، ﷺ: (إذا نَعَسَ أحدكم) ابتداءً دون أن يسأل.

وهنا سؤال: هل هذا على عمومهِ، كان النوم يسيراً أو كثيراً؟ احتمال. لكن الظاهر الخصوص، وهو كثرة النوم، لأنه إذا كان كثيراً من حيث أن يختلط عليه ما يقول ولا يعرفه، كما أخبر في الحديث آخراً حين علله بالسب.

الوجه الثاني: فيه دليل على صحة أن الصلاة مجزية، لأنه إنما علل، ﷺ، خيفة أن يسب. الوجه الثالث: فيه دليل لمالك الذي يقول بسد الذريعة، لأنه قال (لعله يسب) <sup>(١)</sup> لأنه أمر محتمل، فترك الفعل للأمر المحتمل. وهنا سؤال وهو: ما معنى قوله (فيسب)؟ هل هو بمعنى (السب) المعهود لغة؟ أو هو بمعنى غيره؟

الظاهر أنه ليس بمعنى السب المعهود، لأن السب المعهود أن يقول الشخص لغيره أو لنفسه: يا فاعل كذا، أو يا من هو كذا، من أشياء رَدِيَّةٍ ينسبها إلى القول بها أو بفعلها. ولو كان كذلك فماذا يكون الخوف منه؟ فما يكون منه خوف: أن يكون متكلماً في صلاته. وإذا كان متكلماً

(١) كذا، ولفظ الحديث: ... لعله يستغفر فيسبُّ نفسه.

في صلاته بطلت عليه صلاته، وهو لا يشعر، فيظن أنه قد صلى، وليس كذلك، وبقيت ذمته متعمرة<sup>(١)</sup>.

ويترتب على هذا الوجه من الفقه أنه يؤخذ بفساد العمل، وإن لم يشعر، ويرد عليه من البحث قوله، رَبَّنَا: (إن الله تجاوز عن أمتي خطأها ونسيانها وما استكروها عليه)<sup>(٢)</sup>.

فالجواب عن ذلك أنه لا يكون في ذلك الخطأ - على طريق الغفلة والنسيان - مأثوماً<sup>(٣)</sup>، ولا يجزئه أيضاً الشيء المحتمل عما أمر به، لأنه مأمور بالتوفية، فلا يترك العمل حتى يعلم أنه قد وقى. ومهما لم يتحقق ذلك فهو مطلوب بالعمل، ولذلك قال علماؤنا، رضي الله عنهم: إن من خاف فوات وقت من أوقات الصلوات، وهو مثقل بنوم، يصلي، وهو يجاهد نفسه جهده، ثم ينام، فإذا استيقظ من نومه عَرَضَ صلاته كلها على قلبه من أولها إلى آخرها؛ فإن عقلها كلها ورآها حسنة أجزائه صلاته، وإن رأى فيها خللاً أو لم يُحَقِّق ركناً من أركانها أو شكَّ فيه أعادها، لأن الذمة لا تبرأ إلا بيقين.

واحتمل وجهاً آخر وهو: أن يكون (السب) هنا معنى (الدعاء على نفسه بسوء) فيكون الضرر أكثر من الأول، لأنه يجتمع فيه الوجه المتقدم ووجه ثانٍ، وهو أن تكون تلك الساعة مما يستجاب فيها الدعاء، فتكون تلك الدعوة سبب هلاكه، ولأجل ذلك نهى، عليه السلام، أن يدعو أحد على أهله أو ماله.

ويترتب على ذلك من الفقه وجوه منها: أن يكون الشخص يتحفظ على كلامه وجميع أفعاله لئلا تكون منه غفلة في شيء، فيكون ذلك سبب هلاكه، وهو لا يشعر. ولذلك قال، رَبَّنَا: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من الشر لا يبالي بها، يهوي بها في النار سبعين خريفاً)<sup>(٤)</sup>.

الوجه الرابع: فيه من الفقه أن القدرة لا تنحصر بشيء من الأشياء ولا بفعل. يؤخذ ذلك من أن الدعاء قد جاء أنه لا يقبل إلا بشروط، وفي هذه المواضع التي ذكرناها وغيرها مما أخبرت به الشريعة يستجاب بغير شرط<sup>(٥)</sup>، فسبحان من حكمته لا تتناهى.

(١) متعمرة: مشغولة ملأى بالواجب، عكس المتفرغة أو الفارغة بعد أداء الواجب.

(٢) رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي ذر، رضي الله عنه، والطبراني والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) مأثوماً: من أئمه أي جعل عليه الإثم. ومأثوم: اسم مفعول.

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) جاء في إحياء علوم الدين في باب آداب الدعاء وفضله:

آداب الدعاء عشرة:

الأول: أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة، وشهر رمضان، ويوم الجمعة، ووقت السحر من الليل. =

الوجه الخامس: فيه إشارة صوفية، وهو أن ترك الآداب في محل القرب من الجفاء . يؤخذ ذلك من قوله: (لعله يسب نفسه)<sup>(١)</sup> لأن الصلاة محل قرب، والسب في موضع القرب جفاء .

وهنا بحث: هل يشمل هذا كل سب، أو ليس؟

فالجواب: أنه ليس على العموم، لأن من السب ما يقرب في هذا الموضع وهو مثل قوله، ﷺ، لأبي بكر، رضي الله عنه، حين سأله أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته . فقال: (قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت)<sup>(٢)</sup> . الحديث . وهذا اللفظ مما ينطلق عليه اسم (سب)، لكنه لما فيه من معنى الاضطراب والفاقة إلى الكريم المتفضل، وطلب الرحمة من عنده بسبب عدم موجبتها من سوء أفعال العبودية، كان مدحاً .

ويرد علينا سؤال، وهو: أن الصحابة، رضي الله عنهم، كانت رؤوسهم تخفق من النوم، ثم يخرج رسول الله، ﷺ، فيصلون<sup>(٣)</sup> .

فالجواب أن من بعض فوائد الإقامة ذهاب النوم والغفلة وحضور القلب، لأنه إذا قال المقيم للصلاة: (الله أكبر) ثار جيش الإيمان، وتيقظ من الغفلات على اختلافها .

ويقول: (أشهد أن لا إله إلا الله) تنوّز القلب، وجاء العون .

(أشهد أن محمداً رسول الله) ثلج اليقين، وانتشرت الرحمة .

= الثاني: أن يغتنم الأحوال الشريفة كساعة زحف الصفوف في سبيل الله، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلوات المكتوبة، وعند السجود .

الثالث: أن يدعو مستقبلاً القبلة، ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه، ثم يمسح بهما وجهه، ولا يرفع بصره إلى السماء .

الرابع: أن يجعل صوته عند الدعاء بين المخافة والجهر .

الخامس: ألا يتكلف السجع، فإن الداعي ينبغي أن يكون حاله حال متضرع، والتكلف لا يناسبه . ويقتصر على المأثور من أدعية الرسول ﷺ المتوازنة .

السادس: أن يكون في حالة تضرع وخشوع ورغبة ورهبة .

السابع: أن يجزم الدعاء، ويعظم الرغبة، ويتيقن بالإجابة .

الثامن: أن يلح بالدعاء، ويكرره ثلاثاً، ولا يستبطئ الإجابة .

التاسع: أن يفتح الدعاء بذكر الله عز وجل، فلا يبدأ بالسؤال، ويشني بعد حمد الله بالصلاة على النبي ﷺ ثم يسأل حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ .

العاشر: أن يتوب إلى الله توبة نصوحاً، ويرد المظالم، ويقبل على الله بصدق وإخلاص .

(١) وكذا، ولفظ الحديث: لعله يستغفر فيسب نفسه .

(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي بكر الصديق وابن عمر بن الخطاب، رضي الله عنهم أجمعين .

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي من حديث شعبة عن قتادة عن أنس رضي الله عنه .

(حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ) قوي العزم.

(حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ) أحدثت الجد وحسن العبادة.

(الله أكبر) تكرر الإعظام، وجاءت الهيبة.

(لا إله إلا الله) استسلمت النفوس وراحت الأوهام، وتكامل جد الباطن بتكرر الهيبة

والإخلاص والظاهر بالإذعان والانقياد.

فإن بقي على كَمَالٍ تَحْلِيهِ، كما وصفنا، لم يعد النوم إليه، وإن أدركه ريح الغفلة جاءته عاهة النوم، فحَلَّتْ أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ عَقْدَةَ صَفْقَةِ الْقَرْبَةِ، وهي الصلاة، وأباحَتْ له النوم، وأنذرتَه بِأَدَاءِ مَا تَعَمَّرَتْ بِهِ الذِّمَّةُ إِلَى وَقْتِ التَّخْلِيفِ مِنْ عَاهَةِ النَّوْمِ بَعْدَ تَنْظِيفِ الْمَحَلِّ بِالطَّهَارَةِ التَّامَةِ. ولهذا قال: (في الصلاة)<sup>(١)</sup> ولم يقل: (قبل).

وهنا سؤال في قوله (حتى يذهب عنه النوم): وإن خرج عنه الوقت؟ أو معناه: ما لم يخرج الوقت؟ احتمال، لكن الأخذ بالأحوط أولى. وإن كان الاحتمالان على حدٍّ واحد، فينبغي أن يكون فيه تلك الأربعة وجوه<sup>(٢)</sup> التي يَتَّبِعُهَا الْعُلَمَاءُ. لكن الأمور من خارج تؤكد براءة الذمة، وهو الأحوط، مثل فعله، ﷺ، في الوادي<sup>(٣)</sup> وغيره.

الوجه السادس: فيه دليل على أن النائم لا يُسْقِطُ عَنْهُ النَّوْمُ التَّكْلِيفَ. يؤخذ ذلك من قوله: (فَلْيَرْقُذْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ). وهنا بحث: هل بنفس الاستيقاظ تجب عليه الصلاة على أي حالة كان من خِفَّةٍ أَوْ ثِقَلٍ؟

احتمل الوجهين معاً، إذ يكون معنى قوله، عليه السلام: (يذهب) معنى نفس الاستيقاظ، لأن عند التيقظ يَعْدَمُ ضِدُّهُ<sup>(٤)</sup>، أو يزيد ثِقَلًا، وإن استيقظ، لأنه إذا استيقظ - والعلة التي من أجلها

(١) كذا، ولفظ الحديث، إذا نعت أحدكم وهو يصلي...

(٢) لعله يقصد بالأربعة وجوه: هل تصلي (١) في الوقت (٢) أو بعده (٣) أو قضاء (٤) أو أداء؟.

(٣) روى البخاري في كتاب مواقيت الصلاة - باب الأذان بعد ذهاب الوقت عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال: سرنا مع النبي ﷺ ليلة، فقال بعض القوم: لو عَرَّسَتْ بنا يا رسول الله. قال: أخاف أن تناموا عن الصلاة. قال بلال: أنا أوقظكم. فاضطجعوا، وأسند بلال ظهره إلى راحلته، فغلبته عيناه فنام. فاستيقظ النبي ﷺ وقد طلع حاجب الشمس فقال: يا بلال، أين ما قلت؟ قال: ما أقيت عليَّ نومة مثلها قط. قال: إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردّها عليكم حين شاء. يا بلال، قم فأذن بالناس بالصلاة. فتوضأ. فلما ارتفعت الشمس وابتايت، قام فصلّي.

(٤) يريد بـ(الضد) النوم.

أبحنا له النوم باقية - فالشيء الذي خفنا منه باقٍ توقعه . والفقه يقتضي التفرقة بينهما، وذلك أننا أولاً قد أتت العادة، وهي النوم، وليس لنا شيء ندفعه به، فجاز لنا النوم، كما تقدم .

وإن احتمل الثقل أن يكون حقيقة كالأول، واحتمل أن يكون وهمياً، فينبغي أن يستعمل الدواء، وهو الوضوء، لأنه من مُذهبات النوم، ولذلك قال، ﷺ: (رَجِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَبْقَظَ أَهْلَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ الْمَاءَ فِي وَجْهِهَا. وَرَجِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَأَبْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ الْمَاءَ فِي وَجْهِهِ)<sup>(١)</sup>. فإن ذهب النوم حصل المقصود وأخذنا في أداء العبادة. وإن بقي الأمر على ما كان عليه من ثقل النوم نظرنا، فإن كان في الوقت سعةً راجعنا النوم امتثالاً للأمر، وإن كان الوقت ضيقاً فعلنا ما ذكرنا أولاً عن العلماء، وهو أن يصلي ويُجهد نفسه ثم ينام. فإذا استيقظ فَعَلَ ما تقدم ذكره، لأنه اجتمع لنا أمران: (أحدهما) إيقاع الصلاة في وقتها، والوقت قد انحتم، وثقل النوم وإباحة النوم لأجله، لكن يغلب أقل الضررين، فإن خروج الوقت مع الذكر والقدرة على الأداء يتعلّق عليه العقاب، والصلاة مع النوم متوقع الضرر معه، وهو السب - على أحد المحتملات - وقد لا يقع، والإقدام على المتوقع خير من المقطوع به.

فإن قال الخصم: قد جاء العذر من الوعيد الذي قلتم. قلنا: ليس الأمر كذلك، لأن الأمر إذا نُصَّ عليه لا يرتفع بالمحتمل، لأن الوعيد على إخراج الصلاة عن وقتها مع القدرة والإمكان قد ثبت، وقوله، ﷺ: (فَلْيَرْقُذْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ) احتمل أن يكون: وإن خرج الوقت، أو يكون: ما لم يخرج الوقت. فلما احتمل الوجهين فالأظهر أنه لا يسقط، والأصح ما تقدم ذكره من التقسيم. والله الموفق.

الوجه السابع: فيه دليل على جواز الاستغفار في الصلاة لقوله (يستغفر) لكن ليس على عمومته في جميع أركان الصلاة، ولكن في المواضع التي يجوز ذلك أتيين.

وهنا بحث: لم علّل بسبب نفسه ولم يذكر سبب غيره؟ فالجواب: أن النفس لا تقدّم في الغالب إلا نفسها، فإن كان يسبق السبب منها لغيرها فهو نادر، وإن وقع فيكون هنا غير مأثور في حق الغير، ويبقى ما هو فيه من بطلان العمل، كما ذكرنا أولاً بلا زيادة. ولما لم يكن السبب للغير فيه زيادة، بل هو أقل ضرراً، لأنه إن كان دعا - على أحد المحتملات - لم يعد عليه شيء، فجاء من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى.

الوجه الثامن: فيه دليل على ألا يخالط الطاعة مكروهه. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام:

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وصححه ابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .



(فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه). فترك الصلاة في الوقت لاحتمال أن يقع السب في حال النوم، وهو لم يقصد، فكيف أن لو كان مقصوداً؟  
ويترتب على ذلك من الفقه: كثرة التشديد على الحضور في الصلاة حالاً ومقالاً. يؤيد ذلك قوله، ﷺ: (إن الله لا يقبل صلاة امرئ حتى يكون قلبه مع جوارحه)<sup>(١)</sup>.  
وهنا بحث: وهو أنه طول نومه إذا لم يستيقظ يكون معذوراً غير مأثوم، وإن خرج الوقت. وبحث آخر: هل له أن ينام قبل الصلاة أو ليس؟

فالجواب عن ذلك لا يخلو إما أن يكون ذلك نهراً أو ليلاً.  
فإن كان نهراً فله ذلك بمقتضى السنة، وبما اعتاده الطبع. فأما من طريق السنة فما جاء في نوم القائلة، وهي قريب وقت الظهر، لقوله عليه السلام: (قلوا فإن الشياطين لا تقيل)<sup>(٢)</sup>. وأما من طريق ما جبلت عليه الطباع فإنها لا تكثر النوم بالنهار لأنه جعل لها للسعي، كما أنها لا تكثر السهر بالليل لأنه جعل لها سكناً، وما أحكمته حكمة الحكيم فلا يتبدل إلا لموجب، وذلك نادر، والناذر لا حكم له. وهو أيضاً مبني على أثر القدرة، وبه صحت الدلالة على القدرة، وهو أصل في الإيمان الذي ترتب عليه الأحكام.

وأما في الليل، مثل النوم بين العشاءين، فالذي أنقله عن العلماء الأجلة الذين لقيتهم، وهم أيضاً كذلك نقلوه، أن الذي يريد النوم بين العشاءين لحاجة له فلا يخلو أن يكون له من يوقظه لصلاة العشاء أو ليس. فإن كان له من يوقظه فله ذلك. وكذلك إن كان يعلم هو من نفسه أنه يستيقظ لذلك الوقت لعادة يعلمها من نفسه فله ذلك أيضاً. وإن كان يعلم من نفسه أنه لا يستيقظ إلا بعد خروج الوقت فليس له ذلك. وكذلك إن كان جاهلاً بعبادته، وليس في الحديث ما يدل على هذا، لكن لما كان الموضع يحتاج إليه ذكرناه.

وهنا بحث في قوله، عليه السلام: (فليرقد). هل يرقد في موضع مصلاه على حاله ولا يقطع صلاته، أو يقطع الصلاة ويرجع ينام حيث شاء؟ احتمل. لكن الظاهر أن ينام حيث هو على حاله. يؤخذ ذلك من خارج من قوله، ﷺ: (إذا نام العبد وهو في الصلاة يقول الحق، جلّ جلاله: يا ملائكتي، أما ترون عبدي، جسده نائم بالأرض، وروحه عندي؟)<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر بلفظ: لا يقبل الله صلاة امرئ لا يشهد فيها قلبه ما يشهد فيها بدنه. وعزاه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء لمحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلًا.

(٢) انظر: مجمع الزوائد ١١٢/٨ وكنز العمال ٧/٢١٤٧٧.

(٣) لم نعرف مصدره.

وبحث آخر: هل ذلك النوم ينقض الطهارة، أم لا؟<sup>(١)</sup> ليس في الحديث ما يدل على شيء من ذلك. لكن العلماء اختلفوا في النوم في الصلاة اختلافاً كثيراً على حسب هيئته، فمنهم من قال: إن النوم في الصلاة لا ينقض الطهارة، واحتجوا بما جاء أن سيدنا محمداً ﷺ، نام وهو ساجد، حتى علم منه النوم حقيقة، فقبل له: نِمْتَ. فقال: (لا نوم في الصلاة)<sup>(٢)</sup>. والجمهور يجعلون ذلك - إن صح الحديث - من الخاص به، عليه السلام، لأنه، ﷺ، كانت تنام عيناه<sup>(٣)</sup> ولا ينام قلبه.

الوجه التاسع: فيه إشارة إلى التيقظ والحزم. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام: (إذا نَعَسَ أحدكم) لأنه أمر عند ظهور المبادئ، وهو النعاس الذي آخره النوم الثقيل الذي لا يعرف معه ما يقول، أو يترك العمل، وهو طاعة، خيفة الخلل، فما بالك بغيره؟ ولذلك قال، عليه السلام: (المؤمن كَيِّسٌ حَذِيرٌ فَطِنٌ)<sup>(٤)</sup>.

وكذلك كان بعض أهل الصوفة إذا رأى أدنى غبار في خلق عياله أو دابته أو عادته أسرع إلى التوبة والطاعة، وفتش على خبايا نفسه حتى يجد الغفلة التي وقعت منه، فيزيلها، فيستقيم حاله. ومنها قصة الشيخ الذي لم يكن يتكلم في أمور الدنيا حتى خطر له يوماً فيها خاطر، فإذا بجندي بالباب يستأذن، فأذن له، فدخل وجلس بإزائه يحدثه في أمور الدنيا. فتعجب الشيخ من

#### (١) في ذلك ثمانية مذاهب:

- ١- ينقض الوضوء بكل حال، لحديث علي رضي الله عنه: (من نام فليتوضأ) وهو مذهب آل البيت والحسن البصري.
- ٢- لا ينقض الوضوء بكل حال، لحديث أنس رضي الله عنه: (كان أصحاب الرسول ﷺ تخفق رؤوسهم ينتظرون العشاء الآخر، ثم يصلون ولا يتوضأون).
- ٣- لا ينقض الوضوء إذا كان على هيئة المصلي، لحديث: (إذا نام العبد في سجوده باهى الله به الملائكة) وهو مذهب أبي حنيفة.
- ٤- لا ينقض الوضوء إذا كان متمكناً في مقعده، لحديث (العين وكاء السَّهِّ (الدبر)، فمن نام فليتوضأ) وهو مذهب علماء الحديث ومذهب الشافعي.
- ٥- لا ينقض الوضوء إلا إذا سقط الجنب على الأرض، لحديث حذيفة: (نمت فأخذني ﷺ من ورائي (احتضنه) فالتفت فإذا أنا برسول الله ﷺ. فقلت: هل عليّ الوضوء؟ فقال: لا، حتى تضع جنبك).
- ٦- لا ينقض الوضوء إلا نوم الراكع والساجد (لأنه مظنة الانتقاض)، وهو مذهب أحمد.
- ٧- لا ينقض الوضوء إلا نوم الساجد (لأنه مظنة النقض أكثر)، وهو رواية في مذهب أحمد.
- ٨- لا ينقض الوضوء في الصلاة، بل خارجها، وهو مذهب زيد بن علي (من نيل الأوطار للشوكاني ١/ ١٩٠ و١٩١).

(٢) لم نعرف مصدره.

(٣) رواه البخاري والنسائي عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٤) رواه القضاعي عن أنس رضي الله عنه.

ذلك . فرجع إلى نفسه لينظر من حيث أتى . فإذا هو قد ألهم للخاطر الذي مرّ به في شأن الدنيا . فقال : من هنا أتيتُ . فاستغفر من ذلك وتاب . وإذا بالجندي قد قام من حينه وخرج .

ويؤيد ذلك قوله ، جلّ جلاله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾<sup>(١)</sup> . هذا في نوم العادة ، وأما نوم أهل الدنيا فلا تكون اليقظة منه إلا عند الموت ، لقوله ، عليه السلام : (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)<sup>(٢)</sup> ، لأنهم رأوا الحق وعابنوا الحقائق . فنوم أهل الدنيا جهل وغلبة شهوة وغفلة إلا من علّمه الله وأيقظه ، وهم أهل الجَدّ والتشمير والصدق والتصديق ، كما قال أبو بكر رضي الله عنه : لو كُشِفَ الْغَطَاءُ مَا أَزْدَدْتُ يَقِينًا ، وكذلك جميع التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

جعلنا الله منهم بلا محنة بحرمتهم عنده .

الوجه العاشر : قوله ، عليه السلام : ( فليرقد حتى يذهب عنه النوم ) إشارة إلى امثال الحكمة ، لأن الحكمة مضت أن النوم لا يذهب بالسكون حتى يصل وقته الذي قدر له ، فيذهب وحده ، كما جاء وحده . وفي النوم وذهابه إظهار القدرة الجليلة ، بينما المرء مجموعُ الذهن والقوى إذ أنه النوم بغتة وهو لا يشعر . وقد يكون بعض الأوقات لا يعجبه ذلك لمنفعة أو أرب يريد تحصيلها فيمنعه منها .

الوجه الحادي عشر : فيه دليل على عجز المخلوق وافتقاره ، بينما هو بحرصه وزعمه في تحصيل مآربه إذ أنه ما لا يقدر على دفعه . ويترك الحرص والحذر والتحصن ويستسلم بغير اختياره ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾<sup>(٣)</sup> والنوم والنسيان شاهدان على نقص المحدث وافتقاره ، ولذلك قال العلماء في قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾<sup>(٤)</sup> قالوا : أحسنَ خلقه ، ثم أرسل عليه النوم والنسيان ، فإذا استيقظ رجع لحرصه كأنه ما زال . فلا يزال الأمر يتكرر عليه على مرور الليالي والأيام وهو مقيم على دعواه كأن لم يقعد ولا نام ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾<sup>(٥)</sup> طَبَّقَتِ الْغَفْلَةُ بَلْ رَانَ عَلَى الْقَلْبِ حَتَّى رَجَعَ بَصَرٌ بِصِيرَتِهِ خَفَاءً ، لا يرى شمس هذه الآي .

ومن هنا فضل أهل الصوفة غيرهم ؛ لأنهم لما رَأَوْا تلك الأحوال ، وهي حال موت النوم ، وإن كانوا هم أقلّ الناس نومًا ، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ، فالزموا أنفسهم في حال اليقظة

(١) سورة الرعد ، من الآية ١١ .

(٢) من كلام سيدنا علي كرم الله وجهه .

(٣) سورة الأنبياء ، من الآية ٤٢ .

(٤) سورة التين ، الآيتان ٤ و ٥ .

(٥) سورة الذاريات ، الآية ٢١ .

الاستسلام، وهو حالهم في النوم، فذلك منهم يقظة، لأنهم حكموا باستصحاب الحال. وذلك مقال أهل العلم، وهم كانوا أولى به. لكن لما كانت دواعي شهواتهم حثيثة الطلب، تفقهوا في المقال وشغلتهم تلك الحلاوة في المقال عن فهم الحال. وهل حُسْنُ المقال مع قبح الحال إلا بهرجة يندم صاحبها عند محك الانتقاد؟

الوجه الثاني عشر: فيه دليل على عظم لطف المولى بجميع العبيد، بَرّاً أو فاجراً، مكلفاً أو غيره، لأن النوم راحة للأبدان. فلو تَرَكَ النوم لاحتياجهم لكان بعضُ أهل الحرص لا يختارون النوم، فيكون في ذلك هلاكهم. فكان المولى، سبحانه، هو الذي أرسل ذلك بنفسه، لا بواسطة مَلَكٍ مقرب ولا غيره حيث قال في كتابه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَا لَكُمْ بِالَيْلِ وَتَعَلَّمْ مَا جَرَاحُكُمْ بِالنَّهَارِ﴾<sup>(١)</sup>.

الوجه الثالث عشر: فيه دليل على استغناء الله، تعالى، عن عبادة العباد، وتنزيهه أن تضربه معصية عاصي، لأنه لو كان شيء من ذلك ما كان يرسل الراحة على عبده المخالف له بنفسه الجليلة، وهو يُنَضَّرُ بها، ولا كان يدخل التعطيل على العامل وهو يتنفع بعمله. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فسبحانه ما أرحمه بعباده وأغناه عنهم!

خاتمة وعظيمة: كم أنادي إلى الهدى مَنْ لا يفهم، وأعْظُ أُطْرُوشَ العقل وهو بالهوى مُغْرَم! فإدمان الهوى على الضعف للجسم إسقام. فخلَصْ سَقَمَ بَدَنِ دِينِكَ النحيف بنقوع التوبة النصوح، فتركيب الأسقام في البدن النحيف سل<sup>(٢)</sup>، وهو يوجب الهلاك لك.

ويلك ما لك؟ أيقظان أنت أم نائم؟

أيقظنا الله وإياك من سِنَةِ الغفلة، وأحيا قلوبنا بنسيم المحبة، وشدَّ ضعفَ حواسِ أدياننا بأمرِاق الطاعة، فهو المتفضل المَنَّان. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) سورة الأنعام، من الآية ٦٠.

(٢) السل: مرض معروف.

## حديث فصل المنى من الثوب

عن عائشة، رضي الله عنها، أنها كانت تغسل المني من ثوب النبي ﷺ، ثم أراه فيه بقعة أو بقعاً<sup>(١)</sup>. وفي رواية أخرى: بقعاً بقعاً.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على غسل المني. والكلام عليه وجوه:

الوجه الأول: أن غسله يدل على نجاسته، وهو مذهب مالك رضي الله عنه، ومن تبعه. وهل نجاسته من نفسه أو بالمجاورة؟ بحث آخر هو في كتب الفقه.

الوجه الثاني: فيه دليل على جواز النياة في الفروض التي ليست في الأبدان. يؤخذ ذلك من قولها: (كنت أغسل المني).

الوجه الثالث: فيه دليل على جواز ذكر ما يُخجل ذكره، إذا دعت الضرورة إليه. يؤخذ ذلك من ذكرها المني، لأنه مما يخجل ذكره، لأنه يدل على ما قد جاء الكتاب والسنة بالكناية عنه. أما الكتاب فقوله، تعالى: ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾<sup>(٢)</sup>. ومن السنة قوله، عليه السلام: (حتى تذوق عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتِكَ)<sup>(٣)</sup>. لكن من أجل تقرير الأحكام ذكرته، ولذلك قال، ﷺ:

(١) للحديث هذا روايات عدة وكلها عن سليمان بن يسار عن عائشة. ففي رواية قالت: كنت أغسل الجنابة من ثوب النبي ﷺ إلخ. وفي رواية: سألت عائشة عن المني يصيب الثوب، فقالت: كنت أغسله من ثوب النبي ﷺ ثم يخرج إلى الصلاة. إلى آخر الحديث. وفي رواية أنها كانت تغسل المني إلخ. وهي التي اختارها الشارح. ويعلق ابن حجر على الرواية الأخيرة فيقول: قوله (أنها كانت) يحتمل أن يكون مذكوراً بالمعنى من لفظها، أي قالت: كنت أغسل، ليشاكل قولها: (ثم أراه)، أو حذف لفظ (قالت) قبل قولها: (ثم أراه).

(٢) سورة البقرة، من الآية ١٨٧.

(٣) رواه الإمام مالك والإمام أحمد والبخاري ومسلم والدارمي وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(نَعَمْ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ، لَمْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ)<sup>(١)</sup>.

الوجه الرابع: فيه دليل على التيسير في أمر النجاسات، وإنما نحن مكلفون بما رأينا، ولا نتوغل على النفس بالمحتملات، لأنها لم تغسل إلا المني الذي رأت، ومحتمل (أن ضرب)<sup>(٢)</sup> في موضع آخر من الثوب نفسه أو غيره.

يزيد ذلك إيضاحاً قوله، عليه السلام: (النَّضْحُ طَهُورٌ لَا شَكَّ فِيهِ)<sup>(٣)</sup>، لأن فائدة النَّضْح ما هي إلا إزوال ذلك الأثر الذي يَجِيك في النفس، أو اغتفار النجاسة التي ليست بمتحققة، أو لهما معاً، لأنه إن كانت النجاسة وصلت للثوب فليس الرش بالماء يزيل عَيْنَهَا، وإن كانت لم تصل فليس الماء يَزِيد في طهارة الثوب شيئاً.

الوجه الخامس: فيه دليل على رفع حكم النجاسة، وإن بقي لونها، إذا غسلت بالماء وذهب عيناها. يؤخذ ذلك من قولها: (ثم أراه بُقْعاً بُقْعاً).

الوجه السادس: فيه دليل على أن المؤمن، في حال حَدَثِ الْجَمَاعِ في البيضة أو في النوم، طاهر العين<sup>(٤)</sup> وثوبه طاهر، يجوز له الصلاة فيه ما لم يَر فيه شيئاً، فإن رأى غَسَلَ. يؤخذ ذلك من قولها: (مِنْ ثَوْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ). ولا يصيب الثوب المني إلا بأحد وجهين، إما بجماع وإما باحتلام. وإنما الطَّهُورُ<sup>(٥)</sup> على الجنب تعبد. وذلك مذهب أهل السنة.

الوجه السابع: فيه دليل على جواز خدمة المرأة زوجها، إذا رضيت ذلك، وإن كانت ذات بال<sup>(٦)</sup>. يؤخذ ذلك من قولها: (كنت أغسل). فإن الغسل من جملة الخدمة. وأي رفعة مثل رفعة هذه السيِّدة؟

وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا.

- 
- (١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه موقوفاً عن عائشة رضي الله عنها.  
(٢) ضرب: بمعنى انتشر، ومنه: ضرب في الأرض: انطلق مسافراً (وضمير الشأن اسم أن المخففة).  
(٣) مروى بالمعنى.. وأصله رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم عن الحكم بن سفيان رضي الله عنه.  
(٤) العَيْن: ذات الشيء وكنهه. وللکلمة معانٍ أخرى كثيرة.  
(٥) الطَّهُور: الماء الطاهر الذي يَتَطَهَّر به.  
(٦) ذات بال: ذات شأن. وأمر ذو بال: أي شريف يُحْتَفَل له ويُهْتَم به.

## حديث غسل دم الحيض

عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كانت إحدانا تحيض، ثم تَقْرُصُ الدَّمَ مِنْ نَوْبِهَا عند طُهرِها، فتَغْسِلُهُ، وتَنْضَحُ على سائِرِهِ، ثم تُصَلِّي فيه.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على غسل دم الحيض، والصلاة في الثوب الذي حاضت فيه. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قولها: (كانت إحدانا تحيض) ولم تخبر عن نفسها. فما وجه ذلك؟ فالجواب: أن الإخبار عن الجميع يقتضي تقرير الحكم، وهو على الكل على حد سواء. فلو أخبرت عن نفسها لاحتمل الأمر أن يكون ذلك خاصاً بها، أو يكون لعذرٍ ما، فأنت بالوجه الذي لا يحتمل التأويل.

الوجه الثاني: يؤخذ منه من الفقه أن الإخبار عن الأشياء يجب أن يكون بأبَيِّن الوجوه. ويؤخذ منه جواز الإفصاح بالمستقَدَّرات، وإن كانت السنة قد جاءت بالكناية عنها. لكن من أجل تقرير الأحكام، كما تقدم في الحديث قبل، لا يمكن إلا الإفصاح بها. يؤخذ ذلك من ذكرها الحيض، وإضافته لهن، رضي الله عنهن.

الوجه الثالث: يؤخذ منه أن زوال النجاسة لا يتعين إلا عند العبادة. يؤخذ ذلك من قولها: (إنها لم تكن تغسل الدَّم إلا عند الطُّهر). ويؤخذ منه أن دم الحيض كغيره من الدماء سواء. وهو حجة على من يقول: إنه أشد من غيره من الدماء. يؤخذ ذلك من غسلها له ليس إلا، كغسل المني، قبله، وغيره من النجاسات.

الوجه الرابع: قولها: (ثم تَقْرُصُ الدَّم) فلأنه أيسرُ في زواله، وهذا معلوم حساً، لأن النجاسة إذا كان لها جِرم فحَكُّها أولاً، ثم غسلها كان أسهل، لأنه إذا صبَّ عليها ماء، ولم تَقْرُصْ، كان أكثر في الانتشار لها في الثوب، ويترتب عليه من الفقه وجوه منها: أن الأحسن - بل السنة - في غسل النجاسة التي لها عين قائمة فركها قبل غسلها.

الوجه الخامس: يؤخذ منه أن السنة في الأمور أن يؤخذ الأيسر منها، لأن هذا الوجه لما كان الأيسر في زوال النجاسة فَعَلَتْه، وأخبرت به، لكي يُقْتَدَى بذلك في هذا وفي كل الأمور. ويؤيد ذلك في حديث غير هذا قولها فيه: «ما خَيْرُ رسول الله، ﷺ، بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً. فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه»<sup>(١)</sup>.

الوجه السادس: فيه دليل على نضح ماشك فيه. يؤخذ ذلك من قولها: (وتنضح على سائره)<sup>(٢)</sup>.

وهنا بحث: لم قالت في (الحیضة) بالنضح ولم تذكر ذلك في (المني)؟  
فالجواب عن ذلك: لما كان زمن المني يسيراً عُفِيَ عنه، ولما كان زمان الحيض كثيراً جعل فيه النضح، ولأنه أيضاً يدل على العفو، كما تقدم البحث في الحديث قبله، وإن كان يعطي بغلبة الظن أن طول الايام مع استصحاب حال الحيضة والنجاسة ظاهرة في الثوب حتى تيبس، لأنه لا يمكن fark في الدم إلا مع يسه، فقد يضرب<sup>(٣)</sup> في موضع آخر قبل يُسِّه.

ولوجه آخر: لأن أول الحيض دم خاتر<sup>(٤)</sup>، وآخره صفرة وكدره، كما جاء في «الموطأ». والصفرة والكدره لا يتعلق منهما شيء يقتضي fark. فدل بذلك أن الدم بقي في الثوب من أول الحيض، أو من أثنائه، أو من مجموعهما حتى إلى وقت الطهر<sup>(٥)</sup>، ويغلب على الظن إصابته. أعني: أن موضع الدم يضرب في البدن وقد يكون البدن عرقاناً<sup>(٦)</sup>، فيتعلق به شيء منه، ثم يُمسح في موضع ثانٍ من الثوب، أو يضرب موضع الدم في غيره من الثوب نفسه، لكن لما لم يكن مَرْتَباً تُجَوِّزُ<sup>(٧)</sup> عَنَّا في ذلك.

وهل هذا في كل ثوب، كان أبيض أو مصبوغاً؟ الحديث ظاهره العموم.  
ويؤخذ منه جواز ترك النجاسة في الثوب في غير وقت العبادات، وأن ذلك ليس بممنوع.  
وهل ذلك - أعني بقاءها في زمانٍ غير زمان العبادات - على الإطلاق، أو ليس؟ وأعني بالإطلاق: كانت النجاسة مما تنفك عن الشخص أوليست مما تنفك عنه، كدم الحيضة، لأن التي ليست تنفك لو كلفنا بزوالها لكان فيه مشقة؟

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) سائره: باقيه.

(٣) يضرب في موضع آخر: يصيب موضعاً آخر، أو يذهب إليه.

(٤) خاتر: غليظ ثخين.

(٥) كذا بزيادة إلى.

(٦) كذا بالتنوين. والقياس أنه ممنوع من الصرف. وعرقان: فيه عرق كثير. والعرق: رشح الجلد.

(٧) أي: تُجَوِّزُ وعُفِيَ.



فالجواب - والله أعلم - أن الجواز على حدٍّ واحدٍ، بدليل قولها في حديث آخر عن غسل المني: (أنها كانت تفركه) ولا يكون الفرك إلا مع اليُسْرِ، فلو لم يكن ذلك جائزاً لما كان يقع ذلك من رسول الله، ﷺ، وإلا كانت هي تعلل هنا تأخير الغسل، لأن هذا موضع تقرير الحكم. (ص ١٠٠)

الوجه السابع: فيه دليل على أن الصلاة لا تصح من الحائض إلا بعد رفع الدم وزوال النجاسة والطهر بالماء. يؤخذ ذلك من وصفها لهذه الأحوال، وحينئذ تصلي.

وهل هذا على الوجوب أو الندب؟ أما الطهور فواجب، إذا أمكن، وإلا بدله. وأما رفع الدم فواجب بالنص والإجماع. وأما زوال النجاسة فمختلف فيه، هل هو فرض أو سنة، مع إمكان زوالها؟

ويدل أيضاً على سقوطها - أعني الصلاة - عن الحائض، لأن وجوب الشيء يستلزم سقوط ضده. ويقوي ذلك النص والإجماع.

وهنا سؤال: لم قالت (ثوبها) ولم تقل (درعها) أو غير ذلك من أسماء الثياب؟ فالجواب: أن الإخبار بالأعم أفصح وأبين في الحكم، لأنها لو قالت اسم ثوب من الثياب كنا نلحق باقي الثياب به بالقياس. والذين لا يقولون بالقياس يقصرون الحكم على الذي نطقت به ليس إلا، كما هي عادتهم في جميع الأحكام؛ يقصرون الحكم على المنطوق به ليس إلا. فلما كانت الفائدة في العام الذي يجمع أنواع الثياب أتت به عاماً.

ويترتب عليه من الفقه: أن على المخبر بشيء يتعلق به حكم أن يخبر بأعم ما يكون في ذلك، وإن كان مع الاختصار فحسن.

الوجه الثامن: يؤخذ منه أيضاً أن بدَن الحائض وعَرَفَها طاهر، لأن البدَن بالضرورة لا بدَّ له مع طول الأيام من العرق، فلو كان غير طاهر لغسلت الثوب ولم تنضحه.

وقولها: (تنضح على سائره). هل (على) هنا على بابها، أو هي زائدة؟ الظاهر أنها على بابها وليست بزائدة؛ لأنها إذا كانت على بابها فهي إشارة إلى تعليم كيفية الفعل في النضح، وإذا كانت زائدة فلا فائدة فيها. فحيث رأينا الزيادة علمنا أن ذلك هو المقصود ممَّن هو أقل منها، فكيف من تلك السيدة؟ لأن صفة النضح الذي جعل طهور الماء شرطاً فيه هو أن يبل الشخص يده بالماء ويرش على الثوب، ولا يلصق يده بالثوب، ولذلك قالت (على). وهذا الوجه هو المختار فيه لا غير.

وبعض الناس يبل يده ويلصقها بالثوب، وحينئذ يجرها على الثوب، أو يأخذ الماء ويسكبه على الثوب. وقد قال علماؤنا: إن من خالف الصفة الأولى - التي ذكرنا - فإن ذلك النضح لا

يُجزّئُه، وأن حكمه حكم مَنْ صَلَّى بالنجاسة. فمن قال في إزالتها: إنها فرض، يعيد أبدأً. ومن قال: إنها سُنّة يعيد في الوقت، لأنه من خالف ما أمر به لا يجزّئُه غيره.

الوجه التاسع: فيه دليل على أن حكم النضح حيث أُمر به كحكم الغسل حيث أُمر به. يؤخذ ذلك من قولها: (وتنضح على سائرهِ) فشَرِكت<sup>(١)</sup> الحكمَ بين الغسل والنضح، وحيثُ قالت: (ثم تصلي) فأتت بـ(ثم) التي للتحويل من حال إلى حال، فلم تشرع في الصلاة إلا بعد الفراغ من النضح والغسل، وفيه تقوية لما ذكرناه من قول علمائنا، رضي الله عنهم، والله الموفق.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

---

(١) شرکه: شارکه. من باب: علم.

## حديث كيفية الاغتسال من الحيض

عن عائشة، رضي الله عنها، أن امرأة من الأنصار قالت للنبي ﷺ: يا رسول الله، كيف أغتسل من الحيض؟ قال: خُذِي فِرْصَةً مُمَسَّكَةً<sup>(١)</sup> فتوضّئي بها ثلاثاً. ثم إن النبي ﷺ، استحيا، فأعرض بوجهه. أو قال: توضّئي بها. فأخذتها، فجذبتها، فأخبرتها بما يريد النبي ﷺ.

\* \* \*

ظاهر الحديث أن دم الحيض له رائحة لا يذهبها الماء وحده. والكلام عليه من وجوه:  
الوجه الأول: هل قصدت بقولها الطهور الشرعيّ أو اللغويّ؟ احتمل سؤال السائلة الوجهين معاً. والظاهر أنها لم تسأل عن كيفية الطهور، وإنما احتمل سؤالها معنيين.  
(أحدهما): عن كيفية الطهر، هل ما تعلم منه هو المُجْزِئ، وهو الكمال فيه؟ أم ذلك هو المجزئ، وبقي عليها شيء إن فعلته كان زيادة كمال فيه؟  
(والوجه الآخر) أن تسأل عن الطهر اللغوي، هل هو في ذلك المحل كغيره، أو يختص ذلك المحل بزيادة أخرى؟

هذا هو الظاهر من المعنيين. يؤخذ ذلك من جواب النبي ﷺ، بقوله: (خُذِي فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فتوضّئي بها ثلاثاً) لأن الفِرْصَةَ قطعة ثوب، وممسكة: مطيئة، وليس هذا صفة الطهور بالماء، لا الشرعي، ولا اللغوي. فبهذا عَلِمْنَا أن النبي ﷺ، فهم عنها خلاف ظاهر اللفظ بقرينة الحال. وقرينة الحال - بالإجماع - إذا تحققت أخرجت اللفظ عن ظاهره إلى ما دلّت عليه القرينة. ولذلك قال مالك، رحمه الله: بالمعاني استُعِيدْنَا لا بالألفاظ. وهذا النوع كثير في الكتاب والسنة.

(١) الفِرْصَةُ: القطعة من الثوب أو القماش. والممسكة: المطيئة بالمسك. توضّئي: - هنا - تنظّفي.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام: (فتوضئي بها ثلاثاً). أي، تنظفي. مأخوذ من الوضوء، وهو الحُسن. فيكون ظاهر الحديث أن السنّة للحائض إذا طهرت وتطهرت أن تُطَيَّب ذلك المحلّ الذي هو موضع الأذى.

وهنا بحث: هل هذا على الوجوب، أو الندب؟ وهل هذا مطلق لمن لها زوج، أو لا زوج لها؟ وهل هذا لعلّة أو ليس لعلّة؟ وهل هذا مع الإمكان وغيره، أو مع الإمكان ليس إلّا؟  
فالجواب: أما على الوجوب فلا أعلم أحداً قال به، وليس هنا أيضاً قرينة تدل عليه، فلم يبق إلا أن يكون ندباً.

وأما هل يكون ذلك مطلقاً أو لا؟ فإن قلنا: إنه تعبد غير معقول المعنى فيكون مطلقاً. وإن قلنا: إنه معقول المعنى، فما تلك العلة؟

قيل: إنما ذلك من أجل الزوج، لأن دم الحيض نَتْن، ويبقى الأيام المتوالية على ذلك المحل، فيكتسب منه رائحة، فربما يتأذى منها الزوج، فتكون تلك الكراهية التي يجدها سبباً للفرقة، وهو، ﷺ، بالمؤمنين رؤوف رحيم.

وقيل: إن المحل يلحقه من الدم رِخو<sup>(١)</sup>، وإن الطيب يصلح ذلك منه، وفيه أقاويل تشبه هذا. فعلى هذا يكون لذات الزوج مندوباً.

ويبقى الكلام لغير ذات الزوج، يكون فيه أقاويل، على ما يظهر، والله أعلم إن كان ذلك مما يحرك عندها شهوة الجماع فلا تفعل، وإن كان ذلك مما لا يحرك عندها من ذلك شيئاً فحسن أن تفعل، لأن الطيب من السنّة، لا سيما لمنفعة تلحق، كما قدمناه على أحد الوجوه.

وأما مع الإمكان أو عدمه فلا تكلف في الفرائض إلا قدر إمكانها، فكيف في المندوبات؟  
وقوله: (فِرْصَة) فلأن ذلك المحل لا يمكن تطييبه باليد، وإن فُعِلَ فلا تكون له فائدة، والفائدة - كما ذكرنا - هي رفع الأذى عن ذلك المحل.

وقوله: (ثلاثاً) مبالغة في التطيب.

وقولها: (ثم إن النبي، ﷺ، استحيا) هذا دالّ على حسن خلقه، عليه السلام.

الوجه الثالث: فيه دليل على أن الأمور التي لا يمكن معرفة الحكم فيها إلا بذكرها على ما هي عليه - وإن كان ذكرها يخجل أو يكره - فلا بد منه من أجل الضرورة.

(١) رِخْو: من رَخَا يَرِخُو أو من رَخِيَ يَرِخَى بمعنى: اتَّسَعَ. يقال: عِش رِخْو. ويطلق على كل هَشٍّ لَيْنٍ من كل شيء.

الوجه الرابع: يؤخذ منه أن الاستحياء يُعلّم بالإعراض بالوجه، يؤخذ ذلك من فعله، ﷺ. وفيه من الفقه أنه إذا فُعل ذلك عرفه منه الراي، فتركه من ذلك الأمر.

الوجه الخامس: فيه دليل على أن الحياء لا يظهر إلا بعد القدر المجزئ من الحكم. يؤخذ ذلك من أنه، ﷺ، لم يفعل ذلك إلا بعد فراغه من الكلام بتقرير الحكم، ولذلك أتت بـ(ثم).

الوجه السادس: فيه من الفقه أنه إذا كان الإعراض عند الكلام بإلقاء الحكم يحصل للسائل من ذلك تشويش، فقد لا يفهم ما قيل له، فتذهب الفائدة. فحين أعرض بوجهه أو قال (توضني بها) لأنه، ﷺ، فُهِمَ عنها أنها لم تفهمه، فأتى بقرينة تنبئ أن هذا الوضوء المذكور هو في المحل الذي إذا ذُكر كان فيه حياء، ليعبر بالحال عن المقال. وقولها: (فأخذتها، فجذبتها، فأخبرتها بما يريد النبي، ﷺ) ففهمت تلك السيدة رضي الله عنها، قَبْلَ السائلة، فحينئذ أخبرتها.

الوجه السابع: يؤخذ منه تعليم المفضول بين يدي الفاضل لكن بعد ما يلقي الفاضل الحكم، فيكون ذلك من باب الخدمة له، لا سيما في أمر يكون الفاضل يخجل منه والمفضول ليس ذلك مما يخجله؛ لأن تحدث النساء فيما بينهن لا يقع منه خجل، كما يقع من حديث الرجال معهن، لا سيما في هذا المحل الخاص.

الوجه الثامن: فيه دليل على حمل العذر لمن لا يفهم، والسنة أن يُرفَقَ به في التعليم. يؤخذ ذلك من أن النبي، ﷺ، لَمَّا لم تفهم عنه السائلة، وجاوبتها عائشة، رضي الله عنها، أقر ذلك، ولم يقل فيه شيئاً. ولو لم يكن كذلك لقال ما فيه من الحكم. يزيد ذلك إيضاحاً قوله، عليه السلام: (عَلِّمُوا وَارْفُقُوا)<sup>(١)</sup>. وهو الرفق والإعذار.

ويؤخذ منه جواز الحكم بالإشارة إذا فُهِمَ المعنى. يؤخذ ذلك من قولها: (فأخبرتها بما يريد رسول الله ﷺ) ولم تذكره.

الوجه التاسع: فيه دليل على أن من الشرع أن يوصل بالفعل دون القول إلى ما يريد القائل إذا أمكن ذلك. يؤخذ ذلك من قولها: (أخذتها، فجذبتها) لأن أخذها قام مقام النهي ألا تراجع في ذلك الأمر رسول الله، ﷺ، أكثر مما تقدم، وأقرها النبي، ﷺ، على ذلك، وليس فيه منقصة لا للفاعل ولا للمفعول به.

الوجه العاشر: فيه دليل على جواز القبول من المفضول بحضرة الفاضل. يؤخذ ذلك من بيان عائشة، رضي الله عنها، ما بَيَّنَّتْهُ لها، ولم تراجع النبي، ﷺ، وأجاز ذلك هو، عليه السلام.

(١) لعله مروى بالمعنى لحديث (عَلِّمُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تَعْسِرُوا، وَلَا تَفْرُوا. فإذا غضب أحدكم فليسكت) رواه الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الوجه الحادي عشر: فيه دليل على أن المرء مطلوب منه ستر عيوبه، وإن كانت مما جبل عليها. يؤخذ ذلك من أمره، ﷺ، للسائلة أن تُذهب أثر تلك الرائحة التي هي مما جُبِلَتْ عليه، وتُسْتَرُّها بالطيب. لكن الفقه فيه ألا يكون السُّتر إلا بما تجيزه الشريعة تحرزاً من أن يكون بتدليس أو كذب أو محزَم، فذلك ممنوع. ويقوي ما قلناه قوله، عليه السلام، للسائل حين أوصاه: (إذا غضبت فاسكت)<sup>(١)</sup>، لأن الغضب شَيْن، والسكوت له سِتر، وذلك في الشرع إذا تَبَعَتْه كثير.

ولذلك اتخذ أهل الصوفة التحلي بعدم الانتصار لأنفسهم، لأن حظوظ النفس شَيْن في العقلاء، فستروها بالعزم على عدم الانتصار لها، حتى إنه ذكر عن بعضهم أن شخصاً سَبَّه فأعرض عنه، فقال له: أنت<sup>(٢)</sup> أعني. قال له السيد: عنك أُعْرِض. ومثل هذا عنهم كثير. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد / ١٢٣ و ٢٤٥ / والزيدي في إتحاف السادة المتقين ٢٣ / ٨، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ٣ / ١٧٠ والطبراني في المعجم الكبير ١١ / ٣٣.

(٢) كذا، والصواب: إياك أعني.

## حديث خلق الجنين في بطن أمه

عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: إن الله تعالى وكَّلَ بالرحم ملكاً يقول: يا ربُّ نُطفةٌ. يا ربُّ علقَةٌ. يا ربُّ مُضْغَةٌ. فإذا أَرَادَ الله أن يقضِيَ خلقه، قال: ذَكَرٌ أم أنثى؟ شقيٌّ أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب في بطن أمه.

\* \* \*

ظاهر الحديث: الإخبار بأن الله، عز وجل، وكَّلَ بالرحم ملكاً ينادي إلى الحق، سبحانه، وهو الذي لا يخفى عليه شيء عند كل وقت في حين تطوير المولود من حالة إلى حالة، يخبر بتلك الحال إلى تمام حكم الله في كمال خلقه في الرحم. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: هل هذا على عمومه من ظاهر أحكامه كله، أو ليس؟

وهل يمكن الاستدلال على معرفة الحكمة في ذلك؟ وما الحكمة في تعريفنا بهذا؟ وما يترتب علينا بذلك من الأحكام الشرعية؟

فأما الجواب على: (هل هذا الحديث على ظاهره في جميع أحكامه؟) فليس على ظاهره في كل أحكامه لما يعارضه من الآثار والآي. لكن الفقه في الجمع بينهما، بفضل الله.

فأما الآثار: فمنها ما جاء أن الله، سبحانه، إذا أراد أن يخلق من بين الذكر والأنثى مولوداً أنه يُبقي الماء في الرحم (ذلك المقدار الذي شاء الله)<sup>(١)</sup> وقد أخبر به في حديث آخر، وهو (أن الماء إذا وقع في الرحم يتطور كما أخبر الله تعالى في كتابه)<sup>(٢)</sup>، ومثله على لسان نبيه، عليه السلام: (في

(١) الآيات القرآنية المتصلة بخلق الإنسان كثيرة، منها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ (الحجرات/١٣)، و﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَارٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَنْصَارِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الحج/٥) الخ.

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً=

كل حالة أربعين يوماً إلى أن يُنفَخَ فيه الروح بعد مائة وعشرين يوماً. فإذا فرغت الأربعون يوماً الأولى - وهي المقدار الذي أشرنا إليه بقولنا: (ذلك المقدار الذي شاء الله) - يبعث الله ملكاً فيأخذ من أي موضع شاء الله أن تكون تربة ذلك المولود منها، فيأخذ من تلك التربة غباراً بين أصابعه فيدخل في الرِّجَم، فيُبعَجَن ذلك التراب بذلك الماء في الرحم<sup>(١)</sup>. وجاء أثر آخر: (أنه إذا كملت تلك الأيام مع التطوير بعث الله ملكاً، فيصوره، ويصور جوارحه على نحو ما يؤمر)<sup>(٢)</sup>.

وجاء حديث آخر: (أن الله يبعث ملكاً إلى الرحم عند ما تتم الثلاث تطويرات، ويؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقياً أو سعيداً)<sup>(٣)</sup>. وفي حديث آخر: (ينادي الملكُ المؤكَّلُ بالرجم عند فراغ التطويرات فيقول يا رب: مخلَّقة أم غيرُ مخلَّقة؟ فيقول ربك ما شاء. فيقول: يا رب: شقيٌّ أو سعيد؟ فيقول ربك ما شاء. فيقول: ما الرزق؟ ما الأجل؟ فيكتب قبل نفخ الروح)<sup>(٤)</sup>.

وأما الآي فقوله، تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾<sup>(٥)</sup> وقوله، تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ، لِنُبَيِّنَ لَكُمْ، وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾<sup>(٦)</sup>.

فيجب الإيمان بمجموع الآي والأحاديث، فيجتمع معنى وجه الآية والأحاديث بالوجه الذي يجتمع به وجه الآي التي جاءت في كيفية الموت؛ لأن مولانا سبحانه، أخبر في بعض الآي بقوله وهو

فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَماً فَكُنُوسَنَا الْوُظُنَةَ لَحْمًا ثُمَّ أَثْنَانَهُ خَلَقْنَا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (المؤمنون، ١٢ - ١٤).

(١) لم نقف على مصدره. ولكن الآيات التي تشير إلى أصل الإنسان كثيرة، منها: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْسُونٍ﴾ (الحجر، ٢٦) و﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (الرحمن، ١٤) و﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ (آل عمران، ٥٩)، و﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ (الحج، ٥) و﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ (غافر، ٦٧).

(٢) أخرج مسلم عن حذيفة بن أسيد قال: سمعت رسول الله ﷺ بأذني هاتين، يقول: إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة، ثم يتصور عليها الملك (قال زهير: حسبنا قال: يخلقها) فيقول: يا رب، أذكر أو أنثى؟ فيجعله الله ذكراً أو أنثى، ثم يقول: يا رب، أسوي أو غير أسوي؟ فيجعله الله سوياً أو غير أسوي، ثم يقول: يا رب، ما رزقه، ما أجله، ما خلقه؟ ثم يجعله الله شقياً أو سعيداً. (وزهير: هو أحد رجال الإسناد وهو زهير بن معاوية بن خديج).

(٣) رواه الحميدي والبخاري والبيهقي في الاعتقاد والأسماء والصفات والسنن الكبرى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ آخر.

(٤) هو حديث الباب الذي يشرحه المؤلف مع شيء من التصرف ببعض الألفاظ.

(٥) سورة آل عمران، من الآية ٦.

(٦) سورة الحج، من الآية ٥.



أصدق القائلين: ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾<sup>(١)</sup>، وقال في آية أخرى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾<sup>(٢)</sup>، فأضاف القبض في الواحدة إلى مَلَكِ الموت وفي الآية الأخرى إلى نفسه، جلّ جلاله. ويتصور الجمع بين الآيتين أنه أخبر في الآية الأولى في قوله: ﴿مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ بمقتضى الحكمة، والقبض الآخر الذي أضافه إلى نفسه بمقتضى القدرة، لأن مَلَكِ الموت وغيره من جميع المخلوقين أفعالهم كسبٌ لهم بمقتضى الحكمة، وخلق الله بمقتضى الاختراع والخلق. لا خالقَ إلا الله.

ولذلك قال أهل السنة: إن أفعال العباد خلقٌ للرَّبِّ، وكسبٌ للعبد، كما تقدم في الحديث قبل.

ومثل ذلك الجمع بين الأحاديث والآي، فإنه جاء في الأحاديث أنه أخبر بمقتضى الحكمة - وهو واسطة المَلَك - وفي الآي بمقتضى القدرة، وهو الاختراع والإنشاء. ولذلك جاء أن الحَفَظَةَ إذا صعدت بعمل العبد يقول الحق سبحانه: اعرضوه على اللوح المحفوظ، فيوجد على حدٍّ سواء.

قال بعض الناس: ما الحكمة في ذلك، وهو مع ذلك علمه في كل وقت لا يَغُزُبُ عنه فعلُ المَلَكِ ولا غيره؟ فالجواب: هذا تعبدٌ، تعبدُ الله به الملائكة، والله، عزَّ وجلَّ، يتعبد من خلقه من شاء، كيف شاء، ولِحِكْمِ آخر لا تُحْصَرُ.

وأما جمع الأحاديث فهو أن الله، عزَّ وجلَّ، وكَّلَ بالرَّجِمِ مَلَكاً كما وكَّلَ بالمعدة مَلَكاً، وبالطعام مَلَكاً، وبالشراب مَلَكاً، وبحفظِ العبد مَلَكاً، وكذلك لكل حاسة من الحواس مَلَكاً، كما جاء في بعض الآثار غيرَ الشَّم فما سمعت فيه شيئاً، ويحتمل أن يكون، ولم أره. فالقدرة صالحة، ويكون مَلَكٌ مُوَكَّلًا بِسَوْقَانِ الترابِ وعَجْنِ الماءِ به، ومَلَكٌ آخَرُ مُوَكَّلٌ بتصويره تعبدًا، ومَلَكٌ يكون إثباته عند مناداة المَلَكِ المُوَكَّلِ بالرَّجِمِ، لأن زمان التطوير قد فرغ. فتكون فائدة إخباره أن يأتي المَلَكِ المُوَكَّلُ بالتصوير إذ ذاك فيمثل ما يُؤَمَّرُ به، أو يقال له: (غير مخلَّقة) فلا يأتي مَلَكُ التصوير.

فإن أتى مَلَكُ التصوير وفرغ مما أُمِرَ كما أمر؛ لأنه قد جاء أن المَلَكِ إذا جاء للتصوير نُصِبَ له سبعون (وفي حديث آخر: ألف) من جدوده - على ما رواه أبو داود - ثم يلقي الله، تعالى، شَبَهَهُ على من يشاء منهم<sup>(٣)</sup>، فإذا فرغ التصوير نادى المَلَكِ المُوَكَّلُ بالرَّجِمِ، فيأتي مَلَكٌ آخَرُ بالأربع

(١) سورة السجدة، من الآية ١١.

(٢) سورة الزمر، من الآية ٤٢.

(٣) أخرجه الإمام أحمد والنسائي وأبو داود عن أنس رضي الله عنه أنه إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع إليه الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها.

كلمات، فيجوابُ المخبر عن كل واحدةٍ واحدةٍ ويكتب، والكاتب هنا لا نعرفه؛ فلعله بعضُ الملائكة المذكورين أو غيرهم، والله أعلم، فيحصل الجمع على هذا التأويل، ويكون عدد الملائكة الذي يجتمعون في الرَّحْم عند خلق المولود من أوله إلى آخره أربعة.

وبقي البحث على الكُتُب هل يكون في الشخص نفسه، أو في شيء آخر؟ محتمل. والقدرة صالحة، فإن هذه الأحاديث كلها أخبار، والأخبار لا يدخلها نسخ، فيكون الحق، سبحانه، يخص من المخلوقين من هذه الوجوه ما شاء، لمن شاء، إظهاراً لِعِظَم القدرة بجميل بديع الحكمة. وبعد الفراغ من هذا كله، على أي وجه شاء الله من تلك الوجوه، ينفخ فيه الروح. لكن قد جاء بيان هذا في حديث غيره وهو قوله، عليه السلام: (وَيَخْرُجُ الْمَلَكُ بَعْدَ الْكُتُبِ مِنَ الرَّحْمِ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ)<sup>(١)</sup>.

وقد جاءت في كيفية بدء خلقنا آثار بخلاف هذا الترتيب، منها أنه قال، عليه السلام: (إذا وقع ماء الرجل في الرَّحْم تطاير في عروق المرأة أربعين يوماً، وبعد ذلك يجتمع في الرَّحْم). وقد جاء عنه، عليه السلام: (أنه عند فراغ الأربعين يوماً الأولى يكون تصوير النطفة بما شاءته القدرة).

وأما الجواب لمعرفة: ما الحكمة في ذلك، هل لنا سبيل إلى معرفتها أو إلى شيء منها؟ فما أخبرنا بها إلا لِنَتَدَبَّر ما الحكمة فيها. فمن الحكمة في ذلك ما يحصل لمن مَنَّ عليه بتصديقها من قوة الإيمان الذي زيادة ذرة فيه خيرٌ من عمل الدهر، يشهد لذلك قول سيدنا، ﷺ: (تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الدَّهْرِ)<sup>(٢)</sup>، وإنما ذلك لما يتحصل فيها من قوة الإيمان، كما يتحصل بمعرفة هذه.

ووجه آخر وهو: أن نعرف للحكمة قَدْرَها، إذ ذاك أمر قد تقدر في جميع العوالم، فيكون من باب التحضيض عليها، والتعظيم لشأنها.

ويترتب على ذلك من الفقه أنه بمقتضى الحكمة استدللنا على القدرة، وبالقدرة وعِظَمِها استدللنا على الحكمة. فوجب بمقتضى الإيمان والتكليف والنظر والاستدلال الإيمان بمجموعهما والتعظيم لهما، والإذعان لمن هذه من بعض صفاته، كما أمر، وقهر، وحكم، بالتعظيم، والإجلال، والإكبار، والتنزيه.

(١) لعل المؤلف - يرحمه الله - أراد بما أورده معنى هذا الحديث: (إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال: يا رب، مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن كانت غير مخلقة مَجْتَبِها الأرحام دماً، وإن كانت مخلقة قال: يا رب، فما صفة هذه النطفة؟ ذكر أم أنثى؟ ما رزقها؟ ما أجلها؟ أشقي أم سعيد؟ قال: فيقال له: انطلق إلى الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة. قال: فينطلق الملك فيستنسخها، فلا تزال معه حتى يأتي على آخرها). أخرجه ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) سلف تخريجه في الحديث (١).

الوجه الثاني: فيه دليل على أن وجود الحق حق، وإدراكه غير ممكن. يؤخذ ذلك من أن الملائكة بالإجماع أجسام، وتراهم يدخل النفر منهم فينا ولا ندرکہم، ولا نشعر بهم، وهم يتصرفون فينا ولا نعلم، فكيف خالقنا وخالقهم؟ فإنَّ بقطعيات العقول لا يشبه الصانع الصنعة.

الوجه الثالث: فيه من الأدلة الإيمانية إذا تؤملت جمل كثيرة.

وأما الجواب على: ما الحكمة في الإخبار بذلك لنا وما يترتب عليه من الأحكام الشرعية؟ فمنها: التعريف لنا ببدء خلقنا، وضعفنا، ولطفه بنا، وتَغْطِيَّتِهِ بِالْطَّافَةِ لَنَا، وتسخير الملائكة الكرام لنا في كل الأحوال التي كنا عليها في حال يُعْقِلُ أو لا يعقل، كما قال، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾<sup>(١)</sup> على طريقة المَنِّ. وهذا استدعاء لطيف في طلب العبادة، وانسراح الصدور لها. فإنه إذا رأى العبد قَدْرَ هذا اللطف به من هذا المولى الجليل الغني المستغني سَهَّلَتْ عليه العبادة، ورغب في الخطوة عند هذا المَلِكِ الذي قد كَرَّمَهُ قبل أن يعرفه، ويعبُدَه. فكيف به إذا عَبَدَهُ وسمع قوله، تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾<sup>(٢)</sup> ذاب حياءً وحباً واشتياقاً ورغبة ورهبة.

الوجه الرابع: ومما يترتب عليه من الأحكام الشرعية أنَّ حكم الحاكم إذا نفذ ومضى لا يرد. يؤخذ ذلك من قوله: (أنه لا ينفخ الروح إلا بعد الكُتْبِ) فيكون الحكم قد نفذ ومضى، وهو في عالم آخر، فلا يخرج لعالم الحياة إلا على حكمٍ قد تَمَّ وفرغ، فلا يطمع أحد في نقضه، وهو موضع تحقيق الخوف والرجاء مع العمل أو تركه. جعلنا الله ممن سبقت له السعادة بمَنِّه.

ثم نرجع إلى ألفاظ الحديث بعون الله. فقوله: (إن الله وكل) أي جعله عليه مراقباً، أين يكون؟ فيه، أو عليه؟ القدرة صالحة للوجهين.

الوجه الخامس: قوله (يقول) في الكلام حذف. معناه: عندما يخلق الله النطفة. وقوله (يا رب، نُطْفَةٌ) (النطفة: الماء اليسير في الإناء) وهنا أيضاً حذف آخر، لا يتم الكلام إلا به. معناه: نطفةٌ حدثت في الرحم. ثم ينادي عند تطورها بقدرته الله: عِلْقَةٌ (العِلْقَةُ: قطعة من الدَّم).

الوجه السادس: قوله (يا رب، عِلْقَةٌ) فيه محذوف ثالث معناه: أي انتقلت، أي انقلبت عِلْقَةً.

الوجه السابع: قوله (ثم يقول: يا رب، مَضْغَةٌ) فيه محذوف رابع معناه: انتقلت العِلْقَةُ مَضْغَةً، (والمَضْغَةُ: الشيء الذي يمضغ، وليس فيه تشكيل).

(١) سورة الجاثية، من الآية ١٣.

(٢) سورة البينة، الآية ٧.

الوجه الثامن: قوله: (فإذا أراد الله أن يقضي خلقه) قوة الكلام تعطي أن الله، سبحانه، إذا لم يرد خلقه ينفذ فيه ما شاء من أمره، إما أن يمجبه الرحم، وإما أن يبقى على حاله حتى ينفذ فيه ما شاء الحكيم. فإن أراد الله خلقه - ولا يعرف المَلِك إرادة الله فيه إلا إذا ظهرت، كما تقدم في الوجوه الثلاثة - فعند ذلك يأمر الله، عز وجل، بتصويره للملك الموكل بذلك - كما تقدم قبل - فيسأل: أذكر أم أنثى؟

فهل لا يسأل<sup>(١)</sup> إلا بهاتين الصيغتين لا غير، ويكون الجواب بما قدر من ذكر أو أنثى، أو خنثى، بيناً، أو مُشكلاً، إلى غير ذلك مما قد رأيناه عياناً في جميع المخلوقين. ويترتب على سؤاله بهاتين اللفظتين: أن الكلام والعمل إنما يكون على الأغلب مما جرت به الحكمة، أو يكون سيدنا، ﷺ عبر بهاتين اللفظتين من باب التنبيه بالأعم على الأخص؟ احتمال. لكن الظاهر في الإخبار أنه ليس كغيره من الأحكام، لأنه شيء يوقف عنده، ويؤمن به ليس إلا.

ويترتب، على هذا الإخبار بهذه التطويرات التي بدأ خَلَقْنَا بها إلهُنا وقدره الله تعالى فينا وفي جميع خلقه، قطعُ تسليط العقول عن إدراك قدرته إلا الذي من علينا بالوصول إليه، كما أمرنا، ومنع الطمع ممن هذه قدرته أن يحاط به أو بوصفه. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وبيّن لنا ما النسبة بين ما كان حقيقياً من تلك التطويرات على ضعفها، وما نحن عليه عند بلوغ الاحتلام والتكليف، وما اجتمعت عليه هذه الصورة الحيوانية الإنسانية من عظم ومخ ولحم وعصب وعروق وشعر وجلد ودم وكبد وقوة وعقل وفكرة وشهوة وتصرف وبطش وجميع ما فيها من حسن الصنعة، كما قال، عز وجل ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

ثم أين نسبة ذلك الحال الأول من هذا الحال؟ وأين ذلك الخلق من هذه الخلقة؟ كما قال، عز وجل، في شأن الثمر عند تناهي طيبه: ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوَعِهِ﴾<sup>(٣)</sup>. معنى ذلك: انظروا إلى حال الثمر إذا برز من الشجرة، ثم انظروه عند تناهي طيبه، أين نسبته في هذا الحال من نسبته أولاً، أو من نسبة منبته؟ فرأينا النسبة بين الحالين متباينة. فكانه، عز وجل، يقول بمدلول قوة الكلام: ألا تعرفون أن ذلك بالقدرة لا بالأصل ولا بالماء؟ فاعتبروا بمن هذه قدرته، وأذعنوا إليه وأسلموا.

ثم بعد ذلك يأتي حال الكبر، وتنعكس تلك القوة ضعفاً، ويدخل عليه النقص في جميع

(١) يريد: أفلا يسأل. لأن «هل» لا تدخل على «لا».

(٢) سورة التين، الآية ٤.

(٣) سورة الأنعام، من الآية ٩٩.

أحواله مع إبقاء الخلقة على قلبها، كما أخبر، عز وجل، ﴿ثُمَّ جَعَلْ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْئَةً﴾<sup>(١)</sup> فأهل الاعتبار اعتبروا، وأهل التذكار اذكروا، وبقي أهل الغفلات في غمّات الجهالات لا يبصرون إلا على قدر شهوتهم، وهم في العلوم بعضهم كمثّل الحمار يحمل أسفاراً، وغيرهم كما أخبر، عز وجل، ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾<sup>(٢)</sup> ولذلك قال، جلّ جلاله، ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾<sup>(٣)</sup> أي غافلون.

الوجه التاسع: قوله (شقيّ أو سعيد) لا ثالث لهما. لكن الشقاوة تفرق على أنواع، بعضها أعظم من بعض، والسعادة أيضاً كذلك.

الوجه العاشر: قوله (فما الرزق فما الأجل؟). هنا بحث: لِمَ أتى في الرزق والأجل بالفاء التي تعطي التعقيب دون غيرها من الحروف؟

فالجواب - والله أعلم - أن أول ما يشتغل الملك بالخلق وتقريره على ما شاء الحكيم مع الشقاوة والسعادة، وحينئذ أتى ذكر الرزق والأجل آخرًا، وهذا ترتيب بمقتضى الحكمة بديع، لأنه الذي يكون الأهم والمتقدم بحسب الإرادة. قَدَّمَ خَلْقَهُ أولاً. وعليه يترتب التذكير والتأنيث أو غيرهما من الصفات. وعليه أيضاً تقع الشقاوة أو السعادة، ثم الرزق الذي هو متقدم على الأجل، كما أخبر، عليه السلام، (لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها. فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب)<sup>(٤)</sup> ثم أخطر الأجل. فإذا كان الأمر قد تَمَّ فعَلَامَ الحرص في طلب الرزق، وقد تم الأمر، لا يزداد ولا ينقص، فيرجع الرزق والأجل والسعادة وغيرها كالتذكير والتأنيث لا يتبدل؟

وَلَفَّهْمُ هذا المعنى فَضَّلَ أهل الصوفة غيرهم، ولم يلتفتوا إلى غيرهم بشيء، وبقوا مُعَوِّلِينَ على من هو المتصرف فيهم، اللطيف بهم، كما لم تطمع النفوس في انقلاب الذكورية إلى ضدها، أو ضدها إليها، كذلك لم تطمع نفوسهم في الرزق، ولا في الأجل، ولا في السعادة، في التبدل أصلاً، وما بقوا إلا مشغولين بما أمروا، حتى إن بعضهم قال: إن كان عَبْدُهُ لِيُخَوِّفِ نَارَ، أو رَغْبَةً فِي جَنَّةٍ، حَشَرَهُ اللهُ مَعَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ، بل قال: أَعْبَدُهُ لِأَنَّهُ أَهْلٌ لِأَن يُعْبَدَ<sup>(٥)</sup>، وهو الحق لمن فهِم.

(١) سورة الروم، من الآية ٥٤.

(٢) سورة الفرقان، من الآية ٤٤.

(٣) سورة يوسف، الآية ١٠٥.

(٤) انظر تخريجه في الحديث (١١).

(٥) هذا القول مروي على لسان (رابعة العدوية).

وكفى في ذلك قصة العابد في بني إسرائيل الذي أخبره نبيه أنه من أهل النار، فزاد في عبادته، فأوحى الله لذلك النبي أن قل له: يفعل ما شاء، فإنه من أهل الجنة، لآزدرائه بنفسه.

وأما من طريق الرزق فقال بعضهم: إذا كان الفقير يُنظر<sup>(١)</sup> في رزقه، فإن الله يحسن عزاءه في طريقه. وكفى في ذلك ما اختاره سيدنا محمد ﷺ أنه قال: (أجوع يوماً فأتضرع، وأشبع يوماً فأشكر)<sup>(٢)</sup> وقال يمن بن رزق، رحمه الله: إذا كان الماضي لا يرجع، والمقدور لا يتبدل، فاطرأح الهم سعادة معجلة.

الوجه الحادي عشر: قوله (فيكتب في بطن أمه) يكون المعنى: فيكتب وهو في بطن أمه. وهنا بحث: هل ذلك الكُتَب يكون قبل نفخ الروح أو بعده؟ لكن قبل خروجه من بطن أمه ليس في الموضع ما يدل على شيء منها، لكن قد جاء في حديث آخر: (أنه يكتب، ثم ينفخ فيه الروح).

وترتب على هذا الإخبار من الفقه أن السعادة والشقاوة قد تكون بلا عمل ولا حياة في هذه الدار. يؤخذ ذلك من قوله: (ثم ينفخ فيه الروح) بعد كتب السعادة أو ضدها. وقد رأينا من يموت في البطن قبل الخروج إلى هذه الدار، وقد يخرج ولا يبلغ زمان العمل لا على طريق الوجوب - وهو البلوغ - ولا على طريق الندب وهو ما دون ذلك. ويعضد هذا التأويل قوله، عليه السلام، في الأطفال (الله أعلم بما كانوا عاملين)<sup>(٣)</sup>، لأن العلماء اختلفوا فيمن يموت قبل بلوغه التكليف، على أي قدر كان من السن، اختلافاً كثيراً، لأن الأحاديث جاءت فيهم على أنواع، فمنها قوله، عليه السلام فيهم: (عصفور من عصافير الجنة)<sup>(٤)</sup>، ثم قال فيهم (هم من آبائهم) ثم قوله، عليه السلام، (الله أعلم بما كانوا عاملين). وعلى هذه الآثار أكثر أهل السنة، لا سيما مع ما في هذا الحديث الذي نحن فيه مما يقوي هذا المعنى، وتكون تلك الآثار الأخرى على الخصوص في هذين المعنيين. فهذا المعنى يزيد تأكيداً لما ذهب إليه أهل الصوفة.

جعلنا الله ممن سَعِدَ وَحُمِيَ، وَفَهِمَ، وَعَمِلَ، وَقَبِلَ بِمَنْتِهِ، لَا رَبَّ سِوَاهُ.  
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا.

(١) لعل معنى (يُنظر): يُؤخَّر. أي من يتأخر رزقه فعزاؤه في طريقه وسلوكه (الروحي). و(الفقير) عند أهل الله يأتي بمعنى (الفقير إلى الله) أو بمعنى (الصوفي)، فهو إنسان لا يهمه التفتير عليه، ويجد سلوانه في الطريق الذي أكرمه الله به بالعطاء المعنوي والإيماني.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: (دعي النبي ﷺ إلى جنازة غلام من الأنصار. فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يدرك الشر ولم يعمل). إلى آخر الحديث.

## حديث جواز الصلاة في السفينة

عن جابر بن عبد الله وأبي سعيد، رضي الله عنهما، صلّيا في السّفينة قائمين. وقال الحسن: تُصَلِّي قائماً ما لم تَشُقَّ على أصحابك، تَدُورُ معها، وإلا فقاعداً.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن فعل الصحابة، رضي الله عنهم، حِجَّة؛ لأنهم لا يعملون عملاً من الأعمال إلا بالتوقيف من الشارع، عليه السلام. ولعلّهم بذلك، كما أخبره الله، تعالى، بالفتن التي تكون بينهم، رضي الله عنهم، اهتَمَّ رسول الله، ﷺ، لذلك، فأوحى الله، عزَّ وجلَّ، إليه (أصحابك عندي مثلُ النجوم)<sup>(١)</sup> فحينئذ أخبر سيّدنا، ﷺ، بأن قال (أصحابي مثلُ النجوم، بأيّهم اقتديتم اهتديتم)<sup>(٢)</sup> معناه: اقتديتم بي، لأنه، ﷺ، هو إمام الهدى، فإنهم لا يفعلون ما يخالف سنّته، ففعلهم كله قام مقام الإخبار عن سيّدنا، ﷺ، وكذلك أقوالهم، ولذلك قال الحسن، رضي الله عنه: تُصَلِّي قائماً ما لم تَشُقَّ على أصحابك. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: ما معنى قوله (ما لم تَشُقَّ على أصحابك)؟ ليس المفهوم من قوله (تَشُقَّ على أصحابك) ما نفهم نحن من التّضييق أو ما يغيّر الخاطر، لأنه لو كان على هذا المعنى لأدى ذلك إلى تعطيل الصلاة عند ركوب البحر كما يفعله كثير من الجهّال اليوم، وهذا حرام لا يجوز؛ وإنما يكون معنى (تَشُقَّ) قد يؤوّلُ قيامك في وقت يكون الهول في البحر والأمواج والرياح العاصفة إلى غرقهم أو زيادة سبب في الهلاك معروف، بِجَزَيِّ العادة، أو ما أشبه ذلك، أو لا يمكن لك القيام إلا أن يؤدي ذلك لكشف حريم، على وجه لا يجوز شرعاً، ولم تكن دخلت عليه أولاً، لأنه لا يجوز أن يدخل إنسان البحر، وهو يعلم أنه لا يمكن له توفية ما أمر به من التعبدات على حدّها، حتى إنه قد

(١) انظر تخريجه في المقدمة.

(٢) انظر تخريجه في المقدمة.

ذكر بعض العلماء أنه إذا علم الشخص من نفسه أنه يميد، حتى يُؤول أمره إلى تعطيل الصلاة، أو الخلل بشيء منها، أنه لا يجوز له ركوبه، وهو مذهب مالك، رحمه الله تعالى.

فبهذين النوعين وما يشبههما إذا وقعت ولم تدخل عليها يجوز أن تصلي معها قاعداً إذا لم تقدر على القيام، وهو المعنيُّ بـ (المشقة) هنا: لأن العلماء لا يطلقون (المشقة) إلا على ما يكون (مشقة شرعية) يتعلق من أجلها حكم ما، بخلاف أهل الصوفة فإنهم يطلقون (المشقة) على كل شيء يتغير به خاطر، قلَّ أو جَلَّ.

الوجه الثاني: قوله (تدور معها) يعني للقبلة، حيثما دارت السفينة، لأن الرياح تختلف بعض الأوقات على السفن، فيكون مثلاً مقدّمها إلى القبلة، ثم تأتي ريح أخرى تديرها شرقاً أو غرباً، أو لغير ذلك من النواحي، فيكون المصلي في السفينة يدور إلى القبلة في الصلاة الواحدة إن احتاج لذلك مراراً؛ لأنه شغل يسير معفو عنه. والقبلة مطلوبة أو جهتها حتماً، لأننا معنا العلم بها والقدرة على ذلك، ونحن الآن متمكنون من ذلك، عارفون بها، فلا يسعنا غير ذلك، سواء كان المصلي قائماً أو قاعداً.

الوجه الثالث: فيه من الفقه جواز ركوب البحر. فإن العلماء اختلفوا في ركوبه، هل هو جائز مطلقاً، أو لا يكون إلا للحاج والمجاهد؟ فيه اختلاف بينهم. وروي عن عمر، رضي الله عنه، أنه كان يمنع ركوبه إلا لحاجٍّ أو مجاهد، ويقول: «خَلَقَ عَظِيمَ يَرْكَبُهُ خَلْقٌ ضَعِيفٌ، وَلَوْلَا آيَةُ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَكُنْتُ أَضْرِبُ بِالذِّرَّةِ مَنْ يَرْكَبُهُ». وركوبه لا يجوز إلا على الوجه المشروع في الحال، وفي الزمان.

أما في الزمان، فلا يجوز ركوبه عند ارتجاعه، لقوله عليه السلام: (مَنْ رَكِبَ الْبَحْرَ فِي ارْتِجَاجِهِ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الذِّمَّةِ)<sup>(١)</sup>.

وأما في الأحوال، من صفة المركب ووصفه إلى غير ذلك، فلا يركب، إلا على ما جرت به العادة إن كان ذلك هو المعروف عادة الذي تكون معه السلامة غالباً. فإن لم يكن كذلك كان داخله أو راكبه ممن يُلقَى نفسه إلى التهلكة، وقد جاء في ذلك ما جاء، فهذا الحكم في البحر المعهود حساً.

وأما البحور المعنوية التي ذكرها الناس فالركوب في كل بحر منها يجوز بحسب السنّة فيه. والبحور المعنوية سبعة: بحر الدنيا، وبحر الهوى، وبحر الشهوات، وبحر النفوس، وبحر العلم، وبحر المعرفة، وبحر التوحيد.

فبحر الدنيا: ساحله الآخرة، وركوبه في مركب الأمر والنهي، وعُدّه أنواع التعبدات،

(١) رواه الإمام أحمد عن بعض أصحاب النبي ﷺ.



وأوقات ركوبه عند عدم ارتجاجه، وارتجاجه الفتن. ولذلك حَكَمَتِ السَّنةُ أن تكون في ذلك الوقت جَلَساً من أحلاس بيتك<sup>(١)</sup>، أو تكون بأصل شجرة، وتفارقَ جميع الناس حتى يأتِكَ الموت، وأنت على ما أنت عليه. ورياحه العزائم، فعلى قدر قوة عزيمتك يكون جَرِي سفينتك. ورأسها العقل فعلى قدر عقلك يكون إتقان جريها. وملاحوها خواطرك، فعلى قدر حسننها تكون سلامتها. ومسالكها العلم فعلى قدر علمك يكون حسن تصرفها. ووسقُها<sup>(٢)</sup> بضائع أعمالك، فيكون الخلاص من البحر بقدر جودة السفينة وخدامها، والربح أو الخسارة بحسب البضائع.

وأما بحر الهوى: فمخوف، وممنوع ركوبه، بل مهلك، فلا يُحتاج إلى تعليله.

وأما بحر الشهوات: فكثير ارتجاجه، والقدر الذي أبيح منه على لسان العلم فيه من التشويشات هنا وهناك ما يعجز الوصف عن أقلها. وهو من الجنس المندوب إليه، وهو الجِماع، ما يترتب عليه من الكد في التكسب على العيال. وربما يكون لبعض الناس سبباً لأن يقع في المحرمات من جهة الكسب، ويعتذر بأن يقول: العيال خلفي يطالبونني بالرزق، ولا أقدر على غير هذا الوجه. ثم ما يترتب عليه السؤال عنهم، فإنهم رعيته، وكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، وما فيه من إلزام نفقة البنين حتى يحتلموا، من أجل شهوة واحدة، إلى غير ذلك إذا تتبعته.

ومن أجل الشهوة قال ﷺ: (تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ بَطْنِهِ، تَعَسَّ عَبْدُ فَرْجِهِ)<sup>(٣)</sup>. فلولاً الشهوة التي حملته على ذلك ما دخل من حرية الطبع إلى رِقِّ الشَّهَوَاتِ، ثم مع ذلك يحجبه عن الوصول إلى مقام الخصوص. فإنهم قالوا، رضي الله عنهم: «تَزَكَّ الشَّهَوَاتِ قَرُغَ الْبَابِ». وقال العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ قُلُوبُهُمُ لِلْقَوَى﴾<sup>(٤)</sup>، قالوا: أزال عنها الشهوات، ولذلك كان عمر، رضي الله عنه، يقول: إني لأطأ النساءَ وما بي إليهن شهوة. فقالوا: ولم ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: رجاء أن يُخْرِجَ الله من ظهري مَنْ يُكَائِرُ بِهِ مُحَمَّدٌ الْأَمَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فانظر إلى هذا السيّد كيف انقلبت له هذه الشهوة - التي هي أكبرُ شهواتِ البشر - عبادةً محضة، فما بالك بغيرها؟

(١) الجِلْسُ: ما يُبْسَطُ في البيت على الأرض من حُرِّ الثياب والمتاع، والمراد: ملازمة البيت والانعزال عن جميع الناس.

(٢) الوَسَقُ: حمل البعير أو العربة أو السفينة.

(٣) رواه البخاري وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه. و(الخَمِيصَةُ): ثوب أسود أو أحمر له أعلام، وكأنه كناية عن بهرجة الثياب والافتتان برونقها وجمالها.

(٤) سورة الحجرات، من الآية ٣.

يؤيد هذا قوله، جلّ جلاله، على لسان نبيّه عليه السلام (لا يزال العبدُ يتقرَّبُ إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنتُ سمعهُ الذي يسمَعُ به، وبصرهُ الذي يُبصرُ به، ويَدَهُ التي يَبطِشُ بها)<sup>(١)</sup>، قال العلماء في معناه: لم تَبَقْ له جارحةٌ يصرفُها إلا بالله، والله، فذهبت شَهواته.

وأما بحر النفوس: فإنه لا غاية له نعلمها نحن، لكن ركوبه من أجل المركوبات، لكن إذا كانت السفينة على ما شرع ونُذِب، من أن يكون إنشاؤها من عود الإخلاص، وملأحوها وجميع خدامها من أهل التواضع والافتقار، لقوله عليه السلام: (أوجي إليّ أن تواضعوا، ولا يفخر بعضكم على بعض)<sup>(٢)</sup> ورياحها صدق اللجأ، فإنه عنوان النجاة، وبضائع أهلها التقوى، فإن الله، عز وجل، يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(٣)</sup> فإذا ركب على هذا الوضع نيل فيه من الرِّيح والفوائد ما لا يعلمه إلا الله الكريم الوهاب.

وأما بحر العلم: فكما تقدم في بحر النفوس، إلا أنه لا بد لراكبه من إطالة المقام فيه حتى يقوى بصر بصيرته، فيبصر هواه، فيرجع له منه قوة في المزاج؛ فحينئذ يبصر ما فيه من الأنوار والعبّر والعجائب التي لا يبصرها غيره. إلا أنه لا بد له من المقام بعد إبطار تلك المعاني، ليحصل له تهذيب النفس وزيادة في اليقين، وقد قال ﷺ: (تعلموا اليقين فأني أعلمه)<sup>(٤)</sup>.

وأما بحر المعرفة: فأعظم وأكبر، وفيه من الفوائد أعظم ممّا في البحر قبله، ويركب بمثل ما يركب البحر الذي قبله، إلا أنه لا بد أن يُتزوّد فيه من ماء بحر العلم لئلا تذهب روحه بشدة حرارة هوائه، فأكثر ركبانه ما هلكوا إلا من أجل هذا الوجه، لأن فيه من الخيرات والدرر والأسرار ما لا يُحدّ، وفيه من الممالك لمن ترك هذا التزوّد بهذا الماء ما لا يوصف، وربما قد يكون حاله أولاً من الخصوص، ثم ينعكس إلى أخس الأحوال.

وأما بحر التوحيد: فيركب بمثل ما قدّمناه في البحرين المتقدمين، وزيادة على ذلك أنه لا يفارق ببصره شواهد جبال الشريعة الراسخة، فإنه مهما قام عليه من هوائه هواء لا يعرفه، ولا يكون عنده ما يتقيه به، عاد إلى جانب جبل ذلك العلم، ولا غرق، ومن أجل ذلك غرق فيه ناس كثير، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. فإذا رجع إلى ذلك بالعلم، ورجع عقله إليه تذكر فوائد ما رأى، وحصل له من اجتماع ذينك الهوائين من حسن مزاج جوهر دينه وعرضه ما لا يصفه الواصفون.

(١) انظر تخريجه في الحديث رقم (٦).

(٢) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه عن عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٣) سورة البقرة، من الآية ٢٨٢.

(٤) تقدم تخريجه في «الوجه الأول» من الحديث رقم (٦).

فَمَنْ مَرَّ اللهُ عَلَيْهِ بِرُكُوبِ هَذِهِ الْبَحَارِ الْمُبَارَكَةِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَحْسَنِ، ثُمَّ رَسَا عَلَى جِبَالِ السَّنَةِ،  
فَذَلِكَ السَّيِّدُ الَّذِي إِذَا كَانَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ فِي إِقْلِيمٍ رَحِمُوا جَمِيعاً. وَمَنْ رَكِبَ مِنْهَا وَاحِداً عَلَى تِلْكَ  
الْحَالَةِ الْمَرْضِيَّةِ فَمَنْ رَأَاهُ فَقَدْ أَقْرَأَ اللهُ عَيْنَهُ بِمَا يَعُودُ عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَرِّ وَالْبِرَّةِ، فَكَيْفَ بِهِ هُوَ؟ وَمَنْ  
رَكِبَ وَاحِداً مِنْهَا عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الْمَرْضِيِّ فَالْغَالِبُ عَلَيْهِ الْهَلَاكُ، وَمَنْ رَأَاهُ خِيفَ عَلَيْهِ مِنَ الْفِتْنَةِ.  
وَالْشَّرْحُ فِي هَذَا يَطُولُ إِلَّا أَنَّهُ، إِنْ شَاءَ اللهُ، سَأَخْتَصِرُ لَهُ كِتَاباً يَكُونُ الْكَلَامُ فِيهِ أَبْسَطَ مِنْ هَذَا،  
وَنُبَيِّنُ مَهَالِكَهُ، وَكَذَلِكَ بِحَوْلِ اللهِ كُلِّ بَحْرٍ مِنْهَا.

جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُمْ حِمَاهُ، وَعَلَّمَهُ، وَأَسْعَدَهُ بِهِ بِمَنْتِهِ.  
وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيماً.

## حديث جواز التحرز من حرّ الحصباء في السجود

عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: كنا نصلّي مع رسول الله ﷺ، فيضع أحدنا طرف الثوب من شدة الحرّ في مكان السجود.

\* \* \*

ظاهر الحديث جواز الشغل اليسير في الصلاة من دفع الأذى المشوش فيها. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: هل الفعل اليسير في الصلاة يكون مغفواً عنه وإن لم يكن هناك عذر؟ أو لا يكون مغفواً عنه إلا مع العذر وإن كان خارجاً منها؟

وهل العذر المنصوص عليه هو هذا العذر ليس إلا؟ أو تعدّيه إلى ما يكون في الصلاة ليس إلا، وما يكون خارج الصلاة لا يلتفت إليه وإن كان عذراً؟

فالجواب: ليس في الحديث ما يدل على ذلك، لكن الفقهاء إذا علموا للحكم علة عدّوه بتلك العلة حيث وجدوها، مثل قوله، عليه السلام: (لا يقضي القاضي حين يقضي وهو غضبان)<sup>(١)</sup>. عدّوا الحكم حيثما وجدوا مشوشاً شوشه منع الحكم معه حتى الحقن<sup>(٢)</sup> والجوع.

فترجع هنا إلى بحثنا: فإن كانت العلة هنا قلة العمل ليس إلا فعلى هذا يجوز لعذر ولغير عذر. وقد اختلفوا في الشغل اليسير في الصلاة لغير عذر، هل يطلها، أم لا؟، على قولين.

وإن قلنا: إن العلة فيه رجاء زوال التشويش في الصلاة فعلى هذا يجوز الشغل في الصلاة - وإن كثر - ما لم يتفاحش، فإنه إذا تفاحش خرجت عن أن تكون صلاة. ولذلك لم يختلفوا أن الشغل اليسير إذا كان لإصلاحها أنها لا تبطل. واختلفوا إذا كثر ولم يتفاحش، على قولين. ولم يختلفوا

(١) تقدم تخريجه في الحديث رقم (١٠).

(٢) حقن الدم: حبسه. واحتقن المريض: احتبس بوله. ومنه قوله عليه السلام: لا صلاة لحاقن.

أنها تبطل إذا تفاحش، وقد حُدَّ التفاحش بمثل أن يأكل أو يشرب قَدْر ما يقارب الشبع. ومنهم من فرّق بين ما أُجبر له فعله في الصلاة وبين ما لا يجوز له، كما هو منصوص في كتب الفروع.

وإن قلنا: إن العلة قد تكون لمجموعهما: أن يكون عذراً، وأن تكون في إصلاح الصلاة، وهل يُراعى في الشغل أيضاً الكثرة أو القلة؟ موضع خلاف ما لم يتفاحش أيضاً. لكن الذي يعطيه البحث على نص الحديث أنه إذا كان الذي يُفَعَّل أقل بالنسبة إلى ما هو الخلل الواقع في الصلاة يُفَعَّل، وإن كان فعله نقصاً من كمال الصلاة لم يُفَعَّل، ويكون ذلك بِحَسَبِ الأشخاص والأمكنة والأزمنة، فَرُبَّ شيءٍ يَحْمِلُهُ شخص ولا يحمله غيره، ورب شيءٍ يوجد عنه بدل، وآخر لا بدل منه. يؤخذ ذلك من الحديث.

الوجه الثاني: قوله (كنا نصلي مع رسول الله، ﷺ، فيضع أحدنا طرف الثوب من شدة الحر في مكان السجود) لأن معهم هنا علتين: إحداهما (الصلاة خلف رسول الله، ﷺ)، ولا بدل منها. (وحرّ الأرض) الذي يمنع الخشوع في الصلاة، وهو من باب شرط الكمال - على مذهب - ويقابله اتقاء الأرض بفضل الثياب. فما يفعلونه بالنسبة لما يفوتهم قليل، وعلى هذا التعليل فقس.

لكن يبقى علينا بحث آخر وهو الشيء المفعول: هل لا<sup>(١)</sup> نفعله إلا ألا نجد منه بَدَلاً؟ أو نفعله مع وجود البدل؟ أو هو جائز مع وجود البدل، وفعل البدل أولى؟

مثاله: أنا نقول: لا نتقي بفضل ثيابنا إلا حين لا نجد شيئاً نتقي به الأرض. أو هو من باب الأولى.

فإن نظرنا في الحديث أجزائه مع وجود غيره، وفعل غيره يكون الأولى، ولا أظنّ أحداً اختلف في أن هذا هو المستحب.

وإن نظرنا لما يُعَلَّم من حال الصحابة، رضي الله عنهم، فهم لم يكن لهم من الدنيا إلا قَدْر الضرورة، وأنهم في الغالب ليس لهم فضل في ثيابهم، قلنا: لا يجوز مع وجود غيره، لكن الحكم للفظ الحديث لا لغيره. ولعل هذا الحديث لم يكن إلا من بعدما ظهر الإسلام، وكثُر عندهم الخير، فلا يُتْرَك اللفظ المقطوع به بشيءٍ محتمل.

الوجه الثالث: قوله (كنا) يعطي الجمع؛ لأنهم كانوا، الكلُّ على ذلك، فالإخبار عن الجميع أقعد في الحكم ممّا يكون عن الواحد.

الوجه الرابع: قوله (مع رسول الله ﷺ) إخبار هنا أيضاً بالفعل، لأنهم كانوا يفعلون مع النبي،

(١) يريد: ألا.

ﷺ، وهو عليه السلام: يقول: (إني أراكم من وراء ظهري كما أراكم أمامي)<sup>(١)</sup>. فأقرارهم على ذلك حُكْم منه، عليه السلام، وما كان من تقرير الحكم بالفعل أعظم مما يكون بالقول. ويترتب على ذلك من الفقه الاقتداء به، ﷺ، في الأفعال والأقوال على حد سواء.

وهل يكون ذلك في غيره، أم لا يكون ذلك حتى يُعَلَّمَ أن ذلك على لسان العلم؟ لأنه، عليه السلام، في ذاته، معصوم قطعاً، وغيره لا تُعَرَفُ عصمته. هذا على لسان العلم.

وأما بعض أهل الطريق فيرون أتباع مشايخهم، لأنهم يُحَسِّنُونَ الظنَّ بهم، وكذلك وظيفة المبتدي أو العَامِّي مع العالم، لأنهم لا يعرفون لسان العلم، فهم أُولَى لهم أن يتبعوا عالمياً من أن يتبعوا الهوى.

وقد أخبرني بعض مشايخي، رضي الله عنه، أنه كان يخدم شيخه في مرضه الذي مات فيه، وأنه كان ابتلي بسرعة الهراقة<sup>(٢)</sup> فمشى يوماً إلى بيت الخلاء مسرعاً، فلما قضى حاجته ناداني، فقال: ائمني بالماء، فلما خرج قال لي: يا بني! الكلام في بيت الخلاء لا يجوز، وإنما فعلته للضرورة، لأنني لم أقدر أن أتكلّم لما حفزني الأمر. لأنه، رحمه الله، علم أن الشخص كان ممن يُقْتَدَى به.

ويؤخذ ذلك أيضاً من فعل عمر، رضي الله عنه، حين أمر بعض أهل البيت، وكان قد أحرم في ثوب مصبوغ، أمره بنزعِهِ، وهو مما يجوز الإحرام فيه، لأنه كان مصبوغاً بِمَدْر<sup>(٣)</sup>، كما جاء في الحديث. لكن لما كان يُشَبِّه المَزْعَفَر، والمَزْعَفَر لا يجوز فيه الإحرام، قال له، رضي الله عنه: «إنكم أيها الرّهط أئمة يقتدي بكم الناس»، فعلمه بأنهم يقتدي بأفعالهم كما يقتدي بأقوالهم، ولذلك قال بعض العلماء: إن العالم إذا كان عاملاً اتبع الناس علمه، وإذا كان غير عامل اتبع الناس فعله، ولم يتبعوا علمه، فلم ينتفع بعلمه لا في نفسه ولا في غيره.

ولما دخلت البطالات واتباع الشهوات في بعض العلماء وقع الخلل في العوام لاقتدائهم بهم في الأفعال؛ وإن بقي منهم من يعمل - وهو الأقل - أخرجوهم إلى طريق التزهّد والتشديد.

(١) لعله مرّكب من حديثين: (الأول): (هل ترون قلبي ها هنا؟ فوالله ما يخفى عليّ خشوعكم ولا ركوعكم، إني أراكم من وراء ظهري) وقد رواه الإمام مالك والبخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه. و(الثاني): (إني إمامكم، فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود ولا بالقيام ولا بالقعود ولا بالانصراف، فإني أراكم من أمامي ومن خلفي) رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي عن أنس رضي الله عنه.

(٢) الهراقة: (مثل الإراقة) وهي بمعنى صب الماء، أو البول. ولعلها قريبة من معنى (الزّحار) وهو استطلاق البطن.

(٣) المَدْر: الطين.

ويدخل هذا تحت قوله، ﷺ: (موتُ العالم ثُلْمَةٌ في الإسلام)<sup>(١)</sup> فموتُه الحَسَنِيُّ خَيْرٌ من موتِه المعنوي؛ فَإِنَّ مَوْتَهُ الْحَسَنِيِّ تَبَقَّى مَآئِزُهُ، وقد يتأسى به النَّاسُ، وموتُه المعنوي هو الثُّلْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ؛ لأنه يقطع النَّاسَ بعمله السَّوِّءِ عن باب مولاهم، فَيُخَافُ أَنْ يَكُونَ الْوَيْلُ لَهُ؛ لِأَن مَوْلَانَا، جَلَّ جَلَالُهُ، يقول: (أنا الله، لا إله إلا أنا، خلقتُ الشَّرَّ، وخلقْتُ له أهلاً، فالويلُ لمن خلقتَه للشرِّ، وأُجْرِيْتُ الشرَّ على يَدَيْهِ)<sup>(٢)</sup>. فقد فعل هذا بنفسه شَرًّا، وجَزَّ النَّاسَ بِالْاِقْتِدَاءِ بِهِ إِلَى شَرِّ.

ويؤخذ منه جوازُ ذِكْرِ ما يفعله الشخص من أفعال الْبِرِّ إذا كان يعلم أنه يُقْتَدَى بِهِ، أو ما يُوصِلُ به حكماً، أو يحصلُ به وجهاً من وجوه الخير.

ولذلك قال أهل الصَّوْفَةِ: إنه لا يجوز ذكرُ ما يَرِدُ على السَّادَةِ من الأحوال إلا بين أبناء جنسهم الذين تكون فيهم الأهلية للترقي، ولا تجوز بين العوام إلا للضرورة، تعيّنَ عليهم فِعْلُهَا، مثلما حكى عن بعضهم: أنه كان ماشياً على الساحل؛ فإذا بمركبٍ قد أقبلَ موسقاً بالخمَرِ لوالي الموضع، وكان ظالماً لا يطيقه أحد. فطلع للمركب حين أرسى، وأخذ بيده عصاً، وجعل يكسر كلَّ جَرَّةٍ وجدها ملأى بالخمَر، فلم يُطِقْ أحد أن يَاقِفَ له. فمرَّ كذلك عليها، إلى أن بقي له جرة واحدة، فتركها، ولم يكسرها، ورجع. فطلعت النَّوَاتِيَةُ إِلَى الْوَالِي، فأخبروه الخبر. فتعجَّب من ذلك كلَّ العجب، لكونه جَسَرَ على شيء وندى عليه. ثم إنه لما تعدى ترك تلك الواحدة. فأرسل وراءه، فأحضر، فقال له: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: فعلتُ ما بدا لي، فافعل ما بدا لك. فقال: لم تركت الواحدة ولم تكسرها؟ فقال: أدركتني أولاً غَيْرَةُ الْإِسْلَامِ، فَدَخَلْتُ فَكَسَرْتُ مَا كَسَرْتُ امْتِثَالاً لِلْأَمْرِ، فلما أن بقيت تلك الواحدة قامت معي النَّفْسُ وقالت: أَنْتَ مِمَّنْ يُغَيِّرُ الْمَنَكِرَ. فخفتُ أن يكونَ كسرها فيه حظُّ نفسٍ، فتركْتُهَا. فقال الْوَالِي: اتركوه يفعل ما بدا له، ما بيننا وبين هذا معاملة.

وإنما فعل ذلك للضرورة التي وقعت له، ولا يكون ذلك من باب التزكية، وقد نهى، عزَّ وجلَّ، عن ذلك بقوله ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ﴾<sup>(٣)</sup>.

الوجه الخامس: فيه دليل على جواز أن يكون في الثوب فضلة عن الضرورة، ما لم تنته إلى المكروه أو الحرام. يؤخذ ذلك من قوله: (طرف الثوب) فلا يكون طرف الثوب يُسَجَّدُ عليه، وَيَبْقَى الْبَدَنُ مُسْتَوْرًا، إِلَّا وفيه فضلة عن الضرورة، لأن الضرورة هي سِتْرُ الْعَوْرَتَيْنِ الْمُثَقَّلَةِ وَالْمُخَفَّفَةِ، وما عداهما مباح، وبعضه مستحب. فيحتاج إذاً لمعرفة المندوب من اللباس والمباح والحرام.

(١) جزء من حديث. أخرجه البزار عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) لم نعرف مصدره.

(٣) سورة النجم، من الآية ٣٢.

فَأَمَّا الْحَرَامُ: فَهُوَ مِثْلُ لُبْسِ الْحَرِيرِ لِلذَّكُورِ، وَكَذَلِكَ اللَّبْسُ لِلْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ لِتَحْرِيمِهِ ذَلِكَ، ﷺ، وَمَا كَانَ مِنَ الْإِزَارِ أَوْ الثَّوْبِ تَحْتَ الْكَعْبَيْنِ لِقَوْلِهِ، ﷺ: (مَا تَحْتَ الْكَعْبَيْنِ فِي النَّارِ) <sup>(١)</sup> وَمَنْ لَبَسَ ثَوْباً لِيَشْتَهَرَ بِهِ لِقَوْلِهِ، ﷺ: (مَنْ لَبَسَ ثَوْبَ شُهْرَةِ النَّبِيِّ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبٌ ذُلٌّ وَصَغَارٌ، ثُمَّ أَشْعَلَهُ عَلَيْهِ نَاراً) <sup>(٢)</sup> وَكُلُّ مَا يَشْبَهُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الْمَكْرُوهُ: فَمِثْلُ تَشْبِهِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ، وَالرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالتَّشْبِهُ بِالْأَعَاجِمِ لِلنِّهْيِ عَنْهُ، وَمِثْلُهُ الْعِمَائِمُ الَّتِي لَيْسَتْ بِذَوَابَةِ؛ لِأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّهَا عِمَائِمُ قَوْمِ لُوطَ، وَقِيلَ: عِمَائِمُ الشَّيَاطِينِ. ذَكَرَهُ ابْنُ رِشْدٍ <sup>(٣)</sup> فِي مَقْدَمَاتِهِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

وَالْمُنْدُوبُ: مِثْلُ ثَوْبِ الْعِيدِ وَالْجُمُعَةِ، لِقَوْلِهِ، ﷺ: (مَا عَلَى أَحَدِكُمْ لَوْ اتَّخَذَ ثَوْبَيْنِ لَجُمُعَتِهِ، سِوَى ثَوْبِي مَهْنَتِهِ) <sup>(٤)</sup>، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَالْمُبَاحُ: مَا اتَّخَذَهُ الْإِنْسَانُ لَتَرْفِهِ، أَوْ لِلتَّجَمُّلِ بِالْقَصْدِ الْحَسَنِ، بِغَيْرِ وَجْهِ مُحْذُورٍ شَرْعاً، وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا.

وَيُؤْخَذُ مِنْهُ: أَنَّ الْوَجْهَ أَعْلَى الْحَوَاسِ، يُؤْخَذُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: (فِي مَوْضِعِ السُّجُودِ) لِأَنَّهُ مَوْضِعُ الْوَجْهِ، وَهُوَ أَعْلَى الْأَرْبَابِ الَّتِي قَالَ ﷺ: (أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَرْبَابٍ: الْوَجْهَ، وَالْيَدَيْنِ، وَالرِّكْبَتَيْنِ، وَأَطْرَافِ الْأَصَابِعِ) <sup>(٥)</sup>.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيماً.

(١) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ، وَالتَّنَائِي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَالْإِمَامِ أَحْمَدَ وَالطَّبْرَانِيَّ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جَنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بِلَفْظٍ آخَرَ.

(٢) لَعَلَّهُ مَعْنَى لِحَدِيثِ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ابْنُ رِشْدٍ: مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ رِشْدٍ، أَبُو الْوَلِيدِ: قَاضِي الْجَمَاعَةِ بِقَرْطَبَةِ. مِنْ أَعْيَانِ الْمَالِكِيَّةِ، وَهُوَ جَدُّ ابْنِ رِشْدٍ (الْفِيلَسُوفِ). لَهُ تَأْلِيفٌ مِنْهَا: الْمَقْدَمَاتُ الْمُمَهَّدَاتُ - فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ -، وَالْبَيَانُ وَالتَّحْصِيلُ - فِي الْفَقْهِ -، وَالْفَتَاوَى، وَاخْتِصَارُ الْمَبْسُوطَةِ. تُوُفِيَ بِقَرْطَبَةِ سَنَةِ ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م.

(٤) أَوْرَدَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي مَوَارِدِ الظُّلْمَانِ / ٥٦٨ / وَابْنُ خَزِيمَةَ فِي صَحِيحِهِ بِرَقْمٍ / ١٧٦٥ /.

(٥) الْأَرْبَابُ: جَمْعُ إِرْبٍ: الْعَضْوِ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتَّنَائِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



## حديث كراهة النخامة في المسجد

عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن النبي، ﷺ، رأى نخامة<sup>(١)</sup> في القبلة، فحَكَّها بيده، ورُئي منه كَرَاهِيَةٌ، أَوْ رُئي كَرَاهِيَتُهُ لذلك، وشِدَّتُهُ عليه، وقال: إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يَصَلِّي فَإِنَّمَا يَنَاجِي رَبَّهُ، أَوْ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فَلَا يَسْبِرُ قَنَ فِي قِبْلَتِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ. ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ، فَبَرَقَ فِيهِ، وَرَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، وَقَالَ: أَوْ يَفْعَلْ هَكَذَا.

\* \* \*

ظاهر الحديث كراهية النخامة في القبلة للمصلي، وجوازها تحت القدم، وعن اليسار، وفي طَرَفِ الرداء، وحَكَّها فيه. والعلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: (رؤيته عليه السلام النخامة في القبلة) فيه دليل على أنه، عليه السلام، عند دخوله المسجد كان يتصَفَّحُهُ بِالنَّظَرِ يَمِيناً وَشِمَالاً وَأَمَاماً، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا كَانَ يَرَاهَا، وَلَوْ كَانَ مَشْغُولاً بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْحُضُورِ وَالتَّرْقِي لَمَا رَاهَا.

وفيه من الفقه أن نَظَرَهُ، عليه السلام، المسجدَ على طريق التعظيم له، لكونه منسوباً إلى المولى الجليل، ومحبوساً على عبادته، وهو أيضاً مما تحت إيالته<sup>(٢)</sup>، وهو يُسأل عنه. فإن كُلَّ مَا يَكُونُ الشَّخْصُ يَتَصَرَّفُ فِيهِ مِنْ مَالٍ أَوْ أَهْلِ أَوْ وَجْهِ مِنْ وَجْهِهِ التَّصَرُّفَاتُ كَانَتْ الْمَنْفَعَةُ فِي ذَلِكَ تَعُودُ عَلَيْهِ، أَوْ ذَلِكَ مِمَّا تُعْبَدُ بِهِ. أعني أنه هو الذي ينظر فيه عن طريق ما كُفِّه، والمنفعة فيه عامة مثل وجوب النظر على الإمام في شأن المساجد والطرق وما أشبه ذلك، والمنفعة فيها عامة. وقد قال الله، عز وجل، في شأن المساجد ﴿فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ﴾<sup>(٣)</sup> قال العلماء: رَفَعُهَا: صَيَّانَتُهَا.

(١) النخامة: ما يلفظه الإنسان من البلغم.

(٢) إيالته: إشرافه أو ولايته. من آل على القوم إيالةً: وَلِيَهُمْ.

(٣) سورة النور، من الآية ٣٦.

ورفعها وصيانتها يوجب النظر لها، والتأمل، لئلا يَلَحَقَهَا خلل. وسيدنا، ﷺ، المشرع لذلك، فهو أحَرَصُ الناسِ على ذلك، فظهر ما وجَّهناه.

ويزيد ذلك تحضيضاً قوله، ﷺ: (عُرِضَتْ عَلَيَّ أجورُ أمتي حتى القَدَاةُ يُخْرِجُهَا الرجلُ من المسجد) <sup>(١)</sup> وهذا مما يحترض على النظر إليه والاهتمام به، فإنه لا يرى ذلك المقدار إلا بنظرٍ وتأملٍ.

ويترب على هذا من الفقه أن الإمام إذا دخل المسجد يلتفت إليه بنية الاهتمام به، وكراهة أن يحدث فيه حَدَثٌ، فيكون الإمام مأجوراً على ذلك، أو أن يلقي به أذى، فيزيله الإمام، فهي نية خير، ومن نوى نية خير كان عليها مأجوراً، فكيف إذا كان ذلك موافقاً لفعله، ﷺ؟

وهل يكون ذلك مطلوباً لرب المنزل لكونه مسترعى عليه؟ فبالعلة التي عللنا أولاً يكون ذلك، لأن الباب واحد، لكن في المساجد أكد، لتعظيمها فإنها من الشعائر، وتعظيم الشعائر من التقوى، بمقتضى الكتاب. ولا يكون تعظيمها لما يعظم أهل الكتاب كنائسهم وَيَبْعَهُم بالبناء والزخرفة. فقد جاء نهيه، ﷺ، عن ذلك، وجعله من شروط الساعة. وقد ظهر في زماننا ذلك، يزخر فونها في المباني والكسوات ثم يَرِدُونَهَا للحكايات والأكل واللَّغَط والبيع والشراء، وهذا بضد ما كان عليه، ﷺ، والخلفاء بعده والسادة بعدهم.

وهنا بحث: هل يجوز إذا كانت في الجدار الذي ليس في القبلة؟ وهل يجوز لغير المصلي وإن كانت ليست في جداره؟ فالجواب عن الأول إن جعلنا التعليل الذي علله، ﷺ، في القبلة بأن قال: (إنه ينجي ربه) أنها العلة في الكراهة، فهو يقتضي الجواز في غير القبلة.

وإن قلنا: إن العلة ما جعل الله، عز وجل، للبيوت التي نسبها إلى نفسه من التعظيم وهذا معروف من الكتاب والسنة والإجماع - فيكون ما علله، عليه السلام، للقبلة زيادة في الاحترام، وهو الأظهر. يؤيد ما قلناه قوله، عليه السلام: (النخامة في المسجد خطيئة وكفارتها دفنُها) <sup>(٢)</sup>، وهذا عام في جميع أجزاء المساجد كلها من حائط وأرض وغيرهما، وهو الجواب في المسألتين المتقدمتين.

ولهذا المعنى لما رأى بعض المباركين شخصاً يبصق في المسجد فقال له: لا تأثم، فجاوبه الفاعل: كفارتها دفنُها، فقال له، رضي الله عنه: أنا أنهاك عن المعصية وأنت تجاوبني بالكفارة؟ تركُ الذنب خير من طلبِ المغفرة.

(١) جزء من حديث رواه أبو داود والترمذي عن أنس رضي الله عنه. و(القداة): ما يقع في العين أو الشراب، أي من الوسخ الدقيق.

(٢) رواه مسلم بلفظ (البزاق في المسجد) عن أنس رضي الله عنه.

وقد رأيت بعض العلماء الذين يُقتدى بهم في العلم والفتوى يكره أن يبصق في مكان كان بقرب المسجد؛ ولم يكن ذلك من رحاب المسجد ولا فنائه، وكان هو قاعداً في آخره، لكونه يبتدىء البصاق في المسجد، وإن كانت تلك النخامة لا تقع فيه، خيفة من ذلك الشيء اليسير الذي لا ينفك يخرج معها غالباً مثل رؤوس الإبر، وقد تقع في المسجد ولا تصل حيث تصل النخامة، فأعجبني ذلك الاحترام منه. وفي الحديث الذي أوردناه شاهد على المنع.

وهنا بحث: وهو لم قال: (دفنها) ولم يقل: (تغطيتها)؟ فالجواب عنه: لو قال: (تغطيتها) لكان الضرر ببقائها أكثر بدليل أنه إذا غطاها، وخرج، جاء غيره، فربما قعد على موضعها أو سجد عليها فيلحقه منها بلل في ثوبه، وكذلك في وجهه، وأكثر الناس لا يحتمل ذلك. وربما يكون ذلك سبباً أن يقع له كراهية في المسجد، وقد يتخلف عنه. وقد جاء أن الذي قلبه متعلق بالمساجد من السبعة الذين يظلمهم الله تحت عرشه يوم القيامة، وكيف تكون حال من تقع له فيها كراهية؟ يخاف عليه.

وفيه علة أخرى: ربما في أيام الحر إذا كثرت قد يتولد منها رائحة إذا كانت مغطاة تغطية يسيرة يُتأذى بها، وقد نُهينا أن ندخل المسجد برائحة قذرة. وربما يجتمع لتلك الرائحة الذباب، واجتماعه مما يُتأذى منه، فيتضاعف الضرر بذلك أكثر مما كان أولاً، وقد تكبر من أجل ذلك الخطيئة وصاحبها لا يشعر. وإذا كان الدفن فلا يقع بها هذا الضرر؛ لأن الدفن قد علم بالعرف أنه التعمق في باطن الأرض، وإكثار التراب على الشيء المدفون. فإنّ يكثر التراب على الشيء المدفون تندفع مادة أذيته ويكون كثرة التراب عليه بحسبه من كبر جرمه أو سيلانه. فإذا كثر عليه التراب انقطعت مادة الرائحة ومادة البلل الذي يكون فيه وغير ذلك من المستقذرات، ويبقى وجه الأرض على حاله من الحسن والطهارة.

فلهذه العلة - والله أعلم - أخبر، ﷺ، بـ(دفنها) ولم يقل بـ(تغطيتها). وهذا الدفن إذا كان المسجد تراباً رخواً أو رملًا. فأما إن كان أرضاً صلبة، أو مبلطاً أو مفروشاً بالحصى فممنوع لعدم التكفير، وهو الدفن.

الوجه الثاني: قوله (فحكها بيده) فيه من الفقه وجوه:

منها: الدليل على تواضعه، عليه السلام، لله، سبحانه.

ومنها: أنه أكبر في النهي، وأبلغ في احترام المساجد.

ومنها: أن الفاعل للبر لا ينبغي أن يزهد في شيء منه، لأنه إذا كان إخراجه مثل القذاة يكون مأجوراً فيه، فكيف بمثل هذه؟ ومثل هذا ما ذكر عن بعض الصحابة أن ابناً وأباً اقترعا على من يخرج مع سيدنا، ﷺ، منهما في بعض غزواته، فخرجت قرعة الابن، فقال له الأب: آثرني بها يا بني. فقال له: الجنة هذه يا أبتاه، لا أؤثرك بها. فخرج فاستشهد بين يدي رسول الله، ﷺ.

ومنها أيضاً الحثّ على تكسب الحسنات، وإن كان صاحبها مَلِيّاً منها، وقد قال مولانا، جلّ جلاله، ﴿وَلَا تَمَنَّ تَشْكُرُ﴾<sup>(١)</sup> قال بعض العلماء في معناه: أي تَصْعُقُ عن الخير، وتقول: معي ما يكفيني. والخطاب له، عليه السلام، والمراد أمته.

الوجه الثالث: قوله (وَرُئِيَ مِنْهُ كِرَاهِيَةٌ. أَوْ رُئِيَ كِرَاهِيَتُهُ لَذَلِكَ). هذا شك من الراوي لما رأى من قرائن الأحوال التي تدل على أحد المحتمَلات، أو تنبيه منه على مجموعها، لأنه احتمال الأمر ثلاثة وجوه، ويترتب على كل وجه منها وجه من الفقه. والوجوه (أحدها) أن يكون وجد هو، ﷺ، الكراهية لذلك، فربيت في وجهه. ويترتب على ذلك من الفقه أن المؤمن إذا رأى مكروهاً تغير لذلك، ويكون تغيره بقدر إيمانه. فلما كان سيدنا، ﷺ، أكثر الناس إيماناً تغير من ذلك المكروه حتى رئي في وجهه.

وهنا بحث: هل كان ذلك التغير لما انتهك من حرمة القبلة كما علّله، عليه السلام؟ أو لما يترتب على فاعله من الإثم؟ وكان هو، ﷺ، قد طبع على الرحمة للعالمين كافة لقول الله، عزّ وجلّ، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾<sup>(٢)</sup>، فكيف على المؤمنين؟ أو على مجموعهما<sup>(٣)</sup>، وهو الأظهر؟

ومثل ذلك ينبغي للمؤمنين أن يتغيروا عند انتهاك حرم الله، وعند النوايب التي تطرأ على أحد من المؤمنين، وأكدها ما يكون في الدين، لأنها الخسارة العظمى فكيف بمجموعهما<sup>(٤)</sup>؟

وفي مثل هذه الصفات المباركة فاق أهل الصوفة غيرهم. يروى من مثل هذا أن بعضهم كان له شريك في بعض الأشياء، فطلبه يوماً فقليل له: إنه على مخالفة. فقال: هكذا يكون وأنا حي؟ فتوضاً ودخل الخلوة، وعهد أنه لا يخرج حتى يشفعه الله فيه. فلما فرغ ذلك الشريك من مخالفته قيل له: إن شريكك يطلبك، فأتاه فقليل له: إنه دخل الخلوة من أجلك، وما كنت عليه. فقال لهم: قولوا له: يخرج، فوالله ما أعود لها. وتاب، وحسنت حالته.

واحتمل أن يكون أظهر الكراهية لذلك من أجل قوة الزجر، وأن ذلك من إعلام الدين، فيلزم على ذلك إظهار الكراهية عند رؤية شيء من المكروهات، وهي السنة.

(١) سورة المدثر، الآية ٦.

(٢) سورة فاطر، من الآية ٨.

(٣) الضمير يعود على ما انتهك من حرمة القبلة وعلى ما يترتب على فاعله من الإثم.

(٤) الضمير يعود على ما ينبغي للمؤمنين أن يتغيروا عند انتهاك حرم الله، وعند النوايب التي تطرأ على أحد من المؤمنين.

واحتمل وجهاً ثالثاً، وهو أنه وجد الكراهية بوضع الطبع المبارك، وتعمّد الزيادة فيها ليقترن به مَنْ وَجَدَهَا وَمَنْ لَمْ يَجِدْهَا، وهو أظهر الوجوه.

ويترتب على ذلك من الفقه أن وجود الكراهية لذلك من أجل قوة الزجر، وأن ذلك من علامة الدين والإيمان، وقد نصّ، ﷺ على ذلك في الحديث في تغيير المنكر فقال عند عدم الاستطاعة: (فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)<sup>(١)</sup>. وتكون الزيادة فيه سنّة، واقتداء به، ﷺ، ولأجل هذا أشار الراوي كما تقدم.

وقوله: (وَشِدَّتُهُ عَلَيْهِ) هذا الضمير يعود على الفاعل لها، أو على فعل المكروه نفسه.

الوجه الرابع: قوله (إِذَا قَامَ يَصَلِّي فَإِنَّمَا يَنَاجِي رَبَّهُ، أَوْ رَبُّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ) الشك هنا من الراوي. فعلى القول بالمناجاة، فما هي هنا؟ لأن المناجاة لغة: كلام سر بين اثنين فصاعداً، وهنا المتكلم واحد، فكيف تكون المناجاة؟ وقد بيّن هذا المعنى بعض السادة المتبعين على لسان العلم والسنّة، فقل له: كيف حالك؟ فقال: بخير. أنا بين أمرين في العبادة: فتارة أناجى مولاي بدعائي وتسبيحي، وتارة يناجيني بتلاوتي كتابه، فأنا القارىء، وهو المخاطب لي.

الوجه الخامس: قوله، ﷺ (فَإِنَّمَا يَنَاجِي رَبَّهُ) فيه دليل لأهل السنّة الذين يقولون: إن القرآن كلام الله، وإن القراءة كلام القارىء، والمثلّو كلام الله، والصفة لا تفارق الموصوف. فعلى هذا تكون الصلاة مناجاة حقيقة، فإنها مشتملة على قراءة وتسبيح ودعاء. فالتسبيح والدعاء من العبد إلى الرب، والقراءة من الرب إلى العبد.

ولهذا المعنى يقول أهل الصفاء والأحوال المباركة: إنهم إذا تلاوا بالحضور خرجوا بقوة اليقين والتصديق عن حركات الحروف، وسمعوا بغير واسطة، وهذا لا يعرفه إلا أهل الذوق الذين سلكوا على حدود السنّة، وقليل ما هم.

الوجه السادس: هو قوله، عليه السلام، (رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ). فهذا دليل على أن دعوى أهل التجسيم والحلول باطلة، وأن الحلول والتحيز في حقه تعالى مستحيل. فإنه لو كان، جلّ جلاله، كما زعموا - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - بالحلول على العرش، فكيف يكون هناك، ويكون بين المصلي وبين قبلته؟ وكم من المصلين في الزمن الفرد في أقطار الأرض مختلفين متباينين من جهتين، من جهة التباعد، وجهة تضاد الأقطار؟ فيلزم على ذلك تعداده أو تجزؤه، وهذا محال بالإجماع منا ومنهم، فلم يبق إلا التأويل، فكما نتاول هنا نتاول في غيره من الآثار والآي.

(١) جزء من حديث رواه الإمام أحمد ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فَفَعَلُهُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذَلِكَ يَذْهَبُ هَاتَيْنِ الْعَلَتَيْنِ. وَتَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْفَقْهِ أَنْ التَّقْيِيحَ وَالتَّحْسِينَ  
إِنَّمَا هُوَ بِالشَّرْعِ لَا بِالْعَقْلِ.

الْوَجْهَ الثَّانِي عَشَرَ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ رَمِي النِّخَامَةِ خَيْرٌ مِنْ بَلْعِهَا. يُؤْخَذُ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ، عَلَيْهِ  
السَّلَامُ، بِرَمِيهَا، عَلَى أَحَدِ تِلْكَ الثَّلَاثَةِ الْوُجُوهِ، وَلَوْ كَانَ بَلْعُهَا أَحْسَنَ لَقَالَ: (أَوْ يَلْعُهَا).

لَكِنْ بَقِيَ هُنَا بَحْثُ آخَرَ: هَلْ يَكُونُ بَلْعُهَا مَمْنُوعاً أَوْ مَكْرُوهاً؟ فَإِنْ قُلْنَا: إِنَّ الْأَمْرَ بِالشَّيْءِ نَهْيٌ  
عَنْ ضِدِّهِ، وَإِنَّ النَّهْيَ يَعُودُ عَلَى فُسَادِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، فَيَكُونُ بَلْعُهَا حَرَاماً وَيَكُونُ فِيهِ حُجَّةٌ لِمَنْ يَقُولُ:  
إِنَّهَا تَفْطُرُ الصَّائِمَ. وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّ النَّهْيَ لَا يَعُودُ عَلَى فُسَادِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، فَيَكُونُ بَلْعُهَا مَكْرُوهاً.  
وَهَلْ يَكُونُ بَلْعُهَا مُفْسِداً لِلصَّوْمِ أَمْ لَا؟ يَقْتَضِي الْخِلَافَ.

وَاللَّهُ الْمُوفقُ لِلصَّوَابِ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيماً.

## حديث حبه صلى الله عليه وسلم التَّيْمُن

عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ، ﷺ، يَحِبُّ التَّيْمُنَ مَا اسْتَطَاعَ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ: فِي طُهُورِهِ، وَتَرْجُلِهِ، وَتَنَقُّلِهِ.

\* \* \*

ظاهر الحديث حُبُّ النَّبِيِّ، ﷺ، التَّيْمُنَ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ. والكلام عليه من وجوه:  
الوجه الأول: قولها (كان) فيه دليل على أن إخبارها بهذا الحديث كان بعد وفاته، ﷺ.  
الوجه الثاني: فيه دليل على أن عدم الاستطاعة عذر في ترك المستحب، وكذلك في الفرائض. فإذا كان في الفرائض، فمن باب أولى.

وهنا بحث: فإذا كان الأمر معلوماً في الفرائض هكذا فلم ذُكِرَتْ هذا في المستحب؟  
فالجواب: أن إخبارها باستحباب ذلك في كل الوجوه حتى توفي، عليه السلام، إنما هو تأكيد في فعل المستحب، لأنه لا يمنعه منه إلا ما يمنعه من الفرض، لأن الدَّيْنَ مَطْلُوبٌ فَرَضُهُ وَنَفْلُهُ وَنَدْبُهُ عَلَى حَدِّ سِوَاءٍ، كُلُّ مَنْهُ عَلَى جِهَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَتْرَكَ ذَلِكَ اخْتِيَاراً، وَهُوَ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي الْفَقْهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ.

الوجه الثالث: قولها (في شأنه). هذا أمر مجمل، ثم ذكرت ثلاثة وجوه، فما الفائدة في ذلك؟ فالجواب: هو أنها لما ذكرت الشأن، وهو أمر مجمل - كما ذكرنا - فلو سكنت واكتفت بذلك لاختلقت التقديرات فيه. فلما أتت، رضي الله عنها، بذكر تلك الثلاثة، كان فيه دليل على فقهها.

الوجه الرابع: فيه زوال الإلباس، لأنها ذكرت الطُّهُورَ، وهو أعلى المفروضات؛ لأنه، عليه السلام، قال فيه: (إِنَّهُ شَطْرُ الْإِيمَانِ)<sup>(١)</sup> وذكرت التَّرجُلَ<sup>(٢)</sup>، وهو آكدُ السُّنَنِ؛ وذكرت التَّنَقُّلَ، وهو

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن مالك الأشعري رضي الله عنه بلفظ (الطهور شرط الإيمان).

(٢) الترجل: المشي على الأقدام أو النزول عن الدابة.

من أرفع المباحات. فبيّنت أنه، ﷺ، كان على ذلك الشأن في جميع المفروضات والمستحبات والمباحات؛ فحصرته أفعاله، عليه السلام، في كل الأشياء.

ويترب عليه من الفقه أن من الأحسن في الإخبار والتعليم الإجمال أولاً من أجل الحفظ، ثم التفصيل بعد، من أجل التفهيم.

وهنا بحث في قولها: (كان يحب) لِمَ عبّرت بهذا، وما الحكمة في حبه؟ فالجواب عن كونها عبّرت بذلك؛ لأنها تشعر أن ذلك ليس ممّا أمر به من أجل ألا يعتقداً أحد أنها ممّا فرض؛ واحتمل أن تكون ممّا سنّ، فأزالت بقولها: (يحب) كلّ الاحتمالات.

وأما ما الحكمة في كونه، ﷺ، يحبه؟ فإنما كان ذلك إثارة لما آثره الحكيم بحكمته، والله أعلم، وذلك لما رأى، عليه السلام، ما فضّل الله اليمين وأهله، وما أثنى عليهم، فأحبّ هو، عليه السلام، ما آثره العليم الحكيم، فيكون من باب التناهي في تعظيم الشعائر، حتى يجد ذلك ولوعاً في فؤاده المبارك، فيكون ذلك دالاً على قوة الإيمان.

فمن وجد حباً لذلك، كما وجده، ﷺ، فليشكر الله على ما منحه من ذلك، وإن لم يجد فيتبع ويستعمل أسبابه، ويتشبّه بالمحبين، ولذلك قال بعض الحكماء: إن التشبه بالكرام فلاح. وروي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه رأى شخصاً قرأ سجدة كهيعص وسجد، فقال له: هذا هو السجود فأين البكاء؟ إذا لم تبكوا فتباكوا.

الوجه الخامس: يترتب على ذلك من الفقه أن التشبه بأهل الخير من الخير، إذا كان حباً فيهم من أجل الله، عز وجلّ، وأن التشبه بأهل الشر من الشر.

يعضد ذلك ما نهى عنه، ﷺ، من التشبه بأهل الكتاب، وقد ورد عنه، عليه السلام (من تشبه بقوم فهو منهم)<sup>(١)</sup>.

مَنْ الله علينا بأحوالهم حالاً ومقلاً.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما، ورواه الطبراني في الأوسط عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.



## حديث المسافر إذا قدم من سفره يبدأ بالمسجد

عن كعب بن مالك، رضي الله عنه، كان النبي، ﷺ، إذا قَدِمَ من سَفَرٍ بَدَأَ بالمسجدِ، فَصَلَّى فيه.

\*\*\*

ظاهر الحديث أن من السنَّة إذا قَدِمَ المسافر من سَفَرٍ أن يَبْدَأَ بالمسجد قبل منزله . والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: هل هذا في كل وقت أو في بعض الأوقات؟ فالجواب: أنه إذا كان في الأوقات المنهي عنها التي لا يمكن الصَّلَاة فيها فلا يستحبُّ إذ ذاك دخوله للبلد من أجل عدم الصلاة التي من أجلها تؤتى المساجد، لأنه إن كان المسافر في سفره على السنَّة، فلا يكون دخول المصر الذي فيه منزله إلَّا في وقت يجوز له فيه الصلاة، لأن النبي، ﷺ، لم يكن يدخل المدينة إذا قدم من سفره إلَّا ضحوة النهار<sup>(١)</sup>، وكان ينهى أن يأتي أحد أهله طروقاً<sup>(٢)</sup> - أي ليلاً - وكان أيضاً إذا خرج، ﷺ، ركب في المسجد، وحينئذ يخرج.

وهل ذلك تعيُّد، أو معقول المعنى؟ فإن قلنا: إنه تعبد، فلا بحث. وإن قلنا إنه لحكمة، فما هي؟ فالجواب - والله أعلم - أنه على طريق التبرك وإظهار الافتقار، لأنه ﷺ كان إذا خرج إلى السَّفَر يقول: (أنت الصَّاحِب في السَّفَر، والخليفة في الأهل والمال)<sup>(٣)</sup>. وسفره، عليه السلام، لم يكن إلَّا في جهادٍ أو حجٍّ. وإذا رجع قال: (آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون، صدَّقَ الله وعده، ونَصَرَ عبَّده، وهَزَمَ الأحزاب وحده)<sup>(٤)</sup>. وإعلانه، عليه السلام، بالقول عند الخروج والدخول إظهاراً

(١) رواه ابن جرير عن كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن عساکر عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الإمام مالك عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) رواه الترمذي عن عبد الله بن سرجس رضي الله عنه، ورواه مسلم والنسائي وابن ماجه.

(٤) رواه مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

للتعلق بالله، واللجأ والتبرؤ إلى الله في الأفعال والأقوال. كذلك تفضيله عليه السلام بيت ربه على سائر الأماكن، فيكون الحال مثل المقال.

الوجه الثاني: يترتب عليه من الفقه أن المؤمن ينبغي أن يكون فعله يُصدّق قوله، وقد ذمَّ الله سبحانه المؤمنين الذين ليسوا كذلك بقوله: ﴿يَكَايِبُ الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ؟﴾<sup>(١)</sup>.

الوجه الثالث: فيه دليل على أن الصحابة، رضي الله عنهم، كانوا يقتدون بأفعاله، عليه السلام، كما يقتدون بأقواله. يؤخذ ذلك من إخبار هذا السيد بذلك، فلو لم يكن كذلك لما كان لإخباره بذلك فائدة، ولا كان لروايته أيضاً فائدة.

وقد اختلف العلماء في أفعاله، ﷺ، هل تُحمَل على الوجوب أو على الندب، أو على التوقف، حتى يدل الدليل على أحد الوجهين؟ ولم يقل أحد بترك الاقتداء به فيها، وترك العمل بها.

الوجه الرابع: في الحديث دليل على التبرك بكل ما جعلت له حرمة وترفع، إلا أنه يكون ذلك على لسان العلم. فيؤخذ وجه التبرك من كون سيدنا محمد، ﷺ، يبدأ بالمسجد تبركاً، فكذلك كل ما جعل الله فيه وجهاً ما من الخير، والدليل على أن ذلك يكون على لسان العلم أنه، ﷺ، لم يفعل فيه إلا الصلاة التي من أجلها رُفِعَ<sup>(٢)</sup>، فكذلك يلزم في غيره ألا يكون تعظيمه والتبرك به إلا على الوجه المشروع.

ولهذا المعنى كان أهل الصوفة أكثر الناس احتراماً لما جعل له حرمة، وأن يكون ذلك الاحترام على لسان العلم - كما تقدّم - حتى إنه يذكر عن بعض الأكابر<sup>(٣)</sup> منهم أنه دخل المسجد فنسي وقدم رجله اليسرى، فوقع مغشياً عليه لشدة الحياء من الله، لكونه وقعت منه مخالفة للسنة في دخول بيت ربه، لأن السنة في دخول المسجد تقديم الرجل اليمنى. وقد قال العلماء: مَنْ نسي تقديم اليسرى أُخْرِجَ ليدخل باليمنى، وهو معذور بالنسيان. فانظر إلى احترام هذا السيد كيف كان، وهو فيما وقع منه معذور على لسان العلم. فناهيك في غيره.

وقفنا الله لما مَنَّ به عليهم، وأسعدنا به بمنه.

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) سورة الصف، الآية ٢.

(٢) رُفِعَ: بُنِيَ وَأُنشِئَ، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ أَوَّاهُ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَمْ فِيهَا بِالْقُدُورِ وَالْأَصَالِ. رِجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهَا حَبْرَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (سورة النور، ٣٦ - ٣٧).

(٣) يريد به الشيخ الجليل أبا علي بن السمّاط، كما بين ذلك ابن الحاج في كتابه: المدخل ٣ / ١٨٤.

## حديث صلاة الملائكة على المصلي ما دام في مصلاه

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله، ﷺ، قال: إِنَّ الملائكة تُصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صَلَّى فيه ما لم يُخْدِث. تقول: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ.

\* \* \*

ظاهر الحديث دوام صلاة الملائكة على المصلي ما دام في مصلاه الذي صَلَّى فيه، وتستغفر له، وترحمُ عليه. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: هل هذا على عمومه في كل مصلٍّ كانت صلاته تامةً، أو غيرَ تامةٍ؟ فإن نظرنا من حيث اللغة قلنا: لكل مصلٍّ. وليس بالقوي. وإن نظرنا من جهة الشرع لماذا جعلت الصلاة؟ وما هي الصلاة التي سماها الشارع، ﷺ، صلاة؟ فإنه، ﷺ، قد قال للذي لم يتم ركوعه ولا سجوده في الصلاة: (ارجع فَصَلْ فإنك لم تُصَلِّ)<sup>(١)</sup>، فجعله مُصَلِّياً لغَةً، ولم يجعله مصلِّياً شرعاً، وقال، عليه السلام فيها: (إذا كانت الصلاة غير مقبولة طويت كالثوب الخلق، وضرب بها وجه صاحبها)<sup>(٢)</sup> وقال، عليه السلام: (مَنْ لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً)<sup>(٣)</sup>.

فمن لم يصلَّ شرعاً، وضرب بصلاته وجهه، ولم يزدد من الله إلا بعداً، كيف تدعو له الملائكة أو تستغفر له؟ هذا محال شرعاً وعقلاً. فمن جهة الشرع قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾<sup>(٤)</sup> فمن كان الله يلعنه واللاعنون كيف يُستغفَر له؟ ومن جهة العقل: فمن

- (١) رواه الإمام أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي والدارمي عن أبي هريرة رضي الله عنه.
- (٢) مروي بالمعنى لجزء من حديث أخرجه أبو داود والطيالسي والبيهقي في الشعب عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه. والخلق: البالي.
- (٣) رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما.
- (٤) سورة البقرة، من الآية ١٥٩.

يقتضي عمله العقاب كيف يكون له دعوة من الملائكة أو استغفار؟ فيكون قوله، عليه السلام (في مصلّاه الذي صلّى فيه) في حق المصلّي للصلاة الشرعية المثاب عليها، لا التي تلعه.

وبقي هنا بحث: هل من قِيلَ منه بعض صلاته ولم يقبل البعض، هل يتناوله ذلك الخير، أم لا؟ فالظاهر - والله أعلم - أنه يُرجى له ذلك، بدليل أنه يوم القيامة تُكَمَّلُ له صلاته من نافلته. فهذا من أثر ذلك الدعاء، لأنه، عز وجلّ. تَفْضَّلُ عليه، وقِيلَ مكانَ ما نَقَصَه من الفرض نفلاً. يؤخذ ذلك من قولهم (اللهم اغفر له) لأنه لا تكون المغفرة إلا لخللٍ وَقَعَ، ومن صيغة قولهم (اللهم ارحمه) دل على أن هناك عملاً يوجب الرحمة.

الوجه الثاني: فيه دليل على فضيلة الصلاة على غيرها. يؤخذ ذلك من كون الملائكة تبقى تستغفر له بعد فراغه منها، وإن كان في شغل آخر، ما دام في موضع إيقاعها فيه، ولم يأت مثل ذلك في غيرها من العبادات.

الوجه الثالث: فيه دليل لمن يُفْضَلُ الصالحين من بني آدم على الملائكة، لأنهم يكونون في أشغالهم، والملائكة تستغفر لهم.

وهنا بحث في قوله: (في مصلّاه). هل يعني به الموضع الذي أُوْقِعَ فيه الصلاة، الذي هو موضع سجوده وقيامه، أو البيت أو المنزل الذي جعله لمُصَلّاه؟ فالجمهور على أنه موضع سجوده وقيامه. وقال بعضهم: - وأظنه القاضي عياض<sup>(١)</sup> - إنه البيت الذي اتخذهُ مسجداً لصلاته، وإن لم يجلس في الموضع الذي أُوْقِعَ فيه الصلاة. مثاله أنه إذا صلّى في المسجد، ثم انتقل من الموضع الذي صلّى فيه ولم يخرج من المسجد، أنه يبقى تدعو له الملائكة، وهو قول كثيرٍ بين مُجمَعٍ عليه وقولٍ واحدٍ.

الوجه الرابع: قوله (ما لم يُخْدِث). هو الحَدَث الذي ينقض الطهارة.

وهنا بحث: هل ذلك في كل صلاة فرضاً كانت أو نفلاً؟ الظاهر ذلك، لأنه ﷺ، أتى بها نكرةً.

الوجه الخامس: فيه دليل على أن السنة في البشرى أن تكون بالأقل، ثم تختم بالأعلى، لأنه أبلغ في المسرة. يؤخذ ذلك من إجماله، عليه السلام، البشارة أولاً، وتبيينها آخراً، لأن الملائكة احتمل أن يكون دعاؤهم بالأعلى من الأمور أو الأقل، لكن حصل بذلك سرور، لأنه زيادة خير، والذي أتى في التفسير هي المغفرة والرحمة، فمن غُفِرَ له ورُجِمَ فهي أعلى الجوائز.

(١) القاضي عياض: ترجمته في الحديث ٧٨.

الوجه السادس : فيه دليل لأهل الصوفة الذين يقولون : إن الطاعة إذا لم تَتَّبِعْهَا طاعة أخرى فهي مدخولة<sup>(١)</sup>. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام : (الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه) فلما كانت صلاته أو بعضها - على التقسيم المتقدم - مقبولة، تَبِعَهَا خَيْرٌ آخر، وهو جلوسه، حتى استغفرت له الملائكة، فكان خيراً تَبِعَهُ خَيْر، كما أشاروا.

وهنا سؤال وارد: ما الفائدة التي ترتبت على هذا الإخبار بهذا الحديث من طريق الفقه والتعبّد؟ فالجواب : أن فيه الحثّ على ملازمة الموضع الذي صلى فيه من أجل زيادة ذلك الخير له، ولو لم يخبر به، عليه السلام، ما كان أحد يعلم ذلك حتى يفعله. لكن انظر اليوم، بعد العلم به، من الذي يفعله إلا القليل النادر؟ فدلّت الرغبة عنه، بعد العلم به، على الإشارة التي أشار إليها أهل الصوفة أن عدم قبول الصلاة دلّ على سرعة القيام من موضعها، ودلّ على أن من حُرِمَ مواضع الخير خيف عليه أن يكون من أهل الضدّ.

يبين ذلك قصّة موسى، عليه السلام، حين قال: رب هل أعرف ما لي عندك؟ فقال: يا موسى، إذا أحببت الدنيا فَرَوَيْتُهَا عَنْكَ، وأحبيت الآخرة فَيَسَّرْتُهَا عَلَيْكَ، فاعلم أنّ لك عندي حظاً.

فالتيسير منه، عزّ وجلّ، للخير من علامة الخير.  
وصلى الله على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) المدخول: المهزول والداخل في جوفه الهزال. والبعر المدخول: البين من الهزال. ورجل مدخول: إذا كان في عقله أو حسبه دخل.

## حديث سجود السهو

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: صَلَّى بنا رسول الله ﷺ، إحدى صَلَاتَيِ الْعِشِيِّ - قال ابن سيرين<sup>(١)</sup>: سَمَّاهَا أَبُو هُرَيْرَةَ، وَلَكِنْ نَسِيتُ أَنَا - قال: فَصَلَّى بنا رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ. فقام إلى خَشْبَةٍ مَعْرُوضَةٍ فِي الْمَسْجِدِ فَاتَكَأَ عَلَيْهَا كَأَنَّهُ غَضْبَانٌ، وَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى الْيُسْرَى، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، وَوَضَعَ خَدَّهُ الْيُمْنَى عَلَى ظَهْرِ كَفِّهِ الْيُسْرَى. وَخَرَجَتْ السَّرْعَانُ<sup>(٢)</sup> مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ فَقَالُوا: أَقْصِرْتَ الصَّلَاةَ؟ وَفِي الْقَوْمِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَهَابَا أَنْ يَكَلِّمَاهُ، وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ فِي يَدَيْهِ طَوْلٌ، يُقَالُ لَهُ: ذُو الْيَدَيْنِ<sup>(٣)</sup>. قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْسَيْتَ أَمْ قُصِرْتَ الصَّلَاةَ؟ قَالَ: لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تُقْصَرَ. فَقَالَ: أَكَمَا يَقُولُ ذُو الْيَدَيْنِ؟ فَقَالُوا<sup>(٤)</sup>: نَعَمْ. فَتَقَدَّمَ وَصَلَّى مَا تَرَكَ ثُمَّ سَلَّمَ، ثُمَّ كَبَّرَ وَسَجَدَ مِثْلَ سَجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَكَبَّرَ، ثُمَّ كَبَّرَ وَسَجَدَ مِثْلَ سَجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَكَبَّرَ. فَرُبَّمَا سَأَلُوهُ: ثُمَّ سَلَّمَ؟ فَيَقُولُ: نُبِّئْتُ أَنَّ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ<sup>(٥)</sup> قَالَ: ثُمَّ سَلَّمَ.

\* \* \*

ظاهر الحديث: جواز العمل القليل في الصلاة، والكلام القليل لا يمنع من إتمامها إذا كان

- (١) ابن سيرين: محمد بن سيرين البصري، الأنصاري بالولاء: إمام وقته في علوم الدين بالبصرة. تابعي. مولده ووفاته في البصرة. وكان فقيهاً وراويهاً للحديث، واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا. توفي سنة ١١٠ هـ / ٧٢٩ م.
- (٢) السَّرْعَان: أوائل الناس الذين يتسارعون إلى الشيء.
- (٣) ذو اليدين: سترد ترجمته في الوجه العشرين من شرح هذا الحديث، وسيميز بينه وبين ذي الشهادتين.
- (٤) فقالوا: الضمير عائذ على أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما.
- (٥) عمران بن حصين: من علماء الصحابة. كانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة. وبعثه عمر إلى أهل البصرة ليُفَقِّهَهُمْ، ولأَهْلَ زِيَادَ قَضَائِهَا، وتوفي بها. وهو ممن اعتزل حرب صفين. له في كتب الحديث ١٣٠ حديثاً. توفي سنة ٥٢ هـ / ٦٧٢ م.

ذلك على وجه النسيان، أو عامداً مع من نسي، إذا كان ممن صلاته مرتبطة بصلاته كإمام مع مأموم.  
والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: فيه دليل لمن يقول إن السلام ساهياً لا يُخرج من الصلاة. يؤخذ ذلك من قوله:  
(فرجع وأنتم ما بقي) ولم يذكر أنه كثر.

الوجه الثاني: فيه دليل على أن الإمام يرجع لكلام الجماعة، ولا يرجع لكلام الواحد. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام: (أكما يقول ذو اليمين؟) ولما أخبره أبو بكر وعمر رجعا إلى قولهما. وإنما قلنا: إن الإخبار كان من أبي بكر وعمر، ولفظ الحديث على العموم من جهة ما تعطيه قوة الكلام، لأن راوي الحديث اعتذر أولاً عن سكوتهما لهيئتهما لرسول الله ﷺ. ولو كان غيرهما الذي كان منه الإخبار لذكره واعتذر عنهما ثانية. فهذا يظهر ما خصصناه أن هذا الإخبار كان منهما.

الوجه الثالث: فيه دليل على التسليم لأهل الفضل فيما فعلوه لمن لم يعلم: أهم على الصواب في ذلك الأمر، أم ليس؟ يؤخذ ذلك من خروج السرعان، وهم يقولون: أقصرت الصلاة؟ ولم يعتب عليهم النبي ﷺ، لأن النسخ في حياته، عليه الصلاة والسلام، ممكن. وأما الغير فمستحيل، فلا يُسلم له إلا فيما لم يكن خرقاً للإجماع. وأما إذا أمكن له تأويل سلم له على أحد المحتملات إن كان غير مقطوع به<sup>(١)</sup>.

الوجه الرابع: يؤخذ منه مراجعة المفضل للفاضل إذا رأى منه ما لا يعرفه إلا أنه يكون بأدب. يؤخذ ذلك من مراجعة ذي اليمين النبي ﷺ، بذلك الأدب.

الوجه الخامس: يؤخذ منه إكبار ذي الفضل وإن رأى منه ما لا يعرف، إلا أن الرائي تلزمه ملازمته حتى يتبين له ما صدر منه على أي وجه يُحمل. يؤخذ ذلك من فعل أبي بكر وعمر، لأنهما علما ما علمه ذو اليمين، إلا أنهما حملتهما الهيبة له على ألا يكلماه، وحملهما ما تزايد من الأمر على ألا يفارقاه حتى يعرفا الحكم.

ويدل على جواز ذلك كله تسليمه، ﷺ، للكل في صلاته، ولو كان أحد الأحوال غير جائز لقال في ذلك شيئاً؛ لأنه المشرع، ولا يؤخر البيان عن وقت الحاجة.

الوجه السادس: فيه دليل على أنه إذا سأل الفاضل المفضل: هل وقع منه شيء فيه خلل؟ أن يخبره بما وقع كما وقع. يؤخذ ذلك من سؤال رسول الله ﷺ، أبا بكر وعمر، رضي الله عنهما، فأخبراه بما وقع.

(١) يقصد المؤلف رحمه الله: أن النسخ في حياته ﷺ لا خلاف فيه، وادعاء النسخ من غيره يقبل من أهله، ما لم يكن فيه خرق لإجماع، أو مخالفة لمقطوع به.

الوجه السابع: فيه دليل على أن القدرة تفعل ما شاءت مع إبقاء الحكمة. يؤخذ ذلك من نسيان محمد، ﷺ، في هذا الموضع. وقد كان من شيمه المباركة أنه عند النوم تنام عينه ولا ينام قلبه<sup>(١)</sup>، وهنا وقت الحضور نسي بعض الصلاة، لكن نسيانه، ﷺ، هنا لوجهين عظيمين:

(أحدهما) قد نص هو، ﷺ، عليه، وهو قوله، عليه السلام، (إِنَّمَا أُنْسَى أَوْ أُنْسَى لَأُسْرَ)<sup>(٢)</sup>. فلما كان هو عليه السلام، المشرع والمقتدى به، وله الأجر في كل الأعمال التي يُقْتَدَى به فيها إلى يوم القيامة، جاء النسيان هنا أرفع من الحضور، فهي في حقه تَكْرِمَة.

وهذا النسيان يُحتاج فيه إلى بحث. وهو: ما معنى الحكمة فيه إن كان على معنى قوله، عليه السلام، (أُنْسَى)؟ وما معنى الحكمة فيه إن كان على معنى (أُوْنْسَى)؟

والجواب: إن كان على معنى قوله، عليه السلام، (أُنْسَى) فظاهر الحكمة في ذلك أن تظهر، عليه السلام، عليه أوصاف البشرية. وبظهور أوصاف البشرية عليه يثبت أن تلك الأمور الزائدة على ذلك دالة على خصوصيته، عليه السلام، ورفع منزلته.

وإن كان على معنى قوله، عليه السلام، أو (أُنْسَى) فظاهر الحكمة في ذلك أن القدرة تُجري الخيرات والأحكام على يديه، عليه السلام، بالأقوال والأفعال باختياره وبغير اختياره، ليظهر لذلك قدر العناية به، وتصديقاً لما قاله، وتحدى به، وادّعاء.

لذلك لم يقع منه، عليه السلام، النسيان إلا في ثلاثة مواضع. في الأفعال قدر ما احتاج الحكم إليه، وهو هذا الحديث، وقام من اثنتين، وقام إلى خامسة. وفي الأقوال مرة، قدر ما احتاج الحكم إليه، وهو أنه، عليه السلام، أسقط آية من سورة المُلْك، ولم يقع منه نسيان غير ما ذكر.

(والوجه الآخر) وهو بالتقدير من حالة استغراقه، عليه السلام، في الحضور والأدب حتى ذَهَلَ عن العدد.

الوجه الثامن: فيه دليل على أن تَبَيَّنَ الحكم بالفعل أرفع منه بالقول، ولولا ذلك لكان، ﷺ، حكم في السَّهْو بالقول كما قال: عليه السلام: (مَنْ نَسِيَ شَيْئاً فِي صَلَاتِهِ فَلْيَبْنِ عَلَى الْيَقِينِ)<sup>(٣)</sup>.

الوجه التاسع: فيه دليل على لطف الله بعبده ورفقه بهم. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السلام، جعل تعليمه حكم السَّهْو لأُمَّته بالفعل، ولو عَلَّمَهُم بالقول لكان كافياً. لكن لما كان الذي يَسْهَو جعل

(١) هو معنى لحديث تقدم تخريجه في الحديث رقم (٢٠).

(٢) رواه الإمام مالك في السهو (بلفظ آخر).

(٣) هو معنى لحديث أخرجه البيهقي عن أنس بن مالك رضي الله عنه.



بعده من أصحابه، رضي الله عنهم، والمُبَارَكِينَ من أمتِهِ يَجِدُونَ لذلك حُزْنَاً في أنفسهم، لكونهم وَقَعَ منهم في أَجَلِ العبادات ما لم يقع من نبيهم، فجاء<sup>(١)</sup> فعله، عليه السلام، لهم بالتعليم من باب إذهاب الحُزْنَ عنهم، وهو عين الرفق والرحمة.

الوجه العاشر: فيه دليل على فضل الصحابة، رضي الله عنهم، وتحريمهم في النقل. يؤخذ ذلك من قوله (إحدى صلاتي العشي) وتبرئة صاحبه من النسيان، وإضافته إلى نفسه كما وقع.

الوجه الحادي عشر: يؤخذ منه جواز القيام إثر الصلاة. يؤخذ ذلك من قوله (ثم سلم فقام) فساقه بالفاء التي تعطي التعقيب والتسبيب.

الوجه الثاني عشر: فيه جواز جعل الشيء التنظيف في المسجد، ما لم يكن مؤبداً. يؤخذ ذلك من إخباره أن الخشبة كانت معترضة في المسجد.

الوجه الثالث عشر: فيه دليل على جواز الاتكاء في المسجد على ما يجوز الاتكاء عليه. يؤخذ ذلك من إخباره بأنه، ﷺ، اتكأ على الخشبة.

الوجه الرابع عشر: يؤخذ منه جواز التشبيك بين الأصابع. يؤخذ ذلك من قوله (شبك بين أصابعه).

الوجه الخامس عشر: فيه دليل على جواز وضع اليدين، بعضهما على بعض. يؤخذ ذلك من الإخبار عنه، عليه السلام، أنه جعل يديه بعضهما على بعض.

الوجه السادس عشر: يؤخذ منه كثرة اهتمام الصحابة، رضي الله عنهم، بجميع أحوال النبي، ﷺ، وحبهم فيه. يؤخذ ذلك من قوله (كأنه غضبان). فلولا كثرة اشتغالهم به لما كانوا ينظرون إلى مثل هذا أو غيره.

الوجه السابع عشر: يؤخذ منه عدم الحكم بالمحتمل. يؤخذ ذلك من قوله (كأنه غضبان) لأنه رأى صفة تشبه صفة الغضب، وقد لا يكون هو، عليه السلام، في ذلك الحال غضباناً، بل يكون مشغولاً فِكْرُهُ في شيء آخر، فلم يقطع بشيء محتمل.

الوجه الثامن عشر: يؤخذ منه جواز وضع الخدود على الأيدي. يؤخذ ذلك من إخباره أنه، ﷺ، جعل خده على ظهر كفه. وقوله (وخرجت السرعان) هم الذين سارعوا إلى الخروج.

الوجه التاسع عشر: فيه دليل على جواز تسمية الشخص بما قد غلب عليه المعرفة به. يؤخذ ذلك من قوله، ﷺ، (أَكَمَا يَقُولُ ذُو الْيَدَيْنِ؟) ولو كان من باب اللقب لما أخبر هو، ﷺ، به.

---

(١) هنا جواب «لَمَّا» زاد فيه الفاء.

الوجه العشرون: فيه دليل على طلب البيّنة فيما لا يعرف، وإن كان القائل صادقاً. يؤخذ ذلك من سؤال سيّدنا، ﷺ، للعميرين<sup>(١)</sup> في تصديق ما قال ذو اليدين<sup>(٢)</sup>، وهو الذي سمّاه سيّدنا، ﷺ، ذا الشهادتين<sup>(٣)</sup>. فلمّا أخبره بما لا يعلم طلب منه البيّنة على قوله.

الوجه الحادي والعشرون: يؤخذ منه أنه لا يجوز لمن نسي من صلاته شيئاً أن يؤخر فعله. يؤخذ ذلك من فعله، عليه السلام، لأنّه لمّا أخبره العمران لم يتأخّر، وعاد إلى صلاته، لأنّه قال: (فتقدّم وصلّى) فأتى بالفاء التي تعطي التعقيب.

الوجه الثاني والعشرون: فيه دليل على جواز حذف بعض الكلام إذا كان هناك ما يدل عليه. يؤخذ ذلك من قوله «فتقدّم وصلّى»<sup>(٤)</sup>، ولم يقل: (ما وصلّى) لأن ذلك مفهوم في الحديث.

الوجه الثالث والعشرون: يؤخذ منه الحجة لمذهب مالك الذي يقول: إن سجود السهو إذا كان عن زيادة يكون بعد السلام. يؤخذ ذلك من قوله (ثم سلّم ثم سجد). فلم يسجد هنا - وهو موضع زيادة - إلا بعد السلام.

الوجه الرابع والعشرون: فيه دليل على أن سنّة سجود السهو لا تتأخر مع الذّكر عن وقت الفراغ من الصلاة، لأنّه أخبر أنه عليه السلام سجد إثر السّلام.

الوجه الخامس والعشرون: يؤخذ منه أن سنّة سجديّ السهو أن التكبير فيهما في الخفض والرّفع كما هو في غيرها من الصلاة. يؤخذ ذلك من وصفه السجود بذلك.

الوجه السادس والعشرون: يؤخذ منه أنه يسلم من سجديّ السهو كما يسلم من الصلاة لإخباره بذلك، فقال (فسلم).

(١) العُمَيران: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. غلبَ عمر لأنّه أخف الاسمين.  
(٢) ذو اليدين: رجل من بني سُليم يقال له: الخرباق. حجازي، شهد النبي ﷺ وقد رآه وَهَمَ في صلاته وخاطبه. وهو ليس (ذو الشمالين) المقتول بيدٍ، وأن قصة ذي اليدين في الصلاة كانت قبل بدر، كما وَهَمَ الزهري (الاستيعاب ٢/ ٤٧٥).

(٣) أما (ذو الشهادتين) فهو خزيمه بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الخطمي الأنصاري، من الأوس. جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين. يكنى أبا عمارة. شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد، وكانت راية (خطمة) بيده يوم الفتح، وكان مع علي رضي الله عنه بصفين، فلما قتل عمار بن ياسر جرّد سيفه فقاتل حتى قتل. وكانت صفين سنة سبع وثلاثين. (الاستيعاب ١/ ٤٨٨). ومن هذا يتضح أن المؤلف رحمه الله عدّ ذا اليدين: ذا الشهادتين مع أنهما شخصان مختلفان.

(٤) يريد أنه لم يقل هذا بعد «نعم».

لكن هنا بحث: السهو في الصلاة مع كثرة خير، وصاحبه معذور، والالتفات مع قلته لا يجوز، وصاحبه لا يُعذَر، وقال، عليه السلام: «هي خُلُصة يختلسها الشيطان من صلاة أحدكم»<sup>(١)</sup>.  
فالجواب: لما كان الالتفات أصله حفظ النفس لم يَجُزْ مع قلته، وجُعِلَ حفظ الشيطان. ولما كان السَّهْوُ أصله اشتغالُ خاطر بتؤفية تمام العمل أو بمكرٍ من الشيطان عُذِر، وكُمِّلَ له ما كان الخاطر معموراً به.

الوجه السابع والعشرون: هنا إشارة صوفية، وهي أن مَنْ كان مشغولاً بعمله جَبَرَ خَلْلَهُ، وإن كاده عدوُّه نُصِرَ عليه، ومن ضَيَّعَ المراقبة في حاله شاركه فيه عدوُّه.  
يا هذا أتريد صلاح الدين وراحة النفس؟ هيهات كيف تجتمع الشموسُ والظُّلَمُ؟  
وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري. و(الخُلُصة) الفرصة. والضمير: (هي) يعود على: «الالتفاتة».

## حديث السترة للمصلي والمروء بين يديه

عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: سمعتُ النبي، ﷺ، يقول: إذا صَلَّى أحدكم إلى شيء يَسْتُرُهُ من الناس، فأراد أحدٌ أن يجتازَ بين يديه، فَلْيَدْفَعْهُ. فإن أبي فليقاتِلْهُ، فإنَّما هو شيطان.

\* \* \*

ظاهر الحديث جوازُ مقاتلة الذي يمر بين المصلي وسترته. والكلامُ عليه من وجوه: الوجه الأول: معرفة السترة المُجَرَّدة، وكيفية الصلاة إليها، ومعرفة هذه المقاتلة، ووقتها، وكيفيةها.

فأما السترة: فعلى وجهين: متَّفَقٌ عليها، ومُخْتَلَفٌ. فالمتَّفَقُ عليها هي قَدْرُ مؤخِّرة الرُّخْل، وهي قَدْرُ عَظْمِ الذراعِ وغِلْظِ الرُّمَح، لأنها صِفَةُ العَنَزَةِ<sup>(١)</sup> التي كان بلال، رضي الله عنه، يَضَعُها بين يدي النبي، ﷺ، في السفر، إذا أراد الصلاة. وما دون ذلك مختلف فيه، وهو مذكور في كتب الفروع.

وأما كيفية الصَّلَاة إليها فتكون إلى الجانب الأيمن، ولا يُصَمَدُ إليها، لأن فيها تَشَبُّهاً بعبادة الأصنام. وكل شيء فيه شَبَهٌ في مكروهٍ أو محرَّمٍ كَرِهَتْ الشريعة التشبُّه به.

وأما المقاتلة وكيفيةها فاختلف الناس فيها اختلافاً كثيراً، حتى إنَّ مَنْ تَغَالَى في ذلك من بعض العلماء قال: إن قَتْلَهُ قَدَمُهُ هَذَر. والصحيح منها ما يدلُّ عليه تعليل الشارع، ﷺ، في آخر الحديث، وإن كان لم نسمعه ممن تقدم لأنه، عليه السلام، قال (فإنَّما هو شيطان) فتكون المقاتلة كمن يقاتل الشيطانَ. ومقاتلة الشيطان بالأفعال اليسيرة مثل الكَتْبِ أو الرُّقْيَةِ، لأن العمل اليسير في الصلاة من

(١) العَنَزَةُ: أطول من العصا وأقصر من الرمح، في أسفلها زُجْ كزَجِ الرمح، يتوكأ عليها الشيخ الكبير.

أجل الضرورة جائز . فإذا قاتله قتالاً شديداً يُخرجُه عن حَدِّ الصلاة فقد رَجَعَ المصلي شيطاناً ثانياً، بل أشدَّ منه . ولذلك قال علماؤنا المحققون : يدفعه دفعاً لطيفاً لا يخرجُه من الصلاة، فإن أبى أن يرجع تركه واشتغل بالصلاة .

وهنا بحث : هل المقاتلة من أجل خلل يقع للمصلي في صلاته، أو هو من أجل المار؟ الظاهر - والله أعلم - أنه من أجل المار، وإن كان ليس في الحديث من أين يؤخذ واحدٌ منهما، لكن هو مُستَقَرٌّ من خارج، وهو أنه، عليه السلام، قد قال في حق المار : (لأنَّ يقفَ أربعينَ خريفاً خيراً له من أن يمرَّ بين يدي المصلي)<sup>(١)</sup> وقال، عليه السلام، في حق المصلي : (إنَّ الصلاةَ لا يقطعُها شيءٌ)<sup>(٢)</sup> . فلم يَجِءْ أنه إن مرَّ أحدٌ بين يديه أنَّ صلاته غيرُ مُجَزَّاة، لم يقل بذلك من له بال من العلماء، فبان ما قلناه أنه في حق الغير، لأن المؤمن مع المؤمن كالشيء الواحد، ولذلك قال، عليه السلام، فيهما (كالبنين) وقيل (كالبنين يشدُّ بعضُهُ بعضاً)<sup>(٣)</sup> .

ومثل ذلك إجماع العلماء أنه لا يجوز للمصلي أن يرى نفساً تذهب وهو قادر على نجاتها ويتركها ويستغل بصلاته، فإن فعل فهو آثم . غير أنه إن كان الفعل في ذلك يسيراً لم يخرج من صلاته واستمر عليها وأجزأته، وإن كان كثيراً ابتداءً صلاته ولا إثم عليه في قطعها .

الوجه الثاني : فيه دليل على أن السترة تكون بكل شيء . يؤخذ ذلك من قوله : (إلى شيء) فاتى به نكرة، ومن أجل ذلك وقع الخلاف بين العلماء . فمن تعلق بعموم اللفظ، ولم ير فعله، ﷺ، مخصصاً في الإجزاء أجاز السترة بكل شيء، وقال : فعله ذلك يكون من باب الاستحباب . ومن جعل فعله، عليه السلام، مُبَيَّنّاً للإجزاء قال : أقلُّ من ذلك لا يجزي - وهو الحق - ومما يقوي هذا الوجه ما جاء عنه، ﷺ، حين سُئِلَ عن سترة المصلي قال : (قَدَّرَ مؤخرَةَ الرَّحْلِ)<sup>(٤)</sup> .

الوجه الثالث : فيه دليل على أن السترة لا تكون إلا حيث لا يؤمن المرور، وأما حيث يؤمن المرور فلا يؤخذ ذلك من قوله (يستره من الناس) .

الوجه الرابع : فيه دليل على أن الظاهر يستدل به على الباطن حيث لا يمكن وصولنا إلى الباطن . يؤخذ ذلك من قوله (أراد) وإرادته لا تُعلم إلا إذا رأيناه قريباً من السترة، فدل حاله على ما في نيته . ونحن الآن ممنوعون من الكلام، فعملنا بمقتضى ما دلَّ عليه حاله .

(١) رواه الإمام أحمد وابن ماجه والضياء عن زيد بن خالد رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبراني والدارقطني عن أبي أمامة رضي الله عنه .

(٣) رواه الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي عن أبي موسى رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم وأصحاب السنن .

الوجه الخامس: فيه دليل على ألا يَقْطَع بالشَّيْء في الحكم إلا بالدليل الذي لا يحتمل التأويل. يؤخذ ذلك من أنه، عليه السلام، لم يُسمَّه شيطاناً إلا بعد الدفع ولم يرجع، فإن رجع فليس بشيطان.

ووجه الفقه في ذلك أنه قد يكون مشغول الخاطر لم يَرِ المصلِّي، أو يكون لم يتبين له أنه يصلي، أو غير ذلك من الأعذار. فإذا دفعه ولم يرجع فلم يبق إذ ذاك عذر، وحكمنا له بأنه شيطان على تحقيق ويقين.

ويترتب على هذا من الفقه وجه آخر، وهو: أن حكم المحتَمِل ليس كحكم المقطوع به، ولا يُضَيِّع أيضاً حكمُ المحتَمِل، لأنه إن ضُيِّع ترتب عليه مفسادٌ كثيرة. يؤخذ ذلك من كونه، ﷺ، أمرٌ أولاً بالدفع لاحتمال أن يكون ساهياً أو ناسياً. فإن كان من أحد احتمالات فرجع حَصَلَ المقصود، وإلا قاتلناه، وحكمنا له أنه شيطان.

الوجه السادس: فيه دليل على أنه لا يُحْتَرَم إلا من يَحْتَرَم. يؤخذ ذلك من أنه، عليه السلام، لم يجعل حرمة عدم المرور وَمَنْعِهِ، وأمر بقتال مَنْ فَعَلَهُ إِلَّا للمصلِّي الذي جعل الشُّرَّة، ولم يجعل ذلك لغيره ممَّن ضَيِّع الحكم في تركه الشُّرَّة حين صلاته. ومما يزيد ذلك بياناً قول الفضيل بن عياض «من خاف الله خَوْفَ الله منه كُلُّ شيءٍ، ومن لم يَخَفِ الله خَوْفَهُ الله من كل شيءٍ. فحُرْمَةُ بحرمة جزاءٍ وفاقاً».

الوجه السابع: فيه دليل على أن السترة لا تكون إلا من الناس لا من غيرهم. يؤخذ ذلك من قوله (من الناس). وهذا مما يقوي ما ذكرناه أولاً أنه لو كان في حق المصلِّي لكان يُؤمر بدفع كل من يمر بين يديه من الناس وغيرهم.

الوجه الثامن: فيه دليل صوفي وهو أن الحرمة عندهم خير من العمل.

يؤخذ ذلك من حكمه، ﷺ، لمن احتَرَم صلاته بجعل الشُّرَّة، جَعَلَ له الإِمْرَةَ على المارِّ بين يديه، ودَفَعَهُ ومقاتلته، بقوله، عليه السلام؛ (فإن أبي فليقاتله) وفَسَّقَ المتعدي عليه حتى جعله شيطاناً.

الوجه التاسع: فيه دليل على أن يحكم للشخص بمقتضى فعله في الوقت، ولا يُنْظَر لِمَا تَقَدَّمَ. يؤخذ ذلك من قوله (فإنما هو شيطان) على الإطلاق، ولم يفرِّق بين من كان قبل ذلك على تقوى أو غيرها.

الوجه العاشر: فيه دليل لأهل الصوفة الذين يجعلون الحكم للحال لا لغيره، حتى قالوا: لا

تكنُ في كل أنفاسك إلا على ما تحبُّ أن تموتَ عليه، كراهةً أن يأتِكَ الموتُ في ذلك النَّفس، ومَن  
أدخلَ حُسْنَ حاله في خَبر كانَ فكأنَّه ما كان.

كلنا نعرف الحق والصواب، لكن لما آثرنا شهواتِ النفوس تعذَّر علينا اتخاذهُ حالاً.

جعلنا الله ممَّن سهَّل عليه الوصولَ بتحصيلِ الأصول والفروع. آمين.

وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

## حديث فتنة الأهل والمال وكفارتها

عن حذيفة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ، تُكْفَرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن هذه الفتنة الخاصة وهي المذكورة في الحديث تكفرها الأربعة المذكورة: الصَّوْمُ وَالصَّلَاةُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ. والكلام عليه من وجوه: الوجه الأول: ما هذه الفتنة؟ وما حدُّها؟ وهل هذه خاصَّةٌ بالرجال دون النساء، أو هي من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى؟ وهل هذه المذكورة من العبادات هي المفروضات أو غيرها؟ وهل لا يقع<sup>(١)</sup> التكفير إلا بمجموعها، أو يكون بواحد إن وقع منها؟

فالجواب عن الأول: وهو ما هذه الفتنة؟ فالفتنة في اللغة هي: الاختبار. فقد تكون للخير وقد تكون لضره، كما قال، جلَّ جلاله، ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾<sup>(٢)</sup> فتكون (في) هنا بمعنى (الباء). والعرب تبدل الحروف بعضها عن بعض، فيكون معناه: فتنة الرجل بأهله. والاختبار بأهله على وجوه:

منها هل يُوفي لهم - وهم جميع المذكورين - الحق الذي يجب لهم عليه، أم لا؟ لأنه راع عليهم، ومسؤول عن رعايتهم.

فإن لم يأت بالواجب منها فليس هذا مما يكفره فعل الطاعات، بدليل قوله، ﷺ، للذي سأله: «إِذَا قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، يَكْفُرُ اللَّهُ عَنِّي خَطَايَايَ؟» قال (نعم) إلا

(١) يريد: أو لا يقع.

(٢) سورة الأنبياء، من الآية ٣٥.



الدَّيْنِ<sup>(١)</sup>، وهذا من جملة الديون. وقال عليه السلام: (من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليَتَحَلَّلْهُ منه اليوم)<sup>(٢)</sup>. وهذا بإجماع أن الحقوق إذا وجبت لا يُسْقِطُهَا إِلَّا الْأَدَاءُ أَوْ التَّحَلُّلُ. فإن كان ما تركه من حقوقهم من طريق المندوبات فليس من ترك مندوباً عليه إثم فيحتاج إلى تكفير.

ويبقى وجه آخر وهو تعلق القلب بهم. وهو على قسمين:

إما تعلق مُفْرِط حتى يشغله عن حق من الحقوق، فليس هذا مما يدخل تحت (ما تكفره الطاعات) بل يدخل تحت وعيده، عز وجل، في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾<sup>(٣)</sup>.

وإن كان مما لا يشغله عن توفية حق من حقوق الله تعالى فهذا النوع - والله أعلم - هو الذي تكفره أفعال الطاعات، لأنه لما اجتمع له في قلبه هواه فيما ذكر، وحق الله، عز وجل، وقدم حق الله، فتلك المراعاة التي وفق لها كانت كفارة لشغله بغير مولاه.

يشهد لذلك قوله، ﷺ: (إنكم أصبحتم في زمن كثير فقهاؤه، قليل قراؤه وخطباؤه، قليل سائلوه، كثير معطوه، العمل فيه خير من العلم، وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه، كثير خطباؤه، قليل معطوه، كثير سائلوه، والعلم فيه خير من العمل)<sup>(٤)</sup> وكان، ﷺ، حين يُقَسِّم بين عياله يعدل بينهم، ولم يكن ذلك فرضاً عليه، وذلك من خصائصه، عليه السلام، الخاصة به. إلا أنه لم يحف<sup>(٥)</sup> قط على واحدة منهم، ﷺ، وعليهن أجمعين، وما زال، عليه السلام، يعدل بينهم، ثم يقول بعد ذلك: (هذا جهدي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما لا أملك)<sup>(٦)</sup>، وهو معنى ميل القلب إلى البعض دون البعض في وجه ما. وقوله، ﷺ، هذا على وجه التأديب لنا؛ لأنه، ﷺ، لا يميل

(١) مروي بالمعنى لما أخرجه الإمام أحمد ومسلم والنسائي والترمذي عن أبي قتادة رضي الله عنه. وفي المطبوعة والنسخ: قتل.

(٢) مروي بالمعنى لما أخرجه الإمام أحمد والبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه. و(المظلمة): الظلامة. و(التحلل) هو المسامحة. تقول: تحللت فلاناً واستحللت: طلبت منه الجل من حقه.

(٣) سورة التوبة، من الآية ٢٤.

(٤) أخرجه الطبراني من حديث حزام بن حكيم عن عمه، وقيل عن أبيه. وإسناده ضعيف (انظر العراقي على الإحياء ١٧/١).

(٥) لم يحف: لم يظلم ولم يجز. من حاف يحف حيفاً.

(٦) لفظه: (اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك). رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

الميل الذي نميله نحن، بدليل قوله، عليه السلام، لما عاتبه أهله في أثره<sup>(١)</sup> عائشة، رضي الله عنها، فظن الجاهل بحاله، عليه السلام، الجليلة - على ما يقدر - أن ذلك كان لشبابها وحُسنها، فقال، عليه السلام، مجابواً لهم: (لم يوح إليّ في فراش إحداكن إلا في فراشها)<sup>(٢)</sup> فبين، ﷺ، أن أثرتها عليهن هي لما خصّها الله به من المكانة عنده، عز وجلّ، والرّفعة.

وأما قولنا<sup>(٣)</sup>: هل هذا خاص بهذه الأربعة؟ أو هو من باب التنبيه بالأغلب على الأقل؟ احتمل. لكن الظاهر أنه من باب التنبيه بالأغلب على الأقل - كما قدمنا في غير ما حديث - وهو أن العلة التي أنيط بها الحكم إذا وجدت لزم الحكم، وهو إجماع من أهل السنّة. فكل ما يشغل - كما قسّمنا أولاً - عن حقّ من حقوق الله تعالى فهو وبال على صاحبه، وكل ما كان للنفس به تعلق ولم يشغل عن حق من حقوق الله تعالى فتوفية الحقوق المأمور بها كفارة لها، بمقتضى ما بيّنا من الكتاب والسنّة والآي. والأحاديث في ذلك كثيرة، وفيما ذكرت كفاية لمن فهم.

وأما قولنا: هل هذا خاص بالرجال دون النساء؟ فقد قال، ﷺ: (هرّ شقائق الرجال)<sup>(٤)</sup> معناه: في لزوم الأحكام، وإنما هذا - كما قدمنا - من باب التنبيه بالأغلب. يؤيد ذلك قوله، ﷺ: (ما تركت بعدي فتنة هي أضرب على الرجال من النساء)<sup>(٥)</sup> ولم يقل ذلك<sup>(٦)</sup> في المرأة، لأن الرجال في هذا المعنى أشدّ. وأما الولد فقد تكون المرأة في ذلك أشدّ من الرجل، لكن لما لم يكن لها الحكم عليه مثل الأب فذكر الأعلى. وأما المال وغير ذلك فالرجال والنساء في ذلك سواء، إلا أنه هو الأغلب في الرجال لأنهم يحكمون، ولا يُحكم عليهم، والنساء في الغالب محكوم عليهن. فلذلك - والله أعلم - ذكر الرجال دون النساء.

وأما قولنا: هل الواحدة من ذلك تكفر، أو المجموع؟ فالجواب عن هذا كالجواب عن الوجوه المتقدمة، لأن هذا من باب التنبيه بالأعلى على غيره، لأنه، عليه السلام، ذكر من أفعال الأبدان أعلاها، وهو الصوم والصلاة، وقد قال، جلّ جلاله، في حقها: ﴿وَلِئَلَّا لَكِبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْفَاسِقِينَ﴾<sup>(٧)</sup>، ومن حقوق الأموال أعلاها وهي الصدقة، ومن الأقوال أعلاها، وهو الأمر

(١) أثره عائشة: تفضيلها.

(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي والنسائي عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٣) هذا القول يتضمّن أول ما جاء به المؤلف بعد ذكر الحديث، وليس نصّاً فيه.

(٤) إنما النساء شقائق الرجال: أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن السيدة عائشة رضي الله عنها، والبخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٦) أي: الفتنة وكفارتها.

(٧) سورة البقرة، من الآية ٤٥.

والنهي . فمن فعل هذه لم يمكنه أن يترك الباقي ولا يقدر، ولو أراد ذلك . وقد قال عمر، رضي الله عنه: إذا رأيت الحسنة فاعلم أن لها أخيات وكذلك السيئة .

وأما هل الواحدة تكفر، أو المجموع؟ بل المجموع مع ما بقي من الواجبات، والدوام على ذلك بدليل قوله، ﷺ: (مَنْ لَمْ تَنْهَ صَلَاتِهِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا)<sup>(١)</sup>، ومن ترك شيئاً من الواجبات فقد أتى فاحشة ومنكراً، ومن أتاهما فقد بُعِدَ من الله، ومن بُعِدَ كيف يكفر عنه شيء مما ذُكِرَ؟ الذي هو فيه أعظم مما نحن بسبيله .

الوجه الثاني: فيه دليل على فصاحة سيدنا محمد، ﷺ، كيف جمع هذه الفوائد بهذه العبارة الرائقة .

الوجه الثالث: فيه دليل لأهل الصوفة الذين يؤثرون عمل القلوب على عمل الأبدان؛ لأنه، عليه السلام، قد جعل شغل القلب بما ذُكِرَ مما يحتاج إلى تكفير، ولا يكفر إلا ما يُرَضَى .

الوجه الرابع: فيه دليل لهم على ترك الشهوات ومجاهدة النفس عليها؛ لأن سبب الوقوع في هذه وما هو أكبر منها: إنما هو غلبة الشهوات .

الوجه الخامس: يؤخذ من مفهوم الحديث إشارة لطيفة . كأنه، عليه السلام، يحذر عن هذه . فإن الهروب منها فيه السلامة، ولا يعدل السلامة شيء . فمن قدر عليها مع توفية ما عليه من الحقوق، وإبقاء مقامه الخاص مع مولاه، فهذا عند أهل الحقيقة والشرعية أَوْحَدُ زمانه، وإلا فالضعيف عند أهل الحقيقة هو الهارب عن المخالطة، والضعيف عند أهل الفقه هو الذي لا يقدر أن يخرج عن المخالطة، أعني ما لم يكن من أهل المقام الأول، الذي أجمعوا عليه .

إذا عرفت الرشاد وطرقه، وأصغيت إلى حظ النفس، توعرت عليك عند السلوك الطريق .  
وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .

(١) رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما .

## حديث تعاقب الملائكة الكرام الكاتبين

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله، ﷺ، قال: يتعاقبون فيكم: ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم، وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على تعاقب الملائكة فينا بالليل والنهار، واجتماعهم في صلاة الصبح والعصر، وسؤال مولانا، جلّ جلاله، عن عبيده. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: أن يقال: لِمَ سأل مولانا، جلّ جلاله، عن آخر الأعمال لا غير؟ وأن يقال: لِمَ جاوبت الملائكة بأكثر مما سُئِلوا؟ وأن يقال: مَنْ هؤلاء العبيد المسؤول عنهم؟ وأن يقال: لِمَ خُصّت هذه الأوقات بالسؤال دون غيرها؟ وأن يقال: ما الفائدة لنا بالإخبار بهذا؟ وما يترتب عليه من الفقه؟

فالجواب عن الأول: أنه قد أخبر، ﷺ، (أن الأعمال بخواتيمها)<sup>(١)</sup> فالحكم هنا كالحكم هناك.

وأما كون الملائكة أجابوا بأكثر مما سُئِلوا، فلأنهم علموا أنه سؤالٌ موجب للرحمة والإفضال، فزادوا في موجب ذلك بأن قالوا (وأتيناهم وهم يصلون).

ويترتب على هذا من الفقه وجهان: (أحدهما): أن أعلى العبادات الصلاة، لأنه عليها وقع السؤال والجواب. و(الوجه الآخر) أن الملائكة تفرح بعمل العبد الصالح، وأنهم يحبون له رحمة المولى على ذلك، وحسن جزائه، ولولا ذلك لما زادوا من عند أنفسهم ما لم يسألوا عنه.

(١) رواه الخطيب البغدادي.

وأما من هم هؤلاء العبيد المشار إليهم بهذا التخصيص العظيم؟ وهو كونه، جلّ جلاله،  
أضافهم إلى نفسه - وذكره لهم رحمة، لأنه قد أخبر في كتابه أن ذكره لعبده رحمة له، في سورة  
مريم، عليها السلام، بقوله، عز وجل ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا﴾<sup>(١)</sup> - فهم الذين وصفهم  
الله عز وجل في كتابه بقوله سبحانه ﴿إِنَّ عِبَادِي لَأَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

وأما قولنا: لم خُصَّت هذه الأوقات بالسؤال فيها عن غيرها؟ فمن باب التشريف، لأن الله،  
عز وجل، يُشَرِّف من يشاء من خلقه، حيواناً كان أو جماداً أو ما شاء.

ويترتب عليه من الفقه وجهان:

الوجه الأول: أن هذين الوقتين أشرف الأوقات، وقد دلت عليه آثار كثيرة، منها قوله، ﷺ،  
كناية عن مولانا، جلّ جلاله: (اذكرني ساعة بعد الصبح وساعة بعد العصر أكفك ما بينهما)<sup>(٣)</sup>،  
ومنها: أن الرزق يقسم من بعد صلاة الصبح. فمن كان في ذلك الوقت في طاعة زيد في رزقه.  
ولهذا نرى أرزاق أهل التعب مبارك. والبركة أكبر الزيادات. وقد جاء فيمن حلف بعد العصر حائثاً  
وعيداً عليه شديد. ومنها قوله، ﷺ: (استعينوا بالغدوة والروحة)<sup>(٤)</sup> فلولا فضلها لما دلّ عليهما.

والوجه الثاني: أن الصلاة التي تقع فيهما تكون أفضل الصلوات؛ لأن الوقت المسؤول عنه  
مرفّع على غيره، والصلاة مسؤولة عنها من بين غيرها من الصلوات، فتكون بهذا التأويل هي الصلاة  
الوسطى التي أمرنا بالمحافظة عليها، فتكون صلاةً وسطى في زمان الليل، وصلاةً وسطى في زمان  
النهار؛ لأن الصلاة الوسطى اختلف العلماء فيها على أحد عشر وجهاً، ما من وجه إلا وقد قال  
الخصم فيه مطعناً، واعترض عليه. وأرجو لما قرّره أن هذا أقلها اعتراضاً.

وزيادة في ذلك، مما تقدم من البحث في هذا الحديث وافق عليه بعض الطلبة. فالأكثر منهم  
سَلَمُوا واستحسنوا، إلا شخصاً واحداً اعترض على قولنا: (إنها الصلاة الوسطى) اعتراضاً ليس  
بالحسن، فعزّ ذلك على بعض من له تعلق بالمتكلم<sup>(٥)</sup> بتلك البحوث. فلما كان في الليل رأى<sup>(٦)</sup>  
رسول الله، ﷺ، في النوم، والمتكلم بين يديه، وهو يقول له: يا رسول الله، ظَهَرَ لي في هذا  
الحديث، وذكر له تلك البحوث، واعترض شخص عليّ في الصلاة، وما ذكرت فيها من أنها

(١) سورة مريم، الآية ٢.

(٢) سورة الحجر، من الآية ٤٢.

(٣) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد الزهد وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة رضي الله عنه..

(٤) رواه البخاري. وهو الحديث (٦) في هذا الكتاب.

(٥) كان المؤلف ابن أبي جمرة يقصد نفسه بكلمة (المتكلم).

(٦) الضمير يعود على (البعض) الذي له تعلق بالمتكلم.

الوسطى . فجأوبه الرسولؐ ، عليه السلام ، بأن قال له : حَسَنَ ما قُلْتَ ، وما ظَهَرَ لك حق . فلَمَّا أصبح أَخْبَرَ الرَّائِي للمتكلم<sup>(١)</sup> بما قاله رسول الله ﷺ ، فقال<sup>(٢)</sup> : إذا أجازها سَيِّدنا ، ﷺ ، فلا أَبالي بِمَنْ رَدَّها .

وقولنا ما الفائدة فيه ، وما يترتب على ذلك من الفقه ؟ فالفوائد كثيرة ، وما يترتب على ذلك من الفقه كذلك . فما فيه من الفوائد : الإخبار لنا بما نحن فيه من الضبط وكيفيته .

ويترتب على هذا من الفقه أن ننتبه إلى أنفسنا ، ونحفظ أوامر رَبِّنا ونواهيه . هذا وظيفة العوام . وأما الخواصَّ فالفرح والسرور بهذه الأوقات ، كقدوم رُسُلِ المَلِكِ إليهم ، وسؤاله عنهم ، فهذه أعلى المسرات عندهم . ولهذا المعنى ذُكِرَ عن بعضهم أنه كان دأبه إذا كان آخرُ صلاة الليل ، وتفرَّغ منها ، يلبس أحسن ثيابه ، ويجلس على أحسن فراشه ، ويقول : مرحباً بِرُسُلِ رَبِّي الكرام . بسم الله اكتبْ . فيبقى في ذكر وتلاوة حتى تجيئه أوقات الصلوات ، فيصلي حتى يعودَ إلى آخر صلاة النهار ، ويفعل مثل ذلك بالليل . ذلك كان حاله .

الوجه الثاني : فيه من الفوائد أيضاً : العلم بحبِّ الملائكة لنا . ويترتب عليه من الفقه الأنسُ بهم ، والحبُّ لهم ، وهو ممَّا يقرب إلى الله ، عز وجل .

وفيه الإخبار بالغيوب ، وهو من أكبر الفوائد . ويترتب عليه من الفقه زيادة الإيمان ، فيتحصل له المنحة الكبرى والمحبة العظمى التي مدح بها أهل الإيمان بقوله ، جلَّ جلاله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾<sup>(٣)</sup> .

ويترتب عليه من الفوائد : الإخبار بحرمة هاتين الصلاتين ، لما كان يجتمع فيهما أربعة من الملائكة ، وفي غيرهما اثنان اثنان . ويترتب عليه من الفقه المحافظة عليهما ، والاهتمام بهما ، لزيادة ترفيع سَيِّدنا ، ﷺ ، بالإخبار بذلك ، لأنه لما زاد اطلاعه عليه السلام ، على أمور الغيب ، والعلم بها ، والإخبار عنها ، زاد ترفيعه عليه السلام . ويترتب عليه من الفقه زيادة ترفيعنا له ، عليه السلام ، وما زدنا له زدنا إلى مولانا قُرباً .

الوجه الثالث : فيه من الفائدة معرفة ترفيع هذه الأمة على غيرها ، لأنه لم يخبر بهذا إلا عناية بها . ويترتب عليه من الفقه شكر هذه النعمة التي خصصنا بها ، والشكر يقتضي المزيد بالوعد

(١) يريد : المتكلم ، وزاد اللام للتقوية .

(٢) الضمير يعود على (المتكلم) الذي هو المؤلف رحمه الله .

(٣) سورة البقرة ، من الآية ٣ .

الجميل، قال تعالى ﴿لَيْنَ شَكْرْتُمْ لَا زَيْدَنَّاكُمْ﴾<sup>(١)</sup>. فإن قال قائل: ما معنى (فيكم؟) أهي إلى جنس المؤمنين منكم أو غيركم؟ أو هي (لكم)؟ فإن كانت للجميع، فكذلك كان من كان قبلكم. فالجواب عنه كالجواب قبل، لأن هذه النعمة أعظم من الأولى.

الوجه الرابع: فيه من الفوائد العلم باهتمام الله، عز وجل، بعبده. ويترتب عليه من الفقه إذا علمنا ذلك قوة اليقين، وهو أعلى الدرجات.

الوجه الخامس: فيه من الفائدة أنه عند سماع ذلك تعرف قدر إيمانك من ضعفه وقوته. ويترتب عليه من الفقه أنك إذا رأيته قويًا، وزادك ذلك حثًا على العمل، حصل لك بشارة أن فيك من القوم نسبة. وإن لم تر ذلك يزيد عندك شيئًا إلا سمعتك له كسمعتك أخبار الناس، عرفت أنك من المساكين الذين يخاف عليهم، فتدارك نفسك بالمعالجة. وهذا وجه كبير من الفقه.

الوجه السادس: فيه فائدة كبرى، فإنه يدل على جملة صفات الحق، عز وجل، وهي الدلالة على أنه، عز وجل، متكلم، وأن كلامه لا يشبه كلام المخلوقين، وأنه، عز وجل، موجود حقًا، وأنه ليس في مكان، وأنه تعالى مدرك لجميع الأشياء.

فأما الدليل من الحديث على كلامه، عز وجل، فمن قوله (كَيْفَ تَرْكُتُمْ عِبَادِي؟) فهذا نص.

وأما الدليل على أن كلامه ليس ككلام المخلوقين فمن قوة الكلام في الحديث، لأنه، عليه السلام، أخبر أن الملائكة تأتي في الزمان الفرد، من جميع أقطار الأرض، بأعمال جميع العباد، وفيهم البر والفاجر، والمؤمن والكافر، وهذا عدد لا يحصىه العقل، ولا يضبطه في هذا القدر من الزمان، لا بالوهم ولا بالكيف، فيسأل من هذا الجمع العظيم الحفظة الذين أتوا من عند الخصوص من عباده، دون غيرهم. فدل ذلك على أنه، جل جلاله، يخاطب حفظة كل شخص منفردين، فيحصل الخطاب للجمع الكثير، في الزمان الفرد، على الانفراد، مزدوجين مزدوجين، على حد واحد، لا يشبه هذا كلام المخلوقين، ولا يتوهمه عقل، ولا يكيف.

ومما يقوي ما قلناه قوله، ﷺ: (إذا صعد الحافظان، عليهما السلام، بعمل العبد، وأول الصحيفة مبيض بالحسنات، وآخرها كذلك، قال الله، عز وجل: أشهدكم يا ملائكتي أنني قد غفرت ما بينهما من السيئات. فبقى الصحيفة بيضاء نقية. وإن كان أحد طرفيها مختلطًا بالحسنات والسيئات أقرت على ما هي عليه)<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة إبراهيم، من الآية ٧.

(٢) أخرجه أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه، بلفظ آخر.

وأما الدليل على وجود نفس الربوبية فهو الكلام، لأن الكلام لا يكون إلا من موجود قطعاً.

وأما الدليل على أنه، عز وجل، ليس في جهة، فلأنه، ﷺ، ذكر الصعود والخطاب، ولم يتعرض إلى الجهة، فدل أنه لا يتحيز.

وأما الدليل على إدراكه، سبحانه، لجميع المُدْرَكَاتِ، فلكونه، عز وجل، يخصص حفظه أهل الخصوص من بين غيرهم بهذا الخطاب. ويترتب على هذا من الفقه معرفة الحق، عز وجل، وزيادة اليقين بوجوده، تعالى، وقوة الإيمان. ويترتب عليه الثواب الجزيل، فإن أكبر الوصول إليه، عز وجل، المعرفة به وتنزيهه.

جعلنا الله ممن من عليه به، وحفظه عليه بمتنه.

الوجه السابع: هنا بحث: متى يكون عروجهم؟ لأنه، عليه السلام، قال: (ثم يعرج الذين باتوا فيكم) ورواية أخرى (كانوا فيكم). فأما في صلاة الصبح: فبعد الشروع فيها، أو الانتظار لها، بدليل قولهم (تركناهم وهم يصلون). وأما قولنا: (وهم ينتظرونها) أي ينتظرون إيقاعها، لقوله عليه السلام: (لا يزال العبد في صلاة ما دام ينتظر الصلاة)<sup>(١)</sup>.

وأما الذين يعرجون آخر النهار فاحتمل أن يكون مثل الصبح، واحتمل أن يكون عند العشاء الآخرة: على رواية (باتوا فيكم)، لأن المشهور من اللغة أنهم يسمون (الزمان) من الزوال إلى المغرب مساءً، ومن المغرب إلى الصبح مبيتاً. فإذا صعدوا بعد العشاء فقد أخذوا جزءاً من المبيت. والعرب تطلق اسم الكل على البعض، كما يقولون: جاء زيد يوم الخميس، وما وقع مجيئه إلا في جزء منه. وأما على رواية (كانوا فيكم) فيحتمل مثل الصبح. وقد يحتمل مثل ذلك على رواية (باتوا فيكم)، لأن العرب تسمي الشيء بما يقرب منه، وإن كان قد جاءت رواية ضعيفة أن العرب تسمي الزمان من الزوال إلى الصبح مبيتاً.

وقد يبقى ما قلناه من احتمال تأخيرهم بالصعود إلى العشاء الآخرة، لأنه من أحد مُحتملاتها<sup>(٢)</sup>، وهو الذي نبه عليه أهل الصنعة النحوية في بابها عند كلامهم عليها وعلى أخواتها من حروف العطف، وهي للمهلة. فهذه المهلة احتملت أن تكون مقارنة للأوقات التي حُدَّت للصلاة فإنها مؤيدة، أو إلى أزيد من ذلك.

فأما في الصبح فلا تحتمل أزيد منه، لأنه ليس لنا ما نطرق له ذلك، وما طرقت الاحتمال في

(١) جزء من حديث رواه الشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الكلام عن حرف العطف (ثم).



الطرف الآخر إلا على رواية (باتوا فيكم) لاتساع الزمان في ذلك . ولهذا تجب المحافظة في الجميع ، كما قاله أهل المعرفة من العلماء ، ليصلّي الوسطى بالقطع .

وقولهم : (وأتيانهم وهم يصلّون) الوجه فيه كالوجه الذي قبله ، من أنهم أتوهم وهم في نفس الصلاة ، أو هم ينتظرونها . لكن الأظهر - والله أعلم - أنهم في الوقت الذي يكون نزولهم صعود الآخرين ، وتكون (ثم) للانتقال من حال إلى حال ليس بينهما شيء آخر ، وهو من أحد وجوها المستعملة فيها .

ومما يقوي هذا من خارج<sup>(١)</sup> ما ورد أن ملك اليمن موكل على ملك الشمال ، ولو بقيا هذا المقدار من الزمان ، وهو من العصر ، فإن نزولهم فيه محقق إلى العشاء الآخرة ، لأنه قدر ثلث يوم . فكيف يصح أن تجيء الأخبار بصيغة الانفراد عن ملك اليمن والشمال مطلقاً؟ ولقولنا مما استشهدنا به قبل لقوله ، ﷺ : (إذا صعد الحافظان) ولم يذكر في الصعود بالصحيفة إلا اثنين .

ومن طريق آخر : لو قعدا يكتبان ، الاثنان منفردان ، والآخرا منفردان ، في هذا الزمان ، لكان يؤول الأول إلى تكرار العمل على العبد ، وهذا على صفة العدل محال .

ولو كانا أيضاً يقعدان في هذا الزمان الخاص ، ولا يكتبان ، فهذا على مقتضى الحكمة محال ثانٍ ؛ لأن الحكمة لا عمل فيها لغير فائدة .

ودليل آخر : لو كان كذلك - أعني بقاءهم إلى العشاء الآخرة - لكان السيّد ، ﷺ ، بين لنا هذا ؛ لأنه يترتب عليه فوائد وأحكام ، وأقل من هذا لم يُغفل ، وأخبرنا به ، لما طُبع عليه من الشفقة والنصح .

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمّد ، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .

---

(١) من خارج : أي من حديث آخر غير موضوع البحث .

## حديث من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها

عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن النبي، ﷺ، قال: مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ. أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي.

\* \* \*

ظاهر الحديث إيقاع الصلاة المنسية عند ذكرها. والكلام عليه وجوه:

الوجه الأول: هل الصلاة يعني بها واحدة ليس إلا، أو صلاة من حيث الجملة وإن كثرت؟ وهل تقدم على الوقتية، وإن خرج وقت الوقتية أم لا؟ وهل يجوز تأخيرها يسيراً كما يجوز تأخير الوقتية أم لا؟ والكفارة هنا هل هي عن ذنب مأخوذة به أو ليس؟

فالجواب عن الأول: احتمال الوجهين معاً. فأما الواحدة - وهو أن تكون واحدة - فيلزم منه إن كانت أكثر فلا تصلى، ولا قائل بذلك، فبطل هذا الاحتمال، وبقي أنها صلاة من حيث الجملة - كانت واحدة أو أكثر - فإنها تصلى.

وأما هل تقدم على الوقتية أم لا؟ فإن نظرنا إلى ظاهر اللفظ قلنا بذلك؛ لأنه عليه السلام، قال (فليصلها، فذلك وقت لها)، على ما جاء في رواية أخرى، فقد عتبه، عليه السلام، بالإشارة إليه.

وإن نظرنا إلى أن الأمر إذا احتمل معنيين: أحدهما يوجب حكماً وليس فيه خلل بالحكم الآخر، والثاني يوجب حكماً ويلحق في الحكم الآخر خلل، فنأخذ الذي يوجب الحكم ولا يقع في الحكم الآخر خلل، من طريق الترجيح، مثل ما قلنا آنفاً. إذا نظرنا بتعيين الوقت بالإشارة إليه أوجبنا فعلها، وإن خرج وقت الوقتية فلحق الخلل في الوقتية لخروجها عن وقتها؛ وقد جاء في رواية أخرى (فذلك وقت لها) أي: جائز فعلها، وإن كان وقتها المفروض لها قد خرج، فصاحبها معذور في ذلك بعلّة النسيان، أو كان قد دخل وقت جواز فعلها، ودخل على الأخرى التي تعين وقتها بتعيين الشارع، عليه السلام، أولاً، وهو الأصل، فكانت الأولى أولى بالتقديم، ولا يلحقها

نقص، وتبقى صاحبة العذر متأخرة عنها. والشارع، عليه السلام، قد جَبَر ذلك الخلل بقوله ﷺ: (رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنَّسْيَانُ)<sup>(١)</sup>.

فمن أجل هذه التقديرات اختلف العلماء في تقديم المنسيّة على الوقتية. فمذهب الشافعي، رحمه الله، وَمَنْ تَبِعَهُ: على تقديم الوقتية على المنسيّة. ومذهب مالك ومن تبعه: على تقديم المنسيّة على الوقتية، إلا أنه يشترط أن تكون يسيرة، فإن كانت كثيرة فالوقتية مقدّمة. وأدعوا الإجماع في ذلك، وكذلك ادّعوا الإجماع في تخصيص الحديث، لأن اللفظ يقتضي العموم، فلو أبقوه على ذلك لآل الأمر إلى أن تخرج الوقتية عن وقتها، ويعود حكمها حكم المنسيّات، وهذا خلل كبير. فانتسخ هذا بالإجماع، والإجماع لا يُعْتَرَضُ عليه.

وبقي الخلاف في حدّ القليل من الكثير، فأقلّ من صلاة يوم عندهم في حكم القليل. وأكثر من صلاة يوم في حكم الكثير. وصلاة يوم مختلف فيه.

وأما قولنا: هل يجوز تأخيرها عند الذكر بغير عذر شرعي، أو حضور أداء الوقتية؟ على الخلاف المتقدم، فلا أعرف فيه خلافاً أنه لا يجوز، لأنه مشار إليه غير محدود، كما فعل، عليه السلام، في الوقتيات حين قال (ما بين هذين الوقتين وقت)<sup>(٢)</sup> فدل بترك التحديد لهذه، لأن الأمر فيها بخلاف المحدود وقتها.

وأما قولنا: هل هذه هي الكفارة لذنّب وقع؟ فليس هنا ذنبٌ واقعٌ، لِمَا قَدَّمْنَا أولاً، من قوله (أو نَسِيَهَا) فيكون معنى قوله، عليه السلام: (لا كفارة لها إلا ذلك) أن لو كان هناك ذنبٌ يؤخذ به كقوله، عز وجلّ، في كتابه ﴿فَجَزَاءُكُمْ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾<sup>(٣)</sup>. قال العلماء في معنى (فجزاؤه): إن جازاه.

واحتمل أن يكون أراد بالذّكر أنّ الذنب فيها ذنبٌ من كونها ذنباً لغّةً، لكونه أخرج ما أمّر به عن وقته وإن كان صاحبه لا يؤاخذُ به، وأنّ جَبَرَهُ يُسَمَّى: كفارة، وإن لم يكن هناك ذنب لأن هذا تغطية لذلك الخلل.

واحتمل أن يريد أن ذلك الخلل الذي وقع لا ينجبر بفعل من أفعال البرّ - وإن كُتِبَ - إلا بأدائها في هذا الوقت المشار إليه، فيكون فيه على هذا التأويل وجهان من الفقه: (الواحد) منع البدل بغيرها من القُرْبِ. و(الآخر) ألا تؤخّر عن ذلك الوقت. ولهذا المعنى يرجع مذهب مالك ومن تبعه على غيره.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن ثوبان رضي الله عنه.

(٢) قطعة من حديث رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم/ ٦١٤ / بلفظ (الوقت بين هذين).

(٣) سورة النساء، من الآية ٩٣.

الوجه الثاني: فيه دليل لقول من يقول: إنَّ شرع من تقدّم شرع لنا. يؤخذ ذلك من قوله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾<sup>(١)</sup>. وهذا الخطاب كان لِمَنْ تقدّم من الأمم.

الوجه الثالث: فيه دليل لمن يقول: إن شرع من تقدم ليس بشرع لنا، إلا إذا وافق شرعنا. يؤخذ ذلك من أنه، ﷺ، لم يحتج بالآي إلا حين قرر الحكم؛ فكأنه ذكره لما يُساوي ما أمرنا به لما<sup>(٢)</sup> أمر به من قبلنا. ويترتب على هذا الوجه أن معرفة الشرائع المتقدمة من المحمود شرعاً، وإن لم يكن فيه حكم لنا، ولولا ذلك ما ذكره، ﷺ.

الوجه الرابع: هنا إشارة صوفية، لأنهم يقولون: أعلى الأعمال الأذكار، لأن ذكر اللسان يوجب ذكر الأحكام، وهو أجل الأذكار، كما قال عمر، رضي الله عنه: «ذكر الله عند أمره ونهيه خير من ذكره باللسان». والغفلة سببها النسيان، فما حُرِمَ مَنْ حُرِمَ إلا من الغفلة، ولا سعد من سعد إلا بالذكر والحضور، وقد قال، عز وجل، في كتابه: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾<sup>(٣)</sup>.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة طه، من الآية ١٤.

(٢) زاد اللام في المفعول به للتقوية.

(٣) سورة العنكبوت، من الآية ٤٥.

## حديث الأذان في البادية وفضله

عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري، ثم المازني عن أبيه، رضي الله عنهما، أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري قال له: إني أراك تحب الغنم والبادية. فإذا كنت في غنمك أو باديته فأذنت بالصلاة، فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلا شهد له يوم القيامة. قال أبو سعيد سمعته من رسول الله، ﷺ.

\* \* \*

ظاهر الحديث أن كل من يسمع صوت المؤذن يشهد له يوم القيامة. والكلام عليه من وجوه: الوجه الأول: قوله: (لا يسمع مدى صوت المؤذن إنسٌ ولا جنٌ ولا شيء) هل يعني به (شيء) كل حيوان أو جمادٍ أو حيوان ليس إلا؟ فالظاهر أنه كل جمادٍ وغير ذلك، لقوله (ولا شيء) لأنه يقع على الجماد وغيره، ولا سيما وقد جاء في حديث آخر (مدر وشجر).

وهنا بحث: وهو: أن يقال: ما الفائدة في شهادة هؤلاء؟ وما يترتب عليه للفاعل من الخير؟ فالجواب - والله أعلم - أنه يكون له من الثواب بقدر ثواب عمل من سمعه. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام: (من دعا إلى هدى فله أجره وأجر من عمل به) <sup>(١)</sup>. وجاء أن بقاع الأرض تنادي كل يوم بعضها بعضاً: هل عبّر اليوم عليك من ذكر الله؟ فإن عبّر عليها ذاكر الله افتخرت على صاحبها <sup>(٢)</sup>، فيكون بنداؤه داعياً إلى ذكر الله، فله بقدر أجر من ذكر الله من أجل أذانه.

فإن قال قائل: ليس هذا ذكراً، بل هو إعلامٌ بوقت الصلاة: قيل له: صدقت، إذ إن فيه أجلاً الأذكار، وهو الإقرار بالالوهية ونفي ضدّها، ومن مشروعيتها الحكاية على من سمعه. فهو إعلامٌ بالصلاة، ودعاءٌ إلى أفضل الأعمال - وهي الصلاة - فوجب له بذلك من الأجر ما ذكرنا.

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه.  
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

الوجه الثاني: فيه دليل على أن الجمادات تسمع. وقد اختلف العلماء فيما جاء من الأخبار عن الجمادات في مثل هذا، والتسبيح في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ﴾<sup>(١)</sup>. فمن قائل يقول: إن ذلك بلسان حالها. ومن قائل يقول: إنه يوضع فيها حياة، وحينئذ تسبح. ومنهم من حملها على ظاهرها وقال: إن القدرة صالحة، وهو الحق، لا سيما مع قوله، عز وجل: ﴿وَلَا يَنْفَعُ الْجِبَارَ لَمَّا يَأْمُرُ مِنَ الْأَنْهَارِ وَلَئِنْ مِنْهَا لَمَّا يَنْفَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَلَئِنْ مِنْهَا لَمَّا يَنْفَقُ مِنْ حَشِيَّةِ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup>. قال أهل التحقيق من العلماء: إنه ما من حجر يهيل، أو جبل يخز<sup>(٣)</sup>، إلا من خشية الله، عز وجل، وهو الحق. فلو كان ذلك كله بلسان الحال - كما زعمت تلك الطائفة - فما تكون فائدة الإخبار بذلك لنا، ونحن نعلم كل ذلك بعلم الضرورة، فيكون الإخبار به كتحصيل الحاصل؟ وهذا في حق الحكيم مُحَالٌ.

الوجه الثالث: فيه دليل على أن الجمادات تشهد يوم القيامة بالذي وقع فيها من الخير وضده، وجاء ذلك في حديث غير هذا (أنَّ البَقَعَ تَشْهَدُ بِمَا فَعَلَ عَلَيْهَا). ولو لم يكن في ذلك إلا ما جاء في حديث عذاب القبر، لأن الأرض تقول للمؤمن: ما أحب ما كنت فيه، وأنت تمشي على ظهري! فكيف اليوم وأنت في بطني؟ والكافر بضد ذلك. والآي والأحاديث في ذلك كثيرة، والقدرة صالحة. وبذلك ترتب الفائدة على الإخبار بهذا.

والذي يتحكم على القدرة ويقول: «لا يتكلم، ولا يفهم إلا من له حياة وعقل» ليس له في ذلك دليل شرعي، وإنما أخذ ذلك من علم العقل، والقدرة لا تنحصر بالعقل، وقد قال، جلّ جلاله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٤)</sup>. وقد تقدم لنا في ذلك أول الكتاب بحث أغنى عن إعادته هنا.

الوجه الرابع: فيه دليل على أن الحيوان والجماد يفرح بالصالحين، وقد جاء في معنى قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾<sup>(٥)</sup> أن الأرض التي كان المؤمن يتعبد فيها، أو الباب الذي كان عمله يصعد منه إلى السماء يبكيان عليه أربعين يوماً.

وفيه تحضيض على العبادة في البرية، لأنه إذا أخير بمثل هذا الأجر اجتهد في ذلك. وقد جاء أنه من كان في برية، وأذن وأقام، صلى خلفه أمثال الجبال من الملائكة، وإن أقام ولم يؤذن صلى وراءه الملائكة ليس إلا.

(١) سورة الإسراء، من الآية ٤٤.

(٢) سورة البقرة، من الآية ٧٤.

(٣) (هال) عليه التراب وأهاله: صبه. والمراد هنا: انحدار الحجر. و(خز) الجبل: سقط.

(٤) سورة النحل، من الآية ٨.

(٥) سورة الدخان، من الآية ٢٩.

وقد جاء أن الصلاة في البرية بسبعين صلاة، فيُحصَل مما جاء في الأخبار في البرية والتعبّد فيها مما ذكرنا وغيره، وما جاء في الحاضرة وشهود الجماعات وملازمة المساجد وغير ذلك مما جاء في التعبّد فيها وأنواعه: أن المؤمن إذا كان على حكم الكتاب والسنة أينما كان كان في خيرٍ عظيم، بِحَسَبِ الوعدِ الحقّ.

الوجه الخامس: فيه دليل على أن مَنْ أَكْثَرَ من شيءٍ نسب إليه حُبّه. يؤخذ ذلك من قول هذا السيد<sup>(١)</sup> لصاحبه، لأنه لم يكن يعرف: هل<sup>(٢)</sup> هو مولع بالبادية إلا من كثرة لزومه إيّاها. ولذلك قال: (أراك) بحسب رؤية الحال، ولم يقل له بالعلم القطعيّ.

الوجه السادس: فيه دليل على أن من أحب شيئاً من متاع الدنيا، ولم يمنعه عن حقوق دينه، من واجبها وندبها، أن ذلك<sup>(٣)</sup> جائز. يؤخذ ذلك من إقرار هذا السيد صاحبه على ما رأى منه من الحب، ونَبّه<sup>(٤)</sup> على الحضّ على الندب، وهو الأذان والصلاة فيه.

الوجه السابع: فيه دليل على أن الأغراض تكون مختلفة والصُّحبة متّحدة. وذلك مأخوذ من إقرار كلّ واحدٍ من هذين صاحبه على حاله، لأن كلّاً منهما على لسان العلم في حاله. مثَل ذلك قصة مالك، رضي الله عنه، مع صاحبه المتعبّد، حين أرسل المتعبّد إليه يندبه إلى ترك ما هو فيه من الاجتهاد في العلم، وينقطع<sup>(٥)</sup> إلى التعبّد. فكان من جواب الإمام له أن قال: أنت على خيرٍ، وأنا على خيرٍ. وما أنا تارك ما أنا فيه، ولا أنت كذلك. فبقيا على صحبتهما مع بقاء حال كلّ منهما على حاله الخاص.

الوجه الثامن: يؤخذ منه أن نصيحة كلّ شخصٍ بما يقتضيه حاله. يؤخذ ذلك من إرشاد هذا السيد صاحبه إلى المندوب الذي يليق بحاله، وهو الصلاة بالأذان، ولم يقل له مثل ملازمة المساجد ونحوها، مما لا يمكن إلّا لمن<sup>(٦)</sup> يسكن الحاضرة، فكان يُدخِل عليه تشويشاً لكونه لا يقدر على فعله مع ما هو فيه.

الوجه التاسع: فيه دليل على فضل الصّدر الأول. يؤخذ ذلك من اشتغال بعضهم ببعض، ولولا ذلك لما أرشد هذا السيد أخاه إلى ذلك.

(١) السيد - هنا: هو أبو سعيد الخدري، وصاحبه: أبو صمصعة، رضي الله عنهما.

(٢) أي: ما. ف(هل) للنفي.

(٣) أي: ذلك الحب.

(٤) الجملة معطوفة على المصدر: إقرار.

(٥) الجملة معطوفة على المصدر: ترك.

(٦) اللام زائدة للتقوية.

الوجه العاشر: فيه دليل على أن لكل شخص ما هو أجمع لخاطره. يؤخذ ذلك من إرشاد هذا صاحبه إلى الأذان دون غيره من المندوبات للعلة التي عللناها قبل.

الوجه الحادي عشر: فيه دليل على أن الصدر الأول كانوا يحافظون على المندوبات كما يحافظون على الواجبات. يؤخذ ذلك من قوله (إذا أذنت). فدلّ على أنه لم يكن يعلم من صاحبه أنه يترك المندوب - وهو الأذان - لأن الأذان على خمسة أقسام: واجب، ومحرم، ومندوب، ومكروه، ومباح، على ما قسمه أهل الفقه ويؤيده. فهذا النوع من المندوب منه، وإنما نبهه على الزيادة في المندوب، وهو مد الصوت.

الوجه الثاني عشر: فيه دليل لأهل الصوفة، لأن أهم الأشياء عندهم الدين. فلولا ما كان الصدر الأول كذلك ما كان يوصي صاحبه بما تقدم. وكان الصحابة، رضي الله عنهم، إذا تلاقوا يقول بعضهم لبعض: (تعال تؤمن)<sup>(١)</sup> أي نتذاكر فيما يقوى به إيماننا.

وقد كان لي بعض الأصحاب، وكان ممن ارتفع قدره في الطريقتين: العلم والحال، إذا تلاقينا بعد السلام يبادرني يسألني. فأول ما يسأل عنه يقول: كيف دينك؟ كيف حالك مع ربك؟ كيف قلبك؟ وحينئذ يسأل عن غير ذلك من الأحوال. فكنت أنفصل عنه وأجد صدري قد انشرح، والإيمان أجد فيه الزيادة محسوسة لصداقه وتقديمه أولاً الأهم تشبهاً بالصدر الأول.

وهكذا ينبغي أن تكون أخوة الإيمان، ولذلك قال جلّ جلاله: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٢)</sup> فمن ليس ثوب التقى ظهرت عليه بشائره. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

(١) رواه الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه وابن الأثير في أسد الغابة ٣/ ٢٣٥.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٦٧.



## حديث فضل الأذان والصف الأول والعتمة والصبح

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا<sup>(١)</sup> عليه، لاستهموا. ولو يعلمون ما في التهجير<sup>(٢)</sup> لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة<sup>(٣)</sup> والصبح لآتوهم ولو حبوا<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على الحث على النداء والصف الأول والتهجير، وعلى صلاة العتمة، والصبح في الجماعات. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: أن مشروعية الأذان لا تجوز إلا واحداً بعد واحد. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، (لاستهموا عليه). فلو كان يجوز جماعة لما احتاجوا أن يستهموا عليه؛ لأن الاستهم لا يكون إلا على شيء لا يسع الكل، ولا يكون أحد أولى به من غيره. ويزيد ذلك بياناً فعله؛ لأنه، عليه السلام لم يرو أنه أذن في زمانه، ﷺ، مؤذنان جملة، وإنما كان بلال<sup>(٥)</sup> وابن أم مكتوم<sup>(٦)</sup>:

(١) استهم: ضرب بالسهم، اقترع.

(٢) التهجير: التبكير إلى الصلوات، وهو المضي في أوقاتها، وليس من الهجرة.

(٣) العتمة: ثلث الليل الأول بعد غيبوبة الشفق، أو وقت صلاة العشاء الآخرة.

(٤) الحبو: المشي على اليدين والبطن.

(٥) بلال: (الحبشي) ابن رباح، أبو عبد الله. مؤذن رسول الله ﷺ، وخازنه على بيت ماله. من مولدي السراة، وأحد السابقين إلى الإسلام. وكان شديد السمرة نحيفاً طوالاً، خفيف العارضين، له شعر كثيف. وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. ولما توفي رسول الله ﷺ، ولم يؤذن بعد ذلك. وأقام حتى خرجت البعوث إلى الشام، فزار معهم. وتوفي في دمشق سنة ٢٠ هـ/ ٦٤١ م. روى له البخاري ومسلم (٤٤) حديثاً. وفي طبقات ابن سعد ١٦٩/٣ عن مجاهد: (أول من أظهر الإسلام سبعة؛ رسول الله، وأبو بكر، وبلال، وخباب، وصهيب، وعمار، وسمية أم عمار. فأما رسول الله فممنعه عمه، وأما أبو بكر فممنعه قومه، وأخذ الآخرون فألبسوا أدرع الحديد ثم صهروا في الشمس حتى بلغ الجهد منهم كل مبلغ. وطعن أبو جهل سمية فقتلها، فكانت أول شهيدة في الإسلام. وأما بلال فجعلوا في عنقه حبلاً، وأمروا صبيانهم فاشتدوا به جرياً بين أخشي مكة، وهو يقول: أحد، أحد، وراه أبو بكر بعد ذلك فاشتره منهم وأعتقه).

(٦) ابن أم مكتوم: هو عمرو بن قيس، صحابي، شجاع، كان ضرير البصر، أسلم بمكة، وهاجر إلى المدينة بعد =

يُؤذَن بِلَالٍ، وبعده ابنُ أمِّ مكتوم. ولذلك قال، عليه السلام: (إذا أذُن بِلَالٍ فَكُلُوا واشربوا، حتى ينادي ابنُ أمِّ مكتوم)<sup>(١)</sup> وكان نداؤه على الفجر، وكذلك الخلفاء والصحابة بعده، رضوان الله عليهم. فالأذان الذي أُحْدِث اليومَ بالجماعاتِ بِدعةٍ مَحْضَةٍ، وإنما أحْدِثه بنو أمية. وأتباع السنة أولى وأوجب.

الوجه الثاني: فيه دليل على المنافسة في أفعال البر، وليس ذلك مما يدخله نقص ولا رياء فيه. يؤخذ ذلك من قوله (لاستهموا عليه) وقال مولانا جلَّ جلاله: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

الوجه الثالث: فيه دليل على أن النفوس - في الغالب - لا يحملها على الأعمال إلا معرفة ما لها من الحظ. يؤخذ ذلك من قوله (لو يعلم الناس) لأن فيه إشارة إلى عظيم الأجر، وإن كان قد ذكَّره ﷺ، في غير ما موضع، منها قوله، عليه السلام: (المؤذنون أطولُ الناسِ أعناقاً يوم القيامة)<sup>(٣)</sup> وقوله عليه السلام فيهم: (إنهم على كُتَيْبٍ من المِسْكِ)<sup>(٤)</sup> وغير ذلك. فلما كان هذا الحديثُ على طريقِ الحَضِّ عليه عَرَضَ لعظيم الأجر ولم يُبَيِّنْه.

ويترتب عليه من الفقه أن المخير يكون إخباره على الوجه الذي يَغْلِبُ على ظنه أن الفائدة فيه أعظم، لأنه، عليه السلام، هنا أجْمَلَ، وفي الأحاديث الأخرِ قَسَرَ، فلا تكون التفرقة بينها - والله أعلم - إلا بهذا الوجه.

الوجه الرابع: فيه دليل على أن الصفَّ الأول هو في المسجد، لأن العلماء اختلفوا: ما معنى الصف؟ فمنهم من قال: إنه في المسجد، ومنهم من قال: إنه فيما تكتبه الملائكة على باب المسجد، لأنه جاء أنها تكتب الأول فالأول. فإذا خطب الإمام طُوِيَتِ الصُّحُفُ، وقعدت تسمع<sup>(٥)</sup>. ونَصُّ الحديث ينفي أن يُريدَ كَتَبَ الملائكة، لأن كَتَبَ الملائكة لا نراه ولا نعلمه - أعني:

= وقعة بدر، وكان يؤذن لرسول الله ﷺ، مع بلال. وكان النبي عليه السلام يستخلفه على المدينة، يصلي بالناس، في عامة غزواته. وحضر حرب القادسية ومعه راية سوداء وعليه درع سابغة، فقاتل - وهو أعمى - ورجع بعدها إلى المدينة فتوفي فيها سنة ٢٣ هـ / ٦٤٣ م وكانت وفاته قبيل وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(١) أخرجه الإمام مالك وأحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(٢) سورة المطففين، من الآية ٢٦.

(٣) أخرجه الطبراني عن أبي محذورة رضي الله عنه، ومسلم عن معاوية رضي الله عنه.

(٤) لم نقف على مصدره. والكُتَيْبُ: التل.

(٥) مروي بالمعنى لحديث أخرجه الإمام أحمد والفضياء في المختارة عن أبي سعيد رضي الله عنه ورواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قَدَّرَ عَزْزِهِ - حتى نَعْلَمَ كم رَجُلٍ<sup>(١)</sup> يَسْعُ عَزْزُهُ . والقُرْعَةُ لا تكون إلا على شيء مُدْرَكٍ ، ويُعْلَمُ أنه لا يَسْعُ الكَلَّ ، فإنه إذا وَسِعَ الكَلَّ فلا قُرْعَةَ . فإذا لم يَسْعَهُم حينئذٍ يُحْتَاجُ إلى القُرْعَةِ ، لِيُعْلَمَ من هو أَوْلَى به من غيره . فالذي تكتبه الملائكة لا تُمكن القُرْعَةُ عليه لَعَدَمِ العلمِ بَقُدْرِهِ ، وماذا يسع ، فجاء الدليل للذين يقولون : إنه في المسجد .

ولا نحتاج أيضاً إلى القُرْعَةِ إلا إذا جئنا في فَوْرٍ واحدٍ<sup>(٢)</sup> ، لأنه قد ثبت بالشَّرْعِ أَنَّ مَنْ سَبَقَ إلى شيءٍ من المباح فهو أَحَقُّ به . فإذا تلاحقوا به على حَدٍّ سواء ، قُسِمَ بينهم ، إن كان مما تأخذه القِسْمَةُ ، ويمكن ذلك فيه . وإلا فَمَنْ يكون أَوْلَى به فعند ذلك يُحْتَاجُ إلى القُرْعَةِ كهذا ومثله ، لأنه لا يمكن القِسْمَةَ فيه .

وهنا بحث في قوله ، عليه السلام ، (الناس) هل الألف واللام للعهد أو للجنس؟ فإذا قلنا: للعهد، وهم المؤمنون، فيترتب عليه من الفقه أن العبيد والأحرار، والإناث والذكور، في ذلك سواء، وأنه لا يستأذن العبيد في ذلك ساداتهم، ولا النساء في ذلك أزواجهن.

ويزيد ذلك إيضاحاً قوله ، عليه السلام : (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله)<sup>(٣)</sup> . قلنا: كذلك يعطى الحكم، لكن لما حدثت أمور لم يبق من ذلك إلا خاص في خاص، وهم الرجال دون النساء، ولا من العبيد، إلا من يُعرَف منه الخير، لأنه يجعلُ ذلك ذريعةً لتضييع حق سيده . ولذلك كانت عائشة ، رضي الله عنها ، تقول : لو أدرك رسولُ الله ، ﷺ ، ما أحدث النساءُ لمنعهنَّ المساجدَ كما مُنِعَتْ نساءُ بني إسرائيل<sup>(٤)</sup> .

وما فعلت عائكةُ ، زوجةُ عمرَ ، رضي الله عنه ، أنها كانت تستأذنه في الخروج إلى المسجد ، فيسكت . فتقول له : لأخرجنَّ ، إلا أن تمنعني . فلا يمنعها ، لأجل ما عارضه من قوله ، عليه السلام ، (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله) . فتركها يوماً خرجت إلى صلاة الصبح ، وتقدَّما ، ووقف لها بموضع في الطريق في الظُّلْمَةِ ، حتَّى خطرت عليه ، فوثب عليها ، وقَرَصَها في نهدها ، ولم يتكلم ، ولم يقل لها شيئاً ، لكي تجهلَ من هو الفاعل لذلك . فرجعت ، رضي الله عنها ، إلى بيتها ، ولم تتمَّ على مُضِيِّهَا إلى المسجد ، ثم لم تخرج بعد ذلك . فقال لها عمر ، رضي الله عنه : لِمَ تركتِ الخروجَ؟ فقالت : قد فَسَدَ الناسُ<sup>(٥)</sup> . فعَلَّلت عدمَ خروجها إلى المسجد بفساد الناس .

(١) كذا بجزء «كم» الاستفامية . وهو لغة .

(٢) في فور واحد : في أن واحد .

(٣) رواه الإمام أحمد والإمام مالك ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) رواه الإمام مالك والشيخان عن السيدة عائشة رضي الله عنها موقوفاً .

(٥) رواه الإمام مالك في الموطأ .

وأجازه ذلك السيّد، رضي الله عنه، الذي قد أمرنا باتباعه، فإنه أحدُ العمرين، وأحدُ الخلفاء، رضي الله عنهم.

الوجه الخامس: فيه دليل على التحيل في كسب أفعال الخير بكل ممكن. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام: (ثم لم يجدوا) فلا يرجعون للقرعة إلا عند عدم القدرة على تحصيله.

ومن هنا أخذ أهل الصوفة دليلاً لهم في الحيلة على النفوس ومجاهدتها. ومما يذكر عن بعضهم أنه بقي زماناً يحسّن للنفس زِيَّ القوم حتى لَيْسَتْه، فلما لَيْسَتْه كان إذا أراد أن تفعلَ فعلاً ليس هو من فعل القوم يقول لها: لَيْسَتْ زِيَّ القَوْم، ثم تخالفينَهُم؟ أو تريد شيئاً من حال أهل الدنيا؟ فيقول لها: هذا لا يليق لمن تزياً بهذا الزِيّ. ومثله عنهم كثير.

الوجه السادس: فيه دليل على فصاحته، ﷺ. يؤخذ ذلك من حسن تنويعه، عليه السلام، العبارة. لمّا كان الأذان والصف الأول انحصر في فعلهما، ولا يمكن الكثرة فيهما، عبّر عنهما بالقرعة. ولمّا كان التهجير كناية عن المبادرة في الزمان، ومعنى التهجير هنا في يوم الجمعة - على قول أهل الفقه - ولا أعلم فيه خلافاً - والزمان ظرف يسع القليل والكثير - عبّر عنه بالتسابق، فجعله تسابقاً. وهو لا يحصل إلا بالجد والاجتهاد.

الوجه السابع: فيه دليل لمذهب مالك، رضي الله عنه، الذي يقول: إنّ الأفضل في الجمعة التّهجير. وفَضِّل تلك القُرْب المذكورة، من بَدَنَةٍ إلى بَيْضَةٍ في الساعة الواحدة في السَّبَق على حاله. فمن سَبَق أخذَ بَدَنَةً، ثم الثاني بقرة، ثم كذلك حتى العاجز بيضة. وجعل العبارة عن العتمة والصبح لما كان الغالب على المنع منهما النوم أو القُسل أو المعجز، قال (حَبَوّاً).

الوجه الثامن: فيه دليل على المبادرة للعمل على المنشط وترك الكسل. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، (حبوا) فإنّ مَنْ هذا حاله فهو أعظم الكسل.

الوجه التاسع: فيه دليل لأهل الصوفة في أخذهم النفوس بالمجاهدة، فإن هذا أعظم المجاهدات.

الوجه العاشر: فيه دليل على أنّ ما هو من شعائر الإسلام المفروضة أن الأفضل فيه الإظهار، لأن هذه المذكورة كلّها من شعائر الإسلام المفروضة.

ثم نرجع للقسم الثاني من الألف واللام في (الناس) إن كانت للجنس - وهي محتَمَلَة - فيكون فيه دليل لمن يقول بأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، وهم على كفرهم، لأنهم لو عَلِمُوا ما فيه لبادروا إلى الإسلام، وعَمِلُوا هذه الأعمال، ولهذا جاءت الإشارة هنا بلا تعيين أولاً.

ويترتب على هذا الوجه من الفقه أن يُشَوِّقَ الكافرُ والعاصي والطّاع - على حدّ سواء - إلى

ما أعدَّ الله، عزَّ وجلَّ، من الخير، ويحذَّرُ ممَّا هناك من الخوف لمن لم يستَقِم، لعلَّه تحضَّل له هناك إنابة<sup>(١)</sup>.

الوجه الحادي عشر: فيه دليل على أن التشويه مع حصول الأفضل في الدين أولى. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، (ولو حبواً) فإن الحبو في حق الكبير تشويه، ولا سيَّما لمن له منزلة، فراعى هنا الدين، ولم يراع التشويه.

الوجه الثاني عشر: فيه دليل لمن يقول: إنَّه يصلي الجمعة، وإن كان طينٌ يُشوُّ ثيابه ووجهه، لأنهم اختلفوا إذا كان الطين كثيراً يشوه الثياب والوجه، هل يكون عذراً يجوز معه التخلُّف عن الجمعة؟ على قولين، وبالتفرقة. فالْحُجَّة هنا لمن لم يجعله عذراً.

الوجه الثالث عشر: فيه دليل على جواز الاستِهام، لقوله عليه السلام (لاستَهْمُوا).

الوجه الرابع عشر: فيه دليل على أن المساجد لا يتملَّك منها أحدٌ شيئاً.

الوجه الخامس عشر: فيه دليل على أنه لا يجوز له أن يأخذ من المسجد إلا قَدْر ضرورته، لأنَّ لو كان له أكثر من ذلك لَبَيَّنَه، عليه السلام، هنا، لأنَّ وقت القرعة هو وقت انفراد الحكم، وتأخيرُ البيان عند الحاجة إليه لا يجوز. فكونه، عليه السلام، أمر بالقرعة ولم يحدَّ شيئاً دلَّ على أنه ليس له أن يقتصر إلا إذا لم يجد ما يحمله وغيره، وأن ما فضِّل عن قَدْر ما يحتاج هو إليه فلا يدخل تحت القرعة. وقد جاء هذا المعنى في حديث آخر، وأنه متوعَّد عليه.

الوجه السادس عشر: فيه دليل على أن المسابقة تكون حساً ومعنى، فهنا تكون معنى حساً، فإن المسابقة على الأقدام حساً تقتضي الجَزْيَ والسَّرعَة، والجَزْيَ هنا والسَّرعَة ممنوعان من حديث آخر لقوله، عليه السلام: (إذا أتيتم الصلاة، فلا تأتوها وأنتم تسعون، واثتوها وعليكم السكينة)<sup>(٢)</sup> فلم يبق هنا إلا أن تكون معنى، وهي الشغل بمراقبة الوقت.

وهنا بحث: وهو أنه، عليه السلام، جعل العتمة والصبح على حدٍّ سواء، وقد قال، عليه السلام: (من شهد العتمة فكأنما قام نصف ليلة، ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة)<sup>(٣)</sup>؟

فالجواب: أن هذا لا يلزم من كونه جعلها في حرمة المبادرة أنهما على حدٍّ سواء أن يكونا في الأجر، إنما ساوى ما بينهما لعظم ما بينهما وبين غيرهما من الصلوات، كما قال، عليه السلام:

(١) الإنابة: التوبة.

(٢) رواه الإمام أحمد والشيخان عن أبي قتادة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب عن عثمان رضي الله عنه.

(بيننا وبين المنافقين شهودُ العَتَمَةِ والصُّبْحِ، لا يستطيعونهما)<sup>(١)</sup> لأن الشاهدين إذا كانا عَدْلَيْنِ لا يلزم أن يكون أحدهما أرفعَ حالاً من الآخر، لأنهما إذا تساويا في القدر المجزئ من العدالة فلا بأس أن يزيد أحدهما على الآخر. وهذا مثله، فقد زادت هاتان الصَّلَتان فضلاً على غيرهما من الصَّلوات، وبقي ارتفاعهما فيما بينهما معنى ثانياً.

وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا.

---

(١) رواه الإمام مالك عن سعيد بن المسيب مرسلًا.

## حديث إتيان الصلاة بالسكينة

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ نَصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ سَمِعَ جَلْبَةَ رَجَالٍ، فَلَمَّا صَلَّى قَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: اسْتَعْجَلْنَا إِلَى الصَّلَاةِ. قَالَ: فَلَا تَفْعَلُوا. إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ. فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا.

\* \* \*

ظاهر الحديث: إتيان الصلاة بالسكينة، وإتمام ما فات منها. والكلام عليه من وجوه:  
الوجه الأول: أن الحكم الشرعي لا يكون إلا بعد تحقيق موجب. يؤخذ من قوله، عليه السلام: (ما شأنكم؟) فلما ذكروا استعجالهم إلى الصلاة حينئذ قال لهم الحكم في ذلك، لأن استعجالهم احتمل أن يكون لما ذكروا، أو لعذر عَرَضَ لهم، لأن الحوادث لا تنحصر.

الوجه الثاني: فيه دليل على أن يجتهد المكلف برأيه فيما لم يكن فيه نص من الشرع. يؤخذ ذلك من كون النبي ﷺ، لم ينههم إلا فيما يُسْتَقْبَل، ولم يأمرهم بإعادة الصلاة، ولا أبطل عليهم عملهم. فدل ذلك على جواز فعلهم فيما مضى.

وهنا بحث: هل هذا على الوجوب، أو على الندب؟ وهل له حد معلوم؟ أعني: السكينة المذكورة، أم لا؟

فالجواب على قولنا: هل هو على الوجوب أو غير ذلك؟ فصيغة الأمر مختلف فيها - على ما تقدم في غير ما موضع - لكن الأظهر هنا: أنه على الندب، بدليل أن التأدب والخشوع في الصلاة نفسها مختلف فيه، وأكثر الفقهاء على أنه شرط كمال، وقد قال، ﷺ، في حديث آخر: (لا يزال العبد في صلاة ما دام ينتظر الصلاة)<sup>(٢)</sup>. فأعظم حكم الوسيلة إلى الشيء أن يجعله كالشيء نفسه، فهذه الصفة في الصلاة نفسها مختلف فيها، فكيف في الوسيلة؟

(١) تقدمت ترجمته في الحديث ١٨.

(٢) رواه الإمامان مالك وأحمد والشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه (بلفظ آخر).

ولوجه آخر: لو كان على الوجوب لأشار إليه، عليه السلام، بزيادة ما، لأنه المشرع، وهذا وقت بيان الحكم، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز.

ولوجه آخر: وهو إنما كان سرعتهم في المشي رغبة في الصلاة من أجل الأجر وطلب المزيد فيه، فأراد، عليه السلام، إخبارهم بأن لهم الأجر فيما أمرهم به، لأن تسكن نفوسهم بذلك. وهذا من الحديث الشاهد الذي أوردناه. وأما من الحديث نفسه فلا، عليه السلام، فهم منهم إظهار الجِدِّ من أجل ما وقعوا فيه من الماضي. فسكن خواطرهم بإعطاء العذر لهم في ذلك، وتبيين الحكم بعد.

الوجه الثالث: فيه دليل لمن يقول: إن ما لحق المأموم من الصلاة مع الإمام إنه أول صلاته. يؤخذ ذلك من قوله (فأيتوا) وتماؤ العمل هو آخره. لكن يعارضنا قوله، عليه السلام، في حديث غيره: (فما فاتكم فاقضوا)<sup>(١)</sup> فدل هذا على أن الذي أدرکه المصلّي هو آخر صلاته، ويقضي ما فات، والحديثان صحيحان. فمن أجل ذلك اختلف العلماء في البناء والقضاء. فمنهم من قال بالبناء مطلقاً، ومنهم من قال بالقضاء مطلقاً، ومنهم من جمع بين الحديثين، وهو مالك، رحمه الله، ومن تبعه، وقال: يكون بانياً في الأفعال، قاضياً في الأقوال. وهو أحسن الوجوه لأن أعمال الحديثين خير من إسقاط أحدهما.

الوجه الرابع: فيه دليل على أن التفات الخاطر إلى النوازل، إذا كان في الصلاة، ما لم يخرجها من الشغل بصلاته: جائز، وليس بمفسد للصلاة، إذا كان يسيراً. يؤخذ ذلك من سمعهم، رضي الله عنهم، وسمع رسول الله، ﷺ، جلبة الرجال، وهم في الصلاة، ولم يأمرهم بإعادة، ولا ذكر لهم أن في عملهم خللاً.

الوجه الخامس: فيه دليل على أن إمساك الحاجة في السر في الصلاة لا يفسدها، إذا كان الغالب على القلب الشغل بصلاته. يؤخذ ذلك من تمادي ذكر أمر الجلبة في قلب النبي، ﷺ، حتى فرغ من صلاته، وحيث سأل عنها.

وجواز هذين الوجهين<sup>(٢)</sup> إذا عرّض الأمر، وهو في نفس الصلاة، ولا يتعمده هو. يؤخذ ذلك من مجموع معنى هذا الحديث. وقوله ﷺ، حين سئل عن المرء يلتفت في الصلاة، فقال: (تلك خلصة يختلسها الشيطان من صلاة أحدكم)<sup>(٣)</sup> لأن الالتفات بالاختيار من المصلّي، دون عذر طرأ

(١) لم نقف على مصدره.

(٢) أي الرابع والخامس. وخبر (جواز) هو متعلق (إذا).

(٣) رواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها (بألفاظ مختلفة).



عليه، فإن ذلك خروج عما كان بسبيله، ومن قول مولانا، جلّ جلاله، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾<sup>(١)</sup>. فإذا دخل بغير إخلاص، فأين تَوْفِيَةٌ ما أُمِرَ به؟ وقوله، ﷺ: (إذا دخل الرجل في الصلاة أقبل الله عليه بوجهه، فإن التفت أعرض عنه)<sup>(٢)</sup>. فإذا دخل بغير إقبال، أو معرضاً بقلبه لشغله بما كان فيه فما له وللإقبال؟ هيهات. بينهم مفازات، لا يقطعها إلا المُشْمَرُونَ.

فانتبه إن كنت نائماً، وشَمَرُ إن كنت يقظاناً<sup>(٣)</sup>.

الوجه السادس: فيه دليل لأهل الصوفة الذين يقولون: إن أحسن الصلاة أن يبقى من البشرية شيء ما، لتلقّي الخطاب، وتوفية أركان ما أُمِرَ به. وأحسن الذكر أن يفنى الذّاكر في المذكور، حتى لا يعرف مَنْ على يمينه ولا مَنْ على يساره؛ لأنه لو لم يكن ذلك كذلك ما كان سيدنا محمد ﷺ، في هذا الموضع يسمّع الجَلْبَةَ. وفي غير الصلاة يقول، عليه السلام: (إنه ليُغَانُ على قلبي، فاستغفر في اليوم والليلة سبعين مرة)<sup>(٤)</sup> فكيف يُغَانُ على قلبه، عليه السلام، وهو من خصائصه أنه يقول (تنام عيناى ولا ينام قلبي)<sup>(٥)</sup>؟

وقد اختلف الناس في معنى قوله، عليه السلام، (يُغَانُ على قلبي) بأقوال عديدة، فانفصلنا عنها، ولم نرجح إلا ما أذكره بعد ذكر ما أجمعوا على أنه أحسن ما قيل فيه والانفصال عنه إن شاء الله.

فأحسن ما قالوا فيه أنه، عليه السلام، كان يترقّى من مقام إلى مقام، فإذا ترقّى من المقام الذي كان فيه إلى ما هو أعلى، استغفر من المقام الذي كان فيه؛ وكأنه الآن بالنسبة للحالة التي كانت قبل كَمَنَ غِيَنَ على قلبه.

والانفصال عن هذا الوجه بأن تقول: سلّمنا هذه المقالة، وهي حسنة، إلى ليلة المعراج، حين ارتقى إلى الحضرة العليّة، والمشاهدة بعين الرأس - على مذهب ابن عباس، وهو الحق - فبعد هذا الترقى لا زيادة في الترقى.

وبقي الجواب عما: لِمَ كان يُغَانُ على ذلك القلب المبارك؟ فنقول، بفضل الله: إنه كان من صفته، عليه السلام، كما وصفه الواصف، طويلَ الفكرة، كثيرَ الذكر، قليلَ اللفظ. ففكرته، ﷺ،

(١) سورة البينة، من الآية ٥.

(٢) رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما (بلفظ آخر).

(٣) كذا بالتنوين.

(٤) يُقال: غِيَنَ على كذا: أي غُطِّي عليه. ومنه الحديث. فالغَيْن: ما لُطِفَ من الغطاء.

والحديث النبوي أخرجه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن الأغر المزني رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها.

قد تكون في صفة من الصفات أو اسم من الأسماء، ولا يمكن في الزمان الفرد الفكرة في جميع الأسماء. ولا يمكن في الزمان الفرد الفكرة في جميع الأسماء والصفات. فإذا اشتغل القلب بالفكرة في أحد الأسماء أو الصفات، استولى على القلب المبارك من تعظيم ذلك ما صار عليه كالزَّانِ؛ لأن الزَّانِ هو الشيء الذي يغطي القلب من حُسْنٍ أو ضُدِّهِ.

فإذا سُرِّيَ عنه من تلك الحالة الجليلة استغفر من شينين: (أحدهما) من شغله عن الذي بقي من الأسماء والصفات، لأن كل واحد منهما يطلب حقَّه من التعظيم في كل نَفْسٍ يَرِدُ. والوجه الآخر) هو تقصيره عن توفية حق تلك الصفة أو الاسم بوضع البشرية، لأن الفاني لا يمكن أن يوفي حق الباقي قطعاً حتماً، ولذلك قال، ﷺ: (أعوذ برضاك من سَخَطِكَ، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك)<sup>(١)</sup>.

وهنا بحث: هل ما قالوه هو الأحسنُ في الصلاة كلها، على اختلاف أنواعها، أو ذلك في الفرض ليس إلّا؟ الظاهر - والله أعلم - أنه في المكتوبة بالإجماع. وأما النافلة فالأظهر فيها أنها من قبيل الذَّكر. يؤيد ذلك مسألة عليّ، رضي الله عنه، حين كان في فخذهم سهم قد آذاه، فقالوا له فيه أن يتزعه، فيأبى عليهم، ويمهلهم قليلاً قليلاً. فقال بعضهم: لا تستطيعون أن تزعه إلا حين يكون في الصلاة. ففعلوا ذلك، فنزعه منه وهو ساجد في النافلة. فلما انصرف من الصلاة رآهم محدقين به، فقال: ما بالكم؟ أوتريدون نزع السَّهم؟ فقالوا له: ها هوذا أخذناه. فقال: والله، ما عرفتُ بكم. ومثله كثير عن المباركين.

وأما الجواب على قولنا: هل للسَّكينة حَدٌّ، أو لا؟ فقد قال العلماء: إن حدَّها ما لم يخرجك عن الوقار. وقد روي عن ابن عمر أنه كان إذا سمع الإقامة، وهو يأتي إلى المسجد، يمدُّ في الخطأ، ويخفف وقع قدمه. وهذا الحال آخرُ حالِ السَّكينة.

وبقي الكلام على ما يدرك من الصلاة: ما يُحسَبُ منه وما لا يُحسَبُ. فقد بيَّنه، عليه السلام، في حديث آخر، وهو قوله، عليه السلام: (ادخلوا معي على الحالة التي تجدوني عليها. فإن وجدتموني راکعاً فاركعوا، واحسبوا ركعة، وإن وجدتموني ساجداً فاسجدوا، ولا تحسبوا شيئاً)<sup>(٢)</sup>.

الوجه السابع: فيه دليل على أن الدين يسر. يؤخذ ذلك من أنهم لما اهتموا بما وقع منهم من التأخير عن الصلاة، فأسرعوا، جعل لهم المخرج بأن قال لهم: (عليكم بالسَّكينة) إلى آخره. والذي يقع ذلك منه - أعني تأخير الصلاة عن وقتها - يدخل تحت قوله، جلَّ جلاله: ﴿أَضَاعُوا

(١) رواه أبو داود والنسائي والترمذي عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) لم نقف على مصدره.

الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً<sup>(١)</sup> وروي عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: «والله ما تركوها، وإنما أخرجوها عن وقتها المختار»<sup>(٢)</sup>. فإذا كان الأمر في تفصيل الأوقات على هذا المعنى فكيف به في فوات شيء منها مع النبي ﷺ؟ لأن الوقت فيه خلافت بين العلماء، والصلاة معه، ﷺ، لا خلافت أنها أفضل الصلوات.

ويترتب على هذا الوجه من الفقه لأرباب القلوب: أن الهم على عمل من الخير إذا فات بُدِّل منه. لكن ليس البدل كالمبدل منه من كل الوجوه. ويؤيد هذا قوله، ﷺ، حين سأله زيد: ما علامة الله على من أحبه؟ فقال: يا زيد كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أحب الخير وأهله، وإن قدرت عليه بادرته إليه، وإن فاتني حزنت عليه وندمت. فقال: النبي ﷺ (فذلك علامة الله فيمن يُريد. ولو أرادك لِغيرها لَهَيَّاكَ لها)<sup>(٣)</sup>.

فلما قال: (حزنت عليه) فحينئذ صح له ما تضمنه الحديث. ويقويه أيضاً قوله عليه السلام: (النَّدْمُ توبة)<sup>(٤)</sup>. وفي هذا من الفقه معنى عجيب، وهو: أن نفس الندم يكون إما مذهباً للإثم، إذا كان على فعلٍ ممنوعٍ وقع، إن حملنا قوله، ﷺ: (النَّدْمُ توبة) على ظاهره.

وإن تأولنا بأن قلنا: هو أعظم الأسباب في التوبة، أو أكبر أجزائها، كقوله، عليه السلام، (الحج عَرَفَة)<sup>(٥)</sup>، فعلى هذا التأويل يكون أقوى الأسباب في الخلاص مما وقع فيه، وكلاهما خيرٌ عظيم. ويكون لما فات من الخير جابراً، كما تقدم.

يزيد ذلك إيضاحاً قوله، ﷺ، (ما أمسى المؤمن فيها - يعني في الدنيا - ولا أصبح إلا حزينا)<sup>(٦)</sup> لأنه بالضرورة بين أحد أمرين: إما غفلة عن مندوب، وإما سهو حتى يقع في مكروه، وهذا أقلها.

ويترتب أيضاً، على هذا المعنى، وجه من الفقه ووجه من طريق أهل الحقائق، فأما الذي من الفقه فيكون وجود الحزن على فوات شيء من الخير، أو الوقوع في شيء من ضده، من علامة الإيمان. وأما الذي هو من طريق أهل الصوفة فإن قولهم: إن القلب إذا خلا من الحزن خرب.

(١) سورة مريم، من الآية ٥٩.

(٢) روي هذا القول - كذلك - عن ابن مسعود والنخعي والقاسم بن مخيمرة ومجاهد وعمر بن عبد العزيز وغيرهم.

(٣) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣٠٨/٤.

(٤) رواه الإمام أحمد والبخاري في التاريخ وابن ماجه والحاكم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٥) رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن والحاكم والبيهقي في الكبرى عن عبد الرحمن بن يعمر رضي الله عنه.

(٦) لم نقف على مصدره.

ويترتب عليه من طريقهم أيضاً وجه آخر، وهو: أن مَنْ كان حاله هذا كان حاله حال المراقبة - وهو أجل الأحوال - ولا بدّ لصاحب هذا الحال أن يتخلّل خوفه رجاء، وإلاّ كان ناقصاً عن حال الكمال، بدليل قوله، ﷺ: (المؤمنُ تسره حسناته، وتسوؤه سيئاته)<sup>(١)</sup>. فإنه إذا وجد من نفسه هذا الخوف سرّاً به، فتجتمع له علامتان من الإيمان: وجود الخوف في موضعه، والفرح في موضعه. ولذلك قيل لبعضهم في بعض مناجاته: ليكنْ خوفك خوفَ محبٍّ ومحبوبٍ؛ لأن المحبَّ مهما رأى أقلَّ شيء خاف من أن يكون ذلك سبباً للبعد. والمحبوب وإن رأى ما يوجب البعد يعلم أن المحبوب لا تقصّره الذنوب، فلا تحزنه، فيكون حاله في الزمان الواحد محبوباً مُحبّاً. وهذه أكمل الحالات.

جعلنا الله من أهلها بمنّه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

(١) مروي بالمعنى لحديث أخرجه الإمام أحمد وابن حبان والطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب والضياء في المختارة عن أبي أمامة رضي الله عنه، وأصله: إذا سرتك حسنتك، وساءت سيئتك فأنت مؤمن.

## حديث القيام إلى الصلاة

عن أبي قتادة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، ﷺ: إذا أقيمت الصلاة فلا تقوموا حتى تَرَوْني، وعليكم بالسَّكينة والوقار.

\* \* \*

ظاهر الحديث: يوجب ترك القيام إلى الصلاة، وإن أقيمت، حتى يخرج، ﷺ. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: يؤخذ منه تأكيد الإقامة في الصلاة لقوله، عليه السلام، (إذا أقيمت الصلاة) فلولا أنه أمرٌ مستعملٌ في كل صلاة مكتوبة لما قال ذلك. وهي من السُّنن المؤكدة الخارجة عن الصَّلوات.

الوجه الثاني: جواز الإقامة والإمام ليس بحاضر. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام (لا تقوموا حتى تَرَوْني). فلو كان حاضراً ما قال (حتى تَرَوْني).

الوجه الثالث: هل هذا النهي على التحريم أو الكراهة؟ وهل هذا الفعل خاصٌّ به، عليه السلام، أو ليس؟

الجواب عن الأول: فليس هذا مما نقول فيه تلك التقسيمات التي في الأمر، لأنه في أمر خارج عن الصلاة؛ وإنما هو لفوائد، منها: أنه، ﷺ، أراد أن يبين حكماً من أحكام الله، وهو أن الإقامة ليس اتصالها بالصلاة من اللوازم، وإنما هي إخبارٌ بأن وقت الدخول في الصلاة قد حان، فقد يكون متصلاً بها، وقد يكون بينهما بؤنٌ ما. كما أن الأذان دالٌّ على دخول وقت الصلاة، وقد تُوقَّع الصلاة في أوله، أو بعده. لكن لما كان الغالب من فعله، عليه السلام، الاتصال بها خاف أن يُعتقد أنه من الواجب، فبيَّنه، عليه السلام، هنا بالقول، وقد بيَّنه في موضع آخر بالفعل، وهو ما روي عنه ﷺ، أنه إذا نزل من المنبر، وأقيمت الصلاة، ربَّما سارَّه<sup>(١)</sup> أحدٌ من الصحابة، فيجاوبه، وحيثئذٍ يدخل في الصلاة.

(١) كذا والقياس: سارَّه.

ويترتب على هذا من الفقه أنه إذا كان الإنسان في صلاة، وأقيمت عليه صلاة أخرى، والإمام ليس بحاضر، لا يَقْطَع صلاته. وقد قال أهل العلم: إنه مَنْ كان في صلاة، وأقيمت عليه صلاة إنه يقطع التي هو فيها ويصلي التي أقيمت، وحينئذ يُعيد التي كان فيها. ويجتمع قولهم مع الحديث: إذا كانت الإقامة. . كما قلناه، والإمام حاضر.

الوجه الرابع: فيه دليل على توفيقه، ﷺ، تعليم جميع الأحكام. يؤخذ ذلك من أن هذا الأمر على دقته وخفائه لم يُهمِّله حتى يئنه قولاً وفعلًا.

وفيه أيضاً وجه من وجوه الرفق. وكان، عليه السلام، بالمؤمنين رحيمًا، وهو ربما يكون هناك ضعيف، فيقوم عند سماع الإقامة، فقد يتأخر، عليه السلام، لوجه ما، فلا يصل ذلك الضعيف إلى الصلاة إلا وهو قد عجز عن القيام، فيصلّي قاعدًا، فيفوته القيام. وقد يكون بزُد أو حرّ. والغالب عليهم، رضي الله عنهم، قلة الثياب، فيلحق القائم شدة البرد والحرّ، فيكون سبباً لتشويشه في الصلاة.

ويترتب عليه من الفقه أن المتعبد ينظر قبل الدخول في صلاته أو تعبده ما يصلح به حاله في تعبده، ولا يكون معه فيه تشويش.

الوجه الخامس: فيه دليل لمالك، رحمه الله، الذي يقول: إن الصلاة إذا أقيمت إن الناس بالخيار، في القيام ما بين الإقامة، واستفتاح الإمام الصلاة، لأن الشافعي يقول: يقام إلى الصلاة عند قوله: (قد قامت الصلاة).

الوجه السادس: فيه دليل على أن يُحمَل القوي في الأحكام محمل الضعيف. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، (فلا تقوموا حتى تروني) فساوى بين القوي والضعيف، ويؤيد ذلك قوله، عليه السلام (سيروا بسير أضعفكم)<sup>(١)</sup>.

الوجه السابع: فيه دليل على لحظ القدرة في الشيء السير مع استصحاب الحكمة. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، (إذا أقيمت الصلاة فلا تقوموا حتى تروني). فالحكمة: هي الإخبار بحال الإقامة، لأنها قد عُرِفَتْ عَلَمًا على الدخول في الصلاة الوقتية. واللحظ إلى القدرة هو عن نهيه، عليه السلام، لا يقوموا حتى يزوه، مخافة أن يبرز من الغيب مانع يوجب تأخيرته عن الخروج في الوقت. فلحظ القدرة مع أحكام الحكمة من أجل المراتب لمن فهم، على نحو ما قدمنا في غير ما حديث.

---

(١) رواه الشافعي في مسنده بلفظ (سيروا على سير أضعفكم) وابن ماجه والحاكم على شرط مسلم وابن خزيمة وصححه والحاثر بن أبي أسامة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الوجه الثامن: فيه دليل لأهل الصوفة الذين يقولون: إن من أدب العبادَة ألا ترجع من الأعلى إلى ما هو دونه. يؤخذ ذلك من نهيه، عليه السلام، (لا تقوموا حتى تَرُونِي) خشية أن يبرز من القَدَر ما يوجب تأخير الخروج، فيرجعون من القيام إلى الخدمة إلى القعود، فيكون نقصُ مرتبة في ذلك.

الوجه التاسع: فيه دليل على أنه لا يجب الدخول في العبادَة حتى تتم شروطها. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، (حتى تروني) لأن الإقامة - وإن كانت تُخَيِّر بالدخول في الصَّلَاة - لكن من تمام ذلك الإمام. فإذا لم يَرُوا الإمام لم يجب عليهم القيام. ويلزم منه عكسه، وهو إذا كملت الموجبات فلا يجوز التأخير لغير عذر.

الوجه العاشر: يؤخذ منه الالتفات والاهتمام بالإمام. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، (حتى تروني) فذلك تحضيض على ما قلنا. ويترتب على ذلك الاهتمام بأمر الدين كله، لأنه من تعظيم الشعائر، وهو من التقوى.

الوجه الحادي عشر: فيه دليل على أن السنة الاهتمام بتوفية السابق، وإن كان ما بعده أرفع منه. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، (لا تقوموا حتى تروني) لأن الصَّلَاة - ولا بد - أرفع من الإقامة، فاشتغالك أنت بالنظر إليه: هل خرج أم لا؟ - وهو توفية حق الإقامة - أولى من الاشتغال بالصَّلَاة التي لا تأتي إلا بعد توفية الإقامة بشروطها.

وفيه وجه من الحكمة. وهو أن تُوفِّي لكل ذي حقَّ حقَّه، وإن قلَّ، ولا يشغلك حقُّ الأعلى عن توفية حقِّ الأقل. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، (فلا تقوموا حتى تَرُونِي).

الوجه الثاني عشر: فيه دليل لأهل الصوفة الذين يحضون على الاشتغال بتوفية حق الوقت ومراعاته، وإن قلَّ، لأن ذلك الالتفات - وهو أمرٌ يسير - هو حقُّ الوقت فلا يشغل عنه بما بعده، وإن كان أعلى منه، ولا يتهاونُ به، فيحصل في العتب أو الذم.

ومن كلام من نسب إلى الخير: من حافظ على توفية حقِّ وقته - وإن قلَّ - خَفَّ حِمْلُهُ، وَقَلَّ هَمُّهُ، وَصَلَحَ عَمَلُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ، وَصَحَّ لَهُ اسْمُ الثُّبُلِ والمعرفة، وَرَبِحَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ. وقوله، عليه السلام: (وعليكم بالسكينة والوقار) لأن السكينة والخضوع هنا من نسبة العبادَة، ولأن العبادَة هي التواضع والانقياد. ولذلك أثنى مولانا، جلَّ جلاله، عليهم فقال ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾<sup>(١)</sup> وقال، ﷺ: (المؤمن هينٌ لَيْنٌ)<sup>(٢)</sup>. فصفة

(١) سورة الفرقان، الآية ٦٣.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه. ومعنى (هين): ساكن متند. و(لَيْن) متواضع وبسيط. وهي قريبة من معنى هين.

المؤمن أن يكون هَيئاً لَيْناً من غير ضعف، ومن غير تماوت. وهذه الحالة كثيراً ما نجد الشارع، عليه السلام، يحضُّ عليها في غير ما موضع.

فانظر هنا إلى هذا الحديث: لَمَّا أَنْ حَضَّ أَوَّلًا عَلَى الْآ يَقُومُوا حَتَّى يَرَوْهُ خَافَ أَنْ يُسْرِعُوا فِي الْإِلْتِفَاتِ عِنْدَمَا يَسْمَعُونَ الْإِقَامَةَ، أَوْ يَسْرِعُوا إِلَى الْقِيَامِ عِنْدَ مَا يَرَوْنَهُ، فَقَدْ يَلْحَقُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ ذَلِكَ تَأَلُّمٌ؛ لِأَنَّ الْجَمْعَ إِذَا قَامُوا فِي مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ مُسْرِعِينَ يَلْحَقُ الضَّعِيفُ وَالْقَوِيُّ مِنْ سُرْعَةِ الْقِيَامِ أَذًى، فَأَكْمَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الْفَائِدَةَ فِي التَّعْلِيمِ، وَأَبْدَى مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ، بِأَنْ قَالَ: (وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ) وَهِيَ التَّائِي وَالرَّفَقُ فِي النَّظَرِ، وَالْقِيَامُ مَعَ حُضُورِ الْخَاطِرِ بِمَا هُوَ فِيهِ، وَالِاهْتِمَامُ بِهِ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ؛ لِأَنَّ تِلْكَ الْحَالَةَ هِيَ هُنَا سُنَّةُ الْعِبَادَةِ. وَلِذَلِكَ كَانَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَقُولُ عِنْدَ النَّفْرِ مِنْ عَرَفَةِ، وَهُوَ قَدْ شَنَقَ الْعَضْبَاءَ<sup>(١)</sup>: (عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ) وَيَشِيرُ بِيَدِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا، حَتَّى إِذَا صَعِدَ جَبَلًا أَرَخَى لَهَا قَلِيلًا، فَإِذَا نَزَلَ عَادَ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ.

فجزاه الله عنا من مُعَلِّمٍ خَيْرًا، وَمِنْ رَسُولٍ وَنَبِيٍّ، خَيْرَ مَا جَزَى رَسُولًا وَنَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، وَحَشَرْنَا فِي زَمَرَتِهِ غَيْرَ خَزَابَا، وَلَا نَدَامَى يَمَنَّهُ. آمِينَ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا.

---

(١) العَضْبَاءُ: لِقَبِ نَاقَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعْنَى الْكَلِمَةِ: النَّاقَةُ الْمَشْقُوقَةُ الْأُذُنَ. وَلَمْ تَكُنْ نَاقَتَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَضْبَاءَ. وَشَنَقَ الْبَعِيرَ: كَفَّهُ بِزِمَامِهِ حَتَّى أَلْزَقَ ذِفْرَتَيْهِ بِقَادِمَةِ الرَّحْلِ، أَوْ رَفَعَ رَأْسَهُ وَهُوَ رَاكِبُهُ. وَ(الذَّفْرَى) الْعِظْمُ الشَّخْصُ خَلْفَ الْأُذُنِ وَهُمَا ذَفْرَانِ.



## حديث انتظار الإمام

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: أقيمت الصلاة، فسَوَّى الناسُ صفوفَهم، فخرج رسولُ الله، ﷺ، فتقدَّم، وهو جُنُبٌ، ثم قال: على مَكَائِكُمْ. فرجعَ فاغتسل، ثم خرج، ورأسه يَقْطُرُ ماءً. فصلَّى بهم.

\* \* \*

ظاهر الحديث: انتظر الناس بعدما سَوَّوا صفوفَهم إلى الصلاة، لرسول الله، ﷺ، حتى رجع واغتسل وخرج. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: أن الجماعة ينتظرون الإمام إذا طرأ عليه عذر، ما لم يكونوا تَسَبَّثُوا بالصلاة. يُؤْخَذُ ذلك من قوله (عَلَى مَكَائِكُمْ، فرجع فاغتسل).

الوجه الثاني: يؤخذ منه أنهم لا ينتظرونه إلا إذا كان شغله يسيراً. يؤخذ ذلك من فعله، عليه السلام، لأنه لم يكن إلا قَدَرٌ ما اغتسل.

الوجه الثالث: يؤخذ منه أنهم لا ينتظرون الإمام إلا إذا أمرهم بذلك. يُؤْخَذُ ذلك من جمع هذا الحديث مع الحديث الذي ذُكِرَ فيه أنه، عليه السلام، خرج لِيُصَلِّحَ بين بعض قبائل العرب، وحين وقت الصلاة، تقدَّم الصَّحَابَةُ، رضي الله عنهم، أبا بكر، رضي الله عنه. فأتاهم ﷺ، وهم في الصلاة، فأتَمَّ الصَّلَاةَ معهم. فلما فرغ قال لهم: (حَسَنٌ مَا فَعَلْتُمْ)<sup>(١)</sup> أو كما قال، عليه السلام، لأنه

(١) قصة صلح الرسول ﷺ بين بني عمرو بن عوف وعودته أثناء الصلاة وإمامة أبي بكر رضي الله عنه بالناس. أخرجه الإمام مالك والإمام أحمد والحميدي والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه والطبراني في الكبير والبيهقي في شرح السنة عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه. وتفصيل الخبر: أن أناساً من بني عمرو بن عوف كان بينهم شيء، فخرج إليهم النبي ﷺ في أناس من أصحابه يصلح بينهم، فحضرت الصلاة ولم يأت النبي عليه السلام، فأذن بلال بالصلاة ولم يأت النبي عليه السلام، فجاء إلى أبي بكر رضي الله عنه وقال: إن النبي ﷺ حُسِبَ، وقد حضرت الصلاة، فهل لك أن تؤم الناس؟ فقال: نعم، إن شئت. فأقام الصلاة، فتقدم أبو=

حين خرج، ولم يأمرهم أن ينتظروه بالصلاة، فلما جاء وقت الصلاة قاموا بما به أمروا، وهنا لما أمرهم بأن ينتظروه امثلوا.

ويترتب عليه من الفقه ما قدّمنا، اللهم إلا أن يعلموا بالقطع أن شغل الإمام يسير، وإن لم يأمرهم بالانتظار، فليحرمته إذا كان في الوقت سعة، ولم يخرج الوقت المختار، فلينتظروه.

وقد قال بعض العلماء: إنه إذا كان شخص يواظب على الصلاة في مسجد واحد، وحينئذ وقت الصلاة، وهو لم يجيء، إنه ينتظر قدر ما توقع صلاة، وحينئذ يصلون؛ لأن لملازمته حرمة، ينبغي ألا يغفل عنها. والإمام - ولا بد - أكبر حرمة من هذا.

ولذلك نذكر حكاية الشيخ الذي كان يأتي الصلوات، فيؤذن عند باب المسجد، وحينئذ يدخل. فاعتقل يوماً عن وقته المعهود، فأقام المؤذن الصلاة، ودخلوا في الصلاة. فجاء الشيخ وهم في الصلاة، فتغيّر خاطره، لكونه فاته الأذان، ولم يقل شيئاً. فلما كان الليل رأى المؤذن رسول الله ﷺ في النوم، فقال له: (تأدّب مع الشيخ). فلما جاء الشيخ إلى صلاة الصبح قال للمؤذن: أظننت أنني ليس معي من ينتصر لي؟ فتأب المؤذن واعتذر للشيخ. وهكذا هو حال كل من صدّق مع مولاه، فإنه ينصره.

الوجه الرابع: فيه دليل على تسوية الصفوف، وهو من سنة الصلاة. يؤخذ ذلك من قوله (فسوى الناس صفوفهم). فلولما كانت تلك سنة معلومة ما ذكرها الصحابي، رضي الله عنه.

وهنا بحث: هل هذا الحديث معارض للذي قبله أم لا؟

فإن حملناه على ظاهره ففيه تعارض، لأن المتقدم قال فيه (لا تقوموا حتى تروني) وهنا (سويت الصفوف وحينئذ خرج رسول الله ﷺ). ولعل هذا ومثله كان الموجب لإنهيه عليه السلام، في الحديث قبل، ألا تقوموا حتى يخرج.

وإن تأولنا وقلنا: معناه: (أقيمت الصلاة، فخرج رسول الله ﷺ، فسوى الناس صفوفهم)، لأن هذا في لسان العرب كثير، يقدمون المؤخر، ويؤخرون المقدم، إذا لم يقع على السامع إلباس،

= بكر رضي الله عنه، ثم جاء النبي عليه السلام بمشي في الصفوف حتى قام في الصف الأول، فأخذ الناس في التصفيح، أي التصفيح باليدين، حتى أكثروا. وكان أبو بكر رضي الله عنه لا يكاد يلتفت في الصلاة، فالتفت فإذا هو بالنبي عليه السلام. فأشار إليه بيده، فأمره بصلي كما هو، فرفع يده أبو بكر فحمد الله ثم رجع القهقري وراءه حتى دخل في الصف، وتقدم النبي ﷺ فصلى بالناس. فلما فرغ أقبل على الناس فقال: يا أيها الناس، إذا نابكم شيء في صلاتكم أخذتم بالتصفيح، إنما التصفيح للنساء. من رآه شيء في صلاته فليقل (سبحان الله).

كقول مولانا، جلّ جلاله ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾<sup>(١)</sup> ومعلوم أنه لا يكون غثاءً حتى يكون أولاً أحوى، فكذلك هنا، لما تقرّر الحكم بالألا يقوموا حتى يروه، قدّم المؤخر للعلم به أنه مؤخر.

الوجه الخامس: فيه دليل على أن الجُنُب لا تجب عليه الطهارة إلا عند العبادة. يؤخذ ذلك من أن النبي، ﷺ، أخر الطهور عن وقت الجنابة حتى نسيه وخرج، وهو جنب، فلو كان وقوع الطهارة واجباً إثر الحدث ما أخره النبي، ﷺ، حتى نسيه.

الوجه السادس: فيه دليل على جواز الحكم بقرينة الحال إذا لم يحتمل غير وجه واحد. يؤخذ ذلك من قول الصحابي (وهو جُنُب) لأن الصحابي لم يعرف ذلك إلا من قرينة الحال - وهي ما وصفه آخرأ بقوله (ورأسه يقطر ماء) - لأنه لما ترك، ﷺ، الصلاة بعدما كان الناس سوءاً صفوفهم، وأمرهم بانتظاره، ثم خرج بأثر الطهور عليه، لم يبق وجه يتقرر في الموضع غير الجنابة لا غير، فأخبر حقاً، ولولا ذلك ما أخبر بالقطع.

ويترتب عليه من الفقه: أن كل وجه يتوصّل إلى القطع بمدلول عليه فهو طريقٌ يحصل به علمٌ حقيقيٌ يجب الحكم به.

الوجه السابع: فيه دليل على أن ما هو من ضرورة البشرية ليس بمنافٍ للعبادة، إذا فعل على مشروعيّته. يؤخذ ذلك من أن سيدنا محمداً، ﷺ، بالإجماع أعبد الناس. وترى ما طُبعت عليه البشرية من الجماع وغيره، ولم يُخلّ بعبادته شيئاً؛ لأنه، عليه السلام، لم يكن يأتيها إلا على مشروعيّتها. وهذا هو غاية الكمال في البشرية؛ لأنه يرجع ما طُبِع عليه تابِعاً لما أُمِر به.

وقد قال مولانا، جلّ جلاله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾<sup>(٢)</sup> فمفهوم هذا - وهو ذكرُ الزوجة والذرية - لأنهما أعظم ما يفتتن بهم الناس، والنكاح أكبر الشهوات، فدلّ على أن جميعهم، صلوات الله عليهم، على طبع البشرية من كل الجهات، إلا أنهم لم يمنعهم ذلك من توفية أعلى الأحوال؛ وهي توفية حق النبوة والرسالة. وبهذا سقط عُذرُ غيرهم بالألا يمنعهم شيء مما طُبعت عليه البشرية من توفية ما كلّفهم الربوبية، فقامت الحجة لله، عزّ وجلّ، على عباده ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة الأعلى، الآية ٥.

(٢) سورة الرعد، من الآية ٣٨.

(٣) سورة الأنعام، من الآية ١٤٩.

الوجه الثامن: فيه دليل على عدم الحياء في الدين. يؤخذ ذلك من أن سيدنا محمداً، ﷺ، لما اقتحم للجنابة لم يعتذر، ولا غطى على رأسه، كي يخفي ذلك، وإنما ترك الأمر على ما وقع، حتى يُقَعَّد هذه القاعدة التي ذكرنا.

الوجه التاسع: فيه دليل على أن التعمق في العبادة والوسواس إما بدعة أو بلوى. يؤخذ ذلك من أن سيدنا محمداً، ﷺ، لم يطل المكث في طهوره.

يؤخذ ذلك من قوة كلام الصحابي الذي قال: إنه، عليه السلام، تركهم قياماً ورجع فاغتسل، وخرج فصلّى بهم، فدل أنهم بقوا قياماً ينتظرونه. ولو كان لُبُّه في طهوره يطول، لأمرهم بالقعود، وحينئذ ينتظرونه، لما يُعلم من رفقته، عليه السلام، بأتمته والتيسير عليهم في جميع الأمور، مما هو قد رَجَعَ علم ضرورة لا يُحتاج فيه إلى دليل.

وفعله، عليه السلام، ذلك، فيه وجه من الفقه، لأن تعلمهم بفعله أن الإسراع في الطهور، والإبطاء في الصلاة هي السنة، لأن التعليم بالفعل ولا سيما من المشرع، عليه السلام، أبلغ من القول. وكذلك كان، ﷺ، يقصر الخطبة، ويطل الصلاة.

واليوم، الأمر من الأكثر، ممن يدعي العلم، بالضد مما ذكرنا، فأئني لنا الاقتداء، بمن خالف سنة رسوله، ﷺ. أعاذنا الله من ذلك بِمَنِّهِ.

الوجه العاشر: فيه دليل لأهل الصوفة الذين يقولون: لا يرجع المتعبد من الأعلى إلى الأدنى. يؤخذ ذلك من أنه، عليه السلام، أمرهم أن يبقوا على حالهم، ولم يأمرهم بالقعود؛ لأنهم قد قاموا إلى التوجه، فكَرِهَ أن يقول لهم: ارجعوا إلى الجلوس، فقال: على مكانكم.

الوجه الحادي عشر: فيه دليل على تركه التجفيف من الطهور. يؤخذ ذلك من قول الصحابي (ورأسه يقطر ماء). والذي يجفف لا يقطر منه الماء، وقد جاء عنه، ﷺ، أنه جفف، وجاء عنه أنه لم يجفف، كما يقتضيه هذا الحديث، فالوجهان على هذا جائزان. وهي توسعة من الله على عبده.

الوجه الثاني عشر: فيه دليل على أن الإيمان كان في حياة رسول الله، ﷺ، أقوى مما كان بعده. يؤخذ ذلك من قول الصحابي (فسَوَّى الناس صفوفهم) من غير خبر منه، ﷺ. وجاء أن زمان عثمان، رضي الله عنه، وگل أناساً بتسوية الصفوف، فلا يكتبون حتى يأتوه، فيخبروه أن الصفوف قد استوت، كما أخرجه مالك في مُوطَّئِهِ. فبان الفرق بين الإيمان في الزمانين، فما بالك بإيمان أهل وقتنا؟ أجزل الله لنا النصيب منه بِمَنِّهِ.

ويترتب على هذا من الفقه أن بقدر قوة الإيمان تَخَفَ أعمال البر، يؤيد ذلك قوله تعالى

﴿وَلِئَلَّا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾<sup>(١)</sup> وبهذا النوع من قوة الإيمان ظهر على أيدي الصحابة، رضي الله عنهم، ما لم يظهر على يد غيرهم، ولا قَدَرُوا عليه، ثم بعدهم أهل الصوفة ما حملت أبدانهم تلك المجاهدات، وظهرت لهم تلك الأحوال السنيّة، إلا بقوة إيمانهم. وصلى الله على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة البقرة، من الآية ٤٥.

## حديث سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظل عرشه

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي، ﷺ، قال: سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شمالك ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله، عز وجل، خالياً ففاضت عيناه.

\* \* \*

ظاهر الحديث: أن السبعة المذكورين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله. والكلام عليه من وجوه:  
الوجه الأول: ما معنى يُظلهم؟ وهل لا تكون<sup>(١)</sup> هذه الخصوصية بهذا الظل إلا لهؤلاء المذكورين لا غير؟ أو لهم نظائر؟

فالجواب عن الأول: أن يقال: معنى (يظلهم بظله) أي: أنه، جلّ جلاله، يُعافيهم من هول ذلك اليوم العظيم، وحرّه، بظله المديد، ورحمته الواسعة، والكيفية لا مجال للعقل فيها، لأن الآخرة بُدِّعَ بها، ولا يُتعرَّضُ إلى كيفيتها.

وأما قولنا: وهل هو لهؤلاء المذكورين أو أكثر؟ فقد جاءت أحاديث أخر ذكر فيها آخرين، وأخبر، ﷺ، أنهم مثل هؤلاء في الظل.

وهنا بحث: لِمَ جاءت الأخبار عنهم في أحاديث متفرقة؟ فتفريق الأخبار لِجَمْعِ منها:  
أنه قد تكون الأخبار بقدر ما يحتاجه الوقت، ليكون لأهل الوقت اهتمام به، كما جرت عادته، ﷺ، أنه حين سأل بعض الصحابة: ما خير الأعمال؟ فقال للواحد بخلاف ما قال لغيره،

(١) يريد: أولاً تكون.

ويكون الجمع بينهما بأن نقول: أخبر لكل<sup>(١)</sup> شخص بما هو الأفضل في حقه؛ لأنه، ﷺ، مثل الطبيب الذي يصف لكل شخص من الدواء ما هو الأصلح له. فطِبُّهُ أَيِ طَبَّ، ودواؤه أَيِ دواء! كما قال لعبد الله بن عمر: نِعَمَ الرَّجُلُ لو كان يَقُومُ اللَّيْلَ<sup>(٢)</sup>. فرجع عبد الله لا ينفك ملازماً قيام الليل.

وقد يكون، ﷺ، لم يعلم في الوقت إلا بالذي أخبر به في الحديث الواحد، ثم بعد ذلك أخبر بالغير، كما قال عليه السلام، في حديث عذاب القبر: (ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيتُه في مقامي هذا)<sup>(٣)</sup>، لأن نزول الأحكام مفرقة أيسر على المكلف من أن تكون جملة. هذا من طريق اللطف، والله لطيف بعباده.

وفيه وجوه أخر، لأن دوام تعمير الأوقات بالأخبار بأمور الدين، وبشائره، وأحكامه فيه تنشيط لنفوس العبيد، وإظهاراً للرحمة بهم. فإن تردّد أوامر المولى على العبيد وبشائريهم وجوائزهم ومراسلاتهم دليل على العناية بهم. ولا شيء أفرح لقلوب العبيد من علمهم باعتناء المولى بهم، وتكرار نعيمه عليهم. وبهذا المعنى ذكر عن أيوب، عليه السلام، لما عافاه الله، عز وجل، أنزل عليه فراشاً من ذهب، ملأ كل ما له من الأواني، ثم رأى جرادة من ذهب تطير، فجرى وراءها، فأوحى الله، عز وجل، إليه: أَمَا أَفْتَعَكَ كُلُّ مَا أُعْطَيْتَكَ<sup>(٤)</sup>؟ قال: بلى يا رب ولكن من يشبع من خيرك؟ فشكر الله له ذلك.

الوجه الثاني: فيه دليل على أن أعمال الخير دالة على سعادة الشخص. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، (سبعة يظلهم الله) فجعل موجب الظل تلك الأعمال.

الوجه الثالث: فيه دليل على أن جميع أفعال البر مطلوبة منا، وإن لم يكن بعضها فرضاً. يؤخذ ذلك من وصفه، عليه السلام، ثواب الأعمال، ولم يأمر بعملها لأن كثرة الربح تحض بضمناها على المعاملة.

الوجه الرابع: فيه دليل على أن أمر الآخرة بضد أمر الدنيا. يؤخذ ذلك من أن الدنيا ندب إلى التقليل منها، كقوله عليه السلام: (فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ)<sup>(٥)</sup> والآخرة رغب في التكثير منها، وإن كان الشخص معه من العمل ما يتخلص به. وقد زاد ذلك إيضاحاً قوله تعالى ﴿وَلَا تَمَنَّ﴾

(١) زاد اللام للتقوية.

(٢) رواه الإمام أحمد والشيخان عن ابن عمر عن حفصة بلفظ آخر.

(٣) هو جزء من الحديث رقم (١٢) في هذا الكتاب.

(٤) أخرجه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ آخر.

(٥) انظر تخريجه في الحديث (١١) ومطلعه: إن روح القدس نفث في روعي.

تَسْتَكْبِرُ<sup>(١)</sup> أي: لا تقلّ معي من أعمال الخير ما يكفيني، فتقلّ من العمل - على أحد الأقاويل - مما قيل في معنى الآية.

الوجه الخامس: فيه دليل على أن إعطاء الأجور على الأعمال لا يترتب على علة عقلية ولا عليه. يؤخذ ذلك من أن هذه الأعمال السبعة فيها واجب وفيها مندوب، والثواب فيها على حدّ واحد. وقد أجمعت الأمة - بمقتضى الأدلة الشرعية - على أن الفرائض أعلى من غيرها من الأعمال. فلو كان الثواب عِلِّيَّةً من العلل ما كان يسوي بين ثواب الفرض والندب، وقد سوى هنا بينهما، فليس ذلك لعله.

فإن احتج محتج بأن يقول: تَسَاوَوْا في أن الظل عَمَّهم، وتفاوتوا فيه، في عظمته وامتداده، وغير ذلك من حسن أوصافه، كما أن أهل الجنة يدخلون الجنة ويتفاوتون في المنازل فيها. فالجواب: أن الذي أخبرنا بالجنة أخبرنا بتفاوت المنازل فيها. والذي أخبرنا بالظلّ لم يفرّق، وأمور الآخرة هي غَيْبٌ، والغيب لا مجال فيه للقياس ولا للعقل، وإنما الشأن فيها التصديق بها، على ما جاءت به، اللهم إلا أن يكون بعض ما يُستدلّ به على الزيادة في الأجر، إذا نُظِرَ من طريق الجمع بينهما، فيرجع إلى طريق الأخبار، كما هو أيضاً.

الوجه السادس: فيه دليل على أن بعض الفرائض ثوابها أعلى من ثواب غيرها، لأن الذي هنا مذكور من الفرائض ثوابه أكبر من غيره من الفرائض، لأن المعافاة من هول ذلك اليوم أكبر الثواب؛ لأن من عوفي منه لم يبقَ عليه خوف.

الوجه السابع: فيه دليل على أن بعض المندوبات ثوابها أعلى من ثواب بعض الفرائض. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، (سبعة يظلّهم الله) والأكثر من السبعة هو من المندوب. وهذا الثواب لم يأت مثله على بعض الفرائض.

وهنا بحث: كيف يمكن أن يكون بعض المندوبات أفضل ثواباً من بعض الفرائض؟ وقد قال، ﷺ، حكاية عن مولانا: (لن يتقرب إليّ المتقربون بأحبّ من أداء ما افترضت عليهم)<sup>(٢)</sup> وصيغة (أحبّ) تعطي الأفضلية في الفائدة؟ فالجواب: أنه ما يصحّ له علم ثواب المندوب إلا بعد تحصيل المفروض، لأنه إذا عمل المندوب ولم يأت بالمفروض، استوجب دخول النار. وقد جاء أن وادياً في جهنم يُسمّى «الغَيّ» هو لمن ترك شيئاً من الفرائض. ومن ترك المندوب فلا عقاب عليه، غير أنه فاتته ثواب عظيم.

(١) سورة المدثر، الآية ٦.

(٢) انظر تخريجه في الحديث (٦) ومطلعه: من عادى لي ولياً.



فصورة الجمع بين الوجهين أن نقول: إن الفرائض أرفع، لأنها بالوعد الجميل من جاء بها لا يدخل النار. وبعض المندوب أكثر ثواباً من الفرض. لكن ذلك الفرض - وإن كان ثوابه أقل من أجر المندوب - فقد فاته الفرض بأمر أعظم من ذلك وهو البعد من النار، وقد قال، ﷺ: (لو لم يكن إلا النجاة من النار لكان فوزاً عظيماً)<sup>(١)</sup> فوقَّع الفرق بأن الواحد - وهو المندوب - أكثر ثواباً، والآخر وهو الفرض أكثر فائدة، والفائدة تحوي أشياء من المنافع عديدة. وتعظيم الأجر لا يقتضي زيادة على غيره غير التفضيل في ذلك الوجه الواحد ليس إلّا، كقولنا مثلاً: زيد أجمل من عمرو، وعمرو خير من زيد. فزيد ما فضّل عمراً إلا في الجمال ليس إلّا، وعمرو فاق زيدا في أشياء عديدة، لقولنا: هو خير منه، فنسبة ما فضّل عليه في الوجه الواحد بنسبة الذي زاد عليه من وجوه عديدة، كنسبة صاحبين، كانت خياطة ثوب أحد الصاحبين خيراً من خياطة ثوب صاحبه، وثوب صاحبه أرفع منه: فأشرفهما وأرفعهما في اللباس الذي ثوبه أرفع، وإن كانت خياطة ثوب صاحبه أرفع.

الوجه الثامن: قوله، عليه السلام، (يوم لا ظلّ إلا ظله) الظلال كلّها لله، ملكٌ في الدنيا والآخرة. فالحكمة في الإخبار بهذه الصيغة هنا: أن ظلال الدنيا - وإن كانت له جلّ جلاله - فمنها ما قد جعلها، عزّ وجلّ، ملكاً للعبيد يملكونها بحسب ما شرع لهم ذلك، لا يتصرف فيها أحد إلا برضاهم، حكماً منه بذلك، مثل ظلال الحدائق المتملّكة. وظلال الله، عزّ وجلّ، لم يجعل لأحد عليها ملكاً، فمن احتاج إلى شيء منها أخذها دون عنت في ذلك، مثل الظلال التي في القفر، أو التي قد خرج أصحابها عنها الله، عزّ وجلّ، وسبّلوها له. وظلال الآخرة ما فيها مباح، بل كلّها قد تملكت بالأعمال التي عملها العاملون الذين هداهم بفضل تلك الأعمال التي ذلك ثوابها، بمقتضى قوله، ﷺ: (المؤمن في ظلّ صدّقه يوم القيامة)<sup>(٢)</sup>.

فليس هناك لصعلوك الأعمال<sup>(٣)</sup> ظل، فكأنه، عليه السلام، يقول ليس هناك ظلّ إلا لمن عمل هنا لله، فلما أضاف أعمال البرّ هنا إليه كما قال، عزّ وجلّ، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾<sup>(٤)</sup> أي: ما كان لوجهه فهو باقي يتنفع به صاحبه في الدارين، وما ليس لوجهه فهو - وإن كان نفعه موجوداً لصاحبه في هذه الدار - لم يجده هناك حيث الحاجة إليه فهو هالك، أي ليس يُتنفع به، وقد يتضرّر به، فيكون أبلغ في الهلاك فأضاف ثوابها في الآخرة إليه<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر تخريجه في الحديث (١١).

(٢) انظر الحديث رقم (١٣٨).

(٣) صعلوك الأعمال: الفقير إلى الأعمال الصالحة المقبولة في الآخرة.

(٤) سورة القصص، من الآية ٨٨.

(٥) أي: في قوله (وجهه) حيث أضاف الأعمال، أعمال البر، إليه تعالى.

الوجه التاسع: فيه إشارتان عجيبتان (إحدهما): الإرشاد إلى الإخلاص في العمل، ولهذا قال بعض الفقهاء: الصدق والإخلاص علامة الخلاص. (والثاني): هي رد الفرع إلى أصله بإضافة الفرع الذي هو الظل إليه، كما كان الأصل في الدنيا مضافاً إليه. وهو من بديع الحكمة.

ويترتب على هذا من الفقه: الحث على الأعمال الخالصة التي توجب هناك ذلك الظل المبارك. جعلنا الله ممّن أجزل له منه الحظّ بمَنّهِ.

الوجه العاشر: فيه دليل على عظم قدرة القادر، جلّ جلاله. يؤخذ ذلك من أن الأعمال هنا معانٍ، وهناك بهذا الخبر الصدق جواهر محسوسات.

وهنا بحث: هل هذه السبعة خصت بهذا الثواب تعبدًا لا يُعقل لها معنى، أو هي معقولة المعنى؟ فإن قلنا: إنها تعبد غير معقولة المعنى فلا بحث. وإن قلنا إن معناها معقول، فما هو؟ فالجواب - والله أعلم - أن العلة فيها على وجهين:

(أحدهما): قوة قهر النفس والهوى، وهو من أكبر الموجبات لخير الدنيا والآخرة، لأنه، جلّ جلاله، قال: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾<sup>(١)</sup> وقال، ﷺ: (رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس)<sup>(٢)</sup>. (والوجه الآخر) هو حقيقة الإخلاص، وقد قال، جلّ جلاله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾<sup>(٣)</sup> وقال، ﷺ: (إن الله لا يقبل عمل امرئ حتى يُتقنه. قالوا: وما إتقانه يا رسول الله؟ قال: يُخلصه من الرِّياء والبِدعة)<sup>(٤)</sup> وترك الرِّياء هو عين الإخلاص، وكلتا علتين الحامل عليهما خوفُ الله، عزّ وجلّ، فاخترَها واحدةً واحدةً تجذّ ذلك.

الوجه الحادي عشر: قوله، عليه السلام (الإمام العادل) فلأنه لا يمنعه من الظلم، ولا يقهر نفسه على العدل، مع تمكّنه من الظلم لقدرته عليه من طريق الحكم، وقدرته على قهر غيره، ولا أحد يقدر أن يصده عنه، إلا شدة خوفه من الله. وقد جاء الحديث عن الذي أمر أهله أن يحرقوه إذا مات، فلمّا مات فعلوا به ذلك، فجمعه الله وقال له: لِمَ فعلتَ هذا؟ قال: من خشيتك يا رب. فغفر له. فشدة خوفه كان منجياً له.

الوجه الثاني عشر: قوله عليه السلام (وشابّ نشأ في عبادة ربّه). فلأنّ العبادة هي قهر النفس، وخروجها عن راحتها، وحملها على المجاهدات، والدوام على ذلك مع قوة شهوات

(١) سورة النازعات، من الآية ٤٠ وتام الآية ٤١.

(٢) انظر تخريجه في الحديث (١٦) ومطلعه: قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ.

(٣) سورة البينة، من الآية ٥.

(٤) انظر تخريجه في الحديث (٢) ومطلعه: إن الله يحب إذا عمل العبد عملاً أن يحكمه.

النفوس زمانَ الشباب، فما حملهُ على ذلك إلا الخوف الشديد. ولهذا المعنى يُروى عن بعض المتعبدين أنه كان يأوي إلى فراشه، فلا يقدر على النوم. فيقول: اللهم، إنك تعلم أن خوفَ ناركَ منعني الكَرَى، ثم يقوم فيصلي، حتى يصبح.

الوجه الثالث عشر: قوله، عليه السلام (ورجلٌ قلبُه معلقٌ بالمساجد). فحقيقة الإخلاص توجبُ تعلقَ القلوب بالعبادات. وأرفع ما تكون الصلاة في المساجد، فهو مشغولٌ بأرفع العبادات، كما روي عن عبد الله بن عمر أنه كان يستي (حمّامة المسجد) لكثرة ملازمته إياه.

الوجه الرابع عشر: قوله، عليه السلام: (ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه، وتفرّقا عليه)، فهو يوجب شدة الإخلاص منهما، حتى لم يبق للنفس شهوة ولا ميل لشيء من الأشياء إلا لله وبالله.

الوجه الخامس عشر: قوله، عليه السلام: (ورجل دعتهُ امرأة ذات منْصِب وجَمال، فقال: إني أخاف الله)، فهذا لِعِظَم قَهْرِ النفس عن هواها، والحامل على ذلك شدة الخوف من الله.

وهنا بحث وهو: لِمَ قال عن المرأة مع هذين الوصفين اللّذين فيها؟ لأن ذات المرأة وحدها من أكبر الفتن، وقد قال ﷺ: (ما تركتُ بعدي فتنةً هي أضرُّ على الرّجال من النساء)<sup>(١)</sup>. فذكر الوصفين، كل واحد منهما من أقوى البواعث في شهوات الجماع، والرغبة فيها، وقد قال: ﷺ: (تَرْوِجُ المرأة لجمالها وحسبها)<sup>(٢)</sup>، لأن ما ترغب النفوس في واحد طبعاً إذا اجتمع أكثر من واحد كان أشدَّ في الرغبة فيه وقوة الشهوة. فمن أجل ذلك عَظُم الأجرُ لتاركه.

ومثل ذلك يذكر عن بعض أهل الصوفة، كان بعضهم ممسكين في الخلوة، وبعضهم غير ممسكين، ثم فُتِحَ عليهم بطعام طيب، فقال الشيخ: قَدِّمُوا أَهْلَ الخلوة. فخرج بعضهم عنه لإخوانه قبل أن يعرف ما هو، وقام بعضهم فكشف الطعام حتى عاينه وعرف ما هو، ثم بعد ذلك خرج عنه. وقام بعضهم فعاينه ورفع منه لقمة لفيه حتى عرف طعمه بها، وتأكدت عنده قوة الشهوة لذوقه طيب الطعام، ثم بعد ذلك خرج عنه. فكان زهد الأكل اختياراً للطعام أعظم منزلة لقوة شهوته، وقهره لها.

الوجه السادس عشر: قوله، عليه السلام: (ورجل تصدّق بصدقٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شماله ما تُنفِقُ يمينه) فهذا تحقيق في الإخلاص.

ومثل ذلك يُروى عن بعض أهل الصوفة، أنه كان قلماً يَقْبَل شيئاً. فلما كان ليلةً بعد العشاء الآخرة فإذا رجل يَقْرِع الباب، فخرج إليه، فإذا هو رجلٌ من جيرانه، وكان صانعاً في الخياطة،

(١) تقدم تخريجه في الحديث (٣٣).

(٢) رواه الشيخان وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فقال له : خِطْتُ اليوم بكذا وكذا، واشتريتُ به هذا الطعام معه، وما يُحتاج إليه في البيت، ورأيت أنها من جهةٍ حلال ارتضيئُها لك، وهذا ليلٌ مظلم، ووالله ما عرفتُ أحداً، ولا رَأَيْتُ أحداً حين جئتُك، وها هوذا. ثم رَمَى ما كان بيده بالباب وولَّى. فما حَمَلَهُ على هذا الإخفاء العظيم إلا رغبته في الإخلاص في العمل.

الوجه السابع عشر: قوله، عليه السلام: (ورجل ذكر الله، عز وجل، خالياً ففاضت عيناه)، فلأنه اجتمع له الوصفان: الخوف والإخلاص، وهذه الأوصاف الحميدة لا يقع منها شيء إلا عند ذهاب أوصاف النفس، وعلى قدر غيبتها يكون الفتح. ولذلك قال بعض من نُسب إلى القوم: إذا رأيتَ نفسَكَ لم تَرَ غيرها، وإذا لم تَرَها لم يبق لك شيء إلا رأيتَه، فأرغب في رؤية ما لا تُحسبه عَذاً، ومن المحاسن ما لا تعرف منه ذرة، بالإعراض عما لا يساوي في الحقيقة ذرة. فإذا كنت بهذا الوصف عاد الوري بأسره لا يعدل منك ذرة.

وبقيت بحوث منها:

البحث الأول: هل (الإمام العادل) هنا الذي له الحكم على الخاصة والعامة وله البيعة، أو الإمام كل من كان مسترعى رعيةً قلَّت أو كَثُرَتْ، لقوله، عليه السلام (كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته). والرجلُ راعٍ في بيته ومسؤولٌ عن رعيَّته؟ احتمال. لكن الأظهر الذي له البيعة، ولا ننفي الآخر بالأصالة.

البحث الثاني: قوله في (الشاب الذي نشأ في عبادة ربِّه): هل هو مقيّد أو مطلق؟ ظاهره مطلق، وهو مقيّد بأصول الشريعة، وهي كثيرة. فمنها ما تقدم ذكره من قوله، ﷺ: (إن الله لا يقبل عمل امرئ حتى يُتَقَنه قيل: وما إتقانه؟ قال: يخلصه من الرياء والبدعة) وإلا كان هباءً منثوراً.

البحث الثالث: قوله في (الرجل الذي قلبه متعلق بالمساجد) فليس على عمومه. أعني: أن الرجل يكون قلبه متعلقاً بكل مسجد في الدنيا، فإن هذا المعنى لا فائدة فيه، ولا يمكن أيضاً أن يتعلق قلب أحد بما لم يَر، ولم يسمع، ولم يعرف، فما بقي إلا أنه، ﷺ، تحرّز بقوله بـ(المساجد) ولم يقل بـ(المسجد)، لأن هذا الاسم من أسماء الغلبة للكعبة، أو لمسجده، ﷺ، لأنه إذا سمع السامع من الشارع، عليه السلام، هذا الفضل العظيم، لم يسبق لقلبه إلا أحد هذين المسجدين، فعدل عن وصف المسجد بالفرد إلى الجمع، وهو الجنس، ويكون المعنى: أي مسجد كان من جملة المساجد، كما قال مولانا، جل جلاله: ﴿إِنَّمَا أَصَدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾<sup>(١)</sup> أي لجنس الفقراء والمساكين. فإذا أعطى إنسان صدقته لمسكين واحد فقد وقعت في مستحقها وأجزأته

(١) سورة التوبة، من الآية ٦٠.

عن فرضه . ويكون معنى تعلق قلبه بها : أنه إذا خرج منه بقي قلبه متعلقاً به أن يعود إليه لأداء الصلاة التي تأتي بعد ، وإنما المساجد لما بُنيت له .

وفيه من الفقه : أن هذا الذي قلبه متعلق بالمساجد إنما هو زائد على ثواب صلاته ؛ لأن ثواب الصلاة قد جاء ما حُدَّه في الجماعة وما حُدَّه في الوحدة ، وجاء ثواب الخطى إلى المساجد ، وما قَدَّرَه ، وانتظار الصلاة وما قَدَّرَ الأجر في ذلك ، فما بقي من مقابلة هذا الثواب العظيم إلا تلك النية المباركة ، وقد قال ، ﷺ : ( نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ أَبْلَغُ مِنْ عَمَلِهِ )<sup>(١)</sup> لأن تلك النية المباركة هي نتيجة قوة خالص إيمانه .

البحث الرابع : قوله في (الرجلين اللذين تحابَّا في الله) هل يكون ذلك على عمومه ؟ - أعني : إذا تحابَّا في الله إلا أنه يجد كل واحد منهما منفعة من صاحبه ، أو يرجوها منه ، إما في العاجلة أو الآجلة . مثال ذلك ؛ أن يصحب أحدهما الآخر ، ويجد به عوناً على شيء من دنياه ، حساً أو معنى ، أو يقول : يكون لي عُدَّة في الآخرة ، يشفع لي ، أو ما أشبه ذلك - أو لا يكون له ذلك الظل إلا حتى تكون صحبتهما لله ، عز وجل ، لا لغيره ؟ احتمل . والظاهر - والله أعلم - أن يكون لله خالصاً لا لِحَظ دُنْيَوِيٍّ وَلَا أُخْرَوِيٍّ ، كما روي في الهدية ، عن عبد الله بن عمر أنه قال : من كانت هَيْبَتُهُ لوجه صاحبه فله ذلك ، وليس له على الله ثواب . ومن كانت هَيْبَتُهُ لوجه الناس فله ذلك . ومن كانت هَيْبَتُهُ للثواب فإما أتابه الموهوب له ، أو يَرُدُّ هَيْبَتَهُ . وإن كانت خالصة لله فتلك التي يُثيبه الله عليها .

ويقوي ذلك ما قاله ، ﷺ ، عن مولانا ، جلّ جلاله ، يقول يوم القيامة ، لمن خلط في عمله لغير الله شيئاً : (أنا أغنى الشركاء ، إذْهَبْ فَخُذِ الْأَجْرَ مِنْ غَيْرِي الَّذِي شَرَكْتَهُ فِيهِ)<sup>(٢)</sup> .

فالمحتاجون في الله على ثلاثة وجوه :

إما أن يكونا تحابَّا في الله ، مع رجاء حطام في هذه الدار معنوياً كان أو حسياً ، فهذا طالب حاجة ، وَهَيْبَتُهُ فِي دُنْيَاهُ ، فليس له إلا حاجته ، قُضِيَتْ أو لم تُقَضَّ كما قال ، ﷺ : (مَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يَصِيبُهَا ، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا ، فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) .

والثاني : أن تكون صحبتهم لله ، مع رجاء حظٍّ أُخْرَوِيٍّ ، حساً كان أو معنى ، فهذا أيضاً طالب حاجة ، لكن نفسه أرفع من الأول ، وهو الأكثر عند المتسبين للخير ، فله حاجته قُضِيَتْ أو لم تُقَضَّ .

(١) سلف تخريجه في الحديث (٢) .

(٢) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ مختلف .

والثالث : الذي تكون صحبته لله ليس إلا، فهذا الذي يَصْدُقُ عليه اسم المتحابين في الله على حقيقة اللفظ . وإذا كان كذلك لا يغيّره من أخيه شيء يَصْدُرُ له منه ، وإذا كان على غير هذا الوجه فقلّما يثبت عند الامتحان . فإذا كانت نيّة أحدهما لله ، ونية الآخر لغير ذلك ، فلكل امرئ ما نَوَى .

وقد ذكر عن بعض من اصطحبنا الله أنه جفا أحد الأخوين أخاً له ، فقال الذي جُفِيَ عليه للآخر : امض يا أخي ، فاحضر مجلس فلان ، من أهل الصوفة في الوقت . فامثل ما قال له صاحبه . فلما حضر المجلس ، تكلم ذلك السيد في ذلك المجلس على ما كان وقع من ذلك الشخص لصاحبه ، وتبيّن له من المجلس أنه تعدّى على أخيه وجفاه . فتاب واستغفر ، وعزم أن يعود فيقبل أقدام صاحبه ، لعله يعفو عنه . فلما دخل على صاحبه أخبره بالذي جاء بسببه . فقال له : يا أخي ، افعل ذلك مع نفسك ، فإنني ما صحبتك إلا لله خالصاً . فكيف يعزّ عليّ ما يصدر منك ، وإنما وجهتك في حق نفسك لا غير ؟

البحث الخامس : قوله (طلبت امرأة ذات منصب وجمال) . هنا من الفقه أن من السنة الكناية عن الشيء القبيح شرعاً ، والإعراض عن تسميته . يؤخذ ذلك من قوله ، عليه السلام (طلبت) والطلب هنا يعني : طلبت منه وقوع الفاحشة المحرمة ، فكنى بطلبت عن هذا الأمر الممنوع شرعاً ، ولم يفصح به .

البحث السادس : قوله (أخفاها) . هل هذا على العموم - أعني صدقة التطوع والالتطوع - أو معناه الخصوص ، فيريد بهذا صدقة التطوع لا غير؟ صيغة اللفظ محتملة ، لكن الذي قاله العلماء : أن أفعال البر كلّها : الفرض منها : الأفضل فيه ظهوره ، والتطوع كلّهُ : الأفضل فيه إخفاؤه ، لأنه قال ، ﷺ : (صلاة المرء في بيته أفضل له إلا المكتوبة)<sup>(١)</sup> . فإذا كانت الصلاة - التي هي رأس الدين - كذلك ، فالغير من باب أولى . وسيأتي الكلام على هذا في موضعه من الكتاب - إن شاء الله - .

البحث السابع : قوله (ذَكَرَ الله خالياً ففاضت عيناه) . هل يعني بقوله : (خالياً) حساً أو معنى؟ أو مجموعهما؟ وأعني بقولنا : (حساً) أن يكون في موضع وحده ، ليس معه أحد من بني آدم . وأعني بقولنا : (معنى) أنه لا يكون الموجب لبكائه إلا خوف الله ، عز وجل ، ليس إلا . و(مجموعهما) وهو حين يكون وحده ولا يكون موجب بكائه إلا خوف الله .

فأما إذا كان الوجهان معاً فلا شك أن هذا أكمل الأحوال .

وأما إذا كان خلياً من دون البشر ، ووافق بكاءه فكرة أخرى ليست من الله ، ولا من ذكره

(١) رواه البخاري والنسائي وابن حنبل عن زيد بن ثابت رضي الله عنه . ولفظه : صلّوا أيها الناس في بيوتكم ، فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة .

بشيء، فلا خلاف أن هذا الحال ليس المشار إليه هنا، وهي حالة مذمومة، لأنه مُراءٍ، إذ أظهر أنه من أجل الله، لكن خرج الدمع بحكم الوفاق عند ذكر الله في الخارج، وهو في الحقيقة غير ذلك.

وأما الوجه الثالث، وهو أن يكون ذكره في جمع، وذكر الله وقلبه خالي مما سواه، وكان ذلك الذكر هو المؤثر لخروج الدمع، فيرجى أن يكون من هؤلاء المباركين، لأنه يصدق عليه: (خالياً) معنى. فإذا وقع وجه ما محتمل رُجى، والمتحقق مقطوع به، وهو الجميع، كما تقدم.

وهنا بحث آخر، وهو: هل قوله (ذَكَرَ الله) هل يكون الذكر المعني هنا باللسان والشفَتين، أو بالقلب وإن لم يتحرك اللسان، أو بأيّهما كان يُسمّى ذاكرة؟ فالجواب: أنه ينطلق على كل واحد من هذه الوجوه أن يوصف صاحبها<sup>(١)</sup> بالذكر، بدليل قول سيدنا ﷺ، في الحديث الصحيح كناية عن مولانا، جلّ جلاله: (مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ)<sup>(٢)</sup> فقد سمّاهما (ذاكرين) والطفيلي يتعلق بأقل من هذا.

وأما على مذهب أهل الصوفة: فذكر القلب عندهم أفضل. وأما على ما قاله عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فذكره عند الأمر والنهي خير له من اللسان؛ لأنه قال: ذَكَرَ الله عند أمره ونهيه خير له من ذكره باللسان.

فالجواب عن قول عمر، رضي الله عنه: نعم، إن ذكر الله عند أمره ونهيه خير من ذكره باللسان، لكن لا يتناول هذا الحديث، ويُرجى أن يكون حاله أرفع من هذا.

وأما ما قاله أهل الصوفة فعلى ملاحظة قول سيدنا ﷺ: (بِضْعَةٍ فِي الْجَسَدِ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)<sup>(٣)</sup>. فعلى هذا يترجح قولهم على قول غيرهم، والشأن العمل على الخروج عن الخلاف، والأخذ بالكمال في كل الأحوال.

جعلنا الله مِمَّنْ مَنَّ عَلَيْهِ بِذَلِكَ بِمَنَّةٍ. آمين. والحمد لله ربّ العالمين.  
وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) الصواب: صاحبه.

(٢) أخرجه عبد الله بن المبارك عن خالد بن معدان في الزهد والرقائق.

(٣) جزء من حديث رواه الشيخان وأصحاب السنن عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

## حديث تقديم العشاء على الصلاة

عن عائشة<sup>(١)</sup>، رضي الله عنها، عن النبي ﷺ، قال: إذا وُضِعَ العشاءُ وأُقيمتِ الصلاةُ فابدؤوا بالعشاء.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز تقديم العشاء إذا وُضِعَتْ، وإن أُقيمت الصلاة. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: هل الأمر هنا على الوجوب، أو الندب، أو الإباحة، أو هو على جهة التوسعة، ليتأتى بذلك للمكلف العملُ ببقية الحال، فالذي يكون لحاله أرفعُ يفعل؟ فالأمر محتمل للجميع. لكن الأظهر - والله أعلم - أن يكون هذا توسعةً، ليكون المكلف في كل وقت يأخذ بالأصلح في دينه.

فإن كان مثلاً وُضِعَ العشاء، وله بها حاجة أكيدة من حيث أن قدَّم الصلاة عليها كان خاطره فيها، أعني في عَشائِهِ، أو به ضعفٌ عن توفية أركان صلاته، فإذا تعشَّى وجدَّ بها قوة على توفية صلاته، فهذا وما أشبهه تقديمُ العشاء في حقه أفضل. وإن كان ممن لا شهوةَ له في عَشائِهِ، وقُواه مجموعة، أو أنه يخاف إن تعشَّى يلحقه ما يلحق بعض الناس إثر الطعام من الكسل، فهذا وشبهه تقديم الصلاة خير له. وإن كان ممن الأمرُ عنده سيِّئاً، قدَّم العشاء أو الصلاة لم يظهر له ترجيح بينهما، فهنا ينظر لوقت الصلاة. فإن كانت مغرباً فالأولى تقديمُها، لأنه الوقتُ المُجمَع على فضيلته، وإن كانت العشاء فلا يخلو أن يدرك جماعة أخرى، أو ليس؛ فإن كان يدرك جماعة أخرى فتقديم العشاء أفضل، لأن تأخير الصلاة وترك الشغل بعدها أفضل، وإن كان لا يدرك جماعة أخرى فتقديم الصلاة أولى، لأنه من صلاتها في جماعة فكأنما قام نصف ليلة. وكما رجَّحنا بالنسبة إلى

(١) انظر ترجمتها في الحديث (١).



النظر إلى حاله، فكَذلك يلزمه الترجيح لنظر الغير إن كانت عشاء غيره ملتزمة مع عشاءه<sup>(١)</sup>، لقوله ﷺ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)<sup>(٢)</sup>.

الوجه الثاني: فيه دليل على أن وقت المغرب ممتد. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (إذا وُضِعَ الْعِشَاءُ وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَاَبْدَوْا بِالْعِشَاءِ) لأن العشاء ما لها من أوقات الصلوات بِجَزِيٍّ العادة عندهم إلا صلاة المغرب وصلاة العشاء، والغالب منها موافقتها لصلاة المغرب بدليلين، (أحدهما): ما عرف من حال الصحابة، رضي الله عنهم، من كثرة دوام صومهم، و(الآخر) من الحديث من قوله عليه السلام (وأقيمت الصلاة).

وإقامة الصلاة لا يسمعها إلا من يكون في المسجد، وما قُرْب من المسجد؛ وهذا اللفظ عام يتناول من يكون في المسجد، ومن لا يكون في المسجد بقُرْب أو بُعْد، وهو الأكثر، وكيف يسمع الإقامة من ليس في المسجد وهو بالبُعد منه؟ فإذا لا يمكن، لأن الإقامة فيما عدا المغرب - إذ ليس لها زمان معيّن يعرف به وقتها - لأنه قد جاء عن سيدنا، ﷺ، أنه مرة يُوقِع الصلاة في أول الوقت، وأخرى في أول الوقت، والوقت متمكّن<sup>(٣)</sup>، والخلفاء بعده كانوا يقعدون في آخر المسجد، فلا يقيمون الصلاة حتى يتجمع الناس، فدل ذلك على عدم تعيين وقت الإقامة. ولم يختلف النقل عن سيدنا، ﷺ، وعن الخلفاء بعده، ومن بعدهم إلى هلمَّ جزأ أن المغرب لا تتأخر الإقامة عن وقت الأذان بها، فكان سَمْعُ الأذان سَمْعَ إقامتها؛ فبان بهذين الدليلين أن الظاهر - من الإشارة بالصلاة في الحديث - صلاة المغرب.

وثبت بهذا الظاهر أن صلاة المغرب لها وقت ممتد. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (فابدؤوا بالعشاء). فلو لم يكن وقتها ممتداً ما أمرهم بترك الصلاة حتى يخرج وقتها، وهم ذاكرون وقادرون.

الوجه الثالث: فيه دليل على أن الأفضل في صلاة المغرب أول وقتها. يؤخذ ذلك من قوله (إذا أقيمت الصلاة) فلولاً دوامه عليه السلام - على أن إثْرَ الأذان لها تُقام، حتى رجع ذلك لها علماً لا يحتاج فيه لغيره - لَمَّا أخبر بِسَمْعِ الأذان عن سَمْعِ الإقامة، وما دام عليه، ﷺ، هو الأفضل بلا خلاف.

الوجه الرابع: يؤخذ من هذا من الفقه أن العادة، إذا كانت لا تنخرم، قامت في الأشياء مقام الإفصاح بها، وأغنت عن النطق بما دلت عليه، بلا إفصاح به.

(١) لعله يعني أنه إذا كانت الوليمة أو المأدبة جماعية في أسرة، وكانت الجماعة مرتبطة به، وقلوبهم مشغولة بالطعام، فيقدر لهم حالهم. وهذا من فقه الحال.

(٢) جزء من حديث رواه الإمام أحمد والشيخان والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أي: متسع.

ويؤخذ منه من الفقه أن من لآزم شيئاً من الأشياء لا ينفك عنه كان وصفه بذلك الشيء زيادةً بيان في تعريفه .

يؤخذ ذلك من أن الأذان شرع للإعلام بدخول وقت الصلاة، والإقامة شرعت للإعلام للدخول في الصلاة، فلما لازمت الإقامة في المغرب للأذان زادت في تعريفه وصفاً، لأنه يُعلم به الأمران معاً، ويُخبر عنهما بأحدهما ويصدق عليه، كما فعل هنا سيدنا، ﷺ، الذي أخبر عنه بالإقامة كما تقدم .

الوجه الخامس: هنا بحث: لم قال (إذا وضع العشاء) ولم يقل (إذا كان وقت العشاء)؟ وبحث آخر: هل هذا خاص بالعشاء، لا يمكن في غيرها؟ أو هو جائز في العشاء وغيرها، ويكون ذكر العشاء هنا من باب التنبيه بالأعم على الأخص؟

فالجواب عن الأول: أن وضع العشاء وهو جعلها بين يدي صاحبها سبب لتحريك الشهوة للطعام مما يوجب تعلق القلب به، وتعلق القلب به يوجب عدم الحضور في الصلاة، وعدم الإخلاص، وعدم الخشوع، وهذه الأشياء هي من الأسباب الموجبة لعدم قبول الصلاة. فلما كان حضور طعامه علةً يتوقع منها عدم القبول، قيل له: **دَاوِ عِلَّتَكَ بِأَكْلِكَ طَعَامَكَ**. وحينئذ تقدم لصلاتك، لأن مولانا جلّ جلاله يقول: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾<sup>(١)</sup>. قال علماؤنا: إذا فرغت من أمور ضروراتك، فإن القلب أبداً متعلق بضروراته، فإذا فرغ منها حسن الدخول في العبادة، وكما روي عن عبد الله بن عمر أنه إذا كان صائماً، ورأى من بعض جواريه ما يعجبه إذا كان وقت المغرب، يأكل ويجامع ويتطهر، وحينئذ يصلي. فهذا السيد عرف معنى الآي والحديث؛ ولذلك كان أتبع الناس للسنة. فإذا دخل وقت العشاء، ولم تكن قدّمت له، فيجب على ذلك تقديم الصلاة، لأنه يجتمع له تضييع، لا هو يأكل طعاماً، ولا هو يؤدي ما عليه من صلاته.

الوجه السادس: يترتب عليه من الفقه أن الحق للمتقدم. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام (إذا وُضِعَ العشاء) لأن وضع العشاء مقدّم على الصلاة، فكان الحق لها.

الوجه السابع: فيه دليل لأهل الخواطر، لأنهم يقولون: الحكم للخاطر الأول.

وأما قولنا: هل هذا خاص بالعشاء ليس إلا؟ أو هو فيها وفي غيرها؟ فالجواب: إن قلنا: إن هذا تعبد غير معقول المعنى، فيكون مقصوراً على ما جاء فيه لا غير.

وإن قلنا إنه لعله، وهو الأظهر - والله أعلم - فإذا فهمنا العلة، عدّينا الحكم. والعلة، والله

(١) سورة الشرح، الآيتان ٧ و٨.

أعلم هنا، إن كانت ما أشرنا إليها قبل، من تعلق القلب بالطعام ليس إلّا. فإذا كان هذا جائزاً في المغرب مع ضيق الوقت فمن باب أخرى في غيرها.

وإن قلنا: إن قوة الشهوة للطعام لا تراعى إلا مع الصّوم فيكون موقوفاً على وجود هاتين العلتين: الصّوم، وتعلق القلب بالطعام.

وإن قلنا: إنما احتيج هذا في المغرب وحدها، لكون العمل على ألا تؤخّر، وأن غيرها من الصلوات لك أن تؤخّرهما إلى أي وقت شئت، من أجزاء وقتها المختار بغير علة أكل ولا غيره، فلا بحث.

الوجه الثامن: فيه دليل على أن من السنّة المحافظة على المندوبات، ولا تُترك إلا لضرورة. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (إذا أقيمت الصلاة). وصلاة المرء في الجماعة من المندوبات، على رأي أكثر جماعة أهل العلم. ودلّ أنه إذا لم يكن له عذر لا يترك المندوب، لأنه لم يُبَحَّ له ترك الصلاة إلا من أجل علة الطعام وتقدّمه.

وهنا بحث في قوله عليه السلام: (إذا وضع العشاء) هل هذا على ظاهره، أعني: أنها توضع بين يدي صاحبها؟ أو يكون وضعها بمعنى أنها قد استوت، فلا يمنع من تقدّمها وأكلها إلا الصلاة، لأن العرب تسمي الشيء بما يقرب منه؟ احتمل الوجهين. ونجد أيضاً العلة مع وجودها في الوقت، سواء كانت بين يدي صاحبها، أو حاضرة في المنزل ليست بين يديه، موجودة في النفس ذلك التعلق.

الوجه التاسع: فيه دليل على أن المتبّع للسنّة تصرّفه كلّ طاعة مأجور عليه. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (إذا وُضِعَ العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤوا بالعشاء) لأن المتبّع للسنّة لا يبدأ هنا بالعشاء إلّا لأمر الشارع، عليه السلام، بها، فيكون مأجوراً لكونه ما وقع أكله لهذه العشاء إلّا للأمر بها، وغيره لم يأكل عشاءه إلّا اختياراً منه، ورعياً لشهوته إليها، وكثير من يأكل للأمر ومن يأكل للشهوة. وكذلك يكونان في جميع أمورهما، كلّ على مقتضى حاله.

الوجه العاشر: فيه دليل لأهل الصوفة الذين تركوا ملاحظة الشهوة، وعملوا على ذلك، حتى لم يبق لهم منها شيء، لأنها هي التي أوجبت تأخر العبادة، فإذا عُدِمَت أوقعت العبادة في وقتها المختار.

الوجه الحادي عشر: فيه دليل على رفق المولى بعبده، وأنه عزّ وجلّ، غني عن عبادتهم. يؤخذ ذلك من أمره عليه السلام بتقديم العشاء على الصلاة، لأن الغذاء مما تشتهي النفوس، وتستريح به وتنعم، والعبادة إنما فيها التعب في الغالب من أحوال الناس، لأن أهل الخصوص

يتنعمون بالعبادة كما يتنعم غيرهم بالأطعمة الطيبة. ولهذا المعنى ذكر عن إبراهيم بن أدهم<sup>(١)</sup> أنه قال: «مساكينُ أهل الدنيا خرجوا منها ولم يذوقوا من نعيمها شيئاً. قالوا: وما نعيمها؟ قال: لذة الطاعة، خرجوا ولم يذوقوها. فلا دنيا لهم، ولا آخرة». وقد كان سيدنا، ﷺ، يقول: (أرْحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ)<sup>(٢)</sup> يعني: الصلاة،

الوجه الثاني عشر: فيه دليل على أن الأحكام الشرعية أتت على الغالب من أحوال الناس. يؤخذ ذلك من تقديم العشاء على الصلاة، لأنه جُلبت النفوس بالميل إلى طعامها. هذا هو الغالب من أحوال الناس، فجاء الأمر على الحكم الغالب.

الوجه الثالث عشر: يؤخذ منه أن الخطاب العام يشترك فيه أهل الخصوص والعوام، والخطاب الذي هو للخواص لا يشاركهم فيه العوام، مثل هذا الأمر هنا اشترك فيه الكل، ومثل المحسنين لم يدخل مع المحسنين غيرهم.

وأما الدليل على كونه، عز وجل، مستغنياً عن عبادة العابدين، فلأنه لو كان محتاجاً إليها، لم يكن، عز وجل، يسامحهم في تأخيرها عن وقتها، واشتغالهم بما فيه راحة نفوسهم.

الوجه الرابع عشر: فيه دليل على أن أمور الدنيا ما تستباح عند أهل الإرادة إلا أن تكون عوناً على الآخرة. يؤخذ ذلك من أنه، عليه السلام، لم يبح لهم تقديم الطعام الذي هو من حظوظ النفوس - وحظوظ النفوس كلها دنيوية - إلا من أجل حُسن الصلاة وإتمامها، والصلاة أُخروية. فأعظمُ أمور الدنيا هو الأكل الذي الكلُّ محتاجون إليه، وغيره قد يستغنى عنه ولا يضر، والأكل إذا عُدِم أوجب العدم في العادة المستمرة، وهو عون على أعلى أمور الآخرة، وهي الصلاة، لأنه قال، ﷺ: (بين المؤمن والكافر ترك الصلاة)<sup>(٣)</sup> فنبه، عليه السلام، في الحكم الأعلى من أمور الدنيا على الأعلى من أمور الآخرة، فالغير هنا في حكم التَّبَع لهما، فهما من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى.

وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

(١) انظر ترجمته في الحديث (١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود عن رجل من الصحابة.

(٣) أخرجه الترمذي عن جابر رضي الله عنه بلفظ (بين الإيمان والكفر ترك الصلاة)، وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن جابر بلفظ (بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة).

## حديث تخفيف الصلاة

عن أنس بن مالك<sup>(١)</sup>، رضي الله عنه، يقول: ما صَلَّيْتُ وراءَ إمامٍ قَطُّ أَخَفَّ صَلَاةً، وَلَا أَتَمَّ، مِنَ النَّبِيِّ، ﷺ، وَإِنْ كَانَ لَيَسْمَعُ بكَاءَ الصَّبِيِّ، فَيُخَفِّفُ، مَخَافَةَ أَنْ تُفْتَنَ أُمُّهُ.

\* \* \*

ظاهر الحديث تخفيف صلاة النبي، ﷺ، مع إتمامها، وَرَعِيَهُ فِي تَخْفِيفِهَا أَيْضاً حَقَّ الْغَيْرِ. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: تبين هذا التخفيف والإتمام، وهل هذه الحالة دائمة منه، عليه السلام، أو ليس كذلك؟

فالجواب عن الأول: أن تخفيف الصلاة يكون بتقصير القراءة، وقد يكون بتقصير القيام، وقد يكون بتقصير أركانها كلها، إلا أنه يُشْتَرَطُ أَلَّا يُخْلَلَ بِوَاحِدٍ مِنْهَا، فَإِنَّهُ إِذَا أَخْلَلَ بِوَاحِدٍ مِنْهَا فَلَيْسَتْ بِصَلَاةٍ.

وما يُفْهَمُ التَّخْفِيفُ حَتَّى نَذْكُرَ شَيْئاً مِنْ عَادَاتِهِمُ الْمَنْقُولَةِ عَنْهُمْ فِي طَوْلِ صَلَاتِهِمْ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَ بِإِطَالَةِ الصَّلَاةِ فِي كِتَابِهِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾<sup>(٢)</sup>. وَالْقُنُوتُ فِي الصَّلَاةِ لُغَةً هُوَ: طَوْلُ الْقِيَامِ فِيهَا. وَمَا كَانَ النَّبِيُّ، ﷺ، وَلَا الصَّحَابَةُ يَتْرَكُونَ مَا هُوَ أَقْلُ مِنْ هَذَا، فَكَيْفَ بِهَذَا الْأَمْرِ الْجَلِيِّ؟ وَمَا تَوَزَّعَتْ قَدَمَاهُ، ﷺ، إِلَّا لَطَوَّلَ الْقِيَامَ فِي الصَّلَاةِ، وَقَدْ نُقِلَ عَنِ الصَّحَابَةِ وَعَنِ

(١) أنس بن مالك الأنصاري الخزرجي، أبو حمزة. صاحب رسول الله عليه السلام وخدّمه عشر سنين فما عتب عليه في فعل ولا ترك. روي له عن النبي عليه السلام (٢٢٨٦) حديثاً، اتفق الشيخان منها على (١٦٨) حديثاً. وكان أكثر الصحابة نسلاً بدعوة الرسول عليه السلام بطلب أمه أم سليم بعد أن صلى في بيتها فقال: اللهم ارزقه مالاً ولداً وبارك له. وقد دفن من أبنائه لصلبه حتى مقدم الحجاج للبصرة بضعة وعشرون ومئة. وجاوز عمره المئة. توفي بالبصرة سنة ٩٣ هـ / ٧١٢ م (طبقات ابن سعد ١٠/٧).

(٢) سورة البقرة، من الآية ٢٣٨.

السلف، رضي الله عنهم، أنهم يكونون في الركعة، فيخرج الرجل إلى البقيع ويرجع إلى المسجد، وهم في الركعة الواحدة لم يتموها، وأن الرجل منهم كان يدعو في سجوده، بعدما يستبج الله سبحانه، ويصلي على النبي، ﷺ، ويستغفر لنفسه ولأبويه ولسبعين من أصحابه وقربته، ويُسميهم بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم.

وحديث معاذ بن جبل أنه صلى المغرب بقومه بسورة البقرة، فقال له رسول الله، ﷺ: (أَفَتَأَنَّ أَنْتَ يَا معاذ؟) <sup>(١)</sup> وإنما قال له ذلك لأن صلاة المغرب: السنّة فيها التخفيف، من أجل أن ذلك وقت إفطار الصائم، ووقت الضرورات أيضاً، وكان ﷺ، بالمؤمنين رحيماً.

وما روي عن أبي بكر، رضي الله عنه، أنه كان يصلي الصبح بسورة البقرة في الركعتين معاً. فأبو بكر رضي الله عنه، وعن جميعهم، فهم عن النبي، ﷺ، فجعل التّطويل في محله. والكلّ سادة على خير.

وما روي عن عثمان، رضي الله عنه، حيث قال بعض الصحابة: ما حفظت سورة يوسف إلا من عثمان، لكثرة ما كان يردّها في صلاة الصّبح.

وقد جاء في الموطأ عن أم الفضل بنت الحارث <sup>(٢)</sup>: أنها سمعت عبد الله بن عباس <sup>(٣)</sup> يقرأ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ <sup>(٤)</sup> فقالت له: يا بني، لقد ذكّرني بقراءتك هذه السّورة، إنها لآخر ما سمعت رسول الله، ﷺ، يقرأ بها في المغرب <sup>(٥)</sup>.

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. أما معاذ فهو معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي، أحد الذين جمعوا القرآن على عهد النبي عليه السلام، وأحد الذين شهدوا المشاهد كلها مع الرسول الكريم، وبعثه عليه السلام بعد غزوة تبوك قاضياً ومرشداً لأهل اليمن. روي له (١٥٧) حديثاً. ومن كلام عمر: «لولا معاذ لهلك عمر» ينوّه بعلمه. (انظر طبقات ابن سعد ٣/ ١٢٠ والحديث ١٣٧ من هذا الكتاب).

(٢) أم الفضل بنت الحارث: هي لبابة بنت الحارث الهلالية، وتعرف بلبابة الكبرى تمييزاً لها عن أخت لأبيها اسمها (لبابة) وتعرف بالصغرى. وأم الفضل هي زوجة العباس بن عبد المطلب، من نبيلات النساء ومنجباتهن. ولدت من العباس سبعة، أحدهم عبد الله بن عباس، أسلمت بمكة بعد إسلام خديجة. وكان الرسول الكريم يزورها ويقيم في بيتها. روت ٣٠ حديثاً، منها ٣ في الصحيحين. توفيت نحو سنة ٣٠ هـ / ٦٥٠. (الأعلام ٦/ ١٠٢).

(٣) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب: حبر الأمة، الصحابي الجليل. ولد بمكة ونشأ في بدء عصر النبوة، فلازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة، وشهد مع عليّ الجمل وصفين، وكفّ بصره في آخر عمره، فسكن الطائف وبها توفي. له في الصحيحين ١٦٦٠ حديثاً. (الأعلام ٤/ ٢٢٨).

(٤) سورة المرسلات، الآية ١.

(٥) جزء من حديث أوله: أن أم الفضل بنت الحارث سمعته وهو يقرأ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فقالت له: يا بني لقد ذكّرني بقراءتك أنها لآخر آية إلخ.. أخرجه الإمام مالك وأحمد والبخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وكانت قراءته، عليه السلام، بطيئة حسنة، كما نعتها الواصف لها، قال: «كانت قراءته، عليه السلام، لو شئت أن أعد حروفها لعددتها». فبتقرير هذه الآثار علمنا أنه، عليه السلام، ما كان نهيه لمعاذ على الإطلاق، وإنما كان لكونه طَوَّلَ ذلك التطويلَ في المغرب. وقد ثبت بالسنة، خلفاً عن سلف، أن العمل جرى على أن المستحب في صلاة المغرب أن تكون أخفَّ الصلوات، ولولا ذلك ما كان أبو بكر، رضي الله عنه، يصلي في الصبح بالبقرة، كما ذكرنا.

فلما كان المتعاهد منهم في الصلاة التطويلُ، فإذا كانت هناك علة، كما ذكر من بكاء الصبي أو ما يشبه ذلك، خَفَّفَ، عليه السلام، حتى خرج بذلك التخفيف عن العادة الجارية لهم، كما قال بعض الصحابة: «ما رأيتُ رسول الله، ﷺ، صلى صلاةً لغير ميقاتها إلا صلاة الصبح يوم النحر بالمُزْدَلِفَةِ»<sup>(١)</sup>. وليس يعني بـ(ميقاتها) أنه صلاتها قبل الوقت الذي وقَّت لها، ذلك محال، وإنما يعني (لغير وقتها) الذي كان، عليه السلام، يصلِّيها فيه، فإنه كان بعد طلوع الفجر كما جاء عنه، ﷺ، أنه يركع ركعتي الفجر، ثم يضطجع ما شاء الله، ثم يخرج ويصلي في هذا اليوم عند أول انصداع الفجر، وهو أول الوقت، كان يصلِّيها، فقد أخرجها عن ذلك الوقت المعلوم لها، وهو التأخير اليسير، كما شرحناه. وهذا مثل ذلك سواء، لأنه من أجل تلك القرينة خَفَّفَ.

الوجه الثاني: يترتب عليه من الفقه جواز تحويل النية في أضعاف الصلاة إلى خلاف ما دخل عليه من زيادة أو نقص، لكن بشرط ألا ينقص من الحد المجزئ شيئاً. ومن أجل ذلك تحرَّز الصحابي، رضي الله عنه، بأن قال «ولا أتم» وفي هذا التحرُّز من الصحابي دليل على فضلهم وصدقهم في نقلهم.

ويترتب أيضاً عليه من الفقه أنه لما كانت الصلاة - وهي رأس الدين - يجوز فيها تحويل النية من الأعلى إلى الأدنى، مع إحراز الكمال، ف كذلك تكون القاعدة في جميع أمور الدين: أن يكون الشأن العمل على حالة الكمال، ولا يرجع لقدر الإجزاء إلا عند الأعذار؛ وإذا رجع إلى قدر الإجزاء يحافظ ألا ينقص من الواجبات شيئاً.

وعلى هذا البيان المتقدم من أحوالهم، فقد اختلفت الأحوال، وظهر النقص، وقد رأيتُ بعض من يُنسب في الوقت إلى العلم - وهو ممن يُقْتَدَى به - لا يكمل الواجب من بعض أركان صلاته، فإنَّ الله وإنا إليه راجعون، على تضييع العلم وحقيقته، وتضييع العمل وتمايمه. ولهذا المعنى

---

(١) أخرجه البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مع اختلاف يسير في اللفظ. والمقصود بقوله (بعض الصحابة) عبد الله بن مسعود.

قال رزين<sup>(١)</sup>، رحمه الله: «ما أوقع الناس في الأمور المحذورات إلا وضعهم الأسماء على غير المسميات المعروفة أولاً» لأننا الآن إذا أخذنا بالتخفيف في صلواتنا خرجنا عن حدّ الإجزاء، لأن المطوّل منا في صلاته لا يصلّ بجهد إلا إلى الإجزاء بالنية، فإن نقص منه شيئاً خرج عن بابه الذي طلب.

ويترتب على تخفيفها من أجل بقاء الصبي رَغِيَّ حقوق الغير، كما تراعي حقوق نفسك . فتخفيفها من أجل الصبي كمالٌ فيها، فإنه حصل له في صلاته القدر المجزىء، وبذلك الكمال لجَبْرِ صلاة أم الصبي ليرفع الفتنة عنها بتعجيل الصلاة، وجَبْرِ الصبي نفسه، فجاء الجَبْرُ هنا متعدياً، وهو الأكمل .

وأما على قَضَرها من غير بكاء الصبي فتبين منه، ﷺ، للقدر المجزئ في العمل، كما بينه بالقول، وتبين مقادير الأحكام أرفع الأعمال، وترتب على هذا من الفقه أنه كان، ﷺ، في كل الأحوال على أتمها وأعلاها.

وأما الجواب على حدّ إتمامها: فنعرّفه بحَدِّهِ، ﷺ، حين قال للمصلّي: (ارجع فصلٌ، فإنك لم تُصَلِّ)<sup>(٢)</sup> فعل ذلك معه ثلاثاً، ثم قال له عليه السلام لما أن سأله التعليم: (إذا قمتَ للصلاة فكبّرْ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئنّ راکعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئنّ ساجداً، ثم ارفع حتى تسجد جالساً، ثم اسجد حتى تطمئنّ ساجداً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلّها)، ويقول عليه السلام: (كلّ ركعة لم تقرأ فيها بأَمَّ القرآن فهي خِدادٌ، هي خِدادٌ، هي خِدادٌ)<sup>(٣)</sup> لأن التمام في الصلاة في ثلاثة أشياء: في الإجزاء، وفي القراءة، وفي إكمال الأركان، وفي إكمال عددِ الرُّكعات . ويكون ذلك بعد تحقيق دخول وقتها.

الوجه الثالث: فيه دليل على تحري الصحابة، رضي الله عنهم، لأنهم كانوا يقتدون في الكمال بأنتم الحالات، وفي الإجزاء لا يأتون به إلا ومع ذلك زيادة، خيفة أن ينقصهم من الإجزاء شيء ما، ولا يتحقق الإجزاء في الأقل إلا بالقطع بالزيادة اليسيرة فيه، ما لم تكن تلك الزيادة محظورة في الشرع، مثل منعنا الرابعة في الوضوء<sup>(٤)</sup>، أو تكون تلك الزيادة لم يفعل هو، ﷺ، منها شيئاً، لئلا نخرج بها إلى البدعة، وقد جاء فيها من الذم ما جاء لقوله، ﷺ: (من أحدث في أمرنا ما

(۱) انظر ترجمته فی الحديث (۳).

(۲) انظر تخريجه في الحديث (۳۰).

(٣) أخرجه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) المراد: المرة الرابعة (بعد الغسل ثلاثاً).



ليس منه فهو رَدٌّ<sup>(١)</sup>، وقوله عليه السلام: (كُلُّ بدعة ضلالة)<sup>(٢)</sup> وما أشبهه. ومثل ذلك اجتماع الناس للدعاء بعد الصلوات، فهذا وما أشبهه من البدع، لأنه لم يأتِ أن النبي ﷺ، ولا مَنْ بعده من الصحابة والتابعين فعلوا ذلك، ويترتب على تقصيرها من غير عذر أنه جائز، وأن الأفضل ما كان يداوم هو، ﷺ، عليه، ومن بعده من السلف الصالح.

الوجه الرابع: فيه دليل على فضل العلم لأنه به يُعرف حدّ الإجزاء، فيما كلف، وحدّ الكمال، لأنه يأتي بالأشياء على ما أمر بها، لأن الجاهل قد يجعل الكمال واجباً، فيكون زاد في فرائض الله تعالى، أو يكون يجعل زيادة الكمال بدعة، فيكون أيضاً يجعل في دين الله ما ليس فيه، أو يكون يجعل حدّ الإجزاء هو الكمال، ثم يأخذ في أنقص منه، ويجعله من باب التخفيف، وهو الداء العضال. وقد كثر في وقتنا. ومثل هذا ينبغي في جميع أمور الدين أن يعرف الشخص القدر الذي يجب عليه، وما هو قدر الزيادة المستحبة، ولذلك قال، ﷺ: (طَلَبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم)<sup>(٣)</sup>. قال العلماء: كل ما كان عليك فعله فرضاً فالعلم عليك به فرض، لأنه لا يمكن أن يُوفِّي ما عليه مَنْ جهله.

الوجه الخامس: فيه دليل على جواز صلاة النساء مع الرجال، لكن ذلك اليوم ممنوع، ومنع ذلك من زمان الخلفاء، ومما يروى في ذلك الوقت قول عائشة رضي الله عنها: «لو أدرك رسول الله، ﷺ، ما أحدث النساء، لَمَنَعَهُنَّ المساجدَ، كما مُنِعَ نساءُ بني إسرائيل»<sup>(٤)</sup> وقول زوجة عمر بن الخطاب رضي الله عنها، لما امتنعت من الخروج إلى المسجد فسألها عمر عن ذلك فقالت: فَسَدَ الناس<sup>(٥)</sup>. وأقرها عمر على ذلك، فجاء فعلها، رضي الله عنها، على مقتضى هذا الحديث الذي نحن بسبيله، لأنها تركت الأكمل في صلاتها، وهو الخروج إلى المسجد، للعلة الواردة، وهي ما ذكرته من فساد الناس. فدلّ على أنهم رجالاً ونساءً أعرف بأحكام الله تعالى منا، وهم الذين استعملوا الأحاديث والآي على ما هي عليه، بغير زيادة ولا نقص.

(١) أخرجه الشيخان وأبو داود وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) جزء من حديث مطلقه: أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله. أخرجه الإمام أحمد ومسلم والنسائي وابن

ماجه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) روي من عدة طرق وعن عدد من الصحابة الكرام. منها ما أخرجه ابن عدي والبيهقي في الشعب عن أنس وأخرجه الطبراني عن ابن مسعود، والطبراني في الأوسط عن ابن عباس، وفي رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهم جميعاً.

(٤) انظر تخريجه في الحديث (٣٧).

(٥) كانت زوجة عمر رضي الله عنه خرجت إلى المسجد عند صلاة الفجر لحديث (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله) وكمن لها عمر في طريق عودتها من المسجد، فتصدى لها متخفياً وقرصها في صدرها. وفي اليوم الثاني قال لها: ألا تخرجين لصلاة الجماعة في المسجد؟ فقالت له: فسد الناس.

الوجه السادس: فيه دليل على جواز دخول الصبي الصغير المسجد، ويعارضنا قوله، ﷺ: (جَنَّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِينَكُمْ)<sup>(١)</sup>، ويسوغ الجمع بينهما بأن نمنع دخولهم في غير الصلاة، ونجيز دخولهم في أوقات الصلاة من أجل الضرورة، مع التحفظ.

الوجه السابع: فيه دليل لمذهب مالك في الأخذ بسد الذريعة. يؤخذ ذلك من قوله: (مَخَافَةٌ أَنْ تُفْتَنَ أُمَّهُ)، وقد لا تقع منها فتنة. فلما كان الأمر محتملاً أخذ عليه السلام بالأحوط وهو: سد الذريعة.

الوجه الثامن: فيه دليل على أن الفكرة في الصلاة في الأمر إذا وقع - وهو فيها - أنه جائز. يؤخذ ذلك من قوله (لَيْسَمُعُ بَكَاءَ الصَّبِيِّ فَيُخَفِّفُ) لأن سمعه له، ونظره له ففكرة في أمر ليس من الصلاة، إلا أنه يلزم منه أن يكون يسيراً، لا يخل بالصلاة. يؤخذ ذلك من قوله (وَلَا أَتَمُّ) فلو كان مما يشغله عن الصلاة ما أتمها.

الوجه التاسع: فيه دليل على جواز النظر في حكم من الأحكام إذا احتيج إليه، وإن كان في العبادة، والعمل إن أمكن مع إبقاء العبادة دون نقص من واجبها. يؤخذ ذلك من تقصيره، عليه السلام، الصلاة من أجل بكاء الصبي، وقد دخل على العمل، وهو التطويل فيها، فإن تقصيره لها عمل من الأعمال، ونظر حكم من الأحكام، فاجتمع فيه ستة أشياء: الالتفات للواقع، والفكرة في الحكم، والعمل الممكن فيها، والرابع حق الغير، والخامس سد الذريعة، والسادس حمل القوي على ما يقتضيه حال الضعيف، إذا كانا في الأمر متلازمين. ومثله قوله، ﷺ: (سَيِّرُوا بِسِيرِ أَضْعَافِكُمْ)<sup>(٢)</sup>.

وأما الجواب على قولنا: هل كانت تلك الحالة دائمة أم لا؟ فالجواب: أنها لم تكن دائمة، وإن كان قد أشرنا إلى ذلك عند تبين أحوالهم، ولم يكن ذلك موضعه، وإنما وصف الحال أحوج إليه.

وهنا أذكر الدليل على عدم دوام ذلك، فيكون في موضعه، والأول يقويه، وهو أيضاً يصدقه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾<sup>(٣)</sup> فكل ما هو في الأمور حق فهو يصدق

(١) جزء من حديث أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي عن مكحول عن وائلة وأبي الدرداء وأبي أمامة رضي الله عنهم.

(٢) رواه الشافعي في مسنده والترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وقال: على شرط مسلم وابن خزيمة وصححه، والحاثر بن أبي أسامة عن أبي هريرة رضي الله عنه، بألفاظ مختلفة.

(٣) سورة النساء، من الآية ٨٢.

بعضه بعضاً، فإن الشَّبه بينهما من أجل أنَّ الحقَّ فيه واحد، والحقَّ لا يتغيَّر، فالدليل على ما جاء عنه، ﷺ، أنَّ ما من سورة في القرآن إلا وقد صَلَّى، ﷺ، بها في الصَّلَاة. وفي القرآن - كما هو معلوم - الطَّوَالُ من السُّور، والقصار، وما بين ذلك. فدلَّ ذلك على ما قلناه.

ويترتب على هذا من الفقه العلم بسَّعة السنَّة، لأنه لو لم يفعل هو، ﷺ، ذلك كان الناس يتحرَّون الذي كان هو، ﷺ، يفعله.

الوجه العاشر: فيه دليل على رحمته عليه السلام بأمته، لأنه ﷺ، فعل ذلك. <sup>الجار</sup> فالجَلْد الكَثِيرُ قد أخذ بجزء وافر من السنَّة، والعاجز المسكين لم يُحرِّم من حظِّ ما من السنَّة، وما بينهما سعة وتوسَّط في الخير، الذي هو السنَّة.

الوجه الحادي عشر: فيه دليل لأهل الصوفة الذين يقولون بجبر القلوب، وهو عندهم من أعلى الأحوال <sup>(١)</sup>. يؤخذ ذلك من رعيه عليه السلام فتنة أم الصبي، والصبي أيضاً نفسه. إلا أنه بقي <sup>(٢)</sup> لا يعرفه إلا السادة الأفاضل، وهو ألاَّ ينقصه من حاله الخاص فيما بينه وبين مولاه شيء. <sup>عن سيدنا</sup> يؤخذ ذلك من قوله (ولا أنتم) لأن حالة عبادته المجزىء منها لم ينقص منها شيء. ولهذا <sup>وعلمناه</sup> المعنى قال بعض السادة منهم: من الغرائب صوفي سنِّي <sup>(٣)</sup>. وهو إذا وقع قُطِبُ الوقت، وتاج <sup>علماء</sup> الوجود، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء.

مَنْ الله بفضلِهِ علينا بما به مَنْ عليهم بمَنِّهِ. آمين.  
وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمَّد، وعلى آلِهِ وصحبِهِ وسلَّم تسليماً.

(١) يقول ابن أبي جمرة في موضع آخر: هو أعلى الأحوال. وفي الحديث: اطلبوني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي.

(٢) صوفي سنِّي أي: ملتزم بالسنَّة باطنياً وظاهراً.

## حديث أصل صلاة التراويح

عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، اتَّخَذَ حُجْرَةً، قَالَ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: مِنْ حَصِيرٍ، فِي رَمَضَانَ، فَصَلَّى فِيهَا لَيْلًا، فَصَلَّى بِصَلَاتِهِ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ. فَلَمَّا عَلِمَ بِهِمْ جَعَلَ يَقْعُدُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: قَدْ عَرَفْتُ الَّذِي رَأَيْتُمْ مِنْ صَنِيعِكُمْ، فَصَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ، فَإِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ صَلَاةُ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ، إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ.

\* \* \*

ظاهر الحديث جواز صلاة النافلة في المسجد، والأفضل فيها صلاتها في البيوت. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: جواز اتخاذ الحجرة في المسجد، إلا أنها لا تكون بناءً، ولا شيئاً<sup>(١)</sup> يثبت. يؤخذ ذلك من قوله (اتخذ حجرة من حصير) لأن اتخاذها تغيير للمسجد، والمسجد جنس، ولا يجوز تغييره. وإذا كان مثل الحصير أو الثوب بقي المسجد على حاله لم يتغير، وذلك الثوب تستمر له به الخلوة، ويحسن به حاله، لأنه يكون أجمع له في عبادته.

① لعلها  
سـ

ويترتب على ذلك من الفقه: أن يتسبب المرء فيما يكون له أجمع لخاطره في عبادته، ما لم يكن التسبب بدعة ممنوعة، لأنه جاء أن الله، جلّ جلاله، يقول يوم القيامة لصاحب البدعة: هَبْ أَنِّي أَغْفِرَ لَكَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فالذين أضللت كيف أفعل بهم؟

(١) زيد بن ثابت: الأنصاري الخزرجي، من أكابر الصحابة وأعلمهم بالفرائض، وكان كاتب الوحي. رده الرسول عليه السلام يوم بدر لصغر سنه، وكان عمره حين الهجرة أحد عشر عاماً، وكان يكتب المراسلات للنبي عليه السلام ولأبي بكر وعمر. وهو أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي عليه السلام، ثم في عهد أبي بكر الصديق، ثم نسخه لعثمان نسخاً أرسلها إلى الأمصار. روى عن النبي ﷺ (٩٢) حديثاً، وروى عنه الصحابة والتابعون. رثاه ابن عباس يوم موته فقال: ذُفِنَ الْيَوْمَ عِلْمٌ كَثِيرٌ. توفي في المدينة المنورة سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م. (الأعلام ٣/ ٩٥).

الوجه الثاني : فيه دليل على أن قيام رمضان في المساجد سنة، وليس بدعة، لأنه لما فعله، ﷺ، فهو سنة، ويعارضنا قول عمر، رضي الله عنه، «نِعْمَتِ البدعة هذه»<sup>(١)</sup> فما يصحح أن تسمى هذه بدعة، وقد فعلت، وإنما البدعة لغة: ما فعله الشخص ولم يفعله غيره قبله. ولا يمكن أن نقول لشيء (بدعة) وليس فيه ما يتضمنه هذا الاسم.

وزوال الإشكال أن نقول: إنما سماها عمر (بدعة) لأنه لما جمعهم على القارئ الواحد، وَحَدَّ لَهُمْ أَنْ يُصَلِّيَ بِهِمْ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، فسمى ذلك التحديد بالإحدى عشرة: (بدعة) وسماها (نِعْمَتِ البدعة) لأنه ما جعله حدًّا لهم، إلا أنه اقتدى في ذلك التحديد بما روته عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله، ﷺ، لم يزد في تنقله في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة. فمن أجل اتباعه للنبي، ﷺ، في ذلك قال لها (نعمت البدعة).

وهنا أيضاً تعارض آخر، وهو كونه، ﷺ، صَلَّى النَّافِلَةَ فِي الْمَسْجِدِ، ثم قال آخر الحديث: (فَإِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ صَلَاةَ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ) وهو، ﷺ، لا يفعل من الأمور إلا الأفضل؟  
فالجواب أن نقول: إن التَّنَقُّلَ - ما عدا التَّهَجُّدَ في رمضان - الأفضل فيه أن يكون في البيوت، وإن تهجَّدَ رمضانَ الأفضل فيه أن يكون في المسجد. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، في حديث غير هذا (خِيفَتْ أَنْ تُفَرَّضَ عَلَيْكُمْ فَلَا تُطِيقُونَ)<sup>(٢)</sup> فلما توفي هو، ﷺ، ارتفع الفَرَضُ، ففعل عمر، رضي الله عنه، الأفضل لِمَا أَمِنَ الْعِلَّةَ.

ويترتب على هذا الوجه من الفقه أنه إذا كان منعُ الشيء من أجل عِلَّةٍ، فارتفعت العِلَّةُ، جاز فعله، لأن الموجب للحذر قد زال.

الوجه الثالث: فيه دليل على جواز أن يأتَمَّ شخص بغيره، والإمام لا يعلم به. يؤخذ ذلك من أن النبي، ﷺ، ما جعل الحجرة إلا أنه يُصَلِّي وحده، ثم ائْتَمَّ به مَنْ ائْتَمَّ، فَلَمَّا عَلِمَ بِذَلِكَ لَمْ يَنْكَرْهُ، وعدم الإنكار منه، عليه السلام، بعد العلم، دليل على الجواز.

الوجه الرابع: فيه دليل على جواز الحائل بين الإمام والمأموم. يؤخذ ذلك من كونهم ائْتَمُّوا به، عليه السلام، وبينهم الحصر.

الوجه الخامس: فيه دليل على أفضلية رمضان. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السلام، اختصه بهذه العبادة دون غيره من الأشهر.

(١) أخرجه الإمام مالك وعبد الرزاق والبخاري وابن خزيمة والبيهقي والفريابي في السنن من كلام عمر رضي الله عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأوله: خرج رسول الله ﷺ ليلة من جوف الليل فصلّى في المسجد إلخ. وقوله: فلا تطيقون، أي: فأنتم لا تطيقون ذلك.

الوجه السادس: فيه دليل على أن تعظيم الأيام الشريفة والبقع لا يكون تعظيمها إلا بأنواع العبادات. يؤخذ ذلك من أنه، عليه السلام، ما أظهر تعظيم هذا الشهر إلا بزيادة في التعبد.

الوجه السابع: ويؤخذ منه فضل سيدنا، ﷺ، لأنه لما رأى اعتناء مولانا، جلّ جلاله، بتعظيمه لهذه الليالي بأن جعل جبريل، عليه السلام، ينزل عليه، ﷺ، كل ليلة من رمضان، يُدارسه فيها القرآن، ولم يفعل ذلك في غيره من الأشهر، زاد هو، عليه السلام، من تلقاء نفسه زيادة للحرمة، وهو أن زاد فيه صلاة لم يفعلها في غيره، وأظهرها لأمته بالفعل، لأن يقتدوا به، فهذا تعظيم الشعائر، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾<sup>(١)</sup> وبقدر تقوى القلوب تكون الفضيلة، ولا أحد أشد تقوى من سيدنا، ﷺ.

وقوله (ليالي) تعطي الكثرة، وتكثيره، عليه السلام، الليالي؛ وبعد ذلك قال لهم ما قال، دالاً على تعظيمه عليه السلام للأمر، والاهتمام به. يؤخذ ذلك مما استُقرّ من الأحاديث أنه، ﷺ، إذا كان الأمر عنده له بال، يكرّر القول به ثلاثاً. فلما كان هنا التعليم بالفعل كرّره بالفعل أيضاً، كما كان يكرّر بالقول، كقوله عليه السلام: يا معاذ. فقال: لَيْتَكَ يا رسول الله وسَعْدَيْكَ. فقال: يا معاذ، فقال: لَيْتَكَ يا رسول الله وسَعْدَيْكَ. فقال: يا معاذ بن جَبَل: هل تدري ما حقُّ الله على عباده؟ وما حقُّ العبادِ على الله<sup>(٢)</sup>؟ فإنه، عليه السلام، لم يخبره حتى ناداه ثلاثاً، وهو في كل مرة يجيبه، وكقوله عليه السلام في حَجَّة الوداع: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا<sup>(٣)</sup>؟ فأعاد، عليه السلام، السؤال ثلاثاً، وهذا كثير في السنة.

الوجه الثامن: فيه دليل على أن قرينة الحال إذا كانت محتملة فلا بدّ من البيان بالقول ولا يجوز الاختصار عليها. يؤخذ ذلك من أنه لما أن قعد، ﷺ، بعد أن صَلَّى الليالي احتتمل جلوسه أن يكون عن ضعف أو نهْي أو غير ذلك، فاحتاج أن يبيّن بالكلام ما أوجب الجلوس.

الوجه التاسع: يؤخذ منه أن القرينة إذا كانت لا تحتمل إلا وجهاً واحداً قامت مقام الإفصاح، وجاز الاختصار عليها فيما يقتضيه مدلولها على الإفصاح بذلك. يؤخذ ذلك من أنه، عليه السلام، لما صَلَّى وصلّوا معه، لم يَخْتِج أن يقول لهم في ذلك شيئاً، لأن نفس الصلاة دلّت على تعظيم الشعائر نصّاً لا احتمال فيه.

(١) سورة الحج، من الآية ٣٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وابن حبان عن معاذ رضي الله عنه.

(٣) حديث مطوّل من خطب النبي ﷺ في يوم النحر، أوله: أيها الناس. أخرجه الإمام أحمد وابن سعد والحكيم الترمذي عن العداء بن خالد رضي الله عنه والطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه والبخاري عن أبي بصرة رضي الله عنه.

الوجه العاشر: فيه دليل على أن المفضل قد يرجع فاضلاً، إذا جاءت علة تدل على ترفيعه. <sup>الله عليه</sup> <sup>لم</sup>

يؤخذ ذلك من جلوسه، <sup>عليه</sup>، عن وقت هذه العبادة، والعبادة في هذا الوقت أفضل. فلما كان جلوسه، عليه السلام، من أجل التعليم وتقعيد الأحكام أرفع العبادات، فمن أجل زيادة هذه العلة رجع المفضل فاضلاً.

الوجه الحادي عشر: فيه دليل على أنه إذا اجتمعت للبعد عبادتان، لا يمكن في الزمان الجمع بينهما، أخذ الأعلى. يؤخذ ذلك من كونه، <sup>عليه</sup>، أثر القعود على الخروج إلى الصلاة، لأنه أفضل، إذ هو لتقعيد الحكم وبيانه.

الوجه الثاني عشر: فيه دليل على صدق الصحابة، رضي الله عنهم، في نقلهم. يؤخذ ذلك من قوله (حسبت) لما وقع له شك قال: (حسبت).

الوجه الثالث عشر: فيه دليل على أنه لم يصل هذه الصلاة معه، <sup>عليه</sup>، إلا البعض من الصحابة. يؤخذ ذلك من قوله (ناس من أصحابه).

وهنا بحث في قوله (لما علم بهم) كيف يجتمع هذا مع قوله عليه السلام (قد عرفت الذي رأيتم من صنيعكم)؟ والانفصال عنه أن نقول: إن معنى (علم بهم) هنا أحد وجهين: إما أن يكون أخبره بصلاتهم معه أحد منهم أو من غيرهم، فتكون (علم) بمعنى الإخبار، أو يكون لما رأى من التزام القيام معه، <sup>عليه</sup>. فظاهر حالهم يقتضي أنهم عزموا على دوام العمل معه، عليه السلام، فيكون (علم) بمعنى (تحقق) من قرينة حالهم الدوام.

ومما يزيد هذا المعنى إيضاحاً ما جاء أنه أول ليلة صلى معه قلائل، ثم حدثوا في اليوم من صبيحة الليلة، فكثرت الناس، فكانوا في كل ليلة يتزايدون ويكثرون. فهذا أقوى دليل على العلم بأنهم قد عزموا على الدوام معه، وهو عليه السلام من أول ليلة قد عرفهم، وما تزايد فيهم كل ليلة. ويترتب على هذا من الفقه أنه من داوم على شيء نُسب إليه وحُكم له أنه من أهله.

وقوله (جعل يقعد فخرج إليهم) معنى ذلك أنه عليه السلام قعد عن الخروج حتى ذهب الوقت الذي كانت عادته، عليه السلام، يخرج إلى تلك الحجرة، ويصلي فيها، فخرج عقب ذلك الوقت إليهم، لأنه أتى بالفاء التي تعطي التعقيب، دون مهلة، وخرج إليهم لا للحجرة التي كان يصلي فيها. يؤخذ ذلك من قوله: (إليهم) لأن تقرير الحكم لا يكون إلا بالمشافهة.

الوجه الرابع عشر: فيه إشارة صوفية، وهي: أن صاحب الحال المتمسك بالأحكام هو في تجلٍّ ومخاطبات. وهذه كانت حال سيدنا، <sup>عليه</sup>، عند تلاوة القرآن، إذا مرَّ بآية رحمة سأل الله، وإذا مرَّ بآية عذاب استجار، وإذا مرَّ بآية تدل على صفة من صفاته، جلّ جلاله، من خلقه وقدره وعظمته.

سَبَّحَ<sup>(١)</sup>. فكان عليه السَّلام، كلَّ آية تمرَّ به يتصف بالوصف الذي يُحِبُّ لمن يخاطب في الحال بتلك الآية، ويجاوب بما يقتضيه الأدب. ومثل ذلك قال، عليه السَّلام، للصحابة، رضي الله عنهم، حين قرأ عليهم (الرحمن) وهم سكوت، فقال لهم: (أَلَا تقولون ما قالت الجنَّ حين سمعوها؟ قالوا: وما قالت؟ قال: كلما قلت: ﴿فَيَأْتِيْءُ الْآءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَان﴾؟ يقولون: وَلَا بواحدةٍ منها يا رَبَّنَا)<sup>(٢)</sup>. فانظر حسن تعليمه، ﷺ، وإرشاده لحسن الأدب مع الربوبية، مع غَنائه عن الكلِّ وجلاله.

الوجه الخامس عشر: فيه دليل على جواز أخذ ما لا بدَّ منه من الدنيا، وهو أيضاً عَوْنٌ على التزوّد للآخرة. يؤخذ ذلك من قوله عليه السَّلام (فصلُّوا أيها الناس في بيوتكم). فلولاً جواز اتِّخاذ البيوت ما قال لهم: (صلُّوا في بيوتكم). فإضافتها إليهم تقتضي جواز اتِّخاذها، وأنها عَوْنٌ على الآخرة، لأنه يخلو فيها بعبادته ومناجاة معبوده بلا مشوَّش يشوَّش عليه. وكذلك ما يكون من غيرها من ضرورات البشرية إذا كان على لسان العلم، والقصدُ به العَوْنُ على الطاعة حالاً لا دعوى، فإنه في الحقيقة كلُّه آخرُه محمودٌ. وقوله (فإن أفضل الصَّلَاة) تكون الألف واللام هنا للجنس.

الوجه السادس عشر: فيه دليل على جواز الصَّلَاة المكتوبة في البيوت. يؤخذ ذلك من قوله (أفضل) (لأن باب (أفضل) لا يكون مع المنع).

وفيه من الفقه أن النافلة تجوز في البيت وفي المسجد، وهي في البيت أفضل، إلا ما كان من تهجّد رمضان، كما قلنا أولاً. هذا إذا لم تكن هناك علة، فإن كانت هناك علة رجع المفضل فاضلاً. مثال ذلك أن يكون للشخص في منزله مَنْ يشوَّش عليه، ولا يمكن له معه صلاة، فالمسجد إذ ذاك أفضل له. وتجاوز الفريضة في البيت وفي المسجد، وهي في المسجد أفضل. هذا إذا لم تكن هناك علة أيضاً، فإن كانت هناك علة مثل أن يكون مغضوباً، أو إمامه فاسقاً، أو ما أشبه ذلك، فهي إذ ذاك في البيت أفضل. وكذلك فعل السلف حين فسَّق بعض الأئمة كانوا يصلُّون في بيوتهم، يصلُّون معهم نافلة.

الوجه السابع عشر: فيه دليل لمن يقول: إن الفرض والمكتوب (وتلك الخمسة الألقاب)<sup>(٣)</sup>

- 
- (١) أخرجه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.  
(٢) أخرجه الترمذي وابن أبي الدنيا وابن عدي والحاكم والبيهقي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، كما رواه البزار وابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بالفاظ تختلف وما أورده المؤلف رضي الله عنه.  
(٣) (وتلك الخمسة الألقاب) لعله يريد (من تلك الألقاب الخمسة). ومن معاني الفرض: التوقيت ﴿فَمَنْ قَرَضَ فِيهِمْ مَلَجٌ﴾ والتقدير - ومنه علم الفرائض - (لمقادير السهام) والتفصيل ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ والوجوب (خمس صلوات مكتوبة) والتخصيص ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أو لعله يريد: إن الفرض والمكتوب - وما في كلمة (الفرض) من مدلولات وألقاب هي في الفرض إلخ... .



في الفرض على حدٍّ واحد. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (إلا المكتوبة) وهي المفروضة، فعبر عليه السلام بصيغة الكُتِبَ عن الفرض.

الوجه الثامن عشر: وفيه دليل على طلب المندوبات. يؤخذ ذلك من قوله، ﷺ، (صلّوا) فإن هذا أمر، وأقلّ أحواله التّدب.

الوجه التاسع عشر: فيه دليل لأهل الصوفة الذين يقولون: إن إخفاء الحالة هو الأكمل في الأحوال. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام (صلاة المرء في بيته أفضلُ إلا المكتوبة)<sup>(١)</sup> لأن زيادة التنفل بعد أداء الفريضة زيادة في الإيمان، كما قال ابن أبي زيد<sup>(٢)</sup>، رحمه الله تعالى: «يزيد بزيادة الأعمال، وينقص بنقصها، فيكون فيها النقص، وبها الزيادة في الإيمان حال من أكبر الأحوال». وقد نصّ عليه السلام على أن إخفاءه أفضل، فصَحَّ ما تأولناه. وقد قال بعضهم: اجعل قلبك خزائنَ سِرِّكَ، ومَوْلَاكَ موضعَ شَكْوَاكَ.

رضي الله عنّا بهم، ومَنّ علينا بما به مَنّ عليهم، لا ربَّ سواه، ولا مَرْجُوَّ إِلَّا إياه.  
وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

---

(١) أخرجه النسائي والطبراني عن زيد بن ثابت رضي الله عنه بلفظ (أفضل الصلاة صلاة المرء إلخ...).

(٢) ابن أبي زيد: هو عبد الله بن عبد الرحمن أبي زيد النفزاوي القيرواني. فقيه مالكي ويلقب بقطب المذهب وبمالك الأصغر. له تصانيف كثيرة منها كتاب (النوادر) الذي أجزأه تزيّد على المئة. توفي بالقيروان سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦ م. (الأعلام ٤/٢٣٠).

## حديث جواز المشي في الصلاة

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ رَاكِعٌ، فَرَكَعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الصَّفِّ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا، وَلَا تَعُدْ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز المشي اليسير في الصلاة. والكلام عليه من وجوه:  
الوجه الأول: هل يكون المشي اليسير فيها كلها؟ أعني في حالاتها كلها، أو لا يكون ذلك إلا في هذا الموضع وهو الركوع ليس إلا؟

فإن قلنا: إن سبب الجواز معقول المعنى، وهو قلة العمل فيها، فيجوز في كل حالاتها كلها، ما لم تقترن به علة مانعة. ولذلك قال العلماء: إنه يجوز المشي اليسير في كل حالات الصلاة، من قيام وركوع وجلسة، ولا يجوز ساجداً، لأنه فيه أمران: (أحدهما) التشويه والمثلة<sup>(٢)</sup>، وذلك في الشرع ممنوع. و(الثاني) توقع الضرر، بل هو من قبيل المقطوع به، لأنه يتأذى بذلك، والأذية أيضاً ممنوعة.

وإن قلنا: لا نفهم علة فلا يجوز إلا في هذه الحالة، وهذا مذهب أهل الظاهر الذين يستعملون الأحكام حيث وردت ليس إلا.  
وقوله (انتهى إلى النبي ﷺ) أي: قُرْبَ منه، لأن العرب تسمي الشيء بما قُرْبَ منه.

(١) نُفَّجَ بن الحارث الثقفي، أبو بكر: صحابي، من أهل الطائف. كني بذلك لأنه تدلى من حصن الطائف ببكرة، وكان أسلم وعجز عن الخروج من الحصن إلا بهذه الوسيلة. روى عن النبي ﷺ (٣٢) حديثاً. اعتزل يوم الجمل فلم يقاتل مع أي من الفريقين. كان صالحاً عابداً. قال الحسن البصري: لم يكن أعلم منه ومن عمران بن الحصين. توفي بالبصرة سنة ٥٢ هـ / ٦٧٢ (الأعلام ٩/ ١٧).  
(٢) المثلة: التشنيع.

ويترتب على هذا من الفقه: ألاَّ يبعد الإمام عن الجماعة. وقد نصَّ العلماء على ذلك في الإمام، لَمَّا ذكروا شروط الإمامة في الصلاة ذكروا ألاَّ يبعد من الجماعة، وعلَّلوا ذلك بعلل، منها: ربما تكون في ثوبه نجاسة لم يعلم بها، فإذا كان بالقرب منهم رَأَوْها فيخبرونه. وربما سها فسبَّحوا له فلم يسمعهم، فيجذبونه بثوبه. وربما أحدث هو، فيمدَّ يده، ويستخلف من يُتِمُّ بالقوم، فإذا كان بالبعد احتاج أن يستخلف بالقول. وفيه بين العلماء خلاف. ويؤخذ منه: أنه إن ذكر شيئاً من العبادات في الصلاة وتمادى في ذلك، أنه إن لم يخلَّ بشيء منها جاز، والحجة في هذا وبما استدللنا عليه من هذا الحديث ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ، ذلك، وتمادي ذكره إلى بعد فراغه من الصلاة.

ويترتب على ذلك من الفقه أن المرأة إذا كان في أمر لا بدَّ له فيه من عمل، ولا يمكنه التأخير فيه، ولا علم له بما يصنع، أنه يجتهد ويعمل بما يغلب على ظنه، فإذا كان بعد يسأل العلماء، فإن وافق عمله لسان العلم فحسن مجزى، وإلاَّ جَبَرَ الخَلَل الذي وقع منه على لسان العلم.

ولا يدخل هنا الخلاف الذي ذكروا فيمن عمل عملاً بغير علم، ووافق عمله لسان العلم، هل يكون مأجوراً أم لا؟ على ثلاثة أقوال، لأن ذلك الذي يعمل العمل بالجهل هو متمكِّن من السؤال، ولم يسأل، وهذا لم يكن متمكناً من السؤال، ولا يمكن له التَّزَكُّ، وهو لا يعلم، كما فعل أبو بكرؓ في هذا الحديث.

الوجه الثاني: قوله، ﷺ: (زادك الله حرصاً ولا تَعُدْ) دعاؤه، عليه السلام، له بالحرص، حرصاً على العبادة. معناه: زادك الله حرصاً في اجتهادك في طلب الأعلى في العبادات، لأنه لو صلى حيث أحرم أجزأته صَلَاتُهُ، ولَمَّا كان الصفِّ الأولُ أرفعَ، والقربُ من النبي، ﷺ، أرفعُ ما في الصفِّ الأول، فأراد هو أن يأخذَ الأفضلَ من الصفوف ومن الأماكن من الصفِّ الأول.

ويترتب عليه من الفقه أن قوة الباعث هي الحاملة على العبادات. وهذا دليل لأهل الصوفة الذين يقولون: إنما حملت الرجالَ الهِمَمُ لا الأبدان.

وقوله: (ولا تَعُدْ) أي لا تَعُدْ للتأخيرِ حتَّى تحتاجَ إلى أن تَدِبَّ في صلاتك.

الوجه الثالث: فيه دليل على أن المستحبَّ في الأكمل أن يُعمل عليه قبل الشروع في العمل، وهذا المثل الساري (قَبْلَ الرَّمْيِ تُرَاشُ السَّهَامُ)<sup>(١)</sup>.

(١) جاء في الأمثال: «قَبْلَ الرَّمَا تُمَلَأُ الْكَئَانَانُ» ويضرب في تهينة الآلة قبل الحاجة إليها، كما جاء كذلك قولهم: «قَبْلَ الرَّمْيِ تُرَاشُ السَّهَامُ» وهو في المعنى ذاته، و«تراش» تركب عليها الريش من قولهم: رَاشَ السَّهْمَ رِيْشاً وارتاشه. (انظر المستقصى في الأمثال للزمخشري ١٨٦/٢ و١٨٧).

الوجه الرابع: وفيه دليل لأهل الصّوفة الذين قدّموا قبل الأعمال الزّهد في الدّنيا، لأنّه الباعث على تمكّن أسباب الكمال في العبادات، وإلى الفوّز بخوّز أسنمتها. ولذلك حكى عن عيسى، عليه السّلام، لما كان في سياحته لقيّ قبل الصّبح رجلاً نائماً، فوكّزه برجله، وقال له: قم، فقد سبقك العابدون. فقال له: دغني، يا روح الله أنام، فقد عبّدته بعبادة ليس على وجه الأرض مثلها أو بأحبّ العبادة إليه، فقال له، عليه السّلام: وما هي؟ قال: الزّهد في الدّنيا. فقال عيسى، عليه السّلام: نمّ نومة العروس في خدرها، فقد فقت العابدين.

الوجه الخامس: يؤخذ منه الدعاء للشخص، وإن لم يطلبه، إذا رأى فيه لذلك أهلية لأنه يُعان به على ما هو بسبيله. يؤخذ ذلك من دعاء سيّدنا، ﷺ، لأبي بكر، ولم يسأله ذلك، لما رأى فيه من دلائل الخير.

وهنا بحث: لمّ دعا له بزيادة الحرص، وقال له (ولا تُعد) ولم يقل (لا جعلك الله تعود لمثلها)؟ فالجواب: أن دعاءه، عليه السّلام، بزيادة الحرص عونٌ على الخير. ولو دعا له بالآ يعود - ودعاء سيّدنا، ﷺ، مستجاب - فقد يكون دعاؤه يمنعه من أنواع من الخير، لأنّه قد يتأخّر عن صلاة الجماعة في وقتٍ ما لما يكون له أفضل، مثل تمرّض مريض لا يكون له من يمرّضه، أو حضور ميت لا يكون له من يقوم به، أو خروج لغزو، أو ما أشبه ذلك من أنواع الخير. فلما احتمل دعاؤه، عليه السّلام، أن يكون فيه عون على الخير أو منعه منه، لم يدع له، ونَدَبه إلى الأفضل. وحيث كان الدعاء خيراً كلّ دعا له، وإن لم يسأله.

ويترتب على هذا من الفقه ألا يدعوا أحد بدعاء إلا حتى<sup>(١)</sup> يعلم ما يترتب عليه ويتيقن أنه خير كله، سواء كان لنفسه أو لغيره.

الوجه السادس: فيه دليل على حُسن ما طَبِعَ الله، عزّ وجلّ، عليه نبيّه، ﷺ، من حُسن السّجايا. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السّلام، أتى على البديهة بهذا الجواب الذي يتضمن هذه الفوائد التي لا تُفهم إلا بعد النّظر والتّثبت والتّوفيق.

وفيه زيادة بيان وإيضاح لقول مولانا، جلّ جلاله (اطلبوني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي) لأنّه، سبحانه، لا يُخلّ في شيء، وإنما معناه: رحمتي حالةٌ على المنكسرة قلوبهم. وأيّ رحمة أعلى من دعائه، ﷺ؟ فلما انكسر قلب الصّحابي، رضي الله عنه، بما فعل دون علم، سخر له، ﷺ، فدعا له بالخير.

(١) كذا بزيادة «إلا» قبل «حتى».

الوجه السابع: فيه دليل لأهل الصّوفة الذين يقولون بجبر القلوب. يؤخذ ذلك من دعاء سيّدنا، ﷺ، لهذا الصحابي، لأن أفضل السرور عندهم، رضي الله عنهم، دعاؤه، ﷺ لهم، فعجزه، ﷺ، بإدخال السرور عليه لما رأى من انكسار قلبه عند إخباره بما صنع، وهو لا يعلم ما حكم الله فيه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

## حديث وجوب توفية أركان الصلاة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ، ﷺ، فَقَرَدَ النَّبِيُّ، ﷺ، عَلَيْهِ السَّلَامَ. فَقَالَ: إِرْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ. فَصَلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ، ﷺ، فَقَالَ: إِرْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ (ثَلَاثًا). فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا، مَا أَحْسَنُ غَيْرَهُ، فَعَلَّمَنِي. فَقَالَ: إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ<sup>(٢)</sup>، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا.

\* \* \*

ظاهر الحديث يوجب توفية أركان الصلاة من قيام وركوع وغيره من شأنها، ومن لم يفعل لم تُعْزِرْ صلاته. والكلام عليه من وجوه:

- (١) أبو هريرة: عبد الرحمن بن صخر، أحفظ من روى الحديث بدعاء النبي ﷺ له. وكان اسمه في الجاهلية «عبد شمس» وسماه الرسول عليه السلام «عبد الرحمن» وكناه «أبا هريرة» إذ كانت له هرة يحملها في ثيابه. روي له (٥٣٠٠) حديث في مسند بقي بن مخلد. وكان أبو هريرة شكا سوء حفظه إلى الرسول عليه السلام فأمره ببسط رداءه ودعا فقال: اللهم أسألك علماً لا ينسى. فقال ﷺ: «آمين». وكان مع الرسول عليه السلام في حضره وسفره وحجه وغزواته توفي سنة ٥٩ هـ (الإصابة لابن حجر).
- (٢) هذا من حجة الأحناف في عدم فرضية الفاتحة، وعلى هذا الآية الكريمة ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ وَأَنذِرُوا﴾. أما الشافعي فأخذ بحديث (الخداج) ولو مقتدياً بجهرية. والحنابلة خيروا المقتدي في الصلاة السرية ومنعوها في الجهرية أيضاً الآية ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾. والإجماع على أن هذه الآية نزلت في القراءة بالصلاة. فالاستماع في الجهرية، والإنصات في السرية. وهو أقوى أدلة الأحناف.

الوجه الأول: وجوب القراءة في الصلاة بغير تعيين. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (اقرأ ما تيسر معك من القرآن).

وهنا بحث، وهو: أنه يعارضنا قوله، عليه السلام، في حديث غيره (كلُّ صلاةٍ لا يُقرأَ فيها بأُمِّ القرآن فهي خِداج، هي خِداج، هي خِداج)<sup>(١)</sup>، وحديث آخر: (كلُّ رَكعةٍ)، والنسخ لا يعلم فيهما. ويسوّغ الجمع بينهما بأن تقدّر هنا محذوفاً، والموضع يحتمله، فيكون التقدير: ما تيسر معك من القرآن بعد أم القرآن. وهو مذهب جمهور الفقهاء، لأنه احتمال هذا الحديث أن يكون قبل نزول أم القرآن، فيكون على ظاهره بلا تأويل.

واحتمل أن يكون ذلك بعد نزول أم القرآن، وتقرير الحكم بإثباتها في الصلاة، فرجع الحكم بها معلوماً، كما أن الصلاة معلومة، والمحتمل لا يعارض به النص، ويكون إذاك الجمع كما قدمناه أولاً، والاحتمال الأول بعيد، لأن أم القرآن مكّية، وهذا الحديث مدنيّ، والله، عز وجلّ، أعلم.

الوجه الثاني: فيه دليل على الأمر بتكبيره الإحرام. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ: (إذا قمتَ إلى الصّلاة فكبّرْ). ويؤخذ منه أن التكبير كان عندهم معروفاً في الصّلاة. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام: (فكبّرْ) ولم يعلمه صفة التكبير، ولو لم يكن معلوماً ما جاز السكوت عنه عند الحاجة إليه.

وهنا بحث، وهو أن يقال: ما هو حدّ الاستواء؟ اختلف العلماء في ذلك الحدّ. فمنهم من قال: قدر ثلاث تسيّحات، ومنهم من قال غير ذلك، ومنهم من لم يجعل له حدّاً إلا ما حدّه، ﷺ، هنا، وهو قول مالك رحمه الله تعالى، ومن تبعه، وهو الأظهر، لأن الذي أُعطي البلاغة والنور والحكمة أخبرنا بالأمر الذي يأخذ كلّ الناس منه القدر الذي فيه إجزاء فرضهم، لأن الناس فيهم الخفيفُ البدن، الخفيفُ الحركة، فهذا بأقل من ثلاث تسيّحات<sup>(٢)</sup> تعتدل منه جميع مفاصله، ومنهم الثقلُ البدن، الثقلُ الحركة، فهذا بمقدار الثلاث تسيّحات لا يَتِمّ له فرضه، ومنهم ما بين ذلك، وهم أيضاً في النطق بالتسيّح مختلفون.

الوجه الثالث: فيه أيضاً من الحكمة معنى لطيف، لأنه لما نهى، ﷺ، عن التسيّج، والتفقير<sup>(٣)</sup> في الدّعاء، لأنه إذا كان الداعي مشغولاً بالخاطر بتفقير دعائه، ذهب منه المقصود من الدّعاء، وهو حضور القلب، فلم يحصل على فائدة ما أَرادَه من الإجابة، لعدم شرط الحضور،

(١) أخرجه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) من الفقهاء من قال بفرض التسيّحات في الركوع والسجود. وهذا الحديث حجة عليه، إذ لو كانت فرضاً لعلمه إياها.

(٣) التفقير: التكسير، والمراد هنا: التقطيع وجعله فقرات متوازنة.

فنهى، ﷺ، عن هذا رحمة بأمته. ويشبه هذا من طريق الحكمة، لأن الصلاة المطلوب منها أمران: (الظاهر) وتوفيته، وقد بينا العلة في ذلك آنفاً، و(الباطن) وهو الحضور. والخشوع مختلف فيه بين العلماء، هل هو فرض في الصلاة أو شرط كمال؟ وشغل الخاطر بهذه التسيحات ينافي الخشوع والحضور. فمن أجل هذه العلة لم يحد، ﷺ، في ذلك حداً إلا حقيقة الاعتدال. فمن فهم هذا المعنى أبقى الحد فيه على ما حدّه، ﷺ، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء.

وهنا بحث، وهو: ما الحكمة بأن جعل مفتاح الصلاة (الله أكبر) ثم فصل بهذه الصيغة المباركة بين أركان الصلاة؟

فالجواب: إن قلنا: إن هذا تعبد غير معقول المعنى، فلا بحث. وإن قلنا وهو الحق: إن الحكيم لا يفعل شيئاً إلا لحكمة، فما الحكمة هنا؟ فنقول والله أعلم: لما كانت الصلاة توجّهاً إلى المولى الجليل، ومناجاةً له، كما أخبر الصادق، ﷺ، في قوله (فإنما يناجي ربه)<sup>(١)</sup>، ولقوله عليه السلام: (إذا دخل العبد في الصلاة أقبل الله عليه بوجهه الكريم)<sup>(٢)</sup>، وقد قال عز وجل: ﴿فَأَتَيْنَا تَوَلَّوْا فَشَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾<sup>(٣)</sup> وقد جرت الحكمة أنه لا يُدخَل على الملوك إلا بالإذن، وعند الإذن منهم يدخل عليهم الداخل بحضور قلبه، ويلتزم الأدب، ويعرف على من هو داخل، فجعل التكبير هنا دالاً على الإذن للوقوف بين يدي المولى الجليل ليحضّر قلبه، ويعرف بين يدي من هو؟ وجاء الإذن بهذا الاسم العَلَم الذي لم يشاركه فيه أحد من خلقه حتى يكون سبباً لحضور حقيقة التوجه إذا ذاك.

الوجه الرابع: فيه تنبيه على رفض ما كان يأخذ فيه قبل الصلاة، كما جاء في نداء الصبح للصلاة: (الصلاة خير من النوم)، لأن النوم مما تستطيه النفوس، فأشعرنا بأن ما دُعيت إليه من الصلاة خير وأطيب مما هي فيه. فكذلك قوله: (الله أكبر) فإنه يقول لك بضمن الحكمة: ما كنت فيه، أو ما أنت فيه من خير أو ضده، أو عبادة من العبادات، أو نوع من أنواع المباحات (الله أكبر) أي ما دعاك الله إليه أكبر مما أنت فيه. فاضرب عنه، وأقبل على مولاك تجده خيراً لك في الحال والمآل.

ولذلك قال عز وجل في حقها: ﴿وَلِئَلَّهَا لَكِبَرٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾<sup>(٤)</sup> فإن من ليس من الخاشعين إذا جاءت الصلاة كانت قاطعة له عما كان بسبيله، وهذا على النفوس من أكبر الأشياء،

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، والإمام أحمد في مسنده والبخاري ومسلم.

(٢) جزء من حديث أخرجه البزار عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما بلفظ آخر.

(٣) سورة البقرة، من الآية ١١٥.

(٤) سورة البقرة، من الآية ٤٥.



وأما الخاشعون فإنهم ينتظرونها انتظار فرح بها، وهي أخفُّ الأشياء عليهم، وأحبُّها إليهم، لما يجدون فيها من النعيم والقرب والخلُّو بالمحبيب، ولذلك قال، ﷺ: (وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)<sup>(١)</sup>. وقد نُقِلَ عن بعض الرجال أنه قال: تعبت بالصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة. وما ذاك إلا لَمَّا لم يحصل له مقامُ الخاشعين تَعِبَ، فلما ذاق طعمَ الخشوع جاءه ذلك النعيم والخير التام.

وأما الحكمة في الفصل به<sup>(٢)</sup> بين أركان الصلاة: فإنه إما تحقيقٌ لرجاء، أو تحقيقٌ لخوف، أو تحقيقٌ لوعيدٍ أو وعيدٍ، أو لنفي إعجابٍ أو وسوسة.

مثال الرجاء: أن يكون قد ابتهل في الركن الذي كان فيه من الصلاة بدعاء فيما يرجو به خيراً، فجاء بعده (الله أكبر) بشرى لبلوغ ما أمَّله من فضله، عزَّ وجلَّ، في إجابة دعائه. أو خوفٍ إن كان في دعائه خائفاً من شيء، فجاء بعده (الله أكبر) أي هو أولى بالخوف؛ فإذا خفته فلا تخف غيره. أو كان قد قرأ آية وعيدٍ أو وعيد فجاء بعده (الله أكبر)، تحقيق لمقتضى ما قرأ، أو نفي إعجابٍ إن وقع للنفس أنها قد وُفِّت ما عليها، وأن لها بذلك حقاً على الربوبية واجباً، فجاء بعده (الله أكبر) أي حقُّ الله أكبر، كما جاء ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾<sup>(٣)</sup> معناه ذكره لك في الأزل أنْ جَعَلَكَ من الذاكرين له أكبر من ذِكْرِكَ أنتَ الآن له.

الوجه الخامس: فيه دليل على أن الأدب - إذا دُخِلَ المسجد - أن تقدِّم الصلاة، وبعدها يكون السلام على الغير. يؤخذ ذلك من قوله: (دخل رجل فصلّى ثم جاء فسَلَّمَ على النبي، ﷺ) ولم يقل له النبي، ﷺ، في ذلك شيئاً، لإقراره عليه السلام، له على ذلك حُكْمٌ به، وذلك في الأحاديث إذا استقرت كثير.

الوجه السادس: فيه دليل على حرمة العبادة، وأنه لا يُكَلَّم من هو فيها ولا يُعَلَّم، وإن أفسدَهَا. يؤخذ ذلك من أن النبي، ﷺ، لما رأى الرجل يصلي، وهو لا يحسن صلاته، لم يقل له شيئاً حتى فرغ، وأتى إليه، فقال له عليه السلام (ارجع فصلِّ). والصلاة التي صلى إن كانت فريضة يترتب على ذلك من الفقه أنه إذا نقص من توفية أركان الصلاة شيء لم تجز، وإن كانت نافلة يترتب عليها من الفقه أنه من دخل في نافلة، وأنقص منها شيئاً، أو أفسدها باختياره أنه يأتي بِبَدْلِهَا. والحجة في ذلك لِمالِكٍ، رحمه الله تعالى، الذي يقول: إن النافلة تجزى كما يجزى الفرض، ومن

(١) جزء من حديث أوله: حُبَّبَ إِلَيَّ من دنياكم ثلاث. أخرجه الإمام أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي في الكبرى عن أنس رضي الله عنه.

(٢) به: الضمير يعود على التكبير وهو قول المصلي: (الله أكبر).

(٣) سورة العنكبوت، من الآية ٤٥.

دخل فيها وجب عليه إتمامها، لأنه قال: (فَصَلِّ) وليس في الحديث ما يدل على أنها فرض، فلا يظهر أنها تحية المسجد.

الوجه السابع: فيه دليل على أن تكرار العمل بغير تمام لا يُعَدُّ شيئاً. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (ارجع فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ) (ثلاثاً).

الوجه الثامن: فيه دليل لمن يقول: إن العالم لا يتعين عليه أن يعلم حتى يُسأل. يؤخذ ذلك من أن سيدنا، ﷺ، لم يعلمه حتى قال له: فَعَلَّمَنِي.

الوجه التاسع: يؤخذ منه ألا يُحَكِّم بشيءٍ مُحْتَمِلٍ حتى يُبَحِّث عن حقيقته. يؤخذ ذلك من أن النبي، ﷺ، لم يَتَّقِدْ عليه، ولم يَعبِه، وما قال له إلا (ارجع فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ) لأن قلة توفيته للصلاة احتمل أن يكون ذهوله لشغل بال، أو لجهل كما ذكر عن نفسه. فلما وقع الاحتمال لم يزد، عليه السلام، على الإخبار بعدم الإجزاء شيئاً.

الوجه العاشر: فيه دليل على جواز النظر للمتعبّد، إلا أن يكون مواجهاً له، فلا ينظر إليه، لأنه إذا نظر إليه وهو مواجه له شوّش عليه - ذَكَرَهُ بعض العلماء - أو لِيُدْز وجهه عنه. يؤخذ ذلك من أن النبي، ﷺ، لم يقل له (ارجع فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ) إلا أنه نظر إليه طول مقامه يصلي، ولولا ذلك ما علم حاله.

ويترتب على ذلك من الفقه أن لكل راعٍ أن يتفقّد مَنْ تحت رعايته في أمر دينهم، هل يوفون أم لا؟ فإنه مسؤول عنهم، ولذلك كتب عمر، رضي الله عنه، إلى عماله: إِنَّ أَمْرَ أُمُورِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ.

الوجه الحادي عشر: يؤخذ منه جواز السّلام بعد الصّلاة، وإن كنتَ قد سلّمتَ قبلها. يؤخذ ذلك من أنه كلما جاء من تلك الصّلاة التي رده النبي، ﷺ، إليها أعاد السّلام عليه، ﷺ، ولم ينكِر عليه. وعدم إنكاره، عليه السلام، دالٌّ على الجواز. وهنا إشارة من طريقة أهل التحقيق في المعاملات، لأن الدخول في الصّلاة خروج من هذا العالم إلى العالم العلويّ بسرّه. فلما سلّم من الصّلاة، فهو رجوع إلى هذا العالم، فهو الآن قادم من عالم إلى عالم آخر، فلزيم، أو جاز، أو نُدب، إلى السّلام، وما هو أقلّ من هذا الاعتبار.

روي عن الصحابة، رضي الله عنهم، أنهم كانوا إذا كان الواحد منهم يمشي مع أخيه، وحال بينهما شجرة أو شيء، ثم تراجعا من ذلك الأمر اليسير، سلّم أحدهما على صاحبه<sup>(١)</sup>، لأن الفرقة -

(١) مروي بالمعنى. وأصله: إذا لقي أحدكم أخاه فليسلّم عليه، فإن حالت بينهما شجرة أو حائط أو حجر ثم لقيه =

وإن كانت يسيرة - فقد انقطع استصحاب الحال، وجاء أمر آخر، فينبغي أن يبدأ بالسلام، لما فيه من الأجر والخير والبركة. فهو لاء، رضي الله عنهم، كانوا يعرفون مقدار ما تُدبوا إليه، وأن خواطرهم عاملة بذلك. ولو فعله اليوم أحد لكان ينكر عليه: فإنا لله وإنا إليه راجعون على الغفلة التي قد توالى، فما يفيق سكران الغفلة إلا وشمس القيامة قد بزغت، فأثى لنا بجبر ما ضاع من العمل؟

الوجه الثاني عشر: فيه دليل على فضل الصحابة وعدم التصنع عندهم، رضي الله عنهم. يؤخذ ذلك من قوله: (والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلٌ مني) لأنه تواضع، ولم يكفه الإخبار إلا حتى<sup>(١)</sup> أكّده باليمين.

وقد قال العلماء: لا يُحرّم طالب العلم إلا من وجهين: إما من الكبر، أو من الحياء، فإن الدين ليس فيه كبر ولا حياء في قول حق، أو تعليمه، ولذلك قال، ﷺ: (نِعَمَ النِّسَاءُ نِسَاءَ الْأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْنَهُ الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ)<sup>(٢)</sup>.

الوجه الثالث عشر: فيه دليل لأهل الصوفة لأن فضيحة النفس بما فيها موت لها، وموتها حياتها. موت النفوس حياتها. مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَحْيَا يَمُوت.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

---

= فليسلم عليه. أخرجه أبو داود وابن ماجه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) كذا بإقحام «إلا».

(٢) انظر تخريجه في الحديث (٢١).

## حديث رد المأموم على الإمام بالحمد في الرفع

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ، قَالَ: إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ<sup>(١)</sup>. فَإِنَّهُ مَنْ وُافِقَ قَوْلَهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ.

\* \* \*

ظاهر الحديث: أن من وافق تحميده عند قول الإمام: (سمع الله لمن حمده) قول الملائكة غفر له. والكلام عليه من وجوه.

الوجه الأول: ما معنى قوله عليه السلام: (وافق قوله قول الملائكة) هل في الزمان، أو في الإخلاص، أو في مجموعهما؟ محتمل. والأظهر: موافقتها في الزمان والإخلاص، لأنه لم يبق محتمل آخر، وبقي الوجهان على طريق الطمع والرجاء في فضل الله تعالى. وهنا بحث في قوله، عليه السلام: (قول الملائكة): هل يعني به: ملائكة معروفين، فتكون (الألف واللام) للعهد؟ أو يعني به: جنس الملائكة فتكون للجنس؟ احتمال. لكن جاء حديث آخر (قول الملائكة في السماء) فدلّ على أنها للعهد، وأنهم ملائكة في السماء.

ومما يقوي هذا ما جاء عنه، ﷺ، في قوله: (يا مَنْ أَظْهَرَ الْجَمِيلَ، وَسَتَرَ الْقَبِيحَ. إِنْ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، خَلَقَ تَحْتَ الْعَرْشِ تَمَائِيلَ عَلَى صِفَةِ كُلِّ شَخْصٍ مِنْ بَنِي آدَمَ. فَلِذَا تَحَرَّكَ الْآدَمِيُّ بِأَيِّ نَوْعٍ تَحَرَّكَ ذَلِكَ التَّمَثَالُ بِمِثْلِ مَا تَحَرَّكَ بِهِ الْآدَمِيُّ. لَكِنْ - بِفَضْلِ اللَّهِ - إِنْ كَانَ تَحَرَّكَ الْآدَمِيُّ بِطَاعَةِ تَحَرَّكَ ذَلِكَ التَّمَثَالُ بِمِثْلِهَا، فَأَبْصَرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ، فَاسْتَغْفَرَتْ لَهُ، وَدَعَتْ لَهُ. وَإِنْ كَانَ بِمُخَالَفَةٍ أَوْ مَكْرُوهِ سَتَرَ

(١) للحديث روايات عدة منها: (ولك الحمد) ومنها بدون (اللهم). وقد أخذ الأحناف بجمع الروايات (اللهم ربنا ولك الحمد) وقالوا: هو الأفضل.

الله، عز وجل، حركة ذلك التمثال عن الملائكة، فلا يزونه حين يتحرك بالمعصية<sup>(١)</sup>. فسبحان من هذا جلّمه بعد علمه.

الوجه الثاني: فيه دليل على عظم قدرة الله، عز وجل. يؤخذ ذلك من أن هذا العالم على كثرته تكون الملائكة في العالم العلوي يراقبونهم واحداً واحداً.

الوجه الثالث: فيه دليل لمن يقول: إن بني آدم الصالحين أشرف من الملائكة. يؤخذ ذلك من كون العالم العلوي مترقبين لهم، ويؤمنون على دعائهم، واحداً واحداً.

الوجه الرابع: فيه دليل على زيادة شرف هذا الركن من بين أركان الصلاة، لأنه لم يجيء أن الملائكة تشارك آدمي في هذه العبادة بالموافقة إلا في هذا الركن، وتأمينهم عند آخر ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بقولهم: ﴿آمين﴾ فهذا أيضاً دليل على فضل السورة، لأنه لم يجيء أنها تؤمن على القراءة في شيء إلا على خاتمة الفاتحة. وهذا الموضع - وهو تحميدها - على قول الإمام (سمع الله لمن حمده) دال على تعظيمها من بين الأركان والأقوال.

الوجه الخامس: فيه دليل على فضل صلاة الجماعة على غيرها. يؤخذ ذلك من أنها لا تؤمن وتحمد على قول الفذ ﴿آمين﴾ عند قوله (سمع الله لمن حمده) وإنما تفعل ذلك للإمام ليس إلا. وفي هذا الموضع دليل بقوة الكلام على المحافظة عليها، لأنه لما أخبر ﷺ، بما فيها من الأجور، كأنه بقوة الكلام يقول: لا تغفل عنها، وحافظ عليها.

وهنا بحث لطيف، وهو: ما الحكمة بأن خص هذا الموضع وحده بهذا التشريف؟ فإن قلنا: إنه تعبد، فلا بحث. وإن قلنا: إنه لحكمة، فما هي؟ فنقول - والله أعلم -: لما جاء أن الركوع مُنعت فيه القراءة، ومُنعت فيه من الدعاء، وشُرِع فيه تعظيم الرب، عز وجل، وقد قال تعالى: على لسان نبيه، ﷺ (من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)<sup>(٢)</sup>. فلما كان هؤلاء امتثلوا ما أمروا به في حال الركوع بترك كل شيء، واشتغلوا بتعظيمه، جلّ جلاله، تفضل، عز وجل، عليهم بأن جعل لهم في هذا الموطن - الذي هو رفع الرأس من هذا التعظيم لجلاله - هذا

(١) مركّب من أكثر من حديث. أوله ما أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات من أن جبريل عليه السلام جاء إلى رسول الله ﷺ في أحسن صورة رآه ضاحكاً مستبشراً، وبشّره بأن الله أرسله إلى النبي عليه السلام بهدية وهي كلمات من كنوز عرشه ودعاء أوله (يا من أظهر الجميل وستر القبيح . . إلخ).

(٢) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد، وابن شاهين في الترغيب في الذكر، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر رضي الله عنهما، وعبد الرزاق عن جابر رضي الله عنه.

الخير العظيم، وأمر نبيه، ﷺ، أن يخبرهم به ليعرفوا قدرها من نعمة، لأنه ليس في جميع الثواب أعظم من المغفرة، كما قررناه في الأحاديث قبل.

وفيه معنى آخر لطيف، وهو لما جاء قول إمامهم (سمع الله لمن حمده) أي إنه قد سمع حمدكم إياه، وجازاكم عليه، بمقتضى وعده الجميل - وهو قوله، عز وجل: (مَنْ شَغَلَ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أَعْطِيَ السَّائِلِينَ) - جاء جوابهم: (اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ)، وهذا شكر على تلك النعمة، لأن الحمد يقوم مقام الشكر، وهو أعلى وجوه الشكر، وقد قال جل جلاله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ<sup>(١)</sup>﴾ فلما شكروا زيدت لهم المغفرة، فجاءت زيادة الكريم توفية لوعده الجميل ﴿وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ<sup>(٢)</sup>﴾ وكانت الزيادة خيراً من العمل، لأن الزيادة هي بمقتضى الفضل، وإن كان الكل من الخير بفضله، سبحانه. لكن الزيادة ليست بمقابلة شيء من الأعمال، فهي فضل صرف، فجاءت بأعظم الأشياء، ولذلك قال جل جلاله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ<sup>(٣)</sup>﴾ وهذا أجل البشارات، وأجل السرور، لأن ما هو مقتضى فضل ذي الجلال والإكرام لا يبقى معه هم ولا نصب، ولا حظ من خير إلا وقد أجزل لمن من عليه بهذه النعمة.

جعلنا الله من أهلها بفضله، ولذلك قال عز وجل: ﴿وَسَئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ<sup>(٤)</sup>﴾ لأنه إذا كان السؤال من المسكين إلى الجليل، وهو ليس بملتفت لعمله، كان أنجح في الاستجابة، ولا ينتبه إليها إلا من خص بها. جعلنا الله منهم بفضله.

الوجه السادس: وهنا إشارة صوفية، لأنهم لما رأوا هذه الإشارة وغيرها تقتضي تفضيل ترك الحظوظ على غيرها عملوا على الخروج من حظوظ النفوس جملة، من غير تفصيل، واشتغلوا بذكر الصمد الجليل، فأورثهم، عز وجل، العز الرفيع، بأن شرفهم، فقال، عز وجل، في محكم التنزيل: ﴿لَا تُلْهِيمُمْ شَخِرَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ<sup>(٥)</sup>﴾ وقال عز وجل: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالْعِشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ<sup>(٦)</sup>﴾.

فَهَمَّنَا الله ما فَهَمَّهُمْ، وَجَعَلْنَا فِي الْأَحْوَالِ مَعَهُمْ، لَا رَبَّ سِوَاهُ.  
وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيماً.

(١) سورة إبراهيم، من الآية ٧.

(٢) سورة التوبة، من الآية ١١١.

(٣) سورة النساء، من الآية ١٧٣.

(٤) سورة النساء، من الآية ٣٢.

(٥) سورة النور، من الآية ٣٧.

(٦) سورة الكهف، من الآية ٢٨.

## حديث رؤية المولى عز وجل

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنَّ الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تُمارون<sup>(١)</sup> في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا، يا رسول الله. قال: فهل تُمارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، يا رسول الله. قال: فإنكم ترونه كذلك. يحشر الناس يوم القيامة، فيقول: مَنْ كان يعبد شيئاً فليتبعه. فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها.

فيأتيهم الله، عز وجل، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا. فيدعوهم، فيضرب الصراط بين ظهرائي<sup>(٢)</sup> جهنم، فأكون أول من يجوز<sup>(٣)</sup> من الرسل بأمتي، ولا يتكلم أحد يومئذ إلا الرسل. وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم.

وفي جهنم كلاب مثل شوك السعدان<sup>(٤)</sup>. هل رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: نعم. قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم قدر عظيمها إلا الله، عز وجل، فتخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق<sup>(٥)</sup> بعمله، ومنهم من يخرذل<sup>(٦)</sup>، ثم ينجو.

حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله، فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود، وحرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود،

(١) هل تُمارون: هل تشكون أو تترددون.

(٢) بين ظهرائي جهنم: على وسطها.

(٣) يجوز: يجتاز ويقطع من طرف لآخر.

(٤) شوك السعدان: السعدان نبت ذو شوك، وهو من أطيب مراعي الإبل ما دام رطباً، فإذا يبس كبح وقسا فتعافه.

(٥) يوبق بعمله: يهلك بسبب عمله السيء.

(٦) يخرذل: يصرع ويرمى.

فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ. فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ قَدْ امْتَحَشُوا<sup>(١)</sup>، فَيَصُبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبَتُونَ كَمَا تَنْبَتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ<sup>(٢)</sup>.

ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دَخُولاً الْجَنَّةَ، مُقْبِلاً بَوَجْهِهِ قِبَلَ النَّارِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ فَقَدْ قَشَبَنِي<sup>(٣)</sup> رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذُكَاؤُهَا<sup>(٤)</sup>. يَقُولُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فَعِلَ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ يَقُولُ: لَا، وَعِزَّتِكَ، فَيُعْطِي اللَّهُ، عِزَّ وَجَلٍّ، مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ.

فَإِذَا أَقْبَلَ بِهِ عَلَى الْجَنَّةِ، رَأَى بَهْجَتَهَا، سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ، قَدَّمَنِي عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ. يَقُولُ اللَّهُ: أَلَيْسَ قَدْ أُعْطِيتَ الْعَهْدَ وَالْمَوَاقِيقَ إِلَّا تَسْأَلُ غَيْرَ الَّذِي كُنْتَ سَأَلْتَ؟ يَقُولُ: يَا رَبِّ، لَا أَكُونُ أَشْقَى خَلْقِكَ. يَقُولُ: فَمَا عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ إِلَّا تَسْأَلُ غَيْرَهُ؟ يَقُولُ: لَا، وَعِزَّتِكَ، لَا أَسْأَلُ غَيْرَ ذَلِكَ. فَيُعْطِي رَبُّهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ. فَيَقْدُمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ.

فَإِذَا بَلَغَ بَابَهَا، فَرَأَى زَهْرَتَهَا وَمَا فِيهَا مِنَ النَّضْرَةِ وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَدْخَلْنِي الْجَنَّةَ، يَقُولُ اللَّهُ، عِزَّ وَجَلٍّ: وَيَحْكُ يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَغْدَرَكَ! أَلَيْسَ قَدْ أُعْطِيتَ الْعَهْدَ وَالْمَوَاقِيقَ إِلَّا تَسْأَلُ غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ؟ يَقُولُ: يَا رَبِّ، لَا تَجْعَلْنِي أَشْقَى خَلْقِكَ. فَيَضْحَكُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلٍّ مِنْهُ، ثُمَّ يَأْذُنُ اللَّهُ لَهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، يَقُولُ: تَمَنَّ. فَيَتَمَنَّى حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ أُمِّيَّتُهُ قَالَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلٍّ: زِدْ مِنْ كَذَا وَكَذَا. أَقْبَلَ يُدْغِرُهُ رَبُّهُ. حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الْأُمَانِيُّ قَالَ اللَّهُ، سُبْحَانَهُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ مَعَهُ. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ<sup>(٥)</sup>: إِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ.

\* \* \*

- 
- (١) امْتَحَشُوا: تَقَشَّرَ جُلْدُهُمْ عَنْ لَحْمِهِمْ، احْتَرَقُوا.  
 (٢) حَمِيلِ السَّيْلِ: مَا حَمَلَهُ السَّيْلُ مِنْ غَثَاءٍ وَطِينٍ. وَالْحَبَّةُ: بِزُورِ الْعُشْبِ وَالْبَقُولِ الْبَرِيَةِ الَّتِي لَا تُؤْكَلُ. وَالْحَبَّةُ: الْبَذُورُ الَّتِي تُؤْكَلُ.  
 (٣) قَشَبَنِي: أَذَانِي.  
 (٤) ذُكَاؤُهَا: جَمَرُهَا الْمَلْتَهَبُ.  
 (٥) أَبُو سَعِيدٍ: هُوَ أَبُو سَعِيدٍ الْخَدْرِيُّ: سَعْدُ بْنُ مَالِكِ الْخَدْرِيِّ أَنْصَارِي خَزْرَجِي مِنْ مَلَازِمِي الرُّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. رَوَى عَنْهُ (١١٧٠) حَدِيثًا. تُوَفِّي فِي الْمَدِينَةِ سَنَةَ ٧٤هـ/٦٩٣م. (الأعلام/٣/١٣٨).



ظاهر الحديث تحقيق رؤية ربنا، جلّ جلاله، يوم القيامة. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله عليه السلام (هل تُمارُونَ؟) معناه: هل تُشْكُونَ؟ وعلى الرواية الأخرى: هل تُضَارُونَ في القمر ليلة البدر ليس دونه سحب؟ فهذه من الأشياء التي لا يشك أحد أن القمر موجود مَرْتَي. ولو سكت، عليه السلام، واقتصر على هذا المثال لكان في البيان والتحقيق كافياً. ثم أكدّه، عليه السلام، بأن قال: (هل تمارون في الشمس ليس دونها سحب؟)

وفي ابتدائه، عليه السلام، أولاً بالقمر، ثم بالشمس بعده، من الحكمة وجوه. منها: اتباع الأب الجليل، وهو: إبراهيم الخليل، عليه أفضل الصلاة والسلام، كما اتبعه، عليه السلام، في المِلة، اقتدى به في الدليل. فكان دليل الخليل على إثبات وجود الربوبية، واستدلال الحبيب بمقتضى ذلك الدليل نفسه على إثبات الرؤية. فكلُّ استدلال بمقتضى حاله، لأن الخلقة تصح بالوجود، والمحبة لا تقع إلا برؤية المحبوب.

الوجه الثاني: فيه من الحكمة أن رؤية القمر يُعَرِّضُ بها كُلُّ مَنْ يبصر، ولو كان من ضعف بصره ما عسى أن يكون، فعند تمام البدر دون سحب يبصره ضرورة. وبقي مَنْ لا يبصر له، يكون عنده وجود رؤية القمر تقليداً، والشمس يشهد بوجود رؤيتها مَنْ له بصر، وَمَنْ لا يبصر له. فإن الأعمى يلقاه حَرْها، وإذا قابلها وقت الظهيرة وليس دونها سحب أحس بإدراكها بزيادة يجدها على ما يخبرونه بذلك. فأكدّها، ﷺ، بأشدّ من الأوّل. ويكون معنى المثال في تحقيق الرؤية لا في الكيفية، لأن القمر والشمس متَحَيِّزان<sup>(١)</sup>، والحق، سبحانه وتعالى، ليس بمتحيز، وليس أيضاً شيء من مخلوقاته يشبهه. هذا بدليل العقل والنقل.

فأما من طريق العقل: فبالإجماع منهم أن الصنعة لا تشبه الصانع، والشمس والقمر خلق من خلقه، عز وجلّ، فليس بينهما شَبَهٌ بوجه من الوجوه.

وأما من طريق النقل: فما جاء في التنزيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾<sup>(٢)</sup> وإنما العرب تشبّه الشيء بالشيء لشبه ما يكون فيه، كقولهم (زيد مثل الأسد) والبشر ليس بينه وبين الأسد في الخلقة مماثلة، وإنما شبهوه به لكثرة شدّته. ومثل ذلك قولهم: (فلان مثل القمر) ولا شبه في الخلقة بينهما، وإنما شبهوه به لحُسْنِهِ. هذا في المحدثات التي بينها نسبة الحُدُوث، فكيف بمن لا نسبة بينه وبين خلقه، جلّ جلاله؟

(١) التَحَيُّز: التلَبُّث والتَمَكُّث والتلَوّي والتقلّب. ومثله: التحوُّز. والمتحوِّل من مكان إلى مكان، أو

المتنحي، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾.

(٢) سورة الشورى، من الآية ١١.

وهذا مثل ما يقول الناس بعضهم لبعض، إذا سأل أحدهم الآخر في أمر: هل هو حق أم لا؟ فيحلف له أنه حق، كما أنت موجود في الوجود، لأن علم الضرورة لا يشك أحد فيه. فردّ لهم، ﷺ، علم الإيمان بالرؤية التي هي من قبيل التصديق بالغيب من قبيل علم الضرورة الذي هو مقطوع به، لا يخالف فيه أحد في الوجود. وعلم الضرورة هو كعلمك بأن السماء فوقك موجودة، وأن الأرض تحتك موجودة، وأنت فيها موجود الآن، وكذلك ما أدركته من جميع الموجودات تشهد بالقطع الذي لا ارتياب فيه بأنها موجودة جسّاً.

الوجه الثالث: فيه من الفقه: جواز الاستدلال بالعلم النظري على علم الضرورة وبنائه عليه. وفيه من الفقه أيضاً: أن يخاطب كل شخص بما يفهمه، لأن العرب فهموا عنه، عليه السلام، المعنى الذي أشرنا إليه. ولو كانوا غير عرب لم يبين لهم، عليه السلام، إلا بما كانوا يفهمون عنه. يؤيد ذلك قوله عليه السلام: (خاطبوا الناس على قدر عقولهم)<sup>(١)</sup> أي: على قدر ما يفهمون.

وعلى رواية (تُضَاثُونَ) أي لا تتضاغطون. لأن القمر، إذا ارتقّب في أول ليلة، تضاعط الناس على مَنْ أبصره، لكي يُريهم إياه، ويتعبون في إدامة النظر إليه، وبعضهم يتعب، وقد لا يراه لضعف بصره. وإذا كان ليلة كماله لم يتضاعط أحد مع أحد، ولا يتعب أحد في رؤيته، بل يكون قد كسا نوره جميع الأرض، وانشرحت له الصدور. فيكون معنى هذا الوجه مثل الأول في تحقيق الرؤية. وزيادة معنى ثانٍ: أنكم أيها المؤمنون كلكم ترون ربكم يوم القيامة، كما ترون البدر عند كماله دون سحاب، والشمس دون سحاب بلا تعب، كذلك ترون ربكم حقاً، لا شك في ذلك، كما يشهد له آخر الحديث.

الوجه الرابع: قوله عليه السلام (ترونه كذلك)، عائد على تحقيق الرؤية، التي أخبر بها، عليه السلام، من أنهم لا يشكّون في القمر ولا في الشمس بتلك الصفة. فيقول: كذلك ترونه حقاً بلا ريب، ولا امتراء.

وهنا تنبيه، وهو: أنه لا يلزم من الرؤية: التحديد ولا الإحاطة، لأن بعض مخلوقاته، سبحانه، نراها ونعلم بالقطع أنها محدودة، ولكن لا نحيط نحن بها، مثل السماء والأرض، نحن ندرك كل واحدة منهما، ونبصرها، ولا نحيط بها، ونحن نعلم بالضرورة أنها محصورة محدودة، فكيف بمن ليس كمثله شيء؟

تنبيه ثانٍ، وهو: أنه لا يلزم أيضاً من الرؤية الجهة، لأننا نرى من خلقه كثيراً وليسوا هم في جهة، مثل الليل والنهار، فإننا نبصرهما، وليسا في جهة، فكيف بمن ليس كمثله شيء؟

(١) رواه الديلمي بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً بعبارة: أُمِرْنَا أَنْ نَخَاطِبَ النَّاسَ إلخ .

تنبيه آخر أيضاً، وهو: أنه لا يلزم من الرؤية إدراك جميع الصفات. فإننا نبصر من بعض مخلوقاته ما نبصره، ولا ندرك منه حقيقة صفته، كالماء، فإننا نبصره ونشربه، ولا نعلم له لوناً، لأنه كلما جعل في شيء يكون لونه لون ذلك الشيء، وحقيقة لونه القائمة به لا يدركها أحد، ولم يقدر أحد من المحققين أن يخبر عنها بلون ما، فكيف بمن ليس كمثله شيء؟

فتحصل من ذلك كله تحقيق رؤيته، جلّ جلاله، بلا ريب، مع نفي الكيفية بلا ريب أيضاً.

الوجه الخامس: قوله عليه السلام: (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيُّ يُجْمَعُ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَشِيرِينَ﴾<sup>(١)</sup> أَي مَن يَجْمَعُ النَّاسَ.

وفيه من الفقه: الإيمان بالبعث بعد الموت، وبكل ما ورد من الأخبار في ذلك اليوم العظيم، والتصديق بذلك أنه حق، كما أخبر، عليه السلام، ولا يُتَعَرَّضُ أيضاً إلى الكيفية في كل ما جاء من أمر الساعة، فإنه أمر لا تَسْعُهُ العقول، وطلب الكيفية فيه ضعف في الإيمان. وإنما يجب الجزم بالتصديق، كما أخبر عليه السلام، لأن قدرة القادر لا يُعْجِزُها مِمَكِنٌ، بل تفعل ما شاءت كيف شاءت.

الوجه السادس: قوله عليه السلام (فيقول: مَن كَانَ يَعْبُدُ شَيْئاً فَلْيَتَّبِعْهُ). (شيء) يعتم جميع الأشياء، مدركة كانت أو غير مدركة. فالمدرَك منها مثل الشمس والقمر والنجوم والأوثان على اختلافها، وغير المدرَك منها مثل الملائكة وهوى النفوس، لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوًى﴾<sup>(٢)</sup> وما أشبهها.

وفي قوله، عليه السلام، أولاً (مَن كَانَ يَعْبُدُ شَيْئاً) ثم ذكر الشمس والقمر، ثم عَمَمَ بذكر الطواغيت، دليل على أَنَّ كل ما يُعْبَد من دون الله - كائناً ما كان - هو من جملة الطواغيت. فلو سكت، عليه السلام، عند قوله (شيئاً) لكان احتمال ما يَبَيِّنُه بالمثال، وهو ما سوى الله من مخلوقاته، واحتمل أن يريد: (مَن عَبَدَ اللَّهَ) فإنه يُبَدَأُ<sup>(٣)</sup> في ذلك الوقت على جميع مَن عُبد من دون الله، فيتبعه كل من كان يعبده. فإن (شيئاً) يصدق على المولى، جلّ جلاله، وعلى غيره من مخلوقاته، ولذلك قال، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فهو جلّ جلاله (شيء) وليس كمثله شيء.

وذكر عليه السلام الشمس والقمر لأنهما أعظم المخلوقات المدركات التي عُبدت من دون

(١) سورة الأعراف، من الآية ١١١.

(٢) سورة الجاثية، من الآية ٢٣.

(٣) يُبَدَأُ: يُقَدَّم وَيُفَضَّل.

الله، ثم عاد عليه السلام إلى إجمال الأوثان بقوله (الطواغيت) فأزال بهذا الاحتمال الثاني، وصحَّ به الوجه الأول، كما ذكرناه.

وترتب على هذا من آداب الفقه أن من حُسِنَ الكلام، إذا كان في كلام المتكلم ما يقع فيه أو في بعضه احتمال للوجه الذي أراده أو لغيره، أن يأتي بمثال أو إشارة يذهب بها ذلك المحتمل، ويحقق ما أراده.

وترتب عليه من الحكم ألا يُحكَم على المتكلم إلا بما يقتضيه جميع كلامه من أوله إلى آخره، ولا يلزم البعض وترك البعض، إذا كان الكلام مرتبطاً ببعضه ببعض.

الوجه السابع: فيه دليل على أن الحكم يوم القيامة ليس الشخص فيه - كما هو هنا - باختيار نفسه. يؤخذ ذلك من قوله: (مَنْ كَانَ يَعْبُدْ شَيْئاً فَلْيَتَّبِعْهُ) ثم لا يَسْعُهُ إِلَّا الْإِتِّبَاعُ، وإن كان يُقْضَى به - كما هو متحقق - إلى الهلاك. وهنا الأمر قد ورد والمتبعون على اختلاف، فمتبع بالجملة، وتارك بالجملة أيضاً، وما بينهما. والحكمة في ذلك - والله أعلم - لما كانت هذه الدار يجتمع فيها الحق والباطل كان أهلها على ذلك الوضع، ولما كانت تلك حقاً كلها، كان الكل فيها على مقتضى وضعها.

وهنا بحث، وهو: أنه قد أخبر أنه مَنْ كَانَ يَعْبُدْ شَيْئاً اتَّبِعْهُ، وسكت، ولم يخبر عن استقرارهم أين يكون؟ فسكوته، عليه السلام، عن غاية الاستقرار. يؤخذ ذلك من مفهوم الكلام، وهو: أنه لما أخبر، عليه السلام، بأنهم طواغيت، وقد عَلِمَ بقواعد الشرع أن الطواغيت كلها في النار، فللعلم بذلك سكت عنه، عليه السلام، وإن كان قد بيّنه في حديث آخر، فإنه، عليه السلام، ذكر فيه أنهم يردون جميعاً النار، الأوثان وعِبَادُهَا، وقد تَبَّه، عز وجل، على ذلك في كتابه، بقوله تعالى في فرعون - وهو واحد ممن عُيِدَ من دون الله - ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَقْسَىٰ أَلْوَرْدُ﴾ (١).

الوجه الثامن: قوله عليه السلام (وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها). وهنا بحث في (الأمة): هل الألف واللام للجنس، يعني أمة التوحيد من الثَّقَلَيْنِ من أول العالم إلى آخره، أو للعهد يعني به أمة محمد عليه السلام، لا غير؟ احتمال. والأظهر أنها للجنس، بدليل ما عدا عِبَادَ الطواغيت، وهم جميع الرسل وأممهم من الجن والإنس، أي أنهم لا يتبعون وثناً، وإن كان فيهم المنافقون، وهم غير مؤمنين، لكنهم لما ادعوا أنهم مؤمنون أُبْقُوا مع المؤمنين.

(١) سورة هود، من الآية ٩٨.

الوجه التاسع: قوله عليه السلام (حتى يأتينا ربنا) تمحيصٌ ثانٍ لحقيقة دعوى الإيمان. فهناك يتميز الخبيث من الطيب، وفي هذا الموضع دليلٌ على فضل الإيمان، لأنه لما تلبس هؤلاء المنافقون بدعوى الإيمان أبقيت عليهم حرمة ما في ذلك الوقت العظيم من أجل تلك الدعوى.

الوجه العاشر: قوله عليه السلام: (فيأتيهم الله عز وجل). الإتيان: هنا بمعنى الظهور، لأن الإتيان في اللغة يكون بمعنى المجيء والانتقال كما تقول: أتى زيد. وقد يكون بمعنى الظهور كقولهم: أتى الأمر الذي قلتم، بمعنى: ظهر، وأتى الحق، أي ظهر، ومثله قوله، عليه السلام: (لا يبقى العدل بعدي إلا يسيراً، فإذا طلع الجور ذهب من العدل مثله) والجور ليس هو جرماً يطلع ويبرز، وإنما هو بمعنى ظهوره؛ فيكون الإيمان بالإتيان مع عدم الكيفية والأوصاف الثلاثة بالمحدثات كلها.

الوجه الحادي عشر: قوله عليه السلام: (فيقول: أنا ربكم). هذا أيضاً يجب الإيمان به مع نفي الكيفية، لأن مولانا، سبحانه، لا يتكلم بحرف ولا بصوت، وإنما هذا ميسرٌ بلغة سيدنا محمد، ﷺ، كما يسر القرآن الذي هو كلامه، عز وجل، فيسر لهم إذ ذاك كلام مولانا جل جلاله، بلغة العرب، كما يسر لهم كلامه في الدنيا باللسان العربي.

واحتمل أن يكون، عز وجل، يكلمهم بكلامه الذي هو صفته، عز وجل، كما كلم موسى، عليه السلام، وفهمه له كيف شاء، وتكون يسر العبارة هنا لسيدنا محمد، ﷺ، بلغته، كما يسر القرآن بلغته، بمقتضى الحكمة. والكيفية في الموضعين غير ملحوظة، بل منفية نفيًا كليًا.

ويترتب على ذلك من الفقه: الإيمان القطعي بالكلام المذكور، مع عدم الكيفية، وكذلك في كل موضع يقع الكلام في ذاته الجلية، سبحانه، وفي صفة من صفاته، لا سبيل للنظر في الكيفية، في شيء من ذلك.

الوجه الثاني عشر: قوله عليه السلام (فيقولون: هذا مكاننا، حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه) هذا أدل دليل على أن إدراكات الحواس خلق من خلق الله، يخلق، عز وجل، فيها ما يشاء، كيف يشاء. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام: (يأتيهم، فيقول: أنا ربكم) على المعنى المتقدم، فمع الرؤية والكلام لم تقع لهم معرفة، لأن حجابهم جعل من عند أنفسهم.

ونضرب بذلك مثلاً في عالم المخلوقين - ولله المثل الأعلى - مثل قرص الشمس إذا أقبلت، وقيل لضعيف البصر: انظر الشمس، وهو يعلم بالقطع أن عين الشمس إذا لم يكن دونها سحب أنها مستتيرة، فإذا نظر إليها ببصره رأى فيها طرقاتاً حمراً وصُفراً وسوداً، فيقول: ليست هذه الشمس التي أعلم. فيقال له: منك عدم حقيقة الإدراك. فينازع في ذلك. فيقال له: داو بصرك، ثم تعال

وَأَبْصَرُهَا، فإذا داوى بصره، وعاد إلى نظرها رآها على حال كمالها من الحُسْن والضياء، فحينئذ يسلم أن حجابها كان من عند نفسه. هذا في مخلوق مع مخلوق، فكيف مع من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فالحُجُبُ كلها، التي لنا، منّا بمقتضى القدرة والحكمة الربانية.

الوجه الثالث عشر: فيه تعلق لأهل الصوفة الذين يقولون: بأن الحجبَ كلها من عند أنفسهم، فمن صحَّ له منهم الخروج الكلِّي عنها فقد وصلَ وعرف، وخاطب وخُوطب، وأبصرَ وبُصرَ، لكن مع التزام حدود الإكبار والإعظام، وتقرير القواعد الشرعية، والتزينة اللائق بالجلال.

الوجه الرابع عشر: قوله: (هذا مكاننا) أي: لا نبرح منه، وقوله: (حتى يأتينا ربُّنا) أي: كما وعدنا في دار الدنيا.

ويؤخذ هنا من الفقه أنه على قَدَر حال علمك في هذه الدار يكون حالُك في تلك الدار، ولذلك قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين قيل له عن فتانِي القبر، قال: أكون معي عقلي؟ قيل: نعم. قال: لا أبالي. وذلك لعلمه أن علمه يكون على أكمل حالات الإيمان، فلذلك قال: إذا بقي معي ما عقلته من الإيمان فأنا ناج، لا شك فيه. وإنما خاف من تبديل الحال، ولذلك قال أهل العلم بالمعرفة والشرعة: إن التجلِّي هناك في دار الكرامة يكون تفاوت الناس فيه على قَدَر معرفتهم في هذه الدار بالإجلال والإعظام.

وقوله: (فإذا جاء ربُّنا عرفناه) معناه: فإذا تجلَّى لنا وعرَّفنا نفسَه عرفناه، لأن المؤمنين هنا يعرفون أن قدرته، جلَّ جلاله، عظيمة، تفعل ما شاءت، كيف شاءت.

وهنا بحث، هل كل الناس يقولون ذلك على لسان واحد؟ أو أهل الخصوص والمعرفة هم الذين يجاوبون ويُخاطبون، والغيرُ في حكم التَّبَع، كما هو الأمر في هذه الدار، لأن العرب إذا تكلمَ البعض من الجمع، قالوا: قال القوم؟ الأمر محتمل للوجهين معاً. والقدرة صالحة أن تعطي هناك للعامي من حُسن الجواب والأدب كما تعطيه للذي قد مُنَّ عليه بالمعرفة هنا.

وفيه بشارة عظيمة، وهي: الإخبار بإبقاء الإيمان، وهذا القَدَر من الاتصال حتى يقع الخطابُ بين هذا العبد، الذي هو على ما هو عليه من الحقارة، مع هذا المولى الجليل، مع ما هو عليه من الاستغناء والجلال. ولذلك رُوِيَ عن بعض المتعبِّدات أنها كانت تفرح بالموت وتقول: أوليس يخاطبني، ويقول لي: يا أمةَ السوء، فعلتِ كذا وكذا؟ فذلك غايةُ مطلبي.

وقوله: (فيأتيهم الله) أي: يتجلَّى لهم. وقوله: (فيقول: أنا ربُّكم) هو على ما تقدم من القول قبله من البيان. وقوله: (فيقولون: أنت ربُّنا) فحين مَرَّ عزَّ وجلَّ عليهم بالمعرفة عرفوه. وقوله: (فيدعوهم) هنا أي يدعوهم إلى الاتباع لما جاء في حديث غير هذا. وقوله: (فيَتَّبِعونه) أي: يتبعون

حيث يُؤمّرون . وقد جاء أن هذا الموطن - أعني موطن الاتّباع - يكون التفرقة بين المؤمنين والمنافقين حتى يقال لهم : ارجعوا وراءكم . فيلتفتون ، فيضرب بينهم سُور ، كما أخبر جلّ جلاله في كتابه ﴿ فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا ﴾<sup>(١)</sup> . وقد جاء أيضاً مثله في حديث غير هذا .

الوجه الخامس عشر : فيه من الفقه أنه عند الاختبار يتبيّن حقيقة الحقائق . ويترتب عليه من الفائدة ، بعد الإيمان القطعيّ به ، أن يختبر المرء هنا حال إيمانه ، حتى يعلم من أيّ الفِرَق هو ؟ ولذلك قال ، ﷺ : ( حاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَحَاسِبُوا )<sup>(٢)</sup> .

وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ عَدْلٌ ، وما أمرنا به حق ، وأن الحكم لا يتبدل ، فلا تمهل نفسك وتطمع في الخلاص بضدّ موجب ، فهو عين الحق .

وهنا سؤال ، وهو أن يقال : ما الحكمة في تجلّي مولانا لنا أولاً ، ولم يُعطنا المعرفة ، وفي الثانية يتجلّى لنا ، ويمنّ علينا بالمعرفة ؟ ولم لا يتجلّى لنا عندما اتبعت كل أمة ما عبدت ؟

فإن قلنا : هذا مما استأثر الحق عزّ وجلّ به ، ولا سبيل لنا لمعرفة الحكمة في ذلك ، فلا بحث .

وإن قلنا : إن الحكيم لا يفعل شيئاً إلا لحكمة ، وما أخبرنا إلا أن نتفكر ونعتبر ونتصبّر ، وهو الأظهر ، والله أعلم ، فما الحكمة في أنه - عزّ وجلّ - تجلّى لنا مرتين ، ومنعنا في الأولى الميّز ، ومنّ به علينا في الثانية ؟ فنقول ، والله أعلم : لأن يكون بدء الخير ، وهو التجلي والكلام بما كنا عرفناه به في الدنيا ، أنه ليس كمثله شيء ، وأن كل ما فينا من حواس ، وما فينا من إدراك ، خلق له عزّ وجلّ . فعرفنا أولاً بالصفة التي ابتدأنا بها في الخلق أولاً وآخرأ ، وهي صفة القدرة المتصرفة فينا ، مع إبقاء صفات دعوانا فيما جبلنا عليه أولاً بأول ، بمقتضى الحكمة .

وأما كونه - عزّ وجلّ - آخر التجلي حتى لم يبقَ إلا هذه الأمة ، فيها منافقوها ، على البحث المتقدم ، وهم جميع الرسل وأممهم ، جنّاً وإنساً ، فذلك - والله أعلم - ليُظهر لهم قدر النعمة عليهم ، إذ يعاينون ذلك الجمع الكثير كلهم يردون النار ، ثم يمنّ عليهم بعد ذلك بالتجلي والخطاب ، فيقدرون إذ ذاك على قدر المنة بمقتضى الحكمة ، كما جعل - عزّ وجلّ - بين الجنة والنار طيقاناً<sup>(٣)</sup> يُبصر أهل الجنة منها أهل النار وما هم فيه ، فيكبر عندهم قدر النعمة التي هم فيها ، لأن النعمة لا تُعرف إلا بمعرفة ضدها .

(١) سورة الحديد ، من الآية ١٣ .

(٢) أخرجه ابن المبارك وسعيد بن منصور والإمام أحمد في الزهد وابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر من كلام عمر رضي الله عنه .

(٣) الطيقان : مفردا طاق ، وهو ما عُطِف وجُعِل كالقوس من الأبنية .

جعلنا الله من أهل نعمه في الدارين بمنه .

وقوله : (يضرب الصراط بين ظهراي جهنم) يُضْرَبُ الصراط أي : يُنْصَبُ ، كما تقول : ضربتُ الحبل ، أي : نصبته . وقد جاءت صفة الصراط أنه أدقُّ من الشعرة ، وأحدُّ من السيف ، وأنه سبعُ عقبات ؛ وأن طولَ كل عقبة مقدارُ ثلاثة آلاف سنة ، على أحد الأقاويل .

وقوله : (بين ظهراي جهنم) أي : على وسط جهنم ، لأن الحروف عند العرب يُبدل بعضها من بعض ، وهو من فصيح الكلام ، كقوله ، عليه السلام ، في حديث الإسراء (أتينا على السماء السادسة) معناه : إلى السماء السادسة . وتقول العرب : فلان بين ظهراي القوم ، أي : في وسط القوم . فيكون المعنى : فيُنْصَبُ على وسط جهنم . وقد جاء أن النار تدور بالناس في المحشر ، كما يدور الخاتم بالإصبع ، وأن الشمس من فوقهم ، وليس لهم طريق إلى الجنة إلا على الصراط إذا نُصِبَ ، وصفته كما تقدم .

ويترتب على ذلك من الفقه : الإيمانُ بالصراط أنه حق ، وأنه الآن مخلوق . يؤخذ ذلك من قوله ، عليه السلام : (يُضْرَبُ) فلو لم يكن مخلوقاً لأخبر أنه يُخلَقُ . فلما أخبر ، عليه السلام ، في غير هذا الحديث به ، وبصفته ، وتحقق وجوده ، أخبرنا هنا بأمر قد عُلم . ولو لم يكن كذلك لأخبر به حتى يُعرَفَ هذا الاسم على ماذا يقع ؟ والصراط في اللغة هو : الطريق . قال تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾<sup>(١)</sup> أي طريقي .

الوجه السادس عشر : يؤخذ منه الدليل على عظيم قدرة القادر ، جلّ جلاله . يؤخذ ذلك من كيفية وصف هذا الصراط ، وعظم النار التي هي بِقَدَر طوله ، وهذا الترتيب العجيب .

الوجه السابع عشر : فيه دليل لمذهب أهل السنة الذين يقولون بأن النار مخلوقة موجودة الآن ، لأن الصراط لا يُضْرَبُ على شيء إلا أن يكون مخلوقاً موجوداً حَسّاً .

الوجه الثامن عشر : فيه دليل على أنه لا يخرج إلى المحشر من جميع النيران إلا جهنم وحدها ، لأن النار - كما أخبر عز وجل - في الكتاب ، وكما أخبر ، عليه السلام ، في الحديث سبعة . فالأولى منها : جهنم ، وهي التي يَدْخُلُهَا المذنبون من أمة محمد ، عليه السلام ، وغيرهم من المؤمنين المذنبين . فمنهم من يقع فيها من على الصراط ، ومنهم من يدخل من بابها . أعاذنا الله منها بفضلها .

وهنا بحث ، وهو : لِمَ خُصَّتْ هذه من جميع دَرَكَات النار بالخروج إلى المحشر دون غيرها ؟ فالجواب أنه لما أحكمت الحكمة الربانية أن الصراط لا يجوز عليه إلا أهل الإيمان ، وأن الكفار لا

(١) سورة الأنعام ، من الآية ١٥٣ .



يعبرون عليه، فإنه إنما جعل طريقاً إلى الجنة، والكفار ليسوا من أهلها، فلا يعبرون عليه وإنما يدخلون ما أُعِدَّ لهم من الدَرَكَات على أبوابها. ومن أهل الإيمان من لا يكون دخوله النار إلا أن يقع من على الصراط، فلم يُنْصَب الصراط إلا على النار التي هي مختصة بأهل الإيمان، لثلا يقع أحد من المؤمنين في نارٍ ليست له. حُكِّمَ عَذْلٌ بمقتضى حكمة الحكيم الذي ليس كمِثْلِهِ شَيْءٌ.

الوجه التاسع عشر: فيه دليل على أن أمور الآخرة ليست على وضع أمور الدنيا في غالب أمرها. يؤخذ ذلك من أن الصراط بهذه الصفة - يتحمل جواز جميع المؤمنين، في مقدار بعض يوم من أيام الدنيا، لأنه جاء أن الحق - سبحانه - يفرغ من الفصل بين العباد في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا<sup>(١)</sup>، والجواز على الصراط في جزء من ذلك النصف. والعادة في هذه الدار أن ذلك القدر من

(١) قول المؤلف الشيخ ابن أبي جمرة (أن الحق - سبحانه، يفرغ من الفصل بين العباد في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا) موافق لما جاء به بعض المفسرين، منهم الجلال السيوطي والجلال المَحَلِّي، فقد جاء في تفسيرهما في شرح قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ - سورة إبراهيم، من الآية (٥١): يحاسب جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك.

وعلق القاضي الشيخ محمد أحمد كنعان في كتابه (قرة العينين على تفسير الجلالين) بما يلي: (لقد سها الجلال السيوطي بوصفه النهار بأنه من أيام الدنيا، وكثر ذلك في ثلاثة مواضع أخرى ص ٤٠ وص ٩٦ وص ١٧٢، ومثله فعل الجلال المَحَلِّي ص ٦١٩. والصواب: أن الله تعالى يحاسب الخلق كلهم في (مقدار نصف نهار). أما مقدار هذا النهار فقد جاء مبيناً في قوله تعالى: ﴿تَرَجُّعَ الْمَلَكُوتِ وَالرُّوحِ إِلَيَّ يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يوم القيامة، فيتم الحساب في نصف هذا اليوم، لما رواه ابن جَبَّان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (يقوم الناس لربِّ العالمين مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة، يُهَوَّنُ ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب). ويؤيده ما رواه الشيخان في عقاب مانعي الزكاة في المحشر، وفيه قوله ﷺ: (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقْضَى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار).

وروى ابن المبارك في الزهد وابن أبي حاتم والحاكم وغيرهم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفاً عليه قال: (لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقبل هؤلاء وهؤلاء). وهؤلاء أي: المؤمنون في الجنة، والكفار في النار.

فيوم القيامة طويل جداً على الفاسقين، وهو أطول على الكافرين ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَصِيرًا﴾. ولكنه يُهَوَّنُ على المؤمنين، كل بحسب عمله. فمنهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهم سبعون ألفاً من أمة محمد ﷺ كما في حديث رواه الشيخان، ويكون قصيراً على الفقراء من المسلمين، فيدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسة عام كما في حديث رواه الترمذي وصححه الحاكم. وفي رواية لمسلم: قبل أربعين عاماً، بينما الأغنياء محبوسون للحساب على مالهم من أين اكتسبوه، وفيهم أنفقوه.

أما ما رواه أحمد وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (إني لأرجو ألا تعجز أمتي عند ربِّها أن يؤخرهم نصف يوم. قيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: خمسمئة عام) فهو محمول على قرب قيام الساعة على الصحيح، وليس على يوم الحساب؛ لذلك أورده أبو داود في (باب قرب الساعة). والمعنى: يمهلهم من زمني هذا إلى انتهاء خمسمئة سنة بحيث لا يكون أقل من ذلك إلى قيام الساعة. ولو زاد فلا مضايقة فيه).

الركة والحدة لا يقدر أن يحمل من الثقل شيئاً، فكيف بِثِقَلِ ذلك العالم العظيم؟ ولأن الطريق الواسعة أيضاً في هذه الدار لا يمرّ عليها من الجَمْع الكثير إلا اليسير فكيف مع تلك الرّقة والدّقة؟ وأيضاً فإن الطريق الضيّق هنا إذا كان على مهواة، لا يملك أحد أن يستطيع المرور عليه. وهناك أهل النجاة يَمرون عليه، وما عندهم من ذلك خير، كما أخبر الصادق، عليه السلام. فسبحان مَنْ هذه قُدْرَتُهُ.

الوجه العشرون: قوله عليه السلام (فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته) فيه دليل لما ذكرناه<sup>(١)</sup> أولاً لأنه، عليه السلام، عنى بـ (الأمة): جميع الموحّدين من آدم، عليه السلام، إلى محمّد، عليه الصّلاة والسلام.

الوجه الحادي والعشرون: فيه دليل على فضل سيّدنا محمّد، عليه السلام، على جميع الرسل، عليهم السلام، وفضل أمته على سائر الأمم. يؤخذ ذلك من تقدمه، عليه السلام، بأمته في الجواز على الصراط.

وقوله عليه السلام (ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل) يعني: حين الجواز على الصراط لا في اليوم كله، بدليل ما جاء في كلام الناس أنهم يطلبون الشفاعة، ويمشون من رسول إلى رسول، وما يحتاج الناس بعضهم مع بعض عند الحساب، ومن كلامهم في هذا الحديث مع مولانا - جلّ جلاله - حين يقول لهم: أنا ربكم.

ويوم القيامة يوم واحد، والأحوال فيه مواطن، فعبر عن كل موطن باليوم، وهذا سائغ في لسان العرب من تسميتهم البعض بالكلّ، والكلّ بالبعض، كما تقول: جاء زيد يوم الخميس، وما جاء من اليوم إلا في ساعة واحدة؛ وبهذا المعنى يجتمع كل ما جاء من الأخبار في يوم القيامة، لأنها كلها أخبار، والأخبار لا يدخلها نسخ، وهي كلها حق.

الوجه الثاني والعشرون: فيه دليل على شدة الهول في ذلك الموطن، بدليل أنه لا يقدر أحد أن يتكلم، لأنه لا يمنع من الكلام - لا سيّما من الدعاء - إلا الهول العظيم. ومما يدل على ذلك كلام الرسل - عليهم السلام - الذي هو دعاء بالسلامة، وهم الآمنون.

الوجه الثالث والعشرون: فيه دليل على أن الدعاء هناك يُرَجَى قبوله والخير من أجّله. ولولا ذلك لما كانت الرسل - صلوات الله عليهم - يدعون.

الوجه الرابع والعشرون: فيه دليل على فضيلة هذه الصيغة في الدعاء، وهي قولهم، عليهم

---

(١) في الوجه الثامن من شرح هذا الحديث.

السلام: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. فلولا ذلك لما كانوا يدعون بها في هذا الموضع العظيم. وقيل: إن معناها: أسألك بجميع ما سُئِلْتُ به.

الوجه الخامس والعشرون: قوله عليه السلام (في جهنم كالليب مثل شوك السعدان. هل رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: نعم. قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله عز وجل) فيه من الفقه: التشبيه في الأخبار إذا عرف ما يُشَبَّه به أنه أبلغ في البيان، لأن شوك السعدان كثير في البرية، له أطراف شديدة الحدة، إذا تعلقت بشيء قلما<sup>(١)</sup> تنفصل عنه إلا وقد أخذت منه. فإذا كانت هذه هنا على هذه الصفة مع وُشع الأرض ودقتها هنا، فكيف هناك مع ذلك العظم وضيق الطريق؟ فانظر ما أبدع هذا التشبيه! وإن الذي تتعلق به إما ترميه في النار، وإما تُخَرِّدُهُ كما أخبر عليه السلام.

وفيه أنها - وإن كانت بهذه الصفة - لا يكون تعلقها بأحد إلا بقدر ذنوبه، فهو بمعنى التخردل. ويكون تشبيه التخردل بقدر الذنوب التي من أجلها تعلقت. فاحذر أيها المسكين هنا تنج هناك، ولذلك جاء عنه، عليه السلام: (أن النار تقول للمؤمن: جُزْ يا مؤمن، فقد أطفأ نور وجهك لهبي)<sup>(٢)</sup> فشتان ما بينهما.

الوجه السادس والعشرون: فيه دليل على عظم القدرة، لأن تلك الكلايب لم يذكر عليه السلام أنها في أيدي زبانية، وإنما ذكر أنها في جهنم، دون محرّك يحركها إلا القدرة.

الوجه السابع والعشرون: فيه دليل على أن المعلم يسأل مَنْ علّمه بما يعرف أنه يعرفه، حتى يتيقن بالتحقيق أنه قد علم. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (هل رأيتم شوك السعدان؟ حتى قالوا نعم) وهو، عليه السلام، يعلم أنهم يعرفونها، لكن الحكمة حتى يتيقن من أنهم قد عرفوا تمام المعرفة.

الوجه الثامن والعشرون: فيه دليل على أن عدم التحديد في الموضع المخوف أبلغ. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (لا يعلم قدر عظمها إلا الله، عز وجل). فلو وصف، عليه السلام، قدرَ عظمها ما كان أوقع في نفس من تعلق به مثل ما إذا رَدَّه إلى علم الله.

وقوله (تخطف الناس) أي: تجذبهم إلى جهنم من أجل أعمالهم الخبيثة كما تقدمت الإشارة آنفاً. وقوله (فمنهم) أي: من الناس. وقوله (من يوبق بعمله) أي: يُهلك بسبب عمله الشؤ، كقوله

(١) يريد: قلما.

(٢) مروي بالمعنى. أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن يعلى بن مَنبّه رضي الله عنه. وأوله: تقول النار للمؤمن..

عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَوْ يُوقَهُنَّ يَمَّا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾<sup>(١)</sup>. وقوله (ومنهم من يخردل) أي: تأخذ تلك الكلاليب منه بقدر ذنوبه. وقوله (ثم ينجو) فيكون الناس على هذا الخبر الصديق ثلاثة أصناف: ناج بلا تشويش، وهو ما قدمنا ذكره الذي تقول له النار: جُزْ يا مؤمن. ومنهم الذي توبقه أعماله فيهلك، وما بين ذلك الذي يخردل، ثم ينجو.

وهؤلاء ليسوا على صفة واحدة، بل منهم الكثير التخردل، ومنهم القليل، وما بين ذلك. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (بقدر أعمالهم). ومعلوم بالضرورة أن أعمال الناس ليست على حدٍّ واحد، وكذلك الفرقة الناجية ليست على حدٍّ واحد في العذاب. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام: (بقدر أعمالهم).

وقوله عليه السلام (ثم ينجو) يعطي المفهوم هنا أن المُخَرَّدَل لا ينجو إلا بعد بُطءٍ، لأن (ثُمَّ) تعطي المهلة في الزمان، فلا يكون زمان نجاته إلا بعد طولٍ أو تعب، ويعطي أن ضِدَّهُ - وهم الناجون - تكون نجاتهم بسرعة، وقد جاء ذلك في قوله عليه السلام (إن من المؤمنين من يَجُوزُ على الصراط مثل البرق، ومنهم مثل الريح، ومنهم مثل الجواد السابق، ومنهم مثل أشدَّ الرجال جرياً، ومنهم مَشِيّاً)<sup>(٢)</sup>. وهذا أدل دليل لما قدمناه آنفاً، وهو أن الثلاثة أصناف ليسوا على حدٍّ واحد.

وقوله (حتى إذا أراد الله رحمةً من أراد من أهل النار) أي: أنه وصل الوقت الذي سبق في علم الله وإرادته أن يرحم من سبقت له الرحمة في ذلك الوقت من أهل النار، لأن الإرادة من الله ليست كإرادتنا تحدث بعد أن لم تكن. تعالى الله أن تكون صفاته تُشبه صفات المُخَدَّنِينَ.

الوجه التاسع والعشرون: فيه دليل على أن من كان من أهل الإيمان، وإن كان في أي حالة، لا يقطع إياسه من رحمة أرحم الراحمين، فلعله ممن سبق له من الخير سابقة، وقد قال، جلَّ جلاله: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِئُشُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾<sup>(٣)</sup> وقد روي أن عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، رأى في النوم أن القيامة قد قامت، وحوسب الخلفاء، فأمر بهم ذات اليمين، حتى وصل الأمر إليه، فحوسب، فأمر به ذات اليمين، فهو سائر مع الملائكة، فلقي في الطريق مثل الجيفة. فقال للملائكة: مَنْ هذا؟ قالوا: أسأله، فهو يخبرك. فَوَكَّزَه بِرِجْلِهِ، وقال له: من أنت؟

(١) سورة الشورى، من الآية ٣٤.

(٢) جزء من حديث أخرجه الشيخان من حديث الرؤية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) سورة يوسف، من الآية ٨٧.

فقال له : أنا الحجاج . فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : قَتَلَنِي بِكُلِّ قَتِيلٍ قَتَلْتُهُ قَتَلَةً . وقتلني بسعيد ابن جُبَيْر<sup>(١)</sup> سبعين قَتَلَةً . وأنا أنتظر ما ينتظر الموحدون .

وقوله : (أمر الملائكة أن يُخرجوا من كان يعبد الله) أي قوماً ممن كانوا يعبدون ، بدليل قوله في حديث آخر (إنه يخرج أولاً مَنْ كان في قلبه مثقالُ حبة من الإيمان ، وفي الثانية أدنى حبة من الإيمان ، وفي الثالثة أدنى حبة من الإيمان) . فاحتمل هنا أن يكون أراد أن يخبر بالكل عن البعض ، وأراد أن يخبر عن جميع المخرجين ، وإن كانوا في مرار عدة ، اختصاراً ، ولكونه ، عليه السلام ، قد أخبر به في مكان آخر مفصلاً . فإن الفصيح يختصر في أخباره ، ليُحفظ عنه ، ويطوّل لِيُفهم بحسن البيان عنه . وسيدنا محمد ﷺ ، قد أوتي من كلا النوعين أكملهما وأعلهما .

وقوله (أن يُخرجوا من كان يعبد الله) معناه : من كان مؤمناً ، لأن المؤمنين ينطلق عليهم اسم (عباد) وإن كان منهم المذنب ، لأنه قد عبد الله ، أي أنه قد أقرَّ له سبحانه بالالوهية ، ولم يجعل له شريكاً ، ولا عبد شيئاً من دونه ، لأنه لو كانت عبادته على ما يُعرَف من اللغة الاصطلاحية ما دخل النار ، والعرب تسمي الكل بالبعض ، والبعض بالكل .

وهنا دليل لمذهب أهل السنة الذين يقولون : إن النار لا تُحرق بذاتها ، وإنما الحرق خلق من خلق الله تعالى يُصيب به مَنْ يشاء . فلو كانت تُحرق بذاتها ، لأحرقت الملائكة وغيرهم ، وأحرقت مواضع السجود كما تحرق سائر الجسد ، فبان بتبعض حرقها أن ذلك ليس بمجرد وجود جوهرها ، بل ذلك بحسب ما يخلق فيها<sup>(٢)</sup> .

وقوله (ويعرفونهم بأثر السجود ، وحرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود) . هنا بحوث ، منها : أن يقال : هل أثر السجود لا تأكله النار ممن كان مؤمناً ، سجد أو لم يسجد ؟ فإن قلنا بذلك فقد أخرجنا اللفظ عن موضعه ، لأنه - عليه السلام - قال (يعرفونهم بأثر السجود) وأثر الشيء لغة لا يكون إلا بعد ما مرّ عليه ذلك الشيء لاسيما مع قوله ، عليه السلام : (بين المؤمن والكافر تزكُّ

(١) سعيد بن جبیر : الأسدي بالولاء ، الكوفي . كان أعلم التابعين ، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر رضي الله عنهم ، وكان ابن عباس يقول إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه : أنسألونني وفيكم ابن دهماء ؟ يعني سعيداً . ولما خرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على عبد الملك بن مروان كان سعيد معه إلى أن قتل عبد الرحمن ، فقبض عليه واليها خالد القسري وأرسله إلى الحجاج فقتله بواسط . قال عنه أحمد بن حنبل : قتل الحجاج سعيداً وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه . ت ٩٥هـ / ٨٩٢م (الأعلام ٣ / ١٤٥) .

(٢) مذهب أهل السنة أن الله عز وجل خالق الأفعال كلها ، فالنار لا تحرق إلا إذا وضع الله فيها قوة الإحراق ، بدليل سلبه قوة الإحراق من النار التي أعدت لحرق سيدنا إبراهيم الخليل ﴿ قُلْنَا : يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ورمي بها فلم تصب منه شيئاً ، وكذلك السكين لا تقطع إذا سحب الله منها قوة القطع ، وكذلك الخبز لا يشبع إذا سلب الله منه قوة الإشباع ، ومثله الماء لا يروي إذا سلب الله منه قوة الإرواء ، وهكذا . . .

الصلاة<sup>(١)</sup> لأنه لو صلى صلاة واحدة فقد حصل في العضو أثر صلاة، وإنما بخُشنا على مَنْ لم يصلَ لا واحدة، ولا أكثر. وعلى هذا التوجيه يكون الخوف على مَنْ ترك الصلاة أشد، لأنه يُخاف عليه التبديل عند الموت. وإن مات على الشهادة فيخاف عليه ألا يخرج مع هؤلاء المؤمنين لعدم العلامة عنده.

وهنا حديث يعارضنا، وهو قول جبريل للنبي ﷺ: (من مات من أمتك يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة. قال: وإن فعلَ كذا وكذا؟ قال: وإن فعلَ كذا وكذا<sup>(٢)</sup>). والانفصال عنه أن نقول: أشد الخوف على تارك الصلاة عند الموت؛ فإن مات مُقِرّاً بها، مُخْلِصاً بها، لا يُخْرَج مع هؤلاء أصحاب العلامة، وإنما يُخْرَج مع أصحاب القبضة التي يَقْبِضُ الله - عز وجل - كما جاء في الحديث (أن الله - عز وجل - بعد شفاعة النبي ﷺ، والأولياء والصالحين في العصاة الذين يكونون في جهنم، فيُخرجونهم منها، ولم يبق إذ ذاك في النار إلا مَنْ حَبَسَهُ القرآن، فيقول الله، عز وجل: قد شفعت الرسل، وشفعت الأنبياء، وشفعت الملائكة، وشفعت العلماء، وبقيت شفاعة أرحم الراحمين. فيقبض في النار قبضة فيُخرج في تلك القبضة كلٌّ من حَبَسَهُ القرآن<sup>(٣)</sup>، فيكون هؤلاء في جملتهم) وسيأتي الكلام على جملتهم في موضعه من داخل الكتاب، إن شاء الله.

وهنا بحث في قوله عليه السلام (حرّم): هل هذا إخبار عن منع مولانا - جلّ جلاله - الحرق أن يصل إلى تلك الأعضاء بالقُدرة؟ أو أن النار يُخاطبها الحق، سبحانه، فالذي أذن لها أن تحرقه تحرقه، وما حرّمه عليها لا تعتدي عليه؟ وهل هذا الخطاب لها - وهي من جملة الجواهر التي لا فهم لها ولا عقل - فتفهم عن الله، كيف شاء؟ أو أنها عند الخطاب يوضع فيها إدراك بما تفهم عن الله، وأنها تخاطب بالمقابلة، والقُدرة هي المتصرّفة؟ أو أنها تفهم وتَعْقِل، وأن الحرق منها، لكن بقُدرة الله تعالى، فتكون مثل بني آدم، أفعالهم كَسَبَ لهم، وهي في الحقيقة خُلِقَ لربهم، وهم عليها مُتَابِعُونَ ومُعَاقِبُونَ؟

احتمل كل الوجه؛ لكن الأظهر أن الحرق منها، بدليل ما جاء: أن النار اشتكت إلى ربّها، فقالت: أَكَلَ بعضي بعضاً. فأذن لها بنَفْسَيْنِ في كل عام، نَفْسٍ في الشتاء، ونَفْسٍ في الصيف<sup>(٤)</sup>. وما جاء أنها تخاطب سيّدنا محمداً ﷺ، في المحشر. والأحاديث في كلامها كثيرة. وما جاء أنها تَلْقُطُ الناسَ في المحشر، وتعرف أهلها بما جَعَلَ الله من العلامة فيهم.

(١) أصل الحديث: بين الرجل والشرك ترك الصلاة. أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) مروى بالمعنى. أخرجه البخاري عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٣) حبسه القرآن: أي من وجب عليه الخلود في النار.

(٤) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب صفة النار عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الوجه الثلاثون: فيه دليل على فضل العبادة، إذ مع استيجاب العقاب لا تُعَذَّب تلك المواضع. وهنا إشارة صوفية: لَمَّا عَلِمَ أهل الصَّوْفَةِ بأن مواضع العبادات لها حُرْمَةٌ - بمقتضى هذا الحديث - بقوله، ﷺ (لا يجتمع في جوف امرئ غبارٌ في سبيل الله، ودخانُ جهنم، حتى يعود اللَّبَنُ في الضَّرْعِ)<sup>(١)</sup>. وما جاء في الآثار من مثل هذه المعاني الجليلة، جعلوا قلوبهم وجميع أبدانهم كلها صِرْفاً للعبادة، فاستوجبوا بذلك بحُسن الوعد الجميل المقام الرفيع في الدارين ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

الوجه الحادي والثلاثون: قوله عليه السلام (فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ، فَكُلَّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلَّا أَثَرَ السَّجُودِ) هنا بحث، وهو: لِمَ كَثُرَ الْقَوْلُ إن ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود؟ وهو، عليه السلام، قد أخبر أولاً أن مواضع السجود قد حرَّمها الله، عزَّ وجلَّ، على النار، فيكون تكراراً لغير فائدة، وحاشى سيدنا محمداً، ﷺ، أن يقول شيئاً لغير فائدة.

فالجواب أن نقول: ما كَثُرَ عليه السلام ذِكْرُ النَّارِ أنها لا تأكل مواضع السجود من ابن آدم بعد ذكر خروجهم إلا لزيادة فائدة ثانية، وهي أن النار ليست مثلنا. حُرِّمَتِ الْأَشْيَاءُ عَلَيْنَا فِيمَا الْمُجْتَنَبُ لما حُرِّمَ عليه، ومنا الواقع فيه، وأن النار طائفةٌ جميعها، لا تتعدى على ما حُرِّمَ عليها، حتى يُخْرِجُوا منها، وهي لم تتعدَّ فيهم ما أُمِرَتْ به.

وفيه معنى زائد على ذلك، وهو: أن النار أكبرُ جرماً منا وأشدُّ، وهي لا تَعْصِي، ونحن على حقارتنا وضعفنا نَعْصِي. وفيه معنى شديدٌ من التوبيخ للمخالفين لأمر الله - عزَّ وجلَّ - كما قال جلَّ جلاله في كتابه ﴿عَلَيْهَا مَلَكُوتُكَ غَلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾<sup>(٣)</sup> ففي قوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ﴾ مع ما فيه من الإرهاب، معنى مثل هذا من التوبيخ، لأنهم مع غلظتهم وشدتهم لا يعصون الله، وأنتم مع ضعفكم وقذارتكم تَعْصُونَ مَلِكَكُمْ، فيجتمع فيه الترهيب والتوبيخ.

وقوله: (فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ قَدْ امْتَحَشُوا) أي ذهب ما لهم من اللحم. ويا ليتهم عُذِمُوا، لأنهم لو عُذِمُوا لكانوا استراحوا. وقوله (فَيُصَبِّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ فَيَنْبِتُونَ) كما تنبت الحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ (الحَبَّةُ هي كل بذرة عدا المطعوم، فإن كل ما هو مطعوم قيل له (حَبَّةٌ) بفتح الحاء، وكل ما ليس بمطعوم مثل العشب في البرية وما أشبهه قيل له (حَبَّةٌ) بكسر الحاء لغة.

(١) أخرجه النسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة المطففين، من الآية ٢٦.

(٣) سورة التحريم، من الآية ٦.

وفي هذا من الفائدة الإخبار بالحكمة، وهي: أن ما ينبت من اللحم بماء الحياة لا يَفْنَى. وفيه الإخبار بسرعة ما يَحيا من الأشياء عند وضع ماء الحياة عليه بقدرة الله تعالى، كما أخبر عن السامري<sup>(١)</sup> حين أَبْصَرَ جبريلَ، عليه السلام، حين أتى إلى موسى، عليه السلام، على فَرَس الحياة، فَرَأَاهَا لا تَضَع حافِزَهَا على شيء إلا اخْضَرَّ في الوقت، فأخذ من أَثَرِهَا، فجاء من قصته ما أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه لَمَّا وَضَعَهَا في الحُلِيِّ، وقال له: كُنْ عِجْلاً، عاد في الحين عِجْلاً له خُور، كما أخبر هنا في هذه الدار التي خُلِقَتْ للفناء. فكيف في تلك الدار التي هي مثل ذلك الماء للحياة والبقاء؟ وهذا من أقوى الأدلة على قدرة الله سبحانه وتعالى.

الوجه الثاني والثلاثون: فيه دليل على عِظَم ما أودَعَ الله - عَزَّ وَجَلَّ - في هذا السيد ﷺ، من المعرفة بأمور الدنيا والآخرة. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السلام، شَبَّه سرعة نبات الحَبَّة في حَمِيل السَّيْلِ، إذ مع السَّيْلِ تكون أسرع في النبات في الأرض من غيرها، لأنه يجتمع فيه التراب الرِّخْوُ الذي يجذبه السيل، وكثرة نَدَاوَتِهِ، فلولا معرفته عليه السلام بأمور الدارين لما كان من كلامه هذا التشبيه العجيب.

الوجه الثالث والثلاثون: فيه دليل على استصحاب الحكمة والقدرة معاً في تلك الدار، كما هما في هذه الدار. يؤخذ ذلك من أنه لم ينبت لهم لحم إلا حَتَّى<sup>(٢)</sup> صُبَّ عليهم ماء الحياة. والقدرة صالحة على أن تنبت لهم اللحم دون سبب، فهذا أثر الحكمة. وكونهم في النار تَأْكُل لحومهم وَتَمَحَّشُهُمْ، ولا تَأْكُل أثر السجود، أثر للقدرة. فسبحان مَنْ أَقَام ما في الدارين بِقُدْرَتِهِ، وَصَرَّف ما فيهما من الأشياء بحكمته.

وقوله (ثم يَفْرِغُ الله سبحانه من القضاء بين العباد) يعني بين هؤلاء المذكورين وغيرهم، إلا هذا الشخص المذكور بعد، فيكون الحُكْم فيه كما أخبر، ﷺ، وأتى بـ(ثم) التي تقتضي المهلة، لأن هؤلاء الذين يُخْرِجُونَ من النار - كما أخبر عليه السلام آنفاً - لم يُخْرِجُوا من النار حتى مكثوا فيها ما شاء الله بعد يوم الحساب الذي حَكَم فيه بين العباد، وهذا أيضاً من تمام الحُكْم للوَعْد الجميل في هذه الدار: من مات على الإسلام فلا بُدَّ له من دخول الجنة، لأن حساب يوم القيامة سريع، وهذا فيه بَطَاء، من أجل توفية المقدور على هؤلاء. فلما كان أوله مرتبطاً بآخره اقتضى طولاً، فأتى عليه السلام بـ(ثم) التي تدل على ذلك.

(١) السامري: رجل من بني إسرائيل، قصَّ الله عَزَّ وَجَلَّ علينا قصته في سورة طه، من الآية ٨٣ إلى الآية ٩٨. واسم السامري موسى بن ظفر، صنع من حلي بني إسرائيل العجل الذي عبدوه في غياب موسى عليه السلام، وابتلاه الله بترك مخالطة الناس، وكان إذا مسّه أحد أصيب بالحمى.

(٢) كذا بإقحام «إلا».



الوجه الرابع والثلاثون: قوله عليه السلام: (ويبقى رجل بين الجنة والنار) المعنى أنه ليس هو في أحدهما. وفيه دليل لأهل السنة الذين يقولون، وهو الحق: إن الجنة والنار مخلوقتان، موجودتان، جواهر. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (بين الجنة والنار).

الوجه الخامس والثلاثون: قوله عليه السلام (وهو آخر أهل النار دخولا الجنة) فلا تكون المسافة إلا في المحسوسات، ولا الدخول إلا في محسوس أيضاً. وفيه دليل على أن بين الدارين في الآخرة مسافة. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام في حديث غيره (إن لها أربع جدارات، غلظ كل جدار أربعون سنة)<sup>(١)</sup>.

الوجه السادس والثلاثون: قوله عليه السلام: (يقول: يا رب اصرف وجهي عن النار، فقد قشبتني ريحها) أي: تأذيتُ بريحها. والقشِب: التَّن. يقال ما أقشَبَ بيْتهم! أي: ما أنتَه وأقذَرَه. وفيه دليل على أن دار الذنوب والمعاصي تُتَن، وأن الشخص يتألم به التألم الشديد. وفي الحديث: أن رجلاً يُرمى في النار، وله ريح منتنة، فيتألم لها أهل النار، فيقولون: يا فلان، ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية<sup>(٢)</sup>. وقيل فيه وجوه غير هذا، وهذا أنسبها، من أجل أن الجنة ريحها طيب، وهو من أكبر نعيمها، فكذلك النار ريحها نتن، وهو من أكبر عذابها.

وهنا بحث: كيف يُتَنَّجَس بالرائحة؟ وقد اختلف العلماء في الرائحة النجسة على المَحَل: هل تسلب الطهارة إذا كانت لا حالة؟ قولان.

الوجه السابع والثلاثون: قوله عليه السلام: (وأحرقني ذكاؤها) فيه دليل على عظم حر النار، وعظم ننتها، إذ إنها بعد أربع جدارات يقشِبُ ريحها، ويحرقه ذكاؤها، فكيف حال من هو فيها؟ وهُنا بحث، وهو: أنه يُعارضنا حديث هناد الذي قال، رحمه الله، فيه: (هو آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً)<sup>(٣)</sup> وقد قال عليه السلام، عن هذا المذكور مثل ما قال عن ذلك. فنقول، والله الموفق: إن الجمع بين الحديثين أن هذا آخر أهل النار الخارجين عنها، لأن

(١) رواه الترمذي والحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ (لِسُرَادِقِ النار أربعة جُدُر، كِثْفُ كل جدار مسيرة أربعين سنة).

(٢) أخرجه الإمام أحمد والشيخان عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد والرقاق، ومسلم عن عبد الله بن مسعود بدون تسمية. وجاءت تسميته بـ (جهينة) في كتاب (أفراد مالك) للدارقطني و(غرائب مالك) للخطيب البغدادي. وقال الدارقطني: إنه حديث باطل. ونقل الحافظ في الفتح عن السهيلي أنه جاءت تسميته بـ (هناد) ولم نجد لهذه التسمية رواية فيما توفر بين أيدينا من مراجع.

التقسيم يُعطي أنهم على ضربين: داخلٌ فيها، وخارجٌ عنها - كما أخبر عليه السلام - لأنه أخبر عن هذا أنه من أهل النار، لأنه أقربُ إليها من الجنة. والعرب تسمي الشيءَ بما يَقْرُب منه. ولولا قُرْبُهُ منها لما أحرقه ذكاؤها. وهَنَادٌ داخلٌ فيها، فهَنَادٌ آخر من يَخْرُج منها، وآخر من يَدْخُل الجنة من الخارجين منها، والذي هو مذكور في هذا الحديث هو آخر من يَدْخُل الجنة من أهل النار الذين هم خارجون عنها.

الوجه الثامن والثلاثون: فيه دليل على قوة الرجاء في إجابة الدعاء، وإن لم يكن الداعي أهلاً للإجابة. يؤخذ ذلك من أن هذا السائل قد صَحَّ أنه من أهل النار، ومن هو من أهل النار فهو من المُبْعَدِينَ، مقطوع به، ثم يتفضل - عز وجل - عليه، ويُنبِله رحمته، فكيف مَن هو في حال الاحتمال؟ لأن الناس كلهم في هذه الدار محتملون للسعادة وغيرها، فهو أقوى رجاء في رحمة أرحم الراحمين.

الوجه التاسع والثلاثون: فيه دليل آخر في قوة الرجاء في قضاء حاجة من لا يعرف من الأدعية شيئاً إذا ذكرها لمولاه. يؤخذ ذلك من أن هذا لم يدعُ بشيء من الأدعية، وإنما طلب حاجته، وشكا ضُرَّهُ، بأن قال: اصبرِ وجهي عن النار. وذكر ما هو فيه، فأجيب في مسألته وكُشِفَ ضُرُّه.

وقد دخلت مرة على بعض أهل الخير - رحمه الله - وهو ينادي يقول (ارحمني والسلام) وهو مستغرق في حاله، فقلت: ما هذا السؤال؟ فقال لي: دعني، فأني تفكرت في الدنيا وما فيها من البلاء والهموم، وفي الآخرة وما فيها من المِحن والأهوال، فلم أدِر بماذا أدعو، ولا كم ذا أعددت؟ فقلت: (ارحمني والسلام). فوجدتُ حلاوةً لكلامه في الوقت، وإلى هلمَّ جرّاً كلما ذكرته وجدتُ تلك الحلاوة، فعلمتُ أن الله - سبحانه وتعالى - استجاب له بفضلِهِ لِمَا رزقه في الوقت من الصدق مع مولاه. مَنَّ الله علينا بذلك بمَنِّهِ.

ويُقَوِّي هذا الرجاء الذي أشرنا إليه قوله، جلَّ جلاله: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾<sup>(١)</sup>، وقوله: (فيقول: فهل عسيت إن فُعلَ ذلك بك أن تسأل غير ذلك) معناه: فهل تطلب زيادة إن فُعلَ ذلك بك؟ كما قال جلَّ جلاله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كَوَّلْتُمْ﴾<sup>(٢)</sup> قيل: معناه تريدون. وبدل (تريدون) هنا قوله (أن تسأل غير ذلك). ومعناه: فيقول الحق، سبحانه. وما سكت عن ذكره هنا إلا لأن خطاب العبد كان له أولاً، فهو

(١) سورة الزمر، من الآية ٥٣.

(٢) سورة محمد، من الآية ٢٢.

سبحانه المجابُ له . ولو كان غيره هو الذي جاوبه لَدَكَرَهُ ، لأن عادة التخاطب ألا يجاب إلا الذي خوطب ؛ فإن كان خلاف ذلك ذَكَرَهُ لخروجه من العادة المعلومة .

الوجه الأربعون : قوله (فيقول : لا ، وعِزَّتِكَ) هنا إشارة صوفية ، وهي : أن فرحه أوجب مبادَرَتَه باليمين . فعلى مذهب الصوفية يكون فرحُه بالمخاطبة أكبر من قضاء الحاجة ، لأنهم يقولون : مَنْ لم يَرَ النعمة إلا في قضاء الحاجة فذلك محجوب ، وإنما النعمة في التفات الموالي وجوابهم . وأهل الحجاب يقولون : هنا فرحُه بحاجته أوجبَ له مبادَرَتَه باليمين .

الوجه الواحد والأربعون : قوله (فيعطي الله - عز وجل - ما شاء من عهد وميثاق) هنا دليل على أن العهد آكدُ في الموائيق من الأيمان ، لأن المولى - سبحانه - لم يقنعه منه ما أقسم به ، حتى أخذ عليه العهد والميثاق . والعلة في ذلك قد ذكرها العلماء ، وهي : أن الأيمان جُعِلَ فيها المخرج ، وهي : الكفارة بعد الحنث أو قبله<sup>(١)</sup> . والعهد لم يُجعل له مَخْرَجٌ ، بل زيد فيه تأكيد لقوله عز وجل ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله : (فإذا أقبلَ بوجهه على الجنة) . (على) هنا بمعنى (إلى) فإذا أقبلَ أي : قَرَّبَ بوجهه إلى الجنة . وقوله : (رأى بهجتها) أي : حُسْنَهَا ، كما أن ذُكَاءَ النَّارِ وَقَشَبَهَا يُنَالُ من خارجها ، فكذلك الجنة يُرى حُسْنُهَا وَيُنَالُ خَيْرُهَا من خارجها ، لأن كلَّ إناء بالذي فيه يرشَحُ .

الوجه الثاني والأربعون : قوله (سكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم قال : يا رب قدَّمْني إلى باب الجنة . فيقول الله : أليس قد أعطيتَ العهودَ والموائيقَ ألا تسأل غير الذي كنتَ سألتَ؟) هنا دليل على طمع ابن آدم . يؤخذ ذلك من كونه لما عوفي من ذلك البلاء ، ورأى الخير ، لم يقدر أن يصبر عنه لِمَا طُبِعَ عليه ، فنسيَ العهود بغلبة الطمع ، وسأل القربَ إلى الخير ، وهو باب الجنة . ولعلَّ وعسى .

الوجه الثالث والأربعون : فيه دليل على أن الضعيف لا يسأل إلا على قَدَرِ ضَعْفِهِ . يؤخذ ذلك من سؤاله أولاً بأن يُعافَى من قُربِهِ من النار ، ولم يتجاسر أن يطلب ما طلب ثانية . فلو نظر لمن يَطْلُبُ منه لَطَلَبَ أولاً الذي طلب آخرًا .

الوجه الرابع والأربعون : فيه دليل على قناعة النفس ، عند اليأس ، باليسير . يؤخذ ذلك من أنه لم يطمع في الجنة لعمله المقارب ، وطمع بأن يعافى من النار ليس إلا .

وهنا إشارة صوفية ، لأنهم يقولون : إقطع النفسَ عن المباح ما كان ، ضرورياً كان أو غير

(١) سورة الإسراء ، من الآية ٣٤ .

ضروري، يقع الصلح معها على السير من القدر الضروري، وتقنع به وتفرخ. مثال ذلك: أن تمنعها الأكل مرة واحدة يقع الصلح معها بكسرات تقيم بها ظهرها، كما قال ﷺ: (حَسْبُ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يَقْمَنُ صُلْبَهُ)<sup>(١)</sup> فإن بقيت على طمعها فلا تقنعها الدنيا بأسرها كما قال ﷺ: (لو أن لابن آدم واديين من ذهبٍ لابتغى لهما ثالثاً)<sup>(٢)</sup>. وقد قال أهل التوفيق: من لم يرضَ باليسير فهو أسير.

الوجه الخامس والأربعون: فيه دليل على لطف الله، عز وجل، ببني آدم، ومَعِزَّتِهِ لَهُمْ، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ ضَعْفِهِمْ. يؤخذ ذلك من كونه - جلّ جلاله - قَبْلَ مِنْهُ أَوَّلَ الْعُهُودِ وَالْمَوَاتِقِ. وهو - عز وجل - يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَصْبِرُ عَمَّا يَرَى مِنَ الْخَيْرِ، وَلَا يَدُلُّهُ أَنْ يَنْكُثَ. ومثل ذلك قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾<sup>(٣)</sup> لأن هذا معنى لطيف لما أتى بقوله ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ إثر الإخبار بقبول التوبة.

وقد جاء في الكتاب في غير ما موضع أنه - عز وجل - عالم بما نفع، وهذا من شرط الإيمان بأنه عز وجل عالم بما نحن فاعلون، لأن من التائبين من يُوقِي، ومنهم من يَنْكُثُ، وهو - سبحانه - عالمٌ بمن يُوفي وبمن يَنْكُثُ، لكن قَبْلَهَا مِنَ الْكُلِّ عَلَى حَدِّ وَاحِدٍ، وَيُثَبِّهِمْ عَلَيْهَا، وَيَمْدَحُهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

وكفى في ذلك ما جاء عن بعض بني إسرائيل (أنه كان يُوقِعُ الذَّنْبَ ثم يتوب، ثم يوقع الذَّنْبَ ثم يتوب، حتى قالت الملائكة: ربَّنَا، أَلَا تَرَى هَذَا الْعَبْدَ، كَيْفَ يَهْزَأُ، يُوقِعُ الذَّنْبَ، ثم يتوب؟ فقال، جلّ جلاله: ملائكتي، أَلَا تَرَوْنَ عَبْدِي، يَعْلَمُ أَنْ لَهُ رَبًّا، يَأْخُذُ بِالذَّنْبِ وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ؟ وَعِزَّتِي، لَا أَزَالُ أَقْبِلُ تَوْبَتَهُ مَا تَابَ إِلَيَّ)<sup>(٤)</sup>. ولولا فضله - عز وجل - لكان يفضح الناكث ويقول له: لا أقبل توبتك، فإنك تَنْكُثُ. وقد قال ﷺ: (الْمُؤْمِنُ التَّوَابُ يَبْقَى لَهُ فَضْلَةٌ مِنْ عَمَلِهِ يَدْخُلُ بِهَا الْجَنَّةَ).

وقوله (فيقول: يا رب، لا أكون أشقى خَلْقِكَ) هنا بحث، وهو: كيف يكون أشقى خلقه،

(١) جزء من حديث مروي بالمعنى، أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن المقداد بن معديكرب رضي الله عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد والشيخان والترمذي عن أنس رضي الله عنه، وأخرجه الإمام أحمد والشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما، والبخاري عن ابن الزبير رضي الله عنهما، وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، والإمام أحمد عن أبي واقد رضي الله عنه.

(٣) سورة الشورى، الآية ٢٥.

(٤) أورده البخاري في كتاب التوحيد، ومسلم في باب سعة رحمة الله وأنها تغلب غضبه عن أبي هريرة رضي الله عنه واللفظ فيهما مخالف لما أورده الشيخ ابن أبي جمرة رضي الله عنه.

وهو - عز وجل - قد عافاه من النار والقرب منها، وقد قال ﷺ: (لو لم يكن إلا النجاة من النار لكان فوزاً عظيماً)، ولم يجيء أن أحداً رأى الجنة ثم حُرِمَها لأن الكفار من مَحْشَرهم يَمْرُون إلى النار؟ فعلى هذا التأويل يكون أشقى الخلق كَوْنَه رأى الجنة ولم يدخلها.

واحتمل وجهاً آخر وهو: أنه مَنْ مَنَّ الله عليه بأن عافاه من النار أدخله الجنة، لقوله ﷺ: (والذي نَفْسِي بيده، ليس بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنة أو النار). فإذا كان هذا بقرب الباب فيكون أشقى خلقه المرحومين، فيكون اللفظ عامّاً ومعناه الخصوص، وهذا في كلام العرب كثير، لأن مَنْ عوفي من النار ومجاورتها فقد رُحِم، ودخل في جملة الفائزين، كما قال ﷺ: (لو لم يكن إلا النجاة من النار لكان فوزاً عظيماً).

الوجه السادس والأربعون: فيه دليل على كثرة تحيّل بني آدم فيما يُصلِحهم. يؤخذ ذلك من أنه طَلَب أولاً أن يُبْعَد من النار لعلّه يُحْصَل نسبة لطيفة في أهل الخير، وهذا من تدقيق الحيل على العليم الخبير، فكيف مع غيره؟ ولذلك قال آخر المسألة: (فيضحك الله منه).

الوجه السابع والأربعون: فيه دليل على أن ما هنا للشخص من العقل والفكرة والتحيّل باقٍ هناك، فإنه يُبْعَث على ما كان عليه. يؤخذ ذلك من هذه الحيلة اللطيفة، وما جاء من تحاجّ الروح والنفس وغير ذلك من الأحاديث مما يشبه ذلك.

الوجه الثامن والأربعون: قوله (فيقول ما عَسَيْتَ) الكلام عليه كالذي قبله. وقوله (إن أُعْطِيتَ ذلك ألا تسأل غيره) حتى يقدم إلى باب الجنة. الكلام عليه كالكلام قبل. وقوله (فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها) أي: حُسْنُها. وقوله (وما فيها من النضرة والسرور) أي: حسن المنظر، وما تُسَرُّ النفس به إذا رأت من أنواع النعيم، ومن حُسْن السُرور كما أخبر - عز وجل - به في الكتاب العزيز في قوله ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾<sup>(١)</sup> أو تكون (الزهرة) كناية عما فيها من الزهر والفواكه، و(النضرة) كناية عن حُسْن نظامها. ويجمع كل هذا وأكثر منه قوله تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقوله (فيسكت ما شاء الله أن يسكت فيقول: يا رب أدخلني الجنة) جاء البحث المتقدم في التحيّل، وما طبع عليه من كثرة الطلب والتحصيل فيما ليس مثل ذلك، فكيف بما لا تطيق الألسن أن تصِفَه؟ فكَذلك النفوس لا تطيق الصَّبْرَ عنه. وهنا بقيت الصفة التي طُبِعَ عليها وهي أنه لا ينظر إلا

(١) سورة الواقعة، من الآية ١٥.

(٢) سورة السجدة، من الآية ١٧.

إلى تحصيل الأقرب فالأقرب، لَمَّا طَلَبَ أَوَّلًا أَنْ يُعَدَّ مِنَ النَّارِ فَأُسْعِفَ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ قُرَّبَ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ الْقُرْبِ إِلَّا الدُّخُولُ، فَطَلَبَهُ. فَهُوَ عَلَى حَالِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ لَمْ يَتَغَيَّرَ.

وقوله (فيقول الله: وَيَحْكُ يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَغْدَرَكَا) هذا زجر أشدَّ من الأول، لتكرار النكث ثلاث مرات، وبقي هو على كلامه الأول، لم يزد عليه وهو قوله (لا تجعلني أشقى خلقك).

وفيه من الفقه أنه إذا فُتِحَ عَلَى شَخْصٍ مِنْ وَجْهِ مَا، يَلْتَزِمُهُ، لِأَنَّهُ لَمَّا قَبِلَ هَذَا مِنْهُ فِي الْأَوَّلَى وَمَا بَعْدَهَا وَأُسْعِفَ مِنْ أَجْلِهِ فِي طَلَبِهِ اسْتَصَحَبَ ذَلِكَ الْحَالِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: (مَنْ رُزِقَ مِنْ بَابٍ فَلْيَلْزِمَهُ)<sup>(١)</sup>. فامتثل هذا الأمر هنا، ولو التزم الأمر في الدنيا ما احتاج إلى هذا.

وكونه - عز وجل - زاد هنا قوله: (مَا أَغْدَرَكَا) يؤخذ من ذلك الْآ يُنْسَبُ الشَّيْءُ لِلشَّخْصِ وَيُعْرَفُ بِهِ حَتَّى يَتَكَرَّرَ مِنْهُ، وَأَقْلَ عِدَدِ التَّكَرُّارِ الَّذِي يَنْسَبُ بِهِ إِلَيْهِ ثَلَاثٌ، لِأَنَّ الْوَاحِدَةَ وَالْاِثْنَيْنِ قَدْ تَكُونَانِ غَلْطًا أَوْ نِسْيَانًا، أَوْ إِحْدَاهُمَا غَلْطًا وَالْأُخْرَى نِسْيَانًا، وَلَا تَكُونُ الثَّلَاثَةُ إِلَّا تَعَمُّدًا، فَيَتَحَقَّقُ أَنَّ مَا وَقَعَ قَبْلَهَا كَانَ مَقْصُودًا مِنْ خَيْرٍ أَوْ غَيْرِهِ. يُؤْخَذُ ذَلِكَ مِنْ أَنَّ مَوْلَانَا - جَلَّ جَلَالُهُ - لَمْ يَقُلْ لَهُ: مَا أَغْدَرَكَا إِلَّا فِي الثَّلَاثَةِ.

الوجه التاسع والأربعون: هنا بحث، وهو: لم سَمِيَ هُنَا (ابْنَ آدَمَ)؟ فِيهِ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ، لِأَنَّ عَدَمَ الْوَفَاءِ هُوَ الْأَصْلُ وَالْغَالِبُ فِينَا إِلَّا مِنْ عَصَمِ اللَّهِ، وَالتَّزَكِّيَّةُ هِيَ مِنْ طَرِيقِ الْفَضْلِ ﴿وَكَلَّوْا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾<sup>(٢)</sup> وَالنَّفْسُ أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، لَكِنَّهُ تَوْبِيخٌ بِحَسَنِ لَطْفِهِ، لِأَنَّ تَوْبِيخَ الْكَرِيمِ دَالٌّ عَلَى كَثْرَةِ إِعْطَائِهِ، وَتَوْبِيخَ اللَّئِيمِ دَالٌّ عَلَى عِظَمِ مَنَعِهِ. وَلِذَلِكَ جَاءَ أَنَّ مَوْلَانَا - سُبْحَانَهُ - يَحَاسِبُ الْمُؤْمِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سِرًّا، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجِمَانٌ، يَقُولُ لَهُ: يَا عَبْدِي فَعَلْتَ كَذَا. فَيُعْتَرِفُ الْعَبْدُ لِمَوْلَاهُ بِذَلِكَ، حَتَّى يَظُنَّ أَنَّهُ هَالِكٌ لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ. فَيَقُولُ اللَّهُ، تَعَالَى: أَنَا سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ<sup>(٣)</sup>.

وفائدة ذلك من الحكمة أنه لو قال، سُبْحَانَهُ: (اذهبوا بعبدي إلى الجنة برحمتي)، مَا قَنِعَ بِذَلِكَ. كَمَا جَاءَ عَنْ بَعْضِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَّهُ كَانَ فِي جَزِيرَةٍ مَنْقُطَعَةٍ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ، لَيْسَ مَعَهُ فِيهَا أَحَدٌ، مُشْتَغِلٌ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، لَا يَلْفُتُرُ، وَأَنْهَيْتُ اللَّهَ لَهُ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ شَجَرَةً رَمَانَ، تَنْبَتُ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ رَمَانَةٌ يَأْكُلُهَا، وَأَجْرَى اللَّهُ لَهُ عَيْنًا مِنْ مَاءٍ فَبَقِيَ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ خَمْسِمِائَةَ سَنَةً، ثُمَّ سَأَلَ رَبَّهُ - عَزَّ

(١) رواه البيهقي في الشعب عن أنس رضي الله عنه.

(٢) سورة النور، من الآية ٢١.

(٣) جزء من حديث مروي بالمعنى، أخرجه الإمام أحمد والشيخان والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما، أوله (إن الله تعالى يدني المؤمن فيضع عليه كنفه وستره من الناس...).

وجلّ - أن يقبضه ساجداً، فأتحفه الله بذلك. ثم بعد هذا أخبر عنه - عليه السلام - أن يؤتى يوم القيامة به، فيقول الله، عز وجل: اذهبوا بعدي إلى الجنة برحمتي. فيقول: يا رب، بل بعلمي. فيأمر الله - عز وجل - الملائكة أن يحاسبوه على شكر نعمة حاسة البصر، فيحاسبونه، فما تفي عبادته الخمسمائة سنة بذلك. ويبقى ما عداه لم يوف منه بشيء. فيقول: يا رب أدخلني الجنة برحمتك. فيقول - عز وجل - له: نِعَمَ الْعَبْدُ كُنْتَ، اذهبوا بعدي إلى الجنة برحمتي<sup>(١)</sup>.

فإذا قرره على ذنوبه اجتمع له الفرح بمغفرة الذنوب وبستره الذي لم يُفَضَّحْ، وبما وَهَبَ له من النعيم، فكثرت النعمة عنده، فرضي عن المنعم، وذلك من جملة الإنعام من المنعم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾<sup>(٢)</sup>. وهنا كذلك لما أراد الله - عز وجل - بفضله أن ينعمه بدخول دار الكرامة أكثر له في التوبيخ، وقرره على غدره أصلاً وفرعاً ومستصحباً في الدارين.

الوجه الخمسون: فيه دليل على الطمع في فضله - جلّ جلاله - لأنه ذكره - سبحانه - أيضاً قَدَرُ نعمته عليه بالعفو هنا، وتعمّده بفضله، وبصفحه عنه عما جرى. فكذلك استصحب لك أنت ذلك الفضل بمجرد الفضل، ليصح أن النعمة إنما هي بمجرّد الفضل من الرب ليس إلا، إما بهداية، وإما بعفو وتجاوز، أو بمجموعهما، لمن شاء، كيف شاء، لا يُسأل عما يفعل.

واستصحاب العبد صفة الرجاء - وإن رأى من المولى ما عسى أن يرى - هي صفة الإيمان، لأنه - عز وجل - يقول ﴿لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾<sup>(٣)</sup> فتلك الصفة أيضاً - التي كانت هنا - من الرجاء في أصل أبيه، أُبقيت عليه، حتى كُمَلَتْ له بها السعادة، وهو دخول الجنة. مَنْ الله بها علينا بلا محنة، بفضله، فهو الولي الحميد.

الوجه الواحد والخمسون: هنا بحث، وهو: لِمَ قال في الآخرة (يقول الله) ولم يقل ذلك في المرّتين المتقدمتين؟ فالجواب: أنه لما كثر الترداد بطرق الاحتمال أتى بذكر (الله) تعالى، لزوال احتمال يقع وتحقيقاً لما قلناه وتأكيذاً.

وقوله (فيضحك الله) معنى الضحك من المولى - سبحانه - ليس كمثّل الضحك منا، الذي هو

(١) جزء من حديث طويل أخرجه الحكيم الترمذي والحاكم. وتعقب البيهقي في الشعب والعقيلي في الضعفاء والحافظ في لسان الميزان، وقال: لم يصب هذا عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه. وسماء البيهقي (حديث العابد والرمانة) وأوله: (خرج من عندي خليلي جبريل عليه السلام انفاً فقال: يا محمد والذي بعثني بالحق إن الله لعبداً من عباده عبّد الله خمسمائة سنة إلخ...).

(٢) سورة الملك، من الآية ١٤.

(٣) سورة يوسف، من الآية ٨٧.

الاضطراب والخفة، وإنما هو إشارة إلى ما يصدر من الملوك عند الصَّحْك من كثرة الإحسان، وما يكون فيه أيضاً من الإشارة إلى التعجب، كما تقدم. تعالى الله أن تكون صفاته تشبه صفات المحذَّات، وإنما خوطبنا بما نفهم على عادتنا. وقوله (ثم يأذن في دخول الجنة) أي: يُنعم بذلك، ويُبيح له الدخول.

وقوله (فيقول: تَمَنَّ) قد جاء من طريق آخر أنه إذا دخل يرى الناس قد أخذوا منازلهم، فيقول - عز وجل - له: تَمَنَّ. فيتمنى، حتى تنقطع أمنيته. وناهيك من تمني طماع إذ رأى خيراً كثيراً، وهو يعلم أن القائل له (تَمَنَّ) غني كريم.

وقوله (حتى إذا انقطعت أمنيته) أي: لم يبقَ له شيء يطلبه إلا أعطيه، فلا تسأل عن قدره. وقوله (قال الله سبحانه: لك ذلك ومثله معه) أي: ضعفين مما سأل.

وقوله (عن أبي سعيد يقول: ذلك لك وعشرة أمثاله) هذه صفة كرم من ليس كمثله شيء، وتحقيق لقوله عز وجل ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾<sup>(١)</sup> فالأصل بفضله، والزيادة من فضله، لكن لما كان الأصل خالطه وصف ما من العبد، إمّا من عبادة، وإمّا من سؤال - وهو محل النقص - وكانت الزيادة لمجرد الفضل، لا مقابل لها من محل النقص - وهي العبودية - كانت أضعافاً مضاعفة من الأصل.

ولذلك كان من وصية بعض السادة الفقراء: لا تياسوا من مسألة الفضل، فإنه أنجح في المقصد، حتى إن بعض من كان يُحسِنُ الظَّنَّ بالفقراء سمعها فأخذها بصدق، وسأل بها في حاجة له، وزاد فيها (وزيادة من فضلك كما يليق بفضلك) فرأى فيها من العجائب العجب العجاب. ثم قيل له: هذه الزيادة ما سبقك بها أحد.

مَنَّ الله علينا بخَيْرِ الدارين، بلا محنة بفضله، كما يليق بفضله، والزيادة بفضله، كما يليق بفضله.

وفائدة هذا الحديث: الإيمانُ الجزمُ بما فيه من أمور الآخرة، وقوة الرجاء في فضل الله، وكثرة الخوف من مَكْرِ الله، وبذلُ الجهد هنا في أسباب السعادة، بينما المرء في زمن المُهلة ويجعل ما هو مذكور كأنه قد وقع.

وهذه إشارة صوفية، وهي عندهم أعلى الأحوال، لأنهم يقولون: اطو المسافة واترك الرعونة، وقد وصلت. وقد تَبَّه المولى - سبحانه - على ذلك في كتابه حيث قال ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن

(١) سورة النساء، من الآية ١٧٣.



مَتَّعْنَهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿١﴾ وما غرَّ أهل الدنيا إلا بُعْدُ الأمرِ عندهم، فبه طال الأمل، وقستِ القلوب، ورغبوا في العاجلة، وزهدوا في الآخرة.

جعلنا الله ممن قصّر أمله، وحسّن عمله، بمتّته وفضله .

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ٢٠٥-٢٠٧ .

## حديث جواز الدعاء في الصلاة

عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: عَلِّمْنِي دُعَاءً، أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي. قَالَ: قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز الدعاء في الصلاة، وفضل هذا الدعاء المذكور. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: طلب التعليم من الفاضل، وإن كان الطالب يعرف ذلك النوع. يؤخذ ذلك من قول أبي بكر، رضي الله عنه، (علِّمْنِي دُعَاءً)، وهو معلوم أنه يعرف من الأدعية ما لا يعرف غيره من وجهين: من أجل فصاحته وقوة إيمانه، ومن أجل كثرة ملازمته لرسول الله ﷺ، لكن رغب في زيادة بركة النبي، صلى الله عليه وسلم.

وهنا بحث، وهو: لِمَ قَالَ (في صَلَاتِي) ولم يقل (أدعوه) على الإطلاق؟ فالجواب: أنه إنما قال ذلك لأن الشارع، عليه السلام، حضَّ على الدعاء في الصلاة بقوله، عليه السلام: (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ اللَّهِ إِذَا كَانَ فِي الصَّلَاةِ، وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ فِي الصَّلَاةِ إِذَا كَانَ سَاجِدًا، فَأَكْثَرُوا فِيهِ الدُّعَاءَ، فَقَمِينٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ)<sup>(٢)</sup> أي: حقيق.

(١) هو عبد الله بن أبي قحافة، أبو بكر، الصديق: أول خليفة لرسول الله ﷺ، وصاحبه في الغار وفي الهجرة، وبنته عائشة زوجة النبي عليه السلام. لقَّب بالصديق لما قال لأبي جهل في الإسراء والمعراج: «لئن قالها لقد صدق»، وهو أمير الحج في حياة الرسول الكريم سنة تسع. وهو الذي استخلف عمر بن الخطاب بعده. وكان موقفه في حرب الردة وبُعَيْد وفاة الرسول عليه السلام لا نظير له. وقد كاد عمر بن الخطاب يفقد صوابه بوفاة النبي عليه السلام. ويقول علي بن أبي طالب: «لقد استخلفه الرسول وأنا صحيح غير مريض، ومقيم غير مسافر، ولو شاء لدعاني، وقد رضيته لديننا أفلا نرضاه لديننا؟» توفي عن ثلاث وستين سنة كعمر الرسول عليه السلام تماماً، وقد صلى إماماً على السيدة فاطمة بطلب زوجها سيدنا علي رضي الله عنهم أجمعين.

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه. واللفظ مختلف.

الوجه الثاني: يترتب على هذا من الفقه: أن ينظر المرء في عبادته إلى الأرفع، ويتسبب فيه بمقتضى الحكمة الشرعية، وإن كان الدعاء - كما تقدم في الحديث قبل - جائزاً أن يكون طلباً مجرداً، يُرجى فيه التُّجَح - كما أبدينا - لكن الأفضل أن يُستعمل من موجبات الرحمة من الألفاظ والأزمنة والأماكن وما أشبه ذلك أرفعها. قد دلت أصول الشريعة على ذلك كله، وكفى في ذلك إشارة قوله عز وجل ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَلِلَّهِ رِيكَ فَارْعَبْ﴾<sup>(١)</sup> فهذه كلها أسباب في رجاء قبول الدعاء، لأن التفرغ من الأسباب يحصل منه حضور القلب والإخلاص، والرغبة يحصل منها دوام التذلل. وتكرار الألفاظ المستعطفة، والانتصاب - وهو الصلاة - يستدعي جميع وجوه القرب، فإنها أعلاها. فإذا أمر بالأعلى، فغيره في الضمن.

الوجه الثالث: قوله عليه السلام (قال: قل: اللهم إني ظلمت نفسي) إلى آخر الحديث. هنا بحث، وهو: أي نسبة بين هذه الألفاظ وبين نسبة ما طلب الطالب؟ لأن المعروف من الأدعية الشرعية أنها ألفاظ، تقتضي بمتضمنها حرمة شيء من الأشياء وصفة من الصفات الجليلة، والأسماء الرفيعة كقوله جل جلاله ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾<sup>(٢)</sup> وكقوله، ﷺ (إِنَّ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ مَا دَعَا بِهِ أَحَدٌ إِلَّا أُجِيبَ دُعَاؤُهُ)<sup>(٣)</sup>، وكقوله ﷺ: (إِذْ سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ بِجَاهِي، فَإِنَّ جَاهِي عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)<sup>(٤)</sup>. والآثار في هذا المعنى كثيرة، والأدعية الماثورة عنه، ﷺ، كثيرة. فالجواب عن ذلك من وجوه:

(الأول): أن النبي ﷺ فهم من أبي بكر، رضي الله عنه، ما قصد بقوله (أدعو به في صلاتي) أنه أراد دعاء الإجابة فيه في معنى: المقطوع بها، ويحصل له به خير الدنيا والآخرة، بمقتضى الحكمة الشرعية، فأجابه ﷺ بهذه الإشارة العجيبة، كأنه عليه السلام يقول: ليس على الله حق واجب حتم، وإنما هي أسباب يُسعد بها من يشاء، ويحرم من يشاء، فمن أسعده فمن عنده وبفضله. فاطلب أعلى الأشياء، وهي المغفرة - كما تقدم البحث فيها في الأحاديث قبل من الأصول، وهو الفضل - ولا تعلق خاطرك بغير ذلك.

وهذا كما أخبر، ﷺ، عن نفسه المكرومة حيث قال عليه السلام (لن يُدخل أحداً عمله الجنة). قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضله رحمته)<sup>(٥)</sup>، وهو عليه السلام

(١) سورة الشرح، الآيتان ٧ و٨.

(٢) سورة الأعراف، من الآية ١٨٠.

(٣) أخرجه السيوطي في جمع الجوامع برقم ٦١٨٥.

(٤) لم نقف على مصدره.

(٥) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الذي جاء بأثر الحكمة، وقال عليه السلام: (خمسُ صلوات افترضهن الله على عباده، فمن جاء بهن، لم يتقص منهن شيئاً، استخفافاً بحقهن، فإن الله جاعل له يوم القيامة عهداً أن يُدخله الجنة)<sup>(١)</sup>. والجمع بين هذين الحديثين أن نقول: الوعدُ بالخلاص لمن جاء بالأعمال - كما مرّ - مقامُ العوام، وهو وعدٌ حق، يوفي لهم به ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup> وبقي الخلاص بمقتضى الأعمال هو مقام الخواص، مثل سيّدنا، ﷺ، الذي هو من خواص الخواص.

والتابعون له بإحسان إلى يوم الدين وأبو بكر، رضي الله عنه، من الخواص، وكيف لا وقد قال ﷺ: (ما فضلكم أبو بكر بكثرة صوم ولا بصلاة، ولكن بشيءٍ وقرّ في صدره)<sup>(٣)</sup>؟ والمطلب الذي طلبه من النبي ﷺ هو مقامُ العوام. فكأنه عليه السلام يقول له بالضمن: أنت من قوم ليس هذا مقامهم، بل نجيبك على ما يقتضيه مقامك، وهو مقام الخواص الذين يجمعون بين الشريعة والحقيقة. فالشريعة هي الأعمال والدعاء والمحافظة على ذلك، والحقيقة هي ألا يرى شيئاً من الخير في الدارين إلا بمجرد الفضل لا غير. ويترتب على هذا من الفقه: أن يُحمّل كلُّ إنسان على ما يقتضيه حاله، وإن لم يكن هو يطلب ذلك، وقد قال عليه السلام: (أنزلوا الناس منازلهم)<sup>(٤)</sup>. وهذا عام.

(وجه آخر) وهو: أنه عليه السلام جعله يطلب مقصده من عند مولاه، عز وجل، لأنه إذا كان من عنده، سبحانه، بلا واسطة من محل النقص - وهي العبودية - كان أكمل، ثم نجح له المسألة بذكر هذين الاسمين الجليلين، وهما (الغفور والرحيم) الذي<sup>(٥)</sup> مقتضى أحدهما أنه يُعطي إذا سُئِلَ - وقد سأله مما عنده، فكان أجدر في تحصيل ما طلب - والاسم الآخر يقتضي المغفرة، ومن غفر له فقد رُحِم، ومن رُحِم أيضاً فقد غُفِرَ له.

واحتمل (وجهاً آخر) وهو: أن الدعاء متوقف قبوله على المشيئة، لقوله عز وجل ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾<sup>(٦)</sup> فجعل عز وجل الإجابة مرجوة، غير مقطوع بها. وقال

(١) مروي بالمعنى. أخرجه الإمام مالك والإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) سورة التوبة، من الآية ١١١.

(٣) قال الحافظ العراقي: لم أجده مرفوعاً، وهو عند أبي يعلى والحكيم الترمذي عن عائشة رضي الله عنها. وقال في النوادر: إنه من قول بكر بن عبد الله المزني.

(٤) رواه مسلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها تعليقاً بلفظ (أمرنا أن ننزل الناس منازلهم) ووصله أبو نعيم في المستخرج وأبو داود وابن خزيمة والبخاري وأبو يعلى والبيهقي في الأدب والعسكري في الأمثال وغيرهم من حديث ميمون بن أبي شبيب رضي الله عنه.

(٥) يريد: اللذين.

(٦) سورة الأنعام، من الآية ٤١.

عَزَّ وَجَلَّ في المضطر: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾<sup>(١)</sup> فأوجب تعالى - بفضل - إجابة المضطر بالوعد الجميل ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup>. فَتَقَلَّ عليه السلام من صيغة الدعاء الذي صَاحِبُهُ بين الخوف والرجاء إلى حالة الاضطراب التي الإجابة فيها مضمونة.

وحقيقة الاضطراب تؤخذ من قوله (ظلمت نفسي ظلماً كثيراً) أي: ليس لي حيلة في رفعه. فهذه حالة الافتقار، لأن من لم يقدر أن يقوم بما يغفر ذنوبه فهو مضطر حقيقي، لأنه لو كان معه ذنب كبير، وكان معه شيء كثير مما يكفر به الذنوب، ما قال (اغفر لي مغفرة من عندك) أي: ليس لي موجب لها. فصَحَّ بمتضمن هذين اللفظين حقيقة الافتقار المحض، فَحَصَلَ له ما طَلَبَ. وفي النفس حاجات وفيكَ فُطَانَةٌ. فِدَاكُمَا أَبِي وَأُمِّي من معلّم ومتعلّم، ما أحسن آثارهما، وَأَنْوَرَ بواطنهما، وأَجَلَ أحوالهما.

أعاد الله علينا من بركاتهما بمنته.

الوجه الرابع: هنا بحث في قول هذا السيد رضي الله عنه (ظلمت نفسي ظلماً كثيراً) هل هو حقيقة أو مجاز؟ فأما أن يكون مجازاً فهذا مستحيل أن يقول النبي، ﷺ، شيئاً يوجب المغفرة، فيكون مجازاً، ولا أبو بكر أيضاً يخاطب المولى الجليل بالمجاز عند موطن الرغبة، فلم يبق إلا أن يكون حقيقة. وإذا كان حقيقة فما هو؟ لأن ما كان قبل الإسلام لا يؤاخذ به، وبعد الإسلام هو السيد القدوة في الخير. فما هذا الذنب؟

فالجواب: وهو ما تقدم في الحديث قبل عند قول الله تعالى يا ابن آدم ما أَغْدَرَكَ! فما كان من خير في الدنيا وفي الآخرة فهو من فضله، جَلَّ جلاله، إما بهداية لموجب ذلك من الأفعال التي نصبتها الحكمة الإلهية لذلك، أو بمجرد العفو والفضل، بلا موجب من عمل.

يؤيد ما قلناه: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ تَعَمَّرَ فَمِنَ اللَّهِ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾<sup>(٤)</sup> وقوله عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾<sup>(٥)</sup> فأخبر الصادق عليه السلام الصديق، رضي الله عنه، أن يُقَرَّ بالأصل، وهو الاعتراف بما طبعَت النفس عليه، وهو حقيقة الحق، ويطلب الخير التام - وهي المغفرة والرحمة - من عند الغفور الرحيم.

(١) سورة النمل، من الآية ٦٢.

(٢) سورة التوبة، من الآية ١١١.

(٣) سورة النحل، من الآية ٥٣.

(٤) سورة النور، من الآية ٢١.

(٥) سورة يوسف، من الآية ٥٣.

ولذلك يقول بعض من يُنسب إلى الخير: كلُّ شيءٍ يَكْبُرُ في هذه الدار، إمّا حسّاً وإمّا معنى،  
إلاّ النفس عند أهل التحقيق والمعرفة كلما زادت معرفتهم زادت النفس عندهم حقارةً وذِلَّةً. وهذا  
الحديث شاهد على ما قاله، لأنه إذا كان الذي تنهى في الصدق والتصديق، رضي الله عنه، رُدَّ إلى  
هذا الاعتراف العظيم - كما أبديناه - فهل بقي من النفس عند هذا السيّد شيء له قَدْر؟ معاذ الله .  
فمن أراد الخلاص والإخلاص فلْيَنسِجْ على منواله . ضَمَّنَا الله في سِلْكِهِم بِمَنِّهِ .  
وصلَّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

## حديث رفع الصوت بالذكر بعد الصلاة

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَفَعَ الصَّوْتِ بِالذِّكْرِ حِينَ يَنْصَرِفُ النَّاسُ مِنَ الْمَكْتُوبَةِ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن الناس كانوا على عهد رسول الله ﷺ إذا انصرفوا من المكتوبة<sup>(٢)</sup> يُسَمِعُ رَفَعَ صَوْتَهُم بِالذِّكْرِ. والكلام عليه من وجوه:

منها: تبين الكيفية فيه، وهل كان ذلك عامًا في الخمس، أو هو خاص ببعضها؟

أما الجواب على أنه عام، أو خاص، فمحتمل لهما معاً، والأظهر أنه خاص. والدليل على خصوصيته يُؤْخَذُ من أحاديث، منها: ما رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ، ﷺ (كان إذا فرغ من صلاة الصبح أقبل بوجهه الْمُكْرَمَ عَلَى الصَّحَابَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فيقول: هل رأى منكم أَحَدٌ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟ فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا. فيقول ما شاء الله من الحديث، وبقي يحدثهم)<sup>(٣)</sup>. فإذا بقي هو - عليه السلام - يحدثهم فلا شَكَّ أَنَّ الْخُلَفَاءَ وَالْأَكْثَرَ مِنَ الصَّحَابَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كانوا يجلسون معه، لاسيما أهلُ الصُّفَّةِ<sup>(٤)</sup> من الصَّحَابَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. فإنهم لم يكونوا يخرجون من المسجد إلا عند حاجة البشر، وكانوا يديمون الجلوس في المسجد، بل كان أكثر الصحابة ينتظرون الصلاة بعد الصلاة، لما فيها من الأجر، كما أخبر، ﷺ بقوله: (فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ)<sup>(٥)</sup> ثلاثاً.

(١) سلفت ترجمته في الحديث ٤٣.

(٢) المكتوبة هي الصلاة المفروضة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد والشيخان والبيهقي في شرح السنّة عن سمرة بن جندب رضي الله عنه (انظر الحديث ٦٩).

(٤) أهل الصُّفَّة: هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه، فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه. وكان أبو هريرة واحداً منهم.

(٥) جزء من حديث طويل أوله (أَلَا أَدْلِكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا) أخرجه الإمام مالك ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فلم يبقَ أن ينطبق عمومُ هذا الحديث إلا على الخصوص، وهو ما جاء في حديث ذي اليدين في قوله (خرج السَّرعان) وهم الذين لهم الأشغال الضروريات، فيذكرون إثر الصلاة، لما جاء فيه، لثلاث يفوتهم شيء من المندوبات، فيخرجون مسرعين. فمن أجل سرعتهم وهم كلهم - رضي الله عنهم - محافظون على المندوبات، وإعلانهم بذلك من أجل أنه إذا كان أحدُهم خارجاً، وهو يذكر سِرّاً، قد يأتي مَنْ يُكلِّمه أو يَشْغله، فَيَحْتَرِمُ<sup>(١)</sup> الذِّكْرَ. فإذا كان ذكره جهراً من أجل هذه العلة كان أفضل، لأنه جاء عنه ﷺ (أن الذِّكْرَ الخَفِيَّ يَفْضَلُ الذِّكْرَ الْجَلِيَّ بسبعين درجة)<sup>(٢)</sup>.

هذا إذا كانا جميعاً لغير علة لما قد يُداخل الجهر من الرياء، وأما مع هذه العلة التي هي، إن لم يَجْهَر به فاتّه الذِّكْرُ بالجملة، فالجهر إذ ذاك أَفْضَلُ. وقد يكون - والله أعلم - سببُ قوله، ﷺ (الذِّكْرُ الخَفِيَّ يَفْضَلُ الْجَلِيَّ بسبعين درجة) خوفَ دوامهم على الجهر، كما ذكر راوي الحديث. واحتمل أن يكون ذلك من العرب الذين كان إسلامهم عن قريب، فلم يُنْهَوْا عن ذلك، لما فيه من التأنيس لهم، والتَّحْيِيصِ للإيمان، وأخبر الغير بالأفضل، ليعملوا عليه مع الإمكان، وسكَّتَ للبعض على الإعلان، ليدل على الجواز فيكون فيه لأهل البدايات وأهل الأعذار أسوة. فالدين يُسر.

وأما الكلام على الكيفية في الذكر هنا فيحتمل وجوهاً:

منها ما قدمنا الكلامَ فيه، وهو مخافةُ أن يفوتهم الذِّكْرُ المأثور إثر الصلوات، وهو ثلاث وثلاثون من التسبيح، ومثله تحميد، ومثله تكبير، وختم المائة بلا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

واحتمل أن يكون الذِّكْرُ المأثور عند الخروج من المسجد، وهو قول الخارج بعدما يقدِّم رجله اليسرى في الخروج: (بسم الله، اللهم افتح لي أبواب فضلك)<sup>(٣)</sup> لأنها هي السنَّة. وهو الأظهر.

ويبقى الحديث على ظاهره، وتكون فائدة إظهارهم لذلك أن يتعلَّم هذه السنَّة من لم يَعْلَمَهَا، ويتذكَّر صاحبُ الشغل الضروري إذا سمعها، فيكون له الأجر في الذكر من وجهين: من نفس الذِّكْر، وما يتعدى به للغير من الخير، لأنه قصد بإعلانه التعليم والإلهام كما قال عمر، رضي الله تعالى عنه، حين سأله سيِّدنا، ﷺ (لِمَ ترفعُ صوتك بالقراءة بالليل)؟ فأجاب بأن قال: (أَوْقِظُ الْوَسْطَانِ، وَأَطْرُدُ الشَّيْطَانَ). فأقره النبي، ﷺ، على ذلك بعد أن أمره بالخفض قليلاً. والصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يعملون شيئاً من الأعمال إلا بِنِيَّةٍ صالحة، وعِلْمٍ من الكتاب والسنَّة.

(١) احترم الشيء: مُنِعَهُ. وتأتي بمعنى هَابَهُ وَرَعَى حُرْمَتَهُ. واجتمع المعنيان في قولهم: لَا تَحْتَرِمُ فَتَحْتَرِمَ. أي لَا تَهَبُ فَيُفَوِّتُكَ الْخَيْرُ.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب وضعفه عن عائشة رضي الله عنها بلفظ (يُفْضَلُ الذِّكْرُ الْخَفِيُّ الْخ...).

(٣) أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث السيدة فاطمة عليها السلام.



ويترتب على هذا الوجه من الفقه تقديم النية على العمل، وقد قال، ﷺ: (خيرُ العمل ما تقدّمته النية)<sup>(١)</sup> وأن العامل بعملٍ من الأعمال إذا قدر أن يجتمع له فيه نيات من الخير عدة فليُفعل، لأنه أكثرُ أجراً. إلا أنه يُشترط أن يكون ذلك العمل غير واجب، فإنه إن كان واجباً وأضاف إليه في نيته نية عمل آخر فإن فيه خلافاً بين العلماء: هل يُجزّئه عن فَرْضِهِ وما نوى معاً، أو لا يُجزّئه عن واحدٍ منهما، أو يُجزّئه عن الأقل، أو يُجزّئه عن الأعلى؟ أربعة أقوال. هذا ما لم يكن قارئاً في الحجّ والعُمرة، فإن هذا الموضع وحده مُجمَع على إجزائه للعمليّن معاً، بشرط إراقة الدم، كما هو مذكور في كتب الفروع، فينبغي - إن كان فرضاً - أن يُفرد نيته، خروجاً من الخلاف، من أجل أن تبقى ذمته على أحد الأقاويل عامرة بما كُلّف من أداء فَرْضِهِ.

ويقوّي ما تقدم ذكره من أنه مخصوص بصلاة الصبح، أنه إذا أتى مُطلقاً ومقيّداً، يُحمَل المُطلق على المقيّد، ويكون مخصّصاً له. وإذا كان كذلك فالعمل من ذلك الوقت إلى هَلَمْ جراً عليه، لأن الغالب من الناس اليوم إذا خرجوا من صلاة الصبح جهروا بالذكر، لأن الوقت وقتُ خَلوة في الطرق من الناس، إلا الذين خرجوا من الصلاة، وخروجهم من الصلاة لا يكون إلا متفرقين غالباً، والنفوس في ذلك الوقت منوّرة، متنعمة بالذكر. وكانت بيوتهم رضي الله عنهم قائمة وبَسْطَة<sup>(٢)</sup>، فكان يُسمع ذكرهم من المنازل، وأهل المنازل منهم مستيقظون، لا يحبسهم في المنازل إلا الأعذار. وما منع الناس اليوم من سماع الذكر في ذلك الوقت إلا تعلية المباني، وكثرة النوم والغفلة. فيكون معنى إخبار ابن عباس، رضي الله عنه، بهذا من أجل أن يعتقد معتقد أن إظهار الذكر ذلك الوقت مفضول بالنسبة إلى الذكر الخفي، لأنه إذا كان في الطريق وهو وحده فلا فرق إذ ذاك بين الطريق وبين بيته، وتنبيه<sup>(٣)</sup> منه أيضاً على التأكيد بالاشتغال بالذكر في ذلك الوقت، وكثرة الحَضْر عليه، لأنه يَزِيد في الرزق، فإن الرزق يُقسّم ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فالذي كان في ذلك الوقت مشغولاً في عبادة، يكون رزقه أوسع، على ما جاء به الأثر.

ويترتب على ما في الدليل من الفقه أن الطاعة إذا كانت سبباً لزيادة الرزق فلاشتغال بها أولى، لأنه بها يحصل خيرُ الدنيا والآخرة، وقد جاءت الآثار أيضاً في هذا النوع كثيرة، ولذلك كان أهل الصُفّة أقلّ اهتماماً في طلب الرزق، لتيقنهم بهذا وأمثاله، وكانوا أحظى حالاً في الدارين. إلا أن هنا شرطاً، وهو أن يكون شغله بالطاعة خالصاً لله - عز وجل - لا من أجل الرزق، فإنه إذا كانت طاعته من أجل الرزق فلا دنيا ولا آخرة، وفي معناه قيل: إن الخير بالطاعات مَنُوط، وصاحبها

(١) لم نقف على مصدره.

(٢) القائمة من الإنسان: طوله. بَسْطَة: زيادة.

(٣) وتنبيه: العطف على المصدر الموزول: أن يعتقد.

بالبركات موصوف، والمعاصي صاحبها ممقوت، وداراه بالبلايا محفوفتان. وقيل أيضاً: داراك بالطاعات مُرَبِّحَتان وأتقاء السوء بهما معروف.

وهذا البحث على أن الذكر كان منهم عند خروجهم من المسجد. وأما إن حملنا الانصراف المذكور على خروجهم من صلاة المكتوبة فلا حاجة إلى هذا البحث كله. وقد قال ابن بَطَّال<sup>(١)</sup> - رحمه الله - في شرح البخاري، لما أن تكلم على هذا الحديث قال: «يحتمل أن يكون هذا عند الجهاد في بلاد العدو. فإن كان على هذا فالعمل عليه إلى الآن، لأن السنة أن المجاهدين إذا انصرفوا من المكتوبة في الخمس يرفعون أصواتهم بالذكر، ليرهبوا بذلك العدو. وإن لم يكن محمولاً على هذا فهو منسوخ بالإجماع<sup>(٢)</sup> والإجماع لا يحتج عليه». وصى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

---

(١) ابن بطال: هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال، أبو الحسن: عالم بالحديث، من أهل قرطبة. له (شرح البخاري). توفي سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م (الأعلام ٩٦/٥).

(٢) يريد أن رفع الصوت بالذكر عند الخروج من المسجد منسوخ، وأما رفعه بعد المكتوبة في الجهاد فغير منسوخ.

## حديث كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، ﷺ، يَقُولُ: كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ. قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن كل من استُرعي على شيء يُسأل عنه . والكلام عليه من وجوه :  
الوجه الأول : أن يقال : ما معنى الرعاية ؟ وهل هي مقصورة على المذكورين في الحديث ؟ أو تتعدى بالحكم ؟ وما هو منها واجب ؟ وما هو منها مندوب ؟  
فأما الكلام على الرعاية فهي بمعنى الحفظ والأمانة . ومنه قولهم : رعاك الله . أي : حفظك . وراعي الغنم : أي : الحافظ لها ، والأمين عليها .

الوجه الثاني : وهل يتعدى لأكثر مما في الحديث أم لا ؟  
فإن قلنا بفهم العلة فحيثما وجدنا تلك العلة عدّينا الحُكم<sup>(٢)</sup> . ويكون الحديث من باب التنبيه بالأقل على الأكثر ، إذ هي الأمانة والحفظ . وقواعد الشريعة من هذا كثيرة تدل عليه بالنص والضمن . فتكون فائدة الإخبار بهذا الحديث تنبيهاً على المذكورين ، لأنه أمر يُعقل ، لأن الناس لا يحسبون الراعي لهم إلا الخليفة ليس إلا ، وأن غيره ممن ذكر بعدُ لا يدخل عندهم في باب الرعاية

(١) عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي ، أبو عبد الرحمن : صحابي ، من أعز بيوتات قريش في الجاهلية . كان جريئاً جهوريماً ، نشأ في الإسلام ، وهاجر إلى المدينة مع أبيه ، وشهد فتح مكة ، ومولده ووفاته فيها . أفتى الناس في الإسلام ستين سنة . له في كتب الحديث ٢٦٣٠ حديثاً . توفي سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م (الأعلام ٤/ ٢٤٦) .  
(٢) عدّينا الحكم : صرفناه إلى غيره ، وطبقناه عليه .

ولا في باب الأمانة، لأن الرجل يقول: أهلي قد أبيعوا لي، وليس لهم قبلي شيء غير الذي يجب عليّ من نفقة أو غير ذلك مما جرت به العادة، وهي مسؤولة عن نفسها. ولا يفكر أن عليه شيئاً مما يزيد على ذلك. والابن يقول: مال أبي ما عليّ أنا منه؟ بل هو الحاكم عليّ. وتقول الزوجة مثل ذلك، والعبد مثلهم. فتضيق بين ذلك الحقوق، ويُسألون عنها، وهم قد أغفلوها. فجاء التنبيه على ذلك من باب توفية النصيح لمن استرعى، وهو - عليه السلام - أكبر الرعاة توفيةً. وبقي غير هذه من الأمانات تدل عليها هذه، وما يجب لكل واحد منهم على صاحبه فيما يخص صاحب الرعاية الكبرى الذي له البيعة، وقد تقدم الكلام فيه في حديث عبادة بن الصامت<sup>(١)</sup>. وأما ما بعده فنذكر فيه بحسب ما يفتح الله - عز وجل - به.

الوجه الثالث: قوله عليه السلام (والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته).

(الأهل) هنا مبهم، فما يعني به؟ لأن الأهل ينطلق على (الزوجة) كما قال أسامة، رضي الله تعالى عنه، حين سأله رسول الله ﷺ، في حديث الإفك، فقال (أهلك يا رسول الله) عني به عائشة، رضي الله عنها.

واحتمل أن يريد بالأهل (من لزم الرجل نفقته شرعاً) كقول نوح عليه السلام ﴿إِنَّ أَبْنِيَّ مِنَ أَهْلِي﴾<sup>(٢)</sup> وكقول مولانا - جلّ جلاله - في قصة أيوب عليه السلام ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾<sup>(٣)</sup> وكانوا زوجته وبنيه. والعبد أيضاً داخل في الأهل، لأنه من جملة الرعية، بدليل قوله، عليه السلام، في سلمان<sup>(٤)</sup> هو من أهل البيت، وكان عبداً، ولأنه مما أبيع له النظر إلى زينة سيده، كما أبيع لذوي المحارم لقوله تعالى ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي أبو الوليد: صحابي، من المشهورين بالورع. شهد العقبة، وكان أحد النقباء، كما شهد بدرًا وسائر المشاهد، ثم حضر فتح مصر. وهو أول من ولي القضاء بفلسطين، ومات بالرملة أو بيت المقدس. روى ١٨١ حديثاً اتفق الشيخان على ستة منها. وكان من سادات الصحابة. توفي سنة ٣٤هـ/٦٥٤م. (الأعلام ٤/٣٠).

(٢) سورة هود، من الآية ٤٥.

(٣) سورة ص، من الآية ٤٣.

(٤) سلمان الفارسي: صحابي: من مقدميهم. أصله من مجوس أصبهان، عاش عمراً طويلاً ورحل إلى الشام فالموصل، فنصيبي، فعمورية، وقرأ كتب الفرس والروم واليهود، وقصد بلاد العرب، فلقيه ركب من بني كلب فاستخدموه، ثم استعبدوه وباعوه، فاشتره رجل من قريظة فجاء به إلى المدينة. وعلم سلمان بخبر الإسلام فقصد النبي ﷺ بقاء وسمع كلامه، ولزمه أياماً وأسلم، وأعانه المسلمون على شراء نفسه من صاحبه. وكان قوي الجسم، صحيح الرأي، وهو الذي أشار على الرسول الكريم بحفر خندق حول المدينة في غزوة الأحزاب. وقال فيه عليه السلام (سلمان منا أهل البيت). له في كتب الحديث (٦٠) حديثاً. توفي سنة ٣٦هـ/٦٥٦م (الأعلام ٣/١٧٠).

(٥) سورة النور، من الآية ٣١.

احتمل الوجهين معاً، لكنّ الأظهر أن يكونَ الأعمّ منهما، فإن الفائدة فيه أعمّ، ولأنه، عليه السلام، قال في آخر الحديث (والرجل راعٍ في مال أبيه) ولم يذكر أن الأب راعٍ في مال ابنه، فلما كان (الابن) من جميع من دخل في قوله عليه السلام: (أهله) لم يُعَد ذكره. ومثل ذلك في العبد والزوجة، وذكرهم، عليه السلام، لنعلم أنه - وإن كان صاحب البيت مسؤولاً عنهم - فإن كل واحد منهم مسؤول أيضاً على قدر ما يخصّه، على ما يُذكر بعد.

فأما ما يجب على الرجل من الحق في زوجته وولده وعبيده فمنه ما هو، عند الناس كلهم، عالمهم وجاهلهم معروف، كالكسوة والنفقة والسكنى، لا خفاء به، وهذا بعضٌ من كلّ. فإن الذي يجب عليه زائداً على ذلك حفظهم في دينهم حتى يحملهم عليه، فرضه وندبه، كل على وجهه. وهو أكد من النفقة والكسوة، بدليل أن الكسوة والنفقة قد تسقط عنه بالعسر. والإرشاد إلى الدين وتعليمه لا يسقط عنه بوجه، وما لا يسقط أكد ضرورةً مما يسقط. لكن لما رأى الناس الحكام يحكمون في النفقة والكسوة وما يتعلق بالأمور الدنيوية، ولم يحكموا في غيرها على الرعاة، لم يبقوا يجعلون الواجب إلا ما حكم فيه ليس إلا. وغاية الذين ينسبون إلى العلم والخير - في الأغلب منهم - ينسبون ما زاد على ما حكم به أن الكلام فيه من قبيل المندوب الذي إذا فعلوه كانوا مأجورين، وإن لم يفعلوه لم يأثموا. وهذا جهل محض، وغلط ظاهر، بدليل الكتاب والسنة وقول الأئمة.

أما الكتاب: فقوله جلّ جلاله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا﴾<sup>(١)</sup> وقوله عز وجل ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾<sup>(٢)</sup>.

وأما الحديث: فقد روي أن الرجل إذا كان له الولد، ويَلغوا، وفرط فيهم حتى وقعوا في المحذور، فإن عليه من الإثم قدر ما عليهم، وأيضاً قوله عليه السلام في الصلاة: (مُرُوهُمْ بِهَا لِسَبْعٍ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرِ)<sup>(٣)</sup>، وليس هذا في الصلاة وحدها، بل هي هنا من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى.

وأما قول الأئمة: فما ذكره ابن أبي زيد<sup>(٤)</sup> في رسالته وغيره قال: وَيُضْرَبُونَ عَلَى الصَّلَاةِ لعشرٍ، كما جاء، وكذلك في غيرها من الواجبات.

وقد اختلف العلماء فيما يفعله الولي بمن هو في ولايته من خير، ويجبره عليه، وذلك قبل

(١) سورة التحريم، من الآية ٦.

(٢) سورة طه، من الآية ١٣٢.

(٣) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) سلفت ترجمته في الحديث (٤٤).

بلوغه . من المأجور على ذلك العمل؟ على ثلاثة أقوال: منها: أن الولي هو المأجور . والآخر: أن الصبي هو المأجور، لأنه هو الفاعل لذلك الفعل . والآخر: أنهما معاً مأجوران . وهو الأصح، بدليل قول سيدنا محمد ﷺ، للمرأة إذ رفعت له الصبي، وهي في المحفة، في حجة الوداع فقالت: يا رسول الله ألهذا حج؟ فقال: نعم، ولك أجر<sup>(١)</sup>.

وأما في العبيد فقول سيدنا، ﷺ: (إن زنت الأمة فاجلدوها فإن زنت فاجلدوها، وإن زنت في الثالثة أو الرابعة فبيعوها، ولو بصفير خبل)<sup>(٢)</sup> ومثله ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنه كان معها قوم يسكنون في بعض ملك لها، فرأت يوماً في بعض الأماكن أثراً لتلك الخطوط التي يلعب عليها النرد، فأمرت بإخراجهم إن بقوا على ذلك الحال . ولهذا قال العلماء: لا يجوز للمرأة أن يؤجر شيئاً من ماله ممن يعلم أنه يعمل فيه محرماً من المحرمات .

ومما يؤيد ذلك أيضاً قوله عز وجل في كتابه ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِغَاءِ﴾<sup>(٣)</sup> أي: الزنى . فكما يحرم عليه أن يؤجر أمة في الزنى، ولا يحل له أن يأخذ ذلك الشيء، فكذلك غيره من المال . ومما يقوي ما قلناه ما كتبه عمر، رضي الله عنه، إلى عماله: إن أهم أموركم عندي الصلاة . من حفظها، وحافظ عليها، حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع .

فالضابط في هذا، أعني: جميع ما يجب على الرجل من الحقوق في أهله، بعد ما تقرر عليه بالحكم في علم الخاص والعام كما تقدم ذكره، أن نقول:

كل ما هو على الرجل واجب فهو عليه واجب أن يحمل أهله عليه، إن كانوا كباراً، إلا ما أسقطته الشريعة عنهم، كالجمعة مثلاً عن المرأة وعن العبد، مما قد تقرر بالشرع وهو مذكور في كتب الفقه . وإن كانوا غير بالغين فيكون مندوباً، كما تقدم: ما هو عليه أيضاً مندوب يحملهم عليه، مع إعلامه لهم أنه مندوب، كما كانت الخلفاء، رضي الله عنهم، يفعلون في تسوية الصفوف، ويبتنون أولاً في الخطبة أنه ليس من الواجبات، ثم يوتلون أناساً يجبرون الناس على تسويتها، ولا يدخلون في الصلاة حتى يعلموا بأنها قد استوت . وتمام البحث على هذا الفصل يأتي في موضعه من الكتاب - إن شاء الله تعالى - ولا يسامحهم في ترك شيء من ذلك .

ثم نرجع الآن نبين ما السبب في كون الحكام حكموا في مثل النفقة والكسوة وما أشبه ذلك، حتى رجح عند الناس أنه فرض - بلا شك - عندهم لما تكرر ذلك، واستمر العمل به، ولم يحكموا

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم بلفظ مختلف .

(٣) سورة النور، من الآية ٣٣ .

في أمور الدين؟ وذلك أن الحاكم لا يحكم لك إلا فيما ترفعه أنت إليه من الحقوق، وما لا ترفعه أنت إليه لا يحكم لك فيه. مثال ذلك: أن يكون لك على شخص ثلاث حُجج، أو أربع، ثم تطلبه بالحُجة الواحدة. بتلك الحُجة الواحدة يحكم لك الحاكم، ولا يلزمه أن يحكم لك ببقية الحُجج وأنت لم تُبديها له، ولا طلبت ذلك منه.

وكذلك ما نحن بسبيله، لما كان للمسترعى على الراعي حقوق من واجبات الدين، ولم يوفّها له، ما جاء منها على شهوة نفسه، فرح بكونه لم يعطها إياه، فلم يذكرها، ويكون ذلك من المسترعى من أحد وجهين: إما لأنه لا يعلم بها، ولو علم ما طلبها منه، أو لأنه يعلمها ويفرح بكونه لم يطالبه بها. وقد يكون ذلك سبباً لحبه إياه، فإنه مما يعجب نفسه<sup>(١)</sup>.

والآخر الذي هو من قبيل حظ الدنيا مثل الأكل والشرب والكسوة لم تسامح نفس المسترعى أن يتركها للراعي، فطلبه بها، فاحتاجوا إلى الحكام في ذلك، وتوالى الأمر في ذلك بين الناس فرجع وجوبه مشهوراً معلوماً.

ولما قلّ طالب الأجر، وكذلك فاعله، وكذلك العالم به، تنكر حتى رجع المتكلم به كأنه ابتدع بدعة في الدين. فإننا لله، وإننا إليه راجعون على ثلثة وقعت في الدين بتغيير أعلامه، وذهاب عماله، حتى إنه أفرط الأمر إذا روي أحد يأمر أهله بما يتعين عليه وعليهم من أمور الدين يُنهر، ويقال له: دَعه، فإنما هو صبيّ، حتى يكون في سنك، وحينئذ يرجع الأمر كأن الدين دينان، دينٌ للصغار، ودينٌ للكبار.

رحم الله السلف، لقد أخبرني بعض مشايخي - رضي الله عنهم أجمعين - عن بعض مشايخه أيضاً أنه كان مع أحد أصحابه قاعداً، وقد جاءه ابن له صغير في المكتب، فقال له: قد حفظت الوحي، أفأقعد، أو أمشي ألعب؟ فلم يجبه. فكرر ذلك عليه مراراً، فلم يجبه، حتى قال له صاحبه: ألا تقول له يلعب؟ أليس ذلك من مشروعية الصغار؟ فإن ذلك مما يصلحهم؛ فقال له: تريد أن يكون في صحيفتي: اذهب فالعب؟ لا أفعل. إن فعل لا أمنعه. فانظر كيف كانت التربية عندهم، وكيف التحرز على ما يكتب في الصحيفة. هذا فيما يتعلق بالمشروعية من الدين.

وأما ما هو من قبيل ما أبيع للنفس فإن تركه لهم - ما لم يقع في الدين مفسدة - مندوب. والمستحب في حقه وما يكون بينهم، بعضهم مع بعض. فالمستحب أيضاً أن يندبهم إلى ذلك، من

---

(١) خلاصة هذا المقطع: إذا أهمل الراعي الواجبات الدينية للمسترعى، وفرح الراعي بأنه لم يُطالب بها، فهذه شهوة من شهوات نفس الراعي. وإذا فرح المسترعى بأنه لم يطالب بواجبات تثقل على نفسه فهذه شهوة من شهوات نفس المسترعى. وهذا الفرع نفسي غير ديني ولا مشروع. وقد كان الصحابة في حياتهم مع رسول الله ﷺ: الراعي فيهم والمسترعى متضامن ومرجّح واجبات الدين على واجبات الدنيا. وهذا هو الفرع الحق المبين.

غير عزيمة عليهم، ليروضهم على مكارم الأخلاق، لأن تلك هي السنة كما قال، ﷺ: (بعثت لأنتم مكارم الأخلاق)<sup>(١)</sup>.

والدليل على ما قلناه من أن ترك حظ النفس منه لهم مندوب في حقه، قوله ﷺ: (المؤمن يأكل بشهوة عياله)<sup>(٢)</sup> فجعل عليه السلام ترك شهوته في الأكل لشهوتهم من علامة كمال الإيمان، لأنه إذا أكل بشهوته لم يخرج بذلك من الإيمان لأنه مما هو مباح له. فما لا يخرج فعله من الإيمان فتركه من كمال الإيمان. وهذا منه ﷺ من باب التنبيه بالأعلى على ما سواه، لأنه إذا كان الأكل الذي به أجرى الله عز وجل بمقتضى حكمته حياة هذا الجسد، وهو يتكرر في اليوم واللييلة دائماً. والأكل بالشهوة على ما يقوله أطباء الأبدان مما يزيد في صلاح الأبدان، وقد جاءت السنة بالتطبيب حتى إن الحذاق منهم قالوا: إن الطعام الذي يضر في بعض الأبدان إذا أكل بشهوة صادقة إنه لا يضر أكله، فجعل ﷺ ترك ذلك لهم من علامة الإيمان الكامل، فيكون مؤثراً صلاح دينه على صلاح بدنه، بمقتضى علم الطب. فهذا من الباب الذي أشرنا إليه آنفاً.

وأما الشرط الذي ذكرناه أولاً - وهو: ما لم يكن فيه ضرر في الدين - فمثل النكاح، إذا كانت له به حاجة، إن لم يفعله يكن في تركه خلل في دينه، ولو كانت الزوجة لا تريد في ذلك الوقت ذلك الشأن، فلا ينبغي له هنا، وما أشبهه ترك ما عنده لما عندها، ولذلك جعل الشرع ترك النفقة التي هي من جملة الواجبات - كما قدمناه - أولاً مع وجود النشوز، وهو امتناعها من الوطاء، بغير عذر شرعي، وأمر بالضرب لقوله جل جلاله ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾<sup>(٣)</sup> والإخبار أيضاً هنا بالنكاح لأن توفيه حقه الذي شرع له فيه، وذلك أيضاً من أكبر أسباب المفساد في الدين إن لم يفعله، فهو من التنبيه بالأعلى على مقابلة الوجه الذي قبله.

فانظر إلى هذا النظام العجيب في الشرع، إذا تأملته، كيف جعل ترك حظ النفس - إذا لم يكن فيه خلل في الدين - كيف هو على ما قدمناه، وكيف توفيتها حظها، إذا كان بتركه خلل في الدين عاد فعله معروفاً من أكد الأشياء وأوجبها، لأنه إذا كان منع يوجب إسقاط واجب عاد أخذه واجباً، وزيادة في التأكيد إذا كان مع ذلك يبيح أخذه ممنوعاً وهو الضرب، لأن ضرب الرجل امرأته دون نشوز ممنوع شرعاً، فجاء أخذاً هنا حظها من أكبر العبادات. وعلى هذا فقيس.

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لم نقف على مصدره.

(٣) سورة النساء، من الآية ٣٤.



ويترتب على هذا البحث من الفقه أن الدين وصلاحه هو المقصود، وغير ذلك في حكم التبع، ما لم يقع به خلل في الدين، ولا يؤول به ذلك إلى مباح، طرفاه في الفعل والترك سيان.

وبهذا الدليل يرجح طريق أهل الصوفة طريق غيرهم، لأنهم بنوا طريقهم على ترك حظوظ النفس، وحمل الأذى، وترك الأذى، وإدخال السرور، حتى إنه يذكر عن بعضهم أنه لقيه شخص، فقال له ذلك الشخص: كيف حالك؟ فقال متشوش، أو ما في معناه. فلما انفصل عنه قال له أصحابه: وكيف يا سيدنا تقول ذلك؟ قال لهم: إني أعلم أنه يبغضني، فأردت أن أدخل عليه سروراً، رعيّاً لأهل الطريق. وقد جاء بعض المتفقهين فقال: وكيف يدخل عليه سروراً بكذب، وهذا لا يحل؟ ما وقع فيه أكبر مما قصد. وانفصل عنه بعض الناس: أليس<sup>(١)</sup> هما مسلمان معاً؟ فقليل: بلى. قال: فإذا كان أحدهما يبغض الآخر بغير موجب، إذا كان المبغوض مسلماً حقاً، ساء حال أخيه، لكون إيمانه ناقصاً، لأن المؤمن يؤلمه من أخيه المؤمن ما يؤلمه من نفسه، فكما يشوشه من نفسه نقص إيمانه، فكذلك من أخيه. فأخبره بصدق مقتضى حالهما. وهذا من أحسن وجوه الانفصالات، إلا أنه لا يعرف وجه هذا الانفصال إلا من حصل له حظ من الطريقتين (الحال والعلم) وألا يكون في أحديهما مقلداً.

ومما يؤيد هذا ويقويه قوله، ﷺ: (لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق بصاع من طعام)<sup>(٢)</sup> لأن الولد معلق بالقلب، كما قال ﷺ: (الولد مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ)<sup>(٣)</sup> أي: هو أقوى الأسباب في هاتين الحالتين الذميتين، لأن حبه يمنع من إنفاق المال، ويرى أن ابنه أولى من الصدقة، وإذا خرج إلى الجهاد فقلبه به مشغول بالرجوع إليه، فيكون سبباً لجبنه وفراره. هذا هو الغالب. فجاء الحديث على الغالب من أحوال الناس، والمال أيضاً معلق بالقلب، لكن تعلقه بالولد أكبر، وما يؤلم الولد يؤلم القلب، فجاء أدبه الذي يؤلم ابنه والذي به يتألم قلبه أرفع له من صدقة صاع من طعام، لأنه أشق على النفس.

وهنا بحث، وهو: أن يقال: لِمَ حُدِّدَ الطعام بقدر الصاع؟ فإن كان الطعام أكثر من الصاع فيجب على هذا أن تكون الصدقة أكبر، فإن ترك تأديب ابنه وتصدق بصاعين كان له أعظم.

فالجواب أن نقول: ليس المقصود الترك للأدب، والزيادة في الصدقة، وإنما المقصود تبيين الأفضلية في الأعمال، لأن الأدب الشرعي للصغير إنما هو بالشيء اليسير مثل السوط مرة، وقتل

(١) يعني: أليس الشأن.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٣) رواه الإمام أحمد عن راشد بن يعلى بن مرة العامري رضي الله عنه.

الأذن مرّة، أو ما أشبه ذلك . وأقل ما جاء في الكفّارات المشروعة أيضاً المُدّ، كما جاء مُدّ<sup>(١)</sup> لكل مسكين . فأقلّ الأشياء في الأدب - كما بيّنا - أرفع من أقلّ ما حُدّ في الصدقات المشروعة . والقدر المحدود في الصدقة المشروعة هو الذي يحصل به كمال راحة النفس، وهو غاية شَبَعها في الغالب، لأن شَبَعها من الطعام كَمَل لها جميع شهوتها ومنافعها وجميع قواها على توفية مآربها، وبه إحيائها . وإحيائها فيه ما فيه معلوم شرعاً وطبعاً . فجعل أقلّ التآلم - وهو الأدب الشرعي - لكونه أشقّ على النفس - أعلى من أرفع الأشياء، وهو ما يعود إلى إحياء النفوس، لكونه ليس له ذلك التآلم الذي يوازي الآخر المذكور قبل، في نفس الفاعل .

ويترتب على هذا البحث من الفقه: أن أفضل العلوم فهم سرّ الحكمة في حكم الحكيم، لأنه يقوى به الإيمان، وفيه عون على النفس، يؤيد ذلك قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فَإِنَّ اليقين لا يحصل في الغالب إلا بالنظر والفهم والتدبر، ولذلك قال ﷺ: (تعلموا اليقين فأني أتعلمه)<sup>(٣)</sup>.

ويجب عليه أيضاً أن يعاملهم بما يكون لهم عوناً على توفية ما يجب له عليهم . ومما يدل على ذلك قول رسول الله ﷺ حين جاءه بعض الصحابة بهبة وهبها لبعض أولاده أن يشهد فيها قال له: (ألك أولاد غيره؟ قال: نعم . قال: فكلهم أعطيتَه مثلَ ما أعطيتَه؟ قال: لا . قال: أتحب أن يكونوا لك في البرِّ سواء؟ قال: نعم . قال: فاعِدِلْ بينهم) فانظر إشارته، عليه السلام، بقوله: (أتحب أن يكونوا لك في البرِّ سواء؟)<sup>(٤)</sup> فكانه عليه السلام يقول له: فعلك ينافي مطلبك . فحضّر بهذا على أن يعينهم على البر .

ومثله ما روي عنه ﷺ حين سأله نساؤه: من تحب؟ فأعطى كل واحدة منهن ديناراً سراً، فقال: (صاحبة الدينار). فأدخل عليهن جميعاً السرور دون تشويش على الغير، لأن ذلك عون على حسن العشرة . وحسن العشرة هي في حقهن لما يعود عليهن في ذلك من خير .

وأما في الممالك فكان عليه السلام يطحن مع الخادم ويقول (لا تكلفوهنَّ ما لا يُطِقْنَ)<sup>(٥)</sup>

(١) المُدّ: مكيال قديم، اختلف الفقهاء في تقديره، وهو عند الأحناف ملء الكفين أو ما يساوي ربع صاع . والصاع عند الأحناف قريب من أربعة كيلوغرامات، وعند الشافعية أقل من ذلك .

(٢) سورة المائدة، من الآية ٥٠ .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية عن ثور بن يزيد مرسلًا ولفظه: (تعلموا اليقين كما تعلموا القرآن حتى تعرفوه فأني أتعلمه).

(٤) أخرجه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير بلفظ آخر .

(٥) أخرجه البخاري ومسلم عن المعرور بن سويد بلفظ مختلف .

وقوله عليه السلام (إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين)<sup>(١)</sup> والبحث فيه في موضعه من داخل الكتاب، إن شاء الله تعالى، لأنه من باب العون على توفية حق السيد، وحفظ ماله.

ومثله ما روي عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يكتب كتاباً، وهو خليفة، ومعه بعض أصحابه، وكان ليلاً، فنام العبد، وفرغ الدهن من السراج، ولم يفرغ الكتاب. فقال له جليسه: أيقظ الغلام يسكب الدهن في المصباح. فقال له: هو في أول نومه. وقام هو رضي الله عنه، وجعل الدهن في السراج، ثم رجع يكتب. فقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز. ولو جئنا نتبع ما جاء في مثله لكان كثيراً، واليسير يغني مع الفهم عن الكثير.

الوجه الرابع: قوله عليه السلام (والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها). انظر إلى هذه الفصاحة في الفصل والإعجاز في توفية المعنى، لأن المرأة لا تبأشر من حال الزوج إلا ما هو في الدار، فلم تكلف ما هو خارج الدار، لكونها لا تصل إليه اتصالاً كلياً. والذي يجب عليها في ذلك ما جاء مفسراً في حديث غير هذا، وهو قوله عليه السلام (ولكم عليهن ألا يَدْخُلْنَ أَحَدًا دُورَكُمْ، ولا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ غَيْرَكُمْ إلا بإذنتكم)<sup>(٢)</sup>، وقوله عليه السلام: (تَحْفَظُ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ). هذا هو الواجب.

وأما المندوب فقوله عليه السلام: (جهاد المرأة حُسْنُ التَّبَعْلِ)<sup>(٣)</sup>. والجهد على ضريين: واجب ومندوب. وكذلك حسن التبعل على هذين الوجهين، فما كان من حفظ نفسها وماله وما أشبههما من قبيل الواجب، وما كان من التَّزَيُّنِ له، وبماله إن قدرت، وزيادة التحفظ عليه، وعلى عِزِّه، وما أشبه ذلك فهو من قبيل المندوب.

الوجه الخامس: قوله عليه السلام (والخادم راعٍ في مال سيده). انظر أيضاً إلى هذا الترتيب العجيب: لَمَّا أن كان العبد لا يقدر أن يتصرف على المعهود، ولا يُفْسِدَ، أو يصلح إلا المال، قيل: هو مسؤول عنه، لأنه مؤتمن عليه. هذا في الغالب. فإن ائتمنه على غير ذلك وجب عليه التوفية، لأن الأمر جاء على الغالب من عادة الناس.

ومثل ذلك نقول في الزوجة، إن ملكها التصرف فيما زاد على ما في الدار وجب عليها

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جزء من خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع.

(٣) أورده ابن الجوزي في الموضوعات ١٥٣/٢.

حفظه، أي توفية الأمانة فيه. حتى إنه قال بعض الناس: مما يجب على المرأة أن تخبر زوجها كل ما يزيد أو ينقص في دارها. وفائدة ذلك أنه المطلوب بحسن النظر لهم. فإذا أخبرته بالكليات والجزئيات كان نظره بحسب ذلك، فعاد الخير عليهم جميعاً، وكان ذلك عوناً له على توفية حقوقهم، فيكون من باب العون على الخير. وكذلك العبد مكلف ألا يخون سيده في شيء دق أو جل، ولا يخفي عنه أيضاً من كل ما يزيد أو ينقص شيئاً للفائدة التي ذكرناها في المرأة.

الوجه السادس: قوله عليه السلام (والرجل راع في مال أبيه) هذا لا ينطبق عليه اسم (رجل) حتى يكون بالغاً، لأنه إذا كان بالغاً وقع عليه التكليف، وحينئذ يكون مسؤولاً، وأما غير البالغ فليس بمسؤول. وهو أيضاً إما في حضانة الأم وكفالتها، أو لمن جعل الأب ذلك له، فيكون غيره المسؤول عنه. فالذي يجب على الابن أيضاً أن يحفظ مال أبيه، ولا يأخذ منه شيئاً إلا بإذنه.

وانظر إلى هذا التنبيه العجيب للابن، من أجل أن يخطر له: أن مال أبيه كونه يعود إليه بعد، يقول: ليس أنا مثل غيري. فنبه عليه السلام أنه في الوقت مثل غيره، ولا يجوز له التصرف إلا كما يجوز للغير، وإن كان المال قد يعود له بعد. ولذلك إذا سرق الابن مال الأب قطع، لأنه ليس له الآن فيه شيء إلا القدر الذي جعل له من النفقة، إن كان في وقت يجب له، والمال ينطلق على جميع الأنواع التي تتعمّل من جميع الأموال.

والذي يُندبون إليه جميعاً - أعني الابن، والخادم، والزوجة - مثل أن يعينوه في الأشياء التي ليست عليهم، ويوفروا عليه، وينبهوه على المصالح التي يعرفونها، لكونهم في الغالب أكثر مباشرة للأشياء منه. فهم أعرف بالجزئيات الطارئة، وما يترتب عليها من المصالح وغيرها. أو ضابطه أن يكونوا ينظرون فيه، كأنه لهم، لأن ذلك من حقيقة الأمانة، كما قال ﷺ (حتى يُحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه)<sup>(١)</sup> هذا في الأجانب، فهؤلاء من باب أولى.

وهنا بحث صوفي، وهو: أنهم جميعاً في الحقيقة أمناء فيه، والمال للمولى الأعلى. فانظر لنفسك بترك الدعوى، وتوفية الأمانة، واتصف بأوصاف العبودية، ولا تتصف بأوصاف الربوبية، بتحقيق الملك بمجرد الدعوى، فمن هنا شقي من شقي، وسعد من سعد.

وقد كان بعض السادة يقول لأولاده: لو علمتكم شيئاً واحداً أفلحتم. وكان مهاباً<sup>(٢)</sup>. فكرر

(١) لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. أخرجه الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه.

(٢) كذا والصواب: مهيباً.

ذلك عليهم مراراً مع الأيام، ولا يزيدهم على ذلك شيئاً، إلى أن تجاسر بعضهم فسأله . فقال لهم :  
ادخلوا في اسم (العبودية) وقد حصل لكم الفوز الأكبر . قالوا : وما حقيقتها؟ قال : تَرَكُ الدَّعْوَى  
والاعتراض ، وحقيقة الامتثال والتسليم . فلقد أحسن فيما إليه نَدَب .

جعلنا الله عبيداً له حقاً بمتنه ، لا ربَّ سواه ، آمين .

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .

## حديث التبكير والتبريد بالصلاة

عَنْ أَنَسٍ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، إِذَا اشْتَدَّ الْبَرْدُ بَكَرَ بِالصَّلَاةِ، وَإِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ أَبْرَدَ<sup>(٢)</sup> بِالصَّلَاةِ، يَعْنِي الْجُمُعَةَ.

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على التبكير بصلاة الجمعة في البرد، وتأخيرها في الحر. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: الكلام على ما معنى التبكير في أي وقت هو؟ وكذلك التأخير. فأما التبكير فالمعني به أول الزوال، لأنه ما جاء عن النبي ﷺ، أَنَّهُ صَلَّاهَا قَطُّ قَبْلَ الزَّوَالِ. وأما التأخير فبشيء يسير، كما جاء عن الصحابة، رضي الله عنهم، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا رَجَعُوا مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ يَقِيلُونَ قَائِلَةً الضُّحَى، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ تَأْخِيرُهَا كَثِيرًا، لِأَنَّهُ قَدَرُ مَا تَبْدَأُ الرِّيحُ تَهْبُ.

الوجه الثاني: هنا بحث، وهو: ما الحكمة في التبكير بها في البرد؟ وما الحكمة في التأخير بها أيضاً في الحر؟ فإن قلنا: إنه تعبد، فلا بحث. وإن قلنا: إنه معقول المعنى، فما الحكمة؟ فنقول، والله أعلم: لَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، كَمَا أَخْبَرَ جَلَّ جَلَالُهُ بِقَوْلِهِ فِي حَقِّهِ ﴿يَا الْمُؤْمِنِينَ رَءَوْفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>، فَكَانَ ﷺ، كُلُّ مَا كَانَ فِيهِ تَأَذُّ أَوْ شَيْءٌ مِنَ التَّشْوِيشِ يَزِيلُهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا كَانَ شِدَّةُ الْبَرْدِ مِمَّا يُؤْلِمُهُمْ، لَا سَيِّمًا مِثْلَ أَهْلِ الصُّفَّةِ، لِأَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الْبَعْضِ مِنَ الصَّحَابَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قُلَّةُ الثِّيَابِ، بَكَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَا مِنْ أَجْلِ تَأْلِمِهِمْ مِنَ الْبَرْدِ. وَالْبَرْدُ بِكَرَّةٍ شَدِيدٍ، كَمَا أَنَّ حَرَّ الْقَائِلَةِ شَدِيدٌ. فَكَانَ يُبْرِدُ بِهَا فِي الْحَرِّ، لِكَثْرَةِ التَّأْلِمِ مِنَ الْحَرِّ أَيْضًا.

(١) أنس بن مالك النجاري الخزرجي الأنصاري، أبو حمزة: صاحب رسول الله ﷺ وخادمه. روى عنه ٢٢٨٦ حديثاً. مولده بالمدينة، وأسلم صغيراً، وظل في خدمة الرسول الكريم إلى أن قبض، ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة، وفيها مات سنة ٩٣هـ/٧١٢م (الأعلام ١/٣٦٥).

(٢) أبرد: دخل في البرد. والمراد: تأخير القيام بالشيء حتى يبرد الحر.

(٣) سورة التوبة، من الآية ١٢٨.

الوجه الثالث: يترتب على هذا من الفقه أن كل ما يكون للمرء فيه تشويش في الصلاة فينبغي أن يزيله، لأنه مما يُحسّن صلاته، لأن التشويش لا يمكن معه خشوع ولا حضور قلب، وهما من أجل ما يطلب من المصلّي، ولذلك قال، ﷺ: (لا يصلي أحدكم وهو يدافع الأخبثين)<sup>(١)</sup>.

الوجه الرابع: فيه دليل على ابتداء الكلام بالألفاظ العامة، ثم يخصص ذلك العام في الخبر نفسه. وهو من فصيح الكلام. يؤخذ ذلك من كونه أتى أولاً بلفظ (الصلاة) عامة، ثم خصصها آخراً بأن قال: (الجمعة). وفيه من الفائدة: أنه لا يؤخذ من كلام المَرء بعضه ويُترك بعضه، لأن أول الكلام قد بينه آخره، وبالعكس، لكن بشرط ألا يتنافى المعنى الأول مع الآخر.

الوجه الخامس: فيه دليل على أن سيدنا ﷺ يشترع من الأمور في الدين بحسب ما يفهمه الله، تعالى، ويجب العمل به. يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام قدّم الصلاة وأخرها، ولم يخبر أن ذلك كان بوحى، وكان عليه السلام إذا كان ما يأمر به أو يفعله بوحى يخبر به أولاً.

وفي هذا دليل للذين يقولون في قول مولانا، جلّ جلاله ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ الَّذِينَ يَأْتِيكَ اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup> هو: كل ما يخطر له، أو يراه مصلحة أن يفعله، وإن لم يكن أوحى إليه فيه شيء، لأن كل ما يتعبّد - عليه السلام - به هو من قبيل الوحي، إما بالواسطة - وهو إتيان الملك به - وإما بوحى إلهام. ولذلك لم يختلف أهل التوفيق والتحقيق أن اتباع السنّة في أي شيء كانت هي أفضل الأعمال وأقربها إلى الله، عزّ وجلّ، ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(٣)</sup>.

الوجه السادس: فيه دليل على أن المطلوب في الصلاة إخلاء القلب، لأنه بيت الرب، عزّ وجلّ. يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام يلحظ شدة البرد والحر اللذين هما، ولا بدّ، يصلان إلى القلب حتى يشتغل بذلك عما هو بسبيله. فكذلك ينبغي في كل ما يشغله من أي شيء كان. ومن أجل ذلك خرج أهل التوفيق عن الدنيا، لأنه لا شيء أكثر تشويشاً منها، ومن أجل ذلك أيضاً تركوا الشهوات وطلب المناصب، لأن ذلك أيضاً من أكبر التشويشات، ولذلك قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾<sup>(٤)</sup> قال أهل التوفيق: سُكَارَى من حُبّ الدنيا.

- 
- (١) أخرجه مسلم وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها بلفظ (لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافع الأخبثان) والأخبثان هما: البول والغائط.
- (٢) سورة النساء، من الآية ١٠٥.
- (٣) سورة آل عمران، من الآية ٣١.
- (٤) سورة النساء، من الآية ٤٣.

الوجه السابع: فيه دليل على أنه إذا كان التشويش يسيراً لا يُبالى به، لأنه قلماً ينفك أحد منه إلا الخواص، وقليل ما هم. يؤخذ ذلك من قوله (في الحرّ والبرد) فوصفهما بالشدة، فإذا لم تكن فيهما شدة فلا بدّ من تألم ما، لأن البشرية خلقت ضعيفة، والضعيف كل شيء يؤثر فيه بالقدرة، ولذلك قال العلماء: إن الحقن<sup>(١)</sup> إذا كان يسيراً لا يمتنع معه الخشوع فالصلاة جائزة.

الوجه الثامن: فيه دليل على الأمر بالنظر لمصلحة العامة، لأنه من أجل قلة حمل البعض ذلك الأذى، الذي هو الحر والبرد، لأنه بالقطع منهم من يتحملهما، ويفرح بهما، لما يكون له فيهما من الأجر، لأن الأجر في العبادة بقدر التعب، والتعب يزيد الأجر، لأنه من جملة المجاهدات، ولهذا كان بعض المتعبدين يصلي وزده في الحرّ في البيت، وفي البرد في سطح البيت، لليلة المذكورة، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾<sup>(٢)</sup>. فحمل عليه السلام الكل على عمل واحد، فنقص الأجر للبعض من أجل أن غيرهم قد لا تجزئه صلاته من كثرة التشويش الذي يلحقه، أو قد يلحقه منه مرض يمنعه حضور صلوات كثيرة. إلا أن هنا معنى ما، وهو بشرط ألا يدخل لأحد الفريقين خلل في الدين، لأن أحد الفريقين إنما نقصه زيادة في الأجر، بعدما كمل له فرضه.

الوجه التاسع: فيه دليل على أنه لا يؤخذ ما زاد على الواجب من العبادات من المندوبات إلا بشرط ألا يدخل على الغير نقص في فرضه. يؤخذ ذلك من كونه - عليه السلام - ما حرّم البعض زيادة الأجر، كما وصفنا، إلا من أجل نقص فرض الغير.

الوجه العاشر: فيه دليل على أن قوله عليه السلام: (سيروا يسيراً أضعفكم)<sup>(٣)</sup> أنه ليس في السفر وحده، بل في كل موضع، لأن هذا الحديث من ذلك القبيل، لما لم يقدر البعض على حمل الأذى خفف عليه السلام عن الكل، وحملهم مخملاً الضعفاء.

ويترتب عليه من الفقه: أن الإمام ينظر إلى جماعته، فإن رأى فيهم مريضاً أو ضعيفاً أو يعلم صاحب حاجة يخفف، فهي السنة. وإن علم أنهم أقوياء في الأبدان والإيمان أخذ بهم نحو الأفضل، وأطال الصلاة. وكذلك ينبغي لكل من له رعاية أعلى أو أدنى أن ينظر إلى ما هو الأرفق بهم في جميع الأمور، يسيراً كان أو كثيراً. والكمال فيه مطلوب، وما يوجد هذا الحال إلا بفقه الحال. وفقه الحال - على ما ذكره السادة الفقهاء - أنفع أنواع الفقه، لأنه هو نور الفقه، وزبدته مثل

(١) الحقن والاحتقان: هو احتباس البول وتجمعه في المثانة، وهو من المزعجات والمؤلمات، ويسمى صاحبه (حاقن) وفي المثل: لا رأي لحاقن.

(٢) سورة العنكبوت، من الآية ٦٩.

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفا ١/ ٥٦٣ والقاري في الأسرار المرفوعة ٢٢١.



الصَّزَف للذي يقرأ النحو، ويسميه أهل الصوفة (المراقبة) لأنه في كل نَفَسٍ مراقب . ما حُكِمُ الله عليه؟

وقد أُخْبِرَت عن بعض الأجلة من الفقهاء حقاً، أنه كان إذا سئل مسألة يسكت ساعة، وحينئذ يجيب . فسئل عن ذلك، فقال: انظر أيهما خيرٌ لي، وحينئذ أعمل . فانظر كيف جمع هذا السيد بين ثلاث: الفقه العام، وفقه الحال، والمراقبة .

ولقد أدركتُ بعضَ المباركين من أهل الصوفة، وأنه اجتمع يوماً مع بعض الفقهاء المتبرزين للفتوى، وكان فيه أهلية لذلك، غير أنه كانت السلطنة تستعمله في المشاورة في الأمور لفضله، فتكلم مع ذلك الفقيه وطلب منه الدعاء، وكان ذلك من شأنه التنازل للفقهاء وطلب الدعاء منهم، فقال له الفقيه - على طريق التواضع أيضاً - بل أنت الذي ينبغي أن تدعوَ لي لأنك من علماء المسلمين وفقهائهم . فلم يتمالك - رحمه الله - أن غلبته الدموع حتى كادت نفسه تَزْهَق من كثرة بكائه، وهو يردد ويقول: مِثْلِي يُحَسَّب من العلماء، والله ما يكون العالمُ عالِماً حتى لا يخرج له نَفَسٌ إلا لله، وبالله، وإنما نحن ممن يلعب في دين الله . فلقد رجوت بذلك اليوم وذلك الاعتراف مع - ما كان فيه من الدين - أن الله، عزَّ وجلَّ، يرفعه بذلك في الآخرة مع المقرِّبين .

جعلنا الله جميعاً هناك بفضله، لا ربَّ سواه .

وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً .

## حديث تحية المسجد والإمام يخطب

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ <sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ وَالنَّبِيُّ ﷺ، يَخْطُبُ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ. فَقَالَ: أَصَلَّيْتَ يَا فُلَانُ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: قُمْ فَارْكَعْ.



ظاهر الحديث يدل على جواز تحية المسجد والإمام يخطب. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: الحديث الذي يعارضه وهو أن رسول الله ﷺ، كان يخطب يوم الجمعة، ودخل رجل، فجعل يتخطى، فقال له رسول الله ﷺ: (اجلس فقد آذيت) <sup>(٢)</sup>. وفي هذا الحديث دليل على منع التحية والإمام يخطب. ومن أجل هذين الحديثين وقع الخلاف بين الإمامين مالك والشافعي، رحمهما الله.

فالشافعي أخذ بالحديث الأول، وهو جواز الصلاة والإمام يخطب. وعلل الحديث الثاني بأن قال: إنما أمره بالجلوس من أجل علة الأذية. ومالك ومن تبعه أخذ بالثاني، وهو منع الصلاة مع الخطبة، وعلل هو وأصحابه بأن قالوا: إن الرجل كان رث الثياب، فأراد النبي ﷺ، أن يأمره بأن يقوم فيصلّي، فَيُتَصَدَّقَ عليه.

وكلا العلتين - فيما يظهر، والله أعلم - ليستا بالقويتين؛ بدليل احتمالهما معاني آخر. فإذا احتمل الموضوع عدة معاني فليس أحد المحتملات يكون علة يُنَاطُ بها الحكم، ويكون مثل الأدلة إذا تعارضت حيث يُنظر الدليل من خارج، أو يؤخذ أحد المحتملات من أجل الخلاف الذي في الأدلة إذا تعارضت، وهي أربعة أقوال. فنرجع الآن نبين احتمال كل حديث.

فأما الحديث الأول - وهو الذي قالت المالكية عنه: إن النبي ﷺ أراد أن يقوم فيتصدق عليه -

(١) جابر بن عبد الله بن عمرو الخزرجي الأنصاري. صحابي، من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ. له ولأبيه

صحبة. غزا تسع عشرة غزوة. روى له الشيخان ١٥٤٠ حديثاً. توفي سنة ٧٨هـ/٦٩٧م.

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن خزيمة وابن حبان والطبراني عن جابر رضي الله عنه.

فهذه دعوى لا تصح، إلا إذا روي عنه ﷺ ذلك، كما قال عليه السلام في لحم الأضاحي: (إنما نهيتكم من أجل الدافة)<sup>(١)</sup>.

وأما الاحتمال الذي يحتمل زائداً على هذا الوجه الذي قالوه من الاحتمالات: أن يكون عليه السلام قال له ذلك، وهو قاعد على المنبر، لم يشرع في الخطبة بعد، لأن العرب تسمي الشيء بما قرب منه. واحتمل أن يكون على آخر الخطبة، ويصدق عليه أن يقال، وهو يخطب. واحتمل أن يكون ذلك قبل أن يؤمروا بالإنصات للخطبة.

واحتمل أن تكون تلك الخطبة - وإن كانت في يوم جمعة - لأمر آخر لأن النبي ﷺ، كان إذا حزبه أمر خطب الناس، وألقى إليهم ذلك الأمر، وما بدا له فيه. وهذا - والله أعلم - أظهر، بدليل قوله عليه السلام للدخل: (أصليت يا فلان؟ قال: لا. قال: قم فاركع). لأن هذه الخطبة لو كانت للجمعة ما قال له، ﷺ: أصليت؟ لأن وقت الصلاة لم يدخل، لأنه بالإجماع لا يجوز لأحد أن يصلي يوم الجمعة الظهر، حتى تفتوته الجمعة قطعاً، وأنه إن صلى، والإمام يخطب، ولم يصل بعد، فإن صلاته لا تجزئه. والذهاب يوم الجمعة للجمعة إنما يكون قبل الزوال، وهو التهجير<sup>(٢)</sup>. وأكثر ما يتأخر المتأخر أن يجيء والإمام يخطب، كما فعل هذا، فلا يتقدم له وقت يمكن له فيه صلاة. فكيف يصح أن يسأله النبي ﷺ، أصليت يا فلان؟

فبهذا التوجيه سقط دليل الشافعية بالحديث نفسه، وهو من القوة بحيث لا يخفى. وهذا إن كان المراد بقوله: «أصليت» صلاة الفرض. وأما إن كان المراد بقوله: «أصليت» تحية المسجد - وهو الظاهر، لقوله عليه السلام (قم فاركع) ولم يقل: فصل - فبطل هذا الجواب. والله عز وجل أعلم.

الوجه الثاني: فيه دليل على أن صلاة الداخل يوم الجمعة والإمام يخطب ممنوعة، قد ثبت الحكم بذلك عندهم من أجل أن الصحابي، رضي الله عنه، دخل والنبي ﷺ، يخطب، فظن أنها خطبة الجمعة، فقعده، ولم يصل، ويكون أمر النبي ﷺ له بالركوع فيه من الفقه وجهان: (الوجه الأول) أن الركوع والخطيب يخطب ما عدا خطبة الجمعة جائز. (الوجه الثاني) احتمل أن الوقت الذي قال عليه السلام فيه: أصليت؟ كان بعد أداء العصر بدليل أنه عليه السلام لم يأمره بالركوع إلا بعد أن قال له: أصليت؟ فدل أنه لو قال الداخل له: صليت، لم يأمره بالركوع لأن الركوع بعد صلاة العصر ممنوع؛ بل مكروه لوقت الغروب، فيحرم.

(١) الدافة: الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد. وتماث الحديث: (إنما نهيتكم من أجل الدافة التي دفت عليكم. فكلوا وتصدقوا وادخروا). رواه ابن حبان عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) التهجير: (إلى الجمعة) وغيرها: التكبير والمبادرة إلى كل شيء. ومنه الحديث: (لو يعلم الناس ما في التهجير لاستبقوا إليه).

الوجه الثالث: فيه أيضاً تقوية لمنع الركوع بعد العصر، ويكون ما فعله من أجل العذر. فإن اعترض معترض وقال: وكيف يكون الصحابي يقعد حتى يخرج وقت الجمعة، ولا يصلي ولا يعلم هل صلى الناس أو لم يصلوا، حتى يأتي في غير وقت الصلاة، ويظن أن هذا الوقت هو وقت الجمعة؟

فالجواب: أن هذا ليس من قبيل المحال، بل هو من قبيل الممكن الجائز. فإنه قد ينام الشخص إلى هلم جزاً ولا يستيقظ لصلاة الظهر، وقد يجيء والناس يصلون العصر ويظنه الظهر، ولا يعلم حتى يرى بعد ذلك الشمس قد اصفرت، فيسأل عن العصر، فيقال له: ذلك الذي صلينا قبل بيسير والذي صليت معنا كان العصر. فقد يحلف أنه ما صلى معهم إلا بنية الظهر. وكثيراً ما يقع ذلك في الأيام القصار، أو يكون في شغل ضروري قد أشغل خاطره، ولا يلهم إلى الصلاة إلا مع أذان العصر وهو يظنه ظهراً، حتى يأتي الله بمن ينبهه على ذلك، وهذا كثير وقوعه، فلا يمتنع ما قلناه.

وأما حجة الشافعية بالحديث الثاني الذي قال عليه السلام فيه: (اجلس فقد آذيت) إنما أجلسه من أجل الأذية، والصلاة جائزة، اللهم إن سلم أن الإجماع كان من أجل الأذية، فلا اعتراض عليه، لأنه نص في الحديث. وأما كونهم يقولون: الصلاة جائزة، احتمل جواز الصلاة وضده. فإذا وقع الاحتمال بطل الدليل.

لكن بالبحث المتقدم صح القول للمالكية، ولا يكون بالاحتمال الذي ذكرناه آنفاً تعارض بين الحديثين، وقد خرج مسلم أنه، عليه السلام، قال: (من دخل يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين خفيفتين). فإن صح هذا فهو نص في الباب لا يحتمل التأويل، ومن أجل هذا جاء في مذهب مالك قوله على نص الحديث أنه من دخل يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين خفيفتين. وما ذكرنا أولاً ظاهر الحديث ومعارضته بالثاني إلا تأدياً مع من تقدم، لأنهم، رضي الله عنهم، لهم الفضل علينا، ولا ينبغي لأحد أن يجحد فضلهم علينا، فإن ذلك غباوة وجهالة.

وإن كان بعض المواضع فتح فيها على من تأخر أكثر مما فتح على من تقدم فليس ذلك مما يُخلّ بجلالة منصبهم، وإنما ذلك من طريق المنّ من المولى الكريم لبقّي لمنكسر القلب بالتأخير شيئاً يجبره به، ولذلك قال عليه السلام: (فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه)<sup>(١)</sup> فجعل للآخر البعض والأكثر للمتقدم. ولحكمة أخرى لأن تبقى عجائب الكتاب والحديث وفوائدهما لا تنقطع إلى يوم القيامة.

(١) جزء من حديث، أوله: إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض إلخ. أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن عن أبي بكر نفع بن الحارث رضي الله عنه.

ولفائدة أخرى أن تبقى النفوس تشوّف إلى استمطار الفضل من الفتح العليم لقوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup> فلو كانت الفوائد قد فرغت لما كان يحصل للمخاطب المتأخر من فائدة معنى هذه الآي والأحاديث شيء، وقد قال، ﷺ، في القرآن (إنه لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد)<sup>(٢)</sup>.

لكن هنا إشارة إلى أن ما يفتح لمن تأخر لا يمكن أن يكون مخالفاً لجميع من تقدم. غير أنه إما أن يقوي ضعيفاً من الأقوال، أو ما كانوا هم، رضي الله عنهم، أخذوه بإجماع يأتي المتأخر فيه - إذا فتح له - بدليل واضح، أو زوال إشكال بحجة قائمة اشتغل من تقدم عن ذلك. أما ما كان لهم به اهتمام لندارته، أو ما كان ذلك الإشكال عندهم إشكالاً لقوة إيمانهم، فما جاء في المتأخر مع ضعف الإيمان وقلة الفهم عاد مثل الجبال، فيظن الظان بجهله أنه أتى بشيء لم يقدر من سبقه على مثله، وهذا مما قدّمناه جهل بالعلوم وبأهلها.

فإن خالف ما ظهر له كلّ من تقدم من طريق ما تقتضيه قواعد الشرع فيتهم نفسه، فإن في عين كمال فهمه نقصاً لا شك فيه بدليلين: (أحدهما) منطوق به وهو قوله، عليه السلام: (خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)<sup>(٣)</sup>. و(الآخر) بالإجماع أن عمل المتقدمين أقوى من عمل أهل وقتنا، والعمل هو ثمرة العلم، فإذا كانت شجرتان، ثمر الواحدة خير وأكثر من الأخرى، قطع بالجزم أن التي ثمرها أكثر وأحسن خير من الأخرى بلا خلاف في ذلك عند من له بصيرة وعقل.

الوجه الرابع: فيه دليل على جواز الكلام في الخطبة إذا كان فيه مصلحة في الدين. يؤخذ ذلك من قطعه، ﷺ، الخطبة بكلامه مع الرجل.

ويترتب عليه من الفقه أنه إذا كان المرء في عبادة، ويمكنه عمل آخر بلا خلل يقع في الذي هو بسبيله، جائز، ما لم يمنع من ذلك وجه من وجوه الشرع. ولهذا المعنى أجاز بعض الفقهاء أنه إذا كان أخذ في نافلة، وقرع الباب من له في دخوله مصلحة، وأنه إن تركه حتى يتم ما هو فيه أنه يروح

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٨٢.

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد والدارمي والترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أوله إن رسول الله ﷺ قال: ألا إنها ستكون فتنة - وفي رواية فتن - قلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم. إلى آخر الحديث.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة والإمام أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم الخ...).

عنه ولا يجده، أنه يقول ﴿ اَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴾<sup>(١)</sup> ويرفع بها صوته، ليشير إليه أنه في صلاة. وهذا عندي فيه نظر، لأنه ينطق بالقرآن على خلاف ما أمر به. فأولى من ذلك أن يباح له اليسير من الكلام الذي فيه الخلاف من أجل الضرورة، ليسلم بذلك من التهاون بالكتاب العزيز. والله المرشد للصواب بمنته.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الحجر، من الآية ٤٦.

## حديث دعاء الرسول ﷺ

عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: أصابت الناس سنة<sup>(١)</sup> على عهد النبي، ﷺ، فبينما النبي ﷺ، يخطب في يوم الجمعة، قام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال، وجاع العيال، فادع الله لنا. فرفع يديه، وما نرى في السماء قزعة<sup>(٢)</sup>، فوالذي نفسي بيده، ما وضعهما حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيتي، ﷺ. فمطرنا يومنا ذلك، ومن الغد، ومن بعد الغد، والذي يليه، حتى الجمعة الأخرى. وقام ذلك الأعرابي - أو قال غيره - فقال: يا رسول الله، تهدم البناء، وغرق المال، فادع الله لنا. فرفع يديه وقال: اللهم حوالينا ولا علينا. فما يُشير بيده إلى ناحية من السماء إلا انفرجت، وصارت المدينة مثل الجوبة<sup>(٣)</sup>، وسال الوادي - قناة<sup>(٤)</sup> - شهراً. ولم يجر أحد من ناحية إلا حدث بالجود<sup>(٥)</sup>.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز الكلام للإمام وهو في الخطبة لأمر أكيد، وجواب الإمام على ذلك. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول منها: جواز الإشارة إلى شيء يعرف بالعادة ويجزىء عن تبينه. يؤخذ ذلك من قوله (سنة) ولم يمتن ما هي، لأنه قد عرف بالعادة أنه أشار إلى السنين التي فيها القحط والجوع.

(١) السنة: الجذب والقحط.

(٢) القزعة: قطع السحاب المتفرقة في السماء. مفردتها: قزعة.

(٣) الجوبة: الحفرة المستديرة المتسعة.

(٤) قناة: اسم مكان وهو هنا بدل من الوادي، ممنوع من الصرف.

(٥) الجود: المطر الغزير الذي لا مطر فوقه.

ومن ذلك قوله عليه السلام (اجعلها عليهم سنين كسني يوسف . اللهم اشدّد وطأتك على مُضَر، اللهم أنج الوليد بن الوليد وعُتْبَةَ، وربيعَةَ، وعيَّاش، والمستضعفين بمكة<sup>(١)</sup>).

ويجوز الاستسقاء بالدعاء من أهل الفضل بغير خروج. يؤخذ ذلك من دعاء النبي ﷺ، بالغيث عند قول الأعرابي له ما قال.

الوجه الثاني: فيه دليل على طلب الدعاء ممّن فيه أهلية للقبول عند الملمات. ومن أدب الطلب بثّ الحال إليه قبل طلب الدعاء. يؤخذ ذلك من قصد الأعرابي إلى النبي، ﷺ، لأنه بالإجماع الأفضل. فطول حياته - عليه السلام - كان لا يُقصد في المهمات غيره إجماعاً، ولذلك كان عمر، رضي الله عنه، يقول للعباس، عند احتياج الناس إلى المطر وخروجهم إلى الاستسقاء: كنا نستسقي بالنبي، عليه السلام، والآن نستسقي بك، فإنك عمّه، وأقرب الناس إليه<sup>(٢)</sup>. ويؤخذ الأدب في تقدمه تبين الحال قبل طلب الدعاء من فعل الأعرابي ذلك، وأقره النبي، ﷺ.

الوجه الثالث: فيه من جهة الحكمة أنك إذا شكوت ما بك من الضرّ لمن فيه دين رقّ لك، وكان دعاؤه لك بقريحة. وعند تلك الرقة، وجُمع ذلك الخاطر المبارك تُرجى الرحمة والإجابة.

الوجه الرابع: فيه دليل على أن فرض الكفاية من قام به كفى، إذا عرف وجه الصواب في ذلك. يؤخذ ذلك من أن هذا الأعرابي لما لحق الناس ما لحقهم من القحط، تعين على الكل اللجأ إلى الله، عزّ وجلّ، وإلى رسوله، ﷺ، لما نزل بهم، وفي الوقت من هو أعلى من ذلك الأعرابي، مثل الخلفاء، رضي الله عنهم، وجلة الصحابة، فلم يتكلموا، وقام ذلك الأعرابي بالوظيفة، وأقره النبي، ﷺ، على ذلك. ولو لم يكن ذلك كذلك لقال له النبي، ﷺ، في ذلك شيئاً يُعلم به أن الحكم ليس كذلك، لأن تأخير البيان عند الحاجة لا يجوز.

الوجه الخامس: فيه دليل على أن طالب الحاجة ينادي إلى من يطلبها منه بأرفع أسمائه. يؤخذ ذلك من أن الأعرابي نادى النبي، ﷺ، بأرفع أسمائه وهو: (رسول الله).

الوجه السادس: فيه دليل من الحكمة استعطاف المطلوب منه الحاجة، فإنه مما تُسرّ به النفس، فقد يكون عوناً على قضائها، لكن بشرط ألاّ يتعدى في ذلك لسان العلم تحرزاً من أن

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة، رضي الله عنه، في كتاب الأذان، باب يهوي بالتكبير حين يسجد. ونصّه: كان رسول الله، ﷺ، حين يرفع رأسه يقول: سَمِعَ الله لمن حمّده، ربّنا ولك الحمد - يدعو لرجال يسميهم بأسمائهم فيقول: اللهم أنج الوليد بن الوليد وسَلَمَةَ بن هشام وعيَّاش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدّد وطأتك على مضَر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف. وأهل المشرق يومئذ من مضر مخالفون له.

(٢) أخرجه البخاري وابن سعد وابن خزيمة وأبو عوانة وابن حبان والطبراني والبيهقي عن أنس رضي الله عنه.



يكون ما يُسرُّ ذلك الشخص به ممنوعاً شرعاً، فلا يجوز، لأنه من حاول أمراً بمعصية كان له أبعد فيما يرجو .

وقوله (هلك المال) المال عند العرب هي : الإبل، كما أن المال عند أهل التجارة الذهب أو الفضة، كل أحد بحسب عاداته .

الوجه السابع : فيه دليل على رفع اليدين في دعاء الاستسقاء . يؤخذ ذلك من قوله (فرغ يديه) . ولذلك لم يُروَ عن الإمام مالك، رحمه الله، أنه رفع يديه إلا في دعاء الاستسقاء خاصة . وهل يرفع في غيره من الأدعية أم لا؟ فيه خلاف بين العلماء .

وقوله (وما نرى في السماء قزعة) أي : شيئاً يستر من السحاب . وقوله (فوالذي نفسي بيده ما وَضَعَهَا) أي : ما أتمَّ الدعاء . وقوله (حتى ثار السحاب) أي كثر . وقوله (أمثال الجبال) في هذا الموضع دليل على عظم قدرة الملك الجليل . يؤخذ ذلك من سرعة اختراعه، عز وجل، لذلك السحاب العظيم في هذا الزمن القريب جداً .

الوجه الثامن : فيه دليل على عظم حرمة النبي، ﷺ . يؤخذ ذلك من سرعة إسعافه، عليه السلام، بمطلوبه في الوقت .

الوجه التاسع : فيه دليل على جواز مساق اليمين في الكلام، وهو من أحد الأقسام الذي يسميه بعض الفقهاء لغو اليمين . يؤخذ ذلك من قوله (فوالذي نفسي بيده) .

الوجه العاشر : فيه دليل على أن تغيير العادة قد تكون دالة على رحمة أو غيرها . يؤخذ ذلك من أن حبسَ المطر قبل تغيير حاله - وهو يؤول إلى هلاك المال - فهذا تغيير نقمة، وقد جاء : (إذا أبغض الله قوماً أمطر صيفهم، وأصحى شتاءهم) وكون<sup>(١)</sup> تعجيل السحاب والمطر عند دعاء سيدنا ﷺ تغيير عادة إلا أنها تغيير رحمة .

وقوله (ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته) أي لم يفرغ من الخطبة حتى كثر المطر، لأن المطر ينفذ من سقف المسجد، لأن سقف المسجد كان من جريد النخل، ولا بد أنه كان يحبس شيئاً من المطر ثم يهطل، حتى يتحادر المطر على لحيته، ﷺ .

الوجه الحادي عشر : وفيه من الفقه أن الخطبة أو الصلاة إذا بُلِّسَ بهما لا يُقطعان للمطر . يؤخذ ذلك من أن سيدنا، ﷺ، نزل عليه المطر حتى تحادر على لحيته، وأتم الخطبة والصلاة .

---

(١) العطف على المصدر المؤول : أن حبس .

الوجه الثاني عشر: فيه دليل على أن الدعاء من أكبر وسائل الخير. يؤخذ ذلك من سرعة الفائدة بدعائه عليه السلام. وقد قال ﷺ: (من أَلْهِمَ الدعاء فقد فتح عليه أبواب الخير)<sup>(١)</sup>.

ولهذا يقول أهل الصوفة: إن الدعاء نفسه هو عين الخير، وقضاء الحاجة في حكم التَّبَع، لأنه مناجاة للمولى الجليل، وإظهار الفقر إليه، وهو خَلَعُ العبودية<sup>(٢)</sup>، ولم يُخْلَعْ على عبدٍ أجلٌ منها. وكفى في ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾<sup>(٣)</sup> فما حصل لهم الشرف الرفيع ولا الحماية العظيمة إلا بهذا الوصف العجيب، وهو وصف العبودية، وقد قال عز وجل في الضد ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾<sup>(٤)</sup>.

الوجه الثالث عشر: قوله (فمطرنا يومنا ذلك...) إلى قوله: (الجمعة) فيه دليل على أن الإعطاء يكون على قدر حرمة الشفيع. فلما كان هنا الشفيع صاحب حرمة عظيمة توالى الأمطار، حتى استوفوا ما أرادوا من الخير. ولهذا المعنى قال ﷺ: (أتمتكم شفاعاؤكم فانظروا بمن تستشفعون)<sup>(٥)</sup>.

الوجه الرابع عشر: فيه دليل صوفي لأنهم يقولون: قَدَّمْ محبوبك قبل مطلوبك تجد مرغوبك. الوجه الخامس عشر: قوله (وقام الأعرابي أو قال غيره) شك من الراوي.

وهنا بحث: لِمَ قام في المرتين هذان الأعرابيان أو الأعرابي الواحد - على شك الراوي - ولم يتكلم من الخلفاء أحد من الصحابة؟ فالجواب: أن مقام الخلفاء والصحابة - رضي الله عنهم - الرضى والتسليم، ومقام السائل الفقر والتمسك.

وقد قحطت مرة جزيرة الأندلس، فأتوا لبعض الصالحين المتوليين، فرغبوا منه أن يخرج معهم للاستسقاء... وكانت عادته أن يركب قصبه، يظهر بذلك ما يشبه الحمق. فخرج معهم، وأتى غيطاً للملك، ففرع الباب قرعاً عنيفاً، فخرج إليه الجَنَانُ<sup>(٦)</sup> مسرعاً، فقال له: ما شأنك؟ فقال: اشتق كل ما في الغيط. ويسمى الغيط بالأندلس بستاناً. فقال له: ما أكثر فضولك! أنا أعرفُ ببستاني، إذا احتاج السقي سقيته. فرد رأسه إليهم، وقال لهم: سمعتم مقالته، هو أعرف ببستانه، فما أردتم مني إلا أن يخزيني. ثم ركب قصبته، وتركهم وانصرف، فما رجعوا إلا وهم قد سُقُوا.

(١) تقدم تخريجه في الحديث (٦) - الوجه السابع.

(٢) الخَلَع: مفردا خِلعة وتعني: العطية الكريمة وتكون تكريماً من الخالق للمخلوق عليه.

(٣) سورة الحجر، من الآية ٤٢.

(٤) سورة محمد، من الآية ١١.

(٥) انظر: إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٣/ ١٧٥.

(٦) الجَنَان: العامل في الجَنَّة، وهي البستان.

وسَيِّدَنَا، ﷺ، كان يحمل كُلاً على حاله. فالضعيف يجبره، والقوي يحمله، وما بين ذلك يُلطف به، كل ذلك رحمة من الله بعبيده، ليدخل في هذه السنة المباركة القوي والضعيف، وكل واحد منهم مَتَّيْع، إلا أنه بشرط أن يكون كل واحد من القوم يعرف شربه من الحقيقة أو من الشريعة، أين هو، وما شروطه، وما وظيفته؟ وهنا هي الفائدة العظمى. جعلنا الله ممن مَنَّ بها عليه بمنه.

الوجه السادس عشر: قوله (فقال: يا رسول الله تهدم البناء، وغرق المال، فادع الله لنا). البحث هنا كالبحت في قوله (هلك المال) غير أن هنا معنى آخر. وهو أنه يدعى بالصحو عند كثرة المطر ودوامه، كما يدعى بطلبه عند إبطائه وعدمه، لأن كلتا الحالتين ضرر، والمقصود للضعيف ما فيه رفق.

الوجه السابع عشر: وفي قوله عليه السلام (حوالينا، ولا علينا) من الفقه أنه لا يطلب من رفع الأذى إلا قدر ما تحقق أنه أذى، لأنه لما تهدم البناء في المدينة، وغرق المال - وهي الإبل كما تقدم - لأن كثرة المطر للإبل تتوَحَّل فيه، ولا يصلح لها به حال، والجبال والصحارى، ما دام المطر فيها، كثرت الفائدة فيها في المستقبل من كثرة المرعى والمياه وغير ذلك من المصالح، فدعا أن يرفع قدر ما فيه الضرر، وتبقى الجبال وما حولها، لما يُرَجَى فيها من الخير.

الوجه الثامن عشر: في هذا دليل على ما أعطى الله، سبحانه، نبيه، عليه السلام، من الإدراك العظيم للخير، على سرعة البديهة.

الوجه التاسع عشر: قوله (فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب) فيه دليل على عظم معجزته، عليه السلام، في ذلك، وهو أن سَخَّرَت السحاب له، كلما أشار إليها امتثلت بالإشارة دون كلام، لأن كلامه، عليه السلام، مناجاة للحق، وأما السحاب فبالإشارة، فلولا الأمر لها بالطاعة له، عليه السلام، لما كان ذلك، لأنها أيضاً - كما جاء - مأمورة، حيث تسير، وقدر ما تقيم، وأين تقيم.

وهنا إشارة لطيفة وهي: أن السحاب تفهم - على بعدها - منه الإشارة، والمحروم والأطروش<sup>(١)</sup> القلب يسمع درر المواعظ ولا ينتبه ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup> ومن لم يكن له في القِدَم سعادة فكل موعظة عليه خسران.

وقوله (إلا انفرجت) أي: زالت وتنحَّت امتثالاً لما به أمرت. وقوله (وصارت المدينة مثل الجوبة) معناه: مثل جيب الثوب، أي في ناحية منه. وقوله (وسال الوادي، قناة، شهراً) أي جرى

(١) الأطروش: الأطرش الأصم.

(٢) سورة المطففين، من الآية ١٤.

لحكمة، فهي - والله أعلم - الإرشاد إلى الزيادة في الخدمة، كما قال، عليه السلام، لِضِمَامٍ<sup>(١)</sup> حين قال له (هل عليّ غير ذلك؟ فقال: لا، إلّا أن تَطَوَّعَ) فكان ندبه، عليه السلام، إلى التطوع بالقول، ثم جاء عمله، عليه السلام، هنا تحضيضاً على ما ندب إليه بالقول. فإن عمله، عليه السلام، أبلغ في التعليم، وتقعيد الأحكام بالفعل أبلغ، وإن كان القول كافياً - كما هو معلوم من الشريعة في غير ما موضع - وهذا وجه حسن.

الوجه الثاني: فيه من الفقه: أن كل ما يأمر المرء به غيره، ويرغبه فيه، من أفعال البر، ينبغي له أن يفعله هو حتى يكون له ذلك حالاً ومقلاً، لئلا يدخل بذلك تحت قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ؟ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ولذلك قال بعض من نُسب إلى الحال: سيعلم صاحب فقه الكلام وصاحب فقه الحال عند هبوب رياح القيامة، وانجلاء غمام الدنيا، من فارس الميدان منهما؟

وإذا نظرنا لمجموع عددها زاد لنا معنى مع ذلك، وهو معنى لطيف، وهو من شيم أهل الهمم، لأننا وجدنا الصلاة التي زادها هو، ﷺ، بحسب ما وردت بها الآثار أربعاً وأربعين ركعة، والوتر واحدة، فذلك خمس وأربعون مع الخمسة المفروضة، فذلك أصل العدد المفترض أولاً، وهو خمسون صلاة. وطلب، ﷺ، لأتمه أيضاً التخفيف شفقة عليهم، وأخذ هو، ﷺ، في حق نفسه المكرمة بالعمل على التوفية والكمال، حتى يحصل له الثبوت في قدم قوله عز وجل ﴿الَّذِي وَفَّى﴾<sup>(٣)</sup> وكقول موسى، عليه السلام ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾<sup>(٤)</sup> ثم إنه أكمل أبعد الأجلين، لأن الأنبياء والرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، هم أهل الهمم السنية. وكيف لا، وهم خير الخيرة من البرية؟

فنحتاج إذاً أن نسمي تلك الأربع والأربعين، وهي: ركعتا الفجر، والضحى - على ما انتهت الأخبار عنه، ﷺ، أنها اثنتا عشرة ركعة - وعند الزوال بعدما كان نهى عن الصلاة في ذلك الوقت، ثم رجع عليه السلام فصلّى فيه أربعاً، على غلبة الظن في تيقن العدد، وقبل الظهر ركعتين، وبعدها ركعتين، وقبل العصر ركعتين، وبعد المغرب ركعتين، وتحية المسجد ركعتين، وبعد العشاء ركعتين، وإن كانت الصلاة التي عند استواء الشمس ركعتين، فيكون تمام الأربع والأربعين ما روته

(١) سلفت ترجمته في الحديث ٦.

(٢) سورة الصف، الايتان ٢ و ٣.

(٣) سورة النجم، من الآية ٣٧.

(٤) سورة القصص، من الآية ٢٨.

عائشة، رضي الله عنها، أنه عليه السلام (كان يصلي على فراشه ركعتين، وحيتنذ ينام، ﷺ) وقيام الليل اثنتا عشرة ركعة، والوتر واحدة، لأنه يُطْلَقُ على كل ركعة صلاة، بدليل قوله عليه السلام: (إن الله زادكم صلاةً إلى صلاتكم، ألا وهي الوتر)<sup>(١)</sup>. فقد سمي عليه السلام الواحدة صلاة. ويظهر فيه من الحكمة أن المولى، سبحانه، لما نقص من العدد واحدة، زادها هو، جلّ جلاله، ليكمل الفضل بفضله على سيدنا، صلى الله عليه وسلم وعلى أمته.

جعلنا الله من صالحها في الدارين بمنه، فكما نقص العدد منها أولاً تفضلاً وتخفيفاً أكمله آخرها تفضلاً وإكمالاً.

وهنا بحث لطيف، وهو: أنه لِمَ جعلت هذه الأمة شهداء على الأمم؟ بمقتضى قوله، عز وجل، في كتابه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾<sup>(٢)</sup> وقد كان من كلام موسى، عليه السلام، لسيدنا ﷺ: (إني عالجت بني إسرائيل أشد المعالجة وإن أمتك لا تطيق ذلك) فتفضل المولى، جلّ جلاله، بأن وفق هذا السيد، ﷺ، للكمال في إكمال العدد المطلوب أولاً، حتى يكون تزكية في الشهود، فإن من شرط الشهادة التزكية والعدالة، فبانت تزكية هذه الأمة بفضل الله، تعالى، ولم يتركها سيدنا، ﷺ، مع ضعفها، حتى تكون عدالتهم ظاهرة من أجل تحقيق الأحكام، ثم لم يقتصر هو، ﷺ، على ذلك ليس إلا، لأنه، عليه السلام، ترك لنا بابين إلى الزيادة مفتوحين:

(الواحد) بقوله عليه السلام: (رحم الله عبداً صلى أربعاً قبل أربع، وصلى أربعاً بعد أربع. ومن صلى بين العشاءين اثنتي عشرة ركعة بنى الله له قصرًا في الجنة)<sup>(٣)</sup>، وما أشبه ذلك من الأحاديث التي جاءت في مثل هذا المعنى، وهي كثيرة.

والباب (الثاني) إشارته، عليه السلام، إلى تمام التزكية في باقي الأقوال والأفعال، بقوله عليه السلام: (من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً)<sup>(٤)</sup>.

فبالله عليك يا أخا الشبهات والشهوات، انتبه لنفسك يسيراً، ولا تحرمها هذا المقام الرفيع الجليل، وتقمها مقام الذل والتعنت. فإن من اتبع شهوته ذهب مروءته وشان دينه، ومن كان بهذه

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

(٣) مركب من حديثين: الأول: رحم الله امرأ صلى قبل العصر أربعاً. أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان عن ابن عمر رضي الله عنهما. والثاني: من صلى في اليوم والليلة اثنتي عشرة ركعة تطوعاً بنى الله له بيتاً في الجنة.

أخرجه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أم حبيبة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الصفة ضاع عمله، وكانت النار أولى به، وقد قال ﷺ: (لو صمتم حتى تكونوا كالأوتار، وقمتم حتى تكونوا كالحنايا، ولم يكن لكم وَرَعٌ حاجز، لم يمنعكم ذلك من النار)<sup>(١)</sup>. وإن الفتى إذا نبذ شهواته طمعت نفسه في اكتساب الخور والقصور.

فتنبه إلى هذه الحكمة العجيبة منه، ﷺ، في تفريقه، عليه السلام، هذه الصلوات على هذا الترتيب العجيب، لأنه، عليه السلام، لو جعلها في وقت واحد أو جعلها عدداً مرتباً، لا يُزاد فيها ولا يُنقص، لكان في ذلك مشقة، وربما لا يقدر عليها كثير من الناس، فلما جعل عليه السلام منها ما هو مستصحب مع الصلوات المفروضة، ومنها ما هو في غير وقت الصلوات إلا أنه بتوسعة مثل قيام الليل إذ الليل كله ظرف، والضحى من بعد طلوع الشمس إلى الزوال، فمن عجز عن قيام الليل والضحى لم يعجز عن التي هي مع الصلوات - كما تقدم - فكانت خفيفة على الناس، حتى قلَّ ما يكون من مصلٍّ يصلي فريضة ولا يتنفل قبلها ولا بعدها، وإن كان فيكون في حكم النادر الذي لا حكم له.

فانظر إلى هذه الإشارة اللطيفة: لما طلب منا أولاً خمسين، ثم ثبت الفرض على خمس فجاء الأصل خمساً ووفاء الكمال خمسين. فما نقص من الأصل الذي ثبت بالحكم الحتم وهو خمس أكمل من الأصل المطلوب أولاً وهو الخمسون، وسميت نفلاً لكونها غير حتم، ولذلك جاء أنه إذا كان يوم القيامة يقول مولانا جلّ جلاله: انظروا إلى صلاة عبدي فإن أتى بها كاملة، وإلا قال عز وجل انظروا إن كانت له نافلة فأكملوها منها<sup>(٢)</sup>. فأكمل الأصل - الذي هو الفرض - من الأصل الذي كان أولاً بالوضع فجاء قوله تعالى ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾<sup>(٣)</sup>.

وبقي بحثان: (أحدهما) لِمَ كان، عليه السلام، لا يصلي بعد المغرب إلا في بيته؟ و(الثاني) مثله في الصلاة التي بعد الجمعة.

فالجواب: إن قلنا: إن ذلك تعبد، فلا بحث. وإن قلنا: إن ذلك لحكمة - وهو الحق - فما هي؟ فنقول: أما كونه، عليه السلام، لم يصل بعد المغرب إلا في بيته فقد أجبننا عنه، في غير هذا الحديث، لكن نشير الآن إلى بعضه، لكون النفس متشوقة إليه. وذلك أن المغرب وقت ضيق، فقد يأتي الناس إلى صلاتهم، ويتركون ضروراتهم والغالب عليهم الصوم والكذب في الأسباب. فلو بقي

(١) أخرجه السيوطي في الجامع الكبير بلفظ: (لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار، ثم كان الاثنان أحب إليكم من الواحد لم تبلغوا الاستقامة). رواه عمرو بن عساكر من طريقه. وقال مالك بن دينار لم يسمع من أبي مسلم والدليمي.

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ آخر.

(٣) سورة ق، الآية ٢٩.

النبي ﷺ، يركع في المسجد، لما خرج أحد منهم - في الغالب - فيلحقهم بذلك تألم، وهو، عليه السلام، الذي قال في هذه الصلاة خصوصاً (إذا وُضع العشاء، وأقيمت الصلاة، فابدؤوا بالعشاء)<sup>(١)</sup> رحمة منه لهم. وقد تقدم الكلام عليه، فكيف في النافلة؟

وأما كونه، عليه السلام، لم يصل أيضاً بعد الجمعة في المسجد فقد بين عمر، رضي الله عنه، العلة في ذلك بمحضره، عليه السلام، وأجاز ذلك، كما في كتاب مسلم، لأنه لما حض، عليه السلام، على التنفل بعد الجمعة، كما جاء في مسلم أيضاً قام رجل بعد الفراغ من صلاة الجمعة يركع، فجبذه عمر، رضي الله عنه، حتى أبعدته، وقال له: (اقعد. تشبه الجمعة بمن فاته من الظهر ركعتان) والنبي ﷺ، قاعد ولم يقل شيئاً. فسكوتة عليه السلام دال على جواز ذلك الحكم، وهو المشرع. فلو لم يكن الحكم كذلك لتكلم، عليه السلام، بما يبين به الحكم، لأن السكوت عن بيان الحكم عند الحاجة إليه لا يجوز، فجاءت صلاته، عليه السلام، بعد الجمعة في بيته تبيناً لمن أراد أن يصلي بعدها، من حيث ألا تكون الصلاة متصلة بها.

وقد تكلم العلماء في التنفل بعد المغرب وبعد الجمعة في المسجد، هل يجوز أم لا؟ فأما التنفل بعد المغرب في المسجد فلم يُمنع أحد من ذلك، لأن تلك العلة التي ذكرنا عن سيدنا، ﷺ، معدومة في غيره، لكن الأفضل في البيت، من أجل ما في الاتباع من الفضل، وقد كان من السلف من يتنفل في المسجد بعد المغرب. وأما بعد الجمعة فالذي أجاز ذلك منهم قال: لا يفعل، حتى يخرج من باب ويرجع من آخر. ومنهم من قال: ينتقل من موضعه إلى موضع آخر. ومنهم من قال: يجلس في موضعه ساعة حتى تذهب علة الشبه التي نهى عنها - كما حكيناها آنفاً - ولم يختلف أحد أن تنقله في البيت أفضل. وفيه وجوه من الفقه.

(أحدها) الأخذ بسد الذريعة، لأنه لو فعل ذلك في زمان النبي ﷺ والخلفاء، رضي الله عنهم، لكان الناس يقولون: تلك الركعتان تمام لعدد ركعات الظهر. وقد كان يؤول الأمر لأن يعتقد أنها فرض، أما ترى أن بعض العلماء يقول في الخطبة: إنها بدل من الركعتين، وأن من فاتته الخطبة لا تجزئه الجمعة، ويصلي ظهراً أربعاً؟ وهذا بعيد. أين نسبة الخطبة من الصلاة؟ فكيف في الركوع الذي هو من جنس الصلاة؟ ولم يجيء أن أحداً من السلف فعل ذلك.

وقد صار اليوم العمل على خلاف هذا، وهو ما يفعله الناس بالديار المصرية وغيرها ممن حذا حذوهم من التزامهم الركوع إثر صلاة الجمعة متصلاً بها، وهو من البدع. ثم إنهم زادوا في ذلك بأن سموها سنة الجمعة، وهذا مناقض للحديث الذي نحن الآن نتكلم فيه، والذي أوردناه من حكم

(١) هو موضوع الحديث ٤٢.

النبي ﷺ، كما جاء في مسلم. ولا أحد ممن ينسب أو ينتسب للعلم يغير ذلك، بل يفعله، ويحتج بأن يقول على ما بلغني: هو وقت يجوز فيه الركوع. فكأنه لم يسمع قط هذين الحديثين اللذين هما في الصحة والشهرة بحيث المنتهى، أو كأنه لم يعرف قط المراد بسياقهما، وما يستنبط منهما، فأين العلم، وأين أهله؟

فإنّا لله وإنا إليه راجعون، على حوادث حدثت في الدين، وأكثرها من هذه الطائفة المنتسبة للعلم، وليس عندهم منه إلا نقل الألفاظ، والتحكم من طريق الجدل والمباهاة. هيهات، ما العلم كذلك، ولا طريقه هنالك، بل هو باتباع السنة والسنن، وبالنور والحكمة تقع فيه الموافقة لمن تقدم.

وفقنا الله لذلك بمنّه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.



## حديث غزاة بني قريظة

عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ، لَنَا لَمَّا رَجَعَ مِنَ الْأَحْزَابِ<sup>(١)</sup>: لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ<sup>(٢)</sup>. فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمُ الْعَصْرَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي، لَمْ يَرِدْ مِثْلًا ذَلِكَ. فَذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يُعَنَّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ.

\* \* \*

ظاهر الحديث أمرُ النبي ﷺ، للصحابة، رضي الله عنهم، بالخروج إلى بني قريظة، ومبادرتهم لأمره، عليه السلام. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: فيه دليل لمن يقول: إن كل مجتهد مصيب. يؤخذ ذلك من قوله (أدركهم العصر في الطريق. فقالوا: لا نصلي حتى نأتي بني قريظة)<sup>(٣)</sup> تعلقاً بظاهر صيغة الأمر. ومنهم من تأول وقال: ما المقصود ترك الصلاة، تحفظاً على القاعدة الأصلية، وإنما المقصود منا سرعة الخروج والسير، وقد حانت الصلاة فنجمع بين الأمرين. فكل منهم مصيب، لأن المقصود من العبد بذل الجهد في امتثال ما أمر به، إذا كان على الوجه المأمور به، تحرراً من تحريف التأويل لحظ نفساني. فبهذا القيد يصح: أن كل مجتهد مصيب.

ومع ذلك، لا بد أن يكون أحد الوجهين هو الأولي، بدليل قول مولانا، جلّ جلاله، في قصة

(١) الأحزاب: جنود الكفار، تألبوا وتظاهروا على حرب النبي ﷺ، وهم قريش وغطفان وبنو قريظة. وهي المعروفة باسم: غزوة الخندق.

(٢) بنو قريظة: حي من يهود، وهم والنضير قبيلتان من يهود خيبر. فأما قريظة فقد أبيعوا لتقصهم العهد ومظاهرتهم المشركين على رسول الله ﷺ، أمر بقتلهم، وسبي ذراريهم، واستفاء أموالهم، وأما بنو النضير فإنهم أُجلوا إلى الشام، وفيهم نزلت سورة الحشر.

(٣) كذا. ولفظ الحديث (حَتَّى نَأْتِيَهَا).

داود وسليمان، عليهما السلام ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ وَكُلَّاءَ آيِّنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾<sup>(١)</sup> وذلك أن رجلين في زمان داود، عليه السلام، كان لأحدهما زرع، وللآخر غنم، فرعت الغنم الزرع، فتحاكما إلى داود، عليه السلام، فحكم بالغنم لصاحب الزرع. فلما خرجا قال لهما سليمان عليه السلام: ما حَكَمَ به داود؟ فأخبراه بحكمه لصاحب الزرع بالغنم. فقال لهما سليمان عليه السلام: بل الحكم أن يأخذ صاحبُ الزرع الغنمَ، يستغلها حتى يُخْلِفَ زرْعُهُ، ويكون مثل القدر الذي رعته الغنم، ويأخذ إذ ذاك صاحبُ الغنم غنمه. فبان ما حَكَمَ به سليمان عليه السلام أنه كان هو الأرجح، بدليل أنه بقي لكل واحد منهما ماله بعد تقاضي ما كان بينهما. وعلى حكم داود، عليه السلام، كان الحكم أن يبقى صاحب الغنم دون شيء.

وكذلك نقول في هذه المسألة، وإن كان الوجهان جائزين. فالواحد أرجح لكونه جَمَعَ بين أصْلَيْنِ، وكلاهما واجب، والتأويل الذي يسوغ معه أداء واجِبَيْنِ أُولَى من إسقاط أحدهما.

الوجه الثاني: فيه من الفقه أن القاعدة الثابتة المستصحية لا تُزال بأمر محتمل، لأن وقت الصلاة قاعدة قد تقررت، واستصحب الحكم بها، وأمرهم النبي، ﷺ، بالأصلي أحد العصر إلا في بني قريظة. فاحتمل الأمر - على ما تقدم - لأن يكون المقصود ذلك الوجه، ولا نعرفه نحن في الحال، واحتمل أن يكون المقصود الوجه الثاني، وهو سرعة الخروج - كما تقدم - فكيف نزيل حكماً قد تقرّر، واستصحب العمل عليه، بمحتمل الأمرين؟ الأظهر أن: لا، والجواز قد وقع من الشارع، عليه السلام، فجاء في الأمر، والحمد لله، سعة.

الوجه الثالث: يترتب عليه من الفقه أيضاً أن المرء إذا كان عند نازلة لا يمكنه تأخيرها، وليس عنده علم بحقيقة حكم الله تعالى فيها، أنه يجتهد فيما يظهر له، ويعمل عليه. فإذا وجد من له معرفة بذلك الأمر يسأله عما فعل، فإن أخبره أنه قد وافق فعله حكم الله - على مذهب أحد علماء المسلمين - فقد تخلصت ذمته. وهذا خير كثير.

يؤخذ ذلك من أنه لما حان وقت العصر، وهم بالطريق، وما كان فيهم من سأل النبي، ﷺ، بأن يقول: إن أدركنا الوقت في الطريق فما نفعل؟ فلو كان فيهم من فعل ذلك لوجب على الكل أن يتبعوه، لأمر النبي، ﷺ، به ذلك الواحد، ولم يجز لهم مخالفته. فلما لم يقع كان ذلك تخفيفاً من الله ورحمة حتى تتقعد عليه هذه القواعد المباركة، فاحتاجوا إلى النظر والاجتهاد، بحسب وسع كل واحد منهم في الوقت، فلما اجتمعوا معه، ﷺ، أخبروه ليجيز من فعلهم ما يجيز، ويرد ما يرد، فأجاز عليه السلام الفعلين معاً، كما فعل عليه السلام حين صلوا في الظلمة بحسب اجتهادهم،

(١) سورة الأنبياء، من الآية ٧٩.

وَعَلَّمَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَوْضِعٍ مُصَلَّاهُ . فلما أصبحوا فإذا هم قد أخطأوا القِبلة عن آخرهم ، فلما أتوا النبي ﷺ ، سألوهُ عن ذلك ، فأجاز فعلهم .

فالسؤال من الصحابة بما يقع منهم له ، عليه السلام ، كسؤال من لا يعلم حكم الله لمن يكون له به علم ، بعد نزول ما ينزل به ، ويعمل فيه بحسب اجتهاده - كما تقدم - على حدّ سؤالهما .

ونذكر الآن إشارة : ما الموجب لخروجهم إلى بني قريظة؟ لما يترتب عليها من الفقه . وذلك أنهم لما رجعوا من الأحزاب ، وفيهم الجريح الشديد الجرح ، وجاء النبي ﷺ ، ليزيل سلاحه ، وجبريل عليه السلام قد نزل وعليه سلاحه أيضاً فقال : أنزيل السلاح والملائكة لم تُزلّها<sup>(١)</sup>؟ وأمره عن الله أن يخرج من حينه ، ولا يزيل سلاحه ويأمر كل من جاء من الأحزاب من المسلمين أن يخرجوا من حينهم . فخرجوا ، وإن الجريح منهم خرج وهو يتهدى بين اثنين لشدة جراحه ، وكان العدو قد طمع في المسلمين لما نالهم من الجرح والقتل ، وعزموا أن يأتوا المدينة . فلما سمعوا بخروج المسلمين من حينهم أوقع الله ، عزّ وجلّ ، في قلوبهم الرعب ، ورجعوا هاربين ، فدفع الله ، عزّ وجلّ ، عن المسلمين ما كانوا عزموا عليه من أن يغيروا على المدينة .

الوجه الرابع : يترتب على هذا من الفقه أن أعظم الأسباب في النصره هو امتثال الأمر ، لأنه يعلم بالقطع أن أولئك المجروحين الذين خرجوا وهم يتهدون بين اثنين ، أنهم لا يقدرّون على قتال ، ولا يدفعون شيئاً . فلما امتثلوا ، وفوضوا الأمر لقدرة الأمر ، نصرهم الله بلا قتال ، ولا شيء تكلفوه ، لأنهم فهموا أن المقصود منهم الامتثال ، وأن النصر هو المنعم به تصديقاً لقوله ، عزّ وجلّ ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup> وكذلك سنة الله تعالى في عباده إلى يوم الدين ، مَنْ نصره ، نَصَرَهُ ، ومن أصدق من الله حديثاً؟ ونصرة الله من عبده هي اتباع أمره ، واجتناب نهيه .

الوجه الخامس : فيه دليل على أن فحوى الكلام كالنص يعمل به ، وفحوى الكلام هو ما يعرف من قوة الكلام ، وكذلك هذا لما عرفوا من قوة الكلام أنه ما المراد منهم أن يخرجوا لبني قريظة إلا للقتال ، لم يحتج ، عليه السلام ، لِيُبَيِّنَ لهم شيئاً ليفهمهم المقصود . هذا في الجهاد الأصغر ، وهو جهاد العدو ، وكذلك الأمر في الجهاد الأكبر ، وهو جهاد النفس . وقد أشار مولانا جلّ جلاله لذلك بقوله ﴿وَمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾<sup>(٣)</sup> فمهما كبر الأمر

(١) أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريل عليه السلام فقال : قد وضعت السلاح والله ما وضعناه ، فأخرج إليهم . قال : فإلى أين؟ قال : ها هنا ، وأشار إلى بني قريظة . فخرج النبي ﷺ .

(٢) سورة الروم ، من الآية ٤٧ .

(٣) سورة الأعراف ، من الآية ٢٠٠ .

جعل الفرج فيه أكبر، لأن أمر الشيطان والنفس أكبر، فجعل في الشيطان والظفر به نفس اللجأ، كما أخبر عز وجل، وجعل في النصر على النفس الأخذ في مجاهدتها على لسان العلم، فقال عز وجل ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾<sup>(١)</sup> لو جعل سبب العون على مجاهدتها حقيقة الاستعانة به عز وجل، بقوله تعالى ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ولذلك قال بعض أهل التوفيق: إذا نزلت بي نازلة من أي نوع كانت، فألهمت فيها إلى اللجأ، فلا أبالي بها.

(واللجأ) يكون على وجوه: فمنه (الاشتغال بالذكر والتعبد وتفويض الأمر له) عز وجل لقوله تعالى على لسان نبيه، عليه السلام (من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)<sup>(٢)</sup>، ومنه (الصدقة)، لقوله، عليه السلام (استعينوا على حوائجكم بالصدقة، وادفعوا البلاء بالصدقة)<sup>(٣)</sup>، ومنه (الدعاء)، لقوله، عليه السلام: (من ألهم الدعاء فقد فتح عليه أبواب الخير)<sup>(٤)</sup>. فكيف بالمجموع؟ فهم يرون كل ما هو سبب إلى الخير هو عين الخير.

الوجه السادس: فيه دليل صوفي، لأنهم يقولون (موت النفوس: حياتها، ومن أحب أن يحيا: يموت) لأن الصحابة، رضي الله عنهم، لما هانت عليهم نفوسهم، وخرجوا وهم راضون بالموت في ذات الله، عز وجل، لأن من يخرج - كما وصفناهم به أولاً - فقد عزم على الموت، فعند ذلك ظفروا بالنصر والأجر والأمن. كذلك حال أهل التوفيق يبذل النفوس وهوانها عليهم، نالوا ما نالوا، ولحب أهل الدنيا نفوسهم هانوا؛ وحق عليهم الهوان هنا وهناك. وقد ورد في الحديث (ما من عبد إلا وفي رأسه حكمة<sup>(٥)</sup> بيد مَلَك، فإن تعاضم وارتفع ضرب المَلَك في رأسه، وقال له: اتَّضِعْ، وَضَعَكَ اللهُ. وإن تواضع رفعه المَلَك، وقال له: ارتفع، رفعك اللهُ).

مَنْ اللهُ علينا بما به يقربنا إليه بمنه.

وصلَّى اللهُ على سيِّدنا ومولانا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

(١) سورة العنكبوت، من الآية ٦٩.

(٢) سبق تخريجه في الحديث ٤٧.

(٣) أخرجه الديلمي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: استعينوا على الرزق بالصدقة. وأخرج السيوطي في الجامع الكبير قول النبي ﷺ: داووا مرضاكم بالصدقة، وحصنوا أموالكم بالزكاة، فإنها تدفع عنكم الأعراض والأمراض.

(٤) تقدم تخريجه في الحديث (٦) - الوجه السابع.

(٥) أخرجه أبو نعيم والديلمي عن أنس وأوله: ما من آدمي إلا وفي رأسه حكمة بيد مَلَك.

## حديث السنّة يوم عيد الفطر

عن أنسٍ، رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ، لا يَغْدُو يَوْمَ الْفِطْرِ حَتَّى يَأْكُلَ تَمْرَاتٍ. وَعَنْهُ مِنْ طَرِيقٍ ثَانٍ: وَيَأْكُلُهُنَّ وَتَرَأَ.

\* \* \*

ظاهر الحديث أن السنّة في يوم الفطر ألا يغدو أحد للمصلّي إلا بعدما يفطر، والمستحب أن يكون على التمر، وأن يكون وترأ. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: هل هذا معقول المعنى أم لا؟ فالجواب: أن المعنى فيه ظاهر، وهو إظهار امتثال الأمر، لأنه لما أن كان صوم هذا اليوم محرّماً، والمشروع فيه الأكل، فبادر للامتثال، وهو الأكل، ولو كان لغير ذلك لكان يأكل الشيع من الطعام.

وبقي بحث على كونها تمرأ، وكونها وترأ<sup>(١)</sup>. فأما كونها تمرأ فلو جوه: منها حلاوتها، والحلاوة مما توافق الإيمان، ويرقّ بها القلب، وقد جاء في ذلك أثر. ويترتب على هذا من الفقه استعمال الأشياء الحلوة إذا لم يوجد التمر. ومنها أنها أيسر الأشياء عندهم بالمدينة، وكان، ﷺ، يحب ما تيسر من الأشياء.

ويترتب على هذا الوجه من الفقه: أن التكلف للفطر في ذلك اليوم مخالف للسنّة، لأنه تكون النفس مشغولة بذلك. وكان، ﷺ، هو وأصحابه، رضوان الله عليهم، همّتهم الآخرة، حتى إنه روي عن علي، رضي الله عنه، أنه كان يقول لأهله: اعملوا الطعام مشروباً، ولا تعملوه مأكولاً، لأن بين المأكول والمشروب كذا وكذا<sup>(٢)</sup> آية. فما كانوا - رضوان الله عليهم - يأخذون من الدنيا إلا قدر الضرورة. واحتمل المجموع.

(١) إن الله وتر يحب الوتر، فأوتروا يا أهل القرآن. أخرجه الترمذي عن علي رضي الله عنه، وابن ماجه عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) لعله يشير إلى قوله تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُورٌ﴾ من كَأَيِّنْ كَانَتْ مِرَاجِعُهَا كَأَقْوَرًا. نَحْنُ يَتَرَبَّصُّ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَصِّرُونَهَا تَفْصِيرًا. يُؤْفُونَ وَالْتَدَرُّوْنَ يَوْمَ مَا كَانَتْ تُشْرِكُ مَسْطُورًا. وَيُظَاهَرُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشْرَكَيْنَا وَيُنَاسِئُهَا أَيِثْرًا ﴿ الآيات ٥ - ٨.

(وأما كونها وترًا) فيحتمل أن يكون على معنى التداوي، لقوله عليه السلام (مَنْ تَصَبَّحَ بِسَمْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةٍ لَمْ يَضُرَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمَ سُوءٌ وَلَا سِحْرٌ<sup>(١)</sup>). ويحتمل أن تكون على وجه التبرك، لقوله عليه السلام: (إن الله وتر يحب الوتر) فيكون استفتاحه هذه العبادة بما هو مستحب، وهو الوترية، كما سن في الاستجمار الواجب الإنقاء، والسنة الوترية<sup>(٢)</sup>. ويحتمل أن تكون تنبيهاً على الوجدانية، ليعرف قدر نعمها في هذا اليوم على العباد، كما جاء في تحريك السبابة في التشهد - في أحد الوجوه - في أنه يعتقد بتحريكها أن الله إله واحد. ويحتمل المجموع وأكثر من ذلك.

الوجه الثاني: فيه من الفقه: أن حقيقة الخير هو نفس الامتثال فيما أحبته النفس أو كرهته، فإن جاء ما تحب في الامتثال مثل هذا الموضع وما أشبهه فهو من جملة النعم لأنها تفعل ما تحب، وتكون فيه مأجورة. ومما يقوّي ما قلناه: ما جاء عنه، عليه السلام، في عيد الأضحى (أنه كان يخرج للمصلّي ولا يأكل شيئاً حتى يُقَرَّبَ أضحيته أو هديّه، وأول ما يأكل منه زيادة الكبد)، لأنه أقرب ما يفعل الآدمي في يوم النحر إراقة الدم. فأراد عليه السلام أن يكون فطره على ما فيه رضى مولاه.

وهذا بحث: لِمَ كان، ﷺ، يأكل أولاً زيادة الكبد؟ فذلك - والله أعلم - لكي يقع التشبه في ذلك بأهل الجنة، لأنه روي أن أول طعام يأكله أهل الجنة: زيادة كبد الحوت، الذي عليه قرار الأرضين. واحتمل أن يكون بدأ به لأنه كالإصبع قائم، فيكون فيه إشارة إلى الوجدانية. ويحتمل أن يكون بدأ به لمجموع ما ذكرناه. والله أعلم.

ويرتب على هذا من الفقه أيضاً أن الذي يفعله اليوم المترفون من أبناء الدنيا: كونهم يقدمون من أول ليلة العيد لحماً، ويطبخون الألوان، ويأكلون قبل ذبح الأضحية. هذا هو فعل الذي يضحى منهم، وأكثرهم مخالفون للسنة بتركها البتة، ولذلك قد تنكّرت معارف الشرع بالبدع والمخالفات التي أقاموها لأنفسهم، ويحتجّون بأن يقولوا: هذه عادة الناس. وكيف نقول (تأسيًا) لمن تركوا سنة نبيهم عليه السلام، ويؤثرون عادة نفوسهم الذميمة؟

وفي أكله عليه السلام يوم الفطر أيضاً - قبل الغدوّ - فائدة أخرى، وهي: تقرير قاعدة شرعية بالفعل، لأنه - كما تقدّم لنا في غير ما موضح - أن تعييده عليه السلام القواعد الشرعية وأحكامها بالفعل أبلغ.

وبقي بحث فيمن لم يجد، ولم يقدر على التمر، ولا على شيء حلّ فالجواب أن نقول: إنما

(١) أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.  
(٢) استجمر الرجل: استنجى بالجمار، وتطهّر بها من الخبث عند عدم وجود الماء. والسنة الوتر في ذلك. والجمار هي الحجارة الصغيرة.

يؤمر بذلك مع الإمكان، وعند عدم الإمكان قام العذر. وصاحب العذر مسامح في الترك لكنه يفطر ولو على الماء، حتى تحصل له نسبة ما في الاتباعية، لأنه قد جاء عنه، عليه السلام، أنه كان إذا لم يجد تمرًا، وكان صائماً يفطر، وإن يَسِرَ الله له بعد ذلك في شيء أكل، ولا يجوز خلاف ذلك، ولذلك قيل: عدمك الإمكان لما أمرت به عذر، وتركك إياه مع الإمكان له وِزْر، وطالب العذر مع الإمكان مضيق.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

## حديث العمل في أيام التشريق

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ أَفْضَلَ مِنَ الْعَمَلِ فِي هَذِهِ. قَالُوا: وَلَا الْجِهَادَ؟ قَالَ: وَلَا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أنه ليس شيء من الأعمال أفضل من الأعمال في أيام التشريق وهي: الثلاثة أيام التي بعد يوم النحر. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول منها: أن فيه دليلاً على أن هذه الأيام - وإن كانت أيام عيد - فإنما هي للعبادة لا للهو، وما يفعل الناس فيها اليوم من أنواع البطالات فممنوع بهذا الحديث. فإن احتج محتج بقوله، عليه السلام: (لكل أمة عيد وهذا يوم عيدنا)<sup>(١)</sup> فقد بَيَّنَّ، عليه السلام، ما هو المباح فيها أيضاً بقوله عليه السلام: (إنما هي أيام أكل وشرب وذكر الله)<sup>(٢)</sup>، وقال عليه السلام: (أفضل ما يعمل فيها إراقة الدماء)<sup>(٣)</sup>.

ومن السنة في إراقة الدماء أن يأكل مما يتقرب به، ويتصدق ويهدي. وقد شرع فيها أعلى العبادات، وهي: الذكر بقوله عليه السلام: (ما عمل آدمي عملاً أنجى له من ذكر الله)<sup>(٤)</sup>، ونفقة المال في الضحايا لقوله عليه السلام: (تنافسوا في أئمانها فإنها مطاياكم إلى الجنة). وقد جعل فيه الصدقة من الأضحية. والصدقة، كما قال عليه السلام: (تطفئ غضب الرب)<sup>(٥)</sup>. والذي مُنِعَ فيها

(١) لفظه: (يا أبا بكر، إن لكل أمة عيداً، وهذا عيدنا). أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) أوله: (أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل). أخرجه الإمام أحمد ومسلم والنسائي عن نبیة الهذلي رضي الله عنه.

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه في الأضاحي.

(٤) لفظه: (ما عمل ابن آدم عملاً أنجى له من عذاب من ذكر الله). أخرجه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٥) لفظه: (إن الصدقة لتطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء). أخرجه الترمذي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه.



من مجاهدة النفس هو الصوم لا غير . وبقي باقي العبادات مطلوب على الوجوب أو الندب لأن الفرض لا يسقط في وقت من الأوقات مع القدرة عليه ، لا في عيد ولا في غيره . وجاء هذا الحديث يحض على طلب المندوبات ، وجعلها أعلى مما هي في غيرها تأكيداً لها .

(وهنا بحث) وهو : هل تفضيل الأعمال في هذه الأيام لعلّة مفهومة ، أو تعبد ليس إلّا؟ (فنقول) : بل لعلّة . وهي : أنه قد تقرر من قواعد السنة المحمدية أن أوقات الغفلات العبادات فيها أفضل ، كما جاء في الصلاة التي بين العشاءين ، وما فيها لأنه وقت غفلة الناس ، وكذلك قيام الليل لما فيه من الغفلة أيضاً ، لأن الناس إذ ذاك في حال نوم وغفلة ، وكذلك صلاة الضحى لما فيها أيضاً من غفلة الناس بأسبابهم ، وهذا كثير . فلما كانت هذه الأيام أيام أكل وراحة للنفس فهي في الغالب يتسلط عليها النوم الكثير والغفلة . وأما اليوم فقد زُهِد في القُرب ، وجُعِلَت للهو والمحرمات .

واحتجوا بما جاء أنه ، ﷺ ، دخل على عائشة ، رضي الله عنها ، وعندها جوارٍ من بني النجار ، يضرِبُ بالذِّفِّ ، فاضطجع ، ﷺ ، على فراشه وحول ظهره إليهن ، وإذا بأبي بكر ، رضي الله عنه ، قد دخل فانتهرهن ، وقال : أمزاور الشيطان في منزل الرسول ﷺ ؟ فرد رسول الله ، ﷺ ، رأسه إليه ، وقال له : (دعهن فإنه يوم عيد)<sup>(١)</sup> .

وهذا لا حجة فيه ، لأن ذلك كان أول الإسلام ، والخمر إذ ذاك حلال ، والربا حلال ، والقمار حلال ، وكثير من الفرائض لم تفرض بعد ، ثم جرى الأمر بخلافه . ألا ترى إلى قوله عليه السلام يوم فتح مكة (إنما بعثت بكسر الدف والمزمار)<sup>(٢)</sup> فخرج الصحابة رضوان الله عليهم يأخذونها من أيدي الولدان ويكسرونها . فما جاء من الأحاديث أول الإسلام في إباحة شيء ، ثم حرم بعد فلا حجة فيها ، لأنها منسوخة . وقد نص عليه السلام على أن (لهو المؤمن لا يكون إلا في ثلاث : في رمية عن قوسه ، وتأديبه لفرسه ، وملاعبته لأهله)<sup>(٣)</sup> . فمن أين يكون لها رابع ؟ والأحاديث في ذلك كثيرة . وقد قال مولانا جلّ جلاله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾<sup>(٤)</sup> فاللهو ممنوع شرعاً في العيد وغيره ، إلا ما ذكرناه آنفاً .

وفضلت أيضاً من نوع آخر - أعني أيام التشريق - وهو : أنها لما كانت أيام محنة للخليل عليه

- 
- (١) أخرج مسلم وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي جارتان تغنيان بغناء بعثت ، فاضطجع على الفراش وحول وجهه ، فدخل أبو بكر رضي الله عنه فانتهرني وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله ﷺ ؟ فأقبل عليه رسول الله ﷺ ، وقال : دعهما . وفي رواية للشيخين : دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد .
- (٢) أخرج الإمام أحمد من حديث أبي أمامة : (إن الله أمرني أن أمحق المزمار والكيارات والمعازف) .
- (٣) أخرج أصحاب السنن الأربعة عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال : (كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ، ورميه بقوسه ، وملاعبته زوجته) .
- (٤) سورة لقمان ، من الآية ٦ .

السلام، ثم مَنْ عليه بأن أبدلت له المحنة بِمِنَّة، وأَيَّ مِنَّة، فصارت بهاتين الصفتين أفضل الأيام. والمولى سبحانه إذا مَنْ عَلَى مَنْ عَلَيْهِ من عباده بِمِنَّة لا يزيلها عنه. فأبقى، عزَّ وجلَّ، لهم ذلك الفضل، وزاد فيها بأن أبقى لهم النعمة، وهي ما شرع، عزَّ وجلَّ، من القربات، ورفع المحنة عنهم. وهي ما كان من ذبح الولدان.

(وهنا بحث) في قوله عليه السلام (ما العمل) الألف واللام هنا هل هي للجنس فيكون فيها التساوي بين المفروضات والمندوبات على اختلافها؟ أو هي للعهد، وهي أعمال مخصوصة؟

أما صيغة اللفظ فمحتملة للوجهين معاً، فيكون فضل الفرائض فيها أفضل من غيرها، كما قال عليه السلام في صلاة الصبح: (من شهدا في جماعة فكأنما قام ليلة) وقال في العشاء (من شهدا في جماعة فكأنما قام نصف ليلة)<sup>(١)</sup> فترى هذه أدبت في جماعة والأخرى كذلك، وبينهما قدر النصف في الأجر، وما ذاك إلا لما فيها - أعني في صلاة الصبح - من كثرة المشقة، زائداً على العتمة، لأن أكثر الناس في الصبح على حال جنابة ونوم وغفلة أكثر مما في العتمة، فيكون أداء الفرائض في هذه الأيام مثل ذلك سواء، لما فيها من كثرة الغفلة والجنابة والأكل والراحة، فتكون بهذا النظر أفضل من غيرها. وذلك مثل الجهاد، لأن الجهاد فيه فرض وتطوع، كما هي الأعمال في هذه الأيام فيها فرض وتطوع.

واحتمل أن تكون للعهد، وهي إشارة إلى الأحاديث التي ذكرنا أولاً، من أنها أيام أكل وشرب وذكر الله تعالى، والأعم أولى من أجل كثرة الفائدة، فيكون ما أوردناه أولاً من تلك الأحاديث المعنى فيها: أن الذي يعمل في هذه الأيام، بعد الفرائض، أولى ما فيها ما ذكر عليه السلام من إراقة الدماء والذكر والصدقة ولا تمنع باقي الأعمال.

(ومما يقوي) ما قلناه قوله عليه السلام (ما عمل آدمي أفضل) فجاء بها في باب الأفضلية، وما جيء به في باب الأفضلية جاز عمل غيره معه، وإن لم يقدر عليه، فلا يخلي نفسه من الخير الزائد على الفرائض.

الوجه الثاني: وفيه دليل على فضيلة الجهاد. يؤخذ ذلك من قول الصحابة رضي الله عنهم (ولا الجهاد؟) فلولاً أن ذلك الحكم قد تقرر منه، ﷺ، ما سألوه عن هذا النوع، وقد جاء فيه عنه عليه السلام أنه قال: (أعمال البر في الجهاد كبزقة في بحر)<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرج مسلم من حديث عثمان رضي الله عنه مرفوعاً (من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة، ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة).

(٢) سبق الكلام عنه. وقلنا: قال العراقي في تخريج الإحياء ٣٠٨/٢ باب وجوب الأمر بالمعروف: رواه الديلمي =

(وهنا بحث) وهو: لِمَ نَوَّعَ الجهاد، وجعل ما هو محذور شرعاً في غيره أرفع الأشياء في الجهاد، وهو قوله (خرج يخاطر بنفسه وماله) وهذا ممنوع في غيره لأن المخاطرة ممنوعة، ثم لم يجعله أفضل إلا بعد تحقيق الهلكة، بقوله (فلم يرجع بشيء) وقد قال جلّ جلاله ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾<sup>(١)</sup>.

فالجواب أن نقول: كل من زاد من نوع ما أمر به حصلت له زيادة المدحة، فإن كانت زيادته من غير ذلك النوع لم تحصل له زيادة مدحة. مثال ذلك: (التوكل) هو من شرط الإيمان وما جاءت المدحة إلا على الزيادة فيه بقوله (حق توكله). وكذلك لما كان الإيثار من خصال الإيمان لم تأت المدحة إلا على الزيادة فيه، بقوله عز وجل ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾<sup>(٢)</sup> وهذا إذا تتبعته كثير.

فلما كانت مشروعية القتال تفضي إلى قتل النفس، فزاد المخاطر فيما شرع له بارتكاب المخاطرة، حصلت له الفضيلة على غيره للمعنى الذي أشرنا إليه، لأن تلك الزيادة في كل موضع أمر فيه بشيء دالة على الإخلاص والصدق، وهما أرفع الأعمال، وطلب مرضاة الرب بتوفية ما أمر، والزيادة على ذلك زيادة في استدعاء الرضا كما قال موسى عليه السلام ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾<sup>(٣)</sup>، ولهذا إذا مدح الفارس قيل فيه (فارس أحقق) وهو من أعلى مدحه، لأن الأحق هو الذي يغرر بنفسه، وبذلك تظهر فروسيته.

الوجه الثالث: وفي هذا دليل صوفي لأنهم يقولون: لا تبلغ الأحوال النفسية إلا بإذهاب النفس النفسية، والمخاطرة في المجاهدات بها تبلغ الغاية، فإذا كان طالب الدنيا الدنية يقول:

أُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ أَمُوتَ فَأُعْذِرُ<sup>(٤)</sup>

= من حديث جابر بإسناد ضعيف. وقال الزبيدي في شرح الإحياء ٨/٧: ورواه أبو الشيخ ابن حبان من حديث أنس. ولفظه في مسند الفردوس ٣٩١/٤: ما أعمال العباد كلهم عند المجاهدين في سبيل الله إلا كمثل خطاف أخذ بمنقاره من ماء البحر. وفي رواية: إلا كتفلة تفلها رجل في بحر لحي.

(١) سورة البقرة، من الآية ١٩٥.

(٢) سورة الحشر، من الآية ٩.

(٣) سورة طه، من الآية ٨٤.

(٤) عجز بيت لامرئ القيس عندما لحق بقيصر يستعينه على استرداد ملكه والثأر لأبيه (شرح ديوان امرئ القيس للأعلم/ ص ٥٦).

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه  
وايقن أنا لاحقان يقينصرا  
فقلت له: لا تبك عينك إنما  
نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

وملكها - على أن يحصل - ذاهب لا محالة ، وقد يعقب في الآخرة في الأغلب تبعاً دائماً ، فما  
 بالك بمن يطلب ملكاً أبدياً في حضرة قدسية ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴾<sup>(١)</sup> وقال :  
 دعوني يا عذالي في هواه خلعت عذاري      وبذكراه عللوني فتقواه شعاري  
 وزمّلوا مطايا أعمالي حثيئة للجوار      وبالنفوس جودوا بلا تلعم منكم ولا اذكّار  
 وأيقنوا بوصل الحبيب عند فيض الأدمع الغزار؟<sup>(٢)</sup>  
 وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .

الكتب النادرة التي توسع القلوب

(١) سورة القمر، من الآية ٥٥ .

(٢) كذا وردت في جميع النسخ .

## حديث جواز التنفل على الدابة في السفر

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يُصَلِّي فِي السَّفَرِ عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ تَوَجَّهَتْ بِهِ، يَوْمِيَّ إِيْمَاءَ صَلَاةِ اللَّيْلِ، إِلَّا الْفَرَاثِصَ، وَيُؤْوِزُ عَلَى رَاحِلَتِهِ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز التنفل في السفر للراكب للقبلة وغيرها. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول منها: هل هو خاص بمن له راحلة، أو هو لكل من ركب أي شيء من الدواب؟  
الظاهر - والله أعلم - أنه لكل راكب ركب ما ركب من الدواب، بدليل ما جاء عنه، عليه السلام، أنه فعل ذلك على غير الراحلة. وقد جاء أن الصحابة والتابعين، رضوان الله عليهم، كانوا يتنفلون إذا كانوا ركباً أي شيء ركبوا من الدواب.

الوجه الثاني: فيه دليل لمالك، رحمه الله، حيث يقول: إنه يتنفل الراكب متوجهاً للقبلة أو لغير القبلة عند ابتداء صلاته وانتهائها، خلافاً لمن يقول: إنه أول إحرامه يُحرم للقبلة، وحيث يصلي حيث كان توجهه من الجهات. وهذا مصادم للحديث، لأنه لم يفرق فيه بين أول الصلاة وآخرها.

وهنا بحث، وهو: هل هذا خاص بصلاة الليل - كما ذكر في الحديث - أو هو جائز في الليل والنهار؟ فإن قلنا: إن هذا تعبد، فلا يتعدى به صلاة الليل. وإن قلنا: إنه لعله، وهي التخفيف عن المسافر - كما خفف عنه في المفروضة - بأن وضع عنه شطراً فيتعدى الحكم لغيره. وهذا هو الأظهر، وعليه جمهور الفقهاء. فعلى هذا فيجوز التنفل للمسافر ليلاً كان أو نهاراً.

وهنا بحث، وهو: هل هذا مطلق في كل ما يُطلق عليه اسم (سفر) أو لا يكون إلا في شيء محدود من جميع الأسفار؟ فالجواب أن نقول: هذا موضع خلاف بين العلماء. فمن قال: إن الصلاة تُقصر في كل ما يطلق عليه اسم (سفر) جاز له التنفل على قاعدة مذهبه. ومن قال: لا يكون إلا في مسافة معلومة، وحال معلوم، لم يجز له التنفل هنا إلا على قاعدة مذهبه أيضاً.

(وضابط الكلام) فيه أن نقول: هو كالقصر، كلّ فيه على مذهبه، على الاختلاف الذي في قصر الصلاة، فالأكثر من العلماء أنه لا تقصر الصلاة إلا في سفر لا يكون معصية، لأن العاصي لا يترخص، وأن يكون قدر مسيره يوماً وليلاً. ويكون ما نحن بسبيله تابعاً لهذا الخلاف لأنه رخصة، وكذلك نص عليه العلماء، ونصوا أيضاً أنه لا تكون الصلاة إلا كما هو نص الحديث ليس إلا، وأن يقصد بإيمائه وجه الأرض، لا كور الراحلة على مذهب مالك، رحمه الله.

الوجه الثالث: فيه دليل على وجوب الاتباع له، عليه السلام، في أفعاله، لأنه لم يجيء أن أحداً من السلف المبارك اختلف في هذه الصلاة، وما نقلت إلا فعلاً.

الوجه الرابع: فيه دليل على أن له، عليه السلام، أن يشترع ما شاء، لأنه لم يُرو عنه أنه أخبر عن هذه الصلاة أنها بأمر من الله تعالى، لأن كل ما كان بوحي أخبر به أنه وحي من الله تعالى.

الوجه الخامس: قوله (ويوتر على راحلته) قد يستدل به من يرى أن الوتر نافلة، كما احتج به بعض أصحاب مالك. لكنّ هذا لا يتمّ به الدليل من هذا الموضع لكونه، عليه السلام، فعله على نحو ما فعل النوافل، لأنه يحتمل أن يكون كما ذكروا، ويحتمل أن يكون هذا من الفرائض التي خصت بالرخصة، لأنه واحد لا ينقسم، فتكون الرخصة في حقه أن يصلي على الراحلة، فإذا احتمل سقط الاحتجاج.

الوجه السادس: فيه دليل على فضيلة التنفل بالصلاة. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السلام، فعله في السفر. وهو موضع تخفيف المفروضة وتغيير الهيئة من أجل المشقة، ثم إنه، عليه السلام، أبقى اسم الصلاة، وعملها مطلوب على نَدْبِيَّتِهِ كما كان.

وهنا بحث وهو: ما الحكمة في إبقائها مع تغيير حالها في المرض والخوف والسفر كما هو معروف، ولم يسامح في تركها في حال من الأحوال مع بقاء العقل؟ فنقول والله أعلم: لوجهين: (أحدهما) أنه لما جعلت فرقاً بين الكفر والإيمان فعلامة الإيمان مطلوبة في كل حال، كما هو الإيمان مطلوب في كل حال، ما عدا زوال العقل، فإنه إذ ذاك غير مكلف. (الوجه الثاني) لما جعلت صلة بين العبد وربّه فالصلة بين العبد والرب محتاج إليها العبد، فأبقيت عليه وخففت عليه في تنويعها بحسب عذره، كما هو معلوم. ولهذا المعنى قال، ﷺ: (واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة)<sup>(١)</sup> لأن أكبر الاستعانة للعبد الضعيف، الصلة التي تكون بينه وبين مولاه، فيها يحسن عليه العائد فيما يؤمله.

(١) جزء من حديث أوله: (إن الدين يسر، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة). أخرجه البخاري والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه (وهو موضوع الحديث ٦).

ومما يشبه ما ذكرناه في شأن الصلاة: ما جاء في شأن العبادة، لما كان المراد مِنَّا بمقتضى الحكمة الربانية العبادة ودوامها، ولذلك خلقنا، كما أخبر مولانا سبحانه بقوله عز وجل ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾<sup>(١)</sup> وهو عز وجل غني عن عبادتنا، وعن كل شيء، لكن اقتضت الحكمة لأمر لا يعلمه إلا هو، كما قال عز وجل ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(٢)</sup> أي الذي يعلم الحكمة في خلقها، وكذلك في خلقنا وخلق جميع المخلوقات، وما تحدث فيه الناس هنا على اختلاف أقوالهم، فكل<sup>(٣)</sup> يحتاج إلى دليل قطعي في ذلك، ولا يكون الدليل القطعي في ذلك إلا من طريق النبوة، ولم يجيء فيما نحن بسبيله من طريق النبوة شيء. فالذي يجب هنا من الإيمان هو أن نؤمن أنه، عز وجل، المستغني عن جميع المخلوقات بأسرها، وأنه، جلّ جلاله، ما خلق منها ذرة، ولا أكبر، ولا أصغر إلا لحكمة. والحكمة فيما عقل منها بطريق صحيح أو محتمل إذا لم يكن ينافي أصول الشريعة.

وفيه زيادة قوة في الإيمان، لأنه إذا كان الإيمان على القاعدة التي ذكرناها آنفاً وهي غناه عز وجل عن كل شيء، وأن كل الأشياء لحكمة استأثر بها، جلّ جلاله، مع التنزيه والتقديس كما يجب - فهذه زيادة - لا شك في ذلك. من الله علينا بذلك بمنه.

ثم نرجع إلى ما أشرنا إليه، وهو أن ما خلقنا إليه، وأريد منا من دوام العبادة مع ما طبعنا عليه من ضعف الخلق، وما فطرنا عليه من الاحتياج إلى ضرورة البشرية من أكل وشرب وغير ذلك مما نعلمه من نفوسنا بالضرورة، فجمع ذلك هنا بحكمة لطيفة لا يُتَنَبَّه إليها إلا بفيض رباني وإلهام لمن أُلهم إليها، لأنه قد تقرر من قواعد الشرع أن أعلى العبادات وأنجهاها من عذاب الله ذكر الله، فجعل لنا أجَلَ العبادات - وهو ذكره عز وجل - في كل حركاتنا وسكناتنا، فمنها فرض، ومنها ندب، والندب فيها بعضه أكد من بعض، فجعل لنا ألا نأكل، ولا نشرب، ولا ننكح، ولا نلبس ثوباً، ولا نجرده، ولا ندخل فراشاً، ولا ندخل منزلاً، ولا نخرج منه، ولا ندخل موضع الحاجة، ولا نخرج منه، ولا نصطاد صيداً، ولا نذبح شيئاً مما نأكل لحمه، ولا نسافر إلى موضع، ولا نتكلم كلاماً له بال إلا ونبتدىء ذلك كله بذكره، عز وجل، وذكر أسمائه.

فمنها ما إذا لم نفعله حرم علينا ذلك الشيء، ولم يحل لنا أكله، مثل التسمية على الحيوان المذكى على الصيد، وما أشبه ذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾<sup>(٤)</sup>

(١) سورة الذاريات، من الآية ٥٦.

(٢) سورة الفرقان، من الآية ٦.

(٣) هنا جواب: لمّا.

(٤) سورة الأنعام، من الآية ١٢١.

وأحلت لنا ذكاة أهل الكتاب وإن كانوا كافرين بسيدنا محمد ﷺ. لكن لما أقروا به، جلّ جلاله، وذكروا اسمه عند ذكاتهم، والأمر لهم كما هو لنا، أبيع لنا أكل طعامهم. والمجوس لما لم يعترفوا به، عزّ وجلّ، لم يحلّ لنا من ذكاتهم شيء لبعد النسبة.

ومنها ما الذكر فيه سنة، مثل دخول موضع الخلاء، والمنزل، والفراش، وما أشبه ذلك.

ومنها ما الذكر فيه مستحب، ومثل استفتاح الأعمال لأهلها من دنيا كانت أو أخرى بالتسمية. وقد روي عن عائشة، رضي الله عنها، أنها كانت إذا أتاها صانع يصنع لها شيئاً، مثل خياطة أو غيرها من ضرورات الدنيا، تسأله في أثناء عمله: هل سميت الله عزّ وجلّ، أم لا؟ فإن قال لها: إنه سمى، تركته وما هو بسبيله. وإن قال لها: إنه لم يفعل، تقيمه عن تمام العمل، لكونه لم يذكر الله أولاً. وهذا وما أشبهه من قبيل المندوب. وكذلك الذكر عند الاستيقاظ من النوم وشبهه.

فانظر إلى هذا المعنى العجيب، وهذه الطريقة السهلة اللطيفة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟﴾<sup>(١)</sup> إلا أن هذا المقام لا يحصل، ولا يشم منه رائحة إلا من منّ عليه باتباع سنته، ﷺ، ثم زاد عزّ وجلّ هذا المعنى الذي أشرنا إليه تأكيداً بقوله على لسان نبيه عليه السلام: (مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبِيراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)<sup>(٢)</sup> وبقوله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾<sup>(٣)</sup>.

فانظر إلى هذه الإشارة حتى لا يكون من العبد حالة من الأحوال إلا وهو فيها في عبادة مستقلة، لأنه لولا ما جاء هذا على هذا النوع لم تكن تعلم العبادة إلا في التخلي عن الدنيا مرة واحدة والاشتغال بالآخرة، وهذا مع ما خلقنا عليه من الاحتياج متناف، فجمع لنا بهذا الطريق العجيب وأرشدنا إلى جميع الخير بأيسر الأشياء وأقربها، فضلاً من الله ورحمة.

وكل ما ذكرنا أولاً من أنه أمرنا بالتسمية عند ابتداء الأكل وغير ذلك، ولم نسم في ذلك حديثاً، إنما قصدنا بذلك الإرشاد والإلهام لذلك الخير، ليقدر قدره. وما من وجه مما ذكرنا إلا وقد جاءت فيه أحاديث عديدة، لا واحد. فإن أطال الله العمر، وأمكن العون منه، ألفناه - إن شاء الله - في كتاب وحده، ليكون أيسر لمن أراد الوقوف عليه، بعونه وفضله، إن شاء الله تعالى.

(١) سورة الملك، من الآية ١٤.

(٢) أوله: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني... إلى آخره. رواه الإمام أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سورة آل عمران، من الآية ١٩١.



ولهذا المعنى فَضَّلَ أهل الصوفة غيرهم، لأنهم لا يزالون دائماً ذاكرين متوجهين، فحصل لهم اسم الخصوص بما به خُصَّوا، ولذلك قالوا: إن كنت صادقاً في محبتنا فالْحَبْ حيث أَبَّ بذكر حبيبه يُؤَبُّ<sup>(١)</sup>، لأن دوام الذكر منادمة ومحاضرة، يشهد لذلك قوله جلّ جلاله، على لسان نبيه، عليه السلام، (أنا جليس من ذكرني)<sup>(٢)</sup>. فافهم إن كنت فِطْناً ما به عُثِيت، ومن أنت يا مسكين. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

- 
- (١) الْحَبُّ: المحبوب والمحبّ. أَبَّ: تهيّأ واشتاق وقصد.
- (٢) أوله: قال موسى: أي رب، أقرب فأناجيك، أم بعيد فأناديك؟ قال: يا موسى: أنا جليس من ذكرني. أخرجه ابن أبي شيبة والبيهقي في الشعب عن كعب الأحبار.

## حديث أشراف الساعة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ، ﷺ: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتْنُ، وَيَكْثُرَ الْهَزْجُ - وَهُوَ الْقَتْلُ - حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ، فَيَقْبِضَ).



ظاهر الحديث يدل على أن الخمسة المذكورة فيه من علامة الساعة وقربها، والكلام عليه من وجوه:

منها هذا العلم الذي يُقْبَضُ، ما المراد به، هل المنقول وغيره؟ فنقول - والله الموفق - العلم المشار إليه هنا هو: النور الذي به الفهم عن الله وعن رسول الله ﷺ، لأن الكتب لم تنزل، بل هي تكثر، لكن الفهم والعمل هو الذي قل كما تكلمنا عليه قبل في الحديث الذي قال عليه السلام فيه (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد)<sup>(١)</sup>.

وقوله (وتكثر الزلازل) فهل هذا فيه معنى من الحكمة يفهم، أو ليس لنا من طريق إلى ذلك؟ أما وجود الحكمة فيه فلا شك فيها. وأما هل نعرفها أم لا؟ فالجواب: أما بالنظر بمقتضى ما جاء في الشريعة من الحكمة، أو بالعادة الجارية إذا نظرنا بمقتضاها فهي واضحة. وأما بالقطع فما أحد يدري ذلك. فبحسب ما استقرينا من الشرع وجدنا الحكمة فيه من وجهين:

(الوجه الواحد) أنه ما أجرى الله العادة في الزلازل إلا لوجهين: (الواحد) انتقاماً ممن يريد، كما ورد في الأخبار أن كثيراً من الناس هلكوا بها حتى إلى زماننا هذا. وقد تواتر عندنا بإفريقية حين كنت بها أن موضعاً زلزل بأهله حتى ساخت بهم الأرض، وكانوا أهلاً لذلك لما كان فيهم من

---

(١) تنمة الحديث: (ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا). أخرجه الإمام أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

الفساد. و (الآخر) تخويفاً لأهل التخويف، لأنها من جملة الآيات، وقد قال عز وجل: ﴿وَمَا تُرْسِلُ إِلَّا نَذِيرًا﴾ (١) فإذا قربت الساعة فبالقطع أن الفساد يكثر، وهذا من جملة العقاب - كما ذكرنا - ولتذكر بها أيضاً من سبقت له السعادة.

وأما (الوجه الآخر) من الحكمة فهو لما كانت القيامة بالزلزلة العظمى - كما أخبر جل جلاله - ﴿فَذَكَّا دَكَّةً وَجِدَةً﴾ (٢) وقال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ. حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾ (٣) المعنى أنهم أولاً أخذوا باليسير من العذاب إغذاراً لهم لعلهم يرجعون، فلما لم يرجعوا جاءهم العذاب المهلك. فهذه سنة الحكيم أن يبدأ من العذاب بالقليل ليرجع من فيه أهلية للخير، ويحق الأمر على من هو له أهل. فكذلك الساعة تتقدمها تلك الزلازل، لأن الحكمة اقتضت الإنذار، وإن كان لا ينفع من حقت الكلمة عليه، فيتمادى على ما هو عليه من الفجور، فيأتيه ذلك البلاء العظيم: ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْتَذَكُّرُ﴾ (٤) فلما كانت الساعة كما ذكرنا أولاً زلزلة واحدة تدك بها الأرض دكاً تقدمت الزلازل، وكثرت حتى تكون كثرتها تخبر بوجود الزلزلة العظمى من جنسها.

وقوله عليه السلام (ويتقارب الزمان) فيه بحث وهو: هل يتقارب الزمان حساً أو معنى؟ محتمل. والظاهر: أنه إلهاماً معاً، لأنه قد جاءت الإشارة في الآثار بالمعنيين منفردين، فيكون المقصود - والله أعلم - جمع المعنيين. أما أحدهما وهو المعنوي فقد ظهر، فنحتاج إذاً إلى بيان المعنوي والحسي والإشارة التي في الآثار بهما.

فأما المعنوي فهو كناية عن نقص العمر، فإن رأس مال المرء عمره، وربحه فيه حسن عمله. وإذا قلَّ العمل المبارك كان الزمان ناقصاً، لأجل نقص الفائدة فيه، مثل الشجر والثمر إذا نقص الشجر قلنا: نقص الثمر. قال جل جلاله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ (٥) وقد كانت عائشة، رضي الله عنها، تقول «كل يوم لا أزداد فيه علماً، ولا أتخذ فيه يداً، لا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم» (٦) وقال ﷺ: (بقية عمر المؤمن لا ثمن لها

(١) سورة الإسراء، من الآية ٥٩.

(٢) سورة الحاقة، من الآية ١٤.

(٣) سورة المؤمنون، الآيتان ٧٦ و ٧٧.

(٤) سورة القمر، من الآية ٥.

(٥) سورة البقرة، من الآية ١٥٥.

(٦) رواه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية وابن عبد البر في جامع العلم بسند ضعيف عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

يصلح فيها ما فسد<sup>(١)</sup> فما يصلح ما فسد إلا بالتوبة والعمل الصالح، لأنه يتدارك به نفسه. وما ذاك - أعني قلة العمل - إلا لغلبة حب الدنيا على القلوب والاشتغال بها وتقدمتها على عمل الآخرة.

وقد نبّه، ﷺ، على هذا المعنى بقوله: (أنتم في زمانٍ... وذكر من صفات أهله أنهم يُبدون أعمالهم قبل أهوائهم وسيأتي زمان<sup>(٢)</sup>... وذكر من صفات أهله أنهم يبدون فيه أهواءهم قبل أعمالهم) وقال عليه السلام: (من ابتدأ بحظه من دنياه فاته حظه من آخرته، ولم ينل من دنياه إلا ما كتَبَ له، ومن ابتدأ بحظه من آخرته نال من آخرته ما أحبّ، ولم يفته من دنياه ما كتبَ له)<sup>(٣)</sup>. وقال عليه السلام: من شروط الساعة وذكر فيه: (ويقل العمل) والأحاديث في هذا الشأن كثيرة. فبان ما قلناه من الوجه المعنوي. هذا من طريق الفقه والنقل.

وأما من طريق أهل المعاملات فإنهم يقولون: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك. ومعناه عندهم: إن لم تقطعه بالعمل قطعك بالتسويق. هذا من طريق الأعمال الأخروية. وأما من طريق الأعمال الدنيوية فقد ظهر أيضاً النقص فيها في جميع محاولاتها وبان. أما الصنّاع فما منهم من يقدر أن يبلغ في صنّعه مثل ما سمع عَمَّن تقدم. وكذلك التجار وكذلك الفلاحون، وكذلك الملوك، وغير ذلك من وجوه متاع الدنيا: النقص الكثير قد ظهر في جميع ذلك، وما ذاك إلا من قلة توفيتهم لحقوق الله تعالى وأحكامه، وتهاونهم بذلك وكثرة مكر بعضهم ببعض، فارتفعت البركات من أبدانهم وأموالهم وآرائهم، وعاد الوبال على الجميع وهم لا يشعرون، ويتعجبون من قلة البركات من أين تأتيهم، وهم لم يتركوا من مجهودهم في الطلب شيئاً.

فجأوبهم لسان الحال: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾<sup>(٤)</sup> لأن هذه الصفات تخالف مقتضى الإيمان، لأن الإيمان - كما أخبر ﷺ (لا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً)<sup>(٥)</sup>، وقال عليه السلام: (المؤمن يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه)<sup>(٦)</sup>، وقال عليه السلام: (الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)<sup>(٧)</sup>، وعلى ذلك كان السلف رضي الله عنهم.

(١) لم نقف على مصدره.

(٢) انظر تخريجه في الحديث ١٤.

(٣) لم نقف على مصدره.

(٤) سورة آل عمران، من الآية ١٦٥.

(٥) أخرجه الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) لعله أراد حديث: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وعند مسلم: من الخير. أخرجه الإمام

أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه.

(٧) قطعة من حديث أوله: من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن يستر على معسر يستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما =

وقد رأيت في بعض التواريخ أن أحد الملوك لَمَّا ملك بعض البلاد، وجد في الخزانة حبة قمح، جرّمها زائد على المعروف من القمح بزيادة كثيرة، فسأل عنها، فلم يجد من يعرف لها خبراً إلا شيخاً كبيراً قد عُمِّر، فقال: أعرفها. ولذلك أن شاباً وشيخاً اشتركا في زرع، فلما درسا زرعهما قال أحدهما للآخر: ننقل هذا الطعام إذا قسمناه بالتَّوْبَة، تحمل أنت مرة، وأحرس أنا نصيبك، ثم أحمل أنا مرة أخرى، وتحرس أنت نوبتك.

فلما قسما جعل الشيخُ يحمل مرة من نصيبه، وكان ذا عيال، ويقعد الشاب يحرس. فإذا غاب الشيخ يقول الشاب في نفسه: هذا شيخ، وله عائلة، فأحتاج أن أعيّنه. فيأخذ من نصيب نفسه، ويزيد في نصيب شريكه. فإذا نقل الشاب في نوبته، وقعد الشيخ يحرس يقول الشيخ في نفسه: هذا شاب، والناس يقصدونه، فأحتاج أن أعيّنه. فيأخذ الشيخ من نصيب نفسه، ويزيد في نصيب شريكه. فبقي ذلك دأبهما، وهما ينقلان، والغلة تكثر ويكبر جرّمهما، حتّى عَيَّيا وفشلا من حمل القمح، ورأياه قد كَثُر حتى خرج عن الحدّ المعروف.

فسأل أحدهما الآخر، وحلّفه أن يصدقه ما يفعل بعده، فأخبر كل واحد منهما صاحبه ما يفعل في غيبته. فاشتهرت المسألة حتى بلغت أميرهم، فوجّه لأن يرى من ذلك القمح شيئاً. فلما رآه قال: ينبغي أن يُجعل من هذا شيء في الخزانة فيبقى لمن بعدُ فيه موعظة وتذكّار. فلما وفيا حقيقة الإيمان من طريق الأدب، عادت عليهم بركات الإيمان، وقد قال مولانا جلّ جلاله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(١)</sup>.

وأما المحسوس فلم يظهر بعد، بدليل أن ساعات الليل والنهار باقية على حالها. وقد أخبر، ﷺ، بنقصها حسّاً بقوله (تكون السنّة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كالיום، واليوم كالساعة)<sup>(٢)</sup> إلى آخر الحديث. فهذا مما بقي خروجه.

وقوله عليه السلام (وتظهر الفتن) هذه الألف واللام هل هي للجنس أو للعهد؟ احتملت الأمرين معاً.

فإن كانت للجنس فكل ما ذكر عليه السلام في هذا الحديث من جملتها، وكذلك جميع ما

= كان العبد في عون أخيه. . الخ. أخرجه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) سورة الأعراف، من الآية ٩٦.

(٢) لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كالיום، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كالضربة بالنار. أخرجه الإمام أحمد والترمذي عن أنس رضي الله عنه.

جاء من الأحاديث فيها . إلا أن هنا بحثاً وهو : ما فائدة قوله عليه السلام (وتظهر الفتن؟) وهو عليه السلام قد أخبر عنها معيّنة في أحاديث عدة؟ (فالجواب) أن إخباره عليه السلام بها على هذه الصيغة لوجهين : (أحدهما) تأكيد لما أخبر ، عليه السلام ، به من الفتن أنه لا بد أن تظهر في عالم الحس قبل قيام الساعة . و (الوجه الآخر) أنها تكثر عند قرب الساعة ، ويتوالى خروجها بعضها إثر بعض ، حتى كأنها دائمة الظهور ، ولا تكاد تزول ، كما أخبر ﷺ عند كثرتها : (يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا) : (١) .

وإن كانت بمعنى العهد فتكون الإشارة إلى تلك الفتن الكبرى التي هي (مع الساعة كهاتين) (٢) وهي مثل الدجال ، وخروج الدابة ، وطلوع الشمس من مغربها . وقد جاء أن التي تظهر منهن أولاً يتبعها الباقي ، وينقضي جميعهن في ستة أشهر . أعاذنا الله من جميعهن بمنه .

وقوله عليه السلام : (ويكثر الهرج - وهو القتل) يريد القتل الذي يكون بغير حق ، لأن القتل في الحدود رحمة للبلاد والعباد ، لأنه ﷺ قال : (لأن يُقامَ حدٌّ من حدود الله في بقعة خيرٍ لهم من أن تُمطرَ عليهم السماء ثلاثين يوماً) (٣) وفي حديث ثان (أربعين يوماً) . وما يكثر القتل في غير حق إلا لقلة العلم والدين وعند قرب الساعة يكثر ذلك ، وقد جاء ما يؤيد هذا وهو قوله عليه السلام (حتى لا يعرف القاتل فيم قتل ، ولا المقتول فيم قتل) (٤) .

(وهنا بحث) وهو أن هذا القتل المذكور في جملة الفتن فلم كثره في هذا الحديث؟ (فالجواب) أنه إنما كرره لأجل شناعته وقبحه .

وقوله عليه السلام : (حتى يكثر فيكم المال فيفيض) المال هنا المراد به الفضة والذهب لا غيرهما ، وإن كان ينطلق المال عند العرب على الإبل ، وعند كل ناس بحسب ما غلب عليهم ، وقد تقدم الكلام على هذا قبل ، فنحتاج الآن أن نبين كيفية خروجه ، ولماذا نخصه بأنه الذهب والفضة؟ فيتخصص بدليلين (أحدهما) من الحديث نفسه . و (الآخر) من غيره من الأحاديث .

- 
- (١) لفظه : بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع أحدهم دينه بعرض من الدنيا قليل . أخرجه الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .
  - (٢) إشارة إلى حديث (يُعثُ أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالوسطى والسبابة) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن حنبل والطبراني والدارمي عن جابر بن سمرة ، رضي الله عنه .
  - (٣) لفظه : حدٌ يُعمل في الأرض خيرٌ لأهل الأرض من أن يُمطروا ثلاثين صباحاً . أخرجه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه .
  - (٤) لفظه : والذي نفسي بيده لياتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قتل ، ولا يدري المقتول على أي شيء قتل . أخرجه مسلم وتقرّد به عن أبي هريرة رضي الله عنه .

فأما الذي من الحديث نفسه فقوله عليه السلام (يفيض) فإن هذه الصفة لا تستعمل حقيقة إلا فيما يخرج من الأرض من المال والماء، وقد تستعمل مجازاً في غير ذلك، إلا أنه لا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل. والحكم أن يحمل اللفظ على ظاهره ما لم يعرض لذلك معارض شرعي، ولا معارض هنا.

وأما الدليل الآخر الذي يؤخذ من غيره من الأحاديث، فإنه قد جاء (أن الفرات ينحسر عن جبل من ذهب، فيقتل عليه الناس، حتى يقتل من المائة تسعة وتسعون، وما يبقى من المائة غير واحد)<sup>(١)</sup>. وقد جاء أن الأرض تخرج كنوزها إلا أنه بعدما يلقي الشح على الناس، ويقل عندهم المال من أجل الشح، ثم يأمر الله تعالى الأرض أن تخرج كنوزها، فيمشي الرجل بصدقته، فلا يجد من يأخذها منه، فيقال له: لو جئت بها بالأمس أخذناها. وأما اليوم فلا حاجة لنا بها<sup>(٢)</sup>.

وأما كيفية خروجه فكما تقدم في هذين الدليلين المذكورين من خروج كنوز الأرض وجبل الذهب. وهذه العلة التي هي قلة المال مع الشح موجودة في كل الأزمان، لقوله عليه السلام: (ما طلعت شمس إلا وبجنبها ملكان، يقول أحدهما اللهم أعط لمنفق خلفاً، والآخر يقول اللهم أعط لممسك تلفاً)<sup>(٣)</sup>.

وهنا بحث: إذا قلنا: إن قلة المال من الشح فما موجب خروجه؟ فالجواب أن الفتنة في خروجه أكثر مما في منعه، لا سيما مع العلة التي ذكرنا أنه لا يجد لمن يعطي صدقته. وأي فتنة أكبر من هذه؟ وخروج المال أيضاً من أكبر الفتن.

وفائدة هذا الحديث: التصديق بما فيه من الآيات، وقوة الإيمان بقدرة القادر على ذلك، والعمل على الخلاص منها بما أخبر هو ﷺ حين ذكر الفتنة، فقبل (ما تأمرنا إن أدركنا ذلك فقال: الجأوا إلى الإيمان والأعمال الصالحات)<sup>(٤)</sup> فقد ظهرت أكثرها. فهل مشمر للنجاة بما أرشد إليه الصادق المصدق ﷺ؟

---

(١) لفظ الحديث: لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتل الناس عليه، فيقتل من كل مئة تسعة وتسعون ويقول كل رجل: لعلي أكون الذي أنجو. أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لفظ الحديث: لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي فيه. متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) لفظه: ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط متفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً. متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سبق الكلام عنه في الحديث (٦) بأننا لم نثر عليه بهذا اللفظ وإنما هناك أجوبة نبوية فيها الأمر بلزوم كتاب الله وجماعة المسلمين.

وهنا بحث صوفي، وهو: أنه لما علم أهل هذا الشأن أن النجاة من تلك الفتن العظام هو بالإيمان والأعمال الصالحات، أيقنوا أن ذلك فيما هو أقل منها من باب الأخرى والأولى، فلم يشغلوا نفوسهم بغير الإيمان ودوام الأعمال الصالحات. ولما رأوا أن الدار لا بد من انقضائها صبروا الأول منها آخرًا، والآخر منها أولًا. ولذلك قال: إذا كانت الدار لا تبقى، فمتاعها فإن، فاعمل لدار لا تفنى ومتاعها باق، واعمر بالربح زمانك، ولا تدعه خاليًا. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.



## حديث إن لنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: أَلَمْ أَخْبَرَ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ، وَتَصُومُ النَّهَارَ؟ قُلْتُ: بَلَى، إِنِّي أَفْعَلُ ذَلِكَ. قَالَ: فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمْتَ عَيْنُكَ، وَنَفِهْتَ نَفْسُكَ<sup>(٢)</sup>. وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلَأَهْلَكَ عَلَيْكَ حَقًّا. فَصُمْ وَأَنْظِرْ، وَقُمْ وَنَمْ<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على منع دوام الصيام والقيام، لأجل علة عجز البشر عن ذلك. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول منها: أن الحكم لا يكون إلا على أكمل وجوه التحقق والتثبت. يؤخذ ذلك من أن سيدنا، ﷺ، لم يخبر أن هذا الشخص وهو عبدالله بن عمرو بأنه يقوم الليل ويصوم النهار إلا من بعدما استفهمه عما قيل له، وإن كان سيدنا، ﷺ، يعلم أن الذي أخبره صادق، لأن الصحابة كلهم، رضي الله عنهم، مقامهم مقام الصدق والدين. لكن لما بقي وجه من تحقيق الأمر، وهو سؤال الشخص نفسه، لم يتركه، عليه السلام، حتى سألته، وتيقن ذلك منه مشافهة.

وفي سؤاله، عليه السلام، للشخص نفسه من الفقه وجوه: منها ما ذكرنا من التحقيق، وليقعد قاعدة شرعية في ذلك، ولأجل أن يعلم أيضاً: هل كان ذلك الوقت له نية ما، نواها ولم يتلفظ بها حتى تنقل عنه، أو ليس؟ ولأجل أنه قد يكون أيضاً معلقاً بشرط ما، وذلك الشرط قد لا يعرفه

(١) عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي. صحابي، من النسك، وأحد العبادلة الأربعة في الفقه والحديث. قال أبو هريرة: ما كان أحد أكثر حديثاً مني إلا عبد الله بن عمرو، فإنه يكتب ولا أكتب. وكان كثير العبادة والتلاوة، وكان يشهد الحروب والغزوات، ويضرب بسيفين، وحمل راية أبيه يوم اليرموك، وشهد صفين مع معاوية. روي له ٧٠٠ حديث، وقلت الرواية عنه لسكناه في مصر، بخلاف أبي هريرة في المدينة المنورة. توفي سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤ م واختلفوا في مكان وفاته، قيل بمكة، وقيل بالطائف، وقيل بعسقلان في فلسطين.

(٢) نَفِهْتَ نَفْسُكَ: أَعْيَتْ وَكَلَّتْ.

(٣) راجع الحديث ١٨٤.

القائل، أو يعرفه، أو قاله بغير عزيمة على فعله، حتى يرى على ما يعول عليه، إلى غير ذلك من الاحتمالات. فمن أجل هذا المعنى كان السؤال. والله أعلم.

ولذلك قال العلماء: إن السنة على أنواع عديدة: فمنها سنة يجب العمل بها مع عدم تحققها - وهي الحكم بشهادة الشاهدين - لأن الغلط في حقهما ممكن، والصدق كذلك. إلا أنه قد أمرنا بإنفاذ الحكم بهما إذا تيقنت عدالتهما. فعلى هذا فمن أنفذ حكماً من الأحكام، دون ثبوت الموجب له بالإثبات التام بمقتضى الشرع، فهو ضلال محض، وإن وافق في الغيب عين الحق، لأنه ما أمرنا أن نحكم بالغيب إلا في الإيمان به، عز وجل، حيث أمرنا به.

الوجه الثاني: فيه دليل على جواز التحدث بما يعزم المرء عليه من أفعال البر. يؤخذ ذلك من قول النبي، ﷺ (ألم أخبر؟) فلولا أن الشخص تكلم بذلك ما كان النبي، ﷺ، يخبر به.

الوجه الثالث: فيه دليل على أن كل من كان مسترعى رعية صغرى أو كبرى أنه يسأل عن جزئيات رعيته، وأنه يجب على من علم منها شيئاً الإخبار له بها. يؤخذ ذلك من قوله، ﷺ (ألم أخبر؟). فلولا أنه، عليه السلام، سأل، أو كان عندهم مقررأ أنهم يخبرونه بما يعرفون من أحوالهم وأحوال إخوانهم ليعلموا حكم الله في ذلك، ما أخبر، ﷺ، بذلك لأن هيبته لهم، عليه السلام، كانت كبيرة حتى إنهم كانوا يودون أن يأتي بدوي فيسأله، ﷺ، فيسمعون منه ما يقول له فيستفيدون.

الوجه الرابع: فيه دليل على فصاحة الصحابة، رضي الله عنهم، وقلة تصنعهم، وقصدهم الحقيقة في الأشياء بلا زيادة. يؤخذ ذلك من حسن جوابه لسيدنا محمد ﷺ، الذي لم يزد على أن قال: «إني أفعل ذلك». فلم يزد على الإخبار عن حقيقة الذي سئل عنه بلا تصنع في ذلك.

الوجه الخامس: فيه دليل على تعليل الحكم لمن فيه أهلية. يؤخذ ذلك من تعليل سيدنا، ﷺ، له بهجوم العين، ونفاهة النفس التي طبعت عليه البشرية.

الوجه السادس: فيه دليل على أن الأولى في العبادة تقديم الفرائض. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (إن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً). وهنا بحث: ما حق النفس، وما حق الأهل؟ وما يعني هنا بالأهل؟

أما الحق الذي للنفس فقد اختلف فيه أهل الفقه وأهل المعاملات. فأهل الفقه يقولون: هو أن تُعطى حظه مما تحتاج إليه من ضرورة البشرية وترويحها زماناً ما، كما قال ﷺ: (رَوِّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ)<sup>(١)</sup>. وكما قال عليه السلام: (إِنَّ الْمُتَبَتَّ لَا أَرْضاً قَطَعَ وَلَا ظَهْراً

(١) أخرجه أبو داود في مراسيله عن ابن شهاب وأبو بكر بن المقري في فوائده والقضاعي عن أنس رضي الله عنه.

أَبْقَى<sup>(١)</sup>. وهذا الحظ عند هؤلاء السادة الذين قالوا به بشرط أن يكون على مقتضى السنة . وأهل المعاملات يقولون : حق النفس الذي لها عليك أن تَقَطَّعَهَا عَمَّا سِوَى مَوْلَاهَا .

ويمكن الجمع بين القولين بأن نقول : أن تقطعها عما سوى مولاهما في التعلقات القلبية والأسباب الشرعية ، وذلك بالأبقي للقلوب تعلق إلا بمولاهما في كل الأحوال ، ولا تتصرف في الأسباب إلا على لسان العلم المجمع على أنه أرفع الأحوال .

يشهد لهذه الطريقة من الآثار حديث معاذ<sup>(٢)</sup> مع أبي موسى<sup>(٣)</sup> ، إذ وجههما رسول الله ، ﷺ ، إلى اليمن يعلمان الناس دينهم . ففرقا لتعليم الناس ، كما أمرا ، فلما أن اجتمعا ، سأل أحدهما الآخر : كيف تقرأ القرآن ؟ فقال أبو موسى : أقرأه قائماً وقاعداً ومضطجعاً ، وأتفوقه تفويقاً<sup>(٤)</sup> ، ولا أنام . وقال الآخر : أما أنا فأقوم وأنام ، وأحتسب<sup>(٥)</sup> قومي كما أحتسب نومي . فتنازعا في ذلك ، ولم يسلم أحدهما للآخر في الأفضلية ، حتى أتيا النبي ، ﷺ ، فقصا عليه . فقال النبي ، ﷺ ، لأبي موسى : ( هو أفقه منك ) يعني عن معاذ الذي كان يقوم وينام .

وقد حكى عن بعض من نسب إلى هذه الطريقة المباركة أنه حصل له حالة مناجاة واتصال ، فسأل أن تدام له تلك الحالة . ف قيل له : ألسنت أنت بشراً ؟ وهذه الحالة لا تمكن مع بقاء البشرية ، لكن إذا رجعت إلى أمرنا ونهينا لم تزل عندنا .

وأما قولنا : ما يعني هنا بالأهل ؟ فيحتمل أن يكون عنى به الأولاد ، والزوجة ، وكل من تلزمه نفقته شرعاً ، لأنه إن اشتغل بالعبادة تعذرت حقوقهم ، وهو المسؤول عنها . ويحتمل أن يكون عنى بالأهل الزوجة ، لأن من حقها على الزوج الإصابة<sup>(٦)</sup> . والصيام والقيام مما يقلل ذلك الشأن ، فيكون يخلّ بحق عليه . وحمله على الأعم أولى ، لأنه أكبر في الفائدة .

الوجه السابع : فيه دليل على ضعف البشرية وإن تكلف المرء من العمل زيادةً على قدر ما طبعت عليه نفسه يَقْغُ له الخلل والنقص في الغالب . يؤخذ ذلك من قوله ، عليه السلام ( هجمت

(١) أوله : إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق فإن المنبت . . الخ . . أخرجه البزار عن جابر رضي الله عنه .

(٢) انظر ترجمته في الحديث (٤٣) .

(٣) أبو موسى الأشعري : عو عبد الله بن قيس . صحابي ، من الشجعان الولاة الفاتحين ، أحد الحكمين بعد حرب صفين . كان أحسن الصحابة صوتاً . له ٣٥٥ حديثاً . توفي بالكوفة سنة ٤٤ هـ / ٦٦٥ م .

(٤) أتفوقه تفويقاً : أقرأه مجزأً في أوقات مختلفة .

(٥) احتسب الأمر : أدخر أجره عند الله .

(٦) الإصابة : الإتيان بالصواب ، ومن معانيها : المجيء من علي ، والإراقة . (القاموس) وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ كان يصيب من رأس بعض نسائه وهو صائم . أراد التقبيل . (البداية والنهاية لابن الأثير وتاج العروس) .

عينك، ونَفِهَتْ نفسك). فقرة الكلام تعطي أن من طبع على مثل هذا لا يطبق أن يفعل ما عزم هذا الصحابي عليه، لضعفه عن ذلك.

ومثل هذا نهيه، ﷺ، للصحابة، رضي الله عنهم، عن الوصال. فقالوا له: إنك تفعل ذلك. فقال: (إني لست كهيتكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني)<sup>(١)</sup>. أي أنه يمدّه بالقوة، مثل من يأكل ويشرب، لأنه لو كان يأكل محسوساً ما صدق أن يقال: واصل.

ولهذا المعنى كان بعض أهل الصوفة إذا دخل في الوصال يجعل رغباً من خبز تحت وسادته. فلما كان في بعض الأيام قام إلى ضرورة، فأخذ بعض الفقراء الرغيف من تحت الوسادة، فلما رجع هذا السيد إلى مكانه تفقد الرغيف فلم يجده، فقال: أين الرغيف؟ فقالوا: يا سيدنا ما حاجة مثلك لرغيف؟ فقال لهم: تأدبوا، أنظنون ما ترون مني من جيلة جبلت عليها؟ بل ذلك فضل وفيض رباني، فإن رددت إلى حال البشرية وجدت الرغيف أدفع به العدو.

ولهذا المعنى بنيت الأحكام على ما هو الأصل في الأشياء أو الغالب منها، كمثّل تحليل الميتة بعد ثلاثة أوقات، لأن وضع البشرية ما تطبق بسبب ما وضعت عليه من الضعف أكبر من ذلك القدر، فإن تحملت أكثر منه وقع معها الخلل، وقد يكون مع ذلك الخلل موت، وقد قال عز وجل في كتابه: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾<sup>(٢)</sup> فإذا زاد المرء على ذلك شيئاً فهو من طريق المن والإفضال عليه، لأنه قد جعل الله له بساطاً، وهو إجراؤه، عز وجل، العادة الجارية لأهل ذلك الشأن بمقتضى الحكمة، كما أجرى، عز وجل، للغير بالطعام ما أجرى لهم، وهي قوة العزم وألا يلتفتوا إلى شيء سواه. فمن دخل في هذا الشأن، وتشبه بالقوم دون هذا البساط، وقع معه الخلل، وكان من باب ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾<sup>(٣)</sup> إلا أن يكون له حسن ظن في القوم، وتصديق بحالهم فيلطف به من أجل حرمتهم. إلا أنه لا بد في الغالب أن يجد شيئاً من الشدة في نفسه، ثم يُحمل عنه للحرمة.

الوجه الثامن: فيه دليل على أن المندوب في الدين مطلوب على كل حال. يؤخذ ذلك من فحوى كلامه عليه السلام بقوله (صم وأفطر، وقم ونم)، لأن فحوى الكلام عندهم كالنص المنطوق به، لا أعرف في ذلك خلافاً. فكأنه، عليه السلام، يقول له بمضمن ذلك الكلام: لا تشتغل أيضاً بإعطاء الحقوق، وترك المندوب مرة واحدة، ولكن اجمع بين فرضك وندبك.

(١) أخرجه الإمام أحمد والشيخان عن أنس رضي الله عنه. والبخاري عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وعن السيدة عائشة رضي الله عنهم أجمعين.

(٢) سورة النساء، من الآية ١٤٧.

(٣) سورة البقرة، من الآية ١٩٥.

وعلى هذا الأسلوب تجد قواعد الشريعة كلّها إذا استقرّيتها. فمن أريد به خير بُصّر بعيوب نفسه، فأبصرَ رشدَه، ولذلك قيلَ: نَظَرُكَ إِلَى النَفْسِ حِجَابٌ عَمَّا سِوَاهَا، وَشُغْلُكَ بِغَيْرِهَا حِجَابٌ عَنْهَا؛ فَإِنْ أُعْجِبْتَ بِهَا فَاتَكَ الْحِظُّ مِمَّا سِوَاهَا، وَإِنْ تَعَامَيْتَ عَنْهَا نَلْتَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ سِوَاهَا. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

الكتب النادرة التي تفتح لقلوبكم

## حديث الاستخارة في الأمور

عن جابر بن عبد الله<sup>(١)</sup>، رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله، ﷺ، يُعلِّمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يُعلِّمنا السُّورة من القرآن. يقول: إذا همَّ أحدُكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. اللَّهُمَّ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عاجلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ. وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عاجلِ أَمْرِي، وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، واقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ. قَالَ: وَيُسَمِّي حاجته.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على الحض على هذه الاستخارة المذكورة في الحديث. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله: (في الأمور) هل هو على عمومته؟ أو هو عام والمراد به الخصوص؟ محتمل. لكن الأظهر أنه عام، والمراد به الخصوص، بدليل أن الواجبات مطلوبة. فإن أتى بها، وإلا عوقب تاركها، فلا يُستخار فيما فيه عذابٌ على تركه. والمحرمات أيضاً ممنوع فعلها، والعذاب معلق على فعلها. وما العذاب مُعَلَّقٌ على فعله فلا استخارة فيه.

فالذي تكون فيه الاستخارة أمران: إما نوع المباحات - وهو ما إذا أراد الشخص أن يعمل أحدَ مباحين، ولا يعرف أيُّهما خيرٌ له؟ جازت له الاستخارة ليرشده مَنْ يَعْلَمُ الْأُمُورَ وَعَوَاقِبَهَا على ما هو الأصلح في حقه - وإما نوع المندوبات. وهو: أن يخطر لأحد أن يفعل أحد المندوبات، ولا يعرف

(١) سلفت ترجمته في الحديث (٥٣).

أيُّها خير له؟ فيستخير. وأما نوع المكروه فمكروه أن يُستخار فيه. فعلى هذا فهو لفظ عام، والمراد به الخصوص - كما ذكرنا - وهذا هو في اللسان كثير.

وقوله: (كما يعلمنا السورة من القرآن) احتمل أن يكون الشبه من جهة حفظ حروفه وترتيبها، ولا يبدل منها شيء بشيء، كما هو القرآن، يُقرأ بالفاء والواو<sup>(١)</sup>، لأن العلماء لم يختلفوا أن القرآن لا يُنقل ولا يُتلى إلا على وضعه بالفاء والواو، واختلفوا في نقل الحديث فقليل: هو مثل القرآن، وقيل: يجوز أن ينقل بالمعنى إذا فهم؛ فيكون مراده، عليه السلام، بهذا الحديث: أن حكمه حُكْمُ القرآن، لا يُغيّر عن وضعه.

واحتمل أن يكون أراد منع الزيادة على تلك الألفاظ، والنقص منها. واحتمل أن يكون الشبه في عَدَمِ الفَرْضِيَّة، لأن السورة - ما عدا (أم القرآن)<sup>(٢)</sup> - تعليمها من طريق المندوب، لأن ما في القرآن فرضٌ تَعَلَّمُه، إلّا (أم القرآن) عند من يرى أنها فرض في الصلاة. و (أم القرآن)، وإن كان يطلق عليها بمقتضى اللغة (سورة من القرآن)، فقد غلب عليها اسمها المختص بها، حتى إنه إذا أراد أحد أن ينصّ عليها ولا يسميها بهذا الاسم لا يفهم عنه؛ وهي قد غلب عليها هذا الاسم ونحوه من الأسماء التي غلب عليها أيضاً، كما غلب اسم (الثريا) عليها<sup>(٣)</sup>؛ وإن كانت من جملة النجوم.

واحتمل أن يكون الشبه من طريق الاهتمام بها، والتحقيق ببركتها، والاحترام لها. واحتمل أن يكون الشبه من كونها بوحى من الله تعالى، كما أن السورة من الله، وليس من عنده عليه السلام.

واحتمل أن يكون الشبه في التدريس لها، والمحافظة عليها، والمعاهدة لذلك، كما أخبر عليه السلام عن حامل القرآن أنه مثل صاحب الإبل المعقّلة<sup>(٤)</sup> إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهب.

واحتمل مجموع ما وجهناه وأكثر.

وقوله: (إذا همّ أحدكم بالأمر). هنا بحث: قوله (إذا همّ) هل هي على وضعها عند أهل الخواطر، أو توسعة في المخاطبة فيريد بهم النية؟ احتمل. والأظهر - والله أعلم - أن تكون على بابها.

(١) يعني أن القرآن يقرأ كما أنزل لا يبدل منه حرف بحرف.

(٢) هي سورة الفاتحة، وتسمى كذلك: أم الكتاب، والسبع المثاني.

(٣) أي على النجم المعروف بهذا الاسم.

(٤) الإبل المعقّلة: المعقّلة، المحبوسة عقل البعير: صَمَّ رُسْغَ يده إلى عَصْدِهِ وربطها معاً بالعِقال ليقى باركاً.

ونحن الآن نبين ما ذكره أهل الخواطر، وحيثنذ نبين لِمَ كان ما ذكرنا هو الظاهر؟ فأما الخواطر عندهم فهي سِتَّة، وإن كان قد ذكرناها في أول الكتاب، لكن لبعدها احتاج الموضع لها، فنذكر منها قدر ما تبين به الفائدة في الترجيح الذي ذكرنا. فأولها الهمة، ثم اللئمة، ثم الخطرة - وهذه الثلاثة عندهم غير مأخوذ بها - ثم نية، ثم إرادة، ثم عزيمة؛ وهذه الثلاثة عندهم مأخوذ بها وبعضها أشد من بعض. فيكون فائدة ترجيح الهمة أن يكون الحديث على بابه، لأنه أول ما يخطر له الخاطر، وليس له فيه تلك الرغبة القوية، فيستخير عند ذلك، فيبين له بعد الاستخارة - بتوفيق الله - الأرجح.

ولإنما قلنا ذلك لأنه إذا تمكن الأمر عنده حتى صار له فيه نية وإرادة فقد حصل له إليه ميل وحب، وقد قال ﷺ: (حُبُّك الشيء يُعَمِّي وَيُصِمُّ)<sup>(١)</sup>. فهذا لا يظهر له وجه الأرشد لِمِيلِهِ للذي عَزَمَ عليه، ولوجه آخر أيضاً لأن فيه إظهاراً لحقيقة العبودية. فأول شيء يَرِدُ عليه في ذلك لجوؤه بسببه إلى مولاه؛ فليحرمه هذا المقام يُلطف به؛ لأنه عند أهل المعاملات أعلى المقامات.

واحتمل أن تكون الهمة بمعنى النية، ويكون وجه الفقه فيه أن النفس لا تخلو من الخطرات، وأكثرها لا تثبت ولا يعمل عليها؛ فلا يستخير إلا على شيء ينويه ويعزم عليه، لئلا يستخير في أمر لا يعبأ به، فيكون فيه سوء أدب. وعلى هذا التعليل يرجح الثاني على الأول، ويكون فيه معنى ما من قوله (كما يعلمنا السورة من القرآن)، لأن القرآن لا يقرأ إلا لجمع القلب عليه، كما قال ﷺ: (اقْرَأُوا الْقُرْآنَ مَا أَتَلَفْتُمْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ فإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ)<sup>(٢)</sup>.

وقوله عليه السلام: (فليركع ركعتين من غير الفريضة) هنا بحث: قد جاء عنه ﷺ، أدعية كثيرة، ولم يشترط فيها صلاة؛ وهنا جعل من شرطها صلاة تختص بها. فهل هذا تعبد لا يُعقل له معنى، أو له معنى معقول؟ فإن قلنا بأنه تعبد فلا بحث. وإن قلنا بأنه معقول المعنى فنحتاج إذاً إلى بيان الحكمة في ذلك، وهذا هو الأظهر أن يكون لحكمة، إذ بالقطع لا يفعل الشارع شيئاً من الأشياء إلا لحكمة.

فنقول، والله أعلم: إن الحكمة هنا هي أنه لما أن كان هذا الدعاء من أكبر الأشياء إذ إنه، عليه السلام، أراد به الجمع بين صلاح الدين والدنيا والآخرة، فطالب هذه الحاجة يحتاج إلى قرع باب المملك بأدب وحالٍ يناسب ما يطلب، ولا شيء أرفع مما يُقرع به باب المولى من الصلاة، لما فيها

(١) أخرجه الإمام أحمد والبخاري في التاريخ وأبو داود عن أبي الدرداء، والخرائطي في «اعتلال القلوب» عن أبي برزة، وابن عساكر عن عبد الله بن أنس رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والشيخان والنسائي والدارمي وأبو عوانة وابن حبان عن جندب رضي الله عنه.



من الجمع بين التعظيم لله، سبحانه، والثناء عليه، والافتقار إليه حالاً ومقلاً وذكره، عز وجل، وتلاوة كتابه الذي به مفاتيح الخير من الشفاء والهدى والرحمة وغير ذلك مما هو فيه منصوص.

ويترتب على ذلك من وجوه الحكمة أن يكون طلب الأشياء بواسطة أولى بحسب ما يقتضيه نسبة مطلبه. وقد مضى بين الناس في بعض أمثالهم ما يشبه هذا. وهو قولهم: من نصب إلى وزه أخذ وزه، ومن نصب إلى عصفور أخذ عصفوراً. معناه أن الشبكة التي تحبس الوز لا تحبس العصفور، والتي تحبس العصفور لا تحبس الوز. فقد ظهر بينهما مناسبة ما من طريق الحكمة، لأن مقدمات الأشياء على اختلافها كل على ما يليق بها. فهذا هو وضع الحكمة.

وقوله عليه السلام: (ثم يقول) (ثم) هنا دالة على انتقال الفاعل من حال الصلاة عند تمامها إلى حال الدعاء، لأنها تدل على المهلة.

وقوله عليه السلام: (اللهم) هذه اللفظة هي من أرفع ما يستفتح به الدعاء؛ وقد ذكرنا هذا فيما تقدم بما علل فيه.

وقوله: (إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ) معناه أن تنظر لي أنت الخيرة بعلمك الذي أحاط بجميع الأشياء، لا بعلمي أنا القاصر عن جميع الأشياء.

وقوله: (وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ) أي أطلب منك أن تقدره أنت لي بقدرتك التي لا تعجز عن شيء من الأشياء، لا بقدرتي أنا العاجزة عن جميع الأشياء.

وقوله: (وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ) أي ما سألتك إنما أسأله من فضلك، فإنه لا حق واجب عليك، فما تفضلت به في مسألي هذه أو في غيرها فإنما هو من فضلك العظيم. و (العظيم): صفة لفضله عز وجل ولجميع صفاته ولذاته الجليلة.

وقوله: (فَإِنَّكَ تَقْدِيرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ) رجعنا هنا إلى ما أوردناه أولاً بمقتضى قوة الكلام الذي أبداه لنا، والفائدة في إبدائه لنا، لأن الغالب من الناس عدم فهم ما تقتضيه قوة الكلام، لأنه لا يعرف ذلك إلا أربابه - وهم قلائل - والدعاء يحتاج إليه من يعرف ذلك ومن لا يعرف. فمن لا يعرفه فلا يحصل له بتلك الألفاظ ذلك التنازل المقصود من النفس فتسقط فائدة كبيرة من الأمر، وقد تكون هي أقوى الأسباب في النجاح، فأعاده ﷺ لهذه الحكمة.

وقوله: (وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) هذا زيادة في الثناء على المولى الكريم، كأنه بقوة الكلام يقول: أنت تعلم الغيب في مسألي، ليس علمك بالغيب فيها بحكم الوفاق، ولا لعل من العلل، بل إنك أنت علام جميع الغيوب على حد الكمال والجلال. وزيادة الثناء على المولى من أنجح الوسائل، فهذا هو حقيقة الافتقار والاضطرار، وهو الحق الذي لم يبق لنفسه من الدعوى شيئاً؛ ورد الأمر إلى من هو أهله، وهو له حق.

وقوله ثم قال : (اللَّهُمَّ) إنما أعاد هذه اللفظة لما فيها من الخير والرغبة .

وقوله : (إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي) إنما قَدَّمَ الدِّينَ لَأَنَّهُ الْأَهَمُّ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ . فَإِنَّهُ إِذَا سَلِمَ الدِّينُ فَالْخَيْرُ حَاصِلٌ ، تَوَجَّعَ صَاحِبُهُ أَوْ لَمْ يَتَوَجَّعْ ، وَإِذَا اخْتَلَّ الدِّينُ فَلَا خَيْرَ بَعْدَهُ .

وقوله : (وَمَعَاشِي) أي في عيشتي في هذه الدار .

وقوله : (وَعَاقِبَةُ أَمْرِي) أي في آخِرَتِي .

وقوله : (أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ) الشك هنا من الراوي ، والمعنى واحد . وإنما قال هذا هنا لما كان فيه وفي جميع الصحابة ، رضوان الله عليهم ، من التحري في النقل والصدق .

وقوله : (فَأَقْدُرْهُ لِي) مأخوذ من الْقَدَر .

وقوله : (وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ) مأخوذ من التيسير ، مخافة أن يترك في ذلك لنفسه ، وإن قُدِّرَ له به فيتعب في تحصيله .

وقوله : (وَأِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةُ أَمْرِي - أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ -) الكلام عليه كالكلام على الذي قبله . لكن هنا بحث ، وهو أَنَا رَأَيْنَا أَنَّ كُلَّ مَنْ لَزِمَ قَوْلُهُ طَلَبَ الْخَيْرَ ، وَقُضِيَ لَهُ بِهِ ، لَا يَكُونُ فِيهِ شَرٌّ . فَمَا فَائِدَةُ إِعَادَةِ قَوْلِهِ (وَأِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي) إِلَى تَمَامِ الْكَلَامِ ؟ فنقول : فائدة الإعادة لوجهين : (أحدهما) ما ذكرناه أَوَّلًا ، وهو أَنَّ مَا كَانَ يَدُلُّ بِقُوَّةِ الْكَلَامِ أَعَادَهُ نَصًّا لِلْعَلَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَا . (الوجه الآخر) مُخْتَلَفٌ فِيهِ : هَلِ الْأَمْرُ بِالْشَيْءِ نَهْيٌ عَنْ ضِدِّهِ أَوْ لَيْسَ ؟ وَ (وجه ثالث) وهو الإِبْلَاجُ فِي تَحْسِينِ الْحَالِ .

وقوله : (فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ) البحث هنا كالبحث فيما تقدم آنفًا .

وقوله : (وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ) هذه إشارة إلى تمام قدرة القادر ، وهو إِبْلَاجٌ فِي التَّنْزِيهِ ، لِأَنَّهُ قُدْرَتُهُ ، جَلَّ جَلَالُهُ ، الْبَعِيدُ وَالْقَرِيبُ عِنْدَهُ عَلَى حَالَةٍ سَوَاءٍ ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ . وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ مَا نَصَّ ، عَزَّ وَجَلَّ ، فِي كِتَابِهِ مِنْ قِصَّةِ عَرْشِ بَلْقِيسَ الَّذِي أُتِيَ بِهِ لِسُلَيْمَانَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لَمَّا دَعَا الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ فِي لَمَحَةِ الْبَصَرِ ، وَكَانَ مِنَ الْبُعْدِ حَيْثُ كَانَ . وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ : أَنَّهُ لَوْ عَجَزَتْ قُدْرَتُهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، عَنْ مُمْكِنٍ مَا صَحَّ لَهُ الْكَمَالُ . وَالْكَمَالُ لَا يَبْدُ مِنْ وَصْفِهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، بِهِ . فَلَا يَعْجِزُ إِذَا عَنِ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ .

وقوله : (ثُمَّ أَرْضِنِي) أي أَرْضِنِي بِهِ ، لِأَنَّهُ إِذَا قُضِيَ لَهُ مَا فِيهِ الْخَيْرُ وَلَمْ يَرْضَ فَقَدْ تَنَغَّصَ ، وَمِنَ تَنَغُّصِ حَالِهِ مَا كُمُلَتْ لَهُ عَافِيَةٌ . فَهَذَا مِنْ كَمَالِ الْعَافِيَةِ أَيْضًا .

وقد ذكر أهل الصوفة أنه من استخار في شيء ، فَقُضِيَ لَهُ فِيهِ قَضَاءٌ ، وَلَمْ يَرْضَ ، فَإِنَّهُ عِنْدَهُمْ مِنَ الْكِبَائِرِ الَّذِي يَجِبُ مِنْهُ التَّوْبَةُ وَالْإِقْلَاعُ ، لِأَنَّهُ مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ . وَمَا قَالُوهُ لَيْسَ يَخْفَى ، لِأَنَّهُ لَمَّا رَجَعَ هَذَا الْعَبْدُ الْمُسْكِنُ إِلَى هَذَا الْمَوْلَى الْجَلِيلِ ، وَرَغِبَ مِنْهُ أَنْ يَنْظُرَ لَهُ بِنَظَرِهِ ، فَكَيْفَ لَا يَرْضَى ؟

فهذه صفة تشبه النفاق، بل هو النفاق نفسه، لأنه أظهر الفقر والافتقار والتسليم، ثم أبطن ضد ذلك، فأين هذا الحال من قوله (أستخيرك بعلمك) على ما بيناه أولاً؟ وقد ورد في الحديث ما معناه أنه، عز وجل يقول (ما غضبت غضباً أشد من غضبي على من استخارني في أمر فقضيت له فيه قضاء وكرهه) <sup>(١)</sup> أو كما قال:

وهنا بحث: لِمَ سُمِّيَت الحاجة وهو، عز وجل، يعلمها، لأنها من جملة الغيوب؟ فالبحث هنا كالبحث في قوله (وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرّ لي) لكن هنا زيادة، لأنه قد يكون في إيمان بعض العوام ضعف فيلحقه الشك: هل يعلم حقيقة أم لا؟ وإن كان جهل بعض العوام بعض الصفات لا يخرجهم من دائرة الإيمان على ما عليه أكثر أهل السنة. لكن لما كان هذا الموضع من المواضع التي لا يمكن فيها إلا الإيمان الجازم من أجل قضاء الحاجة أتى، ﷺ، بما يحقق الإيمان الذي هو الأصل في هذه الفائدة، لأنه فرق بين البقاء في دائرة الإيمان وقضاء الحاجة. فلقد يكون في دائرة الإيمان ولا تُقضى له حاجة إلا أن يأتي الله بمن يشفع له، ولأن دعاءه هو الشفع له؛ فإذا كان إيمانه ناقصاً لم ينفعه.

فهذا أقوى دليل لأهل الصوفة الذين يرون بدوام الفقر والافتقار والتخلي في كل الأنفاس، إذ بفقر ساعة يستفيد هذه الفائدة، فما بالك به إذا كان دائماً؟ وقد كان بعض أهل هذا الشأن إذا وقعت لبعض الفقراء حاجة، فيلجأ فيها إلى الله، فيفضل عليه بقضائها، فيقول له: يا سيدي: ما أجلاً اللجأ إلى الله! فكان جوابه، رحمه الله، أن يقول: لِمَ تَحُودُونَ عنه حتى تحتاجوا الرجوع إليه؟

فانظر عباراتهم كيف تخرج مع أصول الشريعة على حد سواء، وإن كان بعضهم لا يعرف القاعدة في ذلك الموضع، لأن النبي، ﷺ، قد قال: (من رُزِقَ مِنْ بَابٍ فَلْيَزِمْهُ) <sup>(٢)</sup>. فإذا رأى أن الخير كله في الرجوع إليه فَلِمَ يَحُودُ عنه حتى يحتاج أن يرجع إليه؟ كما ذكر هذا السيد سواء. وقد قال، عليه السلام، كناية عن مولانا، جلّ جلاله (مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَتهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ) <sup>(٣)</sup>. فانظر بعين بصيرتك بباب من تقف، وأي جهة تقصد.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

- (١) وجدنا في هذا المعنى أن رسول الله ﷺ قال: (من سعادة المرء استخارته ربه، ورضاه بما قضى، ومن شقاء المرء تركه الاستخارة وسخطه بعد القضاء). رواه أبو الشيخ وابن حبان في كتاب الثواب.
- (٢) أخرجه البيهقي في الشعب عن أنس رضي الله عنه.
- (٣) سبق تخريجه في الحديث (٤٧). ولفظ المؤلف: (كناية عن مولانا) تعني أن ما سوف يورده هو حديث قدسي. وللمحدثين صيغ عدة عن الحديث القدسي، منها ما أورده المؤلف، ومنها: قال رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه، ومنها: قال الله تعالى فيما رواه عنه رسول الله ﷺ. والمؤدّي في العبارات كلها واحد.

## حديث ما بين بيته ومنبره ﷺ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمَنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمَنْبَرِي عَلَى حَوْضِي.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن ما بين بيته، ﷺ، ومنبره روضة من رياض الجنة، ومنبره على حوضه. والكلام عليه من وجوه:

منها: هل تنقل تلك التربة بعينها فتكون في الجنة؟ أو معناه: أن العمل فيها يوجب لصاحبه روضة في الجنة؟ اختلف العلماء في ذلك على قولين: فمن قائل بالوجه الأول، ومن قائل بالوجه الثاني. والأظهر - والله أعلم - الجمع بين الوجهين معاً، لأن لكل وجه منهما دليلاً يعضده ويقويه من جهة النظر والقياس.

أما الدليل على أن العمل فيها يوجب روضة في الجنة فلأنه إذا كانت الصلاة في مسجده، عليه السلام، بألف فيما سواه من المساجد، فلهذه البقعة المذكورة زيادة على باقي البقع، كما كان للمسجد زيادة على غيره كما ذكرنا.

وأما الدليل على كونها بعينها في الجنة، وكون المنبر أيضاً على الحوض - كما أخبر، عليه السلام، وأن الجذع في الجنة، والجذع في البقعة نفسها، فبالعلة التي أوجبت للجذع الجنة هي في البقعة سواء - على ما أذكره بعد - والذي أخبر بهذا صادق. فينبغي الحمل على أكمل الوجوه، وهو الجمع بينهما، لأنه قد تقرر من قواعد الشرع أن البقع المباركة فائدة بركتها لنا والإخبار بها لتعميرها بالطاعات؛ فإن الثواب فيها أكثر، وكذلك الأيام المباركة أيضاً.

واحتمل وجهاً ثالثاً، وهو أن تكون تلك البقعة نفسها روضة من رياض الجنة، كما هو الحجر الأسود من الجنة، وكما هو النيل والفرات من الجنة، وكما أن الثمار الهندية من الورق التي هبط بها آدم عليه السلام من الجنة، فاقترضت الحكمة أن يكون في هذه الدار من مياه الجنة، ومن ترابها، ومن حجرها، ومن فواكهها، حكمة حكيم جليل.

وقد روي أن أول ما خلق من العالم الآدمي طينة سيدنا رسول الله ﷺ، وأن جبريل، عليه السلام، نزل مع الملائكة في جمع كبير من جَلَّتْهم، فأخذوا تربة سيدنا، ﷺ، من موضع قبره، ثم صعدوا بها، وُعِجَّت بالسلسيل، ثم غُمست في جميع أنهار الجنة حتى رجع لها نور عظيم، وطيف بها في العالمين حتى عُرفت، ثم أَكْبَهَا<sup>(١)</sup> الله، عز وجل، يمين العرش حتى خلق آدم عليه السلام<sup>(٢)</sup>.

وقد روي عن كعب الأحبار<sup>(٣)</sup>، رضي الله عنه، أنه لما أراد الجليل، جلّ جلاله، أن يخلق محمداً، ﷺ، أمر جبريل، عليه السلام، أن يأتيه بالطينة التي هي قلب الأرض وبهاؤها ونورها، قال: فهبط جبريل، عليه السلام، وملائكة الفردوس، وملائكة الرفيق الأعلى، فقبض قبضة من موضع قبر رسول الله ﷺ، وهي بيضاء منيرة، فعجنت بماء التسنيم، وغمست في مَعِين أنهار الجنة، حتى صارت كالدرة البيضاء، ولها نور وشعاع عظيم، حتى طافت الملائكة حول العرش، وحول الكرسي، وفي السماوات، وفي الأرض والجبال، والبحار، فعرفت الملائكة وجميع الخلق محمداً، عليه السلام، وفضله، قبل أن يعرفوا آدم، عليه السلام.

فلما خلق الله آدم، عليه السلام، وضع في ظهره قبضة رسول الله ﷺ، فسمع آدم في ظهره نَشِيشاً<sup>(٤)</sup> كنشيش الطير، فقال آدم: يا رب، ما هذا النشيش؟ فقال: هذا تسبيح نور محمداً، عليه السلام، خاتم الأنبياء، الذي أخرجته من ظهرك، فخذ به عهدي وميثاقي، ولا تودعه إلا في الأرحام الطاهرة. فقال آدم: أي رب، قد أخذته بعهدك ألا أودعه إلا في المطهّرين من الرجال والمحصّنين من النساء. فكان نور محمداً يتلألأ في ظهر آدم، وكانت الملائكة تقف خلفه صفوفاً لما يرون.

فلما رأى آدم ذلك قال: أي رب، ما لهؤلاء ينظرون خلفي صفوفاً؟ فقال الجليل له: يا آدم، ينظرون إلى نور خاتم الأنبياء الذي أخرجته من ظهرك. فقال: أي رب، أَرْنِيهِ. فأراه الله إياه، فأمن به، وصلى عليه، مشيراً بأصبعه. ومن ذلك الإشارة بالأصبع بلا إله إلا الله محمد رسول الله. فقال آدم: اجعل هذا النور في مقدّمي، كي تستقبلني الملائكة، ولا تَسْتَدْبِرْنِي، فجعل ذلك النور في جبهته، فكان يرى في غرة آدم دارة كدارة الشمس في دَوْرَان فلکها، وكالبدر في تمامه، وكانت الملائكة تقف أمامه صفوفاً ينظرون إلى ذلك النور، ويقولون: سبحان ربنا - استحساناً لما يَرَوْنَ.

(١) أَكَبَ الرجل على عَمَلٍ عَمِلَهُ إذا لزمه ولم يعدل عنه. والمقصود من عبارة المؤلف أن الله تعالى جعل العجينة التي خلق منها رسول الله ﷺ يمين العرش حتى خلق آدم عليه السلام.

(٢) الرواية المذكورة لم ترد في كتب السنة.

(٣) كعب الأحبار: هو كعب بن مانع الحميري. تابعي، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة، وخرج إلى الشام فسكن حمص وتوفي فيها عن مائة وأربع سنين، وكانت وفاته سنة ٣٢ هـ/٦٥٢ م. وقد نسب إليه كثير من الإسرائيليات.

(٤) النشيش: صوت الماء وغيره إذا غلى.

ثم إن آدم عليه السلام، قال: يا رب، اجعل هذا النور في موضع أراه. فجعل الله ذلك النور في سبّابه. فكان آدم عليه السلام، ينظر إلى ذلك النور، ثم إن آدم قال: يا رب، هل بقي من هذا النور في ظهري شيء؟ فقال: نعم، بقي نور أصحابه، فقال: أي رب، اجعله في بقية أصابعي. فجعل نور أبي بكر في الوسطى، ونور عمر في البنصر، ونور عثمان في الخنصر، ونور علي في الإبهام. فكانت تلك الأنوار تتلألأ في أصابع آدم لما كان في الجنة. فلما استخلفه الله، وأهبط إلى الأرض، ومارس أعمال الدنيا، انتقلت الأنوار من أصابعه، ورجعت إلى ظهره<sup>(١)</sup>.

وقد ساق الفقيه الخطيب، أبو الربيع، رضي الله عنه، في كتابه المسمى بـ (شفاء الصدور) من هذه الرواية أكثر من هذا. فعلى هذا فيكون خلقه، ﷺ، من الأرض، ويكون الأصل من تلك الدار المكرمة، بدليل أنه لم يختلف أحد من العلماء أن الموضع الذي ضم أعضاءه، ﷺ، أرفع البقع. فإذا كان ما بين بيته، عليه السلام، وبين المنبر من الجنة، فكيف يكون ذلك الموضع الذي هو فيه؟ فعلى هذا فيكون الموضع روضة من رياض الجنة الآن، ويعود روضة كما كان في موضعه، ويكون للعامل بالعمل فيه روضة في الجنة - وهو الأظهر - لوجهين: (أحدهما) لعلو منزلته، عليه السلام، و (الآخر) ما قدمناه من الدليل. ويكون بينه عليه السلام وبين الأبوة الإبراهيمية في هذا شبه. وهو أنه لما خصّ الخليل، عليه السلام، بالحجر من الجنة، خصّ الحبيب عليه السلام بالروضة من الجنة.

وهنا بحث: لم جعلت هذه البقعة من بين سائر البقع روضة من رياض الجنة؟ فإن قلنا: تعبد، فلا بحث. وإن قلنا: لحكمة، فحيث نحتاج إلى البحث. والأظهر أنها لحكمة، وهي أنه قد سبق في العلم الرباني بما ظهر أن الله، عزّ وجلّ، فضله على جميع خلقه، وأن كل ما كان منه بنسبة ما من جميع المخلوقات يكون له تفضيل على جنسه، كما استقري في كل أموره من بدء ظهوره عليه السلام إلى حين وفاته في الجاهلية والإسلام. فمنها ما كان من شأن أمه، وما نالها من بركته مع الجاهلية الجهلاء حسب ما هو مذكور معلوم، ومثل ذلك حليلة السعدية، وحتّى<sup>(٢)</sup> الأتان، وحتّى البقعة التي تجعل الأتان يدها عليها تخضّر من حينها، وما هو من ذلك كله معلوم منقول، وكان مشيه، عليه السلام، حيث ما مشى ظهرت البركات مع ذلك كله، وحيث وضع، عليه السلام، يده المباركة ظهر في ذلك كله من الخيرات والبركات حساً ومعنى ما هو منقول معروف.

ولما شاء الحكيم أنه، عليه السلام، لا بدّ له من بيت، ولا بدّ له من منبر، وأنه بالضرورة يكثر

(١) هذا من إسرائيليات كعب الأحبار.

(٢) الواو زائدة.

تردده، عليه السلام، بين المنبر والبيت، فالحرمة التي أعطي إذا كان من مسّة واحدة، بمباشرة أو بواسطة حيوان أو غيره، تظهر البركة والخير، فكيف مع كثرة ترداده، عليه السلام، في البقعة الواحدة مراراً في اليوم الواحد، طول عمره من وقت هجرته إلى حين وفاته؟ فلم يبق لها من الترفع بالنسبة إلى عالمها أعلى مما وصفنا، وهو أنها كانت من الجنة، وتعود إليها، وهي الآن منها، وللعامل فيها مثلها. فلو كانت مرتبة يمكن أن تكون أرفع من هذه في الدار لكانت لها، ولا أعلى مرتبة مما ذكرنا في جنسها.

فإن احتج محتج بأن يقول: فينبغي أن يكون ذلك للمدينة بكمالها، لأنه، عليه السلام، كان يطؤها بقدمه مراراً. فالجواب: أنه قد حصل للمدينة تفضيل لم يحصل لغيرها<sup>(١)</sup>، من ذلك أن ترابها شفاء، كما أخبر، عليه السلام، مع ما شاركت فيه البقعة المكرمة من منعها من الدجال وتلك الفتن العظام، وأنه ﷺ أول ما يشفع لأهلها يوم القيامة، وأن ما كان بها من الوباء والحمى رفع عنها، وأنه بورك في طعامها وشرابها، وأشياء كثيرة، فكان التفضيل لها بنسبة ما أشرنا إليه أولاً، فإن تردده، عليه السلام، في المسجد نفسه أكثر مما في المدينة نفسها، وتردده، عليه السلام، فيما بين المنبر والبيت أكثر مما في سواه من سائر المسجد، فالبحت تأكد بالاعتراض، لأنه جاءت البركة متناسبة لتكرار تلك الخطوات المباركة. والقرب من تلك النسمة المرفعة لا خفاء فيه. فالمدينة أرفع المدن، والمسجد أرفع المساجد، والبقعة أرفع البقع. قضية معلومة، وحجة ظاهرة موجودة.

وقوله عليه السلام (ومنبري على حوضي) هذا لم يختلف أحد من العلماء أنه على ظاهره، وأنه حق محسوس موجود على حوضه، عليه السلام.

وفيه من الفقه: الإيمان بالحوض أنه حق، وأن المنبر عليه حق، وأن القدرة صالحة، ولا عَجَزَ فيها عن ممكن، لأن هذه الأحاديث وما أشبهها فائدتها التصديق بها، لأنه من متضمن الإيمان، لقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾<sup>(٢)</sup> فكل ما أخبر به الصادق، عليه السلام، من أمور الغيب فالإيمان به واجب.

وفيه أيضاً إشارة لطيفة، وهي إذا كان الجماد يشرف به، عليه السلام، فكيف بالمتبع له حالاً ومقالاً؟ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾<sup>(٣)</sup> ولهذه الإشارة كان الخلفاء، رضي الله عنهم، إذا جلس بإزاء أحدهما في المسجد شخص لا يعرفونه يسألونه ما عنده من القرآن؟ فينظرون

(١) أفعمت كتب الحديث بفضائل المدينة المنورة.

(٢) سورة البقرة، من الآية ٣.

(٣) سورة السجدة: من الآية ١٧.

له بذلك الحال، وينزلونه بتلك المنزلة، لأنهم إذ ذاك ما كانت عندهم الرفعة إلا بزيادة القرآن، لأن غير ذلك من الفضائل تساووا فيها وتقاربوا.

ولذلك لما دَوَّنَ عمر، رضي الله عنه، الديوان قدم أقربهم إلى النبي، ﷺ، نسباً، وأقدمهم هجرة، ثم باقي الناس بقدر ما عند كل شخص من القرآن، حتى إنه ذكر أنه جاءه ابنه عبد الله فقال له: لِمَ فضلتَ عليَّ عبدَ الرحمن بن أبي بكر؟ فقال له: إن أباه أقدم في الإسلام من أبيك. وأقلها منزلة بعدما ذكرنا: الحب لله ولرسوله<sup>(١)</sup>، لقوله ﷺ، لسائل حين سأله عن الساعة فقال له ﷺ: (ما أعددت لها؟ فقال: والله، ما أعددت لها كبير عمل، إلا أني أحب الله ورسوله. فقال له: أنت مع من أحببت)<sup>(٢)</sup>.

تنبيه: واحذر أن يكون حبك دعوى، فإنه، عليه السلام، قد قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان)<sup>(٣)</sup> وذكر فيها (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) وقد تقدم الكلام عليه في أول الكتاب، فرَفَعُ المنزلة بقدر الإيمان، والاتباع، فمهيئ نفسه أو مكرم لها.

وفيه دليل على أن ما هو من ضرورة البشر ليس من الدنيا بشيء، وإنما هو آخرة كله. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (بيتي ومنبري) لأن البيت من ضرورة العبد، لأنه يستره من الناس، ويكنُّه من أذى المطر والشمس، ويخلو فيه لعبادة ربه، فهو آخرة صرف، وما كان من متاع الدنيا فكذلك كل ما كان منها مما لا بد للبشرية منه ليستعين به على آخرته فهو آخرة، لكن بشرط وهو: أن يكون قدر الضرورة، وإلا فهو لما تشتهيه النفس، فيكون نفسانياً، فيخرج إلى باب آخر. ولذلك قال بعض الصحابة حين أدخل عثمان، رضي الله عنه، بيوت أزواج النبي، ﷺ، في الزيادة التي زادها في المسجد: وددت أنه تركها حتى يأتي آخر هذه الأمة، فيرون بيوت نبيهم أي صفة كانت، وكان علوها قامة وبسطة<sup>(٤)</sup>.

وكذلك قوله عليه السلام (ومنبري) لأن المنبر مما فيه تَرَفَّع، لكن لما لم يقصده عليه السلام إلا لمنفعة دينية - وهو أن يسمع جميع من حضر حكم الله عليهم - صار آخرة كله. وكذلك كل ما احتاج المرء إليه من دينه لمصلحة فيه، وإن كان يشبه متاع الدنيا، فليس بدنيا. ولتلك العلة لم يتخذ ﷺ الخاتم إلا حين قيل له: إن ملوك الروم لا تقرأ كتاباً حتى يكون

(١) أقلها: مبتدأ، وخبره: الحب. ويريد: أن الحب دون حفظ القرآن.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والشيخان والترمذي.

(٣) أخرجه الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه.

(٤) انظر الحديث (٥٠) ففي حاشيته شرح لمعنى القامة والبسطة.



مطبوعاً، فاتخذته من أجل هذه العلة. ومن أجل ذلك اختلف العلماء في التختيم: هل هو سنة مطلقة، كل الناس فيها سواء، أو ليس إلا لمن له أمر ليس إلا؟ على قولين. فمن لحظ العلة التي من أجلها اتخذها هو، ﷺ، قال: لا يكون سنة إلا لمن كان محتاجاً إليه، والحاجة هي ما تقدم من التعليل. ومن لحظ نفس الفعل، ولم يعلل قال: كل ما فعله، عليه السلام، فهو سنة مطلقة. ولذلك قال من قال:

الدين بالسنة محياه      فلا تقصد في فعلك سواه  
واحذر عوائد سوء      قد أتلفت وأهلكت محياه  
وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

الكتب النادرة التي تفتح لأول مرة

## حديث كراهة الرسول أن يبسيت عنده ذهب أو يمسي

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، الْعَصْرَ. فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ سَرِيعاً، وَدَخَلَ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، ثُمَّ خَرَجَ. وَرَأَى مَا فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ مِنْ تَعَجُّبِهِمْ لِسُرْعَتِهِ، فَقَالَ: ذَكَرْتُ - وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ - تَبِيراً عِنْدَنَا، فَكَّرَهُتُ أَنْ يَمْسِيَ - أَوْ يَبْسِتَ - عِنْدَنَا، فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز العمل على ما يذكر المرء - وهو في الصلاة - إذا كان فيه صلاح لها، وليس بمفسد للصلاة. والكلام عليه من وجوه:

منها: جواز العزم على عمل طاعة، وهو في أخرى. لكن نحتاج إلى بيان صورة الذكر الذي لا يفسد الصلاة من الذي يفسدها، وما بين ذلك. والكلام في هذا بأن نذكر أولاً أنواع الخواطر التي ترد على الشخص، وهو في الصلاة. وهي: إما نفسانية، وإما شيطانية، وإما ملكية، وإما ربّانية.

فأما الربّانية فهي علامة على قبول الصلاة، وهي أعلى درجات المصلين، وهي حقيقة المناجاة بالنسبة إلى عالمتنا. وهذه لها أهل يعرفونها، حتى إنه كان بعض أهل هذا الشأن إذا قال له بعض أصحابه: إنه دعا في الصلاة أو غيرها بدعاء في وجه ما، فيقول له: هل سمعت الجواب بالقبول، والخطاب في الحضور، أم لا؟ فإن قال له: نعم. عرف أنه قد حصل له قَدَمٌ ما من أهل الخصوصية. وإن قال له: لم أسمع. جعله من العوام، ويقول له: وكيف يكون دعاء خالص مخلص لا يسمع صاحبه جوابَ مسألته؟ هذا محال. فكان هذا عنده من قبيل المحال، لأن هذا كان حاله.

ولهذا المعنى كان سيّدنا، ﷺ، يقول: (جعلت قرّة عيني في الصلاة)<sup>(٢)</sup>، و (أرْحَنَا بِهَا يَا

(١) عقبة بن الحارث، وكنيته: أبو سروعة. حجازي له صحبة، أسلم عام الفتح. (انظر أسد الغابة ٢١٨/٥ وتاريخ المدينة المنورة لابن شبة ٣/٨٤١).

(٢) جزء من حديث أوله: حَبَّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثَ الْخ. أخرجه الإمام أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي في السنن الكبرى عن أنس رضي الله عنه.

بلال<sup>(١)</sup>. فإنه يبرد ظمأ المجاهدة بعذوبة برد شراب المناجاة، فتستريح برحاؤه، عليه السلام بذلك. وقال عليه السلام: (أَقْرَبُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجد، فأكثرُوا فيه الدعاء، فَمِمَّنْ أن يُستجابَ لكم)<sup>(٢)</sup> لما فيه من القرب والتداني. وهذا خاص بأربابه في الفهم والحال. اللهم إنا نسألك أن تجعلنا من أهله؛ وإلا فلا تحرمنا التصديق به.

وأما الملكي فهو كل ما يدعو إلى خير، وهو مثل ما ذكر في هذا الحديث: إما أن تفعله، وإما أن يكون لك سبباً إلى الخشوع - وهو من أعلى درجات المصلين - وإما أن ينقطع به عنك الوسواس في صلاتك. وهو مع ذلك لا يزيد الصلاة إلا حسناً، ما لم تطل المحادثة به حتى يقع به الخلل في شيء من الصلاة، فإنه إذ ذاك تعاد الصلاة منه، مثلما فعل عمر، رضي الله عنه، حين صلى المغرب بالصحابة، رضوان الله عليهم، ولم يقرأ فيها، فذكروا له ذلك بعد. فقال: كيف كان الركوع والسجود؟ فقالوا: حسن. قال: فلا بأس إذاً؛ إني جهزت جيشاً إلى الشام، وأنزلت الناس منازلهم. وذكروا أنه أعاد الصلاة. وفي إعادة الصلاة خلاف بين العلماء. فيكون في إعادة الصلاة، إذا أتم ركوعها وسجودها، ولم يقرأ، خلاف. فإن نقص شيء من الركوع والسجود فلا بد من الإعادة، لقوله، ﷺ: (ارجع فصل، فإنك لم تصل)<sup>(٣)</sup> لما نقص من التمكن في أركانها كما هو مذكور في الحديث.

وإن كان نفسانياً. فإن كان مما ينافي الصلاة، مثل التحدث في شهوة من الشهوات المباحة، فالإعادة مندوبة، لأن المقصود من الصلاة الحضور والخروج من حظوظ النفس لقوله، ﷺ: (إن الله لا يقبل عمل امرئ حتى يكون قلبه مع جوارحه)<sup>(٤)</sup> أو كما قال عليه السلام. فإذا كان القلب مشغولاً بتلك الشهوة فأين هو، وأين الصلاة؟ اللهم إلا أن تكون خطرةً من النفس فيتركها ولا يلتفت لها، فلا تضره، إن شاء الله، إذا كان عند إحرامه قد أخلص. فإنما نحن مكلفون بدفع الخواطر السوء في الصلاة وغيرها، إلا أنها في الصلاة أكد، للعلة المتقدمة. وقد قال، عليه السلام: (أحْدِثْ مع الذنب توبةً السر بالسر، والعلانية بالعلانية)<sup>(٥)</sup>. وإن كانت الشهوة محرمة فلا صلاة بالأصالة، لأنه لا يجتمع فعل طاعة مع معصية. فنحن قيل لنا في عدم حضور القلب ما ذكرناه آنفاً، فما بالك بهذه الصفة الذميمة؟

- 
- (١) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والطبراني في المعجم الكبير، والهيتمي في مجمع الزوائد والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد عن رجل من الصحابة.
- (٢) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقين: خَلِيق، جَدِير.
- (٣) رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأصحاب السنن عن رافع بن أبي رفاع رضي الله عنه.
- (٤) رواه ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٩٠ وابن عبد البر في التمهيد ١٠/ ٢٩٨ بلفظ آخر.
- (٥) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٦٢ و ٧/ ٩٥ بلفظ آخر.

وأما إن كان شيطانياً، فإن مال إليه واستصحبه، وأصغى إليه، فالصلاة فاسدة، لأن هذا من جنس ما ذكرناه آنفاً عن النفس التي تحدث بالشهوة المحرمة. فإنه كل ما هو من طريق الشهوات فهو من قبيل النفساني، وكل ما هو من قبيل المعاصي فهو من قبيل الشيطان، فإن لم يلتفت إليه، واستغفر وأعرض، فيرجى ألا تفسد صلاته، إن شاء الله تعالى.

وأما الوجه الذي بين البطلان والجواز - على حسب التقسيم أولاً - فهو الذي يكثر من الخواطر، ويغفل عن دفعها، ولا يشتغل بها أيضاً، فلا دليل لنا على الفساد، ولا على ضده.

وفيه دليل على أن عادة سيّدنا، ﷺ، كانت الإقامة بعد الصلاة في المسجد. يؤخذ ذلك من قوله (سريعاً) وتعجب الصحابة، رضي الله عنهم، منه لأنه لولا ما كان هذا منه، عليه السلام، خلاف عادته لم يتعجب منه.

وفي هذا دليل على أن يكون من يدعو إلى خير يغلب ذلك الخير عليه في أكثر عاداته، حتى يكون حاله يصدق مقالة، لأن سيّدنا، ﷺ، قد أخبر في هذا الحديث (أن من قعد في مصلاته بقيت الملائكة تصلي عليه، وأن انتظار الصلاة إلى الصلاة رباط)<sup>(١)</sup>. فما دل عليه السلام عليه بمقاله كان الغالب على حاله، فلما رأوا منه غير ذلك تعجبوا.

وفيه دليل على أن مخالفة العادة تقتضي التشويش على الإخوان، إذا لم يعرف السبب لذلك. يؤخذ ذلك من تعجب الصحابة، رضوان الله عليهم. ويؤخذ منه أن من حق الصحبة العمل على زوال التشويش عن صاحب - وإن قل - إن أمكن ذلك. يؤخذ ذلك من رجوع سيّدنا، ﷺ، إليهم، وإخبارهم بسبب سرعة رجوعه إلى أهله.

وفيه دليل على العمل بما يظهر من الشخص دون إفصاح ولا سؤال. يؤخذ ذلك من أن سيّدنا، ﷺ، لم يخبرهم إلا بعدما رأى في وجوه القوم من التعجب.

وفيه دليل على أن كل ما في القلب يظهر على الوجه، ولا يخفى ذلك إلا على من لا نور له في قلبه. أعني بالنور مَنْ وَرَّثَهُ، عليه السلام، من أمته، في ذلك المعنى الخاص، وإلا فكل مسلم له نور بحسب حاله في إيمانه، والله أعلم. يؤخذ ذلك من أن سيّدنا، ﷺ، لما رأى ما في وجوه القوم استدل بذلك على ما كان في قلوبهم. ومما يؤيد ذلك قوله، عليه السلام: (المؤمن ينظر بنور الله)<sup>(٢)</sup>.

---

(١) أصله: أفضل الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة، ولزوم مجالس الذكر، ما من عبد يصلي ثم يجلس في مجلسه إلا صلت عليه الملائكة حتى يحدث. أخرجه عبد الرزاق وابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أوله: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله. أخرجه البخاري في التاريخ والترمذي عن أبي سعيد الحكيم والطبراني وابن عدي عن أبي أمامة وابن جرير عن ابن عمر رضي الله عنهم أجمعين.

فإذا نظر بنور الله لم يخف عليه من علامات الوجه ما في القلب . فإن قَوِي إيمانه صار من أصحاب المكاشفات الذين يبصرون القلوب بأعين بصائرهم كما يبصرون الوجوه بأعين رؤوسهم .

وفيه دليل على جواز ذكر المعروف - إذا كان لضرورة - وأنه لا ينقله عن حالة الإخفاء . يؤخذ ذلك من قوله ، عليه السلام ، لهم ، رضوان الله عليهم ، لما رأى منهم ما ذكرناه ، المعروف الذي فعله من أجل صلاح خواطرهم . لأنه قد جاء أن الذي يفعل المعروف سرّاً ، ثم يتحدث به ، ينقل له إلى ديوان العلانية ، ثم يتحدث به ثانية ينقل له إلى ديوان الرياء . فإذا كان مثل هذا للعلة الموجودة ، أو ما أشبهها إذا لم يرد بذلك مدحة أو ثناء ، فيرجى أنه يبقى له على حاله .

وقد نص أهل التوفيق على أن من مكاييد الشيطان أنه إذا عمل العبد العمل سرّاً يقول له : تحدث به ، لأن يُقْتَدَى بك . فيفعل ذلك حتى يخرج به إلى الباب الذي ذكرناه ، وهو باب الرياء وصاحب العمل لا يشعر بذلك ، وقد يظن أنه في ذلك مأجور ، فيكون جهلاً مركباً .

وفيه دليل على أن للرجل أن يترك ماله عند أهله . يؤخذ ذلك من قوله ، عليه السلام (تبراً عندنا) وكان التبر عند بعض أهله - كما أخبر أولاً أنه ، عليه السلام ، دخل على بعض أزواجه - ولم يأت أن سيّدنا ، ﷺ ، كان له شيء مَحْزُوز لنفسه المكرمة ، مغلق عليه ، دون أهله .

وفيه دليل على جواز النيابة في المعروف . يؤخذ ذلك من قوله ، عليه السلام : (فأمرت بقسمته) .

وفيه دليل على جواز إبقاء المال على ملك صاحبه طول يومه ، ولا يخرج ذلك عن مقام الزهد . يؤخذ ذلك من قوله ، عليه السلام : (كرهت أن يمسي - أو يبيت - عندنا) ولم تقع منه ، عليه السلام ، الكراهية في اليوم الواحد .

وفيه دليل على أن الزهد مندوب إليه . يؤخذ ذلك من قوله ، عليه السلام : (كرهت) فإن المكروه لا إثم على فاعله . ويؤخذ منه جواز الاقتناء بشرط تأدية الحقوق . ويؤخذ منه أن الزهد لا يكون إلا حالاً ، حسّاً ومعنى . فأما المعنى فهو ألا يتعلق القلب به . وأما الحسّي فهو الخروج عنه كما فعل سيّدنا ، ﷺ ، هذا .

وفيه دليل لأهل الصوفة الذين لا يبيتون على معلوم . يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (كرهت أن يمسي - أو يبيت - عندنا) وأما قوله (أن يمسي أو يبيت) الشك هنا من الراوي .

وقد رأيت بعض أهل هذا الشأن كان كل ما فتح عليه في يومه لا يبيت عنده منه شيء ، فلما كان في بعض الأيام ورد عليه جمع كبير للزيارة ، وأثناء فتوح كثير . فقال الخديم في نفسه : إن

أظهرت له جميع الفتوح فإنَّ ما<sup>(١)</sup> يفضل من القوم يخرج عنه، وهذا جمع كبير، ويصبحون وليس معهم شيء يفطرون عليه، فترك منه شيئاً جيداً بحيث يكفيهم لغدهم، لا يعلم به الشيخ. ففعل ذلك، وأخرج الباقي. فأكل القوم، فما فضل منهم أمر الشيخ بإخراجه من المنزل إلى الفقراء والمساكين، على عادته. فلما أصبح لم يأتهم شيء من الفتوح، فقام الخديم، ومدَّ السماط، وأخرج طعاماً كثيراً. فقال له الشيخ: من أين هذا؟ فذكر له ما وقع منه، ثم قال له: يا سيدي، لولا ما فعلت كان هذا الجمع اليوم بلا شيء. فقال له الشيخ: فِعْلُكَ هذا منعنا من الفتوح في هذا اليوم. فمن جَدَّ وجَدَّ، ومن أخلص عومل بحسب إخلاصه. فالناقد بصير، والمعاملة مع وفي كريم غني رحيم. ولذلك قال من قال: خذ لنفسك أي الطرق شئت، فقد بان للحق بالحقيقة علم. والحمد لله رب العالمين.

وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

الكتب النادرة التي تُفَسِّحُ لَهَا مَرَّةً

(١) يريد: فما.

## قضاء النافلة في وقت الكراهة

عَنْ كُرَيْبٍ<sup>(١)</sup> قَالَ: سَأَلْتُ أُمَّ سَلَمَةَ<sup>(٢)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ الرَّكَعَتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ. فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ، ﷺ، يَنْهَى عَنْهُمَا، ثُمَّ رَأَيْتُهُ يُصَلِّيهِمَا حِينَ صَلَّى الْعَصْرَ. ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ، وَعِنْدِي نِسْوَةٌ مِنْ بَنِي حَرَامٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ الْجَارِيَةَ فَقُلْتُ: قَوْمِي بِجَنْبِهِ، فَقُولِي لَهُ: تَقُولُ لَكَ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَمِعْتُكَ تَنْهَى عَنِ هَاتَيْنِ الرَّكَعَتَيْنِ، وَأَرَاكَ تُصَلِّيهِمَا؟ فَإِنْ أَشَارَ بِيَدِهِ فَاسْتَأْخِرِي عَنْهُ. فَفَعَلَتِ الْجَارِيَةُ، فَأَشَارَ بِيَدِهِ فَاسْتَأْخَرَتْ عَنْهُ. فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: يَا بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ، سَأَلْتِ عَنِ الرَّكَعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ، وَإِنَّهُ أَتَانِي نَاسٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ، فَشَغَلُونِي عَنِ الرَّكَعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ. فَهُمَا هَاتَانِ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز الركوع بعد العصر لأجل فوات ما كان بعد الظهر من التنفل. والكلام عليه من وجوه:

منها: هل هذا جائز لغيره، عليه السلام، مع وجود فوات ما كان له من عادة بعد الظهر مطلقاً بأي وجه فات؟ أو ليس إلا بذلك الوجه الخاص، وهو الشغل بمن يدخل في الإسلام لحرمة؟ أو ذلك خاص به، ﷺ، أو ذلك مطلق لغيره بغير علة تحتل؟

والأخير هو مذهب الشافعي، رحمه الله، ومن تبعه. ولا حجة له في ذلك من وجهين: (أحدهما): أنه ليس النافلة منه، ﷺ، كما هي من غيره. فإنه قد صح عنه، عليه السلام، أنه كان إذا

(١) كريب: مولى عبد الله بن عباس. ثقة. أدرك عثمان، وروى عن عائشة وأم الفضل. أخرج له الجماعة، تابعي. توفي في المدينة سنة ٩٨ هـ.

(٢) أم سلمة: هي هند بنت سهيل المعروف بأبي أمية وبزاد الراكب. إحدى زوجات النبي عليه السلام، وكانت من أكمل النساء عقلاً وخلقاً، وهي قديمة الإسلام، هاجرت مع زوجها الأول أبي سلمة إلى الحبشة، ثم رجعا إلى مكة، وهاجرا إلى المدينة، وولدت له أربعة أبناء. ومات أبو سلمة، فخطبها أبو بكر فلم تتزوجه، وخطبها النبي ﷺ فقبلت به. وروت عنه ٣٧٨ حديثاً. توفيت بالمدينة سنة ٦٢ هـ/ ٦٨١ م.

عمل عملاً أثبتته، فأشبهت النافلة منه، عليه السلام، النذر من غيره. و (الوجه الثاني) وهو نص الحديث لما استفهمت الجارية - بأمر أم سلمة، رضي الله عنها - قال لها: شغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر، كما هو مذكور آخر الحديث.

وقوة الكلام عند أهل الكلام كالنص سواء، والعمل به واجب. وقوة الكلام هنا تعطي أنه، عليه السلام، ما فعلهما نقضاً لما نهى عنه من الصلاة بعد العصر، ولا نسخاً للحكم بذلك، وإنما هو من أجل علة ما فاتته، وهو، عليه السلام، قد ألزم نفسه المكربة إثباتها، والنهي باق كما كان، والحكم به مستمر. هذا لا يقدر أحد، ممن يتناصف في البحث على طريقه، أن ينكره.

وأما مذهب مالك، رحمه الله، فيرى أن ذلك خاص به، ﷺ، لما ألزم نفسه المكربة، وأن غيره لا يفعله، تمسكاً بقاعدة النهي واستمرار الحكم بها.

وأما البحث على لفظ الحديث فإنه إن كان يقع ممن يتبعه، عليه السلام، فيلزم نفسه الاقتداء به، ﷺ. فإذا جاءه عذر يشغله عما كان يفعله بعد الظهر، واتصل شغله به، حتى خرج وقت الظهر، فإنه يجوز له أن يفعله بعد العصر، كما فعل هو ﷺ، لأن الله، عز وجل، يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (١).

لكن بقي هنا بحث: هل هو كما قدمنا أنه كلما كان عذر من أي وجه كان من أنواع الأعذار يجوز معه هذا الفعل؟ وهو الركوع بعد العصر لما فات بعد الظهر، أو لا يكون ذلك إلا بمثل العذر الذي وقع له، ﷺ؟ وهو شغله عليه السلام بإسلام هؤلاء، وتقعيد أصول الشريعة لهم الذي هو الأصل، لأنه من أجل ذلك بعث ﷺ؟ محتمل لهما معاً.

فإن قلنا بالعموم، فنقول: بالجواز. ويكون هذا أعلى الأعذار. وإن قصرناه على ما فعل، ﷺ، فمنع، إلا أن يقع لأحد مثل ذلك العذر، فحينئذ نجيز له ذلك. وهذا نادر أن يقع لغيره، عليه السلام، ولا سيما في هذا الوقت، لأن النادر من الناس من يقع له ذلك. وقد يجد البديل منه كثيراً، اللهم إلا أن نفرض أنه لا يكون له في الوقت من يقوم مقامه في ذلك، فهذا نادر جداً، والنادر لا حكم له. وهذا الوجه - والله أعلم - حمل الإمام مالك (٢)، رضي الله عنه، أن يقول: هو خاص به، عليه السلام.

وفيه دليل على جواز استفهام المفضول للفاضل إذا رأى منه ما لا يعرف من عادته المستمرة.

(١) سورة الأحزاب، من الآية ٢١.

(٢) كذا والصواب: مالكا.



يؤخذ ذلك من سؤال أم سلمة، رضي الله عنها، له، ﷺ فإن كل الناس في زمانه، عليه السلام، وغير زمانه بالنسبة إليه، عليه السلام، مفضلون.

وفيه دليل على أن الاستفهام لا يكون إلا بعد التحقيق بالأمر الموجب له. يؤخذ ذلك من قولها له، عليه السلام (وأراك تصليهما) خوفاً أن يكون هناك أمر يخالف الظاهر، كما كان.

وفيه دليل على أن تأخير السؤال لا ينبغي، والمبادرة به هو الأولى. يؤخذ ذلك من أن أم سلمة، رضي الله عنها، لما رأت ما لا تعهد من عادته، عليه السلام، وهي مشغولة، وهو، ﷺ، كذلك أيضاً، لم تؤخر السؤال حتى يفرغ، عليه السلام، من صلاته، بل سارعت تسأل عن ذلك، ولم ينكر هو، عليه السلام، عليها بعد.

وفيه دليل على جواز النيابة في السؤال عن مسائل العلم عند الشغل. يؤخذ ذلك من أن أم سلمة، رضي الله عنها، لما لم تقدر هي أن تمضي إليه، وجهت الجارية، واستأنتها في السؤال عن مسائل العلم، الذي هو السؤال.

وفيه دليل على جواز استئابة الفاضل للمفضول في السؤال عن العلم، وفي تغيير المنكر. يؤخذ ذلك من أن أم سلمة، رضي الله عنها، استأنتت الجارية - وهي حيث هي من أم سلمة - وأقر ذلك هو، صلى الله عليه وسلم.

وفيه دليل على جواز السؤال لمن هو في الصلاة لأجل أمر يفوته. يؤخذ ذلك من سؤالها له، عليه السلام، وهو في الصلاة، لأنها لو تركته حتى يفرغ فات الأمر، ولا فائدة إذا ذاك.

وفيه دليل على جواز الإشارة في الصلاة عن الشيء الذي يسأل عنه، ولا يفسد الصلاة إلا أنه بشرط أن يكون يسيراً. يؤخذ ذلك من أنه، ﷺ، أشار بيده المباركة إلى الجارية حين كلمته، وهو في الصلاة. ويؤخذ منه جواز استئابة من لا يعرف الأحكام في حكم خاص، إلا أنه بشرط أن يعلمه حكم الله في ذلك الأمر. يؤخذ ذلك من أن أم سلمة، رضي الله عنها، لما وجهت الجارية علمتها ما تقول، وما تفعل.

وفيه دليل على أن للضيف حرمة. يؤخذ ذلك من أن أم سلمة، رضي الله عنها، لم يمنعها من المشي إلى رسول الله، ﷺ، إلا شغلها مع النسوة اللاتي أتيتها للزيارة. ويؤخذ منه جواز زيارة النساء بعضهن لبعض، لكن بشرط ألا يكون في أثناء ذلك محرم ولا مكروه، بدليل قول عائشة، رضي الله عنها (لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المساجد)<sup>(١)</sup>. فإذا المساجد منعن فمن باب الأحرى غيرها.

(١) سبق تخريجه في الحديث ٣٧.

وفيه دليل على جواز التنفل بين الأهل، وهم ينظرون. يؤخذ ذلك من أن أم سلمة، رضي الله عنها، لو لم يكن النبي، ﷺ، من حيث تراه، ما علمت به.

وفيه دليل على كراهة القرب من المصلي لغير ضرورة. يؤخذ ذلك من إشارة النبي، ﷺ، إلى الجارية أن تتأخر عنه. ومعلوم أنه يحصل من ذلك تشويش ما.

وفيه دليل على أن أدب من يسأل من هو في الصلاة أن يقوم إلى جنبه. يؤخذ ذلك من قول أم سلمة، رضي الله عنها، للجارية قومي إلى جنبه.

وفي هذا من طريق النظر أنه إذا كان السائل عن جنب المصلي رمقه بطرف عينه، فيعرفه، وتكون الإشارة إليه خفيفة. فإذا كان قِلَّةً يحتاج المصلي أن يدفعه، فإنه ماز بين يديه، وإن كان خلفه، أو بالبعد منه قليلاً فقد لا يعرفه، وإن عرفه فقد لا يتأتى له أن يصغي إليه لبعده، فيكون سبباً لتشويشه، وقد لا تمكن الإشارة إليه إلا بمشقة.

وفيه دليل على تواضعه، عليه السلام، وحسن خلقه، لكونه خاطب الجارية بقوله: (يا بنت أبي أمية).

وفيه دليل على أن الحكم للظاهر من الأمور، ما لم يتبين صده. يؤخذ ذلك من أن أم سلمة، رضي الله عنها، لما رأت ما ظاهره يوجب السؤال سألت عنه.

وفيه دليل على أن الحكم إذا ثبت لا يزيله إلا شيء مقطوع به. يؤخذ ذلك من أن أم سلمة، رضي الله عنها، لما رأت سيدنا، ﷺ، ضد ما قد اشتهر من الحكم في منع الصلاة بعد العصر، وإن كان الأمر عندهم أنهم يتبعونه في أفعاله، عليه السلام، كما يتبعونه في أقواله. لكن لما كان فعله، عليه السلام، هنا محتملاً للنسخ والنسيان، لم تقتد به في زوال حكمٍ قد ثبت، مقطوع به، حتى تعرف حقيقة الأمر في ذلك.

وفيه دليل على جواز أخذ العلم من النساء. يؤخذ ذلك من سؤال هذا الراوي أم سلمة، رضي الله عنها، وتحويله عليها، لكن بشرط أن يكون فيها لذلك أهلية، كما كان في هذه السيدة.

وفيه دليل على اهتمامهم، رضي الله عنهم، بالدين. يؤخذ ذلك من أن هذا الراوي سأل عنه أم سلمة لما لم يكن له بهذا علم، وكذلك كانوا جميعاً، رضي الله عنهم، يرحلون في الحديث الواحد الأيام العديدة، ولذلك قال من قال: إذا كان لك بالدين اهتمام، ففي المعالي لك قدر، وإن أضعته فما خَطَرَكَ في الوجود خَطِر.

وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا.

## سبعة أوامر وسبعة نواهي

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَمَرَنَا النَّبِيُّ، ﷺ، بِسَبْعٍ، وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ. أَمَرَنَا بِاتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، وَعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَإِجَابَةِ الدَّاعِي، وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وَإِبْرَارِ الْقَسَمِ، وَرَدِّ السَّلَامِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ. وَنَهَانَا عَنْ آنِيَةِ الْفِضَّةِ، وَخَاتَمِ الذَّهَبِ، وَالْحَرِيرِ، وَالذَّبْيَاجِ، وَالْقَسِيِّ، وَالْإِسْتَبْرَقِ، وَعَنِ الْمِائِثِرِ.

\*\*\*

ظاهر الحديث الأمر بهذه السبعة المذكورة، والنهي عن السبعة المذكورة بعد. والكلام عليه من وجوه:

منها: هل الأمر في الجميع على حدٍّ واحد من الوجوب أو الندب؟ والنهي هل هو على حدٍّ واحد في التحريم أو الكراهة؟ أو ليس كذلك؟ فالجواب: أما ما أمر به ففيه ما هو على الوجوب، وفيه ما هو على الندب، مما قد تقرر من خارج. وأما نفس الأمر فإنه على الاختلاف المعلوم بين العلماء، ونحن الآن نذكرها واحدة واحدة، لنبين فيها الوجوب من الندب.

فقوله (باتباع الجنائز) قد تقرر من قواعد الشريعة أنه من المندوب، ولا أعرف أحداً يقول فيه بالوجوب، لأنه جاء وصف الأجر لمن تبعها حتى دفنت، وليس المقصود نفس الاتباع ليس إلا، وإنما جاء من اتبعها حتى حضر دفنها فله قيراط من الأجر، كما جاء في الذي يصلي عليها سواء - وهو<sup>(٢)</sup> في التمثيل مثل جبل أحد - ولم يجيء فيمن ترك المشي معها وعيد. وهذه صورة المندوب،

(١) البراء بن عازب: صحابي ابن صحابي، أنصاري خزرجي. أسلم صغيراً، وغزا مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوة، وروى عنه (٣٠٥) أحاديث اتفق الشيخان على (٢٢) حديثاً منها. ولله عثمان على الري فغزا أبهر وفتحها، ثم قزوين وملكها، كما افتتح زنجان. سكن الكوفة ومات فيها سنة ٧١ هـ / ٦٩٠ م. (انظر الحديث ٩٢).

(٢) وهو: الضمير يعود على (القيراط).

وهو أن يكون لفاعله ثواب، وليس على تاركه عقاب، اللهم إلا ألا يكون للميت من يصلي عليه، ولا من يحمله إلا الحاضرون في ذلك الوقت، فهو حينئذ فرض قد تعين عليهم، ويأثمون بتركه.

وكذلك عيادة المريض من قبيل المندوب أيضاً، لأنه، عليه السلام، قال: (من عاد مريضاً خاض في الرحمة، فإذا قعد عنده استقرت الرحمة فيه) <sup>(١)</sup> اللهم إلا ألا يكون له من يمرضه، فيتعين ذلك فرضاً على الكفاية.

وأما إجابة الداعي فليس على عمومها، فمنها فرض، ومنها مندوب، ومنها مكروه، ومنها حرام.

فأما الواجب منها فهي التي للنكاح، لقوله، عليه السلام: (من لم يجب الدعوة فقد عصى أبا القاسم) <sup>(٢)</sup>، لكن بشرط ألا يكون فيه لهو محرّم شرعاً، فإن كان فيه محرّم شرعاً فإتيانها حرام.

وأما المندوب فمثل الرجل يعمل الطعام لجميع الإخوان، وإدخال السرور عليهم، أو طعام الحذاق <sup>(٣)</sup>، أو ما أشبهه بشرط ألا يكون فيه محرّم ولا مكروه، فإن كان فيه محرّم أو مكروه كان المشي إليه على نحو ما كان فيه من الكراهة أو التحريم.

وأما المحرّم فمثل طعام الرّشا للحكام وما أشبهه.

وأما المكروه فمثل ما يكون من الأطعمة الجائزة، والمقصود بها الفخر والخيلاء، فكما قيل: (شر الطعام طعام الولائم يدعى إليه الأغنياء ويترك الفقراء) <sup>(٤)</sup>.

وطعام الوليمة إذا جمعت تلك الشروط التي ذكرناها أولاً، فانت في الأكل بالخيار. وما ليس فيه من الأطعمة وجه من وجوه المحرمات ولا المكروهات فهو من قبيل المباح، من شاء أتى، ومن شاء لم يأت. فقله هنا (وإجابة الداعي) عام، والمقصود به الخصوص، وهو ما كان منها واجباً أو مندوباً، كل واحد على بابه.

وأما نصر المظلوم فواجب، لقوله عليه السلام: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) <sup>(٥)</sup>. ونصر

---

(١) أخرجه ابن عساكر عن عثمان رضي الله عنه والإمام أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في الأدب عن جابر رضي الله عنه بلفظ آخر.

(٢) لفظه: من دعي فلم يجب فقد عصى الله ورسوله، ومن دخل على غير دعوة دخل مسارقاً وخرج مغيراً. أخرجه أبو داود والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) لعله يريد: الطعام المطبوخ بمهارة وجودة. وقد يعني الطعام الذي يصنع للاحتفال بمن ختم القرآن.

(٤) أخرجه أبو داود والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ آخر.

(٥) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد والبخاري والترمذي عن أنس رضي الله عنه.

الظالم رده عن الظلم، لقوله عليه السلام: (إذا ظهر فيكم المنكر فلم تغيروه يوشك أن يعُمَّ الكل بعذاب)<sup>(١)</sup>.

وأما إبرار القسم فواجب، لقوله، عليه السلام: (حق المؤمن على المؤمن أن يبرَّ قَسَمَهُ)<sup>(٢)</sup>. وليس أيضاً على عموميه، لأن القَسَمَ بحسب ما يُقَسَم عليه، فإن أقسم على واجب فإبراره واجب، وإن أقسم على حرام فإبراره حرام، مثل أن يُقَسَم شخص على آخر أن يأكل في رمضان، أو لا يصلي يومه، وما أشبه ذلك؛ وإن أقسم على مكروه فإبراره مكروه، كمن يقسم على من هو صائم صوم تطوع أن يأكل - على مذهب من يرى أن أكله مكروه - فيكون إبراره مكروهاً؛ وأما على مذهب من يرى أن أكله لا يجوز، فيكون إبراره لا يجوز، كما قال ابن حبيب<sup>(٣)</sup> - من أصحاب مالك رحمهما الله - فيه إنه إن حلف عليه يُحِنُّهُ، ولا يجوز له إبراره. وإن حلف بالطلاق والعتاق وصوم سنة وما عسى أن يغلظ من الأيمان، فإنه يحنثه ويتم صوم يومه، فيكون أيضاً مثل الذي قبله: اللفظ عام والمقصود الخصوص.

وأما رد السلام فواجب، لا خلاف أعرف فيه.

وأما تسميت العاطس فمؤكد مطلوب، على ما ذكره العلماء.

\* \* \*

وأما المنهى عنه فجميعه حرام. أما آنية الذهب فقد قال، ﷺ في الذي يشرب فيها: (كأنما يجرجر في بطنه نار جهنم)<sup>(٤)</sup>.

وأما التختم بالذهب ولبس الحرير فقد قال، عليه السلام، فيهما: (هذان حرام على ذكور أمتي)<sup>(٥)</sup>.

والديباج والاستبرق نوعان من الحرير.

(١) أصله: قام أبو بكر رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه أوشك أن يعمهم الله بعذابه. أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي بكر رضي الله عنه. لم نقف على مصدره.

(٢) ابن حبيب: هو عبد الملك بن حبيب الأندلسي القرطبي المالكي. فقيه على مذهب المدنيين. أصله من طليطلة، سكن في قرطبة وزار مصر وعاد إلى الأندلس وتوفي فيها سنة (٢٣٨ هـ). له غريب الحديث، وطبقات الفقهاء والتابعين، وإعراب القرآن، وكثير غيرها.

(٣) أخرجه مسلم وابن ماجه عن أم سلمة رضي الله عنها. وزاد الطبراني (إلا أن يتوب).

(٤) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن علي رضي الله عنه. وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ آخر.

وأما القَسِيَّ<sup>(١)</sup> فثياب منسوبة إلى تلك البقعة، وهي من الحرير، وكذلك المَيَاثِرُ<sup>(٢)</sup>، وهي ثياب من حرير كانوا يجعلونها على دوابهم بعضها من تحت الرحال.

فالمَنْهِي عنه أشد من المأمور به، لأن المنهي عنه كله حرام، كما ذكرنا، والمأمور به أخف، لأن فيه المندوب والواجب. ولأجل هذا المعنى قال، ﷺ (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فلا تقربوا)<sup>(٣)</sup>.

ويظهر من الحكمة في أمره، عليه السلام، باتباع الجنائز وما بعده المذكور في الحديث، وقوله في الحديث الذي أوردناه (إذا أمرتكم) إلى آخره، أن كل ما فيه خير لأمته أمرهم به، من أجل ما فيه من الربح العظيم، فكان هذا تصديقاً لقوله، عز وجل، في حقه، عليه السلام: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله عليه السلام: (فاتوا منه ما استطعتم) معناه: ليس كله عليكم بواجب. والواجب أيضاً ليس إلا على قدر الطاقة والاستطاعة، فكأنه عليه السلام، يقول: ما كلفتم بالحكم اللازم إلا بقدر الاستطاعة. ومما يؤيد هذا قوله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾<sup>(٥)</sup> وليس المفهوم من هذا أن تأخذ من الأمر ما تشتهي نفسك، وتترك منه ما لا تشتهي. لا يفهم هذا عامل يعرف أن الاثنين أكثر من الواحد أبداً أن يكون الهوى قد غلب على قلبه.

وقوله: (وما نهيتكم عنه فلا تقربوا)، فلأنه ﷺ، لم ينه إلا عن المحرم، وهذا النهي نهى لزوم، ولهذا المعنى قال عليه السلام: (اتَّقِ محارِمَ الله تكنَ عَبْدَ الناسِ)<sup>(٦)</sup>. وقد جاء عنه، ﷺ، نهى وليس بحرام، وليس بمناقض لما ذكرناه آنفاً. ومن أجل ذلك تحررنا بقولنا (نهى لزوم) لأن ما جاء عنه، ﷺ، من النهي ومع النهي قرينة يفهم منها الكراهية والشفقة أو وجد ما يخرج من أن

(١) القَسِيَّ: (بشدتين) نسبة إلى بلدة تدعى (قس) وهي - كما يقول ياقوت - ناحية من بلاد الساحل قريبة إلى ديار مصر، تنسب إليها الثياب القَسِيَّة التي جاء النهي عنها. وقال بعضهم: أصلها (القَزِي) نسبة إلى القَرْ، وأبدلت زايه سيناً. ويقول ياقوت: وفي بلاد الهند بين نهر وارا بلد يقال له (القس) مشهور يجلب منه أنواع من الثياب والمآزر الملونة، وهي أفخر من كل ما يجلب من الهند من ذلك الصنف.

(٢) الميَاثِر: جمع ميثرة من (وثر) وهي مركب للمعجم كان يتخذ من الحرير والديباج. وميثرة الأرجوان وطاء محشوة يترك على رحل البعير تحت الراكب. وسواء كانت الميَاثِر تعني المركب العجمي أو الوطاء المحشوة فإنها سبيل إلى العجب والمباهاة والكبرياء.

(٣) جزء من حديث، أخرجه الإمام أحمد ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة. ومطلعه: ذروني ما تركتكم.

(٤) سورة التوبة، من الآية ١٢٨.

(٥) سورة البقرة، من الآية ٢٨٦.

(٦) قطعة من حديث مطلعه: اتق المحارم تكن عبد الناس، وارض بما قسم الله تكن أغنى الناس. أخرجه الإمام أحمد والترمذي والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يكون جزءاً، فليس من الذي قررناه بشيء، كنهيه عليه السلام عن الوصال<sup>(١)</sup>، وما أشبهه، علم بقرينة الحال أنه نهى شفقة.

وإنما مرادنا هنا أن يكون النهي بقرينة يستبين فيها الوجوب، أو ليس له قرينة أصلاً، فإذا لم يكن له قرينة أصلاً فحكمه حكم الذي له القرينة. وقد دلت على الوجوب، بخلاف الأمر، لأن الأمر إذا ورد ولم يكن له قرينة لا من نفس الشيء ولا من خارج، فيه أربعة أقوال - كما تقدم الكلام فيه غير ما مرة - وفي الحديث حجة لمن يقول من المتكلمين: إنما صيغة الأمر بذاتها تقتضي إدخال شيء في الوجود ليس إلا، وما زاد على ذلك يستقرى من مواضع أخرى. يؤخذ ذلك من كون الأمر يدور بين واجب ومندوب.

وفيه دليل لأهل الصوفة حيث يقولون: إن أمر الأمر يقتضي الامتثال على أي حالة كان، وإنما على العبيد امتثال أوامر الموالي ليس إلا. ثم إنهم يزيدون على ذلك أنهم يرون أمر الموالي للعبيد من باب المن والتعطف، لكونهم كان لهم مقدار حتى كان لهم خطاب وسؤال، كما قال أبي<sup>(٢)</sup> حين قال له النبي، ﷺ: (أَمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ قَالَ: وَذُكِّرْتُ هُنَاكَ؟ قَالَ نَعَمْ، بِاسْمِكَ وَبِاسْمِ أَبِيكَ)<sup>(٣)</sup> فبكى رضي الله عنه، فرحاً لكونه وصل قدره ذلك. وقد تدمع العينان من كثرة الفرح، ولذلك قالت رابعة العدوية<sup>(٤)</sup>: أَوْلَيْسَ يُوْبَخْنِي وَيَقُولُ لِي: يَا أُمَّةَ السُّوءِ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ. قالت: ذلك بُغْيَتِي:

أَجِبُّكَ حُبَّيْنِ: حُبَّ الْهَوَى      وَحُبَّ لَأَنْتَ أَهْلٌ لِذَاكَ  
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الْهَوَى      فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّا سِوَاكَ  
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ      فَكَشْفُكَ لِي الْحُجْبَ حَتَّى أَرَاكَ  
وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

- 
- (١) الوصال: هنا مواصلة الصوم بلا انقطاع كصوم الدهر مثلاً.
- (٢) هو أبي بن كعب، من الأنصار وبني النّجار. صحابيّ كان قبل الإسلام خَبِراً من أخبار اليهود، وأصبح في الإسلام من كتاب الوحي، وأحد من شهد مع النبي ﷺ المشاهد كلها، كما كان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد الرسول ﷺ، وفيه قال ﷺ: أقرأ أمتي أبي بن كعب. توفي سنة ٢١ هـ/٦٤٢ م في المدينة المنورة.
- (٣) أخرجه الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه بلفظ مختلف. والقراءة المقصودة بالحديث هي «سورة البيّنة».
- (٤) رابعة العدوية: صالحة مشهورة من أهل البصرة ومولدها بها. لها أخبار كثيرة في العبادة والنسك ولها شعر حسن. توفيت سنة ١٣٥ هـ/٧٥٢ م.

## حديث وفاة الرسول وفضل أبي بكر

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ، وَذَلِكَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعُمَرُ يُكَلِّمُ النَّاسَ. فَقَالَ: اجْلِسْ. فَأَبَى. فَقَالَ: اجْلِسْ. فَأَبَى. فَتَشَهَّدَ أَبُو بَكْرٍ. فَمَالَ إِلَيْهِ النَّاسُ، وَتَرَكَوا عُمَرَ. فَقَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ. قَالَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾<sup>(١)</sup> وَاللَّهُ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَّاهَا النَّاسُ مِنْهُ، فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٍ إِلَّا يَتْلُوهَا.

\*\*\*

ظاهر الحديث إيثار الصحابة، رضي الله عنهم، أبا بكر على عمر، رضي الله عنهما. والكلام عليه من وجوه:

منها: ما سبب اختلاف هذين السيدين، رضي الله عنهما، في هذا الوقت العظيم وهما حيث هما؟ ثم كون أبي بكر، رضي الله عنه، تلا الآية، وكان الصحابة، رضوان الله عليهم، لم يكونوا سمعوها إلا الساعة، كما ذكر في الحديث؟ فالجواب: أن سبب اختلافهما لا يتبين إلا بعد ذكر شيء من حالهما في الوقت ومقالتهما، وذكر حال كل واحد منهما الخاص به، بحسب ما أخبر به الصادق، صلى الله عليه وسلم.

أما حال عمر، رضي الله عنه، في الوقت ومقالته فإنه لما أخبر أن رسول الله ﷺ، تُوفِّيَ وضجت الصحابة، رضي الله عنهم، للأمر الذي أصابهم من ذلك، جرد عمر، رضي الله عنه، أو أشار إلى سيفه، وقال: «من قال إن رسول الله ﷺ، مات، ضربته بسيفي هذا، وإنما رفعه الله، وسيعود ويقتل قوماً ويقطع أيدي قوم»، وهو - رضي الله عنه - لم يدخل عليه، ﷺ، ولا نظر إليه.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.



وأما أبو بكر فكان خارج المدينة، فلما بلغه الخبر جاء حتى دخل على النبي ﷺ، وكشف عن وجهه المكرم، وقبّل بين عينيه الكريمتين، وقال: فإدك أبي وأمي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا<sup>(١)</sup>. فخرج وعمر، رضي الله عنه، يكرر مقالته تلك، أو ما يشبهها، فأمره بالجلوس، وتشهد هو، رضي الله عنه، وذكر متن الحديث.

وأما حالهما الخاص بكل منهما فإن رسول الله ﷺ، قال: (أنا مدينة السخاء وأبو بكر بابها، وأنا مدينة الشجاعة وعمر بابها، وأنا مدينة الحياء وعثمان بابها، وأنا مدينة العلم وعلي بابها)<sup>(٢)</sup> والمراد بالشجاعة هنا الشجاعة في الدين، ولذلك سماه رسول الله ﷺ، الفاروق، لأن يوم إسلامه فرّق الله تعالى به بين الحق والباطل، فعُبد الله جهراً. وأما كثرة السخاء فلا تكون إلا من قوة اليقين، ولذلك قال، ﷺ، (ما فَضَّلَكُم أَبُو بَكْرٍ بِكَثْرَةِ صَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي صَدْرِهِ)<sup>(٣)</sup>. والذي وَقَرَ فِي صَدْرِهِ هو قوة اليقين.

والذي هو قوِيّ اليقين لا تحركه قوة الحوادث، ولا يهتزّ لها، ويبني أمره كلّهُ على التيقن والتثبت في الأشياء كلها. والذي مقامه القوة في الدين - وهي الشجاعة - يبني أمره كله على الأحوط والأقوى. فلما كان مقام عمر، رضي الله عنه، الشجاعة - وهي القوة في الدين - وقيل له: توفي رسول الله ﷺ، ورأى ما الناس فيه، لم يدخل عليه، وجعل، رضي الله عنه، الوفاة في ذلك الوقت محتملة أن تكون حقيقة، أو تكون إسراء ويعود. وحال الوقت يقتضي أن يبني الأمر على الأحوط - وهو الإسراء - من أجل أن يزيل ما بالناس من الرجة ويتهدّثوا.

فإن صح ما بنى عليه الأمر فَبَخَّ على بَخٍ<sup>(٤)</sup>، وإن كانت الأخرى - وهي الحقيقة - فيكون الناس قد سكن ما بهم، لأن الأمر الصادم إذا تهادى سكنت النفوس إليه، وتوطنت وانقادت. ولذلك قال، ﷺ: (الصبر عند الصدمة الأولى)<sup>(٥)</sup>. فهناك يتبين الثابت من غيره. فإنه إذا طال الأمر صَبَرَ الناس بغير اختيارهم. هذا معروف لا خفاء فيه. وهذا الوجه مَنَعَ عمر، رضي الله عنه، أن يدخل على النبي ﷺ، قبل أن يكلم الناس، فلو دخل، رضي الله عنه، فرأى الذي رأى أبو بكر، رضي الله عنه، من حقيقة الموت، فلا يمكنه أن يقول تلك المقالة، فإنها كانت تكون كذباً. وحاشاه من ذلك.

(١) تفصيل وفاة النبي ﷺ ومجيء أبي بكر رضي الله عنه مسرعاً على فرسه ودخوله على النبي ﷺ وهو مستجى: أخرجه البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) سبق الكلام عليه في الحديث (١٣).

(٣) سبق تخريجه في الحديث ٦.

(٤) بَخَّ: كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشئ والمدح أو الفخر.

(٥) رواه البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد روي عن العباس<sup>(١)</sup>، رضي الله عنه، أنه لما قربت وفاة رسول الله، ﷺ، وقد خرج من زيارته، قال: إن الرائحة التي أعرف من بني هاشم عند الموت أجدها من محمد<sup>(٢)</sup>، ﷺ. فهم يعرفون العلامة بالرائحة قبل وفاته، عليه السلام، ويشك أحد منهم إذا هو أبصره عند الحقيقة في ذلك الشأن؟ هذا لا يمكن. فأخذ عمر، رضي الله عنه، بالحزم، وهو حاله الذي جبل عليه. فلما جاء صاحب اليقين الجليل لم يتضعضع لعظيم الأمر، ولم يرد أن يبيني كلامه مع الناس إلا بعد معرفة الحق. فدخل، رضي الله عنه، وكشف عن وجهه المكرم، ﷺ - كما ذكرنا - فلما تبين له، رضي الله عنه، أنه موت حقيقي نظر حكم الله عليه وعلى إخوانه المؤمنين، فإذا هو في كتابه، عز وجل، محكم متلو فذعن للأمر، وسلم إليه، وخرج يحمل الناس على ما يلزمهم من الله. فكل عمل على مقتضى حاله الجليل.

ولذلك قال عمر، رضي الله عنه: فلما سمعت أبا بكر تلاها ما حملتني رجلاي. لأنه علم أن أبا بكر، رضي الله عنه، ليس هو ممن يقول إلا حقاً، ولا يأمر إلا جزمًا، فذهب عنه ما كان ترجاه من العودة، فأحدث له فرط قلق الشوق والمحبة ضعفاً في الأقدام. ولو حَمَلُونِي الجبال حملتها، ولكن الفراق لا يطاق.

وكذلك ما ذكر عن باقي الخلفاء، رضي الله عنهم، عثمان وعلي. فكان عثمان، رضي الله عنه، يدخل ويخرج ولا يتكلم. وأما علي، رضي الله عنه، ففقد ولم يتكلم، وما ذاك إلا لأنه ظهرت هنا أحوالهما المنيفة، لأنه قال، ﷺ (أنا مدينة الحياء وعثمان بابها)، فمن كانت صفته الحياء، إذا جاء الأمر الذي يهولُه، لا يمكنه الكلام من أجل الحياء.

وقال ﷺ (أنا مدينة العلم وعلي بابها)<sup>(٣)</sup>. ومن خص بزيادة العلم بالله، عز وجل، إذا رأى شيئاً من آيات الله جاءه الخوف والإذعان، ولا يبدي من عند نفسه شيئاً تأدياً، حتى يرى ما حكم الله تعالى فيه، وما المراد من الأمر، هل ما يعرف بجري العادة المتقدمة، أو ذلك أمر مستأنف لا يعلمه إلا هو، عز وجل؟ لأن الله، عز وجل، يحدث من أمره ما شاء، كما أخبر، ﷺ، وكما قال جلّ

(١) العباس بن عبد المطلب بن هاشم: عم النبي ﷺ، وجد الخلفاء العباسيين. كان واسع العقل، شديد الرأي، وكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام. أسلم قبل الهجرة وكنم إسلامه وأقام بمكة يكتب إلى النبي ﷺ أخبار المشركين، ثم هاجر إلى المدينة، وشهد وقعة حنين كما شهد فتح مكة. توفي سنة ٣٢ هـ/٦٥٣ م.

(٢) أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن العباس قال: والله إني لأرى رسول الله سيتوفى في وجهه، وإني لأعرف في وجوه بني عبد المطلب الموت... الخ.

(٣) أخرجه العقيلي وابن عدي والطبراني والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

جلاله : ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾<sup>(١)</sup> وإن كان - كما قال علماء أهل السنة - يديه ولا ينشئه<sup>(٢)</sup>، فهذا بالنسبة له ، جل جلاله . وأما بالنسبة لنا فهو إنشاء وإبداء أمر لم نعرفه قبل . ولأجل هذا المعنى قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾<sup>(٣)</sup> .

فمن هذه المقامات كان التقدم في الخلافة ، فاحتيج أبو بكر أولاً ليسد ثلثة أهل الردة فقام بذلك ، وأمدّه الله بالعون ، فلم يمهلهم مع شدة ما كان الناس فيه ، فأشار عليه عمر ، رضي الله عنه ، أن يتركهم في الوقت ، لأجل ما الناس فيه ، حتى تسكن روعتهم ، فازداد عند ذلك شدة وحرصاً على قتالهم . فقال له عمر : إن الناس لا يساعدونك على ذلك . فقال ، رضي الله عنه ، أقاتلهم ولو بالذُّبُور<sup>(٤)</sup> ، فما فرغ من كلامه إلا والذي ذكر قد أمدّه الله ، عزّ وجلّ به ، وامتلاً المسجد بالذُّبُور ، وأتت وجوه أولئك الناس خاصة من بين أهل المسجد حتى خرجوا من أبواب المسجد ، فقال عمر ، رضي الله عنه : فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعلمت أنه الحق ، فشرح الله صدري لما شرح له صدر أبي بكر . رضي الله عنهما .

واحتيج عمر ، رضي الله عنه ، لتلك الفتوحات العظام حتى انتشر الإسلام وعلا في كل الأقطار . واحتيج عثمان ، رضي الله عنه ، ليبين به مقام الصبر والتسليم لله ، والحياء منه . واحتيج علي ، رضي الله عنه ، ليقاتل أهل التأويل ، ويبين به الحق من المحتمل . كل له مقام معلوم من الله ، اللهم بحرمتهم علينا ندعوك بما يقربنا إليهم ، ويحشرنا معهم في زمرة المتقين بلا محنة في عافية بمَنّه .

وفيه دليل على أن الكلام الذي له بال يستفتح أولاً بذكر الله . يؤخذ ذلك من تشهد أبي بكر ، رضي الله عنه ، وميل الناس بذلك إليه . فلولا ما كان ذلك عندهم دالاً على استفتاح أمر له خطَر ما مالوا بجمعهم إليه .

وفيه دليل على قوة أبي بكر في الدين وعظيم يقينه . يؤخذ ذلك من ثبوته في هذا الموطن الخطير ، حتى استفتح كلامه بما تقتضيه سنة رسول الله ﷺ ، لأن سنته ، عليه السلام ، كانت إذا كان الأمر له بال يستفتح الكلام فيه بذكر الله ، سبحانه ، والثناء عليه .

(١) سورة الرحمن ، الآية ٢٩ .

(٢) يروى أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ فسأله أحدهم : ما ذلك الشأن؟ فقال : من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين . ويروى عن أحد العلماء - ولعله الغزالي - أنه سئل عن هذه الآية والتوفيق بينها وبين أحاديث تفيد أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة وأنه لا تغيير لأمر ولا تبديل ، فأجاب على الفور بأنها «شؤون يديها الله ولا يتديها» ويقال بأنه أجاب ثانية فقال : إن المراد بالشأن سوق المقادير إلى مواقيتها .

(٣) سورة فاطر ، من الآية ٢٨ .

(٤) الذُّبُور : جماعة النحل والزنابير . مفردة : ذُبُر وذَبَر .

وفيه دليل على تأدب الصحابة، رضي الله عنهم، بعضهم مع بعض، وهو أيضاً من الدين .  
يؤخذ ذلك من قول أبي بكر لعمر، رضي الله عنهما . اجلس . ولم يزد عليه فيما قال شيئاً .

وفيه دليل على أن التأدب لا يكون إلا مع عدم الضرورات في الدين ، فإذا كانت الضرورة في الدين فلا أدب إذ ذاك ، وتركه هو الأدب . يؤخذ ذلك من أن أبا بكر، رضي الله عنه ، لما لم يسمع عمر، رضي الله عنه ، منه ، والأمر خطير ، تكلم وترك الأدب معه من أجل الدين . وهذا المعنى أيضاً منع عمر، رضي الله عنه ، أن يتأدب مع أبي بكر، رضي الله عنه ، ويسكت حين أشار إليه بالسكوت .

وفيه دليل على أن من الفصاحة والبلاغة والقوة في الدين الإيجاز في الكلام عند الأمور المهمة ، والإبلاغ في الحجة . يؤخذ ذلك من قول أبي بكر، رضي الله عنه ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، إلى آخر كلامه . فهذا إبلاغ في غاية واختصار .

ويؤخذ منه أن أكبر الأدلة القاطعة في الدين والأحكام كتاب الله ، عز وجل . فلولا ما كان الأمر عندهم كذلك - وهو الحق - ما سلموا الكل وبقوا يكررون الآية .

وفيه دليل على جواز تقسيم الكلام بين الحق والباطل ، ليتبين به الحق . يؤخذ ذلك من قول أبي بكر، رضي الله عنه (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات) وهو، رضي الله عنه ، يعلم بالقطع أنه ما كان أحد منهم يعبد محمداً . ثم قال (ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) فذكر ما هو محال قطعاً ، مع ما هو محقق عندهم حقاً ، تأكيداً للحق ، وتثبيتاً لأهله .

وفيه دليل على أن أكبر التسلي في المصائب ترديد كتاب الله ، عز وجل . وهذا هو الحق الواضح لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> ومن جملة الشفاء : التسلية به عند الهموم . يؤخذ ذلك من كثرة ترديد الصحابة ، رضي الله عنهم ، لها كما ذكر ما يُسمَعُ بَشَرٍ إلا يتلوها ، لأنهم قد فهموا الحكم بها عندما تليت عليهم ، فما بقي من فائدة تكرارها إلا التسلي بها على ما هم فيه من الحزن والبرحاء .

وفيه من الفقه أن يُذَكَّر الشخص بالشيء الذي كان له فيه مصلحة ، وإن عُلِمَ منه أنه يَعْلَمُه ، لأنه عند النوازل اشتغال قلبه بما هو فيه يلهمه عما هو يعلمه ، ولأن الصحابة ، رضي الله عنهم ، كلهم أو أكثرهم كانوا يعرفون تلك الآية ، ويوم نزولها ، وفيماذا نزلت ، ولكن لشغل الخواطر بما دهمها ذهلت عما كانت تعرف ، فكيف حال من لا يعرف إذا نزل به ما لا يطيق ؟ ولذلك قال ، ﷺ : (مَنْ

---

(١) سورة الإسراء ، من الآية ٨٢ .

عَزَى مُصَاباً فَلَهُ أَجْرُ الْمَصَابِ<sup>(١)</sup>، لَأنَّهُ يُذَكِّرُهُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ فَيَقِلُّ حَزَنُهُ، فَلَهُ مِنَ الْأَجْرِ بِقَدْرِ الْأَحْزَانِ الَّتِي ذَهَبَتْ عَنِ الْمَصَابِ، مِنْ أَجْلِ قَوْلِهِ، أَنْ لَوْ كَانَتْ إِصَابَتُهُ فَصَبْرَ عَلَيْهَا.

وَمِنَ الْحِكْمَةِ مَا يَشْبَهُ هَذَا قَوْلُ بَعْضِهِمْ: النَّاسُ إِمَّا عَالِمٌ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ عَالِمٌ، فَتَعَلَّمُوا مِنْهُ. وَإِمَّا جَاهِلٌ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ جَاهِلٌ فَتَعَلَّمُوهُ. وَإِمَّا جَاهِلٌ وَهُوَ يَجْهَلُ أَنَّهُ جَاهِلٌ فَاهْرَبُوا مِنْهُ، فَلَيْسَ يُرْجَى لَهُ فَلَاحٌ، إِلَّا إِنْ كَانَ مِنْ خَرَقِ الْعَادَةِ. وَإِمَّا عَالِمٌ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّمَا هُوَ عَالِمٌ، فَذَكِّرُوهُ تَنْتَفَعُوا بِهِ.

وَفِيهِ مِنَ الْفَقْهِ أَنْ عِنْدَ الْامْتِحَانِ يَعْرِفُ الْمَرْءُ مَا احْتَوَى عَلَيْهِ جَنَانُهُ. يَأْخُذُ ذَلِكَ مِنْ أَنَّ تِلْكَ الْمَصِيبَةَ الْعَظِيمَةَ، وَهِيَ مَوْتُهُ، ﷺ، ظَهَرَ بِهَا كُلُّ مَا كَانَ فِي الْقُلُوبِ؛ فَقَوْمٌ ارْتَدَوْا، وَقَوْمٌ ثَبَتُوا، وَقَوْمٌ افْتَتَنُوا بَعْضُ فِتْنَةٍ وَتَرَاجَعُوا بَعْدَ، فَكَانَتْ تَمْحِصاً لِلدَّعَاوَى وَتَصْدِيقاً لِقَوْلِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا إِنْ آمَنَّا بِهِمْ لَا نُفْتَنُهُمْ أَفَلَا يَفْقَهُونَ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وَفِيهِ دَلِيلٌ لِأَهْلِ الصُّوْفَةِ الَّذِينَ بَنَوْا طَرِيقَهُمْ عَلَى الْإِخْتِبَارِ وَالصَّبْرِ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَلِذَلِكَ قَالُوا: مِنْ سَرِّهِ أَلَا يَرَى مَا يَسُوءُهُ فَلَا يَتَّخِذُ شَيْئاً يَخَافُ لَهُ فَقْدَاً، لِأَنَّهُ مَا سِوَاهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مَفْقُودٌ، وَهُوَ الْبَاقِي، جَلَّ جَلَالُهُ، الْمَوْجُودُ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيماً.

الْكِتَابُ الْمَدِينَةُ الَّتِي تُفَرِّغُ الْقُلُوبَ مِنَ الشَّوْكِ

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ، الْآيَاتُ ١ - ٣.

## جواز بكاء الرحمة على الميت

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أُرْسِلَتْ ابْنَةُ النَّبِيِّ ﷺ، إِلَيْهِ: أَنَّ ابْنَ أَلِي قُبِضَ فَاتَيْنَا. فَأُرْسِلَ يُقْرَأُ السَّلَامَ وَيَقُولُ: إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى. فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ. فَأُرْسِلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لِبَأْتِيَّتِهَا. فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ<sup>(٢)</sup> وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ<sup>(٣)</sup> وَأَبِيُّ بْنُ كَعْبٍ<sup>(٤)</sup> وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ<sup>(٥)</sup> وَرِجَالٌ، فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، الصَّبِيُّ، وَنَفْسُهُ تَتَقَعَّقُ<sup>(٦)</sup>. قَالَ: حَسِبْتُهُ أَنَّهُ قَالَ: كَأَنَّهَا شَنْ<sup>(٧)</sup> - فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذِهِ رَحْمَةٌ، جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ

\* \* \*

- (١) أسامة بن زيد: الصحابي ابن الصحابي، مولى رسول الله ﷺ وابن مولاة وجهه وابن جبه. روي لأسامة (١٢٨) حديثاً اتفق الشيخان منها على خمسة. وقد عقد له ﷺ الإمارة، ودعا له وللحسن فقال: اللهم إني أحبهما وأرحمهما، فأحبهما وأرحمهما. وشفع في المخزومية فردّ عليه السلام شفاعته، وغسل له ﷺ وجهه ونثارة منخره بيده الشريفة. لونه أسود وهو طويل، وأبوه زيد أبيض وهو قصير، فقال قائف: هذان بعضهما من بعض بعد نظر أقدامهما، فسّر النبي بخبرة القائف. له بنت اسمها فاطمة سكنت المزة (قرية في ضاحية دمشق) وذهبت فاطمة إلى عمر بن عبد العزيز في خلافته فقام لها وأقعد لها مكانه وقضى لها حاجتها.
- (٢) سعد بن عباد: صحابي وسيد الخزرج وأحد الأمراء الأشراف في الجاهلية والإسلام. شهد العقبة وأحدًا والخندق وغيرها. ولما توفي الرسول طمع بالخلافة ولم يبايع أبا بكر، ولما صار الأمر إلى عمر خرج إلى الشام مهاجراً، ومات بحوران سنة ١٤ / ٦٣٥ م.
- (٣) معاذ بن جبل: سلف ترحمته في الحديث ٤٣.
- (٤) أبي بن كعب: سلف ترحمته في الحديث ٦٦.
- (٥) زيد بن ثابت: سلف ترحمته في الحديث ٤٤.
- (٦) تتققع: تحدث صوتاً عند التحريك أو التحرك.
- (٧) الشن: القرية الخلق الصغيرة.

ظاهر الحديث يدل على جواز بكاء الرحمة . وهو أيضاً دال عليها . والكلام عليه من وجوه :

منها استحضر ذوي الفضل عند معالجة الموت . يؤخذ ذلك من توجيه ابنته ﷺ ، ليحضر ، ﷺ ، موت ابنها ، وهو ، عليه السلام ، في وقته وفي كل وقت أفضل العباد .

وفيه دليل على مراجعة صاحب المصيبة بالتصبر والتعزي . يؤخذ ذلك من مراجعة النبي ، ﷺ ، لها ، رضي الله عنها ، وقوله ، عليه السلام : ( فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ ) .

وفيه دليل على جواز الكناية عن الشيء بما يدل عليه . يؤخذ ذلك من قولها ، رضي الله عنها : أن ابناً لي قبض ، وهو في قيد الحياة بعد ، لكن لما كان يعالج سكرات الموت كُنت عنه بالموت .

وفيه دليل على أن من السنة أن يُخبرَ الذي يُستدعى لماذا يراد . يؤخذ ذلك من قولها : أن ابناً لي قبض فائتينا ، لأنها لم تطلب منه ، عليه السلام ، الإتيان إلا بعدما أخبرته بموت ابنها .

وفيه دليل على جواز القسم على الفاضل ، ويكون من باب الرغبة ، لا من باب الحلف واليمين . يؤخذ ذلك من قوله : ( تقسم عليه ليأتيها ) .

وهنا بحث : هل كان مشيه ، عليه السلام ، في ثاني مرة من أجل القسم ، أو من أجل غيره ، أو من أجله ومن أجل غيره معاً؟ وكيف امتنع ، عليه السلام ، أولاً من المشي مع ما طبع ، عليه السلام ، من حسن الشيم ، والرحمة للأبعد؟ فكيف للأقارب؟

أما سبب امتناعه ، عليه السلام ، أولاً فلوجهين : (أحدهما) : أن يبين أن هذه الدعوة ليست مما هي واجبة الإجابة ، بخلاف دعوة النكاح . و (الثاني) خشية أن يتعلق قلبها - لمكانته ، عليه السلام ، عند الله تعالى - بأنه يدفع عن الطفل شيئاً . فأخبرها ، عليه السلام ، أن هذا أمر ما لأحد فيه حيلة . يؤخذ ذلك من قوله ، عليه السلام (إن الله ما أخذ وله ما أعطى . وكلّ عنده بأجلٍ مسمى) وهذا من المؤخر في اللفظ المقدم في المعنى ، كانه ، عليه السلام ، يقول : ما أعطاك الله من الولد فهو له ، وأخذه أيضاً هو له ، فإنه لم يأخذ حتى أعطى . فلما لم يكن في المعنى إلباس جاز التقديم والتأخير ، كما قال ، عز وجلّ في كتابه العزيز ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾<sup>(١)</sup> ولا يكون غثاءً حتى يكون أحوى . والغثاء هو اليباس . فلما علم أنه لا يكون يابساً حتى يكون أخضر جاز التقديم لعدم الإلباس . وهذا في لسان العرب من الفصيح . ثم أخبرها بحكم الله عليها في ذلك ، وهو الصبر والاحتساب .

ويذكر مالك في موطنه : أن بعض العلماء كانت له زوجة يحبها ، فلما ماتت وجَدَ عليها حتى

(١) سورة الأعلى ، الآيتان ٤ و ٥ .

احتجب عن الناس . وكان الناس محتاجين إليه لعلمه وفضله ، فتأتبه المسائل فيدخل بها الخديم ، ويخرج بالجواب عليها . فلما طال ذلك به بلغ إحدى المتعبدات حاله ، فأنت الباب وقالت للخديم : لي إليه ضرورة ، ولا يمكن الكلام معه إلا مشافهة . فأبى الخديم من الدخول بها إليه . فذهب الناس وبقيت المرأة لم تبرح مكانها . فطمع الخديم أن يصرفها عن الباب ، فلم تفعل ، وزعمت أن لا بد لها من رؤيته .

فلما طال جلوسها أخبر الخديم الشيخ بأمرها ، فأذن لها في الدخول . فقالت : يا سيدي ، إن جيراناً لي استعرت منهم حلياً لأن أحضر به عرساً ، فأعاروه لي ، ثم تركوه لي بعد زماناً أترين به . ثم الآن قد طلبوه ، ونفسي تأبى رده . فقال لها : لا يحل لك حبسه ، فإنه عارية ، والعارية مؤداة ، حكم من الله ، عز وجل ، ورسوله ﷺ . قالت : يا سيدي ، كان عن يوم ، وتركوه عندي سنين . فقال : أحق وأجدر أن تسارعي في رده ، لأنهم زادوك على المعروف معروفاً . فرامت به أن يفسح لها في ذلك في شيء وهو يغلظ عليها . فقالت له : يا سيدي ، أوليست زوجتك أنت من جملة ما استعاركها الله ، وأخذ متاعه ؟ فحزنك أنت واحتجابك عن الناس من ماذا ؟ فارتجع إلى نفسه ، وشكر ذلك لها ، وخرج من حينه .

فكان جلوس النبي ﷺ ، أولاً ، ليقعد الأحكام الشرعية مع القريب ومع البعيد على حد سواء . وأما مشيه ، عليه السلام ، في ثاني مرة فأبرار للقسم ، وشفقة ورحمة - كما جبل عليها - وجبر لخطرها لما أمن التوقع الأول .

وفي هذا دليل لأهل الطريق الذين يقولون بجبر القلوب .

وفيه دليل على أن الأجل لا يزيد ولا ينقص ، لقوله ، عليه السلام (بأجل مُسَمَّى) . وهنا إشارة وهي أن أهل الفضل لا يقطع الإياس من فضلهم وإن ردوا . يؤخذ ذلك من ردها الرسول ثانية بعدما امتنع ، عليه السلام ، من المشي أولاً . هذا طمع في فضل مخلوق ، فكيف في فضل من ليس كمثله شيء ؟ ولذلك جاء عنه ، جلّ جلاله ، أنه يدعو العبد المذنب ، فيعرض عنه ، ثم يدعو فيعرض عنه ، ثم يدعو فيقول ، جلّ جلاله : ملائكتي ، أما ترون عبدي ؟ يعلم أنه ليس له من يدعو غيري . أشهدكم أنني قد غفرت له ، وقبلت دعاءه .

وقوله (فقام رسول الله ﷺ ، ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال) فيه من الفقه جواز المشي إلى المأتم بغير إذن ، بخلاف الوليمة . يؤخذ ذلك من مشي هؤلاء معه ، ﷺ ، ولم يستدعهم ، ولا هم أيضاً استأذنوا .

وفيه دليل على تعظيم الصحابة ، رضوان الله عليهم ، له ، ﷺ . يؤخذ ذلك من كونه لما قام هو ، ﷺ ، قام معه من كان هناك تعظيماً له ، عليه السلام .



ويؤخذ منه أنه لا يسمى من الجمع إلا أعيانه، وذلك من الاختصار والإبلاغ في الفصاحة .  
يؤخذ ذلك من كونه سمي الأربعة لمكانتهم، وأجمل الباقي بلفظ (رجال) .

وقوله (ورُفِعَ الصبي إلى رسول الله، ﷺ) . الرفع هنا احتمال معنيين : (أحدهما) أن يكون بمعنى كشف له عنه كقوله، عليه السلام (ورفع لي البيت المعمور) أي : أظهر لي . و (الثاني) أن يكون بمعنى وُضِعَ في حِجْرِهِ، من قولهم : رفعت زيدا إلى الفراش، أي : جعلته عليه، واحتملا معاً .

وقوله (ونفسه تتعقعق كأنها شَنّ) الشَّنّ، هو الزُّق البالي إذا بلي يتقشر ويتشقق، فمن يأخذه يجد له صوتاً من كل نواحيه . فشبّه ذلك السَّيَاق<sup>(١)</sup> الذي كان يسوقه الصبي لشدته وكثرته بصوت هذه القِرَب البوالي التي لا ينفصل عنها ذلك الحال .

وفيه دليل على أن شدة الموت أو خفته ليس فيه علامة على السعادة ولا على الشقاوة . يؤخذ ذلك من كون هذا طفلاً لا تكليف عليه، وهو يشدد عليه، بل هذه حكمة استأثر بها الله تعالى . وقد قال، ﷺ في موت الفَجَاءَة (إنها تعجيل لأحد الدارين)<sup>(٢)</sup> وقد أخبر، عليه السلام (أن المؤمن تبقى له منزلة لم يبلغها بعمله، فيشدد عليه الموت حتى يبلغ تلك المنزلة)<sup>(٣)</sup> .

وقوله : (وفاضت عيناه) يريد : عينا رسول الله، ﷺ بدموعه المباركة بغير صوت . وتلك الدمعة هي دمعة الرحمة، كما أخبر هو، صلى الله عليه وسلم .

وقوله (فقال له سعد : يا رسول الله ما هذا)؟ هنا من الفقه وجوه :

منها : أن من أدب الدين أن يكون كبير القوم هو الذي يستفتح الكلام أولاً . يؤخذ ذلك من أن هذا لمكانته في الصحابة، رضي الله عنه وعنهم، هو الذي ابتدأ الكلام، والكل رأوا ما رأى هو، فالتزموا الأدب بعضهم مع بعض، وهو المعلوم منهم أن يتكلم الذي هو أولى أولاً .

ومنها : أن الأدب مطلوب في السؤال . يؤخذ ذلك من قول سعد : (ما هذا)؟ سؤال استرشادٍ

لا إنكار .

(١) السَّيَاق : التَّزَعُّع والاحتضار .

(٢) مروي بالمعنى : وقد أخرج الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : موت الفجاءة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر .

(٣) عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته في الجنة، وإذا كان للكافر معروف لم يُجَزَّ به هَوْنٌ عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار . (الإحياء ٤ / ٤٩٢) .

ويؤخذ من ذلك أن الأدب مع الأكابر أن يقدم ذكر أسمائهم أول الكلام . يؤخذ ذلك من قوله (يا رسول الله ما هذا؟) فقدم اسمه ، عليه السلام ، أولاً .

ويؤخذ منه أن من حسن السؤال الإيجاز فيه . يؤخذ ذلك من قوله (ما هذا؟) سؤال استرشاد ، ولم يزد على ذلك شيئاً ، وقوله ﷺ (هذه) يعني الدمعة ، لأنها خرجت بغير صوت .

وقوله عليه السلام : (جعلها الله في قلوب عباده) هنا من الفقه أن الذي تكلم الناس فيه في شأن الدموع وفي موجبها باطل ؛ لأنهم ذكروا فيها نحو الخمسة أو الستة أقاويل أو ما يقرب من ذلك . فمما استحسن منها : أنه عَزَقَ القلب من خجل الذنوب ، وبه يطرزون تلك الأقاويل . وقد أخبر هنا الصادق ، عليه السلام (أنها خُلِقَتْ من خَلْقِ الله ، استودعها قلوب عباده الرحماء) .

وقوله عليه السلام : (فإنما يرحم الله من عباده الرحماء) دل بهذا أن هذه الدموع صادرة عن الرحمة التي في قلوب المؤمنين الذين جعلت الرحمة في قلوبهم . فكما أن الفهم في العلوم صادر عن النور الذي في قلوب العملاء ، فكذلك هذه الدمعة صادرة عن المرحومين الذين جُعِلَت الرحمة في قلوبهم . حكمةٌ حكيم .

وقوله عليه السلام : (فإنما يرحم الله من عباده الرحماء) هذا اللفظ يحتمل معنيين : (أحدهما) أن يكون على ظاهره ، وهو منع الرحمة مما سوى الراحمين ، فتكون (إنما) على بابها ، لحصر الحكم في المذكور ونفيه عن غيره . (واحتمل) أن تكون بمعنى ثبوت الحكم المذكور ، ولا ينتفي عن غيره ، كقولهم : إنما الجميل يوسف . أثبتوا له الجمال ولم ينفوه عن غيره . وقد تكون بمعنى الاستحقاق لهم بما فيهم من الأهلية كمعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ <sup>(١)</sup> أي : يحق لهم الرجاء لما وعدوا ، والآخرون يرجون لكن على غير سبب . وقد تحتمل الوجهين معاً .

والأظهر أنها لتخصيص الحكم بالمذكورين ، ولا ينتفي ذلك عن غيرهم ، بدليل أنه قد جاء : (إن الله نفحات من الرحمة ، يصيب بها من يشاء . ممن فيه رحمة وغيره) <sup>(٢)</sup> وقد جاء : (أنه تشفع الرسل والأنبياء والملائكة ، عليهم السلام ، والعلماء والصالحون ، ثم يقول الله ، عز وجل : شفعت الأنبياء ، شفعت الملائكة ، شفعت الصالحون . وبقيت شفاعة أرحم الراحمين . فيخرج من النار قبضة ممن حَبَسَهُم القرآن) <sup>(٣)</sup> .

(١) سورة البقرة ، من الآية ٢١٨ .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الفرج والحكيم الترمذي وأبو نعيم في الحلية عن أنس والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . بلفظ آخر .

لكن إذا جعلنا هذه الرحمة بمعنى الإيمان فيكون المراد به الإيمان الكامل . فهؤلاء أهل الرحمة حقيقة، ويكون فيه دليل على أن هذه الرحمة لا يخص بها إلا أهل الإيمان المذكورين، وهي سبب الخشوع . وقد أثنى عليهم عز وجل، في كتابه حيث قال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾<sup>(١)</sup> فتكون على بابها لتعلق الحكم بالمذكورين ونفيها عن غيرهم ممن خالف الإيمان على عمومته لا على خصوصه في إيجاب الرحمة لهم، لقوله تعالى: ﴿لَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(٢)</sup>.

وهنا بحث، وهو: أنه يعارضنا قوله عليه السلام في حديث غير هذا: (إذا استكمل نفاق المرء كانت عيناه بحكم يده، يرسلهما متى شاء). فهل بينهما فرق أم لا؟ فالجواب: أما الظاهر فالتعارض فيه موجود، لأن هذه دمة خارجة في عالم الحس وهذه مثلاً. وإذا نظرنا إلى الشرط بان الحق وظهر، ولم يبق بينهما تعارض.

والشرط الذي بينهما أن التي هي صادرة عن استكمال النفاق يكون خروجها باختيار النفس بغير موجب، وقد يمسكها عند الموجب، كما يشاهد الناس على مرور الزمان من هؤلاء الغرباء الذين يعتقدون الحلق، ويطلبون الناس، ويصفون عن أنفسهم أنهم كانوا وكانوا، وذلك كله كذب، يعلم ذلك منهم من يعرفهم أصلاً وفرعاً، فإذا جاءوا عند مُعْظَم وصفهم لذلك الكذب يكون وتجري الدموع من أعينهم مثل القطر، يظن الرائي لهم أن ذلك حق، فتشفق النفوس لهم، فيتصدق عليهم. وهذا مروي عنهم كثيراً، ولو لم يكن في هذا إلا الكتاب الذي ينسب إلى بني ساسان ووصف أحوالهم لكان كافياً. فكيف والناس يرون ذلك منهم معاينة؟

وأما الدمة التي هي كما أخبر الصادق - عليه السلام - فتخرج كما خرجت منه، ﷺ، وذلك عند الموجب، مثل تذكارات الموت، والشفقة، مثل ما رأى، عليه السلام، من تلك النسمة، وما كانت تعالج من سكرات الموت مع صغرها، أو من خشيته من الله، عز وجل، أو ما يكون مثل ذلك من فكرته فيه كما روي عنه، ﷺ (أنه دخل يوماً على فاطمة، رضي الله عنها، وهي تبكي بكاءً كثيراً. فسألها، ﷺ، فقالت في معنى كلامها إنها ما أبكاها شيء إلا فكرها في القبر، وما فيه). فهذا كله نوع واحد يقتضيه حقيقة الإيمان الكامل.

ومما يدل على أنه إنما عني، ﷺ، النوع لا الجنس بقوله (هذه) وأشار إلى الدمة كونه، عليه السلام، قسم الإيمان في غير هذا الحديث على قسمين فقال: (الإيمان إيمانان: إيمان لا يدخل

(١) سورة المؤمنون، الآية ٢.

(٢) سورة النساء، من الآية ٤٨.

صاحبه النار). وهو الإيمان مع اتباع الأمر والنهي وهو الإيمان الكامل (وإيمان لا يخلد صاحبه في النار)<sup>(١)</sup>. وهو الإيمان الذي معه بعض المعاصي. ومما يقوي ذلك أن المتكلم - وهو سعد - ومن كان معه حاضراً، لم تدمع لأحد منهم عين إلا عينه، ﷺ وذلك لكمال الإيمان هناك، لأنه، عليه السلام، بالإجماع أكمل الناس إيماناً، ولذلك قال عند موت ابنه إبراهيم: (تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب)، لأن الدمع والحزن هما عند الموجبات من الإيمان، كما أن ترك ما يسخط الرب من الإيمان أيضاً.

وفيه دليل لأهل الصوفة في كثرة بكائهم، لأن النبي، ﷺ، قد جعل ذلك علماً على الرحمة التي في القلوب. وقد روي عن بعضهم أنه كان كثير البكاء، فرمدت عيناه، فأتوا له بالطبيب، فقال له: نداويك على شرط أنك لا تبكي ما دام بعينيك رمد. فقال، رضي الله عنه: وأي فائدة في عين لا يُبكي بها؟ والله لا ألترم هذا الشرط، ولا حاجة لي بدوائكم بل أموت في البكاء، وهل راحة الشجي إلا في أدمعه؟

وفائدة هذا الحديث هي في تذكّار هذا الأمر العظيم الحتم الذي لا هرب لأحد منه، والأخذ في الاستعداد لذلك قبل هجومه، إذ هذا السيد، عليه أفضل الصلاة والسلام، لا يقدر في منع هذا الأمر عن أحد من أهله ولا غن نفسه المكّمة، فما بالك بالغير؟ وهذا تصديق لقوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾<sup>(٢)</sup> وقد قال بعض الحكماء في شعر له:

ولو كانت الدنيا تدوم لأهلها      لكان رسول الله حيّاً وباقياً  
فحسبك يا هذا إذا كنت عاقلاً      مقيلاً وكن فيها لزيدك واعياً  
واحذر هجمات الحمام بلا زاد، ويدك من التقوى خالية، وكن عبداً مطيعاً، فالحمام لا بدّ لك مفاجيء.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) سبق الكلام عليه في الحديث (١).

(٢) سورة آل عمران، من الآية ١٨٥.

## حديث الرؤيا في تعذيب العصاة

عن سَمُرَةَ بن جُنْدَبٍ<sup>(١)</sup>، رضي الله عنه، قال: كان النبي، ﷺ، إذا صَلَّى صلاةً أَقْبَلَ علينا بوجهه، فَقَالَ: مَنْ رَأَى مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟ قَالَ: فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ رُؤْيَا قَصَّهَا. فيقول ما شاء الله. فَسَأَلْنَا يَوْمًا فَقَالَ: هل رأى مِنْكُمْ أَحَدٌ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟ قلنا: لا.

قَالَ: لَكُنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتْيَانِي، فَأَخْذَا بِيَدِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلُوبٌ مِنْ حَدِيدٍ «قال بعض أصحابنا عن موسى»<sup>(٢)</sup> إِنَّهُ يَدْخُلُهُ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَقَعُ بِشِدْقِهِ الْآخَرَ مِثْلَ ذَلِكَ. وَيَلْتَنِمُ شِدْقُهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ. قلت: ما هذا؟ قالَا: انطلق.

فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ<sup>(٣)</sup> أَوْ صَخْرَةٍ، فَيَشْدَحُ بِهَا رَأْسَهُ. فَإِذَا ضَرَبَهُ تَذَهُدَّةَ الْحَجَرِ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَنِمَ رَأْسَهُ، وَعَادَ رَأْسَهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ. قلت: مَنْ هذا؟ قالَا: انطلق.

فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقَبٍ مِثْلِ الثَّنُورِ، أَعْلَاهُ ضَيْقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ، تَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارٌ، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَت رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رَجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ. فقلت: ما هذا؟ قالَا: انطلق.

(١) سمرة بن جندب بن هلال الفزاري. صحابي من الشجعان، مات أبوه فقدمت به أمه المدينة، فتزوجها رجل من الأنصار، فنشأ في المدينة، وروى عنه الحسن والشعبي، وكان من الحفاظ الكثيرين. نزل البصرة واستخلفه زياد عليها عندما سار إلى الكوفة، ولما مات زياد أقره معاوية عاماً، ثم عزله، وكان شديداً على الخوارج الحرورية، وكان يثني عليه الحسن وابن سيرين. توفي بالبصرة سنة ٥٨ هـ / ٦٧٧ م.

(٢) موسى: هو راوي الحديث، موسى بن إسماعيل المنقري البصري. أحد أركان الحديث. قال عباس الدوري: كتبت عنه خمسة وثلاثين ألف حديث، وقال آخرون: ثقة وشيخ للبخاري. توفي سنة ٢٢٣ هـ.

(٣) الفِهْر: الحجر المدور.

فانطلقنا حتّى أتينا على نهرٍ من دم، فيه رجل قائم. وعلى وسط النهر «قال يزيدُ بنُ هرونَ ووهبُ بنُ جريرٍ عن جريرِ بن حازمٍ: وعلى شَطِّ النَّهرِ» رجلٌ بين يَدَيْهِ حجارةٌ، فأقبل الرجلُ الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرجَ رمى الرجلُ بحجرٍ في فيه، فردّه حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجرٍ، فارجعُ كما كان. فقلتُ: ما هذا؟ قالاً: انطلق.

فانطلقنا حتّى انتهينا إلى روضة خضراء، فيها شجرة عظيمة، وفي أصلها شيخ وصبيان. وإذا رجلٌ قريب من الشجرة، بين يديه نارٌ يُوقدها. فصعدا بي الشجرة. فأدخلاني داراً لم أر قط أحسن منها، فيها رجالُ شيوخ وشباب ونساء وصبيان، ثم أخرجاني منها، فصعدا بي الشجرة، فأدخلاني داراً هي أحسن منها وأفضل، فيها شيوخ وشباب.

فقلتُ: طوّفتماني الليلة. فأخبراني عمّا رأيتُ. قالاً: نعم. أمّا الذي رأيتهُ يشقُّ شدقه فكذابٌ يحدثُ بالكذبة فتحمّل عنه حتّى تبلغ الآفاق، فيصنعُ به ما رأيتهُ إلى يوم القيامة. والذي رأيتهُ يشدخُ رأسه فرجلٌ علّمه الله القرآن، فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار، يفعل به إلى يوم القيامة. والذي رأيتهُ في الثقب فهم الرّناة. والذي رأيتهُ في النهر فآكلو الرّبا. والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم. والصبيان حوله فأولادُ الناس. والذي يوقد النار مالك خازن النار. والدار الأولى التي دخلت فهي الجنة، دارُ عامّة المؤمنين. وأمّا هذه الدارُ فدارُ الشهداء. وأنا جبريل، وهذا ميكائيل. فارتفع رأسك. فرفعتُ رأسي، فإذا فوقِي مثل السحاب. قالاً: ذلك منزلك. فقلتُ: دعاني أدخل منزلي. قالاً: إنّه بقي لك عمرٌ لم تستكملهُ، فلو استكملته أتيت منزلك.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على دوام سؤال النبي ﷺ، للصحابة، رضي الله عنهم، إثر الصلاة عن من رأى منهم رؤيا، وعلى دوام تعبيرها لهم، وأنه ﷺ، أخبرهم في هذا اليوم الذي لم ير أحد منهم شيئاً ما رأى هو، عليه الصلاة والسلام، في نومه. والكلام عليه من وجوه:

منها قوله: (صلاة) هل المراد بها العموم وهي الخمس أو واحدة منها، وهي الصبح؟ وما الحكمة في دوامه، عليه السلام، على ذلك؟ ولم أخبرهم، عليه السلام، بهذه الرؤيا؟ فالجواب: أن الظاهر من قوله: (صلاة) أنها صلاة الصبح، بدليل قوله، عليه السلام: (من رأى منكم الليلة رؤيا) فهذا ما يكون إلا إثر صلاة الصبح.

وفيه من الفقه جواز جلوس الإمام في مُصَلَاة إذا أدار وجهه إلى الجماعة، وأن ذلك يقوم مقام

القيام، وأن هذا هو السنّة ردّاً على من يقول: إن الإمام إذا سلّم لا بد أن يقوم من موضعه. حتى إن بعض من يُنسب إلى التشديد في الدين من الأئمة يقوم من حين فراغه من صلاته كأنما ضُرب بشيء يؤلمه، ويَجعل ذلك من الدين، ويفوته بذلك خيران عظيمان:

(أحدهما) استغفار الملائكة له ما دام في مصلاه الذي صلّى فيه، لقول رسول الله، ﷺ: (لا تزال الملائكة تُصلي على أحدكم ما دام في مُصلاه الذي صلّى فيه ما لم يُحدّث، تقول: اللَّهُمَّ اغْفِرْ له، اللَّهُمَّ ارْحَمْه)<sup>(١)</sup>.

و (الثاني) مخالفته لسنّة رسول الله، ﷺ، التي هي نص في هذا الحديث حيث قال: (كان إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه) ليس إلّا، ولم يذكر أنه قام، ولو كان لم يقبل بوجهه عليهم إلا بعد القيام لأخبر بذلك، لأنهم، رضي الله عنهم، بأقل من هذا من فعله، عليه السلام، يُخبرون به لِيُقْتَدَى به. وعلى هذا أدركتُ كلَّ من لَقِيتُ بالأندلس من الأئمة المقتدَى بهم في غالب الأمر، يُقبلون بوجوههم على الجماعة من غير قيام.

وأما دوامه، عليه السلام، على ذلك فلأنها من النبوة، فيحض الناس على الاعتناء بها لأنه إذا كان هو، ﷺ، يعتني بها وجب علينا اتباعه في هذا، لو لم تكن من النبوة، فكيف وهي من النبوة؟ ولوجه آخر: لأنها كانت بدأة الخير له، عليه السلام، وللمسلمين، لأن أول ما بدىء به الرؤيا الصالحة في النوم - كما في الحديث أول الكتاب - وحسن العهد من الإيمان. ومن أولى بحسن العهد منه، عليه السلام، لقوة إيمانه وكماله؟

وأما كونه، عليه السلام، يفسرها لهم فذلك منه تعليم لهم وإرشاد لكيفية التعبير. وهو لمن يعرفه من جملة المِنَن عليه، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿ذَلِكَ مَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾<sup>(٢)</sup> وكلّ ما علّمه الآدمي مما لم يكن يَعْلَمه فهو من جملة النعم عليه.

وأما إخباره، عليه السلام، لهم برؤيته تلك الرؤيا فلأنها وحي، لأن رؤيا الأنبياء، عليهم السلام، كلها وحي عند العلماء. وما يكون وحيّاً فلا يجوز له كتمه؛ لأنه حكم من الله، تعالى، لعباده؛ ولأن تلك الأحكام المذكورة فيها - على ما نبين بعدُ إن شاء الله - أحكام ثابتة وفوائد جمّة لمن فهم. فأراد الإخبار بتلك الأحكام والفوائد.

وقوله عليه السلام: (رأيتُ الليلة رجلين) زيادة تأكيد لما قدمنا من أنها صلاة الصبح. وقوله

(١) لفظ الحديث: إن الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلّى فيه ما لم يُحدّث أو يقيم، اللهم اغفر له، اللهم ارحمه. أخرجه الإمام مالك وابن زنجويه والنسائي وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة يوسف، من الآية ٣٧.

عليه السلام (أتيناني) أي: جاءني لموضعي الذي كنت فيه . وقوله عليه السلام (فأخذنا بيدي، فأخرجاني إلى الأرض المقدسة) الأرض المقدسة هي بيت المقدس .

وهنا بحث في إخراجهم، عليه السلام، في النوم إلى الأرض المقدسة: لِمَ خُصَّتْ من بين الأرض بأن أُرِيَ له، عليه السلام، فيها تلك الأمور التي في الرؤيا، ولم يكن في غيرها من الأرض؟ فالجواب: أن الحكيم - كما قدمناه أولاً - لا يعمل شيئاً من الأشياء بحكم الوفاق؛ وإنما يعمل له حكمة عَقَلَهَا مَنْ عَقَلَهَا، وَجَهَلَهَا مَنْ جَهَلَهَا.

والحكمة هنا تظهر من وجهين: (أحدهما) لأنها هي موضع الحشر، كما جاء عنه ﷺ، فأُرِيَ له، عليه السلام، الأمر في موضعه الذي فيه يكون. و (الوجه الآخر) هو أن نسبة إسرائه، عليه السلام، في اليقظة كنسبة إسرائه في النوم؛ لأنه حق، والحق لا يتبدل. فأول ما أُسري به، عليه السلام، ليلة الإسراء إلى بيت المقدس، وهذه إلى بيت المقدس، فإن كانت هذه أولاً فهي تَدْرَج. وهو حاله، عليه السلام، في سلوكه، وهو أجل الأحوال، على ما تقدم الكلام فيه. وإن كانت هي الآخرة فتكون إبقاء لأثر القُرْبِ والإيناس، كما يأتي في موضعه من حديث الإسراء، إن شاء الله.

وقوله، عليه السلام: (فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كlob من حديد - قال بعض أصحابنا عن موسى - إنه يُدْخِلُ ذلك الكlob في شِدْقِهِ حتى يبلغ ففاه ثم يفعل بِشِدْقِهِ الآخر مثل ذلك، ويلتئم شِدْقُهُ هذا، فيعود فيصنع مثله. قلت: ما هذا؟ قال: انطلق). الكlob: حديدة ذات فِخْذَيْنِ، معوجة الأطراف.

وفيه دليل على عِظَمِ قدرة الله، عز وجل، إذ إن أمور الآخرة ليست كأمر الدنيا في الغالب. يؤخذ ذلك من كَوْنِ الشِدْقِ الواحد يَلْتَمِئُ بينما يدخل الكlob في الآخر؛ ولو خرق الشدق في هذه الدار ما التأم إلا بعد أيام عديدة.

ويترتب على هذا من الفقه أن عذاب تلك الدار أضعاف مضاعفة من عذاب هذه الدار، كما قال تعالى في حقهم ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَمِيئٍ﴾<sup>(١)</sup> وكون تلك الحديدة معوجة الطرفين فلأنها أكثر في الإيلام. وكونه جالسا بين يديه فلأنه أمكن له في التمكن من عذابه. وفيه دليل على أن العذاب يكون في الجارحة التي كانت بها المعصية في الدنيا، كما قال تعالى ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾<sup>(٢)</sup> ذلك من إخباره بعد في الحديث أنه يفعل بالكذاب.

(١) سورة إبراهيم، من الآية ١٧.

(٢) سورة النبأ، من الآية ٢٦.



وهنا بحث، وهو: هل هذا الذي رآه، ﷺ، مع كونه حقاً، هل ذلك مثال يعرف به الحكم، وتُرى له الكيفية؟ أو ذلك حقيقة أرى له بعضُ أهل المعصية على ما هم فيه؟ محتمل. لأنه، عليه السلام، لم يخبر أنه رأى من أهل هذا الحال إلا واحداً، وبالقطع إن أهل ذلك الذنب عدد كثير. والقدرة صالحة للوجهين معاً.

وهل الموضع الذي رآه فيه، عليه السلام، أيضاً بالأرض المقدسة هو موضعه الذي كان دفنه فيه؟ أو فسح له، عليه السلام، من الأرض المقدسة حتى رآه في موضعه على حاله ذلك؟ فالقدرة أيضاً صالحة للوجهين معاً. وفيه أيضاً دليل على عظم قدرة القادر.

وفيه دليل على أن من الفصيح في الكلام الحذف والاختصار، إذا لم ينقص ذلك من المعنى شيئاً. يؤخذ ذلك من قوله (يدخله في شِدْقِه حتى يبلغ قفاه) ولم يذكر كونه يشقه بعد. فحذف ذلك للدلالة عليه بقوله (فيلتئم شِدْقُه هذا). فلو كان ثقباً دون شق ما احتاج أن يبين أنه لا يرجع إلى الآخر إلا وهو قد التأم؛ لأنه إذا ثقب موضع من الشدق الواحد بقي منه مواضع غير ذلك. فيرجع فيثقب فيها، فيكون أكثر في تألمه، لكونه يبقى له جرح، ويجرح جرحاً آخر في جنب الجرح الأول، ولكن لما كان شقاً لم يبق له فيه لِمَا يرجع إلا أن يلتئم. فلذلك بين بقوله (فيلتئم).

وقوله: (فانطلقنا) أي سرنا. وقوله: (حتى أتينا) أي بلغنا. وقوله ﷺ: (إلى رجل مضطجع على قفاه، ورجل قائم على رأسه بفُهر أو صخرة) الفُهر الحَجَر المدوَّر. والصخرة حَجَر مبسوط. وقوله (فیشدُخُ به رأسه) أي يكسره ويبالغ في كسره.

وقوله عليه السلام: (فإذا ضربه تَدَهَّدَ الحَجَرُ، فانطلق إليه ليأخذه، فلا يرجع حتى يلتئم رأسه، وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فَضْرَبَه). هذه الصفة كناية عن شدة الضربة بالحَجَر، لأنه إذا ضرب به حتى زال عن يده وذهب إلى بُعْدٍ منه من حيث يحتاج أن يمشي إليه وحينئذ يأخذه. فهذه الصفة عندنا في هذه الدار معلومة إنه إذا كان الذي يضرب بالحجر ذا قوة بعد ضرب الحجر في الشيء الذي يُضْرَب به ويذهب عنه إلى بُعْدٍ، وربما إن أصابت شيئاً آخر كان تأثيرها فيه كثيراً.

وفيه من الكلام مثل الذي قبل من الدليل على أمور الآخرة وعِظَمِها وعِظَمِ القدرة الربانية الجليلة. وفي هذا الفصل، وفي الذي قبل، دليل على أن أمور الآخرة ليست كأمور الدنيا. يؤخذ ذلك من كون هذا مضطجعاً لا يقدر أن يتحرك بلا شيء يحبسه، والآخر قاعد أيضاً بلا شيء يحبسه. كلاهما مستسلم لهذا الأمر العظيم. وفي هذه الدار لا يمكن أن يُحبَس أحد لبعض ما هو أقل من هذا إلا بحبس شديد من وثاق أو غيره. هذا من عجائب القدرة.

وفيه أيضاً دليل يتبين به معنى قوله تعالى: ﴿غَلَاظٌ شِدَادٌ﴾<sup>(١)</sup> لأن قوة تلك الضربة لا تكون إلا عن تلك الصفات المذكورة. وهي من جملة التخويفات.

وهنا بحث، وهو: لم خُصَّ هذا العضو من سائر الأعضاء بالعذاب؟ فالجواب أنه هو الذي ترك السَّهَر بالتهجد بالقرآن، كما يذكر في آخر الحديث. وهناك يكون البحث عليه.

قوله عليه السلام: (قلت ما هذا؟ قال: انطلق. فانطلقنا إلى ثَقَب مثل التنور أعلاه ضيق، وأسفله واسع، تتوقد تحته نار، فإذا اقترب) اقترَب بمعنى: قرب، كقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَيْتِ السَّاعَةَ﴾<sup>(٢)</sup> أي قربت. فإذا قربت منهم تلك يَحَرُّها، وهذا كناية عن عظيم تأججها.

وقوله: (ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا منها) هكذا تفعل القدر هنا إذا كانت على النار، واشتدت النار تحتها، غلت فارفع ما فيها إلى أعلاها، حتى إنه إن غُفِل عنها رمت بعضه خارج القدر. فدل بهذه الصفة على عِظَم حَرِّها. والحكمة في كونه مثل التنور أعلاه ضيق لأنه أبلغ في حرارة النار؛ لأنه تنعكس حرارتها إلى داخل.

وقوله: (حتى كادوا أن يخرجوا) أي قربوا من الخروج. وقوله: (فإذا خمدت) أي سكن حرها. وقوله (رجعوا فيها) أي رجعوا إلى الحالة الأولى. وقوله: (وفيه رجال ونساء عراة) الكلام عليه كالذي تقدم من إظهار القدرة وعِظَمها.

وهنا بحث، وهو: لِمَ كان مَنْ تقدم من المعدَّيين منفردين، وهؤلاء مجتمعين؟ فالجواب أن نقول: هذا كما أخبر عز وجل في كتابه بقوله: ﴿جَزَاءٌ وَفَاقًا﴾<sup>(٣)</sup> لما لم تكن هذه المعصية في هذه الدار إلا في جمع - والجمع ينطلق في اللغة على الاثنين فصاعداً - وهَتَكَ ما أُمِرَ به من ستر العورة كان هنالك كذلك. حكمةٌ حكيم. وهؤلاء هم الزناة، كما يأتي بعد.

وفيه فائدة كبرى لمن رُزِق التصديق به والإيمان. وأعني بالتصديق الذي يكون حقيقياً. وهي إن تحرك من النفس أو من الشيطان باعث لمثل هذا يذكرها هذه الحالة المهلكة فترجع عن غيها. ولهذا وما أشبهه أعلمنا به، لأنه ليس من يخاف عقاباً على الجملة لا يدري قدره مثل من يخاف عقاباً معلوماً.

هذا في الخوف أبلغ، كما ذكر عن بعض المتعبدین أنه حسده ناس من شياطين الإنس

(١) سورة التحريم، من الآية ٦.

(٢) سورة القمر، من الآية ١.

(٣) سورة النبأ، من الآية ٢٦.

في حاله المبارك؛ فأرادوا أن يُوقعوه، فأخذوا امرأة في غاية الحسن والجمال بعدما علّموها ما تقول له، وكيف تستدرجه، وزينوها، ثم تلاحوا بينهم حتى أظهروا كأنهم يقتتلون في شأنها، وكأنها ابنة أحدهم. ثم جاؤوه يرغبون منه، لعله يمسكها الليلة في بعض زوايا بيته، حتى يعودوا إليه، أو ما يشبه هذا المعنى. فامتنع، فما زالوا في المَكْرِ به حتى أنعم لهم في ذلك. وهو لا يعرف لها صورة.

فلما جَنَّ الليل، وهو مشغول بعبادته، وإذا<sup>(١)</sup> بها قد أتته على تلك الحالة، بصورة خوفٍ لحقها، تستجيرُ به لثَرِيهِ وجهها، وتجلس معه بادية الوجه بالقرب منه. فلم تزل تكيّد عليه حتى راودته وعزمت عليه بالفاحشة. فلما رأى جدّها قال لها: أمهلي يسيراً. وأخذ دهنًا وألقاه في المصباح، وزاده فتيلًا. فلما قويت شمعته جعل عليها أصبعه، وتركها ساعة، والنار تنقد فيها حتى اشتد عليه ألم النار، صاح صيحة وغشي عليه. وأدركها هي الرعب من حاله وصدقه مع الله، فكفّت. فلما أصبح، وأتوها وأخذوها وسألوها، أخبرتهم بما جرى، فارتجعوا عنه. وقال بعضهم:

نَفْسِي عَلَى الْبَرْدِ لَيْسَ تَقْوَى      وَلَا عَلَى أَيْسَرِ الْحَرَارَةِ  
فَكَيْفَ تَقْوَى لِحَرِّ نَارٍ      وَقَوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ؟

وقوله عليه السلام: (فقلت: ما هذا؟ قال: انطلق. فانطلقنا حتى أتينا). الكلام على هذه الألفاظ كما تقدم أولاً، وكذلك تلك البحوث: هل ما رآه، عليه السلام، حقيقة أو تمثيلاً<sup>(٢)</sup> في كل وجه يتكرر البحث فيه؟ والجواب عليه على حدّ واحد. فإن القدرة لا تعجز عن شيء.

وقوله: (على نهر من دم، فيه رجل قائم. وعلى وسط النهر - قال يزيد ووهب بن جرير عن جرير بن حازم: وعلى شط النهر - رجل بين يديه حجارة. فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فردّه حيث كان. فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان). الكلام على ما فيه من أمر عظيم القدرة كما تقدم، وما فيه من حذف بعض الألفاظ للدلالة عليه كالكلام على ما كان قبل.

والحذف الذي هنا: قوله (رمى الرجل في فيه) ولم يذكر الذي على حافة النهر، وإنما حذفه لدلالة الكلام عليه قبل، ولأن فيه الألف واللام، وهي للعهد، أي الرجل المعهود، وهو المذكور قبل. وفيه حذف آخر وهو: قوله: (كلما جاء ليخرج رمى في فيه) وسكت عن ذكر الرجل وموضعه، وإنما سكت هنا أيضاً عنه لما دل عليه الكلام أولاً، لأنه لم يذكر في القضية إلا رجلين، لا ثالث لهما، وبين موضع كل واحد، فإذا ذكر ما فعل بالواحد لم يفهم أنه فعله إلا الثاني.

(١) الواو زائدة في جواب لما.

(٢) أي كائن حقيقة أو تمثيلاً.

وهنا بحث، وهو: لم كان من تقدم قعوداً لا يتحركون، وهذا يخوض في هذا النهر ويرجع؟  
فالجواب: أنه لما كان الذنب الذي أوجب هذا هو أكل الربا، والربا في هذه الدار لا يكتسب في  
الغالب إلا بالذهاب والرجوع، فكان عذابه من ذلك الجنس.

وكونه دماً: إنما كان ذلك كذلك لأن الدم ثخين ثقيل، والخوض في الشيء الثخين الثقيل من  
أتعب الأشياء. ثم زيد لذلك: التألم بريحه. ثم زيد كذلك: رَمِي الحجر في فيه، لأن به كان يأكل  
الربا، فكان ذلك عذاباً على عذاب مضاعف. ثم انظر إلى قدرة القادر، كيف تزيده الآلام إذا أراد  
الخروج، ثم إنه مع ذلك لا يقدر أن يقف في ذلك الموضع حيث هو لشدة ما هو فيه، فيروم لعل  
راحة، فيزيده بلاءً على بلاء، كما قال:

بالبعد أشقى وبالقرب لا أستريح فما هي إلا الآلام تتأكد وتفيح<sup>(١)</sup>

وقوله، عليه السلام: (قلت: ما هذا؟ قال: انطلق. فانطلقنا، حتى انتهينا إلى روضة خضراء،  
فيها شجرة عظيمة، وفي أصلها شيخ وصبيان، ورجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها) الروضة  
الخضراء هي أحسن الروضات. وهنا تحققنا أن هذا تمثيل لا حقيقة للموضع، لأنه ذكر بعد: أن هذا  
الشيخ إبراهيم، عليه السلام، والصبيان أولاد الناس. وذكر عن الرجل الذي يوقد النار أنه مالِكٌ.  
والكلام على توجيه البقعة والشجرة وما معناهما عند ذكره، ﷺ، ذلك يأتي في آخر الحديث.

وقوله عليه السلام: (فصعداً بي الشجرة، فأدخلاني داراً لم أر قط أحسن منها) من أكبر الأدلة  
على أن أمور الآخرة لا تطبق العقول فهمها إلا بعد علم أشياء عديدة، وتوفيق ونظر في مثل هذا  
المثال الذي جعل فيه الشجرة طريقاً إلى الدار لا يقبله العقل بديهية. فإذا بين له، على ما أذكره بعد،  
إن شاء الله، زاد إيمانه، وقويت عظمة الله تعالى في قلبه.

وقوله عليه السلام: (فيها شيوخ وشباب ونساء وصبيان. ثم أخرجاني منها فصعدا بي  
الشجرة) فيه دليل على أن هذه الدار الأولى كانت في بعض الشجرة. يؤخذ ذلك من كونهم حين  
خرجوا من الدار صعدوا في الشجرة.

وقوله: (فأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل، فيها شيوخ وشباب. قلت: طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ،  
فأخبراني عَمَّا رَأَيْتُ. قال: نعم. الذي رأيته يشق شدة) قد تقدم الكلام على هذا أولاً، غير أنه ما  
ذكرناه هناك من الشق وكان مضمراً عاد هنا ظاهراً، وعاد الإدخال الذي كان هناك ظاهراً هنا  
مضمراً.

(١) البيت مضطرب الوزن. و (تفيح): تشد وتنهيج.

وقوله: (فكذاب يحدث بالكذبة، تُحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به إلى يوم القيامة) هكذا لا يفتر، زائداً على ما له يوم القيامة من العذاب الأليم.

### أقسام الكذب<sup>(١)</sup>

ونحتاج هنا أن نعرف الكذب الذي هو هذا عذابه، فنقول، والله المستعان: إن الكذب ينقسم على خمسة أقسام: فمنه واجب وصاحبه مأجور، ومنه مندوب وصاحبه مأجور أيضاً على ما أبينه بعد، ومنه مباح ولا أجر فيه ولا إثم على قائله، ومنه حرام وهو الذي عليه هذا الوعيد العظيم، ومنه مكروه.

فأما الواجب منه فهو أن تعرف شخصاً في موضع، ويسألك عنه من تعلم أنه يسفك دمه ظلماً وعدواناً، فيتعين عليك في هذا الموضع الكذب، وتقول: لا أعلم. وإن حلفك تحلف، وتؤذي في قلبك بأن تقول: أعني موضع قعوده، أو هل هو واقف، أو مضطجع؟ فإنك لا تعرف في أي موضع هو الآن من البيت الذي هو فيه، هل في الزاوية اليمنى أو اليسرى أو وسط البيت، أو في موضع الحاجة؟ لأنه من يحلف على غير حق عليه يختلف العلماء فيه: هل اليمين على نية الحالف، أو على نية المحلوف له؟ على ثلاثة أقوال: على نية الحالف أو على نية المحلوف له، أو على نية الذي أرادها أولاً. ولم يختلف أحد منهم على أنها إذا كانت في حق عليه فإنها على نية المحلوف له؛ لقوله ﷺ (اليمين على نية المحلوف له)<sup>(٢)</sup>. فإن صدق هنا، ودله عليه، كان قد شارك في قتل مسلم بغير حق. وقال ﷺ: (مَنْ شَارَكَ فِي قَتْلِ مُسْلِمٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَيْنَ عَيْنَيْهِ: آيسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)<sup>(٣)</sup>. وما أشبه هذا النوع بالكذب فيه واجب. ومن فعل واجباً كان مأجوراً.

وأما المستحب فالكذب في الحرب مع نزيله، لقوله ﷺ (الحرب خدعة)<sup>(٤)</sup>. فيكون مأجوراً لاتباعه السنة في ذلك الموطن. ونحتاج أن نبين هذا الكذب بالمثل من أجل أن<sup>(٥)</sup> تعطيه العهد ثم تقتله، وتظن أن ذلك هو الكذب الجائر في الحرب، وهو أن فعلته، نقض عهد، ونقض العهد حرام لا يجوز. وقد كان عمر، رضي الله عنه، يكتب إلى جيوشه بالأمصار: من بلغني عنه أنه قال للعلاج (مُطَرَس) ثم قتلته قتلته به. و (مُطَرَس) بلغتهم: الأمان الأمان.

(١) هذا العنوان وضعناه ليبان ما يلي من تفصيل، وليس موجوداً في الأصل.

(٢) نص الحديث: اليمين على نية المستحلف. رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) نص الحديث: من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة لقي الله يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيسٌ من رحمة الله.

أخرجه ابن ماجه والبيهقي عن أبي هريرة والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) حديث صحيح متواتر.

(٥) يريد: من أجل خشية أن.

فمثال الكذب الذي يجوز في الحرب أن يقول لتزيله : مَنْ ذلك الشخصُ الذي خلفك؟ وليس وراءه أحد من أجل أن يلتفت فيتمكن منه . أو يقول له : ما بال حزام سرجك محلولاً؟ تريد أن تريني حُسْنَ ركوبك؟ فإما أن يلتفت إلى حزام سرجه فيتمكن منه ، وإما أن يدخله الشك فيبقى يشتغل بحبس نفسه في سرجه ، فَتَقِلَّ شطارته لذلك ، فيكون أمكن منه ، وما يشبه هذا النوع .

وأما الكذب المباح فمثل أن يكون الشخص قد فعل شيئاً ونسي أنه فعله فيسأل عنه ، فيقول : لم أفعله . فهذا من قبيل المباح ، لأنه قال ﷺ ، (إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان)<sup>(١)</sup> . فإذا تجاوز عنه ، فلا إثم عليه ، ولا هو أيضاً فيه مأجور . فهذه صفة المباح . أعني في عدم الإثم ، وعدم الأجر . فما كان هذا سبيله من جميع الأشياء فهو مباح .

وأما المكروه فهو ما يَعِدُ به الرجلُ امرأته من الإحسان ، ولا يفي لها به ، لقول سيدنا ﷺ للسائل الذي سأله : أكذب لامرأتي؟ فكره ذلك ، فقال له : أَعِدُّهَا؟ قال : افعل .

وقد ذكر بعض الناس أنه إن اشترى حاجة لامرأته ليست بواجبة عليه إلا من طريق الإحسان لها ، ويخبرها عن ثمنها بأزيد مما دفع فيها ، أنه من قبيل المكروه ؛ لأنه لا يترتب عليه إلا مصلحة نفسانية ، وهي كونها تطاوعه في كل ما يريد ، ولا يترتب عليه أيضاً مفسدة كما أخبر في الحديث : (من فتح باب ضرر للمسلمين بكذبه)<sup>(٢)</sup> ، وقد قال ﷺ في حديث آخر (من ضارَّ بمسلم ضرَّ الله به) . مثال ذلك أن يُسأل شخص قد جاء من بلد إلى بلد آخر عن سعر ذلك البلد الذي جاء منه ، فيخبر أنه أرفع مما هو ، فيخطر لأحد أهل ذلك الموضع أن يجلب إليه الطعام لما يرى من الفائدة في ذلك السوم الذي أخبر به الكَذَّاب ، فإذا أتعب نفسه وغرَّرَ بها ، وبِماله ، وبلغ البلد ، وجد السعر ناقصاً عما قيل له ، فخسر في ماله ، وتغير حاله وخاطره ، وكثرت عليه المفاسد . وسبب ذلك تلك الكذبة . هذا وما يشبهه هو الممنوع .

وأما الحرام الذي عليه هذا الوعيد العظيم فهو المتعهد للكذب بلا عذر مما تقدم ولا مما يشبهه ، وقد قال ﷺ : (لا يزال الرجل يتحرى الكذب حتى يُكْتَبَ عند الله كذاباً)<sup>(٣)</sup> ، وهو الذي يقول ضد الحق عامداً لذلك . وقد جاء أن الرجل يُحَاسَبُ على الكذبية ، وهي أن تنفلت منه دابته ، فيروم

---

(١) بقية الحديث : وما استكروها عليه . أخرجه ابن ماجه عن أبي ذر ، والطبراني والبيهقي في الأفراد والحاكم في المستدرک عن ابن عباس رضي الله عنهم .

(٢) لم نقف على مصدره .

(٣) أوله : عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر . . أخرجه الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد ومسلم والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه .

أخذها فلا يطبق ذلك، فيُخرج لها التعليقة التي كانت تأكل فيها العلف ليرىها أن بها علفاً، وليس فيها شيء، فتأتيه فيأخذها. فإذا كان السؤال عن مثل هذا فما بالك بغيرها.

وقوله: (يفعل به إلى يوم القيامة) إذا كان هذا من حين موته إلى يوم القيامة فكيف حاله يوم القيامة؟ لو لم يكن إلا ذلك لكان أمراً عظيماً. وفيه دليل على أن لأصحاب المعاصي عذابين. عذاباً في قبورهم، وعذاباً آخر يوم القيامة.

وقوله: (والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علّمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار، يُفعل به إلى يوم القيامة) فيه دليل لأهل السنّة الذين يقولون: إن أفعال العبد كسب له، وخلق لربه. يؤخذ ذلك من قوله (علّمه الله القرآن) فأضاف حقيقة التعليم إليه - عز وجل - وإن كان العبد قد تسبّب فيه بالدرس والاجتهاد.

وهنا بحث، وهو: كيف يقع العذاب على ترك القيام بالليل، وهو من جملة المندوبات، والمندوب لا يعذب عليه تاركه؟ فالجواب أن نقول: قد اختلف العلماء في وجوب قيام الليل. فمنهم من قال بوجوبه. والذي قال بوجوبه قال: هو قدر فُواق ناقة، أي قدر ما تحلب الناقة. فعلى هذا القول فالحديث له فيه دليل، فلا بحث على هذا الوجه. ومنهم من قال: إنه مندوب. وهم الجمهور. وعلى هذا يقع البحث. والجواب عنه من وجهين:

(أحدهما) لما كان يُعذب على غير الكبائر اتبعتها الصغائر لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾<sup>(١)</sup> فدل على أنه إن لم يجتنب الكبائر يعذب على الجميع، وليس ترك مندوب متفق عليه كمندوب مختلف في فرضيته أو ندييته. فبهذا نلحقه بالصغائر، وإن كان عند الأكثر مندوباً من أجل خلاف بعض العلماء في وجوبه، كما تقدم.

و (الوجه الآخر) هو أنه قد جاء: (أن العبد يُنظر يوم القيامة في صلاته فإن أتى بها فحسن، وإن كانت ناقصة قال الله تعالى: انظروا إلى عمل عبدي، إن كان له نوافل أكملوا منها صلاته)<sup>(٢)</sup>. ومثل ذلك في كل الأعمال إذا لم يكملها وله نافلة من جنسها جبرت منها، فضلاً من الله ورحمة. فلما ترك هذا قيام الليل الذي يجبر به ما ضيعه من صلاة نهاره عذب عليه، لكونه لم يفعل ما يجبر فرضه، فتكون تسميته بالعذاب ليس من أجل نفسه، وإنما هو من أجل ما نقصه من فرضه، ولم

(١) سورة النساء، من الآية ٣١.

(٢) أوله: إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة. أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يفعل ما يجبره. فالعذاب في الحقيقة إنما هو ما نقص من فرضه، وقد قال جلّ جلاله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾<sup>(١)</sup> وهذا الوجه هو الأظهر، والله أعلم. ولذلك استحب العلماء كثرة النوافل من جميع أنواع المفروضات، من أجل ما يتوقع من نقص الفرض.

وقد يحتمل أن يكون المراد بقوله (نام عنه بالليل) أنه ترك صلاة الليل، فيكون اللفظ عاماً والمراد به الخصوص، لكن بشرط ألا يكون نومه غلبة، فإنه إذا غلبه النوم كان معذوراً لقوله عليه السلام: (من نام عن صلاة أو نسيها فَلْيَصَلِّهَا إذا ذكرها، فذلك وقت لها)<sup>(٢)</sup>. لكن هذا الشرط لا يسوغ أن يشترط إلا إن كان هذا الحديث الذي نحن بسبيله بعد حديث الرخصة في النوم عن الصلاة<sup>(٣)</sup>، وهو حديث الوادي. وإن كان قبله فهو على العموم كان النوم بغلبة أو غيرها، والانفصال عنه من ثلاثة أوجه - كما ذكرنا - وأظهرها الثاني منها. والله أعلم.

واحتمل وجهاً رابعاً وهو أن يكون كُنِيَ عن تضييع عمل النهار بقوله: (لم يعمل فيه بالنهار) وكُنِيَ عن ترك العمل في الليل بالنوم، لأنه أبلغ في الترك.

وقوله: (والذي رأيته في الثقب فهم الزناة) قد تقدم الكلام عليهم، وبقي فيه بحث وهو: لِمَ كان العذاب لمن تقدم ذكرهم في بعض الجوارح دون بعض، وللزناة في البدن كله؟ فالجواب: لما كان مَنْ تَقَدَّمَ ذكرهم معصيتهم بعضو دون عضو كان العذاب كذلك. ولما كان الزنا يتلذذ به جميع البدن كان العذاب لجميع البدن. ولوجه آخر أيضاً لأنه من أكبر الكبائر لأنه قد جاء: (أنه لا يهتز العرش إلا لنطفة مني حرام أو قطرة دم حرام)<sup>(٤)</sup> وقد يكون لمجموعهما وهو الأظهر. والله أعلم.

وقوله (والذي رأيته في النهر آكل الربا) قد تقدم الكلام عليه أيضاً، لكن بقي هنا بحث، وهو: كون المساق واحداً ومن محتملاته الحقيقة والمجاز، فلم سكت عنهما؟ هل اختصاراً أو ليس؟ فالجواب: إن قلنا: إن الكل تمثيل فالحكم واحد، ويكون سكوته اختصاراً. وإن قلنا: إن الكل وما فُعل بهم حقيقة فالمقدم ذكرهم ما عدا الزناة وأصحاب الربا قد يكون يفعل بهم ما قدّر عليهم من العذاب، وهم في قبورهم، وأن هذين المذكورين يكونان مثلهم، مثل آل فرعون لعظم ما أتوا به.

(١) سورة المزمل، الآية ٦.

(٢) لفظه: من نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصلّيها إذا ذكرها. وفي رواية: لا كفارة لها إلا ذلك. أخرجه الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه.

(٣) انظر سنن النسائي ١/ ٢٩٥ - ٢٩٩ فيها روايات لأحاديث عن إعادة من نام عن الصلاة وكيفية قضاء الفائت منها.

(٤) لم تقف على مصدره.



وقد قال تعالى في آل فرعون ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾<sup>(١)</sup> والقدرة صالحة، فيكون سكوته على هذا الوجه مستدعياً للفكرة والاعتبار.

وقوله (والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم) فيه بحث، وهو: ما هذه الشجرة التي الدور في أعلاها، وإبراهيم عليه السلام في أصلها؟ فالجواب: أن الشجرة هي شجرة الإيمان والإسلام. لقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾<sup>(٢)</sup> وكون إبراهيم عليه السلام في أصلها فلأنه الأب لجميع المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿قَلِيلٌ أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾<sup>(٣)</sup> والأب هو الأصل، فكان ذلك تمثيلاً حسناً جداً.

وقوله (والصبيان حوله فأولاد الناس) احتمل الألف واللام هنا أن تكون للجنس، فيكون المراد أولاد المؤمنين والكافرين؛ لأنه قد جاء أن أولاد الكفار يكونون في الجنة خدماً للمؤمنين؛ لأنهم على فطرة الإسلام، فيكونون بعد في أصل الإسلام، لأنه ﷺ قد قال: (ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)<sup>(٤)</sup>. واحتمل أن تكون الألف واللام للعهد، فيكون المراد أولاد المؤمنين ليس إلا، لأنه قد جاء في أولاد الكفار أنهم من آبائهم.

وأما كونهم في أصل الشجرة والدور من فوقهم، فلأن تلك الدور هي دور الأعمال، أي درجات الأعمال كما يذكر بعد، والصبيان ماتوا وهم دون التكليف، وليس لهم ما يدخلون به تلك المنازل حتى يتفضل الله عز وجل عليهم بما شاء. وفيه دليل على أن أولاد المؤمنين مؤمنون، لكونهم مع آبائهم. وقد اختلف العلماء فيهم، هل هم من المقطوع لهم بالجنة، أو هم في حكم المشيئة؟ على قولين، وسبب اختلافهم اختلاف الأحاديث. فإنه قد جاء عنه ﷺ أنه قال في حقهم: (عصفور من عصافير الجنة)<sup>(٥)</sup>، وجاء عنه ﷺ أنه قال: (الله أعلم بما كانوا عاملين)<sup>(٦)</sup>.

وأما الروضة فهي كناية عن أصل الخلقة، لأنه قد جاء: (أن آدم عليه السلام كانت طينته من

(١) سورة غافر، من الآية ٤٦.

(٢) سورة إبراهيم، من الآية ٢٤ و ٢٥.

(٣) سورة الحج، من الآية ٧٨.

(٤) قطعة من حديث، أخرجه الشيخان وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) سبق تخريجه في الحديث ٢٣.

(٦) سبق تخريجه في الحديث ٢٣.

جميع بقع الأرض طيبها وخبيثها وسهلها ووعرها<sup>(١)</sup>. فالمؤمنون من الأرض الطيبة التي تلك الشجرة فيها وهي شجرة الإيمان، وبها نباتها، فلا ينبت الطيب إلا في الطيب، كما قال تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾<sup>(٢)</sup> والكافر من الأرض الخبيثة. والأرض الخبيثة لا تنبت إلا خبيثاً، مثل الحنظل وما أشبهه كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾<sup>(٣)</sup>.

وقوله: (والدار الأولى التي دخلت الجنة دار عامة المؤمنين) لأجل أنها دار عامة المؤمنين كان فيها الرجال والنساء والشباب والشيخوخ، لأن هذه الأربع صفات احتوت على جميع أنواع المؤمنين. وفيه أيضاً تحقيق لما ذكرنا أن الشجرة هي عبارة عن الإيمان، لأن الإيمان هو الطريق إلى الجنة بلا خلاف.

وقوله: (وأما هذه الدار فدار الشهداء) لأجل أنها دار الشهداء لم يكن فيها إلا شيخوخ وشباب. وهنا بحث، وهو: لِمَ لَمْ يَكُنْ في الدار التي للشهداء إلا نوعان شيخوخ وشباب؟ ولم يكن فيها نساء؟ وقد عَدَّ ﷺ في الشهداء المرأة تموت حاملاً شهيداً، والمرأة تموت بِجُمُعٍ<sup>(٤)</sup> شهيد؟ فالجواب أنه لم يختلف أحد في أن أعلى الشهادة القتل في سبيل الله، وإن كان الشهداء سبعة، كما جاء في الحديث: (المبطون والمحترق والغريق وصاحب الهدم وصاحب ذات الجنب والمرأة تموت حاملاً والشهيد)<sup>(٥)</sup>، وإنما المراد هنا تبين فضل الشهادة في سبيل الله من أجل التحضيض عليه، والله أعلم.

وهنا بحث. وهو: لِمَ أَخَّرَا الإِخْبَارَ له، عليه السلام، بما رأى إلى آخر الرؤيا، ولم يخبراه عند كل قضية بها؟ فالجواب أن تأخيرهما الإخبار إلى آخر الرؤيا فيه من الحكمة التيسير لجمع

(١) أصل الحديث: إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك السهل والحزن والخبيث والطيب وبين ذلك. أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) سورة النور، من الآية ٢٦.

(٣) سورة إبراهيم، من الآية ٢٦.

(٤) بِجُمُعٍ (مثلثة الجيم ساكنة الميم) أي: ماتت وولدها في بطنها. وقيل: إذا ماتت عذراء أيضاً.

(٥) كثيرة هي الأحاديث التي تعدد الشهادة، منها حديث جابر بن عتيك أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبدالله بن ثابت رضي الله عنه فوجده قد غلب عليه... إلى أن يقول: قال النبي ﷺ: الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله: المبطلون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمطعون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بِجُمُعٍ شهيد. رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

الفائدة، لأنه إذا رأى شخص شيئاً وأخبر بمعناه ثم رأى شيئاً آخر وأخبر بمعناه، وتكرر ذلك في أشياء عديدة، فمن الجائز أن ينسى بعض ما قيل له. وإذا أريت له الأشياء ولم يُخبر إلا آخراً بقي الخاطر بجميعها مشغولاً، وإلى ما يلقي إليه متشوّفاً، فيكون ذلك آكد في التحصيل، ولحفظ ما به أُخبر. ولذلك كان، عليه السلام، إذا كان شيء له بال يسأل ثلاث مرات الشخص، أو يناديه ثلاثاً، وحينئذ يعلمه، وما ذاك إلا ليجتمع الخاطر إلى ما يلقي إليه، ونفى الالتفات للغير كما قال، عليه السلام، (يا معاذُ ثلاثاً ومعاذ في كل مرة يقول: لَبَّيْكَ يا رسول الله وسَعْدَيْكَ)<sup>(١)</sup> فلم يخبره بالذي أخبره به إلا بعد الثلاث، لتلك الحكمة المشار إليها.

وفيه أيضاً سؤال ثالث. وهو: لِمَ لَمْ يُعَرِّفَاهُ بأنفسهما أولاً، وتركَا التعريف بأنفسهما إلى آخر؟ فالجواب: لو عَرَّفَاهُ أولاً لوقع الاستئناس بهما والإدلال عليهما حتى يسألهما عما رأى أولاً بأول، ولا يمكنهما إلا الجواب له، عليه وعليهما الصلاة والسلام، لِمَا يلزمهما من الأدب معه والاحترام له، وعند التنكير تبقى النفس مجموعة بما ترى، مشغولة بحالها. وعَرَّفَاهُ آخراً بأنفسهما لِيَعْلَمَ أن ما رأى كان حقاً كله بواسطة المَلَك الذي نزل بالقرآن، لأن هذين لا يدخلهما تأويلٌ، ولا يُشَكُّ فيهما، وإن كانت مرأته، عليه السلام، كلها حقاً، فليس الحق كله في القوة الواقعة في النفوس على حدٍّ سواء. وللقوة في ذلك وبجوه، فمنها بحسب قوة سياسة المبلِّغ إليه، ومنها بحسب معرفتك بحال مبلِّغها إليك.

وفيه دليل على أن الملائكة، عليهم السلام، تتطور، لأن سيّدنا، ﷺ، قد كان يعرف هذين المَلَكَيْنِ، فلما رآهما على صورة لم يرها عليهما لم يعرفهما.

وقوله: (فارفع رأسك. فرفعت رأسي، فإذا فوقني مثل السحاب. قالوا: ذلك منزلك. فقلت: دعاني أدخل منزلي. قالوا: إنه بقي لك عمر لم تستكمل، فلو استكملتُ أتيك منزلك) فيه بحث، وهو أن يقال: أليست هاتان الداران من الجنة، وتراه، عليه السلام، قد دخلهما، وخرج منهما، فَلِمَ مُنِعَ، عليه السلام، من منزله، وهو أيضاً من الجنة، حتى يستكمل عمره؟ فالجواب أنه إنما دخل، عليه السلام، هاتين الدارين، وإن كانتا من الجنة، لأنه ليس له فيهما أهل لنفسه، ولا لأهلها أيضاً تعلق به، كتعلقهم بمن هم له. ودخوله، عليه السلام، الجنة حق، للنص عليه بقولهما (التي دخلت: الجنة) وقد رأى، عليه السلام، ما بين الدارين من التفاوت، وما بينهما من المسافة إلا القدر القليل والتزُّرُّ اليسير بالنسبة لما بين الدارين. ولما رأى، عليه السلام، بعد المسافة بين منزله وبين المنازل التي دخل وعايَنَ حصل له العلم، بعظم المنزلة وكيفيتها، وهناك

(١) أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك عن معاذ بن جبل رضي الله عنهما.

أهله من الحور والولدان، وهم موعودون به، والوعد حق لا خلف فيه. فلو وقع الاجتماع لم تمكن  
الفرقة للوعد الحق. وكذلك جميع القصور والأشجار التي هناك والأنهار منتظرة له، عليه السلام.  
فهذا - والله أعلم - بمقتضى الحكمة أوجب منع الدخول إلا بعد توفية العمر.

وفيه بحث ثانٍ أيضاً: لِمَ أُخِّرَ رؤية منزله، عليه السلام، آخرًا ولم يكن ذلك أولاً؟ فالجواب  
أنه قد جرت الحكمة أن الأشياء لا يتبين قدرها إلا بمعاينة ما هو أقل منها. فأخرا الإخبار له حتى  
عاین ذلك، فكبرت النعمة إذ ذاك وعظمت. وأما كونه عاین منازل المؤمنين وحينئذ عاین منزله فلأن  
الختام إنما يكون بأجل الأشياء، ولذلك قال عز وجل ﴿خَتَمُكَ﴾<sup>(١)</sup> وقد قال بعضهم:  
(وساقي القوم آخرهم شرباً)<sup>(٢)</sup>، وهو، عليه السلام، المخبر لنا، فأخّر الإخبار بخبره الخاص به.  
وفائدة هذا الحديث الإيمان بما فيه من الوعد والوعيد، والعمل على طريق النجاة، فهي  
الفائدة التي من أجلها أخبرنا بما تضمن.

ومن هنا فضل أهل الطريق غيرهم، لأنهم صبروا العلم حالاً، حتى إنه يذكر عن بعض  
التلامذة أنه غاب عن شيخه أياماً كثيرة، فلما أتاه قال له: يا بني، ما حبسك عني؟ قال له:  
يا سيدي، سمعت منك آيتين، فعملت عليهما، لأن أتخذهما حالاً، فجاهدت النفس على ذلك  
حتى من الله به، أو ما في معناه. فقال له الشيخ: وما هما يا بني؟ قال: الأولى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ  
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ<sup>(٣)</sup> والثانية قوله تعالى:  
﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾<sup>(٤)</sup> فجاهدت النفس على  
التزام عمل الخير، ولا تترك منه ذرة، وترك الشر، ولا تقع فيه بذرة. وعلمت أنني من أحد دواب  
الأرض، ورزقي عليه، ويعلمني، وحيث مستقري، فأزلت تعلق القلب من الرزق لوعده الجميل،  
لأنه لا يخلف الميعاد. ولعلمه بي، وأين مستقري، فهو، عز وجل، ييسره لي بحسن لطفه ووفاء  
وعده. فقال له الشيخ: هنيئاً لك يا بني، فلقد فقت العابدين. هذا مقصود الموالى من العبيد،  
ولذلك قال من قال: إذا كان وعدك بالرزق لا يخلف، وطلبك الأمر من غيره لا يعرف، فحسبي  
تصديق وعد لا يخلف، واشتغالي بأمر غيره مني لا يعرف.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) سورة المطففين، من الآية ٢٦.

(٢) لفظه (ساقي القوم آخرهم شرباً) أخرجه الترمذي وابن ماجه عن أبي قتادة رضي الله عنه.

(٣) سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و ٨.

(٤) سورة هود، من الآية ٦.

## حديث لا حسد إلا في اثنتين

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ، ﷺ يَقُولُ: لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَاسْلَطَهُ عَلَى هَلَكَّتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز الحسد في الصفتين المذكورتين، ومنعه مما عدا ذلك. والكلام عليه من وجوه:

أحدها: هل هذا الحسد هنا حقيقة أو مجاز؟ محتمل. والظاهر أنه مجاز. وهو إذا تحقق: غبطة وتنافس. وقد قال جلّ جلاله ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

والدليل على أنه غبطة لا حسد لأن حقيقة الحسد إنما يكون في شيء ينتقل عادة من واحد إلى آخر بوجوه ممكنة جائزة، مثل أن يرى شخص على شخص نعمة، فيريد أن تنتقل تلك النعمة إليه، ويفقدها صاحبها، ولذلك قال جلّ جلاله ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا

(١) عبد الله بن مسعود، أبو عبد الرحمن. صحابي ابن صحابة، سادس ستة في الإسلام، من أكابرهم فضلاً وعقلاً وقرباً من رسول الله ﷺ. شهد الغزوات من بدر إلى اليرموك، أجهز على أبي جهل في بدر، وشهد له النبي بالجنة، وقال فيه: ساقاه (النحيلتان اللتان ضحك منهما الصحابة لما تسلق شجرة) أوزن من جبل أحد عند الله يوم القيامة. كان صاحب نعل رسول الله، كان يلبسه إياها، فإذا جلس عليه السلام جعلها ابن مسعود في ذراعه. كثير الدخول على رسول الله وكان يقال له: صاحب السواك والنعل. روي له ٨٤٨ حديثاً اتفق الشيخان على ٦٤ منها. ويعد ابن مسعود مرجع الإمام أبي حنيفة وأصل مذهبه في الحديث. وفيه قال ﷺ: (خذوا القرآن من أربعة من ابن مسعود وأبي بن كعب ومُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وسالم مولى أبي حذيفة). ويُقَسَمُ ابن مسعود أنه يعرف كل آية أين نزلت، وفيه نزلت، ولو يعلم من هو أعلم منه لركب إليه. وكان في مرضه يشكو ذنوبه لعثمان. وأوصى بناته بقراءة سورة الواقعة أمناً من الفقر. وهو أحد العبادلة الفقهاء ت ٣٢ هـ / ٦٥٣ في المدينة المنورة وصلى عليه عثمان رضي الله عنه.

(٢) سورة المطففين، من الآية ٢٦.

أَكْسَبَنَ وَسَعَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ<sup>(١)</sup> معناه: لا يطلب أحد من أحد مما أنعم الله عليه، ويسأل الله الذي أنعم على أخيه أن ينعم عليه بفضله، فإن كل نعمة من الله على عباده إنما هي من فضله ومنه، لا بوجوب ولا استحقاق.

ولذلك قال، ﷺ: (إذا حسدت فلا تبغ)<sup>(٢)</sup> لأن الحسد هو ما قدمنا ذكره من انتقال النعمة التي على شخص إلى غيره، وقد يكون انتقالها بزيادة خير للآخر. مثال ذلك: أن يرى شخص ثوباً على شخص، فيتمنى أن يعطيه إياه، ويطلبه له، فيفتح الله على صاحب الثوب بما هو خير منه، فيتصدق به على الذي حسده فيه، أو يبيعه منه، فقد حصل للحاسد مقصوده، وزادت النعمة على المحسود.

والبغي هو أن يريد أن تنتقل النعمة من صاحبها إلى غيره بضرر يلحق صاحب النعمة. مثال ذلك أن يرى أحد بعض متاع الدنيا عند شخص، فيتمنى أن يكون ذلك المتاع عنده، وصاحبه ميتاً أو مقتولاً، أو منفياً أو ما أشبه ذلك من وجوه الضرر. فهذا معنى قوله ﷺ: (إذا حسدت فلا تبغ) أي إن وقع منك حسد فلا يكون بغياً، أي بضرر لغيرك فالأولى ألا تحسد أحداً. فإن أعجبك شيء من الأشياء، فاسأل الله أن يعطيك من فضله، كما أعطى ذلك الشخص. فإن لم تقدر على ذلك وأبت نفسك إلا ذلك الشيء بعينه، فاسأله بلا ضرر يلحق لصاحبه، فإن طلبته بضرر فذلك هو البغي، وهو من أعظم الذنوب.

وقد رأيت في بعض التواريخ أن شخصاً فتح الله عليه فتحاً عظيماً من الدنيا، وكان بعض المساكين يمشي في الأزقة والأسواق، وما كان دعاؤه إلا أن يقول: اللهم افتح عليّ كما فتحت على فلان، ويذكر ذلك الشخص المنعم عليه. فقال له: يا هذا ما لك وما لي؟ أما وجدت أن تسأل الله إلا مثل ما أعطاني؟ ألا تكف عني؟ كلامك يزيدني شهرة، وربما قد يلقاني منه أذى. فأبى المسكين أن ينتقل عن ذلك القول. وقال له: ما شئتُك، ولا سببتُك، وأنا أدعو بما يظهر لي. فلما قال له ذلك، قال له: كم يكفك في يومك على ما تشتهي من النفقة؟ فسَمَى له عدداً، فالتزم له إعطاء ذلك العدد كلَّ يوم، ويقعد في داره ولا يذكره ولا يسأل أحداً، فبقي يُجري عليه ذلك المعروف حتى توفي.

وهذه الحكمة المرادة في الحديث لم يُجرِ الله، عز وجل، عادته أنه يأخذها من واحد ويعطيها آخر مثل حطام الدنيا، وكذلك المال أيضاً لأنه إذا أنفق لا يرجع إلى أحد، لأنه قد حصل في الدار

(١) سورة النساء، من الآية ٣٢.

(٢) لفظه: إذا حسدت فلا تبغوا، وإذا ظننتم فلا تحققوا، وإذا تطيرتم فامضوا، وعلى الله فتوكلوا. أخرجه ابن عدي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الآخرة؛ لأنه ما حسده في المال نفسه، وإنما حسده في كونه أنفقه في حقه. وإنفاقه في حقه قد أسقط عنه ما عليه من الحق، وثبت في ديوان حسناته. ومثل ذلك مثل من يرى شخصاً قد حج كذا وكذا حجة، وجاهد كذا وكذا مرة، فحسده على ذلك، فحقيقة الحسد في مثل هذا إنما هو غبطة، لأنه في الحقيقة تمنى أن يفعل خيراً مثله. وكلام العرب فيه المجاز كثير، وهو من فصيحته.

وهنا بحث وهو: ما المراد بالحكمة هنا؟ الظاهر أنها الفهم في كتاب الله عز وجل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾<sup>(١)</sup> قال العلماء: الحكمة هي الفهم في كتاب الله. والدليل على ذلك من الحديث قوله (يقضي بها) أي يحكم بها ولا يحكم أحد بشيء بعد الإسلام ويكون مأجوراً فيه إلا بكتاب الله، عز وجل، وسنة رسول الله، ﷺ. والفهم في كتاب الله كالفهم في سنة رسول الله، ﷺ، لأنهما من الحكمة، والحكم بهما مخرج واحد، لأنهما الثقلان اللذان قال ﷺ، فيهما: (لن تضلوا ما تمسكتما بهما)<sup>(٢)</sup>.

وتعليمهما للغير من الكمال، لأنه إذا كان يفهم عن الله ويعمل به ويعلمه فهو أعلى المقامات؛ لأن هؤلاء هم ورثة الأنبياء، عليهم السلام. وقد قال، عليه السلام: (إذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة جارية، وعلم ينتفع به بعد موته)<sup>(٣)</sup>، وأعلاها بث العلم. والعلم الذي فيه هذا الأجر العظيم هو علم الكتاب والسنة، أو ما استنبط منهما، وقد جاء أنه من صلى الفريضة وقعد يعلم الخير نودي في ملكوت السموات عظيماً.

وهنا بحث وهو: هل الفهم في الكتاب معناه فهم الأمر والنهي من التحليل والتحريم ليس إلا؟ فإن كان هذا فقد حصل لمن تقدم، ولم يبق للمتأخر شيء منه، لأن الأصول قد تقعدت، والأحكام قد ثبتت. أو أن المقصود ذلك وما فيه من الحكم وفوائده أمثاله وفهمها؟ فإن كان هذا فهو لا ينقضي إلى يوم القيامة، ويأخذ منه المتقدم والمتأخر، كل بحسب ما قسم له. وإلى ذلك أشار بقوله ﷺ فيه: (لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء)<sup>(٤)</sup>.

. مثال ذلك قصة موسى، عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٦٩.

(٢) أول الحديث: تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي الخ. . أخرجه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أصله: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث. . الخ. . أخرجه البخاري في الأدب المفرد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) جزء من حديث طويل أوله: إلا أنها ستكون فتنة. أخرجه الإمام أحمد من حديث سيدنا علي رضي الله عنه.

فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطَّوْرِ الْعَظِيمِ ﴿١﴾ ينبغي أن نعلم ما الفائدة بالإخبار بهذه القصة لنا، وما لنا فيها من التأسى بمقتضى الحكمة؟ ومن تقدم من العلماء لم يتعرضوا لهذا المعنى، فيما أعلم، وهو مما نحن مخاطبون به، لأنه لم يقصَّ علينا القصص عبثاً، لأن الله، عزَّ وجلَّ، يقول: ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢).

فالفائدة في ذلك - والله أعلم - أنه لما لم يخرج موسى، عليه السلام، ببني إسرائيل إلا بعد ما أمره الله تعالى بذلك، ثم قام البحر أمامهم، ورأوا الجمع وراءهم، وقد وقع العينُ بالعين، أيقنوا بالعادة الجارية أنهم مُدْرَكُونَ، فسألوا موسى، عليه السلام، لعله يكون عنده أمرٌ من الله تعالى يفعلُه عند وقوع العين بالعين؛ لأن قولهم ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ - وهو، عليه السلام، قد أبصر ما أبصروا من الجمع والبحر - ما الفائدة فيه إلا استخراج ما عنده في ذلك، فلم يكن عنده شيء مستعد للعدو إلا أنه يعلم أن الذي أمره ووفقه لامثال أمره هو معه، ولا يُسْلِمُهُ.

فلم ينظر في ذلك إلى مقتضى العوائد الجارية، ولا غير ذلك، لأن قدرة الله تعالى لا تنحصر للعادة يفعل، عزَّ وجلَّ، ما شاء. فقال جواباً لهم: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ كأنه عليه السلام يقول بمضمّن قوة كلامه: يا قوم ليس لي شيء أفضلُكم به إلا قوة إيمان بالله، ويقينٌ به، وصدقٌ معه، فهو يهديني لما فيه نجاتي ونجاتكم. فما فرغ من كلامه إلا ونزل عليه قوله تعالى ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فجاءه الجواب من الله بالفاء التي تعطي التعقيب والتسبيب. لما أخبرهم بحاله مع ربه في الحال أنه الهداية كما تليق بالعظيم الجليل إلى الضعيف إذا وثق به، فكان من أمرهم وأمرِ عدوهم ما قص، عزَّ وجلَّ، بعده.

كذلك أنت يا من قُصَّت عليه هذه القصة. إذا كنت ممثلاً لأمر ربك كما أمرك، ولم تعلق قلبك بسواه، يمدك بالنصر والظفر في كل موضع تحتاج إليه، ولا تقف في ذلك مع عادة جارية كما فعل أصحاب موسى، عليه السلام. فكن في إيمانك مُوسَوِيَّ العقل، يُغْرِقُ فرعونَ هواك لطفُ مولاك في بحر التلف، وكذلك كلُّ من أرادك بسوء. قال عزَّ وجلَّ في محكم التنزيل ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) وإنما ذكرتُ هذه القصة تصديقاً لهذا الوعد الحق وهو قوله تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن القصص إذا ذكرت بعد الوعد كانت تصديقاً له وتأكيذاً.

(١) سورة الشعراء، الآيات ٦١ - ٦٣.

(٢) سورة الأعراف، من الآية ١٧٦.

(٣) سورة الروم، من الآية ٤٧.



وقد قال تعالى ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾<sup>(١)</sup> ونصرة العبد لله إنما هي باتباع أمره واجتناب نهيه. وفي هذه القصة إشارة لطيفة، وهي أنه إذا كان واحد ممن هو ممثل في جمع، وهم له مطيعون، أنهم يُنصرون. يؤخذ ذلك من أنه لم يكن على يقين موسى، عليه السلام، في القوم غيره، فلما كانوا له مطيعين عادت على الكل تلك البركة بذلك النصر العجيب.

وفيهما أيضاً إشارة، وهي أكيدة في هذا المعنى. وهي أنه لما بادر، عليه السلام، للأمر ممثلاً عَلِمَ بحقيقة الإيمان أن الأمر لا يترك من أمره، وامثل أمره. فإنه خُلف، والخُلف في حق الله تعالى مُحال. فإذا رأى المرء نفسه قد قام بأمر ربه كما أمره إيماناً واحتساباً فلا يشك في النصر، ولا يدخله في ذلك امتراء؛ فإن دخله شك فهو ضَعْف في التصديق. وإذا ضَعَف تصديقه - وهو إيمانه - خان نفسه وهو لا يشعر، وهذا من خُدَع العدو. وقد يُبْطِئُ عليه النصر من أجل ذلك، فلا يزال مع الإبطاء يضعف إيمانه حتى يكون سبباً إلى الشقاوة العظمى، وهو من مكاييد العدو.

وقد قال تعالى في كتابه مثبناً على من قام بأمره في هذا المعنى الذي أشرنا إليه، ومخبراً بحالهم الجليل كيف كان ليقع بهم التآسي في ذلك الشأن فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فَأَتَىٰ خِيَابَ الْمَدِينَةِ فَبُذِلَ لَهَا وَلَوِ ارْتَدَّ عَنَّا لَكُنَّا مِنَ الْخَائِبِينَ﴾<sup>(٢)</sup> أي: الله يكفيننا. والآي في هذا المعنى كثيرة.

وفيه دليل على كثرة نصحه، ﷺ، لأمرته وإرشاده لهم لكل ما فيه ربحهم في الدارين. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (لا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ) وسمى هذه التي بين، وما فيها من الخير، وهي الحكمة المذكورة، وسمى المال الذي سلطه صاحبه على هلكته في الحق.

وقد يقول السامعون أو بعضهم: وأي فائدة لنا في الدنيا أو في الآخرة إذا تمنينا أن يكون لنا مثل حال صاحب هذا المال الذي ينفقه في الحق؟ وماذا يعود أيضاً علينا من أن نتمنى حال صاحب الحكمة التي يقضي بها ويعلمها، وليس كل الناس فيه أهلية لذلك؛ فيتمنى أحد شيئاً وهو يعلم أنه لا يمكنه لحاقه، مثل شخص لا يقرأ أو لا يكتب، فيقول: كيف أتمنى أنا حال هذا؟

وهو إذا تمنى حاله بإخلاص مع الله فإن له مثل أجره؛ لأنه قال ﷺ: (إنما الدنيا لأربعة نفر: رجل رزقه الله مالاً وعِلْماً، فهو يتقي في ماله ربه، يَصِلُ به رَحِمَهُ، ويعلم أن الله فيه حقاً، فهذا

(١) سورة محمد، من الآية ٧.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان ١٧٣ و ١٧٤.

بأفضل المنازل. وعبد رزقه الله علماً، ولم يرزقه مالا، فهو صادق النية لله، يقول: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان بنيتي، فأجرهما سواء. وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً فهو يَخِيطُ في ماله بغير علم، لا يَتَّقِي فيه رَبَّهُ، ولا يَصِلُ به رَحِمَهُ، ولا يعلم الله فيه حقاً. فهذا بأخيث المنازل. وعبد لم يرزقه مالا ولا علماً فهو يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيتي. ووزرهما سواء<sup>(١)</sup>. والعلم المذكور هنا المراد به أن يعلم ما في المال من الحق. وهذا القدر من العلم يكاد لا يخفى على أحد إلا اليسير من الناس. فإذا علم أن في المال حقاً ولم يعرف كيفية إخراجه، فيسأل عنه، ويمتثل ما يقال له في ذلك. فعلمه أولاً أن في ماله حقاً لله، وعزمه على توفيته بالخروج، وسؤاله عن ذلك، وإخراجه في وجوهه الواجبة والمندوبة، عالم يطلق عليه.

فأراد، عليه السلام، بجواز الحسد هنا الذي هو المبالغة في التمني لأن يحصل للحاسد هذه المنزلة الرفيعة، وهو لا يعلم. كما حكى أنه كان في بني إسرائيل عابد، ومرت به سَنَةٌ شديدة، فمَرَّ بكثيب من رمل، فتمنى أن يكون له مثله طعاماً فيصدق به على بني إسرائيل، وكان صادقاً مع الله تعالى، فأوحى الله، عز وجل، لنبي ذلك الزمان، عليه الصلاة والسلام، أن قُلْ لفلان: إني قد قبلتُ صدقته. فأراد سيدنا ﷺ أن يسوق لنا كل خير كان لمن تقدم من الأمم بطريقة لطيفة، وتعليم جميل.

كذلك أيضاً الحاسد لصاحب الحكمة إذا كان لا يمكنه أن يصل إليها يحصل له أجر النية على العزم على ذلك، لأنه قال ﷺ: (نية المؤمن خير من عمله)<sup>(٢)</sup>. وقد حكى عن بعض أهل الدين والفضل أنه دخل على أخ له مريض يعوده، فقال له المريض: إني بنا حَجًّا. إني بنا جهاداً. إني بنا رِباطاً. فقال له: يا أخي، وأنت في هذا الحال؟ فقال: إن عشنا وفئنا، وإن مِتْنَا كان لنا أجر النية إذا كانت صادقة. فهؤلاء فهموا عن الله وعن رسوله، صلى الله عليه وسلم.

ثم مع ذلك يحصل له شيان عظيمان: أحدهما الندم على تضييع العمر، وقد قال ﷺ: (الندم توبة)<sup>(٣)</sup>. والثاني: حب أهل الخير وإيثارهم على غيرهم، وقد قال ﷺ: (المرء مع من أحب)<sup>(٤)</sup>. وقد يزيده مع ذلك التأسي بهم في بعض الأشياء التي يسمعها منهم، ويكون بينه وبينهم مناسبة ما.

- 
- (١) مروي بالمعنى. مَثَلُ هذه الأمة كَمَثَلِ أربعة نفر الخ. أخرجه الإمام أحمد وهناد وابن ماجه والطبراني والبيهقي عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه.
  - (٢) أخرجه البيهقي في الشعب عن أنس رضي الله عنه.
  - (٣) جزء من حديث أخرجه الطبراني وأبو نعيم عن أبي سعيد الأنصاري رضي الله عنه.
  - (٤) أخرجه الإمام أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي عن أنس والشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنهم.

والتشبه بالكرام فلاح . وقد يكون صادقاً مع الله ، فيفتح له في ذلك بطريق خرق العادة كما ذكر عن (يوقنا) في فتوح الشام مع أنه كان لا يفقه من العربية شيئاً . وما ذكرنا يوقنا إلا من أجل بيان خرق العادة في كسب العلم ليس إلا . فلما أخذ المسلمون حصنه وأسروه ، أصبح وهو يتكلم بالعربية ، وهو يحفظ سُوراً من القرآن ، وأسلم . فسأله حاكم المسلمين عن حاله ، من أين أتاك هذا الأمر؟ فأخبره أنه رأى سَيِّدَنَا ﷺ في النوم ، وأنه هو الذي علّمه ذلك . وانتفع المسلمون بإسلامه كثيراً ، أو يعطيه كما أعطى صاحب المال بحسن نيته ، فإن المولى كريم مَنَّان ، فبان ما قلنا من الدلالة على نصحه ﷺ لأمته ، وحسن إرشاده لهم من هذا الحديث بما أبديناه .

ويترتب على هذا من الفقه وجوه : منها الجدل في فهم الحديث والكتاب لما فيهما من الخير ، وأنه ينبغي لكل من له ولاية على رعية ، ولو على نفسه الذي لا بد لكل شخص منها ، أن ينظر كيف يجلب لهم الخير بحسن إرشاد منه اقتداء بهذا السيد صلى الله عليه وسلم .

وفيه إشارة إلى أن العلم لا يكمل الانتفاع به إلا مع العمل به . يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام : (ويقضي بها) .

وفيه دليل لأهل الصوفة لأنهم يسأل بعضهم بعضاً : أين مقامك؟ وما حالك مع ربك؟ وما ذاك منهم إلا لأن يقع التأسي بنبئهم عليه السلام في ذلك الترقى ، ولغبطة بعضهم لبعض . ولذلك قال : إذا كانت نفسي لك ، وكنت لي ، فأنا صاحب الدارين ، وهما لي .  
وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .

## حديث فضل الصدقة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ. فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقُ عَلَى سَارِقٍ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ: لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ. فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقُ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ: لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيِّ. فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقُ عَلَى غَنِيٍّ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ؛ عَلَى سَارِقٍ، وَعَلَى زَانِيَةٍ، وَعَلَى غَنِيٍّ. فَأُنِّي فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرَقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَعْتَبِرَ، فَيَنْفَقَ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن دوام حسن المعاملة مع الله يوجب رفع المنزلة، والكلام عليه من وجوه:

منها الدليل على صدقة السر أنها أفضل الصدقات، فيما تقدم من الشرائع، كما هي في شريعتنا. يؤخذ ذلك من قوله (فخرج بصدقته فوضعها) فأصبح الناس يتحدثون بالصدقة، ولا يعرف لها صاحب.

وفيه دليل على جواز مفاوضة المرء مع نفسه فيما يفعله من الخير. يؤخذ ذلك من قوله (لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ) ولم يذكر مع مَنْ، فدل أن ذلك كان مع النفس. وفيه من الفائدة تحقيق النية.

وفيه دليل على أن تحقيق العمل لله وتخليصه من الشوائب أنجح الوسائل. يؤخذ ذلك مما مُنَّ عليه من البشارة بَلْعَلْ لَعَلْ لَعَلْ بعد بذل جهده في معرفته، ورضاه بما جرى له فيه، وعلى أن التخير للصدقة مطلوب، فيمن تقدم كما هو في شريعتنا، لأنه ﷺ قال: (تخيروا لصدقاتكم). يؤخذ ذلك من إعادة الصدقة لما سمع أنها في غير مستوجب لها. ولا تخلو الصدقة أن تكون فَرَضاً، فاستثنافها

واجب؛ لأنه إذا أعطى شخص صدقته مجتهداً، ثم ظهر له بعده أنها في غير مستحقّها وجب عليه بدلّها، وإن كانت تطوعاً فإعادتها مستحبة إلا أن يكون نذرهما للمساكين، فعليه واجب إعادتها حتى يفي بنذره.

وبقي البحث في هذه الصدقة، هل كانت على الوجوب أو على الندب؟ فالظاهر من الحديث أنها كانت على الندب، لكونه بعد الثلاث - وهو في كل واحدة لم يصب من فيه لها أهلية - تعزى بالذي قيل له، ولم يُعِد الصدقة.

وفيه دليل على أن الحكم للظاهر حتى يتبين ضده، وأن العمل على ذلك في كل الملل. يؤخذ ذلك من كونه بالليل، ورأى على هؤلاء ظاهر المسكنة، فعمل على ما ظهر له من حالهم، وأعطاهم الصدقة. فلما تبين له غير الذي ظن استأنف العمل.

وفيه تنبيه على أن الذي يخرج الشيء لله صادقاً، ويكون طيباً، أن الله لا يضيع له ذلك، وأنه يوقع معروفه في خير مما قدره هو؛ كما قيل له آخر الحديث: لعلّ لعلّ لعلّ. (ولعل) في كل موضع مما قيل له ليس على بابها، بل هي واجبة على المشهور من الأقاويل، لأن هذه أخبار من الله، واختبار له من الله، سبحانه، بحسن نيته، ولا يقع بها للفاعل تسلية إلا أن تكون على الوجوب.

ومثل ذلك ذكر عن بعض الناس أنه خطر له أن يتصدق بمائة دينار لله تطوعاً، فجاء لبعض أهل الطريق، فقال له: يا سيدي، دلني على من أعطيه هذه الصدقة. فقال له: اخرج غُدوة النهار على باب المدينة، فأول رجل تلقاه فأعطها إياه. ففعل الرجل، فلما أن خرج كما أمره به، فأول رجل لقي: بعض الذين كانوا يوصفون بالدنيا، وعليه أثرها. فقال في نفسه: وكيف أعطي صدقة لغني؟ ثم قال: الشيخ أعلم مني. فدفع له المال.

فلما دفعه قامت النفس معه. فقال: والله لا أتبعته حتى أرى ما يفعل. فاتبعه من البعد حتى رآه قد دخل خربة. فلما دخل رمى فيها من تحته بشيء. فنظر ذلك الشيء الذي رماه فإذا هي دجاجة جيفة، ثم اتبعه حتى دخل داره، فاستمع من خلف الباب فسمعه يقول لعياله: افرحوا، فقد فتح الله لكم. وأخبرهم الخبر، وسمع فرحهم، ثم خرج إلى السوق، واشترى لهم طعاماً، ورجع ومعه الطعام، حتى سمع فرحهم بالطعام، فتبين له فاقتهم.

فلم يقنعه ذلك حتى خرج الرجل فأقسم عليه وسأله حاله. فقال له: إني كان لي ثلاثة أيام ما منا من أكل طعاماً، وما عندنا شيء نبيعه إلا هذه الثوبيات التي نستر بها حالنا عن الناس. فخرجت لعلي أجد شيئاً أتسبب لهم فيه، فلقيت تلك الدجاجة التي رأيتني رميتها، فقلت: الحمد لله، هذه نتبلغ بها اليوم، وَلَعَدَ فَرَجٌ. فأنا راجع بها وأنت قد دفعت لي ذلك المعروف، فحرمت الميتة علينا،

فرميتها . فسّر الشخص بذلك ، وعاد إلى الشيخ وأخبره . فقال : يا بني هذه سنة الله فيمن صدّقه . هو عز وجل يُهتَىءُ خَيْرَ الأمور وأحسنها .

وفيه دليل على بركة التسليم والرضا . يؤخذ ذلك من كونه في كل مرة خاب سعيه - على جري العادة - ولم يضجر ، ورضي وسلّم ، وأعاد المعاملة . فأعقبه ذلك تلك البشارة .

وفيه دليل على أن غلبة الشح في الغالب من الأغنياء . يؤخذ ذلك من كون أحد الآخذين غنياً ، وأخذ تلك الصدقة وهو غير أهل لها ، فلولا زيادة الحرص فيهم ما اجتمع المال لهم ، في الأغلب منهم .

وفيه دليل لأهل الصوفة الذين يقولون : لا تقطع الخدمة ، وإن ظهر لك عدم القبول أو تَحَقَّقَتْهُ ، فليس للعبد بدّ من خدمة مولاه ، فبدوام الخدمة يُرجى القبول . ولذلك يذكر عن بعض بني إسرائيل أنه كان فيهم عابد ، عبد الله سنين ، فأوحى الله إلى نبيّ ذلك الزمان : قل لعبي فلان : يتعبد ما شاء ، هو من أهل النار . فتوجه إليه وأخبره . فقال : مرحباً بقضاء ربي ، ثم رجع إلى منزله وزاد في تعبده أضعاف ما كان قبل ذلك . وقال : يا رب كنت أعبدك وأنا عند نفسي أن ليس فيّ أهلية لشيء ، فكيف الآن وأنت قد مَنَنْت عليّ وجعلتني أهلاً لنارك؟ وأقام في التعبد ، وازداد خيراً . فأوحى الله لذلك النبي أن قل له : يفعل ما شاء ، هو من أهل الجنة ، لازدراؤه بنفسه . وقال بعضهم : لن أردتم مني السلو عنكم فليس لي منكم بدّ ، وإن أبعدتم .

وهنا بحث ، وهو : لِمَ كَثُرَ في الآخرة الحمد على الثلاثة ، والحمد منه على كل واحدة قد وقع ؟ فهو قد حمد على النازلة الأولى والثانية ؟ فالجواب : تلك مبالغة في الرضا والتسليم . فقوة كلامه تخبر كأنه يقول : قد فعلت في الأولى معي كذا وكذا وحمدتُ ورضيتُ بحكمك ثم في الثانية كذلك ، وإنني لا أريد مع مخالفتك ما اختاره أنا إلا الرضا والحمد والتسليم ، لا أتغير عن ذلك مع تكرار حكمك بما شئت ، فمَنك الحكم ومني الرضا والتسليم . فجاء من أخبره بذلك الخبر .

وبقي البحث من المخبر له ؟ وفي أي العالم ؟ فالظاهر - والله أعلم - أنه في عالم الحس . فلعله مَلَكٌ من الملائكة ، لأنه كثيراً ما جاء أن الملائكة كانت تكلم بني إسرائيل في بعض النوازل ، وفي الأخبار من ذلك كثير ، أو من أرسل إليه من الصالحين بما قيل له في النوم أو اليقظة أن يخبره بذلك ، أو بعض الأنبياء في وقته ، لأن قوله (فأتي) دليل على أنه مرسل إليه من قبل الله .

وفيما قيل له في حق الزانية لعلها أن تتوب - على الوجه الذي ذكرناه أولاً - فإن توبتها على يديه خير له من الصدقة ، لقوله ﷺ : (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النَّعَم)<sup>(١)</sup> ،

(١) أخرجه الإمام أحمد عن معاذ رضي الله عنه بلفظ مختلف .

لأن بعض الزانيات قد لا يحملها على ذلك الفعل إلا قلة ذات اليد والحاجة وعدم الصبر على ذلك .  
فمثل هذه إذا وجدت شيئاً يقوم بها كَفَّتْ ، بخلاف التي تفعل ذلك لغلبة الشهوة في ذلك الشأن .  
وكذلك الجواب على السارق ، والخير فيه أعظم لأنه يكف ضرره عن المسلمين . وأما الغني  
فالبحت فيه مثل ذلك ، غير أنه يكون أيضاً خيره متعدياً . والخير المتعدي أفضل .

وفيه دليل على أن جميع متاع الدنيا هبة من الله لعباده بغير حق . يؤخذ ذلك مما قيل له (فينفق  
مما أعطاه الله) فجعل ذلك عطية خالصة . وهو مذهب أهل السنة ، وهو الحق .

وفيه دليل على فضل هذا المتصدق . يؤخذ ذلك من أنه جمع في أمره بين الحقيقة والشرعية .  
فأما الحقيقة فإنه لما تصدق - كما تقدم - ولم يوافق القدر اختياره ، حَمِدَ وَسَلَّم . فهذه الحقيقة . سَلَّمَ  
الأمرَ لصاحبه . وأما آداب الشريعة فكونه أعاد فعله للصدقة ثانية ، فعل ذلك ثلاثة ، كل مرة يجمع  
بين الحقيقة والشرعية . فهذه أعلى الأحوال ، على ما تقدم في غير ما موضع . مَنْ الله علينا بها بلا  
محنة بمنه وكرمه .

وصلَّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .

الكتب النادرة التي توضع في كل مرة

## حديث صدقة المرأة من مال زوجها

عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله، ﷺ: إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها، غير مفسدة، كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجره بما كسب، وللخازن مثل ذلك، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئاً.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما): أن المرأة إذا أنفقت من طعام بيتها - غير مفسدة - كان لها أجر نفقتها، ولزوجها أجر الكسب. و (الثاني) أن الخازن الذي يفعل مثلها له من الأجر مثلها. والكلام عليه من وجوه:

منها: ما معنى تخصيص النفقة بالطعام ليس إلا؟ وما مقدارها حتى لا تكون مفسدة؟ وهل لذلك حدّ معلوم؟ أو هو فقه حالي؟ وهل الخازن والمرأة يحتاجان للإذن في النفقة أم لا؟ وما معنى النفقة هنا؟ هل على العموم، أو هل على الخصوص؟

أما قولنا: هل النفقة على العموم، فليس هي إلا على الخصوص، وهي بمعنى الصدقة. يؤخذ ذلك من قوله (لها أجرها) لأن الأجر لا يكون إلا في وجوه المعروف.

وأما هل يحتاجون للإذن؟ فلا بد لهما من ذلك، لأن مال الغير لا يجوز للآخر أن يعطيه إلا بإذن صاحبه، لقوله، ﷺ: (لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه)<sup>(١)</sup>، إلا أن الإذن قد يكون باللفظ، أو بالعادة. مثال الذي بالعادة: مثل الكسرة من الخبز توهب إلى السائل بالباب، أو ما أشبه ذلك، ومثل الشيء اليسير من الملح والماء والنار والخميرة للخبز. وقد قال بعض الفقهاء:

---

(١) أخرجه أبو داود والبيهقي وابن قانع وأبو نعيم عن أبي حرة الرقاشي عن عمه حنيفة الرقاشي وأخرجه عبد الرزاق عن الحسن مرسلاً.



إن ما ذكر مع قِدر البيت ومتاعه إنه مما لا يحل منعه . فإذا كان على هذا القول : (لا يحل منعه) فلا يحتاج إلى إذن في ذلك ، وإن كان باقياً على أصله مثل سائر الأموال .

والظاهر : الندب ، وعليه الجمهور ، وأن المرء يندب إلى ذلك ولا سيما مع نص الأحاديث التي وردت في ذلك ؛ لأنه قال ﷺ في الذي يعطي الملح ما معناه : (له من الأجر مثل من تصدق بمقدار الطعام الذي وضع الملح فيه)<sup>(١)</sup> . والخميرة مثل ذلك ، والنار مثل من تصدق بقدر الطعام الذي طبخ عليها ، والقدر بمثل الطعام الذي طبخ فيها . ومثل ذلك جاءت أحاديث كثيرة تبين قدر عظيم الأجر مع يسارة الشيء المعطى ، ولم يقل : إن من لم يفعله فعليه من الإثم كذا وكذا . وهذه طريقة المندوب .

وأما حجة من قال : إنه واجب إعطاؤه ، ومنعه لا يحل ، فاحتجوا بقوله تعالى ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فقالوا : الماعون هو متاع البيت نحو الأشياء التي سميناه قبل ، وكالحبل وما يشبه ذلك . وفي الحديث : (لما أن سأل السائل : ما الشيء الذي لا يحل منعه يا رسول الله؟ فذكر فيه مثل الماء والملح والقدر والخميرة وما يشبه ذلك)<sup>(٣)</sup> .

وأما الذي عليه مذهب مالك ، رحمه الله ، والجمهور في معنى قوله تعالى ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ فإنها الزكاة المفروضة . والأحاديث - إن صحت - احتملت التأويل ، وما يحتمل التأويل لا يُعارض به النص .

فأما التأويل فيحتمل أن يريد بقوله : (ما لا يحل منعه) أن يكون واجباً تركه من طريق الشرع . واحتمل وجوباً من طريق المروءة وحسن المعروف بين الناس لقوله ﷺ (إنما بُعِثْتُ لأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)<sup>(٤)</sup> ومنع ما ذكرنا ليس من مكارم الأخلاق .

وأما الأصل الذي هو القاعدة الكلية قوله<sup>(٥)</sup> عليه السلام : (لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه) ، والمال ينطلق على الكثير واليسير . لكن الإذن في إنفاق مثل هذا الذي ذكرناه قد رجع بالعرف مما سمحت به النفوس من المعروف بين الناس ، حتى إن طالبه لا يعاب ذلك عليه في كريم الأخلاق ، وأن الشح به ، يتعلق به الذم الكثير حتى إن حابسه لوجه ما لا يقدر أن يَخْبِسَهُ إلا أن

(١) لم نقف على مصدره .

(٢) سورة الماعون ، من الآية ٧ .

(٣) لم نقف على مصدره .

(٤) أخرجه الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) يريد : فقوله .

يبين عذره في يحييه، أو ينكره مرة واحدة بأنه ليس عنده، مخافة على عرضه، وقد قال ﷺ: (ما وقى المرء به عرضه كُتِبَ له صدقة)<sup>(١)</sup>.

فصاحبة الدار - على ما مرت من العادة على الاختلاف الذي ذكرناه - لا يمكن لها<sup>(٢)</sup> منع ما ذكرناه إلا أن ينص صاحب البيت عليه في ذلك الوقت، إن أعطته تكون متعدية على أحد الوجوه. وأما على الوجه الآخر فلا يحل لها منعه، وإن أمرها بذلك، لأنها تكون تعينه على ترك واجب. وهذا ممنوع شرعاً. وما زاد على ما ذكرناه أيضاً لا يجوز لها التصرف فيه إلا بإذنه، قولاً واحداً.

واحتمل له وجهاً آخر: أن يكون تعاطي ذلك بينهم من قبل السلف والهبة على العوض، وما في ذلك من الجهالة مغتفر؛ لكثرة حاجة الناس إلى ذلك، وندارة وقوعه؛ فإن الغني والفقير محتاجان إلى ذلك، ولو يوماً ما، غير أنه قد يكون بعض الناس في ذلك أحوج من بعض. وهو وجه إذا تأملته ترى فيه وجهاً ما من الاستحسان. وهو كثير ما يوجد ذلك النوع في الشرع مثل المساقاة والقرراض<sup>(٣)</sup> وما أشبه ذلك. تراها مستثناة من قواعد ممنوعة وأبيحت من أجل الحاجة لذلك، وقاس عليها الفقهاء سلف الرغبة من الجار تحريماً بلا ميزان، ولم يجعلوه من باب البياعات، وجعلوه من باب المعروف. ومثله الدرهم الناقص بالوزن كذلك أيضاً إذا كان ذلك في مثل الدرهم الواحد أو الإثنين، لأن ذلك عندهم من قبيل المعروف أيضاً، إلا أن يقترن من أجل الفاعلين قرينة يتبين منها خلاف ذلك، فيرجع الأمر إلى أصله من المنع. وما زاد أيضاً على ذلك المقدار ممنوع.

وهنا بحث، وهو: إذا قلنا إنها إنما أعطت ما هو واجب على صاحب المنزل أو هو مندوب، فيرجع إلى بحثنا، فعلى ماذا يكون أجرها؟ فالجواب أنها خازنة لجميع ذلك، وقد قال ﷺ: (الخازن الذي يعطي ما أمر به، طيبة به نفسه، أحد المتصدقين)<sup>(٤)</sup> لأنه لما طابت نفسه على ذلك، وياسر أخاه المعطى له بالمبادرة بالتعجيل كرامة إدخال السرور عليه، لأنه محتمل أن يبدو للمعطي فيمنع، فيكون بطؤه في إنجاز الهبة سبباً للحرمان، وتعجيله سبباً إلى تحصيل المعروف. فإنه إذا رجع المعطي، والوكيل قد أنفذ أمره، بعيداً أن يأخذ المعروف من يد المعطى له. وأيضاً فمن قبل الأمر، فإنه بسرعة إخراج ما أمر به أعانه على إعطاء معروفه.

ووجه آخر؛ تيسير الخازن أيضاً تزيد به نفس المعطى له انشراحاً ومرحاً، فهو زيادة في

(١) أخرجه الطبراني عن جابر رضي الله عنه بلفظ (ما وقى به المؤمن عرضه فهو له صدقة).

(٢) أي: لا يمكنها.

(٣) المساقاة: شركة بين صاحب زرع وشجر وعامل يسقيها على نسبة متفق عليها.

والقرراض: المضاربة أو شركة مضاربة بين صاحب مال وعامل أو تاجر.

(٤) أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي موسى رضي الله عنه بلفظ آخر.

المعروف . وما هو زيادة في المعروف فهو معروف أيضاً، وزيادة ما قدمنا ذكره، فظهرت فائدة قوله، ﷺ : (أحد المتصدقين).

وعلى هذا المعنى بحث وهو : أن النفس قد طبعت على الشح بما جعل بيدها من متاع الدنيا، وإن كانت تعلم حقيقة أنه ليس لها، فإذا جادت به فلها الأجر لمخالفتها ما طبعت عليه من الشح، وامتنال الأمر . فإن العالم بأسره يعلمون أن ما بأيديهم من متاع الدنيا ملك لمولاهم، وأنه بأيديهم عارئة، وقد أمروا بإنفاق اليسير منه، ووعدوا على ذلك بالأجر العظيم، وبالبركة في الباقي، والعقاب على الترك، ورفع البركة من الباقي . ومع ذلك ما تجد من يجود بالواجب في ذلك إلا القليل .

وكذلك خازن المال بيده، وهو يعلم أنه لغيره، وأنه مذموم على تأخيره لإعطائه ما أمر به من المال وغيره، وأنه مشكور ومثاب على التيسير في إعطائه، ومع ذلك ما تجد من يفعل التيسير في ذلك إلا القليل، لأجل التعلق الطبيعي، ومن أجل ذلك قال، ﷺ : (ما يخرج المرء الصدقة حتى يفك فيها لَحْيَيْنِ سبعين شيطاناً)<sup>(١)</sup> . غير أن الفرق بين الرجلين - أعني الخازن وصاحب المال - أن صاحب المال قد يظن أنه لا ينتزع المال من يده، ويبقى حسابه إلى الآخرة عليه، وأن الخازن قد يقول: إن صاحب المال يعزله، ويأخذ ماله، وإن بقي فإنما المنفعة لربه . ومع ذلك، الطبع يحمل على ما ذكرناه . حكمة حكيم .

وفيه دليل لحسن طريق أهل الصوفة . فإن كل ما كان فيه مخالفة للنفس، ولم يكن ممنوعاً شرعاً، فإن صاحبه في ذلك مأجور . إذا استقرت هذه القاعدة بحسب قواعد الشريعة تجدها - إن شاء الله - غير منكسرة . فأخذ أهل الطريق من أجل ذلك في مخالفتها مرة واحدة، حتى إنه ذكر أن إسلام بعض رهبان النصارى إنما كان سببه ما كان ألزم نفسه من مخالفتها إياها .

وذلك لما رأى منه بعض علماء المسلمين من حسن العبادة ما أعجبه، فسأله النصراني : كيف رأيت؟ يعني : حاله . فقال له : بقي عليك شيء واحد . فقال : وما هو؟ فقال : أن تُسلمَ . فأطرق ساعة، ثم أسلم . فقام أهل الدير من أهل دينه بالعياط . فقال لهم : بم نلت فيكم هذه المنزلة؟ قالوا بأجمعهم : بمجاهدتك نفسك ومخالفتك لها . قال لهم : وهذا هو الذي جعلني أسلمت . فإنه لما ذكر لي الإسلام لم تقبل . فعلمت أنه الحق . وأنه ما نلت ما نلت إلا لمخالفتها، فأسلمت لمخالفتي إياها . وهذا هو الدين الحق، فإنها ما تهرب إلا عن الحق . وحسن إسلامه .

---

(١) لفظ الحديث : ما يخرج رجل شيئاً من الصدقة حتى يفك عنها لحيي سبعين شيطاناً . رواه الإمام أحمد والبخاري والطبراني وابن خزيمة في صحيحه عن بريدة رضي الله عنه (ومعنى : يفك عنها لحيي سبعين شيطاناً) أن إخراج الصدقة يؤلم سبعين شيطاناً رجياً حرصوا على عدم أدائها .

والبحث مع المرأة كالبحت مع الخازن سواء . ومن أجل ذلك عطف، ﷺ، أحدهما على الآخر . ومما يقوي مذهب مالك والجمهور في هذه المسألة قوله عليه السلام : (غير مفسدة) لأنه لو كان واجباً لكان محدوداً إما بالكتاب وإما بالسنة . وهذه حجة مالك ومن تبعه أن ما ليس بمحدود إما بالكتاب وإما بالسنة فهو غير واجب، لأنه لا يعرف المكلف إلى أين يبلغ، ولا بماذا يقع عليه اسم (مُؤَفٍّ) بما أمر به .

وأما قولنا: هل له حد محدود، أو هو فقه حالي؟ الظاهر<sup>(١)</sup> أنه فقه حالي، بدليل أن الناس ليس حالهم سواء، فإذا جاء سائل يطلب ملحاً من دار من قد وسع الله عليه في دنياه، ومن دار ضعيف الحال فليس الأمر في ذلك سواء، لأن الذي يعطيه من وسع الله عليه في مرة واحدة هو الذي يكفي الضعيف في سنة أو شهر، فإن أعطت امرأة الضعيف مثل ما أعطته امرأة الغني أجحفت به وأضرته، وكانت مأثومة فيما فعلت . فإن قلنا بمن يقول بالفرض على الخلاف المتقدم فإنها قد أعطت أكثر مما يجب عليه .

وإن كان على الوجه الآخر - وهو أكثر مما قد طابت به النفس - فهذه قد أعطت ما لم تطب به نفسه، فإن الضعيف إذا أخذ مثلاً ملحاً بثمن درهم، غايته إن طابت نفسه أن يخرج منه حفنة في مرار عدة . وأما أن تعطي نصفه أو أكثر من ذلك فلا تطيب نفسه بذلك . وأما من فتح له في الدنيا إذا أخذ وية<sup>(٢)</sup> من ملح فلا يعز عليه أن يبذل منها الصاع والصاعين، وهو قدر ما ينفق المسكين في سنة أو شهر، وكذلك غيره من الأمور . وعلى ذلك فقس . ولذلك قال عليه السلام (غير مفسدة) لأنها يجب عليها أن تنظر إلى حاله، وما يحتمل، وما لا يشق عليه من ذلك لو أنه رآه، وهذا هو فقه الحال، ولذلك قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا﴾<sup>(٣)</sup> فإذا كان هذا في الواجب فكيف في المندوب؟

وأما قولنا: لم خصت النفقة بالطعام ليس إلا؟ فلو جوه منها: أنه الذي جعل للمرأة التصرف فيه بحسب العادة عندهم، وأن المرأة هي التي تُطلب بتوفية ما يحتاج الأولاد إليه من ترتب مرافقهم في معاشهم، لأن الأب ليس عليه أن يعطيها إلا ما يكفيها وبنيتها وخادماً إن كان لها، وهي المتصرف في ذلك بحسب ما فيه المصلحة للجميع؛ ولذلك (قالت هند أم معاوية للنبي، ﷺ) إن أبا سفيان رجل شحيح . فهل عليّ جناح أن آخذ من ماله سرّاً؟ فقال: خذي ما يكفيك أنت وبنيك

(١) يريد: فالظاهر .

(٢) الوية: مقياس للحجوم بمقدار كيلتين .

(٣) سورة الطلاق، من الآية ٧ .

بالمعروف<sup>(١)</sup>. وغير الطعام هي عليه أمانة، ولا يجوز لها التصرف في شيء منه إلا بالإذن.

ولوجه آخر أيضاً ما جرت العادة بتصرف فيه النساء دون مشورة الرجال إلا في الطعام ليس إلا. ولوجه آخر وهو أن ما ذكرنا من متاع البيت - على جري العادة - فأعلاه الطعام. فإذا كان لها التصرف فيه فمن باب أخرى غيره. ولوجه آخر أيضاً لكثرة دوام الاحتياج إليه مع الساعات، بل مع الأنفاس، بخلاف غيره من الثياب وغير ذلك، فبان ما في قوله عليه السلام (من طعام بيتها) من الفائدة.

وهنا بحث آخر في تخصيص الطعام بالبيت، هل هو ما يكون في البيت من الطعام وإن كان محجوراً عليها التصرف فيه، مثل ما يخزنه الرجل في بيته زائداً على ما يأكله هو وعياله، وما كان خارجاً من البيت، وإن كان مما هو للمرأة وأولادها، إنه ما دام خارجاً من بيتها - وإن كان لها ولأولادها - فليس لها التصرف فيه حتى يكون في بيتها، وحينئذ يكون مباحاً لها التصرف فيه، دون حَجْر عليها، فلا يكون لها التصرف إلا بجمع العلتين، وهو أن يكون لها وإما لأولادها في بيتها، وأنه إذا كانت إحدى العلتين منفردة فلا يحل لها التصرف؟

فالجواب: أما إنه إذا كان بالوصفين، فلا خلاف في ذلك. وأما إذا كان بوصف واحد فلا يخلو أن يكون في بيتها أو خارجاً عن بيتها. فإذا كان خارجاً عن بيتها فلا يخلو أن يكون تحت حكمها وهي المسؤولة عنه، أو غيرها هو المسؤول عنه. فأما إذا كان في بيتها - وهو محجور عنها - فهي تأخذ منه بالمعروف سراً، كما أخبر سيّدنا، ﷺ أم معاوية في متاع زوجها أبي سفيان، كما تقدم ذكره. وكذلك إن كان خارجاً عن بيتها، وهي المسؤولة عنه.

وأما إذا كان خارجاً عن البيت والغير هو المسؤول عنه فلا يجوز ذلك لها لما يلحق الغير من الضرر في ذلك، وقد قال ﷺ: (لا ضررَ ولا ضرارَ)<sup>(٢)</sup>. وفيه مع ذلك تحرز آخر في قوله عليه السلام (من طعام بيتها) تحرزاً من الودائع والرهون لأنها في بيتها وليست من متاع بيتها، وإن كان طعاماً. وكلامه ﷺ جامع الفوائد.

وكذلك الخازن أيضاً كل ما كان في حفظه وخزائنه إذا كان وديعة عند الذي وكله على حفظه أو رهناً عنده فالحكم هو نفس الحكم.

وقوله عليه السلام (ولزوجها أجره بما كسب) يعني: يكون أصل المال له، وإن كان لم يكن ذلك المال مكسوباً ولا موهوباً أو ما يشبه ذلك. لكن لما كان الغالب أنه لا يتحصل المال أو الطعام

(١) أخرجه الإمام أحمد والبخاري والدارمي ومسلم وأبو داود والنسائي عن السيدة عائشة رضي الله عنها بلفظ آخر. (وهو موضوع الحديث ٩٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

إلا بالكسب فجاء الخطاب منه، ﷺ، على ما هو الأصل غالباً. وعلى هذه القاعدة وقع التخاطب بين الناس، وجرت عليها الأحكام. فكأنه يقول لها: وللخازن الأجر من أجل تلك العلل التي عللنا، لأنه ما واحد منهما يملك من المال شيئاً، وكان لمن له المال حقاً الأجر، من كون المال له ثابتاً حقاً.

ولا يطرد ذلك الحكم في المعصية؛ لأنه إذا عصى أحد المذكورين بالمال الذي أوتمن عليه لا يكون على صاحب المال من ذلك الإثم شيء، إذا لم يعرف بفعلهما، لأنه إذا عرف به وأعانه على ما هو عليه كان شريكه في الإثم، وإذا لم يعرفه لم يلزمه منه شيء، فإنه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾<sup>(١)</sup> وبديل ما جاء أنه إذا كان شخص مع أقوام فقام ليخرج عنهم، فسلم عليهم عند خروجه، أنه إن هم بقوا في خير بعده كان شريكهم في ذلك الخير، وإن بقوا في شر لم يلحقه من ذلك الشر شيء.

فهذا وما أشبهه من طريق الفضل إذا كانت الأشياء التي فيها الخير يشرك العبيد في ذلك الخير بأدنى ملابسة أو نسبة ما، ولا ينقص أجر بعضهم من أجر بعض شيئاً، وإن كان شراً لم يتعد صاحبه أو من أعانه عليه، وهو عالم بذلك، قاصد له. فسبحان المتفضل المنان، لا ربَّ سواه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة فاطر، الآية ١٨.

## حديث إتلاف أموال الناس

قَالَ الْبُخَارِيُّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ) قَالَ الْبُخَارِيُّ: إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَعْرُوفًا بِالصَّبْرِ، فَيُؤْثِرُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَوْ كَانَ بِهِ خَصَاصَةٌ، كَفِعَلَ أَبِي بَكْرٍ حِينَ تَصَدَّقَ بِمَالِهِ. وَكَذَلِكَ آثَرُ الْأَنْصَارُ الْمُهَاجِرِينَ. وَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ، عَنْ إِضَاعَةِ الْمَالِ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُضَيِّعَ أَمْوَالَ النَّاسِ بَعْلَةَ الصَّدَقَةِ.

\* \* \*

ظاهر الحديث دعاؤه، ﷺ، على من أخذ أموال الناس يريد إتلافها. والكلام عليه من وجوه. منها: هل هذا على عمومته؟ وعلى ماذا يقع هذا الدعاء؟ هل هو حقيقة أو هو كما جاء عنه، ﷺ (أن دعاءه رحمة). وإن كان اللفظ خلاف ذلك؟ وهل ما يقع<sup>(١)</sup> الحذر إلا بقصد الوجهين: أعني: النية والفعل؟ وإن أقلع وتاب منه، هل التوبة ترفع إجابة الدعوة بعد استجابتها؟ أو لا؟

فالجواب: أما قولنا: هل هو على عمومته؟ فليس هذا على عمومته، لأن من الأخذ ما يسمى سرقة، وقد حدّ فيه القطع. ومنها ما هو خلصة، فقد حدّ فيه الغرم. ومنها ظلم، وفيه ما فيه. ومنها ما هو قمار، وفيه ما فيه. ومنها ربا، وجاء فيه ما هو معلوم. ومنها خيانة، وقد جاء ما فيها. فكل وجه من وجوه الأخذ على خلاف المشروع فقد جاء فيه ما جاء. وما كان رسول الله ﷺ، ليجمع على أحد من أمته عقابين. فإن دعاءه، ﷺ، أكبر العقوبات.

والوجوه المشروعة إذا أخذ بها أحد شيئاً فليس بحرام، فكيف يدعو عليه؟ هذا مستحيل أيضاً. فما بقي إلا وجه واحد، وهو من جملة المشروعات، إلا أن له شروطاً، فكثير من الناس يفعل به غير تلك الشروط فيذهب به كثير من أموال الناس، وهو السلف؛ لأنه إذا احتاج طالب السلف وما ينظر إلى الشروط التي تجب عليه، وحينئذ يأخذها، فإنما قصده زوال ضرورته في الوقت. ففي هذا النوع هو دعاؤه، ﷺ، على من أخذها بغير شروطها.

(١) يريد: أما ما يقع.

قال البخاري : (إلا أن يكون معروفاً بالصبر، فيؤثر على نفسه، ولو كان به خصاصة). إلا أنه استثنى أن يكون كفعل أبي بكر، رضي الله عنه، حين تصدق بماله (وكذلك أثر الأنصار المهاجرين) فنحتاج أن نبين شروط السلف، فقد نص عليها الفقهاء، وقالوا: إنه لا يجوز لأحد أن يأخذ سلفاً ولا ديناً إلا أن تكون له ذمة تفي بدينه على كل حال وإلا يدخل تحت هذه اللعنة، لأنه غرّر بأخيه المسلم، لكونه أخذ ماله، وهو ليس له قدرة على أن يوفيه. فإن المعطي يقول في نفسه: لولا ما يعلم هو من نفسه أن له ما يؤدي منه ما يأخذ مني ما طلبه، لأن أخوة الإسلام تقتضي ألا خِلافة ولا غبن<sup>(١)</sup>، ولا خيانة. أو يبين له حاله، ويقول له: ليس لي ذمة على ما أخذ منك هذا المال، وإنما تسلفه لي، فإن فتح الله عليّ بشيء أعطيتك إياه، وإلا ما لك قبلي لؤم. فإن رضي وأعطاه على ذلك الوجه فما غرّر به، فكأنه قال له: تصدّق عليّ بحيلة ما، فإن فعل فهو صدقة، أو معروف محتمل للردّ أو غيره، فلا يدخل تحت هذا الدعاء. ولهذا المعنى الخفي كان دعاؤه، ﷺ، لأنه فعل في الظاهر فعلاً مشروعاً، وفي الباطن ما أشرنا إليه.

ويترتب عن هذا من الفقه أن كل شيء فيه شروط ظاهرة وباطنة، فلا يجوز لأحد فعله إلا بتمام تلك الشروط، أو يبين عجزه عنها كيلا يغرّر بالغير، وقد قال ﷺ: (مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا)<sup>(٢)</sup>.

وأما الصفة التي أجاز، عليه السلام، معها أخذ المال - وهي ما نبه عليها البخاري، رحمه الله، عقيب الحديث بقوله: (إلا أن يكون معروفاً بالصبر، فيؤثر على نفسه، ولو كان به خصاصة، كفعل أبي بكر، رضي الله عنه، حين تصدق بماله، وكذلك أثر الأنصار المهاجرين، رضوان الله عليهم) - فهي قوة الإيمان التي توجب كثرة السخاء والصبر على الضراء، فإن أبا بكر، رضي الله عنه، أتى بجميع ماله. فقليل له: ما أبقيت لأهلك؟ قال: الله ورسوله.

والأنصار والمهاجرون إذا كانت لهم ضرورة، ويرون غيرهم في ضرورة، ينظرون أولاً في حق أخيهام المسلم، ويحملون أنفسهم على الصبر، كما فعل بعضهم حين أتى إلى النبي، ﷺ، بعض الواردين فقال: (من يضيف الليلة هذا وعلى الله ثوابه؟ فقام بعضهم، فأخذه، وحمله إلى منزله، وقال لعِياله: عندك شيء؟ فقالت له: ما عندي إلا شيء يسير للأولاد. فقال لها: نومي أولادك، فإذا ناموا قدّمي الطعام. فإذا قدّمته فقومي إلى السراج لتُصلِحِيه فاطفئيه، ونمّد أيدينا إلى الصحفة كأننا نأكل، ولا نأكل شيئاً، فلعل الضيف يشبع. أو كلاماً هذا معناه. ففعلت المرأة ما أمرها

(١) الخِلافة: الخديعة. والغَيْن: الغلبة والنقص.

(٢) أخرجه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما. (وللحديث بقية).



به . فلما أتى النبي ﷺ، صبيحة الليلة، تبسّم، عليه السلام، وقال له : شَكَرَ الله البارحةَ صَنِيعَكَ مع ضيفك<sup>(١)</sup>.

ومثله ما ذكر عن عليّ، رضي الله عنه، أنه دخل والأولاد يبيكون من الجوع، فقال : ما شأنهم؟ فأخبرته، رضي الله عنها، بأنه من الجوع، وليس عندهم شيء، فخرج فاقترض ديناراً ليشتري به لهم ما يأكلون . فبينما هو راجع به إذا أحد قرابته . فسأله عن حاله، فأخبر أن عياله في جوع شديد، وأنه ليس عنده شيء . فدفع له الدينار كله، ودخل بيته، وليس عنده شيء، وكان هذا عشية النهار .

ثم خرج يصلي مع النبي ﷺ، فدنا منه في الصلاة، فلما فرغت الصلاة التفت، عليه السلام، إليه وقال له : يا عليّ، هلاّ عشتيني الليلة . فتفكّر في نفسه أنه ما عنده شيء . فقال له : نعم . ثقةً بالله، ثم ببركته، ﷺ، فأتى معه إلى منزل عليّ، فدخل عليّ والنبي ﷺ، معه، ثم قال النبي ﷺ : يا بنيّة، ألاّ تعشيننا؟ فالتفت عليّ فإذا في البيت ثريد مغطى ييخر، فقدم لهم، فقال له : (يا عليّ، هذا بالدينار الذي أعطيته فلانا)<sup>(٢)</sup> وحمد، عليه السلام، الله على ما جعل في أهل بيته ممّا أشبه مريم، عليها السلام، حين قيل لها ﴿أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾<sup>(٣)</sup> وما أشبه هذا عنهم، رضي الله عنهم، كثير . فمن يجود بضرورته على غيره بغير حق له عليه، فكيف بحق إذا كان له عليه .

وبقيت هنا علة أخرى، لأنه لا يأخذ السلف إلا حين يكون مضطراً، كما ذكرنا آنفاً . فإذا كان مضطراً، ومرت به ثلاثة من الأوقات، تعيّن له في مال الغير حق واجب . وهل يلزمه عند يُسره رده أم لا؟ خلاف بين العلماء . فمنهم من يقول : إنه حق قد وجب فليس عليه رده . ومنهم من يقول : وإن كان حقاً قد وجب فلا يسقط أدأؤه إلا باستصحاب الفقر، وقد جاء عن النبي ﷺ : (إن المحتاج له أن يقاتل صاحب المال إذا امتنع من أن يعطيه، فإن قتل صاحب المال فشر قتيل، وإن قتل المضطر فشهيد)<sup>(٤)</sup> أو كما قال . فلما كان هذا الأمر خفياً، ولا يعلمه إلا الله والذي نزلت به الحاجة، أبقيت الأحكام في المنع على ظاهرها . وأشار هنا إلى العلة الموجبة للجواز .

فعلى هذا فالسلف على أربعة : الثلاثة منها جائزة، والرابع ممنوع بمتضمن هذا الحديث . وما قد ذكره العلماء، كما أشرنا إليه أولاً . فالأربعة الأوجه (أحدها) أن يكون له ذمة تفي بدينه على كل حال، فهذا جائز باتفاق . و (الآخر) أن يبين له حاله، وأنه إنما يقترض منه، ويبين له أنه ليس له

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ آخر .

(٢) لم نقف على مصدره .

(٣) سورة آل عمران، من الآية ٣٧ .

(٤) لم نقف على مصدره .

ذمة مقابلة دينه، وأنه في حكم المشيئة، إن فتح الله عليه أداؤه وإلا فلا يطالبه بشيء. فهذا جائز، وإن كان خالف فيه بعض الناس. والظاهر الجواز، وقد قدمنا العلة في جوازه. و (الآخر) أن تجتمع فيه تلك الأوصاف التي في أبي بكر والمهاجرين والأنصار، رضوان الله عليهم، وهي كثرة السخاء والصبر، ولا يقتضى إلا عند الضرورة الشرعية، ويكون اقتراضه بقدر ضرورته. فهذا جائز بمقتضى ما عللناه آنفاً. وقواعد الشرع كلها تدل على هذه الإشارة وتنص عليها.

و (الرابع) وهو أن يأخذ السلف على غير ذمة له، وليست له تلك الضرورة الشرعية، ولا يبين عدمه لصاحب المال. فهو الذي يدخل تحت ما تضمنه الحديث من دعائه، ﷺ لأن الضرورة الشرعية كثير من الناس لا يعرفها.

وما أعني بـ (الناس) هنا إلا بعض الذين ينتسبون إلى العلم، لأنهم قعدوا لأنفسهم قواعد نفسانية، وجعلوها من ضروراتهم اللازمة شرعاً، واستباحوا بها أخذ أموال الناس، وقالوا: نحن مضطرون لا حرج علينا، وتعيّن لنا على الناس حق، فما أخذنا هو بعض حقوقنا. وهو مصادم لما نبّه عليه البخاري، رحمه الله، بقوله (إلا أن يكون معروفاً بالصبر) تحرزاً من أن يقول هو في نفسه حين تأخذه الحاجة (أنا أخذ السلف، وأجاهد النفس، وأصبر على الضيم، حتى أؤدي مال الغير) قيل له على لسان العلم: هذا حديث نفس، وهي خيانة<sup>(١)</sup> إلا إن كان لك صبر حتى عرف ذلك منك.

وانظر هذه الإشارة (حتى يعرفه العبد منه) ولم يقنع أن يكون هو قد عرف الصبر من نفسه فيما تقدم إلا حتى<sup>(٢)</sup> يعرفه الناس، ولا يكون صبره من حيث أن يعرفه الناس إلا لكثرة حتى يكون في حكم المقطوع به. و (شرط ثانٍ): أن يكون ذلك الصبر الذي يعرف منه من شأن الإيثار على نفسه. ومعناه: أن يكون ذلك الإيثار من أجل الله. ويفضل جانب القرية إلى الله على ضرورته، تحرزاً أن يكون صبره لشهوة، أو من غير اختياره لعدم الشيء. وقلة الصبر إذ ذاك ما يكون لها فائدة، إلا أنها أحسن حالة من غيرها، لا يحكم لصاحبها بالوفاء عند مواقف الرجال. وأنه مع صبره أيضاً يعرف بالإيثار على نفسه مع الخصاصة ومع الحاجة والضيق.

فانظر إلى هذه الشروط، هل يمكن في زماننا هذا وجودها إلا إن كان نادراً جداً؟ ثم بعد هذه التقييدات أعطى البخاري المثال فقال (مثل أبي بكر) ولم يقنعه أن سماه إلا حتى<sup>(٣)</sup> ذكر تلك الصفة المباركة المشهورة، وهي خروجه عن جميع ما ملك إيثاراً لله ولرسوله، ﷺ، ثم أكدها بأن قال

(١) كذا، والصواب: خيانة.

(٢) كذا، بزيادة «إلا» قبل «حتى».

(٣) كذا، و «إلا» هنا زائدة.

(وكذلك أثر أي الذي كان فيه الإيثار من الأنصار للمهاجرين)، ولم يقل عن جميعهم إلا عن الذين كانت فيهم تلك الصفة البكرية .

ويترتب على هذا من الفقه : أن المبين للأحكام يجب عليه أن يبين جميع الأحكام، وإن كان فيها ما هو نادر قد لا يمكن وقوعه لندارته من أجل أن يقع فلا يعرف الحكم فيه .

فعلى التقسيم الذي قلنا أولاً إنه - أعني السلف - على أربعة أوجه، الثلاثة جائزة، والواحد ممنوع - على ما بيناه - أن هذا في موضع التقسيم بحسب الحديث من أجل أن يعرف حكم الله بحسب ما بينه، صلى الله عليه وسلم .

وأما بحسب أحوالنا اليوم، وما يعرف من الأكثر من الناس - كما أشرنا إليه - فلا يكون الجائز منها إلا اثنين، والاثنان الآخران ممنوعان . الواحد لكونه مجمعاً على منعه، كما ذكرنا . والثاني وهو الذي تقدم ذكره من تعليلهم بفعل أبي بكر وإيثار الأنصار ممنوع لعدم وجود الشروط المذكورة فيه، وهو أيضاً ممنوع من باب سد الذريعة كيلا يقع الناس فيما لا يجوز لهم، وهم يظنون أنهم على لسان العلم . فالوجهان الجائزان إما من له الذمة، كما قدمنا، وإما من يبين حاله، على الخلاف الذي ذكرناه .

وأما قولنا: هل هذا حقيقة؟ أو هو كما جاء أن دعاءه، عليه السلام، رحمة، وإن كان ظاهره غير ذلك؟ فالجواب: أن كل دعاء منه، عليه السلام، على طريق الزجر على ألا يفعل فعلاً فهو حق . وأما الذي هو خير - وإن كان ظاهره خلاف ذلك - فذلك كما أخبر هو، ﷺ، إذا كان ذلك منه عليه السلام، لأمر ما قد وقع .

وأما قولنا: هل لا يقع<sup>(١)</sup> الدعاء إلا بالوصفين معاً، وهو أخذ المال والنية؟ فهذا هو ظاهر الحديث . فإذا كان أحدهما فلا يخلو أن تكون نية دون عمل، فهذه لا يلزم فيها حكم إلا أنها نية سوء، يجب عليه التوبة منها . وإن كان فعلاً دون نية: مثاله أن يأخذ السلف ويذهل عن أن يبين الشرط، فهذا فيه إشكال، من أجل أن المال قد أخذه وهو لا ذمة له ولا بين لصاحبه حاله . وقال ﷺ: (الخطأ والعمد في أموال الناس سواء) . فهذا الحديث يحكم له بأنه مثل من تعمد ذلك، وبنص الحديث الذي نحن بسبيله .

وقوله: (يريد إتلافها) فالنية في ذلك مع الأخذ مشروطة، فمن أجل هذا هو مشكل، وما هو مشكل مثل هذا فتركه أولى، لأن الدخول تحت دعائه، ﷺ، ليس بالهين . وإنما بخشنا: إن وقع، ثم

(١) يريد: ألا يقع .

تاب، هل إجابة الدعوة بعدما أجيب تزول أم لا؟ فهنا تقسيم: فلا يخلو أن تكون توبته بعدما ردّ مال الغير الذي كان قد أتلفه، أو يتوب ولم يردّ المال لصاحبه، بل كانت توبته على ألا يفعل مثل هذا أبداً. فأما إن كانت توبته بعد ما ردّ المال فيرجى ألا يلحقه الدعاء؛ لأن عدم المال لا يمنع حقاً، وأن المال قد رجع إلى صاحبه. فالضرر الذي كان لِحَقِّ صاحب المال قد زال عنه. واستبشرنا بكون الله، عزّ وجلّ، قد منّ عليه برده مال الغير أنه ما كانت نية سيّدنا، ﷺ، إلا أن يكون إتلافاً لا جبر بعده. هذا قوة رجاء في فضل الله، وما نعلم من رحمته، عليه السلام، بأمرته.

وأما الذي يعترض ويقول: إن السبب الذي علق به الدعاء - وهو أخذ المال بنية أنه لا يرده ويتلفه - فقد وقع الدعاء. والإجابة في دعائه، عليه السلام، في حكم المقطوع به، فإذا قبلت فلا تُردّ، فهو أمر محتمل من طريق الخوف. والذي قدمناه أولاً هو الأظهر. والله أعلم.

وأما إن كانت توبته إقلاصاً عن الفعل، ومال الغير باق في ذمته، فشروط التوبة لم تصحّ بعد. فنحن مع وجود شروطها فيه ما تقدم فكيف مع عدمها؟ لكن هو خير ممن يستمر على العمل. ولعله يسر له في شيء يؤدي به عن نفسه، أو يحله صاحب الحق، فيقوى له الرجاء، إن جعلنا تحليل صاحب الحق مثل الأداء. وإن قلنا: إن التحليل هنا ليس كمثل أخذ الحق فيبقى فيه توقف، وهذه المضايق الهروب منها أولى.

ومن أجل هذه المضايق أصّل أهل الطريق طريقهم على الصبر على الظمأ حتى إلى<sup>(١)</sup> الموت ولا يتعرضون لشيء فيه خلاف، كما ذكر عن بعضهم أنه لحقه جوع شديد ومجاهدة، ولم يكن له شيء، ثم فتح عليه في طعام لم يرتضه، فأبى أن يأكل منه شيئاً. فقالت له أمه: كل يا بني، وأرجو أن الله يغفر لك. فقال لها: نرجو أن الله يغفر لي ولا آكله. فلم يأكل منه شيئاً مع كثرة حاجته إليه.

ومثل ذلك ما روي عن أبي بكر، رضي الله عنه، حين أتاها خادمه بالطعام، فلم يسأله إلا بعد ما أكل منه لقمة. فلما رفع اللقمة وأكلها قال له الخادم: يا سيدي، عادت لك لا تأكل طعاماً حتى تسأل عنه، فما بالك في هذا؟ فقال: شدة الجوع حملتني على ذلك. ولكن من أين هو؟ فأخبره أنه من جهة كذا. وسمّى له جهة لم يرتضها، فأخذ أبو بكر، رضي الله عنه، عند ذلك يردّ تلك اللقمة من بطنه بعد ما ابتلعها، فلم تخرج إلا بعد أمر شديد ومعالجة. فقال له الخادم: يا سيدي، هذا على لقمة واحدة؟ فقال: نعم. ولو لم تخرج إلا بنفسني لأخرجتها، فإني سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: (كل لحم نبت من الحرام فالنار أولى به)<sup>(٢)</sup>.

(١) حتى: حرف عطف. والمعطوف مقدّر.

(٢) لفظه: كل جسد نبت من سُحتِ فالنار أولى به. أخرجه الطبراني وأبو نعيم عن أبي بكر رضي الله عنه. وقد ورد بعد هذا الحديث أبيات من الشعر نشبتها كما وردت.

وقد قيل :

إذا كنت لا أمنع نفسي شهوةً      ولا في مطعمي أتوزع  
فكيف طريقني إلى التقى      وهل لي نور في القلب يوضع  
كلا، وبل هي ظلمات من      التوفيق والخير تمنع  
وقد أثقلتني ذنوب      وعيدك بها حرّ نار تطلع  
إلهي أرجوك في توبة      وبك أسأل كيف أصنع  
فبالهاشمي من يشرب      إلا ما هديتني إلى ما منها يمنع

وأما قوله (نهى رسول الله، ﷺ، عن إضاعة المال فليس له أن يضيع أموال الناس بعة الصدقة) هذا تأكيد لما تقدم، لأنه إذا منع، ﷺ، إضاعة مال الغير عموماً فليس لك أنت أن تخصص عموم لفظه، ﷺ، بأن تقول: إنما أستلف من أجل أنني أتصدق بما أستلف، وليس هذا من باب إضاعة المال، بل هي إضاعة محضة، حتى تعلمه، فتقول له: أستلف منك هذا المال على أن أتصدق به على نفسي، فإن فتح الله عليّ رددت إليك مالك، وإلا فلا تبعه لك عليّ، فإن رضي فحسن، وإلا فلا.

وهنا علة أخرى مع كونك خصصت عموم قول الشارع، عليه السلام، برأيك وليس ذلك لك، وهي أن الذمة قد تعمرت حقاً، والصدقة التي أعطيتها محتملة إن قبلت أو لا، فكيف يبرأ شيء متحقق بشيء مشكوك فيه؟ هذا ممنوع شرعاً وعقلاً.

ولا يحملك على أن ترتكب هذا المحذور من أجل بعض أخبار وردت عن بعض المباركين، منها: أن بعضهم كان في سنة شديدة، فاستقرض جملة مال، واشترى به طعاماً وفرقه على المساكين. فلما جاء أصحاب المال يطلبون مالهم تَوْضاً وركع ركعتين، وسأل الله الكريم ألا يخزيه معهم. ثم قال لهم: ارفعوا الحصر فانظروا، هل تجدون تحته شيئاً؟ فرفعوا الحصر فإذا تحته مال. فقال لهم: خذوا قدر ما لكم، فوجدوه مثله سواء بسواء.

فهذا السيد احتمل حاله أشياء، منها: أنه قد تقدمت له مع مولاه عادة فعل عمل عليها، وقد قال ﷺ: (مَنْ رُزِقَ مِنْ بَابِ فَلْيَلْزِمُهُ)<sup>(١)</sup>. وقال أصحاب التوفيق: إنه من فتح الله له باباً من خير، من باب خرق العادة، فذلك لسان العلم فيما يخصه. واحتمل أن يكون مجاب الدعوة، وهو يعلم ذلك من مولاه بما تقدم له أيضاً. واحتمل أن كانت معاملته مع الله صادقة فقبلها، فلما قبلها لم يكن ليضيعه عند احتياجه إليه. حاشاه.

(١) سبق تخريجه في الحديث (٤٨).

فلا يجوز لمن ليست له من هذه الوجوه شيء أن يقتدي بمثل هذا السيد، ولا بما يذكر من مثله، فإن مثل هؤلاء يُسَلَّم لهم، ولا يُقْتَدَى بهم، ولا يُعْتَرَض عليهم، لعدم الحال الموجب لذلك. ولذلك قال بعض من نُسب إلى هذا الشأن: إذا كان أمرك إلى مولاك مصروفاً، وقلبك ببابه موقوفاً، ويدك عن الدنيا مكفوفاً<sup>(١)</sup>، وحالك بأمره ونهيه محفوظاً، فقد رحلت عن الدنيا وإن كنت بها موقوفاً. فجعل صحة حاله أن يكون بالأمر والنهي من كل الوجوه محفوظاً. وهذه زبدة الأمر، وهو الحق الذي عليه أهل الحال والمقال. جعلنا الله ممتن من عليه بهما، إنه ولي حميد. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

الكتاب النادر الذي توسع لأهل المعرفة

## حديث الأمر بالصدقة على كل مسلم

عن سعيد بن أبي بُردة<sup>(١)</sup> عن أبيه، رضي الله عنهما، أنَّ النَّبِيَّ، ﷺ، قال: على كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ. فقالوا: يا نبيَّ الله، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ فقال: يَعْمَلُ يَدَهُ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ. قالوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قال: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ. قالوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قال: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيَمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ. فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على الأمر بالصدقة، والتسبب فيما به يتصدق. والكلام عليه من وجوه: منها: هل هذا الأمر على الوجوب أو على الندب؟ وما معنى قوله، عليه السلام: (فليعمل بالمعروف، وليمسك عن الشر. فإنها له صدقة) فالجواب: أما الأمر فهو على الندب، لا بالصيغة، بل بالاستقراء من خارج. منها: قوله، ﷺ، في حديث غير هذا: (لا صدقة إلا عن ظهر غنى)<sup>(٢)</sup>، وقوله، عليه السلام، أيضاً في ركعتي الضحى (إنها تجزىء عنه)<sup>(٣)</sup> يعني عند عدم القدرة على الصدقة.

وقوله، عليه السلام، آخر الحديث (فليعمل بالمعروف، وليمسك عن الشر. فإنها له صدقة، وهذا من الواجب مع وجود الصدقة أو عدم وجودها، لأنه لا يجوز له أن يعمل الشر ويترك المعروف. لكن المراد في هذا الموضع ما زاد على الواجب فهو له صدقة. وقد قال عليه السلام:

(١) سعيد بن أبي بُردة: حفيد أبي موسى الأشعري. هو وأبوه من التابعين. ثقة، ثبت، توفي في الكوفة سنة ١٣٨ هـ على الأصح.

(٢) لفظ الحديث: لا صدقة إلا من ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول. أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرج الإمام أحمد عن بريدة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة. قالوا: فمن يطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: النخامة في المسجد تدفنها، والشئ تنchie عن الطريق، فإن لم تقدر فركعتا الضحى تجزىء عن ذلك.

(والكلمة الطيبة صدقة، وإمالة الأذى عن الطريق صدقة، ولقاء المؤمن لأخيه ببشاشة الوجه صدقة) أو كما قال عليه السلام.

ويؤخذ من هذا من الفقه: أن الدّين كله مطلوب، فرضه وندبه، والتسديد فيهما جميعاً، لقوله عليه السلام: (فسددوا وقاربوا) على ما مرّ الكلام عليه. وفيه دليل في فضيلة الصدقة.

وفيه دليل لأهل الصوفة الذين بنوا طريقهم على البذل والإيثار، حتى يروى عن جماعة منهم أنهم كانوا لا يحتملون أن يبيت عندهم شيء من الصدقة المعلومة في بيوتهم.

قوله عليه السلام (على كل مسلم صدقة) يعني بمقتضى ما في الإيمان من الرحمة والإسلام. ودلّ على أن الكافر لا تقبل منه الصدقة، لكونه خصصها بالمسلم.

وفيه دليل لمن يقول: إن الكافر ليس مخاطباً بفروع الشريعة. يؤخذ ذلك من كونه لم يعلق الصدقة إلا بمسلم.

وفيه دليل على أن اليسارة في الناس هي الأغلب. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السلام، أطلق الصدقة على كل مسلم، وفيهم - ولا بد - الذي ليس له شيء. وقد استدل بعض العلماء على قلة المساكين بكون المولى، جلّ جلاله، لم يفرض الصدقة إلا ربع العشر، ولم يجعله مطلقاً إلا في نصاب معلوم، وهي خمسة أو اقٍ أو عشرون ديناراً. وما كان العليم الرحيم ليفرض لعباده شيئاً لا يكتفيهم، وهو يعلم حالهم وعددهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾<sup>(١)</sup> فلما علم قلة المساكين، وأن ذلك المقدار يكفيهم، فرض لهم ما يكفيهم، ولو أن الأغنياء أخرجوا جميعاً ما أوجب الله عليهم من الزكوات ما احتاج مسكين لأن يسأل أحداً.

وفيه دليل على أن الأحكام تجري على الغالب. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السلام، عمّ بالصدقة جميع المسلمين، وفيهم من ذكرنا من الضعفاء، وهم الذين يأخذون الصدقة المأمور بها.

وفيه دليل على أن هذه الصدقة اليسير منها يجزىء. يؤخذ ذلك من كونه لم يحدّ فيها نصاباً ولا مقداراً مثل ما فعل في الفرض، وهذا أيضاً من الأدلة على أنها ليست بواجبة. وقوله: (فقالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد؟ قال: يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق) فيه دليل على مراجعة العالم في تفسير المجمل، وتخصيص العام. يؤخذ ذلك من قولهم (فمن لم يجد؟).

وفيه دليل على ما للصحابية من الفضل علينا - كما ذكرناه أولاً - لأنهم تلقوا الأحكام بالخطاب، وسألوا في مثل هذا وغيره حتى بانت الأمور، ووضح الحكم.

(١) سورة الملك، من الآية ١٤.



وفيه دليل على فضل التكسب، لكن إذا كان على لسان العلم، ويكون عوناً على الدين .  
يؤخذ ذلك من قوله (يعمل بيده).

وفيه دليل على جواز الصناعات على الإطلاق، لعموم قوله عليه السلام: (يعمل بيده) ولم  
يخصّ عملاً دون غيره .

وفيه دليل على تقديم ضرورة الشخص على الصدقة . يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (فينفع  
نفسه ويتصدق) فإنه أتى إثر عمل اليد بنفع النفس، وأتى به بالفاء التي تفيد التسبيب والتعقيب،  
وحينئذ عطف عليه الصدقة . وهم ما كان سؤالهم إلا على الصدقة .

وفيه، إذا نظرت، إشارة عجيبة، لأنه لو قال (يعمل ويتصدق) لكان الشخص يقول: أعمل  
فيما أتصدق به، وأبقى أنا على ما يفتح الله لي . فأشار هنا بتقديم الانتفاع له، لأنه من أكبر الصدقات  
أن يزيل حكمه عن غيره، ويبدأ بالذي هو أهم، وبعد ذلك يتصدق . وكونه عليه السلام قال: (ينفع  
نفسه) لفظ جامع لجميع ما هو محتاج إليه من ضرورات نفسه وعياله أو سكنه أو غير ذلك مما إليه  
حاجة البشرية، إلا أنه بقيد الشريعة، فإن هذا أصل في كل الأمور .

وقوله: (قالوا: فإن لم يجد) يؤخذ منه تنويع البحث على العالم إذا دعت لذلك ضرورة .  
ويؤخذ منه استنباط المسائل الممكنة الوقوع وإن لم تقع بعد، وأن هذا من الدين، وصاحبه مثاب .

وقوله (يعين ذا الحاجة الملهوف) هنا بحث: لم قال: ذا الحاجة، ونعته بالملهوف، وكل من  
أعان في حاجة مسلم فهو مأجور، لقوله، ﷺ: (الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)<sup>(١)</sup> .  
فالجواب: أن الإعانة في الحاجة مثاب عليها، لكن الصدقة أرفع، كما أشرنا قبل . فلما نوع السؤال  
عليه أراد ﷺ، أن يبقى لهم أفعالاً يكون الثواب عليها مثل الصدقة . فلما أن كان صاحب الحاجة  
بهذه الصفة الزائدة - وهي كونه ملهوفاً - نبّه عليه لما فيه من زيادة الأجر، على أن لو كانت حاجة  
دون لهف فحينئذ بزيادة هذه الصفة يكون له مثل ما فاته من عمل الصدقة .

وفيه دليل لتقعيد الأحكام بالفاظ العموم، لأن (الحاجة) لفظ عام، وكذلك (اللهف) أنواع  
بحسب الحاجات وأصحابها . والملهوف كناية عن الحائر في حاجته، القليل القدرة على القيام بها،  
فهو يشبه المضطر، وقد يكون أكد منه، لأن المضطر قد أُلِف الصبر وأيقن بعجزه، وهذا متلهف من  
جانب إلى جانب، ومن وجه إلى وجه، وقد حار في نفسه، ولا يعرف من أين يكون له الفرج، ولا  
ضرورته يفيد فيها القعود والاستسلام .

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أوله: من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله  
عنه كربة من كرب يوم القيامة . . الخ .

مثاله: مَنْ عليه دَيْن، وقد حان وقته، وهو ليس له شيء، وهو لا يقدر أن يثبت عُذْمَه، وصاحب الدَّين لا يُقْتَرِه، ولا يَعْدِرُه، فالقعود لا يمكنه، والخلاص لا يقدر عليه، ووجه الرشاد إلى راحته لا يعرفه، فحاجته أشدَّ من المضطر؛ لأن المضطر قد يفوض الأمرَ كُلَّه إلى الله، ويصبر على ما نزل به حتى يأتيه فَرَجُ الله. والإعانة هنا بماذا تكون؟ هل تكون بالموجود أو بالإرشاد؟

فالجواب: أنه لو كانت بالمعلوم لكانت أعلى الصدقات. نعم لفظ (الإعانة) يقتضي بالمعلوم وغيره. لكن لما كان بساط الحال مما يفعل عند عدم الوجود ذكرت إعانة الملهوف. فتخصص عموم اللفظ ببساط السؤال، فقام عون هذا الملهوف، وإن لم تعطه من عندك شيئاً مقام الصدقة لما فيه من تفريج كربه في الوقت؛ لأن الثواب على الصدقة إنما هو لما يدخل على أخذها من راحة نفسه، ولذلك كان أكثرها ثواباً إذا كان الآخذ أكثر احتياجاً. وإذا قلت مثلاً لهذا الملهوف: أنا أدلك على وجه يكون لك فيه راحة، فقد أدخلت عليه من السرور في الوقت أكثر مما يدخل على صاحب الصدقة، إذا لم يكن أخذها مثل هذا.

وقوله (قالوا: فإن لم يجد) هنا بحث، كما تقدم قبل في الجواب على قوله، عليه السلام: (فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنِهَا لَهُ صَدَقَةٌ) وهو كيف يقوم عمل واجب عن تطوع؟ فإن العمل بالمعروف والإمساك عن الشر مما هو واجب شرعاً، والصدقة - كما قدمنا - في هذا الموضع مندوبة؟ فالجواب إن الأمر بالصدقة لا يلزم منه ترك الشيء، والعمل بالمعروف إنما يلزم ذلك من قواعد الشريعة، كما يندب مع الصدقة وعدمها بمقتضى قواعد الشريعة إغاثة الملهوف، والندب إلى التكسب الحلال لينفع نفسه ويتصدق. وكما يقال في حديث آخر حين ذكر الصدقة، ثم قال في من لم يجد: أن ركعتي الضحى تجزئ عنها. وركعتا الضحى مندوب إليها مع وجود الصدقة وعدمها.

فمفهوم الحديث على هذه التنويعات أنه، ﷺ، ندب أولاً إلى الصدقة لما فيها من الخير المتعدي. فعند العجز عنها ندب أيضاً لما يقرب منها أو يقوم مقامها لما فيها أيضاً من الخير المتعدي، وهو العمل والانتفاع والصدقة. وعند عدم ذلك ندب إلى ما يقوم مقامه وهي إغاثة الملهوف - كما بينا - ثم عند ذلك كأنه، عليه السلام، يقول بعد عدم هذه المذكورات: ليس في أفعال البرِّ ما يشبهها، لكن مَنْ فعل شيئاً من المعروف - والمعروف هنا ما هو مندوب إليه شرعاً من جميع المندوبات، ولو إمطة شيء من الأذى عن طريق المسلمين، ولو ركعتي الضحى، فمعناه أن لا تُخلِ نفسك من فعل مندوب من المندوبات، وإن قلَّ - فإن في كل منه صدقة، بمعنى: فيه أجر، وإن لم تقدر على فعل شيء من المندوبات فإمساكك عن الشر. ومعنى الشر هنا: ما مُنِعَتْه شرعاً - فإنه صدقة. أي إنك فيه مأجور. فهذا التنويع منه، ﷺ، تسلياً للعاجز عن أفعال المندوبات، إذا كان ذلك عجزاً لا اختياراً.

ومما يشبه ذلك ما ورد أَنَّ الفقراء من الصحابة، رضوان الله عليهم، لما جاءوا واشتكوا إلى النبي ﷺ، إن أصحابنا من أهل الجِدَّة سبقونا بالصدقة. قال عليه السلام (ألا أدلكم على ما هو خير من ذلك؟ تسبحون دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وتكثرون ثلاثاً وثلاثين، وتحمّدون ثلاثاً وثلاثين، وتختمون المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له، فذلك خير)<sup>(١)</sup>. فلما بلغت الأغنياء فعلوا كفضلهم، فرجع الفقراء إليه ﷺ فأخبروه بذلك، فقال لهم، ﷺ: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ويترتب على هذا من الفقه أنا مطالبون بجميع فرائض الدين ومندوباته وتطوعاته، والشأن أن يُقدّم الفرض، ثم الأعلى فالأعلى من جميع المندوبات. ومن وسعه عمل الكل فنعم ما فعل، فإن فعل الأدنى من المندوبات مع القدرة على الأعلى فقد ترك ما هو المستحب، لكن لم يُخلِ نفسه من الخير. فإن لم يفعل من المندوبات شيئاً فقد غبن نفسه غبناً كبيراً، فليجتنب الشر فإنه مأجور في ذلك، فإن لم يفعل ذهب عنه الدّين، ولا علم عنده. نسأل الله العافية بمنه.

وفيه ردّ على بعض الأصوليين الذين يقولون: إن الترك لا يُؤجر عليه، لأنه ليس بعمل. لقد أخطأوا الطريق، وضلّوا ضلالاً بعيداً، لكونهم أوجبوا الثواب بمجرد عقولهم وتركوا الكتاب والسنة. فأما الكتاب فقوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾<sup>(٢)</sup> والانتها هو: ترك الشيء لا شك فيه. وأما السنة فمنها نسبه، عليه السلام، في هذا الحديث بقوله عليه السلام (وليمسك عن الشر، فإنها له صدقة) جمع أفعال البر في قوله عليه السلام (بالمعروف) وجمع أيضاً جميع أنواع الشر بقوله عليه السلام (وليمسك عن الشر) أي جميع أنواع الشر، قال: (فإنها) أي من فعل شيئاً من هذه الصفات المذكورة، أو ترك شيئاً من هذه الصفات المذمومة (فإن ذلك له صدقة).

ولا يخطر لك أن تقول: بمجموعها تكون الصدقة. فهذا لا يعطيه اللفظ، وهو مذهب المعتزلة، لأنهم يقولون: لا تُقبَلُ الحسنة حتى لا تعمل سيئة. وأهل السنة على خلاف ذلك، لقوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ<sup>(٣)</sup> وقوله، عليه السلام، في حديث غيره: (اتق محارم الله تكن أعبد الناس)<sup>(٤)</sup>. والآي والأحاديث في هذا كثيرة. فسبحان من حرّمهم طريق الرشاد.

(١) لعله يشير إلى جزء من حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري ومسلم من أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم إلى آخر الحديث، أو إلى أحاديث تشير إلى هذه الأعداد من الأذكار التي أخرجها علماء الحديث بطرق شتى ومضمونها متقارب.

(٢) سورة الأنفال، من الآية ٣٨.

(٣) سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و ٨.

(٤) سبق تخريجه في الحديث (٦٦).

وهنا تنبيه وهو: انظر إلى حكمة الشرع فإنه جعلك في إدخال الراحة والسرور على نفس غيرك مأجوراً إذا كان الله، وإدخال الضرر أو التغيير عليها مأثوماً ومعاقباً. وفي إدخالك التشويش على نفسك أو المجاهدة لها إذا كانت الله كنت مأجوراً على ذلك، ولذلك قال الخضر لموسى عليهما السلام (وَزَعْرُغٌ بِالْخَوْفِ قَلْبِكَ فَإِنْ ذَلِكَ مِمَّا يُرْضِي رَبَّكَ). فانظر هل تعرف لذلك حكمة أو هو مما يُلقى تعبداً أو امتثالاً لا غير؟ قد تقدم الكلام في غير ما موضع أن الحكيم لا يفعل شيئاً إلا عن حكمة. والحكمة هنا خفية ظاهرة، وهي - والله أعلم - لأن السرور إذا أدخلته على نفسك، وإن ادعيت أنه لله، فقلماً يسلم من دسيسة النفس من أجل حَظِّها. وهو من باب سد الذريعة. وهي قاعدة كلية في الشرع.

مثال ذلك جعل مكة محلاً للجذب وعدم الزرع والمشقة التي في الوصول إليها، حتى إن المشي إليها والإقامة بها تتحقق لله، لأنه ليس في ذلك كله شيء يلائم النفس، بخلاف أن لو كانت مثل دمشق في الفواكه والخضر، فقلماً كانت العبادة تخلص فيها من أجل حظ النفوس في الخصب والفرجة.

ولوجه آخر أيضاً، فإن إدخال السرور على الغير إذا كان الله خالصاً قلماً يخلو من تعب النفس بوجه ما، أقل ما فيه أنها تريد جمع الحظوظ من الخير لها، وكونها تؤثر بها غيرها فقد حصل لها تعب في الباطن، وهو أشده، فتمحضت العبادة بالإخلاص الذي هو أصلها لقوله عز وجل ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾<sup>(١)</sup> فبين الإخلاص بأسبابه حتى يكون ذلك عوناً من الله لعبده.

لذلك قال يُمنُّ بن رزق - رحمه الله - وهو من أجل أهل الطريقين: نظرت في هذا الأمر - يعني العبادة - فلم أر شيئاً أعون عليها من الغربة من أجل نفي الدسائس التي للنفس مع الاستيطان والأهل والجيران. ومنهم من قال: إذا كان في الغربة إصلاح ديني فلا أوحش الله من الأهل والوطن، وهمتي بالله وعزمي في إصلاح ديني.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

(١) سورة البينة، من الآية ٥.

## حديث أخذ المال بسخاوة النفس

عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ؛ وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن أخذ المال بسخاوة النفس فيه بركة، وأخذه بإشراف النفس فيه عدم بركة. والكلام عليه من رجوه:

منها الدلالة على سخاوته، ﷺ. يؤخذ ذلك من تكرار طلب الطالب عليه مراراً، وفي كل مرة يعطيه، ولم يقلقه ذلك.

وفيه دليل على حب النفوس المال لما جُبلت عليه بمقتضى الحكمة الربانية. يؤخذ ذلك من قوله (إن هذا المال خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ). وهذه كناية عن الشيء المستحسن المحبوب، يؤيده قوله تعالى ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾<sup>(٢)</sup>

وجاء عن عمر، رضي الله عنه، أنه قال: اللهم إني لا أستطيع ألا أحب ما زينت لنا، فاجعلني ممن أخذته من وجهه، وأنفقته فيما يرضيك<sup>(٣)</sup>. أو كما قال.

(١) حكيم بن حزام: صحابي، قرشي، وهو ابن أخي خديجة أم المؤمنين، رضي الله عنها. مولده بمكة (في الكعبة) شهد حرب الفجار، وكان صديقاً للنبي ﷺ قبل البعثة وبعدها، وعُمر طويلاً، وكان من سادات قريش في الجاهلية والإسلام، عالماً بالنسب، أسلم يوم الفتح. له في كتب الحديث (٤٠) حديثاً. توفي في المدينة سنة ٥٤ هـ / ٦٧٤ م.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٤.

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور ١٠/٢ لابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم عن =

وفيه دليل على أنه قد يقع الزهد مع الأخذ، وتكون فيه فوائد، منها: أجر الزهد، ومنها راحة النفس، ومنها البركة في الرزق. فأما الزهد فبديل قوله عليه السلام (فمن أخذه بسخاوة نفس) وسخاوة النفس هو زهدها. تقول: سَخَتْ بكذا أي جادت به، وَسَخَتْ عن كذا، أي لم تلتفت إليه. وأما راحة النفس فقد قال عليه السلام: (الزهد في الدنيا يُريح القلب والبدن)<sup>(١)</sup>، وهذه أعظم راحة للنفس. وأما البركة في الرزق فلقوله عليه السلام (بورك له فيه).

ويترتب على ذلك من الفقه أن الزاهد يجتمع فيه خير الدنيا والآخرة. فأما خير الدنيا فما يحصل له من البركة في الحطام الذي يطلبه الحريص ولا يصل إليه، وراحة القلب والبدن اللذين قد حُرِمَهما صاحب الدنيا، وهما حقيقة النعيم فيها. وأما الآخرة فما يتحصل له من ثواب الزهد هناك وقلة الحساب، فإن الزهد يحمله على إخراج الواجبات والتوقف في المتشابهات؛ وهي السعادة التامة. والذي يطلب الدنيا يخسر الدنيا والآخرة. فأما خسارته الدنيا فتعب قلبه وبدنه، لقوله ﷺ: (والحرص فيها يُتعب القلب والبدن)<sup>(٢)</sup>. وهذه غاية في الشقاء والتعب، وخسارته ما أمل منها من زيادة حطامها لكونه تُرْفَع له البركة كما تقدم في قوله عليه السلام (بإشراف نفس) وهو الحرص. وهذا غاية في الحرمان؛ لأنه تعب التعب الكلي، وحُرم ما أمّله.

ونجد ذلك في عالم الحس. ترى طعام أهل الدنيا كثيراً في العين، وعند الأكل ما تجد الشبع منه إلا من شيء كثير؛ والقوى بالنسبة إلى ما أكلوا قليلة. وطعام أهل التوفيق والزهد في مرأى العين يسير، ويأكل منه الجمع الكثير ويشبعون ويجدون القوى الكثيرة بالنسبة إلى ما أكلوا. ومع ما أهل الدنيا فيه من التعب يتولد بينهم الحسد والضغائن والغيبة والشح بمنع الحقوق أو بعضها أو توفيتها. وعلى هذه الصفات مع التسامح في المشكلات تترتب خسارة الآخرة مع العذاب والهوان. أعاذنا الله منها بمنّه.

وفيه دليل لفضل أهل الصوفة الذين بنوا طريقهم على الزهد؛ لأنه أول باب في السلوك، ولذلك قال يُمن بن رزق<sup>(٣)</sup>، رحمه الله: لا يثبت لك قدم في محجة الدين، وفي قلبك خوف الفقر أو الغنى وحب المنزل والرياسة. فذلك مفتاح فقر الأبد.

= أسلم قال: رأيت عبد الله بن أرقم جاء إلى عمر بن الخطاب بحلية آنية وفضة، فقال عمر: اللهم إنك ذكرت هذا المال، فقلت ﴿رُزِقَ لِلنَّاسِ مِنْهُ الشَّهَوَاتُ﴾ حتى ختم الآية، وقلت: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا مَاتَكُمْ﴾ وإنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا، اللهم فاجعلنا ننفقه في حق، وأعوذ بك من شره.

(١) عزاه السيوطي في الجامع الصغير للطبراني في الأوسط وابن عدي في الكامل والبيهقي في الشعب. وقال المنذري في الترغيب والترهيب: إسناده مقارب. وانظر فيض القدير للمناوي ٧٣/٤.

(٢) ضم السيوطي هذا الحديث إلى الحديث السابق وجعلهما واحداً، وعزاها إلى المصادر المذكورة آنفاً. ولفظه (والرغبة فيها تتعب القلب والبدن).

(٣) يمن بن رزق: تقدمت ترجمته في الحديث (٢): (الوجه الثاني).

وفيه دليل على جواز ضرب المثل فيما لا يمكن السامع أن يعقله حتى يُعلم أنه يعقله، من الأمثلة التي يغلب على الظن أنه يعرفها. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (كالذي يأكل ولا يشبع) لأن الغالب من الناس، ولا سيما في زماننا، لا يعرفون البركة إلا بالشيء الكثير؛ فأراد، ﷺ، أن يبين لهم بالمثال الذي يعرفونه أن البركة هي خَلْق من خَلَق الله، وليست كما يزعمون، وضرب لهم المثل بما يعرفه كل أحد، وهو أنه لا يقصد أحد الأكل إلا من أجل أن يشبع ويُزيل به أَلَم الجوع، فإذا أكل الأكل الكثير ولم يشبع فكان ما أكله من الطعام مخسور؛ لأن الفائدة التي من أجلها استعمل الطعام - وهي الشبع - لم يجدها.

فكذلك المال ليس الفائدة في عينه، وإنما يراد لما يتول به من الفوائد. فإذا كثر المال ولم يجد به من الفوائد ما أرادها فكان لا مال له حاضر، وذلك موجود محسوس في أبناء الدنيا والآخرة. تجد أبناء الدنيا لا يقدر أن يصلوا إلى ضروراتهم إلا بالأموال الكثيرة. فلما رأوا ذلك لم تكن همتهم إلا في تكثير المال، وغاب عنهم ما وراء ذلك، وجاء أهل الآخرة فبلغوا تلك الضرورات التي لم ينلها أهل الدنيا إلا بالأموال الكثيرة بأقل الأشياء، وربما كانت أحسن منها. هذا موجود كثير لمن تأمله ونظره.

وفيه دليل على أن تعديد الأحكام لا يُقتَصَر فيها على ما يفهمه المخاطب ليس إلا، بل على ما يفهمه المخاطب وغيره ممن هو دونه في الفهم حتى لا يكون فيها إشكال. يؤخذ ذلك من قوله، ﷺ، للصحابي، رضي الله عنه (كالذي يأكل ولا يشبع) لأننا بالضرورة نعلم أن الصحابة، رضي الله عنهم، يعلمون أن البركة خَلْق من خَلَق الله، كما هو الشَّيْع خَلْق من خَلَق الله؛ لأنهم قد رأوا ذلك منه، ﷺ، مراراً، ومن بعضهم مع بعض، على ما هو منقول عنه، عليه السلام، وعندهم. ولكن ضرب، ﷺ، ذلك المثال لمن يأتي بعد ليزول الإشكال بتعديد قاعدة شرعية لا تحتل التأويل.

فانظر مع هذا البيان التام الأمر، كيف هو اليوم ممن ينسب إلى العلم في الغالب، فكيف بالغير؟ فقد تنكرت الطرق، وعاد الحق في كثير من الأمور مشكوكاً فيه، وبعضه مجحوداً للعوائد السوء التي كثرت ممن لبس على الناس أنهم علماء وصالحون، فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولذلك قال ﷺ: (كيف بك يا حُذَيْفَةَ إذا تركت بدعة قالوا: ترك سنة؟ فقال: ما تأمرني إن أدركني ذلك الزمان؟ قال: أقرضهم من عرضك ليوم فقرك)<sup>(١)</sup>، معناه: افعل ما هو الحق والسنة، ودعهم يقولون ما شاؤوا، فإنك مأجور في كونهم يأخذون من عرضك بغير حق شرعي.

(١) رواه الخطيب وابن عساكر عن أبي الدرداء، ورواه أبو نعيم والطبراني وابن عساكر عن أبي أمامة، وهو جزء من حديث طويل. وانظر منتخب كنز العمال ٣٩٢/٥ ومجمع الزوائد ٢٨٥/٧:

وقوله عليه السلام: (اليد العليا خير من اليد السفلى) هنا خلاف بين العلماء وأهل الصوفة. فالعلماء يقولون: اليد العليا هي المعطية والسفلى هي الآخذة. وأهل الطريق يقولون بالضد: إن العليا هي الآخذة، لأنها هي التي أعطتك بالشئ اليسير الثواب الكثير. واحدة بعشرة وبسبعين ويسعمائة. والسفلى هي المعطية لأنها هي المنتظرة للمجازاة، وهي مفتقرة إلى ذلك.

والذي يظهر لي - والله أعلم - أن الجمع يقع بينهما بوجه آخر، وهو حسن إذا تأملت: لا يخلو أن يكون المعطي هو الذي يطلبك لقبول معروفه، أو أنت هو الذي تطلب منه ذلك. فإن كنت أنت الطالب له فيده عليك، وهي العليا، وقد حصل منك ذل السؤال إليه. وقد جاء أن الذل في السؤال ولو عن الطريق. والمنكر لهذا يجحد الضرورة.

وإن كان هو الذي يطلبك بمعرفه فقد كسر مائة وجهه إليك في أمر أنت فيه بالخيار، وهو محتاج إليه، إما لزوال واجب عليه أو لخير يؤمله في دينه أو آخرته، فإنه لم يأتك بمعرفة كرامة لك، وإنما هو لأمر يقصده مما أشرنا إليه. فقبولك أنت إياه معروف، وهو السائل فيه. فالحاجة له ويده هي السفلى، ويد الآخذ هي العليا، وقد قال عليّ، رضي الله عنه: (من دعانا كان الفضل له. فإن أجبتنا كان الفضل لنا). وبساط الحال الذي نحن بسبيله يشهد لذلك، لأن سيدنا، ﷺ لم يقل ما قال إلا لسائل له، عليه السلام، لَمَّا كَرَّرَ سؤَالَهُ مراراً.

وفيه دليل لوجه رابع<sup>(١)</sup>، وهو أنه جعل الاثنين حَسَنَيْنِ، وأحدهما يفضل على صاحبه بزيادة. يؤخذ ذلك من قوله (خير) لأنه أدخلهما في باب (أفضل)، وباب (أفضل) يشهد بالحسن أو الخير للمذكورين، غير أن أحدهما يكون - إن فعل - خيراً من غيره، كما نقول: زيد خير من عمرو، وما نفينا الخيرية عن عمرو بالأصالة، ولكن زيدا أرفع منه درجة فيها. فكَذلك هاتان اليدان كلتاهما حسن، لأنهما امتدتا إلى معروف، وحصلت الفضيلة بينهما بمرجح ثان: إما نظر بعين الفعل أو بعين المال أو بعين القصد أو بمجموعها. فمن أجل هذه التعليقات وقع الخلاف.

وفيه دليل على إرشاد الشارع، عليه السلام، إلى الأعلى في المقامات. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام (اليد العليا خير من اليد السفلى) كأنه عليه السلام يقول: كن ممن يده عليا، ولا تكن ممن يده سفلى. إلا أن هذا في المقامات الدنيويات، لا في الدنيا وحطامها.

وفيه دليل على أن بيان العلل بعد قضاء الحاجة ليس بمخجل ولا مفسد للمعروف. يؤخذ ذلك من أن سيدنا، ﷺ، لم يبين للسائل ولا ضرب له المثل إلا بعد قضاء حاجته مراراً حتى تمت أمنيته، وحيث بين، عليه السلام، له العلل التي في السؤال.

(١) كذا، وقد أورد قبل أكثر من ثلاثة.



وفيه من الفقه أنه بعد قضاء حاجته كان خاطره خالياً من التشويش ومن التهمة للمتكلم، وأرفع للخجل، ويجتمع له قضاء حاجته وفائدة أخرى، وهي التعليم بما لم يكن يعلم.

وفيه دليل على جواز سؤال أهل الفضل والدين وأهل المعاملة، وليس فيه مذلة. يؤخذ ذلك من أن سيدنا، ﷺ، لم يعرض له في حق سؤاله إياه بشيء إلا أنه قال له قاعدة كلية. ولو كان في سؤاله شيء ما كتمه عنه، ولا كان أيضاً يعطيه شيئاً حين يبين له ما فيه من الكراهية، لأنه المشرع، والبيان عند الحاجة إليه لا يجوز تأخير، وكان فحوى الكلام يقول له: يا حكيم، ليس الأخذ مني مثل الأخذ من غيري: اليد العليا خير من اليد السفلى، لأن يده، ﷺ، هي العليا على كل الحالات، لأنها لا مماثل لها، ولا يتناوله، عليه السلام، التمثيل في الفضيلة. وهذا بين لا خفاء فيه، ويخلفه بالميراث في المنزلة - وإن كان ليس مثله - من له الخلافة بعده، وكذلك من ناب عن الخليفة نائب بعد نائب، وإن بُعد. أعني: إذا كانوا من أهل الفضل والدين.

وفيه دليل على أن المطلوب منا المبالغة في النصيحة والتعليم. يؤخذ ذلك من أنه، ﷺ، لم يقتنع بالمثال الأول حتى أكد بالمثال الثاني، لكونه فيه معنى زائد، وكلما زادت أدلة التحذير كان أقوى في المنع.

وفيه دليل على أن أقوى الأسباب في حمل العلم بمقتضى الحكمة: الجِدَّة<sup>(١)</sup>. يؤخذ ذلك من أنه ﷺ لم يعلمه حتى أغناه، بتكرار العطاء ثلاثاً.

وفيه دليل على جواز تكرار السؤال ثلاثاً، والرابعة ممنوعة. يؤخذ ذلك من أنه في كل مرة من الأولى والثانية أعطاه، عليه السلام، وسكت عنه، وفي الثالثة أعطاه وأشغله بإلقاء العلم عن إعادة السؤال، لأن الصحابة، رضي الله عنهم، فيهم من الفهم والذكاء لقوة إيمانهم ما يزرهم في الإشارات أقل من هذا.

وفيه حجة لأهل الطريق الذين يقولون بالزنبيل<sup>(٢)</sup>، لأنهم يقولون: من شرطه ألا يخرج لشخص معين يقصده، ولا يلح في سؤاله، ولا يحلف<sup>(٣)</sup>، وإنما يسأل الله، فإذا حملته المقادير إلى باب أو شخص لا يتعداه لغيره، ومن شرطه ألا يخرج إلا على حاجة صادقاً لقوله ﷺ: (لا بأس أن يشكو المؤمن حاجته لأخيه المؤمن)<sup>(٤)</sup>. فإذا سأل ذلك الشخص الذي حملته القدرة إليه فإن أعطاه

(١) الجِدَّة: مصدر للفعل (وَجَدَ يَجِدُ). يقال: وَجَدَ فلان أي: صار ذا مال. وللفعل (وَجَدَ) معان أخرى.

(٢) الزنبيل (يفتح الزاي المشددة وكسرها): الفقه. ويراد به هنا: الأخذ بالسبب والسعي للرزق.

(٣) ولا يحلف. ولا يُقسِم على من سأله ليعطيه.

(٤) لم أقف على مصدره.

فحسن، وإن حرمه فحسن، ثم يقصد ثانياً وثالثاً، فإن حرمه الثلاثة فلا يزيد عليهم شيئاً، ويعلم أن المطلوب منه الصبر والتسليم فيرجع إلى موضعه، ولا يسأل غير من ذكر، حتى يفتح الله له، أو يفعل فيه ما شاء.

فانظر اليوم هل ترى من الطرفين: العلم والحال، من هو على ما يقتضيه طريقه مما استنبطه أهله الموفقون من الكتاب والسنة، كما أبديناه قبل، وفي هذا الحديث طرف منه؟ كلا، والله، تشعبت الطرق وقلّ السالكون. فإننا لله وإنا إليه راجعون.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

## حديث كراهية كثرة السؤال

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ<sup>(١)</sup> النَّاسَ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مِزْعَةٌ<sup>(٢)</sup> لَحْمٍ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل أن الذي يكثر من سؤال الناس يأتي يوم القيامة وليس في وجهه لحم. والكلام عليه من وجوه:

منها: هل هذا السؤال على العموم في علم أو طريق، أو لا يكون ذلك إلا في حطام الدنيا؟ وإن كان في حطام الدنيا هل إذا<sup>(٣)</sup> كان محتاجاً أو غير محتاج؟ وهل هذا خاص بالرجال دون النساء أو ليس؟ وهل هذه العقوبة لحكمة تعرف أو ليس؟ وهل يدخل في ذلك من تاب قبل موته أم لا؟  
فالجواب: أما السؤال عن العلم فلا يدخل في عموم ذلك، بدليل مولانا، جلّ جلاله.  
﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

وأما السؤال أيضاً عن الطريق فلا يدخل في عمومه، لأنه من إرشاد الضال. وإرشاد الضال من المأمور به. فلم يبق إلا أن يكون في حطام الدنيا. فإذا كان في حطامها فليس على عمومه أيضاً؛ لأن من المأمور به السؤال عند الحاجة، لقوله عليه السلام: (لا بأس للمؤمن أن يشكو حاله لأخيه المؤمن)<sup>(٥)</sup>. ومن أجل ذلك اختلف العلماء في الذي يلحقه الجوع، أيما أفضل له الصبر حتى

(١) يسأل: في هذا السياق بمعنى: يستجدي ويشحذ.

(٢) المِزْعَةُ: القطعة. وجمعها (مِزَع).

(٣) كذا: والصواب: أفإذا.

(٤) سورة النحل، من الآية ٤٣.

(٥) لم أقف على مصدره.

يموت فيكون شهيداً لقوله عز وجل ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾<sup>(١)</sup> أو يكون ماثوماً لقوله ﷺ: (لا بأس للمؤمن أن يشكو حاله لأخيه المؤمن) فإن لم يفعل حتى يموت يكون ممن تسبب في قتل نفسه فيأثم؟ على قولين.

وأما من تاب قبل موته فيرجى أنه لا يدخل تحت ذلك العموم، لقوله ﷺ: (التوبة تجب ما قبلها)<sup>(٢)</sup>. غير أنه يبقى هنا بحث، فالذي يكون مال بيده عند التوبة هل يتناول منه شيئاً؟ أو كيف يفعل به؟ أما بقاؤه بيده فلا يجوز له إبقاء مال حرام بيده؟ بدليل قوله عليه السلام: (لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي)<sup>(٣)</sup>. وأما ما يفعل به فإن كان مما يعرف أصحابه فيرده إليهم، وإن لم يعرف فيتصدق به.

وأما هل هو خاص بالرجال دون النساء أو عام؟ فالجواب: أنه عام، بدليل أن النساء شقائق الرجال في جميع التكليفات، وجرى الإخبار عنهم دون النساء من طريق الأفضلية، وأنهم تلقوا الخطاب كقوله عز وجل ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ﴾<sup>(٤)</sup> والمقصود: هم وأتباعهم. وهنا بحث، وهو: أن من فعله ولم يدم عليه لا يلحقه ذلك الوعيد بدليل قوله (ما يزال) وهذه الصيغة تدل على الدوام.

وفيه دليل على أن جميع الناس محتاجون إلى العلم. يؤخذ ذلك من أنه إذا كان أقل الناس - وهم السُّؤال الذين ليس لهم شيء في الدنيا - يحاسبون على سؤالهم، سواء أكان على ما أمروا به أو تعدوا، فما بالك بالغير؟.

وفيه دليل على أن الجاهل لا يُعذر به أحد. فإنه إذا لم يعذر السائلون - مع شدة مسكنتهم - بالجهل فيما يلزمهم من سؤالهم، فكيف بغيرهم؟

وفيه دليل على أن العلم أفضل الأشياء، إذ به يتخلص الرفيع والوضيع إذا عمل به.

وفيه دليل على جواز سؤال غير المؤمن. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (يسأل الناس) و(الناس) لفظ عام، يدخل تحته المؤمن وغيره. ومن أجل ذلك كان بعض السادة لا يخرج من منزله إلا عند الضرورة، فلا يأتي إلا إلى ذمي، فقليل له في ذلك، فقال: إني لا أخرج إلا محتاجاً. فإذا

(١) سورة الطور، من الآية ٤٨.

(٢) لم أقف على مصدره، والمروي المعروف هو (الإسلام يجب ما قبله).

(٣) رواه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً، ورواه النسائي من حديث أبي هريرة. وهو حديث صحيح. وذو مرة: صاحب قوة ونشاط.

(٤) سورة المؤمنون، من الآية ٥١.

أتيت باب المسلم فأخاف أن يردني ويعود عليه من أجل ردي بلاء، لأنه مأمور بإحياء نفسي، فلا أريد أن يلحقه مني أذى. والذمي ليس هو بي مكلفاً، فإن واساني رجوت له الخير، وإن ردّ لم يخف أن يلحقه مني أذى له.

وفيه دليل على حمل السائلين على التصديق. يؤخذ ذلك من أنه ﷺ لم يجعل لغيرهم فرقاً بين الصادق وغيره منهم. ويذكر عن بعض المباركين أنه مر يوماً فرأى شخصاً غريباً يسأل من يكسوه الله، فجرد ثوباً عنه وأعطاه، وكان ذلك السائل معروفاً عند بعض الناس أنه كان يعمل ذلك حيلة، وربما تصرف بثمان ما يأخذه فيما لا يصلح. فلما انصرف ذلك السيد عنه أخبره شخص أنه رأى ذلك السائل في موضع وليس عليه ذلك الثوب، وأنه يمكن أنه تصرف فيه على غير لسان العلم، فتحرك ذلك السيد لمقالة القائل، وسأله أن يحمله حتى يراه كيف حاله، فلما بلغ إليه ورآه على تلك الحالة التي وُصف بها، سأله ما فعلت في الثوب الذي أعطيتك؟ وكان ثوباً نفيساً يساوي شيئاً كثيراً، فجابهه بأن قال له: اطلب ثوبك ممن أعطيته، واتركني مع من عصيته. فقال: صدقت. وتركه وانصرف. إذا كنت في معروفك صادقاً مخلصاً فكُن في فضل من عاملته مصداً مخلصاً.

وأما قولنا: هل تعرف ما الحكمة في كونه يأتي يوم القيامة ولا مِزعة لحم في وجهه؟ والمِزعة: الشيء اليسير. فمعناه: أنه ليس يكون في وجهه من الحُسن شيء، ولأن حُسن الوجه هو بما فيه من اللحم، ولذلك فإن السُّمن يزيد الوجه حسناً. وذلك لأنه لما أذهب في الدنيا مائة وجهه - وهي ما في الوجوه من الحياء الموجب لترك المسألة - فلما أزاله لغير ضرورة أذهب حسنه الحسي في الآخرة، لأن حسن الحياء الذي في الوجه هو معنوي، وحسن اللحم حسي. والآخرة أمورها حسية مشاهدة غالباً، لأن الحكمة اقتضت أن كل ذنب في الدنيا لصاحبه علامة يعرف بها في الآخرة، وتكون دالة على ذنبه، فيجتمع عليه أمران: عقاب وتوبيخ، من أجل شهرته على جميع العالمين، كما جاء أن شاهد الزور يبعث مؤلماً<sup>(١)</sup> لسانه بنار، وآكل الربا مثل البخت<sup>(٢)</sup> يتخبط مثل السكران، وآكل أموال اليتامى يقوم من قبره وألسنة النار تخرج من منافسه<sup>(٣)</sup>.

(١) مؤلماً: في هذا السياق تعني: محبوساً، فلسان شاهد الزور تلفه النار، وكأنه محبوس بها. والعبرة الواردة في النص (أن شاهد الزور يبعث النخ) لم يتيسر الوقوف على مصدرها.

(٢) البخت: نوع من الإبل (خراسانية) وكأنه يعني أن خلقه غير سوي كسائر المخلوقات. وحديث الإسراء الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة والذي أوله «رأيت ليلة أسري بي» والحديث الذي رواه البيهقي في الدلائل عن أبي سعيد والذي أوله «لما عرج به إلى السماء» فيهما تشبيه بطون أكلة الربا بالبيوت العظام المائلة.

(٣) منافسه: ج مَنْفَس، وهو مكان النَّفَس. وعبرة المؤلف: (وألسنة النار تخرج من منافسه) قطعة من حديث الإسراء الذي رواه البيهقي عن أبي سعيد رضي الله عنه. وفي تفسير ابن كثير لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ وفي كتاب الكبائر للذهبي زيادة إيضاح وشرح لهذا الموضوع.

وتعداد ذلك كثير بحسب ما أخبر به الصادق، عليه السلام. فتكون فائدة الإخبار بهذا وأمثاله التحرز من ذلك الخزي العظيم والعذاب الأليم. أعاذنا الله من الجميع بمنه وفضله. لا رب سواه. وقال: حَسُنْ لِنَفْسِكَ الْعَقِبَى إِنْ كُنْتَ بَصِيرًا، واحذَرْ خِزْيَ يَوْمٍ كَانَ وَجْهُهُ عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا، بتقوى مَوْلَى لَمْ يَزَلْ عَلَيْكَ مِنْعِمًا شُكُورًا.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

## حديث قرآن الحج بالعمرة

عَنْ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، بِوَادِي الْعَقِيقِ<sup>(١)</sup> يَقُولُ: أَنَا نِيَّ اللَّيْلَةِ آتٍ مِنْ رَبِّي فَقَالَ: صَلِّ فِي هَذَا الْوَادِي الْمُبَارَكِ، وَقُلْ: عُمْرَةٌ فِي حَجَّةٍ.

\* \* \*

ظاهر الحديث فيه بحث، وهو: هل يحمل على ما يقتضيه لفظه؟ أو المعنى فيه على وجه آخر؟

فمن قواعد الشريعة تعرف أن (في) ها هنا ليست على حقيقتها، وإنما هي بدل عن غيرها، وهذا في كلام العرب كثير؛ لأنه قد تقرر من قواعد الشرع: أن العمرة لا تُردف على الحج، وأن الحج هو الذي يُردف على العمرة.

وسبب الأمر من مولانا، جلّ جلاله، في هذا الوادي المبارك لسيدنا، ﷺ، أن يصلي فيه، وهو، عليه السلام، قد كان أحرم عند خروجه من المدينة بالحج مُفْرَدًا، وذلك أنه كانت الجاهلية قبل الإسلام يقولون: إن من أفجر الفجور العمرة في أشهر الحج. وكانوا يقولون: إذا عفا الوبَر، وَبَرًا الدَّبَر، ودخل صَفَر، حَلَّتْ العمرة لمن اعتمر. عفا الوبَر: كثر وبر الإبل الذي حُلِقَ بالرحال. وفي رواية: عفا الأثر: أي اندرس أثر الإبل وغيرها في سيرها. ويحتمل أثر الوبَر المذكور. والدَّبَر: جرح في ظهر الإبل من أثر السفر. وَصَفَر هو الشهر الذي يلي المحَرَّم. وكانوا يسمون المحَرَّم صَفَرًا. فأمر الله نبيه، عليه السلام، أن ينسخ فعل الجاهلية بأن يُحَرِّم بالعمرة في أشهر الحج، ويفسخ بذلك الإحرام إحرامه المتقدم بالحج المفرد، ويكون ذلك حكماً خاصاً بذلك

(١) وادي العقيق: هو الوادي المبارك، ويقع بطن وادي ذي الحليفة، وهو الأقرب منها، وهو مُهل أهل العراق من ذات عِرْق. يقع غربي المدينة المنورة، ويشقه طريق مكة. ويكاد عمران المدينة يتصل بمدخله. والطرق إليه منها: باب العنبرية، الطريق شمالي قبة الخضر، المدرج، العقيق (انظر: بين التاريخ والآثار لعبد القدوس الأنصاري ص ٧٦).

الوقت، لأنه لم يأت نص في الأحاديث أن العمرة يجوز إدخالها على الحج. فتكون (في) ههنا على هذا الوجه معناها (عُمْرة بدل حَجَّة).

هذا على القول بأن رسول الله ﷺ أحرم مفرداً، وهو حديث عائشة<sup>(١)</sup>، رضي الله عنها؛ لأن العلماء اختلفوا في حَجَّه وإحرامه ﷺ اختلافاً كثيراً. والأحاديث في ذلك أيضاً مختلفة، وهو موجب الخلاف.

وعلى القول بأنه، عليه السلام، أحرم أولاً بعمرة، فيكون قوله هنا: (عُمْرة في حَجَّة) من المقلوب. ويكون معنى الكلام: (حَجَّة في عُمْرة). وقلب اللفظ عن حقيقته بغير وجه قطعي فيه إشكال. والأول الذي هو بدل الحروف أولى؛ لأنه معروف في كلام العرب ومن فصيحته.

وأما على وجه من قال: إنه ﷺ أحرم قارناً<sup>(٢)</sup>، فيكون الأمر هنا زيادة تأكيد في شأن ما أراد الله، سبحانه، أن ينسخ من فعل الجاهلية، لأن يكون ذلك بالسنة أولاً، وتثبيتاً بالحكم الإلهي ثانياً. ونذكر الآن إشارة إلى ما هو الأظهر من إحرامه ﷺ من أجل الاختلاف الواقع في ذلك. وذلك أنه لما اختلفت الأحاديث من أين كان إحرامه ﷺ: هل من المسجد؟ أو حين استوى على راحلته؟ أو حين توسط البيداء؟ سئل ابن عباس، رضي الله عنهما، عن سبب هذا الخلاف فقال: أنا أخبركم. كنت معه، ﷺ، في المسجد فصلّى، ثم أحرم إثر الصلاة، وهي نافلة، فلبّى، فمن كان هناك روى ما سمع. ثم خرجت معه حتى ركب، فلما استوى على راحلته لبّى، فمن كان هناك روى ما سمع. ثم سار وسرت معه حتى توسط البيداء، والناس أمامه مدّ البصر وخلفه ويمينه وشماله كذلك، وهلل ولبّى، فمن كان هناك روى ما سمع<sup>(٣)</sup>.

وأما الذي جاء في اختلاف إحرامه، عليه السلام، هل كان مفرداً أو قارناً أو بعمرة وكيف الجمع؟ فذلك أن عائشة، رضي الله عنها، قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ، عام حَجَّة الوداع، فمنا من أהלّ بعمرة، ومنا من أהלّ بحج وعمرة، ومنا من أהלّ بالحج، وأهلّ رسول الله ﷺ بالحج.

(١) حديث عائشة أن النبي ﷺ أحرم مفرداً رواه مسلم رقم (١٢١١) في الحج - باب بيان وجوه الإحرام.

(٢) أداء فريضة الحج يمكن أن يتم على ثلاثة أشكال:

(١) حج إفراد: وهو أداء مناسك الحج من غير أداء عمرة في وقت الحج (وهو: شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة).

(٢) حج تمتع: وهو الجمع بين أفعال العمرة والحج في أشهر الحج في سنة واحدة بإحرامين بتقديم أفعال العمرة من غير أن يلزم بأهله إماماً صحيحاً.

(٣) حج قرآن: وهو الجمع بين العمرة والحج بإحرام واحد في سَفرة واحدة.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند، وأبو داود في السنن، وصححه الحاكم في المستدرک وأقره الذهبي. وفي رواية المؤلف ابن أبي جمرة رحمه الله زيادة بعض الألفاظ وهي غير واردة في الكتب الآتفة الذكر.



فأما من أهل بعمره فحلّ، وأما من أهل بالحج، أو جمع بين الحجّ والعمرة فلم يَحِلَّ، حتى كان يوم النحر<sup>(١)</sup>.

وقول سعد في الموطأ للضحّاك: بشس ما قلت يا ابن أخي. قد صنعها رسول الله، ﷺ وصنعناها معه،<sup>(٢)</sup> يعني العمرة في حجة الوداع. وقول حفصة لرسول الله، ﷺ: ما شأن الناس حلّوا ولم تَحِلَّ أنت من عمرتك؟ فقال: (إني لَبَدْتُ رَأْسِي، وَقَلَدْتُ هَذِي، فَلَا أَجِلَ حَتَّى أَنْحَرُ)<sup>(٣)</sup>. وروى عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله، ﷺ، قَرَنَ. وأنه سمعه يقول: (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ بِحَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ مَعًا)<sup>(٤)</sup>.

واختلف الناس في كيفية الجمع بينهما. فمن أحسن ما قيل في ذلك: أنه، عليه السلام، أحرم أولاً مفرداً بالحج. فمن سمع ذلك أخبر بما سمع. ثم فسّخه في العمرة حين أمره الحق، جلّ جلاله، كما تقدم. فمن سمع إهلاله، عليه السلام، بالعمرة مفردة روى ما سمع. ثم إنه، عليه السلام، لما قَدِمَ مكة قبل أن يطوف بالبيت أردف الحجّ على العمرة. فمن سمعه يلتي بهما حدّث بما سمع. فصَدَقَ أن يقال (مفرداً) وأن يقال (متمّعا) وأن يقال (قارنًا) والكل حق، ولا تناقض بينها. وإنما كان يكون التناقض أن لو كانت الأحاديث كلها عن يوم واحد في ساعة واحدة، وهذا لم يوجد. فلا تعارض عند التحقيق، والحمد لله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾<sup>(٥)</sup> فهذا ما أمكن الكلام فيه على قوله (في حجة) على التقريب والاختصار.

وفيه دليل على أن الله، عزّ وجلّ، يفضل ما يشاء من خلقه جماداً أو غيره، فضلاً منه تعالى. يؤخذ ذلك مما قيل له، عليه السلام، (في هذا الوادي المبارك) فسمي بالبركة.

وفيه دليل على أن المقصود منا في الأمكنة والأزمنة المباركة التعبد. يؤخذ ذلك من قوله (صل في هذا الوادي المبارك). فمن أجل بركته أمرنا بالصلاة فيه كما قال تعالى في الأشهر الحرم ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾<sup>(٦)</sup> فنهي عن الظلم فيها لكون الإثم عليه إذ ذاك أكثر مما لو كان في غيرها. والأمر بالشيء نهى عن ضده، والنهي عن الشيء أمر بضده. فلما نهى عن ترك الظلم فيها يلزم فعل الطاعة أو يندب فيها.

(١) رواه البخاري ومسلم كما في جامع الأصول ٣/ ١٤٤ و ١٤٥ و ١٤٦.

(٢) رواه الإمام مالك في الموطأ والنسائي ٥/ ١٥٢ والترمذي رقم ٨٢٣.

(٣) رواه البخاري في الحج باب التمتع والقرآن والإفراد، ومسلم رقم ١٢٢٩ عن السيدة حفصة رضي الله عنها.

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه.

(٥) سورة النساء، من الآية ٨٢.

(٦) سورة التوبة، من الآية ٣٦.

وفيه دليل على تفضيل بني آدم على غيرهم من المخلوقات . يؤخذ ذلك من أن ما فضل من البقع والأزمنة إنما هي من أجل بني آدم ، لكونهم أمروا فيها بالتعبادات ، وَصَّغَ لَهُمُ الثَّوَابَ ، يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> فكانت الفائدة لنا ورحمة بنا .

وفيه دليل على جواز الإخبار بأمر الأمر ، ولا يلزم ذكر الوسطة . يؤخذ ذلك من قوله ، عليه السلام : (أتاني الليلة آتٍ من ربي) ولم يذكر من كان الآتي هل جبريل ، عليه السلام ، أو غيره ؟  
وفيه دليل على تأكيد الركوع <sup>(٢)</sup> قبل الإحرام . يؤخذ ذلك من قوله (صَلِّ فِي هَذَا الْوَادِي الْمُبَارَكِ وَقُلْ : عَمْرَةَ فِي حِجَّةٍ) فلم يؤمر ، عليه السلام ، بالإحرام إلا بعد الركوع ، وإن كان سيّدنا ، ﷺ ، قد سَنَّهَا قَبْلَ . فجاء الأمر هنا تأكيداً لما كان هو ، ﷺ ، سَنَّهُ . وعلى القول - وهو الأظهر - إنه عليه السلام أحرم أولاً مفرداً ، يجوز فسخُ الحج في العمرة إذا كان هناك عذر يوجب ذلك . يؤخذ ذلك من فسحه ، عليه السلام ، الحج في العمرة للعذر الذي قدمنا ذكره .  
ومنه - والله أعلم - أجاز العلماء لمن فاتته الوقوف بعرفة إن شاء أن يفسخ إحرامه في عمرة فعل لأنه عذر يوجب له الخيار بما ذكرنا ، أو يبقى على إحرامه إلى قابل .  
وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا .

(١) سورة الجاثية ، من الآية ١٣ .

(٢) يقصد بـ (الركوع) الصلاة النافلة قبل الإحرام (من إطلاق الجزء على الكل) .

## حديث الإنابة في الحج

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ. أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَذَلِكَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ.

\* \* \*

ظاهره يدل على جواز النيابة في الحج. والكلام عليه من وجوه: منها: هل هو مطلق في الفرض والنافلة، كما يروى عن الشافعي، رحمه الله، أو في النفل لا غير؟ أما على ما ذكرته عن أبيها، لأنه لا يقدر أن يثبت على الراحلة، فالحج ليس بفرض عليه، لأن الله، عز وجل، يقول ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾<sup>(١)</sup> وهذا عادم للاستطاعة، فلا وجوب عليه، ويكون ما فعلته عنه من الحج تطوعاً. فإذا بمقتضى الحديث تجوز النيابة في الحج في النافلة ولا تجوز في الفرض.

وهنا بحث، وهو: هل يحمل ذلك الحكم - أعني النيابة - في جميع التطوعات البدنية، أم لا؟ الجمهور على أن لا. وما أجاز النيابة في الحج - على خلاف بينهم ممن أجازها هل مطلقاً في الفرض والنفل، أو في النفل لا غير - إلا من أجل هذا الحديث، ومن أجل أن معظم ما فيه إنفاق المالية وجعل البدن تابعاً لها، لأن النيابة في المالية جائزة، وفي الفرض بلا خلاف. وأما البدنيات فلا، إلا خلاف شاذ جاء فيمن مات وعليه صوم واجب، هل يصوم عنه وليه أم لا؟ فالجمهور على أن لا يصام عنه، وجاء حديث (يصوم عنه وليه)<sup>(٢)</sup>. فعمل على ذلك بعض العلماء، ولم يصح عند الجمهور العمل به.

(١) سورة آل عمران، من الآية ٩٧.

(٢) روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: من مات وعليه صيام صام عنه وليه.

وفيه دليل على جواز النيابة في العلم. يؤخذ ذلك من سؤال هذه عما يلزم أباها.  
وفيه دليل على جواز نيابة المرأة في العلم. يؤخذ ذلك من أن النبي، ﷺ، لما سأله هذه  
أجابها، ولم ينكر عليها.

وفيه دليل على جواز كلام المرأة والأجانب يسمعونها<sup>(١)</sup>، وإن كان كلامها عورة لا يجوز أن  
يسمعه أجنبي، لكن عند الضرورة جائز. يؤخذ ذلك من كون ابن عباس روى كلامها، وأنه سمعه  
وهو أجنبي منها. لكن من أجل الضرورة لكونه مع النبي، ﷺ. وهذه قد سأله فسمع كلامها.  
ويؤخذ منه جواز الجلوس مع الحكام والفقهاء المفتين، وإن كان الناس تأنيهم رجالاً ونساء.  
يؤخذ ذلك من كون ابن عباس كان مع النبي، ﷺ، حين سأله هذه. وهو المروي عنه، عليه  
السلام، في الأحاديث، لأنه لم يكن قط يجلس إلا ويجلس معه الصحابة، رضي الله عنهم. ومن  
أجل ذلك تقررت الأحكام. ولو لم يكن ذلك جائزاً وكان يكون من الخاص به، لكونه يقرر  
الأحكام، وتنقل عنه، لكان يذكر ذلك ويبينه.

وفيه دليل على تصحيح قاعدة الأبوة، بخلاف ما يقوله بعض أهل التفقه، لأنهم يقولون:  
محتملة. وإطلاقهم هذه الصيغة على هذه الصفة غلط. والبحث فيه أن نقول: لا يخلو أن نرجع في  
ذلك إلى مجرد العقل، ولا نلاحظ في ذلك أمر الشرع، أو نرجع إلى مجموعهما. فإن قال القائل:  
أقول بمجرد العقل عند البحث، ليتقرر حكم العقل في ذلك على أسلوبه، فإن وافق الشرع فحسن،  
وإلا قلنا: هذا بحث العقل، ورجعنا في الأحكام إلى الشرع، فإننا به مأمورون.

فنقول: لا يخلو أن نقول عن الأبوة: محتملة بحسب بلوغ الأمر إلى علمنا، أو بحسب  
وقوعها في الوجود. فإن قلتم بحسب وصوله إلى علمنا فلا فرق بين الأبوة والأمومة، لأن الأمومة  
كذلك أيضاً إما أن تكون بعلم قطعي، أو بحسب وقوعها في الوجود. فالعلم القطعي مثل أن يرى  
خارجاً من رَجِم أمه. فهذا هو العلم القطعي، وهو معدوم في الأبوة أعني القطع بالمعينة. وأما  
الأسباب فتشترك الأبوة مع الأمومة في ذلك، لأن الأمومة إما أن تكون بدعوى أو بشهادة. والأبوة  
تشاركها فيهما، وهذا هو الغالب من الناس، لأنهم لا يعرفون أبوتهم وأمومتهم إلا من طريق  
الدعوى أو الشهادة. فلم يبق في ذلك إلا الرجوع إلى الأمر المنقول منها عن طريق إخبار الصادق  
عليه السلام، من نفيها أو صحتها.

فما جاء من طريق الصادق، عليه السلام، نفيها مثل ابن نوح، عليه السلام، على خلاف فيه

(١) كلام المرأة ليس بعورة، ويجوز للأجنبي أن يسمعه إلا إن كان هناك فتنة (نصّ عليه النووي في أكثر من موضع  
من شرح مسلم).

لقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾<sup>(١)</sup> فنفاه عنه، وذكر عن بعض العلماء أنه كان ملتقطاً عليه<sup>(٢)</sup> لأن زوجة نبي بالإجماع أنها ما بغت قط. لا مخالف في هذا. ومثله قول سيدنا محمد ﷺ حين سأله السائل: مَنْ أَبِي؟ فقال: أبوك حذافة<sup>(٣)</sup>. ونسبه إلى أبيه. وأما ما ثبت فمثل أولاد يعقوب، عليه السلام، فقد ثبتوا بنص القرآن، وكذلك أولاد إبراهيم، عليه السلام، وأولاد سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم.

ومثل أبيه هو، ﷺ، لقوله عليه السلام: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب)<sup>(٤)</sup> وقوله عليه السلام: (أنا ابن الذبيحين)<sup>(٥)</sup>، وقوله، عليه السلام، حين كتب العهد بينه وبين أهل مكة، فكتب علي، رضي الله عنه: محمد رسول الله. قالوا: لو علمنا أنه رسول الله لاتبعناه. فكتب: محمد بن عبد الله<sup>(٦)</sup>. وقوله، عليه السلام، للسائل (إن أبي وأباك في النار)<sup>(٧)</sup>. وقوله عليه السلام: (استأذنت ربي في أن أزور قبر أُمي فأذن لي، واستأذنته أن أزور أبي فمنعني)<sup>(٨)</sup> وقوله، عليه السلام،

(١) سورة هود، من الآية ٤٦.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه. وانظر في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾.

(٣) رواه البخاري في المغازي - باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾.

(٤) قول ضعيف، ومدلول عبارة المؤلف يدل على ذلك.

(٥) يريد بالذبيحين: اسماعيل بن إبراهيم وأباه عبد الله بن عبد المطلب. وقد وقع عليه نذر أبيه عبد المطلب أن يذبحه، ثم افتداه بمائة من الإبل. جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد ٨٨/١ ما يلي: (لما رأى عبد المطلب قلة أعرانه في حفر زمزم، وإنما كان يحفر وحده وابنه الحارث هو بكره، نذر لئن أكمل الله له عشرة ذكور حتى يراهم أن يذبح أحدهم. فلما تكاملوا عشرة منهم: الحارث، والزبير، وأبو طالب، وعبد الله، وحمزة، وأبو لهب، والغيداق، والمقوم. وضرار، والعباس، جمعهم ثم أخذهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله به. فما اختلف عليه منهم أحد وقالوا: أوف بنذرك وافعل ما شئت. فقال: لِيَكْتُبَ كل رجل منكم اسمه في قِدْحِهِ. ففعلوا. فدخل عبد المطلب في جوف الكعبة وقال للسادن: اضرب بقِدْحِهِم، فضرب فخرج قِدْحُ عبد الله أولها. وكان عبد المطلب يحبه. فأخذ بيده يقوده إلى المذبح، ومعه المدينة، فبكت بنات عبد المطلب وكنّ قياماً. وقالت إحداهن لأبيها: أعلر فيه بأن تضرب في إهلك السوائم التي في الحرم. فقال للسادن: اضرب عليه بالقِدْحِ وعليّ عشر من الإبل. وكانت الدية يومئذ عشراً من الإبل. فضرب، فخرج القِدْحُ على عبد الله. فجعل يزيد عشراً عشراً. كل ذلك يخرج القِدْحُ على عبد الله حتى كملت المائة. فضرب بالقِدْحِ فخرج على الإبل، فكبر عبد المطلب والناس معه. واحتمل بنات عبد المطلب أخاهن عبد الله وقدم عبد المطلب الإبل فنحراها بين الصفا والمروة). والرواية: أن أعرابياً قال للنبي ﷺ: يا ابن الذبيحين. (انظر كشف الخفا ١/١٩٩).

(٦) رواه الشيخان عن المسور وعلي رضي الله عنهما.

(٧) رواه مسلم وأبو داود. وفي رسالة للسيوطي في نجاة الأبوين الشريفين أن لفظه (أبي) الواردة في الحديث مُدْرَجَةٌ من الراوي، وله في ذلك أدلة قوية.

(٨) لفظه: استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي. رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

للعباس : (يا عم) <sup>(١)</sup> ولأبي طالب (يا عم) <sup>(٢)</sup> ولصفيّة حين أنزل الله عز وجل ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ <sup>(٣)</sup> : (يا صفية، عمّة رسول الله ﷺ) فإن العمومة لا تثبت إلا بالأبوة الثابتة .

فقد رجع قوله، عليه السلام، هنا التواتر؛ لأنه قد قيل في أقل التواتر: إنه يثبت بأقل الجموع . ومن أهل العلم من قال: إنه يحصل بخبر الواحد . وهنا أكثر من أقل الجموع . والأحاديث في هذا كثيرة، وطرقها مختلفة . وأما التنزيل فقوله عز وجل ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ <sup>(٤)</sup> أي أحسبكم . والحسب لا يثبت إلا بثبوت الأبوة . وقال ﷺ (إن الله اختار من أولاد آدم إبراهيم عليه السلام، واختار من ولد إبراهيم إسماعيل، إلى أن قال، عليه السلام، واختارني من بني هاشم) <sup>(٥)</sup> .

هذا من طريق بحث العقل . ورأينا الشرع قد أثبت هاتين القاعدتين : الأمومة والأبوة، وجعل الاحتمال الطارئ على الأبوة الوصول إليه متعذر، فإنه، عليه السلام، جعل في دعوى الزنى أربعة شهود يَرَوْنَهُ كَالْمِرْوَدِّ فِي الْمُكْحَلَةِ <sup>(٦)</sup> . والتلاعن الذي هو مؤكّد باللعة، والغضب للحرمة، وقال ﷺ : (الولد للفراش وللعاهر الحجر) <sup>(٧)</sup> . وأكد سبحانه هذا بأن قسم الموارث على هذه الأصول وقال عز وجل ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ <sup>(٨)</sup> وقال عز وجل ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ <sup>(٩)</sup> وجعل السبب كحكم الأصل المقطوع به؛ لأنه إذا دخل الرجل بالمرأة، وجاءت منه أو من غيره بولد، وادّعت منه أنه لازم له إلا أن ينفيه باللعان، يشرط مذكور في بابه .

فنرجع الآن للجمع بين العقل ومدلوله في هذه القاعدة؛ هل وافق الشرع أم خالفه؟ فأما على البحث بحكم وصول العلم إلينا فاستوى فيها دليل العقل والشرع من وجه أنه ما وصل إلينا العلم

(١) نداؤه - عليه السلام - عمّة العباس (يا عم) رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي رافع كما رواه الإمام أحمد وأبو يعلى والطبراني عن أم الفضل رضي الله عنها .

(٢) نداؤه - عليه السلام - عمّة أبا طالب (يا عم) رواه الإمام أحمد والترمذي .

(٣) سورة الشعراء، الآية ٢١٤ .

(٤) سورة التوبة، من الآية ١٢٨ .

(٥) رواه الطبراني في الأوسط والكبير عن عبد الله بن عمر مرفوعاً، ولفظه: «وخلق الخلق فاختر من الخلق بني آدم . . الخ . .» كما أخرجه مسلم عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة . . الخ . .

(٦) أخرجه مسلم في اللعان عن أبي هريرة رضي الله عنه في حوار سعد بن عبادة مع النبي ﷺ، كما أخرجه أبو داود في حديث ماعز الأسلمي . واللفظ مختلف .

(٧) متفق عليه من حديث السيدة عائشة وأبي هريرة رضي الله عنهما .

(٨) سورة النساء، من الآية ١١ .

(٩) سورة الحجرات، من الآية ١٣ .

بالأمومة والأبوة إلا بواسطة السبب؛ وكذلك حكمنا بهما إلا فيما ثبت خلافه، وكذلك الشرع ما حكم بهما إلا بواسطة السبب، وهو عقد النكاح ووجوده، فاستوى في ذلك العقل والنقل.

وأما على البحث من كون ظهوره في الوجود فلا فائدة في ذلك الدليل، بدليل أن الشيء إذا وقع في الوجود، ولم يحقق حقيقة كَيْفِيَّتِهِ على الوضع الذي وقع في الوجود إلا بواسطة، فرجع الأمر إلى الواسطة، فدار البحث ورجع البحث الأول الذي عليه يقع الحكم، فيكون ما قَعَدُوهُ توقعاً خيالياً. والتوقع الخيالي لا يُبْنَى عليه حكم؛ لأن هذا - وإن عاينه أحد من الجنس - فهو نادر لا يثبت النسب به إلا بواسطة ذلك المشاهد لذلك الأمر، إن كان ممن تقبل شهادته. ولتعذر ذلك رجع فيه إلى قبول امرأتين، وشهادتهما لا تقبل في غير هذا، ولا يحكم بهما إلا مع اليمين.

فكيف نجعل قاعدة إذا تحققنا البحث فيها من طريق العقل والنقل لا نصل إلا إلى احتمال الإمكان بالتحقيق يطرأ عليها بالنسبة إلى علمنا؟ ولذلك لم تُثَبِّت الشريعة للمَسِّيَّة نسباً مع ابنها، وإن كانت حاملة له بدعواها، ولا إلى أب أيضاً إلا ببيان من خارج. وساوت في ذلك بين الأبوة والأمومة وغيرهما من القربات. ولا سبب يدل عليه مثل الأصل الذي قد دل الشرع عليه بما ربط فيه من العادة والأسباب. فالعقل أيضاً قد ترجحت عنده الأسباب والأصل كما قدمناه، فجعل الاحتمال فيه على حد سواء. هذا مشكل لا خفاء به.

ثم كيف يمكن عند من يفرق بين أن الاثنين أكثر من الواحد أن يطرد القاعدة على ضعف الاحتمال فيها، كما قدمنا في المسألة، وقد جاء فيها دلالة من القرآن أو من السنة أو إجماع الأمة؟ هذا حمق وجهل - إن حَسَّنَا الظن - ما لم يكن في مسألة تختص بسَيِّدِنَا ﷺ، فإن كانت في مسألة سَيِّدِنَا ﷺ فإنه مَنْ شك في أبوته أو نبوته فإنه جمع على نفسه أمرين عظيمين: (أحدهما): الرد على الكتاب والسنة المتواترة، كما ذكرنا أولاً. فوجب بأقل من هذا قتله إجماعاً إلا ما روي عن الشافعي وأبي حنيفة قولاً ثانياً أنها ردة يجب قتله إلا أن يتوب، ومثله قول ضعيف عن مالك، رحمه الله، وليس بمشهور مذهبه، ومشهور مذهبه القتل، ولا يستتاب.

وهنا بحث وهو: لا يخلو ما نقل من الإجماع أن يكون قبل ما ذكر من الخلاف المتقدم عن ذكر، أو يكون الخلاف متقدماً على الإجماع. فإن كان الخلاف منهم قبل، ثم رجعوا إلى الإجماع، فلا تأثير لذلك الخلاف، وتحقق الإجماع. وإن كان الخلاف منهم وقع بعد الإجماع فلا يُعْبَأُ به، والذي نُقِلَ الإجماع في قتله، جماعة، منهم صاحب الاستذكار، وصاحب الكافي<sup>(١)</sup>

(١) صاحب الاستذكار هو نفسه صاحب الكافي، وهو ابن عبد البر، يوسف بن عمر عبد البر. قُزُطْبِي، مالكي توفي سنة ٤٦٣. واسم كتابه كاملاً: (الاستذكار لمذاهب أئمة الأمصار وفيما تضمنه الموطأ من المعاني والآثار)، والثاني: (الكافي في فروع المالكية) ١٥ مجلداً.

والتُّلَمْسَانِي<sup>(١)</sup>، وابن سَبُوع<sup>(٢)</sup>، وابن رُشْد<sup>(٣)</sup>، وابن أبي زيد<sup>(٤)</sup>، وسَخْنُون<sup>(٥)</sup>، والليث<sup>(٦)</sup>، والقاضي عياض<sup>(٧)</sup>، وابن العربي<sup>(٨)</sup>، رحمهم الله تعالى، وجماعة ممن يقرب من هؤلاء في الشهرة، أنسيهم في الوقت، فإن شاء الله أذكرهم، فإن أنسيته فمن وقف على كتابي هذا أو ذكر منهم أحداً فليلحقه وله الأجر، لأن ذلك مساعدة في قاعدة شرعية، وكذلك نقل الكل: أنه من قال لفظاً يدل على شيء من التنقيص في حقه عليه السلام، من أي وجه كان، أو ازدرى به، أو شأنه شيئاً ما، من أي المحتملات والوجوه كان، أنه يقتل له على البحث المتقدم.

والذي أوجب القتل ولم يقل بتوبته اختلف: هل هو حدّ الأدب، أو الكفر؟ فالذي قال: حدّ الأدب فلا تنفع فيه التوبة، لأنه حقّ قد وجب، وإذا وجب الحق فلا فائدة لتوبته. والقائل بأنه كفر قال: هو كالزنديق يقتل، ولا تقبل توبته. والقولان عند مالك، رحمه الله، ومن تبعه.

واختلفوا أيضاً هل يكون قتله كفراً أو حدّاً؟ قولان. والأكثر منهم نقلوا الإجماع على أنه لا يعذر في ذلك بجهل ولا سُكْر ولا فلتة لسان ولا سهو ولا غفلة ولا شيء من الأشياء. والحكم في ذلك القتل عمن تقدم ذكرهم. منهم من نقل مذهب مالك، رحمه الله، ومشهوره وهو القتل. ومنهم من ذكر الإجماع في ذلك غير الخلاف عن الشافعي وأبي حنيفة، رحمهما الله. وقد استدل على قتله بالكتاب والسنة. فبالكتاب قوله عز وجل ﴿قُلْ أَبِإِلَهِهِ وَإِيَّاهُ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾. لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿٩﴾ وأما السنة فقوله ﷺ: (من سب نبياً

(١) التلمساني: أبو مدين، شعيب بن الحسن المغربي الأنصاري الأندلسي. من أهل الحقيقة والشرعية. أصله من الأندلس وإقامته في فاس. خافه سلطان فاس ووشى به علماء الظاهر، وخوفوا السلطان من انتشار أمره، فبعث يطلبه، فطمأن مريديه بأنه لن يرى السلطان ولن يراه السلطان ومات في الطريق إليه سنة ٥٨٩ هـ. له أخبار كثيرة عن كراماته. من أقواله: «حسن الخلق معاشره كل إنسان بما يؤنسه»، و «احذر من يدعي مع الله حالاً يكذبه ظاهره».

(٢) ابن سَبُوع: لم نقف على ترجمته.

(٣) ابن رشد: محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد، أبو الوليد، مشهور باسم (ابن رشد الحفيد). توفي سنة ٥٩٥ هـ. مؤلف: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، في الفقه المالكي.

(٤) ابن أبي زيد: عبد الله بن أبي عبد الرحمن. المالكي، الفقيه، المفسر. له «إعجاز القرآن» ت ٣٨٦ هـ.

(٥) سخنون: عبد السلام بن سعيد: فقيه مالكي، أصله من حمص. قاضي إفريقية. اجتمع مع عبد الرحمن ابن القاسم، واستفاد من إراء الإمام مالك التي ترد إلى ابن القاسم. توفي سنة ٢٤٠ هـ.

(٦) الليث بن سعد: إمام مصر في الفقه والحديث. ت ١٧٥ هـ.

(٧) القاضي عياض بن موسى، أبو الفضل: أندلسي الأصل، محدث، مفسر. توفي في مراكش سنة ٥٤٤ هـ.

(٨) ابن العربي: أبو بكر، محمد. الأندلسي، المالكي: محدث، فقيه، أصولي، مفسر، مؤرخ. قاضي إشبيلية. له كتاب «العواصم من القواصم» وتفسير في (٨٠) مجلداً، وكتاب «المسالك في شرح موطأ مالك» ت ٥٤٣ هـ.

(٩) سورة التوبة، من الآيتين ٦٥ و ٦٦.



فاقتلوه<sup>(١)</sup> وقيل في قتل ابن خَطَل : إنما كان قتله من أجل إذايته له ﷺ، لا من أجل الكفر. والآثار في مثل هذا كثيرة.

وأما (الوجه الثاني) فإن الشك في النسب نفي له، ومن نفاه<sup>(٢)</sup>، عليه السلام، من نسبه فقد وجب قتله، ولا يمكن أن يدخل فيه الخلاف كما دخل في الوجه قبله، لأنه حد قد وجب، فإن القذف حق تعين فيه الحد بالإجماع. ومنهم من نقل الإجماع فيمن قال: إن من سب النبي ﷺ إنه لا شيء عليه، إنه كافر، وكذلك الحكم فيمن سب أحداً من الرسل والأنبياء عليهم السلام.

ثم نرجع إلى الحديث. وأما ما احتجت به الشافعية من (أنه ﷺ سمع شخصاً يقول: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ عن شُبْرُمَةَ فقال له: أَحَجَجْتَ عن نَفْسِكَ؟ فقال: لا. قال: حُجَّ عن نفسك، ثم حُجَّ عن شُبْرُمَةَ)<sup>(٣)</sup> فليس فيه دليل على أن الذي حجه عن شبرمة كان فرضاً، ولا أنه يكون مجزئاً عنه عن فرضه، بل لو قال، عليه السلام، أَدْ فَرَضَكَ ثم حُجَّ عن شبرمة، لكان نصّاً كما زعموا. وأما قوله: (ثم حُجَّ عن شُبْرُمَةَ، معناه: كما تطوعت عنه بما هو في حقه تطوعاً. فإذا وقع الاحتمال سقط الدليل.

وفيه دليل على أن السنة في التلبية تكون جهراً. يؤخذ ذلك من كون الرواة رووا صيغة لفظه عليه السلام جهراً، وكذلك الخلفاء بعده، وبقيت السنة على ذلك إلى هَلُمَّ جَزْراً. والله أعلم. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

- 
- (١) رواه الطبراني في الأوسط والصغير، وفي إسناده من هو متهم بالكذب. ولفظه (من سب الأنبياء قُتِلَ، ومن سب أصحابي جُلِدَ). (انظر: مجمع الزوائد ٦/ ٢٦٠).
- (٢) المعنى: من أنكر نسب النبي ﷺ وجب قتله.
- (٣) رواه أبو داود وابن ماجه وصححه ابن حبان كما في موارد الظمان والبيهقي في السنن الكبرى. و (شُبْرُمَةَ) بضم الشين والراء: صحابي.

## حديث ما يلبس المهرم في الحج

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يَلْبَسُ الْمُحْرِمُ مِنَ الثِّيَابِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا يَلْبَسُ الْقُمُصَ<sup>(١)</sup> وَلَا الْعَمَائِمَ<sup>(٢)</sup> وَلَا السَّرَاوِيلَ<sup>(٣)</sup> وَلَا الْبُرَانِسَ<sup>(٤)</sup> وَلَا الْخِفَافَ<sup>(٥)</sup>، إِلَّا أَحَدٌ لَا يَجِدُ نَعْلَيْنِ، فَلْيَلْبَسْ خُفَّيْنِ، وَلْيَقْطَعْهُمَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ. وَلَا تَلْبَسُوا مِنَ الثِّيَابِ شَيْئًا مَسَّهُ زَعْفَرَانٌ أَوْ وَرْسٌ.

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على منع تلك الثياب المذكورة في الحديث، ومنع الخفاف إذا جاوزت الكعبين، ومنع المزعفر والورس. والكلام عليه من وجوه:

منها: هل المنع مقصور على ما ذكر في الحديث لا غير، أم هو تنبيه بالشيء على باقيه؟ فالظاهر أنه ليس مقصوراً على ما ذكر، لأنه منع من الثياب المتقمص بها: القمص والسراويلات والبرانس. فهم من هذا، على عادتهم في تعدي الأحكام، من قوله (القمص) جميع ما كان مما يشبهه من الأقبية<sup>(٦)</sup> والجباب<sup>(٧)</sup> والقباطي<sup>(٨)</sup> إذا كان مُحِيطاً بالبدن من كل الجهات، فيكون من باب

- 
- (١) الْقُمُصُ: جمع قميص. هو الشعار تحت الدثار، وله كُمَانٌ واسعان يهبطان إلى المعصم، ويتدلى القميص إلى منتصف الساقين.
  - (٢) الْعَمَائِمُ: جمع عِمَامَةٍ. وهي ما يلف على الرأس.
  - (٣) السَّرَاوِيلَاتُ: جمع سراويل. وهي لباس يغطي الشُرَّةَ والركبتين وما بينهما، وهو فضفاض من أعلى وضيق من أسفل، وقد يصل إلى القدمين أو فوق ذلك.
  - (٤) الْبُرَانِسُ: جمع بُرْنَسٍ. وهو كل ثوب رأسه منه، دُرَاعَةٌ كان أَوْجَةً أو مَمْطَرًا.
  - (٥) الْخِفَافُ: جمع خُفٍّ. وهو ما يلبس في الرُّجُل من جلد رقيق.
  - (٦) الْأَقْبِيَّةُ: جمع قَبَاءٍ. وهو ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص، ويتمنطق عليه.
  - (٧) الْجَبَابُ: جمع جُبَّةٍ. وهي ثوب سابغ واسع الكُمَيْنِ، مشقوق المقدم، يلبس فوق الثياب.
  - (٨) الْقَبَاطِي: جمع قَبِطِيَّةٍ. وهي ثياب من كَتَانٍ بيض رفاق، كانت تُنْسَجُ بمصر، وهي منسوبة إلى القبط.

التنبيه بالبعض عن الكل، إلا أنه بهذين الشرطين أن يكون مَخِيطاً ملبوساً على هذه الصفة المذكورة، ولو سُمِّي بأي اسم، فإن الأسماء في الثياب مختلفة في جميع الآفاق منها ما تعرف باللغة، ومنها اصطلاحى بحسب ما جرت عادتهم في ذلك، في الآفاق، فأعطى بوصف (القمص) المنع في كل ما وجدت فيه تلك الصفة، واستعمل في تلك العادة.

فإن فَعَلَهُ لعذرٍ أو لغير عذر افتدى. والفدية في ذلك ما ذكره أهل الفقه في كتب الفروع، ونص الله، عز وجل، عليه في كتابه بقوله، سبحانه ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِّيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾<sup>(١)</sup>. فإن كان مَخِيطاً ولم يلبسه على العادة المعلومة فلا شيء عليه. مثال ذلك أن يكون له قميص، فيتغطى به بالليل أو بالنهار يرميه على ظهره مثل الإحرام، أو مثل المئزر، فلا شيء عليه، لأنه لم يلبسه على ما جرت به العادة في ذلك.

ومنع عليه السلام بقوله (السراويلات) كل ما كان يشبه ذلك. وهو أن يكون يُلبَس من المُحَرَّم إلى أسفل إذا كان مَخِيطاً ودار على الإليتين والفخذين، وإن سمي بأي اسم، أو كان على أي صفة، إذا كان مَخِيطاً. فإن لم يُلبَس على ذلك الوجه الذي جرت به العادة بأن يأخذ أحد السراويل ولا يدخل فيه ساقه، ويشده على وسطه مثل الإزرة<sup>(٢)</sup>، فلا شيء عليه، وإن كان مَخِيطاً، لأنه لم يلبسه على العادة المعروفة في ذلك.

ومنع، عليه السلام، بقوله: (البرانس) كل ما كان يشبه ذلك النوع. وهو أن يكون فيه بعض خياطة، ويلبس بعد إدخاله في العنق، وإن كان بعضه مفتوحاً، سُمِّي بأي نوع سُمِّي، مثل الغفائر<sup>(٣)</sup> والكِباب<sup>(٤)</sup> والبَلْدَرَانات<sup>(٥)</sup> وما يشبه ذلك النوع إذا لُبِسَ على تلك الصفة. فإذا أخذ أحد بُرُئْساً ورماه على ظهره طاقين غير مفتوح الجناحين، أو شدّه على وسطه مثل الإزرة فلا شيء عليه؛ لأنه لم يلبسه على العادة الجارية في ذلك.

ومن هنا اختلف مالك والشافعي، رحمهما الله، فيمن أخذ بُرداً له فخلّلها أو عَقَدَها.. فقال مالك: عليه الدم، لأنه مثل المَخِيط. وقال الشافعي: لا شيء عليه، لأنه ليس مثل ما نُصِّ عليه في المنع. هذا تعليل قولهما. وأما الذي جاء عنهما فالمنع عن مالك، والجواز عن الشافعي.

(١) سورة البقرة، من الآية ١٩٦.

(٢) الإزرة: الإزار. وهو قطعة من النسيج تلتف به النساء العربيات عادة عندما يبرزن للجُمُهور، ويكون كذلك للرجال.

(٣) الغفائر: جمع غَفَّارة. وهي الخرقَة تلبسها المرأة فتغطي رأسها ما قَبْلَ منه وما دَبَّرَ، غير وسطه.

(٤) الكِباب: جمع كَبَّ. وهو شبيه بالبرنس الذي يلبس فوق الثياب.

(٥) البَلْدَرَانات: لباس أندلسي شبيه بالبرانس أو المعاطف.

واختلفا أيضاً في النسيان والعمد، أي من فعل شيئاً مما فيه الفداء ناسياً من هذه أو ما أشبهها من اللباس. فأما مالك فالعمد عنده في ذلك والنسيان سواء، عليه الفدية فيه، والشافعي لا يوجبها في النسيان.

ومنع عليه السلام بقوله (ولا العمامة) كل ما جعل في الرأس بخياطة كان أو بغير خياطة؛ لأنه إذا منعنا الذي ليس بمَخِيْطٍ - وهي العمامة - فمن باب أولى المَخِيْطُ. ولذلك نص العلماء على أن إحرام الرجل في وجهه ورأسه، أي لا يغطيها بشيء، فتكون العمامة التنبيه بها من باب الأعلى؛ لأنه أعلى ما يُسْتَرُّ به الرأس عند العرب العمامة، لُبِسَتْ على أي وجه كان بخلاف البدن؛ لأنه إذا غطي رأسه ولو بخرقه، أو بعضه، لزمه الفداء، لأنه منع كل ما كان بغير خياطة، كما قدمناه، فهو منع كلي، سُمي الذي جُعِلَ على الرأس بأي اسم كان، أو جُعِلَ على أي شكل كان.

ومنع، عليه السلام، بقوله (ولا الخفاف، إلا أحدًا لا يجد نعلين). فَلْيَلْبَسْ خَفَيْنِ، وَلْيَقْطَعْهُمَا أسفل من الكعبين) منع الخفاف وما أشبهها إذا جاوزت الكعبين، على أي نوع كان، سُمي بأي اسم سُمي، وأن المستحب في ذلك التعلان، وهما اللذان لا كعب لهما معطوفاً، مثل القُرْقُ (١) أعني: السَّرْمُوجَةَ (٢)، وما يشابهها من أنواع.

ومنع، عليه السلام، بقوله (ولا تلبسوا من الثياب شيئاً مسّه زعفران أو ورس) جميع الطيب، لأنه أقلُّ رائحة من الطيب قبل أن يُصبغ به، فإذا صُبِغ به كانت رائحته أقل وأقل، فهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى.

فيتحصل من الفقه بالمدلولات التي ذكرنا أن الحاجَّ ممنوع من جميع الطيب والزينة والرفاهية والتنعم، قل ذلك أو كثر، إلا ما أحكمته السنة في ذلك من لباس الثوب الذي يستر العورة، وبقي البدن من الأذى، على ما هو منصوص في كتب الفروع.

وهنا بحث، وهو أن المتكلم يخاطب السائل بحسب ما يعلم أنه يفهم عنه. يؤخذ ذلك من جواب سيدنا، عليه السلام، الأعرابي بما ذكر في الحديث. فلولاً أنه، عليه السلام، فهم عنه ما بيناه لم يقتنع منه بما في الحديث حتى يبالغ له في البيان.

ويترتب عليه من الفقه أنه لا يجوز أن يُنْظَر في حديثه عليه السلام ولا في كتاب الله، عز وجل، إلا بما يقتضيه اللسان العربي لا غير، ولذلك قال تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَنُهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٣) أي يفهمون بما تقتضيه اللغة العربية، فيحصل لهم فهم ما أريد منهم، فيتذكرون عند ذلك.

(١) القُرْقُ: وهو عند الأندلسيين يشبه الصندل، وتكون قاعدته من الفلين.

(٢) السَّرْمُوجَةُ: غطاء من لباد للساق، يلبس فوق القُرْق أو الخف. أو هي الخف الواسع الذي يلبس فوق الخف.

(٣) سورة الدخان، من الآية ٥٨.

وفيه دليل على البحث في جزئيات الدين . يؤخذ ذلك من سؤال السائل سيّدنا ﷺ عن هذه الجزئيات ، فجوابه ، عليه السلام ، عليها . وجوابه على ذلك يقتضي جوازه<sup>(١)</sup> .

وفيه دليل على جواز السؤال في الدين ، وإن كان الشخص ممن لا يحتاج إلى ذلك في الوقت . يؤخذ ذلك من سؤال هذا عما يلبسه المُحَرِّم ، وهو في الوقت ليس بمُحَرِّم . ومن هذا ذكر أن الشافعي بات عند بعض الأئمة المعاصرين له - وكان ذلك الإمام الغالب عليه التبعد - وإن كان ذلك حال الأئمة أجمعين ، رضي الله عنهم ، فبات ذلك العالم قائماً يصلي ، والشافعي مضطجعا ، فلما أصبح قالت امرأة العالم : هذا هو الشافعي الذي تنني عليه ، بَتَّ أنت قائماً تصلي ، وهو مضطجع ، لم يتحرك ليلته . فذكر ذلك للشافعي فقال له : إني جمعت البارحة في فكري ثمانين مسألة مستنبطة بالدليل والبرهان . فقال ذلك السيّد لامرأته : هذا الذي عنيته بالاضطجاع استنبط البارحة ثمانين مسألة ، مسألة واحدة منها خير من عبادتي كلها . فانظر فضل جميعهم وتناصّفهم واحترامهم للعلم ، رحمهم الله . وهو الحق إذا كان الله .

وهنا بحث ، وهو : هل هذه الصفات التي كُلف الحاج بها من ترك المخيط ، وترك الطيب وترك الرفاهية ، هل الحكمة فيها معروفة ، أو تعبد لا يعقل له معنى ؟ فإن قلنا : تعبدٌ ، فلا بحث . وإن قلنا : إن قواعد الشريعة تنبني على نظر الحكمة فيها ، وقد أرشد الكتاب العزيز إليها ، ولولاه ما كانت آيات كثيرة إذا نظر فيها لم توجد الحكمة فيها ظاهرة ما قبل ذلك ، وهو قوله تعالى ﴿ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾<sup>(٢)</sup> فإذا لا يُخَص هذا اللفظ بشيء من آياته دون شيء ، أو يجعله في المحسوس مثل ما قاله بعض الناس : من كونها لم يَر بها مجذوماً . وما في رمي الجمار من كونها تُرمى في كل عام ولا يوجد لها أثر ، فهذه مما هي البعض ، وفيها تنبيه لمن ينظر ويتفكر يجدها عديدة ، وكل يأخذ من عموم هذه الآي بحسب ما يُفَتِّح له من الفهم ، فإن الحكمة عجيبة .

فمما يظهر بتوفيق الله من الحكمة وجهان :

(أحدهما) وهو كونهم يمشون لكشف ما بهم من الأوزار والأنقال ، ومن يمشي إلى مثل هذا الحال فيكون مشيه متذلاً خارجاً عن حظوظ النفس التي أوقعته في ارتكاب الذنوب ؛ لأنه جاء عنه ﷺ لما قال مولانا ، جلّ جلاله ، للملائكة : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) أي : البحث في الجزئيات .

(٢) سورة آل عمران ، من الآية ٩٧ .

(٣) سورة البقرة ، من الآية ٣٠ .

(غضب الله، عز وجل، عليهم، فطافوا بالعرش أسبوعاً، واستغفروا وتابوا، فتاب بفضلهم عليهم، ثم قال لهم: ابنوا في الأرض بيتاً يطوف به المذنبون من بني آدم، فأتوب عليهم، كما تبت عليكم، وأغفر لهم كما غفرت لكم. فبنوا البيت<sup>(١)</sup>). فمن يأتي بهذه الصفة ينبغي من طريق الحكمة التناسب بين الحال والمقصد.

أما ترى لما كان الخروج إلى العيد إلى طلب رحمته، عز وجل، عقب خروجهم من العبادة المتقدمة - وهي الصوم - كانت بالطيب وحسن الثياب موافقة لحال الاستقامة والامثال لما به أمروا؟ ولما كان الخروج إلى الاستسقاء خروجاً إلى كشف ما نزل من الضر كان الخروج على هيئة تضرع ومسكنة من أجل ما ارتكبوا من الذنوب، لأنه جاء أن العبيد إذا أذنبوا منع الله، عز وجل، عنهم المطر من أجل ذنوبهم، فخرجوا في مَسْكَنَةٍ وَقَشَفَ<sup>(٢)</sup> من الحال، حتى يكون رفع الأيدي بظهورها إلى السماء رَهَباً من أجل تناسب الحال. فكذا هنا، بل يكون هذا أعظم لأن الطلب فيه أعظم.

وفيه (وجه آخر): لما كان فيه شَبَهٌ بالمحشر، لأن المحشر يجتمع فيه الناس في يوم واحد من كل الأرض. وكما أن المحشر هو مواقف، كذلك هنا مواقف للجمار، ومواقيت للميت بمنى وبالمزدلفة إلى غير ذلك، كما أن الخروج من هذه الدار ومفارقة الأهل والمال وليس له من ذلك كله إلا قدر زاده إلى الآخرة من الكفن وما يتجهز به، كذلك الحاج مفارقه للأهل والوطن الذي قد جعل مقرونًا بالموت لقوله عز وجل ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾<sup>(٣)</sup>، وكذلك ليس له من ماله إلا قدر زاده لسفره. وهذا على الغالب من عادات الناس، والغير يتركه كله.

وكما له بعد الموت مواقف دون القيامة وأهوال، يخلص الله منها من يشاء، أو يهلك فيها من يشاء، كذلك طريق الحج ما فيه من المكابدة، وقد قال الله تعالى ﴿لَمْ تَكُونُوا بِهِ لَبِغِينَ إِلَّا لِبِشْقِ الْأَنْفُسِ﴾<sup>(٤)</sup>. ومن الناس من يهلك في طريق الحج كما يهلك هناك. غير أن بين الهالكين فرقاً ما، لأن الهالك هنا يذهب بالروح من الجسد، وقد تكون فيه سعادته، وهناك بكثرة الأهوال وعدم التخلص منها، فهو هلاك شقاوة وخسران. غير أنه هناك يقفون عراة، وقد كانوا يقفون قبل الإسلام عراة، إلا أنه أحكمت السنة هنا نوعاً من اللباس من أجل ستر العورة؛ لأن ذلك الهول هناك يمنع أن

(١) لم تقف على مصدره.

(٢) الكشف: المذلة.

(٣) سورة النساء، من الآية ٦٦.

(٤) سورة النحل، من الآية ٧.

ينظر أحد عورة أحد، وليس هنا مانع من النظر، فأمر بسترها. هناك لا طيب فيه لأحد، وهنا مثله. وهناك الأمر فيه والحكم لله لا لغيره، وذهبت الدعاوى كلها، كذلك هنا فيها يرجى من المغفرة، لا حيلة في ذلك لأحد. الكل مستسلمون، ينتظرون ما يحكم الله، عز وجل، فيهم.

وقد أخبر عن بعض المباركين أنه لما أن حج وفرغ غلبت عيناه، فنام، فرأى كأن ملكين نزلا من السماء فقال أحدهما للآخر: كم حج بيت ربنا العام؟ قال له: ستمائة ألف. قال: كم قيل منهم؟ قال: ستة. فاستيقظ مذعوراً وقال: من لي حتى أكون واحداً من ستة؟ ثم نام ثانياً، فرأى الملكين قد نزلا وأعادا السؤال الأول، ثم الثالثة مثل ذلك، فقال له: فما فعل ربنا في الباقيين؟ قال: شفع كل واحد منهم في مائة ألف. واستيقظ فرحان. فجاء الشبه على هذه الحكاية مثل القيامة. ناج وضده، ومقبول وغير مقبول، ومشفوع فيه وشافع. لكن بإذنه وفضله، وقد يكون للمجموع.

ويترتب عليه من معرفة الحكمة أنه لا يُنال الخطير من القرب إلا بالخطير من المجاهدات والتعبادات؛ لأنه لما كان هذا موطناً تغفر فيه الجرائم العظام، كما جاء عنه ﷺ: (أنه لم يُرَ الشيطان أصغر ولا أحقر من يوم عرفة، لما يعاين من تجاوز الله عن الكبائر العظام، يحثو التراب على رأسه ويقول. قَوْمٌ قد فَتَنْتَهُمْ منذ خمسين أو أربعين سنة ثم غُفِرَ لَهُمْ في ساعة<sup>(١)</sup>). أو كما قال عليه السلام. فالوصول إلى هذا ليس بالهين، بل بالجهد العظيم إلا من من الله عليه بالتيسير من طريق الفضل.

وفيه تنبيه على أن يتذكر به ذلك الموقف الذي يشبهه فيكون سبباً لصدق اللجأ إلى المولى الكريم، وكثرة الرغبة إليه، وإظهار الافتقار الذي به يرجى الخير كله لقوله تعالى ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾<sup>(٢)</sup> وهو سبحانه لا يُخْلِفُ الميعاد.

جعلنا الله ممن منّ عليه بفضله بلا محنة. لا رب سواه.  
وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ مرسلاً. قال الزرقاني: وصله الحاكم في المستدرک عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وأوله: ما رُئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أغبط منه في يوم عرفة. الخ.

(٢) سورة النمل، من الآية ٦٢.

## حديث جواز الشرب من السقاية

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، جَاءَ إِلَى السَّقَايَةِ<sup>(١)</sup> فَاسْتَقَى . فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا فَضْلُ، اذْهَبْ إِلَى أُمِّكَ، فَاتِّبِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، بِشَرَابٍ مِنْ عِنْدِهَا . فَقَالَ: اسْقِنِي . فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ أَيْدِيَهُمْ فِيهِ . قَالَ: اسْقِنِي . فَشَرِبَ مِنْهُ، ثُمَّ أَتَى زَمْزَمَ، وَهُمْ يَسْقُونَ وَيَعْمَلُونَ فِيهَا . فَقَالَ: اعْمَلُوا، فَإِنَّكُمْ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ . ثُمَّ قَالَ: لَوْلَا أَنْ تُغْلَبُوا لَنَزَلْتُ حَتَّى أَضَعَ الْحَبْلَ عَلَى هَذِهِ . يَعْنِي عَاتِقَهُ . وَأَشَارَ إِلَى عَاتِقِهِ .

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على طهارة الماء المستعمل، وهو مذهب مالك، رحمه الله، ويدل على طهارة المؤمنين، ومدح أفعال البر للذين يفعلونها . فأما طهارة المؤمنين والماء فلكون النبي ﷺ، شرب من السقاية بعد أن أُخْبِرَ أن الناس يضعون فيها أيديهم، وإن كان وقوع النجاسة يتطرق بالاحتمال لبعضهم، بعلم منه أو بغير علم . فبين ﷺ، بشربه أن الممكن في هذا الموطن وما أشبهه من المياه وما يمكن أن يكون قد خالطها من طريق الاحتمال لا يُلْتَقَتْ إليه، وإنما يُعْمَلُ على ما تحقق من ذلك، وأن الأصل البراءة فيعمل عليه، وأن الماء طاهر في ذاته، كما جاء في بئر بُضَاعَةَ<sup>(٢)</sup> الذي كان يُرمى فيه خرق الحيض، وكان مستقذراً في الظاهر، فسنل عنه، عليه السلام فقال: (خلق الله الماء طهوراً لا ينجسه شيء إلا ما غَيَّرَ طَعْمَهُ أو لَوْنَهُ)<sup>(٣)</sup> فطرد القاعدة وألزمها استصحاب

(١) السقاية: موضع السقي، والإناء الذي يُسْقَى به .

(٢) بئر بُضَاعَةَ: (بضم الباء، وقد كسره بعضهم) وهي دار بني ساعدة في المدينة المنورة، وبئرها معروفة . وفي الخبر أن النبي ﷺ أتى بئر بُضَاعَةَ فتوضأ من الدلو، وردّها إلى البئر، وبصق فيها، وشرب من مائها . وكان إذا مرض المريض في أيامه يقول: اغسلوني من ماء بُضَاعَةَ . فيُغْسَلُ، فكانوا أنشط من عقال . وقالت أسماء بنت أبي بكر: كنا نغسل المرضى من بئر بُضَاعَةَ ثلاثة أيام فيُعافون بإذن الله (انظر معجم البلدان ١/ ٤٤٣) .

(٣) لفظ الحديث: إن الماء طهور لا ينجسه شيء . أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي سعيد رضي الله عنه .



الحكم . وعلى هذا أجاز الفقهاء الوضوء من الجوابي التي على الطرق والدواب تشرب منها، ويخالطها ما في أنوفها من القذر، إلى غير ذلك مما في أيدي الناس وأرجلهم من الغبار، واحتمال النجاسة أن تكون حلت فيه .

وفيه دليل على طلب شرب الماء، وإن كان في الحَضَر، وليس كغيره . وقد ذكر ذلك بعض الفقهاء .

وفيه دليل على أن ما جُعِل في السبيل ولم يُسمَّ بصدقة أنه حلال للغني والفقير، وليس بصدقة، ولا يتعين على أحد فيه مِنَّة . يؤخذ ذلك من أن النبي ﷺ شرب من عمل هؤلاء، أهل السقاية، وهم الكل خرجوا عنه الله، فلو كان يجري مجرى الصدقة لما شربه هو، ﷺ، فإن الصدقة عليه حرام، وكذلك لو كان فيه مكروه ما فعله، ﷺ . يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام جاء بنفسه المكرمة إلى السقاية فاستسقى .

وفيه دليل على جواز جواب السائل بأعلى مما طلبه على ما يراه المطلوب منه . يؤخذ ذلك من قول العباس بدلاً من أن يعطي قال للفضل : ( اذهب إلى أمك، فأت رسول الله ﷺ بشراب ) .

وفيه دليل على جواز ذكر النساء بمحضر أهل الفضل وجمع الناس، وليس في ذلك مكروه . يؤخذ ذلك من قوله ( اذهب إلى أمك ) بحضرة النبي ﷺ ومن معه، ولم يعتب عليه النبي ﷺ، وما قال له في ذلك شيئاً . وجرت عادة بعض الناس اليوم إذا ذكروا النساء ذكروا بعد ذلك : ( حاشاك ) وجعلوها من الأدب، بل هي من البدع .

وفيه دليل على جواز تبريد الماء . يؤخذ ذلك من قوله ( اذهب إلى أمك فأت بشراب ) لأن ماء الحجاز إذا عَرِبَ<sup>(١)</sup> برد وطاب . فلو لم يكن جائزاً ما فعله العباس، ولا سكت له النبي ﷺ، حين سمعه .

ويؤخذ منه أن الذي يقصد وجهاً ما في حاجته ليس عليه بيانها . يؤخذ ذلك من أن النبي ﷺ، لم يمنعه من قبول ما أمر العباس به ابنه من إتيانه بالماء إلا ما قصد هو ﷺ من تقعيد قاعدة شرعية - كما قدمنا ذكرها - من طهارة الماء المستعمل وغيرها . وزيادة على ذلك رفع التكلف؛ وهي طريقته، عليه السلام، لقول عائشة، رضي الله عنها : ( ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً<sup>(٢)</sup> ) .

(١) عَرِبَ الماء: صفا وكثر .

(٢) متفق عليه . وهو جزء من حديث، وتماهه : ( فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تُنْتَهَكَ حرمة الله فينتقم ) .

وفيه دليل لأهل الصوفة الذين يقولون بترك التكلف .

وفيه دليل على أنه إذا اجتمع حظ النفس وأمر ما في الدين - ولو كان مندوباً - قُدِّمَ الدين .  
يؤخذ ذلك من أن شرب الماء البارد فيه راحة للنفس ، والشرب من السقاية فيه من الفوائد الدينية ما ذكرناه ، فآثر هو ﷺ ما هو للدين على ما هو للنفس . وقد نص ، عليه السلام ، على ذلك فقال :  
(أنتم في زمان يُبدون أعمالهم قبل أهوائهم ، وسيأتي زمان يُبدون أهواءهم قبل أعمالهم) <sup>(١)</sup> .

وما قلنا : إنه من قصد مقصداً في فعله لا يلزمه ذلك - بمقتضى ما قدمناه - هل يعارضنا قوله ، عليه السلام ، حين صلى بوضوء واحد الظهر والعصر <sup>(٢)</sup> ، ولم تكن عادته ، عليه السلام ، قبل إلا الوضوء لكل صلاة ، فذكره عمر ، رضي الله عنه ، فقال عليه السلام : (عمداً فَعَلْتُهُ يا عمر) .  
فالجواب عن الفرق بين المسألتين أن تلك كانت له عادة ، فذكره عمر من أجل احتمال النسيان ، فحينئذ جاوبه عليه السلام ، لرفع الإشكال . وهنا لم تكن عادةً متقدمةً يقع من أجلها إشكال ، ففعل ولم يقل ، لعلمه أن فعله في التعليم أبلغ وأثبت .

وفيه دليل على أن المرأة هي المتصرفة فيما في البيت . يؤخذ ذلك من قول العباس (اذهب إلى أمك) فلو لم يكن الحكم والتصرف لها لقال له : اذهب أنت إلى الموضع الفلاني ، أو إلى الشخص الفلاني الذي يكون له التصرف . ويؤخذ منه الندب إلى مشاركة الأهل في المعروف .  
يؤخذ ذلك من قوله لابنه (اذهب إلى أمك فائت رسولَ الله ﷺ بشراب) لكي يخبرها ، فيحصل لها نية في تحسين الشراب وتنظيف الإناء ، فيكون لها في ذلك أجر وسرور .

وفيه من الأدب أن يُكنَى عن الشخص بأعلى أسمائه . يؤخذ ذلك من قوله (ائت رسول الله ﷺ) لأنه أعلى أسمائه عليه السلام ، ولم يقل : ابن أخي ، ولا غير ذلك .  
وفيه دليل على أن الاختصار في الجواب والسؤال ، إذا فهم المقصود ، هو الأولى . يؤخذ ذلك من قوله ، حين ذَكَرَ له أنهم يجعلون أيديهم فيه ، (اسقني) ولم يَزِدْ على ذلك شيئاً .

وفيه دليل على أن من السنة الانصراف عند الفراغ من الشراب أو الأكل . يؤخذ ذلك من قوله (فشرب منه ثم أتى زمزم) أي تحوّل بعد شربه منه إلى أن مشى إلى زمزم . ومن المعروف إتيان

---

(١) لم نقف على مصدره هكذا ، وقد تقدم الكلام عنه في الحديث (١٤) فليراجع . ونصه كما ورد : (إنكم أصبحتم في زمن كثير فقهاؤه ، قليل قزّاءه وخطبائه ، قليل سائلوه ، كثير معطوه ، العمل فيه خير من العلم ؛ وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه ، كثير خطبائه ، قليل معطوه ، كثير سائلوه ، والعلم فيه خير من العمل) .  
(٢) هكذا قال الشارح ، رحمه الله تعالى . والذي في الصحيح أن النبي ﷺ صلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد ، ومسح على خفيه . فقال عمر : لقد صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه . فقال عليه السلام : عمداً صنعت يا عمر . رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

المعروف بالمعروف، لأنه عليه السلام مشى من هنا بعدما قَعَدَ أحكاماً - كما ذكرنا - إلى موضع آخر، وإن كان الحكم فيهما سواء، لأن هؤلاء يسقون، فيكون مشيه، عليه السلام، لهؤلاء الآخرين لإدخال السرور عليهم، لأنه، عليه السلام، لو لم يمشِ لهؤلاء لبقيت قلوبهم منكسرة. وكان الناس أيضاً يفضلون السقاية على زمزم يقولون: النبي ﷺ أتى السقاية، ولم يأت زمزم. فجاء مشيه، عليه السلام، إلى هؤلاء معروفاً ثانياً.

وقوله (فقال: اعملوا فإنكم على عمل صالح). يؤخذ منه ندب العمل لأهله إذا كانوا يعملونه كما قدمناه أولاً. وفيه من الفائدة أنه تنشيط للعامل على عمله، وترغيب له فيه، وقد قال عز وجل ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾<sup>(١)</sup> بخلاف مدح الشخص لقوله عليه السلام: (قطعتم ظهر الرجل)<sup>(٢)</sup>، لأن مدح الذات قد يحصل منه العُجب، وهو سُوءٌ قاتل، ومدح العمل ليس فيه ذلك، بل هو كما ذكرناه ترغيب فيه، مثال ذلك إذا رأيت شخصاً يصوم تذكر له ما جاء في الصوم، أو يجاهد تذكر ما جاء في الجهاد، فذلك تقوية له على ما هو بسبيله.

وقوله (على عمل صالح) أي تُشابون عليه، لأن الأعمال الصالحات فائدتها ما يترتب عليها من الثواب.

وفيه جواز ترك العمل ما لم يكن فرضاً، لما يترتب عليه من منع توفيته أو مكروه يقع من أجله. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (لولا أن تُغلبوا لَنَزَلْتُ حتى أضَعَ الحبل على هذه) فبين، عليه السلام، أنه ما منعه من الفعل إلا أنهم يُغلبون عليه حتى لا يتركوه، وقد يحصل لبعضهم من الازدحام عليه من أجل ما يرغبون فيه، أذى.

وفيه دليل على طلب التبرك بالمباركين. يؤخذ ذلك من أنهم لم يكونوا يأخذون الحبل معه عليه السلام، إلا أنهم يرغبون في البركة التي تحصل لهم من اجتماعهم معه، عليه السلام، في حبل واحد، فإنه يرجى من الكريم إذا قِيلَ عملٌ من له عنده حُرمة لا يترك<sup>(٣)</sup> من كان معه فيه مشاركاً، كيف وقد قيل: (هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ)؟ فهذا بالمجالسة فكيف بالمشاركة؟

ويترب على هذا بحث يَحُضَّرُ على مخالطة أهل الفضل في كل الأحوال رجاء الفضل من فضلهم، لأنهم ما جُعِلُوا إلا رحمة. فينبغي أن نغتنم تلك الرحمة من واهبها. ولذلك فاق أهل الصوفة الناس في هذا التحسين في ظن بعضهم ببعض.

(١) سورة المائدة، من الآية ٢.

(٢) رواه البخاري في الشهادات ومسلم في الزهد عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) يريد: ألا يترك.

وقد دخلت قرية بالأندلس تسمى (بَلْفِيْق) <sup>(١)</sup> وكانت موطن الشيخ المبارك أبي إسحاق <sup>(٢)</sup>،  
نفع الله به وبأمثاله، فلا تمشي فيها تسأل أحداً منهم عن أحد: أين هو؟ إلا أن يكون جوابه عن ذلك  
الشخص: سيدي فلان، نفع الله به، في الموضع الفلاني. هذا في غيبة الشخص. وأما بحضرته فلا  
يزيد أحد منهم لأحد على السلام الشرعي شيئاً، وإن ناداه باسمه لا يزيد عليه شيئاً. هكذا رأيتهم  
مدة ما كنت معهم، لم يتغيروا عنه.

وفيه دليل على الكلام بالإشارة، وليس من العي. يؤخذ ذلك من قوله (على هذه وأشار  
إلى عاتقه).

وفيه دليل على أن إشارة ذي الفضل ليس فيها اعتراض عليهم، ولا تَنَقُّص بهم، ولا خلل في  
متزلتهم. يؤخذ ذلك من إشارته، عليه السلام، إلى عاتقه.

وفيه دليل على أن الحكم للمعاني لا لظاهر الألفاظ. يؤخذ ذلك من أن إشارته، عليه  
السلام، إنما باشر بظاهرها الثوب الذي على العاتق، والمعني بها العاتق الذي تحته.

وفيه دليل لأهل الإشارات، وأن الإبلاغ فيها فيما خفي ودق. يؤخذ ذلك من فعله، عليه  
السلام، ما تقدّم ذكره من الإشارة إلى العاتق. والمقصود: تلك النفس المباركة.

وهنا بحث وهو، لم قال لأهل زمزم: (اعملوا فإنكم على عمل صالح)، وقال في الصلاة:  
(أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة) <sup>(٣)</sup>؟ فوجه الفقه في ذلك أنه ما كان من النوافل من  
جميع الخير، يمكن فيها الإخفاء والإظهار، فالإخفاء أفضل. وما كان منها لا يمكن بالوضع  
إخفاؤه، كمثل السقاية وتدريس العلم والجهاد وما أشبه ذلك، فالأفضلية فيه بتعدي النية فيه لقوله  
عليه السلام (أوقع الله أجره على قدر نيته) <sup>(٤)</sup>.

ومن أجل هذا الشأن فضل أهل السلوك غيرهم، لأنهم ناظرون أبداً في ترفيع أعمالهم: إما  
بالنية أو بالقول أو بالفعل أو بالزمان أو بالمكان أو بالمجموع، ولذلك قال ﷺ: (كفى بالعبادة

(١) بَلْفِيْق: قرية أندلسية من إقليم المرية. ويروي التلمساني في (نفع الطيب) أن بلفيق وأندرش لم ترتدا عن الإسلام

بعد خروج المسلمين من الأندلس، وذبح سكانهما عن بكرة أبيهم أيام محاكم التفتيش.

(٢) أبو إسحاق: هو إبراهيم بن مسعود الألبيري شاعر أندلسي، وفقه زاهد. اشتهر بفرناطة وأنكر على ملكها كونه  
استور ابن نغزلة اليهودي، فتفي إلى البيرة، فثارت صنهاجة على اليهودي وقتلوه. له ديوان شعر معظمه في  
الزهد. ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٨م.

(٣) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٤) جزء من حديث طويل رواه الإمام مالك والإمام أحمد وأبو داود والنسائي في الجنائز.

شُغلاً<sup>(١)</sup>، لأن صاحب هذا الشأن مِثْلُ تاجر الدنيا على معظم ما معه من المال لا يزال في تنميته بجميع وجوه التنمية. فكذلك أهل المعاملات مع مولاهم ليس لهم شغل ولا قُرَّة عين إلا فيما فيه رضاؤه عز وجل.

ولبعضهم: إن العين إذا لم تَرَكم لم تَرَ شيئاً يسرها، وإذا أبصرتكم لم تَرَ شيئاً يسوؤها. فبتجلي جلالكم جَبُرَ كَسْرُهَا، كجبر غيث السماء في جذب أرضها. فيحرمة ما تعلمون من ضعفها، فلطفكم جبر لِرَهْفِ حالها.

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) جزء من حديث رواه البيهقي في شعب الإيمان وأوله: كفى بالموت واعظاً، وكفى باليقين غنى... إلخ.

## حديث تقديم صلاة الفجر بالمزدلفة يوم النحر

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَلَّى صَلَاةً لِغَيْرِ مِيقَاتِهَا إِلَّا صَلَاتَيْنِ: جَمَعَ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، وَصَلَّى الْفَجْرَ قَبْلَ مِيقَاتِهَا. وَذَلِكَ فِي الْحَجِّ.

✽ ✽ ✽

ظاهره يدل على إيقاع هاتين الصلاتين في غير وقتيهما. وليس على ظاهره، بدليل أن أوقات الصلوات قد حدّتها جبريل، عليه السلام، للنبي ﷺ، وقال: (ما بين هذين وقتاً) <sup>(١)</sup>. ولكن لما كانت عادته، عليه السلام، في صلاة الصبح أنه ما يصلّيها إلا بعد الفجر بهنيئة، كما جاء أنه، عليه السلام، كان يصلّيها بغلَس <sup>(٢)</sup> - والغلَس بقية من ظلمة الليل - وفي المزدلفة عند أول انشقاق الفجر <sup>(٣)</sup>. فأخرجها - يعني وقوع الصلاة نفسها - عن الوقت الذي كان يوقعها فيه، كما تقدم.

ولذلك ذكر أنه لما حجّت ميمونة، رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ، بعد وفاته، مع عثمان، رضي الله عنه، فلما كان في الصبح من ليلة المزدلفة عند أول انشقاق الفجر قالت: إن كان عثمان يوافق السنة فنصلي الآن. فلم تتمّ الكلام إلا والمؤذن يقيم الصلاة.

وأما صلاة المغرب فكانت عادته، عليه السلام، يصلّيها أول الوقت <sup>(٤)</sup>، وكذلك صلاها

(١) قطعة من حديث طويل، رواه الإمام الشافعي وأحمد وأبو داود والترمذي وابن خزيمة والدارقطني والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما. (انظر فتح الباري ٩/٢).

(٢) صلاة رسول الله ﷺ بغلَس رواها البخاري في مواقيت الصلاة، باب وقت المغرب وباب وقت العشاء، ورواه مسلم رقم/٦٤٦ في المساجد من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً.

(٣) صلاة رسول الله ﷺ في المزدلفة رواها مسلم من حديث جابر رضي الله عنه في حجة النبي ﷺ رقم/١٢١٨، ورواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه رقم (٦١٤) وعن بريدة رقم (٦١٣) ورواه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما رقم (٣٩٣) والترمذي رقم (١٤٩) وفيه إمامة جبريل للنبي عليه السلام.

جبريل، عليه السلام<sup>(١)</sup>، به، عليه السلام، في اليومين. وكانت عادته، ﷺ، في السفر إذا جَدَّ به السير جمع بين الصلاتين المشتركين<sup>(٢)</sup>: الظهر والعصر، والمغرب والعشاء. وكانت سنته، عليه السلام، في الجمع إن كان رحيله قبل وقت الأولى أخرها حتى يصلّيها مع الأخرى. وإن كان رحيله بعد دخول وقت الأولى صلاهما معاً في أول وقت الأولى<sup>(٣)</sup>.

فجاء عند نفوره، عليه السلام، من عَرَفة بعد دخول الوقت. فنفر بالناس ﷺ، فقال له أسامة، رضي الله عنه: الصلاة يا رسول الله. فقال له: الصلاة أَمَامَكَ<sup>(٤)</sup> - يعني: وقت وقوعها. موضعهُ أَمَامَكَ - حتى وصل المزدلفة، فصلى المغرب والرواحل قائمة. ثم حَطَّ الرحال وصلّوا العشاء. فجاء في هذه الصلاة تغييرات مما كانت عادته، عليه السلام، أنه يصلّي إذا جمع في السفر وقد دخل وقت الأولى الصلاتين معاً - كما ذكرنا - فصَدَّقَ ما قاله الراوي، لأنه صلاها في غير وقتها وزيادة على غير الصفة المعهودة، كما ذكرنا.

وهنا بحث، وهو: هل هذه الصفة التي جعلها، ﷺ، في هاتين الصلاتين تَعَبْدٌ لا تُعَقَّلُ حكمته، أو الحكمة فيه معقولة؟ فالجواب: أن الحكمة - والله أعلم - معقولة، لأننا إذا علمنا ما الحكمة في كونه، عليه السلام، كان يجمع إذا جَدَّ به السير علمنا ما الحكمة هنا. وقد ثبت أنه، عليه السلام، لم يكن يجمع إلا إذا جَدَّ به السير لأمر يخاف فواته. فهو من قبيل الرفق بأمته.

ولوجه آخر، وهو من أجل جمعية الباطن في الصلاة لأن من يكون قلبه متعلقاً بأمر يفوته قلّ ما يكون مع ذلك حضوراً. هذا في حق غيره، لأنه، عليه السلام، عند رؤية تلك الآيات العظام في عالم الملكوت كان كما أخبر الله، عز وجلّ عنه بقوله ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾<sup>(٥)</sup> فكيف هنا؟ فنجد في هذا الموطن، إذا تأملناه، التشويش بالنسبة للغير أكثر، لكثرة الناس وما هم فيه من الدهشة.

(١) رواه البخاري في مواقيت الصلاة ومسلم من حديث جابر رضي الله عنه أنه عليه السلام كان يصلي المغرب إذا وجبت الشمس.

(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث أنس وابن عباس رضي الله عنهما ومسلم من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه والشيخان من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه مسلم من حديث معاذ باب الجمع بين الصلاتين في الحضر، وأبو داود والترمذي. وفيه كان رسول الله ﷺ في غزوة تبوك إذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين الظهر والعصر، فإن رحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر حتى ينزل للعصر. وفي المغرب مثل ذلك إن غابت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين المغرب والعشاء، فإذا ارتحل قبل أن تغيب الشمس أخر المغرب حتى ينزل للعشاء ثم يجمع بينهما.

(٤) رواه البخاري في الوضوء ومسلم في الحج، باب الإفاضة من عرفات إلى مزدلفة.

(٥) سورة النجم، من الآية ١٧.

وفيه أيضاً استدراك أمر يُخاف فواته، وهو تمام هذا الركن العظيم الذي مدار الحج كله عليه، لقوله عليه السلام: (الحَجُّ عَرَفَة)<sup>(١)</sup> أي: معظم الحج عَرَفَة، وباقى الليلة له. فلا يتم المقصود فيه بتمامه إلا بالخروج من محله وبقعته. فتسكن النفس عند فوزها بهذا الخير العظيم، وتستقبل ذلك الركن الذي يليه، وهو المبيت بالمزلفة بعبادتين وهما: أداء فرضين في وقت واحد. وتوسعة أيضاً - كما قلنا - في الجمع بين الصلاتين عند جَدِّ السَّير، لكون الناس في ذلك الوقت قد تتعذر عليهم الطهارة أيضاً إلى غير ذلك من الضرورات. وكان عليه السلام بالمؤمنين رحيماً.

وتأمل ذلك المعنى الذي أشرنا إليه تَجِدُه؛ لأنه ترفع أيضاً للركن الذي يلي عرفة، وهو المزلفة، لكونه أول عمل يعمل فيها صلاة المغرب قبل حط الرواحل، ليكون استفتاح الشغل بها عبادة كبرى، وهي أداء صلاة المغرب. وقد جاء في فضلها ما جاء.

وفيه دليل على ما يقوله العلماء: أن القاعدة الشرعية إذا جاء ما يعارضها يُتَأَوَّل. يؤخذ ذلك من أن الصحابي، رضي الله عنه، لما عرف أن قد تَبَيَّنَتْ أوقات الصلوات، ولا يدخلها نسخ بعد وفاته، ﷺ، أطلق اللفظ بأن قال (صَلَّى صلاة لغير وقتها) لعلمه بأن القاعدة لا يدخلها نسخ، فلا يقع إشكال على أحد بإطلاق لفظه.

وفيه دليل على أن من داوم على شيء عُرف به، وإن خالفه يجوز الإخبار عنه أنه قد خرج عما كان عليه، وإن كانت اللغة أو الشريعة لم تخرجه عن ذلك بمدلولاتها. يؤخذ ذلك من كون النبي ﷺ، كانت له عادة في صلاة الصبح لم يكن يخرج عنها، وكذلك في الجمع في السفر. فلما خرج هنا عن تَيْنِكَ العادَتَيْنِ - كما ذكرنا - وإن كان دلالة الشرع لم تخرجه حقيقة عنها، أطلق الصحابي، رضي الله عنه، أنه صلاها في غير وقتها.

وفيه دليل على جواز الإخبار باللفظ المحتمل، ولا يبين ماذا أراد منهما بصيغة ما. يؤخذ ذلك من قول الصحابي، رضي الله عنه، (صلاها لغير ميقاتها) وهو لفظ محتمل أن يريد وقتها المفروض لها، أو وقتها على جري العادة في إيقاعها. ولم يأت في اللفظ بما يدل على واحد منهما.

وفيه دليل على أن ثبوت العمل يُسْتَعْنَى به عن تخصيص المحتمل. يؤخذ ذلك من أنه لما كان فعله ﷺ، في الحج معروفاً عندهم، وعلته لا تَخْفَى عليهم، أَجْمَلَ لهم اللفظ بقوله (صَلَّى صلاة لغير ميقاتها).

وفيه دليل على أن من الدين ذِكْرُ الحكم في الدين والتحدث به، وإن كان شائعاً بحيث لا

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عبد الرحمن بن يعمر الديلمي، وتتمته: من جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحج. أيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه.



يخفى . يؤخذ ذلك من كون هذه الصلاة عن سيدنا ، ﷺ ، مشهورة ، والعمل عليها لم ينقطع إلى هَلَمْ جَزَاءً ، وعبد الله بن مسعود يتحدث فيها .

وقد كنت لقيت بعض السادة في العلم والعمل ، فإذا اتفق اجتماعهم يوماً ما عند بعضهم لم يكن حديثهم إلا في مسائل الدين ، أو في أحوال القوم ليس إلا . ومثل ذلك كان المروي عن الصحابة والسلف ، رضي الله عنهم ، أنهم إذا تلاقوا يقولون : (تعال نُؤْمِنُ) أي : نتحدث في مسائل الإيمان ، لأن كل شيء إذا كثر الكلام فيه قد يحصل فيه ملل في بعض الأوقات أو ضيق صدر في وقت ما ، إلا الكلام في الإيمان وفروعه وأحوال أهله ، فإن ذلك عند أهل التحقيق يزيد به إيمانهم ، مثل العلم إذا أنفق منه زاد ، وغيره إذا أنفق منه نقص .

فعليك برأس مالٍ إذا أنفقتَ منه زادَ ونَمَا ، وترَفَّه به غيرك ، واستغنى ولم ينقصك شيئاً ، ولذلك قال بعض الحكماء : أُعْطِيَةُ الْعَالِمِ رَبَّانِيَّةٌ ، يعطيك الشيء برؤيته ولا ينقص مما عنده شيء ، لأنه إذا عَلِمَكَ الْعِلْمَ قد حصل عندك جميع ما كان يعرفه ، ولم ينقص له مما عنده شيء ، بل زاده تجديداً ، فَإِنَّ ذِكْرَ الْعِلْمِ زِيَادَةٌ تَنْبِيهِ لَه مع زيادة الأجر الذي هو خير من الكل .

وفيه من الفقه أن روايته - وإن كان العمل ثابتاً ظاهراً - أقطع لحجة الخصم وأثبت ، إذ إن ذلك كان حكمَ الله على لسان رسوله ، ﷺ ، ونَقَلَ عدلي عن عدل . فلو لم يكن هذا الإمام يتحدث بهذا الحديث - وإن كان العمل باقياً عليه من أي طريق - كنا نحن نقطع بأن هذه هي سنة رسول الله ﷺ ، للخصم إذا جاءه ، أو للنفس إذا أرادت الوقوف على حقيقة دينها . وقد قيل : في الدين كن مجتهداً ولا تأخذه إلا من أصل كتاب الله ، وسنة نبيه ، ﷺ ، وإجماع ، وقياس ، إن عرفت شرطه . وخامس : ليس طريقه العدول عن القياس إلى الاستحسان ، وإنما طريقه : (المصالح المرسلة) ، كما هو مذهب المالكية<sup>(١)</sup> .

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .

(١) الأصل الخامس عند الحنابلة هو (الاستحسان) . ويعرفونه بأنه : العدول بحكم المسألة عن نظائرها بدليل شرعي وعند المالكية : الأصل الخامس هو (المصالح المرسلة) ويعرفونها بأنها : المُطْلَقَة عن النصوص الخاصة ، ولها أصل في النصوص العامة في الشريعة ، من كتاب وسنة . ومن أمثلة المصالح المرسلة عندهم : جمع القرآن في مصحف واحد ، وقتل الجماعة بالواحد ، ومصادرة أموال الولاة إذا استغلوا مراكزهم ، وتوريث مطلقة الفارّ (الذي يطلق زوجته في مرضه فراراً من إرثها) ، وجواز تنصيب الأمثل للإمامة ولو لم يكن مجتهداً ، وجواز أخذ أكثر من نصاب الزكاة لسد حاجات المسلمين . إذن : طريق الأصل الخامس عند المالكية هو (المصالح المرسلة) وهي : كل ما فيه دفع ضرر ، أو جلب مصلحة ، أو رفع حرج عن الأمة .

## حديث الصدقة بجلال البدن التي تُنحر وجلودها

عَنْ عَلِيٍّ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ، أَنْ أَتَصَدَّقَ بِجِلَالِ الْبَدَنِ<sup>(٢)</sup> الَّتِي تُنْحَرُ وَيَجْلُودُهَا.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على الأمر بالصدقة بجلود البدن وجلالها. والكلام عليه من وجوه:  
منها: هل الأمر على الندب أو على الوجوب؟ وما الفائدة في إخبار الإمام بذلك؟ وما  
الحكمة بأن خَصَّ النبي، ﷺ، بذلك عَلِيًّا رضي الله عنه؟  
فأما الجواب عن الأمر، فهو على الندب، لوجهين: (أحدهما) أن الصدقة من الهدي، وإنما  
هي على طريق الندب، بتقرير ذلك من السنة، فلا تكون صدقة الجلال أعلى منها. و(الوجه الآخر)  
أن جَعَلَ الجلال التي تُكْسَى بها البدن ليست مثل الجلود، فإن الجلود حكمها مثل حكم البدن من  
وجوب أو ندب، إذا كانت واجبة أو ندباً، على أحد الاحتمالين. فليست الجلود تختص بحكم

(١) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، أبو الحسن، أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الراشدين،  
وأحد العشرة المبشرين، وابن عم النبي وصهره، وأحد الشجعان الأبطال، ومن أكابر العلماء والخطباء  
والقضاة، وأول الناس إسلاماً بعد خديجة، ولد بمكة وربّي في حجر النبي ﷺ، وكان اللواء بيده في أكثر  
المشاهد. ولما أخى النبي عليه السلام بين أصحابه قال له: أنت أخي. ولي الخلافة بعد مقتل عثمان رضي الله  
عنه سنة ٣٥هـ. وكثرت الفتن في أيامه وانقلبت إلى حروب منها (وقعة الجمل) و(صفين) ثم كانت حادثة  
التحكيم، وبعدها انشق المسلمون ثلاثة أقسام: الأول بايع معاوية رضي الله عنه وهم أهل الشام، والثاني حافظ  
على بيعته علي رضي الله عنه وهم أهل الكوفة، والثالث اعتزلهما وخرج على علي لرضاه بالتحكيم فكانت معركة  
النهرين، وكفر الخوارج علياً رضي الله عنه ودعوه إلى التوبة فقاتلهم، واغتاله عبد الرحمن بن ملجم المرادي  
الخارجي وهو يصلي في ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ / ٦٦١م، رضي الله عنه وكرّم وجهه.

(٢) الجلال: مفردتها (الجل) وهو ما تغطي به الدابة لتصان، والبدن: مفردتها (بدنة) وهي ناقة أو بقرة، تنحر بمكة  
قرباناً. ومنه قوله تعالى ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ مَّعَكِرٍ ۚ﴾.

وحدّها دون اللحم . فإن كانت البدنة مما لا يجوز لصاحبها الأكل منها فلا يجوز له بيعها . أعني الجلود ، ولا الانتفاع بها . والذي لا يجوز لصاحبها أن يأكل منها أربعة : نذر المساكين ، وهذّي التطوع إذا عطّب قبل مَحْلِهِ ، وفداء الصيد ، وفدية الأذى ، ويأكل مما سوى ذلك . فجلود هذه الأربعة مثل لحومها .

ولم يرو عن أحد من السلف - فيما أعلم - وجوب الصدقة بجلالها ولا وجوب تجليلها ، لأنهم قد نصوا على أن من تعظيم الشعائر تجليل البدن وتحسين الجلال . وتعظيم الشعائر من المندوب ، وإن كانت البدن مما عدا هذه الأربعة المذكورة فالتصدق منها من المندوب أيضاً ، فأعظم ما تكون الجلود والجلال - فيما عدا الأربعة المتقدم ذكرها - أن يكون حكمها حكم اللحم ، فتكون ندباً لا وجوباً . ولا نقول : لعلها كانت من الواجب الذي لا يؤكل منها . فيكون هذا تنبيهاً بأن تلحق الجلود والجلال باللحم ، لأنه إذا أطلق لفظ (البدن) دون تقييد فإنما يُحمّل على ما هو الغالب فيها ، وهو الذي على طريق التطوع ، لأنه الأصل في ذلك الاسم ، لكونه قد جاء عن سيّدنا ، ﷺ ، حين نحر مائة بدنة أنه أخذ من كل واحدة بضعة<sup>(١)</sup> ، وجُعِلت في قدر ، وشرب عليه السلام ، من مرّقها ، وأكل منها<sup>(٢)</sup> .

فهذا هو الأصل ، وما كان من غيره فلا بدّ من أن يجلى بصفته الزائدة لاختلاف الحكم في ذلك . وليس عليّ ، رضي الله عنه ، ممن يجهل مثل هذا فنجعلها محتملة . وتسوية النبيّ ، عليه السلام ، بين الجلود والجلال دلّ على نديته ، لأنه لا تساوي بين واجب ومندوب في الحكم .

وهذه حجة الإمام مالك ، رحمه الله ، في أن النكاح ليس بواجب ، لأن الله ، جلّ جلاله ، خيّر بين الزواج وملك اليمين . والوطء بملك اليمين بالإجماع مباح . فلم يكن الله ، عزّ وجلّ ، ليُخيّر بين واجب ومباح . وعلى هذا يكون ما سوى بينه وبينه ملك اليمين مثل ملك اليمين ، إذ ليس النكاح به بواجب ، فكذلك يكون ما سوى بينهما هنا ، فلم يبق إلا أن يكون ندباً . وفي أمره ، عليه السلام ، علماً بذلك دليل على جواز النيابة في إخراج الصدقة .

وأما ما هي الفائدة في ذكر الإمام ذلك؟ فهي ما تقدم الكلام عليه . وزيادة على ذلك ، لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يفرحون ويفتخرون بما يخص النبيّ ، ﷺ ، به واحداً منهم دون غيره ، أو أي شيء كان منه ، عليه السلام ، في حق أحدهم . ألا ترى أن أحبّ الأسماء لعلّي ، رضي الله عنه :

(١) البضعة : من اللحم وغيره : القطعة .

(٢) رواه الترمذي رقم ٨١٥ في الحج وابن ماجه في المناسك رقم ٣٠٧٦ باب حجة رسول الله ﷺ .

أبو تراب<sup>(١)</sup>؟ لأن النبي ﷺ هو الذي كَنَاه به . وثبت في الحكم، كأنه يقول: هذا ليس بالمنقول، أنا الذي سمعت هذا الحكم، وتلقيت هذا الأمر بنفسي .

وأما هل ذلك خاص بالبُدن أو ذلك في جميع القُرَبَات، بُدْنًا كانت أو أضاحي؟ فإذا فهمنا الأمر أنه على النَّدْب - أعني في الجلود - فتعدية الحكم أولى، لأنه ندب إلى خير، ولأن الضعفاء أيضاً محتاجون إلى ذلك بزيادة فليكون النَّدْب يتأكد فيه، إما في الحال من أجل أن العُرْي غالب على الضعفاء، وعلة البرد أكيدة. وكذلك في جلود البُدن من أجل ما ينتعلون بها. وهذا عندهم قليل، وهو مما إليه ضرورتهم أكيدة، ولا سيما بأرض الحجاز لتوعر أرضها وحرها. وأما ما له صوف أيضاً من جلود الأضاحي فمن علة البرد أيضاً، فالندب عام في الكل أولاً.

وأما ما الحكمة في كون النبي، ﷺ، خصَّ علياً، رضي الله عنه، بذلك، فلزيادة العلم الذي خصَّ به علي، وإن كان الخلفاء، رضي الله عنهم، كلهم علماء. لكن كان لعلي، رضي الله عنه، في هذا الوجه من وجوه الخير زيادة، لقوله ﷺ (أنا مدينة العلم وعلي بابها)<sup>(٢)</sup>، ولكونه هو الذي خصه، عليه السلام، بالنيابة بنحرها عنه.

ويترتب عليه من الفقه أن المندوب في النيابة في النسك والصدقة أن يكون النائب فيها عالماً، لأنه من تمام القربة. وفيه أيضاً وجه آخر: أن المستحب بالمعروف الذي ليس بواجب أن يؤمر به الأقرب من القرابة، لأن علياً، رضي الله عنه، كان أقرب إلى النبي، ﷺ، من غيره، لأنه كان ابن عمه وصهره، ولأن نيابته، عليه السلام، له في النحر - كما ذكرنا قبل - وإدخال السرور عليه بذلك. ولو أمر غيره بالتصرف في الصدقة لكان محتملاً لتغير خاطره. وأمره، عليه السلام، له بالتصدق عنه إدخال سرور وجبر قلب.

وفيه وجه من حسن الصحبة: أنه إذا بدأ شخص أمراً فمن حسن الصحبة أن يكون هو الذي يتم بقايا وجوه تصرفاته. فلما كان علي، رضي الله عنه، هو الذي وجهه النبي، عليه السلام، إلى اليمن لأن يأتيه بالبُدن، فكان من طريق حسن الصحبة أن يكون هو الذي ينوب عنه فيما بقي للنحر منها، وفي التصديق عنه، فاستنابه لحسن الصحبة. ومن أحسن صحبة من رسول الله، ﷺ؟

وفيه دليل على التحدث بما فتح الله به على العبد من أمور خير الآخرة إذا لم يكن كسباً له،

(١) تكنية النبي ﷺ علياً كرم الله وجهه (أبا تراب) رواها البخاري في الصلاة - باب نوم الرجال في المساجد، وفي الأدب، ورواه مسلم في فضائل علي كرم الله وجهه رقم / ٢٤٠٩ .

(٢) رواه الترمذي في المناقب رقم / ٣٧٢٥ / والحاكم في المستدرک ١٢٦ / ٣ والسيوطي في بعض رسائله وللحافظ أحمد بن محمد صديق الغماري رسالة اسمها (القول الجلي في صحة حديث: أنا مدينة العلم وبابها علي).

لأن الذي هو كسب له هو من باب التزكية، والله عز وجل يقول ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ﴾<sup>(١)</sup> والذي هو من قبيل الله تعالى إذا سلمت النية فيه من طلب الرفعة يكون من قبيل الشكر، لأنه قد قال ﷺ: (التحدث بالنعم شكر)<sup>(٢)</sup>، وقد قال الله تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾<sup>(٣)</sup>. يؤخذ ذلك من ذكر علي، رضي الله عنه، أن رسول الله، ﷺ، أمره بالصدقة. فيكون إعلان القول منه بأنه بأمر النبي، ﷺ، تبرئة من الدعوى والتزكية. مثل أن يرى إنسان يتصدق بصدقة واجبة، فيقول: هي واجبة. أي: لا تمدحوني عليها. لأن الصحابة والصدر الأول، رضوان الله عليهم، لم يكن عندهم في إعطاء الواجبات مدح بينهم، لأنها من اللازم، وما هو واجب يتساوى الناس كلهم فيه.

ولذلك يروى عن بعض المتعبدين أنه قال: لا جزى الله تراك الصلاة عنا خيراً، رأونا نؤدي الصلاة قالوا عَنَّا: عُبَاد. والصحابة<sup>(٤)</sup>، رضي الله عنهم، بذكرهم لما خصهم الله، عز وجل، به أو نبه عليه السلام هو على طريق الاستبشار وشكر النعمة وتبرؤ من دعوى العمل ليس كمثل بعض الناس في الوقت الذي لا يكمل الواجب الذي عليه، ويحب أن يلحق بالمباركين كما قال، جل جلاله ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾<sup>(٥)</sup>.

وفيه دليل لأهل الصوفة الذين يقولون: يُنْدَب لأهل هذا الشأن أن يتحدثوا بما فتح الله عليهم بين إخوانهم، بشرط ألا يكون بينهم أجنبي، لأنه مما يتقوى به إيمانهم، وقوة الإيمان زيادة في القربة إلى الله، عز وجل.

وفيه أيضاً عون على النفس، ولا سيما في زمان قل فيه الصدق في هذه الطريقة حتى إنه عند بعض من يعرف شروطها إنه شيء طوي بساطه، فيكون سبباً لكسله عن الترقى. وقد أخبرني بعض من كان له تعلق بالطريق ثم فتر عن عمله، فلما رأى من بعض من كان في زمانه شيئاً من أحوال القوم، وأنه<sup>(٦)</sup> لما أبصر ذلك رجع إلى المجاهدة والخدمة، وفتح عليه في أقرب زمان. فقال لي: والله - وهو الحالف - ما كان كسلي عن الخدمة إلا لكوني لم أر في نفسي شيئاً، ولم ألق أحداً رأيت منه شيئاً مما رأيت في كتب القوم. فقلت: هذا شيء طوي بساطه، فما لي وللتعب؟ فلما أبصرت

(١) سورة النجم، من الآية ٣٢.

(٢) جزء من حديث رواه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند، والبخاري، ورواه ابن أبي الدنيا في الشكر ص ١٤ والخرائطي في فضيلة الشكر رقم ٨٢ / .

(٣) سورة إبراهيم، من الآية ٧.

(٤) العبارة مضطربة غير واضحة التركيب.

(٥) سورة آل عمران، من الآية ١٨٨.

(٦) كذا بزيادة «وأنه».

من فلان شيئاً مما رأيت في كتب القوم أيقنت أن الطريق باقية، وإنما السالكون قَلَّوا، فأخذت في الخدمة، فجاء من أمري ما ترى، فذلك فائدة التحدث بها. وفي ذلك قيل: إذا كنت في حالك صادقاً فتطرقك أو سكوتك لمن رآك فلاح.

وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

## البُخَارِيُّ: قَالَ عَطَاءٌ <sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا تَطَيَّبَ أَوْ لَبَسَ جَاهِلًا أَوْ نَاسِيًا فَلَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ

هذا مذهب عطاء وليس بمتفق عليه . أما النسيان فالشافعي، رحمه الله، وافقه على ذلك لقول رسول الله ﷺ: (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان) <sup>(٢)</sup>. وأما مالك، رحمه الله، فلم يعذر به، وقال: إنه مثل سجود السهو في الصلاة شُرِعَ لأن يُجَبَّرَ به خلل وقع في العبادة. وفي الصلاة هو يَشْتَرِطُ السجودَ فيها بالسهو لا بالعمد، وهنا مطلقاً. فينبغي أن يكون الحكم في السهو والعمد سواء، وهو الأظهر، والله أعلم.

وأما الجهل فلا أعرف في الوقت وافقه عليه أحد من العلماء <sup>(٣)</sup>. ودليل القرآن يرد عليه بقوله تعالى ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ <sup>(٤)</sup> فلم يعذر أحداً بجهل، ولو كان الجهل عذراً لكان أرفع من العلم ولا قائل به.

ويؤخذ منه من الفقه أنه من تحقق عنده حكم من أحكام الله، عز وجل، له أن يطلق اللفظ بعموم الحكم، ولا يلزمه خلاف المخالف. ومثل ذلك جرى لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين سمع شخصاً <sup>(٥)</sup> يتلو سورة الفرقان على خلاف ما كان يعرف، فليّبه بردائه، وأتى به رسول الله

(١) هو أبو محمد، عطاء بن أبي رباح، مولى بني فهر، من مؤلّدي الجند، وهي بلدة مشهورة باليمن. كان من أجلاء الفقهاء وتابعي مكة وزهادها. سمع عدداً من أجلاء الصحابة منهم ابن عباس وابن الزبير، وكان أعلم الناس بالمناسك. توفي سنة ١١٥هـ / ٧٣٣م.

(٢) رواه ابن ماجه وابن حبان والدارقطني والطبراني والبيهقي والحاكم في المستدرک من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: (إن الله وضع . .) وللحاكم والطبراني (تجاوز) ونقل الخلال عن الإمام أحمد أنه قال: من زعم أن الخطأ والنسيان مرفوع فقد خالف كتاب الله وسنة رسوله. وأصل الباب حديث أبي هريرة في الصحيح بلفظ: إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم به. ورواه ابن ماجه بلفظ: عما توسوس به صدورهم، وزاد في آخره: وما استكروها عليه. والزيادة (إدراج) من الراوي.

(٣) كذا وردت العبارة، وفيها خلل.

(٤) سورة النحل، من الآية ٤٣.

(٥) هو حكيم بن حزام رضي الله عنه كما في الموطأ والصحيحين.

ﷺ وقال: سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها. فقال: أرسله. فأرسله، فقال: إقرأ فقرأ مثل ما كان عمر سمع منه، فقال ﷺ: هكذا أنزلت. ثم قال: إقرأ يا عمر. فقرأ عمر ما كان يعرف، وهو مخالف لقراءة صاحبه. فقال ﷺ: (هكذا أنزلت. إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف) فقرأوا ما تيسر منه<sup>(١)</sup>.

ولم ينكر ﷺ على عمر أخذ ذلك بالعنف وزجره له، وهو كان على الحق. وعمر لم يكن له علم بذلك الوجه الذي كان ذلك يعرفه، كما أنه<sup>(٢)</sup> لم يكن له علم بما كان عمر يعرفه. ومن أجل الغفلة عن هذا الوجه ضاع كثير من النهي عن المناكر، لأن بعض الناس يقول: لعل هذا الذي أنكره أنا يجيزه غيري.

ويترتب أيضاً عليه من الفقه أنه لا يجوز الحكم بمجرد النقل بما يراه في الكتب إلا لأهله الذين يعرفون مقاطع الكلام، وعلى ماذا يدل. يؤخذ ذلك من أنه إذا رأى هذا النص من لا يعرف المذهب، وهو ينتسب بدعواه لأحد المذاهب، يبقى يعمل عليه ويظنه مما يجيزه صاحب مذهب، فيكون يقع في الكذب على إمامه، ويُدلي الناس بغرور<sup>(٣)</sup>. وقد أخبرني جماعة عن من ينسب في مذهب إلى أنه متبع لمالك رضي الله عنه وهو ممن يُستفتى، كان يفتي في مذهب مالك بما نص عن عطاء هنا. وقد ذكرنا مذهب مالك قبل في ذلك وما هو عليه فنسأل الله الإرشاد لمعرفة العلم على ما هو علم على وجهه والعمل به ابتغاء مرضاته. لا ربَّ سواه.

وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

(١) رواه البخاري في كتاب الخصومات ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب بيان أن هذا القرآن على سبعة

أحرف رقم / ٨١٨/ كما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمر رضي الله عنه.

(٢) أي حكيم بن حزام.

(٣) يدلي الناس بغرور: يوقعهم فيما أراد من تغريه.



## حديث بناء مسجد الرسول ﷺ

عن أنس، رضي الله عنه، قال: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ، الْمَدِينَةَ، وَأَمَرَ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ. فَقَالَ: يَا بَنِي النَّجَارِ ثَامِنُونِي<sup>(١)</sup>. فَقَالُوا: لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ. فَأَمَرَ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَتُبِّسَتْ، ثُمَّ بِالْخَرَبِ<sup>(٢)</sup> فَسُوِّتْ، وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ، فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ.

\*\*\*

ظاهره يدل على أن بناء المسجد كان بأمر النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة. والكلام عليه من وجوه:

منها جواز طلب الأشياء للبيع، وإن لم يكن صاحبها عرضها للبيع. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام (يا بني النجار ثامنوني) وهم لم يكونوا عرضوا ملكهم للبيع قبل.

وفيه دليل على جواز أن ينسب الشخص إلى صنعة كانت في قبيلته أو آبائه، وليس ذلك من الألقاب المنهي عنها. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (يا بني النجار) وهذه صنعة كانت في أحد آبائهم، فشهروا بها، فدعاهم بها.

وفيه دليل على جواز قبول الهدية لشيء، وإن كان قد تعرض إلى شرائها، ما لم يقصد تحشيم<sup>(٣)</sup> صاحبها. يؤخذ ذلك من قبوله، عليه السلام، منهم بعدما طلب منهم البيع (فقالوا لا نطلب ثمنه إلا إلى الله) والدليل على قولنا: (ما لم يقصد تحشيم صاحبها) لأن النبي ﷺ قال: (ثامنوني). ولا يقول النبي ﷺ (ثامنوني) إلا حقاً. لا يقول ذلك حيلة ولا مجازاً. ومن يقع له شيء من ذلك فهو تنقيص بالنبي ﷺ وهو لا يحل، وإن أفصح به وجب قتله شرعاً.

(١) ثَامَنَهُ فِي السَّلْعَةِ: سَاوَمَهُ فِي شَرَائِهَا.

(٢) الْخَرَبُ: جِ خَزْبَةٌ وَهِيَ مَوْضِعُ الْخَرَابِ.

(٣) أَحْشَمُ فَلَانُ فَلَانًا: أَخْجَلَهُ.

وهنا بحث، وهو ليس بمجرد الدعوى منه يقع التصديق إلا حتى<sup>(١)</sup> تكون هناك قرينة تبين ذلك، مثل قول هؤلاء الذين قالوا (لا نطلب ثمنه إلا إلى الله تعالى) ولا يلزم من قولهم (لا نطلب ثمنه إلا إلى الله) أن يكون صدقة، لأن الهدية صاحبها مأجور، إذا قصد بها وجه الله، مثل الصدقة. غير أن الفرق بين الصدقة والهبة أن الصدقة لا تكون إلا لله إلا أن يدخلها رياء، والهبة قد تكون لوجوه كثيرة، قد نُصَّ عليها في كتب الفروع. فما هو منها لله فصاحبها فيها مأجور، كما هو في الصدقة، وإن لم يكن من صاحبها إفصاح مثل مقالة هؤلاء، ويكون هناك ما يقوم مقام ذلك.

وقد روي عن بعض أهل هذا الشأن: إذا كان يأتيه الفتوح، ولا يعلم من صاحبه من أي الوجوه هو، يقول له: ناشدتك الله، متى أنا عندك خير: إن قبلت منك أو إن رددت عليك<sup>(٢)</sup>؟ فعلى الذي يحلف عليه من الحالتين عمل عليه تحرزاً من الدعوى في هذا الشأن، وإن كان على ما روي عنه من أهل الكشف والاطلاع.

وفيه دليل على جواز حفر قبور المشركين. يؤخذ ذلك من قوله (فأمر بقبور المشركين فنبشت). وفيه من الحكمة أن حكم الحياة مستصحب في الممات، فكما هي دماؤهم في الحياة، مباحة ولا حرمة لهم كانوا كذلك في مماتهم. والمؤمن حرمة في الممات كحرمة في الحياة لأنه قد جاء: (أنه من كسر عظم مؤمن ميت كمن كسره حياً في الإثم سواء)<sup>(٣)</sup>. وقبره حَبْسٌ<sup>(٤)</sup> لا يحل لأحد التصرف فيه.

وفيه إشارة لأهل البصيرة الذين يقولون: أحوالك عنوان على مالك هنالك، فإن استقمت هنا رُفِعَتْ هنالك، وإن خلطت فإنما بَخَسَتْ نَفْسَكَ.

وفيه دليل على جواز هدم خراب البناء إذا كان فيه فائدة، وليس من الفساد في الأرض. يؤخذ ذلك من قوله (ثم بالخَرْبِ فسُوِّتِ).

وفيه دليل على جواز قطع الثمار، وإن كانت تُطْعِم، إذا كان ذلك لضرورة، يؤخذ ذلك من قوله (وبالنخل فقطع). وقد نص العلماء على أن قطع الثمار المُطْعِمة من الفساد في الأرض، ولما كان هذا لضرورة خرج أن يكون من ذلك القبيل. والضرورة التي هي هنا أنه لما قدم المدينة ﷺ تنافس الأنصار، رضوان الله عليهم، في نزوله، عليه السلام، عند من ينزل منهم، فقال لهم: (دعوا

(١) كذا بزيادة «إلا».

(٢) كأنه يستحلفه بالله: أي العملين أفضل: هل أخذ الفتوح (الهدية) أوردتها؟

(٣) رواه عبد الرزاق ومالك في الموطأ وأبو داود وابن ماجه والإمام أحمد عن السيدة عائشة رضي الله عنها بالفاظ مختلفة.

(٤) قبره حبس عليه: وقف عليه لا يباع ولا يورث.

الناقة فإنها مأمورة<sup>(١)</sup>. فمشت حتى أتت موضع المسجد فبركت فيه، فأى ضرورة أشد من هذه؟ لأن هذا حكم من الله، عز وجل، وقد كان في علم الله تعالى أن تلك البقعة هي الموضع الذي هو روضة من رياض الجنة، فكل ما كان فيها فهو عارية بحكم القلع، وليس مثل هذا ضرورة في غيره أن يقول شخص: (نريد بنبي هذا بنيانا) بشهوة نفسه، فيكون هناك شجر مثمر، فيقطعه ويجعل هذا الحديث حجة فيه. هذا لا يحل، بل الضرورة غير هذه، على ما هو مذكور في كتب الفقه.

وهنا إشارة لمن سعد في الأزل، ما ضرّه ما جرى عليه من الفتن. يؤخذ ذلك من أنه لما كانت هذه البقعة قد سبقت لها تلك السعادة العظمى - وهي أن تكون مسجداً ومنزلاً ولخداً للسيد من بني آدم والمرفّع في العالمين ﷺ - ما ضرّها ما تداول عليها من أيدي المشركين ومخالفتهم، إذا حسنت العقبي فكل قبيح يزول، وإن فسدت فكل جميل يحول.

وفيه دليل على أن من حسن التصرف أن يعمل الشخص في أمره كله على قدر جدته<sup>(٢)</sup> أو عسره. يؤخذ ذلك من كون النبي ﷺ، لما ترك هو والمهاجرون أوطانهم وأموالهم، فاحتاج عليه السلام، إلى بناء المسجد، بناء على ما يقتضيه الوقت بجريد النخل وحيطانه من جذوعها. يؤخذ ذلك من قوله (فَصَقُّوا النَخْلَ قَيْلَةَ الْمَسْجِدِ) ولم يبين بأجر ولا حصص ولا بشيء فيه تكليف، لا عليه ولا على غيره. فهذا مقتضى السنة. ومما يؤيده من الكتاب قوله تعالى ﴿لِنُفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾<sup>(٣)</sup>. وقد قال رضي الله عنه: الفرق في النفقة خير من الزيادة في الكسب.

وفيه دليل على أن أهم ما على المرء من الأمور النظر في أمر دينه. يؤخذ ذلك من أنه أول ما نظر فيه ﷺ عند دخوله المدينة بناء المسجد الذي هو للآخرة.

وفيه دليل للفقراء الذين يقولون: إذا زهد الفقير وخرج عن كل ما يملكه ممّا هو من أمر دينه فلا يدخل تحت ذلك اللفظ، ولا يجوز له الخروج عنه. ويحبس منه بقدر ضرورة دينه، مثل الإناء للوضوء، وما يستر به عورته، ومثل ما يصلي عليه، لأن كل ما يكون الخروج عنه يتعذر به وجه من وجوه الدين فلا يجوز، لأنه الأهم. وقد قيل: على جميع أمور الدين حافظ عليها، ولا تبال بما عداها، فعز المرء بدينه لا بما سواه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة ٥٠١/٣ و٥٠٤ وابن كثير في البداية والنهاية ١٩٩/٣ و٢٠٠ والسيوطي في الخصائص ٩٠/١ والشامي في سيرته: سبل الهدى والرشاد ٣٨٦/٣.

(٢) الجدة: الغنى.

(٣) سورة الطلاق، من الآية ٧.

## حديث خروج الدجال وفتنته

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: يَنْزِلُ الدَّجَالُ<sup>(٢)</sup> بَعْضَ السَّبَاحِ<sup>(٣)</sup> بِالْمَدِينَةِ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمُنِذِ رَجُلٍ هُوَ خَيْرُ النَّاسِ - أَوْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ - فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَالُ الَّذِي حَدَّثَنَا عَنْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَدِيثُهُ. فَيَقُولُ الدَّجَالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ، هَلْ تَشْكُونُ فِي الْأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ: لَا. فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ. فَيَقُولُ حِينَ يُحْيِيهِ: وَاللَّهِ، مَا كُنْتُ قَطُّ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الْيَوْمَ. فَيَقُولُ الدَّجَالُ: أَقْتُلْهُ. فَلَا يُسَلِّطُ عَلَيْهِ.

\* \* \*

ظاهره يدل على وجهين: (أحدهما) أن ما أُعطي الدجال من خرق العادة تكذيباً لدعواه لأنها قاصرة. و(الثاني) ما أُعطي الخارج إليه من قوة الإيمان، وأن تلك الفتنة العظمى لم تضربه. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما قَصُرَ خرق العادة التي أُعطي؟ فنقول: هي ما أراد من قتل الرجل المؤمن ثانية، فلم يقدر عليه. فنحتاج الآن أن نذكر خرق العادة، وما هو الدال منها على الخير وعلى ضده، وما انقطع منها.

فأما خرق العادة فقد تكلم العلماء عليها، وهي على أربعة أقسام:

- (١) أبو سعيد الخدري: سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي. أبو سعيد. صحابي كان من ملازمي النبي ﷺ، وروى عنه أحاديث كثيرة. غزا اثنتي عشرة غزوة. وله ١١٧٠ حديثاً. توفي في المدينة المنورة سنة ٦٩٣ هـ / ٦٩٣ م. (انظر الحديث ٤٨).
- (٢) الدجال لغة: الممّوه المدّعي الكذاب. وشرعاً: المسيح الدجال: رجل من يهود يخرج في آخر هذه الأمة، سمي بذلك لأنه يدجل الحق بالباطل، وقيل: بل لأنه يغطي الأرض بكثرة جموعه، وقيل: لأنه يغطي على الناس بكفره، وقيل: لأنه يدعي الربوبية، أو سمي بذلك لكذبه، وجمعه (دجاللة) و(دجالون) وكل كذاب فهو دجال.
- (٣) السَّبَاح: ج سَبَخَ. والسَّبَخَةُ من الأرض ما لم يحرث ولم يُعَمَّرْ لملوحته.

قسم يدل على صدق النبوة. وهذا قد طوي بساطه، لكن نذكره من أجل المعرفة به، لأنه من جملة أمور الدين.

وقسم يدل على الولاية وتحقيقها.

وقسم يكون من أجل المجاهدة والدوام عليها، وإن كان صاحبها فاجراً أو كافراً، وكثيراً ما افتتن الناس من هذا القسم لجهلهم به.

وقسم من الذي يسمونه السيمياء، وهي استئزال بعض الروحانيات وخدمة بعض الكواكب الفلكية، وهي أيضاً مما ضل بها كثير من الناس.

ولكل واحدة منها علامة تعرف بها، ولا يعرف ذلك إلا من له نور إيماني ومعرفة بها.

فأما التي هي دالة على النبوة فمن شرطها التحدي، وهو أن يقول: (أنا نبي)، ومن الدال على نبوتي أنني أفعل كذا وكذا)، وذلك الذي يدعيه لا بدّ من ظهوره على ما ذكره علماء الدين. وهذا لم يبق لأحد فيه دعوى، لقوله عليه السلام: (لا نبيّ بعدي)<sup>(١)</sup>.

والتي هي دالة على صدق الولاية تظهر على يديه دون تحدي. ومن شرطها أن يكون في حالة متبعاً للسنة والسنن، لأن الله، عز وجل، لم يتخذ قط ولياً يدعي<sup>(٢)</sup>، لأنه عز وجل يقول في كتابه ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(٣)</sup> وإن تحدّى بها عند ضرورة، دون عجب، فلا تخلفه، لأنها من بركة تصديق النبوة، لأن كل كرامة ظهرت لولي فهي معجزة لنبيه، عليه السلام، لأنه بصدقه في اتباعه ظهر له هذا الخير.

ومثاله ما ذكر عن بعض السادة حين ركب البحر فهاج عليهم، وكان المركب موسقاً<sup>(٤)</sup> قمحاً للملك، وكان معه ركاب حجاج، فسمع البحريين يقولون: إن القمح مكيل علينا بالشهادة، وهؤلاء الحجاج ركبوا باختيارهم، ليس علينا فيهم شيء، فرمي نحن الحجاج وندع القمح، من أجل أنا مطالبون به. فلما رأهم عزموا على ذلك قال لهم: ارموا القمح على ذمتي. فرموا منه ما شاء الله، ثم سكن البحر. وبلغوا الموضع الذي كانوا أملوا، فطلبوه بما رموا من القمح. فقال لهم: أخرجوا الشهادة التي عليكم واكتالوا القمح. فما نقص منه غرثته. ففعلوا. فوجدوا الزائد على ذلك القدر

(١) جزء من حديث رواه البخاري في المغازي باب غزوة تبوك، ورواه مسلم في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب من

فضائل عليّ من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) البدعي: المبتدع، والمستحدث في الدين ما ليس منه.

(٣) سورة آل عمران، من الآية ٣١.

(٤) موسقاً: محملاً موقراً.

التي كانت به الشهادة عليهم. فخلّوا عنه. فقال لأصحابه: والله ما فعلتها إلا من أجل الضرورة، إحياء لنفوس هؤلاء المؤمنين.

وإن كان يتحدّى بها لغير ضرورة فليس هو في منزلة الأولياء، بل هو في حزب ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup> وهذا هو حظهم من الله، عزّ وجلّ، لأنهم قد نصّوا أن من كانت عبادته من أجل أن تظهر له كرامة، أو تستجاب له دعوة، أو يُعرف بالخير من أجل المنزلة، فأولئك من الذين يعبدون الله على حرف<sup>(٢)</sup>.

وأما التي هي من أجل المجاهدة فإنه تظهر له كرامات، لكن ليست بنافذة<sup>(٣)</sup>، ولا مكاشفته تتعدى مدى بصره، وتكون في المؤمن والكافر، وهي من أثر المجاهدة. فإن بالمجاهدة نفسها يتنور الباطن، ويرجع القلب مثل المرأة الصقيلة ينطبع فيها كل شيء قابلها لا غير، وما لم يكن في مقابلتها فلا ينطبع فيها. ومثال ذلك ما ذكره عن بعض الأكابر أنه في بعض أسفاره مرّ بِدَيْرِ رهبان، فرأى ما هم فيه من كثرة المجاهدة، فوقع له استحسان لتلك المجاهدة. فلما وقع له ذلك أمروا لخدمتهم<sup>(٤)</sup> بالإقبال عليه، وأن يحسن قِراءه، ويدخله بيت تعبدهم حيث أصنامهم. فلما أدخله بيت الأصنام وقع في خاطره سخفهم وقلة عقولهم، لكونهم يعبدون تلك الأصنام. فلما وقع له ذلك وإذا هم<sup>(٥)</sup> يصبحون على الخديم: أخرجه، أخرجه. فأخرجه من حينه، فتعجب لسرعة اطلاعهم على خاطره، لكن لا يجاوزون بمكاشفاتهم مدى البصر. وإذا كانت المجاهدة عن إيمان واتباع للسنة كاشف من العرش فما دون، وكانت الدنيا كلها عنده كخطوة واحدة، يتصرف فيها كيف شاء، بحسب ما يفتح الله عليه.

وأما التي هي من طريق السيمياء، واستئزال بعض الروحانيات، وعبادة بعض الكواكب الفلكية، فله<sup>(٦)</sup> علامات:

أما الذي يعبد بعض الكواكب فلكل عابد كوكب علامة يعرف بها. مثاله أن الذي يعبد رُحْلَ<sup>(٧)</sup> يكون لباسه أحسن اللباس وأقدره، وعيشه وجلوسه من تلك النسبة. فالذي يراه في ذلك

(١) سورة الأعراف، من الآية ١٨٢.

(٢) الحرف من كل شيء: جانبه وطرفه. والآية الكريمة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ أي: يعبد في السراء لا في الضراء.

(٣) نافذة: ماضية قاطعة.

(٤) الخديم: الخادم.

(٥) كذا بزيادة الواو.

(٦) أي: لصاحب خرق العادة.

(٧) رُحْل: أحد الكواكب الكبرى في المجموعة الشمسية، ترتبيه السادس من الشمس، وهو على بعد: =

الحال يظنه من الزهد والورع، وما هو إلا بمقتضى ما يقتضيه معبوده، ويبقى على ذلك الحال قدر دورة معبوده في الأفلاك، وذلك على ما يزعمون ستة وثلاثون<sup>(١)</sup> سنة على تلك الحالة التي بينت، لا يفتر. فإن فتر ساعة فسَدَ عليه كل ما تقدم. ولكل واحد مما عدا هذا أيضاً حالة تخصه، إلا أن هذا عندهم أنحس الحالات.

وأما الذي هو من الروحانيات ليس إلا فحاله الظرف في اللباس وفي كل أمره، وانسراح النفس وما يطيها، وحسن المجالس. ومع هذا فالغالب على أهل هذه الطرق الفاسدة حظوظ النفس، وطلب الرياسة، وعدم اتباع السنة، واختراع بدع يجلب بها الجهال ويجعلها من طريق الحكمة ورياضة النفس، وهو الضد - أعاذنا الله من ذلك - لأن ما كان من طريق خرق العادات التي ليس على صاحبها لسان العلم حاكماً تجدها غير نافذة من كل الجهات، وإذا جاء من له حقيقة يقابلهم ما يمشي لهم منها شيء، ويتعذر عليهم أكثرها بحسب قوة إيمان الشخص وضعفه. ولذلك فأكثر ما يخالطون الجهال.



والذي خرق العادة له مع اتباع السنَّة هو في حالة مَلَك، لا يُغَلَّب بحيلة ولا مكر ولا قوة محسوسة أو معنوية، وأمره يتزايد لا ينقص، والناس وجميع الوجود عنده كلهم على حد واحد، كيف شاء أن يتصرف تصرف بغير دعوى، متبريء من الحول والقوة إلا إلى الله صاحبها، وهو أخوف الناس على نفسه إلا عندما تأتيه البشائر الربانية.

وعلامته أن يكون أكثر الناس تواضعاً، وأقبلهم لهم عذراً إلا ما كان في حق الدين، وأكثرهم شفقة عليهم، ونفسه عنده أقل الخلق، ويشاهد ذلك الخير فيضاً ومَنّاً بغير استحقاق، ويحض الناس على اتباع السنة والسنن، كثير الصمت إلا فيما يعنيه، كثير الفطنة، قليل الطمع، ملاحظ بقلبه الآخرة، لا يرى لنفسه على أحد حقاً، ويرى حقوق الناس قد ترتبت عليه بشرط أخوة الإيمان بالحضور والغيبة، يفر من المدح، ويستأنس بالوحدة، يبذل المعروف، ويقلل الضرر، بل لا يقع منه، يحبه كل شيء حتى الأرض التي يمشي عليها، والسماء التي تظله وأهلها، كذلك معرفته في السماء أكثر وأشهر مما في الأرض، لا يُجِلَّ أكل الخبيث، تؤلمه معصية العاصي كأنه هو الذي

= ١,٤٢٥,٧٦٧,٠٨٠ كيلومتراً في المتوسط منها. وتتم دورته حول الشمس في ثلاثين عاماً. ويبلغ حجمه ٧٣٤ / مرة حجم الأرض، وكتلته ٩٤٩ مرة قدر كتلتها، وكثافته ٨ / ١ كثافتها. ويبدو قرصاً منبعجاً لامعاً عند الاستواء، وقطره الاستوائي ١٢٠,٠٠٠ كيلومتر. وله عشرة أقمار تدور حوله.  
(١) تقدير الفلكيين ثلاثون سنة. وقوله «سنة...»: كذا في المخطوطات والمطبوعة.

فعلها، وتَسْرهُ طاعة الطائع كأنه الذي يأخذ أجراها، صورته صورة بشر وحقيقة باطنه ملكية نورانية قدسية، ووصفه يطول.

مَنْ الله علينا بما به مَنْ عليهم، برحمته، ورحمنا بحرمتهم، وصلى الله على محمّد نبيه وعبدّه. فمن أجل الجهل الغالب على الناس بطريق القوم كل من رأوا منه شيئاً من خرق العادة، من أي نوع كانت، قالوا: صالحاً<sup>(١)</sup>. أو يكون ممن سمع شيئاً من مفاصد الفاسدين فيعيب أهل الحقيقة على الحقيقة فيحرمهم، لأنه يجعل أمرهم إما محتملاً إذا أراد السلامة، أو ينسبهم إلى الطريق الفاسد، فيحصل مع الحرمان الخسارة، فإن الله، عزّ وجلّ، يَغَيِّرُ لهم أشدّ الغيرة، لقوله، عزّ وجلّ، على لسان نبيه، عليه السلام، (من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة)<sup>(٢)</sup>.

وفيه دليل على عظيم قدرة الله، عزّ وجلّ. يؤخذ ذلك من قوله (ينزل ببعض السباخ التي بالمدينة) ثم يمنع من الدخول إليها.

وفيه دليل على أن من قَوِيَ إيمانه لا يمكنه حَمْلُ البدع ولا السكوت عليها. يؤخذ ذلك من خروج هذا الرجل الذي شهد له رسول الله ﷺ، بالخيرية، مع علمه أنه لا يدخل المدينة، وأنه - وحده - لا يقدر على قتاله، لكن قوة إيمانه حملته على أن يخرج ويكذبه بين أتباعه وإن كان لا يعلم هل ينجو منه أم لا؟

ألا ترى إلى ما جاء في قصة عبد الله بن رواحة<sup>(٣)</sup> حين أخبر رسول الله ﷺ، أنه رأى بين سريره وسريري صاحبيّه ازوراراً. وعلة ذلك ما أخبر به الصادق، عليه السلام، أن صاحبيه تقدما ولم يتوقفا وتوقف هو يرثي ما يشجع نفسه الطيبة بأبيات من الشعر، ويطيها للموت، ثم تقدم فقتل، كما فعل بصاحبيه<sup>(٤)</sup>، رحمهم الله أجمعين. ففوة الإيمان تقتضي القيام بأمر الله عزّ وجلّ، ولو بقي الشخص وحده.

كذلك فعل أبو بكر، رضي الله، عند وفاة النبي، عليه السلام، ومنع أولئك الرهط الزكاة، وخطب

(١) كذا.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء وأبو نعيم في الحلية ٣١٨/٨ والطبراني في الأوسط عن السيدة عائشة، رضي الله عنها، والبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه. والفاظه مختلفة في هذه الروايات عما أورده الشيخ الإمام ابن أبي جمرة رضي الله عنه.

(٣) عبد الله بن رواحة: صحابي. يعدّ من الأمراء والشعراء الراجزين. كان يكتب في الجاهلية. وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار. شهد بدرًا وأحدًا والخندق والحديبية. واستخلفه النبي ﷺ على المدينة في إحدى غزواته، وصحبه في عمرة القضاء، وكان أحد الأمراء في وقعة مؤتة (بأدنى البلقاء من أرض الشام) فاستشهد فيها سنة ٦٢٩هـ/٦٢٩م.

(٤) رواه البيهقي في دلائل النبوة ٣٦٨/٤ (وللحديث تمة).



بعدما كان ظهر للصحابة، رضي الله عن جميعهم، أن يسامحوا في الوقت. فقال لهم أبو بكر، رضي الله عنه: لأقاتلنهم ولو بالدُّبُور<sup>(١)</sup>. فقال عمر، رضي الله عنهم أجمعين: فلما سمعت مقالة أبي بكر علمت أنه الحق، وشرح الله صدري لما شرح له صدر أبي بكر. وهو من أقوى الأدلة على أن النصر ما يكون إلا بقدر قوة الإيمان، لأن أبا بكر رضي الله عنه لم يتم كلامه إلا والمسجد قد امتلأ بالدُّبُور، وهي الريح. وقيل بالتشديد، وهو طائر يشبه النحل<sup>(٢)</sup>، وهو أشد ضرراً منها. وأنت وجوه القوم حتى خرجوا من حينهم من المسجد.

وقوله (رجل هو خير الناس أو من خير الناس)<sup>(٣)</sup> الشك من الراوي.  
وقوله عليه السلام (خير) - على إحدى الروايتين - قد حصلت له الشهادة من الصادق المصدق ﷺ بالخيرية.

وفيه دليل على أن الخيرية هي بقدر الإيمان، لأنه إذا قوي الإيمان علم قطعاً أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، قعد أو تحرك. فالأولى المبادرة إلى ما أمر به، أو ندب إليه. قال عز وجل: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.  
وقوله (فيقول أشهد أنك الدجال) أي: لست أنت بالرب، كما تزعم، بل أنت كذاب. فهذه أكبر المجاهدة، يقول الحق ولا يلتفت إلى ما يترتب عليه.

وصار اليوم عند بعض المنسوبين إلى العلم أو الدين يتركون قول الحق من أجل توقعات ممكنة، يتوقع منها ضرر دنيوي، فيلزم من شاهد حاله أنه من شر الناس. وقد أخبر بذلك الصادق عليه السلام، حيث قال: (يأتي على الناس زمان يصبح الرجل فيه مؤمناً ويُمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا)<sup>(٥)</sup>. وفي هذا الحديث مصداق لقوله، عليه السلام: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرة إلى قيام الساعة، لا يضرهم من خالفهم)<sup>(٦)</sup>.

(١) الدُّبُور: الريح تهب من المغرب وتقابلها (القبول).

(٢) الدُّبُور: جمع (دُبُر) وهي جماعة النحل والزنابير. والدُّبُور: جمعه دبابير. وهي الزنابير. وهو عربي مؤلّد، معرّب عن السريانية. وقيل: عامّي.

(٣) قال كثير من العلماء: إنه الخَضِر رضي الله عنه. واسمه: بلياً بن ملكان، وكنيته: أبو العباس، ولقبه: الخَضِر. (وقد ورد أن من عرف اسمه وكنيته ولقبه واسم أبيه مات على حسن الخاتمة) وورد في فضائله قوله ﷺ: إنما سمي الخَضِر خَضِيراً لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء. (رواه الشيخان).

(٤) سورة التوبة، من الآية ٥١.

(٥) رواه مسلم في الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٦) جزء من حديث صحيح متواتر. رواه البخاري في الاعتصام والأنبياء والتوحيد، ومسلم في الإيمان والإمارة، والترمذي في الفتن وأبو داود في الجهاد والفتن والملاحم وابن ماجه في المقدمة وأحمد في مسند الشاميين والدارمي في الجهاد.

وفيه دليل على إبقاء الإيمان كاملاً في المدينة، وإن كان في بعض أهلها تخليط. يؤخذ ذلك من أنه لم يخرج له من يواجهه بهذا الحق إلا من المدينة، ولو كان له موضع آخر ثان لأخبر به، ﷺ. وفيه تأنيس لمن وفق للحق، وإن خالفه أهل زمانه، وبشارة له بالنصر، لأن العلة التي من أجلها كان النصر لذلك المبارك موجودة عنده، وهي قوة الإيمان، وقول الحق في الله.

وفيه دليل على أن قوة الإيمان عند الضرورة لا تعول على القدرة بمجردها، ولا تستعمل أثر الحكمة، مع التصديق بثبوت أثر الحكمة والقدرة معاً.

أما العدول منه عن أثر الحكمة فكونه خرج إلى ما لا طاقة له به، وقد دلت الشريعة التي هي مقتضى الحكمة على منع ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾<sup>(١)</sup>.

وأما أثر القدرة فقوله تعالى ﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾<sup>(٣)</sup> فأشد الأمور - وهو القتل - لما لم يرد الله، عز وجل، موت هذا لم يضره، ولما أراد ثانية أن يمنعه منعه بغير أثر حكمة إلا إظهار قدرة تامة، ليعلم أن الله على كل شيء قدير. وأما قتله أولاً فتحقيق لعظيم القدرة، لأنه قد كان يقول القائل: لم يره وحُجِبَ عنه. ويرى أن ذلك من خرق العادة للأولياء. وما أظهر الله، عز وجل، له من الكرامة أرفع وأعظم.

وفيه دليل على أن الفتنة لا تضر مع الإيمان، ولا تزيده إلا تحقيقاً. يؤخذ ذلك من كونه فعل به أشد الفتن، وهو الموت والإحياء، ثم ما زاده ذلك إلا قوة في إيمانه، كما ذكر هو، بقوله (والله ما كنت قط أشد بصيرة مني اليوم) وذلك لأنه كان عنده قبل علم يقين، وصار الآن عنده عين يقين<sup>(٤)</sup>. وعين اليقين لأهل الأحوال هو أعلاها، كما قال الخليل، عليه السلام، حين قيل له ﴿أَوَلَمْ تَوَدَّ أَنْ قَالُ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾<sup>(٥)</sup> فأراد عليه السلام الانتقال من علم اليقين إلى عين اليقين. فاستحق بذلك درجة الخلّة.

(١) سورة البقرة، من الآية ١٩٥.

(٢) سورة البقرة، من الآية ١٠٢.

(٣) سورة التوبة، من الآية ٥١.

(٤) اليقين في حقيقة معناه: رأس مال الدين. قال رسول الله ﷺ: اليقين الإيمان كله (أخرجه البيهقي في الزهد والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بإسناد حسن). وبين (علم اليقين) و(عين اليقين) و(حق اليقين) علاقة وشيجة. أقرب مثال لفهم العلاقة بينهما أنك لو رأيت دخاناً فاعلم (علم اليقين) أن وراءه ناراً. وإذا اقتربت أكثر منه فرأيت النار فذلك (عين اليقين). وإذا مسست النار فلذعتك فذلك (حق اليقين).

(٥) سورة البقرة، من الآية ٢٦٠.

وفيه تصديق للحديث الآخر، وإن كان كل واحد منهما يصدق الآخر، الذي قال، عليه السلام فيه: (تُعَرِّضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقَلْبِ عَوْدًا عَوْدًا، فَأَيُّمَا قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نَكَتَتْ فِيهِ نَكْتَةُ سُودَاءَ، وَأَيُّمَا قَلْبٍ لَمْ يُشْرَبْهَا نَكَتَتْ فِيهِ نَكْتَةُ بَيَاضَاءَ، فَلَا تَزَالُ تَتَسَّعُ حَتَّى تَعُودَ عَلَى الْقَلْبِ مِثْلَ الصَّفَاةِ لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ بَعْدَ<sup>(١)</sup>). لَأَنَّ هَذَا لَمَّا صَدَّقَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ، وَخَرَجَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ لَمْ يَضُرَّهُ الْقَتْلُ، بَلْ زَادَ بِهِ إِيمَانَهُ.

ويؤخذ من حال الدجال الدليل على تكذيبه. يؤخذ ذلك من قوله لأتباعه (أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته، هل تشكون في الأمر؟) فلو كانت إلهيته حقاً لجلب القلوب على التصديق، لأن القلوب كما يقتضي الإيمان أنها بين أصبعين - أي بين أمرين من أمر الرحمن<sup>(٢)</sup> - وكونه يطلب منهم التصديق على ربوبيته بما يبدي لهم ضعف في قدرته، وهذا في حق الربوبية محال.

وفيه دليل على إظهار قدرة الله، عز وجل، فيمن حكم عليه بالضلالة أنه لا تنفعه العبر ولا المواعظ. يؤخذ ذلك من أن الدجال ادعى أن دليل ربوبيته إماتة الشخص وإحياءه، ففعل، ثم جاء ثانية أن يفعل، فمنع من غير موجب ظاهر، فكان يجب عليه وعلى أتباعه الإقرار بالحق، لأنه قد جاء ما أبطل دليله في عالم الحس، ولم يقدر على دفعه. فما بقيت الأدلة تنفع والمواعظ إلا مع السعادة، ولا تضر الفتن والامتحانات إلا مع الشقاوة.

فنسأل الله العظيم، ربَّ العرش العظيم، أن يعيذنا من الشقاوة والحرمان، ومن المحن والفتن في الدارين، ويمنَّ علينا بالسعادة فيهما بفضلِهِ، لا ربَّ سِوَاهُ  
وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

---

(١) رواه مسلم بلفظ: (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين: أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنته مادامت السموات والأرض، والآخر أسود مُزْبِداً كالكوز مُجَخِّياً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه) عن حذيفة رضي الله عنه.

(٢) هو معنى لحديث رواه الإمام أحمد في المسند ١٧٣/٢ وانظر الدر المنثور ٨/٢ - ٩.

## حديث حراسة مكة والمدينة من الدجال

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطُوهُ الدَّجَالُ إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، لَيْسَ لَهُ مِنْ نَقَابِهَا نَقَبٌ <sup>(١)</sup> إِلَّا عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا، ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن جميع بلاد الأرض يدخلها الدجال إلا مكة والمدينة. والكلام عليه من وجوه:

منها: الدليل على تحقيق خروج الدجال، ومنها التساوي بين فضل مكة والمدينة. وقد اختلف العلماء فيهما في الفضيلة، فمالك، رحمه الله، ومن تبعه، يفضلون المدينة على مكة. والشافعي، رحمه الله، ومن تبعه، يفضلون مكة على المدينة. ولم يختلف أحد أن موضع قبره، ﷺ، أفضل البقاع، وإنما الخلاف فيما عداه من البلدين. واستدل كل واحد منهما بظواهر أحاديث، كلها تحتل التأويل، وبأقيسة ولكنها أيضاً تحتل التعليل.

وظاهر هذا الحديث يعطي التسوية بينهما في الفضل، لأن جميع الأرض يطؤها الدجال إلا هذين البلدين، فدل على تسويتهم في الفضل. ويؤكد ذلك أيضاً من وجوه من النظر، لأنه إن خُصَّت المدينة بمدفنه، عليه السلام، وإقامته بها، ومسجده، فقد خُصَّت مكة بمسقطه، عليه السلام، بها، ومبعثه منها، وهي قبلته، فمطلع شمس ذاته المباركة مكة ومغربها المدينة، وإقامته بعد النبوة - على المشهور من الأقاويل - بمكة، مثل إقامته، عليه السلام، بالمدينة.

وفيه دليل على كثرة ما يُعطى هذا اللعين من خرق العادة. فمنها: كونه يَطَأُ الأرض كلها، ولم يجيء أن تكون إقامته في الأرض وطوافه عليها إلا في أربعين يوماً، إلا أن أول يوم منها كسنة،

(١) النقب: الخرق في الجلد أو في الجدار أو نحوها جمع: أنقاب ونقاب.

والثاني كشره، والثالث كجمعة، وباقيها إلى آخرها مثل الأيام المعهودة إذ ذاك من طول أو قصر. وقد سأل الصحابة سيّدنا، ﷺ: (هل تجزئنا صلاة يوم في ذلك اليوم الطويل المتقدم ذكره؟ فقال: لا. ولكن اقدروا للصلاة قدرها)<sup>(١)</sup>.

ومنها: مثل ما تقدم في الحديث من الإحياء بعد القتل. ومنها: أنه يزرع ويحصد من حينه. ومنها: أنه يمشي ومعه مثل الجبال من الخبز. ومنها: أنه يكون معه شبه جنة ونار. فأخبر الصادق، ﷺ: (أن من دخل جنته فهي نار، ومن دخل ناره فهي جنة)<sup>(٢)</sup>. ومنها: أنه يقول للرجل: اتبعني. فيأبى عليه، فإذا ولّى عنه أتبعه مال الرجل، فيتبعه الرجل كرامة لِمَالِهِ فيعظم كفره وكفر الناس به من أجل ما أُعطي من خرق العادات، وأنه لا يخرج إلا بعد سبع سنين قحطاً، لا تنزل قطرة مطر، ولا تنبت الأرض شيئاً.

ولهذا المعنى كان أهل التحقيق لا ينظرون إلى ما يجري على أيديهم من خرق العادات، وإن كثرت، وقد يخاف بعضهم منها ويطلب الاستعفاء، كما ذكر عن بعضهم أنه كان في بعض أسفاره، وتعرض لهم بحر لا يُجَازُ إلا بمُعَدِّيَّة<sup>(٣)</sup>، ولم يكن له شيء يعطي لصاحب المُعَدِّيَّة، فبقي مفكراً ما يفعل، فإذا هو قد أبصر حافتي البحر مما يقابله قد تقاربتا حتى بقيتا قدر خطوة. فلما رأى ذلك فزع وقال: اللهم إن كانت كرامة فادّخرها لي للآخرة، وإن كانت من الشيطان الرجيم فأبعدها عني. فرجع البحر إلى ما كان عليه. وأخذ من بعض ثيابه وأعطى صاحب المُعَدِّيَّة بما جَوَّزه.

والأخبار عنهم مما يشبه هذا كثيرة، وإنما همُّهم في تحسين إيمانهم وأعمالهم، وطلب موازنتها بمقتضى ما أخبر به الصادق، ﷺ، مثل قوله عليه السلام: (من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)<sup>(٤)</sup>، وقوله عليه السلام: (اطلبوا الرقة في ثلاث: في الصلاة والتلاوة والذكر. فإن وجدتموها، وإلا فاعلموا أن الباب مغلق) وما يشبه هذه الحقوق فيها صلاح حالهم.

وفيه دليل على أن أثر الحكمة فيه للنفوس تأنيس عظيم، ودلالة على عناية الربوبية بالعبودية.

(١) رواه مسلم في الفتن من حديث النّوّاس بن سَمْعَانَ رضي الله عنه، (وهو جزء من الحديث؛ ومروي بالمعنى).  
(٢) قطعة من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، رواه الإمام أحمد في المسند ٣/٣٦٧، والحاكم في المستدرک ٤/٥٣٠ وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبي. ولفظ الشاهد - كما ورد في الحديث - : ومعه نهران، أنا أعلم بهما منه؛ نهر يقول الجنة، ونهر يقول: فمن أدخل الذي يسمّيه الجنة فهو النار، ومن أدخل الذي يسميه النار فهو الجنة..

(٣) المُعَدِّيَّة: المركب يعبر عليه من شاطئ إلى آخر.

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي أيوب بإسناد ضعيف.

يؤخذ ذلك من كون الملائكة على نقابها يحرسونها . والله ، عز وجل ، قادر أن يحرسها دون شيء ، كما فعل بالرجل في الحديث قبل <sup>(١)</sup> هذا ، لكن إظهار الملائكة فيه تأنيس للقلوب ، وإظهار عناية المولى بالعبد كما فعل ، عز وجل ، في غزوة بدر حين أنزل الملائكة ثم قال ، عز وجل ، في حقهم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ <sup>(٢)</sup> فجعلهم من أجل الإنس لما يعلم من ضعف البشرية وحقيقة النصر من عنده ، جلّ جلاله .

ومثل ذلك هي الأعمال الصالحة عند أهل التحقيق تأنيساً وتقوية رجاء في فضل الله ، تعالى ، وحقيقة السعادة والخلاص عندهم بفضل الله . ويفهم هذا المعنى من قوله عليه السلام : (لن يُدْخِلَ أحداً عمله الجنة . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتخمدني الله بفضل رحمته) <sup>(٣)</sup> . وقوله (نقابها) أي : طُرُقها وفجاجها .

وهنا بحث ، وهو : هل الدجال يبصر الملائكة فلا يتجرأ أن يقربهم أو لا يراهم ؟ أو يكون ذلك على طريق الإعظام للبقعتين ، والقدرة هي المانعة له ؟ احتمال الوجهين معاً . والقدرة صالحة لهما . وفيه دليل على أن حرمة البقع لا تنفع إلا مع الإيمان . يؤخذ ذلك من قوله ، عليه السلام : (فيخرج إليه كل كافر ومنافق) ولم يقل : كل عاص ومذنب . ولذلك كتب مالك <sup>(٤)</sup> لبعض أصحابه حين كتب له : أن اثت الأرض المقدسة : إن الأرض لا تقُدس أحداً ، وإنما يقُدس المرء عمله . وقال بعضهم : اطلب لنفسك ما يقُدسها من حسن علم أو عمل ، فالأمر - والله - خَيطَر .

وهنا بحث في قوله ، عليه السلام : (ثلاث رجفات) وهو أن يقال : ما معنى الرجفة ؟ وما الحكمة في ألا يخرجوا إلا في ثلاثٍ ليس إلا ؟

أما الرجفات فيحتمل أن تكون حساً أو معنى . وأعني حساً : أن الأرض تتحرك بهم ، كما تكون عند الزلزلة . واحتمل أن تكون قوة فزع يجذونه عند قربهم إليهم ، أو نزوله ببعض سبأخها - وهو الأظهر ، والله أعلم - لأنه كثيراً ما تستعمل في الفزع ، كما قال أول الكتاب : (فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده) وقد تكلمنا عليه أولاً . وأما كونها ثلاثاً فهذه (الثلاث) كثيراً ما تتكرر في الأشياء مبالغة في الخير أو ضده ، وهي كناية عن كثرة الفزع الذي يلحقهم . ونفوس الناس مؤمنهم وكافرهم

(١) لم نقف على مصدره .

(٢) يشير إلى الرجل الذي أراد عبور البحر فرأى ، وحفظه الله ، وقد جاء خبره قبل سطور معدودات .

(٣) سورة الأنفال ، من الآية ١٠ .

(٤) جزء من حديث رواه البخاري في المرضى باب تمنى المريض الموت ، وفي الرقاق باب القصد والمداومة على العمل ، ورواه مسلم في صفات المنافقين عن أبي هريرة وعن جابر رضي الله عنهما .

ليست على حد سواء في الثبات وضده، فأكثرهم فزعاً يخرج أولاً، والذي أقل منه بعده، وأجلدُهم آخراً.

وفيه دليل على أن حقيقة الثبات إنما تكون مع قوة الإيمان، بدليل أن الخوف لِحَقِّ الكل، لقوله عليه السلام: (ترجف المدينة) فثبت المؤمنون، ولم يستطع ذلك الكافرون والمنافقون.

وفيه دليل على أن الكفار في ذلك الوقت يكونون ممن يسكنون المدينة، وأن النفاق يكثر ذلك الوقت، والوقت الآن ليس فيه نفاق ظاهر، ولا بالمدينة كافر مقيم ولا يدخلها، فدل ذلك على قوة فساد العالم إذ ذاك وكثرته.

وهنا بحث، وهو: هل ما يُخَصَّص<sup>(١)</sup> بالرجف إلا المدينة لذلك الدجال وحده؟ أو يكون لكل دجال قبله رجفة؟ لأنه قد قال ﷺ: (بينى وبين الدجال نيف وسبعون دجالاً)<sup>(٢)</sup>؟ فإن قلنا: إن الرجف بمعنى: تحريك الأرض، فيكون - والله أعلم - خاصاً بتلك البقعة وذلك الدجال. وإن قلنا: إن الرجف بمعنى الفزع، فكل دجال يوجد معه ذلك، لأنه ما حمل الناس على اتباعهم إلا الخوف من ضررهم، فتلك رجفة. وأما غيرهما من البقع فتلك الرجفة موجودة في أرضهم، غير أنهم لا يحتاجون أن يخرجوا إليه، كما فعلوا هنا، لأنه هو الذي يدخل إليهم. وقد جاء أن بعض من يكون له إيمان قطعي به إذا سمع بقربه يقول: اذهب بنا نتفرج على هذا الكذاب اللعين، فإذا وقعت أعينهم عليه اتبعوه. وفي هذا خوف شديد من الفتن، والحض على الهروب منها ما أمكن، مخافة أن يلحق المؤمن منها شيء.

لكن هنا بحث، وهو: أن هؤلاء خرجوا وهم يعترفون بكذبه، ثم اتبعوه، والشخص المذكور<sup>(٣)</sup> قبل الخروج إليه أيضاً هو موقن بكذبه، ففعل به ما فعل، فلم يزد فيه إلا تحقيقاً بكذبه. فالجواب: لما خرج أولئك على طريق الفرجة في آية الله أخذهم البلاء، لأنهم جعلوا آية الله لعباً ولهواً، فلو كان تصديقهم حقيقة ما خرجوا على جهة الفرجة، لأن الدجال خروجه من الآيات العظام، فجعلهم ذلك لهواً هو عينُ الفتنة.

ويترتب على ذلك من الفقه أن الاستهزاء بشيء من الآيات ومن أثر قدرة الله ضعف في

(١) هكذا بالأصل، وصوابه: أبو الدرداء إلى سلمان الفارسي رضي الله عنهما.

(٢) كذا، والصواب: أما يُخَصَّص.

(٣) رواه أبو نعيم عن أنس - كما في كثر العمال - وروى مسلم وغيره من أنه سيكون كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي. وروى الترمذي في الفتن عن أبي هريرة رضي الله عنه: لا تقوم الساعة حتى يبعث كذابون دجالون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله.

الإيمان ويخاف على دينه، وقد قال جلّ جلاله ﴿قُلْ. أِبَالَهُمْ وَعَاقِبَتُهُمْ وَأَسْمَاءُ رَسُولِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ. لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾<sup>(١)</sup>. وأما الآخر فخرج مجاهداً بنفسه في سبيل الله لأن يكذبه، ويصدق قول الله، عزّ وجلّ، وقول رسول الله ﷺ، فأمدّه الله، جلّ جلاله، بالنصر منه والحماية. فتعظيم آيات الله تعالى وأثر قدرته من قوة الإيمان، والخير كله مع قوة الإيمان. من الله به علينا بفضله.

وفيه دليل على أنه ما تظهر حقيقة الدعاوى إلا عند الامتحانات. يؤخذ ذلك من قصة الدجال، فإن ناساً يكونون يستترون بالإيمان ويدّعون، فإذا جاء الدجال لم يثبت إذ ذاك من الدعاوى شيء إلا من كان إيمانه حقيقياً، وكان عمله على مقتضاه. ومن أجل ذلك حصّ، ﷺ، حين ذكر الفتن، وقال الصحابة، رضوان الله عليهم: ما تأمرنا إن أدركنا ذلك الزمان؟ فقال عليه السلام: (الجاؤا إلى الإيمان والأعمال الصالحات)<sup>(٢)</sup> فقله عليه السلام (الجاؤا إلى الإيمان) وهم مؤمنون، معناه: الأخذ في تقوية الإيمان. ومما يقوي الإيمان: الأعمال الصالحات، فإن بها النقص وبها الزيادة.

وفيه تنبيه على أن ينظر كل شخص في أمر نفسه في زمانه، فيحذر من دجاجة وقته، لأن كل زمان لا يخلو من دجاجة، فيكون من أتباعهم، وهو لا يعلم، ويظن أنه قد سلّم من الدجال، وهو من أتباعه، أو هو نفسه من الدجاجة. ولا يعرف ذلك إلا بإقامة ميزان (الكتاب والسنة) على نفسه، على مقتضى ما تأوله السلف الصالح رحمهم الله، وإلا يكون مُستدرجاً وهو لا يعلم، فيدخل تحت قوله عزّ وجلّ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> وإلى هذا المعنى إشارته، عليه السلام بقوله: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا)<sup>(٤)</sup> ويلزم الأدب والخوف، فالأمر - والله - عظيم، وقد أصبحنا في زمان تغيّرت فيه أعلام الخير، وتشعبت طرقه، وقَلَّ فيه السالكون وإليه الداعون، فتداركنا الله باللطف منه بفضله.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

(١) في الحديث (٨٥).

(٢) سورة التوبة، من الآية ٦٥ ومن الآية ٦٦.

(٣) لم نقف على مصدره.

(٤) سورة الأعراف، من الآية ١٨٢.



## حديث من استطاع منكم الباءة فليتزوج

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصْرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على الأمر بالنكاح، وأنه من سنة النبي ﷺ، لأنه عليه السلام قال: (من استطاع منكم الباءة فليتزوج) والباءة في لسان العرب بالآلف الممدودة هي: القدرة على التكسب والنفقة على الأهل.

وقوله عليه السلام (ومن لم يستطع فعليه بالصوم) فيه دليل على أن الصوم يقلل مادة النكاح ويضعفها، لأن النبي ﷺ، أمر من لم يقدر على التأهل به. وقال عليه السلام: (فإنه له وجاء) والوجاء عند العرب هو رَضَ الْأُنْثَيْنِ<sup>(٢)</sup>. كانت العرب تأخذ الفحول من الغنم فتفعل ذلك بها، وهو الذي يقال له في الغنم الْخَصِيُّ لمن فعل به هذا، لكن هذا الفعل يذهب بمادة النكاح بالكلية.

وإنما شبه النبي ﷺ، الصوم به لأن بينهما في الشبه شيئاً ما، وليس من شرط المثل أو الشبه أن يكون ذلك فيه من كل الجهات، بل يكون في صفة دون أخرى، والصوم قد أخذ من ذلك شيئاً ما، وهو كونه يضعف ما يجده المرء من تلك الحرارة القوية التي تغلبه. وأما كله فليس يرتفع كما يرتفع من الغنم. ولأجل هذا أمر، عليه السلام، بالصوم للشباب - على ما جاء في رواية غير هذه - لأن الشباب له من شهوة النكاح ما قد تغلب عليه، بخلاف الكبير، فإن تلك المادة الكبرى ليست عنده، وإنما معه منها ما يقدر على أن يدفعه عنه.

ولأجل هذا قال عليه السلام: (فإنه أغضى للبصر، وأحصن للفرج) ولم يقل بأنه يُغض البصر

(١) انظر ترجمته في الحديث (٧٠).

(٢) الْأُنْثَيَانِ: الْخَصِيَّتَانِ. وَرَضَ الْأُنْثَيْنِ: دَقَّهِنَّ أَوْ كَسَرَهُمَا. وَالْمُرَادُ هُنَا: الْخِصَاءُ.

وَيُحِصِّنُ الْفَرْجَ، لَأَن الْمَرْءَ مَأْمُورٌ بِبَغْضِ الْبَصَرِ وَتَحْصِينِ الْفَرْجِ . وَلَوْ كَانَ مَعَهُ مِمَّا تَقَدَّمَ كَثِيرٌ يُؤْمَرُ بِبَغْضِ الْبَصَرِ وَتَحْصِينِ الْفَرْجِ شَرْعًا، لَكِنْ بِوُجُودِ الْأَسْبَابِ الْمُعْنِيَةِ عَلَى ذَلِكَ يَسْهَلُ عَلَيْهِ الْأَمْرُ . وَعَلَى الشَّبَابِ فِي هَذَا مُجَاهَدَةٌ، وَلَا يُقَدَّرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَعَ الدِّينِ الْقَوِيِّ . فَإِذَا كَثُرَ الصُّومُ قَلَّتْ تِلْكَ الْمَادَّةُ الَّتِي تَغْلِبُهُ، فَكَانَ ذَلِكَ عَوْنًا لَهُ عَلَى غَضِّ الْبَصَرِ، وَتَحْصِينِ الْفَرْجِ الَّذِي أُمِرَ بِهِ .

وفي هذا دليل على أن المراء مأمور بعمل الأسباب، لأن النبي، ﷺ، أمر بالتسبب في رفع حرارة ما يجده الإنسان مما أشرنا إليه بالتأهل، فإن لم يقدر الإنسان على ذلك فليصم. فكذلك كل ما يكون للإنسان فيه ضرر أو نفع فله أن يتسبب في زواله عنه، أو في إيقاعه بأي وجه قدّر عليه من الوجوه الشرعية. لكن يعارض هذا قوله، ﷺ، حين سأله أبو هريرة، رضي الله عنه، قال: إني رجل شاب، وأخاف على نفسي العنت، ولا أجد للنساء طَوْلاً. فكرر أبو هريرة ذلك ثلاثاً، والنبي، ﷺ، لم يردّ عليه جواباً. فقال له، عليه السلام، في الثالثة: (جفّ القلم بما أنت لاقٍ، فاخصّص على ذلك أو زد<sup>(١)</sup>). فأمر، عليه السلام، هنا بترك التسبب والاستسلام للقضاء وأمر في الحديث الذي نحن بسبيله بالتسبب في زوال الأمر والجدة فيه.

والجمع بينهما هو أن أبا هريرة، رضي الله عنه، من أهل الصُّفَّة<sup>(٢)</sup> وأهل الصُّفَّة أبداً من شأنهم الجوع. وقد كان أبو هريرة، رضي الله عنه، يُغشَى عليه من شدة الجوع. فهو لم يزل عنه ذلك الأمر بالصوم من شدة ما كان عنده من الحرارة للنكاح. فعند العجز عن السبب، وكونه لا يدفع ما كان هناك، أمره عليه السلام بالتوكل والاستسلام. وقال، عليه السلام، لرجل حين سأله فقال: أُرسِلَ ناقتي؟ فقال له عليه السلام: (اغْلِقْهَا وَتَوَكَّلْ)<sup>(٣)</sup>. فقد بيّن، عليه السلام، في الحديث الذي نحن بسبيله حكم الشريعة، وبيّن في قصة أبي هريرة، رضي الله عنه، حكم الحقيقة، وهو التسليم.

فعلى هذا فيحتاج المرء أبداً أن يكون مستسلماً لقضاء الله، عز وجل، وقدره بعد بذل الجهد في الأسباب الشرعية التي قد أجرى الله العادة أن يُنجي بها. ثم بعد ذلك لا يعول عليها، ولا يظن

(١) رواية البخاري (فاختَصِمَ على ذلك أو دَزَرَ) وكذا رواية ابن حجر في فتح الباري والنسائي ٥٩/٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٧٩/٧. ولفظ الحديث - كما ورد في البخاري - : قال أبو هريرة: يا رسول الله إني رجل شاب، وأخاف العَنَتَ، ولا أجد ما أتزوج به، ألا اختصمي؟ فسكت عني، ثم قلت له، فَسَكَّتْ عني، ثم قلت له، فسكت عني، ثم قال: يا أبا هريرة، جَفَّ القلم بما أنت لاق، فاختص على ذلك أو دَزَرَ.

(٢) أهل الصفة: هم مجموعة من فقهاء المهاجرين كانوا يأوون إلى مكان مظلل في مسجد رسول الله ﷺ يتلقون عنه ويرعاهم، وقد أخلصوا أنفسهم للعلم والجهاد. وكان منهم أبو هريرة رضي الله عنه.

(٣) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي الْعِلَلِ وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ. وَرَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ وَالْقُضَاعِيُّ فِي مُسْنَدِ الشَّهَابِ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ، وَابْنُ خَزِيمَةَ فِي التَّوَكُّلِ، وَالطَّبْرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمَرِيِّ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

أنها هي المنجية، وإنما ينظر النجاة من طريق الفضل لا بعمله، كما قال إبراهيم، عليه السلام، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾<sup>(١)</sup> بعد بذل جهده في الإيمان والتحقق به لم يُعَوَّل عليه، وكان واقفاً مع المشيئة.

وقد كان عيسى، عليه السلام، على قُتَّة جبل، فأتاه إبليس اللعين فقال له: أنت تقول إنك لن يصيبك إلا ما كتب الله لك، فازم بنفسك من قُتَّة هذا الجبل. فقال له عيسى، عليه السلام: المولى يجرب العبد، وليس العبدُ يجربُ مولاَه.

وقد كان عثمان بن عفان، رضي الله عنه، في حائط<sup>(٢)</sup> له يعمل. فجاءه رجل فقال له: أنتم تقولون: إن الله هو يرزق، وهو يمنع، فما ينفع تسبيك وعملك؟ فقال، رضي الله عنه: هو كما يقولون واشتغل بعمله. فهذه أبداً سيرة الأنبياء، عليهم السلام، والسلف رضوان الله عليهم، ومن خرج عن ذلك فقد ضلَّ عن الطريق، لأنه إذا ظن أنه بعمله ينجو فقد هلك، لأنه قد حصر القدرة، وذلك ضلال، وقد قال، عليه السلام: (لن يُدْخِلَ أحداً عمله الجنة). قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله برحمته<sup>(٣)</sup>، وقد قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِيَ لَمَّ﴾<sup>(٤)</sup> فإذا أراد الله، عزَّ وجلَّ، أن يكون صاحب هذا العمل من الضالين، وممن يُخْتَم له بالشقاء، فمن يقدر على غير ذلك؟ كما كان بلعام بن باعوراء<sup>(٥)</sup> وغيره. لا رادَّ لأمره يفعل ما يريد، ولا يُسأل عما يفعل.

وأيضاً فإنه إذا ظن أنه بعمله يصل إلى مرغوبه فقد قطع بأن له عملاً صالحاً، وذلك محض الضلال، لأنه زكى نفسه بذلك، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾<sup>(٦)</sup> وقد قال عليه السلام: (لا تَزْكُوا على الله أحداً)<sup>(٧)</sup>. قال ذلك في رجل مات وأثنى الصحابة عليه بخير

(١) سورة الأنعام، من الآية ٨٠.

(٢) حائط: بستان.

(٣) ورد قبل صفحات أنه رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سورة الأعراف، من الآية ١٨٦.

(٥) قال كثير من المفسرين: هو المراد بقول الله تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ وكان بلعام يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب. فدعا به على موسى، عليه السلام، فلم يُستجب له فيه، وسلبه الله منه، والعياذ بالله تعالى.

(٦) سورة النجم، من الآية ٣٢.

(٧) رواه البخاري في الشهادات باب إذا زكى رجل رجلاً كفاه، وفي الأدب: باب ما يكره من التمداح، ورواه مسلم في الزهد باب النهي عن المدح. ولفظ الحديث: عن أبي بكر، رضي الله عنه، قال: أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ فقال: ويلك قطعت عنق صاحبك ثلاثاً، ثم قال: من كان منكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل: أحسب =

بعد موته، ثم قال لهم بعد ذلك: (ولكن قولوا: إخاله كذا). لكن يعارض هذا قوله، عليه السلام: (إذا رأيتم الرجل يواظب المسجد فاشهدوا له بالإيمان)<sup>(١)</sup> والشهادة له بالإيمان تركية في حقه.

والجواب عن ذلك أنه عليه السلام، قال لهم (اشهدوا له بالإيمان) أي اشهدوا بما ظهر لكم من أمره، وأما الباطن والعاقبة فليس لكم إلى ذلك سبيل، والأمر في ذلك إلى الله، عز وجل، هو يزكي من يشاء بفضله، ويعذب من يشاء بعدله، وقد قال تعالى على لسان نبيه، عليه السلام، في كتابه ﴿وَمَا آدْرَى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفْعَلُ﴾<sup>(٣)</sup> هذه الآية خضعت لها الرقاب، وذلت لها - مع كثرة الأعمال وإخلاصها - فرقا من هذه الآية، فلم تبق النجاة إلا بفضل الله وكرمه، لا بالعمل ولا بكثرتة. لكن يبقى العمل فيه بشارة للمؤمن، وتيسير له على مراده، لقوله تعالى ﴿فَسَيَرْوِيهِ لِلْيُسْرَى. فَسَيَرْوِيهِ لِلْيُسْرَى﴾<sup>(٤)</sup>.

فمن رأى أنه قد يُسر لأفعال البر استبشر وقوي رجاؤه في فضل الله المتضمن لهذه الآية، ولقوله تعالى بعد وصف من يُسر لليسرى ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾<sup>(٥)</sup> فجعل الرجاء إنما يكون لمن فيه ما وصف، وما تكون تلك الأوصاف إلا لمن يُسر لليسرى. ومن رأى أنه قد يُسر لأفعال أهل الشقاء فيعلم أنه قد يُسر للعسرى، فيحتاج عند ذلك أن يقلع عما هو بسبيله، ويرجع إلى ربه بالتوبة والاستغفار مع الاستغاثة بالله، لعله أن يتقبله، وأن يصرف عنه ما هو فيه من الشقاء، وأن ييسره للخير بمنه وفضله.

فقد اجتمع الحديثان بهذا البحث، وأن المراد عمل الأسباب مع ترك التعلق بالتعويل عليها، ورؤية المن والفضل للمُنعم بها مع كثرة اللجأ إلى الله، والاستغاثة به في دفع الضرر، وفي تمام النعمة والاستسلام لقضائه، عز وجل، خيره وشره، حلوه ومزّه.

لكن الاستسلام هنا يحتاج فيه إلى تقييد، لقوله، عليه السلام: (المؤمن تسره حسنة وتسوؤه سيئاته)<sup>(٦)</sup> فيكون المؤمن أبداً على هذا مستسلماً لقضاء الله، عز وجل، وقدره مهما أتاها أمر، رضي

= فلاناً والله حسيه، ولا يزكي على الله أحداً، أحسب كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه.

(١) رواه الترمذي في تفسير سورة التوبة والدارمي وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) سورة الأحقاف، من الآية ٩.

(٣) سورة الأنبياء، من الآية ٢٣.

(٤) سورة الليل، الآيتان ٧ و ١٠.

(٥) سورة البقرة، من الآية ٢١٨.

(٦) رواه الإمام أحمد في المسند ٢٥٥/٥ والقضاعي في مسند الشهاب ٤٠٢ والحاكم ١٤/١ وصححه ووافقه

الذهبي. ولفظه: جاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: إذا سرتك حسنتك، وساءتك سيئاتك فأنت مؤمن.

به، ومهما أقامه الله، عز وجل، في شيء لم يطلب غيره، ولم يختار الانتقال عنه، حتى يكون الله، عز وجل، هو الذي ينقله عنه. وقد سئل بعض أهل الصوفة: بم نلت هذا المقام؟ فقال: ما أقامني الله، عز وجل، في مقام فاخترت التحول عنه حتى يكون هو الذي يحولني عنه.

ولأجل النظر إلى هذا المعنى ربح من ربح، وفاز من فاز. ثم يكون أبداً يتفقد أمره. فإن أقيم في شيء من المخالفة أو البدع لم يرض بذلك، إذ من شرط المؤمن ألا يسره ذلك، فيستغيث عند ذلك بربه، ويقطع عما هو بسبيله، ويعمل جهده في التخلص منه امتثالاً للأمر، وقد قال سبحانه: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾<sup>(١)</sup> فما لم يرضه المولى لعبده فلا يرضاه العبد لنفسه.

وفيه دليل على أن العالم يجب عليه أن يعلم قبل أن يسأل، لأن النبي، ﷺ، قد علم هؤلاء ما يفعلون قبل سؤالهم إياه. لكن يعارض هذا حديث الأعرابي المشهور الذي لم يعلمه حتى طلب منه ذلك. وقد تقدم. والجمع بينهما هو: أن ينظر المرء صاحبه ويتفرس فيه، فإن ظهر له من حاله أن يقبل ما يقال له فليعلمه قبل السؤال، كما فعل النبي، ﷺ، في هذا الحديث. وإن ظهر له من حاله أنه لا يقبل منه، أو قد يسمع منه الآن، ثم يتركه أو ينساه، فهذا لا تعليم عليه حتى يسأل، كما فعل، ﷺ، مع الأعرابي.

وفيه دليل على أن المرء مأمور أن ينظر في كل أفعاله ما هو أقرب إلى ربه، فيبادر إليه، ويترك ما هو أدنى منه في الثواب، لأن النبي، ﷺ، أمر أولاً بالنكاح الذي هو أعظم في الثواب والأجر من الصيام، ولم يأمر أولاً بالصيام حتى يعدم المرء الطول إلى النكاح الذي هو أعظم ثواباً، قال عليه السلام: (تناكحوا تناسلوا أباهي بكم الأمم يوم القيامة)<sup>(٢)</sup>.

فإذا كان النكاح بهذه النية فلا شك في فضيلته على غيره، وقد قال عليه السلام: (لا رهبانية في الإسلام)<sup>(٣)</sup>. والرهبانية هي ترك النساء. فلو كان ترك النساء أفضل لكان شرع في الإسلام، إذ هو خير الأديان الذي شرعه الله، عز وجل، لنبيه محمد، عليه السلام. وقد قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «إني لأتزوج النساء وما لي إليهن حاجة، وأطأهن وما لي إليهن شهوة. فقليل: ولم ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: رجاء أن يخرج الله من ظهري من يكائر به محمد، ﷺ، الأمم يوم القيامة». فلأجل ما فيه من الفضل على غيره قدمه، عليه السلام، أولاً وابتدأ به.

(١) سورة الزمر، من الآية ٧.

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه ١٧٣/٦ مرسلًا بسند ضعيف ورواه البيهقي في المعرفة عن الشافعي بلاغاً وليس فيه لفظ (تناسلوا) وإنما فيه لفظ (تكثروا). وهو حديث ضعيف، ويغني عنه ما رواه الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: تزوجوا الودود الولود فإني مكائر بكم الأمم يوم القيامة.

(٣) انظر الحديث (١) ففيه تخريجه.

وفيه دليل على أن المرء لا يأخذ من الأمور كلها إلا ما يعلم أنه يقدر عليها ويتخلص منها، لأن النبي ﷺ، أمر من لم يستطع النكاح بالصيام، ولم يأمره بأن يحتال على النكاح، ويتسبب في تحصيله لكونه أفضل، وإنما أمره بالصوم.

وفي هذا دليل على أن الفضيلة في الأعمال لا تنظر من جهتها إلا من جهة عاملها، لأن هذا الذي لم يستطع النكاح أمره، عليه السلام، بالصوم، والنبي، عليه السلام لم يأمر أحداً إلا بما هو أقرب في حقه إلى ربه.

وإن نظرنا إلى فضيلة الصوم في حق هذا المأمور به فذلك ظاهر من حيث لا يُجهل ولا يخفى، لأنه إذا لم يستطع النكاح من قلة ذات اليد فالصوم يعينه على ما هو بسبيله؛ لأن فيه الإقلال من النفقة، والإضعاف لمادة النكاح؛ فإذا خف عنه هذان الأمران فقد سكن خاطره، وقَلَّتِ الوسوس عنه، فكان باطنه مشغولاً بآخرته، مقبلاً بكليته على ربه، وهو المطلوب؛ بخلاف ما لو أمر بالنكاح لكان ذلك تبديداً لحاله، واشتغالاً عن ربه، لأنه يدبر ويحتال في التكسب والنفقة، وهو عاجز عنها، فتكثر عليه الوسوس، ويتعمر باطنه بتدبير دُنياه، ويخرب من تدبير آخرته، وإنما ينظر الأفضل في الأعمال من جهة ما فضلها الشارع، عليه السلام، حين القدرة على كليهما.

وأما مع العجز عن بعضهما فالذي بقي منهما يقدر عليه هو أفضل في حق المرء؛ حتى قال بعض العلماء في رجل فقير ليس له غير درهم واحد، فتصدق به، ورجل له مال فتصدق منه بألف دينار: إن صاحب الدرهم أفضل. وبيان فضيلته أن صاحب الدرهم ليس له غيره ونيته أن لو كان قادراً على أكثر لخرج عنه، والآخر تصدق وبقي له ما يتسع فيه؛ فهذا الذي خرج عن كل ما عنده أفضل، لأن الدرهم الواحد بالنسبة إلى الفقير مال؛ فكذلك الصوم لمن لم يستطع الباءة مع الذي يستطيعها بهذه المزية. وكذلك يتبع هذا في كل الأفعال بالنظر إلى هذا البحث، وهو يجري في كل ذلك، كانت الأفعال كلها دنيوية أو أخروية.

وإن وقع التحقيق لم يبقَ في الأفعال كلها ما يكون دنيوياً إذا حسنت النية فيه، ولا أعظم من أن يكون للدنيا خالصاً من التسبب فيها. والمتسبب فيها لا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون بالأهل أو بغير أهل؛ فإن كان بغير أهل وكانت نيته أن يجعل ذلك عوناً على طاعة ربه كان له في ذلك من الأجر كثير، لقوله عليه السلام: (من بات تعبان من طلب الحلال بات مغفوراً له)<sup>(١)</sup>. وليلة القدر ترقب في السنة كلها رجاء مغفرة الذنب، وهذا قد تحصل له ذلك بهذا الفعل الذي فعل، فلا شك أنه للآخرة لا غير.

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء ٩١/٢: أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس بلفظ (من أمسى كالأمر من عمل يديه أمسى مغفوراً له) وفيه ضعف.

وإن كان صاحبه ممن له أهل وعيال كان له من الخير ما هو أكثر ممن تقدم، لقوله عليه السلام: (إن من الذنوب ذنباً لا يكفرها إلا الكد على العيال)<sup>(١)</sup>، وذلك بشرط أن يكون على لسان العلم. فأخبر، عليه السلام، أن ثَمَّ ذنباً لا يكفرها شيء أصلاً، لا الوقوف بعرفة، ولا قيام ليلة القدر، ولا غير ذلك، لأنه أتى به (لا) وهي للنفي، عدا ما ذكر، فبقي التصرف كله للآخرة لا غير، لكن على الشروط المذكورة.

ولأجل النظر إلى هذا المعنى وتحقق النية به وفيه ساد أهل الصوفة، وامتازوا بعلو الدرجات والفضل على غيرهم، وهم في الأعمال سواء، لأنهم لا يتحركون حركة إلا لله وبالله، ويرون أن كل ما يحركون به ألسنتهم هو قربة إلى ربهم، لأجل نظرهم إلى ما أشرنا إليه.

ومما يبين ذلك بعض حكاياتهم؛ فإنه قد روي عن بعضهم أنه لما احتاج الناس إلى الاستسقاء من كثرة القحط أرسل إلى أخ له في الله يسأله أن يرغب إلى الله، عز وجل، ويتوسل إليه، لعله أن يرحم عباده. فلما أن أتى هذا المرسل وجد هذا السيد المرسل إليه في تسبب من أسباب الدنيا مشغولاً به، يدخل ليلاً إلى منزله، ويخرج نهاراً إلى تسببه. فتعجب الرجل من ذلك، كيف يكون في التسبب على هذا الحال وهو يُستسقى به؟ فمكث معه ثلاثاً، وهو لم يعطه جواباً، ثم أراد الرجل الانتقال، فسأله الجواب، فقال له: قل له: لو أعلم أنه يخرج مني نفس لغير الله لقتلت نفسي. هذا هو حاله مع ربه.

ومن رآه من العوام يظن أنه مستغرق في دنياه، وهو عَرِيٌّ عنها، خالي القلب منها. هو مع الناس ببذنه، ومع الله بقلبه وروحه. كل ذلك أصله النية وتحريرها والوقوف معها. ولولا ذلك لكانوا في تصرفهم وتكسبهم وغيرهم سواء في الأجر وغيره، وقد قال عليه السلام: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)<sup>(٢)</sup> فكانوا، رضي الله عنهم، بهذا المعنى الذي وقعوا عليه وأمثالهم ما قال عز وجل في كتابه ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾<sup>(٣)</sup> فكذاك يراهم العامي في تسببهم وتكسبهم، أو يراهم يؤنسونه ويتحدثون معه في جلي الأمور وخفيها، فيظن أنهم معه بالكلية، وليس كذلك، وإنما أبدانهم هي تلك، وأسرارهم تجول في الملكوت.

(١) رواه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة. كذا قال العراقي في تخريج الإحياء ٣٢/٢ ولفظ الحديث: أن النبي ﷺ قال: إن من الذنوب ذنباً لا يكفرها صلاة ولا صوم ولا حج، ويكفرها الهَمُّ في طلب المعيشة.

(٢) متفق عليه من حديث عمر رضي الله عنه.

(٣) سورة النمل، من الآية ٨٨.

وقد يكون منهم من يقطع من المقامات ما قدر له وهو مع أصحابه يحدثهم ويؤنسهم، لكن لا يكون هذا إلا لأهل القوة والتمكين منهم في الأحوال التي كشف الله لهم غواشيها فطن أفهامهم، ففهموا عنه ما أراده منهم، فأجابوا إليه مسرعين. وهم الذين حصل لهم أوفر نصيب من ميراث نبينهم عليه السلام، لأن الله عز وجل قال في حقه، عليه السلام ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾<sup>(١)</sup> وقال عليه السلام (تنام عيناى ولا ينام قلبي)<sup>(٢)</sup>. فكان عليه السلام في النوم لا يغفل، وحين أطلع ما أطلعه الله عليه لم يُلْهِهِ ذلك، ولم يَشْغَلْهُ عن آداب العبودية. وكان، عليه السلام، يمزج مع النساء والصبيان ويؤنسهم<sup>(٣)</sup>، ويأخذ معهم في تدبير أمورهم، ويسره في الملكوت يجول حيث أراد الله عز وجل به. ومن تقدم وصفهم أخذوا من هذا أوفر نصيب، لكن ذلك المقام الخاص به، عليه السلام لا سبيل لأحد للوصول إليه.

ومما يشهد لهذا المعنى ما حكى عن بعضهم أنه مرت به فكرة فسرى بسرّه إلى قاب قوسين، فسَمِعَ النداء: هنا سُرِّي بذات محمد السنية حيث سُرِّي بسرك. ولسان الحال ينادي للتابع وللمتع: بينكما ما بينكما في الاتباعية.

ومما يشهد لذلك أيضاً ما حكى عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله أنه كان نائماً في مسجد، وواحد ممن كان يلوذ به قائم يصلي، فرأى بعض من كان هناك من أهل الفضل شيطانين خارج المسجد، وأحدهما يقول لصاحبه: ألا تدخل فتوسوس لهذا المصلي؟ فقال له الآخر: يحرقني نفس هذا النائم. فهو لم يعبأ بهذا المصلي، ولم يقدر على الدخول إلى المسجد خيفة نفس إبراهيم لثلا يحرقه، ولا ذاك إلا لحضورهم في كل أحوالهم وفي كل أزمانهم. فنسأل الله بمنّه وفضله ألا يحرمنا من بركاتهم، وأن يمنّ علينا مما منّ به عليهم.

وفيه دليل على أن الموجب للنظر هي قوة شهوة الجماع. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (اغضّ للبصر). ومما يقويه قوله عليه السلام (وزنى العين النظر، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه)<sup>(٤)</sup> ووجه آخر وهو: أنه لما كان غَضّ البصر مطلوباً، بمقتضى الآية، أمر من لم يقدر على ذلك بالتسبّب.

(١) سورة النجم، من الآية ١٧.

(٢) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: أتنام قبل أن توتر يا رسول الله؟ فقال: إن عيني تنامان ولا ينام قلبي.

(٣) انظر سنن أبي داود في الأدب والترمذي في البر والصلة والبخاري في الأدب باب الانسياط إلى الناس، ومسلم في.

(٤) جزء من حديث متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ولفظ الحديث: كُتِبَ على ابن آدم نَصِيْهُ مِنَ الزَّنى، فهو مدرك ذلك لا محالة، العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطى، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه.



وبحث ثالث وهو، أن يقال: هل لا يكون<sup>(١)</sup> غض البصر إلا بهذين الأمرين لا غير؟  
فالجواب: إن هذين أكبر وقد يكون غض البصر بأن يغطي رأسه حتى لا يرى أحداً إن كان المَعْنِيَّ  
الجارحة، وإن كان المَعْنِيَّ الجارحة مع سكون الفكرة في ذلك الشأن فهذا قد يزيله نوع آخر مثل  
شدة الخوف والتألم، كما روي عن الثوري، رحمه الله، أنه كان إذا مرَّ به خاطر لغير الله يضرب نفسه  
بقضيب، فربما كان يكسر على نفسه في اليوم الواحد جملة من القضبان.

ووجوه كثيرة، لكن الذي أشار إليه، ﷺ، هو أعلاها وأيسرها ويكون من باب التنبيه بالأعلى  
على الأدنى.

وفيه فائدة أخرى: أنه دواء، وهو في نفسه قربة. فالذي يقدر على أن يكون دواؤه طاعة فهو  
أولى. ومن هذا الباب قوله عليه السلام: (داووا مرضاكم بالصدقة، وادفعوا البلاء بالصدقة)<sup>(٢)</sup>.  
وما ذكرنا هذا إلا من أجل أنه يعجز بعض الناس عن أحد هذين الوجهين، أو يفعلهما ولا يقع له  
بهما غض بصر ولا فرج، فيقول: قد امتثلت السنة، وما يلزمني أكثر، ويترك نفسه مهملة، هذا لا  
يَجِل، وإنما هذا منه، ﷺ، تنبيه على التسبب في توفية ما أمر العبد به.

وبحث آخر وهو: أنه ليس الأمر - أعني الحفظ - مختصاً بهذين العضوين ليس إلا، بل  
الجوارح كلها مطلوبة بالحفظ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ  
مَسْئُولًا﴾<sup>(٣)</sup> وإنما تنبه، ﷺ، بهذين العضوين لأنهما إنما تعظم الفائدة فيهما، لأنه من استقامت له  
هاتان فالغالب استقامة الغير، ومن لم تستقم منه هاتان فلا يمكن استقامة باقي الجوارح.  
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

(١) كذا، والصواب: ألا يكون.

(٢) رواه الطبراني في الكبير والقضاعي في مسند الشهاب وأبو نعيم في الحلية والخطيب في تاريخه من حديث  
عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وفي إسناده ضعف، ولفظه - كما ورد في الجامع الكبير - (داووا مرضاكم  
بالصدقة، وحصنوا أموالكم بالزكاة، فإنها تدفع عنكم الأعراض والأمراض) وليس في الحديث ما أورده ابن أبي  
جهمرة رضي الله عنه (ادفعوا البلاء بالصدقة).

(٣) سورة الإسراء، من الآية ٣٦.

## حديث توقيت السحور

عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: تَسَحَّرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ. قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالسُّحُورِ؟ قَالَ: قَدَرُ خَمْسِينَ آيَةً.

✽ ✽ ✽

ظاهر الحديث يفيد بأن تأخير السحور من السنة، لأن النبي ﷺ، تَسَحَّرَ، وكان بينه وبين الفجر قدر قراءة خمسين آية. وإنما فعل ذلك ﷺ، لأنه، عليه السلام، كان أبداً ينظر ما هو أرفق لأمته فيعمل عليه، لطفاً منه بهم، وسحوره، عليه السلام، من جملة الألفاظ بهم، لأنه لو لم يتسحر لكان أبداً أهل الفضل من أمته لا يتسحرون لاتباعهم له، فقد يكون على بعضهم في ذلك مشقة، لأنه ليس كل الناس يقدر على ذلك.

وكذلك أيضاً لو تسحر في جوف الليل لكان عليهم في ذلك شيء آخر، وذلك أن المرء إذا أكل في جوف الليل فالغالب عليه أنه ينام بعد الأكل، وليس كل الناس يقدر على السهر، والنوم عقيب الأكل فيه ضرر كثير على البدن، لأن بخارية الطعام تطلع إلى الدماغ فيتولد من ذلك علة أو مرض. ولو سهر الإنسان من وقت أكله، وكان الأكل في جوف الليل، لوجد بذلك مجاهدة، لأن الأكل والشرب يستدعيان النوم، فيكون ذلك سبباً إلى أن يكون النوم يستدعيه في وقت الحاجة إلى العبادة، وهو وقت صلاة الصبح. وربما يغلب عليه النوم من أجل ثقل الطعام الذي يكون في المعدة والبخارية التي تطلع إلى الرأس. فإذا كان كذلك فقد يضرب به النوم عن صلاة الصبح، فيكون الأكل في ذلك الوقت سبباً إلى إيقاع الصبح فذاً<sup>(٢)</sup> في غير وقتها المختار سيما في صلاة الصبح المستحب التغليس<sup>(٣)</sup> بها. وإن هو لم ينم فإنه يجد مجاهدة في وقت الصلاة بالنوم، والمطلوب في الصلاة الحضور بالقلب، فإذا كان يجاهد النوم فلا يأتي له مع ذلك حضور.

(١) انظر ترجمته في الحديث ٤٤.

(٢) فذاً: فرداً بلا جماعة.

(٣) الغلّس: الصلاة في ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح. والتغليس: هو الصلاة في وقت الغلّس.

فلأجل هذه المعاني وغيرها أخر، عليه السلام، السحور إلى قريب من الفجر، لأن المرء إذا تسخّر في ذلك الوقت لم يبق بينه وبين الصلاة إلا قدر ما يأخذ أهبتها، فكان ذلك سبباً إلى إيقاع الصلاة بحضور، لأنه ليس معه في ذلك الوقت ما يزيل عنه ذلك، لأن الصلاة وقعت عقيب الأكل. وإنما يقع التشويش بالأكل من جهة النوم بعد الأكل بزمان يسير بقدر ما تطلع بخارية الطعام إلى الرأس.

ثم إنه إذا أوقع الصلاة بعد أكله دخل في النهار، فاشتغل بما له من الضرورات والأوراد عن النوم، ويحصل له بذلك فائدة أخرى وهو: تركه للنوم بعد الأكل، وترك النوم زيادة في العمر، لأن النوم هو الوفاة الصغرى، وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِأَنبِلٍ﴾<sup>(١)</sup> فجعل النوم وفاة. والعامل مهما قدر على الزيادة في عمره ولو بنفس واحد فعل، وذلك أن التاجر أبداً عند الناس لا يقال له: تاجر، حتى يكون أبداً محافظاً على رأس ماله، ويكون عارفاً بالتجارة.

والتاجر الحقيقي هو المؤمن، لأنه يتجر فيما يبقى، وهؤلاء يتجرون فيما يفنى. والمؤمن رأس ماله هو عمره، فيحتاج أن يحافظ عليه، وحينئذ يطلب الربح، فيحذر من كثرة النوم والغفلات، فإذا احترز من ذلك بادر إلى الكسب بالأعمال الصالحات، وقد أخبر، عز وجل، في كتابه بأنهم هم التجار حقاً بقوله تعالى ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَرٍ تُجِيعُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup> الآية إلى آخرها. ولا شك أن من فاز بالجنان، ونجا من النار، وحصلت له المغفرة من العزيز الغفار، أن ذلك هو أربح الرابحين. وقد أوحى، عز وجل، إلى داود، عليه السلام، في الزبور (يا داود من تاجرني فهو أربح الرابحين).

فإذا لم يتحرز المرء في يقظته من كثرة الغفلات فهو كالنائم سواء؛ لقوله، عليه السلام، (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت). فشبهه بالميت وإن كان مستيقظاً، لأجل أن وقته عري عن عبادة ربه، فيكون رأس ماله يتبدد وهو لا يشعر حتى ينفد، فإذا نفذ انتبه لحاله وقال: ﴿أَرْجِعُونِي﴾<sup>(٣)</sup> فيقال له: ﴿كَلَّا﴾. وأما من قام أول الليل للحاجة التي لا بد للبشر منها، فصاحب ذلك النوم في عبادة وخير، فنومه وصلاته وذكره على حد واحد في الأجر.

يشهد لذلك قصة الصحابين وهما: معاذ وأبو موسى الأشعري، رضي الله تعالى عنهما، لما أن أرسلهما النبي ﷺ يعلمان الناس الدين، ويقرران الأحكام، فمضيا إلى ذلك، ثم اجتمعا، فسأل

(١) سورة الأنعام، من الآية ٦٠.

(٢) سورة الصف، الآية ١٠.

(٣) سورة المؤمنون، من الآية ٩٩.

أحدهما الآخر عن حاله، فقال أبو موسى الأشعري: أقرأ القرآن قائماً وقاعداً وماشياً ومضطجعاً ولا أنام. وقال معاذ: أنام أول الليل وأقوم آخره، واحتسب نومتي كما احتسب قومتي. فلم يسلم أحدهما للآخر حتى أتيا النبي ﷺ فذكرا له. فقال رسول الله ﷺ لأبي موسى الأشعري: (هو أفقه منك) يعني معاذاً الذي يقوم وينام. ولا يطلق، عليه السلام، على من أخذ بذلك (أفقه) إلا لأنه أخذ بما هو أقرب إلى ربه وأحب إليه. هذا هو حال النائم للضرورة التي هي من طبع البشر، ولا غنى له عنه، وأما غير ذلك فهو نقصان من العمر، وقد تقدم، فتحصل من هذا بأن السحور في ذلك الوقت فيه خير كثير، بدليل ما أشرنا إليه.

وأيضاً فإن السحور في ذلك الوقت فيه عون على صيام النهار، لأنه إذا تسحر والفجر قريب أصبحت المعدة بالطعام، وقل أن تحتاج إلى الطعام، وإنما تشتهي مع آخر النهار، فلا تجد النفس ولا الشيطان سبيلاً على فاعل هذا من قِلِّ أنه لا تأخذه الحاجة إلى الطعام إلا إلى آخر النهار، فيكون وقت الإفطار قريباً، فيسهل عليه الانتظار في ذلك الزمن القريب، ثم إنه لم تكن له إلى الطعام تلك الحاجة الكلية. فإذا كان المرء على هذا الأسلوب كان حاضراً في يومه ذاك، غريباً عن الوسواس والاشتهاء والتمني، بخلاف من لم يتسحر في جوف الليل، لأن المعدة تصبح خالية من الطعام، فيصبح وهو محتاج إلى الأكل، فيبقى يومه ذلك في مكابدة ومجاهدة مع النفس من قِلِّ ما تشتهي من الأطعمة، لأن الجائع أبداً تكثر عليه الشهوات، ويجد الشيطان إليه سبيلاً في الوسوسة بذلك، وقد يغلب على بعض الناس من جهة الصفراء، لأن الصفراوي لا يحتمل ذلك، فيُغشى عليه، فيكون ذلك سبباً للإفطار في رمضان.

ولأجل هذا المعنى الذي أشرنا إليه قال ﷺ (من رأى منكم امرأة تعجبه فليأت أهله، فإن الذي عندها عند الأخرى)<sup>(١)</sup> أو كما قال عليه السلام، لأن من رأى امرأة فتلك الشهوة القوية هي التي تسول ما تسول من إيقاع المخالفة، فإن هو أتى أهله فقد زال عنه ذلك الألم الكلي، وإن كانت المرأة التي رأى في الجمال ليس عنده مثلها. فهو إذا واقع أهله لم تبق النفس تشوف مثل ما كانت، وهو قادر على زوال ما بقي من التشوف للغير، إن بقي.

والسحور فيه شبه من ذلك، لأنه إذا تسحر كان على الحال الذي قدمنا ذكره، فلم يبق معه من الشهوة إلى الطعام إلا قدر ما يطيق على إزالته عنه، وإن هو لم يتسحر كان على الحال الذي قد ذكرناه، وذلك نقصان، سيما في رمضان الذي فيه من الفضل ما قد علم، فيحتاج المرء أن يكون فيه حاضر القلب مع ربه، ساكن الخاطر من جهة نفسه، لئلا يروح عنه يوم لا يخلف مثله.

(١) رواه مسلم في النكاح وأبو داود والترمذي من حديث جابر رضي الله عنه، وأوله: أن رسول الله ﷺ رأى امرأة فأتى امرأته زينب إلخ...

وفي سحور النبي ﷺ مع أصحابه دليل على تواضع النبي ﷺ، إذ إنه في الفضل حيث هو، لكنه كان يأكل مع أصحابه ويؤانسهم تواضعاً منه لهم.

وفيه دليل على أن المشي بالليل للحاجة لا كراهة فيه، لأن الصحابة، رضوان الله عليهم، أكلوا مع النبي ﷺ ليليل. ومعلوم أن منازلهم كانت في الصغر والضيق من حيث لا يبيت بعضهم عند بعض غالباً، ولأجل هذا لما نهاهم، عليه السلام، عن الجلوس في الطرق قالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا<sup>(١)</sup>، لأنهم كانوا إذا أراد أحدهم أن يجتمع بصاحبه لم يجد إلى ذلك سبيلاً من ضيق بيوتهم غالباً، فاحتاجوا إلى الجلوس في الطرق لضرورة اجتماع بعضهم مع بعض في النظر فيما يصلحهم. فلما أن تقرر هذا من حالهم علم أنهم خرجوا ليليل، حتى اجتمعوا في موضع تسحروا فيه، ويحتمل أن يكونوا تسحروا في المسجد الجامع، أو في منزل النبي ﷺ، أو في منزل أحدهم.

وتقديرهم الزمان بخمسين آية فيه دليل على أن الصحابة، رضي الله عنهم، كانت أوقاتهم مستغرقة في التعب، لأنهم قدروا الزمان بتلاوة القرآن. فلو كانت لهم عادة تغلب عليهم أكثر من التعب لقدروا الزمان بها، ولو كانت قلوبهم متعلقة بغير ذلك لقدروا بذلك. فهم أبدأ لا يزالون في التعب، وإن كان أحدهم في شغل من الأشغال فقلبه متعلق بالتعب لا بذلك الشغل. فما كان هو الغالب على المرء والقلب به متعلق، فتقدير الزمان لا يعرفه إلا به غالباً لتيسير ذلك عليه.

وفيه دليل على أن المرء لا يخاطب كل شخص إلا بما يعلم أنه يفهم عنه، لأنهم قدروا الزمان بالقراءة التي هي كانت الغالب عليهم. ولو كان ذلك الأمر بين غيرهم لكان التقدير بغير ذلك بما يعلم أنه يصل إلى الذهن، لأن المطلوب هو إيصال الفائدة إلى فهم السائل، فلا يقدر له ذلك إلا بما يعلم أنه يصل به الفهم إليه. مثال ذلك: أن العامي الذي لا يقرأ القرآن ولو قدر له الزمان بالقراءة لم يتحصل له من ذلك التقدير فائدة، لأنه لا يعرف بها قدر الزمان المشار إليه. فيكون المرء أبدأ يخاطب صاحبه على قدر فهمه، وبحسب ما تتوصل الفائدة إليه، ولا يعامل الناس كلهم بمعاملة واحدة، فإن ذلك من الخطأ والغلط. فإن علم صاحبه في المثال أنه يحسن الخياطة أو النجارة قدر له الزمان بذلك، فيقول له: قدر ما تخطط كذا، أو تنجّر كذا، اقتداء بهذا الحديث.

ثم بقي بحث، وهو: هل الألف واللام في (الصلاة) للجنس أو للعهد؟ احتمل الوجهين. فإن

(١) قطعة من حديث متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ونص الحديث: إياكم والجلوس في الطرقات، فقالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها. فقال رسول الله ﷺ: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال غض البصر، وكف الأذى، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

كانت للجنس فتكون الصلاة هنا صلاة نافلة، ويكون على هذا الوجه من السنة أن يكون إثر السحور صلاة نافلة. وإن كانت للعهد - وهي الفريضة - فيكون معنى: (قام إلى الصلاة) أي للتأهب لها من طهارة وخروج إلى المسجد لانتظارها، لأنه في صلاة ما كان ينتظر الصلاة.

ويترتب على هذا من الفقه أن يكون السحور بقرب الصبح حتى ما يكون بعده إلا الاشتغال بالصبح، وهو الأظهر - والله أعلم - لأجل أن سؤال صاحبه عن الأذان إنما كان حتى يعلم أي قدر يبقى له للصبح عند فراغه من الأكل، لأنه لا يمكن له الاتباع إلا بتحديد الوقت.

وفيه دليل على أن من النبل في العلم أو في الإخبار إذا أتى المتكلم بأمر فيه احتمال أن يفسره للسامع حتى يزيل ذلك الإشكال. يؤخذ ذلك من أنه لما قال الراوي (ثم قام إلى الصلاة) احتملت (ثم) أن تكون على المشهور من بابها من أنهم لم يقوموا إلى الصلاة إلا من بعد مهلة، واحتمل أن تكون (ثم) للإخبار من الانتقال من فعل إلى فعل لا ثاني بينهما. ومثل للسامع على قدر الزمان الذي كان بين فراغهم من السحور والأذان بذكر الآي، فذهب الإشكال.

والألف واللام أيضاً في (الأذان) هنا إنما هي للعهد، لأن النبي ﷺ كان يقول (إن بلالاً ينادي بليل، فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أم مكتوم)<sup>(١)</sup>، وكان لا يؤذن إلا مع الفجر. وسؤاله هنا إنما هو عن الأذان الذي يمنع معه الأكل والشرب.

وفيه بحث آخر وهو أن الأكل يكون قَطْعُهُ قبل الفجر بيسير، أقله مثل هذا. وقد تقرر من الشريعة أنه لا بد للصائم أن يمسك جزءاً من الليل قبل الفجر، ولا يحسبه واجباً لكونه عليه السلام فعل ما تقدم ذكره. وقد بين ذلك قولاً وفعلًا.

وفيه من الحكمة أن من كلف شيئاً فأخرجه عن عادته أن من الرفق به أن يعان عليه، لأن الصوم خروج عن العادة، فرفق به في السحور.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) متفق عليه من حديث السيدة عائشة وابن عمر رضي الله عنهم. و(ابن أم مكتوم): اسمه عمرو بن قيس بن زائدة ابن الأصم: صحابي، شجاع. كان ضرير البصر. أسلم بمكة، وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر. وكان يؤذن لرسول الله ﷺ في المدينة مع بلال. وكان النبي ﷺ يستخلفه على المدينة، يصلي بالناس في عامة غزواته. وحضر حرب القادسية ومعه راية سوداء وعليه درع سابغة، فقاتل - وهو أعمى - ورجع بعدها إلى المدينة فتوفي فيها سنة ٣٢هـ / ٦٤٣ قيل استشهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

## حديث من أفطر يوماً في رمضان من غير عذر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَفَعَهُ (مَنْ أَفْطَرَ يَوْمًا مِنْ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ عُدْرٍ وَلَا مَرَضٍ لَمْ يَقْضِهِ عَنْهُ صِيَامُ الدَّهْرِ، وَإِنْ صَامَهُ). وَبِهِ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يفيد أن من أفطر في رمضان متعمداً من غير عذر ليس له كفارة تكفره، لأنه قال فيه : (لم يقضه صيام الدهر وإن صامه) وصيام الدهر أعظم ما يكون من القضاء عن صوم ذلك اليوم، ثم إنه لم يجزئ ذلك عن يومه الذي أفطر فيه، فما يغني غير ذلك من الكفارات.

وقد اختلف العلماء : هل عليه كفارة أم لا؟ فذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أن لا كفارة عليه، وهذا الحديث مما يشهد له بذلك، لكنه قال بالقضاء. وهذا الحديث يرد ذلك، لأنه قال فيه : (لم يقضه صيام الدهر). فإذا كان صيام الدهر لا يُجزيه فما يكون اليوم الواحد بالنظر إلى هذا؟ وذهب مالك، رحمه الله، إلى وجوب الكفارة قياساً منه على الجُماع الذي وردت الكفارة فيه على الصائم، نصاً من الشارع عليه السلام. فقال : الأكل من باب أولى أن تكون الكفارة فيه.

والأظهر - والله أعلم - أن هذا الحديث لم يبلغهما، ولو بلغهما لذهبا إليه، أو لتكلما فيه. فلما أن لم يتكلما عليه ولا تكلما فيه قوي الظن أنه لم يبلغهما، سيما مالك، رحمه الله، الذي يروي أحاديث ثم يترك العمل بها، لأجل العمل المتصل. وهذا الحديث من أكد ما عليه من النقل، إذ إنه يصادم ما ذهب إليه.

والذي يظهر من الفقه - والله أعلم - أن الإفطار في رمضان متعمداً ليس له كفارة، كما هو اليمين الغموس. هذا من طريق الفقه، وعملاً على الحديث.

لكن قوله : (وبه قال ابن مسعود) يدل ذلك على أن ابن مسعود خالف غيره في ذلك، إذ إنه لولا أنه اختص به وحده، وذهب إليه دون غيره ممن كان في وقته، لما ذكر الراوي أنه هو الذي ذهب إلى ذلك وترك ما عداه. فعلى هذا فالحديث كان عندهم مشهوراً، لكن تركوا العمل به، لما ظهر لهم من

الترجيح . فإذا قلنا بهذا البحث فيكون الحديث قد بلغ إلى الأئمة لكنهم لم ينقلوه، ولم يتكلموا فيه، إما ظهر لهم من المصلحة في ذلك، إما لعلمهم بأنه قد ترك العمل به، وإما لغير ذلك .

وقوله (من غير علة ولا مرض) العلة هي كل عذر أباح الشارع، عليه السلام، به الإفطار، والمرض تأكيد في العلة، وهو ما يلحق ابن آدم من الضعف فيمنعه من الصيام . وقد اختلف العلماء في المرض الذي يفطر له، وقد ذكر في كتب الفقه .

وفي مساق هذا الحديث دليل على فضل رمضان، إذ إن يوماً منه لا يَغْدُلُه صيام الدهر . فإذا كانت أيامه على هذا الفضل والمزية فيحتاج اللبيب أن يكون في أيامه متنبهاً حاضراً منقطعاً للتعب . وقد جاء أن الأعمال تضاعف فيه . وقد قال، عليه السلام، يوماً عند صعوده إلى المنبر (آمين) كرر ذلك ثلاثاً، فقليل له في ذلك، فقال (أتاني جبريل، عليه السلام، فقال لي: مَنْ أدركه رمضان فلم يغفر له أبعدَه الله . قل: آمين . فقلت: آمين . ثم كرر ذلك اثنين بعده بالبعد أيضاً<sup>(١)</sup>) فليَحْذَرُ المرء لئلا يدخل تحت هذا الدعاء، إذ إن الأمر فيه على قسمين . إما مغفرة الذنب، أو الخسران بالدخول تحت نص هذا الدعاء .

وهنا بحث آخر، وهو أنه يكون معنى قوله (لم يقضه صيام الدهر وإن صامه) أي أن الفضيلة التي فاتته في صيام هذا اليوم، الدهر كله لا يقوم مقامها، وإن كانت الكفارة مُذهبة لما وقع فيه من الإثم، إلا أن ما خسر فيه لا يمكنه خلفه، لأن ما جعله المولى في خلق من خلقه من فضيلة لا يكون شيء يَغْدُلُه مما جعله غيره من العبيد، وإن كان أكثر منه ثواباً، فلا تحصل له تلك الفضيلة الخاصة .

مثال ذلك أن لو جاء شخص لا يضحى يوم النحر، ويتصدق مثلاً بألف درهم أو دينار، قيل له: فضل الأضحى وما جاء فيها لا يحصل لك، وإن نويت أنت بتلك الألف دينار أنها بدل من الأضحى، ولا يكون لك بها ثواب أضحى . ولو اشتريت منها أضحى بدينار لكان لك خيراً من تلك الصدقة بالألف، وإن كانت مقبولة، لقوله، عليه السلام، (ما عمل آدمي عملاً في يوم النحر أفضل من إراقة الدم)<sup>(٢)</sup> ففضلت أنت ما لم يفضلهُ الشرع، فليس كما زعمت . ولا يكون ذلك .

(١) قطعة من حديث رواه عدد من الصحابة الكرام منهم كعب بن عجرة والحويرث وأبو هريرة، وهو حديث صحيح رواه الحاكم وابن حبان ولفظه: صعد رسول الله ﷺ المنبر، فلما رقي عتبة قال: آمين، ثم رقي أخرى فقال: آمين، ثم رقي عتبة ثالثة فقال: آمين . ثم قال: أتاني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، من أدرك رمضان فلم يغفر له فأبعده الله، فقلت: آمين . قال: ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار فأبعده الله، فقلت: آمين . قال: ومن ذكرزت عنده فلم يُصَلِّ عليك، فأبعده الله، فقلت: آمين .

(٢) رواه الترمذي في الأضاحي عن عائشة رضي الله عنها، ولفظه: ما عمل آدمي من عمل يوم النحر أحب إلى الله من إهراقه الدماء، إنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض . فطيبوا بها نفساً .



ولذلك كان مالك، رحمه الله، تعالى، يرغب للمسافر أن يصوم في سفره، وإن كان الفطر له مباحاً شرعاً. ومذهب الإمام أنه مخير بين الأكل والصوم، إلا أنه قال: فضل أيام رمضان لا يوجد في غيرها. فتراه قد لاحظ هذا الحديث من وجه ما، وهو الأحوط.

وفيه دليل على أن فضل العبادات هو الاتباع لا الأشق. يؤخذ ذلك من أن صوم الدهر أشق من صوم يوم، وتراه لا يغدله.

وفيه دليل لأهل الصوفة الذين يقولون: طاعة العارف امتثال، وطاعة الجاهل شهوة، لأن الشهوة هي التي حملت على أكل اليوم متعمداً، فأبدله بالأشق - وهي الكفارة - والامتثال هو الذي حمل العارف على التزام الأدب في توفية الأمر لا غير.

وفيه دليل على أنه ما يقع من المخالفة حقيقةً فصاحبها، مع وجود الفضل فيه، لا يجبر له ما فاته وإن تاب. يؤخذ ذلك من قوله (وإن صامه) لأن هذا لا يصوم إلا مع وجود التوبة. وقد قال الشافعي، رحمه الله: إنه ما عليه إلا التوبة وقضاء يوم بدله. فتكون التوبة وقضاء اليوم أو الدهر غايته أن يدفع عنه العقاب. وأما ما كان له من الربح فلا يعود - أعني على مثله - إلا إن تفضل المولى، وأما على الظاهر فلا. وعلى هذا يجيء قوله ﷺ (التوبة تُجِبُّ ما قبلها)<sup>(١)</sup> أي تقطعه وتمنع ما كان من الإثم والعقاب، لا أنها تجبر ما فاته من الخير.

ولذلك قال أهل المعاملات: لو أن شخصاً بقي بباب مولاه عمره، وغفل ساعة واحدة، لكان ما فاته في تلك الساعة خيراً مما نال، لأنه لعل تلك الساعة كانت ساعة النفحة، ومن فاتته تلك النفحة ما يخلفها غيرها، وإن أتت نفحة أخرى فقد فاتت تلك، وخسر نصيبه منها. وواويلته من تخلف عن باب مولاه.

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

---

(١) لم نقف على مصدره، وإنما المعروف أن (الإسلام يجب ما قبله).

## حديث وصية النبي ﷺ لأبي هريرة بثلاثة أعمال من البر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَوْصَانِي خَلِيلِي، ﷺ، بِثَلَاثٍ: صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَكَعَتَيِ الضُّحَى، وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَنَامَ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يفيد الحض على صيام ثلاثة أيام من كل شهر، ورَكَعَتَيِ الضُّحَى، وإيقاع الوتر قبل النوم؛ لأن النبي ﷺ أوصى بذلك لأبي هريرة، رضي الله عنه، وما أوصى به، عليه السلام، فهو تأكيد منه في الأمر.

فإن قال قائل: لِمَ أوصى النبي ﷺ بذلك لأبي هريرة، رضي الله عنه، وخصه بها دون غيره مثل أبي بكر وعمر وغيرهما من الخلفاء؟ قيل له: إنما تركهم من قِيلَ أنهم كانوا بحيث لا يحتاج، عليه السلام، إلى وصيتهم، لأنهم قاموا بعِبَاءِ النبوة بعده، وهم ورثوا النبي ﷺ، وأخذوا من ميراثه أوفر نصيب. وقد قال، عليه السلام، (أنا مدينة السخاء وأبو بكر بابها، وأنا مدينة الشجاعة وعمر بابها، وأنا مدينة الحياء وعثمان بابها، وأنا مدينة العلم وعلي بابها)<sup>(١)</sup>.

فمن كان بهذه المزية من النبي ﷺ فلا شك أن الوصية تلتبس منهم. وقد جعل، عليه السلام، أفعالهم يقتدى بها في الدين، فقال، عليه السلام، (عليكم بسنتي وسنة العُمَرَاءِ بعدي)<sup>(٢)</sup> وفي حديث آخر (وسنة الخلفاء)<sup>(٣)</sup>. وكانوا كذلك، رضي الله عنهم، حَذَّوْا حَذْوَ نَبِيِّهِمْ، وسلَكُوا منهاجه، فكانوا يبادرون إلى ما هو أقرب إلى ربهم، فيمثلون الأمر في ذلك، لقوله تعالى

(١) سبق القول في الحديث ١٣: لم نقف على مصدره بهذه الصورة.

(٢) لم نقف على مصدره بهذه الصورة.

(٣) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه وهو جزء من حديث.

﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾<sup>(١)</sup> مثل تركهم لركوع الضحى واشتغالهم بالنظر في مصالح المسلمين، إلى غير ذلك مما يشهد بفضلهم.

وأيضاً فقد كان، عليه السلام، يوصي لكل شخص بحسب ما يقتضيه حاله، وما هو الأقرب في حقه، كما أوصى لغير أبي هريرة حين سأله في الوصية (ببرّ الوالدين)<sup>(٢)</sup>، وكما قال للآخر أيضاً حين سأله في الوصية (صَلِّ صلاة مودّع، واقطع الإياس مما في أيدي الناس)<sup>(٣)</sup>، وكما قال في عبد الله بن عمر (نِعْمَ الرجل لو كان يقوم الليل)<sup>(٤)</sup> إلى غير ذلك.

فخص أبا هريرة بهذه الوصية كذلك، لأن ذلك هو الذي يقتضيه حاله، لأنه كان منقطعاً للتعبّد، وما أوصاه به هو شعار العبّاد أبداً، فأوصاه بما كان من جنس شعار التعبّد بأقل ما يمكن منه، لئلا يلتزم كل ما يؤمر به، وقد يكون عليه في ذلك مشقة. ولو أوصاه بأكثر لالتزم ذلك وواظب عليه، كما التزم بهذه الوصية فيما روي عنه في رواية غير هذه أنه قال: (أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى ألقاه)<sup>(٥)</sup> وذكر الثلاث التي نحن بسبيلها. فبيّن له، عليه السلام، بتلك الوصية أي جنس من الأعمال هو أقرب في حقه، وتركه يفعل منه بحسب همته ومقدرته، لأنه حدّ له الطرف الواحد الذي هو الأقل، وسكت عن الآخر الذي هو الأكثر.

وذلك أن أفعال البر لا يستوي فيها الناس. فربّ شخص يكون الانقطاع إلى التعبّد به أولى، وآخر تكون مجالسة العلماء والدرس والقراءة والنظر به أولى، وآخر يكون السفر والجهاد له أولى، إلى غير ذلك، لأنه قد يكون في شخص أهلية للعلم فيكون ذلك أقرب في حقه، لأن العلم أفضل الأعمال، على ما تقرر في ذلك من الشارع، عليه السلام. فاشتغاله بالتعبّد وتركه للعلم نقصان في حقه، سيما في هذا الزمان الذي قد يكون الاشتغال بالعلم على من فيه أهلية فرض عين في حقه، لقوله، عليه السلام، (إذا ابتدع في الدين بدعة كيد، الدين، فعليكم بمعالم الدين، واطلبوا من الله الرزق) فقالوا: يا رسول الله، وما معالم الدين؟ فقال: (مجالس الحلال والحرام)<sup>(٦)</sup> فالعلم اليوم هو أقرب ما يتقرب به إلى الله، بل نقول: هو على الوجوب بدليل الحديث الذي ذكرناه، وإذا كان

(١) سورة الإسراء، من الآية ٥٧.

(٢) رواه الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم والبيهقي وهو حديث: مَنْ أَحَقَّ النَّاسُ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ إلخ...

(٣) رواه الحاكم عن سعد بلفظ: عليك بالإياس مما في أيدي الناس، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصَلِّ صلاة مودّع، وإياك وما يُعتدّر منه.

(٤) رواه البخاري في التهجد ومسلم في فضائل الصحابة من حديث حفصة رضي الله عنها.

(٥) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (وهو موضوع حديث الباب).

(٦) لم نقف على مصدره ولعله يريد حديث: إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: مجالس العلم. رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما.

المرء ليس فيه أهلية بالعلم فحينئذ يؤمر بالانقطاع للتعبد، لأنه إذا انقطع للتعبد عساه أن ينفع نفسه ويتنفع الناس بدعائه .

ثم كذلك في كل الأعمال ما هو أولى وأكد بحسب حال كل شخص من الناس بدأ به وقدمه على غيره، ولا ينظر إلى فضيلة الأعمال من حيث هي، وإنما ينظر إلى الفاعل، لأنه، عليه السلام، لم يكن ليقصر على فعل واحد، فيوصي به الناس عن آخرهم، وإنما يختار لكل شخص ما فيه أهلية إليه، وقد تقدم ذلك . وإنما أوصاه، عليه السلام، بتلك الأفعال اليسيرة لما قدمنا ذكره، وهو خشية التزامه بما هو أكبر، كما ذكرنا .

وأيضاً فدأبه، عليه السلام، أبداً كذلك، يوصي بما لا بد منه، وما هو الأقل، ثم بعد ذلك يرغب في الزيادة والكثرة منه، مثل قوله، عليه السلام، (من قام بالآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه)<sup>(١)</sup>، ثم رغب بعد ذلك في الزيادة وعدد الأجور حتى قال (بأن من قام بألف آية كتب من المقنطرين)<sup>(٢)</sup>، وذكر في ثلث الليل الأخير فضلاً كثيراً، وقام هو، عليه السلام، حتى تورت قدماه<sup>(٣)</sup> . وكذلك فعل فيما نحن بسبيله، سواء أوصى بركعتين، ثم ركع هو، عليه السلام، لما ثمانين ركعات، وجاء اثنتي عشرة، ثم قال عليه السلام (من ركع الضحى اثنتي عشرة ركعة بُني له قصرٌ في الجنة)<sup>(٤)</sup> . كل ذلك رفقاً منه، عليه السلام، بأمته، لئلا يلتزموا بوصيته ما تكون فيه المشقة عليهم، وترغيباً منه لهم أيضاً في تعداده الأجور من غير وصية .

وقد قال، عليه السلام، مما يشهد لهذا المعنى الذي نحن بسبيله (استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة)<sup>(٥)</sup> . ومعنى ذلك: استقيموا على الأعمال الصالحات ولا تحسوها بالعد ولا بالحزر، ولكن أكثروا من ذلك كل الإكثار، وارغبوا في الزيادة . وقد قال المفسرون في معنى قوله تعالى ﴿وَلَا تُقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَأَمَةِ﴾<sup>(٦)</sup> إن كل إنسان يلوم نفسه يوم القيامة، أكان من أهل الإيمان أو من أهل الكفر والضلال . وذلك أن الكافر إذا كان يوم القيامة ورأى ما أعد الله، عز وجل، له من العذاب، رجع على نفسه يلومها، إذا لم يكن من أهل الإيمان . والمؤمن

- 
- (١) رواه البخاري في فضائل القرآن ومسلم في صلاة المسافرين عن أبي مسعود البدي رضي الله عنه .
  - (٢) قطعة من حديث رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في الصلاة، باب تخريب القرآن .
  - (٣) متفق عليه من حديث السيدة عائشة والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما .
  - (٤) رواه الترمذي في الصلاة من حديث أنس رضي الله عنه رقم ٤٧٣ بلفظ: مَنْ صَلَّى الضُّحَى إلخ . . .
  - (٥) رواه الإمام أحمد والدارمي وابن ماجه في الطهارة وباب المحافظة على الوضوء وصححه ابن حبان من حديث ثوبان رضي الله عنه . ورواية الحديث: استقيموا ولن تحصوا . . . إلخ . . .
  - (٦) سورة القيامة، الآية ٢ .

العاصي إذا رأى جزاء أعماله رجع على نفسه باللوم، من أجل الذي ارتكب من ذلك في دار الدنيا .  
والمؤمن المحسن إذا رأى ثواب أعماله رجع على نفسه باللوم، لِمَ لم يعمل أكثر من ذلك حتى  
يكون الثواب له أكثر؟

وفي هذا الحديث دليل لمذهب مالك رحمه الله بقوله في التنفل أقله ركعتان .

وفيه معنى رائق يحتاج اللبيب أن ينظر إليه بتأمل، لأن أبا هريرة، رضي الله، عنه لمّا لم يكن  
له من الدنيا شيء، ولا كان له فيها تكسّب، قنع منها باليسير من العمل لأخذه من الدنيا اليسير من  
الحطام .

ومن هذا الباب أخذ أهل الصوفة مشربهم، فمن كان عندهم منقطعاً اقتنعوا منه بانقطاعه مع  
شيء ما من العمل، ومن كان عندهم مسبباً أمره بكثرة الأعمال والمبادرة إلى الخيرات، حتى قالوا  
فيمن زاد على أكله المعتاد: (إنه يكثر من القيام) تعويلاً منهم على هذا المعنى الذي أشرنا إليه، لأن  
المرء إذا كان منقطعاً للتعبد خالي القلب عن التكسب فقد بقي مقبلاً على ربه بكليته، والمطلوب من  
ابن آدم الحضور في جلّ أوقاته .

وقد هُتِفَ ببعض فضلائهم فقليل له: أدخل الدار يسكنها صاحبها . ومعناه: أدخل قلبك مما  
سوى خالقه يسكنه خالقه . فإذا كان القلب ليس فيه إلا خالقه فهو المطلوب، وهذه هي الغنيمة  
الكبرى، بخلاف المُتَسَبِّب، قد يشتغل باطنه ولو ساعة بتدبير تسببه، فلأجل ذلك التدبير أمره  
بكثرة أعمال البر .

والشبعان أيضاً كذلك، لأن الشبعان يثقل بدنه عن التعب، فأمره بضد ما يريد، لأنه يريد أن  
يستريح عند الشبع، فأمره بضد ذلك - وهو إطالة القيام - لكي يزول عنه ما يجده من الثقل، وينشط  
للعادة، لأن القلب الغالب عليه أبداً الميل مع ما كانت الجارحة متصرفة فيه أكثر .

وقاعدتهم أبداً هي عمارة الباطن . فإذا كان شيء من التسبب أكثروا العبادة لأجله، لكي تكون  
العبادة هي أكثر من التسبب، فيكون ميل القلب مع العمل الصالح هو الغالب على الجوارح  
والتصرف فيه . وهذا - أعني التسبب - معدوم في المنقطع للتعبد .

وقد وجد عيسى، عليه السلام، رجلاً نائماً في السّحر، فقال له: يا هذا، قم فقد سبقك  
العابدون . فقال له الرجل: دعني يا روح الله، فإنني قد عبدته بأحب العبادة إليه . فقال له عيسى،  
عليه السلام: وما هو ذلك؟ فقال الرجل: بالزهد في الدنيا . فقال له عيسى، عليه السلام: نَمَ فقد  
فُتّت العابدين .

وقد قال النبي ﷺ (الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن)<sup>(١)</sup> إشارة إلى ما نحن بسبيله . يريح القلب: أي يريحه من التدبر والتفكر في أسباب الدنيا . ومهما خلا القلب من ذلك تعمّر بالإقبال على ربه، لأنه لا يبقى خالياً أصلاً، لا بدّ له من أحد الأمرين، إن فقد أحدهما وجد الآخر . وقد يكون الاثنان معاً لكن ذلك النادر .

وفيه معنى آخر، وهو: أن أبا هريرة رضي الله عنه رضي بالجوع والفاقة، واختار ذلك، وترك التسبب، ولازم النبي ﷺ ولم يفارقه، وكان صابراً على الجوع محتسباً، حتى إنه قد كان يغشى عليه من شدة الجوع ولا يعلم أحد بحاله، فتشبه بالنبي ﷺ في هذا المعنى، لأنه، عليه السلام، اختار الفقر على الغنى . وقد كان، عليه السلام، يربط على بطنه ثلاثة أحجار<sup>(٢)</sup> من شدة الجوع، ويقول (ألا ربّ مكرم لنفسه وهو لها مهين)<sup>(٣)</sup> أو كما قال، عليه السلام .

فلأجل التزامه بالنبي ﷺ، وكونه اختار ما اختاره، عليه السلام، خصه بهذه الوصية . ولأجل هذا المعنى الذي أشرنا إليه قال أبو هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ (خليلي) لقوله، عليه السلام، (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)<sup>(٤)</sup> . فلما أن كان ملتزماً أبي هريرة ما ذكرناه، ووقع الشبه به بينه وبين النبي ﷺ فيما ذكرناه، ادعى الخلّة لأجل ذلك .

ولا يرد على هذا قوله، عليه السلام (لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً)<sup>(٥)</sup> لأننا لم نتعرض لذلك، لأن النبي ﷺ منع أن يتخذ، عليه السلام، خليلاً لنفسه . وليس يلزم من كونه لا يتخذ خليلاً لنفسه ألا يخالله<sup>(٦)</sup> أحد من الصحابة، رضوان الله عليهم، لأن ليس من شرط الخلّة أن تكون من الأعلى إلى الأدنى، بل قد تكون من كليهما، من الأعلى إلى الأدنى، ومن الأدنى إلى الأعلى . وشرط الخلّة ما ذكرناه، وقد جاء ذلك في أبي هريرة، رضي الله عنه، فساغ له ادعاء الخلّة لأجل ذلك .

لكن بقي بحث، وهو أنه اقتصر له على ركعتين للضحى لا غير، وصوم ثلاثة أيام لا غير

(١) سبق تخريجه في الحديث رقم ٧٥ / .

(٢) سبق تخريجه في الحديث رقم ١ .

(٣) قطعة من حديث طويل رواه ابن سعد في الطبقات ٤٢٢ / ٧ والبيهقي في الشعب ١٧٠ / ٢ وعزاه المنذري في الترغيب والترهيب لابن أبي الدنيا وضعفه . وأوله: ألا ربّ نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة .

(٤) رواه أبو داود في الأدب والترمذي في الزهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وروي بإظهار اللامين خلافاً للقياس .

(٥) رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، ومسلم في فضائل الصحابة من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وكثيرين آخرين .

(٦) كذا، بإظهار اللامين أيضاً .

وإيقاع الوتر قبل النوم . فاما الركوع للضحى فهو أقل ما يمكن إيقاعه ، فاقصر له على أقل ما يفعل من ذلك . وأما صيام ثلاثة أيام فهو أيضاً أقل ما يمكن ، لقوله ، عليه السلام ، (الحسنة بعشر أمثالها)<sup>(١)</sup> والشهر ثلاثون يوماً ، فيحتاج المرء أن يصوم فيه ثلاثة أيام لكل عشرة أيام يوم ، فيكون ذلك له بصيام الدهر . وأما إيقاع الوتر قبل النوم فإنما أوصاه بذلك ليحضه على المبادرة إلى الأعمال خشية الموت ، لأنه إن نام قبل أن يوتر فقد يموت من ليلته ، وهو لم يُوقِع الوتر ، حتى يحصل له ثوابه .

فإن قال قائل : إنما أمره بذلك خشية أن يضرب به النوم حتى يطلع الفجر عليه فيكون ذلك سبباً إلى إيقاع الوتر نهائياً ، وإيقاعه بالليل أفضل . قيل له : ليس الأمر كذلك ، بدليل قوله ، عليه السلام ، (رُفِعَ القلم عن ثلاث)<sup>(٢)</sup> فذكر إحداهن النائم حتى يستيقظ ، فليس عليه في نومه شيء ، وإنما هو خشية أن يموت ولم يحصل له ثواب الوتر . ومما يشهد لهذا المعنى الذي تأولناه قوله ، عليه السلام ، حين سأله السائل في الوصية فقال له (صل صلاة مُودَع)<sup>(٣)</sup> فحضره على قصر الأمل .

ومما يؤيد ذلك أيضاً قوله ، عليه السلام ، لمعاذ : (كيف أصبحت؟ فقال معاذ : أصبحت مؤمناً حقاً . فقال ، عليه السلام : لكل حق حقيقة . فما حقيقة إيمانك؟ فقال : أصبحت لا أخطو وأظن أني أخطو أخرى ، وكأنني أنظر إلى القيامة قد قامت ، وكل أمة تُدعى إلى كتابها ، وأهل الجنة في الجنة يتمتعون ، وأهل النار في النار يُعَذَّبون . فقال له ، عليه السلام : هنيئاً لك العلم)<sup>(٤)</sup> .

ولأجل النظر إلى معنى هذه الأحاديث وما يقتضيه ، لم يبق لأهل الصوفة زمان لأنفسهم ، وإنما تنقطع أعمارهم أبداً في أنواع التعب لربهم ، لأنهم يخافون القوت والموت ، فيبادرون إلى الأعمال ويظنون أن ذلك هو آخر عملهم ، نظراً منهم إلى معنى هذه الأحاديث . ولأجل هذا إذا سمع غيرهم عن شيء من أنواع تعبدهم تعجب من ذلك كل التعجب ، وظن أن البشر لا يقدر على شيء

(١) قطعة من حديث رواه البخاري في الصوم ومسلم في الصيام ، أوله : كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي .

(٢) رواه النسائي في باب من لا يقع طلاقه من الأزواج ولفظه (رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق) .

(٣) سبق تخريجه قبل عدة صفحات .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية ٢٤٢/١ عن أنس بن مالك رضي الله عنه . والرواية المشهورة (عرفت فالزم) والحديث مروى بالمعنى ، ولفظه : أن معاذ بن جبل دخل على رسول الله ﷺ فقال : كيف أصبحت يا معاذ؟ قال : أصبحت مؤمناً بالله تعالى : قال : إن لكل قول مصداقاً ولكل حق حقيقة ، فما مصداق ما تقول؟ قال : يا نبي الله ، ما أصبحت صباحاً قط إلا ظننت أني لا أمسي ، وما أمسيت مساءً إلا ظننت أني لا أصبح ، ولا خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى ، وكأنني أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله ، وكأنني أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة . قال : عرفت فالزم .

من ذلك . ولو نظر المسكين إلى هذا المعنى الذي نظروا إليه ، ووقفوا عليه ، لكان لديه من الأعمال مثل ما لديهم ، لأن هذا معلوم ، وهو أنه من خرج منه نَفْسٌ وهو يظن أنه آخر أنفاسه ، فلا شك أنه لا يقع له غفلة مع ذلك مادام عليه هذا الحال .

وإنما وقعت الحيرة ووقع التدبير والاشتغال عما أخذوا هم بسبيله لأجل إطالة الأمل والنظر إلى المستقبل . فإذا كان المرء ينظر إلى هذا المعنى - لو كان في القوة والتمكين ما عسى أن يكون - فلا بد وأن<sup>(١)</sup> يشتغل عن ربه بتدبيره أمره ، لأن إطالة الأمل يتطلب ذلك قطعاً . وهم ، رضي الله عنهم ، بضد ذلك المعنى ، مهما لبس أحدهم ثوباً ظن أنه آخر لباسه وبه يدخل إلى قبره ، ومهما أكل أكلة ظن أنها هي آخر ما قُسم له في دار الدنيا . ومن كان بهذا الحال فلا شك أنه لو كان أضعف الخلق لم تدخله غفلة ولا فترة أبداً .

ولأجل هذا يقولون في أمثالهم : الوقت سيف . ومعناه : أنك لا تنظر إلا في وقتك وما يلزمك فيه ، فتقوم بما عليك فيه ، فتقطع الوقت بالعمل لئلا يهجم عليك الموت قبل ذلك ، أو لئلا يقطعك الوقت بالتسويق إن سَلِمْتَ من الموت ، لأن الوقت لا يُخَلَفُ ، لأنه إذا مضى يوم من عمر ابن آدم فليس له خَلَفٌ ، ولا يقدر على رده ، فإن مضى عنه وقد فَعَلَ فيه الخير فقد فاز به ، وإن مضى عنه وهو عَرِيٌّ عن ذلك فقد خسره ، ولا يقدر على خَلْفِهِ . والأحمق المسكين هو الذي يقطع الأوقات بـ : لعل وسوف ، وهو يظن أنه في فَلَاحٍ ، وهو في خسران . أليس ذاك اليوم الذي يريد أن يُخَلَفَ فيه ما فَرَطَ لو اجتمع مع هذا اليوم الآخر لكان أذكى وأنجح ؟

وقد أوحى الله ، عزَّ وجلَّ ، إلى داود ، عليه السلام ، في الزبور : يا داود لا يَشْغَلْكَ لَعَلٌ ، وسوف ، وإلى ، عن العمل . وقد قال عليّ ، رضي الله عنه ، وهو آخر ما تكلم به : يا هذا لا تُدْخِلْ هَمَّ غَدِكَ على يومك ، فإنك بين أحد أمرين : إما أن تدركه وإما ألا<sup>(٢)</sup> . فإن أدركته فالله يأتيك فيه برزق جديد ، وإن لم تدركه فلا فائدة في أن تكابدَ هَمَّ يوم لا تدركه . والنصوص من الشارع ، عليه السلام ، ومن أقوال السلف وأفعالهم كثيرة في هذا المعنى . فمن أراد الفلاح والسبق فليتأمل فيما أشرنا إليه ، وليعمل عليه ، ثم يتكل بعد ذلك في نمائه وتماجه على ربّه ، ويضرع إليه ، يَصِلُ عند ذلك - إن شاء الله - إلى المرغوب .

وفيه بحث ، وهو : أنه يجوز الافتخار بصحبة المباركين ، إلا أنه بشرط التشبه بهم ، ولو في

(١) كذا ، بزيادة الواو .

(٢) أي : ألا تدركه .



وجه ما، ويكون الافتخار بنية الشكر لقوله، عليه السلام، (ذِكْرُ النَّعَمِ شُكْرٌ)<sup>(١)</sup> لا على وجه المباهاة والرفعة. يؤخذ ذلك من قول أبي هريرة (خليلي). ويؤخذ منه جواز أن يثبت الشخص بينه وبين أهل الفضل حبلاً ما، وينتسب إليهم به، وإن لم يذكروا هم ذلك، ولم يسموه به. يؤخذ ذلك من قوله (خليلي) والنبى ﷺ قد نفى عن نفسه المكرمة اتخاذ الخلّة من البشر. وقد قيل: إن التشبه بالكرام فلاح.

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

الكتب النادرة التي توضع لأول مرة

---

(١) سبق تخريجه في الحديث (٨٢).

## حديث الأمر بترك ما لم يُسمَّ عليه من الصيد

عَنْ عَدِيِّ<sup>(١)</sup> بْنِ حَاتِمٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُرْسِلُ كَلْبِي وَأُسَمِّي، فَأَجِدُ مَعَهُ عَلَى الصَّيْدِ كَلْبًا آخَرَ لَمْ أُسَمِّ عَلَيْهِ، وَلَا أَدْرِي أَيُّهُمَا أَخَذَ؟ قَالَ: لَا تَأْكُلْ. فَإِنَّمَا سَمَّيْتَ عَلَى كَلْبِكَ وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى الْآخَرِ.

\*\*\*

ظاهر الحديث يفيد بأن التسمية على الصيد واجبة، وإن تركت فلا سبيل إلى أكل الصيد، لأن النبي ﷺ حين سأل السائل لا يدري أي الكلاب أخذه هل المسمَّى عليه، أو غيره هو الذي أخذه، ثم أمره بالترك، فمع وجود الشك، فمن باب أولى أن يترك المقطوع به، وهو الذي تُركت التسمية عليه عمداً.

وفي هذا دليل على أن الأدلة إذا تعارضت بالجواز والمنع أن يعمل على ما هو الأشد، وما يبرئ الذمة، لأن النبي ﷺ أمره أن يترك الصيد مع أنه شك هل المسمَّى عليه أخذه أو غيره؟ فأفتاه بما يبرئ الذمة بيقين.

وفيه دليل لمذهب مالك، رحمه الله لقوله بسد الذرائع، لأنه، عليه السلام، أمره بترك أكل الصيد سداً للذريعة، لئلا يكون الكلب غير المسمَّى عليه أخذه.

وفيه دليل على جواز الاصطياد. وهو على خمسة أقسام، وقد ذكره أهل الفقه.

وفيه دليل على جواز أكل الصيد وإن قتله الكلب، لأن السائل سأل: هل يأكله أم لا؟ ولا يسأله في ذلك عما إذا كان الكلب هو الذي قتل الصيد. وأما لو أدركه قبل القتل فلم يكن له في ذلك

(١) عدي بن حاتم، أبو طريف. أمير، صحابي، من الأجواد العقلاء. كان رئيس طيء في الجاهلية والإسلام. وقام في حرب الردة بأعمال كبيرة حتى قال ابن الأثير: خير مولود في أرض طيء وأعظمه بركة عليهم. وكان إسلامه سنة (٩) للهجرة. وشهد فتح العراق، ثم سكن الكوفة، وشهد الجمل وصفين والنهروان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وفقت عينه يوم صفين. ومات بالكوفة سنة ٦٨ هـ / ٦٨٧ م. روى عنه المحدثون (٦٦) حديثاً. عاش أكثر من مائة سنة. وهو ابن حاتم الطائي الذي يضرب به المثل بالجود.

على ما يسأل، لأنه أدرك ذكاته بيده. فلما أن علم هذا من قرينة الحال وأجاز له النبي ﷺ أكل ما أخذ المسمى عليه، علم أنه أجاز أكل ما قتله الكلب. وبهذا استدل مالك، رحمه الله، على طهارة الكلب، ولا انفكاك للخصم عنه، لأنه إذا أخذ الصيد لا بد وأن<sup>(١)</sup> يؤثر فيه، لأنه هو الذي يُنفذ مقاتله، وقد يأكل منه، فكيف يُكره لعبه؟ وإنما الأمر بغسل الإناء من ولوغه سبعاً تعبداً لا غير<sup>(٢)</sup>.

وقد اختلف العلماء في تارك التسمية متعمداً، هل تؤكل الذبيحة أو لا تؤكل؟ وكذلك الصيد، وقد ذكر ذلك في كتب الفقه، وقيل: إن ذلك من أجل أن يكون الكلب كلباً فهو من باب التداوي.

وفيه دليل على العمل بسد الذريعة، وقيل: تشدداً، من أجل ألا يتخذوا الكلاب. والخلاف في الطعام والماء واللبن، هل الحكم سواء أم لا؟ الخلاف مذكور في كتب الفروع.

وفيه دليل على أنه لا يجوز الصيد بالجراح إلا مع إرسال صاحبه له على الصيد وتعين الصيد. يؤخذ ذلك من قوله (أرسل كلبى).

وفيه دليل على جواز أكل الصيد وإن غاب عن العين إذا وجد مع الجراح. يؤخذ ذلك من قوله (فأجد معه). فلفظة (أجد) لا يُعبر بها إلا عن شيء قد عُدِمَت رؤيته، ثم وُجِدَت، وإلا كان يقول (فأراه قد شاركه غيره).

وهنا بحث، وهو: كون النبي ﷺ نهاه، لكونه وجد مع جارحه غيره ولم يُسمَّ عليه، أن يأكل لاحتمال أن يكون أعان على قتله، هل نقصر هذا النهي على الجراح، أو نعدّيه إذا وجد مع صيده حالة يمكن إن كانت عوناً على قتله، مثل أن يتردى من جبل، أو يكون في ماء، أو يجد دواب الأرض قد انتشرت عليه؟ فقد عُدّي الفقهاء الحكم في ذلك فقالوا: إنه كل ما كان عوناً على قتل الصيد من هذه الأنواع فلا يؤكل الصيد. واختلف بعضهم إذا كان الجراح قد أنفذ مقاتله هل يكون ذلك سبباً يمنع من أكله؟ على قولين، وبالتفرقة أن يبيت عنه، أو لا يبيت، فمنع بعضهم مع وجود المبيت.

وفيه دليل على جواز طلب الصائد الصيد واتباعه بعد إرسال الجراح. يؤخذ ذلك من قوله (فأجد) فإنه يتضمن الطلب.

ويؤخذ منه إن كان الآخر قد سَمّى عليه غيره وأرسله مثل ما فعل هو أنه يؤكل الصيد. ولمن يكون الصيد. الكلام عليه في كتب الفروع، وإنما المقصود هنا تبين ما يحل منه ويحرم. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

(١) كذا بزيادة الواو.

(٢) الحِلُّ للعبه ضرورة لا انفكاك عنها في الصيد بالكلاب، بخلاف ولوغها في المياه بالأواني - والله أعلم.

## حديث النهي عن الصرف إلا يداً بيد

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ<sup>(١)</sup> وَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ<sup>(٢)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الصَّرْفِ. فَقَالَ: إِنْ كَانَ يَدًا يَدًا فَلَا بَأْسَ. وَإِنْ كَانَ نَسِيئَةً<sup>(٣)</sup> فَلَا يَصْلُحُ.

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على جواز الصرف إذا كان يداً بيد، ومنعه إذا كان فيه نسيئة، وإن قلت. وقد قال عمر رضي الله عنه: وَإِنْ أَنْظَرْتَ إِلَى أَنْ يَلِجَ بَيْتَهُ فَلَا تَفْعَلْ.

وهو على ثلاثة أقسام: جائز: وهو ما نص عليه ﷺ من أن يكون يداً بيد. وحرام: وهو ما نهى عنه عمر، رضي الله عنه، بأن يكون فيه شيء من التأخير، ولو بقدر أن يُلج بيته، حتى قد نص العلماء أنه لا يجوز للصَّيرفي أن يتحدث في الصرف إلا وصندوقه مفتوح، أو كيسه قدامه كذلك مفتوح. ومكروه: وهو التواعد في الصرف بلا تناجز، مثاله: أن يقول كل واحد منهما لصاحبه: أنا أصارفك، ويعزمان جميعاً على ذلك، ولا يسميان مبلغ الصرف ولا صفته.

ولا يخلو الصرف من أن يكون من جنس واحد، وهو: إما ذهبٌ بذهب، فيشترط فيه شرطان، وهما: التناجز والمماثلة. وليس في واحد من هذين الشرطين مسامحة من أحد المصارفين. وكفى في ذلك ما بينه عمر، رضي الله عنه، بفعله مع رافع بن خديج<sup>(٤)</sup> حين

(١) البراء بن عازب الخزرجي، أبو عمارة: قائد، صحابي، من أصحاب الفتوح. أسلم صغيراً وغزا مع النبي ﷺ خمس عشرة غزوة، أولها غزوة الخندق. ولما ولي عثمان رضي الله عنه جعله أميراً على الري (بفارس) سنة ٢٤هـ فغزا أبهر (غربي قزوين) وفتحها، ثم قزوين فملكها وانتقل إلى زنجان فافتتحها عنوة. وعاش إلى أيام مصعب بن الزبير، فسكن الكوفة واعتزل الأعمال، وتوفي في زمنه. روى له البخاري ومسلم ٣٠٥ أحاديث. توفي سنة ٧١هـ / ٦٩٠م (انظر الحديث ٦٦).

(٢) زيد بن أرقم الخزرجي الأنصاري: صحابي، غزا مع النبي ﷺ سبع عشرة غزوة، وشهد صفين مع علي رضي الله عنه، ومات بالكوفة، له في كتب الحديث (٧٠) حديثاً. توفي سنة ٦٨هـ / ٦٨٧م.

(٣) النسيئة: يقال: باعه نسيئة: أي بتأخير. والنسيئة: الدين المؤخر.

(٤) رافع بن خديج: أنصاري، صحابي. كان عريف قومه بالمدينة، وشهد أحداً والخندق. توفي في المدينة متأثراً =

راطل<sup>(١)</sup> منه خلخالاً من ذهب، فرجع خلخال رافع، فقال لعمر: أنت في حل من رجحان الميزان. فقال له عمر: إن كنت أحللت له لي فإن الله لم يُحلّه. ووقاه ميزانه.

ومثل ذلك الحكم إن كان ورقاً بورق، لقوله ﷺ: (الذهب بالذهب والفضة بالفضة رباً إلا يداً بيد مثلاً بمثل، فإذا اختلفت أصنافها فبيعوا كيف شئتم)<sup>(٢)</sup>. فإن كانت المصارفة ذهباً بورق فلا بد من المناجزة<sup>(٣)</sup>، وهما في التفاضل بحسب اختيارهما. وإن وقع فيه خلاف ما شرع فلا بد من الفسخ، لقوله ﷺ: (للسعديين حين باعاً آنية من فضة من المغنم مثلاً بمثلين: (أرييتما فرداً)<sup>(٤)</sup> وأما ما كان من بيع وصرف، فاختلف العلماء فيه على ثلاثة أقوال: بالمنع، وبالجواز، وبالتفرقة. فإن كان أحدهما في حكم المنع ولم يكن مقصوداً جاز، وإلا فلا. وأما ما سوى ذلك من جزئياته، فهو مذكور في كتب الفروع.

والتشدد في هذا الباب كبير. فلا ينبغي فيه المسامحة ولا الجهل، لأن باب الربا من أعظم أبواب الكبائر، لأنه لم يتوعد الله، عز وجل، على كبيرة من الكبائر بالحرب منه، عز وجل، إلا على الربا، حيث قال تعالى ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾<sup>(٥)</sup> فقد يكون للشخص مال حلال، فيصرفه فيعود رباً حراماً.

وفيه دليل على جواز الجواب بإشارة يفهم منها المقصود. يؤخذ ذلك من قوله لما سئل عن الجواز في الصرف فقال: (إن كان يداً بيد فلا بأس) لأن هذا إشارة إلى الجواز، لأن لفظ الجواز أن يقول: ذلك جائز. فلما علم أن السائل يفهم، عنه أشار له بما يفهم. وهو قوله، عليه السلام، (وإن كان نسيئةً فلا يصلح) معناه لا يصلح جوازه شرعاً. فجاء جوابه، عليه السلام، في الوجهين بالإشارة إلى المعنى. ولذلك قال الإمام مالك، رحمه الله: استعبدنا بالمعاني لا بالألفاظ. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

= بجراحه سنة ٧٤هـ / ٦٩٣م له (٧٨) حديثاً.

- (١) راطله: باعه مراطلة أي: بالرطل.
- (٢) رواه البخاري في البيوع، ومسلم رقم ١٥٨٦ في المساقاة من حديث أبي سعيد. ولفظه: الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والملح بالملح، مثلاً بمثل، يداً بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، والآخذ والمعطي فيه سواء.
- (٣) المناجزة: بيع الحاضر بالحاضر، يداً بيد، وعاجلاً بعاجل. وللکلمة معانٍ أخرى.
- (٤) رواه مالك في الموطأ في البيوع مرسلًا، ورواه يعقوب بن شيبة وسعد بن عبد الله بن عبد الحكم موصلاً. قال ابن عبد البر في التمهيد كما في تنوير الحوالك للسيوطي ٢ / ١٣٤: إسناده صحيح حسن متصل.
- (٥) سورة البقرة، من الآية ٢٧٩.

## حديث الحث على العمل وفضل عمل اليد

عَنِ الْمُقَدَّادِ<sup>(١)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ.

✽ ✽ ✽

ظاهر الحديث يدل على أن خير طعام يأكله المرء ما كان من كسب يده، ويدل بضمنه على التحضيض على التكسب. وله شروط، والكلام عليه من وجوه، منها: ما معنى هذه الخيرية؟ وهل قوله (أحد) عموماً في كل بني آدم؟ أو أنَّ هذا في المؤمنين؟ ولمَّ ضرب المثل بدادود، عليه السلام، من بين الأنبياء، عليهم السلام، وقد كان كثير من الأنبياء، عليهم السلام، يعملون بأيديهم؟

فاحتمل أن تكون الخيرية في التكسب، من أجل الغنى عن الناس، والتعزز بالكسب على الغير، لأنَّ من احتجَّتْ إليه كان أميرك، ومن احتاج إليك كنت أميره. فإن كان المقصود بالخيرية هذا فيدخل فيه المؤمن والكافر، ويكون ما أشرنا إليه من أنه يقتضي الحض على التكسب صحيحاً لكن بشروط، وهي: أن يكون السبب مما أجازته الشريعة، وأن يكون عمله فيه على الوجه المشروع، لأن من الأسباب ما يكون جائزاً على لسان العلم في أصله، وعند محاولته تُخَالَفُ فيه المشروعية. فهذا ممنوع.

واحتمل أن تكون الخيرية فيه من أجل ما جاء في عمل السبب من الثواب، لأنه قد جاء (من بات تعبان من طلب الحلال بات مغفوراً له، وأصبح والله راضٍ عنه)<sup>(٢)</sup> ولكونه فيه خيرٌ متعدّد، فإن

(١) المقداد بن عمرو، ويعرف بابن الأسود. صحابي من الأبطال، هو أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهر الإسلام، وهو أول من قاتل على فرس في سبيل الله. شهد بدرًا وغيرها، وسكن المدينة وبها دفن سنة ٣٣هـ/٦٥٣م وله (٤٨) حديثاً.

(٢) رواه السيوطي في الجامع الكبير بلفظ: من بات كالألم من طلب الحلال بات مغفوراً له. عن أنس رضي الله عنه، وذكر أن في سنده متهمين.

كانت هذه الخيرية هي المراد فيكون معنى قوله (أحد) خاصاً بالمؤمنين ، ويكون التخصيص بهذا المعنى على التصرف في المكاسب بلسان العلم .

واحتمل أن تكون (الخيرية) هنا معنى لكونه من الكون بوساطة العمل باليد ، ويكون هذا خاصاً بالصنعة التي تكون باليد دون غيرها من التكتسبات ، ولهذه الفائدة مَثَل ، عليه السلام ، بداود ، عليه السلام ، دون ما عده من الأنبياء ، عليهم السلام . وقد جاء (أن الصنعة كنز من كنوز الله ، عز وجل ، ينفق منه صاحبه)<sup>(١)</sup> فيكون معنى الحديث على هذا التحضيض على تعلم الصنعة ، وأنها من السنة ، ولا عارَ فيها ، لأن ما فعله نبي من الأنبياء لا عارَ فيه .

وقد تكون (الخيرية) هنا لكونها ليس فيها حق مترتب لله ، لأن ما فيه حق لله فقد يوفى جميعه ، أو يعجز عن بعضه بقصد أو بغير قصد . مثاله : إسلام الكافر ، وتوبة العاصي . فإسلام الكافر عندهم إن مات صاحبه في وقته دخل الجنة ، إذا كانت نيته خالصة ، بلا خلاف بين أحد من العلماء في ذلك . والعاصي إذا مات حين توبته - وإن كانت نيته صادقة - موقوف في المشيئة من أجل أن التوبة لها شروط ، (منها) : رد المظالم . وهذا ما يعرف : هل عليه مظلمة ، أم ليس ؟ فلا يحكم له بالقطع ، ويرجى له فضل الله . وكذلك ما كان من التكتسب خلاف الصنعة باليد ، وقد ترتبت فيه زكاة ، وغير هذا من الحقوق . ويحتمل أن تكون وُفِّيت أو لَمْ . والذي هو بصنعة اليد ، إذا كان على لسان العلم ، فليس فيه حق مترتب مقطوع به . فما هو مقطوع به فهو خير مما هو محتمل .

واحتمل أن (البركة) تكون هنا بمعنى (الخير) ، بأن يكون ما أكل أحد من الطعام بالصنعة يكون أبرك من غيره . وتكون البركة أيضاً محتملة في هذه الوجوه أن يُراد بركة حسية أو معنوية . فأما الحسية فمثل أن يكون القليل منه يَسُدُّ مَسَدَّ الكثير من غيره في التناول . واحتمل البركة المعنوية وهي التي توجد من القوة والنشاط بهذا الطعام أكثر مما يوجد بغيره ، وقد كان سيدنا محمد ﷺ إذا جاء الأكل يقول : (بِسْمِ الله ، اللهم بارك لنا فيما رزقتنا)<sup>(٢)</sup> .

فالبركة التي يطلب هو ﷺ في طعامه ما عدا تلك الأطعمة القليلة التي دعا فيها ، وبارك ، حتى كان الصاع يأكل منه النَّفَرُ الكثير ، وينصرفون وقد شبعوا ، ويبقى الطعام على حاله ، مثل ما فعل ، عليه السلام ، مع جابر ، رضي الله عنه ، حين كانوا يحفرون الخندق فصنع جابر ، رضي الله ، صاعاً من طعام ، وذبح داجناً كان عنده في البيت ، ثم أتى رسول الله ﷺ يسارُّه<sup>(٣)</sup> لعله يأتي هو وبعض

(١) لم نقف على مصدره .

(٢) رواه الطبراني في الدعاء من حديث عبد الله بن عمرو ، وفي إسناده ضعف .

(٣) كذا ، بإظهار الزاءين .

أصحابه . فصاح النبي ﷺ في الناس وقال (يا أهل الخندق إن جابراً قد صنع سؤراً فحَبَّهَلا بكم . فقال رسول الله ﷺ : لا تُنْزِلُ بُرْمَتَكُمْ ، ولا تَحْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حتى آجىء . فجئت وجاء رسول الله ﷺ يَقْدُمُ الناس . فلما جئت امرأتي قالت : بِكَ وَبِكَ . فقلت لها ما كان . فدخل رسول الله ﷺ فأخرجت له عجيناً ، فبصق فيه وبارك ، ثم عمد إلى بُرْمَتِنَا فبصق فيها وبارك . ثم قال : (أَدْعُ خَابِزَةَ فَلْتَحْبِزْ معكم ، واقدحي من بُرْمَتِكُمْ ولا تُنْزِلوها . قال جابر : فأكلوا عن آخرهم ، وإن برمتنا لَتَغُطُّ كما هي ، وإن عَجِينَنَا لِيُحْبِزُ كما هو)<sup>(١)</sup> وغيره من المواطن التي تشبهه اجتمعت في هذه المواضع البركات حساً ومعنى .

وأما الكلام على طلبه هو ، عليه السلام ، ذلك في طعام أهل بيته مع الدوام ، فإننا لا نقول : إنه ﷺ يطلب تكثير حطام الدنيا ، وهو ، عليه السلام ، قد خُيِّرَ أن تكون له جبال تهامة ذهباً وفضة تمشي معه فأبى ذلك ، وقال : أجوع يوماً وأشبع يوماً . فكيف يطلب ذلك في الشيء اليسير منها دون احتياج إلى ذلك ؟ وإنما كان طلبه ذلك المعنى الخاص الذي أشرنا إليه . لكن ذلك المعنى الخاص الدليل عليه المعنى الظاهر ، لأنه لا يُبَارَكُ معنى إلا في الذي بورك فيه حساً . هذا هو المقطوع به . يشهد لذلك فعل أبي بكر ، رضي الله عنه ، في الطعام الذي قدمه لأضيافه فأكلوا ، ورجع الطعام أكثر مما كان قبل ، فقال : هذا طعام مبارك . فحمل منه إلى النبي ﷺ . وإذا لم تكن البركة ظاهرة بقي الاحتمال في المعنوية هل توجد أم لا ؟

واحتملت (الخيرية) هنا أن يريد بها اتباع السنة ، فإن التسبب في الرزق هو من السنة ، لأنه أثر الحكمة . ولذلك كان أبو بكر ، رضي الله عنه ، حين ولي الخلافة طلبوه فوجدوه في السوق يتسبب في التجارة . فقالوا له في ذلك . فقال أتروني أترك التسبب لعلالي ؟ وعلى هذا إذا كان التسبب بأي وجه كان ، إذا كان على لسان العلم من صنعة أو تجارة أو ما يشبههما ، كان مباركاً . وبهذا شاء الله عمارة هذه الدار . وقد كان بعض مشايخي ، وكان ممن له الزهد والعلم ، وكان يعمل في حائط له بيده بعدما كان ينصرف من التدريس ، وربما كان مع التدريس على مجاهدة ولا يدع العمل بالمسحاة ، ويقول : غَرَسَ غَيْرُنَا وأكلنا نحن ، ونَغْرِسُ نحن ويأكل غَيْرُنَا ، لتظهر حكمة الله . فعند استواء غرسه توفي . رحمه الله .

ونرجع الآن إلى ما يعارضنا في تلك الوجوه المذكورة والانفصال عنها .

فأما الوجه الأول - وهو كونه يَسْتغْنِي بالتكسب عن الناس - فيعارضنا الكتاب والسنة . فأما

(١) رواه البخاري في المغازي وفي الجهاد ، ومسلم في الأشربة . وهو موضوع الحديث رقم ١٩٦ / في هذا الكتاب .



الكتاب فقوله تعالى ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ يُحْرَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾. لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴿<sup>(١)</sup> وأما السنة فحاله ﷺ وحال أهل الصُّفَّة، وكان، عليه السلام، أقزهم على حالهم، وربما كان يؤثرهم في بعض المواد على غيرهم.

والانفصال عن المعارضة: أما عن الكتاب فيكون معنى قوله (لا تلهيهم) أي: لا تشغلهم بما يكونون فيه من التكسب. يكونون في عمل السبب بالأبدان، والقلوب متعلقة بالذي وصفهم به، كما جاء أن سبب نزولها كان في خياط وحداد، فكان الخياط إذا سمع الأذان وهو قد أخرج الإبرة من الثوب لم يردّها حتى يقوم ويؤدي ما عليه من الوجوب، وإن كان أدخلها في الثوب لم يخرجها حتى يقوم أيضاً لما عليه. وكذلك الحداد لو كان رفع المطرقة لم يكن يعيدها إلى ضرب الحديد، بل كان يرميها من يده، ولو كان قد ضربها لم يكن ليرفعها حتى يقوم لقضاء ما عليه من وظائف الآخرة. ويترتب على هذا من الفقه أن المطلوب من العبد شغل خاطره بما هو إليه سائر وعليه قادم، وإن كان في يده سبب أو غيره. وقد أخبرني بعض المباركين أنه كان بمدينة إفريقية حشاش <sup>(٢)</sup> يحش للحمامات، وكان من أكابر أولياء وقته، وأنه كان يعمل ذلك الشغل بعدما يفرغ من صلاة الصبح إلى ضحوة من النهار، ثم يزيل تلك الثياب ويدخل الحمام يتطهر، ويلبس ثياباً أخرى، ويأخذ ذلك الكسب الذي له يحس منه الشيء اليسير، ويمشي على الفقراء المتعبدین والمساكين يؤثرهم به، ويطوي يومه صائماً إلى الليل، ويُقَطِّر على ذلك الشيء اليسير الذي حبس منه. وله الأحوال الرفيعة، وكان لا يعرفه إلا الأكابر من الرجال، لكونه كان يُخفي حاله عن الناس.

وأما الانفصال عن حاله ﷺ وحال أهل الصُّفَّة فالجواب، عن ذلك أن حاله، عليه السلام، هو الأرفع، لأنه لم تكن نفسه تشوف إلى الدنيا ولا حطامها، وسنته، عليه السلام، الرفق من أجل ما في بعض الناس من الضعف بل الأكثر، كما قال، عليه السلام، في حق المجذوم (فِرٌّ من المجذوم كما تَفِرُّ من الأسد) <sup>(٣)</sup> وأكل هو ﷺ مع المجذوم في إناء واحد وقال ((سَمِ اللَّهُ ﷻ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)) <sup>(٤)</sup> فشرع، عليه السلام، الطريق السهل لقوله عز وجل ﴿وَمَا جَعَلَ

(١) سورة النور، الآية / ٣٧ / ومن الآية / ٣٨ / .

(٢) الحشاش: قاطع الحشيش من الأرض. وهو غير المعنى المعاصر في الذي يتعاطى (الحشيش) وهو لون من المخدرات المحرمة. . ومتعاطيه يقال له: حشاش.

(٣) رواه البخاري في الطب عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سورة التوبة، من الآية ٥١.

عَلَيْكُمْ فِي الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ<sup>(١)</sup> وأشار بحاله، عليه السلام، إلى الأخذ بالأعلى لمن قوي. فمثال المجذوم الذي ذكرناه مَنْ لَقِيَهُ وله نفس ضعيفة اتَّبَعَ السنة وهرب منه، وليس عليه في ذلك شيء. وإن كانت له قوة خالطه وأكل معه، وكان متبعاً لحاله ﷺ. ومن أجل ما أخذ أهل الصفة بالحال الأعلى كان يؤثرهم.

وأما الوجه الثاني: وهو أن يكون الخير بمعنى ما في التكسب من الثواب، فقد يعارضنا قوله، عليه السلام، (لو توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خُمَاصاً وتروح بِطَاناً)<sup>(٢)</sup>. والجمع بينهما أَنَّ مَنْ كان له توكل حقيقي - وصفته ألا يكون خاطره متعلقاً بأحد من الخلق، وإن أجري له على يديه شيء من الخير - فما يكون خاطره متعلقاً إلا بالله، لا بغيره. وكلما جاء شيء، وهو لم تُشَفْ<sup>(٣)</sup> نفسه إليه، فينظره على لسان العلم، فإذا استقام نظره بلسان الحال، فإذا حَسُنَ سأل الله أن يهديه إلى الأصلح، بأن يأخذ أو يترك.

فإذا وفق إلى الذي فيه الخيرية فإن كان الخير في أَخْذِهِ أَخْذَهُ على هذه الصفة، وأفتقر ثانية في أن يوفق إلى حسن التصرف، واستصحاب عدم التعلق في هذه الأشياء كلها ويكون ذلك بمعرفة؛ أعني بالتصرف في ذلك بما يزيده إلى الله قرباً، وفي حاله حُسْناً. ثم يشاهد المنة لله في ذلك، ويتبع السنة في الدعاء لمن سخره الحق في ذلك اتباعاً للأمر بلا زيادة لقوله، عليه السلام، (مَنْ والاكَ معروفاً فكافته، فإن لم تجد فادعُ الله حتى تعلم أنك قد كافأته)<sup>(٤)</sup> وقد قال (حدَّ الدعاء إذا قلت لمن أحسن إليك: جزاك الله خيراً. فقد أطنبت في الشاء)<sup>(٥)</sup>.

وإن كان ممن يفتح له بخرق العادة فيتناول ذلك بالفقر إلى الله، عزَّ وجلَّ، والشكر، ولا يرى نفسه أنه أهل لذلك، ويلزم الأدب، ولا يبقى خاطره يتعلق بذلك الوجه، وإن كان ربانياً، فإنه شغل في خاطره. ويكون أيضاً عند تصرفه مفتقراً يطلب الإرشاد إلى ما يرضى مولاه، ويكتم حاله، ولا

(١) سورة الحج، من الآية ٧٨ وحديث (أكل ﷺ مع المجذوم في إناء واحد) رواه أبو داود في الطب، والترمذي وابن ماجه والبيهقي في السنن الكبرى ٢١٩/٧ وصححه ابن حبان. وللحديث عدة روايات.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند والترمذي وصححه ورواه ابن ماجه. وصححه ابن حبان والحاكم من حديث عمر رضي الله عنه ولفظه: لو أنكم كنتم تتوكلون على الله حق توكله... إلخ.

(٣) شاف: يشوف شَوْفاً: أشرف ونظر.

(٤) رواه أبو داود والنسائي وصححه ابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، ولفظه (من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه).

(٥) لم نعثر عليه بهذا اللفظ، وإنما ورد (إذا قال الرجل: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الشاء) (انظر الترغيب والترهيب للمنزدي - في الترغيب في شكر المعروف ٧٧/٢ ط دار الكتب العلمية).

يذكر من ذلك شيئاً لأحد إلا إن أمر، بقدر ما يُؤمر، ولا يَجْحَدُهَا لأنها من جملة المنن. ولكن إن لم يُسأل فلا يَتَعَرَّضُ لِلذِّكْرِ، وإن سُئِلَ لا<sup>(١)</sup> يُخَيِّرُ بالصريح إلا لمن أمر - كما ذكرنا - لأن هذه من أسرار القدرة. وأسرار القدرة من يُبديها بغير أمر وضرورة ولا يملك في ذلك نفسه قلماً تبقى له أو تُجَرَى عليه.

وقد ذكر لي من أثق به أن بعض المؤدبين كانت له عائلة، ولم يكن له في حرفته شيء يكفيه، وكان له أخ قد فُتِحَ عليه في الدنيا ولم يُسَخَّرْ له، وكان هو لم ييئ ما به من الحاجة لأخيه ولا لغيره، فأجرى الله له على خرق العادة إذا فتح المكتب قبل مجيء الصبيان أن يجد بين أقلامه في دواته قدر ما يكفيه في يومه، فحَسُنَ حاله، وبقي على ذلك زماناً. فلما رأى أخوه ما هو فيه من الخير ليس يناسب حرفته سأله: من أين يقوم حالك؟ فأخبره بالذي كان يجده في كل يوم. فلما كان اليوم الذي بعد ما بقي يلقي من ذلك شيئاً أكثر.

وإن كان ممن توكله ضعيف فالخير له في عمل السبب. والحكمة في ذلك أن الذي هو قوي الإيمان في توكله هو في كل حال راض عن ربه، ملتزم العبودية، ويترك الاعتراض وعدم التشوف إلى شيء من الأشياء، وأن الذي هو ضعيف الإيمان، وتوكله ضعيف، يبقى قلبه غير طيب - هذا إن سكت بلسانه - ونفسه تشوف إلى الأشياء تمنى، وقد يعترض في بعض الأشياء، وذلك عين العطب. فجعل له السبب رحمة به، فإن قلبه يبقى مفكراً في سببه راضياً عن مولاه، فإن نقصه شيء مما يريد به يبقى مفكراً فيما يفعله كي يبلغ به ما يؤمل. ويُرجى أيضاً من أجل ذلك أن تقع له الخيرية، فإنه قدّم خوف مولاه على ما اختاره نفسه. فإن كان ذلك السبب لأن يستعين به على الطاعة فيكثر له إذ ذاك الخير، ويحصل له انكسار خاطر لضعف يقينه، ولأن الموقنين قد سبقوه فيضاعف له الأجر.

والحذر أن يخطر له هنا أنه هو خير من الذين قد صدقوا مع مولاهم، وصدقوه في ضمان ما وعدهم من الرزق، واشتغلوا بما به أمرهم من عبادته، فيكون في أرذل الأحوال، بدليل قوله تعالى ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾<sup>(٢)</sup>.

ويترتب على هذا من الفقه النظر لكل شخص بما هو الأصلح له، وهو الذي يسمونه (فقه الحال) وهو عظيم النفع في التصرف. ولما كان الأكثر كما قدمنا من الناس الضعيف جاء الحكم على الأغلب من حكم الناس.

وأما الاعتراض على الوجه الثالث الذي الخيرية فيه لكونه يأخذ من الغيب بواسطة الصنعة،

(١) كذا بحذف فاء الجواب.

(٢) سورة النجم، الآية ٣٢.

فيعارضنا قصة عيسى، عليه السلام، في المائدة التي هي بغير تسبب من الغيب، وما فعل سيدنا ﷺ حين خرج ليلاً، وجاء علي، فقال: ما أخرجك؟ قال: الجوع، إن الحسن والحسين يبيكان من الجوع. فقال: الذي أخرجك أخرجني. ثم أتاهم فلان من الصحابة يشكو ما كانوا هم يشكونه من الجوع، إلى أن قال، عليه السلام لعلي، رضي الله عنه: اذهب إلى النخلة الفلانية - وكان في غير زمان التمر - وقل لها: النبي يقول لك أن تطعميني رطباً. فمن حينها فعلت النخلة ما أمرت به. وجاء علي، رضي الله عنه، بتمر، فأكلوا جميعاً، وحمل كلٌ لعياله ما كان لهم فيه كفاية وزيادة<sup>(١)</sup>.

والجمع بينهما بذكر قصة موسى والخضر، عليهما السلام، لما اجتماعهما ومشياً معاً، كما أخبر الله، عز وجل، عنهما، ذكر أنهما لحقهما الجوع، فنزل إليهما جذي نصفه مشوي ونصفه نيء. فأراد موسى، عليه السلام، أن يأكل من المشوي، فقال له الخضر، عليه السلام: ليست هذه طريقتك، لأنك أتيت بالتسبب، وطريقتي أنا التفويض. اذهب أنت فاجمع الحطب، وأوقد النار، واشو وكل. ففعل موسى، عليه السلام، وأكل الخضر، عليه السلام، من المشوي.

والفقه في ذلك أن الأفضلية هنا ليست على عمومها، وتكون في المشروعية ليس إلا، من أجل أن صاحب هذه الحال الرفيعة قد يظن أنه وفي شروطها، وهو لم يُوف، فلا يؤتى بشيء، فيتهم مولاه. وهذا وجه كبير من الخطر، أو يحصل له<sup>(٢)</sup> فيلحقه بذلك اغترار، وهو أيضاً باب عظيم من الخطر. فتكون الصنعة أفضل لكون طريقها أسلم، كما قال، عليه السلام، بشأن الصلاة (إن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة)<sup>(٣)</sup> من أجل أنها أسلم من الرياء والشوائب، فإن السلامة هي أفضل، وإن كبرت فائدة الطريقة الأخرى، لأنها فائدة معها متلفات قل من ينجو معها، وقد قال بعض السادة: لا أعدل بالسلامة شيئاً. وللمقامات العلية رجال لها خلقوا وعليها عملوا.

وأما الوجه الرابع: فهو من أجل ما تعين في غير الصنعة من الحقوق. وهو محتمل: هل خَلَصْتَ أم لا؟ فقد يعارضنا أن تجده معلوماً مقطوعاً به، كما ذكر عن بعض التجار، لما ركب البحر وانكسر المركب خرج في جملة من خرج. فقال بعض أصحابه: تعال بنا نمش إلى العمارة القريبة منا. فقال له: لا أزول حتى يخرج مالي. فاستخف عقله، ثم إنه قعد معه يسيراً فإذا بالأمواج قد رمت عدلاً، نظروه فإذا اسمه عليه مكتوب. فما زال كذلك حتى لم يتبق له في البحر شيء. فسأله صاحبه: ما هو حالك مع الله حتى خصك بهذه الكرامة على كل من كان في المركب؟ قال له: كل ما أمرني فعلت، فكيف يأخذ مني ما قد وهبني، وهو وفقني إلى امتثال ما قد أمرني به؟ هذا لا يكون.

(١) لم نقف على مصدره.

(٢) أي: ما يريد.

(٣) سلف تخريجه في الحديث رقم ٨٠.

والانفصال عنه أن ذلك نادر. فجاء الحكم على الغالب، كما قد تجد في بعض الصناعات من يغش في صنعة فتكون أرذل المكاسب، والغالب في الصناعة غير ذلك، والغش فيها إن وقع لا يخفى مثلما تخفى حقوق الأموال، لأنه ليس في الأموال حق إلا الزكاة. وفيه حقوق غير ذلك مثل ما يتعلق من وجوب النصيحة في البيوع وترك الغش والخلابة وأشياء عديدة مذكورة في كتب الفروع، وقل من المتسببين من يعرفها، فكيف يفعلها؟ فلذلك تكون الصناعة خيراً، لأنها ليس فيها غير شيء واحد، وقد لا يخفى، وهو ألا يوفي فيها ما يحتاج إليه بوضع الصناعة، وهو إن وقع من فاعلها شيء من ذلك هو عيب ظاهر لمن شاء أن يردّ به ردّ، فلقلة الخطر فيها وقلة الحقوق كانت خيراً من غيرها من التكسبات.

ولذلك كان بعض من لقيت من أهل العلم والدين يبيع الزيت، فلما سألتهم قال لي: ما رجعت إلى بيع الزيت إلا لأنني أمنت فيه خدع النفس. وذلك أنه إذا كانت آنية كبيرة مثل خابية، وتكون طيبة، ويوضع فيها الشيء اليسير من الدون، رجعت كلها دوناً، بخلاف غيره فإنه يقبل التدليس. فلما أمنت من أنها لا تقبل هذا لكونه يحصل لها به خسارة في المال أثرت هذه الحرفة على غيرها، لأن أهل التوفيق لا يأمنون غوائل النفوس، وإن كانت نفوسهم مباركة لقول الله تعالى ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمْتُ﴾<sup>(١)</sup>.

وأما الوجه الخامس: وهو أن الطعام الذي يكون بالصناعة قد خصه الله، عز وجل، ببركة ليست في غيره، فإن كان هذا تعبداً لا يفهم له معنى فلا بحث، وإن كان ذلك من أجل ما فيه من إظهار الحكمة الربانية فالكلام عليه كالكلام على ما تقدم قبل، والانفصال عنه مثل ذلك سواء.

وأما الوجه السادس: وهو أن يكون هذا من السنة واتباعها، لأن السنة جاءت بالتسبب من أجل أن يظن الظان أنه لا يمكن التسبب مع العبادة، فيكون تحضيضاً لنفي ما يقع من ذلك من التخييلات، وأن التعبد ليس بترك التسبب. فلو كان التعبد بترك التسبب ما عمل السبب نبي من الأنبياء، فإن الأنبياء، عليهم السلام، بالإجماع إنهم أعبد الناس. فنفي، عليه السلام، هذه العلة بذكر داود، عليه السلام.

ويترتب عليه من الفقه أن للعالم أن يبين ما يقوله من الأحكام بالأدلة الشرعية البينة، وإن كان لا يشك في عمله ومعرفة، لأنه أجلى للنفوس، وأثبت للأحكام. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، بعدما ذكر الخيرية في الطعام احتج بداود، عليه السلام.

(١) سورة يوسف، من الآية ٥٣.

وفيه دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا، ما لم ينسخ. ويكون هذا الحديث حجة على المتسبين ألا يتركوا - من أجل تسبيهم - التعبد، ويحتجوا بذلك كما يقوله كثير من الناس: إن التسبب مانع من التعبد، وقد قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾<sup>(١)</sup> وذلك حجة على أهل العيال من أجل أن يقولوا: إن العيال والتكسب عليهم يمنعا من التعبد والتورع في الكسب. حتى إنه قد كثر عند الناس أنك إذا جئت تبغض شخصاً وتحضه على التعبد يقول لك: لو بليت أنت بما بليت أنا من العيال ما قلت لي هذا، ولا كنت كما أنت. فانقطعت حجتهم بالآية المذكورة، إذ خيرُ الناس وأكثرهم تعبداً كانوا بالأولاد والعيال، فلا حجة للغير.

فعلى هذا البحث فلا تعارض. غير أنه لا يكون هذا على عمومه في كل أحد، بل يكون ذلك على قدر أحوال الناس، مثل النكاح سواء، لا يستن أحد بتركه، ولا يفعله إلا إذا قدر عليه، وكان في عمله إياه عوناً على طاعة مولاه، وأجمع لقلبه.

وقد روي عن بعض الصحابة أنه قال: لا أحب أن يكون لي دكان على باب المسجد لا تفوتني فيه صلاة مع الجماعة، أربح في كل يوم ديناراً أتصدق به في سبيل الله، لا أؤثره على الفقر. وذلك فقه حاليّ لأنه قد يمكن أن يكون ممن لا تحصل له جمعة في المخالطة، وكان يفوته ذلك الخير الخاص، وإن كان يحصل له من الخير المتعدي مثل ما ذكر لأنه لا ينظر الخير العام إلا من بعد ما يحصل له الخاص، فإن الخاص هو الأصل، مثل إحياء النفس، أنت أولاً تُخاطب بنفسك: قال الله عز وجل ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾<sup>(٢)</sup> ثم بعد ذلك بنفوس الغير لقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَخْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾<sup>(٣)</sup> ولم تؤمر أن تحيي الغير وتُهلك نفسك قاصداً لذلك إلا في الجهاد لا غير. وإن فعلت ذلك كنت مأثوماً.

ومثل ذلك النفقة: أنت مكلف بنفسك، ثم بالابن، ثم بالزوجة، فإذا كان عندك رغي ف واحد لم يلزمك نفقة أحد من الأهل، فإن كان رغي فان لزمك النفقة على واحد من العيال، وتقدم الذي نفقته ثابتة لا تزول باختيارك، الذي هو الولد، ثم الزوجة، وعلى هذا الترتيب كيفما كثر العيال، الأهم فالأهم. فإن كان شخص لا يقدر على الصنعة ولا التسبب فطلبه ذلك مرجوح في حقه، لأننا نقول مع القدرة عليه لا يُستَن بتركه ويجعله من العبادة، ولكن يأخذ الذي هو الأولى في حقه بنسبته في القرب إلى مولاه على الوجه المشروع. فكيف مع عدم القدرة عليه فيكون إذاً ممنوعاً في حقه.

(١) سورة الرعد، من الآية ٣٨.

(٢) سورة النساء، من الآية ٢٩.

(٣) سورة المائدة، من الآية ٣٢.

وقد رأيت الشيخ الجليل أبا العباس بن عجلان<sup>(١)</sup>، رحمه الله، وجاءه بعض الفقراء المتعبدين، وكانت له عائلة، وكان يشتغل بالسبب، وسببه ضعيف، وهو في نفسه ضعيف وكثير العيال، وكثر التشويش من أجلهم. فقال له أبو العباس المذكور، رحمه الله - وكان له سبق في الطريقين: العلم والحال -: يَحْرُمُ عليك عمل السبب، واشتغل بالعلم، وأنت وأهلك عيال على الله. ففعل ما أمره به، فانتهدت حاله أن يطحن في الشهر أَرْذُبَيْنِ قمحاً، والقمح إذ ذاك ما يقرب من العشرة دنانير القَفِيزُ، وزائد على ذلك ما يحتاج إليه من بقية النفقة والكسوة والسكنى وغير ذلك من ضرورات العيال، وهو مع ذلك لا يسأل أحداً شيئاً إلا مقبلاً على العلم والتعبد لا غير إلا ما كان من تصرفه في ضروراته، فإنه كان يتولى ذلك بنفسه. وهذا الوجه من الفقه لا يعرفه إلا مَنْ هو مثل ذلك السيد.

وقد كتب بعض الفقراء فتوى، فمشى بها على الفقهاء فلم يجابوه عليها إلا فقيه واحد - وكان ممن قد نَوَّرَ الله بصيرته - وكانت الفتيا: ما يقول الفقهاء في الفقير المتوجّه، هل يجب عليه عمل السبب أم لا؟ أفتونا يرحمكم الله. فالكل حادوا عن الجواب. فلما بلغت ذلك المبارك كتب عليها: إن كان توجهه دائماً، لا فترة فيه، فالتسبب عليه حرام. وإن كانت له في بعض الأوقات فترة ما فالتكسب عليه واجب.

فتأمل إلى حسن هذا الجواب ما أبدعَه! وكيف يعضده سيّدنا محمّد ﷺ: (إن الله تكفل برزق طالب العلم)<sup>(٢)</sup> تفهم قول سيّدنا محمّد ﷺ هذا، فإن فيه سرّاً لا يعرفه إلا من تكون فتياه مثل السيّد المتقدم ذكره، وذلك بأن الله، عزّ وجلّ، قد تكفل برزق جميع المخلوقات، بمتضمن قوله تعالى ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾<sup>(٣)</sup> وقوله عزّ وجلّ ﴿لَا تَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنَقِبَةُ لِلنَّقْوَى﴾<sup>(٤)</sup> ويقول، عزّ وجلّ، لإبراهيم، عليه السلام، حين قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشُّرَرِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾<sup>(٥)</sup> قال هو، جلّ جلاله، مجاباً

(١) أبو العباس بن عجلان القرطبي: هو أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري، المالكي، الفقيه، المحدث، المدرّس، الشاهد بالإسكندرية. ولد بقرطبة سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م، وسمع الكثير هنالك، ثم انتقل إلى الشرق، واشتهر وطار صيته، وأخذ الناس عنه، وانتفعوا بكتبه، وقدم مصر، وحدث بها. واختصر الصحيحين، وكان بارعاً في الفقه والعربية، عارفاً بالحديث. من تصانيفه: المفهم في شرح مسلم، وقد اعتمد الإمام النووي عليه وأشاد به. توفي بالإسكندرية سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م. (نفع الطيب ٢/٦١٥).

(٢) تقدم تخريجه في الحديث رقم (٦): الوجه الرابع.

(٣) سورة هود، من الآية ٦.

(٤) سورة طه، من الآية ١٣٢.

(٥) سورة البقرة، من الآية ١٢٦.

لإبراهيم، عليه السلام، ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾<sup>(١)</sup> معناه: يا إبراهيم أرزق من آمن ومن كفر، ثم أسوق الكافر إلى النار.

فما هو الوجه الذي تضمنه زائداً لطالب العلم، وإن كان قد أشرنا إليه في غير هذا الحديث؟ لكن شرح الحال أحوج إلى إعادته، وذلك أن الرزق الذي فرضه المولى، جلّ جلاله، لعبيده وقدره وضمّنه، منه ما هو بواسطة السبب ولا يبلغه صاحبه إلا سبب، ومنه ما هو بلا سبب ولا واسطة مثل الموارد والهبات على اختلاف أنواعها. ونحن لا نعلم الذي هو بالسبب ولا الذي هو بغير سبب. فلما كان صاحب العلم الذي هو الله كما قال ﷺ: (إِذَا بُدِّعَ فِي الدِّينِ بَدْعٌ كَيْدَ الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ بِمَعَالِمِ الدِّينِ وَاطْلُبُوا مِنَ اللَّهِ الرِّزْقَ. قَالُوا: وَمَا مَعَالِمُ الدِّينِ؟ قَالَ: مَجَالِسُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ)<sup>(٢)</sup> أو كما قال، عليه السلام. فيكون معناه: لا تشغلّكم التكسّب في الرزق عن طلب العلم، فيذهب الدين من أجل ما ابتدع فيه والجهل بذلك، فاشتغلوا بالعلم والله يعطيكم رزقكم.

فلما كان صاحب العلم الذي هو الله اشتغل<sup>(٣)</sup> بسبب الآخرة، لأن أكبر أسباب الآخرة طلب العلم إذا كان لله، وكان على وجهه. فلما اشتغل هو بذلك يسهّل الله الرزق بلا واسطة التسبب، ولا أحوجّه إلى أحد من خلقه. فيكون ذلك تأكيداً في تيسير رزق طالب العلم - إن كان طلبه للآخرة بهذا الوجه - لأن طالب العلم يستغرق جميع الأوقات، وجميع الزمان، فكفاه الله مؤنة طلب رزقه والتسبب فيه. ولقلة التصديق بهذا النوع من الأحاديث تعب بعض طلبة العلم وخسروا أعمارهم، فلا هم بدنيا، ولا هم بأخرى. نسأله، جلّ جلاله، أن ييسرنا للفهم عنه، والعمل بذلك والسعادة به، لا رب سواه.

وفي اختصاصه ﷺ داود، عليه السلام، من بين غيره من الأنبياء، عليهم السلام، لأنه قد شهر حاله في تكسبه، وكيف ألين له الحديد، وكيف كان يعمل الدرع في اليوم الواحد ويبيعه بألف درهم، فينفقه على المساكين كله، ويأكل هو منه خبز الكشكار<sup>(٤)</sup> ويطعم المساكين خبز العلامة<sup>(٥)</sup>، وهو الدرملك<sup>(٦)</sup> الطيب باللحم الطيب، كما أشار في الحديث قبل. يتسبب فينفع نفسه ويتصدق، فيكون يتسبب لأجل هذه الصفة المباركة، ولا يعمل من أجل أن يستدل بالحديث في التكسب ثم

(١) سورة البقرة، من الآية ١٢٦.

(٢) لم نثر على مصدره (وانظر التعليق عليه في الحديث ٩٠).

(٣) أي: طالب العلم.

(٤) خبز الكشكار: الخبز العادي.

(٥) خبز العلامة: الخبز الجيد.

(٦) الدرملك: الخبز المعمول من الدقيق الأبيض.



يدخر، فهذا خلاف لما قصد منه. فكأنه، عليه السلام، يشير إليه لأن يتصدق ويأكل ولا يدخر. ولذلك حين سأله ﷺ أزواجه: أيهن أقرب لحاقاً به؟ فقال: أطولكن يداً<sup>(١)</sup>. فكنّ بعد وفاته، عليه السلام، يقسن أيديهن أيهن أطول. فأول من ماتت زينب<sup>(٢)</sup> رضي الله عنها وعنهن جميعاً فإنها كانت تعمل بيدها، وتكثر الصدقة، حتى كانت تسمّى (أم المساكين)<sup>(٣)</sup>. فنظرن الطول بالنسبة إلى الجارحة، وكانت إشارته، عليه السلام، إلى المعروف، لأن المعروف يسمى لغة يداً.

وفائدة هذا الحديث أنه لا يصح كسب ولا تعبد إلا بمعرفة السنة، وإلا فصاحبه مخير، فمن فيه أهلية فيكون من أهل العلم بها<sup>(٤)</sup>، والغير يكون وظيفته السؤال عنها وعن أهلها والاعتداء بهم، ويكونون أهلاً لذلك حقاً، لا دعوى منهم، فإن بالدعوى هلك أكثر الناس وأهلكوا معهم جمعاً كثيراً، كما أخبر الصادق، عليه السلام، (دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها)، وقد يُظهرون التضلع بالعلوم، وتلك العلوم وبال عليهم وعلى من تبعهم، لأنهم جعلوا قاعدتهم طلب الحظ والمنزلة، وذلك أصل كل خسارة وحرمان. أعاذنا الله من ذلك بمنه، ووفقنا لاتباع السنة والسنن بمنه، وقد قال بعض المباركين: تحب دنيا وتحب أخرى. حبيبان في القلب لا يجتمعان وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

## الكتب النادرة التي تفيد في الأصول

- (١) رواه مسلم والنسائي عن السيدة عائشة رضي الله عنها بلفظ: أسرعن لحاقاً بي... إلخ.
- (٢) هي زينب بنت جحش الأسدية، أم المؤمنين، وإحدى شهيرات النساء في صدر الإسلام. كانت زوجة زيد بن حارثة، واسمها (بزة) وطلقها زيد، فتزوج بها النبي ﷺ، وسماها (زينب) وكانت من أجمل النساء، وبسببها نزلت آية الحجاب. وكانت أطول نساء النبي ﷺ يداً، وأقربهن لحاقاً به إلى الرفيق الأعلى. وصلى عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه وكانت وفاتها سنة ٢٠هـ / ٦٤١م.
- (٣) هي زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية، كانت تدعى في الجاهلية (أم المساكين) وظل لقبها هذا في الإسلام، وهي من أزواج النبي ﷺ (انظر الطبقات لابن سعد ٨ / ١١٥). ويبدو أن الشيخ ابن أبي جمرة، رضي الله عنه، وهم، فجعل زينب بنت جحش الأسدية وزينب بنت خزيمة الهلالية واحدة.
- (٤) أي: بالسنة.

## حديث البيعان بالخيار ما لم يتفرقا

عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ<sup>(١)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا (أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا). فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا بَوْرِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِجَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا.

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على أن كل واحد من المُتَبَايِعَيْنِ له الخيار ما لم يتفرقا، وأن البركة مع الصدق، وأن مُحَقَّ البركة مع الخيانة والكذب. والكلام عليه من وجوه.

منها هل (الافتراق) المعني هنا بالأقوال أو بالأبدان؟ لأنه قد جاء المعنيان في الكتاب العزيز. أما الأبدان فقوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾<sup>(٢)</sup>. وأما بالأقوال فمثل قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾<sup>(٣)</sup>. فهذه بالأقوال، وكذلك أيضاً قوله عليه السلام: (افتترقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)<sup>(٤)</sup>.

واختلف العلماء في قوله عليه السلام: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا) فمنهم من قال: بالأبدان، وهو الشافعي، رحمه الله، ومن تبعه. ومنهم من قال: بالأقوال، وهو مالك، رحمه الله، ومن تبعه، وهو الأظهر، والله أعلم، لما جاء في حديث عبد الله بن عمر مع عثمان ابن عفان، رضي

(١) حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، صحابي، قرشي، وهو ابن أخي السيدة خديجة أم المؤمنين. كان صديقاً للنبي ﷺ قبل البعثة وبعدها، وكان من سادات قريش في الجاهلية والإسلام، عالماً بالنسب. أسلم يوم الفتح. له في كتب الحديث (٤٠) حديثاً. توفي في المدينة المنورة سنة ٥٤هـ / ٦٧٤م. (انظر الحديث ٧٥).

(٢) سورة النساء، من الآية ١٣٠.

(٣) سورة آل عمران، من الآية ١٠٥.

(٤) رواه الترمذي في الإيمان بلفظ آخر، وللحديث روايات كثيرة بلغت حدَّ التواتر.

الله عنهم، حين باع منه عبد الله مخرافاً<sup>(١)</sup> كان له بموضع كان لعثمان، وكان عبد الله حريصاً على تمام البيع، فقام من حينه - وهو ممن روى هذا الحديث في البيع ليس إلا بلا زيادة - فقال له عثمان: أردت تمام البيع، ليست السنة بافتراق الأبدان، قد انتسخ ذلك. وكان تباعيهما بعد وفاة رسول الله ﷺ فرجع عبد الله رضي الله عنه، إلى مقالة عثمان، رضي الله عنه.

وقد قال مالك، رحمه الله: إذا كان حديثان صحيحان، وثبت أن الخلفاء أو أحدهم عمل بالواحد وترك الآخر فذلك دليل على نسخه، فمن باب أولى إذا كان الحديث يحتمل معنيين، ونص بعضهم على سقوط الوجه الواحد منهما.

وهنا بحث في قوله عليه السلام (البَّيعَان) سماهما (بَيَّعَيْن) والواحد (مُشْتَر) والآخر (بَائِع). فالجواب أن كل واحد منهما ينطلق عليه اسم بائع. (ومُشْتَر)، لأنه (بائع) للشيء الذي يدفعه لصاحبه، (ومُشْتَر) للشيء الذي يأخذه من صاحبه. فلما كان لا يخرج الشيء من يد صاحبه إلا باختياره سماهما، عليه السلام، (بَيَّعَيْن)، وصدق القول عليهما بذلك.

ولأجل ما يلزم لكل واحد منهما من بيان ما في متاعه من العيوب بَيَّن، عليه السلام، بعد ما لهما وما عليهما، بقوله، عليه السلام، (فإن صدقا وبينا بورك لهما)، وفيه بحث وهو: هل الصدق والبيان يعودان لمعنى واحد أو هما لمعنيين؟ وإن حصل من أحدهما الصدق والبيان هل تحصل بركة أو لا تحصل؟ أو تحصل للذي يصدق ويبين ويحرم الآخر؟

فأما قولنا: هل الصدق والبيان لمعنيين أو يعودان لمعنى واحد؟ احتمل أن يكون أحدهما مؤكداً للآخر، والمعنى واحد. مثاله أن يصدق إن كان في سلعته عيب، فيقول: هو كذا وكذا. فقد بين ما صدق فيه، لأنه قد يقول: سلعتي معيبة، ويكون العيب خفياً، فينظر المشتري فلا يرى شيئاً، فيزيد رغبة في السلعة، ويظن ذلك منه ديناً، فيقول ذلك احتياطاً، فيكون فيه نوع من الخلافة. فإذا بين ذلك صح صدقه، فيكون على ذلك (بَيَّن) صفةً لصدقه.

واحتمل أن يكون كل واحد منهما قائماً بنفسه. فيكون معنى (صَدَق) في سَوَم سلعته، ولم يزد فيها تحرزاً من الربا. ويكون (بَيَّن) معناه: بين ما فيها من العيوب. فكل واحد منهما قائم بذاته - وهو الأظهر، والله أعلم - لكثرة الفائدة. وهذا المعنى الآخر هو الذي يجيء على ما بينه أهل الفقه في الفروع، فمن تأمله هناك يجده على ما ذكرناه، إن شاء الله.

وأما قولنا: إن صدقا معاً وبيناً معاً فالبركة موجودة معهما، وإن لم يفعلوا معاً فإنهما لا

(١) المخراف: البستان.

يجدانها. وأما إن فعل أحدهما ولم يفعل الآخر فالذي فعل يجد البركة ولا يجدها الآخر. وأما الحديث فليس فيه إشارة إلى شيء من ذلك، وقواعد الشرع تقتضي ذلك، لأنه عز وجل يقول ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ﴾<sup>(١)</sup>، وقال عز وجل ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال عز وجل: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾<sup>(٣)</sup> وفيه الأدلة كثيرة.

وأما إن فعلا الشرط الواحد ولم يفعل الآخر - مثال ذلك أن يصدقا ولا يبيتا، أو ضده - فهل يحصل لهما شيء من البركة، أو لا تحصل البركة إلا بالوصفين؟ الظاهر أنه لا يحصل لهما من البركة شيء إلا بالوصفين معاً، لأنهما شرط في وجود البركة، ولا يوجد المشروط حتى يتم الشرط.

وقوله عليه السلام (في بيعهما) أي في نفس البيع الذي هو التعاقد، أو ما كان التعاقد عليه من المضمونين. احتمال الوجهين معاً، لأنه إذا كان العقد مباركاً فلا يكون عنه في الوجهين إلا بركة، لأنه المقدمة، فإذا كانت المقدمة - وهي الأصل - طيبة فلا تكون النتيجة ولا ما يتولد من الأصل الطيب إلا طيبة. وقد يريد بذلك الشيء الذي تبايعا عليه.

وقوله عليه السلام (وإن كنما وكذباً مُحِجَّتْ بركة بيعهما) الكلام عليه كالكلام على (صَدَقَا وَبَيْتَا) هل يعود لمعنى واحد أو لمعنيين؟ احتمال. والأظهر أنهما لمعنيين - كما قلنا في المتقدم - والبحث على اجتماعهما على الكتمان والكذب، أو تركه منهما بالأصالة، أو فعله الواحد ولم يفعله الآخر، أو فعلا الوجه الواحد ولم يفعل الآخر، مثل ما تقدم سواء بسواء. والكلام على البيع الآخر مثل الكلام على البيع الأول كذلك.

وتكلم ﷺ على الطرفين ولم يتعرض إلى الحالة الوسطى وهي التي لم يكتم، ولا كذب، ولا بيتن. فالحالة الوسطى آخر لا تحتاج إلى بيان، فإنه بتبيين الطرفين وتبيين حكمهما، ظهر حكم المتوسط، وهو الذي يقع من الناس غالباً. مثاله أن يكون في سلعته عيب ظاهر، فيقول للمشتري: اشتر لنفسك وانظر وقلِّب، وهو يعتقد أن ذلك العيب من الظهور بحيث لا يخفى، فلا يحتاج إلى بيانه. ولا كذبه بأن قال له: ليس فيها شيء ولا سكت، فقد تكلم بكلام فيه إرشاد إلى أن يبحث المشتري ويدقق نظره.

وهنا تقسيم: لا يخلو المشتري أن يكون عارفاً بتلك السلعة وعيوبها أو جاهلاً، فإن كان

(١) سورة الأنعام، من الآية ١٦٤.

(٢) سورة الزلزلة، الأيتان ٧ و ٨.

(٣) سورة الإسراء، من الآية ٧.

جاهلاً، فحكم هذا حكم الكتمان والكذب سواء. وإن كان عارفاً فالبركة لا تحصل له، لأنه لم يأت بشرطها، ويبقى النقص محتملاً: هل يكون موجوداً أم لا؟

وفيه دليل على أنه لا تُحصّل الدنيا إلا بالآخرة. يؤخذ ذلك من أنه لم تحصل لهما البركة إلا بالصدق، وهو من أمور الآخرة الذي يكون صاحبه فيه مأجوراً، وهو من أكمل صفات الإيمان. ولذلك قال أهل التحقيق: من صدّق وصدق قُرب لا محالة. وقد بيّن ﷺ هذا حيث قال (لا يُنال ما عند الله إلا بطاعة الله)<sup>(١)</sup>.

وفيه دليل على أن شؤم المعاصي يذهب بخير الدنيا والآخرة. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، (وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما). والكذب من الكبائر، والكتم - وهو الغش - من الكبائر أيضاً لقوله ﷺ: (من غشنا فليس منا)<sup>(٢)</sup> وقوله، عليه السلام، في الكذاب؛ الحديث المتقدم الذي يشد شدقه من حين موته إلى أن تقوم الساعة، فحينئذ ينظر مصيره، فقد خسر الدنيا بذهاب حطامها من يده، لأنه إذا ذهبت البركة من المال فهو ذاهب، وخسر الآخرة لما يناله فيها من العذاب. وقد زاد ذلك ﷺ إيضاحاً حيث قال (من حاول أمراً بمعصية كان أبعد مما يرجو وأقرب إلى ما يخافه)<sup>(٣)</sup> فأهل التوفيق ربحوا الدنيا والآخرة.

ولذلك لما سئل عبد الرحمن بن عوف<sup>(٤)</sup>، رضي الله عنه، عن كثرة ماله، ما سببه؟ قال: ما كذبت قط، ولا دُلّست، ولا بعت بدين، ولا رددت فضلاً، أي شيء كان. وقد أخبر عنه أنه اشترى جُملة جمال، ففعل له: تربح فيها أزمته، وكانت من حَبْل، ففعل. فلما ذهب الذي اشتراها بعدما قبضها يطلب شيئاً يعمل لها أزمة لم يجد أصلاً، فرجع إليه واشترى منه تلك الأزمة بجُملة مال. وهل يقتصر هذا على هذا البيع، أو يدخل فيه كل ما ينطلق عليه اسم (بيع)؟ صيغة اللفظ

---

(١) رواه الإمام الشافعي رضي الله عنه في الرسالة، وابن ماجه في السنن. وهو قطعة من حديث أوله (إن روح القدس قد نفخ في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها... إلخ). ولفظ الشاهد - كما ورد في الحديث -: فإن ما عند الله لا ينال بمعصيته.

(٢) رواه مسلم في الإيمان رقم ١٠١ / من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) لم نقف على مصدره.

(٤) عبد الرحمن بن عوف، أبو محمد، الزهري، القرشي. صحابي، من أكابرهم، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم، وأحد السابقين إلى الإسلام: وكان من الأجواد الشجعان العقلاء. شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها، وجرح يوم أحد ٢١ جراحة، وأعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً. وكان يحترف التجارة والبيع والشراء، فاجتمعت له ثروة كبيرة، وتصدق يوماً بقافلة فيها سبعمئة راحلة، تحمل الحنطة والدقيق والطعام. ولما حضرته الوفاة أوصى بألف فرس وبخمس مئة ألف دينار في سبيل الله. له ٦٥ حديثاً. توفي في المدينة سنة ٣٢هـ / ٦٥٢م.

تقتضي أن تحمل على عمومها، ويتحرز من العيوب المفسدة أو المذهبة للبركة ويرغب في التي توجبها، لأن الله عز وجل يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا<sup>(١)</sup>﴾ فمن صدق في بيعه هذا، ولم يكتم الحق، ولم يكذب على الله ورسوله ﷺ ولا على أعلام دينه بأن يبتدع بدعة ويجعلها ديناً، ويصدق<sup>(٢)</sup> الله ورسوله كما يجب، ويبين أحكام الله تعالى كما تقتضيه قواعد الشريعة، ولم يخف في الله لومة لائم، بورك له في بيعه.

غير أنه يختص هذا البيع بزيادة ليست في ذلك البيع الآخر، وهي: أن البركتين اللتين في الثمن والمثمن جميعاً للعبد، لأن مولانا، جلّ جلاله، غني عنا، وإنما هي تجارة لنا، قال، عز وجل، في كتابه ﴿هَلْ أَذُكُّكُمْ عَلَىٰ عِزَّةٍ شُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ تَوَكَّلْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ<sup>(٣)</sup>﴾ والخسارة أيضاً عليهما تعود.

فوجب أن تكون المحافظة على هذه أشد من الأولى، كما يذكر عن الأنصار حين بايعوا النبي، عليه السلام، قالوا: ما لنا إذا وفينا؟ قال: الجنة. قالوا: رضينا لا ننقص البيع. فوقوا، رضي الله عنهم، فوفى لهم بأن شهد لهم بالوفاء، وحقيقة الإيمان، لقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا<sup>(٤)</sup>﴾ ومن هنا جعل أهل التوفيق الهمّ همّاً واحداً، ولم يلتفتوا، ففازوا، وغنموا.

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) سورة التوبة، من الآية ١١١.

(٢) العطف على: صدق.

(٣) سورة الصف، من الآية ١٠ و ١١.

(٤) سورة الأنفال، من الآية ٧٤.

## حديث جواز أخذ الزوجة ما يكفيها من مال زوجها إذا كان شحيحاً

عن عائشة، رضي الله عنها، قالت هِنْدُ أُمُّ مُعَاوِيَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ. فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ أَنْ أَخْذَ مِنْ مَالِهِ سِرّاً؟ قَالَ: خُذِي أَنْتِ وَبَنُوكِ مَا يَكْفِيكِ بِالْمَعْرُوفِ.

\*\*\*

ظاهر الحديث أخذ الحق من مال صاحبه، وإن كان عنه غائباً، إذا لم يعطه. والكلام عليه من وجوه:

(منها) أن الأئمة اختلفوا: هل هذا على العموم، وإن اختلف أنواع المال وخالف نوع مال الطالب نوع مال المطلوب، أو لا يكون ذلك إلا إذا كان المالان من نوع واحد متماثلين؟ على قولين: مثال ذلك: أن يكون لك عند أحدٍ دراهم، فيمتنع من إعطائها إياك، فتلقى من ماله بظهر غيبٍ منه مالا. هل تأخذ من ذلك المال الذي لقيته لغريمك ما منع أن يعطيكه، وهو غائب لا يعرف بذلك؟ فإن كان ما لقيته دراهمَ مثلَ دراهمك في الصِّفَةِ فلك أن تأخذ منها قَدْرَ مَالِكَ بلا زيادة، لقوله، عليه السلام، في الحديث (خذي أنتِ وبنوكِ ما يكفيك بالمعروف) والمعروف هو عدم الزيادة في الحقوق.

وإن كان ما لقيته خلاف الدراهم، ذهباً أو عروضاً أو طعاماً، فمذهب الشافعي: تأخذ قَدْرَ مَالِكَ عنده بالمعروف. ومذهب مالك: لا تأخذ منه شيئاً، لأنه إذا أخذت خلاف مَالِكَ فهو بيعٌ من البيوع. والبيع يفتقر إلى وكالة، وليس لك وكالة بما تنصرف في بيع مال الغير.

فظاهر الحديث منفرداً بالحجة فيه للشافعي. وجمع الحديث إلى القول بسد الذريعة مع ما جاء في البيوع وشروطها يقتضي ما ذهب مالك إليه، إلا أنه إن كان ما يمنع مَالِكَ من أجله هو عدم الوكالة التي بها يتم البيع، وقد رأيت فتوى لبعض المالكية - وكان معتبراً في وقته، ونقلها قَوْلُهُ في المذهب، معناها أنه - أعني صاحب الحق - يقوم مقام الحاكم ويوكل غيره في بيع من ذلك المال بالسداد بقدر مَالِهِ، ويأخذ مَالَهُ طيباً حلالاً. فإن صح القول عن الإمام فلا بحث، وإلا فالبحث

يعطي أنه لا فرق بين أن يُنزل نفسه منزلة صاحب المال فيتصرف بالمعروف، أو ينزل نفسه منزلة الحاكم. فهو في كل واحد من الوجهين يحتاج إلى إذن من هو نائب عنه، فإنه لا يحكم على أحد حاكمٌ بخلاف الإمام أو من قدمه الإمام إلا بإذنه، وكلاهما متعذر. فالحكم متعذر أيضاً.

وفيه دليل على أن الأم هي المتصرفة في معاش أولادها. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (خذي أنتِ وبنوك ما يكفيك بالمعروف).

ويؤخذ منه أنها هي القائمة بحقوقهم على الأب لقولها (لا يعطيني) تعني: حقها وحق بنيتها. ويؤخذ منه دليل على أن الفتوى خلاف الحكم، لأن الحكم لا يكون إلا بعد اعتراف أو ثبوت بشهادة. يؤخذ ذلك من أنه لما قالت له عليه السلام (هل عليّ جناح) - تعني في الشرع - فجأوبها، عليه السلام، بأن لا جناح عليها. ولو طلبت منه الحكم لم يحكم إلا بعد حضور أبي سُفيان، ويسمع حجة، وحينئذ كان يقضي بحسب ما يسمع منهما، فإنه، عليه السلام، قال (إنكم تختصمون إليّ، فلعل أحدكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأحكم له بحسب ما أسمع)<sup>(١)</sup>. معناه فأوقع الحكم على ما يظهر من قول الخصمين.

وفيه دليل على جواز خروج النساء لطلب حقوقهن، إذا لم يكن معهنّ من يقوم عنهن. يؤخذ ذلك من جواب رسول الله ﷺ لها، ولم يعنفها ولا أنكر عليها.

وقولها (رجل شحيح)، ظاهر اللفظ يعطي جواز الغيبة عند الحاكم من أجل الضرورة، ولقول الله تعالى ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾<sup>(٢)</sup> فلاجل ظلمه يجوز له قول السوء، وما هي غيبة من أجل أنها لم تقصد تنقيصاً بصاحبها، وإنما هو من ضرورة وصف حاله. لكن ليس قولها (إن أبا سُفيان رجل شحيح) من هذا القبيل، ولكن هو من باب المدح، بحسب عادة العرب، لأن الذي يشحّ عندهم على عياله إنما هو من أجل اعتنائه بالأضياف والخصب عليهم، فيلحق الضرر من أجل ذلك للعيال. فهي لفظة باطنها خلاف ظاهرها، كما ينقل عن العرب في بعض الألفاظ التي يدعون بها مثل قولهم: ضَرَبَ اللهُ عُنُقَهُ، وقَاتَلَهُ اللهُ! ولا يريدون به ظاهر اللفظ. فمن لا يعرف ذلك يحملها على العادة المذمومة، ولكن ليس كذلك.

ويترب على هذا من الفقه ألا يذم أحد أحداً على قول أو فعل حتى يعلم ما عُزِفَ أهل وقته في ذلك، ومثل ذلك في الشكر أيضاً.

(١) رواه الإمامان مالك وأحمد بن حنبل والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أم سلمة رضي الله عنها، ولفظه (إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ) إلى آخره.

(٢) سورة النساء، من الآية ١٤٨.



وفيه دليل على أن الكُنى المعروفة شرعاً، والعادة عند العرب هي بأسماء البنين. يؤخذ ذلك من قولها (أبا سُفيان) وكُنَّته بابنه. وكذلك قول رواية الحديث: كُنَّت المرأة باسم ابنها، وما عدا هذا فهي يدع لاسيما إن كانت بلفظ التزكية، كقول أهل مصر وأقطارها: جمال الدين، وبهاء الدين. وحديث مسلم (لما تزوج ﷺ جُوَيْرِيَةَ قال لها: ما اسمك؟ قالت: بَرَّة. فقال: لا تُزَكِّوا أَنْفُسَكُمْ، سَمَّوها جُوَيْرِيَةَ)<sup>(١)</sup>. وهي بَرَّة حقيقة، لأنها لا تُختار أن تكون زوجاً له إلا وهي بَرَّة حقيقة. لكن نهى عن ذلك، وقابل، عليه السلام، فعلهم بالضد، وهو أن صَغَرَ اسمها فقال: جويرية. فما بالك بغيرها؟ فمن باب أخرى. فمن حيث رفع اسمه لفظاً فقد صغر نفسه شرعاً، فالحكم بمقتضى الشرع لا بالوضع. وفيما ذكرناه حجة للقوم في قولهم: مَنْ رأى لنفسه حَقَّ رفعة على خلق من خلق الله ولو على الكلاب فهو معلول.

فيا شافي العلل، اشف علةً قد أفضت بي إلى العطب. هانت عليهم أنفسهم فارتفعوا، وعظمت نفوس غيرهم فيها ذَلَّوا وخَسِرُوا.  
وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

الكتب النادرة التي تفنن في القول مرة

(١) رواه مسلم في الأدب من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وزينب بنت سلمة رضي الله عنها.

## حديث النهي عن التصوير

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فَإِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُهُ حَتَّى يَنْفَخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ فِيهَا أَبَدًا.

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل، على أن الذي يصوِّر الصورة يُعَذَّبُ أَبَدًا. والكلام عليه من وجوه:  
منها: هل هي على العموم في كل الصور، ما له روح، وما لا روح له؟ ومنها: هل التأيد على ظاهره فيكون مثل الكافر سواء؟ ومنها: إن تاب قبل الموت هل يغفر له أم لا؟

أما الجواب عن الأول: فأما ما لا روح له فلا يدخل تحت الحديث، لقوله عليه السلام (حتى ينفخ فيها الروح). فخرج من عموم اللفظ كل من صوَّر صورة لا روح لها، بتحديد، عليه السلام، ينفخ الروح فيها. وقد ذكر ذلك عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما.

وأما الثاني وهو: هل التأيد على ظاهره؟ فيعارضنا قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(١)</sup> وهذا دون الكفر. فهو في جملة (من يشاء) فيكون المعنى فيه - والله أعلم - مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾<sup>(٢)</sup>. قال أهل السنة (فجزاؤه): أي إن جازاه. وقد تقدم البحث في هذا ومثله أنهم هم الذين يخرجون بشفاعه أرحم الراحمين حين يقول الله تعالى: (شفعت الملائكة والرسل والأنبياء وبقيت شفاعه أرحم الراحمين، ثم يقبض في النار قبضة فيخرج منها كل من كان حبسه القرآن)<sup>(٣)</sup> والذين حبسهم القرآن على ضربين: كفار، وأهل معاص مثل من تقدم ذكرهم، العدل يقتضي ألا يُغْفَرَ لهم. وأما أهل الكفر فلا مغفرة لهم، لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

(١) سورة النساء، من الآية ٤٨.

(٢) سورة النساء، من الآية ٩٣.

(٣) قطعة من حديث رواه مسلم في الشفاعه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ آخر.

يَهْ وَيَقْفَرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿١﴾ والآي والأحاديث فيه كثيرة وإجماع المسلمين على ذلك . فيكون الفريق الآخر هم الذين تنالهم تلك الرحمة . وهو وجه يجتمع به الآي والأحاديث ، ولا يقع بينهما تعارض إن شاء الله .

وفيه دليل على جواز التعليم دون سؤال . يؤخذ ذلك من إخبار النبي ﷺ بهذا الحديث .  
وهنا بحث ، وهو أن يقال : هل هذا العذاب العظيم هو لعلة تعرف أو هو لعلة لا يعلمها إلا هو عز وجل ؟ فإن قلنا : إنه تعبد ، فلا بحث . وإن قلنا : قد نفهمها ، غلبة ظن بمقتضى إخبار الشارع ، عليه السلام ، في غير هذا فما هي ؟ فنقول ، والله أعلم : ذلك أنه يتشبه بصفتين من صفات الله ، عز وجل ، عظيمنتين وهما : العظمة والحكمة . لأن الخلق على اختلافهم دال على عظمة الله ، عز وجل ، وعظيم حكمته . وقال ﷺ حكاية عنه جلّ جلاله : (الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري . فمن نازعني في واحد منهما قصمته) <sup>(١)</sup> . فإذا كانت صفة واحدة جاء في التشبه بها هذا الوعيد فكيف بشيء يدل على صفتين عظيمتين ؟ فيحق هذا لما فيه من قلة الأدب .

والفقه في هذا الحديث : التصديق به ، لأن ذلك مع كونه من حقيقة الإيمان يوجب الردع والزجر عن هذا الفعل ، ومن أجل هذه الفائدة أخبر سيدنا ﷺ بهذا الحديث وأمثاله .

وفيه دليل لطريق أهل الصوفة في ذمهم الدعوى ، وإن كانت حقيقة ، خيفة النقص وهم لا يشعرون ، فتكون سبباً للحرمان . يؤخذ ذلك من قوله ، عليه السلام (فإن الله يعذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ) ولأنه قد جاء في حديث آخر (يقال للمصوّرين أحيوا ما خلقتكم) <sup>(٢)</sup> فيُطلبون بتمام الدعوى فلا يُتمونها ، فيعذبون على كذب دعواهم ، لأنهم لما صوروا ما يشبه ما خلقه الخالق ، جلّ جلاله ، فقد ادّعوا بحالهم أنهم يخلقون مثله ، فيقال لهم : من تمام دعواكم أن تُحيوا ما صوّرتكم ، وإلا فأنتم كاذبون في دعواكم ، والكذب جزاؤه العذاب الأليم . فلو كان يكذب على غير دعوى لكان يُعذب ، ولا يُجعل له شرط في رفع العذاب لتمام خلق ما صورته بنفخ الروح فيه وهو لا يطيق ذلك ، كما جاء في حق الكذاب الذي يشق شذقه ، لكن شؤم الدعوى زاده عظيم البلاء .

وفيه دليل على تصديق ما كان الصدر الأول عليه ، وهو الحق . فإنهم كانوا ينظرون الشخص في حاله لا في مقاله . يؤخذ من ذلك أن المصور للصورة ما هو بلسانه يدّعي أنه يخلق ، فلما كان

(١) رواه مسلم في البر والصلة ، باب تحريم الكبر ، وأبو داود في اللباس من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما بلفظ : العز إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن ينازعني شيئاً عذبه .

(٢) رواه الشيخان من حديث عمر رضي الله عنه ، ورواه كذلك من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ (إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، فيقال لهم : أحيوا ما خلقتكم) .

فعله يدل على ذلك لم يُزَعَّ<sup>(١)</sup> في ذلك مقالهُ، وإن كان يعترف في حال حياته أن هذا ليس بحقيقة، لكن لا ينفعه ذلك، يؤخذ بما يدل عليه لسان حاله. ومما يقوي ذلك ما روي عنه عليه السلام أنه إذا كان يذكر شخص عنده، وهو غائب لا يعرفه، يقول: كيف هو في عقله؟ يعني في عقله عن الله وتصرفه. ويترتب عليه من البحث أن من أراد اللّٰهَوق أثبَع ولم يبتدع، فإنه يصل حيث وصلوا، وإن لم يدَّعه. وإن ادَّعى ولم يتبع حصل له التوبيخ والخسران. وقد قال أهل التوفيق: من ادَّعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان، وقد قال<sup>(٢)</sup>: نفسك على الدعوى فحاسبها ولا تدَّع ذاك فتضيتها. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) أي: لم يُزاع.

(٢) أي: أحدهم.

## حديث جواز أخذ الأجر على كتاب الله عز وجل

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: أَحَقُّ ما أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ الله عزَّ وجلَّ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز أخذ الأجر على كتاب الله، عز وجل، وهو أحلُّه. والكلام عليه من وجوه:

منها ما يعارضه من قوله ﷺ في رجل علَّم رجلاً شيئاً من القرآن، ثم أهْدَى له قوساً يقاتل به بين يدي رسول الله ﷺ، فذكر ذلك المُهْدَى له لرسول الله ﷺ، فقال: (قطعة أو قطعتان من نار)<sup>(١)</sup>. فظاهر هذا الحديث يوجب المنع.

واختلف العلماء من أجل ذلك. فمنهم من قال بالجواز مطلقاً، من أجل الحديث الذي نحن بسبيله، ولعله لم يبلغه الحديث الذي أوردناه. ومنهم من منع على ظاهر الحديث الذي أوردناه، ومنهم من جَمَعَ بين الحديثين - وهو مذهب مالك - فقال: ما هو عليك فرض فلا يجوز أخذ الأجرة عليه، وما ليس بفرض فأخذ الأجرة عليه جائز. مثال ذلك على مذهبه من جاء يطلب تعليم أم القرآن فلا يجوز أن يأخذ منه عليها أجراً إذا كان بالغاً، لأنها عليه فرض لأنها من جملة فرائض صلاته، ولا تجزئُه إلا بها. وإن أراد تعلم غيرها فله أن يأخذ منه عليها من الأجر ما شاء. وكذلك في سائر أمور الدين كله، ما يكون فرضاً في الوقت على الطالب لا يجوز للمطلوب له أخذ أجر عليه، وإن لم يكن عليه فرضاً فهو بالخيار في ذلك.

وقد يحتمل الجمع بين الحديثين بوجه - وهو لا بأس به إذا تأملته - وهو أنه ﷺ قد قال (من

(١) قال الحافظ في الدراية (١٨٨/٢): رواه أبو داود وابن ماجه وإسناده ضعيف، ولفظه: (عن عبادة بن الصامت قال: علَّمت ناساً من أهل الصَّفَّةِ القرآن، فأهدى إلي رجل منهم قوساً، فقال النبي ﷺ: إن أردت أن يطوِّقَكَ الله طوقاً من نار فاقبلها) وللحديث روايات أخرى بألفاظ مختلفة.

شفع لأخيه شفاعاً فأهدى له هدية من أجلها فقبلها فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الربا<sup>(١)</sup>، وقد قال عليه السلام لعمر، رضي الله عنه، حين أراد أن يشتري الفرس الذي كان حبسه في سبيل الله لما رآه يباع، فقال له عليه السلام (لا تُعَدَّ في صدقتك فإن العائد في صدقته كالكلب يعود في قيئه)<sup>(٢)</sup>.

فلما كان هذا الذي أهدى القوس للذي علمه كتاب الله، ولم يأخذ عليه أجراً فهي هبة<sup>(٣)</sup>، وهي وسيلة إلى الله، وهي من أكبر الوسائل، فلما قبل عليها الهدية فكأنه رجع في معروفه، لا خفاء بها، وقبول هديته على شفاعته شفيعاً له عند الله، لأنه الذي قرّبه إلى مولاه بما علمه من كتابه. فمن أجل هذا قال له: (قطعة أو قطعتان من نار).

ويجوز أولاً اشتراط الأجر، لأن الأجر عليه قد أجازته متضمن الحديث الذي نحن بسبيله. فإذا احتمل هذا الوجه فلا تعارض بينهما، والله أعلم.

وفي جواز الأجر على تعليمه فائدة كبرى في الدين لا يعلمها حقيقة إلا ذلك السيد ﷺ الذي أمر بها، أو من فتح الله عليه في فهم بعضها، لأنه يأخذ الأجرة عليه ينتشر تعليمه في الإسلام، ولو لم يكن يجوز ذلك لكان تعليمه نادراً، حتى يكون لا يوجد من يصبر على تعب الأولاد وما هم عليه بلا أجرة، وهو محتاج إلى ضرورة البشر والدوام على ذلك. فانظر مع أخذ الأجر عليه وزيادة ما لهم من الإحسان ما تجد من يوفي حق التأديب إلا أهل التوفيق منهم. فقد أبيع في الدين أشياء ممنوعة من أصول كثيرة لوجه ما من المنافع، ولا تبلغ بعض هذه المنفعة مثل القراض<sup>(٤)</sup> والمساواة<sup>(٥)</sup> وبيع العارية بخرصها للجُذاذ<sup>(٦)</sup> وما أشبه ذلك، وهي مستثناة من أصول ممنوعة، وهذه توسعة من الله ورحمة ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾<sup>(٧)</sup>.

(١) رواه أبو داود في البيوع باب في الهدية لقضاء الحاجة ولفظه: من شفع لأحد شفاعاً فأهدى له هدية عليها فقبلها إلخ... عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في الزكاة وفي الوصايا وفي الجهاد ومسلم في الهبات، ومطلعه: عن عمر رضي الله عنه قال: (حملت على فرس في سبيل الله فأضاعه الذي كان عنده، فأردت أن أشتريه إلخ... (وهو موضوع الحديث ١١٤).

(٣) يعني أن تعليمه القرآن هبة.

(٤) القراض: وتسمى (شركة المضاربة) فيها يدفع أحد الشريكين المال، ويقوم الثاني بالعمل والمناجزة، ويكون الربح بينهما بنسبة ما اتفقا عليه.

(٥) المساواة: تكون على صورة شركة بين مالك الأرض أو بساتين، وبين عامل يقوم بسقاية الأرض أو البساتين ويكون الربح بينهما بنسبة ما اتفقا عليه من الجنى.

(٦) بيع العارية: تكون بمبادلة ثمر شجر غير مجذوذ ورطب بثمر مجذوذ وجاف. وهو المعروف في الفقه بـ(بيع العرايا).

(٧) سورة الحج، من الآية ٧٨.

وفيه دليل على كثرة نصحه، ﷺ، لأمته. يؤخذ ذلك من بيانه، عليه السلام هذا ومثله، قبل أن يسأل عنه.

جزاه الله عنا أفضل ما جرى نبياً عن أمته. وقد نص عز وجل في كتابه حيث قال ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>(١)</sup> أَوْزَعَنَا اللهُ شُكْرَهَا مِنْ نِعْمَةٍ، وَتَمَّمَهَا عَلَيْنَا بِفَضْلِهِ.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

الكتاب النّاراة التي تفرّج القول

(١) سورة التوبة، من الآية ١٢٨.

## حديث جواز الرقية والأجر عليها

عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: انطلق نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ في سَفَرَةٍ سافروها، حتى نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيقوهم.

فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء. فقال بعضهم: لو أتيتهم هؤلاء الرهط الذين قد نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء.

فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء، لا ينفعه شيء، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم إني والله لأزقي. ولكن، والله لقد استضافناكم فلم تضيقونا، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعلاً. فصالحوهم على قطع من الغنم.

فانطلق، وجعل يتفل عليه ويقرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فكانما نَشَطَ من عقالٍ. فانطلق يمشي وما به قَلْبَةٌ. قال: فأوفوهم جُعْلَهُم الذي صالحوهم عليه. فقال بعضهم: اقسِموا. فقال الذي رَقَى: لا تفعلوا حتى تأتي رسول الله ﷺ، فنذكر الذي كان، فننظر ما يأمرنا.

فقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له فقال: وما يُدريك أنها رُقِيَّة؟ ثم قال: قد أصبتم. اقسِموا واضربوا لي معكم سهماً. فضحك النبي ﷺ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز أخذ الأجر على الرقية إذا كانت بكتاب الله، عز وجل. والكلام عليه من وجوه:

منها هل تجوز الرُقِيَّة بغير كتاب الله تعالى أم لا؟ فهذا ليس في الحديث ما يدل عليه، لكن



يُؤْخَذُ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ، وَقَدْ جَاءَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَزِقِّي بِالْكَلَامِ الطَّيِّبِ، مِثْلَ قَوْلِهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: (اللَّهُمَّ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، إِشْفِ اللِّهْمَ شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا) (١). ومثل هذا كثير. وقد جاء النهي عن الرِّقِيِّ بغير كتاب الله، عزَّ وجلَّ، وأسمائه، وما كان من الكلام الطيب. ونهى ﷺ عن رِقِّي أهل الكتاب إلا أن يكون بأسماء الله عزَّ وجلَّ.

حتى إنه جاء بعض الصحابة أو التابعين إلى ابن عباس، رضي الله عنهما، فسأله عن رُقِيَةِ أهل الكتاب فقال له: نهى رسول الله ﷺ عنها. فقال له: أحياناً يكون بي الألم فأمشي إلى اليهودي فلان، فَيَزِقِّنِي، فَأَبْرَأ. فقال له، رضي الله عنه: إن الشيطان يجعل يده عليك حتى يؤلمك ثم يُغويك، فإذا مشيت إلى اليهودي وتكلم بكلامه رَفَعَ يده عنك (٢). ولهذا منع العلماء الحرَّ الذي فيه الخواتم المكتوبة بالعبرانية، لأنه لا يُعرف ما هي. وفي مثله ما يكون فيه من الكلام بلغة لا يُعرف معناها أي لسان كانت، من أجل أن يكون معناه مما لا يجوز شرعاً، فيقع حامله في الإثم.

ومنها الدليل على وجوب الضيافة على أهل الوبر (٣). يؤخذ ذلك من قوله (فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم)، وذكر ذلك لرسول الله ﷺ، ولم يَنْهَهُمْ. ولو كان ذلك لا يجوز ما فعلته الصحابة رضوان الله عليهم، ولا أَقَرَّهم النبي ﷺ على ذلك حين حدوثه. وقد جاء هذا عنه، عليه السلام، نصاً بقوله، عليه السلام، (الضيافة على أهل الوبر وليست على أهل المَدَر) (٤). وقد جاء أن للمسافر أن يطلب الضيافة على من وَجَبَتْ عليه بالوجه الشرعي، فإن لم يعطه قَاتِلَ الممتنع منها، فإن قُتِلَ الممتنعُ فَشَرُّ قَتِيلٍ، وإن قُتِلَ صاحب الضيافة فهو شهيد. ويؤخذ من الفقه أنه من منع حقاً له واجباً شرعاً فله أن يقاتل مانعه، فإن قتل كان شهيداً.

وفيه دليل على جواز السفر في الأمور المباحة. يؤخذ ذلك من قوله (في سفرة سافروها). فلو كان في جهاد أو حج أو غيره من الطاعات لذكرها الراوي.

(١) رواه البخاري في الطب وأبو داود والترمذي عن أنس رضي الله عنه، قال: ألا أريك برقية رسول الله ﷺ؟ قال: بلى. قال: اللهم رب الناس، مذهب الباس، اشف أنت الشافي، شفاء لا يغادر سقماً.

(٢) أخرج أبو داود في الطب باب في تعليق التمام عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الرقي والتمايم والتولة (وزان عتبة - وهي ضرب من الخرز يوضع للسحر فتجب بها المرأة إلى زوجها) شرك. فقالت امرأته زينب: لم تقول هذا؟ والله لقد كانت عيني تقذف (تدمع) وكنت أختلف إلى فلان اليهودي فيرقيني، فإذا رقاني سكنت. فقال عبد الله بن مسعود: إنما ذلك من عمل الشيطان، كان يَنْخَسُها بيده، فإذا رقاها كف عنها، إنما يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول: أَذْهِبِ البَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شفاء لا يغادر سقماً.

(٣) أهل الوبر: سكان البوادي.

(٤) عزاه السيوطي في الجامع الصغير للقضاعي عن ابن عمر رضي الله عنهما وضعفه.

وفيه دليل على جواز نزول المسافر على العرب، وطلبه ماله عندهم من الحق.  
وفيه دليل على أن من وهب هبة وجب عليه إنفاذها. يؤخذ ذلك من قول الراقي (لا أرفي لكم حتى تجعلوا لنا جُعلًا). فأشرك أصحابه معه في الجُعل، وأمره النبي، عليه السلام، بالقسم تماماً لما وهب.

وفيه دليل لمذهب مالك الذي يقول بهمة المجهول، لأنه حين شارك أصحابه في الجعل بقوله (حتى تجعلوا لنا جعلًا) لم يكن مبلغ الجعل الذي يجعلون له في الوقت معلوماً. وأجاز ذلك النبي ﷺ بقوله (اقسموا).

وفيه دليل على جواز طلب الهبة ممن وهبها وليس بقبيح. يؤخذ ذلك من قول الصحابة للراقي حين وُفي لهم الجعل (اقسموا) وما كان الصحابة، رضي الله عنهم، ليفعلوا فعلاً مكروهاً أو ممنوعاً.

وفيه دليل على حسن صحبة الصحابة بينهم، رضوان الله عليهم. يؤخذ ذلك من أن الراقي لم ير أن يفضل نفسه بشيء على أصحابه من أجل أنه الفاعل، وقد وصفهم الله، عز وجل، بأحسن الأوصاف بقوله تعالى ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

وهنا بحث، وهو أن يقال: لِمَ أخذوا الجُعل وهم لا يعلمون أنه جائز، ثم امتنعوا من القسم حتى يسألوا؟ فالجواب - والله أعلم - أن الفرق بينهما أن أخذهم الجعل احتل أن يأخذوه بنية أنه حق ضيافتهم، ولا يأخذوه بأنه جُعل، ثم لا يأكلون ولا يقسمون حتى يسألوا. فإن صحَّ لهم فعلوا ما شاءوا، وإلا ردُّوا بأمر.

واحتمل أن يأخذوه على وجه الجعالة<sup>(٢)</sup> ولا يتصرفوا حتى يسألوا أيضاً، لاسيما إن كان الحي من العرب غير مسلمين، فلمهم أن يأخذوا من أموالهم بأي نوع شاؤوا ما لم يكونوا معاهدين، أو أن هذا عن طيب نفس منهم. فلما كان هذا عن طيب نفس منهم احتاجوا إلى السؤال.

ويترتب على هذا من الفقه أنه إذا أدت الضرورة لأمر، ولا علم للشخص به من طريق الشرع، أن يجتهد برأيه ثم يسأل بعد ذلك عن الإمكان من ذلك: كيف لسانُ العلم فيما تصرف فيه حتى يعلم حكم الله عليه.

وكونهم لم يقسموا فقد لا تكون لهم ضرورة إلى القسمة، مع عدم العلم بما يجب عليهم فيما فعلوا، فأخروا ذلك حتى يتحققوا ما حكم الله عليهم.

(١) سورة الفتح، من الآية ٢٩.

(٢) الجعالة: ما يجعل على العمل من أجر.

ويترتب عليه من الفقه أنه عند الشبهات وعدم الضرورة لا يُقدّم على أمر حتى تزول تلك الشبهة .

وفيه دليل على فضيلة أم القرآن . يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (وما يُدريك أنها رُقِيّة) .

وفيه دليل على فضيلة الصحابة ، رضوان الله عليهم . يؤخذ ذلك من تعظيمهم الكتاب العزيز ، وجعلهم الخير كله فيه ، لأنهم جعلوها رُقِيّة ، ولا تكون الرُقِيّة إلا بشيء مقطوع فيه بالبركة ، ولا شيء أبرك من كلام الله تعالى . فلتعظيمهم ذلك حتى خالط ذلك الاعتقاد المبارك ضمائرهم كلما طلب لهم من الخير جعلوا القرآن سببه ، كما فعل هؤلاء بالفاتحة ، وهم لم يسبق لهم في ذلك علم إلا ما في قلوبهم من التعظيم لحُرُمات الله ، عز وجلّ ، التي هي من تقوى القلوب كما أخبر جلّ جلاله .

وقوله (يتفل عليه) فيه بحث وهو : أن التفل متى يكون؟ هل قبل القراءة أو بعدها أو معها؟ احتمال ، لأنه أتى بالواو التي لا تعطي رتبة . لكن الأظهر أنه بعد القراءة ، من أجل هذه الصفة هي التي وردت عن النبي ﷺ حين كان يَرْقِي أنه بعد القراءة يَتَفَل . ومن جهة العقل والنظر ، لاسيما كمثل الصحابة ، رضوان الله عليهم ، الذين كانوا في قوة الإيمان والنور حيث كانوا ، لأن الجارحة - وهي الشفتان واللسان - إذا تحركت بذلك الكلام الجليل حلت البركة ، فحينئذ تكون الفائدة في ذلك الرّيق ، وأما قبل فلا فرق بينه وبين ريق غيره .

وفيه إشارة إلى أنه ما قُدِّر لك من الرزق لا يمنعه عنك مانع ويصل إليك ، أحب المانع أو كره . يؤخذ ذلك من أنهم لما طلبوا الضيافة منعوهم فكان لهم في مالهم رزق ، جاءتهم اللدغة فأخرجت منهم ما امتنعوا به مما كان قسم لهم في أموالهم .

وفيه اعتبار في قرب نصرة الله تعالى للضعيف . يؤخذ ذلك من أنه لما امتنع هؤلاء بقوتهم من هذا النفر لقلتهم وعدم قدرتهم عليهم جاءهم النصر باللدغة في أقرب حين . وقوله : (وسعينا بكل شيء لا ينفعه) على ظاهره ، وإنما المعنى سعوا له بكل شيء جرت عادته ينفع لمن لدغ ، فلم ينفعه ذلك الشيء .

وفيه من العبرة أن تغيير العادة عقاب . يؤخذ ذلك من أنه لما كانت معهم الضيافة لهؤلاء - وهي حق لهم - فمنعوهم حقهم ، خابت عادتهم فيما عُوّدوا من برء من لدغ منهم إذا فعلوه برىء ، حتى أعطوا ما منعوهم . وقد جاء ما يدل على هذا المعنى وهو قوله ﷺ (إذا أبغض الله قومًا أمطرَ صيفهم ، وأصْحَى شتاءهم)<sup>(١)</sup> فجاءت مخالفة العادة دالة على السخط .

ومن هذا الباب كان أهل السلوك إذا رأى بعضهم يتغير عليه شيء مما عُوّد صَرَخ وبكى ولجأ

(١) لم نثر على مصدره .

ونظر خبايا النفس حتى يجد تلك الثلثة من أين أنت فيسدها، ومصدق ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقْوِمُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾<sup>(١)</sup>.

وفيه دليل على عظم حكمة الحكيم. يؤخذ ذلك من أنه لم يؤخذ بالعذاب من القوم إلا من كان أشدهم جرماً. يؤخذ ذلك من أن الأصل في منع الضيافة سيد الحي، لأن عادة العرب أنهم يقفون عند ما يشير به عليهم. فلما كان هو أصل المنع جاء العقاب له جزاء وفاقاً.

وقوله (فهل عند أحد منكم من شيء؟) هو من باب قبيل الاختصار في التخاطب، معناه: عندكم شيء ينفعه؟ فحذف (ينفع) لدلالة الحال عليه.

وفيه دليل على أن لغو اليمين لا يؤاخذ به، وليس هو أيضاً من باب الهذر. يؤخذ ذلك من قول الصحابي رضي الله عنه (والله إني لأرقي) لأنه أقسم على الرقي بالله تعالى، وهذا القسم لا فائدة فيه. وهذا النوع هو الذي يسميه بعض الفقهاء لغو اليمين، خلافاً لمذهب مالك، رحمه الله، وهو الذي يسوقه المرء في كلامه لا يترتب عليه فائدة مثل هذا، فإنه إن كان صادقاً بلا قسم فهو صادق بالقسم، وهم لا يعطونه شيئاً حتى يبرأ سيدهم. فليس للقسم هنا فائدة، لكن هو مما يجري كثيراً على بعض الألسن، والله، عز وجل، بفضلته قد عفا عنه بقوله تعالى ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> ومثل ذلك قوله (والله لقد استصفناكم).

وقوله (فلم تضيفونا فصالحوهم) أي عقدوا معهم الجعل. وفيه دليل على جواز اختلاف العبارة عن الشيء إذا لم يسقط من المعنى شيء، لأنه أتى بلفظ (صالحوهم) وكنتى به عما جاعلوهم به. وقطيع الغنم عدد قليل من الغنم معروف عندهم، وقوله (فانطلق يتفل) معناه جعل يتفل.

وفيه دليل على أنه لا يُخاطب أحد إلا بما يعرف. يؤخذ ذلك من كونه مثل سرعة برئه وقيامه كالبعير إذا حل من مربطه، لأن العرب لا يعرفون شيئاً أقرب من هذا، لأنه هو الذي يعاهدونه في كل يوم، لأن قوله (نشط من عقال) أي حل مما كان عقل به، أي ربط به، لأن الحبل الذي يربطون به البعير يسمونه عقالاً.

وقوله (وما به من قَلْبَةٍ) هو من هذا الباب. عبر لهم بما عهدوا، ومعناه ما به ألم.

وقوله: ويقرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا اسم السورة، لا أنه قرأ هذا اللفظ ليس إلا، بدليل قول سيدنا ﷺ آخرأ (وما يدريك أنها رُقِيَّة)؟ فأعاد الضمير على السورة، واحتمل أن يعود الضمير على الآية، ولم يقرأ من السورة غيرها.

(١) سورة الرعد، من الآية ١١.

(٢) سورة البقرة، من الآية ٢٢٥ وسورة المائدة، من الآية ٨٩.

وفيه دليل على أدب الصحابة، رضوان عليهم، بعضهم مع بعض. يؤخذ ذلك من قَوْلِ الراقي لأصحابه حين أرادوا الْقَسْمَ (لا تفعلوا حتى نأتي رسول الله ﷺ) على طريق الإرشاد، ولم يقل لهم: لا نفعل.

وفيه دليل: على أن أهل الدين والفضل إذا أُرْشِدُوا إلى الحق قَبِلُوهُ، ولم تأخذهم عزة في ذلك. يؤخذ ذلك من أنه لما أُرْشِدَهُم الراقي أن يتركوا الْقَسْمَ حتى يأتوا النبي ﷺ قَبِلُوا، ولم يحاجُّوا.

وقوله (فنتظر ما يأمرنا) أي نَمْتَثِلُ لا أنهم ينظرون هل يصلح لهم فيأخذونه، وإلا يتركونه<sup>(١)</sup>. وقوله (وما يدريك) تعظيماً للسورة وترفعاً لشأنها لقوله جلَّ جلاله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾<sup>(٢)</sup> وقد يفهم منها معنى التعجب، كأنه، عليه السلام، يقول: من أعلمكم بهذا حتى فعلتموه؟ ثم أخبرهم بقوله (إنها رُقِيَّةٌ)، والأول أظهر والله أعلم. وقد يكون فيه معنى الفرح بما أصابوا من عين الحكم باجتهادهم وهو اللائق بخلقه ﷺ. ثم قال (قد أصبتم، اقسموا، واضربوا لي معكم سهماً. فضحك النبي ﷺ) وأمره، عليه السلام، لهم بِالْقَسْمِ تمام للحكم.

وقوله (واضربوا لي معكم سهماً). هنا بحث وهو: لم طلب، عليه السلام، منهم السهم لنفسه المكرمة؟ فذكر فيه بعض الناس أن ذلك جَبَرُ لهم كما فعل، عليه السلام، مع أصحاب الصَّيد حين اصطاد صاحبهم وهو حلال، فأخبروه، فطلب منه لنفسه تسكيناً لخواطرهم. ومثل ذلك أصحاب دَابَّةِ الْعَنْبَرِ<sup>(٣)</sup>. وهو محتمل، لكن هناك علة ليست هنا. وهي أن الحذر كان تقدم لهم فيما يشبه ذلك، لأنهم كانوا نُهَوُّوا عن أكل الميتة، ونُهَوُّوا عن أن يأكلوا إذا كانوا مُحَرِّمِينَ شيئاً صَيَّدَ من أجلهم. وظاهر ما وقعوا فيه أشبه ما كانوا حذروا عنه، ولم يكن كذلك. فأكل منه ﷺ لأن يزيل ما يمكن أن يقع في بعض قلوبهم من التشويش. وأما هنا فلم يتقدم حَذَرٌ ولا أكلوا شيئاً منها.

(١) كذا بعدم جزم جواب الشرط.

(٢) سورة المطففين، من الآية ١٩.

(٣) دابة العنبر: روى مسلم في صحيحه في كتاب الصيد والذبائح باب إباحة ميتات البحر: عن جابر قال: بَعَثَنَا رسول الله ﷺ وأمر علينا أبا عبيدة، نتلقى عيراً لقريش، وزودنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره. فكان أبو عبيدة يعطينا ثمرة ثمرة. قال: فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نَمَضُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل. وكنا نضرب بعصينا الْخَبْطَ (ورق السَّلم) ثم نبله بالماء فنأكله. قال: وانطلقنا على ساحل البحر، فَرَفَعْنَا لنا على ساحل البحر كهيئة الكتيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى (العنبر) قال: قال أبو عبيدة: ميتة. ثم قال: لا. بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله. وقد اضطررتم فكلوا. قال: فأقمنا عليه شهراً، ونحن ثلاثمائة حتى سَمِينَا. قال: ولقد رأيتنا نغترف من وَقْبٍ عينه بِالْقِلَالِ الدَّهْنِ، ونقتطع منه الْفِدْرَ (القطع) كالثور - أو كقدر الثور - فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رحلاً فأقعدهم في وَقْبٍ عينه، وأخذ ضِلْعاً من أضلاعه فأقامها، ثم رَحَّلَ أعظم بعير معنا فمر من تحتها، وتزودنا من لحمه وشائق (الوشيقة: اللحم يؤخذ فيغلى ولا ينضج أو هو القديد). فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال: (هو رزق أخرجه الله لكم. فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟) قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه. فأكله.

واحتمل أن يكون ذلك بأمر من الله، لأنه رزق آفاه الله به عليهم من غير عوض، فيكون له ﷺ فيه سهم. وكونه، عليه السلام، لم يعتنه لعل عددهم يقتضي أن يكون سهمه بحسب عددهم خُمساً، وهو حقه، عليه السلام، من النِّبي. وضحكه، عليه السلام، قد يكون فرحاً لنصرة الله تعالى لهم، لأنه ﷺ كل ما كان فيه شيء من نصرة من الله للمؤمنين يسره. وضحكه، عليه السلام، إظهار لذلك، لأنه مما يؤنسهم ويسرهم.

وهنا إشارة وهي عطف الحبيب بهيج قلب المحب ويفرحه ويضحكه ويطره، لأن نصرة الحق، سبحانه، لأصحابه، عليه السلام، عطف عليه.

وفيه دليل لما قدمناه من أن الصحابة، رضي الله عنهم، كانوا يتبركون بأي شيء كان منه، عليه السلام، من فعلٍ أو قولٍ أو إشارة أو تنويع صفةٍ ما من الصفات، وينقلونها ويتناولونها. يؤخذ ذلك من كونهم رَوَوْا في الحديث ضحكه، عليه السلام. فلولا ما كان ذلك عندهم معتبر ما كانوا يذكرونه. وكذلك ينبغي لأنه إذا كان مَنْ ليس مثله، عليه السلام، من أتباعه لا تكون منه صفة إلا لمعنى مفيد، فكيف به، عليه السلام، الذي هو مَعْدِن الكمال في كل الحركات والسكنات.

وقد نقل عن بعض الناس أنه لم ير منه أصحابه عبثاً قط، فدخلوا عليه يوماً وفي يده قطعة كاغد يعث بها في الأرض. فلما فرغ من ذلك قالوا له في ذلك، فقال لهم: صومعة أردت أن تبني في الموضع الفلاني فتعذرت عليّ صفتها، وكيف يكون أمرها؟ فلم أزل أردد صفة بعد صفة بذلك الكاغد حتى ظهر لي الأصلح من تلك الوجوه. فإذا كان هذا هكذا فما بالك بمن جعل كله نوراً ورحمة، لا يكون منه حركة ما إلا لوجوه من الحكمة؟

وفي الحديث إشارة لأهل القلوب في كون هؤلاء سعوا لسيدهم بكل ممكن من أجل راحة جسد يفتنى في دار تفتنى، فكيف بمن همته السعي لدار لا تفتنى، ونعيمها لا يفتنى، وساكنها لا يهرم ولا يبلى؟ فحيث وجب الحث والتشمير وقع العجز والكسل. وقد قال بعض المشهورين لما عوتب في كثرة مجاهدته: دعوني فإن أمامي عقبة كؤوداً لا يجاوزها إلا المُضْمَرُونَ<sup>(١)</sup>. وقال: بالجد خذ لا بالكسل، فإن أمامك عِقَاباً<sup>(٢)</sup> وأي عِقَاب.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) المُضْمَرُونَ: من (ضَمَّرَ الفرس) إذا ذلَّه وأطعمه وسقاه ودربّه على السباق والقتال مدة طويلة ليكون جاهزاً للسبق أو للحرب وقت الحاجة.

(٢) العِقَاب: ج: عَقَبَة، وهي المرقى الصعب من الجبال ونحوها.

## حديث لا حمى إلا لله ورسوله

عَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَامَةَ<sup>(١)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَا حِمَى إِلَّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن الحمى كله لله ورسوله، ﷺ والكلام عليه من وجوه: منها تبين معنى هذا الحمى، وهل هو على الوجوب أو على الندب؟ ومن هو القائم به؟ وما شروطه؟

فأما الحمى فقد يكون بمعنى خمسة وجوه:

أحدها: حَجْرُ بعض الأمور وإجازتها<sup>(٢)</sup>، وهي تقرير الأحكام. فمن جعل الله، عز وجل، له أن يَمْنَعَ مَنْعَ، ومن لم يجعل الله له ذلك فليس له ذلك، لقوله تعالى ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾<sup>(٣)</sup>. وقد يكون بمعنى العزة والامتناع، لقوله عز وجل ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٤)</sup> وكما قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: بالإيمان اعتزنا.

وقد تكون بمعنى الامتناع والتحصن. فمن يريد أن يمتنع ويتحصن فإنما يصح له ذلك حقيقة، إذا كان بالله وبرسوله ﷺ. ومعناه باتباعه لأمر الله ورسوله ﷺ لقوله تعالى ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ

(١) الصعب بن جثامة بن قيس الليثي: صحابي، من شجعانهم. شهد الوقائع في عصر النبوة، وحضر فتح إصطخر وفارس. وفي الحديث يوم حنين: (لولا الصعب بن جثامة لفضحت الخيل). مات في خلافة عثمان رضي الله عنه، وقيل قبلها. وله أحاديث في الصحيح.

(٢) الحجر في الشرع: المنع من التصرف لصغر أو سفه أو جنون. والإجازة في الشرع: الحكم بجواز الشيء، وهو عكس تحريمه.

(٣) سورة الأنعام، من الآية ٥٧ وردت في سورة يوسف، من الآية ٤٠، وفي الآية ٦٧ من السورة نفسها.

(٤) سورة المنافقون، من الآية ٨.

يَنْصُرَكُمْ<sup>(١)</sup>، ونصرة الله هي باتباع أمره واجتناب نهيه، واتباع سنة رسوله ﷺ لقوله عز وجل ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾<sup>(٢)</sup> وقال عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup> أي كافيك.

وقد تكون بمعنى التعصب والمدافعة كما كانت العرب تفعل بعضها مع بعض، كما قال السائل حين سأل عن الجهاد: ومنا من يقاتل حِمِيَّةً<sup>(٤)</sup>. وكما قال عز وجل: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾<sup>(٥)</sup> وقوله عز وجل ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾<sup>(٦)</sup> أي مع الله. ولا ينتفي مع ذلك التناصر بين الناس. لكن إذا كان على المشروع فهو لله، لقوله عليه السلام (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)<sup>(٧)</sup>. فنصرة المظلوم هي لله، وكذلك نصرة الظالم برده عن ظلمه فهي نصرة الله.

وقد تكون بمعنى سابق القدر. فإن الحمى حقيقة من سبق له حمى من الله ورسوله ﷺ بالإخبار والدعاء منه لقوله تعالى ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾<sup>(٨)</sup> فمن حماه الله ورسوله ﷺ فلا يقدر أحدٌ عليه. وحمى غيره لا شيء، لأنه وإن وقع بحكم الوفاق فهو منقطع، وحمى الله لا ينقطع<sup>(٩)</sup>.

واحتمل الجميع، وهو الأظهر. وحيث ما وجدنا ما يناسب هذه المعاني المتقدمة فيه فالاستحقاق فيه لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن هذا الباب قوله عز وجل ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾<sup>(١٠)</sup>. وقوله ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُتَفَقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١١)</sup>. ومما يناسب هذا الحديث في

(١) سورة محمد، من الآية ٧.

(٢) سورة النساء، من الآية ٨٠.

(٣) سورة الأنفال، الآية ٦٤.

(٤) جزء من حديث رواه البخاري في الجهاد ومسلم في الإمامة من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ومطلعه: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاقل حِمِيَّةً، ويقاقل رياءً... إلخ.

(٥) سورة آل عمران، من الآية ٥٢ وفي سورة الصف، من الآية ١٤.

(٦) سورة الصف، من الآية ١٤.

(٧) رواه البخاري في كتاب المظالم باب: أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً.

(٨) سورة التوبة، من الآية ٥١.

(٩) هذا هو الوجه السادس في أنواع الحمى وهو «حمى الله» وحمى الله حرم مكة، وحمى الرسول الله ﷺ حمى للمدينة، فهو في مصالح عامة المسلمين. وهذا المعنى الفقهي وأحكامه مبسطة في كتب الفروع.

(١٠) سورة فاطر، من الآية ١٠.

(١١) سورة المنافقون، من الآية ٨.



معناه قوله عليه السلام (إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء . إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي)<sup>(١)</sup> وكقوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> فتحصل من الفقه أن جميع ما كانت الجاهلية تفعله ، من افتخار وحماية وتعصب وتجديد أحكام وتناصر وتحصن وما يشبه هذه الأمور التي فيها حظوظ الأنفس ، لم يبق الإيمان منها شيئاً إلا ما وافق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ومن فعل من ذلك شيئاً بغير هاتين الطريقتين فقد استن في الإسلام سنة الجاهلية ، ودخل تحت قوله ﷺ (ثلاثة يبغضهم الله) وعد فيهم (من استن في الإسلام سنة الجاهلية)<sup>(٣)</sup> .

ويكون هذا الحكم عاماً في الخاص والعام ، والقريب والبعيد . يؤيد ذلك قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ آلِهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾<sup>(٤)</sup> فهذا يشترك فيه العوام والخواص .

ويختص أهل الخصوص بأمر آخر وهو الخواطر . فإن الخواطر أربعة : رباني وملكي ونفساني وشيطاني . فتكون الحماية للثنين وعنهما وهما : الرباني والملكي . وتكون محاربته للنفساني والشيطاني . ويكون بذلك في حزب ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾<sup>(٥)</sup> هذا للمتناهي الذي يميز بين الخواطر . وأما المبتدئ : فإذا ورد عليه الخاطر يعرضه على الكتاب والسنة ، فيبين له إذ ذاك من أي الأقسام هو؟ فيعمل فيه بمقتضى الكتاب والسنة .

وأما قولنا : هل يكون منها<sup>(٦)</sup> واجباً أو مندوباً؟ أما من طريق الفقه وأحكام الفروع ففيه ما هو واجب ، ومنه ما هو مندوب . وأما ما هو من طريق التوحيد والإذعان إلى أحكامه ، عز وجل ، ونفوذ القدر ، وما هو في معناه ، مثل العزة والعظمة وما يكون مثلهما فواجب اعتقاده والعمل به . وأما

(١) عبية الجاهلية : كبرها وافتخارها . والحديث تفرد به الترمذي من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة فقال : (يا أيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية ، وتعاضمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل بر تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله . والناس بنو آدم من التراب . قال الله ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ .

(٢) سورة الحجرات ، من الآية ١٣ .

(٣) مروي بالمعنى لحديث رواه الديلمي في مسند الفردوس ١٦٢/٢ عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ (ثلاثة لعنهم الله : أمير ظالم ، وفاسق أعلن بفسقه ، ومبتدع يهدم السنة) .

(٤) سورة التوبة ، من الآية ٢٤ .

(٥) سورة العنكبوت ، من الآية ٦٩ .

(٦) أي : من أنواع الحمى .

الذي هو من قبيل التمتع والتعصب في الله وبالله، وما هو في معناهما، فمن طريق التدب والإرشاد.  
وأما من طريق أهل التحقيق فالكل عندهم واجب.

وأما قولنا: من القائم به؟ فعلى المشهور من الأقاويل: فكل مؤمن ومؤمنة، كل بقدر استطاعته. وأما على قول بأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة فعلى جميع بني آدم كلهم.

وأما قولنا: ما شروطه؟ فعلى قول من يقول: إن العلم شرط في تقرير الأحكام فعلى من يعرفه. وأما على قول من يقول: إن الجهل بالأحكام ليس بعذر، وهو الحق. لأنه لو كان الجهل عذراً لكان أرفع من العلم، ولا قائل بذلك. فعلى كل بالغ عاقل بقدر طاقته.

وفيه دليل على عظيم فصاحته ﷺ. لفظة واحدة جمعت أحكام الشريعة والحقيقة كلها.  
وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

## حديث من لم يشرك بالله دخل الجنة

عَنْ أَبِي ذَرٍّ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أَبْصَرَ - يَعْنِي أُحْدَا - قَالَ: مَا أَحَبُّ أَنَّهُ تَحَوَّلَ ذَهَبًا يَمْكُثُ عِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا دِينَارًا أَرْضُدُّهُ لِدَيْنٍ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمُ الْأَقْلَوْنَ، إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا - وَأَشَارَ أَبُو شَهَابٍ<sup>(٢)</sup> بَيْنَ يَدَيْهِ عَنِ يَمِينِهِ وَعَنِ شِمَالِهِ - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ. وَقَالَ: مَكَانَكَ<sup>(٣)</sup> حَتَّى آتِيكَ. وَتَقَدَّمَ غَيْرَ بَعِيدٍ. فَسَمِعْتُ صَوْتًا، فَارَدْتُ أَنْ آتِيَهُ، ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَهُ: مَكَانَكَ حَتَّى آتِيكَ. فَلَمَّا جَاءَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ. الَّذِي سَمِعْتُ - أَوْ قَالَ: الصَّوْتُ الَّذِي سَمِعْتُ - قَالَ: وَهَلْ سَمِعْتَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَقَالَ: مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ. قُلْتُ: وَإِنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أنه من مات على الإسلام دخل الجنة، وإن فعل ما عسى أن يفعل. والكلام عليه من وجوه:

منها: ما معنى قوله دخل الجنة؟ هل يكون معناه أنه لا يُعَذَّبُ أصلاً، أو أنه لا بدَّ له من دخول الجنة، وإن عُذِّبَ؟ فالجواب عن هذا قد جاء نصاً في حديث غير هذا، وهو قوله ﷺ (الإيمان

(١) أَبُو ذَرٍّ: هُوَ جُنْدُبُ بْنُ جُنَادَةَ، مِنْ بَنِي غِفَّارٍ. صَحَابِي، مِنْ كِبَارِهِمْ، قَدِيمُ الْإِسْلَامِ، يُقَالُ: إِنَّهُ أَسْلَمَ بَعْدَ أَرْبَعَةِ وَكَانَ خَامِساً، يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الصَّدَقِ. هَاجَرَ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى بَادِيَةِ الشَّامِ، فَأَقَامَ إِلَى أَنْ تَوَفَّى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَوَلِيَ عُثْمَانُ، فَسَكَنَ دِمَشْقَ وَجَعَلَ دَيْدَنَهُ تَحْرِيطُ الْفُقَرَاءِ عَلَى مِشَارَكَةِ الْأَغْنِيَاءِ فِي أُمُورِهِمْ. فَشَكَاهُ مُعَاوِيَةُ إِلَى عُثْمَانَ، فَاسْتَقْدَمَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَدِمَهَا وَظَلَّ يَنْشُرُ رَأْيَهُ، فَأَمَرَهُ عُثْمَانُ بِالرَّحْلَةِ إِلَى الرَّبَذَةِ (مِنْ قَرْيَةِ الْمَدِينَةِ) فَسَكَنَهَا إِلَى أَنْ مَاتَ فِيهَا سَنَةَ ٣٢ هـ / ٦٥٢ م. رَوَى لَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ ٢٨١ حَدِيثًا. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَبُو شَهَابٍ: هُوَ عَبْدِ رَبِّهِ بْنُ نَافِعٍ الْكِنَانِيُّ، الْحَنَاطِيُّ الْكُوفِيُّ، نَزِيلُ الْمَدَائِنِ، وَهُوَ أَبُو شَهَابِ الْأَصْغَرِ، رَوَى عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ وَالْأَعْمَشِ وَعَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ وَعَاصِمِ الْأَحُولِ. مَاتَ سَنَةَ ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م وَهُوَ مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّامِنَةِ.

(٣) مَكَانَكَ: أَيِ: الزَّمْ مَكَانَكَ وَاثْبِتْ فِيهِ. وَهُوَ فِي عَرَفِ النُّحَوِيِّينَ: اسْمُ فِعْلٍ أَمْرٍ.

إيمانان: إيمان لا يدخل صاحبه النار، وإيمان لا يخلد صاحبه في النار<sup>(١)</sup>. فأما الأول فهو الإيمان مع الأمر والنهي. وأما الثاني وهو الإيمان مع المعاصي. فدل بقوله عليه السلام (لا يخلد صاحبه في النار): إنه يدخلها. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة. وما خاف أهل التوفيق من المعاصي إلا لأن صاحبها يُخاف عليه من التبديل عند الموت، لأن المعاصي يريد الكفر.

وفيه دليل لأهل السنة الذين يقولون: لا يكفر أحد بذنوب من أهل القبلة. يؤخذ ذلك من قوله (وإن فعل كذا وكذا) وعدد، ولأنه بقوله كذا وكذا - ولم يكررها إلا مَرَّتَيْنِ - جمع فيها جميع الذنوب، لأن الذنوب على نوعين لا ثالث لهما. وهما: إما صغائر وإما كبائر.

ويترتب عليه من الفقه أن الإشارة عن المعاني تُغني عن الإفصاح بها، إذا كان المخاطب يفهم مع القدرة على الكلام بها، وذلك جائز شرعاً، ولأن جبريل<sup>(٢)</sup>، عليه السلام، كان قادراً أن يقول: وإن فعل جميع الصغائر والكبائر. فلم يقل، وأشار بصيغة كذا وكذا.

وفيه دليل على جواز النظر في المباحات عند المشي. يؤخذ ذلك من قوله (فلما أبصر، يعني أهدأ). فلو لا ما كان ﷺ في مشيه ينظر في ملكوت الأرض، وهو المباح، لما أبصر أهدأ. إلا أن نظره، عليه السلام، بخلاف نظر غيره، لأن نظره، عليه السلام، عبادة، لأنه باعتبار. وإذا كان النظر بهذه النية فهو من أعلى العبادات بمقتضى الكتاب والسنة. فأما الكتاب فقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ﴾<sup>(٤)</sup> وأما السنة فقوله عليه السلام: (اللهم اجعل نظري نظرية)<sup>(٥)</sup>.

والدليل على أن نظره، عليه السلام، كان اعتباراً أنه لما رأى أهدأ قرر عليه قاعدة شرعية. ولو كان النظر بخلاف هذا لكان الكلام بخلاف ذلك، لأن الكلام نتيجة الفكر، والفكر مقدمته. وبحسب المقدمة تكون النتيجة. والقاعدة الشرعية التي قَعَدَها، عليه السلام، هنا هي جواز تمنّي الخير. وقاعدة أخرى وهي: جواز انقلاب الأعيان بالقدرة إلى ما شاء الله وجواز أخذ الدين، وما كان من الادخار من حطام الدنيا في ثلاثة أيام فليس بادخار، وما ادخر لأداء الدين - وإن كان أكثر من ثلاثة أيام - فليس بادخار أيضاً، وأخذ الدنيا لأن تكون للآخرة فليس بدنياً، والإرشاد إلى الزهد.

(١) لم نعثر على مصدره.

(٢) كذا والصواب «النبي».

(٣) سورة الأعراف، من الآية ١٨٥.

(٤) سورة آل عمران، من الآية ١٩١.

(٥) لم نقف على مصدره.

تؤخذ هذه الوجوه كلها من قوله عليه السلام (ما أحب أنه تحول لي ذهباً يمكث عندي منه دينار فوق ثلاث إلا ديناراً أرصده لدين). فإن قال قائل: ما تمنى وإنما نفى التمني. قيل له: ليست الصيغة كذلك. ما نفى إلا المكث فوق الثلاث، إلا إبقاء الدينار إلى الدين. فلو كان نفياً للتمني فعلام يكون تقرير الحكم بعد مثل ذكر الدين وغيره؟ وهذا ما لا يعقل عند من يفهم مقاطع الكلام، وكان يكون من قبيل اللّهُو والهذر، وهذا في حقه، عليه السلام، محال.

وفيه أيضاً إشارة أخرى، وهي الإشارة إلى تقليل الدين. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السلام، حدّد ما يدخره لديّنه بالدينار الواحد. ولم يقل (شيئاً) أرصده لديّن، الذي<sup>(١)</sup> ينطلق على القليل والكثير. فلما أتى، عليه السلام، باللفظ الذي يتناول القليل، وترك ما يصدق على الوجهين، علمنا أنه قصد ما أبدينه. وقد قال (أقلّ من الدين تعيش حرّاً)<sup>(٢)</sup>.

وقوله عليه السلام (إن الأكثرين هم الأقلون). هنا بحث، وهو أن يقال: ما معنى قوله (الأقلون)؟ احتمل وجوهاً:

منها: الأقلون خلاصاً، من أجل ما يترتب عليهم من الحقوق والمناقشات. ولذلك قيل (حلّالها حساب وحرامها عتاب)<sup>(٣)</sup>.

واحتمل أن يكون المعنى: الأقلون حسنات، لأنه وإن كثرت حسناتهم هنا فتكثر المطالب هناك، فتقل الحسنات، لأن المخالطة والأخذ والعطاء يدخل بينها من الكلام الممنوع والأشياء المحذورة كثير، وهو لا يشعر.

ويحتمل أن يكون المعنى: الأقلون توفيقاً، لأن الأموال لبعض الناس تشغلهم عن التبعيدات وسلوك طريق النجاة.

وقد يكون المجموع. ومن أجل هذا أعقبه بقوله عليه السلام (إلا من قال بالمال هكذا وهكذا - وأشار أبو شهاب بين يديه عن يمينه وعن شماله) احتملت إشارة أبي شهاب هنا أن تكون مرتين، كما هو لفظ النبي ﷺ قبله. ويكون معنى قوله (بين يديه) حكاية حال.

واحتمل أن تكون إشارة أبي شهاب هذه ثلاثة وتكون (عن) بدلاً من حرف العطف، أو عن جملة مضمرة. وكذلك كان فعله، عليه السلام، قبل، بالقول مرتين وبالفعل ثلاثة. وأراد أبو

(١) يعني: شيئاً.

(٢) رواه البيهقي في الشعب بلفظ (أقلّ من الدنيا تعيش حرّاً).

(٣) جزء من كلمة طويلة لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه في وصف الدنيا (إحياء علوم الدين ٣/ ٢٢٣).

شهاب أن يفعل مثل الذي سمع منه، عليه السلام، وأبصر<sup>(١)</sup> - وهو الأظهر - لأنه قد جاءت رواية (وعن يمينه) بإثبات الواو في إشارته نحو اليمين، بهذا الإنفاق الذي هو على هذا الوجه، وما أفله إلا على من وفقه الله تعالى، وقليل ما هم من تلك القلة المشار إليها. ويدخل في قوله عليه السلام (لا حسد إلا في اثنتين) وقال في أحدهما (رجل أعطاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق)<sup>(٢)</sup>.

وبقي البحث هنا على كونه، عليه السلام، أشار ثلاثة، لتلك الجهات. احتملت وجوهاً. منها: أن تكون نفقته في الواجب والمندوب وزيادة على ذلك، وتكون الزيادة إشارة إلى التأكيد.

واحتمل أن تكون كلها تأكيداً في النفقة، لأنه، عليه السلام، إذا كان الأمر عنده له بال يكرره ثلاثاً.

واحتمل أن يريد بالثلاث: الثلاثة الأقسام الشرعية. والأقسام الشرعية هي: الواجب وضده، والمندوب وضده، والمباح. فأشار إلى الواجب والمندوب والمباح، وترك الحرام والمكروه، لأن المباح يعود بالنية مندوباً، وأقل مراتبه هو خير من الادخار.

ويترتب عليه من الفقه أن الأحكام لا تُقَعَّد على محتمل، ويجوز زوال المحتمل بأي نوع أمكن، بإشارة أو عادة. ومما يزيد ذلك إيضاحاً: لَمَّا كان آخرُ الحديث عند قوله (وإن فعل كذا وكذا) لا إلباس فيه ولا احتمال، وإنما هي نوعان كما أبديناه، لم يشر بيده ﷺ. ولما كانت هنا الإشارة إلى الإنفاق الذي يُخرج صاحبه من تلك العلة المشار إليها لو كانت واحدة لوقع الاحتمال هل أراد الفرض ليس إلا، أو أراد وجوه الإنفاق كلها؟ وكان يحتمل للمتعسف أن يدخل فيها المكروه، وكذلك لو أشار رابعة إلى خلفه لدخل فيها من الاحتمال إنفاق المكروه، لمن كان يتعسف، فأزال<sup>(٣)</sup> عليه السلام الإشكال، وبَيَّن بالإشارة أتم بيان.

وفيه دليل على أن من أدب الصحبة ألا يخلو صاحب عن صاحبه، ولا ينفرد عنه إلا بإذنه. يؤخذ ذلك من كون سيدنا ﷺ لم ينفرد عن أبي ذر إلا بعدما قال له (مكانك حتى آتيك).

- 
- (١) كأن المؤلف - رحمه الله - يشير إلى أن هذه الإشارة باليد التي أشار بها أبو شهاب دليل على زيادة الضبط، وهذا اللون من الأحاديث دعاه علماء الحديث بـ (المسلسل) (انظر تدريب الراوي ١٨٧/٢).
- (٢) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ولفظه (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها، ورجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته بالحق).
- (٣) هنا جواب «لَمَّا».

وفيه دليل على أن (المحب بسوء الظن مولع)<sup>(١)</sup>. يؤخذ ذلك من قوله لما تقدم سيدنا رسول الله ﷺ غير بعيد، وسمع الصوت، جاءه الخوف على النبي، عليه السلام، فهم بأن يأتيه، فتذكر الأمر، فالتزمه. ويؤخذ منه أن امثال الأوامر هي أعلى القربات، لأنه لما رأى أبو ذر أن امثال أمره، عليه السلام، هو أعلى وَقَفَ عنده، وآثره على ما وجد من الشفقة عليه. وهذه درجة العارفين وهي: أن تكون طاعتهم امثالاً لا شهوة، والجاهل بضد ذلك، كما بيناه قبل.

وفيه دليل على فضيلته، رضي الله عنه، وكذلك كان. وقوله (فلما جاء قلت: يا رسول الله! الذي سمعت - أو قال الصوت الذي سمعت -) الشك هو من الراوي من أجل التحري الذي فيهم، كما قدمنا في غير ما موضع. ويؤخذ من قوله (الصوت الذي سمعت) أن من أدب الصحبة البحث عن زوال ما يقع في القلب، لأنه لما سمع ما لم يفهم بقيت النفس متشوفة، والقلب بذلك مشغولاً، فسأل عنه ليزيل ما هناك من شغل القلب، لكونه طلب أن يتعلم حكماً من الأحكام، أو أدباً من آداب الشريعة.

وفيه دليل على أن الأحكام لا تذكر إلا بعد التثبت فيما يحتاج إليه، وإن كان معلوماً. يؤخذ من قول سيدنا ﷺ بعد ما أخبره أنه سمع (وهل سمعت؟ قلت: نعم) وحينئذ أخبر بأنه كان جبريل عليه السلام، وأنه أخبره بما ذكرناه أولاً، لأن ما ذكر له هو حُكْمٌ من أحكام الله عز وجل. فإعادة السؤال ثانية بعدما علم بالسمع إرشاد إلى الاهتمام بأمر الأحكام والتثبت عند إلقائها، وإن كان لها بساط ظاهر.

وفيه دليل على عظيم قدرة القادر، يُسمع من شاء كيف شاء، ويمنع من شاء كيف شاء. يؤخذ ذلك مما روي مراراً أنه ﷺ كان ينزل عليه الوحي وهو، عليه السلام، بين أصحابه، وينفصل عنه، وما منهم من سمع شيئاً. وهذا بالبعد منه وأسمع الكلام ذلك ليعلم أن الله على كل شيء قدير. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

الكتاب النادرة التي تفتح لقلوبكم

## حديث النهي عن الجلوس على الطريق

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: إِبَانُكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ. فَقَالُوا: مَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْهَا. إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا. قَالَ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا. قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ.

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على المنع من الجلوس على الطرقات لغير ضرورة، وإن كان لضرورة فليُعطَ الطريقُ حَقُّه. والكلام عليه من وجوه:

(منها): هل النهي نهى تحريم أو نهى كراهية؟ (ومنها): هل ذلك في كل الطرق عامرة أو غير عامرة؟

فأما الجواب على قولنا: هل هو على الوجوب أو الندب<sup>(١)</sup>؟ فلو كان النهي من شأن الطريق لا غير حيثنذ كنا ننظر فيها، وإنما النهي عن الجلوس فيها من أجل ما يتوقع فيها من مدِّ البصر إلى ما لا يجوز، أو السمع إلى ما لا يجوز أيضاً، أو لما يتعين من المفاسد. فإذا رأينا أن سبب النهي هو هذا - وهو الذي يدل الحديث عليه - فيكون تحريماً، ويكون فيه دليل على الحكم بسد الذريعة. وإن قلنا: إنما كان النهي من أجل ما يحصل للناس من الضيق في الطريق عند تصرفهم من شأن الجلوس بها فيكون بحسب الضرر، فإن كان كثيراً كان محرماً، وإن كان يسيراً من حيث لا يكون ضرراً له بال فيكون مكروهاً. والأظهر: المنع، من أجل أن تلك الشروط التي ذكرت أنها من حق الطريق قلما تخلو الطرق منها، وقد قال تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾<sup>(٢)</sup>.

وهنا بحث، وهو أن يقال: هل يتعدى ذلك إلى غير الطرق مما يقرب منها مثل الجلوس في

(١) يريد بالوجوب ما يقابل التحريم، وبالندب ما يقابل الكراهية.

(٢) سورة البقرة، من الآية ١٩٥.



الدكاكين لغير أهلها، والمساطب المجهولة في طرق المسلمين، أو عَتَب الأبواب، أو الطيقان<sup>(١)</sup> التي تكشف على الأزقة؟ فإن قلنا: إن العلة في ذلك ما ذكرناه من تصرف الجوارح فيما لا يجوز لها، فحيث وجدنا تلك العلة منعنا، لأنه أمر لا يحل شرعاً، حتى إن الماشي في الطرق من أجل الضرورة قد نص العلماء على أنه لا يجوز له النظر فيها إلا بقدر ضرورته، ينظر حيث يجعل قدمه، أو دفع ضرر يلحقه، ولا يبقى يتصفح في وجوه الناس وحُرْمهم يميناً وشمالاً، لأن هذا ممنوع. فإذا كان الماشي ممنوعاً فمن باب أخرى وأولى القاعد الذي يُشرف على الطرق، لأنه أمكن من سوء النظر، ومن أجل ذلك قال: (النظرة الأولى لك والثانية عليك)<sup>(٢)</sup>، وهذا إذا كانت بغير تعمد، وأما إذا كانت بتعمد فالكل عليك.

وفيه دليل على أنه من كثر منه أو فيه شيء نسب إليه وجعل منه. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام: (أعطوا الطريق حقها). وتلك الأربعة التي هي: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، الكل واجبة، فلو أنها أكثر ما يقع في الطرق ما جعلها من حق الطريق.

وهنا بحث، وهو أن يقال: هل المقصود من الجوارح ما ذكر ليس إلا، أو هو من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى؟ ليس الأمر مقصوراً على ما ذكر ليس إلا، وإنما هو من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى. والدليل على ذلك قوله، عليه السلام (وأمر بمعروف ونهي عن منكر) فتأمر غيرك بالمعروف ولا تأمر نفسك، وتنهي غيرك عن المنكر ولا تنتهي أنت عنه. وهذا لا يعقل، ولا يكون إذ ذاك أمراً حقاً، وما وفيت حق الطريق.

ويترتب عليه من الفقه أن من لم تكن له ضرورة للجلوس أو لا يقدر مع تلك الضرورة على الشروط لا يجلس.

وأما هل تكون الطرق عامرة أو غير عامرة؟ فاللفظ يعطي العموم. وإن نظرنا إلى العلة فنقول: لا يخلو أن تكون الطرق في العمارة أو في البرية. فإن كانت في العمارة فحكمها كانت عامرة أو غير عامرة واحد، فإنه لا بد فيها من تلك المتوقعات. وإن كانت في فياف وقفر فما هي التي قُصِدَتْ هنا، لعدم العلة فيها، ولأن بساط الكلام لا يعطي ذلك.

(١) الطيقان: ج طاق، وهو ما عطف وجعل كالقوس في الأبنية.

(٢) أخرج الترمذي في الأدب - باب ما يؤمر من غض البصر، وأبو داود في النكاح باب ما يؤمر من غض البصر، والإمام أحمد في المسند ٣٥٣/٥ و٣٥٧ والحاكم في المستدرک ١٢٣/٣ عن بريدة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليست لك الثانية.

وفيه دليل على جواز مراجعة المأمور للأمر عند أمره لتبيين حاله. يؤخذ من قولهم عند النهي: (ما لنا بدّ) ويبتنوا العذر المذكور بعد، وهو أنّ مساكنهم كانت في غاية الضيق، ولم تكن تتحمل جلوسهم لأن يتحدثوا في ضروراتهم، فكانوا يجلسون لذلك في الطرق.

وفيه دليل على أنه إذا كان العذر يبتأ لا يطالب صاحبه بإثباته. يؤخذ ذلك من أنه لما أبدوا العذر له، ﷺ، جعل لهم المخرج، لعلمه بما قالوا.

وفيه دليل على أن أصحاب الأعدار لهم حكم خاص بحسب أعدارهم. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السلام، أولاً أطلق الحكم، فلما رأى العذر الذي أبدوه حقاً أعطاهم حكماً بحسب عذرهم.

وفيه دليل على تفقد الراعي أمر رعيته بنفسه. يؤخذ ذلك من متضمن الحديث. فلو لا أنه، عليه السلام، كان يتفقد ذلك من أصحابه ما كان يأمرهم بذلك من غير أن يذكروا له ذلك.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

الكاتب النادر الذي وضع القول

## حديث في بيان ما يحل به الذبح وما يحرم

عَنْ عَبَايَةَ<sup>(١)</sup> بْنِ رِفَاعَةَ<sup>(٢)</sup> بْنِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ<sup>(٣)</sup> عَنْ جَدِّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، بِذِي الْحُلَيْفَةِ<sup>(٤)</sup>، فَأَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ، فَأَصَابُوا إِبِلًا وَغَنَمًا، فَتَدَّ مِنْهَا بَعِيرٌ، فَطَلَبُوهُ فَأَعْيَاهُمْ. وَكَانَ فِي الْقَوْمِ خَيْلٌ يَسِيرَةٌ، فَأَهْوَى رَجُلٌ مِنْهُمْ بِسَهْمٍ، فَحَبَسَهُ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ لِهَذِهِ الْبَهَائِمِ أَوَابِدَ<sup>(٥)</sup> كَأَوَابِدِ الْوَحْشِ، فَمَا غَلَبَكُمْ مِنْهَا فَاصْنَعُوا بِهِ هَكَذَا. فَقَالَ جَدِّي<sup>(٦)</sup>: إِنَّا نَرْجُو - أَوْ نَخَافُ - الْعَدُوَّ غَدًا، وَلَيْسَتْ مَعَنَا مُدَى، أَفَنَذِيحُ بِالْقَصَبِ؟ قَالَ: مَا أَنَهَرَ<sup>(٧)</sup> الدَّمَ، وَذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَكَلَوْهُ، لَيْسَ السِّنُّ وَالظُّفْرُ. وَسَأَحَدُّكُمْ عَنْ ذَلِكَ: أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ، وَأَمَّا الظُّفْرُ فَمُدَى<sup>(٨)</sup> الْحَبْشَةِ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن كل ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فهو حلال. والكلام عليه من وجوه:

(منها): هل نجتزئ في الذكاة بنص هذا الحديث أو لا؟ لأنه معنى حديث ثان، وهو قوله

- (١) عباية بن رفاعه: ترجمه الحافظ ابن حجر في (تقريب التهذيب) رقم ١٦٨ فقال: ثقة من الثالثة، ورمز فيه لرواية الجماعة (ع).
- (٢) رفاعه بن رافع بن خديج الأنصاري الزُّرَقِيُّ بن رفاعه المدني: ترجمه الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب رقم ٩٥ وقال: ثقة من السادسة.
- (٣) رافع بن خديج: انظر ترجمته في مطلع شرح الحديث (٩٢) من هذا الكتاب.
- (٤) ذو الحليفة: ميقات أهل المدينة المثورة، وتبعد عنها حوالي عشرة كيلومترات.
- (٥) أوابد: جمع أبدة، وهو الحيوان الذي توحش ونفر من الإنس.
- (٦) جدي: هو رافع بن خديج.
- (٧) أنهر الدم: أسال الدم وأجراه.
- (٨) المدى: جمع مدية وهي السكين.

عليه السلام: (كل ما أفرى الأوداج<sup>(١)</sup>) وذكر اسمُ الله عليه فكلوه) وعادة الأئمة في الحديث - ولا سيما مالك الذي هو أمير المؤمنين في الحديث - إذا كان حديث عام وآخر مقيد حملُ العام على المقيد. فالذي عليه الجمهور أن الزكاة مع القدرة لا تجزىء إلا بقطع الأوداج وإنهار الدم. وبقي الخلاف فيما زاد عليهما، وهو: الحلقوم والمريء، فاختلف العلماء في قطعهما. فمن قائل يقول: بقطعهما، ومن قائل يقول: بقطع أحدهما دون تعيين أيهما قطع أجزاء. ومن قائل يقول: إن المريء عنده لا يعتبر في القطع، وإنما المعتبر الحلقوم، ولا بد منه مع الودجين - وهو مذهب مالك - من أجل جمع الحديثين، لأنه بالضرورة إذا كان المقصود قطع الودجين - والحلقوم بينهما - فهو مقطوع. ومن أجل أنه أيضاً كذا نقلت صفة ذكاته، ﷺ في قرباته، والخلفاء بعده إلى هلم جزءاً، والعمل لم يزل على ذلك.

وأما عند عدم القدرة فقد يجري الخلاف بين الأئمة من أجل الحديثين. واختلف في ذلك على ثلاثة أقوال كما هو عند عدم تآتي الزكاة في الحلقوم من أجل الضرورة، مثل التردّي في البئر ورأسه إلى أسفل، هل ينتقل الحكم أو لا؟ على قولين وبالكراهة.

ومن أجل هذين الحديثين وقع الخلاف في الزكاة إذا كانت الغلصمة<sup>(٢)</sup> في الرأس أو لم يكن منها في الرأس شيء، هل تؤكل الذبيحة أو لا؟ فمن وقف مع نص الحديثين فإنه لم يأت في الزكاة غير هذين الحديثين لا غير. فمن وقف معهما أجاز ذلك، ومن راعى العمل منع، ومن نظر إلى الطريقتين كره مع الجواز، وبيان ذلك مستوفى في كتب الفروع. وفي مذهب مالك فيه قولان. وأما بيان كيفية الزكاة فمذكورة في كتب الفروع.

وقوله: (كنا مع النبي، ﷺ بذي الحليفة) وذو الحليفة، موضع خارج المدينة، وهو ميقات أهلها في الحج. وفائدة قوله (كنا) ليخبر أنه هو الذي أبصر ما روى وليس بمنقول.

وفيه دليل مما قدمناه على صدقهم وتحريمهم في النقل حتى يكون بلا احتمال. و(أصاب)<sup>(٣)</sup> هنا بمعنى: غنموا، فإما بحرب وإما بغير حرب. وقد يكون: خرجوا للغزو فصادفوا من مواشي العدو شيئاً - وهو الأظهر - لأنه لو كان في ذلك حرب لذكره لكونه تحرّياً فيما هو أقل من ذلك. و(الناس) هنا الألف واللام للعهد لا يمكن غيره. فيكون (المسلمون) الذين خرجوا معه ﷺ أو بعضهم هم الذين أصابوا تلك المواشي.

(١) الأوداج: جمع وُدَج، وهو عرق في العنق، وهو الذي يقطعه الذابح فلا تبقى معه حياة. وهما ودجان.

والحديث: كل ما أفرى الأوداج إلى آخره رواه الطبراني في الكبير كما في الفتح الكبير ٣٢٠/٢.

(٢) الغلصمة: هي الحلق. وطبياً: هي الصفيحة الغضروفية عند أصل اللسان، سرجية الشكل، مغطاة بغشاء مخاطي، وتنحدر إلى الخلف لتغطية فتحة الحنجرة لإبقائها في أثناء البلع.

(٣) يريد: فأصابوا إبلاً.

وقوله (إِبْلًا وَغَنَمًا) فيه دليل على وجهين: الوجه الواحد أنهم لم يصيبوا غير ما ذكر، والآخر كثرة تحريرهم في الأخبار.

وفيه دليل على الحث على الِإِضَاعِ المال: يؤخذ ذلك من كثرة طلبهم الكُلَّ البعير الواحد الذي ندّ، مع كونهم قد أصابوا الغنم والإبل. ومعنى (ندّ): هرب. و(أعياهم): أتعبهم.

وفيه دليل على قوة دينهم، رضي الله عنهم، لأنهم لم تكن كثرة طلبهم للبعير إلا من أجل الأمر، لأنه قال ﷺ: (إن الله ينهاكم عن إضاعة المال)<sup>(١)</sup>. ومما يقوي هذا: أن بعض الناس أتى النبي ﷺ، يشكو له الفقر. فقال له: اذهب لفلان وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: ادفع لي مائة دينار أُزِيلُ بها فقري. فذهب إلى منزله، فقليل له: هو في السوق فأتى السوق، فوجده يُماكِسُ بياعاً على دائق، فتعجب في نفسه. فبينما هو واقف ينتظر فراغه، وإذا<sup>(٢)</sup> بوكيله قد أتاه فأخبره أنه أنفق له خمسة دراهم في بناء مسكنه، فانتهره على ذلك. فتعجب الرجل أيضاً<sup>(٣)</sup>.

فلما ذكر له عن المائة دينار أمر وكيله في الحين أن يدفعها له. فقال: أنشدك الله ما شأنك؟ رأيتك تماكس البياع، وانتهرت وكيلك على خمسة دراهم؟ ثم لما ذكرت المائة بادرت بالأمر بإعطائها؟ فجأبه على ذلك بأن قال: أما البياع فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ماكسوا الباعة فإن فيهم الأردلين)<sup>(٤)</sup>. وأما البناء فسمعت رسول الله ﷺ يقول: (يُؤَجَّرُ المرءُ في نفقته كلُّها إلا شيئاً جعله في التراب والبناء)<sup>(٥)</sup>. ففعلتُ ما فعلتُ لأجل امتثال الأمر، وبادرتُ أيضاً إلى إعطاء المائة من أجل امتثال الأمر. فانظر حالهم كيف كانت الدنيا عندهم ما تساوي شيئاً، فلم يكن عنده فرق بين الدائق وبين المائة الدينار، إنما كان وقوفه مع الامتثال لا غير.

وقوله: (فأهوى رجل منهم بسهم فحبسه الله) فيه من الفقه: أن الإنسيَّ عند الضرورة يُفعل به ما يُفعل بالصيد من أنه يُرمى بالنبل وغيره، غير أن الفرق بينه وبين الصيد أن الصيد يُؤكل إذا رُمي، أنفذت مقاتله أم لا، والإنسي لا يؤكل إن أنفذت مقاتله، أو بلغ به حداً لا يعيش معه. يؤخذ ذلك من قوله: (حبسه الله) لأنه لو كان أنفذ مقاتله لقال: قتله الله، لأن المَنفُودَ المقاتِلَ مقتول بإجماع.

(١) هو معنى لأحاديث وردت بهذا المعنى منها ما رواه الشيخان عن المغيرة بن شعبة (إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووآد البنات ومنعاً وهات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال) وما رواه مسلم في الأقضية باب كثرة المسائل من غير حاجة، وما رواه البخاري في كتاب الزكاة باب رقم ١٨.

(٢) كذا. والصواب: إذ.

(٣) لم نقف على مصدره.

(٤) قال السيوطي في الدرر المنتثرة ١٨٩: لا أصل له. لكن في «المقاصد الحسنة» ٣٧٩ «وكشف الخفاء» ١٠٩٣ و«الغماز على اللماز» ٨٥: قال ابن حجر: ورد بسند ضعيف.

(٥) رواه الترمذي عن خباب رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفيه دليل على تغليب أحد الضررين . يؤخذ ذلك من كونهم لم يرموه بالنبل إلا عند اليأس منه وقت أعيامهم ، فلما أيقنوا بذهابه رموه بالنبل ؛ لأن رميه بالنبل محتمل أن ينفذ مقاتله فلا يؤكل ، ومحتمل أن يحبس فلا ينفذ له مقتلاً فينتفع به . فلما كان ذهابه لا طمع فيه أنه يرجع ، ورميه احتمل أحد وجهين : أدناهما إنفاذ مقاتله الذي لا يؤكل معه ، لكن يتحصل فيه نكاية للعدو ، والجلد ينتفع به ، أو يكون أعلاهما وهو الذي حصل لهم ، نكاية للعدو مع أكل المسلمين له ، ففعلوا<sup>(١)</sup> الذي هو أقل ضرراً .

وفيه دليل على تقديم الأنفع في الدين ، وإن كان صيده أزوَح للبدن . يؤخذ ذلك من كونهم قدموا تعب أنفسهم على أن يأخذوه سالماً على رميه مع راحة أبدانهم بذلك .

وفيه دليل على أنه عند الضرورة التي يُخاف مع المشورة ذهابُ الفائدة يفعل المرء بحسب اجتهاده دون مشورة . يؤخذ ذلك من صاحب السهم لما رأى أنه يفوتهم إن هو اشتغل بالمشورة رماه دون مشورة . ولم يقع من سيدنا ، ﷺ ، على ذلك إنكار عليه ، بل صوب فعله بقوله بعد : ( فاصنعوا به هكذا ) فكان اجتهاد هذا سبباً لتقعيد قاعدة شرعية .

وفيه دليل على أن طريق الصحابة الجمع بين الحقيقة والشرعية . يؤخذ ذلك من قوله بعدما رماه بسهمه : ( حبسه الله ) فالشرعية هي ما كان من نسيبه في حبسه برمي السهم . وأقر بحقيقة الحبس لله تعالى وهي الحقيقة ، فجمع بين الطرفين ، وهو أعلى الطرق ، وهو المنقول عن سيدنا ، ﷺ ، حيث كان إذا خرج حرض المسلمين وأمر الأمراء وجهز الجند وقال : ( أنت الصاحب في السفر )<sup>(٢)</sup> ، وأخذ الأهبة على أكمل وجوه الحذر ، فإذا قفل قال : ( صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده )<sup>(٣)</sup> ، وهذه طريقة السادة : كثرة الاجتهاد وعدم الدعوى .

وفيه دليل على أن القدرة لا تنحصر بعادة ولا غيرها . يؤخذ ذلك من قوله ، عليه السلام ( إن لهذه البهائم أوابد كأوابد الوحش ) . فتراها قد توالدت في الإنسية ونسلها منها ، ثم منها ما يكون مثل الوحش لم ينفع فيه الأصل ، ولا أثر فيه ، وقد يرى من الوحش ما يرجع أكثر تأنيساً من الإنسي . حكمة بالغة .

قوله : ( فما غلبكم ) ليس على ظاهره لأنه إذا غلب حقيقة فقد راح وذهب ، وإنما يكون : غلب

(١) هذا جواب «لَمَّا» وفيه زيادة الفاء .

(٢) قطعة من حديث رواه مسلم في الحج - باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره .

(٣) قطعة من حديث ابن عمر رواه البخاري في الدعوات - باب الدعاء إذا أراد سفراً أو رجوع - وفي الجهاد - باب التكير إذا علا شرفاً - ورواه مسلم في الحج باب ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره .

على ظنكم بعد كثرة الاحتياال عليه ولا ينفع، ويغلب على الظن أنه ذاهب، حيثئذ يفعل به مثل هذا. فهذا دليل على ما قدمناه أولاً أنه لا يحل أن يفعل به شيئاً مما يفعل بالوحش عند القدرة عليه، ولأنه أيضاً تعذيب.

وفيه دليل على أن الأحكام في الأشياء مع الصفات لا الذوات بأعيانها. يؤخذ ذلك من أن الإنسي له حكم، والوحشي له حكم، فإذا اختلفت عادتهما رجع لذلك حكم آخر، مثل الخمر حرام. فإذا ذهب تلك الصفة وبقي عينها انتقل الحكم.

وفيه دليل لأهل التوفيق الذين يرفعون أحوالهم بالهمم وحسن الصفات. يقولون: قيمة المرء ما يحسنه. وقد ذكر عن بعض ذوي الهمم أنه كان عبداً، وما زال بحسن همته يترقى عند سيده حتى أعتقه. فلما أعتقه قال في نفسه: ما هذه الطريقة التي اشتغل بها حتى يرتفع قدري بين الأحرار؟ قال: فاشتغلت بالعلم والعمل، فلم تتم السنة إلا والخليفة يستأذن علي ولا آذن له.

وفيه دليل على جواز تقرير الأحكام بالإشارة إذا فهم منها الحكم.

وفيه دليل على جواز تقرير الحكم بالمثال. يؤخذ ذلك من قوله: (اصنعوا به هكذا).

وقوله: (فقال جدي إنا نرجو - أو نخاف - العدو غداً) فيه دليل على أن الراوي كان في تلك السفارة مسلماً. يؤخذ ذلك من قوله (قال جدي)، لأنه لا يكون فيه الجد من الجلد بحيث أن يخرج إلى الجهاد إلا والحفيد شاب. هذه العادة الغالبة، والنادر لا حكم له.

وفيه دليل لما ذكرناه من صدقهم وتحريمهم في النقل، لأنه لما أن قام الشك معه أخبر بما وقع له في قول جده من أحد الوجهين. وقوله: (غداً) دال على قرب العدو. ويتقوى به ما قلنا قبل، فإن هذه البهائم كانت مما لقوا بلا قتال لقربهم من العدو. وإذا قرب، ﷺ، كان الرعب أمامه كما أخبر (شهرأ)<sup>(١)</sup> فكيف بيوم؟ فقد يكون منهم ذهول وخوف فيتركون البهائم ويهربون بأنفسهم.

وفيه دليل على جواز العمل في الأمور على جري العادة ﴿وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾<sup>(٢)</sup>. يؤخذ ذلك من قوله (إنا نرجو - أو نخاف - العدو غداً) وليست معنا مدى، فعملوا على ما تقتضيه العادة عندهم، لأن في غد يكون لقاء العدو. وسلم ذلك النبي ﷺ، لأنه أجابهم بالحكم فيما سألوا عنه.

وهنا سؤال وهو: أن يقال: لم سألوا عما يذبحون به مع لقاء العدو؟ فقال بعض الناس: ما سألوا عن ذلك إلا لأنهم لم يكن لهم غير سكين واحدة، فخافوا إن هم ذبحوا بها خفيت، ولم يكن

(١) متفق عليه من حديث جابر رضي الله عنه بلفظ: ونصرت بالرعب مسيرة شهر.

(٢) سورة آل عمران، من الآية ٤٧.

لهم ما يقاتلون به العدو . وهذا من الضعف بحيث لا خفاء فيه من وجوه ، لأن هذه المرة كان المسلمون قد أخذوا قبل ذلك من عدد العدو مثل يوم بدر وغيره ما تقوّوا بها على الحرب ، وإنما كانت الغزوة التي لم يكن لهم فيها سوى رمح واحد وسيف واحد وسكين واحدة وفرس واحد في يوم بدر لا غير <sup>(١)</sup> . والوجه الثاني : ما يحتاج من السكين للعدو خلاف ما يحتاج منه للذبح ، فإن طرفه هو الذي يحتاج للعدو ، وحده للذبح .

والوجه الآخر وهو أنه إذا كانت بحيث تحفى من الذبح فلا فائدة فيها للعدو وإنما - والله أعلم - لما أخبرهم ﷺ ، أن من نذ من هذه البهائم يفعلون به ما فعلوا بهذا ، وكانت الآلة عندهم - مع كونهم مجتمعين - متمكنين منها ، وعند لقاء العدو في غد : كل واحد يكون في نفسه وما عنده من العدة لا يمكن أن يُغيرها ، ولا يزول عن الجهة التي يرتبه الأمير فيها ، ولا يحيد عن الأمر الذي يوكل إليه فخاف <sup>(٢)</sup> أن تنذ مما يغنم المسلمون أبعة من جهات مختلفة ، فما يكون منها نذ من جهة لم يكن للذي يطلبه ما يذبحه به من أجل ألا يقع منهم تفريط من قلة العلم بماذا يعملون ، أو يعملون على اجتهد منهم بعد أن حصل لهم موطن يمكن فيه التعلم والسؤال على ما يعملون .

فيؤخذ من هذا الموضع على هذا التوجيه - وهو الظاهر والله أعلم - وجوه من الفقه .  
منها : استنباط الأحكام قبل وقوع القضايا ، لأنهم سألوا عن شيء قد يقع أو لا يقع .  
ومنها : الاستعداد للممكنات قد تقع أو لا تقع ، لأن ذكرهم ما يفعلون مما هو ممكن وقوعه هو الاستعداد له .

وفيه العمل على الرجاء في فضل الله ، وليس هو من باب الطمع . يؤخذ ذلك من كونهم عملوا على إصابة الغنيمة عند اللقاء ، وهذا هو العمل على الفضل ، ولأنه محتمل للضد ، لكن العمل في هذه المواطن على فضل الله بقوة الإيمان ، وتكون النكاية للعدو بذلك أقوى ولا تكون النية في القتال من أجل الغنيمة فيخرج عن كونه ممدوحاً . ولكن هذه من باب المبالغة في النصر لأنه من لازمه .

وفيه دليل على تحصيل الأشياء الموجبة للامتثال ، والاحتياط فيما هو ممكن فيها ، لأن سؤالهم ذلك من أجل ألا يتعذر عليهم من توفية الأمر شيء .

وفيه دليل على أن ما يعم المسلمون الخاص والعام فيه سواء ، ويعمل به الشخص فيما يعم ، كما يعمل فيما يخص . يؤخذ ذلك من سؤال هذا ، وبالقطع أن فيهم من له العدة ، وقد يكون السؤال ممن له العدة فسأل عن حكم عام له ولغيره .

(١) المعروف في السيرة أنه كان في بدر مع المسلمين فرسان وثمانية سيوف .

(٢) هذا جواب «لما» وزاد فيه الفاء .



ويترتب عليه أن تارك السؤال عن الممكن إذا كان فيما يقدم عليه مع وجود المحل لذلك تفريط . يؤخذ ذلك من حال هذا السائل ، لكونه سأل عن شيء مما يمكن أن يلقوه في غد .

وفيه دليل على أن من النبل اغتنام سؤال العالم حين إمكان ذلك ، وإن كان الأمر الذي يسأل عنه لم يقع بعد . يؤخذ ذلك من كون هذا لما رأى موجباً للسؤال سأل ، وهذه الفوائد كلها سبب وجودها تسليماً سيّداً ، ﷺ ، في ذلك ، وجوابه لهم على ذلك .

وفيه دليل على أن يعمل على الأغلب في جري العادة . يؤخذ ذلك من أن الغنيمة عندهم كانت الأغلب في جهادهم ، فعملوا على غالب العادة .

وقوله : ( أفنديج بالقصب ) يعني بالقصب إذا كان محدداً ، فلولا كان الذبح عندهم قد تقرر وعلم ما قال : أفنديج بالقصب ؟

وهنا بحث وهو : أن السؤال إنما كان عن آلة الذبح ، لا عن الذبح ، فجواب ﷺ بجواب أتم من السؤال ، ويغني عن البحث الأول الذي أوردناه أول الحديث . وحجة من احتج إلى غير ذلك من التخصيص بوجه من الوجوه المتقدمة وغيرها ، فقال : ( كل ما أنهر الدم ) والذي ينهر الدم فيجعله يجري كجريان النهر في الذبح المعلوم لا يكون إلا بقطع الأوداج لا بغيرها ، فإنه إذا ذبح أحد بهيمة ولم يقطع في ذبحه إياها ودجأ لم يكن يجري من الدم إلا اليسير ، لأن الله ، عز وجل ، أجرى حكمته بأن أسكن الدم في العروق ، وفيها جريانه الأعظم ، وما في اللحم منه إلا اليسير ، فلا يكون في اللحم من الدم إذا قطع - وإن جرى منه دم - مُسْتَنْهَر إلا جرياً يسيراً . فانظر إلى هذا الإعجاز في الجواب وحسن الفصاحة فيه . فبهذا التوجيه في هذا الحديث يكون في الذكاة وأنه كاف لا يحتاج إلى غيره ، ويجتمع فيه الحكم كله .

وفيه من الفقه أن الأكثر في الفائدة في رد الجواب ، إذا سئل عن وجه خاص ، أن يرد بأمر عام ، يدخل المسؤول عنه وغيره فيه ، لأنه لما سأل السائل عن الذبح بالقصب عوضاً عن المديّة أجاب ﷺ بما هو أعم من ذلك بقوله ( كل ما أنهر الدم ) فقد دخل تحته القصب وغيره .

وفيه ما يدل على تحديد آلة الذبح لأنه لا ينهر الدم ، أي يجعله يجري كما يجري النهر ، إلا قطع الآلة ، وإلا كان جريه شيئاً فشيئاً .

وفيه دليل على سرعة الذكاة ، لأن تلك الصفة لا توجد إلا مع السرعة . هذا يؤخذ بالمباشرة لمن أراد اختباره ، لا ينظر ذلك من طريق عقله ونظره ، لأن حقيقة الصفات في الأشياء لا تؤخذ إلا بالمشاهدة . والذي يعدل عن هذا متعدي لا يعرف الأمور التي تؤخذ بالعقل ، ولا الفرق الذي بينها

وبين الذي يؤخذ بالمشاهدة والتجربة. ولذلك روي عن أهل العلم والفضل: أن علم التجربة قائم بذاته لا مجال للعقل بالحكم عليه في منع أو إجازة بتحقيق أو محتمل.

وفيه دليل على ما خص الله، عز وجل، به هذا السيد، ﷺ، من معرفة الأمور على اختلافها على حقيقة ما هي عليه. لكن هذا الذي أشار ﷺ ما يقدر الفقيه أن يعقله، ولا يصل إليه أبداً، ولو كان يحوي من العلوم ما حوى حتى ينضاف إليه مع ذلك تجربة في ذلك الأمر الخاص، ولا أهله الذين يعيشون معه لا يعرفون ذلك منه إلا حين يكون عندهم شيء من علم وورع.

وفيه دليل على وجوب التسمية في الذكاة. يؤخذ ذلك من قوله: (وذكر اسم الله عليه) والجمهور على وجوب ذلك فيها، وإن تركها عمداً لا تؤكل تلك الذبيحة إلا على خلاف يسير لبعضهم قالوا: بدينه ذبحها<sup>(١)</sup>، وتأولوا قوله عليه السلام (ذكر اسم الله عليه) أي أهل الذكر عليه وإن لم يذكره في الحال. وهذا تعسف ومصادمة للحديث، وكفى بها. وإن كان الترك بالنسيان لم يختلف في أكلها أيضاً إلا خلافاً يسيراً لقوله عليه السلام: (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان)<sup>(٢)</sup>. والذي منع الأكل مع النسيان وقف مع ظاهر الحديث. والجمهور على الجواز.

وقوله (ليس السن والظفر، وسأحدثكم عن ذلك). هل هذا من كلامه، ﷺ، أو من كلام الراوي؟ احتمال. والأظهر أنه من كلام الراوي.

وقوله: (أما السن فعظم) يعني كل عظم لا تحديد فيه، وإن كان مثل السن يثقب لا يُذَكَّى به لخروجه عن الصفة التي وصف صلى الله عليه وسلم.

وفيه دليل يقوي ما قلناه آنفاً أنه يؤخذ منه أن يكون حداً يفري، لأن السن قد يقطع به إلا أنه بعد رض، وما المقصود من الذكاة الشرعية إلا أن يكون قطعاً دون رض، لأن الرض فيه تعذيب للبهيمة. وقد نهى الشارع، عليه السلام، عن تعذيبها، وعن أن تُصَبَّرَ للقتل.

وأما قوله (وأما الظفر فمدى الحبشة) أي أن الحبشة يتخذونها مدى يذبحون بها، فهي عن ذلك مع أنها قد يذكى بها شيء صغير، وتفرى أوداجه، لكن هي ميتة، والانتفاع بالميتة ممنوع، لأنه يذكر أن الحبشة يربون الظفر حتى يذكوا به. فنبه عن هذا من أجل أنه ليس فيه تحديد، لكن من أجل علة أنه ميتة وجب الحذر. وفي هذا تنبيه أن يكون الشيء الذي يُذَكَّى به طاهراً حلالاً. فأزال كل محتمل احتمله العموم الذي أطلق، عليه السلام، بقوله (كل ما أنهر الدم) عن الضعيف الفهم كما

(١) المراد: أنه مسلم، ويفترض في دينه الذكر لاسم الله، ولو لم يجر على لسانه، وهذا عند الشافعي الذي يجيز الذبيحة من المسلم، ولو لم يسم عليها عمداً.

(٢) تقدم تخريجه في الحديث (٨١).

تقدم البحث في أن القويَّ يحصل له بمجرد اللفظ الحكم العام على ما أبديناه، ثم يبقى ضعيفُ الفهم، احتاط، عليه السلام، من أجله.

فإن قلنا: هذا من قول الشارع، ﷺ، فلا بحث، وإن كان من الراوي - وهو الأظهر - كما قلنا: فهو لما فهم من رسول الله ﷺ ما أبديناه قبل. والنهي قد ثبت في ترك الانتفاع بالميتة. نته على هذا من أجل تحقيق الحكم، ولئلا يكون ما روي هو من هذا الحكم في هذا الحديث سبباً لمن يكون ضعيفاً في فهمه يجاوز الحد بسببه، فيكون هو سبب المحذور، فأزال ذلك الاحتمال بهذا البيان.

وهذا دال على فضله ودينه أن يتحرى ممكناً يقع فيجيء آخر الحديث كأوله، لأنه أولاً سأل من أجل ممكن يكون كما بيناه، والآن زاد بياناً من أجل ممكن آخر يقع. وهذا تأكيد فيما بيناه، وزيادة فائدة أنه ينبغي لمن رزقه الله فهماً أن يعظ من ليس مثله ويزيد له في البيان بقدر فهمه، فيكون سبباً في الخير للضعيف. وهذه صفة العلماء، لأنهم لما فهموا عن الله ورسوله ﷺ، بذلك النور الذي من به عليهم بسطوا الأحكام وبيّنوها حتى فهمها من ليس في طبقتهم، وفهم الآخرون ما فهموا عن السادة إلى من هو دونهم حتى فهموا هكذا، حتى فهم الدين العالم بعلمه، والجاهلُ بجهله، وهذه صفتهم التي أخبر، عز وجل. بها في كتابه قال ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمُونَ﴾ (١).

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

الكتب النادرة التي توسّع لأهل المعرفة

(١) سورة آل عمران، من الآية ٧٩.

## حديث الاستقامة على حدود الله والنهي عن المنكر

عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا<sup>(٢)</sup> عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا. فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ. فَقَالُوا: لَوْ أَنَا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا ارَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن الذين يُظهرون المناكر إذا لم يغيّر عليهم هلكوا، وهلك مَنْ لم يغيّر عليهم، وإن غيّر عليهم نجا الجميع. والكلام عليه من وجوه:

(منها) أن يقال: ما معنى النجاة هنا؟ وما معنى الهلاك؟ (فالجواب) احتمال أن يكون حسياً، واحتمال أن يكون معنوياً.

فأما المعنوي فإن الواقع في الذنب قد أهلك نفسه لما يؤول إليه من العذاب بسبب ما فعل،

(١) الثعمان بن بشير الخزرجي الأنصاري، أمير وخطيب وشاعر. من أجلاء الصحابة من أهل المدينة. له ١٢٤ حديثاً. شهد حرب (صفين) مع معاوية، وولي قضاء دمشق، ثم ولي اليمن لمعاوية، ثم استعمله على الكوفة، ثم ولاء حمص، واستمر فيها إلى أن مات يزيد بن معاوية، فبايع الثعمان ابن الزبير، وتمرد أهل حمص، فخرج هارباً، فاتبه خالد بن خولي الكلاعي فقتله سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤ م. وإليه تنسب (معرة الثعمان) حيث مرّ بها فمات له ولد، فدفته فيها، فنسبت إليه.

(٢) استهَمُوا: اقترعوا، ضربوا القرعة بينهم. وأصل الكلمة مأخوذة من السهام، حيث كان الجاهليون يضربون بها في الميسر، وهي (الْقِدَاح) فمن خرج سهمه فهو الرابع. وظلت الكلمة (استهم، وساهم) تحمل معنى (ضرب القرعة) في الإسلام، إذ جاء قوله تعالى في قصة يوسف، عليه السلام، ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي: قارع أهل السفينة فقرع. ومنه قوله عليه السلام لرجلين احتكما إليه في موارث قد دُرست: (اذهبا فتوخيا، ثم استهما. ثم ليأخذ كل واحد منكما ماخرجه القسمة بالقرعة، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه فيما أخذ وهو لا يستيقن أنه حقه).

والذي لم يغيّر عليه مثله، لأنه أمر بالتغيير عليه، فلما لم يغير عليه وقع هو في ذنب آخر، وهو تركه التغيير المأمور به، فأهلك نفسه بما يؤول إليه من العذاب أيضاً. فإن أخذ عليه وأقام عليه حدّ الله تعالى فقد نجا الفاعل للذنب بالحدّ الذي أقيم عليه، لقوله، ﷺ (الحدود تُكفّر عن صاحبها، ومن عوقب في الدنيا فهو كفارة له)<sup>(١)</sup>، وقد تقدم الكلام عليه في موضعه من أول الكتاب، ونجا أيضاً الذي غيّر بإنكاره عليه، وأقام حكم الله تعالى كما أمر، وترتب له على ذلك الثواب الجزيل، وقد أثنى الله، عزّ وجلّ، عليهم بقوله ﴿وَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوُوا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾<sup>(٢)</sup>.

واحتمل أن يكون حسياً، لأن صاحب المعصية يُخاف عليه الهلاك في هذه الدار، وكذلك الذي لم يغيّر عليه بمقتضى الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقصة أهل السبت لمّا نهوا عن الاصطياد فيه، وكانت الحيتان تأتيمهم يوم سبتهم شُرْعاً، كما أخبر، عزّ وجلّ، في كتابه، فاحتالوا على ذلك، وأخذوا الشباك ونصبوها ليلة السبت، ثم أخذوها يوم الأحد، وقالوا: لم نصّد يوم السبت، فنهت طائفة عن ذلك، وسكتت طائفة، وفعلت طائفة. فاما الفاعلة فأهلكها الله، واما المغيرة فنجّاهها الله، واما الساكتة فمختلف فيها. فقيل: إنها نجت. وقيل: هلكت. والجمهور على هلاكها.

وأما السنة فقوله ﷺ: (إذا رأيتم الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعصم الله الكلّ بعذاب)<sup>(٣)</sup>، وكان هذا جواباً حين سئل عن قوله تعالى ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾<sup>(٤)</sup> وقد نبه أبو بكر، رضي الله عنه، عن هذه الآية بمثل هذا فقال: لا يضرّكم القوم بهذه الآية، فإني سألت رسول الله، ﷺ، عنها. فأخبر بمثل ما تقدم ذكره.

قال العلماء: معناه: لا يضرّكم كفر الكافر إذا ضربتم عليه الجزية، ولا يضرّكم معصية العاصي إذا أقيم عليه الحدّ. وهو وجه حسن يجتمع به معنى الآي والحديث. وقد جاء (لأن يقام حدّ من حدود الله ببقعة خير من أن تمطر السماء عليهم ثلاثين يوماً)<sup>(٥)</sup> وقيل: (أربعين يوماً) لما يعود

(١) هو معنى لحديث رواه الإمام أحمد في المسند عن خزيمة بن ثابت. والشيخان عن عبادة بن الصامت. ونص رواية الإمام أحمد (من أصاب ذنباً فأقيم عليه حدّ ذلك الذنب فهو كفارة له).

(٢) سورة الحج، من الآية ٤١.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه والنسائي وابن حبان من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه،

ومطلعه: يا أيها الناس، إنكم تقرّون هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾. إلخ.

(٤) سورة المائدة، من الآية ١٠٥.

(٥) رواه النسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: حدّ يُعمل في الأرض خير لأهل الأرض من أن يُمطّروا أربعين صباحاً.

عليهم من البركة والرزق . وقد يُراد المجموع ، وهو الظاهر من الحديث ، لأنهم إذا تركوهم يفتحون في نصيبهم ، فدخل الماء فهلكوا ، فهم تسبوا في هلاك أنفسهم ، ومن تسبب في قتل نفسه فهو هالك في الآخرة وهالك في الدنيا . فهلاكه في الدنيا ذهاب نفسه ، وفي الآخرة دخول النار ، وهو أعظمها . وفيه دليل على أن الأولى في تقرير الحكم بضرب المثال . يؤخذ ذلك من كونه ، عليه السلام ، شبههم بأصحاب السفينة .

وفيه دليل على جواز الاستهام . يؤخذ ذلك من قوله ، عليه السلام (استهّموا على سفينة) . وفيه دليل لمن يقول بجواز قسمة ما لا ينقسم . فإن السفينة لا تنقسم ، ولو كانت قسمة منافع لا حقيقة لما قالوا : لو أنا خرقتنا في نصيبنا خرقتاً ، لأنهم قد جعلوه نصيباً لأنفسهم . وفيه دليل للقوم الذين يَرَوْنَ ترك حظّ الأنفس ، ويقولون : إن فيه الخلاصَ وبه السعادة . وهؤلاء ما جعلهم يفتحون الخرق في نصيبهم إلا حظ النفوس كيلا يحتاجوا إلى غيرهم .

وفيه دليل على أنه من عانَدَ القدرةَ بخلاف ما أجرته الحكمة فإنه يهلك . يؤخذ ذلك من كون هؤلاء أرادوا أن يفتحوا الخرق إلى البحر في قعر السفينة الذي هو أسفلها ، وأرادوا أن يعاندوا البحر حتى يكون بحكمهم ، لأن البحر هو من أدل دليل على عظم قدرة الله . ولذلك قال عمر ، رضي الله عنه : (خَلَقَ عَظِيمٌ يَرْكَبُهُ خَلْقٌ ضَعِيفٌ ، وَلَوْلَا آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَصَرَبْتُ مِنْ يَرْكَبِهِ بِالذَّرَّةِ) ، ثم إجراؤه ، عز وجلّ ، السفن فيه من عظيم الحكمة . فلما أراد هؤلاء أن يعاندوا ما هو صادر عن القدرة العظمى بخلاف ما أجرته الحكمة العليا هلكوا . وكذلك في جميع الأشياء الصادرة عن القدرة من صادمها بخلاف ما جرت به الحكمة .

ثم انظر إلى قوله ، عليه السلام (إِنَّ النَّذْرَ لَا يَرْدُ شَيْئاً وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مَالُ الْبَخِيلِ)<sup>(١)</sup> ، وقال عليه السلام (ادفعوا البلاء بالصدقة واستعينوا على حوائجكم بالصدقة)<sup>(٢)</sup> لأن الصدقة شاءت الحكمة الربانية أن تكون سبباً لرد البلاء ، فجاء صاحب النذر فأراد أن يمشي له غرضه من المقدور بخلاف ما أحكمته الحكمة من الصدقة ، فلم ينجح له عمل ، وربما اتكل على نذره فيهلك . والأشياء كثيرة من هذا النوع إذا تتبعتها تجدها كثيرة ، والعلة في ذلك واحدة .

وفيه دليل على أن المالك وإن ملك ماله فليس له فيه التصرف التام ، لأن هؤلاء وإن ملكوا فقد أمر الشارع ، عليه السلام ، عند تصرفهم الفاسد أن يُحَجَّرَ عليهم تصرفهم . ومن هذا الباب :

(١) رواه الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ورواه البخاري في القدر وفي الإيمان ومسلم في النذر ، وفي الروايات اختلاف يسير في اللفظ .

(٢) تقدم تخريجه في الحديث (٨٧) .

التحجير على السَّفِيهِ وعلى أصحاب الجنایات، لأن لهم التصرف بحواسهم، فإذا تصرفوا على غير ما أمروا حُجِرَ عليهم تصرفهم. وربما قد تعدم لهم الجوارح من أجل سوء تصرفهم مثل قطع يد السارق وكما أشبهه. وفي هذا إشارة إلى قول مالك في مال العبد (إنه مالكَ غيرُ مالِكَ). وها نحن الكل عبيد، وحالنا في أموالنا وحواسنا على هذه الطريقة، يطلق علينا أنا نملك الملك التام ثم يحجر علينا الحجر التام ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾<sup>(١)</sup> وبهذا النظر خرج أهل التوفيق من الدعوى مرة واحدة، وحرار الجهاد المساكين بدعواهم.

وفيه دليل لأهل الصفاء والمشاهدة الذين يقولون (ما أوقع من وقع فيما وقع إلا الحجاب). يؤخذ ذلك من أن أهل الأسفل يعلمون من فساد ما أرادوا أن يفعلوه ما يعلم أهل الأعلى، لكن بغية أعينهم من مشاهدة عين البحر، وما هو عليه، ومعاينتهم حسن سفينتهم وجودة عدتها، سهواً عن عظم البحر، وما هو عادته أن يفعل، وركنوا إلى جودة السفينة، وظنوا أنها ترد عنهم شيئاً، فوقعوا فيما وقعوا فيه. وأهل الأعلى الذين يعاينون البحر وما هو عليه من الخلق العظيم، لم تساو عندهم سفينتهم وما هي عليه من الجودة شيئاً، ولم يجسروا أن يخالفوا أثر الحكمة، وهم مع ذلك خائفون ينظرون النَّوْءَ من أين يأتيهم. فكذلك أهل الشغل بالدنيا، وهم يعلمون الآخرة على ما هي عليه، يعملون الأشياء المهلكة لبعدهم عن المعاينة بعين البصيرة. وأهل اليقين والتوفيق الذين عاينوا الآخرة بعين اليقين عملوا على طريق الخلاص بمقتضى الحكمة، وهم مع ذلك خائفون. وذلك مثل أبي بكر، رضي الله عنه، الذي قال: (لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً) أتى بجميع ماله وقال مجاباً على: ما أبقيت لأهلك؟ قال: الله ورسوله. فعلى قدر الكثافة في الحجاب يكون البعد، وعلى قدر البعد تكون المخالفة.

فانظر إلى حسن هذا المثال، وما فيه من الدليل على فضل هذا السيّد ﷺ أن جعل في المثال مقابلة القدرة البحر الذي لا يقدر أحد أن يحيط به لا عمقاً ولا عرضاً ولا طولاً وما فيه من الأمور التي لا تكاد تنحصر. ولذلك قيل: (حَدَّثَ عن البحر ولا حَرَجَ) وجعل مقابلة الشريعة، التي هي أثر الحكمة: السفينة. وهي أيضاً محصورة - كما هي الشريعة محصورة بالأمر والنهي - وأن فيها مباحاً مثل استقاء الماء من فوقها، وتصرفهم فيما يحتاجون إليه منه، وأن ما عدا ذلك من داخلها ممنوع التصرف فيه، مما يشبه ما ذكر في فوقها ممنوع محرّم. فإن أحدث في الممنوع الذي هو المحرّم - ولو شيئاً واحداً - قيل: أهلكه قدرة القادر، ولم يقدر لنفسه بشيء. وجعل مقابلة القدر الجاري الاستهام، لأن الاستهام يخرج فيه للشخص ما يحب وما لا يحب، مثل القدر سواء. ومن أجل ذلك

(١) سورة القمر، الآية ٥.

قال، عليه السلام (اسْتَهْمُوا) ولم يقل: اقْتَسَمُوا. وجعل أهل الطاعة في أعلاها لأنهم روحانيون، وأهل المعاصي في أسفلها لأن أهل المخالفة أخلدوا إلى الأرض، وهو الأسفل كما ضرب الله، عز وجل، به المثل في كتابه بقوله تعالى ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾<sup>(١)</sup> فسبحان من آيده بالإعجاز والفصاحة.

وفيه دليل لأهل الطريق الذين يقولون: أنت سفينة الوجود، فإن خرقت فيك شيئاً مما أمرت بحفظه فقد أُعْطِيتَ السفينةَ نفسَها. وقال أهل التحقيق: إذا كانت همتك في العلى ومنزلتك عند نفسك في الثرى، وعوفيت من الدعوى، فقد قطعت المهالك كلها، وتحلّيت بحلية العقلاء.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الأعراف، من الآية ١٧٦.



## حديث نفقة الحيوان المرهون على من يركبه أو يشرب لبنه

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الظَّهْرُ يُرَكَبُ بِنَفَقَتِهِ إِذَا كَانَ مَرَهُونًا، وَلَبَنُ الدَّارِ يُشْرَبُ بِنَفَقَتِهِ إِذَا كَانَ مَرَهُونًا، وَعَلَى الَّذِي يَرَكَبُ وَيَشْرَبُ النَّفَقَةُ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن الذي يركب الظهر عليه نفقته . والكلام عليه من وجوه :

(منها) من الذي له ركوب الظهر، هل الراهن أو المرتهن؟

قد اختلف العلماء فيه، فمالك يقول: إن الذي له الأصل عليه النفقة وله المنفعة من ركوب أو شرب لبن إلى غير ذلك، لأن الحكم يعطي استصحاب الحال، وأن المرتهن ما له إلا الاستيثاق لماله برهنه . وهذا هو الذي قصد النبي ﷺ، بهذا الحديث .

والشافعي يقول: المرتهن هو الذي ينفق ويركب ويشرب، لأنه هو الذي له التصرف في الرهن .

والبحث على لفظ الحديث أن يقال: إنما علق ﷺ النفقة في الرهن على من ينتفع بمنافع الرهن، حتى يتبين أن نفس رهن الشيء لا يوجب للمرتهن الانتفاع به، ولا تجب أيضاً عليه نفقة، فأراد أن يبين انفصال حكم الذات من حكم المنفعة . فبهذا التوجيه يكون الحكم في المنفعة أيهما اشترطها، لزمته النفقة بنفس اشتراطها . فإن سكتا، فليس لنا في الحديث بما نحكم بينهما، فنأخذ الحكم من خارج، وإذا أخذناه من خارج فلنا وجهان:

(أحدهما) من طريق النظر بأصول الفقه، وهو أن من له الأصل له الفرع، فالمالك له الرقبة، فله أن ينتفع بمنافعها . وما ملك المرتهن رقبة ولا غيرها، بل حصل له بالشيء المرهون توثقة لماله لا غير . فإن حكمنا عليه بأن الغلة له، فقد تكون الغلة أكثر مما رهن الأصل فيه من أجل طول المدة، ويكون العلف قليلاً، فنكون قد أخذنا للمالك ما له بغير حق . وبالعكس قد تكون الغلة يسيرة، وثمر العلف أكثر منها، فبطول المدة يذهب مال المرتهن بغير عوض . وهذا يتبين بحسب

غلاء الأسعار ورخصها، فإذا كان الغلاء كان منفعة ركوب الدابة يسيراً وعلفها كثيراً، وقد لا يحتاج المرتهن إلى ركوبها، فيدخل عليه ما قلنا من الضرر. وقد يكون مع رخص الأسعار علف الدابة لا قيمة له في ذلك الوقت إلا قدر يسير، وثمن ركوبها كثير، فيلحق الضرر لصاحب الدابة كما ذكرنا. وقد قال عليه السلام (لا ضرر ولا ضرار)<sup>(١)</sup>.

و(أما من طريق النقل) فقد قال عليه السلام: (إن لصاحب الرهن غنمه وعليه غرمه)<sup>(٢)</sup>. فما زاد في الرهن فلصاحبه، وما نقص منه فعليه. وغلته من جملة زيادته، فيجب أن تكون له. وفيه دليل على جواز الرهن.

وهنا بحث في قوله، عليه السلام (ولبن الدر) ولم يقل مطلقاً. فإنما قال عليه السلام (الدر) تحرزاً من أن يرهن أحد اللبن في وعاء، فيتأول المرتهن أن له أن يشرب منه، فيكون يأخذ مال الغير بغير حق، لأن كل ما يجوز بيعه شرعاً يجوز رهنه، ولبن الدر هو الذي يُدر من الضرع. فإنه فتح من الغيب، والحلب يُدره ويزيد فيه، والذي لا يكون في الضرع: الأخذ ينقصه، وهو أيضاً لا يحتاج إلى نفقة. ويترتب على هذا: التحرز في اللفظ، وأن من يتكلم بكلام يبقى فيه احتمالاً ما يجب عليه أن يحرره حتى يذهب ذلك الاحتمال.

وقوله عليه السلام (وعلى الذي يركب ويشرب النفقة) بياناً<sup>(٣)</sup> لما قدمناه من البحث الذي ذكرناه أن الدليل يكون من خارج، لأن قوله عليه السلام أولاً (الظهر يُركب بنفقته إذا كان مرهوناً، ولبن الدر يُشرب بنفقته إذا كان مرهوناً) تَمَّت الفائدة<sup>(٤)</sup>. فعلى ماذا زاد بعد (وعلى الذي يركب ويشرب النفقة)؟

فإن قلنا: تأكيداً للحكم، فيكون معنى الحديث كله واحداً. ويؤخذ الحكم كما ذكرنا من خارج.

وإن قلنا، وهو الأظهر: إن هذه الزيادة تبين لحكم ثان - وهو أنه أولاً جعل النفقة على من

(١) رواه ابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، ورواه الدارقطني والحاكم والبيهقي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصححه الحاكم على شرط مسلم. (انظر حاشية جامع الأصول للأستاذ عبد القادر الأرناؤوط ٦/٦٤٤).

(٢) رواه ابن حبان والدارقطني والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (انظر تلخيص الحبير للحافظ ٣/٣٦ و٤٠).

(٣) يعني: كائن بياناً.

(٤) يريد: تَمَّت الفائدة به.

اشترط المنفعة، وأن الثانية إذا لم يكن شرط - فتكون النفقة على الذي له الركوب والحلاب، وهو صاحب الأصل. والله أعلم.

وحمل اللفظين، إذا كان كل واحد منهما مستقلاً بذاته على معنيين، خير من حملهما على معنى واحد. والأصول تشهد للمعنيين، فيكون ذلك الظاهر من أجل هاتين العلتين ومن أجل ما قدمنا ذكره من الضرر اللاحق لأحدهما، وعلى هذا الوجه ينتفي الضرر، ويستقيم الحكم على جري القواعد الشرعية. والله الموفق للصواب.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

## حديث الأمر بالعتق عند الكسوف

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَتْ: كُنَّا نُؤَمِّرُ عِنْدَ الْكُسُوفِ بِالْعَتَاقَةِ.

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على الأمر بالعتاقة عند الكسوف . والكلام عليه من وجوه:

(منها) أنه يعارضنا ما ثبت بسنته، عليه السلام، وبقوله، ﷺ: (إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَا يُخْسَفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ بَيْنَهُمَا فَاغْرَعُوا إِلَى الصَّلَاةِ)<sup>(٢)</sup>. وقد ثبتت كفيتهما، وأنها سنة مؤكدة. فالجواب أن الحديثين ليس بينهما تعارض. ويكون الجمع بينهما بأن نقول: إن الصلاة لها - على ذلك الوجه المشروع - هي السنة، لكونها يقدر عليها كل أحد، فقير وغني، وكبير وصغير، وإن العتاقة مندوب إليها لمن قدر عليها.

وهل يقتصر على العتاقة ليس إلا، أو هي من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى؟ فالظاهر أنها من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى، بدليل قوله، جل جلاله: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾<sup>(٣)</sup> فإذا كانت من التخويف فهي داعية إلى التوبة والمسارة إلى جميع أفعال البر، كل

(١) أسماء بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة عثمان بن عامر - رضي الله عنهم - ذات النطاقين. صحابية من الفضليات. آخر المهاجرين والمهاجرات وفاة. وهي أخت عائشة لأبيها، وأم عبد الله بن الزبير. تزوجها الزبير بن العوام فولدت له عدة أبناء بينهم عبد الله، ثم طلقها الزبير فعاشت بمكة مع ابنها عبد الله إلى أن قتل. فعميت بعد مقتله وتوفيت بمكة. وهي وابنها وأبوها وجدّها صحابيون. شهدت اليرموك مع ابنها عبد الله وزوجها. وكانت فصيحة حاضرة القلب واللب. تقول الشعر. وخبرها مع الحجاج بعد مقتل ابنها عبد الله مشهور. عاشت مائة سنة وهي محتفظة بعقلها. وسميت (ذات النطاقين) لأنها صنعت للنبي ﷺ طعاماً حين هاجر إلى المدينة، فلم تجد ما تشده به فشقت نطاقها وشدت به الطعام. لها ٥٦ حديثاً. وكانت وفاتها سنة ٧٣هـ/٦٩٢م.

(٢) متفق عليه من حديث السيدة عائشة وابن عمرو وابن مسعود والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهم أجمعين.

(٣) سورة الإسراء، من الآية ٥٩.

على قدر طاقته، ولذلك كان بعض الصحابة يقول: كنا نَعُدُّ أو نحسب الآيات رحمةً، وأنتم تحسبونها بلاءً. والحق معهم، لأنها إذا كانت تخويفاً فهي داعية إلى الخير، وما هو داع إلى الخير فهو خير، ولقلة فعل الخير اليوم نحسبه بلاء.

وقد حدثني بعض مشايخي، رحمهم الله، قال: كنا قعوداً بين يدي الشيخ إذ جاء سائل فحُرم<sup>(١)</sup>، فرأينا وجه الشيخ تغير، ثم خرج السائل ورأينا وجه الشيخ سُري عنه. فسألناه فقال: لما سأل وحُرم خفتُ أن يكون صادقاً فيعود علينا منه وبإل، فلما رأيت ثيابه رأيت في أكمامه فضلة تساوي نصف درهم، فأيقنت أنه غير صادق، فارتفع عني ما كنت خفت من وباله.

فانظر إلى صدقهم في دينهم وتصديقهم لما قيل لهم. فهؤلاء المتبعون للسلف، رضي الله عنهم أجمعين. فلما كان أشد ما يُتوقع من التخويف النار جاء النذب بأعلى شيء تتقى به النار، لأنه قد جاء (من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار)<sup>(٢)</sup>. فمن لم يقدر على ذلك فليعمل على الحديث العام، وهو قوله عليه السلام (اتَّقُوا النار ولو بشق تمره)<sup>(٣)</sup>. فمن لم يجد فليأخذ بالحديث الآخر العام، وهو قوله عليه السلام (مصانع المعروف تقي مصارع السوء)<sup>(٤)</sup>، فيأخذ من وجوه البر ما أمكنه. ولكن لا بد من الصلاة إذ ذاك على ما سُنّت، فإن السنة أرفع من المندوب.

وفيه دليل على رحمة الله سبحانه بهذه الأمة أن جعل الآيات مذكرة لهم ومخوفة حتى يتنبه الغافل، ويرجع الآبق، ويجتهد الحاضر، ويبادر الحازم، ويرتجع الظالم، وتعم النعمة العبيد بفضلها.

وفيه دليل على كثرة رحمة الله تعالى، إذ جعل هذا السيد، ﷺ سبباً للرحمة، لأنه هو الميّن لهذه وأمثالها، وقد نصّر، عز وجلّ، على ذلك في كتابه بقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٥)</sup>. لكن هنا إشارة وهو قوله تعالى ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾<sup>(٦)</sup> فهذه كلها ما ينتفع بها إلا من يُنِيب، فإن الله، عز وجلّ، قد جعل على السعادة علماً، وعلى الشقاوة علماً، فإذا

(١) حُرم: أي منع من الصدقة.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٤) رواه الحاكم عن أنس، والطبراني في الكبير عن أبي أمامة، وفي الأوسط عن أم سلمة، بلفظ (صنائع المعروف).

(٥) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

(٦) سورة غافر، من الآية ١٣.

أبصر المكلف عَلمَ الخير يُسرُّ لذلك ولا يَغْتَرُّ، وَيَشْكُرُ الله تعالى . وإذا رأى عَلمَ الشقاوة - أعاذنا الله منها بفضلِه - ضرع وخاف ولجأ ورغب وشكا، لعله يقال (فإن الخمر من ساعة يعود خلأً).  
ولذلك قيل : لنفسك فانتبه وراقبها وحاسِبِها، وبالْعذاب ذكِّرْها، فإن وَقتَ فخير ويا ليتها، وإن عَصَتْ فبالمجاهدة عاقِبْها، والجأ إلى الكريم لعله يُعينك عليها، وغوائلُها فاحذرها ثم احذرها .  
وصلَّى الله على سَيِّدنا ومولانا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

## حديث إنما الأعمال بالنيات

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى. فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَاجَرَتْهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهَاجَرَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ (وَلَا نِيَّةَ لِلنَّاسِي وَالْمُخْطِئِ).

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن لكل امرئ ما نوى. ومعناه: نواه بعمله. وأما قولنا في إثر الحديث: (ولا نية للناسي والمخطئ) فمعناه: لا عمل له يُجزى. والكلام عليه من وجوه:

(منها) أن يقال: هل هذا على عمومته في كل الأعمال أو هو على الخصوص؟ الظاهر أنه على الخصوص، بدليل أن الأعمال على ثلاثة أقسام: نية بلا عمل، وهو مثل الإيمان والكفر والحب في الله، والبغض فيه. وما هو مثل ذلك: الذي الثواب والعقاب في ذلك على النية لا غير. وعمل بلا نية، مثل غسل النجاسة، وغسل الميت، لأن المقصود من ذلك الفعل لا غير. وكذلك كل عبادة معقولة المعنى لا تحتاج إلى نية وفاعلها مأجور عليها. وما اختلف فيه العلماء من أنواع العبادات هل تحتاج فيه إلى نية، أو لا تحتاج إلى نية من أجل اختلافهم في تلك العبادة: هل هي معقولة المعنى أو ليس؟ وعبادة مفتقرة إلى عمل ونية فهذه التي جاء الحديث فيها. فيكون اللفظ عاماً ومعناه خاص.

والعمل الذي يحتاج إلى نية إذا نسي صاحب العمل النية، أو أخطأ فيها، لم يكن له عمل مجزى عن فرضه إن كان فرضاً، أو عن سُنَّته، إن كان سُنَّةً، ولكن لا يخلو صاحبه عن أجر، مثال ذلك: من يقوم يصلي ظهراً بنية عصر قد أخطأ في نيته ولا تجزيه عن ظهره، ولكن لا بد له من أجر. فإنه قد أتى بتلاوة وذكر وركوع وسجود وتسييح، ونوى بذلك وجه الله تعالى. وإن كان لا يجزيه عن فرضه فأجر التلاوة إلى غير ذلك لا يضيع له، فإن الله عز وجل يقول ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

خَيْرًا يَكْرَهُ<sup>(١)</sup>. ومثال الناسي الذي يدخل الصلاة بغير نية، فلا تجزيه أيضاً عن صلاته، ولا يخلو أيضاً من أجر، للتعليل الذي قدمناه.

ثم قوله عليه السلام (لكل امرئ ما نوى) هذا فيه دليل لمن يقول: إن الأعمال، وإن تعبت هي أو زمانها لوجه ما من التعبد، فإن نية الفاعل لتلك العبادة إما أن يحققها لما جعلت له، وإما أن يصرفها إلى غير ذلك، لأن العلماء قد اختلفوا في ذلك اختلافاً كثيراً.

مثال ذلك الحج وشهر رمضان. من العلماء من يقول: إنه إذا صام رمضان ونوى به غيره، مثل نذر أو تطوع أنه يجزيه عن فرضه، ولا تضره تلك النية، لأن الله، عز وجل، قد عيّن هذه الأيام لصوم الفرض، فلا تخرج عن ذلك، وإن أخرجها العبد. وقال آخرون: إنها تنتقل بنية الفاعل. ومنهم من قال: إن تغيير النية يفسدها، ولا تصح فيما نقلت إليه، ولا فيما جعلت له. ومثل ذلك قالوا في الحج. وهذا الحديث يقوي قول من يقول: إنه ينقلب بالنية لقوله عليه السلام (لكل امرئ ما نوى).

وفي مذهب مالك في ذلك ثلاثة أقوال: القول الأول أنه يجزىء عن الفرض ولا يجزىء عن غيره، وبالعكس. والقول الثالث - وهو المشهور - أنه لا يجزىء عن واحد منهما.

وهنا بحث، وهو: هل النية مطلوبة في جميع أجزاء العمل من أوله إلى آخره؟ وأعني بالعمل الذي بيناه أن النية شرط في صحته؟ على قولين: فمنهم من يقول: إنها مطلوبة في كل أجزاء العمل من أوله إلى آخره. ومنهم من يقول: إنما هي مطلوبة عند افتتاح العمل. لكن الذين يقولون: بهذا يقولون إن استصحابها في كل الأركان شرط كمال، وهو مستحب. فمدار الأمر على أن أوله متفق على وجوبها فيه، وباقية قيل: واجب، وقيل: مستحب.

وفيه إشارة إلى تفضيل طريق أهل السلوك، لأنهم يتمون أعمالهم بحسن نياتهم، كما تقدم في غير ما حديث. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، (لكل امرئ ما نوى) لأنه فتح باب الزيادة في العمل برفع النية فيه، فمُغِنِ نَفْسَهُ بِسُوءِ نِيَّتِهِ، ومُرِجَ لَهَا بِحَسَنِ نِيَّتِهِ.

ومثال ذلك شخصان يتباحثان في مسألة فقهية، ونية الواحد بيان حكم الله وطلب الصواب فيه إيماناً واحتساباً، ولا يبالي من الذي جاء بالحق فيهما هو أو صاحبه. فهذا قد رفع عمله بحسن نية لأن هذه أعلى المراتب، ويدخل في حد الربانيين الذين هم ورثة الأنبياء، عليهم السلام. والآخر نية المباهاة والفخر، وقصده الظهور على أخيه لأن ينسب إلى الفضلاء. فهذا بأخس الأحوال، وإن ظهر على أخيه، وإن ارتفعت منزلته في الدنيا، لأنه أول ما تُسَعَّرُ به النار يوم القيامة.

(١) سورة الزلزلة، الآية ٧.



فإن رسول الله ﷺ قال: (أول ما تُسَعَّر النارُ بثلاث . - وعدَّ فيهم العالم الذي هذه صفته - لأنه يقول: يا رب تعلمتُ فيك، وعلمتُ فيك . فيقول الله له: كذبت . وتقول الملائكة له: كذبت، إنما فعلتُ ذلك ليقال . فقد قيل . فيؤمر به إلى النار)<sup>(١)</sup> . وليس هذا في العلم وحده، بل ذلك في جميع أعمال البر . وإنما ذكرنا العلم لأنه أعلى أفعال البر ولأنه ﷺ قال (ما أعمال البر والجهد في طلب العلم إلا كبصقة في بحر)<sup>(٢)</sup> . فإذا كان ذلك في الأعلى فمن باب أخرى في غيره .

وهنا بحث، وهو: أن يقال: لم جعل للنية هذا الحظ العظيم من الأجر حتى إن بها يرتفع العمل أو يذهب؟ فإن قلنا: تعبد . فلا بحث . وإن قلنا: لحكمة تلحق بالعقل لمن نظر في قواعد الشريعة، فما هي؟ فنقول، والله المستعان: لوجوه .

(منها) أنه قد تقرر من الشريعة أن أعلى أفعال البر هو الإيمان بالله، وأن محله القلب، فكل ما كان في المحل الذي هو وعاء لأزفع الأعمال وجب بمقتضى الحكمة أن يكون أعلى من غيره، وقد جاء ذلك في الشرع كثير<sup>(٣)</sup>، مثل الأيام المباركة، والبقع المباركة، تضاعف فيها الأعمال من أجل بركتها، ونُهي عن الإثم فيها لكثرة العقاب عليه بالزيادة فيه على غيره . وقد قال الله عز وجل ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكََ الَّذِينَ أَلْقِيَتْمْ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾<sup>(٤)</sup> وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾<sup>(٥)</sup> وقد جاء في صوم عاشوراء (يكفر السنة) والآي والأثر في هذا كثير، وقد قال عليه السلام (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم)<sup>(٦)</sup> . وليس المقصود تلك الجارحة نفسها وإنما المقصود ما فيها، وهو الإيمان وحسن النية . وقد قال ﷺ: (من أصبح وأمسى لا ينوي ظلم أحد غفر له ما جنى)<sup>(٧)</sup> .

(ومنها) أنه أكثر تعباً للنفس، فإنها تحتاج في كل حركة وسكون لحضور النية على ما ينبغي،

(١) حديث طويل رواه ابن خزيمة في صحيحه (وانظر الترغيب والترهيب للمنذري - الجزء الأول - فصل الترهيب من الرياء) .

(٢) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣٠٨/٢ (باب وجوب الأمر بالمعروف): رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث جابر بإسناد ضعيف . ولفظه في مسند الفردوس: ما أعمال العباد كلهم عند المجاهدين في سبيل الله إلا كمثل خطاف أخذ بمنقاره من ماء البحر - وفي رواية - إلا كتفلة تفلها رجل في بحر لجي .

(٣) كذا، والصواب: كثيراً .

(٤) سورة التوبة، من الآية ٣٦ .

(٥) سورة الحج، من الآية ٢٥ .

(٦) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٧) رواه ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه بلفظ: من أصبح وهو لا يهّم بظلم أحد غفر له ما اجترم .

وهذه مجاهدة خفية . وقد قال جلّ جلاله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (١)

(ومنها) أنه يحصل لمن التزم هذا حظ كبير من الفقه العلمي والحالي ، لأنه يحتاج أن يعرف من طريق الفقه كيفية ذلك ، والمتفق عليه ، والمختلف فيه . ومن طريق الحال يعرف خبايا النفس ومكرها ، وكيف يحرر عمله ونيته مع ذلك ، وهذه مرتبة عُلْيَا قُلّ طالبها فكيف مالکها؟ ويحصل له من ذلك - إن دام عليه - حال المراقبة ، وهو من أجَلّ المقامات عند أرباب هذا الشأن ، ويطرق منه إلى مراتب سَيِّئَة يطول وصفها . وقد كان بعض من له شيء من هذا الحال إذا سئل في مسألة علم ، سكت ساعة ، وحينئذ يجاوب . فقليل له في ذلك فقال : أنظر أيما خير لي ، السكوت أو الجواب؟ رحمهم الله . هكذا يكون مَنْ له هِمَّة ، ويعلم أنه بعين من يَعْلَم خَائِنَة الأعين وما تُخْفِي الصدور .

ويترتب عليه من الحكمة أنه من قَوِي إيمانه قويت حرْمَتُهُ عند خالقه ، ورجحت نيته في عمله على غيره . وفي ذلك فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون .

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .

---

(١) سورة العنكبوت ، من الآية ٦٩ .

## حديث الأمر بإطعام الخادم من الطعام

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ، أَوْ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ، فَإِنَّهُ وَلِيُّ عِلَاجِهِ.

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على أمر من جاءه خادمه بطعام أن يعطيه ما يأكل منه بذلك القدر المذكور. وهو اللقمة أو اللقمتان، والأكلة أو الأكلتان. والكلام عليه من وجوه:

(منها) هل هذا على عمومه في كل الأطعمة؟ وكذلك في كل الخدام؟ وهل الشيء المعطى منه يكون ما ذُكر ليس إلا، أو غير ذلك؟ ولم أتى بصفيتين من الطعام اللتين هما: اللقمة والأكلة، ولم يخبر بأحدهما<sup>(١)</sup>؟ وهل الأمر بذلك على الوجوب أو على الندب؟ وهل ذلك في أول طعامه أو في أي وقت أعطاه ذلك حصل المقصود؟ وهل يعطيه مما جاء به ولم يتول علاجه، أو لا يعطيه إلا مما يتولى علاجه؟ وما الحكمة في الأمر بذلك؟

فأما قولنا: هل ذلك الأمر على العموم في كل الأطعمة؟ فظاهر الحديث يعطي ذلك لعموم لفظ الحديث، وما يُعرَف من عُزْفِ الناس يقتضي أنه ليس على عمومه، وإنما خرج الحديث مخرج الأغلب من أحوال الناس، لأن الأطعمة منها ما يشتهي الذي يعالجه، ومنها ما لا يشتهي أحد. وهذا يدركه كل أحد بالعادة المعلومة من الناس، حتى إن بعض الناس لا يأكلون بعض الأطعمة أصلاً مرة واحدة، ولا يقربونها. ومثل أطعمة المرضى إذا عالجها الخادم أو غيره، ما نفس أحد تشتهيها أصلاً، وربما تعاف أن تأكله، أو تأخذ من يد المريض شيئاً. لكن الغالب الطعام الذي يُشْتَهَى، وهو الذي يحمل الحديث عليه. فإذا كان الطعام مما يكرهه الخادم ولا أحد بمقتضى العوائد له فيه رغبة فلا يدخل تحت لفظ الحديث، وربما إن<sup>(٢)</sup> حمل السيد الخادم أن يأكل منه شيئاً فقد يؤلمه، ولا

(١) كذا، والصواب: بإحداهما.

(٢) كذا بدخول «ربما» على الجملة الشرطية.

يجوز له ذلك، لأن الله، عز وجل، يقول ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾<sup>(١)</sup> والشارع، عليه السلام، ما قصد هنا إلا جبر الخادم وإدخال السرور عليه.

وأما قولنا: هل ذلك في كل الخدم؟ فاللفظ يعطي ذلك. فإن علم السيد من الخادم أن ذلك يسوؤه فلا يفعل، للعلة التي ذكرناها قبل، وإنما مراده عليه السلام ما ذكرنا، ويكون ذلك من السيد وجهاً محققاً لا تقديرأً.

وأما قولنا في الشيء المسمى من الطعام: هل ذلك حد لا يزداد عليه ولا ينقص منه؟ أما أن ينقص فلا، فإنه لا يحصل الامتثال. وأما الزائد فهو المطلوب، لأن الإشارة تقتضي الزيادة، فإنه إذا كانت الواحدة تقتضي الإجزاء فزيادة التخيير في الاثنين يدل على الإشارة إلى الأكثر إن أمكن.

وأما قولنا: لِمَ لَمْ يستغن بالصفة الواحدة من الطعام التي هي إما اللقمة أو الأكلة؟ فالجواب أن الطعام على نوعين: مشروب وممضوغ. فيكون من الممضوغ اللقمة أو اللقمتان، ويكون من المشروب مثل ذلك المقدار. فتوع عليه السلام بذكر اللقمة من الممضوغ ليبين المقدار المجزئ، وعطف الذي هو المشروب عليه ليحصل المثال في القدر المعطى أيضاً. وهذا من إبداع الكلام، صلى الله عليه وسلم.

وأما قولنا: هل الأمر على الوجوب أو الندب؟ فاللفظ محتمل، والأظهر أنه على الندب، لأنه علله بأنه ولي علاجه، وتوَلَّى الخادم علاج طعام السيد واجب عليه ومن حق سيده، ويقابله: ما يلزم السيد من نفقة خادمه وكسوته فقد فعل واجباً مقابلة واجب، فالزيادة على الواجب مندوبة. ولكونه قد خيره بين الجلوس معه أو أن يعطيه اللقمة أو اللقمتين. وجلوس الخادم مع السيد هو من طريق التواضع، وهو من باب المندوب، ولا يقع تخيير بين واجب ومندوب، وإنما يقع التخيير بين شيئين متماثلين، إما في الوجوب أو الندب. فإذا ثبت في أحد المخيرين بينهما ندب فالآخر مثله.

وأما قولنا: هل يكون الإعطاء في أول الطعام أو يكون بعده؟ أما ظاهر اللفظ فإنه يُعطي أولاً، لأنه قال: (فإن لم يجلسه فليناوله). والجلوس إنما يكون أول الطعام، فإن عدم الجلوس فبدلته، وهي اللقمة. لكن إن لم يفعل ذلك في أول الطعام وجعله في أثنائه فقد عمل مندوباً إلا أنه ترك الأفضل. وإنما قلنا ذلك لوجهين: أحدهما لنص الحديث بدليل (الفاء) التي تعطي التعقيب، ولتعليله عليه السلام بقوله أيضاً (فإنه ولي علاجه) فإذا تولى علاجه بقيت النفس متعلقة به، فالمبادرة بإدخال السرور وزوال تعلق النفس أفضل.

وأما قولنا: فإن جاء بالطعام ولم يكن تولى علاجه هل<sup>(٢)</sup> يعطيه أم لا؟ فإن قلنا بظاهر

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٨٦.

(٢) كذا والصواب «فهل».

الحديث دون فهم العلة فنقول : لا يعطي . وإن نظرنا إلى العلة - وهي الشهوة إلى الطعام - فإن كان الطعام مما يشتهى فالحكم سواء يندب إلى الإعطاء منه .

وأما قولنا : ما الحكمة في ذلك ؟ فلو جوه (منها) ما ذكرنا في الوجوه قبل من تعلق نفس الخادم به ، و(منها) أنه يُعينه بذلك على ما كُلِّفَ به من الأمانة في مال سيده لقوله ، عليه السلام ، (والعبد راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته)<sup>(١)</sup> . فإذا أعطاه من الطعام الذي تعلق به نفسه كان عوناً على ألا يخون ، ولا يأخذ من مال سيده شيئاً ، وإن حرمه فقد تغلبه النفس بقوة باعث الشهوة على الخيانة .

ويترتب على هذا من الفقه أن كل من لك عليه حق يندب أن تعينه على توفيته ، وتكون في ذلك مأجوراً ، مثل الابن الذي أُمِرَ بِرِّكَ تكون تعينه عليه ، وكذلك الزوجة والأصحاب والجيران ، وكل من يترتب لك عليه حق واجب أو مندوب ، وهو من باب التعاون على البر والتقوى . وقد ذكر أن قوله تعالى في المكائين ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتٰكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> أن تحسن إليه في أول الكتابة من مالك خلاف مال الكتابة لأن يستعين بذلك على الكتابة . (ولوجه آخر) لأنه يحصل للخادم به تعلق كلي بمجيئه به إلى السيد فيحصل له بسبب ذلك إذاً من أجل قوة الشهوة عليه ، لكثرة دوام نظره إليه .

ويترتب على هذا الوجه من سد الذريعة أن يكون الطعام مستوراً ما أمكن ، من أجل هذه العلة ، وزيادة في أوقات الشدة ، فإن النفوس إذ ذاك لها بالطعام تعلق كلي .

وفيه دليل على جواز اتخاذ الخادم ، لكن بشرط توفية حقه باطناً وظاهراً . أما الظاهر فمعلوم ، وهو توفية حقوقه على لسان العلم . وأما الباطن فالآ تَغْتَرُّ النَّفْسُ بذلك ، وترى لها عليه درجة ، لأنه قد جاء أن العبد لا يزال من الله بمكانة حتى يخدمه ، فإذا أخدمه وقع الحساب أو الحجاب ، وقد قال تعالى ﴿فَمَا أَذْبَنُ فَضَّلُوا بِرَآءِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾<sup>(٣)</sup> فأشار إلى أن الفضيلة من الله ، وفي الحقيقة التسوية ، لأن الكل عبيد الله .

وفيه دليل على كثرة شفقتة ﷺ مطلقاً . يؤخذ ذلك من نظره ، عليه السلام ، بالشفقة في هذا بالعبد والحر ، لأن نظره ، عليه السلام ، لكل بعين الرحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٤)</sup> .  
وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .

(١) متفق عليه ، وأوله (كلكم راعٍ ، وكلكم مسؤول عن رعيته) .

(٢) سورة النور ، من الآية ٣٣ .

(٣) سورة النحل ، من الآية ٧١ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ .

## حديث تواضعه وهديه في الهدية والدموة صلى الله عليه وسلم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لَوْ دُعِبْتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ. وَلَوْ أَهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ..

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام (أحدهما): حسن خلقه ﷺ وتواضعه. (الثاني): قبول الهدية وإن قلَّت. (الثالث): الإجابة على الطعام. والحكم فيه على وجهين: لأنهم اختلفوا في الكُرَاع، ف قيل: هو كُرَاع الشاة، وهو أقل الأشياء عند العرب. وقيل: كراع: موضع وهو بعيد من المدينة. والكلام عليه من وجوه:

(منها) بيان أن قبول الهدية من السنَّة، وليست اليد الآخذة للهدية بمفضولة على اليد المعطية، ولا المعطية هي الأعلى، لأنه من اتبع السنَّة في شيء من الأشياء فهو أعلى بلا خلاف في ذلك، لأنه قد قال في الحديث قبل (يا حكيم، اليد العليا خير من اليد السفلى)<sup>(١)</sup> وقال: العليا هي المعطية. وقال هنا: (لو أهدى إليَّ ذراع أو كُرَاع لَقَبِلْتُ) والفرق بينهما أن حكيمًا طلب، فيكون أبدأ يد الطالب هي السفلى، ويد سيدنا ﷺ لم تطلب، والذي أهدى له إنما هو إلى الله، فمن الله أخذ سيدنا ﷺ، ولجبر خاطر الذي جاء بالهدية، لأنه طلب منه القبول إلى ما يوصله إلى الله. فبد الطالب أبدأ صغرى كما قيل لحكيم قبل. وقد أشرنا إلى شيء من هذا هناك، لكن هذا موضعه بالنص.

وفيه من الفقه أنه ما كان لله لا يحتقر وإن قلَّ، بخلاف أهل الدنيا، فإنهم ينظرون في الهدايا بينهم لحظوظ النفوس قدر المُهْدِي والمُهْدَى له، ومولانا، جلَّ جلاله، قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾<sup>(٢)</sup> وقال: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> وسأوى في

(١) جزء من حديث رواه الشيخان عن حكيم بن حزام رضي الله عنه، وأوله (إن هذا المال خَصِيرةٌ حُلوةٌ..).

(٢) سورة الزلزلة، الآية ٧.

(٣) سورة التغابن، من الآية ١٧.

ذلك بين القليل والكثير، فجاءت السنة مع الكتاب على حدّ واحد ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾<sup>(١)</sup>.

وكذلك إن كان الموضع الذي يدعى إليه بعيداً، فإنه إذا أجاب لذلك كان الأجر أعظم لكثرة الخطأ التي فيه، وهي كلها لله. وإذا كثرت الخطأ لله كثر الأجر، كما قال، عليه السلام، في حق المساجد (أكثركم أجراً أبعدكم داراً)<sup>(٢)</sup>، وذلك لكثرة الخطأ إليها.

وهذا - أعني قبول الهدية - ليس على العموم، لأن الهدايا منها ما يكون من أجل الله، كالذي يوهب إلى سيّدنا ﷺ، ومنها ما يكون في حق الصحبة أو للمكافأة، وهي على صفة أخرى. وقد قال علي رضي الله عنه: الهبات ثلاث: هبة للصحبة فلك وجه صاحبك. وهبة للثواب، فهي بيع من البيوع. وهبة لله فتلك التي ثوابها على الله تعالى. لكن اليوم وإن كانت لله فيحتاج أن ينظر إلى كسب الواهب من أجل الحرام الذي كثر وداخل بعض الأموال. وأما ذلك الزمان فالمال كله طيب، فلم يحتاج إلى تفرقة في ذلك. والأمر اليوم كما لا خفاء فيه.

وقد قال بعض العلماء، وهو رزين<sup>(٣)</sup>: ما أوقع الناس في المحذورات إلا أنهم يحملون اليوم الأسماء التي كانت أولاً على وجه جائز، وهي اليوم على غير ذلك، فيحملونها على ذلك الحسن الذي سمع عنها، وليس كذلك، بل ينبغي أن ينظر في الأمور وما يحدث فيها. ولذلك قال عمر بن عبد العزيز: «تحدث للناس أحكام بقدر ما أحدثوا من الفجور». ولم يرد هذا السيد تبديل أحكام الشريعة لأنه لا قائل بذلك، وإنما أراد مثل هذا النوع الذي أشرنا إليه.

وفيه دليل على قبول الهدية ولا يثيب عليها، وقد جاء أنه، عليه السلام، كان يثيب على الهدية، في الحديث بعد هذا. فيمكن الجمع بأن تقول: الثواب على الهدية سنة، وترك الثواب سنة. فيكون ذلك توسعة منه ﷺ. ومما يبين ذلك قوله، عليه السلام (فإن لم تجد فادع الله حتى تعلم أنك قد كافأته)<sup>(٤)</sup>، وقال عليه السلام في مقدار الدعاء (من والاك معروفاً فقلت له: جزاك الله خيراً، فقد أطنبت في الجزاء)<sup>(٥)</sup>.

(١) سورة النساء، من الآية ٨٢.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند وأبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجراً. وفي رواية للبخاري ومسلم عن أبي موسى: إن أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم إليها مشى فأبعدهم.

(٣) هو رزين العبدري الأندلسي. وقد سلفت ترجمته في الحديث (٣).

(٤) انظر تخريجه في الحديث (٩٣).

(٥) انظر تخريجه في الحديث (٩٣).

وهنا بحث، وهو أن يقال: لم أخبر، عليه السلام، هذا عن نفسه المكرمة، ولم يقرر الحكم باللفظ العام؟ فالجواب: أنه لو قاله لكان يقع في النفوس أن هذه من الصدقة التي يجوز للغني أخذها وأكلها، فقد كان يتورع فيها بعض الناس، فلما كانت الصدقة حراماً عليه عليه السلام، وأخبر عن نفسه المكرمة أنه يقبلها، فعلم<sup>(١)</sup> بالقطع أنها ليست من الصدقة بنسبة أصلاً ولا فرعاً، وإنما هو مال حلال محض لا شبهة فيه، لأنه، عليه السلام، لا يفعل فيما يخصه إلا أعلى الأمور وأزكاها. وقد قال العلماء في معنى قوله جلّ جلاله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾<sup>(٢)</sup>: إنه الفتوح إذا كان على وجهه.

وأما قوله عليه السلام (لو أهدي إليّ كراع أو ذراع لقبلت) فسوى بين القبول للذراع والكراع، فإن الحكمة في ذلك أن أحب الأعضاء إليه من الشاة كان الذراع، وأن الكراع عندهم لا بال له، فكأنه، عليه السلام، يقول: (لو أهدي إليّ ما أحبته وما لا أحبته لقبلته) لأن القبول هنا هو - كما تقدم - من أجل الله، وما يكون من أجل الله فلا ينظر فيه إلى ما تحبه النفس أكثر لأنه يتمحّض فيه العمل لله خالصاً.

ويؤخذ منه الكلام في الممكنات وتقعيد الحكم على ما يمكن وقوعه منها. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (لو أهدي) لأنه ذكر ممكناً قد يقع، لأن الفائدة فيه تقعيد الحكم وبيانه لا وقوع نفس الشيء المحتمل. وقد قال أهل العلم بصناعة الفرائض: إذا أردت معرفة علم الفرائض فأيت جيرانك وأصحابك. والفائدة في ذلك لأنك عالم بمن يبقى بعدهم فتعلم من يرث ومن يُحجّب، ولا يطرأ عليهم موت بسبب ذلك.

وفيه دليل للمحققين من الصوفية لأنهم يقولون: إن الفقير إذا كان صادقاً مع الله لم يأخذ شيئاً إلا من الله للوجه الذي قدمناه، ولأنهم لا يمشون في تصرفاتهم إلا على الكتاب والسنة، بخلاف ما يعتقد بعض الناس فيهم، وذلك لجهلهم بطريقتهم العليا.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) هذا جواب (لما).

(٢) سورة آل عمران، من الآية ٣٧.



## حديث مراتب الضيافة والتيامن فيها سنة من سننه صلى الله عليه وسلم

عَنْ أَنَسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فِي دَارِنَا هَذِهِ، فَاسْتَقَى . فَحَلَبْنَا لَهُ شَاةً لَنَا، ثُمَّ شُبَّتُهُ<sup>(١)</sup> مِنْ مَاءٍ بَثَرْنَا هَذِهِ، فَأَعْطَيْتُهُ وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ يَسَارِهِ، وَعُمَرُ تُجَاهَهُ، وَأَعْرَابِيٌّ عَنْ يَمِينِهِ . فَلَمَّا فَرَّغَ قَالَ عُمَرُ: هَذَا أَبُو بَكْرٍ . فَأَعْطَى الْأَعْرَابِيَّ فَضْلَهُ . ثُمَّ قَالَ: الْإِيْمَنُونَ الْإِيْمَنُونَ، أَلَا فَيَمْنُوتُوا . قَالَ أَنَسٌ: فِيهِ سُنَّةٌ، فِيهِ سُنَّةٌ، فِيهِ سُنَّةٌ . (ثلاث مرات).

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام:

(أحدهما) جواز طلب الماء بين الأصحاب، وليس من باب المكروه .

(والآخر) أن السنة في إعطاء المشروبات أن يكون يبدأ بها بالذي على يمين الشارب، وإن كان الذي على الشمال أو أمام أفضل منه .

(والثالث) جواز خلط اللبن بالماء عند الشرب . والكلام عليه من وجوه:

(منها) أن طالب الماء هو أولى به أولاً، وقد جاء (طالب الماء أولى به) . ويؤخذ منه عرض ما اشتهيت لنفسك أو طلبته من المشروبات بعد أخذك حاجتك منه على أصحابك وإن لم يطلبوه بعد . يؤخذ ذلك من كون سيدنا ﷺ، أعطى لأصحابه بعدما أخذ، عليه السلام، منه حاجته، وهو الذي طلب الماء وحده .

وفيه دليل على تنبيه المفضل للأفضل على ما هو عنده أرفع، وإن لم يكن أصاب في ذلك، ولا يجب عليه في ذلك تعنيت، لأنه ما قصد إلا خيراً، وللفاضل أن ينظر ذلك، فإن أصاب وإلا

---

(١) شُبَّتُهُ: خلطته، مزجته .

علمه برفق وتواضع دون تخجيل . يؤخذ ذلك من قول عمر ، رضي الله عنه : هذا أبو بكر . بينه النبي ﷺ أن يقدم أبا بكر على نفسه وعلى الأعرابي ، لما يعلم من مكانة أبي بكر ، رضي الله عنه ، عند رسول الله ﷺ ، ويرفع الخجل عنه في حق الأعرابي ، لأنه إذا كان يقدمه على نفسه لم يقع للأعرابي في نفسه شيء بتقديم أبي بكر عليه ، ولم يكن له علم بما في غيب الله ، عز وجل ، من حكم السنة في ذلك أنه بخلاف ما ظهر له ، فلم يعنفه رسول الله ﷺ وأبدى له حكم السنة في ذلك ، وكرره ثلاثاً على المعلوم من عادته ، عليه السلام ، في تكرار الأمر ثلاثاً إذا كان له بال .

ويترتب عليه من الفقه أن الذي يجتهد في حكم بوجه ما من الشرع ، ولم يكن يعلم غير ذلك ، ويكون الأمر بخلاف ذلك بدليل لا يعرفه ، فله في خطئه أجر ، كما جاء (من اجتهد فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر)<sup>(١)</sup> .

وفيه دليل على أن من الأدب ألا يكلم شارب الماء حتى يفرغ . ويؤخذ ذلك من أن عمر ، رضي الله عنه ، لم يكلم النبي ﷺ إلا بعد فراغه من الشرب ، بخلاف الطعام ، لأنه قد جاء أن من السنة الكلام على الطعام<sup>(٢)</sup> .

وفيه دليل على أن من المروءة أن معطي الشراب ينبغي له أن يعطي أكثر مما يحتاج إليه الطالب . يؤخذ ذلك من أنه ، عليه السلام ، أعطى فضله ، فلولا ما كان أكثر ، ما كان يقول (فأعطى الأعرابي فضله) . ولو كان الماء قليلاً وشرب ﷺ ، وفضل بعد ما أعطى أصحابه ، لكانوا يذكرون قلة الماء ويجعلونها من جملة المعجزات ، كما فعلوا في المواضع التي جرى فيها ذلك . وقد جاء أن من الممدوح في معطي الماء مثل ما ذكرنا ، لكن الآن لا أحقق هل ذلك أثرٌ أو هو من مكارم الأخلاق فيما بين الناس ، لأنه أرفع للخجل وأبلغ في المعروف ؟

وفيه دليل على أن التعليم بالفعل أرفع ، وأن القول تأكيد له . يؤخذ ذلك من أنه ﷺ بدأ أولاً بالفعل الذي هو الإعطاء ، وكان كلامه ، عليه السلام ، يُعَدُّ جواباً لما قيل له وتأكيذاً ، لكونه كرره ثلاثاً ، ولذلك قال الراوي : فهي سنة (ثلاثاً) .

وهنا بحث ، وهو : لِمَ أتى في الآخرة بالفاء في قوله (ألا فَيَمْنُوا؟) . فالجواب أن قوله (الْأَيْمَنُونَ الْأَيْمَنُونَ) يعني : أعطوا أصحاب اليمين أولاً ، ثم الثالث بتلك الزيادة كأنه ، عليه السلام ،

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ومسلم في الأقضية عن عمرو بن العاص بلفظ : (إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر) . كما أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة والشيخان عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم جميعاً .

(٢) في حدود علمنا لم نجد في السنة ما يدل على ذلك . وصرح العلماء أن الكلام على الطعام من قبيل المباح ، وأنه لا يوصف بنذبة ولا كراهية (انظر المقاصد الحسنة والمصنوع في معرفة الحديث الموضوع) ، والله أعلم .

يقول : أَلَا فَيَمَنُوا فِي شَأْنِكُمْ كُلَّهُ ، لَيْسَ ذَلِكَ فِي الْمَاءِ وَحْدَهُ . وقد زادت ، عائشة رضي الله عنها ، في ذلك بياناً حيث قالت (كان رسول الله ﷺ يحب التَّيْمَنَ ما استطاع في شأنه كله)<sup>(١)</sup> . وقد استوعبنا الكلام عليه في موضعه .

وفيه دليل على أن ما يخص الشخص في نفسه أكد عليه من غيره . يؤخذ ذلك من أن فضل أبي بكر ، رضي الله عنه ، لا خلاف فيه أنه أفضل الصحابة ، رضوان الله عليهم ، فما بالك بالغير ؟ وأن الأيمن في الجوارح أفضل من غيره ، فآثر النبي ﷺ فضل الجوارح الذي هو الأيمن منه ، عليه السلام ، على فضل الغير ، وهو أبو بكر ، رضي الله عنه ، وأكدها ، كما ذكرنا آنفاً ، ومن هذه النسبة قدّموا قرابة الشخص في المعروف على غيره ، لأن جعل له في الصدقة عليه إذا كانت تطوعاً أكثر أجراً من الأجانب . فتجد الحكمة أبداً في الشرع متناسبة إذا تأملت ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾<sup>(٢)</sup> .

وهنا بحث ، وهو : ما الحكمة بأن عَيَّن الراوي الدار والبئر ؟ فيه من الفائدة وجوه :  
(منها) دلالة ذلك على فضله ﷺ وتواضعه ، لأن الراوي أنس - وهو خديمه عليه السلام - فمشيه ، عليه السلام ، إلى دار خديمه فضل منه ﷺ وتواضع ، وكونه أخبر بدخوله الدار ليُعلم فضلها ، لأنهم كانوا يتبركون بالمواضع حيث يدخل وكل ما يكون من الأشياء التي يتصل منه ﷺ بها شيء ما ، مثل ما قال أحد الصحابة : (يا رسول الله صَلِّ في بيتي مكاناً أَتَّخِذُهُ مُصَلًّى)<sup>(٣)</sup> ، وكذلك البئر من أجل أن يبقى ذلك البئر وتلك الدار يتبركون بهما .

ويترتب عليه من الفقه حسن طريقة المباركين الآخذين بطريق السلوك ، لأنهم يتبركون بأي شيء يجدون من أثر المباركين ، ويجدون لذلك بركة كبيرة منهم في ذلك على طريق السلف . نفع الله بجمعهم بمَنِّه .

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا .

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٢) سورة النساء ، من الآية ٨٢ .

(٣) رواه البخاري في صلاة الجماعة - باب الرخصة في المطر والعلّة ، وباب إذا زار الإمام قوماً فأتمهم ، وباب المساجد في البيوت . ورواه مسلم في الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ، ومطلعه : يا رسول الله ، إن السيول تحول بيني وبين مسجد قومي فأحب أن تأتيني في مكان من بيتي أتخذه مسجداً إلخ . . . والصحابي هو عتيان بن مالك رضي الله عنه .

## حديث قبول الهدية والإنابة عليها

عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ، وَيُثِيبُ عَلَيْهَا.

\*\*\*

ظاهر الحديث يعطي جواز قبول الهدية، والثواب عليها. والكلام عليه من وجوه:

(منها) أن الهدية يكون الثواب عليها بأقل منها أو أكثر أو مثلها بحسب ما يختار الذي يكافىء. يؤخذ ذلك من قولها (يثيب) ولم تقل يكافىء، لأن المكافأة تقتضي المماثلة، وذكر الثواب لا يدل على ذلك. وهي - كما تقول - ثمن السلعة وقيمتها، لأن الثمن يزيد وينقص، والقيمة هي قدر ما تساوي بلا زيادة ولا نقصان.

(ومنها) كيفية الجمع بينه وبين الحديث الذي قبله، وقد ذكرناه قبل في الحديث الذي قبل هذا. وقد يمكن أن يكون الجمع بينهما بوجه آخر، وهو: أن الهدية جائز أخذها، وتكون على وجهين: إما أن تكون لله خالصة، أو تكون من أجل الصحبة وطلب جلب القلوب للتوادد<sup>(١)</sup>.

فإذا علمت أو قوي ظنك أنها طلب للتوادد<sup>(١)</sup> وجلب القلوب، فينبغي أن تثيبه أنت على تلك الهدية، لقوله، عليه السلام (تهادوا تحابوا)<sup>(٢)</sup>، وأن الهدية تذهب بالسَّخِيمَة، فتكون توافقه على ما قصد، وتكون في ذلك على السنة.

وإن كانت لله خالصة فالأجمل عدم المكافأة منك، وتترك مكافأته على الله، فتكون تعينه على ما أمل منك، فيكون مبالغة في المعروف، وتكون أيضاً في فعلك ذلك على السنة.

ووجه آخر، تكون تنظر بماذا يكون فرح المُهْدِي إليك فتعمل عليه، لأنه من باب إدخال المسرة، وكلاهما حسن، وأنت في ذلك كله متَّبِع. إلا أن هنا تنبيهاً، أعني إذا ظهرت لك

(١) كذا بالإظهار. والصواب: للتوادد.

(٢) رواه الأربعة عن أبي هريرة رضي الله عنه (انظر الفتح الكبير ٣٩/٢).

المكافأة، أن تنظر لسان العلم في ذلك خشية أن تقع في الربا وأنت لا تعلم. فإنه إذا كانت نفس الواهب متشوفة إلى المكافأة، وإن نوى بهديته وجه الله تعالى، فلا تكون المكافأة على ذلك إلا بما يجوز بيعه، فتتظر ذلك الشيء الموهوب، والشيء الذي خطر لك أنت أن تكافئه به، هل يجوز بيعه به على الصفة التي تريد أن تفعلها أنت؟ فإن جاز فافعل، وإن لم تعلم فاسأل أهل العلم وحينئذ تفعل.

مثال ذلك أن يهب لك طعاماً، فيخطر لك أن تكافئه أنت بطعام غير يد بيد، فذلك ممنوع. وقد ذكر ذلك في كتب الفقه، فإن لم تكن نفسك تشوف إلى مكافأة، ولا صاحب الهدية أيضاً مثل ذلك لا تشوف نفسه إلى هذا، ويكون ذلك مقطوعاً به، مثل لو أحلفت عليه حلفت وكنت باراً في يمينك، وقد أهدى لك طعاماً، ثم خطر لك أنت طعام واستطبت، وبينكما من الصداقة ما تقر عينك إذا أكل منه، فإن نظرت إلى مقتضى مذهب مالك، الذي هو سد الذريعة، فالأولى ألا تفعل، وإن نظرت إلى باب المعروف لأنهم وسعوا فيه ما لم يؤسّعوا في غيره فلا بأس أن تفعل، إلا أنه مع تلك الشروط.

وفيه دليل على أن قبول الهدية لا يتنافى مع الزهد، لأنه ما فعله ﷺ فهو أعلى الطرق. وإنما الزهد في القلب ليس بقلّة القبول ولا بكثرتة، إلا إن كان ممن لا يملك قلبه من الميل إلى ذلك والاشتغال به فلا يفعل، ويكون ترك القبول غير مخالفٍ للسنة، بل يكون من أجل العذر، لأن النبي ﷺ قد جعل لأهل الأعدار حكماً يخصهم، وعذرهم فيه. وكذلك إن توقع بالقبول مفسدة في دينه فلا يفعل، وإنما بينا الجواز والفرقة، وما نصصنا عليه مع صحة الدين والسلامة من العيوب والشبهات، وإلا فقد كانت الصحابة، رضوان الله عليهم، يتركون سبعين باباً من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام.

وفيه دليل على أن الهدية مما أحل لنا، لأنه إذا كانت هدية نكرة لا ينضاف إليها قبل ولا بعد شيء تتعرف به، مثل ما ذكرنا من هدية الثواب، فإنها بهذه الإضافة خرجت عن هذا الاسم، ومثل هدية الحكام من أجل الحكم فإنها رُشا، ومثل الهدية للمدّيان<sup>(١)</sup> لأنها سُخت، ومثل الهدية لمن شفع لك شفاعته فإنها ربا، لقوله عليه السلام (من شفع لأخيه شفاعته فأهدى له من أجلها هدية فقد فتح على نفسه باباً عظيماً من أبواب الربا)<sup>(٢)</sup>. فانتبه واللييب فطين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

(١) المدّيان: من يقرض كثيراً، وتأتي بمعنى: من يقترض كثيراً.

(٢) تقدم تخريجه في الحديث (٩٧).

## حديث من عليه حق فليدفعه أو ليتحلل منه

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ كَانَ عَلَيْهِ حَقٌّ فَلْيُغْطِهِ أَوْ لِيَتَحَلَّلْ مِنْهُ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يفيد أن من ترتب عليه في ذمته حق من الحقوق لا يخلصه إلا الأداء أو التحلل من صاحبه . والكلام عليه من وجوه:

منها تبين جميع الحقوق وكيف الخروج منها حقاً حقاً . ومنها لم يذكر ما عليه ولم يذكر ما له ؟ .

فأما الحقوق فهي على ثلاثة أقسام: إما ماليات، وإما بدنيات، وهي ضربان: ذم وأداة مثل جرح أو ضرب، وإما أعراض<sup>(١)</sup>. ولا بد لكل من ترتب في ذمته من هذه شيء من تخليص ذمته إما بالأداء، إن كان مما يمكن فيه الأداء، أو التحلل؛ وإلا خيف عليه العقاب.

وأما أداء الماليات فردها إن أمكن وجود صاحبها أو وارثه، وإلا إن كان صاحب الحق ميتاً تصدق بها عنه، هذا مع القدرة، أو يرغبه في تحليله مما له عليه، فإن لم يكن له شيء بما يرد ماعليه، فيرغب لصاحبه في تحليله. فإن لم يفعل أو لم يجده فيعقد نيته بالتوبة مع الله، وأنه متى فتح الله عليه في أي وقت، فإنه يؤدي بصدق مع الله، ويبقى يدعو إلى الله مع الدوام بأن يسخر الله له صاحبه، وإن كان صاحب الحق ميتاً، ولا وارث له، وليس له ما يتصدق به عنه، فيعقد أيضاً نيته مع الله مع الصدق في التوبة، كما تقدم، ويُديم الاستغفار لصاحبه، ويترحم عليه، ويلجأ إلى الله أن يرضيه عنه، فإنه ولي رحيم. فإن كان صادقاً يُرجى له ذلك.

وأما الغيبة وهي أكبر الحقوق لقوله عليه السلام (الربا اثنان وسبعون باباً أدناه مثل أن يظأ الرجل أمه، وأربا الربا استطالة لسان المسلم في عرض أخيه)<sup>(٢)</sup>. وكيفية التحلل منها: بأن تخبر

(١) أعراض: مفردا عرض، وهو ما يمدح به المرء أو يذم.

(٢) رواء الطبراني في الأوسط عن البراء رضي الله عنه، بلفظ (الربا اثنان وسبعون باباً، أدناها مثل إثيان الرجل أمه، =

صاحبك بما قلت عنه، وترغب منه المغفرة، وترضيه بكل ممكن. وإن كان ميتاً فهو أصعب الأمور، ولم يبق لك حيلة إلا الدعاء له بالخير والرحمة، ورغبة الكريم على الدوام أن يرضيه عنك فعسى. وإن كان غائباً فتسافر إليه إن أمكن، وإلا بالكتب والرغبة.

وإن كانت دماء: فإما أن تعرض نفسك للقصاص لولاته، أو ترضيهم بالمال، ومع ذلك التوبة النصوح والكفارة، لأن ذلك أمر خطير. فإن العلماء اختلفوا: هل للقاتل من توبة أم لا؟ على قولين. فإن لم يكن أحد من ولاة الدم حياً فالتوبة النصوح والكفارة والدعاء إلى الله الكريم عسى بفضلته أن يرضيه عنك، ودوام الخوف والاجتهاد في طلب الشهادة، لعلها تحصل.

والجراح وما أشبهها من الضرب وشبهه كذلك يفعل فيها، إما قصاص وإما مثل ما قلنا في الدم. وفيه إشارة إلى أن الحال لا يستقيم إلا مع براءة الذمة، لأن براءتها أكد من زيادة التوافل، ولذلك جاء (أن يوم القيامة يؤتى بالرجل له من الحسنات أمثال الجبال، ويكون قد شتم هذا، وأخذ مال هذا، فيؤخذ من حسناته، وتعطى لأصحاب المظالم، حتى تفنى، ويبقى عليه البقايا من التبعات، فيؤخذ من ذنوب أصحاب الحق فتوضع على عنقه، فيلقى في النار)<sup>(١)</sup>.

وقد (كان ﷺ إذا أتى بجنائز يسأل: هل عليها دين؟ فإن لم يكن عليه دين صلى عليه، وإن كان عليه دين قال: صلوا على صاحبكم)<sup>(٢)</sup>، ولذلك قال عليه السلام (اتقوا محارم الله تكن أعبد الناس)<sup>(٣)</sup>. فإن باتقاء المحارم تبقى الصحيفة نقية من التبعات. فالقليل من التطوعات مع ذلك ينمو، ويكون فيه الخير الكثير. هذا كلام كلي.

= وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه).

ومعنى: أذناها أي أدنى عقوبة وأقلها لمن يتعامل بالربا كعقوبة من يزني بأمه. وإذا كان هذا أقل عقوبة الزنى فكيف تكون عقوبة أعلاها؟

(١) أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوماً: أتدرون ما المفلس؟ إن المفلس، من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فئت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: إن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل المتوفى، عليه الدين، فيسأل: هل ترك لدينه قضاء؟ فإن حدث أنه ترك وفاء صلى عليه، وإلا قال للمسلمين: صلوا على صاحبكم. قال أبو هريرة: فلما فتح الله على رسوله كان يصلي ولا يسأل عن الدين، وكان يقول: أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المؤمنين فترك ديناً أو كلاً أو ضياعاً فعلي وإلي، ومن ترك مالا فلورثته.

(٣) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وقال: غريب منقطع. وأخرجه البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: اتقوا المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب.

وأما تتبعها في الجزئيات: فمن تخلص من هذه الكليات يسهل عليه فعلها، ويجدها في كتب العلماء، فإنهم لم يُغفلوا منها ذرة.

وأما كونه لم ينه على ما لك من الحقوق فلأنك قد عرفت قدر ما لك في الحق الذي لك. ولذلك قال أهل التوفيق (كن عبد الله المظلوم، ولا تكن عبد الله الظالم) فإن المظلوم ينتظر النصرة من الله، إما في هذه الدار أو في الآخرة. والظالم بضد ذلك.

وبالتجربة على ما ذكره العلماء نقلاً أنه كل من صدق مع الله في توبته أنه يسخر له أصحاب الحقوق في هذه الدار، ويجد على ذلك راحة معجلة.

وقد ذكر أن بعضهم مرّ بين البساتين، ووجد حبة تين ملقاة في الطريق، فأكلها، فلما فرغ قال: ومن جعلني في حلّ؟ فنقر باب البستان الذي كانت بإزائه، فخرج له الحارس، فذكر له حاله، ورغب منه المحاللة<sup>(١)</sup>. فقال: إني حارس، وليس ذلك لي، وصاحب البستان بأرض المغرب. فسأل عن بلده، وداره، واسمه، وأخذ في السفر إليه.

وكان صاحب ذلك البستان ممن فتح الله عليه في دنياه. فلما بلغ إليه بعد أيام عديدة وتعب شديد، ضرب الباب واستأذن عليه، فأمره بالدخول. فلما قص عليه القصة، وأناه بأمارة من الحارس يصدقها، قال له: لا أجعلك في حلّ إلا أن تقضي لي حاجة. فأنعم له فيها<sup>(٢)</sup>. وقال له: ما هي؟ فقال له: إن لي بنتاً مبتلاة، ولا يرضى أحد أن يتزوجها، فتزوجها أنت. فقال له: نعم. فوجه للشهود فحضرُوا، وعقدوا النكاح، واشترط عليه العيب الذي ذكر له، وأنزله، وأمره بالدخول على الصبية.

فلما دخل رأى ما لم يكن في وقتها أجمل منها ولا أغنى. فلما رآها قال لها: ما أنت التي تزوجت.

فجاءه الأب فقال له: هذه التي زوّجتك، وليس لي ولد ولا ابنة إلا هي. وقد كتبت لها جميع مالي، وأمتعتك المال، هي لك خادِم، وأنا عبد تنصرف فينا كيف شئت، والجنان لك.

فسأله عن موجب ذلك؟ فقال له: أين أجد أنا لابنتي من يكون له دين مثل دينك الذي مشيت هذه الأيام كلها من أجل حبة تين؟ وكيف لا أملكك قيادي وقيادها؟

فكان سبب خيره طلبه براءة ذمته، فإنه الأصل في السلامة.

وتكون السلامة أولاً بأداء الفرائض، وخلاء الذمة من التبعات. عافانا الله فيمن عافى بمتنه. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) كذا. والصواب: المُحالّة.

(٢) أي: أقر عينه بقبول قضاء حاجته.



## حديث جواز البيع في السفر وأحكام آخر

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، وَكُنْتُ عَلَى بَكْرِ صَعْبٍ<sup>(١)</sup>. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُمَرَ: بِغَنِيهِ. فَبَاعَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: هُوَ لَكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز البيع في السفر. والكلام عليه من وجوه:  
منها: قول ابن عمر، رضي الله عنه: كنت على بكرٍ صعب. يرادُّ عليه سؤال وهو أن يقال: ما فائدة قوله (صعب)؟ ولو اقتصر على ذكر البكر لكان كافياً، ولَحَصَلَ منه المقصود، وهم كانوا يختصرون من اللفظ أكثره مع إيصال الفائدة؟ (والجواب) عنه: أنه إنما ذكر (الصعب) لكي يبين به حكماً آخر، وهو أن صعوبة البكر كانت من بعض المثيرات لشراء النبي ﷺ إياه، فإن بشرائه إياه يُرَجَى ذهاب تلك الصعوبة، وفوائد آخر على ما يُقَرَّر بعد. فمن جملة فوائده ما ذكرناه في أول الحديث وهو جواز البيع في السفر.

ومنها: أن البيع ينقصد باللفظ دون افتراق، يقع رداً على من ذهب إلى غير ذلك.  
ومنها: جواز التصرف في المشتري قبل قبضه إذا كان عرضاً أو حيواناً بخلاف الطعام المكيل.  
ومنها: جواز التصرف في السلعة قبل دفع الثمن.  
ومنها: جواز طلب السلعة للبيع وإن كان صاحبها لم يعرضها للبيع.  
ومنها: أنه أدخل بذلك سروراً على عمر، رضي الله عنه، لأن البركة تحصل له بالثمن الذي يأخذه من النبي صلى الله عليه وسلم.

ومنها: أنه أدخل بذلك السرور على ابن عمر، رضي الله عنه، من وجهين: (أحدهما) لما يرجى من ذهاب صعوبة الجملة لبركة شراء النبي ﷺ إياه، (والآخر) أنه وهبه له.

(١) البكر: الفتى من الإبل. وصعب غير مُدَلَّل.

ومنها : أنه أدخل بذلك السرور على عمر ، رضي الله عنه ، لأن المسرة للابن مسرة للابن والأب .

ومنها : ما يترتب من التدب إلى أن السيد في قومه أو عشيرته مأمور أن ينظر في حال إخوانه ، فيلطف بالضعيف ويواسيه ، ويدخل السرور على إخوانه ابتداء ، كما فعل النبي ﷺ في سفره هذا مع ابن عمر ، حين رآه على ذلك الجمل بذلك الحال . ولهذا يقال : الإخوان على ثلاثة أضرب :

(فالأول) أن تكون تنظر أخاك بعين الفتوة ، فتفضله على نفسك ، كما قال تعالى ﴿ وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾<sup>(١)</sup> وكما فعل علي ، رضي الله عنه ، مع أبي بكر ، رضي الله عنه ، في الإسلام ، لأن علياً ، رضي الله عنه ، كان إذا لقي أبا بكر ، رضي الله عنه ، ابتداءً بالسلا ، فلما أن كان يوماً لقيه فلم يسلم عليه ، فابتدأه أبو بكر بالسلا وردّ عليه علي . فجاء أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ، فذكر له ذلك ، فإذا بعلي قد جاء ، فقال له النبي ﷺ : ما منعك أن تبديء أبا بكر اليوم بالسلا ؟ فقال يا رسول الله ، إني رأيت البارحة قصرأ في الجنة ، فأعجبني . فقلت : لمن هذا ؟ فقيل : لمن يتديء أخاه بالسلا ، فأردت أن أوثر اليوم أبا بكر به على نفسي<sup>(٢)</sup> . وكما فعل الصحابة ، رضوان الله عليهم ، حين ثقلوا بالجراح ، في قدح الماء . وقد تقدم ذلك في غير هذا الحديث .

(والثاني) : أن تنظر لأخيك مثل ما تنظر لنفسك ، لقوله ، عليه السلا ، (لا يبلغ أحد حقيقة الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)<sup>(٣)</sup> ، وقوله عليه السلا ، (المؤمن للمؤمن كالبنان يشد بعضه بعضاً)<sup>(٤)</sup> .

(والثالث) : أن تنظر لأخيك مثلما تنظر لعبدك - نعني في المطعم والملبس وقيامك له بما يصلح حاله - وأن تفعل ذلك لا بعين الاحتقار له ، والرفعة عليه ، لأن العبد يلزمك إطعامه وكسوته وكل ضروراته ، فإن لم تقدر على ذلك لم يجز لك إمساكه ، وأمرت ببيعه . وكذلك الأخ يلزمك منه هذا الأمر . فإن لم تقدر على ذلك من فاقة أو غير ذلك فالعذر إذ ذاك تبديه له حتى ينصرف بالتي هي أحسن من غير تغيير يقع له منك . فالعذر للأخ عند العدم كالبيع للعبد عند العدم لتوفية حقوقه ، وهذا أقل المراتب .

وفي الحديث دليل على أن المرء إذا تعرض له فعل من أفعال البر فإن قدر على أن يفعله - وهو يتضمن غيره من الأفعال الحسنة - كان أولى مما يتضمن ذلك الفعل وحده ، لأن النبي ﷺ لو

(١) سورة الحشر ، من الآية ٩ .

(٢) لم نقف على مصدره .

(٣) رواه ابن حبان في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) متفق عليه من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

أراد إزالة صعوبة الجمل لا غير لضربه بقضيبه، كما فعل، عليه السلام، لبعير كان لبعض الصحابة كذلك، فهرول بين يديه، وزال ما كان به، أو لركب البكر، كما ركب فرساً كان قطوفاً<sup>(١)</sup> لأبي طلحة<sup>(٢)</sup>، رضي الله عنه، فرجع الفرس عند ذلك بحراً لا يُلحق. ولكنه، عليه السلام، لما أراد إزالة ما كان بالجمل، وأمكن أن يتوصل إلى أفعال كثيرة، مع تضمن الأول، فعَل ذلك، ولم يقتصر على الفعل الواحد.

ومثل ذلك من أراد أن يتصدق بصدقة، فالأولى له أن يتصدق على قريبه، لأنه يحصل له بذلك فعلاً، وهما: الصدقة، وصلة الرحم. إلى غير ذلك من هذه الوجوه.

وبهذا المعنى: فضّل أهل الصوفة غيرهم، لأنهم عملوا على قدم الإحسان. فالأعمال في الظاهر واحدة، ومنازلهم أعلى من منازل غيرهم، لأن كل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً محسناً. وهم قد عملوا على ذلك حالاً، وصححوه مقالاً، كما جاء في الحديث المأثور المشهور، وهو حديث جبريل، عليه السلام، حين سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان ثم قال له: ما الإحسان؟ فقال عليه السلام، (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)<sup>(٣)</sup>. والله الموفق المستعان بمَنه وفضله.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) دابة قطوف: مبطة غير سريعة.

(٢) أبو طلحة بن سهل الأنصاري النقيب، شهد بدرًا وما بعدها، وهو من أهل السوابق في الإسلام، وهو المتصدق بأحب أمواله إليه (بَيْرَحَاء) وهو موضع بقرب المسجد بالمدينة يعرف بقصر بني جَدِيلَة. توفي سنة ٣٥ للهجرة وصلى عليه عثمان رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه من حديث عمر رضي الله عنه.

## حديث جواز كراء الأرض للمسلم ومنعها عن الذمي

عَنْ جَابِرٍ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيُزَرَها أَوْ لِيَمْنَحْها أَخَاهُ، فَإِنْ أَبِي فَلْيُمْسِكْ أَرْضَهُ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز كسب الأرض، وتحريم كرائها البتة، بعرض كان ذلك أو بغيره. وقد اختلف العلماء في ذلك، فمنهم من أجاز على الإطلاق، ومنهم من منع على الإطلاق، ومنهم من فرق فأجاز كراءها بالعين والعرض، ولم يُجزه بالطعام، وهو مذهب مالك، رحمه الله تعالى. وسبب اختلافهم اختلاف الأحاديث. كل منهم ذهب إلى حديث وعمل عليه. ومن شيم مالك، رحمه الله تعالى، الجمع بين الأحاديث، والعمل على مقتضى كل واحد منها من غير إبطال أحدها، فجمع بين كل الأحاديث التي جاءت في ذلك برأيه السديد، وبما أيده الله به من التوفيق.

وقد ذكر كيفية ذلك أهل الفقه في كتب الفروع، فلم يبق عليه من الأحاديث التي جاءت في كراء الأرض إلا الحديث الذي نحن بسبيله، وهو منع كرائها البتة، لكن قد وجهوا ذلك بأحسن توجيه. ونحتاج أن نبديه إذ هو المقصود من الحديث.

فإنه قد روي أن سائلاً سأل جابراً، رضي الله عنه، حين أخبر بذلك فقال: أرايت لو أكرمتها بالذهب والفضة؟ فقال جابر: لا بأس إذاً، إنما حُرِّم كراؤها بجزء منها، أو بما يخرج منها. وهذه الزيادة جاءت من طريق واحد، وما كان كذلك وساعده النظر والقياس، وكان جارياً على قواعد الشريعة، وجب العمل به. فلم يبقَ لمن تعلق بظاهر الحديث حجة، والله أعلم.

(١) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي: صحابي، من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ، وروى عنه جماعة من الصحابة. له ولأبيه صحبة. غزاة غزوة. وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم. روى له البخاري ومسلم وغيرهما / ١٥٤٠ / حديثاً. توفي سنة ٧٨ هـ / ٦٩٧ م. (انظر الحديث ٥٣).

وقوله عليه السلام، (فإن لم يفعل<sup>(١)</sup> فلْيُمْسِكْ أرضه) يَرُدُّ عليه سؤال، وهو: أنه، عليه السلام، أباح لصاحب الأرض أن يتركها بغير زراعة وبغير منفعة، وذلك إضاعة لها، وقد نهى، عليه السلام، عن إضاعة المال. والجواب عنه أنه، عليه السلام، إنما نهى عن إضاعة عين المال وعن منفعته التي لا تُجَبَّر ولا تُخْلَف، مثل الثمرة إذا تُرِكَت من غير سقي، ومن غير تذكير، فذلك إضاعة لمنفعتيها، ولا تُخْلَف ما ضاع منها هذه السنة في السنة الثانية؛ والأرض ليست كذلك، لأنها إذا تُرِكَت بغير زراعة هذه السنة فهي تُخْلَف السنة القابلة أضعاف ذلك، ثم إنها لو تركت بغير زراعة مرة واحدة فقد لا تخلو من المنفعة فيها، وهو ما ينبت فيها من الربيع والحطب والحشيش وغير ذلك مما ينتفع به المسلمون للرعي والحش وغير ذلك.

وقد يَسْتَدِل بالحديث مَنْ يَرَى أن التسبب مندوب إليه، لأن النبي ﷺ قال: (من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها) فأمر بهذين القسمين أولاً ثم قال عليه السلام، (فإن لم يفعل<sup>(١)</sup> فلْيُمْسِكْ أرضه) ومَسْك الأرض من المباح، فدل ذلك على أنه أمر أولاً بفعل المندوب، فإن لم يفعل المرء ذلك وترك المندوب فحينئذ يرجع إلى المباح فيمسك أرضه، لكن هذا ليس بالقوي من قِبَل أن التسبب والمنحة للأخ ليستا للندب على الإطلاق، وقد تكون مندوبة، وقد تكون مباحة، فإن كان التسبب من حاجة في وجه حلال، ولم يُخْلَ ذلك بدينه، فذلك مندوب إليه، وإن كان غير محتاج، وكان وجه التسبب حلالاً، ولا يخل بدينه كان ذلك مباحاً. والهدية قد تقدم تقسيمها في الحديث الذي روته عائشة، رضي الله عنها (أن النبي ﷺ كان يقبل الهدية ويثيب عليها). فلما أن كان هذان القسمان يحتملان الندب والإباحة فلاجل ذلك استحقا التقديم، لا أنهما مندوبان على الإطلاق.

وفيه دليل على جواز تملك الأرض. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام، (من كانت له أرض). وفيه دليل على منعها من الذمي. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام، (ليمنحها أخاه) يعني أخاه في الإيمان

وصلَّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) كذا. ونصّ الحديث: فإن آبي.

## حديث الأمر بتحريم الرجوع في الصدقة

عَنْ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: حَمَلْتُ عَلَى فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَرَأَيْتُهُ يُبَاعُ. فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: لَا تَشْتَرِهِ، وَلَا تَعُدْ فِي صَدَقَتِكَ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على تحريم شراء الصدقة، وإن كانت بشراء صحيح. وقد اختلف العلماء في ذلك. فمن قائل يقول بالإجازة، ومن قائل يقول بالكراهة، ومن قائل يقول بالتحريم - وهو الأظهر والله أعلم - كل منهم مستدل بنص هذا الحديث، وقد زيد في الحديث من طريق آخر (كالكلب يعود في قَيْئِهِ).

فوجه من قال بالإجازة هو أن قوله عليه السلام، (لا تشتريه ولا تعُدْ في صدقتك) نهى. والنهي لا يدل على فساد المنهي عنه على الإطلاق عنده - وهو أحد الأقوال للعلماء - وقد دل دليل على أن ذلك جائز، لأنه، عليه السلام، مثله بالكلب يعود في قَيْئِهِ، وذلك جائز له، فكذلك شراء الصدقة جائزة.

ومن قال بالكراهة: وجه قوله قريب من هذا المعنى، وهو أن فعل الكلب ذلك جائز له، لكنه قذر مستخبث، فكذلك شراء الصدقة يُسْتَخْبَث وَيُكْرَهُ، لأن المثل مثل الممثل به.

ووجه من قال بالتحريم - وهو الذي عليه الجمهور - هو: أن نص الحديث نهى عن شراء الصدقة. والنهي يدل على فساد المنهي عنه - عند بعض العلماء - وهذا قد قارنه ما يؤيد أنه على الفساد والتحريم، وهو أنه، عليه السلام، مثَّل من فعل ذلك بفعل الكلب، وهو عَوْدُهُ فِي قَيْئِهِ، وليس في الحيوان كله من يفعل ذلك غيره، لأنَّ الحيوان كله اجتمعت طباعه على النفور عن ذلك الفعل ومنعه، فكأنهم حرموه على أنفسهم وضماً، فكأنه، عليه السلام، يقول: كما أن الحيوان اجتمع على الامتناع مما فعله الكلب طبعاً، فكذلك شراء الصدقة ممنوعة شرعاً.

وقول عمر، رضي الله عنه: (حَمَلْتُ عَلَى فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) يحتمل أن يكون قوله (حَمَلْتُ)

بمعنى (تصدقتم)، ويحتمل أن يكون بمعنى (أعرت)، لكن الإعارة ليست هي المراد، لأنه لو كان عارضة لما جاز للمستعير بيعه. وقد يحتمل قوله (حملت) غير هذين الوجهين، لكن القرائن تدل على أنه كان صدقة لا غير ذلك، لقول النبي ﷺ (لا تَعُدْ فِي صَدَقَتِكَ)، فلم يبق إلا أن يكون تصدق به على رجل يجاهد في سبيل الله تعالى. وإنما أراد عمر، رضي الله عنه، أن يشتري الفرس حين وجده، لأنه كان عارفاً به وبجودته، وقد يكون الفرس ضاع عند من تصدق به عليه لقلة الأكل أو لغير ذلك، فأراد أن يشتريه لكي يزيل ما أصابه ويرده إلى ما كان، وهي الصدقة. هذا الوجه الذي أراده عمر، رضي الله عنه - والله أعلم - لأنه هو الذي يليق به، ولا يلتفت إلى من تأول غير ذلك.

والحديث دليل على أن المؤمن متوقف في أموره، لا يعمل شيئاً في كل تصرفه إلا بعلم من الكتاب أو من السنة. فإن كان جاهلاً بذلك فليسأل، ولا يجوز له الإقدام على العمل بغير علم، لأن عمر، رضي الله عنه، مع علمه ودينه ومع شجاعته وإقدامه على أمور لم يُقدِّم عليها غَيْرُهُ، ونزول القرآن على لسانه في مواضع، لما أن وجد الفرس يباع في السوق، ولم يتقدم له علم بما الحكم فيه من الشارع، عليه السلام، توقف عن شرائه حتى سأل النبي ﷺ، ما هو الحكم فيه. وهذا هو المعنى الذي أراد عليه السلام، بقوله في غير هذا الحديث (المؤمن وقاف)<sup>(١)</sup> لأن المؤمن لم يبق له اختيار ولا تدبير، وإنما أمره كله واقف مع كلام الشارع، عليه السلام، فما أمر به امتثله، وما نُهي عنه انتهى عنه.

ثم بقي على الحديث سؤال وارد. وهو أن عمر، رضي الله عنه، أخبر بأنه تصدق بالفرس، وذكر الصدقة ممنوع بقوله تعالى ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾<sup>(٢)</sup> قال المفسرون: الأذى هو ذكر الصدقة للناس.

والجواب عنه أن ذكر الصدقة إنما يكون إذابة<sup>(٣)</sup> إذا كان ذكرها لغير حاجة، وأما إذا أدت الضرورة إلى ذكرها فلا بأس. وعمر، رضي الله عنه، إنما ذكر الصدقة لأجل ما عرضه من الضرورة لذكرها، لأن بذكرها يعرف حكم الشارع، عليه السلام، فيما أراد أن يفعل. فإن قال قائل: ذلك غير ممتنع أن لو اقتصر على ذكرها للشارع، عليه السلام، ولكن لما أن حدث الناس بذلك، وَرَوَوْا عنه ما وقع له من ذلك ارتفعت تلك العلة، قيل له: وجه العلة التي لأجلها صرح بذلك للناس

(١) أخرج الديلمي عن أبان عن أنس رضي الله عنه: المؤمن كئس فطن حذر وقاف مثبت لا يعجل، عالم ورع، والمنافق هُمَزَةٌ لُمَزَةٌ خُطَمَةٌ، لا يقف عند شبهة ولا عند محرم كحاطب الليل لا يدري من أين اكتسب ولا فيما أنفق.

(٢) سورة البقرة، من الآية ٢٦٤.

(٣) كذا. ويريد: أذية.

واضحاً أيضاً، لقوله عليه السلام، (من هدى إلى هدى كان له أجره وأجر من عمل به)<sup>(١)</sup>، وقوله عليه السلام، (من بلغني حديثاً واحداً يُقيم به سنة أو يُزيل به بدعة كنت له شفعياً يوم القيامة)<sup>(٢)</sup> إلى غير ذلك من الأحاديث التي جاءت في هذا المعنى. ولما أن كان في مسألة عمر، رضي الله عنه، حكم شرعي، وقاعدة من قواعد الأحكام، أدته الضرورة لذكر ذلك للناس لكي يُقتدى به في ذلك، ولكي يقرر الدين ويبيته، فكانت الضرورة الأخيرة أكثر تأكيداً من الأولى.

ولهذا المعنى جاز لأهل الصوفة التحدث مع إخوانهم بما يُظهر الله على أيديهم من الكرامات وخرق العادات، لأن ذكرهم لذلك بين إخوانهم سبب لنشاطهم وسلوكهم ووصولهم إلى رضاهم، لأنه من باب (من هدى إلى هدى) كما تقدم؛ ومن باب قوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾<sup>(٣)</sup> هذا إذا كان ذكر ذلك بين الإخوان السالكين، لأن الضرورة تحملهم على الذكر لتلك العلة التي أشرنا إليها، وأما لغيرهم من العوام أو ممن ليس في طريقهم فذلك لا يسوغ، إذ لا فائدة في إخباره بذلك لهم إلا لكونهم يعظمونه ويحترمونه أو لغير ذلك من الوجوه الممتنعة. فالحمل كله على اختلاف أنواعه من صدقة وصيام وصلاة وغير ذلك ذكره محذور، لأنه داخل في عموم الآية التي تقدم ذكرها وهي قوله تعالى ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾ وقال في الآية الأخرى ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾<sup>(٤)</sup> فإن كان ذلك لعذر - والعذر ما قد أظهرناه - يخرج بذلك من عموم الآية، ويرجع من المندوب والمرغَّب فيه.

وفيه دليل لمالك، رحمه الله تعالى، في منعه الربا المعنوي، لأن البيع الثاني عنده كأن لا بيع، وأن السلعة بين الثمنين لغو، وجاءت الفضة متفاضلة غير يد بيد. وشرح هذه المسائل في كتاب بيوع الآجال من كتب الفروع في الفقه.

وفيه دليل على فصاحته، رضي الله عنه. يؤخذ ذلك من قوله (فرايته يباع فسألت رسول الله ﷺ) فحذف الجملة الثانية من الكلام وهي: سألت عنه. معناه هل يجوز لي شراؤه أو ليس يجوز لي ذلك؟ فحذفها لدلالة الكلام عليها واستغنى عنها بقوله (عنه). والله الموفق بمنه.

وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمداً وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

- (١) رواه الإمام أحمد ومسلم والأربعة عن أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ (من دعا إلى هدى إلخ . .).
- (٢) لم نثر عليه بهذا اللفظ، وإنما وجدنا قريباً منه من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، عند أبي نعيم في الحلية والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (٨٠): (من أدى حديثاً إلى أمي لتقام به سنة، أو تلزم به بدعة فله الجنة) وفي إسناده من يتهم بالكذب.
- (٣) سورة المائدة، من الآية ٢.
- (٤) سورة محمد، من الآية ٣٣.



## حديث تحليل نكاح المبتوتة لمطلقها الأول

عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ<sup>(١)</sup> رِفَاعَةَ الْقُرْظِيِّ<sup>(٢)</sup> إِلَى النَّبِيِّ، ﷺ، فَقَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَ رِفَاعَةَ فَطَلَّقَنِي فَأَبَتْ<sup>(٣)</sup> طَلَاقِي، فَتَزَوَّجْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ الزَّيْبِرِ<sup>(٤)</sup>، وَإِنَّ مَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ<sup>(٥)</sup>. فَقَالَ: أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟ لَا، حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ<sup>(٦)</sup> وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكَ. وَأَبُو بَكْرٍ جَالِسٌ عِنْدَهُ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على تحريم المطلقة المبتوتة على من طلقها حتى تنكح زوجاً غيره بينكاح صحيح، وَيَطَّأَهَا وَطْئاً مَبَاحاً.

قوله (فَأَبَتْ) أي وصل إلى الثلاث التي الرجعة بعدها ممنوعة. وهذا من كثرة اختصارها وبلاغتها في الفصاحة، لأنها شَكَتَ حَالَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَأَتَتْ إِلَيْهِ بِمَسَائِلَ جَمَلَةٍ بِلَفْظٍ قَلِيلٍ، لِأَنَّ قَوْلَهَا (فَأَبَتْ) إِلَى قَوْلِهَا (فَتَزَوَّجْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ الزَّيْبِرِ، وَإِنَّ مَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ) مَعْنَاهُ أَنَّهَا تَقُولُ لَهُ: ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي أَصَابَنِي مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي تَزَوَّجْتَ بِهِ - وَهُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ - لَيْسَ مَعَهُ مِمَّا يَبْلُغُ بِهِ النِّسَاءَ إِلَى أَغْرَاضِهِنَّ - تَعْنِي فِي النِّكَاحِ - فَكُنْتُ عَنْ ذَلِكَ بِأَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الْكُنَايَةِ، لِأَنَّ قَوْلَهَا (إِنَّ مَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ) كُنَايَةٌ مِنْهَا عَنِ الْفَرْجِ، فَهِيَ تَقُولُ: لَيْسَ مَعَهُ بِمَا يَصِيبُ النِّسَاءَ، لِأَنَّ فَرْجَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ. وَهُدْبَةُ الثَّوْبِ: الْخِيُوطُ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالثَّوْبِ وَتَتَدَلَّى مِنْهُ، وَهِيَ الْأَطْرَافُ.

(١) امرأة رِفَاعَةَ الْقُرْظِيِّ: اسمها تميمية بنت وهب.

(٢) رِفَاعَةُ الْقُرْظِيِّ: ابن سموءل من بني قريظة.

(٣) أَبَتْ طَلَاقِي: جعله باتاً لا رجعة فيه.

(٤) عبد الرحمن بن الزَّيْبِرِ: هو ابن باطا القرظي. وكان تزوج تميمية بنت وهب بعد طلاقها من رِفَاعَةَ، فاعترض عنها، ولم يستطع أن يمسّها، فشكته إلى رسول الله ﷺ، فذكر حديث العسيلة.

(٥) هُدْبَةُ الثَّوْبِ: طرف الثوب الذي لم ينسج، والمقصود به هنا: شدة الارتخاء والليونة.

(٦) عسيلته: كناية عن لذة الجماع وحلاوته.

وقوله عليه السلام، (أتريدن أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقي عُسَيْلَتَهُ وذوق عُسَيْلَتَكَ) فهذا أيضاً من أبدع ما يكون الإبداع في الفصاحة والاختصار مع إيصال الفائدة وحسن الكناية، لأنه عليه السلام، كَتَبَ عن نفس الجماع بقوله (حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ) فَكَتَبَ بالعسل عن الجماع، لأن العسل فيه حلاوة وَيُلْتَذُّ بأكله، والجماع له حلاوة من نسبه أيضاً وَيُلْتَذُّ به.

وقولها (وأبو بكر جالس عنده) فيه دليل على أن الحياء في الدين عند الضرورة لبيان ما يحتاج المرء من دينه ممنوع، لأنها سألت النبي ﷺ عن هذا الأمر، وهو مما يُسْتَحْيَا منه، وأبو بكر حاضر، فكان ينبغي أن يكون ذكر ذلك، إذ لا بد منه، وهو وحده. ولكن لما أن كان لا بد لها من السؤال عن ذلك، ولم تجد النبي ﷺ وحده، لم يمنعها الحياء أن تسأل بحضرة أبي بكر. ثم إن أبا بكر، رضي الله عنه، صهر رسول الله ﷺ، وهذا الأمر مما يُسْتَحْيَا منه بحضرة الأصهار، فلم يَنْهَها النبي ﷺ عن سؤالها، وأفصح لها بمرادها مع حضرة أبي بكر، رضي الله عنه، وإن كان صهره. هذا مع شدة حيائه، عليه السلام، لكن لما أن كان الأمر في الدين لم يمنعه الحياء من الكلام به. ولهذا قالت عائشة (نِعِمَّ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ، لَمْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ)<sup>(١)</sup>. فالحياء في مثل هذا الأمر لا يسوغ، وهو ممنوع شرعاً.

لكن يعارض هذا ما روي عن علي، رضي الله عنه، أنه أمر المقداد أن يسأل له رسول الله ﷺ عن الرجل إذا أُمِّدَى<sup>(٢)</sup>، ماذا عليه؟ وعلل ذلك بأن قال: استحيت أن أسأل رسول الله ﷺ لمكان ابنته<sup>(٣)</sup>. والجمع بينهما هو أنه إذا وجد المرء من يقوم مقامه فلا بأس، وإن لم يجد فلا يجوز له أن يسكت عنه، لأن النبي ﷺ لم يكن له بد من الإفصاح بذلك، لأن غيره لا يقوم مقامه فيه، وعلي، رضي الله عنه، وجد سبيلاً إلى وصوله إلى الفائدة التي أراد من غير أن يتعرض بنفسه إلى السؤال.

وفيه دليل على أن البشر معذورون فيما جُبِلَت عليه البشرية من احتياجهم إلى الأكل والشرب والجماع وما أشبه ذلك، وأنهم معذورون في التسبب إلى ما يزيلون به ذلك، إذا لم يقدرُوا على الصبر عنه. إلا أنه على لسان العلم، وإلا فلا عذر فيه. يؤخذ ذلك من كون هذه المبركة لم تقلر أن تستغني عن النكاح لقوة الباعث عليه في ذلك، فَشَكَتَ ذلك لرسول الله ﷺ فَعَذَرَهَا في الشكوى،

(١) رواه مسلم في الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة فرصة من مسك في موضع الدم. (والفرصة) هي قطعة

قطن أو صوف أو خرقة تتمسح بها المرأة من الحيض.

(٢) أُمِّدَى: خرج منه المَذْيُ عند الملاعبة والتقبيل. (والمَذْيُ): ماء رقيق يخرج من مجرى البول عند الملاعبة

والتقبيل من غير إرادة.

(٣) رواه البخاري في الغسل، باب غسل المَذْي والوضوء منه، وفي العلم، باب من استحيا فأمر غيره بالسؤال، ورواه مسلم في الحيض، باب المذي.

لأنه لم يُشْرَب<sup>(١)</sup> عليها ولا زَجَرَهَا، ولم يَغْذِرْهَا في قاعدة الشرع، ومنعها بأن قال: لا، حتى تذوق عسيلته.

وفيه بحث هو أن يقال لم قال (حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك) ولم يخبر بالوصف الواحد؟ والجواب عن ذلك أنه لما كُنِيَ عما يجد المتناكحان من لذة النكاح، كما يجده آكل العسل، فلا يكون النكاح الصحيح إلا بهذين الوصفين، لأنه إذا كان أحدهما قَوِيَّ الشهوة للنكاح أَمْنَى قبل بلوغ الختان إلى الختان، وهذا الإماء هو الذي عبّر عنه بالعسيلة، فيكون قد أصاب عسيلة صاحبه ولم يحصل صفة النكاح الذي يُحل المطلقة ثلاثاً، لأنه لا يحصل حتى يجاوز الختان<sup>(٢)</sup> الختان. ولا يجد الاثنان حلاوة النكاح الذي هو الإماء<sup>(٣)</sup> غالباً، إلا بعد حصول الصفة المذكورة التي تُحل المطلقة ثلاثاً لزوجها الأول، وهو مجاوزة الختان الختان. فمن أجل هذه العلة ذكر ﷺ العسيلة مرتين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

الكتاب النادر الذي تفرّغ له المؤلف

- 
- (١) لم يشرب عليها: لم يلمها ولم يعتفها.  
(٢) الختان: موضع القطع من الذكر والأنثى.  
(٣) الإماء: إنزال المنى.

## حديث يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي بِنْتِ حَمْزَةَ: لَا تَحِلُّ لِي .  
يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ . هِيَ بِنْتُ أَخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ .

\*\*\*

ظاهر الحديث يفيد التحريم بالرضاعة كما هو بالنسب .

وفيه دليل على أن للولي أن يخطب لوليته من يرتضيه من الرجال، لأن ابنة حمزة خُطبت للنبي ﷺ، ورغب فيها، وهذا أمر قد يعافه بعض أهل هذا الزمان، وهو مخالف للسنة، بدليل الحديث الذي نحن بسبيله . هذا من جهة السنة، وإذا وقع النظر في معنى ذلك تأكد الأمر فيه حتى إنه أكد من خطبة الرجل المرأة، لأن الرجل إذا تزوج فأمرُ الفراق بيده، فإن أعجبه ما أتاه وإلا تركه، ولا مانع له منه، والمرأة ليس بيدها ذلك . فإذا حصل لها رجل غير مَرَضِي وقعت في حيرة ونُشْبَةٍ<sup>(١)</sup>، ولا انفكاك لها منه غالباً .

فتأكد الأمر أن يكون المرء ينظر لوليته ويخطب لها، لعله أن يقع على أهل الفضل والدين، لأنه إذا أعطاها لمن يرتضيه في الدين فهي بين أمرين: إما أن يوفق الله بينهما فتستريح الولية بذلك، وتنال خير الرجل في الدنيا وفي الآخرة . وإن كان غير ذلك فقد خلص من ظلمها، لأن أهل الدين لا يقعون في الظلم البتة . بل إذا وقع الفراق فلا بد أن تكون المرأة قد نالت من بركتها شيئاً، فيحصل لها الخير من كلا الأمرين . بل أهل الدين والخير سيرتهم تقتضي ألا يقع الفراق، لأنهم لا يتزوجون إلا لصالح دينهم، وامتنالاً لسنة نبيهم . ومن تزوج لهذا المعنى لا ينظر إلى الجمال ولا إلى المال ولا إلى حسن الهيئة والكمال، وإنما ينظرون إلى من يوافقهم ويعينهم على مرادهم، وما هم إليه

(١) النُّشْبَةُ من الرجال: الذي إذا نُشِبَ بشيء لم يكذب يفارقه . ومنه: أنشِبَ مخالبه به، وأنشِبَ الصائد: علق الصيد بحبالته . وهو كناية عن صعوبة تخلص الزوجة .

صائرون، وعليه قادمون من أمر آخرتهم. فتأكد الأمر لأجل هذا المعنى في خطبة أهل الخير والصالح من النساء للرجال.

وفي الحديث دليل لأهل الصوفة لقولهم بجبر القلوب، لأن ابنة حمزة عما نقل عنها كانت في الجمال لها الكمال، فخطبت إلى رسول الله ﷺ فأدركت نساءه الغيرة من ذلك، فقال عليه السلام، (لا تحل لي) وبين العلة المانعة له منها حتى جبرهن بذلك، فكان في إخباره عليه السلام، بذلك فائدتان: تقعيد قاعدة من قواعد الشريعة، وجبر نسائه مما كُنَّ يتوقعن.

ولا يظن ظان أن غيرتهن كانت لحظوظ أنفسهن، إذ ذاك لا يسوغ في حقهن، إذ هنَّ مختارات لخير البرية، وإنما كانت غيرتهن لله، عز وجل، لأن كل واحدة منهن تريد أن تتقرب إلى رسول الله ﷺ بكل ممكن يمكنها لعلها تتقرب بذلك إلى الله، عز وجل. فمحبتهم له كانت لأجل الله، ومحبتة، عليه السلام، لهن، وتفضيل بعضهن على بعض كانت لأجل الله أيضاً، ولما خص الله به كل واحدة منهن، وهن أجل من أن تقع المحبة منهن لسبب الذوات والأشخاص، بل هذا الحال أوصى به، عليه السلام، لأمته فقال (تُتَزَوَّج المرأة لجمالها ومالها ودينها وحسبها)<sup>(١)</sup> ثم قال عليه السلام، (عليك بذات الذين تربت يداك) فأخبر، عليه السلام، لِمَ تُتَزَوَّج المرأة، ثم أرشد إلى ما هو الأصلح والأسد.

ولأجل هذا المعنى كان، عليه السلام، يفضل عائشة على غيرها من نسائه حتى قيل له مرة: أي النساء أحب إليك؟ قال: عائشة<sup>(٢)</sup>. وهذا الإخبار قد يستفز الشيطان بعقل بعض من يسمعه، وهو غير عالم بحال النبي ﷺ وبسيرته، فيظن أنه أحب عائشة لأجل الصغر والجمال، وذلك باطل، بدليل ما قدمناه. وقد صرح، عليه السلام، بالعلة التي أشرنا إليها، وذكر لم فضلها على غيرها حين سأله نسائه أن يعدل بينهن في المحبة، فقال، عليه السلام، في حق عائشة (إنه لم يوح إليّ في فراش إحداكن إلا في فراشها)<sup>(٣)</sup>، فكان تفضيله عليه السلام، لها من قبل أن الله عز وجل فضلها وخصّها بذلك، وقد قال عليه السلام، (خذوا عنها شطر دينكم)<sup>(٤)</sup>.

وقد توفي عنها، عليه السلام، وهي ابنة ثمان عشرة سنة، والعادة تقتضي أن من كان في ذلك

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ (تنكح المرأة لأربع . . .).

(٢) رواه البخاري في الفضائل ومسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) قطعة من حديث رواه الشيخان في فضائل الصحابة، باب فضل عائشة رضي الله عنها.

(٤) قال ابن القيم في المنار: حديث باطل وكذب مختلف. وقال الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص ٣٩٩ رقم ١١٧٩: قال ابن حجر: لا أعرف له إسناداً، ولا رأيت في شيء من كتب الحديث إلا في نهاية ابن الأثير، وإلا في الفردوس بغير إسناد، وسئل المزي والذهبي فلم يعرفاه. كذا في المقاصد.

السن من النساء ليس له قابلية للعلم لأجل صغره، ثم إنها مع ذلك أُخِذَ عنها شطر الدين، وهذه مزية  
كبرى خصها الله بها، وفضلها بذلك على غيرها. وقد جاءت آثار في فضلهن بأجمعهن، وآثار  
بفضل كل واحدة منهن بشخصها، فكان عليه السلام، يفضل كل واحدة بحسب ما فضلها الله به  
وخصها، فكان أصل المحبة منه ومنهن لله لا لغيره، ولا يظن أحد فيهن غير ذلك إلا من جهل  
قدرهن، وقاس أحوالهن على أحوال غيرهن. والله الموفق للصواب.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

## حديث النهي عن مدح الرجل في وجهه

عَنْ أَبِي مُوسَى <sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيه فِي مَدْحِهِ فَقَالَ: أَهْلَكْتُمْ، أَوْ قَطَعْتُمْ، ظَهَرَ الرَّجُلِ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على تحريم مدح الرجل في وجهه، لأن النبي، ﷺ شَبَّهَ ذلك بالقطع أو الهلاك، وذلك ممنوع. لكن يعارضه قوله، عليه السلام، في عبد الله بن عمر (نِعَمَ الرَّجُلُ لو كان يَقُومُ اللَّيْلَ) <sup>(٢)</sup>، وعبد الله بن عمر، رضي الله عنه، حاضر يسمع، وتلك تزكية له وثناء عليه؟ والجمع بينهما من وجوه:

(الأول) أن ما قاله النبي ﷺ لابن عمر لم يكن منه ابتداءً ولا جواباً لسؤال سائل، وإنما كان ذلك تفسيراً لرؤيا رآها ابن عمر، فاقتضى تفسيرها ما قاله النبي ﷺ، وذلك أن عبد الله بن عمر كان يرى الناس يأتون النبي ﷺ بِمَرَاءٍ <sup>(٣)</sup> فيفسرها لهم، فيتمنى في نفسه أن لو رأى رؤيا فيسأل عنها النبي ﷺ كما يفعل الناس، فرأى رؤيا، فسأل عنها فاقتضت رؤياه أنه من الصالحين، لكن نقص منه كونه

(١) أبو موسى الأشعري: هو عبد الله بن قيس، من بني الأشعر، من قحطان. صحابي من الشجعان الولاة الفاتحين، وأحد الحكمين اللذين رضي بهما علي ومعاوية بعد حرب صفين. ولد في زبيد (باليمن) وقدم مكة عند ظهور الإسلام، فأسلم، وهاجر إلى أرض الحبشة، ثم استعمله رسول الله ﷺ على زبيد وعدن. وولاه عمر ابن الخطاب البصرة سنة ١٧هـ فافتتح أصبهان والأهواز. ولما ولي عثمان أقره عليها، ثم عزله، فانتقل إلى الكوفة، فطلب أهلها من عثمان توليته عليهم، فولاه، فأقام بها إلى أن قتل عثمان، فأقره علي. ثم كانت وقعة الجمل، وأرسل علي يدعو أهل الكوفة لينصروه، فأمرهم أبو موسى بالعودة في الفتنة، فعزله علي، فأقام إلى أن كان التحكيم، وخدعه عمرو بن العاص، فارتد أبو موسى إلى الكوفة، فتوفي فيها سنة ٤٤هـ / ٦٦٥م. وكان أحسن الصحابة صوتاً في التلاوة، خفيف الجسم، قصيراً. وفي الحديث: (سيد القوارس أبو موسى). له ٣٥٥ حديثاً رضي الله عنه. (انظر الحديث ٦١).

(٢) متفق عليه.

(٣) المراعي: الأحلام التي يراها النائم في منامه.

لا يقوم الليل . وقد ثبت عنه ، عليه السلام ، أنه قال (الرؤيا الصالحة من النبوة ، وما كان من النبوة فهو وحي)<sup>(١)</sup> ، والوحي لا يجوز كتمه ، فلذلك أبدى ما كان هناك .

(الثاني) أن تعارض الحديثين يبين معناه ، ويفصح بالمراد في كليهما ، حديثان آخران . وهما قوله عليه السلام (لا تُزَكُّوا على الله أحداً ، ولكن قولوا : إخاله كذا أو أظنه كذا)<sup>(٢)</sup> ، وقوله عليه السلام (إذا رأيتم الرجل يواظب المسجد فاشهدوا له بالإيمان)<sup>(٣)</sup> ، فتحصل من مجموع هذه الأحاديث أن التزكية بالقطع ممنوعة مطلقاً ، لأن القطع بها حكم على الغيب ، والحكم على الغيب بالنسبة إلى البشر مستحيل .

وأما تزكية الشخص فلا يخلو أن تكون من الإنسان نفسه لنفسه ، أو من غيره . فإن كانت من الإنسان نفسه لنفسه بأن يذكر محاسنه فهو على ضربين : مذموم ومحمود . (فالمذموم) أن يذكره بالافتخار ، وإظهار الارتفاع ، والتميز على الأقران ، وشبه ذلك ، فهذا لا يجوز لقوله تعالى ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾<sup>(٤)</sup> . (والمحمود) أن يكون فيه مصلحة ، ونية في ذلك بأن يكون أمراً بالمعروف ، أو ناهياً عن المنكر ، أو ناصحاً ، أو مستشيراً لمصلحة ، أو معلماً ، أو مؤدباً ، أو واعظاً ، أو مذكراً ، أو مصلحاً بين اثنين ، أو يدفع عن نفسه شراً ونحو ذلك ، فيذكر محاسنه ناوياً بذلك أن يكون هذا أقرب إلى قبول قوله واعتماد ما يذكره ، أو أن هذا الكلام الذي أقوله لا تجدونه عند غيري فاحتفظوا به أو نحو ذلك .

وإن كانت من غيره فلا يخلو أن يكون في وجه الممدوح ، أو بغير حضوره . فأما الذي في غير حضوره فلا مانع منه إلا أن يجازف المادح فيدخل في الكذب ، فيحرم عليه بسبب الكذب لا لكونه مدحاً . ويستحب هذا المدح الذي لا كذب فيه إذا ترتبت عليه مصلحة ، ولم يجرَّ إلى مفسدة ، بأن يبلغ الممدوح فيفتن به أو غير ذلك . وأما المدح في وجه الممدوح فلا يخلو أن يكون تزكية له عند الحاكم لكي تقبل شهادته أم لا<sup>(٥)</sup> . فإن كان كذلك فهي جائزة امتثالاً لأمر الشارع ، عليه السلام ، في ذلك ، وإن كانت لغير ذلك فهي الممنوعة في الحديث .

ولأجل هذا المعنى قال عليه السلام : (ولكن قولوا : إخاله كذا أو أظنه كذا) ، فنفي التزكية مرة واحدة وأثبت الظن ، لأن عمله يقوي الظن بأنه من أهل الخير والصلاح ، وأما حقيقة أمره فهي إلى

(١) متفق عليه من حديث أنس بن مالك وعبادة بن الصامت وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم .

(٢) تقدم تخريجه في الحديث رقم / ٨٧ .

(٣) تقدم تخريجه في الحديث رقم / ٨٧ .

(٤) سورة النجم ، من الآية ٣٢ .

(٥) كذا . والصواب : أو لا .



الله . ولأجل هذا المعنى قال ، عليه السلام (من مات على خير عمله فارجوا له خيراً ، ومن مات على شرِّ عمله فخافوا عليه ، ولا تيأسوا)<sup>(١)</sup> . فأمر عليه السلام بالرجاء في الرحمة لمن مات على خير العمل ، ولم يخبر بأن من مات على ذلك كان من أهل الرحمة على كل حال . هذه هي التزكية الممنوعة .

وأما الشهادة فهي جائزة ، لأنها لا تتناول إلا ما وقع من الفعل ، لأنه ، عليه السلام قال (إذا رأيتم الرجل يواظب المسجدَ فاشهدوا له بالإيمان) . فالشهادة إنما وقعت على شيء وُجد حساً ، والفعل الحسي الذي قد ظهر دليل على الإيمان ، وعلّة الإعجاب فيها معدومة ، لأنها شهادة بالأصل وهو الإيمان .

(الثالث) أن معنى النهي عن مدح الرجل في وجهه هو خوف الاغترار والإعجاب ، وهو ممنوع شرعاً . ومما يؤيد هذا قوله عليه السلام (لو لم تُذنبوا لَخِفْتُ عليكم ما هو أشدُّ . وهو الإعجاب)<sup>(٢)</sup> ، ولهذا قال عليه السلام (احثوا التراب في وجوه المداحين)<sup>(٣)</sup> ومعناه : احرصوهم مما أرادوا لئلا يزيدوا في المدح ، فيقع الإعجاب لمدحهم . وهذا المعنى الذي أشرنا إليه قد أهمله اليوم جُلُّ الناس ، وعملوا على مقتضى النهي وارتكبوه ، فكثرت المدح عندهم بعضهم لبعض في الظاهر مع الضغائن في النفوس ، وعداوة بعضهم لبعض في الباطن ، وجعلوا نفس ارتكاب النهي من النبل والكَيْس . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ولكن الوقت يقتضي هذا الأمر لأن الشارع ، عليه السلام ، أخبر بذلك ، فما لنا حيلة في زواله ، لأنه عليه السلام قال (يأتي في آخر الزمان قوم إخوان العلانية أعداء السريرة) قيل : وكيف يكون ذلك يا رسول الله قال (يكون برهبة بعضهم من بعض ، ورغبة بعضهم في بعض)<sup>(٤)</sup> فالحذر الحذر من بُئلي وكَيْسٍ . قد ذمه الشارع ، عليه السلام ، وجعله دالاً وعلماً على قيام الساعة . فإذا كان المراد بالنهي عن المدح خوف الإعجاب ، فقد يكون النبي ﷺ قد أطلعه الله على حال هذا الرجل الممدوح ، وعلم منه بأنه يهلك بذلك لإعجابه بما يقال فيه . وقد يحتمل أن يكون ذلك منه ، عليه السلام ، سداً للذريعة ، وهذا موجود حساً ، لأن الناس لم يتساووا في هذا المعنى . فمنهم من إذا ذُكر له شيء من ذلك اغترَّ ورأى أن ذلك من فعله وقوته .

(١) رواه الديلمي في الفردوس ١٤٩/٤ ورواه القضاعي في مسند الشهاب وعبد الله بن المبارك في الزهد وهو حديث مرسل (وقد تم تخريجه في الحديث ٩) .

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان وعزاه المنذري في الترغيب إلى البزار وقال : إسناده جيد .

(٣) رواه مسلم في الزهد ، باب النهي عن المدح من حديث المقداد ، ورواه أبو داود والترمذي .

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند ٥/٢٣٥ والبزار والطبراني في الأوسط ، ولفظه : يكون في آخر الزمان أقوام إخوان العلانية ، أعداء السريرة . قال : يا رسول الله ، كيف يكون ذلك ؟ قال : برغبة بعضهم إلى بعض ، وبرهبة بعضهم من بعض .

ومنهم من إذا سمع شيئاً من ذلك ازداد خوفاً من الله وإشفاقاً، وعابن مئة الله عليه بتوفيقه إياه لما مدح به، فيزداد خيراً إلى خيره، فيزيد في العمل شكراً لله، عز وجل، الذي جعله من أهل الخير ولم يجعله من أهل الشر، كما كان ذلك الإخبار سبباً إلى زيادة التعبد والخير لعبد الله بن عمر، لأنه روي أنه منذ قال له النبي ﷺ ما قال، لم يترك بعده قيام الليل. وكذلك أيضاً قوله، عليه السلام، لأشج عبد القيس<sup>(١)</sup> (إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة)، فقال الرجل: ذلك مني، أو من شيء جبلني الله عليه؟ فقال عليه السلام (بل من شيء جبلك الله عليه)<sup>(٢)</sup>، فقال الرجل: الحمد لله الذي جبلني على خصلتين يحبهما الله ورسوله. فحمد الله على ما أولاه من ذلك وشكر، فقد يكون النبي ﷺ قد أطلعه الله، عز وجل، على حال هذا السيد، فعلم أن إعلامه بذلك يزيد خيراً، فأعلمه كما تقدم ذلك في الأول.

والمدح في وجه الممدوح قد جاءت أحاديث تقتضي إباحته أو استحبابه، وأحاديث تقتضي المنع منه. قال العلماء: وطريق الجمع بين الأحاديث أن يقال. إن كان الممدوح عنده كمال إيمان، وحسن يقين، ورياضة نفس، ومعرفة تامة، بحيث لا يفتن ولا يفتّر بذلك، ولا تلعب به نفسه، فليس بحرام ولا مكروه. وإن خيف عليه شيء من هذه الأمور منع من ذلك.

ثم هذه التزكية التي نهى الشارع، عليه السلام، عنها إنما هي تزكية نفس الشخص. وأما مدح الأعمال فلا بأس بذلك، بل هي مندوبة، بدليل حديث السقاية الذي قال، عليه السلام، فيه (اعملوا فإنكم على عمل صالح)<sup>(٣)</sup>. فمدح لهم الفعل ولم يمدح لهم أنفسهم، ولأن مدح العمل ليس من قبيل مدح الشخص، لأن مدح العمل يزيد لصاحبه الحرص على الزيادة في العمل، فيكون ذلك سبباً إلى زيادة الخير. ومدح الشخص نفسه يدخله ما قدمناه من الإعجاب.

وفي الحديث دليل على جواز الكلام والتحدث بحضرة أهل الفضل، لأن الصحابة، رضوان الله عليهم، كانوا يتحدثون والنبي ﷺ، يسمعهم.

وقوله (أهلكتم، أو قطعتم، ظهر الرجل) هذا شك من الراوي في أيهما قال عليه السلام. وبالله التوفيق.

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) أشج عبد القيس: اسمه المنذر بن عائذ. كان سيد قومه، وفد في بني عبد القيس على النبي ﷺ وعرف بالحلم والأناة.

(٢) رواه مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) قطعة من حديث رواه البخاري ابن عباس رضي الله عنهما (وهو موضوع الحديث ٨٠).

## حديث الثلاثة المذنبين

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِطَرِيقٍ يَمْنَعُ مِنْهُ ابْنَ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِلدُّنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مَا يُرِيدُ وَقَبِلَ لَهُ، وَإِلَّا لَمْ يَقَبِلْ لَهُ. وَرَجُلٌ سَاوَمَ رَجُلًا سِلْعَةً بَعْدَ الْعَصْرِ، فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ أُعْطِيَ بِهَا كَذَا وَكَذَا، فَأَخَذَهَا.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على تحريم الثلاثة المذكورة فيه، وأنها من كبائر الذنوب.

وقوله عليه السلام (رجل، على فضل ماء بطريق يمنع منه ابن السبيل). قد اختلف العلماء ما هو الماء الذي لا يجوز منعه اختلافاً كثيراً؟ فمنهم من ذهب إلى أنه على العموم، سواء أكانت الأرض مستملكة أو غير مستملكة، ومنهم من ذهب إلى أنه خاص بالآبار التي ليست مستملكة، وتكون في الفيافي والقفار. وقد ذكر الخلاف في كتب الفقه.

ويُرد على الحديث سؤال، وهو أن يقال: قد تقرر من الشارع، عليه السلام، أنه يخصص صاحب كل فعل من أفعال المعاصي بعذاب يخصه من غيره، كما قال في الغادر، وكما قال في آكل الربا إلى غير ذلك. وهؤلاء الثلاث<sup>(١)</sup> المذكورون في الحديث أفعالهم مختلفة، فلم كان عذابهم واحداً؟ والجواب عنه: أنهم إنما اشتركوا في عذاب واحد لمعنى جمع بينهم في فعلهم.

وذلك أن مانع الماء قد تعرض بفعله ذلك إلى منع الطرق، وقد يؤول إلى ذهاب النفوس، سيما إذا كان الموضع في الفيافي والقفار بحيث لا وجود ماء غيره، وقليل من يصبر على العطش. فإذا عاين الماء ومنع منه مات بنفسه، فكان ذلك سبباً لقتل النفس التي حرم الله تعالى، وقد قال تعالى ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا فَجَزَاءُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) كذا. والصواب: الثلاثة.

وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا<sup>(١)</sup>. فلما أن كان مانع الماء لم يقتل بيده، ولكن تسبب في القتل، كان عليه الوعيد المذكور في الحديث.

وأما من بايع رجلاً لا يبايعه إلا للدنيا فذلك فيه من الفساد مثل ما قدمناه أو يزيد عليه، لأن البيعة أصلها أن تكون لله ولا تتلاف كلمة المؤمنين، وبالتلاف الكلمة يكون الذب عن الدين وجهاد العدو. فإن كانت البيعة للدنيا وحطامها وحظوظ النفوس ورغبتها انصرف ما أريدت البيعة له إلى ضده، وهو سفك دماء المسلمين، ووقوع الخلل في الدين، فأشبه الأول أو زاد عليه.

وأما من ساوم رجلاً سلعة بعد العصر، فحلف بالله لقد أعطى، بها كذا، فإنما اشترك مع من تقدم ذكرهما في العذاب، لكونه ارتكب خمسة أشياء عظيمة محرمة، وهي: الخيانة، والكذب، واليمين الفاجرة، وغش المسلمين، واختراق حرمة هذا الزمان الفاضل، وهو بعد صلاة العصر. فلما أن ارتكب هذه الخمسة الأشياء على عظمها كان مساوياً في العذاب لمن تعرض لقتل النفس.

وفي الحديث دليل على فضل وقت العصر، لأن النبي ﷺ شرط أن يكون من موجبات العذاب الذي ذكر مصادفة وقت العصر. وقد اتفق العلماء على فضل ذلك الزمان بعد اختلافهم: هل هي الصلاة الوسطى أم لا؟ وبالله التوفيق.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) سورة النساء، من الآية ٩٣.

## حديث الإفك وبراءة السيدة عائشة أم المؤمنين منه

عن عائشة، رضي الله عنها، زوج النبي، ﷺ، قالت: كان النبي، ﷺ، إذا أراد أن يخرج سقراً أقرع<sup>(١)</sup> بين أزواجه، فأيتُّهنَّ خرج سهمها خرج بها معه. فأقرع بيننا في غزوة غزاه، فخرج سهمي. فخرجتُ معه بعدما أنزل الحجاب. فأنا أحملُ في هودجٍ وأنزلُ فيه. فسيرنا حتى إذا فرغ رسولُ الله ﷺ من غزوته تلك وقفل، ودنونا من المدينة، آذنَ ليلةً بالرحيل، فقمْتُ حين آذنوا بالرحيل فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيشَ.

☆ ☆ ☆

فلما قضيتُ شأني أقبلتُ إلى الرحل، فلمستُ صدري فإذا عقدٌ لي من جَزَعٍ<sup>(٢)</sup> أظفارٍ قد انقطع، فرجعتُ فالتَمَسْتُ عقدي فحبسني ابتغاؤه. فأقبلَ الذين يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنتُ أركبُ، وهم يحسبون أنني فيه. وكان النساءُ إذ ذاك خيفاً لم يثقلن ولم يغشهنَّ اللحمُ، وإنما يأكلن العُلقة<sup>(٣)</sup> من الطعام. فلم يستنكرِ القومُ حين رفعوه ثقل الهودجِ فاحتملوه. وكُنْتُ جاريةً حديثة السنَّ، فبعثوا الجمَلَ وساروا. فوجدتُ عقدي بعدما استمرَّ الجيشُ، فجنْتُ منزلهم وليس فيه أحد. فأَمَمْتُ منزلي الذي كنتُ فيه، فظننتُ<sup>(٤)</sup> أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ.

☆ ☆ ☆

(١) أقرع: ضرب القرعة.

(٢) جَزَعُ أظفار: خرز في سواده بياض كالعروق.

(٣) العُلقة: القليل من الطعام الذي يسد الجوع.

(٤) ظننت: أيقنت.

فبينما أنا جالسةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ، وكان صفوانُ بن المعطلِ السُّلَميُّ<sup>(١)</sup> ثم الذَّكْوانِيُّ من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ فأتاني، وكان يراني قبلَ الحجابِ، فاستيقظتُ باسترجاعهِ<sup>(٢)</sup> حتى أناخَ راحلَتُهُ فوطِئَ يَدَها فركبْتُها. فانطلقَ يقودُ بي الراحلةَ حتى أتينا الجيشَ بعدما نزلوا مُعَرِّسِينَ<sup>(٣)</sup> في نَحْرِ الظَّهيرةِ<sup>(٤)</sup>، فهلكَ من هلكَ. وكان الذي تولى الإفكَ عبدُ الله بن أبي ابن سلول<sup>(٥)</sup>.

☆ ☆ ☆

فقدمنا المدينةَ، فاشتكتُ بها شهراً، وهم يُقيضون من قولِ أصحابِ الإفك. ويربِّي في وَجَعِي أَنِي لَا أَرَى مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ اشْتَكَيْتُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيَسْلُمُ ثُمَّ يَقُولُ كَيْفَ تَيْكُم؟ وَلَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقِهُتُ<sup>(٦)</sup>. فخرجتُ أنا وأُمُّ مِسْطَحَ<sup>(٧)</sup> قِبَلَ الْمَنَاصِعِ<sup>(٨)</sup> مَتَبَرِّزًا، وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُتَّخَذَ الْكُنْفُ<sup>(٩)</sup> قَرِيبًا مِنْ بَيْوتِنَا. وَأَمَرْنَا أَمْرَ الْعَرَبِ الْأَوَّلِ فِي الْبَرِيَّةِ أَوْ فِي التَّنْزِهِ. فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحَ بَنْتُ أَبِي رُحْمٍ نَمْشِي. فَعَثَرْتُ فِي مِرْطَها<sup>(١٠)</sup> فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحُ. فَقُلْتُ: بِشَى مَا قَلْتُ، أَتُسَبِّحُ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ فَقَالَتْ: يَا هَتَّاهُ<sup>(١١)</sup>، أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا؟ فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي.

☆ ☆ ☆

- (١) صفوان بن المعطل: صحابي، شهد مع النبي ﷺ الخندق والمشاهد كلها بعدها، وكان على ساقة النبي ﷺ، ولم يتخلف بعد عن غزوة غزاها. وقتل في غزوة أرمينية شهيداً سنة ٥٩هـ / ٦٨٧م.
- (٢) باسترجاعه: بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.
- (٣) مُعَرِّسِينَ: من التعريس، وهو النزول، ويغلب على النزول آخر الليل.
- (٤) نَحْرُ الظَّهيرة: وقت اشتداد الحر.
- (٥) عبد الله بن أبي ابن سلول: رأس المنافقين في الإسلام من أهل المدينة. كان يحرض الناس على خذلان الرسول عليه السلام في أحد وتبوك، وكان ينشر أخبار السوء والفتنة. مات سنة ٩هـ / ٦٣٠م.
- (٦) نَقِهُتُ: برئت من مرضي.
- (٧) أُمُّ مِسْطَحَ: هي ابنة خالة أبي بكر رضي الله عنه. ومِسْطَحُ: ابنها، شهد بدرًا، وخاض في الإفك، فجلده رسول الله ﷺ فيمن جلد في ذلك. توفي سنة ٣٤هـ / ٦٥٤م.
- (٨) الْمَنَاصِعُ: ج مَنَاصِعُ، المكان البعيد عن العمران المعد للترز.
- (٩) الْكُنْفُ: ج كَنِيف، وهو الساتر، والمراد به بيت الخلاء.
- (١٠) الْمِرْطُ: الإزار، أو ما يُلْتَحَفُ به.
- (١١) يَا هَتَّاهُ: يا هذه، نداء للبعيد، خاطبتها بذلك لبعدها عما يخوض الناس فيه.

فلما رجعتُ إلى بيتي دخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ فقال: كَيْفَ تَيْكُم؟ فقلتُ: ائذَن لي إلى أبوي. قالت، وأنا حيثُ أريدُ أن أستيقنَ الخبرَ من قِبَلِهِمَا. فأذِنَ لي رسولُ الله ﷺ فأتيْتُ أبوي، فقلتُ لأُمِّي: ما يتحدَّثُ به النَّاسُ؟ فقالت: يا بِنْتِي هَوْنِي على نَفْسِكَ الشَّأْنُ، فوالله لَقَلَّما كانت امرأة قطَّ وضيئةً<sup>(١)</sup> عند رجلٍ يُحبُّها، ولها ضرائرُ إلا أكثرنَ عليها. فقلتُ: سُبْحَانَ الله، ولقد تحدَّثَ النَّاسَ بهذا؟ قالت: فبِتُ تلكَ اللَّيْلَةَ حتَّى أصبحتُ لا يرقأُ لي دمع ولا أكتحلُ بنوم.

☆ ☆ ☆

ثُمَّ أصبحتُ فدعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالبٍ وأسماءَ بنَ زيدٍ حين استلبتُ الوحي<sup>(٢)</sup> يستشِيرُهُمَا في فِرَاقِ أَهْلِهِ. فأما أَسْمَاءُ فَأشارَ عليه بِأَلْتِي يَعْلَمُ في نَفْسِهِ مِنَ الْوَدِّ لَهُمْ. فقالَ أَسْمَاءُ: أَهْلُكَ يا رسولَ الله، ولا نعلمُ والله إلا خيراً. وأما عليٌّ فقال: يا رسولَ الله، لم يَضِيقِ الله عليك، والنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، واسألَ الجاريةَ تَصُدِّقُكَ. فدعا رسولُ الله ﷺ بَرِيرَةَ. فقال: يا بَرِيرَةُ هل رأيتَ فيها شيئاً يَرِيبُكَ؟ فقالت بَرِيرَةُ: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيتُ منها أمراً أَغْمِصُهُ<sup>(٣)</sup> عليها أَكثَرَ من أَنها جاريةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تنامُ عن العَجِينِ فتأتي الدَّاجِنُ فتأْكُلُهُ.

☆ ☆ ☆

فقام رسولُ الله ﷺ مِنْ يَوْمِهِ، فاستعذَرَ<sup>(٤)</sup> من عبد الله بن أبي ابنِ سلولٍ. فقال رسولُ الله ﷺ: مَنْ يَعِذِّرُنِي في رجلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ في أَهْلِي؟ فوالله ما علمتُ على أَهْلِي إلا خيراً. وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا ما عِلِمْتُ عليه إلا خيراً، وما كان يَدْخُلُ على أَهْلِي إلا معي. فقامَ سعدُ بنُ مُعَاذٍ<sup>(٥)</sup> فقال: يا رسولَ الله، أنا والله أَعِذُّكَ مِنْهُ، إن كانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عَنْقَهُ. وإن كانَ

(١) وضيئة: جميلة حسنة.

(٢) استلبت الوحي: أبطأ نزوله وتأخر.

(٣) أَغْمِصُهُ: أَخْذَهُ.

(٤) استعذر: قال: مَنْ يَعِذِّرُنِي أَي مَنْ يُنْصِفُنِي.

(٥) سعد بن معاذ الأوسي الأنصاري: صحابي، من الأبطال، من أهل المدينة. كانت له سيادة الأوس، وحمل لواءهم، وكان من أطول الناس وأعظمهم جسماً. ورمي بسهم يوم الخندق، فمات من أثر جرحه، ودفن بالبقيع سنة ٦٢٦ هـ/م وفي الحديث (اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ).

من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرَكَ . فقام سعدُ بنُ عُبادةَ - وهو سيّدُ الخزرج<sup>(١)</sup> ، وكان قبلَ ذلك رجُلًا صالحًا ، ولكنْ احتَمَلْتُهُ الحَمِيَّةَ - فقالَ : كَذِبْتَ ، لَعَمْرُ اللهِ لا تَقْتُلُهُ ، ولا تَقْدِرُ على ذلكَ . فقامَ أُسَيْدُ بنُ الحَضِيرِ<sup>(٢)</sup> فقالَ : كَذِبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لَنَقْتُلَنَّكَ ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ . فَتَارَ الْحَيَّانَ : الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هُمَا أَنْ يَقْتَتِلُوا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْمَنْبَرِ . فَنَزَلَ فَخَفَضَهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ .

☆ ☆ ☆

وَمَكَثْتُ يَوْمِي لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ . فَاصْبَحَ عِنْدِي أَبُو بَيٍّ . وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبْدِي . قَالَتْ فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي ، وَأَنَا أَبْكِي ، إِذْ اسْتَأْذَنَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي . فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجَلَسَ ، وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمٍ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا ، وَقَدْ مَكَثْتُ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ . قَالَتْ : فَتَشْهَدُ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ . فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً فَسِيرَتِكَ اللهُ ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمَمْتَ<sup>(٣)</sup> بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهُ وَتُوبِي إِلَيْهِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ .

☆ ☆ ☆

فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ<sup>(٤)</sup> دَمْعِي مَا أَحْسَرُ مِنْهُ قَطْرَةً ، وَقُلْتُ لِأَبِي : أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ . قَالَ : وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ . فَقُلْتُ لِأُمِّي : أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ : قَالَتْ : وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ . قَالَتْ ، وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السَّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ : فَقُلْتُ : إِنَّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنْكُمْ سَمِعْتُمْ مَا تَحَدَّثُ بِهِ

(١) سعد بن عبادة الخزرجي، صحابي، من أهل المدينة وكان سيد الخزرج، وأحد الأمراء الأشراف في الجاهلية والإسلام. وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار، كما شهد أحدًا والخندق وغيرها. ولما توفي رسول الله ﷺ رغب في الخلافة بعده، إلا أن البيعة تمت للصديق رضي الله عنه. وهاجر إلى الشام في خلافة عمر بن الخطاب، وفي حوران توفي سنة ١٤هـ/٦٣٥م.

(٢) أُسَيْدُ بنُ الحَضِيرِ : صحابي، من الأوس، كان من عقلاء العرب وذوي الرأي. شهد العقبة الثانية وأحدًا والخندق والمشاهد كلها. توفي في المدينة سنة ٢٠هـ/٦٤١م وله (١٨) حديثًا.

(٣) أَلَمَمْتُ : فعلت ذنبًا ليس من عادتك.

(٤) قَلَصَ : تقلص، قل.



النَّاسُ، وَوَقَّرَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيءٌ - وَاللهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيءٌ - لَا تَصْدُقُونَنِي بِذَلِكَ، وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرِ - وَاللهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيءٌ - لَتُصَدِّقُنِي. وَاللهُ مَا أَجْدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يَوْسُفَ<sup>(١)</sup> إِذْ قَالَ: ﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. ثُمَّ نَحَوَلْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّتَنِي اللهُ بِهَا.

☆ ☆ ☆

فَوَاللهُ مَا رَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَجْلِسَهُ<sup>(٣)</sup> وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ الْوَحْيَ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْحَاءِ<sup>(٤)</sup>، حَتَّى إِنَّهُ لَيَنْحَدِرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ<sup>(٥)</sup> مِنَ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ. فَلَمَّا سُرِّي<sup>(٦)</sup> عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ لِي: يَا عَائِشَةُ أَحْمَدِي اللهُ، فَقَدْ بَرَأَكَ اللهُ. فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللهُ.

☆ ☆ ☆

فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآيَاتِكُمْ غِثَابًا مَنَكْرًا لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ. لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ. لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ. وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ. وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٧)</sup>.

فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ

(١) أَبُو يَوْسُفَ: هُوَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) سُورَةُ يَوْسُفَ، مِنَ الْآيَةِ ١٨.

(٣) مَا رَامَ مَجْلِسَهُ: مَا فَارَقَهُ وَلَا قَامَ مِنْهُ.

(٤) الْبُرْحَاءُ: الْعَرَقُ الشَّدِيدُ.

(٥) الْجُمَانُ: اللَّوْلُؤُ.

(٦) سُورَةُ: كَشَفَ وَأَزِيلَ.

(٧) سُورَةُ النُّورِ، مِنَ الْآيَةِ ١١ إِلَى الْآيَةِ ١٦.

أثانة لقرابته منه : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعدما قال في عائشة ، فأنزل الله عز وجل ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾<sup>(١)</sup> فقال أبو بكر : بلى والله .  
إني لأحبُّ أن يغفر الله لي . فرجع إلى مسطح الذي كان يُجرِّيه عليه .



ظاهر الحديث يدل على براءة عائشة ، رضي الله عنها ، مما تُحدث به فيها ، لكن قد يرد عليه اعتراض ، وهو أن يقال : براءتها قد علمت من كتاب الله ، عز وجل فما فائدة الإخبار بذلك ثانية ؟  
والجواب عنه : أن القرآن إنما نزل في براءتها من نفس ما رميت به ، وبقي تشوف النفوس السوء لأن يكون هناك موجب لما قيل عنها ، أو سبب من أسباب ما رميت به ، فيكون وقوعاً ثانياً قريباً مما برئت منه .

وقد اختلف العلماء في أسباب النكاح هل هي كالنكاح أم لا ؟ فعلى قوله من قال : بأنها كالنكاح ، فيكون ذلك إفكاً ثانياً ، فيكون هلاكاً شائعاً في الأمة لا مخرج منه . وقد قال بعض العلماء . إن من رمى عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - بشيء مما برأها الله منه إنه مخلد في النار ، واستدل على ذلك بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup> .

وعلى قول من قال : بأنه ليس كالنكاح ، فيكون ذلك معرةً تلحقها . ولحق المعرة بها هنك لحرمة ما حرَّم الله من حرمة بيت النبوة ، وقد قال عليه السلام (سبعة لعنتهم أنا وكل نبي مستجاب)<sup>(٣)</sup> وعدَّ فيهم المنتهك من حرمة أهل بيتي ما حرم الله ، وهذه مفسدة كبرى في الدين ، وذلك عون للشيطان على المؤمنين . فبراءتها لنفسها ، لكن ذلك دين محض وبراءة للمؤمنين ، كما فعلت أم سلمة أيضاً في حديث الحُدَيْبِيَّةِ حين صُدُّوا عن البيت وهم مُحْرَمُونَ ، فأمرهم النبي ﷺ أن يحلقوا وينحروا ويُجْلُوا فلم يفعلوا ، فدخل عليها النبي ﷺ وهو متغير . فقالت له : ما شأنك ؟ فقال

(١) سورة النور ، من الآية ٢٢ .

(٢) سورة النور ، من الآية ٢٣ .

(٣) رواه الطبراني في الكبير ، ولفظه : سبعة لعنتهم ولعنهم كل نبي مجاب : الزائد في كتاب الله ، والمكذب بقدر الله ، والمستحل حرمة الله ، والمستحل من عترتي ما حرَّم الله ، والتارك لستتي ، والمستأثر بالفيء ، والمتجبر بسلطانه ليعز من أذلَّ الله ويذل من أعزَّ الله .

عليه السلام: أمرتهم فلم يفعلوا. فقالت، رضي الله عنها: إنهم لم يَعصُوك وإنما اتبعوك، لأنهم اقتَدُوا بفعلك، فافعل أنت فيتبعوك. فخرج، عليه السلام، ففعل ما أمرهم ففعلوا<sup>(١)</sup>.

فكان كلامها رحمة للمؤمنين ولطفاً بهم، لأنها أزالَت ما كان وقع في قلبه من التغير الذي يُخاف منه الهلاك عليهم، وكذلك قول عائشة رضي الله عنها، هنا، لأن ذلك رحمة وإزالة للهلاك، وهذا رحمة ووقاية من الهلاك الذي أشرنا إليه أولاً. ومما يدل على أنها أرادت هذا الوجه أنها لم تقل شيئاً، ولم تفصح بالقضية كيف وقعت إلا بعد ثبوت عدالتها وتصديق مقالها من كتاب ربها، وحين لم يكن لها شاهد على ذلك لم تقل شيئاً، وإنما كان قولها إذ ذاك ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ

الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾<sup>(٢)</sup> على ما يأتي في آخر الحديث.

وفي هذا دليل على أن المرء مأمور أن يدفع المعرة عن نفسه إذا قدر على ذلك، وكان له من خارج ما يصدقه، وإلا فالصبر والاضطرار إلى الله تعالى لعله أن يكشف ذلك بفضل، وكذلك أيضاً ينبغي أن يراعي حق إخوانه المؤمنين فينفي عنهم كل ما يضرهم، كما فعلت عائشة، رضي الله عنها، أتت بالحديث لهذين المعنيين على ما تقدم.

وقد حكى عن الأعمش<sup>(٣)</sup> رضي الله عنه قريب من هذا المعنى، وهو أنه كان يمشي بطريق فلقيه أحد تلامذته - وكان أعور - فمشى التلميذ معه، فقال له الأعمش: يا بني! اذهب فامش وحدك. فقال: ولم؟ فقال له: الشيخ أعمش والتلميذ أعور فيقع الناس فينا. فقال التلميذ: نُؤَجِّرُ ويأثمون. فقال الشيخ: نَسَلَمَ وَيَسَلِّمُونَ خير من أن نُؤَجِّرَ ويأثموا<sup>(٤)</sup>. فاختر سلامة المسلمين وعمل عليها، ولم يرد أن يختص بالأجر مع دخول الإثم عليهم، كما فعلت عائشة، رضي الله عنها. أراحت المسلمين في هذه المصيبة الكبرى التي قد كانت حلت بهم، وترك الأجر لنفسها، لأنها مهما تُكَلِّمَ فيها كان لها في ذلك أجر. ثم في الحديث وجوه كثيرة من أحكام وآداب على ما يذكر بعد في تتبع ألفاظ الحديث، إن شاء الله تعالى.

فأما قولها (كان النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج سफراً أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها،

(١) رواه البخاري ضمن حديث طويل في عدة مواضع منها في المغازي وفي الحج، وفي الشروط.

(٢) سورة يوسف، من الآية ١٨.

(٣) الأعمش: سليمان بن مهران، المعروف بالأعمش. كان ثقة عالماً فاضلاً، أصله من بلاد الري. لقي كبار التابعين، وروى عنه الثوري وكثير من جلة العلماء، وروى (١٣٠٠) حديثاً. توفي في الكوفة سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م.

(٤) انظر تفصيل هذا وكثيراً نحوه في وفيات الأعيان ٢/٤٠٠.

خرج بها معه) فيه<sup>(١)</sup> وجهان (الأول) جواز السفر بالنساء. (الثاني) جواز القرعة. لكن هل القرعة هنا واجبة أم لا؟ فأما النبي ﷺ فالقرعة في حقه، عليه السلام، ليست بواجبة، لأن القسمة ليست بواجبة عليه، وهي الأصل، فمن باب أولى القرعة. وأما غيره فقد اختلف العلماء فيه على ثلاثة أقوال وقد ذكرت في الفقه.

وأما قولها (فأقرع بيننا في غزوة غزاها)<sup>(٢)</sup> فخرج سهمي) أي خرج سهمي بالقرعة، فحذفت ذلك للاختصار.

وقد يرد على هذا الفصل سؤال وهو أن يقال: لِمَ أبهت ذكر الغزوة ولم تبينها، ولم تذكر أكان فيها وقعة، أم لا؟

والجواب عنه: أنها إنما أرادت بسياق الحديث ما قدمنا ذكره من نفي المعرفة عن نفسها، ورعي حق أخوة المؤمنين. وذكر الغزوة لا يتعلق مما هي بسبيله شيء، فذكرت من ذلك حالاً لا بد منه لتعلم أن سفر النبي ﷺ، كان في العزوة، لا في غيره. وكذلك روي عنه، عليه السلام، أنه لم يسافر بعد النبوة إلا لحج أو جهاد.

وقولها (فخرجت معه بعدما أنزل الحجاب) إنما أتت بذكر الحجاب توطئة لما تذكر بعد، وهو من الفصيح في الكلام إذا احتاج المرء إلى ذكر شيء أتى في أوله بكلام يوطئ له بيان ما يريد إبداءه.

والحجاب على ضربين: فحجاب عن الأبصار مباشر للذات، وحجاب للذات مفارق لها منفصل عنها (فالأول) لا يجوز للأجنبي مباشرته، لأن مباشرته لذلك مباشرة للمرأة (والثاني) وهو المنفصل سائغ للأجنبي مباشرته للضرورة في ذلك إذا كان فيه أهلية ومعرفة بالخدمة، كما كانت الأهلية في الحاملين لهذا الهودج - على ما يذكر بعد -.

وقولها (فأنا أحمل في هودج وأنزل فيه) فيه وجوه:

الأول: أن ما كان للدنيا وزينتها، وكان عوناً على الدين فليس بدنيا وهو للآخرة، لأن الهودج كان عند العرب مما يفتخرون به ويتباهون، فلما أن جاء الشارع، عليه السلام، ورأى فيه مصلحة للدين استعمله من أجل الستر الذي فيه، ولا يأتي مثله في غيره.

الثاني: جواز حمل الثقل الكثير على الدابة إذا كانت مطيقة لذلك، لأن الهودج كما قد علم من ثقله، لكن لما أن كانت الدابة مطيقة لذلك، لم يمنعه الشارع، عليه السلام.

(١) يريد: ففيه.

(٢) هي غزوة بني المصطلق.

الثالث: جواز لمس الستر المنفصل عن البدن للأجانب، لأنها أخبرت أن ناساً كانوا موكلين بهودجها للرفع والخفض، والستر المنفصل عن البدن صفته كما تقدم.

وقولها (فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك) فإنما قالت ذلك لتبين أن العادة كانت مستصحبة في كل سفرهم - على ما ذكرته قبل - لم يزيدوا في العادة شيئاً، ولا نقصوا منها ما يوجب كلاماً.

وقولها (وقفل ودنونا من المدينة) قد يرد عليه سؤال، وهو أن يقال: ما فائدة تكرار هاتين اللفظتين وذكر إحداها يغني عن الأخرى.

والجواب عنه: أنها إنما أتت بذلك لأنهما لمعنيين مختلفين، وليسا لمعنى واحد، وهما أيضاً مخالفان للسير، فما ذكرت قبل من السير أفاد بأن الأمر كان مستصحباً - على ما ذكرت - من حين خروجهم إلى حين وصولهم إلى الموضع الذي توجهوا إليه. والقول يفيد بأن الأمر أيضاً كان مستصحباً إلى حين الرجوع، والدنو يفيد بأن ذلك دام حتى كانوا بقرب المدينة ووقع لهم هذا الواقع.

وقولها (أذن ليلة بالرحيل فقامت حين أذنوا بالرحيل) فإنما أتت بذكر هذا لتبين العذر الذي أوقعها في التخلف عن الهودج حتى حمل عنها.

وفيه دليل على أن الإمام أو أمير الجيش أو صاحب رفقة إذا أراد السَّيْر يخبر من معه ويؤذنه بذلك، ثم يتربص عليهم قليلاً بقدر ما يقضون حوائجهم، وما يكون لهم من الضرورات، ويكون تربصه معلوماً، لأن التربص المجهول لا يتأتى للناس به منفعة حتى تكون مدة التربص معلومة، ويكون لوقت الرحيل أمانة غير الإذن الأول، لأنها أخبرت أنها لما سمعت الإذن بالرحيل قامت عند ذلك لقضاء شأنها. فلو عهدت منهم أن ذلك الإذن لنفس الرحيل لم تكن لتخرج إذ ذاك.

وقولها (فمشيت حتى جاوزت الجيش) فيه وجوه:

الأول: جواز خروج المرأة وحدها، لكن يشترط فيه أن تأمن على نفسها الفتنة. فإن توقعت شيئاً ما من الفتنة فلا يسوغ خروجها، لأن خروج عائشة، رضي الله عنها، كان مأموناً من ذلك.

الثاني: أن للمرأة أن تخرج لقضاء شأنها بغير إذن من زوجها، لأنها أخبرت أنها خرجت لما ذكرته، ولم تذكر أنها استأذنت النبي ﷺ في ذلك. فقد يحتمل أن يكون النبي ﷺ أذن لها في ذلك أو بالاستصحاب، ويحتمل أن يكون ذلك مسكوتاً عنه للعلم به بحكم العادة.

الثالث: أن الخروج لقضاء الحاجة يكون بالبعد بحيث لا يسمع له صوت، ولا يرى له شخص، لأنها أخبرت أنها جاوزت الجيش وحينئذ قضت ما إليه خرجت.

الرابع : أن اختلاف الأحوال سبب لتغير الأحكام، إما لسعادة أو لشقاء، لأنها أخبرت أنها كانت على حالة واحدة قد عهدت منها. فلما أن أخلت بما عهد منها لعذر كان هناك قد أبدته قبل، وتبديه بعد، وقع لها ما وقع. لكن تغيير الحال على ثلاث مراتب. (المرتبة الأولى) تغيير الشخص نفسه عما عهد. (الثانية) تغيير حال الناس معه. (الثالثة) تغيير العادة الجارية من الله تعالى.

(أما الأولى): فهي لسبب وقع إما بغفلة أو بوقوع ذنب، فيحتاج من كانت له عادة مستمرة - أعني من أفعال التعبد - ثم لم يقدر عليها وعجز عنها، أن يرجع إلى أفعاله فينظرها على لسان العلم، فإن وجد معه الخلل ألق عنه وتاب منه واستغفر، وإن لم يجد شيئاً بقي متهماً لنفسه بذلك، ويسأل الله أن يطلعه على ما خفي عنه من أمره، ويستغث به، ويسأله الإقالة، لأنه لا بد وأن<sup>(١)</sup> يكون قد تقدم له من المخالفة شيء حتى وقعت به العقوبة من أجله لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup> ولهذا كان بعض الفضلاء من أهل الصوفة يقول: أعرف تغيير حالي في خلق حماري. لمراقبته لنفسه، فمهما رأى تغييراً ما انتبه فرجع لنفسه فنظر في أفعاله من أين أتى فيها، حتى إنه من شدة مراقبتهم أفلس بعضهم في آخر عمره فقال: هذا عقوبة ذنب أوقعته منذ عشرين سنة قلت لرجل: يا مفلس. فمن شدة مراقبته عرف من أين أتى، وإن كان الزمان قد طال به.

(وأما الثانية): وهي ما يقع بينك وبين صديقك الذي كنت تعهد منه من المعاملة. فشان من وقع له ذلك أن يرجع لنفسه فينظر بلسان العلم هل وقع منه ما يوجب ذلك أم لا؟ فإن وجد شيئاً اعترف لصاحبه بخطئه وتقصيره، واستغفر من فعله، وإن لم يجد شيئاً فليسأل عنه من ظهر له ذلك منه، فلعله يخبره بذلك، فإما أن يكون له عذر فيستعذر، أو خطأ فيعترف به إلى غير ذلك، لأن تغيير الحال المعهود لا يقع إلا لموجب، وبالنظر وبالسؤال بعد النظر يجد ذلك.

(الثالثة) وهي تغيير العادة الجارية من الله. وهي على ضربين (إما بقطع عادة) تكون سبباً لكرامة مثل تغيير العادة التي وقعت لعائشة رضي الله عنها، إذ كان تغيير العادة لها سبباً لكرامتها، ونزول القرآن في حقها، وزيادة في رفع قدرها. (والثانية) دالة على الغضب والبعد لقوله، عليه السلام (إذا أبغض الله قوماً أمطر صيفهم، وأصحى شتاءهم)<sup>(٣)</sup>. فأخبر، عليه السلام، أنه عند الغضب يغير لهم العادة، فإذا وقعت هذه النازلة فليس لها دواء إلا التوبة والإقلاع والاستغفار. ولأجل هذا سنّ، عليه السلام، الاستسقاء وجعل من سنته كثرة الاستغفار.

(١) كذا. بزيادة الواو.

(٢) سورة الرعد، من الآية ١١.

(٣) لم تقف على مصدره.

وقولها (فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرجل فلمست صدري) فيه وجوه:

(الأول) صيانة اللسان عن ذكر المستحبات، لأنها كُنْتُ عن قضاء الحاجة بقولها (قضيت شأني) وكذلك كانت عادة العرب في هذا المعنى، ولذلك سموا قضاء الحاجة غائطاً، لأنه عندهم المنخفض من الأرض، وهم كانوا يقضون فيه حاجتهم إبلاغاً في الستر، فسموا الشيء بالموضع الذي يجعل فيه مجازاً، لتنزيه كلامهم عن ذكر المُسْتَحَبَّات.

(الثاني) تفقد المال، لأنها أخبرت أنها افتقدت عقدها حين الرجوع.

(الثالث) جواز تحلي النساء في السفر، لكن ذلك بشرط أن يكون الحلي لا يسمع له صوت، لأنها أخبرت أن العقد كان عليها في حين السفر، والعقد ولو تحرك به صاحبه لم يسمع له صوت. فأما إذا كان الحلي يسمع له صوت فلا يجوز التحلي به إذ ذاك لأن سماعه سبب لفتنه بعض الناس.

وقولها (فإذا عقد لي من جَزَع قد انقطع). قد يرد عليه سؤال، وهو أن يقال: ما فائدة إخبارها بذكر صفة العقد، وهي على ما قد قرر لم تذكر شيئاً إلا لمعنى؟

(والجواب) عنه: أن ذكرها لصفة العقد فيه فائدة، لتبين أن العقد كان له قيمة يسيرة، وقد نهى الشارع عليه السلام عن إضاعة المال عاماً في اليسير والكثير، فرجعت في طلبه لأمر الشارع عليه السلام لا للعقد نفسه. وفيه أيضاً فائدة أخرى وهي أن تبين أنهم كانوا في الدنيا على قدم التجرد والزهد بحيث أنهم كانوا لا يتحلون بالذهب ولا بالفضة. فإن قيل: ذلك تزكية للنفس، والتزكية ممنوعة، قيل له: ليس هذا من باب التزكية، لأن ما تخبر به عن نفسها في هذا المقام فهو إخبار عن حال النبي ﷺ. فهي تخبر بسنة النبي ﷺ وحاله لا عن نفسها.

وقولها (فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه) فيه دليل على طلب المال والحث عليه إذا ضاع، لأنها رجعت في طلب العقد واشتغلت بالتماسه، حتى رحل القوم عنها.

وقولها (فأقبل الذين يرحلون بي إلى قولها فاحتملوه) فيه وجوه:

(الأول) تبرئتها للموكلين بحمل الهودج مما ينسب إليهم من الغفلة والتفريط، لأنها أتت بالفاء، وهي للتعقيب. فعلم بذلك أنهم كانوا حين إتيانهم يبادرون ويتسارعون في الخدمة من غير توان يلحقهم، وأن ذلك منهم كان عادة مستمرة لا يحتاجون في ذلك لإذن مستأنف.

(الثاني) التزكية لهم. ومعناه قريب مما تقدم، لأن إخبارها بسرعة الخدمة منهم تزكية في حقهم، إذ إن سرعة خدمتهم دالة على النصح منهم والوفاء لما يجب من تعظيم جانب النبوة. ثم زادت ذلك وضوحاً وبياناً حتى لا ينسب إليهم شيء ما من غفلة ولا تفريط بقولها (لم يثقلن ولم يغشهن اللحم) لأن الهودج كما قد علم من ثقله، والثقل الكثير إذا نقص منه شيء يسير، وجماعة

تحمله، قلّ أن يتفطنوا لذلك لخفائه، وهي، على ما أخبرت، كانت نجيلة الجسم لم يغشها اللحم، كما كن نساء ذلك الوقت، على ما سيأتي بعد. فهي بالنسبة إلى ثقل اليهودج شيء يسير، فزال عنهم ما يتوقع في حقهم بهذا الإخبار. وفي هذا دليل على أن من رمي بشيء وغيره بصيبه شيء مما رمي به من أجله، فإذا قدر على براءة نفسه فليبرء غيره، ويُبدى<sup>(١)</sup> عذره، كما يبرء نفسه، كما فعلت عائشة، رضي الله عنها، كما تقدم.

(الثالث) تبرئتها مما تُشان به، لأن الهزال في النساء قد يكون عيباً في حقهن، فأزالت ما ينسب إليها من ذلك بقولها (وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللحم)، فأخبرت أن نساء زمانها كن على ذلك الحال، ولم تكن وحدها كذلك، فإذا كان كل النساء على ذلك الحال فذلك ليس عيباً في حقها، وإنما يكون عيباً أن لو كانت وحدها كذلك.

وقد يرد على قولها (لم يثقلن ولم يغشهن اللحم) سؤال وهو أن يقال: ما فائدة تكرار هاتين اللفظتين وذكر إحداهما يغني عن الأخرى؟

الجواب عنه: أن اللفظتين ليستا لمعنى واحد، لأن كل سمين ثقيل، وليس كل ثقيل سميناً، لأن من استوفى الطعام - وإن لم يسمن - فقد امتلأ جوفه بالطعام، وعروقه بالدم، وعصبه وعظمه بالقوة، فيحصل به الثقل بلا سمن، لأنه ليس كل الناس يكثر لحمه ويسمن بامتلاء جوفه بالطعام. فقد يكون ذلك وقد لا يكون، والثقل لا بد منه، فأخبرت أن المعنيين لم يكونا فيها.

(الرابع) الاستعذار عنها وعن غيرها من النسوة التي ذكرت بقولها (وإنما يأكلن العلقمة من الطعام) والعلقمة هي الشيء اليسير من الطعام، فأبدت عذرها وعذرهن في ذلك، وأن ما كن عليه ليس بخلقة خلقت عليها، وإنما كان سببه قلة أكلهن.

وفي هذا دليل على أن المرء إذا قال في نفسه أو في غيره شيئاً - وهو يتضمن معنى ما مما قد يلحق به الشين - فليبرء نفسه وغيره ببيان العذر في ذلك، وما هو السبب الذي لأجله كان ذلك.

(الخامس) تزكية نفسها وغيرها من النسوة في زمانها، لأن قولها (وإنما يأكلن العلقمة من الطعام) تزكية في حقهن، لأن ذلك يبين زهدهن وإيثارهن الدين على الدنيا، وذلك للقرائن التي قد علمت من أحوالهن، لأن الصحابة، رضوان الله عليهم، لم تكن لهم همة ولا نظر إلا في الإقامة بأمر الله وإظهار دينه وعلو كلمته، فشغلهم ذلك عن طلب الدنيا والحث عليها، حتى كان النساء يأكلن العلقمة من الطعام لأجل زهدهن، وقلة الشيء عندهن، فيرضين بذلك. فإذا كان أكل النساء



على هذه الحال فكيف بأكل الرجال، لأنهم أكثر صبراً على الجوع من النساء؟ وقد جاء أثر يبين أكل الرجال كيف كان وهو ما روي (أنهم كانوا يَمْصُونَ نواة التمر يتداولونها بينهم ويقاثلون عليها). فإذا كان قلة أكلهن لأجل هذا المعنى فالإخبار بذلك هو نفس التزكية.

فإن قال قائل: التزكية ممنوعة بالكتاب، فلا يسوغ أن تكون زكّت نفسها - كما ذكرتم - قيل له: إنما أتت بذلك تزكية للغير، وتضمن تزكيتها للغير تزكية نفسها بحكم الضرورة، وهي لم تقصده أيضاً. فإخبارها بهذه الأحوال ليس من باب التزكية، وإنما هو من باب الإخبار عن حال النبي ﷺ وسنته، وحال الصحابة، رضوان الله عليهم، وكيف كانوا في دنياهم.

(السادس) أن المدح والذم إنما يكون بحسب ما اعتاده الناس، لأن الفقر عيب. لكن لما كان فقر الصحابة، رضي الله عنهم، من قبل زهدهم وورعهم حتى قال بعضهم (كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن تقع في الحرام) فلما أن كان فقرهم لأجل هذا المعنى صار مدحاً في حقهم، وكذلك التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، ومثل ذلك قوله عليه السلام (أكثر أهل الجنة البُلّه) <sup>(١)</sup>. والبله باعتبار ما أراده الشارع، عليه السلام، رفضهم للدنيا واشتغالهم بطلب الآخرة حتى لا يدرون كيف يكتسبون الأموال، ولا كيف يتسبّبون في دنياهم؟ وأما في مسائل الدين فهم أعرف الناس بذلك. هذا هو حال الأبله الذي أراد الشارع عليه السلام.

وإذا قال اليوم رجل لإنسان يا أبله، وهو يريد ما اصطّلحوا عليه اليوم، فذلك ذم له، لأن الأبله عندهم من لا يميز مسائل دينه ولا دنياه، وكذلك أيضاً الفقر، لأن الفقر عندهم عيب كبير، وقد سموا الغني سعيداً وإن كان ما بيده من غير حله وعلى غير وجهه. فقد يكون ما بيده هو السبب لدخوله جهنم وعذابه، وهم يسمونه سعيداً من أجله. فلما أن كان الفقر في الصحابة، رضوان الله عليهم، لأجل المعنى الذي ذكرناه كان مدحاً لهم، فلذلك وصفتهم عائشة، رضي الله عنها، بذلك، لأنها قالت (ياكلن العلقه من الطعام)، وذلك يؤذن بفقرهم.

وقولها (وكنّت جارية حديثة السن) قد يرد عليه سؤال، وهو أن يقال: ما فائدة ذكرها لصغر سنّها، ولا يتعلق بذلك معنى مما أرادت أن تبديّه؟

والجواب عنه: أنها إنما ذكرت ذلك لتبين عذرها فيما فعلت، لكونها اشتغلت بطلب العقد وتركت القوم حتى رحلوا. فقد تنسب في ذلك إلى الغفلة والتفريط، فأنت بذكر صغر سنّها لتبين ما حملها على ذلك، لأن صغر السن لم تقع له تجربة بالأمر حتى يعلم ما يفعل فيما يقع به. فلو

(١) رواه البزار عن أنس رضي الله عنه كما في الفتح الكبير ٢٢٢/١.

كانت لها تجربة بالأسفار وبما يطرأ فيها لم تكن لتفعل ذلك، ولأنت إلى موضعها قبل بحثها عن العقد، فتعلم النبي ﷺ فتربص عليها حتى تجده، كما فعلت في حديث التيمم<sup>(١)</sup>.

ولأجل هذا المعنى قال الفقهاء في الشاهدين العدلين يحملان شهادتهما وأحدهما مبرز للشهادة، وهما عارفان بمقاطعها: إنه يُستفسر غير المبرز عن إجماله ما أراد به، والمبرز يقبل منه بالإجمال ولا يستفسر، ولا فرق بينهما غير أن المبرز وقعت له التجربة بالشهادات، وما يطرأ عليه فيها من الفساد، وغير المبرز لم يقع له ذلك.

وقولها (فبعثوا الجمل، وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجنحت منزلهم وليس فيه أحد) فإنما أنت بذلك لتبين عذرها، ولتزيل ما يتوقع في حقها من الغفلة، لأنه قد ينسب إليها أنها أبطأت في الرجوع بعد وجود العقد حتى كان ذلك سبباً لرحيل القوم عنها. فأنت بالفاء التي هي للتعقيب لتبين أن رجوعها كان في أثر وجود العقد من غير مهلة ولا تراخ وقع منها، ولتبين أنها رجعت على الطريق ولم تحد عنه حتى كان ذلك سبباً لرحيل القوم عنها، لأنها لو حادت عن الطريق لنسبت بذلك إلى تفريط، لأنه قد يقال: إنها لما أن كانت جاهلة بالطريق كان الأولى بها أن تتخذ من يخرج معها ولا تخرج وحدها، لأن ذلك سبب لتخلفها عن القوم، فأزالت ما يتخيل هناك من هذه الأمور لكونها أنت بالفاء فقالت: (فجنحت منزلهم). وذلك يفيد بأنها بعد وجود العقد لم يقع لها تربص في الطريق ولا في الموضع الذي كانت فيه، وإنما قصدت عند وجودها عقدتها موضع هودجها لا غير.

وقولها (فأمنت منزلي الذي كنت فيه) أمنت: بمعنى قصدت. أي قصدت إلى موضع هودجها، فأقامت به. وهذا مما يشهد لنبلها في أمورها مع أنها كانت صغيرة السن، لأنها لو لم تقعد بموضعها ذلك، وسارت في طلب القوم لاحتمل أن تصيب طريقهم أو تحيد عنه، فإن حادت عنه فتهلك وتلف نفسها، ومقامها بموضعها تقطع فيه بأنهم يرجعون إليه بذلك الموضع. فلما أن احتمل سيرها في أثر القوم الإتلاف أو التلاقي، ومقامها بموضعها تقطع فيه بالتلاقي، فعلت ما تقطع فيه بالنجاة وتركت المحتمل.

وقد عمل اليوم جل أهل هذا الزمان بعكس ذلك. فأخذوا المحتمل وعملوا عليه، وتركوا ما يقطعون فيه بالخلاص، لأنهم أخذوا في التعبد ودخلوا في المجاهدات من غير أن يلاحظوا السنة ويتبعوها، وتعبدتهم ومجاهدتهم مع ترك نظرهم إلى سنة النبي ﷺ، لذلك قل أن يُقبل منهم، وإن قيل فلا يعلم هل يخلص أم لا؟ والاتباع كان أولى بهم من ذلك، لأنه يقطع فيه بالخلاص والنجاة

(١) انظر البخاري كتاب التيمم.

بفضل الله ومنته لقوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup> ولقوله عليه السلام (إن الله لا يقبل عمل امرئ حتى يتقنه . قالوا يا رسول الله : وما إتقانه؟ قال يخلصه من الرياء والبدعة)<sup>(٢)</sup> .

والرياء هو العمل لأجل الناس . والبدعة هي أن تعمل في التعبّد ما لم يأمر، الشارع، عليه السلام، به ولا فعله . وقد قال، عليه السلام (من أحيا سنة من سنيّ قد أميتت فكأنما أحياني، ومن أحياني كان معي في الجنة)<sup>(٣)</sup> فالتابع اليوم للسنة قد شهد له النبي ﷺ بالجنة، كما شهد للعشرة<sup>(٤)</sup> رضي الله عنهم . غير أن العشرة كانت لهم الفضيلة من جهة أخرى، وهي ما خصوا به من المزية لقوله تعالى ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾<sup>(٥)</sup> وما أعطاهم الله ومنّ عليهم بصحبة النبي ﷺ ورؤيته، وتساووا مع غيرهم ممن أحيا اليوم سنته في الوعد الجميل بدار النعيم والخلود فيها .

وقولها (فظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليّ) ظننت : بمعنى علمت . وسيفقدونني : ليس يعود على من كان يحمل الهودج، لأنهم لا يفقدونها، إنما هو عائذ على النبي ﷺ، لأن سيد القوم يكتنى عنه بلفظ الجمع . ويحتمل أن يكون عائذاً على ذوي محارمها من أب أو أخ أو غير ذلك ممن يجوز له الدخول عليها .

وقولها (فبينما أنا جالسة غلبتني عيناى فتمت) يحتمل أن يكون نومها بهذا الموضع لأحد وجهين، وقد يجتمعان : (أحدهما) أنها كانت حديثة السن، والحديث السن كثير النوم لأجل ما معه من الرطوبات، فلم تقدر أن تقعد لكثرة النوم الذي كان بها . ويحتمل أن يكون نومها كرامة من الله في حقها، لأن موضعها موضع الفزع، سيما صغير السن إذا كان في البرية وحيداً، وبخاصة إذا كانوا راجعين من الغزو، والأعداء كثيرون . فلما أن اجتمعت عليها هذه الأسباب، وكل واحدة منها موجبة للخوف . فكيف بالجميع؟ فأرسل الله عليها النوم ليذهب عنها ما تجد من ذلك .

(١) سورة آل عمران، من الآية ٣١ .

(٢) أخرج أبو داود في المصاحف وابن النجار عن السيدة عائشة أن النبي ﷺ قال : إن الله يحب إذا عمل العبد عملاً أن يحكمه . وفي رواية للبيهقي : أن يتقنه .

(٣) رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه بلفظ : من أحيا سنيّ فقد أحياني الخ . .

(٤) العشرة المبشرون بالجنة هم : أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، الزبير بن العوام، طلحة بن الزبير، سعيد بن زيد، أبو عبيدة بن الجراح . وقد ذكرهم رسول الله ﷺ في حديث واحد . على أن هنالك مبشرين آخرين بالجنة يقرب عددهم من الثلاثين منهم السيدة فاطمة، والسيدة عائشة، وثابت بن قيس وسواهم ممن وردت فيهم أحاديث متفرقة .

(٥) سورة الفتح، من الآية ٢٦ .

كانت لها تجربة بالأسفار وبما يطرأ فيها لم تكن لتفعل ذلك، ولأتت إلى موضعها قبل بحثها عن العقد، فتعلم النبي ﷺ فيتربص عليها حتى تجده، كما فعلت في حديث التيمم<sup>(١)</sup>.

ولأجل هذا المعنى قال الفقهاء في الشاهدين العدلين يحملان شهادتهما وأحدهما مبرز للشهادة، وهما عارفان بمقاطعتها: إنه يُستفسر غير المبرز عن إجماله ما أراد به، والمبرز يقبل منه بالإجمال ولا يستفسر، ولا فرق بينهما غير أن المبرز وقعت له التجربة بالشهادات، وما يطرأ عليه فيها من الفساد، وغير المبرز لم يقع له ذلك.

وقولها (فبعثوا الجمل، وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجنث منزلهم وليس فيه أحد) فإنما أتت بذلك لتبين عذرها، ولتزيل ما يتوقع في حقها من الغفلة، لأنه قد ينسب إليها أنها أبطأت في الرجوع بعد وجود العقد حتى كان ذلك سبباً لرحيل القوم عنها. فأتت بالفاء التي هي للتعقيب لتبين أن رجوعها كان في أثر وجود العقد من غير مهلة ولا تراخ وقع منها، ولتبين أنها رجعت على الطريق ولم تحد عنه حتى كان ذلك سبباً لرحيل القوم عنها، لأنها لو حادت عن الطريق لنسبت بذلك إلى تفريط، لأنه قد يقال: إنها لما أن كانت جاهلة بالطريق كان الأولى بها أن تتخذ من يخرج معها ولا تخرج وحدها، لأن ذلك سبب لتخلفها عن القوم، فأزالت ما يتخيل هناك من هذه الأمور لكونها أتت بالفاء فقالت: (فجنث منزلهم). وذلك يفيد بأنها بعد وجود العقد لم يقع لها تربص في الطريق ولا في الموضع الذي كانت فيه، وإنما قصدت عند وجودها عقدتها موضع هودجها لا غير.

وقولها (فأممت منزلي الذي كنت فيه) أممت: بمعنى قصدت. أي قصدت إلى موضع هودجها، فأقامت به. وهذا مما يشهد لنبلها في أمورها مع أنها كانت صغيرة السن، لأنها لو لم تقعد بموضعها ذلك، وسارت في طلب القوم لاحتمل أن تصيب طريقهم أو تحيد عنه، فإن حادت عنه فتهلك وتلف نفسها، ومقامها بموضعها تقطع فيه بأنهم يرجعون إليه بذلك الموضع. فلما أن احتمل سيرها في أثر القوم الإتلاف أو التلاقي، ومقامها بموضعها تقطع فيه بالتلاقي، فعلت ما تقطع فيه بالنجاة وتركت المحتمل.

وقد عمل اليوم جل أهل هذا الزمان بعكس ذلك. فأخذوا المحتمل وعملوا عليه، وتركوا ما يقطعون فيه بالخلاص، لأنهم أخذوا في التعبد ودخلوا في المجاهدات من غير أن يلاحظوا السنة ويتبعوها، وتعبدتهم ومجاهدتهم مع ترك نظرهم إلى سنة النبي ﷺ، لذلك قل أن يُقبل منهم، وإن قُبِلَ فلا يعلم هل يخلص أم لا؟ والاتباع كان أولى بهم من ذلك، لأنه يقطع فيه بالخلاص والنجاة

(١) انظر البخاري كتاب التيمم.

بفضل الله ومنتته لقوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup> ولقوله عليه السلام (إن الله لا يقبل عمل امرئ حتى يتقنه . قالوا يا رسول الله : وما إتقانه؟ قال يخلصه من الرياء والبدعة)<sup>(٢)</sup> .

والرياء هو العمل لأجل الناس . والبدعة هي أن تعمل في التعبد ما لم يأمر، الشارع، عليه السلام، به ولا فعله . وقد قال، عليه السلام (من أحيا سنة من سنتي قد أميتت فكأنما أحياني، ومن أحياني كان معي في الجنة)<sup>(٣)</sup> فالتابع اليوم للسنة قد شهد له النبي ﷺ بالجنة، كما شهد للعشرة<sup>(٤)</sup> رضي الله عنهم . غير أن العشرة كانت لهم الفضيلة من جهة أخرى، وهي ما خصوا به من المزية لقوله تعالى ﴿وَكَاوُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾<sup>(٥)</sup> وما أعطاهم الله ومنّ عليهم بصحبة النبي ﷺ ورؤيته، وتساوروا مع غيرهم ممن أحيا اليوم سنته في الوعد الجميل بدار النعيم والخلود فيها .

وقولها (فظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليّ) ظننت : بمعنى علمت . وسيفقدونني : ليس يعود على من كان يحمل اليهودج، لأنهم لا يفقدونها، إنما هو عائد على النبي ﷺ، لأن سيد القوم يكتنى عنه بلفظ الجمع . ويحتمل أن يكون عائداً على ذوي محارمها من أب أو أخ أو غير ذلك ممن يجوز له الدخول عليها .

وقولها (فبينما أنا جالسة غلبتني عيناى فنمت) يحتمل أن يكون نومها بهذا الموضع لأحد وجهين، وقد يجتمعان : (أحدهما) أنها كانت حديثة السن، والحديث السن كثير النوم لأجل ما معه من الرطوبات، فلم تقدر أن تقعد لكثرة النوم الذي كان بها . ويحتمل أن يكون نومها كرامة من الله في حقها، لأن موضعها موضع الفزع، سيما صغير السن إذا كان في البرية وحيداً، وبخاصة إذا كانوا راجعين من الغزو، والأعداء كثيرون . فلما أن اجتمعت عليها هذه الأسباب، وكل واحدة منها موجبة للخوف . فكيف بالجميع؟ فأرسل الله عليها النوم ليذهب عنها ما تجد من ذلك .

(١) سورة آل عمران، من الآية ٣١ .

(٢) أخرج أبو داود في المصاحف وابن النجار عن السيدة عائشة أن النبي ﷺ قال : إن الله يحب إذا عمل العبد عملاً أن يحكمه . وفي رواية للبيهقي : أن يتقنه .

(٣) رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه بلفظ : من أحيا سنتي فقد أحياني الخ . .

(٤) العشرة المبشرون بالجنة هم : أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، الزبير بن العوام، طلحة بن الزبير، سعيد بن زيد، أبو عبيدة بن الجراح . وقد ذكرهم رسول الله ﷺ في حديث واحد . على أن هنالك مبشرين آخرين بالجنة يقرب عددهم من الثلاثين منهم السيدة فاطمة، والسيدة عائشة، وثابت بن قيس وسواهم ممن وردت فيهم أحاديث متفرقة .

(٥) سورة الفتح، من الآية ٢٦ .

ومثل هذا قوله تعالى ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ اللَّعَامَسُ أَمْنَةً مِنْهُ﴾<sup>(١)</sup> فأرسل الله، عز وجل، النوم على المؤمنين حين كثر عليهم الخوف، وكان بينهم وبين المشركين رملة لا يستطيعون قتالهم بها، فأنزل الله، عز وجل، المطر وهم نيام، فتهيات الرملة وحسن عليها القتال. فلما أن ارتفع المطر وزال عنهم ما كانوا يخافون أذهب الله عنهم النوم، فاستيقظ القوم، ومنهم من سقط سيفه من يده لكثرة نومه، لأن نومهم كان وهم على ظهور خيولهم ومنهينون للحرب، والمشركون لم يرسل الله عليهم نوماً، وبقي عليهم الخوف الشديد. فكان نوم المؤمنين كرامة في حقهم. فكذلك نوم عائشة، رضي الله، عنها لما أن كثرت عليها أسباب الخوف أرسل الله عليها النوم حتى زال عنها ذلك بالفرج.

وقولها (وكان صفوان بن المعطل السلمي. إلى قولها يقود بي الراحلة) فيه وجوه:

(الأول) أن السنة في السفر أن يكون وراء القوم رجل أمين معروف بالصلاح والخير يقفو أثرهم، لأنها أخبرت أن صفوان بن المعطل كان من وراء الجيش. وصفوان هذا كان من أهل الخير والصلاح، لأن النبي ﷺ شهد له بذلك، على ما سيأتي، ولأجل ما يعلم فيه من الأمانة والخير جعله عليه السلام، يقفو أثر القوم. والعلة في ذلك أن القوم إذا رحلوا عن موضعهم قد يتركون شيئاً من حوائجهم نسياناً، أو يقع لهم من أموالهم، أو ينقطع أحدهم فيتلف عنهم، كما اتفق لعائشة، رضي الله عنها. فإذا كان من وراء القوم من يقفو أثرهم، وكان صالحاً أميناً، أمن ذلك، لأنه إن وجد مالا دفعه بأمانته لصاحبه، وإن وجد ضعيفاً أو تالفاً حمله، كما فعل صفوان مع عائشة، رضي الله عنها. ولقد ذكرت اسم الرجل لتبرئ نفسها مما رميت به، ومن أسبابه، لما يعلم من صلاحه ودينه، وأنه ليس فيه أهلية لما قيل فيه. وذكرت كيفية قدومه عليها لتزيل ما يتخيل هناك من الشوائب بالكُلِّيَّة من كلام ومراجعة وغير ذلك.

(الثاني) أن للمرأة أن تكون في الهودج كما هي في بيتها، ولا تكلف أن تستتر فيه، لأنها قالت: وكان يراني قبل الحجاب، فأفاد ذلك أنه عرفها، وما وقعت المعرفة إلا لأنه قد رأى منها شيئاً ظاهراً حتى عرفها به. فلو كانت مستترة بالستر الذي أمر النساء أن يخرجن به لم ير منها شيئاً، ولو كانت في الهودج مستترة كلها لكان الخروج بذلك أولى، أكان الخروج ليلاً أو نهاراً، ولأن الهودج يغني عن الستر لأنه كالبيت، وهي إذا كانت في البيت غير مأمورة بذلك. والخروج في الليل في الظلمة فيه ذلك المعنى، لأن الليل ستر بذاته، فلا يرى للمرء شخص فيه تتحقق صفاته به، فلا يجب عليها الستر الذي يجب بالنهار، عدا الليالي المقمرة إذا كانت صاحبة.

(١) سورة الأنفال، من الآية ١١.

(الثالث) أن كلام المرأة لا يجوز إلا لضرورة لا بد منها بعد العجز عن التحيل في عدم الكلام، إلا أن تكون تلك الضرورة لا بد فيها من الكلام، ولا تزول الضرورة إلا به، فذلك سائغ، مثل الشهادة على المرأة إلى غير ذلك، لأنها أخبرت أن صفوان لما عرفها لم ينادها باسمها، ولا سألها عن خبرها، وإنما كان يُرَجِّع، لأن السؤال يستدعي الجواب، فعدل عن ذلك إلى كلام لا يحتاج فيه إلى جواب بحيلة لطيفة، وهذا مما يشهد له بالدين وحسن النبالة. والاسترجاع هو قول المرء ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾<sup>(١)</sup> وكذلك أيضاً قوله (لا حول ولا قوة إلا بالله). لما أن رآها وعرفها نزل عن راحلته وهو يرجع لكي تستيقظ باسترجاعه، ثم وطئ يد الناقة، لأن عادة العرب إذا أرادوا أن يركبوا أحداً وطئوا يد الناقة ليتها للركوب، فكأنه يقول لها: اركبي للعادة المعروفة.

فلما أن أفاقت لاسترجاعه، ورأت منه تلك الحالة علمت أنه يريد ركوبها للناقة، فركبت، ثم أخذ، رضي الله عنه، بزمام الناقة، فقادها ليكون ذلك أستر لها، فلا يرى لها شخصاً، ولو كان خلفها لاحتاج أن يغمض عينيه، ولكانت هي متوقعة خائفة من وقوع النظر، فتقدم لكي يجبل بصره حيث أراد، ولكي يرى الطريق فيمشي عليه ويقصد القوم، ولكي تبقى مستترة لا تتوقع شيئاً ولا تخافه. كل هذا من دينه وأدبه ومسايسته، ولأجل ما فيه من هذه المعاني جعله النبي ﷺ يقفوا أثرهم.

وقولها (حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا مُعَرَّسِينَ فِي نَخْرِ الظَّهْيَةِ) أي لم يزالوا على تلك الحال حتى لحقوا بالقوم، وكان وصولهم في نخر الظهيرة، والقوم قد نزلوا، والتعريس: يطلق على النزول والإقامة عن السير، أكان ذلك ليلاً ونهاراً.

وقولها (فهلك من هلك) فإنما أبهمت ذكر الهالكين، ولا ذكرت بهم هلكوا، للعلم بذلك.

وقولها (وكان الذي تولى الإفك عبدُ الله بنُ أبي ابن سلُول) عبد الله هذا من كبار المنافقين، وهو رأس من تكلم فيها وتقوّل وقال. فأبدت ذكره وبيّنت اسمه لتبين أن أصل ما قيل كان من قبيله. وما كان ابتداءه ممن كان هذا حاله فهو كذب محض لا شك فيه، كما ذكرت أيضاً اسم صفوان للعلم بدينه وما هو عليه من الخير، كل ذلك لِتُتَبَيَّنَ براءتها، ويسلم الناس مما نزل بهم في ذلك.

وقولها (فقدنا المدينة فاشتكت بها شهراً) اشتكت: بمعنى مرضت. أي أصابها المرض مدة شهر بعد قدومها من السفر. وإنما ذكرت مرضها لتبين العذر الذي منعها من معرفة ما قيل مدة الشهر، لأن المريض أحكمت السنة فيه ألا يقال له في تلك الحال ما يؤلمه.

وقولها (يفيضون من قول أصحاب الإفك) أي اشتهر ما قاله أهل الإفك عند الناس، وكانوا

(١) سورة البقرة، من الآية ١٥٦.

يتحدثون به بينهم . ولا يظن ظان أن الصحابة ، رضي الله عنهم ، أو واحد منهم وقع فيها بشيء مما قيل أو صدق به ، وإنما كان تحدثهم في ذلك على سبيل التعجب والإنكار ، حتى لقد كان الرجل منهم يقول لزوجته : ألم تسمعي ما قيل في فلانة؟ فتقول زوجته : لو قيل لك ذلك في أكنت تصدق؟ فيقول : لا والله . فتقول : فكيف بفلانة؟

وقولها (ويريني في وجعي إلى قولها حتى نقهت) فيه وجوه :

(الأول) أن المريض يزيد بتغير الباطن ، لأنها قالت (ويريني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أعهد منه حين أمرض) ويريني بمعنى يزيدني . فازداد الألم بها لتغير باطنها ، لنقص إحسان النبي ﷺ لها ، وما عهدهت منه من اللطف والرحمة في حال المرض ، ثم المرض بالنسبة إلى الباطن والظاهر ينقسم قسمين : فمرض حسي ومرض معنوي . فالحسي هو ما يكون في البدن . والمعنوي هو ما يتعلق بالنفس من التغيرات والهموم والأحزان .

فأما المرض الحسي فشأن صاحبه التردد إلى الطبيب ، وامتنال ما يأمره به من الأدوية إن كان جاهلاً بالطب . فإن كان للحياة أذهب الله عنه ذاك الألم ، لأن الله ، عز وجل ، لما أن خلق الداء خلق له الدواء . وقد كانت عائشة ، رضي الله عنها ، أعرف الناس بالطب ، فسئلت من أين اكتسبت ذلك؟ فقالت : كان رسول الله ﷺ كثير الأمراض ، وكان يتداوى ، فما من علة إلا ومرض بها وعالجها . فالمدواة من السنة ، اللهم إلا من ترك ذلك ثقة بربه ، ومتكلاً عليه في برئه ، فهو أولى لقوله ، عليه السلام (يدخل من أمتي سبعون ألفاً الجنة بغير حساب ، وهم الذين لا يستزقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون)<sup>(١)</sup> . فمن قدر على هذا كان أولى ، ومن لم يقدر عليه فله في السنة اتساع ، لأن النبي ﷺ إنما ترك ذلك ورجع إلى التداوي والمعالجة ، لأنه هو المشرع ، ثم إنه إذا تطبب يحذر أن يعتقد أن ذلك يبرئه ، وإنما يرجو ذلك من الله ويتكل عليه فيه ، ويفعل الأسباب امتثالاً للسنة وإظهاراً للحكمة لا لغير ذلك . هذا هو حكم المرض الحسي .

وأما المرض المعنوي فهو ينقسم قسمين : (فالأول) هو النفاق كما قال تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾<sup>(٢)</sup> ذلك ليس له دواء ولا معالجة إلا الدخول في الإسلام ، والتصديق بوعد الله ووعيده .

وأما (الثاني) فهو في المؤمنين ، وهو ما يخطر في بواطنهم من الوسواس ومن الكسل عن العبادات ، وذلك ليس له دواء إلا الدخول في المجاهدات ، وترك الوقوف مع ما يقع في الباطن من ذلك ، وقد قال عليه السلام (إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول : مَنْ خَلَقَ كذا؟ مَنْ خَلَقَ كذا؟ حتى

(١) رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما . (وسقط من الحديث في كلام ابن أبي جمرة عبارة (ولا يكتون)).

(٢) سورة البقرة ، من الآية ١٠ .



يقول له : مَنْ خَلَقَ رَبِّكَ؟ فإذا قال له ذلك فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَسْتَنْتِهِ<sup>(١)</sup> ومعنى : وَلْيَسْتَنْتِهُ أنه يعرف أن ذلك من الشيطان فليُلقِه عنه ، لأن المرء ليس هو مأموراً بالألّا يقع له شيء من هذه الأمور ، وإنما هو مأمور بأن يدفع ما يقع له . فإذا كثر ذلك منه ولم يقدر على دفعه فالمجاهدة إذ ذاك ، والدخول في أنواع التعبدات والتعمق فيها . ولأجل هذا المعنى تُحتاجُ المجاهدةُ لتزِيلَ ما يُتَوَقَّعُ هناك من هذه الأمور ، ولأن ألم الظاهر يذهب بوسواس الباطن ، هذا هو حكم المرض المعنوي . ثم نرجع الآن إلى بيان الوجوه المستفادة على ما قرناه .

(الثاني) أن تغيير العادة موجب لحكم ثان ، لأن النبي ﷺ لم يغيّر لها العادة حتى تحدث في شأنها . وفي هذا دليل للقول بسدّ الذريعة لأن النبي ﷺ يعلم في أهله كل خير ، وأنهم ليسوا لما قيل أهلاً ، ومع ذلك نَقَصَ لها من العادة ، وأظهر لها من الهجران شيئاً ما سَدَّ للذريعة لأن الغيرة من الدين . ولو لم يفعل النبي ﷺ ذلك لأدى ذلك إلى ترك الغيرة ، لأنه قد يقال في غيرها شيء مما قيل فيها أو ما يشبهه فيترك الامتناع لذلك اقتداءً به عليه السلام . والامتناع لذلك هو الغيرة . والغيرة شعبة من شُعَبِ الإيمان . ففعل ذلك لأجل هذا المعنى .

(الثالث) أن السَّنة في المريض أن يُلَطَّفَ به ، لأنها قالت : لا أرى من رسول الله ﷺ اللَّطْفَ الذي كنتُ أعهد منه حين أَمْرَضُ ، فأفاد ذلك أنه ، عليه السلام ، كان له لطف زائد للمريض . وقد أمر ، عليه السلام ، في غير هذا الحديث أن يُفَسَّحَ للمريض في عمره<sup>(٢)</sup> ، لأن مرض البدن هو الحسي ، والنفس ترتاح إلى طول الحياة وتشتهي العافية ، فإذا فُسِّحَ لها في العمر حصل لها راحة من المرض المعنوي ، لارتياح نفسه مما بها من غم المرض بما يقال له في ذلك . فقد يكون ذلك سبباً لخفة المرض عنه ، كما أنه أيضاً يتغيّر باطنه يزيد به المرض كما تقدم

(الرابع) أن من قيل فيه شيء يكون قَدْفاً في حقه فذلك يوجب هَجْرَهُ ، وإن لم يتحقق عليه ما قيل . ولا يجوز هجره بالكلية ، وإنما يُنْقَصُ له من العادة التي كان يعامل بها بحسب ما كان الواقع ، لأن النبي ﷺ لم يُبَقِّعْ لعائشة ، رضي الله عنها ، ما عهدت منه من اللطف ، ولم يهجرها أيضاً بالكلية ، لأنه عليه السلام ، كان يسلم حين يدخل . وقد روي عنه ، عليه السلام ، أن السلام يُخْرِجُ من الهجران<sup>(٣)</sup> .

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . ولفظه في البخاري : يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ، من خلق كذا؟ حتى يقول : من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله وَلْيَسْتَنْتِهُ .

(٢) رواه الترمذي في الطب عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : إذا دخلتم على مريض فتنفّسوا له في أجله ، فإن ذلك لا يرد شيئاً ويطيّب نفسه .

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي أيوب رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : لا يحل لمسلم أن =

(الخامس) أن من وقع ذلك به لا يُكَلِّمُ كلاماً يستدعي الجواب، لأن النبي ﷺ لم يكن يسأل عن حالها، لأن ذلك يستدعي الجواب، فإذا وقع منها الجواب والمراجعة في الكلام كان ذلك موجِباً للطف، فزال ما أريد من الهجران.

(السادس) السؤال عن أهل البيت إذا كانوا مرضى، لأنه، عليه السلام، كان يسأل عنها، والعلة في ذلك أنه قد يزيد عليهم زيادة في مرضهم، فيتعين على رب البيت القيام بتلك الوظيفة.

(السابع) السلام على أهل البيت، لأنه، عليه السلام، كان يسلم حين دخوله عليهم، وقد روي أن ذلك سبب للبركة في البيت<sup>(١)</sup>.

وقولها (فخرجتُ أنا وأمّ مسطح إلى قولها فازددتُ مرضاً على مرضي) فيه وجوه :

(الأول) جواز خروج المرأة لقضاء حاجتها من غير أن تستأذن في ذلك، لأنها أخبرت أنها خرجت لذلك ولم تذكر أنها استأذنت، ولأنها عادة تقدمت، وكل عادة مستمرة لا يُحتاج فيها إلى إذن.

(الثاني) صيانة اللسان عن ذكر المستقذرات وحسن الكناية في ذلك، لأنها كُنَتْ عن ذكر قضاء الحاجة بقولها (مُتَبَرِّزنا). وقد تقدم.

(الثالث) صيانة البلد عن الفضلات، لأنها أخبرت أنهم كانوا يخرجون إلى البرية لقضاء حاجة الإنسان على عادة العرب الأول، لتنزيه بلدهم عن فضلات الإنسان، فكانت بلدهم مصانة<sup>(٢)</sup> عن فضلات الإنسان.

ولهذا المعنى قال، عليه السلام، في المرأة تَجُرُّ مِرطها وتمشي في المكان القدر : إن ما بعده يطهره<sup>(٣)</sup>، لكون البلد كان مصاناً<sup>(٤)</sup> من النجاسات، وإن كان فيه شيء من فضلات الدواب فذلك قليل، وإن كان فيكون في وسط الطريق، لأن الدواب غالبٌ سِيرها في وسط الطريق.

والسنة في مشي النساء، إذا خرجن، مع الحيطان، ولذلك قال عليه السلام (ضَيِّقُوا عليهنَّ

---

= يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيصدّ هذا ويصدّ هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام.

(١) رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً. ولفظه: يا بني، إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تكون بركة عليك وعلى أهل بيتك.

(٢) كذا والصواب: مَصُونَة.

(٣) رواه الإمام مالك في الموطأ في الطهارة، وأبو داود في الطهارة، والترمذي عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٤) كذا. والصواب: مصوناً.

الطرق لكي يكون مَشِيهُنَّ مع الجدران<sup>(١)</sup> وفضلات الدواب لا تكون هناك. هذا هو الغالب، وإن كان من ذلك شيء فنادر، والنادر لا يحكم به.

وقد نهى عليه السلام عن قضاء الحاجة في ظلِّ الجدران على الإطلاق، وكذلك في ظلِّ الشجر، كان ذلك في البلد أو في البرية. فالغالب على هذه المواضع سلامتها من النجاسات، ولهذا سمي بالمكان القَذِر، لأن القَذِرَ غيرُ النَّجِس. فالقَذِر هو ما تعافه النفوس وهو في نفسه طاهر، فجعل، عليه السلام، أن ما بعده من المواضع النظيفة التي يمرُّ عليها تطهره، إزالة لما في النفوس من ذلك، كما جعل، عليه السلام، النَّضْحَ طهوراً لما شُكَّ فيه إزالة لما في النفوس. ولو كان المراد بـ (القذر): النَّجِس، لأمر، عليه السلام، بغسله على الإطلاق، كما أمر بذلك في النجاسة تصيب الثوب، وتتعلق به، ولم يأمر فيه بالنَّضْح.

(الرابع) صيانة البيوت عن اتخاذ الكُنْفِ فيها، لأنها قالت (قبل أن تُتَّخَذَ الكُنْفُ قريباً من بيوتنا). فأفاد ذلك أنهم حين اتَّخذوا الكنف لم يتَّخذوها في البيوت، ولكن اتَّخذوها خارجةً عنها، قريبةً منهم، ولأن الكنفَ موضعُ النجاسات. وقد نهى عن الذكرِ فيها، وقد أُمِرنا بالتعبد في البيوت، فمُنِعَتْ أن تكونَ في البيوت لأجل هذا المعنى.

(الخامس) أن المرأة لا تخرج لقضاء الحاجة إلا مستترّة إذا كان الموضع الذي تخرج إليه خارجاً عن موضعها، بحيث أنها تُضطرُّ أن تشترك مع غيرها في الطريق، لأنها قالت (لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل) لأن الليل زيادة في الستر. وقولها (في البرية أو في التنزه) شك من الراوي في أيهما قالت عائشة، رضي الله عنها.

(السادس) نُصرة المؤمن والتعظيم له، وهو لازم مع الأجانب والأقارب، لأن أم مسطح، لما قالت: تَعَسَّ مِسْطَح. قالت لها: (بِشَس ما قلت. أُنْسَبِينَ رجلاً شهد بدرًا؟) وإن كان مسطح ابناً لها، فردّت عائشة، رضي الله عنها، ما قالت فيه والدته بقولها (بشس ما قلت)، وعظمته بقولها (أُنْسَبِينَ رجلاً شهد بدرًا؟)

(السابع) أن الأصل استصحاب الحال، لأنها استصحبَت ما كان عندها من عدالة مِسْطَح، لكونه شهد بدرًا، وأنكرت ما قيل فيه حتى يثبت ذلك عندها بيقين.

(الثامن) أن الذاكر لشيء يُسْتَقَدُّ عليه فعَلَيْهِ أن يأتي بالدليل على جوازه، لأن أم مسطح لما

(١) رواه أبو داود بإسناد ضعيف، بلفظ: إن أبا أسيد سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء: استأخرون فليس لكن أن تحققن الطريق، عليكن بحافات الطرق. فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها.

ذكرت ما يُتَقَدَّر عليها أنت بالدليل على جواز ما ذكرت بقولها (ألم تسمعي إلى ما قالوا)؟ وأخبرت بأن ولدها كان في جملة مَنْ خاض مع الخائضين.

(التاسع) أن الشَّيْن في الدِّين يؤلِّم أهل الفضل أكثر الإيلام، لأنها أخبرت أنها لما قيل فيها ما قيل - وذلك شَيْن في الدِّين - حزنت لذلك، حتى لم يبق لها نوم، على ما سيأتي.

ثم (بقي بحث) في خروج أم مسطح معها، هل كان ذلك منها قصداً أو موافقة؟ أو عائشة رضي الله عنها، أمرتها بالخروج معها؟ يحتمل كل ذلك. وكل وجه من هذه الوجوه يُستدل به على حكم.

فإن كان (الأول) فهو من باب حسن الحيلة والإرادة، وأن يظهر المرء شيئاً وقصده غيره. وهو جائز، ما لم يكن فيه ضرر بالغير، لأنها خرجت على سبيل الخدمة والأنس لعائشة رضي الله عنها، وقصدها لعلها أن تعرف من أخبار ولدها شيئاً.

وإن كان (الثاني) فهو من باب تسبیب الأمر الذي قَدَّر القَدَر نفوذه، لأن خروج أم مسطح معها من جملة الأسباب التي من أجلها عرفت الأمر.

وإن كان (الثالث) ففيه دليل على أن النَّاقَةَ من المرض له أن يخرج مع غيره لتصرفه، لكي يكون له عوناً على المشي، لأنه يجده يتكئ عليه إذا تعب، وقد يضعف عن المشي، فإذا كان معه غيره يجد من يحمله ويرده لموضعه.

ثم عثور أم مسطح في مرطها، ودعاؤها على ولدها يحتمل وجهين: (أحدهما) أن يكون بحكم القدر، وهو تمام للأسباب التي بها وصل العلم لعائشة، رضي الله عنها، وهو إظهار للقدرة. (والثاني) أن يكون بالقصد منها، وهو من باب حسن التسبب في الأمر والتحقيق. وهو جائز على الوجه الذي قدمناه، وهو ما لم يكن فيه ضرر بالمسلمين.

(وفيه دليل) على أن السَّنة في لبس النساء الطويل من الثياب، لأن أم مسطح عثرت في مرطها، لو كان قصيراً لم تكن لتعثر فيه. وقد صرح الشارع، عليه السلام، بذلك في غير هذا الحديث، وذلك بخلاف لبس الرجال.

وقولها (فلما رجعت إلى بيتي دخل عليَّ رسول الله ﷺ إلى قولها إلا أكثرن عليها) فيه وجوه:

(الأول) أنه ليس للمرأة أن تخرج إلا بإذن من زوجها، لأنها استأذنت النبي ﷺ في زيارة أبويها فأذن لها، وحيث خرجت. فإذا كان هذا في حق الأبوين فكيف بغيرهما؟

(الثاني) جواز عمل المندوب، والمقصود منه ما هو أعلى في الدين. يؤخذ ذلك من أنها طلبت زيادة أبويها وهي من المندوبات، وقصدها الكشف عما هو شَيْن في دينها.

(الثالث) جواز التورية، وهي إظهار شيء والمراد غيره، لأنها استأذنت النبي ﷺ في زيارة أبويها، ولم تُرد ذلك، وإنما أرادت أن تستيقن الخبر من قِيلَهما. وكذلك كان النبي ﷺ يفعل، إذا أراد أن يخرج إلى جهة يغزوها أو ما إلى غيرها إلا في غزوة واحدة، وهي غزوة تبوك بعدها. ولهذا المعنى قال عليه السلام (استعينوا على حوائجكم بالكتمان)<sup>(١)</sup>. لكن يُشترط في ذلك ألا يقع للغير به مضرة ممنوعة شرعاً. فإن وقع ذلك فلا يجوز، وهو من الخديعة والمكر. وقد أخبر عليه السلام الصحابة حين كان سفره للبعد لثلا يقع بهم ضرر، لأنه لو لم يعرفهم بذلك لدخل عليهم الضرر به. لكونهم لم يتأهبوا للسفر البعيد ولا عملوا عليه.

(الرابع) أن من وقعت به نازلة، وهي محتملة للصدق والكذب، فلا يعجل فيها، وَلَيْسَتْ بِتَحْتَ يَسْتَيْقِنَنَّ ذلك بالفحص عنه ويعلم وجه الصواب فيه، لأنها لما أخبرتها أم مسطح بما قيل فيها لم تَثِقْ بقولها حتى مضت واستيقنت الخبر من قِيلَ أمها، فوجدت الأمر كما قيل لها، وإن كان خبر الواحد معمولاً به على المشهور من الأقاويل. لكن ذلك في التدنّ، وأما في النوازل فخير الواحد فيه سبب للفحص، والبحث في النازلة حتى يتبين فيها الضعف أو التحقيق.

(الخامس) الإجمال في السؤال عند النازلة، لأنها أجملت لأمرها في السؤال ولم تذكر لها ما سمعت من أم مسطح. والإجمال هو الاستطلاع من الغير، هل عنده مما قيل شيء أم لا؟ وهل عنده زيادة على ما قيل أو نقص منه؟

(السادس) أن من وقعت به نازلة فلْيَأْخُذْ فيها مع أقرب الناس إليه وأحبهم إليه، بشرط أن يكون عاقلاً عارفاً بعواقب الأمور، لأنها لما نزلت بها هذه النازلة ركنت عند ذلك إلى أبويها لكونهما أقرب الناس إليها وأحبهم فيها، ولهما في الدين والعقل والعلم والمعرفة بعواقب الأمور قَدَمُ السَّبَقِ.

(السابع) تسليّة المصاب عن مصيبتة، لأنها لما أن اشتكت لأمرها مما قيل فيها سلّتها عن ذلك بقولها (هَوْنِي عَلَى نَفْسِكَ الشَّانَ). ومن أعظم التسليّة إعطاؤها العلة الموجبة لمثل ذلك الأمر المؤلم، وهي ما ذكرت لها بقولها (والله ما كانت امرأة قَطُّ وُضِيئَةً عند رجل يحبّها ولها ضرائر إلا أَكْثَرَنَ عَلَيْهَا) وأكّدت لها ذلك باليمين. وهذا الاستثناء يحتاج فيه إلى (بحث) وهو هل هو منفصل أو متصل؟ وما المراد به إن كان متصلاً؟ وما المراد به إن كان منفصلاً؟

فإن كان منفصلاً فيكون المراد بقولها (إلا أكثرن عليها) أي أكثر عليها بعض نساء ذلك

(١) رواه العقيلي وابن عدي والطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب عن معاذ رضي الله عنه.

الزمان، لأن العادة جارية بأن المرأة إذا كان فيها أحد هذه الثلاث<sup>(١)</sup> أكثر النساء الكلام فيها، فكيف بمجموعها؟ وحمله على هذا الوجه أولى، وهو الظاهر للقرائن التي فارنته، لأن ضده، وهو المتصل، محال أن يُحمل على أزواج النبي ﷺ، لأنهن لم يَغْتَنِ أحدًا، فكيف تقع منهن الفرية؟ ذلك محال. وكذلك أمها أيضاً لم تكن لتظن ذلك في نساء النبي ﷺ لما يعلم من دينها أيضاً، فكيف بها تقع في ذلك؟

وإن كان متصلاً فيكون التقدير إلا أكثرن عليها أي أكثر عليها بعض أتباع ضرائرها، لأن أم عائشة رضي الله عنها، محال في حقها أن تقع في نساء النبي ﷺ فتقول عليهن ما لم يقلن، ومحال في حقهن أيضاً. أن يتكلمن بذلك، كيف يقع ذلك منهن ولقد اختارهن الله لسيد المرسلين؟ وقد قال عز وجل في حقهن ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾<sup>(٢)</sup> فلم يبق بعد التسليم في الاستثناء أنه متصل إلا أن يكون المراد بعض أتباع الضرائر. ومثل هذا في السنة العرب كثير، ومنه قوله تعالى ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾<sup>(٣)</sup>. ومعلوم أن الرسل، عليهم السلام، لم يَسْتَيْسِسُوا قَطُّ، وإنما وقع الإيأس من بعض أتباعهم، فأطلق، عز وجل، الإيأس على الرسل، والمراد بعض أتباعهم. ومنه قوله تعالى ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾<sup>(٤)</sup> ومعلوم أن النبي ﷺ لم يقع له شك أنزل الله إليه، وإنما المراد بعض أتباعه فكيف فيما نحن بسبيله.

وليس من شرط أتباع النبي ﷺ أن يكن كلهن مؤمنات، بل فيهن المؤمنات وغيرهن، لأن المنافقين والمنافقات كانوا في ذلك الزمان كثيرين، وكانوا يريدون أن يتخدموا بيت النبوة سترًا على أنفسهم. هذا إذا وقع التسليم بأن الاستثناء متصل، وليس كذلك. يشهد لذلك عموم قولها (إلا أَكْثَرُنَّ عليها) ومعلوم أن الضرائر غير المذكورات لا يخلو أن يكن صالحات أو غير صالحات. فالصالحات منهن لا يَرْضَيْنَ بالغيبة فكيف بالفرية؟ ولا يكن صالحات مع وقوعهن في شيء من هذا الأمر. فلبطلان العموم بدليل ما ذكرناه انتفى أن يكون متصلاً يعود على الضرائر. وبقي ذلك في حق بعض الناس واقعاً، لأن بعض أسافل الناس إذا سمعوا عن أحد تلك العلة المذكورة تحدثوا في شأن المذكور بالزيادة والنقص بما لم يعلموا ويعاينوا، لضعف الدين وقلة العقل.

وقولها (سبحان الله) استغاثة منها بالله تعالى عند تحققها بالنازلة. وقد نطق القرآن العزيز بما

(١) يعني بـ «الثلاث»: وضئته، ويحبها زوجها، ولها ضرائر.

(٢) سورة الأحزاب، من الآية ٣٢.

(٣) سورة يوسف، من الآية ١١٠.

(٤) سورة يونس، من الآية ٩٤.

نطقت به ، فقال تعالى عند ذكر شأنها فيما جرى ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾<sup>(١)</sup> فسبحان من وفقها لموافقة كتاب ربها قبل نزوله عند تحققها بالنازلة .

وقولها (ولقد تحدث الناس بهذا) ! تعجب منها لعلمها بعدم الموجب لذلك .

وقولها (فبئس تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم) فيه وجهان :

(الأول) أن الهموم موجبة للسهر وسيلان الدموع ، لأنها لما أن تحققت بالنازلة كثر همُّها وكثر

دمعُها وانتفى عند ذلك نومها .

(الثاني) أن أهل الفضل والخير إنما همُّهم ما كان من قِبَل أخراهم ، لأنها لما أن نزلت بها هذه النازلة وهي من طريق الآخرة وما تشان به في الدين كثر همُّها لأجل ذلك لأن الكلام فيها بذلك شين عليها في الدين . ولو كان ذلك الواقع من جهة الدنيا لم تكن ليتحزنَ عليه ، فإن الدنيا عندهم قد رفضوها وراء ظهورهم ، وسمعوا فيها قول النبي ﷺ (لو كانت الدنيا تُساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرة ماء)<sup>(٢)</sup> . فالأصل عندهم سلامة الدين والتحفظ عليه . والدنيا عندهم تبع . فإذا وقع لهم شين في الدنيا لم يبالوا بذلك ، بل هم مستبشرون بما لهم عليه في الآخرة من الأجور . وإن وقع شين في الأصل - وهو الدين - كثر حزنُهم ووجلُّهم ، واستغاثوا بربهم ، واضطروا إليه كما فعلت عائشة رضي الله عنها .

وقولها (فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبثَ الوحي يستشيرهما

في فراق أهله) فيه وجوه :

(الأول) أن ما اتفق للنبي ﷺ في هذه النازلة من كونه لم يعلم الأمر فيها ، فذلك دالٌّ على معجزته وصدقه في كل ما جاء به عن ربه ، عز وجل ، لأنه ، عليه السلام ، أتى بأشياء خارقة للعادات ، على ما تواتر وعُلم ، وأخبر ، عليه السلام ، بما سيكون إلى يوم القيامة . وفي هذه النازلة التي هي في أهله لم يكن له علم بها حتى استشار غيره فيما يفعل فيها ، وظهرت عليه فيها أوصاف البشرية ، فكان ذلك دالاً على أن كل ما أتى به ، عليه السلام ، من أخبار الغيوب والمعجزات هي من الله ، عز وجل . ولو كان ذلك من غير هذا الوجه ، على ما قاله أهل الكفر والعناد ، لكان ذلك أولى أن يعلم هذه النازلة ويتحقق فيها ما كان . فلما أن كان هذا عُلِمَ أن الأمر ليس بيده ، وإنما يعلم من الأشياء ما أطلع الله عليها ، وما علَّمه إياها .

(١) سورة النور ، من الآية ١٦ .

(٢) رواه الترمذي وصححه الضياء في المختارة عن سهل بن سعد رضي الله عنه ، بلفظ : (تعديل عند الله) بدلاً من (تساوي عند الله) .

(الثاني) جواز المشورة لكن بشرط أن يكون المستشار فيه أهلية لذلك، لأن النبي ﷺ لما أن وقع له ما وقع دعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد، فاستشارهما في فراق أهله. وعلي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فيهما أهلية للمشورة، على ما تواتر وعلم من فضلهما. وفيه دليل على أن من السنة استشارة الشباب في النوازل، لأن النبي ﷺ استشارهما وكانا شائين. ومن هذا الباب - والله أعلم - كان عمر بن الخطاب يجمع الشباب إذا وقعت به النوازل فيستشيرهم فيها.

(الثالث) أن السيد في قومه أو الحاكم عليهم، أو من فاق غيره في الخير والصلاح، إذا نزلت به نازلة فله أن يستشير من هو أدنى منه فيها، لأن النبي ﷺ كما قد عُلِمَ هو أفضل البشر، لكن لما أن وقع له ما وقع استشار فيه أسامة وعلياً. لكن تكون المشورة لمن فيه أهلية لها، كما تقدم. وإنما أتت بذكر الفراق مطلقاً في الأهل، ولم تذكر نفسها لوجهين: (الأول) للقربة التي هناك يُعَلَمُ بها أنها أرادت نفسها. (الثاني) كراهية ذلك اللفظ منها أن تُطْلَقَ على نفسها.

وقولها (فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم) أي بما يعلم في نفس النبي ﷺ من الود لعائشة، رضي الله عنها. وقولها (فقال أسامة: أهلك يا رسول الله، ولا نعلم عنها والله إلا خيراً) إنما حلف أسامة على ما ذكر لأنه مستشار وليس بشاهد، فحلف على ما قاله بأنه حق، ليقوى عند النبي ﷺ ذلك حتى إنه لا يشك فيه.

وقولها (وأما علي فقال: يا رسول الله ﷺ لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وأسأل الجارية تصدّقك) إنما قال علي ذلك لما يعلم من براءة الشخص مما رُمي به، وترك إيقاع الحكم لما يظهر الله، عز وجل، لرسوله ﷺ. ولما كان لفظه وهو قوله (لم يضيّق الله عليك) يحتمل إيقاع الفراق والإبقاء أشار بقوله (وأسأل الجارية تصدّقك) أنه<sup>(١)</sup> ما أراد إلا الإبقاء، لكن ترك النظر في ذلك للنبي ﷺ تأديباً معه واحتراماً له، عليه السلام، لأنه يعلم أن بريرة لا تخبره إلا بكل ما يوجب له التعظيم لأهله، لما يعلم في الأهل من الخير، وليس يعلم فيها غير ذلك. وهذا هو حقيقة العلم الذي خصه الله، عز وجل به، حتى إنه ترك النبي ﷺ ينظر بنظره مع حصول براءة ما استشير فيه. فجمع الفائدتين معاً.

وقولها (فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: يا بريرة، هل رأيت فيها شيئاً يرئيك؟ إلى قولها: فتأتي الداجن فتأكله) أما قوله عليه السلام (هل رأيت فيها شيئاً يرئيك) يعني به من جنس ما قيل فيها؟ فأجابت هي على العموم، ونفت عنها كل ما كان من النقائص من جنس ما أراد النبي ﷺ السؤال عنه وغيره، فقالت: (لا، والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها شيئاً أغمصه عليها) أغمصه

(١) يريد: إلى أنه.



بمعنى أُيَكِّرُهُ، فأخبرت أنها لم تر منها شيئاً في كل أمورها، ثم أتت بعد ذلك بقولها (غير أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتي الداجن فتأكله). وهذا الاستثناء منفصل، لأن ما استثنى من غير جنس ما كان الكلام عليه، فهو منفصل. والنوم ليس هو مما ينكر على المرأة لا سيما أنها ذكرت العلة في ذلك، وبيّنت عذرها بقولها (حديثة السن) لأن حديث السن أبداً يغلبه النوم، ويكثر عليه. فأبدت عذرها، وحينئذ ذكرت ما كان منها.

وفي هذا دليل على أن من أخبر عن أحد بشيء فليُقدّم عذره فيه قبل ذكر ما أراد كما فعلت بريرة، وإنما حلفت بريرة هنا للمعنى الذي قدمنا مع أنها مستشارة لا شاهدة.

وفيه دليل على أن للسيد أن يأخذ في أمره مع الخادم إذا كان فيه أهلية لذلك، لأن النبي ﷺ أخذ في هذا الأمر مع بريرة وكانت خادماً لهم.

وفيه دليل على اتخاذ الخادم.

وفيه دليل على أن للمرأة الحرة أن تخدم نفسها وليس ذلك عيباً في حقها، لأن عائشة، رضي الله عنها كانت تعجن بيدها، على ما أخبرت بريرة. والداجن هو كل ما يتخذ في البيوت من الحيوانات. وقولها (فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله ابن أبي بن سلول إلى قولها حتى سكتوا وسكت) فيه وجوه:

(الأول) أنه ليس للحاكم أن يحكم لنفسه، لأن النبي ﷺ لما أن كان في هذا الأمر حق لم يحكم فيه، وإنما طلب من يحكم له في ذلك، فقال: مَنْ يَعِزُّنِي من رجل؟ ومعناه من يأخذ لي منه الحق ويحكم لي عليه؟

(الثاني) أنه ليس للحاكم أن يحكم بعلمه، وله أن يشهد به عند غيره من الحكام، لأنه عليه السلام يعلم من أهله الخير والصلاح، وقد شهد له علي وأسامه وبريرة بذلك، تأكيداً لما كان يعلم هو في نفسه. فلم يحكم هو ﷺ بذلك، وشهد عنده الغير لكي يحكم له به. فإن قال قائل: الشهادة إنما تكون بغير يمين. قيل له: إنما مُنعت اليمين للتهمة خشية شهادة الزور، لأن اليمين إبلاغ في الحمية لصاحب الحق. ثم إن العلماء قد اختلفوا هل يجوز الشهادة مع اليمين أم لا؟ على قولين: فمن أجاز ذلك فله فيما نحن بسبيله استدلال. ومن منع راعى التهمة. والتهمة في حق النبي ﷺ مستحيلة.

(الثالث) الحمية لله ولرسوله ﷺ، لأن النبي ﷺ لما أن استعذر من عبد الله بن أبي بن سلول قام سعد، سيد الأوس، عند ذلك حماية له، عليه السلام، فيما أراد، فقال: أنا، والله، أعذك منه، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك.

قد يرد على هذا سؤالان: (الأول) وهو أن يقال: لم ذكر هاتين القبيلتين، ولم يذكر غيرهما

من قبائل العرب؟ (والثاني) أن يقال: لِمَ أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ يَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْخَزْرَجِ يَمْتَثِلُ فِيهِ الْأَمْرُ؟

والجواب عن الأول: أن الأوس والخزرج هما قبيلتان عظيمتان في الكثرة والعدد، وهما أهل المدينة، فهما فيها متوافران، وغيرهما من قبائل العرب قد تركوا مسكنهم وتغربوا من بلادهم وهاجروا إلى المدينة، فليس الغريب بأقوى من البلدي. وأيضاً فإن مَنْ أتى إلى المدينة من المهاجرين بالنسبة إلى قبائلهم البعض من الكل، والأوس والخزرج متوافران ببلدهما، لم يخرج منهما أحد، ودخلا في الإسلام عن آخرهما، فبقيت قوتهما وشوكتهما على ما كانت عليه أولاً قبل الدخول في الإسلام. فلاجل هذا المعنى الذي اختصت هاتان القبيلتان به وفَّقَهُمَا اللهُ سبحانه لذلك.

وقد يحتمل أن يكون تكلم معهما غيرهما من القبائل فذكرهما، وذلك من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى، لأنه إذا كان ينصره مَنْ فِي هَاتَيْنِ الْقَبِيلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا أَعْظَمُ قُوَّةً، وَأَكْثَرُ عِدْداً، فكيف به في غيرهما من القبائل؟

والجواب عن الثاني: أن العرب كانت عاداتهم أن السيد يحكم على قومه في قبيلته، ويُمتثل أمره في كل ما يشير به. وسعد هذا هو سيد الأوس، فحكمه فيهم نافذ. فإن كان المتكلم من قبيلته فلا يردّه رادٌّ عن قتله، وإنما قال: نضرب عنقه، لأن المسألة لم يكن فيها نص من الشارع، عليه السلام. وكذلك كل مسألة لم يكن فيها نصٌ فللحاكم أن يحكم فيها بحسب اجتهاده.

وإنما أخبر أنه إذا كان من الخزرج يمتثل فيه الأمر، لأن الخزرج ليست بقبيلته. فإذا أراد أخذ المتكلم إن كان منهم فليس له حكم عليهم، فلا يُترك لأخذه إلا إن أخذه بالقهر والغلبة، وذلك يؤدي إلى القتال والتشاجر. فكأنه يقول للنبي ﷺ: وإن كان من إخواننا الخزرج، الذين هم في القوة والكثرة أكثر من غيرهم، فأنا متوقف فيهم مع أمرك. إن أمرتني بأخذ الحق منهم أخذته ولو بقتالهم عن آخرهم، فأنا قادر على ذلك. وهذا من غاية النصرة والحمية.

فلما فرغ، رضي الله عنه، من مقالته، حملت سعداً سيد الخزرج الحمية مثلما حملت الأول أو أكثر، فلم يستطع أن يرى غيره قام في نصرة النبي ﷺ وهو قادر عليها، فتركها، فقام من حينه - بقوة الحمية التي حملته - فقال لسعيد، سيد الأوس: كذبت لعمرك الله. والله لا تقتله ولا تقدر على ذلك. أي: لا تجد لقتله من سبيل لمبادرتنا قبلك لقتله، ولا تقدر على ذلك. أي: لو امتنعنا من النصرة فأنت لا تستطيع أن تأخذه من أيدينا لقوتنا. وهذا هو غاية النصرة إذ إنه يخبر أنه في القوة والتمكن بحيث لا يقدر عليه الأوس مع قوتهم وكثرتهم، ثم هم مع ذلك تحت السمع والطاعة للنبي صلى الله عليه وسلم.

وقول عائشة رضي الله عنها فيه (وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية) فإنما قالت ذلك لتبين شدة نُصرتِه في القضية وقوته فيها مع فائدة الإخبار بأنه من الصالحين، لأن الرجل الصالح أبداً يُعرَف منه الهيئَةُ والسَّكون والناموس، لكن زال كل ذلك عنه من شدة ما توالى عليه من الحمية لنبيه، عليه السلام. وسعدُ هذا هو الذي قال للنبي ﷺ في غزوة بدر: يا رسول الله نحن أمامك وخلفك، إن خُضت بنا بحراً خُضناه معك<sup>(١)</sup>. وقد عُهد منه كل خير جميل في غير ما موضع.

(الرابع) الحكم بالظاهر في المسائل، وإن كانت محتمة لأوجه شتى. فالحكم بالظاهر هو الراجح، لأن أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ لما أن رأى ما صدر من سعد سيّد الخزرج نسيه في ذلك إلى الكذب والنفاق، ولم يتأول له غير ما ظهر منه، وإن كان محتماً لغيره. وقد يردُّ على هذا سؤال، وهو أن يقال: لو كانت حميتهم كما ذكركم لم يصدر منهم هذا الكلام، ولكانت عبارتهم بالألفاظ غير تلك الألفاظ. (والجواب) أنه إنما صدر ذلك منهم لقوة الحمية التي غطت على قلوبهم حين سمعوا من النبي ﷺ ما قال، فلم يتمالك أحد منهم إلا قام في النصرة، لأن الحال إذا ورد على القلب ملك القلب، فلا يرى غير ما هو بسبيله، فغلبهم حال الحمية حتى إنهم لم يراعوا الألفاظ، فوقع منهم السباب والتشاجر لتسابقهم في النصرة.

ومثل هذا ما روي أن رجلاً من الصحابة<sup>(٢)</sup> كتب إلى مشركي مكة بأخبار النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فأبى النبي ﷺ، وسأل الرجل: ما حملك على ما فعل؟ فقال: يا رسول الله، والله ما كفرت بعد إيمان، ولكن لي أهل بمكة، وليس لي من يذب عنهم ويحميهم، فأردت أن أتخذ عندهم يداً لأجل أهلي، لأن إخواني المهاجرين معهم من يحمي أهلهم، وليس معي من يحمي أهلي. فقَبِلَ النبي ﷺ عُدْرَه، وبقي الرجل حياته معروفاً بالخير والصلاح. فحكم عمر، رضي الله عنه، بالظاهر بحسب ما ظهر له. وكان الأمر غير ذلك. وكذلك في قصة الأوس والخزرج سواء. كل منهم معذور فيما نسب صاحبه إليه، لأجل ما توالى عليهم من شدة الحمية لنبيه صلى الله عليه وسلم.

ومما يدل على ذلك أن النبي ﷺ لم يَعْتَبِ عليهم بعد ذلك فيما فعلوه، ولا قال لهم فيه شيئاً.

(١) رواه مسلم في الجهاد، باب غزوة بدر عن أنس رضي الله عنه، (وهو حديث طويل).

(٢) اسم ذلك الصحابي: حاطب بن أبي بلتعة.

(٣) اسم تلك المرأة: سارة. وكانت مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم.

وإن قلنا: إن النبي ﷺ تركهم من أجل حُسن خلقه وطرفِ الحق الذي كان له فيه، لم يكن الله عز وجل، ليسامحهم في ذلك، لأن الله، عز وجل، قد نهاهم عما هو أقل من ذلك، وهو رفع الصوت بحضرة النبي ﷺ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾<sup>(١)</sup> حتى إن ثابت بن قيس<sup>(٢)</sup> رضي الله عنه بقي في بيته لم يخرج، فأرسل إليه النبي ﷺ يسأل عنه، فقال: إني رجل جهِير الصوت فأخاف إذا تكلمت أن يعلو صوتي صوت النبي ﷺ فَيَحْبَطَ عملي. فأمره، عليه السلام، بالخروج، وأخبره بأن ذلك لا يكون إلا بالقصد<sup>(٣)</sup>.

فانظر كيف كان حالهم في كلامهم المعتاد، فكيف يقع منهم ما وقع، وهم صاحون يعقلون ما يعقلون؟ ذلك محال. ولو تركهم ﷺ فلم يخفضهم لتوالت الحمية عليهم حتى يقتلوا، ولو كان ذلك بينهم فوق بينهم القتل، لكان القاتل والمقتول في الجنة، إذ إن كل واحد منهم في النصرة والخدمة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ومثل ذلك كان قتال الصحابة، رضي الله عنهم، بعضهم مع بعض، كل منهم على الحق، ومعتقد لصاحبه أنه أخطأ في اجتهاده، لا شك في ذلك. وإنما وقع من وقع فيهم فنسبهم إلى ما لا يليق بجنابهم، لكونه قعد قاعدة فاسدة فقام عليها وأطرده مذهبها فيها، فأدى ذلك بحكم الضرورة إلى الطعن عليهم وفيهم؛ لأنه قاس أحوال الصحابة، رضي الله عنهم، على ما يقتضيه أحوال أهل عصره، وهذا هو الغلط الكبير والزلل العظيم. كيف تُقاس أحوال الصحابة، رضي الله عنهم، على أحوال غيرهم؟ وقد اختارهم الله، عز وجل، لنبيه عليه السلام، وقال في حقهم ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾<sup>(٤)</sup>؟ وقال عليه السلام في حقهم (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم؟)<sup>(٥)</sup> وقال عليه السلام في حقهم (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)<sup>(٦)</sup>. فأى خطأ أعظم من هذا؟ قوم شهد لهم النبي ﷺ بأنهم خير القرون، ثم يأتي من هو في القرون الذين

(١) سورة الحجرات، الآية ٢.

(٢) ثابت بن قيس: الخزرجي الأنصاري. صحابي. كان خطيب رسول الله ﷺ، وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد. وفي الحديث: نعم الرجل ثابت. قتل يوم اليمامة شهيداً في خلافة أبي بكر رضي الله عنهما سنة ١٢ هـ/٦٣٣ م.

(٣) قصة ثابت بن قيس رواها البخاري في الأنبياء، باب علامات النبوة في الإسلام، وفي تفسير سورة الحجرات، ورواها مسلم في الإيمان، باب مخافة المؤمن من أن يحبط عمله من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) سورة الفتح، من الآية ٢٦.

(٥) تقدم تخريجه في حديث البيعة رقم (٣).

(٦) تقدم تخريجه في حديث البيعة رقم (٣).

لم يُشْهَد لهم بخير، فيقيس أحوالهم وأفعالهم ومقاصدهم على مقاصد بعض أهل عصره وأفعالهم؟  
فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وبهذا المعنى - أعني تغطية الحال على القلب واستغراق الشخص فيما هو بسبيله - صدرت  
من بعض فضلاء أهل الصوفة ألفاظ وأفعال لم يُعَلَم لها معنى ظاهر، فتسلط بعض الناس على تلك  
الألفاظ حتى استنبطوا منها معاني فاسدة، فطعنوا فيهم، لأجل ما ظهر لهم من المعاني الفاسدة.  
وليس الأمر كذلك، وإنما هو على ما ذهب إليه بعض العلماء ممّن جمع الله له الطريقتين - أعني في  
العلم والتصوف - فقالوا: ينبغي أن يُسَلَّم لهم في أحوالهم، ولا يُعَرَّضَ عليهم فيها، ولا يُقْتَدَى بهم  
فيها، ولا في الزمان الذي صدر ذلك عنهم، نظراً منهم للمعنى الذي ذكرناه، وهو الإبراء للذمة،  
والأقرب إلى الله عزّ وجلّ.

وقولها (وبكيت<sup>(١)</sup> يومي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم) فيه وجوه:

(الأول) التبكير في تمييز المريض، لينظر في صالحه واللفظ به، لأنها قالت: (فأصبح  
عندي أبواي).

(الثاني) أن الولد يكون بمعزل عن أبويه في المضجع، لأنها لو كانت معهما في مضجع واحد  
وبيت واحد لما كان أبواها يبكران إليها، وهي في منزلهم. إذ إن ذلك لا يتأتى.

(الثالث) الاستئذان عند الدخول، لأنها قالت (إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها).  
وقد أمر عزّ وجلّ بذلك في كتابه فقال ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ  
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

(الرابع) التفجع للمصائب لأنها قالت (فجلست تبكي معي) وذلك تفجع من المرأة لها. ومنه  
قوله عليه السلام (المؤمن للمؤمن كالبنيان - وروي كالبنان - يشدّ بعضه بعضاً، فإذا اشتكى عضو  
تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)<sup>(٣)</sup>. ومثل هذا كان حال هذه الأنصارية، جلست تبكي مع  
عائشة، رضي الله عنها، لما نزل بها، ولم يكن لها في ذلك دُخُل. ولأجل هذا المعنى جعل عليه

(١) رواه قبل: ومكثت.

(٢) سورة النور، من الآية ٥٩.

(٣) مركب من حديثين: الأول (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً) وقد تقدم تخريجه في الحديث ١١٢.  
والثاني أوله: مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم مثل الجسد إلخ... رواه الإمام أحمد ومسلم عن  
النعمان بن بشير رضي الله عنه.

السلام، لُقيا المؤمن لأخيه المؤمن ببشاشة الوجه صدقة<sup>(١)</sup>، لأن المؤمن يستمد من أخيه بحسب ما يظهر على ظاهره، كما أن أهل البواطن يستمد بعضهم من بعض بحسب ما يكون في بواطنهم. فنص، عليه السلام، على العلة الظاهرة التي هي مشتركة بين العوام والخواص. فإذا رأى المؤمن في وجه أخيه المؤمن ما يستدل به على سروره سر بذلك، فكان الأجر للأول الذي عمل السبب للسرور، وهو حسن البشاشة وطلاقة الوجه.

وأعظم من ذلك أجراً كتمان المصائب لقوله، عليه السلام (من كنوز البر كتمان المصائب)<sup>(٢)</sup>. وإنما حصل هذا الكثر لصاحب هذا الحال، لأنه لما أصابته المصيبة فأظهر ضدها، وهي البشاشة وحسن السمات، وكنم المصيبة وصبر عليها، ولم يُعد مصيبتها إلى غيره من إخوانه المؤمنين بيته إياها لهم، وردّ المكابدة كلّها لنفسه، فلأجل هذا المعنى كان أعظم أجراً من المتقدم الذكر، وحصل له الكثر المذكور في الحديث. وبهذه المعاني وغيرها تنبئ حقيقة الإيمان وفضله وما فيه من الآداب، وهي المراد بقوله عليه السلام (بُعِثْتُ لَأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)<sup>(٣)</sup>. فعلى هذا فالدين يشتمل على أشياء: فرائض، وسنن، وفضائل، وآداب، وحسن خلق، وحسن اعتقاد، ومحبة، وحسن معاملة فيما يخص بعضهم مع بعض، وفيما يعم. ومن أحكم هذا بمقتضى الآي والأحاديث بحسب ما جاءت دخل في ضمن قوله تعالى ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾<sup>(٤)</sup>.

وقد أهمل اليوم بعض أهل العصر تلك الأخلاق والآداب التي أشرنا إليها ويقولون: ليس ذلك بفرض علينا، ويقتصرون على الفروض - على زعمهم - ولا يزيدون عليها. وهيئات الذي جاء بالفرض جاء بغيره من السنن والرغائب. فإن ردّ ذلك ولم يعمل به فهو قبح عظيم قد يخشى عليه أن يدخل في عموم قوله تعالى ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾<sup>(٥)</sup>.

وفيما نحن بسبيله استدلال لأهل الصوفة. إذ إن أول شرط عندهم في السلوك ثلاثة وهي: حمل الأذى، وترك الأذى، ووجود الراحة. فوجود الراحة منه بشاشة الوجه وإدخال السرور على

(١) مروي بالمعنى لحديث مسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية بإسناد ضعيف.

(٣) رواه الإمام مالك في الموطأ في حسن الخلق بإسناد منقطع. قال الزرقاني: رواه الإمام أحمد وقاسم بن أصبغ والحاكم والخرائطي برجال الصحيح، وقال ابن عبد البر: هو حديث مدني صحيح متصل عن أبي هريرة رضي الله عنه وفي رواية (صالح الأخلاق) وفي أخرى (حسن الأخلاق).

(٤) سورة الإنسان، من الآية ٢٢.

(٥) سورة البقرة، من الآية ٨٥.

الإخوان، وحمل الأذى منه كتمان المصائب، وترك الأذى من قبيل الواجب، والواجب أعظم القرب، فإذا أحكَمَ المرید هذه الثلاثة حينئذ يأخذون معه في السلوك إن وفق إلى ذلك، ولهم فيما نحن بسبيله حجة واضحة.

وقد يرد على هذا الفعل سؤالان وهما أن يقال: لِمَ أَخْبِرَتْ ببيكائها في هذا الموضع وقد أَخْبِرَتْ به قبل ذلك، وذلك تكرار لغير فائدة؟ وَلِمَ كان أبواها لا يبيكان معها، وهذه الأنصارية بكت معها؟

والجواب عن الأول: أنها إنما أتت بذكر البكاء ثانية لتبين أَنَّ حالها لم يتغير عما كان أولاً، وأن البكاء والحزن داما بها ما دامت بها النازلة، وزادت فيه إشعاراً بأن ذلك ازداد عليها وكثر، ببقاء الأمر عليها، بقولها (حتى أظن أَنَّ البكاء فالتقَّى كيدي).

والجواب عن الثاني: أَنَّ المؤمنين لم يتساووا، فمنهم من أقيم في مقام الخوف والإشفاق، ومنهم من أقيم في غير ذلك. وهي سبع مقامات، وأعلاها: الرضا والتسليم<sup>(١)</sup>، وهو المعبر عنه بالطمأنينة. وأصحاب هذا المقام لا يعترضون المقدور، ولا يُؤوّلون في الأمور، لأنهم قد أذعنوا واستسلموا لِقضاءِ عَلامِ الغيوب. فكل ما كان من خير وشر كانوا به مستبشرين، وبه فرحين، ما لم يتعيّن عليهم في ذلك أمرٌ أو نهْي. وأبو بكر، رضي الله عنه هو من أهل السُّبق في هذا المقام. كيف لا يكون كذلك وهو خليفة رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار؟ وأم رومان، رضي الله عنها، قريبة منه في هذا المقام لِمَا عُلِمَ من حالها. فكانت وظيفتهما في ذلك الرضا والتسليم، لأنه يُعَلَمُ بالقطع أن ما يَنزِلُ من البلاء بالأولاد فهو أشدّ على الآباء من نزول ذلك بأنفسهم.

فالرضا والصبر على ما ينزل بالأبناء أجلّ للآباء من الصبر على ما ينزل بهم في أنفسهم. وقد قال عليه السلام (إذا قَبَضَ الله وَلَدَ العبد المؤمن يقول للملائكة: قبضتم ريحانة قلب عبيد المؤمن؟ فيقولون: يا ربنا نعم. فيقول الله عز وجل: فما قال؟ - وهو أعلم - فيقولون: يا ربنا صَبَرَ وحَمِد. فيقول عز وجل: ابنوا له قصراً في الجنة وسمّوه بيت الحمد)<sup>(٢)</sup> وأما عائشة، رضي الله عنها، فإنما كَثُرَ منها البكاء والحزن لأن ما نزل بها يُستحيا منه كلّ الحياء. فإن ركنت إلى أبويها استحييت منهما، وإن ركنت إلى النبي ﷺ كان ذلك أكثر، وكذلك حالها مع الناس عن آخرهم.

(١) جعل الإمام الغزالي المقامات تسعاً، وهي على الترتيب: التوبة، الزهد، الصبر، الفقر، الشكر، الخوف، الرجاء، التوكل، الرضا. انظر إحياء علوم الدين ٣٠٩/٥ - ٣١٨.

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث أبي موسى رضي الله عنه، بلفظ: إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول: ابنوا لعبي بيتاً في الجنة وسمّوه بيت الحمد.

فتوالت عليها أسباب الأحزان وكثرت مع صغر سنّها، فأذى ذلك بحكم الضرورة إلى سبلان الدمع وكثرة الحزن وانتفاء النوم.

وقولها (فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ فجلس، إلى قولها: ثم تاب، تاب الله عليه) فيه وجوه:

(الأول) أن جلوس النبي ﷺ هنا لعائشة، رضي الله عنها، لم يكن لزوال الهجران الذي وقع، وإنما كان جلوس حُكم. فالأفعال إذاً لا تنفع إلا بحسب ما كان القصد فيها، لأنها كانت تُسرّ بجلوس النبي ﷺ لها على ما كانت تعهد منه، وهذا الجلوس ازداد كُرْبُها به لشدة حياتها، حين ذكر لها النبي ﷺ ما ذكر.

(الثاني) أن تأخر النبي ﷺ عن الحكم في المسألة لم يكن من قبلة، وإنما كان من قِبَل تأخر الوحي عنه، لأنها قالت (وقد مكث شهراً لا يُوحى إليه في شأني شيء)، فأتت بذلك لتبين عذر النبي ﷺ في تأخر الحكم في الأمر، لأنه، عليه السلام، كان لا يحكم لنفسه، وإن حكم لنفسه فيكون ذلك بالقرآن. وهذه المسألة له فيها حق، فلم يمكنه أن يحكم فيها.

فلما أن تأخر الوحي عنه، وتعارض له أمران: حقه وحق غيره، غلب حق غيره على حق نفسه، لأن عائشة، رضي الله عنها - وإن كانت أهله عليه السلام - فهي أجنبية في الحكم لها، وصفوان بن معطل، رضي الله عنه، له في المسألة حق. فلأجل حق غيره نظر من يحكم في المسألة بعد التريص قليلاً انتظاراً لنزول الوحي لأجل حقه، عليه السلام. ولو كان الحكم لصفوان وعائشة، رضي الله عنهما، ولم يكن للنبي ﷺ فيه حق، لحكم به عند نزول النازلة لقوله تعالى ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتِكَ اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup> فكل ما يرى، عليه السلام، فهو وحي. والوحي له، عليه السلام، على ضربين، على ما قاله العلماء: فوحي إلهام، ووحي بواسطة المَلَك. والكل من عند الله، عز وجل.

(الثالث) فيه دليل على أن من السنة الابتداء بذكر الله تعالى في أول الكلام أو التشهد، لأن النبي ﷺ حين أراد الكلام لعائشة، رضي الله عنهما تشهد، ثم بعد ذلك تكلم بما أراد.

(الرابع) فيه دليل على أن من رمي بشيء، وهو لم يفعله، فإن الله، عز وجل، يبرئه من ذلك، ويظهر الحق فيه، لأن النبي ﷺ قال لها: (فإن كنت بريئة فسيبرئك الله عز وجل).

(الخامس) فيه دليل على أن أهل الخير والصلاح مطالبون بما لا يُطالب به غيرهم، وخصوصاً

(١) سورة النساء، من الآية ١٠٥.



نساء النبي ﷺ لقوله تعالى ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾<sup>(١)</sup> لأن النبي ﷺ قال لها (وإن كنتِ أَلَمَّتِ بَذَنْبٍ)، والله، عز وجل، قد رفع ذلك عن المؤمنين في كتابه فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمُ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾<sup>(٢)</sup> واللمم، على ما فيه من الخلاف بين العلماء: ما دون الفاحشة. فلما أن كانت عائشة، رضي الله عنها، من نساء النبي ﷺ طُوبِت باللمم، فقال لها عليه السلام (وإن كنتِ أَلَمَّتِ بَذَنْبٍ فاستغفري الله وتوبي إليه. فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه) فجعل، عليه السلام، إمامها بالذنب كوقوع الذنب من غيرها.

وقد قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾<sup>(٣)</sup> وذلك يتضمن ترك الصغائر، كما أن المطلوب في أفعال البر مع الفرائض زيادة في السنن والרגائب على اختلافها. وقد قال ﷺ (إن الله يعاقب العاقل يوم القيامة ما لا يعاقب الأمي، ويثيبه ما لا يثيب الأمي. قيل: من الأمي يا رسول الله؟ قال: الجاهل الكذوب لسانه، الخائض فيما لا يعنيه وإن كان قارئاً كاتباً)<sup>(٤)</sup>. وقد بين، عليه السلام، العاقل في أول الحديث. وقال في صفة الصادق: (لسانه الطويل صمته، ويسلم الناس من شره، فذلك العاقل، وإن كان لا يقرأ من كتاب الله كثيراً)<sup>(٥)</sup>. ومنه قول أهل الصوفة (حسنات الأبرار سيئات المقرّبين).

(السادس) طلب النبي ﷺ منها الاعتراف يحتمل وجهين: (أحدهما) أن يكون أراد الاعتراف بين يدي الله. (والثاني) أراد الاعتراف بين يديه، عليه السلام. ويحتمل أن يكون أراد مجموعهما - وهو الأظهر - لأن ذلك لو وقع فليله فيه حق، وللنبي ﷺ فيه حق. وحق البشر لا يعفو الله عنه إلا أن يعفو عنه صاحبه. فلما اجتمع الحقان فلا بدّ من كليهما، لأن حق البشر موقوف على صاحبه لقوله عليه السلام (من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم)<sup>(٦)</sup>.

(السابع) فيه دليل على أن الأحكام مطلوبة ظاهرة وباطنة، وللظاهر حكم، وللباطن حكم. وحكم الظاهر مقدّم على حكم الباطن - أعني في الفحص عنه والإنجاز فيه - لأن النبي ﷺ لم يسألها عن الباطن حتى فحص عن الظاهر، وظهرت له طهارته بشهادة عليّ وأسامة وبريرة المتقدم ذكرها،

(١) سورة الأحزاب، من الآية ٣٢.

(٢) سورة النجم، من الآية ٣٢.

(٣) سورة الأحزاب، من الآية ٣٣.

(٤) لم نقف على مصدره.

(٥) لم نقف على مصدره.

(٦) رواه الإمام أحمد والبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: من كانت لأخيه عنده مظلمة من عرض أو مال فليتحلله اليوم قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا درهم. فإن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له عمل أخذ من سيئات صاحبه فجعلت عليه.

وحينئذ رجع ينظر في حكم الباطن، فنص، عليه السلام، لها عليه، وما حكم الله فيه، وأظهر لها وجه الخلاص فيه. وهذا هو الموجب لإنصاحه، عليه السلام، لها بما قيل، لكي يترتب الحكم عليه ومعرفة الخروج منه أو التبرئة.

(الثامن) قوله عليه السلام (فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه) يحتمل أن يكون على العموم، ويحتمل أن يكون على الخصوص. فإن قلنا: إنه على العموم عارضنا حق الغير، وقد نص، عليه السلام، على أن ذلك ليس منه خلاص إلا الاستحلال أو الإعطاء، فقال عليه السلام (من كانت له مظلمة لأخيه)، وقد تقدم قبل قليل. وقد كان، عليه السلام، لا يصلي على من عليه ذنب حتى يأتي من يتحمل عنه<sup>(١)</sup>، وقد تحمل بعض الصحابة عن ميت، ثم أتى بعد يومين أو ثلاثة فأخبر النبي ﷺ أنه قضى ذنبه. فقال له عليه السلام (الآن بردت جلدته)<sup>(٢)</sup>.

وقد قال، عليه السلام، للأعرابي حين سأله فقال: أرايت يا رسول الله إن قُلتُ في سبيل الله صابراً محتسباً مُقبِلاً غير مُذبر، أيكفر الله عني خطاياي؟ فقال عليه السلام: نعم. فلما ولّى الأعرابي دعاه النبي ﷺ فقال له: إلا الدين. هكذا أخبرني جبريل أنفاً<sup>(٣)</sup>، والأحاديث في ذلك كثيرة. فعلى هذا فليس ما نحن بسبيله على العموم، وإنما هو على الخصوص. فالخصوص هنا هو أن الذنب إذا كان بين العبد والرب فالحكم فيه ما نص النبي ﷺ عليه، وهو الاعتراف بالذنب والتوبة منه.

وقد شرط الفقهاء لذلك أربعة شروط، وهي: الندم، والإقلاع، ورد المظالم، والعزم على ألا يعود. وهذه الأربعة شروط متضمنة لما نص النبي ﷺ. فالندم والإقلاع يعمهما قوله ﷺ (فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب) فالاعتراف لا يكون إلا عند الندم، والاستغفار لا يكون إلا عند الإقلاع. وأما لو كان إنسان يستغفر من المعصية، وهو يريد أن يفعلها ثانية، فذلك استغفار الكذابين، وليس هو المراد بما أشار النبي ﷺ إليه. والعزم على ألا يعود هي التوبة التي نص عليها النبي ﷺ هنا. ورد المظالم يعمه قوله عليه السلام في الحديث (من كانت له مظلمة لأخيه) الحديث.

لكن النبي ﷺ قد شرط في ذلك شرطاً، وهم لم يتعرضوا له، وهو تسمية الذنب، لأنه عليه السلام قال (إذا اعترف بذنبه). وذلك يقتضي تسمية الذنب، فلا بد من تسميته للنص عليه، فإن

(١) رواه البخاري في الحوالة باب إن أحال دين الميت على رجل جاز والترمذي والنسائي ٦٥/٤. وفي شأن صلاة

الرسول ﷺ على الميت المدين تفصيل أوضحناه في الحديث (١١١).

(٢) رواه الإمام أحمد ٣٣٠/٣ والبيهقي في السنن ٤٩/٦ في حديث طويل عن جابر قال: توفي رجل فغسلناه وحنطناه وكفناه إلخ.

(٣) رواه مسلم في الإمارة باب من قتل في سبيل الله كفر خطاياهم إلا الدين، ورواه الترمذي والنسائي ٣٤/٦ عن أبي قتادة رضي الله عنه مع اختلاف في اللفظ.

كثرت الذنوب حتى لا تُحصَى سقط عن صاحبه تسمية كل ذنب بعينه، ووجب عليه أن يُسَمِّي جنس كل ذنب وقع فيه، فيستغفر منه ويتوب. وإن كان حقوق الغير فيحتاج فيه إلى تقسيم لمن عجز عنه، وما حكمه؟ وقد تقدم ذلك في الكلام على قوله، عليه السلام (من كانت له مظلمة لأخيه) الحديث. قولها (فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة إلى قولها ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها) فيه وجوه:

(الأول) أن الحزن إذا توالى على المرء وكثر جفَّ دمعه عند ذلك، لأنها قالت (فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة) قلص بمعنى: ارتفع وانقطع. وأحس بمعنى: أنها لا تجد منه شيئاً. فلما أن كثر عليها الحزن بمفاجأة النبي ﷺ لها بذلك الأمر جف دمعه وانقطع.

(الثاني) النيابة في الكلام والاستعداد، لأنها قالت لأبيها (أجب عني رسول الله ﷺ). لكن هذا قد يرد عليه سؤال، وهو أن يقال: إنما سئلت عن حكم الباطن وغيرها ليس له بذلك معرفة، لأن أحداً لا يعرف ما في باطن أحد حتى يعرفه به. والجواب، أنها إنما قالت لأبيها (أجب عني) إشارة منها إليه أنه لم يكن في باطنها في المسألة إلا ما في باطنه، وهو عدم الموجب لما قيل.

(الثالث) الأخذ بالظاهر في المسائل، وإن كانت محتملة لأوجه آخر. فالأخذ بالظاهر سبق للفهم مع عدم التشويش، فكيف مع التشويش وفرط الحزن؟ لأنها لما أن قال لها أبوها ما قالا قالت: (والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس، ووقر في أنفسكم، وصدقتم به)، فَنَسَبَتْهُمْ إِلَى أَنَّهُمْ صَدَقُوا عَلَيْهَا مَا قِيلَ، لِمَا ظَهَرَ لَهَا مِنْ سَكْوَتِهِمْ عَنِ الْجَوَابِ وَمَحِيدِهِمْ عَنْهُ لَشِدَّةِ الْحَزَنِ الَّذِي تَوَالَى عَلَيْهَا، فَسَبَقَ لَهَا ظَاهِرُ اللَّفْظِ. وإنما كان سكوتهم عنه لتعذر الجواب في الوقت عليهم لِعَظَمِ الْأَمْرِ وَخَطَرِهِ، وليس لما ظننت من تصديقهم بما قيل.

(الرابع) أن من رُمي بشيء، ثم سئل عنه هل هو حق أم لا؟ فإن كان له من خارج ما يصدق مقالته أبرأ نفسه مما قيل، وإن لم يكن ثمَّ غيرُ كلامه فلا ينفع إذ ذاك كلامه، لأنها لما أن سألتها النبي ﷺ عن أمرها قالت (ولئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم إني لبريئة - لا تصدقوني بذلك)، فلم تتعرض لبراءة نفسها في ذلك الوقت مما قيل عنها، وبيئت عذرها في سكوتها عن ذلك من كون أن التصديق لا يقع بمقالها، بسبب أنه ليس لها من خارج ما يصدق ما تقول. وحين أنزل، الله عز وجل، براءتها ذكرت القضية، وكيف كان وقوعها، لكون القرآن يُصَدِّقُهَا فيما تقول من ذلك.

(الخامس) أن من رُمي بشيء، ثم سئل عنه، فلا يجوز له أن يقر على نفسه بما لم يفعل، وإن كان فيه رضاً للسائل، ويكون السائل ممن يُلْتَمَسُ رضاه، لأنها لما أن سألتها النبي ﷺ عما قيل،

وكان ذلك باطلاً، وطلب منها الجواب، قالت (لئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أنني بريئة - لَصَدَّقْتَنِي)، فلم تقرّ على نفسها بما لم تفعل، لأن الإقرار بذلك كذب، والكذب محرم، ولا يُلتَمَس رضا مخلوق بمحرّم. هذا إذا كان ذلك سالماً من أن يُخْدِث به المرء على نفسه شيئاً في الدين، فكيف باجتماعهما معها

(السادس) أن من رُمي بشيء، ولا يقدر على نصرته نفسه ببيان ينفي ما رمي به، فلاستسلام إلى الله تعالى وترك ما سواه أولى به، لأنها لما أن قال النبي ﷺ ما قال، وأبواها سكنا عند ذلك وحادا عن الجواب، وهما كانا عُذَّتْها في السراء والضراء، لم تعلق بواحد منهما ولا طلبت منهما دعاء ولا تفريجاً، بل أعرضت عن الأسباب وتعلقت بالمسبب. يشهد لذلك إعراضها عنهما بعدم الجواب، وتحولها عن ذلك الجنب الذي كانت مواجهة لهم به، وقولها في المثل ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلًا﴾<sup>(١)</sup> فهذه هي صورة اللجأ وقطع الأسباب حالاً ومقلاً.

فلما أن فعلت ذلك أنتها النصر في الحين. وكذلك كل من تعلق بالله تعالى مضطراً أتاه النصر من حينه، كما أنها. يشهد لذلك قوله تعالى ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾<sup>(٢)</sup>. ولأجل هذا المعنى فُضِّلَ أهل الصوفة على غيرهم حتى إنه لا يخطر بقلوبهم شيء إلا وكان لهم في الحين من غير أن يطلبوه، ولا يتكلمون فيه لحصول حالة الاضطراب منهم في السراء والضراء.

(السابع) أن من وقعت به مصيبة، وتمادت به، وكثرت عليه، فلا يَقْنَطُ فيها، لأنها لما أن اشتد الأمر بها وتوالت عليها الأحزان لم تكن إذ ذاك تقطع الإياس، لأنها قالت حين تحولت عن فراشها (وأنا أرجو أن يُبَرِّئَنِي الله). وهذه المسألة يحتاج المرء أن يتحرز منها لئلا يقع له الإياس والقنوط عند النوازل وكثرتها، فيستحق العذاب، لقوله، عليه السلام، إخباراً عن ربه عز وجل يقول (لو كنتم معجلاً عقوبة لعجلتها على القانطين من رحمتي)<sup>(٣)</sup>.

(الثامن) أن من تواضع لله رفعه الله، لأنها قالت (والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحي، ولأننا أحقر في نفسي من أن يُتَكَلَّمَ بالقرآن في أمري). و (ظننت) هنا بمعنى (علمت وقطعت). فلما أن كانت عند نفسها بهذه المنزلة وصل بها الاعتناء إلى أن نزل القرآن في حقها، وسادت بذلك على غيرها. وقد جاء في بعض الكتب المنزلة: (يا عبدي لك عندي منزلة، ما لم يكن لنفسك عندك

(١) سورة يوسف، من الآية ٨٣.

(٢) سورة النمل، من الآية ٦٢.

(٣) لم نقف على مصدره.

منزلة). وقد جاء في الأثر عن النبي ﷺ أنه قال (ما من امرئ إلا وبرأسه حَكَمَةٌ كَحَكَمَةِ الدابة بيد مَلَك، فإن ارتفع ضربته المَلَك وقال انْضِعْ، وضَعَكَ الله. وإن تواضع رَفَعَهَا المَلَك فقال: ارتفع رفعك الله)<sup>(١)</sup>.

ولأجل هذا المعنى ساد أهل الصوفة على غيرهم، لأنه أول شرط عندهم في الدخول العمل على قتل النفس وترك حظوظها، وإذا بقي لها حظ لم تصلح للدخول في طريقهم. وهذا هو نفس التواضع. فرفعهم الله لأجل ذلك على غيرهم، ولهذا المعنى أيضاً وُضِعَ أهل الدنيا فرجعوا خداماً لمن تقدم ذكرهم لطلبهم الرفعة، فَوُضِعُوا وصاروا من الخدام للذين طلبوا التواضع.

ثم بقي سؤال وارد على قولها (وكننت جارية حديثة السن). وهو أن يقال: ما فائدة ذكرها لصغر سنها، وقد ذكرت ذلك قبل؟

والجواب: أنها إنما ذكرت ذلك لتبين عذرها، وهو السبب الذي لأجله كانت لا تحفظ كثيراً من القرآن. فإن قال قائل: فما فائدة إخبارها بأنها كانت لا تحفظ كثيراً من القرآن، وليس يتعلق مما هي بسبيله شيء من هذا؟ قيل له: إنما أخبرت بذلك لتبين العذر الذي لأجله لم تجب النبي ﷺ فيما قال من حينها، وسكنت عنه، لأن القرآن يشتمل على أحكام عديدة، فمنها: التعلق بالله وترك الأسباب، ومنها عمل الأسباب في الظاهر وخلو الباطن من التعلق بها، وهو أجَلُّها وأزكاها، لأن ذلك جمع بين الحكمة وحقيقة التوحيد. وذلك لا يكون إلا للأفراد الذين مَنَّ الله عليهم بالتوفيق،

ولذلك مدح الله، عز وجل، يعقوب، عليه السلام، في كتابه ﴿وَلَئِنَّكَ لَذُو عَلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> لأن يعقوب، عليه السلام، عمِلَ الأسباب واجتهد في توفيتها، وهو مقتضى الحكمة، ثم رد الأمر كله لله واستسلم إليه، وهو حقيقة التوحيد. وذلك أنه، عليه السلام، لما جاءه بنوه إخوة يوسف ببضاعتهم يشكون إليه ردّها عليهم، ويسألون منه أن يرسل معهم أخاه بنيامين، احتمل عنده الأمر: هل هو مكر جديد لكي يتلفوا بنيامين مثلما أتلّفوا يوسف، أو ذلك حيلة من الغير في الاجتماع ببنيامين ليلقي إليه خبر يوسف، وخاف من الإخوة أن يلقي إليهم ذلك فيضيّعوا الخبر كما أضاعوا العين.

فلما أن احتمل الأمر الوجهين احتاط للواحد - وهو التهمة - بأخذ العهد عليهم، واحتاط

(١) الحَكَمَةُ: حديدة اللجام في فم الفرس. والحديث رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، والبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: ما من آدمي إلا في رأسه حَكَمَةٌ بيد مَلَك، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حَكَمَتَهُ، وإذا تكبر قيل للملك: ضَع حَكَمَتَهُ.

(٢) سورة يوسف، من الآية ٦٨.

لِلْآخِرِ بَأَن قَالَ: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾<sup>(١)</sup> رجاء منه أن يبقى بنيامين وحده، فيكون سبباً لمعرفة ما رجاء من خبر يوسف عليه السلام. وشدد ذلك عليهم خوفاً من أن يتهموه فيما أوصاهم به، أو يضيّعوا الوصية، بأن قال لهم: إنما قلت لكم ذلك - يعني التفرقة في الدخول - من أجل العين، على ما نقله بعض أهل التفسير. فهذه هي الأسباب بمقتضى الحكمة. ثم أفصح عليه السلام بما أكّنه في باطنه من حقيقة التوحيد، فترك التعلق بما فعل من الأسباب وقال ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فأثنى الله، عز وجل، من أجل جمعه بين هاتين الحالتين العظيمتين، اللتين القليل النادر من الناس من يجمع بينهما، حتى إنهم اختلفوا فريقين: فريق يقول حقيقة لا غير، وفريق يقول شريعة لا غير. ويرون أن الجمع بينهما كالمستحيل.

والحق ما ذكرناه. وهو الجمع بينهما، ولذلك أثنى الله عز وجل على فاعل ذلك ثم قال بعد الثناء عليه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> أي لا يعلمون كيفية الجمع بين تينك الحالتين. والجمع بينهما هو المطلوب من العبيد، وعليه عمل الأنبياء، صلوات الله عليهم أجمعين، مما يؤخذ من استقراء أحوالهم ومقالاتهم. ولولا التطويل لذكرنا مناقبهم في ذلك واحداً واحداً، لكن اللبيب يتتبع ذلك فيجده.

وكذلك كان حال النبي ﷺ لأنه، عليه السلام، كان قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ثم بعد ذلك قام حتى توارت قدماه، وكان يربط على بطنه الحجر من كثرة المجاهدة ومواصلة الأيام العديدة، وهو الذي جاء بتشريع الأعمال والحض عليها وتبيين ما فيها من الأجور والدرجات، ثم بعد ذلك قال عليه السلام (لن يدخل أحداً عمله الجنة). قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضلته ورحمته<sup>(٤)</sup>. فبعد بذل الجهد في الأعمال رجع إلى حقيقة التوحيد، وترك النظر إلى غيره، وهو التعلق بالأسباب.

وكذلك كانت عادته، عليه السلام، أيضاً إذا خرج إلى سفر ثم يرجع، وقد تقدم هذا في غير ما حديث. ولأجل هذه الصفة العليا التي تركت عائشة، رضي الله عنها، إلى غيرها - وهو أخذها

(١) سورة يوسف، من الآية ٦٧.

(٢) سورة يوسف، من الآية ٦٧.

(٣) سورة يوسف، من الآية ٦٨.

(٤) رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه. وانظر روايات أخرى له في حديث (حراسة مكة والمدينة من الدجال) رقم ٨٦ من هذا الكتاب.

بحقيقة التوحيد، وتركها السبب امثالاً للحكمة - اعتذرت بكونها كانت إذ ذاك لا تحفظ كثيراً من القرآن، لأنها لو كانت تحفظ كل القرآن لعملت على الصفة العليا وتركت ما هو دونها.

فإن قال قائل: فما السبب الذي كان لها أن تفعله فلم تفعله واستعذرت عن تركه بهذا التعريض؟ قيل له: إن النبي ﷺ إنما طلب منها إن كان ثم شيء أن تعترف به وتستغفر منه، وإن لم يكن ثم شيء فتبدي ذلك، والله يبرئها ويصدقها فيما تقول. فكان الجواب على هذا السؤال أن تقول: والله ما أعرف شيئاً مما ذكروا، وأرجو البراءة لو عدك الجميل من المولى الجليل، أو غير هذا الكلام وما في معناه، لأنه، عليه السلام، قد وعدنا إن كانت بريئة فإن الله سيبرئها، فتكون قد جمعت بين الحالتين. فلما أن عدلت عن هذا لما ذكرت في الحديث احتاجت أن تستعذر عن ذلك بهذا التعريض، وإن كان هذا الفعل لها في ذلك الوقت - أعني حقيقة التوحيد وترك الأسباب والتعلق بها من أجل المراتب - لصغر سنها، لكن لم ترض به عند تمكنها، فاستعذرت عنه.

وفي هذا دليل على أن المجتهد إذا اجتهد في المسألة، ثم ظهر له غير ما ذهب إليه أولاً، فذلك سائغ له. وإنما مثلت أمرها بيعقوب، عليه السلام، إذ قال ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾ للمعنى الذي قدمناه، وهو الأخذ بحقيقة التوحيد، لأن الصبر الجميل هو الصبر الذي لا شكوى فيه إلا التسليم والإذعان لجميع المقدور.

وقولها (فوالله ما رام مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت، إلى قولها، ولا أحمد إلا الله) فيه وجوه:

(الأول) منها فيه دليل على أن المصيبة إذا اشتدت فالفرج إذ ذاك قريب، لأنها لم يبلغ بها الأمر أشد من هذا الوقت، لمفاجأة النبي ﷺ لها بذلك، وسكوت أبويها عن الجواب. فلما أن اشتدت بها تلك المصيبة وعظمت جاءها الفرّج في الحين من غير مهلة ولا تراخ وقع، لأنها قالت: (فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه)، فأخبرت أن الأمر لم يطُل حتى يقع من أحد الخروج أو غير ذلك.

ولأجل هذا المعنى كان علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، إذا كان في شدة استبشر وفرح، وإذا كان في رخاء قلق وخاف. ف قيل له في ذلك، فقال: ما من ترحة إلا أعقبتها فرحة، وما من فرحة إلا وأعقبتها ترحة، ثم يستشهد على ذلك بقوله تعالى ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (١).

(١) سورة الشرح، الآية ٥ و٦.

ولأجل هذا المعنى يقول بعض الفضلاء: ما أبالي كيف أصبحت، فإنما هي حالتان: إما بلاء أو نعماء. فإن كانت النعماء أخذت في الشكر، وإن كان البلاء أخذت في الصبر.

ولأجل هذا المعنى ساد أهل الصوفة غيرهم، لأنهم قد عزموا على هاتين الصفتين، والقيام بوظائف كل واحدة منهما إذا كانت. ومن كان على هذا الحال ساد على غيره بالضرورة، لأن نفس السؤدد هو الاستغناء عن المخلوق، ومن كان على هذه الصفة التي ذكرناها لم تعرض له حاجة لمخلوق أبداً. ولأجل هذا لم يوجد أحد منهم يسأل غيره، بل هم المسؤولون في حال النوازل، وهم المفرجون<sup>(١)</sup> لها، وكذلك من تعلق بجنابهم لم يحوجه الله تعالى لمخلوق أبداً إكراماً لهم، وعناية بهم.

(الثاني) أن ثقل القرآن كان محسوساً عند نزوله، لأنها قالت (فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء في يوم شاتٍ حتى إن جبينه ليتحدّر منه مثل الجمان من العرق). (البرحاء): كناية عن شدة ما كان، عليه السلام، يلاقي عند نزول الوحي عليه من أجل ثقله. (والجمان) هو اللؤلؤ. فشبهت تحدر عرق رسول الله ﷺ على جبينه حين نزول الوحي عليه كاللؤلؤ، وإن كان حُسنُ عرقه، عليه السلام، أعلى من حسن اللؤلؤ، لكن ليس في المحسوسات بما يُشبه أعلى منه ولا أحسن، فهذا الثقل موجود حساً.

وقد أخبرت عائشة، رضي الله عنها، في غير هذا الحديث أن النبي ﷺ كان يضع رأسه على ركبته، ثم ينزل عليه الوحي، فتظن أن فخذها قد انقطع من شدة ما عليه من الثقل، وقبل أن ينزل عليه لم تكن لتجد ذلك. وقد كان، عليه السلام، إذا نزل عليه الوحي وهو على ناقته تَئِطُّ الناقة حتى يقرب بطنها الأرض<sup>(٢)</sup>، وقبل أن ينزل عليه لم تكن لتفعل ذلك.

ثم بعد هذا لولا أن الله، عزّ وجلّ، أعطاه القوة والتمكين لم يكن ليقدّر أن يتلقى ذلك الكلام، وقد أشرنا إلى هذا في أول الكتاب حين نزول جبريل، عليه السلام، على النبي ﷺ في أول ابتداء الوحي وغطه إياه ثلاثاً، ولأن الله، عزّ وجلّ، لا يشبهه شيء، فكذلك كلامه لا يشبهه شيء،

(١) بإذن الله.

(٢) لم نقف على حديث روته السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يضع رأسه على ركبته، ثم ينزل عليه الوحي، فتظن أن فخذها قد انقطع من شدة ما عليه من الثقل إلخ. وإنما هو من رواية زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فكانت فخذة ترضّ فخذي. رواه الشيخان. وقالت السيدة عائشة إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه، وتلت قوله تعالى ﴿إِنَّا سُلِّفْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا نَقِيلًا﴾ رواه الإمام أحمد ١١٨/٦ والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي.



ولا يقدر البشر على أن يلقاه، فكان لنزوله بعدما أشرنا إليه من التمكين والتأييد لما أنزل عليه ذلك التأثير، لكي يعلم أنه، عز وجل، ليس له شبيه. وإنما يعلم هذا ويتحقق به من حصل له ميراث من النبي ﷺ في المعاملات والمناجاة.

(الثالث) ضحكه، عليه السلام، حين سُرِّي عنه، عليه السلام، يحتمل وجهين: (الأول) أن يكون ضحكه مما دخل عليه من السرور لنصرة الله تعالى لعائشة، رضي الله عنها، وإظهار الحق في ذلك الأمر. (الثاني) أن يكون ضحكه لكي يزيل عن عائشة، رضي الله عنها، ما كان بها من شدة الغم والحزن. ويحتمل أن يكون ضحكه للوجهين معاً.

(الرابع) الشكر على النعماء، لأنه، عليه السلام، قال لها حين أنعم الله عليها بالبراءة (احمدي الله) وإنما خصها بالحمد دون الشكر لأنه أعم من الشكر.

(الخامس) أن الوارد بالبشارة العظمى يمهل بالإخبار بها أولاً ويقول منها شيئاً ما، لكي يحصل العلم بذلك، ولا يفضلها من حينه، ذلك لأن النبي ﷺ لما أنزل الله عليه براءة عائشة رضي الله عنها، لم يكن ليتلو عليها الآيات من حينه، وإنما بدأ أولاً بالضحك، ثم بعد الضحك أخبرها بالبراءة مجملة، ولم يقل لها كيفية البراءة كيف كانت. فلما أن تحصّل لها العلم بالبراءة وتهدّت من الروعة التي كانت بها فحينئذ تلا عليها الآيات.

والعلة في منع الإخبار بذلك أولاً: أن البشارة إذا كانت مرة واحدة يخشى على صاحبها أن تتفطر كبده من شدة الفرح، وكذلك أيضاً في العكس وهي المصيبة، وقد نقل ذلك في التواريخ عن كثير من الناس: قوم فاجأهم السرور فقضى عليهم، وقوم فاجأتهم الأحزان فقضت عليهم. ولهذا المعنى كان إرسال يوسف، عليه السلام، لأبيه يعقوب، عليه السلام، بالقميص، ثم بعد القميص البشير، ثم بعد البشير الاجتماع، خشية مما ذكرناه، ولأن النفس إذا قيل لها ذلك شيئاً فشيئاً تأنس به قليلاً حتى يأتيها التحقّق بذلك. وهي قد أنست به.

(السادس) أن طاعة رسول الله ﷺ مقدمة على طاعة الأبوين، لأنها لما أن قال لها النبي ﷺ (احمدي الله) وقالت لها أمها: (قومي إلى رسول الله ﷺ) تركت ما أمرتها به، وأكدت ذلك باليمين ألا تفعله، وامثلت ما أمرها به النبي ﷺ من حمد الله، عز وجل، وشكره. وإنما أمرتها أمها بذلك إبراراً لرسول الله ﷺ وخدمة له، وحملت قوله عليه السلام (احمدي الله) على طريق البشارة، لا على طريق الأمر، فأمرتها أمها بالقيام إلى الرسول ﷺ، لأن القيام إليه ﷺ طاعة له، والله، وما كان طاعة له، عليه السلام، فهو طاعة لله، فهو شكر على هذه النعمة.

لكن لما أن كانت عائشة، رضي الله عنها، أعلم منها بحال النبي ﷺ، وتعلم ما يُسرّ به، وما

يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ قَدْ نَصَّ عَلَيْهِ فِي الْوَقْتِ، أَسْرَعَتْ إِلَى مَا تَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَجِبُهُ، وَهُوَ مُرَادُهُ. وَكَانَ مُرَادُهُ ﷺ أَلَّا يُحْمَدَ عَلَى النِّعْمَاءِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ مَعَ امْتِثَالِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ.

يَشْهَدُ لَمَّا ذَكَرْنَاهُ سَكُوتَ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَهَا حِينَ قَالَتْ: لَا وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ. فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْهَا لَغَيَّرَ الْوَجْهَ الَّذِي قَرَّرْنَاهُ لَزَجْرَها أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ ذَلِكَ، وَلَجَبَّرَها عَلَى الْقِيَامِ إِلَيْهِ ﷺ، لِأَنَّهُ صَدَرَ ذَلِكَ مِنْهُ فِي أَقْلٍ مِنْ هَذَا فِي حَدِيثِ التَّيْمَمِ حِينَ انْقَطَعَ عَقْدُهَا، فَدَخَلَ عَلَيْهَا يَضْرِبُ فِي خَاصِرَتِهَا وَيَعَاتِبُهَا وَيَقُولُ: حَبَسَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسَ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، وَهِيَ لَمْ يَقَعْ الْعَقْدُ مِنْهَا مُتَعَمِّدَةً، وَلَمْ تَقُلْ شَيْئاً، وَلَا فَعَلْتَ شَيْئاً، إِلَّا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقَامَ بِاخْتِيَارِهِ.

فَلَمَّا أَنْ كَانَ كَلَامُهَا هُنَا وَاخْتِيَارُهَا مُوَافِقاً لِمُرَادِ أَبِي بَكْرٍ وَاخْتِيَارِهِ سَكَتَ لَهَا عَنْ ذَلِكَ، لِمُوَافَقَتِهَا مَا يَرِيدُ النَّبِيُّ ﷺ وَيَخْتَارُهُ، وَمَا يَرِيدُ أَبُو بَكْرٍ وَيَخْتَارُهُ. وَهَذَا مِمَّا يَشْهَدُ لِفَضْلِهَا وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهَا عَلَى غَيْرِهَا، إِذْ إِنَّهَا مَعَ صُغُرِ سِنِهَا تَرَاعِي مَرْضَاةَ النَّبِيِّ ﷺ وَتَفْضُلَهُ عَلَى مَرْضَاةِ أَبِييْهَا. وَلَأَجْلَ ذَلِكَ خَصَّهَا اللَّهُ تَعَالَى بِنَبِيِّهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمْ تَرَ غَيْرَهُ وَلَمْ تَعْرِفْهُ، لِأَنَّهُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمْ يَتَزَوَّجْ بِكَرّاً صَغِيرَةٍ السِّنِّ غَيْرَها، وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنَ النِّسَاءِ فَتَزَوَّجَهُنَّ بَعْدَ مَا كَبُرْنَ وَرَأَيْنَ الْأَزْوَاجَ.

وَهَاهُنَا حِكْمَةٌ دَقِيقَةٌ، نَحْتَاجُ أَنْ نُبْدِيَهَا لِكَيْ يَسْتَدِلَّ بِهَا عَلَى فَضْلِهَا، وَإِنْ كَانَ الْكُلُّ فَاضِلَاتٍ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِيمَا اخْتَصَّتْ بِهِ فِي حَالِ صُغُرِ سِنِهَا دُونَ غَيْرِهَا مِمَّنْ لَمْ تَحْصُلْ لَهُنَّ الْخُصُوصِيَّةُ إِلَّا بَعْدَ مَا مَضَى لَهُنَّ مِنَ الْعُمُرِ سَنِينَ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقاً اجْتَمَعَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَعَ مَاءِ الرَّجُلِ بِقُدْرَتِهِ، وَبَقِيَ يَسِيرُ فِي عُرُوقِ الْمَرْأَةِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ يَجْتَمِعُ فِي الرَّجْمِ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، مَلَكاً فَيَأْخُذُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ مِنْ تَرَابِ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ تَكُونَ تَرَبَةً هَذَا الْخَلْقُ مِنْهُ، فَيَأْتِي الْمَلِكُ بِذَلِكَ التَّرَابِ وَيَعِجْنُهُ بِذَلِكَ الْمَاءِ الَّذِي اجْتَمَعَ فِي الرَّجْمِ، ثُمَّ يَبْقَى يَتَطَوَّرُ فِي الرَّجْمِ إِلَى حِينَ خَلْقِهِ<sup>(١)</sup>، فَيَصَوَّرُ عَلَى مَا جَاءَ فِيهِ النَّصُّ مِنَ الشَّارِعِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَالْأَرَاذِي مُخْتَلِفَةٌ، فِيهَا السَّهْلُ وَالْوَعْرُ، وَفِيهَا مَا يَنْبِتُ وَفِيهَا مَا لَا يَنْبِتُ، وَالَّذِي يَنْبِتُ فِيهَا مَا يَطْعَمُ فِي الْحَيْنِ وَفِيهَا مَا يَتَأَخَّرُ طَعْمُهُ.

وَهَذَا مَوْجُودٌ حَسّاً، لِأَنَّ بَعْضَ الْأَرَاذِي لَا يَطْعَمُ شَجَرُهَا إِلَّا بَعْدَ سَنِينَ، وَبَعْضُهَا لَا يَتَأَخَّرُ طَعْمُهَا بَعْدَ خُرُوجِهَا عَنِ الْأَرْضِ إِلَّا يَسِيرَاً، وَتَأْخُذُ فِي الطَّعْمِ كَأَرْضِ الْحِجَازِ، تَجِدُ النَّخْلَةَ فِيهَا مَعَ الْأَرْضِ وَهِيَ حَامِلَةٌ لِلطَّعْمِ. وَقَدْ شَبَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، الْإِيمَانَ بِالشَّجَرَةِ فِي كِتَابِهِ حَيْثُ قَالَ ﴿أَلَمْ تَرَ

(١) مؤلف من أحاديث عدة. منها: حديث عبد الله بن مسعود في الصحيحين، أوله (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً. إلخ..). ومن حديث أبي موسى الأشعري قال (إن الله تبارك وتعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض.. إلخ) رواه أبو داود في السنة باب في القدر، والترمذي في التفسير باب ومن سورة البقرة.

كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ<sup>(١)</sup> قيل: إن هذه الشجرة هي النخلة. وقد شبه الشارع عليه السلام كمال الإيمان بتناهي حلاوة هذه الثمرة فقال عليه السلام (ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبه إلا عَزَ وجَلَّ، وأن يكره أن يعودَ في الكفر كما يكره أن يُقَذَّفَ في النار)<sup>(٢)</sup> فَكُنَى عليه السلام عن كمال الإيمان بإثمار هذه الشجرة وتناهي طيبها، لأن الحلاوة لا توجد في الثمرة إلا عند كمال ثمرها وتناهيه.

فلأجل هذا المعنى تزوج النبي ﷺ عائشة، رضي الله عنها، وهي حديثة السن، لأنها كانت حجازية التربة، حسناً ومعنى، فظهر ثمر شجر إيمانها وتناهي طيبه مع حداثة سنّها وقبل بلوغها حدَّ التكليف، فناهيك به بعد البلوغ والتكليف. ولأجل هذا المعنى لما ناشدن النبي ﷺ أزواجه في إثارها عليهن فقال (لَمْ يُوحَ إِلَيَّ فِي فِرَاشٍ إِحْدَاكُنَّ إِلَّا فِي فِرَاشِهَا)<sup>(٣)</sup>، فكان تفضيله لها لأجل ما خُصَّت به من الصورة المعنوية لا الصورة الحسية، ولأجل هذا قال عليه السلام (خذوا عنها شطر دينكم)<sup>(٤)</sup>.

ومما يدل على فضلها فقُّها في هذا الحديث الذي لم تأت بلفظة إلا لفائدة، وما أظهر الله تعالى من رفعتها وعلو منزلتها. ولأجل هذا المعنى - والله أعلم - لم يصلح اجتماع نساء النبي ﷺ معه إلا بعد سنين من أعمارهن مختلفة على قدر ما بلغ وقت كمال إيمانهن، وحينئذ صلحن له، عليه السلام، لأنه لا يكون للطَّيِّبِ إلا طيبة لقوله تعالى ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾<sup>(٥)</sup> ولأجل هذا المعنى قال عليه السلام (لو كنتُ متَّخذاً خليلاً لاتَّخذتُ أبا بكر خليلاً)<sup>(٦)</sup>. ولا ذلك إلا للمعنى الذي جمع بينهما وهو تقاربه من النبي ﷺ في الإيمان. لأنه لا إيمان أقوى بعد إيمان النبي ﷺ من إيمان أبي بكر، رضي الله عنه، وقد نص، عليه السلام، على ذلك بقوله (ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيءٍ وقر في صدره)<sup>(٧)</sup>. والإشارة في هذا إلى قوة الإيمان واليقين.

(١) سورة إبراهيم، من الآية ٢٤.

(٢) رواه الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه في هذا الحديث قبل صفحات.

(٤) سبق الكلام عليه في هذا الحديث قبل صفحات.

(٥) سورة النور، من الآية ٢٦ ونقول: جاء في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿أَمَرَاتٌ نُّوحٌ وَأَمَرَاتٌ لُوطٌ كُلَّتَا تَحْتَ عِبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَاتَاهُمَا﴾ على سبيل الندرة من القاعدة، والناذر لا عبرة له تجاه الأعم الأغلب.

(٦) رواه الإمام أحمد والبخاري عن ابن الزبير رضي الله عنه ورواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما. (واللفظ مختلف).

(٧) ليس بحديث. قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: لم أجده مرفوعاً، وهو عند الحكيم الترمذي من قول بكر بن عبد الله المزني (وقد سبق أن بينا ذلك من قبل).

وقولها: (فأنزل الله، عز وجل، ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾) <sup>(١)</sup> الآيات إلى آخر الحديث فيه وجوه:

(الأول) إن أهل بدر لم تكن عصمتهم بالآية في المخالفة، خلافاً لمن ذهب إلى ذلك، فحمل قوله، عليه السلام، إخباراً عن ربه، عز وجل، أنه قال (يا أهل بدر اعملوا ما شئتم مغفوراً لكم) <sup>(٢)</sup> إنهم محفوظون من الوقوع في الذنوب، وإن أرادوها لا يقدرون عليها، للحفظ لهم، وما نحن بسبيله يرد ذلك عليه، لأن مسطحاً من أهل بدر، وما هو ذا قد وقع. فعلى هذا فلم يبق أن يكون قوله (اعملوا ما شئتم مغفوراً لكم) إلا على العموم لا على الخصوص، فيكون معنى ذلك: أنهم من المغفور لهم ما داموا على الحال المَرْضِي، وإن وقع بعضهم في الذنوب فيجعل له سبباً للمغفرة من إيقاع حدود أو غيرها من الوجوه، مثل التوبة التي نص عليها الشارع، عليه السلام، بأنها تَجِبُ ما قبلها، وكذلك نصَّ عليه السلام على أن الحدود كفارة للذنوب، وما جاء من الخارج بحسب ما ورد في الآي والأحاديث فعمتهن الكل للمغفرة، إما مطلقة وإما بسبب.

(الثاني) أن من حُدَّ في حدٍّ من الحدود فلا يجوز أن يُتَعَدَّى في ذلك لغير ما أمر به، فيزاد فيه أو ينقص منه. وإنما السنة في ذلك أن يُقام الحد على المحدود بحسب ما أمر الشارع، عليه السلام، لأن الله، عز وجل، لما أن أمر بحد مسطح قام أبو بكر، رضي الله عنه، فزاد في عقوبته بأن قطع له ما كان يُجري عليه من النفقة، فأنزل الله عز وجل في حقه ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولَٰؤُا۟ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ <sup>(٣)</sup> الآية.

(الثالث) وهو قريب من الوجه المتقدم أن من حُدَّ في حدٍّ من الحدود فلا يجوز أن يُهَجَّر ولا يُخَلَّ بمنصبه، لأن الله، عز وجل، لما أن أمر بحد مسطح فكان من أهل بدر، ففعل معه أبو بكر ما فعل، أنزل الله، عز وجل، في حقه ما قد أوردناه من الآي، فجاء جبراً لما نقص من منزلته.

(الرابع) أن تصرف المرء لنفسه ولأهله ولقربائه يكون لله خالصاً لا مشاركة للغير فيه، يمثل في الكل أمر الله، عز وجل، ولا ينظر إلى اختيار أحد منهم، لأن أبا بكر، رضي الله عنه، لم ينتصر لعائشة حين قيل فيها ما قيل، وإن كانت ابنته، لعدم معرفته لأمر الله في ذلك ما هو، فاستصحب الأصل، وبقي عليه، فلم يهجر مسطحاً قبل نزول القرآن، لأن إحسانه إليه كان لله، ولو هجره إذ ذاك لكان حظاً للنفس ونصرة لها، فترك، رضي الله عنه، ذلك.

(١) سورة النور، من الآية ١١.

(٢) رواه الإمام البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في كتاب فضائل الصحابة. باب من فضائل أهل بدر.

(٣) سورة النور، من الآية ٢٢.

فلما أن نزل القرآن واستنصر لها، عُلِمَ عند ذلك أن ما صدر منه من نصرته لها حماية لله، لا لها، للمعنى الذي خصها الله به وأكرمها لا لذاتها. وكذلك أيضاً هجرانه لمسطح لأنه من قرابته، فلما أنزل الله، عز وجل، في شأنه ما أنزل هجره، وإن كان من قرابته حماية لله، فكان تصرفه في أهله وقرابته بحسب مرضاة ربه، لا بحسب مرضاة أهله ونفسه. وقد نص عز وجل على ذلك في كتابه حيث قال ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾<sup>(١)</sup> الآية.

(الخامس) وهو يتضح بسؤال وارد وهو أن يقال: لم جعل، عز وجل، ثواب رجوع هذه النفقة المغفرة ولم يجعل فيها أجوراً مضاعفة مثلما جعل في غيرها من النفقات، مثل قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(٢)</sup> ومثل قوله عليه السلام (الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعين إلى سبع مائة إلى أضعاف كثيرة والله يضاعف لمن يشاء)<sup>(٣)</sup> والآي والأحاديث في ذلك كثيرة؟

والجواب عنه - والله أعلم - أنه لما أن اجتمع في هذا المحدود أشياء عديدة، فمنها الإحسان وصلة الرحم، وجبر هذا المحدود لكونه بدرياً، وسبقت له عناية من الله، فكان الثواب على ذلك: المغفرة لاجتماع هذه الأشياء، ولحرمة هذا السيد أيضاً لانكسار قلبه لما لحقه من إهانة الحد، وإشعاراً بإبقاء حرمة ما تقدم له من حضور بدر، فخص الإحسان إليه من هذا السيد الذي من أجله ما لحقه بأجل المراتب، وهي المغفرة. فسبحان اللطيف الحكيم الذي رفع كل شخص بحسب حاله، وجبر الكل على منازلهم بحسن لطفه. وبالله التوفيق.

اللهم اجعلنا ممن رزقتهم حب نبيك الصفوة من خلقك محمد ﷺ، وحب آلِهِ وأزواجه وأصحابه وأنصاره، وعرفتهم قدر فضلهم، وما من المآثر منحتهم. واعصمنا من أن ننسب إليهم أو إلى أحد منهم ما لا يليق بهم، عصمة باطنة وظاهرة، واهدنا طريق الرشاد بفضلك، واحملنا على مركب السلامة في الدين والدنيا والآخرة بكرمك، وعافنا من الفتن والمحن برحمتك، وامنعنا بعزك من أن يُجهل علينا، أو نجهل على أحد من خلقك، واجعلنا ممن رَحِمْتَهُ في الدارين بلا محنة، إنك المفضل الجواد.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

(١) سورة التوبة، من الآية ٢٤.

(٢) سورة البقرة، من الآية ٢٦١.

(٣) رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومطلعه: كل عمل ابن آدم يضاعف إلخ...

## حديث يمين القموس

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ <sup>(١)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لَيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ.

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على تحريم اليمين الفاجرة التي يُقْتَطَعُ بها مالُ المسلم، وتشديد الوعيد لمن حلفها، ليقطع بها مال امريء مسلم. ثم الكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله عليه السلام: (من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقطع بها مال امريء مسلم) ظاهره أنه إذا كان ذلك لقطع مال امريء كافر فهو جائز، وليس كذلك، لأن أهل الذمة ينتزلون في معاملاتهم منزلة المؤمنين. فعلى هذا فيحتمل أن يكون أطلق، عليه السلام، ذلك على المؤمنين لكونهم أغلب، لأن أهل الذمة بالنسبة إلى المؤمنين قليل. ويحتمل أن يكون عقاب مَنْ فَعَلَ ذلك مع الذمي أخفَّ من فَعَلَهُ مع المؤمنين، لنقص حرمة الذمي عن حرمة المسلم. ويحتمل أن يكون فَعَلَ ذلك مع الذمي أشدَّ في العقاب، لأنه جمع فيه ما جمع في المسلم، وزاد عليه خفَرَهُ للذمة.

الوجه الثاني: وهو يتقرر بسؤال وارد، وهو أن يقال: لِمَ خَصَّ فاعل هذا الذنب بالغضب دون غيره من أفعال الذنوب؟ لأنه جاء فيها: مَنْ فَعَلَ كَذَا كان عليه كَذَا وعوقب بكذا، كما قيل في الغادر يُنْصَبُ له لواء عند أُسْتَيْهِ بقدر غَدْرته، ينادى عليه هذه غدره فلان ابن فلان، وكما قيل في آكل أموال اليتامى يأكل ناراً إلى غير ذلك؟ (والجواب) أنه إنما خص صاحب هذا الفعل بالغضب لكونه ارتكب

(١) عبد الله بن مسعود: صحابي، من أكابرهم، فضلاً وعقلاً وقرباً من رسول الله ﷺ وهو من أهل مكة ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، وكان خادماً رسول الله الأمين وصاحب سره، ورفيقه في حله وترحاله وغزواته، يدخل عليه كل وقت ويمشي معه. قال عنه عمر: وعاء ملئ علماً. ولي بعد وفاة النبي ﷺ بيت مال الكوفة، ثم قدم المدينة في خلافة عثمان فتوفي فيها سنة ٣٢ هـ / ٦٥٣ م له / ٨٤٨ / حديثاً. (وانظر الحديث ٧٠).

ثلاثة أشياء عظيمة محرمة، وهي: اليمين الفاجرة، وهي التي يعبر عنها الفقهاء باليمين الغموس، ورد الحق باطلاً، وأخذ مال هذا بغير حق.

الوجه الثالث: أن غضب الله تعالى المذكور في هذا الحديث ليس المراد به ما يعهد من الغضب في البشر، لأن ذلك مستحيل في حق الله تعالى، وإنما المراد به ما يصدر عنه من شدة العقاب، لأن الملك إذا غضب على أحد عاقبه وشدد عليه، وكذلك أيضاً إذا رضي عن أحد أحسن إليه وزاد في الإحسان. والله، عز وجل، مستحيل في حقه الصفة الواردة على البشر، الموجبة للرضى والغضب، وهو الميل والتعلق والنفور والكراهية. ومثاله في النقيض وهو طريق الإحسان قوله عليه السلام (يضحك ربك من ثلاث: القوم يصطفون للقتال، والقوم يصطفون للصلاة، والرجل يقوم في جوف الليل)<sup>(١)</sup> والمراد بالضحك هنا كثرة الثواب لهم والإحسان إليهم.

الوجه الرابع: الغضب لا يتعلق إلا بمجموع الأوصاف المتقدم ذكرها، فإذا لم يبلغها كان عقابه غير الغضب. وكذلك أيضاً إذا كان الحلف بغير أسماء الله تعالى وصفاته، لأن ذلك ليس بيمين شرعي وإنما سماه الفقهاء يميناً مجازاً، ومثاله من حلف بالطلاق أو العتاق أو المشي أو غيره فحاصله أنه علق فعله بشرط، فإذا وقع الشرط وقع المشروط. وبالله التوفيق. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي سعيد رضي الله عنه بلفظ: يضحك الله إلى ثلاثة: القوم إذا صفوا في الصلاة، وإلى الرجل يقاتل وراء أصحابه، وإلى الرجل يقوم في سواد الليل.

## حديث لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لَا تَصْدُقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ .  
وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا . الْآيَةُ .

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على منع تصديق أهل الكتاب وتكذيبهم . ثم الكلام من وجوه :

الوجه الأول: هل النهي عام في كل ما يدَّعونه في كتبهم وغيرها من الشهادات ، أو هل هو خاص بما يدَّعونه في كتبهم لا غير؟ محتمل الوجهين معاً . لكن تمام الحديث يقتضي أن المراد به ما يدَّعونه في كتبهم ، لأنه ، عليه السلام ، قال بعد النهي ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾<sup>(١)</sup> يعني به التوراة والإنجيل ، لأنه قد صحَّ بأخبار القرآن أن الكتابين التوراة والإنجيل أنزلا عليهم ، وأنهم قد غيروا فيهما وبدلوا - فإذا قرأوا فيها شيئاً وادَّعوا أنه من التوراة أو الإنجيل احتمل أن يكون ذلك حقاً ، لأنهم لم يبدلوا الكتاب كله ، وإنما بدلوا بعضه ، واحتمل أن يكون ذلك مما بدلوه وغيروه . فلما أن احتمل الوجهين معاً منع ، عليه السلام ، التصديق لهم ، حذراً من أن ينسب الله تعالى ما لم يقله ، ومنع التكذيب حذراً من أن يكذب بكلام الله تعالى ، إذا كان ما قالوه حقاً . وبه يستدل مالك رحمه الله على القول بسدِّ الذريعة .

وقد منع الفقهاء تصديقهم مرة واحدة ، كان ذلك في كتبهم أو غيرها ، مع أن الحديث قد لا يخلو من الإشارة إلى ذلك . ووجه المنع من تصديقهم في كل ما يأتون به أنهم لما أن أخلوا بالأصل - وهو دينهم وكتابهم الذي أنزل عليهم - فكذبوا فيه وخالفوا الحق فكيف يصدقون في غيره؟

فإن حملنا الحديث على العموم من غير تقييد ، كما ذهب إليه بعض الفقهاء ، فلا بحث . وإن

(١) سورة العنكبوت ، من الآية ٤٦ . وتام الآية : ﴿ وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِآلِيٍّ هِيَ أَحْسَنُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَلَئِنْ هَؤُلَاءِ كَانُوا لَكُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .



حملناه على الخصوص لقوله، عليه السلام (وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وانزل إليكم) كان البحث كما ذكرناه. فحصل من كلا الوجهين العموم لعدم صدقهم على الإطلاق، وهذا هو الحكم، وعليه عمل السلف.

وقد جاء اليوم بعض الناس فاتخذوهم أصدقاء، وكلفوهم الأشغال، واثمنوهم عليها. فإنا لله وإنا إليه راجعون في الأخذ بضد هذا الأمر الجلي.

ويستنبط من الحديث أن الحكم بالنهي إنما هو خشية الكفر الصراح، فتتبع هذا الأصل، فمتى وجدنا نسبة منه تعلق الأمر عليه لقوله، عليه السلام (الشرك في أمتي أخفى من ديب النمل)<sup>(١)</sup> ولقوله تعالى في الشهادة ﴿ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>. والعدل هو من تخلص من شوائب الكفر، لأن المعاصي من أجزاء الكفر، لكن الفرق بينهما أن نفس الكفر يخرج عن دائرة الإسلام، والمعاصي تخرج عن كمال الإيمان. يشهد لذلك قوله، عليه السلام، (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يختلس الخلصة حين يختلسها وهو مؤمن)<sup>(٣)</sup> ومعناه أنه لا يكون في تلك الحالة كامل الإيمان، لأن الإيمان ينافي ما يفعله، وهو مع ذلك مقر بالشهادة.

فكذلك أيضاً البدع من هذا القبيل إذا كانت مستحسنة أو غيرها، وبعضها أشد من بعض. يشهد لما ذكرناه قوله، عليه السلام (افترقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. قيل: يا رسول الله، وما هي الواحدة؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي)<sup>(٤)</sup> أو كما قال عليه السلام. فما أوجب النار لمن تقدم ذكرهم إلا تلك الشوائب التي عندهم، وكذلك هؤلاء لأنهم لا يخلون من الشوائب. ولأجل تخلص هذه الطائفة المذكورة في الحديث من الشوائب كانوا مع النبي ﷺ في الجنة.

فعلى هذا فينبغي لمن لم يكن له علم بما يعرف صدق أهل هذا الزمان من كذبهم أن يجتنبهم مرة واحدة إلا أن يوفقه، عز وجل، على رجل من أهل العلم عامل بعلمه، تابع للسنة فيه، فيجب عليه أن يسند ظهره إليه ويمثل أمره فيما يشير به عليه، ويأخذه بكلتا يديه، ويشد عليه، لأن مثل هذا نادر وجوده اليوم. والأصل الحذر من الوقوع في مخالطة من تقدم ذكرهم، وقليل من يسلم منهم لسرعة سريان سمهم لمخالطهم. اللهم إلا من من الله عليه بالتوفيق.

(١) رواه الحكيم الترمذي والحاكم وأبو نعيم في الحلية.

(٢) سورة الطلاق، من الآية ٢.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه في حديث البيعة رقم ٣.

يؤيد ما قررناه قوله عليه السلام (يأتي في آخر الزمان قوم يحدثونكم بما لا تعرفون أنتم ولا آباؤكم فخذوا ما تعرفون ودعوا ما تنكرون)<sup>(١)</sup> أو كما قال عليه السلام. فعلى هذا فلا يقتصر بالحديث على ما ذكرناه لا غير، إذ المعنى فيه ما قد ذكرناه وهو أكد عليك، وخاص بك، ومثل ذلك موجود في المرء نفسه، بل ربما كانت النفس أشد وأقوى، لأن المرء مع هؤلاء الناس يكفيه الانعزال عنهم لَيْسَلَمَ منهم، وليس له قدرة أن ينزل عن نفسه إلا بمجاهدة وحضور في كل أنفاسه، وقوة من الله وتأيد، فيكون حاضراً غائباً، حياً ميتاً، فيجمع بين الأضداد، وياليت بعد هذا السلامة والخلاص، وإن لم يكن على هذا الأسلوب فقد هلك.

بيان ذلك أنه قد اجتمع عليه من نفسه ثلاثة أشياء، وهي موبقة مهلكة إن وقع الطوع إليها، وهي: النفس والهوى والشيطان. (فالنفس) قد قال تعالى في حقها ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾<sup>(٢)</sup>. (والهوى) وقد قال تعالى في حقه ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَلَامَىٰ إِلَىٰ الْكُفْرِ﴾<sup>(٣)</sup> وتسويل الهوى وتسويل النفس قريب من قريب. (والشيطان) قال تعالى في حقه ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾<sup>(٤)</sup>. فإن لم يكن المرء حاضراً في كل أنفاسه وله تمييز بوقوع ما يأتيه من هذه الخواطر وإلا<sup>(٥)</sup> فقد دخل في عموم الحديث الذي نحن بسبيله، فيصدق باطلاً ويكذب حقاً.

ولأجل الجهل بهذه الخواطر وقع كثير من المدعين بأنهم من أرباب القلوب. فكل ما يخبرون به باطل، لأن له هذه الثلاث خواطر وله اثنان آخران، وهما ما يكون من قبل الله، عز وجل، أو الملك. فالذي من قبل الله، عز وجل، هو في سرعة وقوعه مثل البرق، ثم بعده في الحين من غير مهلة خاطر النفس، فما يمر ذلك إلا استقر في المحل. فمن لم تكن له معرفة بهذا الأمر فقد ضل بالضرورة، وكان من الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهم على غير شيء، ولهذا كان كثير منهم يقولون: قيل لي، وقلت، وخطر لي، ووقع لي، وكل ذلك باطل، وإنما الواقع له أحد الثلاثة التي قدمنا ذكرها، وإن خرج في بعض المرات شيء بحسب ما قال فذلك بالوفاق، وأما بالحقيقة فلا. كل ذلك سببه الجهل بالفرقة بين ما قد ذكرنا.

فالحاصل من حاله أنه دخل في عموم الحديث يكذب حقاً ويصدق باطلاً. لكن نحتاج هنا

- 
- (١) رواه الإمام أحمد ومسلم في مقدمة صحيحه مرفوعاً عن أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم.
- (٢) سورة يوسف، من الآية ٥٣.
- (٣) سورة الأعراف، من الآية ١٧٦.
- (٤) سورة فاطر، من الآية ٦.
- (٥) كذا، بزيادة: وإلا.

إلى بيان هذه الخواطر، وما هو الحكم فيها لأرباب القلوب، وما هو الحكم فيها لغيرهم. فحكم من كان من أرباب القلوب أن ينظر فيما يقع له من الخواطر من أي جهة تقع، لأن القلب له بابان: باب للفؤاد وباب في وسط القلب يتلقى الغيوب من الرب.

فالخاطر الرباني يأتي من ذلك الباب الذي له على الصفة التي قدمنا ذكرها، ثم يستقر بموضعه خاطر النفس والهوى، فيحتاج صاحب هذا الحال الحضور الكلي حتى يعلم الخاطر الأول وما استقر بعده في المحل. ولأجل التحقق من هذين الخاطرين ومعرفتهما وكيفيتهما كان كثير ممن من الله عليهم بذلك لا يقولون شيئاً، ولا يسألون عن شيء، فيجيبون عنه إلا ويخرج في الوجود كذلك، لا زيادة فيه ولا نقصان، لأنهم يعملون على الخاطر الرباني بالحقيقة، وما كان من الله فوقوعه لا شك فيه. هذا هو حكم هذه الخواطر الثلاث.

وأما ما كان من قِبَل المَلَك فوقوعه من ناحية يمين القلب. وأما ما كان من قِبَل الشيطان فوقوعه من جهة الأيسر.

هذا هو حكم أرباب القلوب، وأما غيرهم فحكمه في ذلك أن ينظر ما هو السبب الذي من أجله وقع له ما وقع، ثم لا يخلو الواقع أن يكون طاعة مطلقاً أو معصية مطلقاً. فالطاعة كلها من إلهام الله عز وجل أو المَلَك، والمعصية كلها من الشيطان أو النفس، وإن كانت بعض الطاعات فيها اشتباه هل هي من الله أو من المَلَك أو من النفس أو من الشيطان؟ فإذا وقع هذا الشبه فليوقع بإزائه تمحيص ذلك الواقع على لسان العلم وتخليصه من الشوائب المتعلقة به، فما كان من الله أو من الملك فهو من قبيل أفعال البر على الإطلاق لا تتعلق به شائبة، وإن كان من النفس والشيطان فلا بد من شائبة تظهر عند تمحيصه بلسان العلم، لأنهما لا يأمران بذلك إلا لمكر خفيّ منهما، لا يقدر أن يتوصلا إلى ما أرادا إلا بواسطة هذه الطاعات.

مثال ذلك في الشيطان: أنه يأتي أولاً من قِبَل المعاصي، فلا يقدر على صاحبه بشيء، فيأتيه من قبل الترغيب في العبادة والتبُّل والانقطاع، وليس مقصوده من ذلك إلا لعدة، وهي أن يكثر من المجاهدة، فتحصل له السَّامة. فعند حصول السَّامة يأتيه فيعرض له بالشهوات التي كان يألف، فيرده إليها، فيرجع حاله أسوأ مما كان أولاً لتركه العبادة والقنوط من رحمة الله والأخذ في الشهوات.

ومثال ذلك في النفس: ما حكي عن بعض الفضلاء أنه كان في تعبد وخير، ثم وقع له أن يخرج إلى الجهاد، فبقي متحيراً في أمره من كون أن الجهاد من أفعال البر، والنفس هي الأمرة بذلك، ومحال في حقها أن تطلب الخير أو تريده، فبقي متهماً لها فيما أمرت به، فمن عليه باللجأ

إلى الله تعالى أن يطلعه على خبيثة أمرها، فنام، فإذا بقاتل يقول له : قد سَمِمتُ من كثرة المجاهدة من الصيام والقيام، وَيَسْتُ من أن تستريح منه، فأرادت أن تموت في الجهاد لكي تستريح مما هي فيه، ويحصل لها الثناء بعد الموت. ثم أفاق من نومها فآلى على نفسه ألا يزول عن حاله أو يزيد عليه حتى يموت على ما هو بسبيله. فانظر شدة خبيثها ودقته وخفائه حتى إنها رضيت بالثناء بعد الموت ولا فائدة لها فيه. وقليل من يتفطن إلى هذا النظر الدقيق إلا من منّ عليه بالتوفيق.

ولأجل ما فيها من هذا الخبث العظيم لم يكن لأهل الصوفة في ابتداء أمرهم شغل ولا نظر غير العمل على قتلها، وترك النظر إليها، ثم بعد قتلها - وهو المعبر عنه بمخالفتها في كل ما تريده - لم يطمئنوا، وهم حذرون منها متحرزون في كل أنفاسهم، حتى قد حكى عن بعض فضلانهم أنه قال : رأيت فيما يرى النائم ملائكة نزلت من السماء يختارون كل شخص يعطونه ما يريد، ثم أتوا إليّ فخيروني، فاخترت قتل نفسي، فجاء بها في صورة فقطعوا رأسها فقالت : بقيت مني الجنة. فقطعوها قطعاً قطعاً، فقالت : بقي مني البعض. فأنا أعمل على البعض الذي بقي لكي أزيله.

فانظر بعدما فعل بها هذا الفعل لم يطمئن إليها وأخذ في مجاهدتها. هذا هو حكم غير أرباب القلوب في خواطرهم. فَحَسْبُكَ الفحصُ عما يخصك وهو أكد مما يعم، وإنما احتجنا إلى ذكر هذه الخواطر وحكمها وما العمل فيها لكون الحديث يتناولها بالمعنى الذي ذكرناه، وهو التصديق بالباطل والتكذيب بالحق، وذلك موجود في الخواطر، لا شك فيه، بل هو أكد لأنه مما يخص وغيره على العموم. والله المستعان.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

## حديث جواز الكذب في الخير

عَنْ أُمِّ كُلْثُومِ بِنْتِ عُقْبَةَ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لَيْسَ الْكَذَّابُ بِالَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز تعمد الكذب إذا كان مآله إلى خير .

قوله عليه السلام (ينمي خيراً أو يقول خيراً) معناه أن تكون نفس الكذبة لفظ (خير) أو تكون تلك الكذبة تنمي إلى خير، لكن يعارض هذا رؤيا النبي ﷺ في منامه للكذاب وهو يعذب بالكلوب من الحديد، على ما ذكر في الحديث أول الكتاب . والجمع بينهما - والله أعلم - هو أن العذاب على الكذب عام فيه كله، وما جاء في غيره فهو تخصيص للعام مثل هذا الحديث الذي نحن بسبيله وغيره مما نص عليه .

لكن نحتاج هنا إلى تقسيم الكذب من حيث هو كذب، وبيان كل قسم منه، وما الحكم فيه؟ وذلك أن الكذب على خمسة أقسام: فكذب واجب، وآخر مندوب، والثالث مباح، والرابع مكروه، والخامس حرام .

فأما الواجب فهو مثلما إذا علمت مستقر شخص، وسألك عنه من يريد قتله ظلماً وعدواناً، وعلمت ذلك بيقين، فيتعين عليك الكذب إذ ذاك، وليس بكذب شرعاً، وإنما هو كذب لغة، على ما نقله الفقهاء .

(١) أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط: صحابية، أسلمت بمكة قبل أن يأخذ النساء في الهجرة إلى المدينة، ثم هاجرت وبايعت . وقيل: هي أول من هاجر من النساء، وفيها نزلت الآية ﴿ إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ عَلَيْكُمْ ﴾ (الممتحنة، ١٠) وقيل: إنها مشيت على قدميها من مكة إلى المدينة، فلما قدمت المدينة تزوجها زيد بن حارثة فقتل عنها يوم مؤتة، فتزوجها الزبير بن العوام فولدت له زينب، ثم طلقها فتزوجها عبد الرحمن بن عوف فولدت له إبراهيم وحמידاً، ومات عنها فتزوجها عمرو بن العاص، وعنده ماتت (وهي أخت عثمان لأمه) .

وأما المندوب فهو مثل الكذب في الحرب، لقوله عليه السلام (الحرب خُدعة)<sup>(١)</sup> وهو من شيم الأبطال والشجعان، وكذلك كل كذب ينمي إلى خير. وهذا القسم هو الذي يتناوله الحديث الذي نحن بسبيله، لأن الخير مندوب إليه ابتداءً، وما آل إليه فهو مثله ما لم يخالطه شيء ممنوع شرعاً.

وأما المباح فهو من يعلم شيئاً ثم يحدث بضده ناسياً أو مخطئاً، لقوله عليه السلام (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان)<sup>(٢)</sup>.

وأما المكروه فهو مثل كذب الرجل لامرأته، لما جاء في الحديث: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أكذب لامرأتي؟ فقال: لا. فقال: أعدها؟ فقال نعم<sup>(٣)</sup>. ولأن المقصود بالكذب لها صلاحُ خاطرها، وذلك يحصل بالوعد، ولا حاجة للكذب. والوعد ليس من شرطه وقوع الكذب، لأنه محتمل أن يموت هو أو تموت هي، أو يبع الفراق، أو يفتح الله عليه، فيفي بوعده لها.

وباقى الكذب على عموم حديث الكلوب المعارض لما نحن بسبيله. وقد جاء في الحديث (أن الرجل إذا انفلتت منه دابته فأراها المخلاة فظنت أن فيها العلف، فأتت فلم تجد شيئاً أنها تسمى كَذْبِيَّة، يحاسب المرء عليها)<sup>(٤)</sup>. هذا مع أن الشارع، عليه السلام، قد نهى عن إضاعة المال، وترك الدابة مهملة موجب لإضاعته، فناهيك به في غيرها.

ولأهل الصوفة في الحديث دليل لما يفعلونه من المكر بنفوسهم فيعدونها ببعض شهواتها لكي تبلغهم ما يروونه من أفعال الطاعات، ثم بعد تبليغها لهم ما أرادوه لا يوفون لها بما اشتهد عليهم إلا أن يأتيهم من غير تسبب فيه ولا عمل عليه، لأن القاعدة عندهم ترك الشهوات، حتى لقد حكي عن بعض فضلائهم: أنه انتهى شهوة، فكلف نفسه أنواعاً من العبادات ونذر لها أنها إن فعلت ذلك أنالها ما أرادته، ففعلت ما كلفها، واجتهدت في خلاصه، ثم لما أن فرغت منه كلفها بشيء آخر، ثم كذلك، ثم كذلك، حتى سئمت النفس بالكلية، فعاهدها أنها إن فعلت كذا وكذا من أفعال البر ليأتينها بما أرادت على كل حال.

فلما أن رأت منه العهد قوي رجاؤها في الوفاء، فاجتهدت فيما كلفها من الطاعات حتى أتمتها على ما شرط عليها، ثم بقي بعد ذلك متردداً لا يدري ما يفعل في أمرها فلم يقدر أن ينيلها

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب جواز الخدع في الحرب عن عمرو وجابر رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه في الحديث رقم ٨٣ / .

(٣) رواه الإمام مالك في الموطأ في الكلام، باب ما جاء في الصدق والكذب. وإسناده منقطع.

(٤) لم نقف على مصدره.

شهوته فتغلبه بعد سنين في مجاهداتها، ولم يقدر أن يتركها كذلك لثلاث سأم وتكسل عن التعب. فبينما هو كذلك متردد في أمره لا يدري ما يفعل، فإذا بأخ له يستأذن عليه، فأذن له بالدخول، فإذا هو بتلك الشهوة على المراد. فسأله عن ذلك فقال: اشتريته لآكله، ثم جئت به إلى البيت فنمت وتركته، فرأيت النبي ﷺ في المنام يقول لي: اذهب بذلك الطعام إلى أخيك فلان فكله معه.

فانظر كيف كان حالهم في شهوة واحدة أفضت بهم إلى هذا الخير العظيم، فكيف بهم أن لو عدت عليهم الشهوات لكانوا يقتلونهم في أنواع التعبدات وهي لم تصل بعد إلى طرف من مرغوبها؟ فالوعد للنفس بمرغوبها كالوعد للزوجة بذلك سواء، لأن المقصود صلاحها. ولأجل تفعيد حالهم على هذا الأسلوب كانت نفوسهم أبداً لا تشتهي شيئاً حذراً من إدخال المشاق عليها، لأنها لا تطلب إلا الراحة في وقتها، وإن وقعت لهم شهوة فنادر، حتى إن من وقع له منهم شهوة تسطر في الكتب لندورها. فانظر الكذب للنفس ما أنمي من الخير، وما أظهر، ولو لم يكن فيه إلا أنها ترتدع عن الشهوات لكان ذلك كافياً، لأن ترك الشهوات هو المعبر عنه بقرع الباب. والله المستعان.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

## حديث صلح الحديبية

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ <sup>(١)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: صَالَحَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ <sup>(٢)</sup> عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: عَلَى أَنْ مَنْ أَتَاهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ رَدَّهُ إِلَيْهِمْ، وَمَنْ أَتَاهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَرُدُّوهُ، وَعَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا مِنْ قَابِلٍ <sup>(٣)</sup> وَيُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلْبَانٍ <sup>(٤)</sup> السَّلَاحِ: السَّيْفِ وَالْقَوْسِ وَنَحْوِهِمَا. فَجَاءَ أَبُو جَنْدَلٍ <sup>(٥)</sup> بِحُجُلٍ <sup>(٦)</sup> فِي قُبُودِهِ، فَرَدَّهُ إِلَيْهِمْ.

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على جواز صلح المسلمين مع المشركين . والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: أنه لا يقتصر في أفعال الطاعات على بعض دون بعض، وإن كان ما ترك أخفض رتبة مما يفعل، لأن النبي ﷺ كان في المدينة يقوم بالفرائض على المراد، ويفعل من أفعال البر كله من المرغَّب فيه والمندوب ما استطاع، لكن لما أن كانت العمرة مطلوبة في الإيمان لم يتركها، ولم يستغنِ بغيرها عنها.

الوجه الثاني: المبادرة إلى أفعال البر ابتداء من غير توقف، وترك النظر إلى ما يتوقع من الموانع، لأن النبي ﷺ خرج إلى العمرة، مع أنه متوقع هل يُتْرَك للدخول للطواف بالبيت أم لا؟

(١) انظر ترجمته في الحديث ٦٦ و ٩٢.

(٢) يوم الحديبية: يعني غزوة الحديبية، وكانت في ذي القعدة سنة ست من الهجرة. وأسباب هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ خرج معتمراً لا يريد حرباً، وساق معه الهدى، فتعرضت له قريش.

(٣) من قابل: أي السنة التالية.

(٤) جُلْبَان السَّلَاح: جراب من آدم يوضع فيه السيف مغموراً، ويضع فيه الراكب سيفه وأداته.

(٥) أبو جندل: ابن سهيل بن عمرو. وكان سهيل هو الذي كاتب رسول الله ﷺ يوم الحديبية على المدة وعلى رد من جاء الرسول الكريم من قريش وحلفائها. وقد جاء ابنه أبو جندل رسول الله ﷺ مسلماً فردده الرسول الكريم تنفيذاً

للعهد، ولحكمته تبينت فيما بعد.

(٦) يَحْجُل: يتمايل في مشيه من قيوده.



الوجه الثالث : حسن التلطف في الوصول إلى الطاعات وإن كانت غير واجبة ، ما لم يكن ذلك ممنوعاً شرعاً ، لأن النبي ﷺ أجاب المشركين لما طلبوا منه ، ولم يُظهر لهم ما في النفوس من البغض لهم والكراهية فيهم ، لطفاً منه ، عليه السلام ، فيما يؤمل من البلوغ إلى الطاعة التي خرج إليها .

الوجه الرابع : أن صلح المسلمين مع المشركين لا يجوز إلا بشرط ألا يكون على المؤمنين في ذلك حيف من إعطاء مال أو غيره مما هو سبب للإذعان لهم ، لأن النبي ﷺ عقد الصلح على أن من أتاه من المشركين ردّه إليهم ، ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه ، وعلى أن يدخلها من قابل بِجُلْبَانِ السلاح : السيف والقوس ونحوه .

وهذه الشروط الثلاثة فيها عز للمسلمين ، وإن كان يسبق إلى بعض الأذهان غير ذلك ، لأنه عليه السلام ، لم يعقد الصلح على أن من أتاه من المشركين رده إليهم إلا لشهرة العهد . فمن وقع له إيمان ، هو يعلم بالعهد ، فيتربص حتى تنقضي أيام العهد ، ويكتم إيمانه فيها ، ثم يخرج بعد انقضائها ، وليس في هذا نقص بالمؤمنين ، ولأن إسلامهم أيضاً متوقع ، ولا يُترك شيء فيه مصلحة يقطع بها لشيء يُرجى وقوعه ، ولأنهم اليوم ممن لا حرمة لهم ، فلا يُراعى حقهم ، وإن قوّي الإيمان عند أحدهم - أعني من أسلم من مشركي مكة فخرج من بينهم - يجعل الله من أمره فرجاً ومخرجاً ، لقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾<sup>(١)</sup> .

وكذلك وقع لهم لا زيادة ولا نقصان ، لأن كل من هرب منهم إلى المدينة فلم يقبله النبي ﷺ للعهد الذي عاهدهم فلم يرجع إلى مكة ، وإنما كان رجوع كل من وقع له ذلك إلى موضع قريب من مكة ، وأعطاهم الله من القوة والشجاعة أوفر نصيب ، فصاروا بذلك الموضع يقطعون الطريق على المشركين ، فلم يستطع أحد أن يخرج معهم ، فانقطع بهم الداخل والخارج لمكة ، حتى إن المشركين أرسلوا إلى النبي ﷺ يسألونه لعلّه أن يتفضل عليهم بقبول أولئك ، ولا يكون ذلك نكثاً في العهد ، ففعل عليه ، السلام ، ذلك ، فجاءهم المخرج والفرج والنصر .

وأما الشرط الثاني وهو (أن من أتاهم من المسلمين لم يردوه) فإنما شرط ذلك لأنه من أتى إليهم فليس بمسلم وإنما هو مرتد . فاشتراط ذلك لا ضرر فيه على المسلمين .

وأما الشرط الثالث فلأنهم لم يشترطوا عليه أن يدخلها بغير سلاح ، وإنما أسقطوا له من السلاح الرمح لا غير . والقتال بالسيف والقوس وما أشبههما أنفع في البلد من الرمح ، ولأن العرب أبداً عزهم إنما هو بسيوفهم .

(١) سورة الروم ، من الآية ٤٧ .

فهذه الشروط قَدْ بَانَ أنها ليست بنقص في حق المسلمين، فلا يجوز أن يُشترَط ما يكون في حقهم نقصاً باشتراطه، بدليل ما قررناه، وقد قال عليه الصلاة والسلام (الإسلام يَغْلُو ولا يُعْلَى عليه)<sup>(١)</sup>.

الوجه الخامس: أن الإمام ينظر ما هو الأصح بالرعيَّة فيفعله، لأن النبي ﷺ لما أن رأى المصلحة للمسلمين في الرجوع وعقد الصلح فعل.

الوجه السادس: ترك الطاعة، وإن شرع فيها، إذا كان تركها أولى، لكن على وجه تجيزه الشريعة، لأن النبي ﷺ والمسلمين أحرَموا بالعمرة، ثم لما أن مُنِعوا من البيت ولم يَتَأَتَّ لهم الدخول إلا بالقتال، تركوا ذلك وعدَّلوا عنه، لما هو الأرجح والأولى للمصلحة التي فيه.

الوجه السابع: جواز فسخ الحج والتحلل<sup>(٢)</sup> منه إذا منع العدو من الوصول إلى البيت. لكن هل غير العدو من الأعذار المانعة من الوصول إلى البيت ينزل منزلة العدو أم لا؟ قد اختلف العلماء في ذلك. فمنهم من ذهب إلى أن كل عذر مثله في الحكم. ومنهم من ذهب إلى أن العذر لا يكون إلا بالعدو لا غير، ولا يتعدى، ولا بد من الإتيان لمكة والتحلل بها إذا كان المانع غير العدو. ومنهم من فرق بين أن يكون العذر قوياً أو ضعيفاً، فإن كان قوياً كان حكمه حكم العدو، فيتحلل حيث كان، وإن كان العذر ضعيفاً لم يجز له التحلل إلا بمكة.

الوجه الثامن: فيه دليل على حرمة مكة، لأنه، عليه السلام، كان قادراً في وقته على القتال، لكن لما أن عارضه حرمة مكة ترك القتال ورجع إلى الصلح. فإن قال قائل: قد دخلها، عليه السلام، عَنوة. قيل له: قد أخبر، عليه السلام، أن الله، عز وجل، أذن له في ذلك الوقت بعينه لا يتعداه، وأن ذلك على غيره حرام، فقال عليه السلام، (لم تَحِلْ لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار)<sup>(٣)</sup>. فترك عليه السلام القتال بها قبل الإذن لما جعل الله لها من الحرمة، وقد قال تعالى ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْرَهُ أَلَا فَأِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾<sup>(٤)</sup> فتعظيم ما عظم الله كان من البقاع أو من البشر أو مما شاء الله، زيادة في الإيمان، وقوة في اليقين.

الوجه التاسع: أن كل ما يقضي الله تعالى للمؤمنين خير لهم ونصر، وإن كان ظاهر ما يقع ضد

(١) رواه الروياني والدارقطني والبيهقي والضياء في المختارة عن عائذ بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) التحلل: لبس ثياب الحل، ومن المعروف أن المعتمر والحاج يلبسان ثياب الإحرام.

(٣) قطعة من حديث أخرجه الإمام أحمد والشيخان وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، ومطلعه: إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسول الله والمؤمنين، ألا فإنها لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، إلا وإنها حلت لي ساعة من نهار الخ...

(٤) سورة الحج، من الآية ٣٢.

ذلك، لأن خروج النبي ﷺ في هذه السفرة، ورجوعه بغير ما إليه قصد، ظاهره أنه رجع بغير نصرة. وليس كذلك، لأن خروجه، عليه السلام، لذلك الموضع وعقده الصلح مع المشركين فيه فائدة كبرى، لأن أهل مكة كانوا في الصلح مع اليهود، فلو كان القتال مع المشركين في تلك السنة لكثرت الأعداء على المؤمنين، ولتوالت عليهم من كل جانب، فكان في انعقاد الصلح وترك القتال في هذه السنة مصلحة عظمى، لأنه عليه السلام لما عقد الصلح مع المشركين ورجع قاصداً إلى المدينة صالح اليهود الذين كانوا حلفاء لأهل مكة.

فلما انقضى العهد الذي كان بينه، عليه السلام، وبين أهل مكة بالعمرة التي دخل بها، وكان الفتح بعد ذلك، كان المسلمون قد ازدادوا أضعافاً، ولم يجد المشركون إذ ذاك من ينصرهم لعقد صلح اليهود مع النبي ﷺ، فكان الصلح في هذه السنة المذكورة سبباً للفتح والنصر. وقد نص، عليه السلام، على ذلك فقال (والله لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له)<sup>(١)</sup> هو الصادق، عليه السلام، بغير يمين، فكيف باليمين؟

ولأجل هذا المعنى والعمل على حصوله حالاً استغرق أهل الصوفة في مراقبة ربهم، وتركوا التدبير<sup>(٢)</sup> في الأمور، لشغلهم بتصحيح إيمانهم في كل وقت وحين، مع الاستسلام والتفويض، نظراً منهم للمعنى الذي ذكرناه، لأنه إذا صح الإيمان كان كل ما يجري عليهم من المقدور رحمة بهم وخيراً. ولأجل تحققهم بذلك كان كثير منهم يتنعمون بالبلوى، حتى لقد حكى عن بعض فضلائهم أنه مرض بعلة البطن عشرين سنة - وقيل ثلاثين سنة - فدخل عليه بعض إخوانه فرثى لحاله وبكى، فقال له العليل: لا تبك، فإن الملائكة تصافحنى. فأخبره أن ذلك البلاء بلاء خير ومنة لا بلاء فتنة ونقمة<sup>(٣)</sup>.

الوجه العاشر: جواز دخول دار الحرب بالصلح إذا كان في المسلمين قوة، ولهم عُدّة وعُضبة من حيث أن يأمّنوا على أنفسهم، لأنه، عليه السلام، دخل مكة - وهي للمشركين - بأصحابه لما أن كانت فيهم العصبية، ولهم القوة والعُدّة.

الوجه الحادي عشر: أن الإقامة في دار الحرب تحت الذلة والصغار لا تجوز، لأنه، عليه

(١) أخرجه الإمام أحمد وأبو نعيم عن أنس رضي الله عنه بلفظ: عجبت للمؤمن إن الله تعالى لم يقض قضاء إلا كان خيراً له، وجميع روايات الحديث ليس فيها قسم، كما أورد المؤلف رضي الله عنه.

(٢) التدبير: القيام على الشيء بجدّ واهتمام، ومنه: تدبير المنزل، وتدبير المعيشة..

(٣) كأنه يشير إلى الحديث: عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له. أخرجه الإمام أحمد ومسلم والدارمي وابن حبان عن صهيب رضي الله عنه.

السلام، لما أن ظهر المشركون عليه أولاً لم يكن ليقعد معهم، وإنما خرج فازاً من بينهم، فلما أن تقوى الإسلام وظهر أصحابه أتاها وقعد بينهم أيام العمرة، لأجل القوة التي كانت في المسلمين، فلم يكونوا تحت ذلة ولا تحت صغار لكافر.

الوجه الثاني عشر: أن البقع وغيرها من المخلوقات لا تُترك لذواتها، وإنما تُترك لأوصاف بها، لأن النبي ﷺ لم يكن خروجه أولاً من مكة لذاتها، وإنما كان لأجل سكانها. فلما أن ظهر عليه السلام وقوي على قتال أهلها أتى إليها.

والى هذا المعنى أشار أهل الصوفة بترك البقع التي وقعت المعاصي فيها، وليس هذا منهم على العموم، وإنما يحكم بهذا للمبتدئ التائب، لأن من وقعت منه معصية بموضع فالغالب عليه فيها خلطاء السوء ومن لا يُنتَفَع برؤيته. فإذا هو تاب وبقي معهم قد تكون مجاورته لهم سبباً لرجوعه لما عهد، لأنهم لا يتركونه لما أراد، لشيظتهم<sup>(١)</sup>، وقد قال تعالى ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾<sup>(٢)</sup> وشيطان الإنس أشد على المرء من شيطان الجن، لأن شيطان الجن قد يزول بالتعوذ<sup>(٣)</sup> والقراءة وغير ذلك، وشيطان الإنس تتعوذ وهو لم يزل عن تشويشه وتسويله<sup>(٤)</sup>، وهو من صنف الشخص ويأتيه من قِل النصيحة، فكان أقوى على الفساد من شياطين الجن لأجل هذه العلة.

فإذا وقعت التوبة فينبغي الخروج من ذلك المحل في الحين خشية ما ذكرناه. ثم إن من من الله عليه بالقوة والتمكين لم يضُرّه رجوعه إلى موضعه ذلك، لأنه قل أن يستطيع أحد على رجوعه عما هو بسبيله لقوته في طريقه، وتمكنه فيه. والله الموفق.

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) أي: شيطنة خلطاء السوء.

(٢) سورة الأنعام، من الآية ١١٢

(٣) التعوذ: من عاذ بالشيء إذا التجأ إليه واعتصم به. وتقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أي: اعتصم بالله منه.

(٤) التسويل: تحبيب الشر إلى المرء. يقال: سوّلت له نفسه شيئاً. أو سوّله له الشيطان: أغراه به.

## حديث جواز الوصية في الثلث

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ <sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي <sup>(٢)</sup> وَأَنَا بِمَكَّةَ، وَهُوَ <sup>(٣)</sup> يَكْرَهُ أَنْ يَمُوتَ بِالْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ مِنْهَا. قَالَ: يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ عَفْرَاءَ <sup>(٤)</sup>. فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: فَالْشَّطْرُ؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: فَالْثُلُثُ؟ قَالَ: الْثُلُثُ. وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ. إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ عَالَةً <sup>(٥)</sup> يَتَكَفَّفُونَ <sup>(٦)</sup> النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ، حَتَّى اللَّقْمَةُ تَرْفَعُهَا إِلَى فِي <sup>(٧)</sup> امْرَأَتِكَ. وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَكَ <sup>(٨)</sup> فَيَنْتَفِعَ بِكَ نَاسٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا ابْنَةٌ <sup>(٩)</sup>.

(١) سعد بن أبي وقاص: أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم أو إليهم، وهو الخامس عشر من المسلمين. أسلم ابن سبع عشرة، وهو أول من رمى في سبيل الله سهماً، وأول من أراق دمًا في سبيل الله، ومن المهاجرين الأولين إلى المدينة قبل قدوم الرسول ﷺ إليها. فارس الإسلام. أبلى بلاء حسنًا يوم أحد، وكان مجاب الدعوة. كان أمير الجيش الذي هزم الفرس في القادسية وجلولاء وفتح مدائن كسرى، وبنى الكوفة، وولاه عمر العراق. قال له الرسول يوم أحد: فذاك أبي وأمي إزم وبعد مقتل عثمان اعتزل الفتن. توفي سنة ٥٥ هـ في قصره بالعقيق على أميال من المدينة، وكفن في جُبِّي لقي فيها المشركين بيدر، ودفن بالبقيع. رُوِيَ له عن النبي ﷺ ٢٧٠ حديثًا اتفق الشيخان على ١٥ حديثًا.

(٢) يعودني: يزورني في مرضي.

(٣) وهو: الضمير محتمل أن يعود على النبي ﷺ وأن يعود على سعد، وهو الأرجح، فقد أخرج مسلم بلفظ فقال: يا رسول الله خشيت أن أموت بالأرض التي هاجرت منها كما مات سعد بن خولة.

(٤) ابن عفرأ: هو سعد بن خولة. صحابي شهد بدرًا ومات في حجة الوداع. وعفرأ بنت السكن من بني الخزرج أم سعد بن زرارة الأنصاري.

(٥) عالة: فقراء. ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَالًا فَأَغَى﴾.

(٦) يتكففون: يمدون أكفهم بالمسألة.

(٧) في امرأتك: فم امرأتك.

(٨) يرفعك: يطيل عمرك (وعاش سعد بعد ذلك خمسين سنة).

(٩) ولم يكن له إلا ابنة: إدراج (زيادة في متن الحديث من الراوي).

ظاهر الحديث يدل على جواز الصدقة بالثلث، والمنع فيما عداه. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: أن زيارة المريض من السنة، لأن النبي ﷺ أتى إلى زيارة هذا المريض.

الوجه الثاني: جواز زيارة الأعلى للأدنى، وهي من صفات الإيمان، لأن النبي ﷺ لا شك أنه أفضل الناس، ثم إنه أتى في عيادة سعد المذكور.

الوجه الثالث: أن الإمام يتفقد أصحابه ويسأل عمن غاب منهم. فمن كان له عذر أخذ فيه بقدر ما يمكنه لحق أخوة الإسلام ولحق الصحبة أيضاً، لأنه عليه السلام لولا أنه كان يسأل عن أصحابه ويتفقدهم لما عرف مرض هذا الصحابي حتى يزوره.

الوجه الرابع: قوله (وهو يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها) هل الكراهة هنا عائدة من النبي ﷺ، أو من سعد المذكور؟ محتمل للوجهين معاً.

الوجه الخامس: أن من ترك شيئاً لله وخرج عنه فليس له الرجوع فيه ويبطل عمله إن رجع، ولا يحصل له ثواب عليه، لأن من هاجر من مكة إنما كانت هجرته لله ولرسوله ﷺ، فلم يتركهم النبي ﷺ أن يقيموا بموضع خرجوا عنه إلى الله، وكان يخاف عليهم أن يموتوا بها. هذا مع أنهم لا يتعمدون ذلك، وإنما كانت إقامة من أقام لعذر المرض فكيف بالمتعمد؟ وعلى هذا فقس. وقد جاءت في هذا المعنى أحاديث كثيرة صحيحة، ولولا التطويل لذكرنا منها شيئاً فشيئاً، مع أنه لا يخلو أنا قد أشرنا إلى شيء من ذلك في الكلام على بعض الأحاديث المتقدمة.

الوجه السادس: تذكُّر الزائر للمريض بالانتقال<sup>(١)</sup> ليصلح حاله من أداء حق إن كان عليه، أو لفعل معروف إن لم يكن عليه حق، وتهيأ للرحيل، لأنه، عليه السلام، ذكر هذا المريض حين أتى إليه يعوده بقوله (يرحم الله ابن عفراء)، لأن ابن عفراء من المهاجرين مريض بمكة ومات بها، فعرض له بذكره لكي يتنبه لتبرئة ذمته إن كان بها شيء، وتهيأ للرحيل. ففهم عنه سعد، رضي الله عنه، ما أراد. فقال: أوصي بمالي كله؟ وذلك يتضمن براءة الذمة، لأنه لا يؤتى إلى المندوب إلا بعد براءة الذمة، فأتى، رضي الله عنه، بأعلى المندوب، وهو التصديق بجميع المال.

الوجه السابع: أن السائل إذا سأل عن شيء ثم مُنع منه، والمنع يحتمل وجهين أو وجوهاً، فله أن يسأل حتى يتبين له المراد بغير احتمال، لأن سعداً لما سأل النبي ﷺ في الوصية بالمال كله، فمنعه النبي ﷺ، احتمل المنع أن يكون عن جميع المال، واحتمل أن يكون عن بعض دون بعض؛ فلما أن احتمل ذلك بقي يسأل عن الشطر، والثلث، حتى علم الوجه الممنوع في ذلك بغير احتمال.

(١) أي: أن كل إنسان صائر إلى الموت، ولا بد من الانتقال من هذه الدنيا إلى الآخرة.

الوجه الثامن: قوله، عليه السلام، (الثالث والثالث كثير) هل الصدقة بجميع الثلث ممنوعة، أو هل ذلك جائز؟ قد اختلف العلماء في ذلك، فمنهم من ذهب إلى المنع حتى ينقص منه، وليس بالقوي. ومنهم من ذهب إلى الكراهة، وهو مثل الأول. ومنهم من ذهب إلى الجواز من غير كراهة، وهو الأظهر، لأنه جار على سياق الحديث، لأنه، عليه السلام، لو أراد منع الصدقة بالثالث لقال: لا. مثل ما قال قبله. فلما أن عدل عن صيغة النهي إلى صيغة الإذن علم أن ذلك جائز، ولا تعلق للمخالف بقوله، عليه السلام، (والثالث كثير)، لأن وجه الصواب فيه أن يقال: أشار، عليه السلام، به إلى أن الصدقة نهايتها إلى الثلث، وهو أكثرها وأعلاها، وما دونه جائز، وما زاد عليه ممنوع.

وقد وجه المخالف لذلك توجيهاً آخر، وليس بالقوي، ويحتاج فيه إلى تأويل مع إخراج اللفظ عن ظاهره، ولولا التطويل لذكرناه مع أن الشارع، عليه السلام، قد نص على ذلك بغير احتمال في حديث غير هذا، فقال (إن الله تصدق عليكم بثلت أموالكم، تتصدقون به عند موتكم)<sup>(١)</sup>.

الوجه التاسع: أن ترك المال للورثة إذا كانت لهم به حاجة أفضل من التصدق به على الأجانب، لأنه، عليه السلام، قال (إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفون الناس في أيديهم). العالة هم الذين لا شيء لهم وغيرهم يقوم بهم، ومنه قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾<sup>(٢)</sup> ويتكفون بمعنى يطلبون.

هذا إذا كان للورثة بالمال حاجة. وإن كانوا أغنياء فهو بالخيار في ماله - أعني: في الثلث - إن شاء تصدق به وإن شاء تركه، والأفضل الصدقة، لأنه منتقل إلى الآخرة، والله، عز وجل، قد تصدق عليه بالتصرف في الثلث، فقال، عليه السلام (إن الله تصدق عليكم بثلت أموالكم تتصدقون به عند موتكم) وليس للورثة به تلك الحاجة الكلية، فالتصدق به أولى، لكن تكون الصدقة للأقرب فالأقرب، والأحوج فالأحوج، لأن الصدقة للأقرب يجتمع فيها شيان: صدقة وصله رحم. وذو الحاجة أيضاً فيه فضل آخر لقوله، عليه السلام (إذا أراد الله بعبد خيراً صادف معروفه حاجة أخيه)<sup>(٣)</sup>.

والترتيب في الأقارب قد ذكره، عليه السلام، في غير هذا الحديث حين سأله أحد الصحابة فقال: عندي دينار أتصدق به. فقال له: تصدق به على زوجتك. فقال: عندي آخر. فقال: تصدق به على ولدك. فقال: عندي آخر. فقال: تصدق به على أبيك. فقال: عندي آخر. فقال: تصدق

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه بلفظ: إن الله تصدق عليكم بثلت أموالكم عند وفاتكم.

(٢) سورة الضحى، الآية ٨.

(٣) لم نقف على مصدره.

على خادمك . فقال : عندي آخر . فقال : أنت أبصر بنفسك<sup>(١)</sup> ، أو كما قال عليه السلام . والقاعدة  
أبدأ مراعاة القرابة وإن تباعدت ، لأن فيها صلة الرحم ، وليست كالأجنبي .

ونأتي الآن إلى بحث المال الذي تركه للورثة والذي هو من التصدق به . وقد ذكر بعض  
العلماء أن ثمانمائة درهم فما دون يكون الورثة بها أولى . ولأجل هذا قالت عائشة ، رضي الله عنها :  
(في ثمانمائة درهم نفقة لا تحمل الوصية) تريد أن تركه كله للورثة أولى من أن يوصي ببعضه . ومثل  
ذلك روي عن علي ، رضي الله عنه ، فيما يقرب من هذا العدد . لكن يحتاج إلى إحضار النية في تركه  
للورثة ، وهو أن ينوي أن ما مَنَّ به عليه من الصدقة بالثلث في مثل هذا العدد أو ما قاربه صدقة منه  
على ورثته ، وكذلك فيما نقص عن هذا العدد إلى درهم يحتسب ترك ثلثه لهم صدقة عليهم ، فيكون  
قد جمع بين ما أشار الشارع ، عليه السلام ، إليه ، بين قول عائشة وعلي ، رضي الله عنهما ، وما  
ذكرناه من تلك المعاني كلها .

الوجه العاشر : قوله عليه السلام (إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون  
الناس في أيديهم) هل تخصيصه له من جهة المخاطبة ، أو هذا من جهة الخصوص به؟ وإذا قلنا : من  
جهة الخصوص فهل ذلك لعله تعلم ، أو ليس؟ احتمل الوجهين معاً . فعلى الاحتمال الواحد وهو  
من طريق المخاطبة فالكلام عليه والفقه فيه كما تقدم . وإن كان على الخصوص فإن كانت العلة غير  
معلومة فلا بحث . وإن كانت معلومة فما هي؟ فنقول ، والله أعلم : إن سعداً لم تكن له إلا ابنة  
واحدة ، والمرأة إذا كانت يتيمة ولم يكن لها مال كانت مرغوباً عنها ، وإذا كان لها مال كانت مرغوباً  
فيها ، فيكون من أجل ذلك الخير لهذا السيد أن يترك ابنته غنية ولا يتركها عالة على الناس .

ويترتب على هذا ، الفقه أن المرء ينظر الأصلح لورثته فيفعله ، ويكون ذلك هو الأقرب له إلى  
الله ، سبحانه وتعالى ، والأولى في حق الميت .

وبحث آخر في قوله ، عليه السلام (مهما أنفقت من نفقة) فيه وجهان من الفقه : (الواحد)  
إخبار له أن كل ما ينفق هو من نفقة فإنه يؤجر عليها ، حتى اللقمة يجعلها في فم امرأته ، فيكون على  
ماله كله مأجوراً ما تصدق به ، وما أمسكه . (والوجه الآخر) فيه تسلية بهذا القول من أجل ما منعه من  
الصدقة بماله كله ، من أجل وجع قلبه على فوات ذلك الأجر .

(١) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : أن رسول الله ﷺ  
حَثَّ ذات يوم على الصدقة ، فقال رجل : عندي دينار ، فقال : تصدق به على نفسك ، قال : عندي آخر ، قال  
تصدق به على ولدك ، قال : عندي آخر ، قال : تصدق به على زوجك ، قال : عندي آخر ، قال : تصدق به على  
خادمك ، قال : عندي آخر ، قال : أنت أبصر .



وعلى كل واحد من هذين الوجهين بحث . أما البحث على كون كل ما ينفقه هو مأجور فيه هل هذا لفضله ودينه وأن النبي ﷺ علم ذلك إما بوحى ، وإما بما رأى منه من قرائن الحال ، لأنه لا ينفق شيئاً إلا على لسان العلم ، وهو عالم به أيضاً ، وكل من هو بهذه الصفة فيكون كذلك ؟ فإن كان هذا من طريق الوحي فيكون ذلك خاصاً به لما سبق له في علم الله تعالى من السعادة . وإن كان للعلة التي ذكرناها فيكون هذا إرشاداً للمؤمنين بالاستقامة في تصرفاتهم على لسان العلم والعمل . وهذا هو الأظهر والله أعلم ، لأنه وإن كان أخبر بذلك من طريق الوحي فما هو لذاته ، بل هو من أجل هذه العلة التي ذكرنا .

والبحث الذي على الوجه الآخر الذي هو التسلية ، ما الحكمة بأن سلاه بهذه ولم يسله بغيرها ؟ فيه إشارة لطيفة ، لأنه لما وقع له الخروج عن جميع ماله ، ولم يبق إليه ميل ، وإنما حبسه من طريق أمره ، عليه السلام ، له بذلك ، فقد زال عنه الحرص المذموم والتعلق المكروه ، وما بقي له اشتغال إلا بامثال ما أمر ، فلا يتهم في الادخار وإيثار النفس على الغير من جهة شهوة . وكل من لا يكون له تعلق بالمحسوس ، وإن كان في يده ، فذاك عين الزهد . فإن الزهد ليس هو بقلّة ذات اليد ، وإنما هو بعدم تعلق القلب . فتلك الصيغة دالة على ما هو أعظم منها .

ومما يبين ذلك ما جرى لبعض أهل السلوك بإفريقية كان قد فتح له فيما بينه وبين مولاه حتى خرج عن الدنيا خروجاً جميلاً ، وأوقع الله ، عز وجل ، في قلوب أهل زمانه حبه وخدمته ، وكان إذا خرج لا يُترك يخرج إلا راكباً ، وإذا ركب كان يحصل له من التعظيم حتى ليُغسل كفّل بغلته بماء الورد لنسبة حاله من ذلك ، وهو لا يلتفت إلى شيء من ذلك . وكان بعض أصحابه من الرجال يبذل بالقرب منها يقال لها بَنَزْرَتْ<sup>(١)</sup> ، وكانت له عائلة ، وكان يتسبّب بالورع في صيد الحوت<sup>(٢)</sup> في البحر بالسنارة ، فجاء بعض أصحاب ذلك المتورع المتسبّب يزور هذا السيد ، فرأى ما هو فيه من الإكرام فبقي يتعجب .

فلما جاء يودع ويرجع قال له : قل لأخي فلان ، يعني ذلك السيد المتسبّب : كم ذا تتبع الدنيا ؟ فزاد الفقير تعجباً . فلما أخبر ذلك الآخر بمقاله سأله بعض الإخوان عن ذلك المعنى الذي أراد هذا السيد أن ينبه به ذلك الأخ المبارك . قال له : عَنَى به أن يُخْلِي قَلْبَهُ مِمَّا سِوَى مولاه ، لكون تعلقه بالصَّيْد قد أخذت كذا ويعجزني كذا . فإن هذا ، وإن كان مشروعاً ، فإن تعلق القلب به مكروه لأهل الأحوال ، لأنه شغل عن المناجاة والحضور .

(١) بَنَزْرَتْ : إحدى مدن تونس الساحلية .

(٢) الحوت : هو السمك بجميع أنواعه في لغة شمال إفريقية وبعض مدن الجزيرة العربية .

الوجه الحادي عشر: قوله عليه السلام (وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة، حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك) ليس على العموم وإنما ذلك لمن كانت له نية، وإنما أتى، عليه السلام، بهذا اللفظ على العموم لكونه كان يخاطب هذا الصحابي، والصحابي يعلم أن ذلك إنما يكون مع النية، للقاعدة التي تقعدت عنده من قوله عليه السلام (إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى)<sup>(١)</sup>. ولو كان خطابه عليه السلام لغير الصحابي الذي لا يعلم تلك القاعدة، لشرطها عليه. يشهد لهذا ما جاء في الحديث أول الكتاب، من قوله عليه السلام (إذا أنفق الرجل على أهله يحسبها فهو له صدقة)<sup>(٢)</sup>. فانظر لما أن أتى بالنفقة على العموم قتيدها بالاحتساب، ولما أن أتى بها لسعيد لم يقيدها عليه، فبان ما قررناه وظهر.

فإن قال قائل: النفقة على المرأة واجبة، ولم يكلف الشارع، عليه السلام، فيها النية، وكل واجب إذا وقع على ما أمر به الشارع، عليه السلام، ففي فعله الأجر. قيل له: ليس النزاع في ذلك، لأننا سلمنا أنه إذا أنفق على عياله فقد حصل له أجر الإقامة بالواجب. لكنه لم يدخل في هذه الأفضلية، وهو أن يزداد له على ذلك أجر الصدقة. يشهد لما قررناه قوله، عليه السلام (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه)<sup>(٣)</sup>. وقيام رمضان مطلوب ابتداء على بابه. فإذا قامه المرء ولم تكن له نية الإيمان والاحتساب فقد امتثل الأمر فيه، وحصل له أجر القيام، لكنه لم تحصل له كفارة تلك السنة، لأن النبي ﷺ شرط في الكفارة ألا تكون إلا مع وجود تلك الصفتين.

وقد بينا ما معنى الإيمان والاحتساب في الكلام على الحديث أول الكتاب. فإذا كان القيام الذي ليس للنفس فيه شهوة ولا حظ، وهو من أفعال البر على الإطلاق، لا يحصل فيه ما أشار الشارع، عليه السلام، إليه إلا بذنبك الشرطين، فناهيك به في فعل مشترك بين وجوه عديدة، إما للمحبة في الشخص، أو للشهوة، أو للحياء، أو رياء للغير، أو مصادفة من غير قصد، أو للآخرة إلى غير ذلك من الوجوه المتوقعة هناك.

وهذا الوجه قد مال إليه كثير من الفقهاء في التعبد، فكيف به في هذا الأمر؟ فقالوا في رجل خرج إلى البحر يغتسل من الجنابة، فلما أن وصل إلى البحر عَزَبَتْ<sup>(٤)</sup> عنه النية ووقع الغسل بغير نية، فَوَقَّوا فيه بين زمن الصيف وزمن الشتاء، فقالوا بالبطلان في زمن الصيف، وبالإجزاء في زمن

(١) متفق عليه من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والشيخان والنسائي وابن حبان عن ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحسبها كانت له صدقة.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) عَزَبَتْ: بَعَدَتْ وَخَفِيَتْ.

الشتاء . ولا ذاك إلا لكون أن الغالب على الناس الاغتسال في الصيف للتبرّد . ثم إن المرء إذا أنفق بغير نية إنما يحصل له الأجر في تلك النفقة بقدر الواجب عليه ، وما زاد على الواجب بقي أجره متوقفاً على نيته . وكثير من الناس الغالب عليهم الزيادة في النفقة على الواجب . فينبغي انعقاد النية ابتداءً حذراً من سقوط هذا الخير العظيم .

وفيه من الفقه أنه لا يقتصر به على نفقة المال لا غير ، بل هو عام في كل الحركات والسكنات ، لأن كل ما يفعله المرء من تحرك وكلام فهو نفقة . ونص الحديث عام في كل ذلك ، لأنه قال (مهما أنفقت من نفقة) وهذا اللفظ يفيد العموم في كل النفقات . وهذا العموم كعموم قوله تعالى ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَاهُ﴾<sup>(١)</sup> يشهد لما قررناه أن النبي ﷺ جعل هنا اللقمة يرفعها الرجل إلى في امرأته صدقة ، وجعل في حديث آخر لقاء المؤمن لأخيه ببشاشة الوجه صدقة ، وإمالة الأذى عن الطريق صدقة<sup>(٢)</sup> ، إلى غير ذلك مما جاء في هذا المعنى ، فقد استوى في المعنى إنفاق المال وغيره . لكن في هذه النفقات تفصيل ، وهو أن نفقة المال تكون في مرضاة الله وفي سبيل البر والخيرات ، ونفقة البدن العبادة على الدوام ، ونفقة اللسان دوام الذكر والتلاوة ، ونفقة العينين نظرهما بالاعتبار ودراسة العلوم والقرآن ، ثم بهذه النسبة في جميع الأعضاء ، لكل منها نفقته بحسب ما يليق به وما هو وظيفته .

ولأجل التحقيق بهذه المعاني التي أبرزناها والفوائد التي قررناها فَضَّلَ أهل الصوفة غيرهم ، لكونهم احتسبوا أنفسهم وأموالهم وأهليهم لله لا لغيره ، تعلقاً منهم بهذا الحديث ؛ إذ إن كل ما ينفقه المرء فهو صدقة . فهم قد أنفقوا جميع ما لديهم ، كان ذلك من كلام أو صمت ، أو نوم أو غير ذلك ، لا يتنفسون بِنَفْسٍ إلا بحضور وأدب ، ينظرون ما عليهم فيه من الوظيفة وما هو الأقرب إلى الله تعالى ، فيبادرون إليه بإسراع وإجابة لقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾<sup>(٣)</sup> فمن يراهم يتصرفون في المباحات يظن أن ذلك مباح على بابه ، وليس كذلك ، لأنهم لا يفعلون فعلاً حتى يحتسبوه لله تعالى ، على ما قررناه .

حتى (لقد حكى) عن بعضهم أنه كان يُسأل فيسكت ساعة ثم يجيب . فسئل عن ذلك . فقال : أنظر أيما خير لي ، هل السكوت أو الكلام ؟ وقد يكون بعضهم له من الحضور ما هو أشد من هذا ،

(١) سورة آل عمران ، من الآية ٩٢ .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه : كل سُلَامَى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس : تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل على دابته فتحمله عليها أو ترفع عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة .

(٣) سورة الإسراء ، من الآية ٥٧ .

فيعرف عند الخطاب ما هو الأفضل له، فيعمل عليه من غير أن يقع منه سكوت بعد السؤال، وصاحب هذا الحال هو الكبريت الأحمر والسيد الأعظم. فمن يراهم يلبسون الحسن من الثياب، يأكلون الطيب من الطعام، ويتحدثون مع الإخوان، ويأخذون راحة، يظن أن ذلك من جملة المباح، وليس عندهم فرق بين هذه الأشياء والتعبد، بدليل ما قررناه.

يؤيد ذلك حديث معاذ الذي قال فيه (وأحتسب نؤمني كما أحتسب قؤمتي)، فشهد له النبي ﷺ بالفقه والأفضلية، وقول عمر، رضي الله عنه، (إني لأتزوج النساء ومالي إليهن حاجة، وأطاهن ومالي إليهن شهوة. ف قيل له: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: رجاء أن يخرج الله من ظهري من يُكثر به محمدُ الأمم يوم القيامة). أعاد الله علينا من بركاتهم، ومنَّ الله علينا بما به من عليهم.

وقوله عليه السلام (عسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناس ويُضَرَّ بك آخرون) هل هذا بمعنى الدعاء له بالرفعة في الدنيا، أو هو بمعنى أن ينسئ الله في أجله فيكون بمعنى الدعاء بطول الحياة؟ احتمل الوجهين معاً على الانفراد، واحتمل مجموعهما، لأن كل واحد من هذين لهذا السيد يتضمن الآخر، فإنه إذا عاش من هو مثل هذا السيد فقد ارتفع به أهل الحق، وقد ذل به أهل الباطل. وإن كان يريد رفعة في الدنيا فالحياة من لازمها، وفي اجتماع هذين المعنيين في هذه الصيغة دليل على ما من به على سيدنا ﷺ من الفصاحة والبلاغة.

فأما الانتفاع فظاهر، لأن المؤمن رحمة حيثما حل، وأما الضر فيحتاج إلى بيانه، وذلك أنه، عليه السلام، أتى بلفظ (الناس) وهو عام في المسلم والمنافق والكافر، ولا شيء أشد ضرراً على المنافق والكافر من المؤمن، لأنه مأمور بعداوتهم ومقاتلتهم، وقد وقع الأمر لهذا السيد المذكور على ما أخبر به النبي ﷺ، لا زيادة ولا نقصان، فعاش بعد ذلك، وطالت حياته، فانتفع به كثير من الناس، وتضرر به آخرون ممن قدر عليه بذلك<sup>(١)</sup>. وكذلك هم الفضلاء أبداً ينتفع بهم من أراد الله سعادته، ويضر بهم من سبقت عليه الشقاوة، ولأنهم حجة الله وأنصار الدين.

وفيه دليل على أن السنة في المريض أن يُفَسَّحَ له في العمر<sup>(٢)</sup>، لأن قوله، عليه السلام (عسى الله أن يرفعك) فيه دعاء له بالبقاء وإفساح له في العمر. لكن ذلك بشرط يشترط فيه، وهو أن يكون المريض ممن يكون فيه أهلية للخير، أو يرجى ذلك فيه تحرراً، لئلا يكون فاسقاً أو ظالماً أو ممن فيه

(١) ذكرنا في ترجمة سعد رضي الله عنه أنه عاش بعد تلك الوعكة خمسين عاماً وأنه فتح بلاد فارس وهدم عرش كسرى ونشر الإسلام في شرق آسيا.

(٢) في الحديث ١١٩ ورد أن رسول الله ﷺ قال: إذا دخلتم على مريض فنفسوا له في أجله، فإن ذلك لا يرد شيئاً، ويطلب نفسه..

ضرر على المسلمين، لقوله، عليه السلام، حين سمع أحد الصحابة يقول للمنافق (يا سيّد) فقال عليه السلام (إن أردت أن يكون هذا سيّداً فقد أحبيت أن يُعصى الله)<sup>(١)</sup> أو كما قال، وقد قال، عليه السلام: (إذا مات المنافق استراح منه البلاد والعباد)<sup>(٢)</sup> أو كما قال، والله الموفق.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

## الكتب النادرة التي تُفزع لأول مرة

- 
- (١) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن بريدة رضي الله عنه بلفظ: لا تقولوا للمنافق سيّدنا فإنه إن يكن سيّدكم فقد أسخطتم ربكم.
- (٢) جاء في هذا المعنى أنه مرت جنازة أمام رسول الله ﷺ... فقال: مستريح ومستراح منه. فقالوا: يا رسول الله، من المستريح والمستراح منه؟ فقال: العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والمستراح منه العبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب. متفق عليه من حديث أبي قتادة بن ربعي رضي الله عنه.

## حديث إنذار المشيرة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾<sup>(١)</sup> قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً. يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً. يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً. يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً. يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، سَلِّينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على الإنذار للقرابة خصوصاً. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: لقائل أن يقول: لم أمر الله، عز وجل، بالإنذار للقرابة دون غيرهم؟

(الجواب عنه) أن الله، عز وجل، قد أمر بالإنذار لجميع الناس في غير هذه الآية، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. قُرْ فَأَنْذِرْ<sup>(٢)</sup>. ثم أمر بعد الإنذار العام بالإنذار للقرابة تخصيصاً لهم وتكريماً، ومنه قوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾<sup>(٣)</sup> فخصص ذكر جبريل وميكائيل لشرفهما. وكذلك تخصيص القرابة هنا من هذا الوجه، والله أعلم. وقد يحتمل أن يكون إنذارهم سداً للذريعة لثلا يقع عند أحد أن القرابة ليست في التكليف كالأجانب لحرمتهم، لأنه بعد نزول هذه الآية ووضوحها قد وقع ذلك في النفوس.

فإنه قد روي أن رجلاً سأل علياً، رضي الله عنه: هل خصكم رسول الله ﷺ أهل البيت بشيء؟

(١) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

(٢) سورة المدثر، الآيتان ١ و ٢.

(٣) سورة البقرة، الآية ٩٨.

فأجاب رضي الله عنه بأن قال: (لَمْ يَخْصَّنَا إِلَّا بِالْأَنَّا نَأْكُلُ صَدَقَةً وَأَلَّا تَنْزُوَ الْحُمْرُ عَلَى الْخَيْلِ، وَمَنْ فَتَحَ اللَّهُ لَهُ فَهَمًا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى) أَوْ كَلَامًا هَذَا مَعْنَاهُ<sup>(١)</sup>.

وهذا يدل على أن تخصيصهم بالإنذار تكرمة في حقهم، لأن التكليف - على ما يقوله العلماء - هو نفس الرحمة لمن سبقت له السعادة، ولذلك شدد عليهم في التكليف، فحرم عليهم ما تقدم ذكره، وهو لم يحرم على غيرهم لترتفع درجاتهم، ولتعلم خصوصيتهم.

ووجه آخر أيضاً: أن يكون معنى قوله ﷺ (لَا أُغْنِي) معناه: الإجزاء. والإجزاء هو ما يتخلص به المرء ولا عتب عليه. ويعارضنا حديث الشفاعة، والشفاعة لا تكون إلا لمن عليه العتب واستوجب العذاب، ولذلك قال عليه السلام (اِخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي)<sup>(٢)</sup>. فلا تعارض بينهما.

وفيه دليل على أن الكفار ليسوا مخاطبين بفروع الشريعة، لأن الآية عامة احتملت الكافر من عشيرته وغير الكافر، وما أنذر ﷺ من عشيرته إلا المؤمنين، لأن عمومته كانوا فوق العشرة، وما أسلم منهم إلا حمزة والعباس. ولا شك أن جميع العمومة من أقرب العشيرة، ولم يكلم منهم إلا المؤمنين.

وفيه دليل على أن رؤية أهل الفضل من العلماء والصالحين ومخالطتهم لا تنفع إلا إذا وقع الاقتداء بهم، وكيفما كان الاقتداء كانت النسبة للقرب أكثر، لأن النبي ﷺ قال لقرايته ما قال في الحديث. ثم إن فاطمة، رضي الله عنها، التي هي منه بتلك المزية الكبرى، وقال فيها عليه السلام (يَرِينِي مَا رَابِهَا وَفَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي)<sup>(٣)</sup>، قال لها: (لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا). فإذا كان هذا النبي

(١) تنزوا: نزا الفحل: وثب. كذا ذكر ابن أبي جمرة، رضي الله عنه، ويبدو أنه جمع في كلامه معنى حديثين اثنين. الأول - كما ورد في الصحيح - أن علياً كرم الله وجهه لما سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ فقال: لا، إلا كتاب الله تعالى وما في هذه الصحيفة، قال: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير وألا يقتل مسلم بكافر.

والثاني - كما ورد في البخاري ومسلم ومسند الإمام أحمد والسنن - عن علي كرم الله وجهه قال: قال لي النبي ﷺ يا علي، أسيغ الوضوء وإن شق عليك، ولا تأكل الصدقة، ولا تنز الحمر على الخيل، ولا تجالس أصحاب النجوم.

(٢) للحديث روايات عدة غير ما ذكر المؤلف رحمه الله، منها: إني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة (رواية مسلم) ومنها: لكل نبي دعوة قد دعا بها في أمته، وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة (رواية البخاري ومسلم). ومنها: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي (رواية الإمام أحمد وأبي داود والنسائي وابن حبان والحاكم).

(٣) بضعه مني: جزء مني. ولفظ الحديث: عن المسور بن مخرمة قال: سمعت النبي ﷺ يقول وهو على المنبر: إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا علي بن أبي طالب ابنتهم. فلا أذن لهم، ثم لا أذن لهم إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم فإنما هي بضعه مني يريني ما رابها ويؤذيني ما اذاها.

وأما حالهم في الطرف الآخر - وهو غضبهم ونصرتهم لأمر الله - فيشهد لذلك ما حكى عن بعض فضلائهم أنه مر يهودي من أهل الذمة، وجماعة من المسلمين قد اجتمعوا على ظلمه، فردّ يده على ما كان عنده من السلاح وقال: والله لا أترك ذمة محمد تخفر وأنا حيّ. فخلصه من بين أيديهم. ومثل هذا عنهم كثير.

وقوله، عليه السلام (يا بني عبد مناف إلى قوله ويا فاطمة) يردّ عليه سؤالان، وهما يتضمنان أسئلة جَمَّة، وهو أن يقال: لم خصّ، عليه السلام، العباس بتعيينه عن غيره من الرجال؟ ولم خصّ صفة عن غيرها من النسوة بالتعيين؟ وكذلك في فاطمة لِمَ عيّنها عن أخواتها؟ ولم ذكر لفاطمة اسمه وذكر لصفة الرسالة؟ ولم يذكر فيما قبل اسماً ولا رسالة؟

(والجواب) عن الأول أن تعيين العباس عن غيره من الرجال فيه من المعنى ما تقدم في تخصيص القرابة بالإنذار. فلما أن كان العباس عمه كان الإنذار إليه تخصيصاً ليمتاز بذلك عن غيره، ومن كان في درجته في القرابة يحصل له الإنذار في ضمن الإنذار للعباس، وكذلك الجواب عن تعيين صفة عن غيرها من النسوة، وكذلك الجواب على تعيين فاطمة دون أخواتها.

(والجواب) عن الثاني وهو أنه، عليه السلام، إنما لم يذكر أولاً اسماً ولا رسالة لأنه قام في الإنذار اتباعاً لصيغة الأمر، وإنما ذكر الرسالة لصفة إزالة لما يقع في بعض الأذهان الفاسدة من رفع الرسالة أو بعضها لما يتوهم من عموم قوله (لا أغني عنكم من الله شيئاً). وإنما خص فاطمة بالاسم دون أخواتها لكي تقع الموافقة في الاسم، كما هي في المعنى، لأنه، عليه السلام، قال: (هي بضعة مني). فكما ذكر اسمها ذكر اسمه.

وقوله، عليه السلام، لفاطمة (سليني من مالي ما شئت) فيه دليل على أن النيابة والإعطاء فيما عدا الدين سائغة، وفي أعمال الدين ممنوعة. وبه يستدل مالك، رحمه الله تعالى، حيث يقول: إن أعمال الأبدان لا ينوب فيها أحد عن أحد، لأن الإنذار هنا تخصيص على القيام بالأمر والنهي لقوله عليه السلام (اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً). فالشراء هنا عبارة عن القيام بالأمر والنهي.

وقوله بعد ذلك (سليني من مالي ما شئت) دال على أن النيابة في أعمال الدين لا تجوز، ولو جاز ذلك لكان، عليه السلام، يتحمل عنها وعن غيرها من أهله بما يخلصهم به. فإذا كان هو، عليه السلام، لم ينب في ذلك عن غيره فمن باب أولى: الغير.

ولقائل أن يقول: لم خصّ، عليه السلام، فاطمة، رضي الله عنها، بأن قال لها (سليني من مالي ما شئت)، ولم يقل ذلك لصفة ولا لمن تقدمها بالذكر؟



(والجواب) عنه من وجهين: (الوجه الأول) أنه، عليه السلام، إنما خص فاطمة بذلك من جهة صغر سنّها، لأن ما قاله فيه للسامع رُغِبَ عند الإخبار به ابتداءً، فأزال، عليه السلام، عن فاطمة ما يلحقها من ذلك لطفاً منه بها ورحمة، لأنه ليس جَلَدُهَا كَجَلَدِ الْكَبِيرِ. (الوجه الثاني) وهو الأظهر أن قوله عليه السلام لفاطمة رضي الله عنها (سليني من مالي ما شئت لا أُغني عنك من الله شيئاً) فيه إشعار للغير وإبلاغ له في الإنذار، لأنهم يقولون: هذه هي فاطمة التي هي منه حيث هي، وأخبرها بأنه يفعل لها ما تطلبه منه عدا أعمال الدين لا يقدر لها على رفع شيء منه عنها. فكيف بذلك في غيرها؟ فبمتضمن هذا الكلام يحصل الإبلاغ في الإنذار للغير. والله عز وجل أعلم.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

## حديث جواز استعمال بهيمة الصدقة للضرورة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَسُوقُ بَدَنَةً<sup>(١)</sup>، فَقَالَ: ارْكَبْهَا. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهَا بَدَنَةٌ. فَقَالَ: ارْكَبْهَا، وَبَلَّكَ<sup>(٢)</sup> أَوْ وَنَحَكَ<sup>(٣)</sup>، فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّالِثَةِ<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز ركوب البدنة للضرورة، والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: أن الإمام ينظر في حال رعيته ويدبر أمرهم، لأنه لولا أن النبي ﷺ كان يتفقد أصحابه بالنظر، لما رأى صاحب البدنة، فأمره بركوبها، وقد قال عليه السلام (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) وعلى هذا المنهاج سار الخلفاء، رضي الله عنهم، بعده. يشهد لذلك ما روي أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فَقَدَ بعضَ أصحابه من صلاة الصبح، فلما أصبح مرَّ على أمه فسألها عنه. وليس هذا مقتصرًا على الإمام وحده لا غير، بل هو عام في كل الناس عن آخرهم، وقد بيَّنا عموم ذلك في الكلام على قوله عليه السلام (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).

الوجه الثاني: أن الضرورة لها حكم يختص بها ويباح لأجلها ما يمنع في غيرها، لأن ركوب البدنة ممنوع شرعاً، فلما أن أدت الضرورة إلى ركوبها، لكون صاحبها لم يكن له مركوب، أباح الشارع، عليه السلام، ذلك. لكن يشترط في الضرورة أن تكون ضرورة شرعية، وأن ما يستباح لأجلها قد اغتفره الشارع، عليه السلام في مثلها. فإن غُدم هذا الشرط فلا تجوز الإباحة.

- 
- (١) بدنة: ناقة أو بقرة، تنحر بمكة قرباناً لله تعالى.  
 (٢) وبلك: الويل: كلمة تقال لكل من وقع في عذاب أو هلكة. وأصل الويل في اللغة: العذاب والهلاك.  
 (٣) ونحك: الوَيْح: كلمة تقال رحمة لمن تنزل به بلية. وتضاف (ويل) و (ويح) إلى ضمير أو اسم صريح، وتنصبان على إضمار فعل.  
 (٤) يعني أن الرجل كثر كلامه، وأجابه النبي عليه السلام.

الوجه الثالث: جواز المراجعة لأهل الفضل إذا لم يفهم المخاطب ما قيل له، لأن صاحب البدنة لما أن قال له النبي ﷺ: (اركبها) احتمل عنده هل يكون النبي ﷺ عليم أنها بدنة أو لم يعلم؟ وقد تقرر عنده النهي عن الركوب لها، فراجع لأجل ذلك الاحتمال حتى يفهم ما أراده النبي ﷺ. لكن تكون المراجعة لهم بتأدب ووقار، لأن هذا الصحابي، رضي الله عنه، سأل بتأدب واحترام، فلم يقل له: إنك قد نهيت عن ركوب البدنة، ولكن ناداه بأحب الأسماء إليه وهو (رسول الله)، ثم قال له: إنها بدنة، سؤال استرشاد وتعلم. وإنما زاد على الاثنتين - إن كان زادهما - لكونه احتمل عنده هل سمع النبي ﷺ ما قال أو لم يسمع. فأعاد الثالثة لكي يزيل عنه ما يتخيل من ذلك، وإنما قال له النبي ﷺ: (وَيْلَكَ) في آخر الكلام لكي يُعلم أنه سمع منه ما قال. وقد تقرر أن دعاء النبي ﷺ على أمته دعاء لهم، لا دعاء عليهم، كما تقدم في الأحاديث قبل.

الوجه الرابع: ما الحكمة في تقليد<sup>(١)</sup> البدنة وإشعارها، وذلك شهرة لها، وقد تقرر من الشرع، على ما نقله العلماء، أن الأفضل فيما عدا الفرائض هو الإخفاء؟ والجواب من وجوه: (الوجه الأول) إن من العلماء من يقول: إن أمور الحج كلها فرض، فعلى هذا فالأمر على بابه.

(الوجه الثاني) أن سنن الحج كلها بخلاف غيرها، لأنها ظاهرة. فالحكمة بأن جعلت ظاهرة ليكون الأمر متناسباً.

(الوجه الثالث) أن بالتقليد وَجَبَتْ، فجعل علماً على وجوبها لهذه الفائدة بكون ذلك العلم فيه قطعاً للنفس من الطمع في الرجوع فيها، فيكون فيه معنى من باب سد الذريعة. وقد تكون واجبة بنذر أو غيره، فيكون ذلك علماً لها من أجل ما ذكرناه، ومن أجل ألا تختلط مع غيرها. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

(١) التقليد: وضع قلادة أو علامة في العنق.

## حديث جواز الصدقة عن الميت ووصول ثوابها إليه

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ<sup>(١)</sup> تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ وَهُوَ غَائِبٌ عَنْهَا. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أُمِّي تُوُفِّيَتْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهَا، أَيْتَفَعَهَا شَيْءٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ بِهِ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي أَشْهَدُكَ أَنَّ حَائِطِي<sup>(٢)</sup> الْمَخْرَافَ<sup>(٣)</sup> صَدَقَةٌ عَنْهَا.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز الصدقة عن الميت، وأن ثواب ذلك يصل إليه. والكلام عليه

من وجوه:

الوجه الأول: السؤال للعالم عند الجهل وترك الحكم بالرأي، لأن هذا الصحابي، رضي الله عنه، لما أن لم يكن له علم هل تنفع صدقته بتلك النية التي أراد أم لا؟ لم يُقَدِّم عليها برأيه، وإنما سأل النبي ﷺ. وحينئذ أقدم على الفعل بعد العلم بالحكم.

الوجه الثاني: فيه دليل على جواز السفر بحضرة الأبوين، لأن هذا الصحابي، رضي الله عنه، سافر وأمه بالحياة. لكن يشترط فيه إذن الأبوين. وقد تكلم الفقهاء في ذلك. وإنما سكت عن الإخبار بالإذن في هذا الحديث للعلم به.

الوجه الثالث: أن بر الوالدين مطلوب بعد مماتهما، لأن الصدقة عنهما من ذلك الباب. وقد صرح الشارع، عليه السلام، بذلك في غير هذا الحديث، حين سأل بعض الصحابة عن ذلك فقال

(١) سعد بن عبادة: سلفت ترجمته في الحديثين: ٦٨ و ١١٩.

(٢) الحائط: البستان.

(٣) المخراف: اسم للبستان، أو صيغة مبالغة للبستان الذي يشمر من ثمر النخيل. وفي بعض الروايات (المخراف) وهو حائط النخيل الذي يُخَرَف (يُجْتَنَى) منه الرُّطَب.

له : أن تُنفِذَ وصيتَهما، وتَبَرَّ صديقَهما<sup>(١)</sup>. فقد يكون المرء عاقاً في حياة الأبوين، باراً لهما في الممات، وقد يكون بالعكس.

الوجه الرابع : فيه دليل على أن الأفضل المسارعة إلى أفعال البر إذا عُلِمَت حتى يكون العلم مستصحباً بالعمل، لأن هذا الصحابي، رضي الله عنه، لما أن أخبره النبي ﷺ بجواز الصدقة، وعلم أن له فيها الأجر أخرجها من حينه، فأشهد النبي ﷺ على صدقته. وعلى هذا الأسلوب كان حال الصحابة، رضي الله عنهم، مهما زاد أحدهم في علمه ظهرت في عمله، حتى إنهم كانوا يعرفون زيادة علم الإنسان في عمله، وكذلك التابعون بإحسان إلى يوم الدين، لأن العلم مع ترك العمل حجة ووبال على صاحبه.

الوجه الخامس : فيه دليل على الإشهاد بالصدقة، لأن هذا الصحابي، رضي الله عنه، أشهد النبي ﷺ على صدقته. والحكمة في ذلك اغتنام صدق النية في العمل حين حصول العلم، فيبت الأمر لِتَوْمَنَ غائلة النفس ومكر العدو<sup>(٢)</sup>، وقد جاء في الحديث (إن المرء لا يتصدق بصدقة حتى يَفُكَّ بها لَحْيَيْ سَبْعِينَ شَيْطَانًا)<sup>(٣)</sup>.

الوجه السادس : فيه دليل على أن إظهار الصدقة في مثل هذا الموضع أفضل من إخفائها، لأن هذا الصحابي، رضي الله عنه، قد أظهر صدقته هنا ولم يخفها. والحكمة في ذلك ما ذكرنا في الوجه قبله - وهو اغتنام صدق النية - لأنه حصل له صدق النية عند الإخبار، فاغتنمها لما جاء (أوقع الله أجره على قدر نيته)<sup>(٤)</sup>. فلما حصل له صدق النية عند الإخبار لم يترك الحاصل لِلْمُتَمَكِّن. والحاصل هو صدق النية في هذا الوقت، والممكن هو ما في صدقة الإخفاء من الأجر، لأنه جاء فيه تحضيض كثير من الشارع، عليه السلام، وبَالَغَ في التحضيض على ذلك حين قال (حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)<sup>(٥)</sup>، فدل بهذا أن حسن النية في الصدقة مع الإظهار أفضل من ضعف النية

(١) أخرج أبو داود وابن ماجه عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي قال : بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من بني سَلَمَةَ فقال : يا رسول الله، هل بقي من بر أبي شيء أبرهما بعد موتهما؟ قال : نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرِّجَم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما. (إنفاذ عهدهما : أي إمضاء وصيتهما وما عهدا به قبل موتهما).

(٢) أي : الشيطان.

(٣) أخرجه الإمام أحمد والبخاري وابن خزيمة عن بريدة رضي الله عنه بلفظ : لا يخرج رجل شيئاً من الصدقة حتى يفك عنها لحيي سبعين شيطاناً كلهم ينهون عنها. و (اللحي) : منبت اللحية من الإنسان وغيره. وهما لَحْيَان. ونقول : إن المراد كسر شوكة النفس، والعدد (٧٠) يراد به الكثرة.

(٤) رواه الإمام مالك والإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن جابر بن عتيك رضي الله عنه. (انظر : الحديث السابع).

(٥) أول الحديث : سبعة يظلهم الله.

فيها مع الإخفاء، لأن هذا الصحابي، رضي الله عنه، قد فعل وأقره النبي ﷺ على فعله ولم يشتر إلى غيره.

الوجه السابع: فيه دليل لأهل الصوفة على قولهم (الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك). ومعناه عندهم: إقطع الوقت بالعمل لئلا يقطعك بالتسويق. وفعل هذا الصحابي هنا من ذلك الباب. ولأن الله عز وجل قد قال ﴿وَسَارِعُوا﴾ و ﴿سَابِقُوا﴾<sup>(١)</sup>، ولا تكون المسارعة والمسابقة إلا بسرعة العمل. ولهذا كان بعضهم مرة في بيت الخلاء في يوم شديد البرد، وكان عليه ثوبان، وكان بعض الإخوان في الموضع عليه أطمار ثياب<sup>(٢)</sup>، فخطر له وهو في بيت الخلاء أن يخرج لصاحب تلك الثياب الأطمار عن أحد الثوبين اللذين كانا عليه، فجرده من حينه في موضعه ذلك وصاح به ورماه إليه. فلما خرج سأله الشيخ: كيف تكلمت في بيت الخلاء؟ فقال: خشيت على نيتي أن تحول عند الخروج. فشكر ذلك منه.

الوجه الثامن: فيه دليل لمالك، رحمه الله تعالى، حيث يقول بأن الصدقة تجوز بغير أن يحدها، لأن هذا الصحابي، رضي الله، عنه تصدق بحائظه ولم يحده، وأجاز النبي ﷺ ذلك، ولو كان بيعاً لما جاز حتى يحده.

الوجه التاسع: فيه دليل لمالك، رحمه الله تعالى، حيث يقول بأن الصدقة تجب بالقول، لأنه قال: أشهدك أن حائطي المخراف صدقة عنها، وأقره النبي ﷺ على ذلك، ولم يطلب منه زيادة في الجواب.

الوجه العاشر: فيه دليل على تحمل الحاكم الشهادة في غير موطن الحكم لمن أشهده بها وحمله إياها، لأنه لما أن سأل هذا الصحابي النبي ﷺ، وأخبره بما أخبر، أشهده على صدقته كما ذكر، والنبي ﷺ هو الحاكم بإجماع. لكن لم يكن هذا الموطن موطن حكم، وإنما كان موطن سؤال وجواب.

الوجه الحادي عشر: فيه دليل على أن للرجل بعد إشهاده على الصدقة أن يتصرف فيها، أعني في تفريقها، لأنه لما أن أشهد النبي ﷺ على صدقته لم يقل له النبي ﷺ: أعط فلاناً وامنع عن فلان. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

(١) الكلمة الأولى إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ - (آل عمران، من الآية ١٣٣)،

والكلمة الثانية إشارة إلى قوله تعالى ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ - (الحديد، من الآية ٢١).

(٢) أطمار: مفردا طمر، وهو الثوب الخلق البالي.

## حديث جواز اتخاذ الخادم للرجل الصالح

عَنْ أَنَسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ. فَأَخَذَ أَبُو طَلْحَةَ<sup>(١)</sup> يَبْدِي. فَاذْطَلَقَ بِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُنْسًا غُلَامٌ كَيْسٌ<sup>(٢)</sup> فَلْيَخْدَمْكَ. قَالَ: فَخَدَمْتُهُ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، مَا قَالَ لِي لَشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتَ هَذَا هَكَذَا؟ وَلَا لَشَيْءٍ لِمَ لَمْ تَصْنَعْ هَذَا هَكَذَا؟

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز اتخاذ الخادم، وكذلك في العكس وهو عدم اتخاذه، لأن النبي ﷺ كان بغير خادم، فلما أن قدم المدينة، وأُتِيَ بالخادم قَبْلَهُ، فعلى هذا فالأمران سَيِّئَان. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: فيه دليل على أنه ليس من شرط الحاكم اتخاذ الخادم رداً على من قال بذلك، لأن النبي ﷺ كان حاكماً قبل قدومه إلى المدينة وفي حال قدومه، ولم يكن له إذ ذاك خادم، وإنما حمل من قال بذلك الفقه النفساني - فلا يعبأ بقوله، لأنه ليس الجائز كاللزام - وكون النبي ﷺ اتخذ الخادم حين قدومه المدينة، وهو آخر الفعلين من حاله عليه السلام. وكانوا يأخذون من أفعاله وأقواله بالأحدث فالأحدث. لكن هذا ليس بالقوي، لأن النبي ﷺ لم يعمل على اتخاذ الخادم ولا طلبه حتى جاءه متبرعاً، كما مرَّ الكلام عليه، فالأمر بالسواء. والله تعالى أعلم.

(١) أبو طلحة: هو زيد بن الأسود بن حرام الأنصاري الخزرجي النجاري، وهو زوج أم سليم والدة أنس. وفي مناقب أبي طلحة أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: (لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوّب به، بحجفة (بترس) له. وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديداً القِدِّ يكسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يمرُّ معه الجعبة من النبل فيقول: انثرها لأبي طلحة، فأشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، لا تشرف فيصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك. ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدماً سوقهما تنقزان القرب على متونهما (تحملاهما على ظهورهما وتنقزان بها وثياً) تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملانها، ثم تجيئان فتنقزان في أفواه القوم، ولقد وقع السيف من يد أبي طلحة مرتين أو ثلاثاً).

(٢) كَيْسٌ: من كاس يكيس كَيْساً: عَقْلٌ وَظَرْفٌ وَفُطْنٌ، فَهُوَ كَيْسٌ وَكَيْسٌ.

الوجه الثاني: قوله (فأخذ أبو طلحة بيدي فانطلق بي إلى رسول الله ﷺ) فيه دليل على أن الكفيل له الحكم على من يكفل بما له فيه مصلحة، لأن أبا طلحة لما أن رأى المصلحة لأنس في خدمة النبي ﷺ حمله عليها، وأقره النبي ﷺ على ما فعل. ويترتب على هذا أن خدمة أهل الفضل تزيد الخادم بها شرفاً، ولذلك أجبر أبو طلحة أنساً على خدمة النبي صلى الله عليه وسلم.

الوجه الثالث: فيه دليل على جواز خدمة البتيم إذا كان ذلك برأي كفيله، لأن أنساً لم يكن له أب، وقد قبله النبي ﷺ من وليه للخدمة. فلو كان غير جائز لم يقبله النبي صلى الله عليه وسلم.

الوجه الرابع: فيه دليل على جواز خدمة الصبي الصغير إذا كان وليه المتبرع بذلك، لأن النبي ﷺ قد اجتزأ بتبرع الولي في ذلك.

الوجه الخامس: قوله (إن أنساً غلام كئيس فليخدمك) فيه دليل على أن الكئيس مطلوب في الخادم، لأنه قدّم الكئيس، وبعد ذلك قال له: فليخدمك. فلولا أن الكئيس كان عندهم مطلوباً في الخديم لما قدمه.

ويتعلق بهذا من الفقه أن يذكر ما في الشخص من المحامد بقدر ما يرشح إليه، لتقع الرغبة فيه في ذلك الشأن، والمعرفة بمكانه فيه. وكذلك كل ما يتقرب به الناس بعضهم لبعض، يذكر ما فيه من المحاسن ليعرف قدره ويكون أجدر بتحصيل القبول، لأن الفضائل مخفية لا تعلم إلا بالوصف أو بالإدراك عند المخالطة. فإن كان مدحاً لغير هذه الفائدة فهو داخل في عموم قوله، عليه السلام (قطعتُم ظَهَرَ الرجل) (١). ويستحب في ذلك الإيجاز والاختصار من غير تطويل ولا إكثار، لأنه قال له (إن أنساً غلام كئيس)، فأوجز في العبارة وأجمع.

الوجه السادس: فيه دليل على جواز هبة المنافع كهبة الأعيان، لأنه قال له: فليخدمك. والخدمة هبة منفعة لا عين.

الوجه السابع: فيه دليل لمالك، رحمه الله تعالى، حيث يجيز الهبة غير محدودة ولا معينة، لأنه قال له: فليخدمك، ولم يعين له الخدمة ولا زمانها.

الوجه الثامن: فيه دليل على جواز استنابة الصبي في الأمر اليسير، لأن نفس الخدمة تقتضي النيابة في بعض الأشياء، وكذلك كان عليه السلام يفعل.

الوجه التاسع: فيه دليل على جواز انعزال الصبي عن وليه، بشرط أن يكون في موضع يَأْمَنُ عليه مما يتوقع، لأن أنساً انعزل عن وليه وبقي في خدمة النبي ﷺ عشر سنين.

(١) أخرجه أبو نعيم عن أبي موسى رضي الله عنه بلفظ: قَطَعْتَ.



الوجه العاشر: قوله (فخدمته في السفر والحضر) فيه دليل على جواز سفر الصبي الصغير، بشرط أن يكون فيه كياسة حتى يكون من حيث يدبر مصالح نفسه.

الوجه الحادي عشر: قوله (ما قال لي لشيء صنعته إلى آخر الحديث) فيه دليل على حسن خلق النبي ﷺ<sup>(١)</sup> وكثرة ما أمده الله، عز وجل، به من قوة اليقين، لأن أنساً بقي في خدمته عليه السلام عشر سنين، ثم مع طول السنين ومباشرة الخدمة لم يقل له النبي ﷺ قَطُّ لِمَ فعلت هذا هكذا؟ ولا لِمَ لَمْ تفعل؟ لما أن كان، عليه السلام، هو الذي أتى للناس بالإيمان واليقين أُعطيَ منه أَجْزَل نصيب، وأتى الناس بعده وورثوا منه بقدر همهم ومقاصدهم. وإليه أشار، عليه السلام، بقوله (لم يفضلكم أبو بكر بصوم أو صلاة ولكن بشيء وقر في صدره)<sup>(٢)</sup>. والشيء الذي وقر في صدره هو قوة اليقين حتى كان يقول: (كأنني أنظر إلى العهد) لما أن كان صاحب النبي ﷺ في الغار، وخليفته بعد الانتقال، أَجْزَل الله له في الميراث أكثر ممن أتى بعده. وكذلك كل من كان له قدر في الدين إنما علا وارفع بحسب ما أَجْزَل له من ذلك الميراث وخص به.

ثم بقي على الحديث (سؤال) وارد وهو أن يقال: العمل على هذا الحديث يؤدي إلى ترك تأديب الأولاد، لأنه إذا كان المرء ينظر إلى ما قَرَزْتُمْ لم يبق فيما يؤدب الولد<sup>(٣)</sup>؟ وذلك إلى أن يكبر الولد على غير حال مَرَضِيٍّ في تصرفه، وقد جعل، عليه السلام، تأديب الولد أفضل من الصدقة؟

(والجواب) عنه أن الأمر كذلك. لكن في الحديث ما ينفصل به عن ذلك السؤال، لأنه قال فيه: غلام كَيْس. والكَيْس شرعاً هو الذي لا يقع منه خلل في الدين. فلما أن اختار الله، عز وجل، أنساً لخدمة نبيه، عليه السلام أعطاه من ميراث الهدى نصيباً، لقوله، عليه السلام (أدبني ربي فأحسن تأديبي)<sup>(٤)</sup> أي هداه إلى كل شيمة مَرَضِيَّة وأخلاق سَنِيَّة. فإذا حصل للولد نسبة من هذا الميراث لا يحتاج إلى تأديب. فإذا كان بعكس هذا الكيس فالتأديب إذ ذاك مأمور به، وهو لا يعارض ما نحن بسبيله للمعنى الذي ذكرناه.

وصلَّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) وهذا مدح لأنس رضي الله عنه في الوقت ذاته، لأن رسول الله ﷺ لا يسكت على مخالفة إن وجدت، وفي الكلام إشارة لأدب أنس رضي الله عنه (من ك لام الشيخ محمد التبهان رضي الله عنه).

(٢) سبقت الإشارة إلى أن هذا غير حديث في أكثر من موضع. والله أعلم.

(٣) يريد: فيم يؤدب الولد؟ ولم يحذف ألف «ما».

(٤) معناه صحيح وأسلوبه بليغ، ولكن العلماء اتفقوا على ضعف إسناده، منهم العسكري في الأمثال، وأبو نعيم في تاريخ أصفهان، وأبو سعد السمعاني في أدب الإملاء، والسخاوي في المقاصد الحسنة وابن حجر في بعض فتاويه، وابن تيمية قال: لا يعرف له إسناد ثابت.

## حديث أفضل الأعمال

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى مِيقَاتِهَا. قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: بِرُّ الْوَالِدَيْنِ. قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَسَكَتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَوْ اسْتَزِدُّهُ لَزَادَنِي.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على فضل هذه الأعمال المذكورة فيه على ما سواها. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله: (أي العمل أفضل) هل مراده بالأفضلية كثرة الثواب وتضعيف الأجر، أو ما يقرب إلى الله تعالى، وإن كان المعنيان يقربان إلى الله، عز وجل، لكن إذا اجتمعا بُدِيَءَ بالذي يقرب إلى الله أكثر؟ (مثال ذلك) الزكاة وما أشبهها من الفروض فيها تضعيف الأجر وإن كانت لا تخلو من التقرب إلى الله سبحانه، وبرِّ الوالدين ليس فيه تضعيف أجر محدود، وقد جعل، عز وجل، رضاها مع رضاه، وسَخَطُهما مع سَخَطِهِ. فهذا أجل في القرب، مع أنه لم يذكر فيه تضعيف الأجر.

يشهد لهذا ما روي أن أحد الصحابة كان كثير التعبد والمجاهدة، فلما اخْتُصِرَ منع الشهادة، فجاء النبي ﷺ فاستدعى أمه، فإذا هي غضبانة عليه من أجل أنه كان يؤثر زوجته عليها. فسألها النبي ﷺ في الرضا عنه، فسخرها الله للإجابة ببركة النبي ﷺ، فدعت لولدها ورضيت عنه، فانطلق لسانه بالشهادة. فقال، عليه السلام: (سَخَطُ أُمِّهِ مَنَعَهُ مِنَ الشَّهَادَةِ)<sup>(١)</sup> أو كما قال.

(١) رواه الطبراني والعقيلي في الضعفاء والبيهقي في شعب الإيمان عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه. وفي رواية المؤلف ابن أبي جمرة زيادات ليست في مختلف الروايات التي بين أيدينا. (أورد الشيخ أحمد بن محمد بن الصديق الغماري في كتابه: «برِّ الوالدين» جميع طرقه).

فانظر اجتهاد هذا الصحابي في أنواع التعبد لم ينفعه مع الإخلال بهذا الجزء اليسير الذي هو إيثار الزوجة على الأم بغير جفاء، فكيف ينفع تضعيف الأجر لمن ليس فيه من هذا الحال شيء؟

فبان بهذا ما قررناه، وهو أن الأعمال على قسمين: قسم لتضعيف الأجر والتقرب إلى الله سبحانه تعالى، وقد تقدم مثاله. وقسم يُبتَغَى به التقرب إلى الله سبحانه وتعالى لا غير، وهو مثل برّ الوالدين وما أشبهه، مع أنه يتضمن الأجر، لكن ذلك إلى الله، ليس للبشر فيه مجال. وتبين به أن سؤال الصحابي كان على هذا الجنس. أعني عما يقربه إلى الله سبحانه وتعالى، لما تضمنه جواب النبي ﷺ. ومن يسأل عن الأفضل أبداً لا يترك غيره، وإنما سؤاله لكي يهتم بالأفضل ويزيد عليه محافظة.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام (الصلاة على ميقاتها إلى آخر السؤال) يرد عليه سؤال، وهو أن يُقال: لِمَ قَدَّمَ الصلاة على برّ الوالدين؟ وَلِمَ قَدَّمَ الوالدين على الجهاد؟

الجواب عنه: أن الصلاة إنما قدمت لأجل أنها رأس الدين وعمدته، وبها قوامه، ولا يصح الدين إلا بها، ومتى وقع فيها خلل لم ينفع غيرها من الأعمال، بدليل أحاديث كثيرة جاءت في ذلك. فمنها قوله عليه السلام (بين الإسلام والكفر ترك الصلاة)<sup>(١)</sup>، ومنها قوله عليه السلام (موضع الصلاة من الدين موضع الرأس من الجسد)<sup>(٢)</sup>، ومنها قوله عليه السلام (أول ما يحاسب به العبد الصلاة، فإن قيلت منه نُظِرَ في باقي عمله، وإن لم تُقَبَلْ منه لم يُنْظَرْ في شيء من عمله)<sup>(٣)</sup> إلى غير ذلك مما جاء في هذا المعنى.

وأما برّ الوالدين فإنما قدمه، عليه السلام، على الجهاد لأن الله، عزّ وجلّ، قد فرضه وأكد فيه، ولم يجعل فيه عذراً، وقرن رضاهما برضاه، فقال تعالى ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَىٰ الصَّيْرِ. وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾<sup>(٤)</sup> فانظر مع الكفر لم يرخص، عزّ وجلّ، في عقوبتهما، فكيف بهما مؤمنين؟ وقد قال تعالى ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن جابر رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط والصغير ولفظه: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا صلاة لمن لا طهور له، ولا دين لمن لا صلاة له، إنما موضع الصلاة من الدين موضع الرأس من الجسد.

(٣) أخرج الإمام أحمد وأصحاب السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه: أول ما يحاسب الناس عليه يوم القيامة من أعمالهم الصلاة. إلى آخر الحديث.

(٤) سورة لقمان، من الآيتين ١٤ و ١٥.

(٥) سورة الإسراء، من الآية ٢٣.

وقد قال بعض العلماء في معنى قوله تعالى ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾<sup>(١)</sup> إنهم هم الشهداء الذين جاهدوا بغير إذن أبويهم، فاستشهدوا، فالشهادة تمنعهم من دخول النار، وعقوق الوالدين يمنعهم من دخول الجنة، فيبقون على الأعراف حتى يُرضي الله، عز وجل، عنهم والديهم، فيدخلهم الجنة. والآي والأحاديث في ذلك كثيرة. فلما أن كان فيه هذا التشديد من الله، عز وجل، أمر، عليه السلام، بعد الصلاة. وإنما أمر، عليه السلام، بالجهاد بعد بر الوالدين لما ثبت أن الشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون، ولقوله، عليه السلام، (ما أعمال البر في الجهاد إلا كبرقة في بحر)<sup>(٢)</sup>، ولأن الأعمال كلها فيها إعطاء بعض وإبقاء بعض، والجهاد فيه إعطاء الكل، النفس والمال، مع ما فيه من إعلاء كلمة التوحيد. ثم إن الجهاد كان على الصحابة، رضوان الله عليهم، فَرَضَ غَيْرُ.

فانظر إلى هذا النظام العجيب كيف أمر أولاً بما هو الفرق بين الإسلام والكفر، وهو الصلاة. ثم أمر ثانية بما فيه رضى الرحمن، وهو بر الوالدين. ثم أمر ثالثة بما احتوى على الخبرين العام والخاص، وهو الجهاد. فالخير العام الذي فيه هو ظهور الإسلام، والخير الخاص هو ما فيه من بذل جميع المحبوبات في ذات الله تعالى. فمن نور الله بصيرته ينظر إلى هذا الترتيب العجيب فيتبعه في جميع الأعمال بالنسبة إلى حاله، فيأخذ الأفضل فالأفضل، ويدخل بذلك في عموم قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾<sup>(٣)</sup>.

الوجه الثالث: قوله عليه السلام (الصلاة على ميقاتها) يفيد استغراق الوقت كله من أوله إلى آخره، متى أوقعت الصلاة فيه حصل المقصود. ولكن قد جاءت رواية أخرى قال فيها (الصلاة أول ميقاتها)<sup>(٤)</sup>. فعلى هذا فالأول عام في الوقت كله، وما أوردناه مخصص بأول الوقت. والعام يُحتمل على الخاص، سيما في هذا الموضع للقرائن التي قارنته، وهو أن إيقاع الصلاة أول الوقت فيه براءة الذمة مما تعمرت، وفيه شدة الاهتمام بأمر الله تعالى والمصارعة إليه، وفي هذا من الخير ما لا يخفى.

وإنما استحَب بعض العلماء تأخيرها قليلاً عن أول الوقت لعلتين: (الأولى) في مساجد

(١) سورة الأعراف، من الآية ٤٦.

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس عن جابر رضي الله عنه ولفظه - كما ذكرنا من قبل -: ما أعمال العباد كلهم عند المجاهدين في سبيل الله إلا كمثل خطاف أخذ بمنقاره من ماء البحر. وفي رواية لأبي هريرة: إلا كتفلة تغلها رجل في بحر لجي.

(٣) سورة الإسراء، من الآية ٥٧.

(٤) وفي الحديث روايات عدة. فأما رواية (الصلاة أول ميقاتها) فقد أوردها الحافظ ابن حجر على أنها رواية لعلي بن حفص وهو شيخ صدوق. ورواية (الصلاة على وقتها) رواها الدارقطني والبيهقي وهي أصح الروايات. وأما رواية (الصلاة في أول وقتها) فضعيفة وشاذة - كما في فتح الباري - كتاب الصلاة - باب فضل الصلاة لوقتها.

الجماعة لكي يجتمع الناس للصلاة. (الثاني) الإبراد بها قليلاً في زمان الصيف، للنهي الذي جاء في ذلك. وأما إذا عدت هاتان العلتان فقد اتفق العلماء، فيما أعلم، أن أول الوقت أفضل<sup>(١)</sup>، عدا أبي حنيفة ومن قال بقوله، وليس ما ذهبوا إليه في هذه المسألة بالقوي. وقد قال أبو بكر، رضي الله عنه، (أول الوقت رضوان الله، ووسط الوقت رحمة الله، وآخر الوقت عفو الله. ثم قال: رضوان الله أحب إلي من عفو الله). وهذا يؤذن بأن إيقاع الصلاة آخر الوقت فيه شيء ما من الغفلة، لأن العفو يقتضي أن يكون وقع شيء يعفى عنه.

الوجه الرابع: أمره، عليه السلام، بتلك الأفعال الثلاث فيه دليل على أن التعبد إنما يكون أولاً بالواجبات، ويبدأ منها بما هو الأوكد فالأوكد.

الوجه الخامس: قوله (ولو استزدته لزدني) فيه دليل على التأدب والاحترام للعلماء، وألاً يكثر عليهم في السؤال لغير ضرورة، لأن اقتصاره على تلك الثلاث وقوله بعد ذلك (ولو استزدته لزدني) فيه وجوه:

منها ترك الإلحاح على العالم، وهو من الاحترام والتأدب كما تقدم.

ومنها الأخذ من الأعمال بقدر الطاقة، لأن ثلاثة أفعال من أفعال البر يُحافظ عليها خير من كثير لا يقام بحقها، لأن الصحابة، رضوان الله عليهم، كانوا يعملون بما يعلمون.

ومنها أن العلم أعلاه التفقه فيه، وأنجح الوسائل في التفقه تقديم العمل لقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾<sup>(٢)</sup> ولا تكون المجاهدة إلا بالعمل، ولقوله عليه السلام (من عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يعلم)<sup>(٣)</sup>، وعلم ما لم يعلم منه ما يستنبط من الأحكام من

(١) ليس هذا على إطلاقه، إذ المغرب يستحب تعجيله، أما الفجر فيستحب فيه الإسفار لحديث (أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر) ولتجميع المسلمين، والناس حديثو عهد بنوم بعد عمل وجهد، ولحديث: (ما أجمع الصحابة على أمر كالتنوير بالفجر) فالتغليس منسوخ، وروي في الصحيحين عن ابن مسعود أنه صلى الفجر في مزدلفة قبل وقتها المعتاد.

وأما العشاء فقد ثبت في الصحيح أن ابن عباس وأبا موسى وأبا سعيد الخدري رووا أنه ﷺ أخرها إلى ثلث الليل، وروى أبو هريرة وأنس أنه ﷺ أخرها إلى نصف الليل، وروت عائشة أنه أتم بها حتى ذهب عامة الليل. والأفضل تأخيرها إلى ثلث الليل (هذا لمن له همة اختيار الأفضل).

وأما الظهر فالإبراد بها في الصيف رفقاً. بالمصلين لحديث أنس: كان ﷺ إذا صلى في الشتاء أبكر، وإذا كان في الصيف أبعد (رواه البخاري).

وأما العصر فيستحب تأخيرها لمن يريد النوافل قبلها، إذ لا نافلة بعد فرضها ما لم يتغير قرص الشمس، إلا إذا كان في التأخير تفويت الجماعة (فتح القدير ١/١٩٧-٢٠٢).

(٢) سورة العنكبوت، من الآية ٦٩.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية بإسناد ضعيف عن أنس رضي الله عنه.

الأحاديث والآي . فلما حصلت له ثلاثة وجوه على ما ذكرناه اقتصر على توفية العمل فيما قيل له والاهتمام به ، وخاف من الزيادة لئلا يعجز عن التوفية ، أو يقع منه نسيان .

وقد حكى عن بعض الفضلاء ممن ليس في زمان الصحابة أنه كان يحضر مجلس بعض العلماء ، فإذا سمع مسألة واحدة خرج إذ ذاك ، فسئل : لِمَ تَفْعَلُ ذلك؟ فقال : لأن أسمع مسألة واحدة أشتغل بها يومي خيرٌ من أن أسمع مسائل فتسيني الثانية الأولى ، وكذلك الثالثة لما قبلها ، فيقع مني التفريط فيما سمعت وعدم التحصيل لما كنت قد وَعَيْت . فإذا كان هذا الحرص العظيم في غير الصحابة فكيف به في الصحابة؟ من باب أولى . فعلى هذا - وهو الحق الواضح - إتباع العلم بالعمل أفضل من تحصيل العلم وتضييع العمل .

ومنها أن مراعاة العلم تكون بالعمل . فترك السؤال مع علمه بالزيادة ليتفقه فيما نُصِّ له عليه وما يتضمن على باقي الأعمال ، فيحصل له بذلك فضيلة استنباط العلم لقوله تعالى ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾<sup>(١)</sup> والاشتغال باستنباط الأحكام وفهم المعاني من أجل الأعمال ، يشهد لذلك ما روي أن عبدالله بن عمر ، رضي الله عنهما ، مكث على سورة البقرة ثمانين سنين يتعلمها . ولأن مراعاة العلم على ضربين : عمل واستنباط . فمن عمل عليها حصلت له الدرجة العليا في العلم والعمل .

وهذا السيد ممن فهم ما أشرنا إليه من حسن هذا الأسلوب ، وما تضمنه من الفوائد لما رزقه الله من النور ، فحصل له إذ ذاك ما قصد مع التخفيف في السؤال بخلاف الفرض ، لأنه لا يؤخذ فيه مع حضور الشارع ، عليه السلام ، بالاستنباط ولا بالقياس أو الاجتهاد . فلما أن كان سؤاله عن الأفضل اقتصر على معرفة بعض دون بعض للمعنى الذي أشرنا إليه . والله المستعان .

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .

(١) سورة النساء ، من الآية ٨٣ .

## حديث لا هجرة بعد الفتح

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ. فَإِذَا اسْتَنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن الهجرة قد انقطعت بعد الفتح. لكن له معارض آخر وهو قوله عليه السلام (الهجرة باقية إلى يوم القيامة)<sup>(١)</sup>، والجمع بينهما والله أعلم - أن يقال: إن الهجرة من مكة إلى المدينة، والإقامة بها مع النبي ﷺ، والجihad بين يديه، قد انقطعت، لا تكون أبداً. وأما غيرها من أنواع الهجرة فذلك باق لم يزل، مثل الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام، وكذلك أيضاً الخروج من موضع غلب فيه المنكر إلى موضع ليس فيه ذلك.

يشهد لذلك قوله عليه السلام (سيأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فر من شاهق إلى شاهق)<sup>(٢)</sup>. والفرار من شاهق إلى شاهق من أجل الدين هجرة لا شك فيها. ثم قال عليه السلام (العمل في الهرج كالهجرة معي)<sup>(٣)</sup>. وأي عمل وأي هجرة أعظم من الفرار بالدين من شاهق إلى شاهق؟ لكن هذه الهجرة المذكورة إنما وقع الشبه بينها وبين الهجرة الأولى في تضعيف الثواب والأجر.

وأما تلك الهجرة فقد مضت لأصحابها، وهي مثل الصحبة لا تكون لغير الصحابة أبداً لقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

(١) في هذا المعنى أخرج الإمام أحمد وأبو داود عن معاوية رضي الله عنه بلفظ: لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها.

(٢) رواه البيهقي في الزهد وضعفه المنذري في الترغيب والترهيب: باب الترغيب في العزلة.

(٣) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه في الفتن عن معقل بن يسار أن النبي ﷺ قال: العبادة في الهرج كالهجرة إلي.

لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١﴾، ثم قال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَابِجُوا وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ (١)  
نعم قد يجتمعان في المعنى، وهو أن العمدة فيهما معاً الفرار بالذين من موضع كثرت فيه المخالفة  
إلى موضع يُرجى فيه الخير.

ثم الكلام على الحديث من وجهين:

الوجه الأول: قوله عليه السلام (ولكن جهاد ونية) يريد أن الجهاد باقٍ لم يزل ولم يرتفع،  
وأنه لا يكون جهاد حتى يكون بنية، والنية فيه أخبر بها، عليه السلام، في غير هذا الحديث حين  
سأله الأعرابي: ما القتال في سبيل الله؟ فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل  
الله) (٢)، وقد مر الكلام عليه بما فيه كفاية. (وفيه دليل) على أن نيات الخير على اختلافها مأجور  
صاحبها فيها ما بلغه منها عمله وما لم يبلغه، وقد قال، عليه السلام، في غير هذا الحديث (نية  
المرء أبلغ من عمله) (٣).

الوجه الثاني: قوله عليه السلام (فإذا استنفرتم فأنفروا) أي إذا طلبتم للجهاد فبادروا بالخروج  
ولا تقعدوا، لأن الجهاد كان على الصحابة رضوان الله عليهم فرض عين، فلا يجوز لهم الجلوس  
إذا سمعوا الاستنفار، وكذلك من أتى بعدهم إذا كان الجهاد عليهم فرض عين فحكمهم حكم  
الصحابة إذا استنفروا. ومن كان عليه فرض كفاية فهو بالخيار إن شاء خرج له الأجر، وإن لم يخرج  
فلا حرج، لكن ذلك بشرط أن يعلم الفرق بين فرض العين والكفاية. والفرق بين فرض الكفاية  
وفرض العين (٤) قد ذكر في كتب الفقه. فإذا تحقق المرء بلسان العلم بأن الجهاد في حقه فرض  
كفاية فحيثنذ يكون مختيراً، لئلا يكون بعوده عاصياً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي الحديث (إشارة صوفية) وهي على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: في قوله عليه السلام (لا هجرة بعد الفتح) قد أخبر، عليه السلام، في غير هذا  
الحديث بأن (الجهاد جهادان: أكبر وأصغر) (٥)، فقال عليه السلام (هبطتم من الجهاد الأصغر إلى  
الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس) (٦). فإذا كان الجهاد على قسمين فكذلك يلزم في الهجرة أن

(١) سورة الأنفال، الآية ٧٤ ومن الآية ٧٥.

(٢) رواه الإمام أحمد والشيخان وأصحاب السنن عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) رواه الحكيم الترمذي والعسكري في الأمثال عن ثابت البناني بلاغاً بلفظ: نية المؤمن أبلغ من عمله.

(٤) فرض العين: ما أوجبه الله عز وجل على كل فرد من عباده كالصلاة مثلاً، إذ لا يقوم غيره بأدائها عنه نيابة. أما  
فرض الكفاية: فهو ما أوجبه الله على عباده، وإذا قام به البعض سقط عن الباقي كالصلاة على الجنائز مثلاً.

(٥) ليس هذا حديثاً، وإنما هو من تفصيل المؤلف رضي الله عنه.

(٦) رواه البيهقي في الزهد بلفظ: قدمتم خير مقدم، من جهاد الأصغر إلى جهاد الأكبر، قيل: وما جهاد الأكبر؟  
قال: مجاهدة العبد هواه.



تكون كبرى وصغرى . فالصغرى على ما تقدم ، والكبرى هي هجرة النفس من مألوفاتها وشهواتها وإخوانها وأهلها وبنيتها وردها إلى الله تعالى في كل أحوالها . وقد نص ، عز وجل ، على ذلك في كتابه حيث قال ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ۚ ﴾<sup>(١)</sup> فالزهد في هذه الأشياء هو المطلوب ، وخلو القلب والنفس منها . وحقيقة الزهد هو أعلى من هذا ، وهو لأهل الخصوص .

يشهد لذلك ما حكى عن بعض الفضلاء أنه قال : زهدت في ثلاثة أيام : (الأول) في الدنيا وما فيها . (الثاني) في الآخرة وما فيها ، (والثالث) فيما سوى الله . وهذه هي الهجرة العظمى . وفقنا الله إليها بمنه . ولا يقدر على هذه الهجرة إلا أهل الهمم السنية والمقاصد العلية . ومن كان ضعيفاً لا يقدر على هذه الهجرة فلا يُمهِّل نفسه بالكلية ، فإن ذلك علامة على الخسران ، وليأخذ نفسه بالرفق والمسايسة في الجهاد والهجرة ، لأن المرء في نفسه شبيه بذلك ، لأن بدنه كالمدينة ، والعقل والمَلَك كالمسلمين ، والشیطان والنفس والهوى أعداء ، فيحتاج أولاً إلى الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام .

والهوى والشیطان . ورجوعه إلى رأي العقل والمَلَك يفتح بلاد العدو ، والفتح هنا عبارة عن أسر النفس والشیطان والهوى ، وأن يكون العقل والمَلَك هما الأمران الناهيان على الجوارح . فإذا حصل للمريد هذا الحال فلا يحتاج بعد ذلك إلى جهاد - أي إلى مجاهدة - لأن المجاهدة لا تراد لذاتها ، وإنما المقصود منها حصول هذه الصفة ، وقد حصلت . كما أن الجهاد لا يراد لذاته ، وإنما يراد لفتح البلاد للإسلام ، وأسر العدو وإسلامه .

وقد روي أن القلب كالمَيِّدان ، فيه المَلَك والعقل والهوى والنفس والشیطان يعتركون فيه ، فأيهم غلب سكن القلب ، وكان هو الأمر على الجوارح ، فحصلت النسبة بينه وبين ما نحن بسبيله من حكم الظاهر من كل الجهات . فمن له لُب يفهم ما أشرنا إليه ويعمل عليه ، يحصل إن شاء الله على المراد ، لكن ذلك بعد الافتقار إلى الله تعالى وطلب العون منه في كل اللحظات وإلا فلا ينفع الحذر والجهاد والهجرة في الغالب .

الوجه الثاني : قوله (ولكن جهاد ونية) فإذا حصل الفتح للمريد يحتاج عند ذلك إلى الجهاد . ونعني بـ(الجهاد) هنا المبادرة إلى أفعال البر بكل ممكن ، ولا يُتْرَك بالتسوية بـ(لعل وعسى) فإن بذلك تفوت الغنائم . فإذا ظفر بالفتح والغنيمة فيحتاج عند ذلك إلى إخلاص النية في كل الأفعال

(١) سورة التوبة ، من الآية ٢٤ .

وَيَبْهَتُلُ بِهَا . وَالْحَذَرُ الْحَذَرُ مِنْ وَقُوعِ الْعَمَلِ دُونَهَا ، لِأَنَّ الْأَعْمَالَ بِحَسَبِ مَا احْتَوَتْ عَلَيْهَا النِّيَّاتُ ،  
فَإِذَا حَصَلَ لِلْمُرِيدِ هَذَا الْحَالُ فَقَدْ حَصَلَ لَهُ الْجِهَادُ وَالنِّيَّةُ .

الوجه الثالث : قوله عليه السلام (فإذا استنفرتهم فانفروا) وهو على وجهين : فحكم يختص  
بالشخص نفسه ، وحكم مُتَعَدِّ لغيره .

فأما ما يختص بالشخص فهو أنه إذا تحصلت له هذه الحالة السَّيِّئَةُ - أعني الفتح والجهاد -  
وتخلَّصت له النية على ما قررنا يحتاج عند ذلك إلى محاسبة نفسه في كل أوقاته لئلا تقع منه غفلة ،  
فيظفر العدو بمن ملك القلب في شيء من التصرفات ، فيقع بذلك الخلل بعد وقوع النصر والظفر .  
فإذا حاسب المرء نفسه في أقل شيء يقع له من ذلك استيقظ له فرجع عنه ، فإن لم يقدر على تركه  
فقد ظفر العدو ثانية وظهر . وهذا هو موضع الاستنفار أيضاً ، لِأَنَّ الْمَلَكَ وَالْعَقْلَ قَدْ غَلَبَا ، فَيَدْخُلُ  
أَيْضاً فِي الْمَجَاهِدَةِ حَتَّى يَزِيلَ مَا وَقَعَ .

وأما ما عدا الشخص فذلك لا يكون إلا لمن حصلت له هذه الأحوال التي قدمنا ذكرها ،  
وتمكن فيها . فحينئذ يجب عليه أن ينظر في حق الغير ، فإذا جاءه أحد ممن غلب عقله ومَلَكُهُ يطلب  
منه النصرة فيجب عليه إذ ذاك نصرته ، لِأَنَّ هَذَا مَوْضِعَ الْإِسْتِنْفَارِ . وَالنَّصْرَةُ هُنَا عِبَارَةٌ عَنِ الدَّعَاءِ فِي  
ظَهْرِ الْغَيْبِ ، وَبَيَانُ كَيْفِيَةِ خَاطِرِ الْمَلَكِ وَالْعَقْلِ لِلَّذِي قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ ، وَبَيَانُ كَيْفِيَةِ خَاطِرِ النَّفْسِ  
وَالْهَوَى وَالشَّيْطَانِ وَبِمَا يَتَحَرَّزُ مِنْ وَقُوعِ الْهَزِيمَةِ وَبِمَا تَحْصُلُ الْغَنِيمَةُ . وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

## حديث المشيمة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: لَا طُوفَنَ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ<sup>(١)</sup>. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن أمور الغيب لا يجوز القطع عليها في نجاح ما يُرجى منها إلا الاستثناء. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: جواز ذكر النساء وذكر الطواف عليهن بين الأصدقاء والأصحاب، وكذلك أيضاً ذكر ما يُقدَّم عليه من أفعال الطاعات بينهم، لأن في الإخبار لهم بذلك تنبيهاً لهم على المبادرة لمثله، وإن كان لم يطلب منهم. لكن هذا إنما يكون بحسب النيات، لأن ذكر سليمان، عليه السلام، الطواف على نسائه بين أصحابه فيه ذلك المعنى - على ما سيأتي بيانه بعد.

وفيه دليل على جواز ذكر أفعال الدنيا، بل إنها طاعة إذا أريد بها الآخرة، أو تكون سبباً لأمر أُخْرَوِيٍّ، لأن سليمان، عليه السلام، ذكرَ النكاح وهو دنيوي لما يترتب عليه كما ذكر.

وقوله (على مائة امرأة أو تسع وتسعين) هذا شك من راوي الحديث في أيهما قال عليه السلام.

الوجه الثاني: فيه دليل على عظم قدرة الله، عز وجل، ومعجزة لسليمان، عليه السلام، إذ البشر عاجز عن الطواف على مائة امرأة في ليلة واحدة؛ فأظهر الله، عز وجل، قدرته بأن لسليمان،

(١) شِقُّ رجل: أي جزء من رجل، وهذا الجزء قد يكون النصف أو ما دون ذلك، والعبارة تعني أنها جاءت بولد مشوه، ناقص الخلقة والتكوين.

عليه السلام، القوة على ذلك، فكان فيها معجزة، وإظهار قدرة، وإيداء حكمة، رداً على من رَبط الأشياء، بالعوائد، فيقول: لا يكون كذا إلا من كذا، ولا يتولد كذا إلا من كذا. فالتقى الله، عز وجل، في صلب سليمان، عليه السلام، ما مائة رجل، وكان له ثلاثمائة زوجة وألف سُرية<sup>(١)</sup>، ليظهر خرق العادة، وأنها ليست من اللازم.

لكن هذا أمر قد سبق إلى بعض الأذهان تفضيل سليمان، عليه السلام، على النبي ﷺ، إذ النبي ﷺ لم يُعطَ إلا ما أربعين رجلاً<sup>(٢)</sup>، ولم يكن له غير عشر نسوة. فظاهر هذا التفضيل، وليس كذلك، إنما هو بالعكس، وإن كان الاثنان أنبياء عظماء، لكن للنبي ﷺ مرتبة في الأفضلية لا يساويه فيها أحد غيره.

بيان ما ذكرناه من الأفضلية هو أن سليمان، عليه السلام، تمنى أن يكون ملكاً فقال ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾<sup>(٣)</sup> فأعطى الملك على ما قد علم، وأعطى هذه القوة في الجماع، لكي يتم له الملك على خرق العادة من كل الجهات، لأن الملوك أبدأ يتخذون من النساء بقدر ما أُجل لهم، ويتخذون من السريات بقدر ما يستطيعون عليه. فأعطى الله لسليمان عليه السلام تلك الخصوصية حتى يمتاز بها عنهم، فكان نساؤه من جنس ملكه الذي لا ينبغي لأحد من بعده<sup>(٤)</sup> كما طلب.

والنبي ﷺ لما أن خَير هل يكون نبياً ملكاً أبى ذلك، واختار أن يكون نبياً عبداً<sup>(٥)</sup>، فأعطى من

(١) السُرية: الجارية المتخذة للملك أو للجماع، وهي على وزن فُعلية. والفعل: تَسَرَّطَ وتَسَرَّطَتْ. واختلف أهل

اللغة في الجارية يتسراها مالکها لم سميت (سُرية) فقال بعضهم: نسبة إلى السر وهو الجماع، وضمت السين للفرق بين الحرة والأمة توطأ، فيقال لحره إذا نكحت سراً أو كانت فاجرة (سرية) وللمملوكة يتسراها صاحبها (سرية). وقال أبو الهيثم: السر السرور، فسُميت الجارية سُرية لأنها موضع سرور الرجل.

(٢) جاء في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يطوف على نسائه في ساعة من الليل وهن إحدى عشرة امرأة، قال قتادة: قلت لأنس: أو كان يطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين.

(٣) سورة ص، من الآية ٣٥.

(٤) لا ينبغي لأحد من بعده: لا يكون لأحد مثله في عظمته وسعته وفوته من بعده.

(٥) في هذا المعنى روى الطبراني والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ ذات يوم، وجبريل عليه السلام على الصفا. فقال رسول الله ﷺ: يا جبريل، والذي بعثك بالحق ما أسى لآل محمد سفة من دقيق ولا كف من سويق، فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هذه من السماء أفزعته، فقال رسول الله ﷺ: (أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال: لا، ولكن أمر إسرأفيل فتزل إليك حين سمع كلامك، فأتاه إسرأفيل فقال: إن الله سمع ما ذكرت، فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن أعرض عليك أن أسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة فعلت؟ فإن شئت نبياً ملكاً وإن شئت نبياً عبداً، فأوما إليه جبريل أن تواضع، فقال: بل نبياً عبداً. (ثلاثاً).

الخصوصية ذلك القدر، لكونه عليه السلام، رضي بالفقر والعبودية، فأعطي الزائد بخرق العادة في النوع الذي اختار، وهو الفقر والعبودية. فكان، عليه السلام، يربط على بطنه ثلاثة أحجار من شدة الجوع والمجاهدة<sup>(١)</sup>، وهو على حاله في هذا الشأن - أعني في الجماع - لم ينقصه شيء، والناس أبداً إذا أخذهم الجوع والمجاهدة لا يستطيعون على ذلك. وقد قال، عليه السلام، في الصوم (إنه له وجاء)<sup>(٢)</sup>، فكان الصوم لغيره وجاء، وفي حق نفسه المكربة لا ينقصه شيء، فهو أبلغ في الكرامة وأظهر في المعجزة.

الوجه الثالث: طواف سليمان، عليه السلام، على مائة امرأة في ليلة واحدة يحتمل معنيين (أحدهما) أن يكون الليل في ذلك الزمان طويلاً متناهياً في الطول، حتى كان يتأني له فيه من أجل طوله أن يجامع مائة امرأة مع طهوره وتهجدته ونومه. فإن حملناه على هذا الوجه فيكون قول النبي ﷺ (لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان)<sup>(٣)</sup> على ظاهر لفظه، ينقص من طول الأيام والليالي. وليس الحمل على هذا الوجه بالقوي، لأنه إذا كان كذلك قل أن يكون اليوم يبقى من طول الزمان شيء. وأما المعنى الثاني - وهو الأظهر - هو أن يكون الله، عز وجل، أظهر له في ذلك خرق العادة، فيجامع ويتطهر وينام ويقوم الليل في الطول على ما هو اليوم، مثل ما أظهر، عز وجل، من خرق العادة لأبيه داود، عليه السلام، في قراءة الزبور، وكان يقرأه بقدر ما تُسَرِّج له دابته.

.. يوجَدُ . . . كثيراً في الأولياء والصالحين، يفعلون بالليل وبالنهار أفعالاً لو اجتمع عليها أضعافهم لما قَدَرُوا عليها. يشهد لذلك ما حكى عن بعض الفضلاء أنه كان يأتي أهله بليل، ثم يتطهر ثم يقوم بربع القرآن، ثم كذلك، ثم كذلك، إلى أن يختم القرآن قبل طلوع الفجر. فلو اجتمع في هذا الفعل اثنان يقتسمانه بينهما، وطال فيه ليلهما قل أن يقدرأ عليه، مع أن هذا السيد الذي فعل هذا الفعل قد لا يخلو من النوم، إذ هو من ضرورة البشر. وقد حكى من هذا المعنى كثير عن بعض أهل الصوفة. فإذا كان هذا موجوداً في كرامات الأولياء، فكيف به في معجزات الأنبياء عليهم السلام؟ فإذا حملناه على هذا الوجه فيكون قول النبي ﷺ (لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان) محمولاً على المعنى، وليس على ظاهر لفظه. وقد زدنا هذا وضوحاً في الكلام على ذلك الحديث في موضعه من الكتاب.

(١) المعروف أنه كان يربط حجرتين، وقد تقدم ذلك تفصيلاً في مطلع هذا الكتاب.

(٢) قطعة من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أوله: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج . . .

(٣) قطعة من حديث رواه الإمام أحمد والبخاري وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأوله: لا تقوم الساعة حتى يُقبَضَ العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان إلخ. . . وقد روى نحو هذا المعنى الترمذي عن أنس والبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنهم جميعاً.

الوجه الرابع: قوله: (كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله) فيه دليل على إنواء الخير<sup>(١)</sup> والتسبب فيه، بشرط أن يكون ذلك السبب يصدر عنه في جري العادة في تلك الطاعة التي تُنوى، أو تكون بعض الاحتمالات التي صدر عن ذلك الفعل، لأن سليمان، عليه السلام، علق وجدان الفرسان بالوطء. والوطء قد يكون منه حَمْل وقد لا يكون. وإن كان، فقد يكون بالإناث دون الرجال، وقد يكون بهما معاً. وعلى أن يكون الحمل كله بالرجال قد يكونون ممن يطبقون الحرب ويحسنون الركوب، وقد يكونون بغير ذلك، إلى غير ذلك من الوجوه المحتملات. فإفراجه أحد الوجوه من المحتملات كلها وهو: أن يأتي الكل بأولاد ذكور، كلهم يجاهد في سبيل الله تقوية رجاء منه عليه السلام، وإبلاغ في حسن النية، لأنه قد تقرر أن (نية المؤمن أبلغ من عمله)<sup>(٢)</sup>.

فهو ينوي ما استطاع أن يعقد النية عليه، فإن قدر عليه فيها ونعمت، وإن عجز فقد حصل له أجر النية. وقد قال النبي ﷺ (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)<sup>(٣)</sup>. وكذلك فيما نحن بسبيله، سواء من أتى أهله لشهوة كان له ذلك، ومن أتاهن لإدخال السرور عليهن، ولكي يوصل لهن حقاً واجباً لهن عليه، ولكي يولد له مولود في الإسلام فيكثر المسلمون بنكاحه فله بحسب ما احتوت عليه نيته. ومنه قول عمر، رضي الله عنه (إنني لأتزوج النساء وما لي إليهن حاجة، وأطأهن وما لي إليهن شهوة. فقيل له: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: رجاء أن يخرج الله من ظهري من يكثر به محمد ﷺ الأمم يوم القيامة)<sup>(٤)</sup>.

وإنما قال عمر، رضي الله عنه، هذا لكي يُقْتَدَى به فيه، لأن انعقاد النية على هذا الحال من أفعال البر. وإظهار أفعال البر مع القدرة على إخفائها رياء، لكن لما أن عارضته مصلحة دينية أعظم له في الأجر من الإخفاء صَرَخَ بذلك. ومن هذا الباب كان إخبار سليمان، عليه السلام، لبيّتين لمن حضره ما هو المقصود بالجماع؟ ولأي شيء يراد؟ فعلى هذا فينبغي للمرء أن يحسن نيته ما استطاع، ويبالغ في ذلك جهده، ثم بعد إبلاغ الجهد يستسلم لله حين الفعل، فإن أراد، عز وجل، إمضاء ذلك أمدّه بالعون حتى يحصل للمرء ما نوى، وإن أراد غير ذلك فقد حصل له أجر النية.

ولأجل هذا المعنى أخذ أهل الصوفة في المبالغة في إنواء الخير<sup>(٥)</sup> من حيث هو خير، لا

(١) يريد: نية الخير وانتواءه.

(٢) ذكرنا سابقاً أنه رواه العسكري في الأمثال والبيهقي عن أنس مرفوعاً.

(٣) متفق عليه عن عمر رضي الله عنه.

(٤) يكثر الأمم: يغلبها في الكثرة.

(٥) أي: نية الخير.

يردّهم عن ذلك شيء، حتى لقد حكى عن بعض فضلائهم أنه كان مريضاً فدخل عليه بعض إخوانه فقال لهم: انشؤوا بنا حَجّاً، انشؤوا بنا رباطاً، وعدّد لهم أنواعاً من أفعال البر، فقالوا له: كيف وأنت على هذا الحال؟ فقال: إن عشنا وفئنا، وإن متنا حصل لنا أجر النية.

ولأجل حسن نياتهم وتبّعهم هذا المعنى، كان بعض فضلائهم إذا أتى الجماع الذي هو أعظم ما يكون من المملذوذات يأتيه وهو معتبر في الحكمة في ذلك الفعل على ما هو عليه، وما ينتج عنه، فلو كان إتيانه للشهوة لما صدر الاعتبار في ذلك الحال. فإذا كان هذا حالهم في النكاح الذي هو أعظم المملذوذات يرجع لهم بحسن نياتهم مما يتقربون به فكيف بهم في غيره من التصرفات؟

لكن بقي على هذا الفصل سؤال وهو أن يقال: قد تقرر أن العلماء أفضل من غيرهم، لقوله عليه السلام (ما طلب العلم في الجهاد إلا كبزقة في بحر) وقد قرّرتم أن سليمان، عليه السلام، إنما أراد إعظام النية، فكان الأولى على تلك القاعدة أن ينوي بهم أن يكونوا علماء؟ والجواب عنه: أن العلماء جُعِلوا لتقرير الأحكام وبيانها، والفرسان جُعِلوا لنصرة الدين وإعلاء الكلمة. فطلب سليمان ما هو المثبت للأصل، مع أنه لا ينافي أن يكون الفارس عالماً.

الوجه الخامس: قوله (فقال له صاحبه: إن شاء الله. فلم يقل: إن شاء الله) فيه دليل على الإرشاد لأهل الفضل بالتأدب والاحترام، لأن سليمان، عليه السلام، لما أن نسي الاستثناء فيما أراد فعله لم يأمره صاحبه بالاستثناء، وإنما تكلم بذلك حكاية لكي يتنبه سليمان، عليه السلام، للاستثناء، فيستثني؛ لأن الأمر لهم فيه شيء ما من قلة الاحترام. وإنما سكّت سليمان، عليه السلام، عن الاستثناء لكونه نسي، ولم يسمع صاحبه حين استثنى. وأما لو سمع أو لم ينس لاستثنى، لأن الاستثناء من باب تأدب العبودية مع الربوبية، والأنبياء، عليهم السلام، أعظم الناس في ذلك الشأن. ولكن لما أراد الله عزّ وجلّ غير ما إليه قصد أنساه أن يعلق ذلك بالمشيئة.

الوجه السادس: فيه دليل على تنبيه المفضول على الفاضل، وترك الهيبة له مع وجود الحق. فإن سليمان عليه السلام أفضل أهل زمانه، لأنه رسول، والرسول أفضل أهل زمانهم، لكن لما أن نسي الاستثناء لم يكن صاحبه ليسكت له على ذلك.

الوجه السابع: قوله عليه السلام: (والذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله عزّ وجلّ فرساناً أجمعون) فيه دليل على أن نجاح السعي المقطوع به أن يجمع المرء فيه بين الحقيقة وأدب الشريعة. فإذا فعل ذلك نجاح سعيه لا محالة، لأنه، عليه السلام، الصادق بغير يمين، فكيف باليمين؟ ولأن سليمان لما أن نسي الاستثناء، وهو الحقيقة - وقد حصل أدب الشريعة، وهو ما نوى من الخير والتسبب فيه، وهو النكاح مع قوة الرجاء في أحد المحتملات، كما

ذكرنا، ولم يتم<sup>(١)</sup> السعي لأجل نقص تعلق الأمر بالحقيقة. فعلى هذا فيحتاج المرء أن يحضر أدب الشريعة في الحال والماضي والمستقبل مع تحقيق التعلق بالوحدانية، والتوكل عليها، والاعتماد على الفضل والمن إن أراد نجح سعيه.

وقد نبه، عز وجل، على هذه الأحوال الثلاثة في كتابه فقال في الماضي ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾<sup>(٢)</sup> وقال في الحال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾<sup>(٣)</sup> وقال في المستقبل ﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾<sup>(٤)</sup> فهذه الأحوال الثلاثة من طريق الاعتقاد، ومن طريق التصرف في المحسوس على مقتضى الشريعة في الأمر الذي يكون التصرف فيه بصدق وتصديق. فمن وفق لذلك فقد كملت له دائرة السعادة ونجح سعيه في الدنيا والآخرة فيما أراد بمقتضى الآي وقسم الشارع عليه السلام. جعلنا الله ممن وفق لذلك بمنه.

وأما قوله، عليه السلام، (والذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله) يمينه، عليه السلام، تأكيد في الإبلاغ، لأنه هو الصادق بلا قسم، فكيف بالقسم؟ وإخباره، عليه السلام، بأنه لو قال: إن شاء الله، إثبات لتحقيق فائدة حكم الاستثناء في بلوغ آمال من استعملها كان له ما يرجوه من الفائدة فيما يتسبب فيه في المستقبل أو الحال.

وفيه من الفقه أن الأشياء لا تمشي إلا على ما اقتضتها حكمة الحكيم للرفع والوضيع، ومن أراد أمراً بخلاف ذلك لم يمش له ذلك. وفي ذلك زيادة للرسول، عليهم السلام، وتأكيد في حقهم، لأنهم الذين أرسلوا بالحكمة، وهم أهل الحقيقة.

ويترتب عليه من الفائدة النظر في العلم بما يحتاج المرء إليه في عمله قبل الدخول فيه. والله الموفق، والحمد لله رب العالمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) هذا جواب «الما».

(٢) سورة الكهف، من الآية ٢٤.

(٣) سورة الفاتحة، الآية ٥.

(٤) سورة الكهف، الآية ٢٣ ومن الآية ٢٤.



## حديث الشهادة بالطاعون

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (الطَّاعُونُ<sup>(١)</sup> شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ).

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن من مات من المسلمين بعلّة الطاعون مات شهيداً. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: من مات بالطاعون هل يلحق بالشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أم لا؟ أما في اشتراك الاسم فتعم، لأن النبي ﷺ عدّ الشهداء سبعة، وذكر فيهم: المطعون. وأما في تضعيف الأجر فهو متوقف على إخبار الشارع، عليه السلام، ولم يجيء عنه في ذلك شيء، وأعني في هذا الحديث، لأن تفضيل الشهداء بعضهم على بعض قد ورد في الكتاب والسنة. أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ<sup>(٢)</sup> فنص عز وجل على أن هذه الرتبة العليا إنما تكون للذين قتلوا في سبيل الله دون غيرهم من الشهداء.

(١) الطاعون: داء ورمي وبائي مُعْدٍ حادٌ يتسبب عن عدوى بميكروب (جرثوم) يسمى: باسيل الطاعون. والطاعون أصلاً مرض يصيب الحيوانات القارضة كالجرذان، وتنتقل عدواه بواسطة لدغ البراغيث التي تعيش متطفلة على هذه الحيوانات. وعندما تلدغ البراغيث فأراً مصاباً بالطاعون تمتص قليلاً من دمه المحتمل بميكروبات المرض وتصبح قادرة على نقل العدوى إلى فأر سليم أو إلى إنسان إذا لدغته. والطاعون الذي يصيب الإنسان يظهر في ثلاث صور: دُملي وتسممي ورتوي. ويبدأ في الأنواع الثلاثة بارتفاع درجة الحرارة مع صداع وإعياء شديدين، ثم تظهر أعراض تسممية كاحترقان الوجه والعينين وجفاف اللسان، ويبدو المريض قلقاً مدعوراً وينتابه هُوسٌ تعقبه غيبوبة قد تنتهي بالوفاة في أغلب الأحيان.

وللطاعون أنواع منه طاعون البقر وطاعون الخيل (ويسمى مرض النجمة) وطاعون الدجاج وطاعون الماشية وطاعون الطيور. وخير علاج لهذه الأنواع الحيوانية ذبح الحيوانات ثم إحراقها والتطهير الشامل لأماكن هذه الحيوانات المصابة.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٦٩ ومن الآية ١٧٠.

وأما السنة فقوله، عليه السلام (أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تأكل من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها، حتى يُرَدَّها الله إلى أجسادها يوم القيامة<sup>(١)</sup>)، وقوله عليه السلام فيهم أيضاً: (إنهم يأتون يوم القيامة وجرحهم يشعب دماً، اللون لون الدم، والريح ريح المسك)<sup>(٢)</sup> فبان بهذا أن للقتلى في سبيل الله فضلاً على غيرهم من سائر الشهداء.

الوجه الثاني: فيه دليل على أن الخير كله لأهل الإيمان، وإن كان ظاهر ما يجري عليهم ضده، لأن هذا الطاعون الذي كان بلاءً هو في نفسه رحمة للمؤمنين، إذ أنه سبب لموتهم على الشهادة. والشهادة أعلى المراتب على ما تقرر في الشريعة، ومثل ذلك أيضاً الغرق والهدم والحرق والتفاسد، إلى غير ذلك مما ورد في هذا المعنى، هو في ظاهره بلاء وهو في حقيقته رحمة.

الوجه الثالث: فيه دليل على فضل هذه الأمة على غيرها، لأن الطاعون كان بلاءً لغيرها وجُعِلَ شهادة لها، فينبغي لمن أصابه شيء منه أن يُسَرَّ به ويشكر عليه، لأن الشهادة قد حصلت له، وهي أعظم المراتب. ونعني بالشكر هنا أن يشكر على الشهادة التي حصلت له لا على البلاء. ولأجل هذا المعنى قال بعض الصحابة حين أُنفِذَتْ مقاتلته في الجهاد<sup>(٣)</sup>: فزت ورب الكعبة. لأن المنفوذ المقاتل مَيِّت، فسُرَّ لكونه مات شهيداً.

الوجه الرابع: فيه دليل على أن الخير إنما يكون بحسب قوة الإيمان، لأن ما كان قبل هذا بلاءً عاد بنفسه رحمة لهذه الأمة، لكونها أقوى إيماناً ممن تقدم. يدل على ذلك قوله تعالى في صفتهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾<sup>(٤)</sup> ثم قال أيضاً في حقهم ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾<sup>(٥)</sup> وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾<sup>(٦)</sup> أي عدولاً، فلاجل ما خصوا به من قوة الإيمان جعلت لهم هذه المدحة.

- (١) أرواح الشهداء في حواصل طير خضر إلخ. جاء في حديثين: الأول: عن ابن مسعود أنه سأل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فقال ﷺ: أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تَسْرَحُ من الجنة حيث شاءت. إلى آخر الحديث الذي رواه مسلم. والثاني: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَرُدُّ مِنْ ثَمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ معلقة في ظل العرش إلخ. رواه أبو داود وصححه الحاكم.
- (٢) رواه البخاري في الجهاد وفي الوضوء وفي الدبائح، ورواه مسلم في الإمارة عن أبي هريرة رضي الله عنه. ولفظه: لا يَكَلِّمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - والله أعلم بمن يَكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ - إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَرَحَهُ يَشْعَبُ، اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمَسْكِ. وَيَشْعَبُ: يسيل دماً.
- (٣) أُنْفِذَتْ مَقَاتِلُهُ: نفذت السهام القاتلة في جسمه فقتلته.
- (٤) سورة البقرة، من الآية ٣.
- (٥) سورة آل عمران، من الآية ١١٠.
- (٦) سورة البقرة، من الآية ١٤٣.

الوجه الخامس: فيه دليل على تحقيق قَسَم الشارع، عليه السلام، حيث قال (والله لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له)<sup>(١)</sup> لأن الطاعون من أعظم البلاء، وجعل بنفسه للمؤمن من أعلى الدرجات، وهي الشهادة، وكذلك جعل له البلاء كله سبباً لرحمته وأعلى لدرجته، حتى الشوكة يُشاكها يكفر بها من خطاياها.

الوجه السادس: فيه دليل على أن حقيقة الإيمان تتضمن الخوف والرجاء، لأن ما نحن بسبيله دليل واحد يتضمن الخوف والرجاء لأنه في ظاهره بلاء، فيقع الخوف عند نزوله لئلا يكون حقيقة، ويقع الرجاء في الوعد الجميل الذي نحن بسبيله فيقوى الرجاء بذلك. فإذا كان هذا في دليل واحد فكيف به في دلائل عدة؟ فالإيمان بحقيقته متضمنة يوجب الخوف والرجاء، ولذلك قال عليه السلام (لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاستويا)<sup>(٢)</sup>.

الوجه السابع: فيه دليل على أن شأن المؤمن أن يحسن ظنه بالله تعالى مطلقاً في دَقِّ الأمور وجِلِّها، ولا يلتفت إلى الأعراض، ولا يعبأ بها، لأن هذا محتمل لوجهين: إما بلاء أو رحمة، ولا يعلم حقيقة ما هو عند نزوله إلا الله، عز وجل. وكذلك كل الأمور لا يعلم حقيقتها إلا هو سبحانه. وقد نص، عز وجل، في كتابه على رأفته بالمؤمنين ورحمته بهم، وأن كل قضاء يقضيه لهم أو عليهم خير لهم فقال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> وقال عز وجل ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾<sup>(٤)</sup> فوجب بالوعد الجميل حسن الظن، ولا يلتفت إلى الأعراض وذواتها، وإنما يلتفت إلى الوعد الجميل. ولهذا قال تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾<sup>(٥)</sup> فلم يعلق، عز وجل، الاطمئنان بسبب من الأسباب، لأنها مظنة للتغير، وعلق الطمأنينة به، وهو الذي لا يتغير ولا يَحْتَمِل التغير.

الوجه الثامن: فيه دليل على ضد هذا الوجه وهو الخوف للمؤمن في هذه الدار، إذ إن أعلى المراتب - وهو الإيمان - لا يُؤْمَن معه من بلاء هذه الدار. وعند نزول البلاء صاحبه محتمل لأن يصبر فيحصل له ما وعد، أو لا يصبر فيخسر الدارين. نعوذ بالله من ذلك. وقد وقع مثل هذا في زمان النبي ﷺ وبحضرته، وهو ما روي أن بعض المسلمين كان يقاتل العدو بين يدي النبي ﷺ وأحسن

(١) سبق تخريجه في الحديث ١٢٣.

(٢) أورده الفتني في تذكرة الموضوعات والقالي في الأسرار المرفوعة وابن عراق في تنزيه الشريعة والسيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة بلفظ: لو وَزَنَ خوف المؤمن ورجاؤه كانا سواء، وفي رواية: لا اعتدلا.

(٣) سورة البقرة، من الآية ٢١٦.

(٤) سورة الأحزاب، من الآية ٤٣.

(٥) سورة الرعد، من الآية ٢٨.

في القتال، فتعجبت الصحابة، رضوان الله عليهم، من شدته في القتال ونهضته، فذكروا للنبي ﷺ أمره، فأخبرهم أنه من أهل النار<sup>(١)</sup>، فتعجبوا من ذلك، فراقبه بعضهم واتبع أثره، فرآه قد تنفّل بالجراح، فلم يصبر، فقتل نفسه بيده. ولهذا كان عليه السلام يقول (لا تمنّوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)<sup>(٢)</sup>.

الوجه التاسع: فيه دليل لأهل السنة حيث يقولون بأن العادة لا تؤثر بنفسها، لأن هذا كان بلاء لمن تقدم، ثم عاد بنفسه وصفته رحمة لهذه الأمة.

الوجه العاشر: فيه دليل لأهل السنة حيث يقولون بأن قدرة الله تعالى لا تحصر بالعقل، لأن هذا كان بلاء بنفسه وعاد رحمة بنفسه، وحالته واحدة لم تتغير. ولهذا قال بعض الفضلاء في تنزيه القدرة

أَبْدَى وَأَخْفَى لُطْفُهُ فِي قَهْرِهِ      فَعَطَاؤُهُ فِي مَنَعِهِ مُتَكَبِّرُهُ

الوجه الحادي عشر: فيه دليل على اتفاق حكمة الحكيم، لأنه لما أن جعل، عز وجل، هذه الدار للتغيير جعل كل ما فيها مظنة للتغيير مثل هذا وما أشبهه، ولما أن جعل، عز وجل، الآخرة للبقاء جعل كل ما فيها باقياً لا يتغير من خير وضده.

الوجه الثاني عشر: فيه دليل لأهل التحقيق الذين يرون بدوام الافتقار، ولا يعمّلون على ما يظهر لهم من مبادئ الأمور، لأن هذا وافق ظاهره باطنه مرة، وخالف ظاهره باطنه مرة أخرى. وكل الأمور مثله في هذا المعنى، فلما شاهدوا من عدم إدراكهم لحقيقة الأمور سلّموا لله تعالى في كل قضائه، وافتقروا إليه في كل حركة وسكون لجهلهم بعاقبة الأمور، ولعلمه بها وبهم وبما يريد عليهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾<sup>(٣)</sup>. ولهذا كان، عليه السلام، يعلم الصحابة، رضوان الله عليهم، دعاء الاستخارة كما يعلمهم السورة من القرآن، لأجل أن الأمور قد تكون بمقتضى ما يدل عليه ظاهرها، وقد تكون بمقتضى ضده كما هي فيما نحن بسبيله.

الوجه الثالث عشر: فيه دليل للخائفين من السابقة، لأنه لولا أن السابقة قد سبقت بأن هذا يكون علماً على السعادة وعلى ضدها - وهو على صورة واحدة لا يتبدل - لما كان كذلك. وكذلك

(١) مروي بالمعنى. والحديث رواه البخاري في الجهاد باب إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وفي المغازي باب غزوة خيبر، وفي القدر باب العمل في الخواتيم، ورواه مسلم في الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سورة الملوك، الآية ١٤.

كل ما في الأمور من التغيير والتبديل والتحسين والتقبيح . كل ذلك بما قد سبق في الإرادة الأزلية ، فوجب الخوف من السابقة لأجل هذا المعنى .

الوجه الرابع عشر : فيه دليل للخائفين من العاقبة الذين لا ينظرون إلا إليها ، ولا يلتفتون للحال ، لأن هذا مبدؤه بلاء ، وقد تكون عاقبته مثله أو ضده ، وكل الأمور مثله ، فوجب الخوف من العاقبة لأجل هذا المعنى .

الوجه الخامس عشر : فيه دليل للزاهدين إذ إن الأشياء بذواتها يتغير المقصود فيها . والزهد مندوب لذاته . فأخذ ما هو مندوب لذاته أولى من أخذ ما هو ممكن لأن يحصل به المراد أو لا يحصل ، وأقل ما فيه من التغييرات أن صاحبه يبقى متوقفاً لا يدري هل يحصل له ما قصد أو لا يحصل ؟ .

الوجه السادس عشر : فيه دليل لأهل الصوفة الذين لا يلتفتون للأسباب إلا من جهة الامثال ، ويتعلقون بمسببها ، إذ إن الأمور تبقى على صورتها والحقائق فيها مختلفة كما هو هذا ، كان بلاء ثم عاد رحمة ، والصفة واحدة لم تتغير .

الوجه السابع عشر : فيه دليل على فصاحة النبي ﷺ وبلاغته ، لأنه أتى بلفظ واحد يدل على معاني كثيرة متساوية ومتضادة كما تقدم .

الوجه الثامن عشر : فيه دليل على عظيم قدرة الله تعالى ، إذ الشيء الواحد يفهم منه أشياء متعددة متساوية ومتضادة كما تقدم ، وذلك مختلف في الناس بحسب ما يسر الله لهم من الفهم . فبعضهم لا يفهم منه إلا التلاوة لا غير ، وبعضهم يفهم منه وجهاً من الخوف ليس إلا ، وبعضهم يفهم وجهاً من الرجاء ليس إلا ، وبعضهم يفهم بعض المعاني المذكورة على انفرادها ليس إلا ، وبعضهم يفهم منه معنيين ليس إلا ، وبعضهم يزيد على ذلك إلى عدد يطول وصفه هنا . وكل واحد يتوهم أنه لا يفهم من هذا غير هذا ، وبعضهم يرى أن فهمه فيما فتح به عليه باجتهاده وحسن نظره فيحصل له به اغترار واستدراج ، وهذا هالك وبالله أستعيد . وبعضهم يرى ذلك فتحاً عليه ليس إلا ، وهذا باب من أبواب الخير الممدوحة ، وبعضهم يراه فتحاً عليه ويرى رؤية الفتح منة أخرى عليه .

ومن وقف هنا وقف على باب من الخير عظيم . فإن استرسل في تدقيق النظر حتى تخلى التخلّي الكلّي دون حظ من إبقاء البشرية بما يوفي أثر التكليف ومقتضى الحكمة فذلك بحر مخوف ، وإن أبقى عليه هناك طرفاً من البشرية لتوفية حد التكليف ، ولإعظام حكمة الحكيم والأخذ بها ، فهذا قد جمع الكمال لجمعه بين تعظيم قدرة القدير ومقتضى حكمة الحكيم ، فقد سبغ هذا في بحر النعم ، وخلع عليه خلج القرب والإفضال . فسبحان من هزّ بريح آثار قدرته أغصان قلوب عباده ، فمنهم متواضع بالافتقار ، ومنهم رافع بالخوف والإعظام ، ومنهم متقلب بين هذه الأطوار ،

ولا نهاية في تحديد هذه الأطوار إلا إدراك قدرة الملك الجبار . وإنما هذه إشارة للفظن يستدل على عظيم قدرة القدير . يشهد لما قررناه قوله ، عليه السلام (إنما أنا قاسم والله يُعطي) (١) . فاللفظ واحد والأفهام مختلفة ، والخطاب منفرد والأحوال متفرقة .

يبين هذا ويزيده إيضاحاً قوله عليه السلام (قلب المؤمن أشد ثقلًا من القدر إذا اجتمعت غلياناً) (٢) فمرة تحركه رياح الخوف ، ومرة تحركه رياح الرجاء ، ومرة تحركه رياح الشوق ، ومرة تحركه رياح القلق ، ومرة تحركه رياح اللجأ ، إلى غير ذلك من الرياح المثيرة لكل خير جميل ، ثم يتداخل بعضها على بعض . وحقيقة الإيمان توجب ثقل القلب ابتداءً من غير أن تهزه هذه الرياح ، لأجل ما يتبين له ما هو فيه من عظيم الافتقار إذا نظر بعين الاعتبار في صنع الحكيم ذي المن والإفضال ، فكيف به إذا هزته تلك الرياح المثيرة لما تقدم من الخير العظيم ؟ .

جعلنا الله ممن أجزل له من ذلك أفضل نصيب ، وأسعده به في الدنيا والآخرة إنه ولي كريم .  
وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .

## الكُتُبُ الدَّارَةُ التَّوْفِيقِيَّةُ الْأَجْزَلُ هِزَّةً

(١) رواه البخاري ومسلم عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ومطلعه : من يرد الله به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدين . . . إلخ .

(٢) رواه الإمام أحمد والحاكم من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه .

## حديث حفر الخندق في غزوة الأحزاب

عَنِ الْبَرَاءِ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ<sup>(٢)</sup> يَنْقُلُ التُّرَابَ، وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْنَا، وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قَيْنَا، إِنَّ الْأَلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا، إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على التحصن من العدو، والحذر منه، وأخذ الأهبة لقتاله. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: فيه دليل على أن الإمام ينزل للخدمة مع أصحابه إذا كانوا في أمور الحرب وإعانتهم فيما هم بسبيله، لأن النبي ﷺ نزل للخدمة مع أصحابه وأعانهم على ما كانوا بسبيله.

الوجه الثاني: فيه دليل على تواضع النبي ﷺ وحُسن خُلُقِهِ، إذ إنه في الفضل حيث هو، ومع ذلك الفضل العظيم كان ينقل التراب مع أصحابه كأنه واحد منهم.

الوجه الثالث: قوله (وقد وارى التراب بياض بطنه) فيه دليل على أن البطن ليس بعورة، لأنه لو كان عورة لما ظهر من النبي ﷺ للغير.

(١) تقدمت ترجمته في الحديثين ٦٦ و ٩٢.

(٢) يوم الأحزاب، هو في التاريخ غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب. وسبب هذه الغزوة أن حُيَّي بن أخطب بعد قتل بني النضير خرج إلى مكة يحرض قريشاً على حرب رسول الله ﷺ، وخرج كنانة بن الربيع يسعى في بني غطفان ويحرضهم على قتال رسول الله ﷺ، على أن لهم نصف ثمر خير، فأجابه عيينة بن حذيفة الفزاري إلى ذلك، وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد، فأقبل إليهم طلحة بن خويلد فيمن أطاعه، وخرج أبو سفيان بقریش فنزلوا بمَعَرِ الظهران، فجاءهم من أجابهم من بني سُليم مدداً لهم فصاروا في جمع عظيم، فهم الذين سماهم الله تعالى (الأحزاب). أما تفصيل أحداث هذه الغزوة فتجدها في سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، والبخاري (المغازي) ومسلم (الجهاد) وجوامع السيرة لابن حزم والمغازي للواقدي.

الوجه الرابع: فيه دليل على أن التسمير حين الخدمة سنة، لأنه لولا أن النبي ﷺ كان منشغراً لذلك لما ظهر بطنه.

الوجه الخامس: قوله عليه السلام (لولا أنت ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا) فيه دليل على أن الرّجَز في الدعاء جائز إذا كان غير مقصود، لأن النبي ﷺ دعا به ولم يقصده.

وفيه دليل على أن أفعال الخير تُنسب إلى الله تعالى، وإن كان العبد هو المتسبب فيها، لأن المولى، جلّ جلاله، هو المُنعم بها. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (لولا أنت ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا).

الوجه السادس: فيه دليل على الاجتهاد في امثال الحكمة والتوحيد المحض، برد الأمر إلى الله تعالى بعد إبلاغ الجهد في العمل، لأنه، عليه السلام، أبلغ في العمل واجتهد فيه، فحفر وحمل التراب، وأمر أصحابه، رضوان الله عليهم، بذلك، مع أنه، عليه السلام، يعلم أنه منصور مؤيد، لكنه امتثل للحكمة وأبلغ فيها، ثم بعد ذلك ردّ الأمر إلى الله تعالى، وأقرّ أن ذلك ليس بيده. وهو التوحيد المحض.

وعلى هذا الأسلوب كانت أفعاله عليه السلام، يدخل أولاً في الفعل امتثالاً للحكمة ويستعين بالله عليه، ثم بعد الفراغ يتبرأ منه، ويرد كل ذلك إلى الله تعالى، مثل خروجه عليه السلام إلى الحج والغزو، واستعانته عند الخروج، وتوبته عند الرجوع. وقد أبدينا معنى ذلك في غير ما حديث.

الوجه السابع: قوله عليه السلام (فأنزل السكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا) يرد عليه سؤال وهو أن يقال: السكينة معناها: الثبوت عند نزول الأمر، وثبت الأقدام معناه ذلك، فلم يطلبها معاً وهما لمعنى واحد؟ (والجواب) أن السكينة ليست كالثبوت في المعنى، لأن السكينة تُحتاج عند نزول الحوادث، فيتوقف عند نزولها ويتدبر في الواقع وما مقتضى الحكمة فيه بالعقل ولسان العلم. وتثبيت الأقدام إنما يحتاج إليه عند القتال والمقابلة، فطلب، عليه السلام، السكينة فيما دون الحرب للمعنى الذي ذكرناه، وطلب تثبيت الأقدام حين المقابلة، إذ هو المقصود في الحرب.

الوجه الثامن: قوله، عليه السلام (إن الألى قد بغوا علينا) الألى بمعنى: أولئك، لكن بينهما فرق، وهو أن (أولئك) تستعمل للبعيد، و(الآلى) تستعمل للقريب، فذكر ما هو مستعمل للقريب لكون العدو كان قريباً من المدينة القرب الكلي حتى كأنه حاضر معهم<sup>(١)</sup>. وبَغَوْا بمعنى: طَغَوْا. أي إنهم طغوا حتى أتوا لقتالنا.

(١) الألى: جمع لا واحد له من لفظه. قال الجوهري: واحده (ذا) للمذكر و(ذه) للمؤنث، ويُمدُّ ويُقصر. و(آلى) بوزن (علا) فهو أيضاً جمع لا واحد له من لفظه، واحده: الذي. والآلى بمعنى: الذين. قال في التهذيب: إن الآ والآء نقلتا من أسماء الإشارة إلى معنى الذين (اللسان: أولى).



وقوله عليه السلام (إذا أرادوا فتنة أئبنا) يريد: ثم مع طغيانهم وكثرتهم وطلبهم المقاتلة إذا أرادوا الفتنة في الدين لم نتركهم بل نأخذ في قتالهم.

وفيه دليل على أن الإنسان يسمى حاجته عند الدعاء، لأنه، عليه السلام، ذكر ما أراد وعيَّنه. فإن قال قائل: كيف يحتاج إلى التعيين والله، عزَّ وجلَّ، أعلم بذلك من صاحبه؟ قيل له: تسمية الحاجة وتعيينها هي السنَّة ومقتضى الحكمة، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾<sup>(١)</sup> وهو، عزَّ وجلَّ، العالم بكل الأمور على ما هي عليه قبل كونها، وعند كونها على حدٍّ واحد. لكن العلم هنا وفي كل موضع أتى على نحو العلم الذي يقع عليه الجزاء بمقتضى الحكمة في التكليف والنقل والشهادة.

وفي الحديث إشارة معنوية، وهو أنه إذا كان القدر من التحصن في الجهاد الأصغر على ما سماه، عليه السلام، حيث قال (هبطتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس)<sup>(٢)</sup>، فمن باب أولى التحصن في الجهاد الأكبر.

وطريقه كما قال أهل التحقيق: أن تجعل بينك وبين الشهوات خندقاً وسوراً، فإن تَرَكَ الشهوات: قرعُ الباب، وخلعُ العذار<sup>(٣)</sup> في التنافس في القرب، وتصحيحُ الحال بحقيقة الافتقار، وتركُ الحظوظ، فإن تَرَكَ الحظوظ رفعُ الحجب، وإشغالُ القلب بالتعلق بالوحدانية، حتى يغطي ترابُ القرب بطنَ الافتقار، ويعلنَ لسان حال السر بالنطق بالإخلاص، فيتسابقان في تناهي أحوالهما، كلُّ منهما بمقتضى موضوعه. فهذا قد خلَعَ العذار حتى أبدى ما كان أخفى، وهذا بذلَّ المجهود حتى وارى الترابُ ما كان الثوبُ قد وارى. فهناك كَمُلُ الحال، وعزُّ المقال، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء.

وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤٢.

(٢) تقدم الكلام عنه قبل عدة صفحات.

(٣) خلَعَ العذار في الأصل: ترك الحياء. والمراد هنا: الجرأة على قرع باب الله ودعائه والتوسل إليه والطلب منه دون خجل أو استحياء أو تقليل.

## حديث فضل الصيام في الجهاد

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَعَدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن هذا الثواب المذكور فيه للصائم في جهاد العدو، وإن كان يحتمل وجوهاً كثيرة، لكن هذا هو ظاهره بالنص والضمن. لكن له معارض وهو قوله، عليه السلام (فاز المفطرون اليوم بالأجر)<sup>(٢)</sup> قال ذلك في غزوة كان بعض الصحابة فيها صائماً وبعضهم مفطراً. فسار يوماً فلم يقدر المفطرون على التصرف حين الوصول، وأتى المفطرون عند النزول فضربوا الخيام، واستقوا الماء، وقاموا بضرورات إخوانهم، فقال، عليه السلام، عند ذلك (فاز المفطرون اليوم بالأجر). والجمع بينهما هو أن من كان فيه أهلية للصوم وتوفية ضروراته، مع القدرة على ذب العدو وقتاله، دون نَصَبٍ يلحقه حتى ينقصه عن هذا الحال، فهو الفائز بالأجر على مقتضى الحديث. ومن لم يطق ذلك فليأخذ بالحديث الثاني، فهو أفضل له - أعني الفطر.

وقد يحتمل أن يكون الحديث على العموم، فيكون في سبيل البر كلها، كما ذهب إليه بعض الصحابة حين لقي أحد أصحابه وهو عامد إلى المسجد للصلاة، وقد اغبرت قدماء بغبار الطريق، فقال له: شهدت على رسول الله ﷺ أنه قال (ما اغبرت قدما رجل في سبيل الله إلا حرمت عليه النار)<sup>(٣)</sup>، فقال له صاحبه: ذلك خاص بالقتال في سبيل الله؟ فقال: (لا، بل في كل أفعال البر).

والكلام على الحديث من وجهين:

- 
- (١) سلفت ترجمته في الحديثين ٤٨ و ٨٥ .  
 (٢) قطعة من حديث رواه الشيخان عن أنس رضي الله عنه بلفظ: ذهب المفطرون اليوم بالأجر .  
 (٣) رواه أصحاب السنن الأربعة عن مالك بن عبدالله الخثعمي رضي الله عنه .

الوجه الأول: قوله عليه السلام، (بعد الله وجهه عن النار) الوجه هنا عبارة عن الذات، أي بعد الله ذاته عن النار، لأن العرب تقول: وجه الطريق، وهي تريد عينه وذاته، ولا يسوغ فيه غير ذلك. لأنه لو كان الوجه هنا على ظاهره لم تحصل الراحة بذلك، إذا كان البدن في النار والوجه مصروفاً عنها، ومُحال أن يخبر النبي ﷺ بعدم حصول الراحة على فعلٍ من أفعال القرب.

الوجه الثاني: قوله (سبعين خريفاً) يحتمل ثلاثة أوجه:

(الوجه الأول) أن يحمل على ظاهره، وليس بالقوي. إذ إنه لو كان فاعل ذلك يبقى سبعين خريفاً ثم يعود إلى النار لم تحصل بذلك راحة، لأن الله، عز وجل، يقول: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ ﴾<sup>(١)</sup>. وكذلك هذا المذكور إذ إنه لو كان ممن يبقى سبعين سنة، ثم يعود إلى النار، فكانه لم ير خيراً ولا نعيماً قط.

(الوجه الثاني) هو أنه قد يكون، عليه السلام، كنى عن كثرة الأجر بالبعد عن النار توسعة. يشهد لها قوله، عليه السلام، (اتَّقُوا النار ولو بشقِّ تمرَةٍ)<sup>(٢)</sup>، فإذا كان شق تمرَةٍ بقي من النار فكيف بهذه المجاهدة العظيمة؟ فالحاصل من هذا أنه أخبر بعظم أجره بكناية بعد النار عنه.

(الوجه الثالث) وهو الأظهر، والله أعلم، أنه كنى بالسبعين على أن فاعل ذلك لا يدخل النار أبداً، لأن العادة عند العرب أنها تطلق السبعين لكثرة العدد الذي لا يتناهى، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾<sup>(٣)</sup> فقال عليه السلام،: (لأزيدنَّ على السبعين ما لم أُنَّه)<sup>(٤)</sup>، فأخذ عليه السلام، بظاهر اللفظ شفقة منه ورحمة، ولم ينظر إلى عادة العرب في ذلك، فأنزل عز وجل ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾<sup>(٥)</sup> فعلم بالبيان آخر أن هذا كان المقصود أولاً.

وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

(١) سورة الشعراء، من الآية ٢٠٥ إلى ٢٠٧.

(٢) رواه الشيخان من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٣) سورة التوبة، من الآية ٨٠.

(٤) ارجع إلى تفسير قوله تعالى ﴿ أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ في فتح

الباري والحديث رقم ٤٦٧٠ ورقم ٤٦٧١ ففيه تفصيل شاف عن الموضوع.

(٥) سورة المنافقون، من الآية ٦.

## حديث من أعان غازياً فله مثل أجره

عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ جَهَّزَ غَازِيًّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَّفَ غَازِيًّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا).

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن من جهز غازياً في سبيل الله، وخلفه بخير، فله من الثواب والأجر مثل ما للغازي. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: هل هذا الثواب مقصور على من جهز غازياً لم يستطع الجهاد وعجز عنه، أو هو عام في المستطيع وغيره؟ يحتمل الوجهين معاً. لكن الأظهر أنه على العموم، وهو مثل قوله عليه السلام، (مَنْ فَطَّرَ صَائِماً فَلَهُ أَجْرُ صَائِمٍ)<sup>(٢)</sup> وهو عام في القادر على الفطر وغيره، ولأنه قد يكون ممن يقدر على الجهاد لكن يمنعه الشح على ماله، فإذا وجد من يجهزه خرج. وكذلك أيضاً الكلام على من خلفه بخير. ومعناه أنه يخلفه في توفية ما يلزمه من الوظائف مثل النفقة على عياله وما أشبهها ما دام الغازي في الجهاد.

الوجه الثاني: هل من أعان غازياً له مثلما لو جهَّزه أم لا؟ ظاهر اللفظ يفيد: أن لا، إلا أن يكون هو المحتمل لجهازه كله. فإن فعل بعضاً وترك بعضاً كان له الأجر على المعروف الذي فعل، ولم يكن له هذا الثواب المذكور. وكذلك أيضاً الكلام على من خلفه بخير، وهو أيضاً مثل إفطار الصائم في المعنى، لأنه معلوم أن إفطار الصائم لا يراد به إلا إزالة حاجته إلى الطعام والشراب

(١) زيد بن خالد الحصري الصحابي، سكن المدينة، وشهد الحديبية، وكان معه لواء جهينة حين الفتح، روي له (٨١) حديثاً، اتفق الشيخان منها على خمسة. روى عنه بعض الصحابة والتابعين. اختلف في عام وفاته وموطن دفنه فقيل في المدينة، وقيل في الكوفة. وقيل في مصر عام ٥٠ أو ٧٢ أو ٨٠ للهجرة. والله أعلم (من التهذيب).

(٢) رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: من فطر صائماً فله مثل أجره. وقد ورد هذا الحديث بطرق مختلفة وبألفاظ مختلفة وتتفق جميعها في المعنى.

ليذهب ما به من عناء وظماً . فلإذهاب الظماً والعناء كان له مثل أجر من تحمله . فإذا فطره بشيء ما مثل التمرة وغيرها فليس المراد ذلك ، وإنما المراد ما ذكرناه . نعم لا يخلو من الأجر في تمرته لقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾<sup>(١)</sup> ، وكذلك فيما نحن بسبيله سواء ، لا يخلو المعين للغازي من الأجر على معرفته ، وأما أن يكون له أجر غاز فاللفظ لا يعطيه .

الوجه الثالث : هل من جهاز غازياً على الكمال وخلفه بخير في أهله هل له أجر غازيين أو غازٍ واحد؟ ظاهر اللفظ يفيد أن له أجرَ غازيين ، لأنه ، عليه السلام ، جعل كل فعل مستقلاً بنفسه غير مرتبط بغيره ، فقال (من جهاز غازياً في سبيل الله ، عزَّ وجلَّ ، فقد غزا) ، فقد حصل أجر الغازي لصاحب هذا الفعل ، ثم قال بعد ذلك (ومن خلف غازياً في سبيل الله بخير فقد غزا) ، فحصل للآخر أيضاً مثلما حصل للأول ، وهذا فضل من الله ورحمة .

الوجه الرابع : هل جميع أفعال الطاعات من أعان عليها كان له مثلها أو ليس؟ فإن قلنا بأن الحديث تنبيه بالأعلى على الأدنى لقوله ، عليه السلام (ما أعمال البر في الجهاد إلا كبزقة في بحر) فهو كذلك . وإن قلنا بأن هذا خاص بالجهاد للترغيب فيه لما فيه من التعب والمشاق فقد يرجى ذلك من طريق آخر لقوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾<sup>(٢)</sup> ولقوله عليه السلام ، (الدال على الخير كفاعله)<sup>(٣)</sup> . فإذا كان الدال عليه مثله فكيف المعين عليه حسناً والآي والأحاديث في هذا المعنى كثيرة . فقد كثرت الدلائل ، فهل من عامل؟ أعاننا الله على ذلك وجعلنا من أهله بمنته .

وصلَّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .

(١) سورة الزلزلة ، الآية ٧ .

(٢) سورة المائدة ، من الآية ٢ .

(٣) رواه الإمام أحمد والضياء في المختارة وابن أبي الدنيا عن أنس وبريدة ورواه البزار عن ابن مسعود ، ورواه الطبراني عن سهل بن سعد ، ورواه مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنهم بلفظ : من دل على خير فله مثل أجر فاعله .

## حديث اقتناء الخيل في سبيل الله تعالى

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ احْتَبَسَ فَرَساً فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِيْمَاناً بِاللَّهِ وَتَصَدِيقاً بِوَعْدِهِ، فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيَّةً وَرَوْثَةً وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

✽ ✽ ✽

ظاهر الحديث يدل على أن من احتبس فرساً في سبيل الله، إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فكل أكل الفرس وتصرفه حسنات وأجور في ميزان صاحبه يوم القيامة. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله، عليه السلام (من احتبس فرساً في سبيل الله) يريد: من حبسه بنية جهاد العدو، ولا يريد غير ذلك. (وفيه دليل) على تأكيد النية في احتباسه لذلك، لأنه أتى فيه بلفظ (احتبس) التي هي من أبنية المبالغة كافتعل، ولم يقل (حبس) إشارة منه، عليه السلام، إلى تأكيد النية في هذا الفعل وإزالة الشوائب عنها.

والمعنى في ذلك: أن الفرس من جملة الزينة والترفيه، ومما جبلت النفس على محبة ركوبه والتصرف عليه، ومما يتفاخر الناس به ويتباهون، وفيه أشياء عديدة في هذا المعنى. فلما أن كان في حبسه هذه الوجوه فقد أشار عليه السلام، إلى إخلاص النية، إذا قصد به الوجه الذي أراد عليه السلام، خشية أن يظن المرء أن فعله ذلك لله، وليس له ذلك، لما يطرأ عليه من الشوائب في نيته.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام، (إيماناً بالله وتصديقاً بوعده) الإيمان بالله تعالى هو التصديق والتحقق بوجود الله، وينوي بفعله ذلك لله لا لغيره. والتصديق هو أن يصدق فاعل ذلك لما سمع عن الله من إحسانه وإنجاز وعده الجميل على ذلك الفعل، لا يشك فيه إن حصل منه الفعل على مراد الشارع، عليه السلام.

الوجه الثالث: قوله عليه السلام، (فإن شبعه وريَّةً ورَوْثَةً وبَوْلَهُ في ميزانه يوم القيامة) معناه: أن كل ذلك يكون له يوم القيامة حسنات في ميزانه زيادة على العمل، وهو حبس الفرس. وقد جاء في حديث غير هذا على ما يأتي بعد (ولو أنها استنَّت شرفاً أو شرفين كان ذلك في ميزانه يوم

القيامة<sup>(١)</sup>. والمعنى في ذلك أن هذا الذي احتبس فرساً في سبيل الله قد حصل له الأجر على فعله ذلك، وبقي إطعامه والنظر في مصالحه فعل زائد<sup>(٢)</sup> على الاحتباس، فكان له ذلك الأجر المذكور لأجل هذه الطاعة الثانية التي فعل، لقوله تعالى ﴿جَزَاءً وَفَاءً﴾<sup>(٣)</sup> تفضلاً منه، عزَّ وجلَّ، على عباده وتعطفاً.

الوجه الرابع: فيه دليل لأهل السنة في تحقيق الميزان يوم القيامة، وهو موجود هناك محسوس على صورة الميزان المعهود هنا، لأن النبي ﷺ أخبر أن كل ما ذكر عن الفرس يكون في ميزان صاحبه يوم القيامة. ولا يقع الخطاب إلا على ما يعرف هنا، ويعهد مثله هناك، لكن بينهما فرق وهو أن صفة الوزن عكس الوزن في الدنيا. فإن الثقل يصعد إلى فوق، والخفيف ينزل إلى أسفل.

الوجه الخامس: فيه دليل لأهل السنة في قولهم بأن الحسنات توجد يوم القيامة جواهر محسوسات توزن وترجح، أكانت الحسنات هناك محسوسة أو معنوية؛ لأن ما ذكر، عليه السلام، (حسنات)، وقد أخبر أنها توزن يوم القيامة. لكن ثقل الحسنات هناك ورجحانها إنما يكون بحسن النية فيها، وعلى قدر حسن النية في العمل يكون ثقل الحسنات التي يثاب عليها. وبالنظر إلى هذا المعنى ترجع جميع الحسنات هناك معنوية، لأنه لا يكون قبول الحسنة إلا بتقديم النية، والنية من جملة المعاني. وقد زاد الشارع، عليه السلام، لهذا بياناً في حديث آخر حيث قال: (أوقع الله أجره على قدر نيته)<sup>(٤)</sup>، فكان ثقل الحسنة بحسب قوة المعنى.

الوجه السادس: فيه دليل على أن هذه الحسنات المذكورة في الحديث تقبل ولا يدخلها ما يدخل غيرها من باقي الحسنات، لأنه، عليه السلام، قال في هذه الحسنات إنها تكون في ميزان صاحبها يوم القيامة، ولا يكون في الميزان إلا ما قد قيل، والذي يدخل غيرها هو ما روي أن بعض الحسنات تُرد ولا تُقبل، وبعضها يأخذها المظلومون فيما بقي لهم من التبعات، وبعضها تقدم لصاحبها في هذه الدار، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾<sup>(٥)</sup> قال المفسرون: معناه أن يقدم له ثواب بعض حسناته في هذه الدار، فكان قوله، عليه السلام، (في ميزانه) تحضيض

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كذا، على تقدير ضمير الشأن، أي: بقي الشأن.

(٣) سورة النبأ، الآية ٢٦.

(٤) تقدم تخريجه قبل قليل، وذكرنا أن الإمام مالك والإمام أحمد وأبو داود والنسائي رواه وصححه ابن حبان

والحاكم في المستدرک عن جابر بن عتيك أن عبدالله بن ثابت تجهز للغزو فمات قبل خروجه، فقال رسول الله ﷺ: إن الله أوقع أجره على قدر نيته.

(٥) سورة البقرة، من الآية ٢٠١.

على كسب هذه الحسنات التي ذكر، إذ إنها يجدها صاحبها أحوج ما يكون إليها في ذلك الموضع،  
لأنه أحوج ما يكون العبد هناك.

الوجه السابع: هل الحديث مقصور على الفرس لا غير أو هو عام في كل ما يشبهه من أفعال  
البر؟ والكلام عليه كالكلام على الحديث المتقدم، يحتمل الوجهين. فقد يتعدى لغيره، وقد يكون  
مقصوراً على ما جاء به النص.

الوجه الثامن: فيه دليل على أن الأعمال تنقسم قسمين دنيوي وأخروي، والنية هي الفارقة  
بينهما. وقد يرجع ما هو للآخرة للدنيا، وقد يرجع ما هو للدنيا للآخرة بحسب النيات في ذلك، لأن  
الفرس مما يتخذ لما ذكرناه من الوجوه التي هي للدنيا وزينتها، وقد قال تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا  
وَزِينَةً﴾<sup>(١)</sup> فإذا صرفت النية فيه إلى الجهاد رجع للآخرة خالصاً، وكان فيه من الثواب ما تقدم  
ذكره، ثم كذلك بتلك النسبة في سائر الأعمال.

ومثال ذلك في الطرف الآخر طلب العلم الذي هو للآخرة، فإذا قصد به صاحبه التباهي  
والشهرة يقال له يوم القيامة: إنما فعلت ذلك ليقال فقد قيل. فهو أول من تُسَرَّ به النار يوم  
القيامة<sup>(٢)</sup>، على ما جاء في الصحيح، وإلى هذا المعنى أشار، عليه السلام، بقوله: (فمن كانت  
هجرتة إلى الله ورسوله فهجرتة إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرتة إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها  
فهجرتة إلى ما هاجر إليه)<sup>(٣)</sup>. فكذا في جميع الأعمال دُت أو جَلَّت.

وبهذا المعنى فضل أهل الصوفة غيرهم، لأنهم جعلوا كل تصرفاتهم لله وبالله، حتى إنهم لم  
يتركوا لأنفسهم فعلاً مباحاً، إلا أنهم يترددون بين واجب ومندوب. وأكّدوا الواجب بحسن النية فيه  
بالإيمان والاحتساب، وأخرجوا المباح إلى المندوب، لأنهم اتخذوه عوناً على الطاعة، وأحضروا  
النية في ذلك مع تكرار الأعمال والأنفاس، فَصَفَوْا حتى تسموا بالصفوة. وهو فضل الله يؤتيه من يشاء.  
وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) سورة النحل، من الآية ٨

(٢) هذا معنى لحديث طويل أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: أول الناس يدخل النار يوم  
القيامة ثلاثة نفر: يؤتى بالرجل فيقول: رب علمتني الكتاب فقرأته آناً الليل والنهار رجاء ثوابك، فيقال:  
كذبت، إنما كنت تصلي ليقال إنك قارئ تصلي وقد قيل، اذهبوا به إلى النار. ثم يؤتى بآخر فيقول: رب  
رزقني مالاً فوصلت به الرحم، وتصدقته به على المساكين، وحملت ابن السبيل رجاء ثوابك وجنتك. فيقال:  
كذبت، إنما كنت تتصدق وتصل ليقال إنه سمح جواد وقد قيل، اذهبوا به إلى النار.

ثم يجاء بالثالث فيقول: رب خرجت في سبيلك، فقاتلت فيك حتى قتلت مقبلاً غير مدبر، رجاء ثوابك  
وجنتك، فيقال: كذبت، إنما كنت تقاتل ليقال إنك جريء شجاع، وقد قيل، اذهبوا به إلى النار.

(٣) متفق عليه من حديث عمر رضي الله عنه وأوله: إنما الأعمال بالنيات



## حديث عدم الاتكال على العمل

عَنْ مُعَاذٍ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ رَدَفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ عُفِيرٌ. فَقَالَ: يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَكَلُّوا.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن المؤمنين المحققين لا يعذبون. والكلام عليه من وجوه:  
الوجه الأول: فيه دليل على تواضع النبي ﷺ وحسن خلقه، إذ إنه في الفضل حيث هو وكان يركب هو وغيره على دابة واحدة.  
الوجه الثاني: فيه دليل على جواز ركوب اثنين على دابة واحدة، إذا كانت مطيقة لذلك.  
الوجه الثالث: فيه دليل على أن صاحب الدابة أولى بمُقَدِّمِهَا، لأن هذه الدابة كانت للنبي ﷺ وكان في مقَدِّمِهَا.

(١) إضافة إلى ما ذكر في الحديث ٤٣ نقول: معاذ بن جبل، أبو عبد الرحمن، أنصاري خزرجي. أسلم ابن ثمانين عشرة سنة، وشهد العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وأخى ﷺ بينه وبين عبد الله بن مسعود.

في سنن النسائي وأبي داود: إنه ﷺ أخذ بيده وقال: والله إنني لأحبك وقال: يا معاذ، لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. وكان أعلم الصحابة بالحلال والحرام، وله حديث: إنه كان ردف النبي ﷺ فقال له: هل تدري يا معاذ ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ إلخ الحديث. وأرسله ﷺ إلى اليمن يدعو إلى الإسلام، كما كان يفتي الناس على عهد الرسول ﷺ. وهو إمام العلماء يوم القيامة. مات بطاعون عمواس بالشام سنة ١٨ هـ وعمره ٣٣ عاماً. رثاه ابن مسعود فقال: كان معاذ أمة كإبراهيم. (من التهذيب).

الوجه الرابع: فيه دليل على جواز تسمية الهامة، لأن هذه الدابة سميت بالغفير، وكذلك سميت الناقة أيضاً بالمغضباء.

الوجه الخامس: قوله عليه السلام (يا معاذ) فيه دليل على أن ترك التكني في الأسماء أفضل، وسيأتي لهذا زيادة بيان في حديث الإسراء - إن شاء الله تعالى - وقد تكرر التكنية بمصافاة الرجل لولده وما أشبه ذلك، لأن العرب كانت تكني بذلك، ولم يهمل النبي ﷺ، وقد دس، عليه السلام، علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، بأبي تراب، وإنما التكنية التي لا تهم هي ما أحدث اليوم من التسمية بـ (الدين)، فذلك لا يسوغ لأنه كذب، والكاذب منع من التسمية عليه من له عيب، وقد علم من قواعد الشرع وما جاء فيه بالنص، وإن كان ما قيل فيه حقاً، فأقل ما يكون منكراً، فإنه مخالفة السنة في ذلك.

يدل على ذلك ما رواه مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ خرج نحو يثرب رضي الله عنها، فوجد اسمها (بيرة) فكره ذلك الاسم، وقال ﴿فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾<sup>(١)</sup>، فأسماها (حويرة). ولو كانت الكناية بذلك سائغة لكان السلف، رضوان الله عليهم، أحق من يتسلفون بذلك، إذ إنهم شمس الهدى وأنوار الظلم، وبهم أقام الله دينه القويم.

الوجه السادس: فيه دليل على جواز الكلام على الدابة، لأن النبي ﷺ كلّم معاذاً وهو على الدابة.

الوجه السابع: فيه دليل على جواز كلام الرجل مع أخيه وهو مديبر عنه بوجهه إذا كان ذلك لضرورة، لأن النبي ﷺ كلّم معاذاً وهو غير مقابل له بوجهه لضرورة ركوبهما على الدابة معاً.

الوجه الثامن: فيه دليل على الاستفهام للمتعلم وإن كان يعلم أنه لا يعلم في ذلك شيئاً، لأن النبي ﷺ استفهم معاذاً فيما أراد أن يلقي إليه، وحينئذ ألقى إليه. والمعنى في ذلك أن المتعلم إذا استفهم ولم يكن له علم بما يُلقى إليه يصغي إذ ذاك لما يُقال ويأخذه بأهبة، فيكون أسرع في التعلم وأحد للذهن.

الوجه التاسع: قوله (الله ورسوله أعلم) يرد عليه سؤال، وهو أن يُقال: ما الحكمة في جوابه بقوله: الله ورسوله أعلم؟ والجواب من وجوه (الوجه الأول) أن يكون على طريق الأدب، كما قالت الصحابة، رضوان الله عليهم، حين سألهم النبي ﷺ أي بلد هذا؟<sup>(٢)</sup>. (الوجه الثاني) لعل أن يكون في الأمر زيادة. (الوجه الثالث) التبرك بسماعه من النبي ﷺ.

(١) سورة النجم، من الآية ٣٢.

(٢) كان ذلك في خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع.

ويترتب عليه من الفقه أن السؤال إذا كان محتملاً لما يعلمه الشخص فإن كان السائل له أرفع منه في العلم أو الحال ردّ بدل الجواب سؤالاً، ليحصل له بذلك زيادة علم أو بركة أو مجموعهما، وإن كان دونه يفصح له، لأنه طلب يدل على تعليم فيعلمه، ولا يحل له التجاهل، لأنه يدخل تحت (من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة). رواه أبو داود<sup>(١)</sup>.

الوجه العاشر: قوله، عليه السلام، (هل تدري ما حق الله على عباده، وما حق العباد على الله) حقّ الله على عباده وحقّ العباد على الله صفتان متغايرتان، فحقّ الله على عباده حقّ واجب حتم لا انفكاك للعباد عنه، وحقّ العباد على الله حقّ تفضل وامتنان، لا حقّ وجوب محتوم، لأن ذلك في حقه، جلّ جلاله، مستحيل.

وفيه دليل على أن الحق يُطلَق على ما كان من طريق الوجوب، وعلى ما كان من طريق التفضل، إذا علم المخاطب ذلك. ولا يجوز أن يُطلَق ذلك لمن لا يعلمه، لأن النبي ﷺ أخبر بذلك معاذاً لكونه كان عالماً بسياق الحديث وما المراد منه، لما تقرر عنده قبل من العلم الذي كان لديه، فأجمل له في الإخبار، ومنع، عليه السلام، الإخبار به للغير.

الوجه الحادي عشر: فيه دليل على أن الجهل بالحق لا يسقطه إذا عمل موجبه، لأن المؤمنين قد حصل لهم الحق بمقتضى ما أخبر بالعمل، ومنع، عليه السلام، إخبارهم بالحق الذي لهم.

الوجه الثاني عشر: فيه دليل لأهل السنة حيث يقولون بوجوب الإيمان قبل النظر والاستدلال، وأن النظر والاستدلال شرط كمال لا شرط صحة، لأنه قد صح لعامة المؤمنين هذا الحق المذكور في الحديث بمجرد الإيمان. ومعلوم أن عامة المؤمنين لم يكن إيمانهم بالنظر والاستدلال، إنما كان بالتسليم والاستسلام كما قال عمر، رضي الله عنه، (ديننا هذا دين العجائز) أي في العجز والاستسلام. فإذا حصل لهم الإيمان فقد حصل لهم ما وعدوا عليه، والعلم بعد ذلك بالدليل على المعبود أو بالعلم بالموعود على العمل لا ينقص مما قد تحصل من أحد المطلوبين شيئاً من إيمان أو عمل، بل ذلك زيادة فضيلة وتزوّج<sup>(٢)</sup>.

الوجه الثالث عشر: فيه دليل على أن زيادة العلم بعد القدر الذي يحتاج إليه العمل محتملة للزيادة والنقص، فإن كان المخبر به فيه أهلية كانت الزيادة في العلم له خيراً، وإن كان ليس فيه أهلية كانت الزيادة له نقصاً. يؤخذ ذلك من أنه عليه السلام، أخبر بما ذكر لمعاذ ومنعه من أن يخبر الغير به، لأن معاذاً صفته على ماتقدم.

(١) كما رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي وصححه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لعله يريد أن الإيمان بالله الواحد وملائكته وكتبه واليوم الآخر واجبة أولاً، أما البحث والاستدلال على وجود الله ووحدانيته والأمور الأخرى فتأتي تالية، وليست شرطاً واجباً، وإنما هي كمال وفضيلة.

الوجه الرابع عشر: فيه دليل لأهل الصوفة حيث يأخذون بالاجتهاد في الأعمال بالصدق والتصديق موافقة لما به أمروا، وإذعاناً لما عنه نُهوا، ولم يلتفتوا لما لهم في ذلك، لأن الأعمال بعد حصول الإيمان طريق النجاة على ما تقرر، والزيادة على ذلك كما تقدم محتملة للزيادة والنقص، فتركوا الاشتغال بما هو محتمل للزيادة والنقص، وأخذوا في الطريق المذكور الذي ليس فيه احتمال. فلما أن عملوا على ذلك وجدوا في طلبه فمن كان منهم فيه أهلية للزيادة يسر له أسباب الزيادة، وفتح عليه في ذلك بأيسر أمر وفي أقل زمان. ومن كان منهم ليس فيه أهلية للزيادة بقي على حاله ذلك حتى توفي عليه ولم يلحقه نقص عما أخذ بسبيله، لأن من العلم ما يكون سبباً للجهل. وقد صرح، عليه السلام، بذلك فقال (إن من العلم جهلاً) (١)

الوجه الخامس عشر: قوله (قلت: الله ورسوله أعلم) فيه دليل على رد الأمر إلى الله ورسوله فيما لا يعلم، والاعتراف بالتقصير بين يدي الله ورسوله، وكذلك بين يدي من أهله الله للخير، وخصه بالعلم الشرعي.

الوجه السادس عشر: قوله، عليه السلام (فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً) فيه وجوه:

(الأول) فيه دليل على التعليم قبل السؤال، لأنه عليه السلام، علم معاذاً ولم يقع من معاذ سؤال.

(الثاني) فيه دليل على جواز البحث في العلم في الطريق وعلى الدواب، هذا بشرط أن يكون الطريق ليس فيه اللغظ (٢) الكثير لأنه قل أن يتأتى التعلم مع كثرة اللغظ، لأن ما أخبر به، عليه السلام، لمعاذ في الطريق على الدابة من ذلك الباب.

(الثالث) فيه دليل على أن حق الله على عباده ما أشرنا إليه في الأحاديث المتقدمة، وهو الجمع بين امتثال الحكمة وحقيقة التوحيد، لأنه، عليه السلام، شرط ذلك هنا بقوله (حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً) فأشار عليه السلام بقوله (أن يعبدوه) إلى امتثال الحكمة في الأمر والنهي، وأشار بقوله (ولا يشركوا به شيئاً) إلى حقيقة التوحيد.

(الرابع) فيه دليل على أن من حصل له الجمع بين تينك الحالتين لا يعذب، لأنه، عليه

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب باب ما جاء في الشعر عن بريدة رضي الله عنه ولفظه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن من البيان سحراً، وإن من العلم جهلاً، وإن من الشعر حكماً، وإن من القول عيلاً. وقد ضعفه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء وكذلك قال السيوطي ووافقه المناوي.

(٢) اللغظ: الصوت والجلبة.

السلام، قال (وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً) ومن لا يشرك به شيئاً هو الذي أتى بتينك الحالتين المطلوبتين قبل. ومن اقتصر على إحداهما وترك الأخرى لم يتم له قَدَمٌ بعدُ في الإيمان، ولم يأت بما هو المطلوب منه على الكمال. وقد صرح الشارع، عليه السلام، بهذا المعنى حيث قال (الإيمان إيمانان: إيمان لا يدخل صاحبه النار، وإيمان لا يخلد صاحبه في النار)<sup>(١)</sup>. فالإيمان الذي لا يدخل صاحبه النار هو ما صرح، عليه السلام، به هنا، وهو من أتى به على الكمال فوفى ما به أمر، واجتهد فيه امتثالاً للحكمة وتحقيقاً للوحدانية، وأبلغ جهده. والإيمان الذي لا يخلد صاحبه في النار هو الناقص عن الكمال، الآخذ بطرف والتارك للآخر، والتارك لبعضهما على الجملة والعامل ببعضهما.

الوجه السابع عشر: قوله، عليه السلام، (لا تبشرهم فيتكلموا) إنما نهاه، عليه السلام، عن الإخبار به لأجل أن التوكل على ضربين: شرعي ولغوي. فمن لم يكن له علم بالتوكل عنده لغوي، وهو المعبر عنه عند أهل الشرع بالطمع.

والتوكل الشرعي هو التوكل على الله تعالى وتفويض الأمر إليه بعد بذل الجهد في امتثال أمره واجتناب نهيه، واللغوي هو الاتكال دون عمل. وإلى هذا التوكل أشار، عليه السلام، هنا، لأنه نهى أن يبشر بما أخبر به خيفة التوكل دون عمل. ومعلوم أن التوكل على الوجه المتقدم ذكره، الذي معه العمل خير عظيم لهم، ومرتبة عليا في حقهم. فلو كان يحدث لهم بذلك الإخبار هذا التوكلُ لكان الإخبار لهم بذلك من أكد الأمور، إذ إنه زيادة لهم في الهدى والترقي. ولكن لما أن كانت خشيته عليه السلام، من التوكل الآخر منع من ذلك، لئلا يحصل الطمع به لمن لم يكمل الإيمان بشروطه، فيظن أنه من الناجين، وليس كذلك، فيكون سبباً إلى الاغترار وترك العمل، وهو نفس الهلاك. أعاذنا الله من ذلك بمنه.

وإنما حدث الصحابي به بعد ذلك لذهاب هذا التوكل اللغوي الذي ذكرناه، لأنه لما أن تقعدت قواعد الشريعة على الكمال، علم عند ذلك المراد بهذا التوكل بتلك القواعد، فلا يحصل به اغترار لأجل ما يعارضه من الآي والأحاديث، وما يُبَيَّنُ معناه وما المراد به. وبالله التوفيق، والحمد لله وحده.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) لم يتيسر الوقوف على مصدره.

## حديث درجات النية في ربط الخيل

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: الْخَيْلُ لثَلَاثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجَرَ، وَلِرَجُلٍ سِتْرًا، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرًا. فَأَمَّا الَّذِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَطَالَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ. فَمَا أَصَابَتْ فِي طَبْلِهَا<sup>(١)</sup> ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ. وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طَبْلَهَا فَاسْتَنْتَتْ<sup>(٢)</sup> شَرْفًا<sup>(٣)</sup> أَوْ شَرْفَيْنِ، كَانَتْ أَرْوَاتُهَا<sup>(٤)</sup> وَأَثَارُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَهَا، كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ. وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغْنِيًا<sup>(٥)</sup> وَتَعَقُّفًا وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهورِهَا فَهِيَ لِلذَّكَ سِتْرًا. وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً، وَنَوَاءً<sup>(٦)</sup> لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فَهِيَ وَزْرٌ عَلَى ذَلِكَ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على اتحاد العمل في الظاهر واختلافه بالنية على تلك الوجوه الثلاثة. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله عليه السلام، (الخيال لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر). وفيه دليل على جواز التقسيم قبل التفسير والبيان، لأنه، عليه السلام، قسم الخيل على ثلاثة أقسام، ثم بعد ذلك فسّر ما قسم.

(١) طَبْلُهَا وَطَوْلُهَا: حبلها الطويل.

(٢) اسْتَنْتَتْ: جَبَزَتْ وَعَدَّتْ.

(٣) الشَّرَفُ: الْعَالِي مِنَ الْأَرْضِ.

(٤) أَرْوَاتُهَا: مَا تَخْرُجُ الدَّابَّةُ مِنْ رَجِيمٍ.

(٥) تَغْنِيًا: مُؤَثِّرًا لَهَا وَمُسْتَغْنِيًا بِهَا عَنْ غَيْرِهَا.

(٦) نَوَاءً: مَنَاوَةً وَمَعَادَاةً.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام، (فأما الذي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله) هذا الوجه هو أعلى ما تحبس الخيل إليه، وهو المندوب.

الوجه الثالث: قوله عليه السلام، (فأطال في مرج أو روضة) يعني أنه أطال في الشيء الذي ربطها به حتى تسرح في المرج، وتجد سبيلاً في الاتساع للمرعى، بخلاف أن لو كان الربط قصيراً لم تكن لتسرح في المرعى.

الوجه الرابع: قوله، عليه السلام، (فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات) يريد بذلك ما أكلت وما شربت وما مشت كان ذلك كله حسنات له يوم القيامة يجده موفوراً.

الوجه الخامس: قوله عليه السلام، (لو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين، كانت أرواثها وآثارها حسنات) معناه أنها قطعت الشيء الذي ربطت به، وتعدت الموضع الذي تركها صاحبها ترعى فيه، ومضت إلى غيره، كل ما تفعل من هذا حتى الروث كان ذلك له حسنات.

الوجه السادس: قوله عليه السلام، : (ولو أنها مزّت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقيها، كان ذلك حسنات له) فيه دليل على أن من عمل شيئاً لله، فكل ما احتوى عليه من المنافع فله أجره، قصده أو لم يقصده، علم به أو لم يعلم، كان له كارهاً أو راضياً، لأنه، عليه السلام، أخبر أن صاحب الفرس لو لم يُرد أن يسقيها فشربت كان ذلك له حسنات، وما ذاك إلا للأصل المتقدم وهو كونه ربطها في سبيل الله. فكذلك كل ما كان أصله لله، كان ما يحتوي عليه من المنافع - علم بها أو لم يعلم - له حسنات فيه يوم القيامة، ومثل ذلك الفرس إذا كانت النية فيه لله. وعملاً على الحديث الذي ورد في فضله، فكل من أصاب من ذلك الفرس شيئاً من آدمي أو طير أو وحش كان كل ذلك حسنات لصاحب الفرس، علم به أو لم يعلم، كان يكره ذلك أو يرضاه، إذ إن الأصل أولاً، كان لله، ثم بهذه النسبة سائر أفعال البر.

الوجه السابع: قوله عليه السلام، : (ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينس حق الله في رقابها) هذا الوجه مندوب إليه أيضاً. لكن الوجه المتقدم أعلى منه في الندب. لكن لا يكون ندباً إلا إذا جمع تلك الخصال الثلاثة<sup>(١)</sup> المذكورة في الحديث، وهي: التغني، والتعفف، ولم ينس الله في رقابها. ومعنى التغني: أنه قنع بكسبها عن غيرها من الأموال راضياً بذلك، مؤثراً لها على غيرها. وهو من قولهم: استغنيت بكذا عن كذا، أي: أثرته على غيره ورضيت به. ومعنى التعفف أي:

استعفف بالكسب عليها عن المسألة وعن ضرر للناس. ومعنى لم ينس حق الله في رقابها أي: في ذواتها، كما يقال رقة العبد أي ذاته. والحق هنا في رقابها قد أشار، عليه السلام، إليه حين سئل عنها: هل أنزل عليك في الحمر شيء؟ فقال: لا، إلا هذه الآية الفاذة<sup>(١)</sup> ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾<sup>(٢)</sup>.

والحق فيها على مقتضى الآية على ضربين: واجب ومندوب. (فالواجب) هو ألا يحملها ما لا تطيق، ويوفي لها حقها في الأكل، لأن الضرر ممنوع في الحيوان كله عاقلاً كان أو غير عاقل، وكذلك في الأمور كلها لقوله عليه السلام: (لا ضرر ولا ضرار)<sup>(٣)</sup>. (والمندوب) ما أشار إليه بعض العلماء من حمل متاع الكل وركوب المضطر لها. يزيد ما أشرنا إليه في هذا الوجه قوله عليه السلام: (لرجل ستر) لمن حبسها لتلك الثلاثة الأوجه. ومعنى الستر: أن يكون متصلاً في الدارين. فالستر في الدنيا هو أن تُغنيه عن مسألة الناس، والستر في الآخرة هو أن تنجيه من عذاب النار. وقد قال عليه السلام: (المؤمن تحت ظل صدقته)<sup>(٤)</sup>.

وهذا الكلام مبني على أن (الواو) في قوله عليه السلام: (تغنياً وتعقفاً ولم ينس حق الله في رقابها) للعطف. وأما إن كانت الواو للتنوين فليس بشرط في الفعل أن يكون مندوباً بجميع تلك الثلاثة المذكورة. ولكن إن وجد واحد من الثلاثة كان الفعل مندوباً، وكانت ستراً لصاحبها - وهو الأظهر والله أعلم - لأنه ترك في كسبها النية المذمومة، وهو حبسها لزينة الدنيا، وقد قال تعالى ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَفْصَاةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾<sup>(٥)</sup> فإذا ترك المذموم كان له الأجر على تركه، فإذا أضاف إليه اعتقاد المندوب كان من باب أولى أن يرجى له الستر.

ولا يقتصر بهذا على الوجه المذكور لا غير، بل هو عام في كل مكتسبات الدنيا إذا كانت بهذه النية المذكورة، لأن العلة التي بها الحكم منوط موجودة، لأن الحكم ليس معلقاً بالعين. وقد عدى العلماء الحكم لما هو أقل من هذا، وهو قوله عليه السلام: (لا يقضي القاضي حين يقضي وهو

(١) الفاذة: المتفردة عن مثيلاتها.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و ٨.

(٣) رواه الإمام أحمد والطبراني عن ابن عباس، ورواه ابن ماجه والبيهقي عن عباد بن الصامت، ورواه الطبراني وأبو نعيم عن ثعلبة بن مالك القرظي رضي الله عنهم.

(٤) رواه الإمام أحمد وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه بلفظ: كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس.

(٥) سورة آل عمران، من الآية ١٤.



غضببان<sup>(١)</sup>، فقالوا: كل مُشَوَّش لا يجوز له الحكم معه من حقن<sup>(٢)</sup> أو جوع أو عطش أو غير ذلك من التشويشات. فتعدية ما نحن بسبيله أولى لوجود العلة نفسها.

الوجه الثامن: قوله عليه السلام، (ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء لأهل الإسلام) أما الفخر والرياء فمعلوم. وأما النّواء فهو مثل ما يفعله الشطار في قطع طريق المسلمين بها، ومثل الظّلمة يتخذونها عوناً على ظلم المسلمين وما أشبه ذلك.

ثم الكلام على (الواو) هل هي للعطف أو للتنويع كالكلام في البحث المتقدم. لكن هنا بحث يختص بالموضع وهو أنه إن كانت للعطف فيكون معنى قوله (وزراً): أثقل ظهره بكثرة الذنوب لأن هذه الثلاثة الأشياء كلها ممنوعة، وحمل وزرها يثقل الظهر. وإن كانت الواو للتنويع فيكون (الوزر) بمعنى الإثم، لأن كل واحد من هذه الثلاثة الأشياء محجور شرعاً، وكل من أتى ما هو محجور شرعاً كان مأثوماً.

ولا يقتصر بهذا أيضاً على هذا الوجه لا غير بل هو عام في كل ما أشبهه، والكلام على تعديده لغيره كالكلام على تعدي الوجه قبله.

ثم بقي القسم المباح في اتخاذها، وإنما سكت عنه، عليه السلام، لأن شأنه أبداً أن يبين ما فيه من الأحكام ويسكت عما سواه، وقد قال، عليه السلام: (ما تركته لكم فهو عفو)<sup>(٣)</sup>. والمباح هو من اقتناها عريّة عن النية المذمومة والمندوبة. والله المستعان.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود وابن ماجه عن أبي بكره رضي الله عنه بلفظ: لا يقضينَّ حَكَمَ بين اثنين وهو غضبان.

(٢) الحقن: احتباس البول في المثانة.

(٣) هو معنى لحديث رواه الحاكم عن أبي ثعلبة رضي الله عنه ولفظه: إن الله حدّ حدوداً فلا تضيّعوها، وحزّم أشياء فلا تنتهكوها، وترك أشياء من غير نسيان من ربكم ولكن رحمة منه لكم فاقبلوها ولا تبحثوا عنها.

## حديث اللعب بآلات الحرب ومنع البيع والشراء في المساجد

عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ يَوْمَ عِيدِ عِنْدِي يَلْعَبُ السُّودَانُ بِالْدَّرَقِ<sup>(١)</sup> وَالْحِرَابِ. فَإِنَّمَا سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّمَا قَالَ: تَسْتَهِينُ أَنْ تَنْظُرِي؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَأَقَامَنِي وَرَاءَهُ. خَدَّيْ عَلَى خَدِّهِ، وَيَقُولُ: دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفَدَةَ<sup>(٢)</sup>. حَتَّى إِذَا مَلَلْتُ قَالَ: حَسْبُكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَادْهَبِي.

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على الأزمنة الفاضلة والأيام الفاضلة تشغل بأعظم الطاعات وأجلها وأوجبها، لأن يوم العيد فيه من الفضل ما فيه، فعملوا فيه ما هو أفضل الأشياء في وقتهم، بل هو المتعين. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قولها (كان يوم عيد عندي يلعب السودان بالدرق والحراب) إنما أطلقت اللعب عليه مجازاً، وإلا فهو في الحقيقة فرض متعين بسبب تعيين فرض الجهاد عليهم. ومن ذلك قوله عليه السلام: (لعب المؤمن في ثلاث)<sup>(٣)</sup> والثلاث عبادة لا شك فيها.

وفيه دليل على أن ما يُفَعَّل في هذا الزمان، من بطالة الأوقات الفاضلة، من البدع الحادثة المخالفة لفعل السلف. ألا ترى أن يوم العيد يوم فاضل، فشغلوه بالتدريب على أفعال القتال، إذ أنها المتعينة في الوقت كما تقدم. ولذلك قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: (تستهين أن تنظري)؟ وفي رواية كان يوماً عندي يلعب السودان بالدرق والحراب. تريد: بقرب منزلي، لأن العرب تسمي

(١) الدَّرَق: ضرب من التُّرس، الواحدة دَرَقَة، تتخذ من الجلود، ليس فيها خشب ولا عَقَب.

(٢) بنو أَرْفَدَةَ: جنس من الحبش يرقصون. قال ابن الأثير: هو لقب لهم، وقيل: هو اسم أبيهم الأقدم يعرفون به. وفاؤه مكسورة وقد تفتح (اللسان: مادة رَفَد).

(٣) اللهو في ثلاث: تأديب فرسك، ورميك بقوسك، وملاعبتك أهلك. أخرجه أبو يعقوب في القرباب في فضل الرمي عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

الشيء بما قاربه، وكان لعب السودان في المسجد، ومترزها ومنازل أزواج النبي ﷺ ورضي الله عنهن شارة إلى المسجد<sup>(١)</sup>. فلما أن كان السودان بقرب مترزها أضافتهم إلى نفسها.

الوجه الثاني: أن اللعب في المسجد - على ما هو ظاهر الحديث - ليس على العموم، لما عارضه من الآي والحديث والأثر. أما الآي فقولہ تعالى ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾<sup>(٢)</sup> قال العلماء: معناه أنها تغلق ولا تفتح إلا عند الصلوات. والصلوة هي المراد بالذكر في الآي، والرفع عبارة عن الغلق والصيانة. وأما الحديث فقولہ عليه السلام: (إنما المساجد لما بنيت له، فمن نشد ضالة فقولوا: لا جبرها الله عليك)<sup>(٣)</sup> فالحديث موافق للآي في المعنى.

وأما الأثر فما روي عن عمر، رضي الله عنه، أنه بنى رجة<sup>(٤)</sup> خارج المسجد تسمى البُطِيحَاء<sup>(٥)</sup>، وقال: من أراد أن ينشد ضالة أو ينشد شعراً فليخرج إلى هذه الرجة. وقد كان ابن مسعود، رضي الله عنه، إذا رأى أحداً في المسجد يريد أن يبيع دعاء، فسأله: ما معك وما تريد؟ فإن أخبره أنه يريد أن يبيع، قال: عليك بسوق الدنيا، فإنما هذه سوق الآخرة. فلم يكن اللعب في المسجد إذ ذاك إلا للضرورة لضيق المدينة وضيق البيوت. ولعب الثقاف<sup>(٦)</sup> لا بد منه في وقتهم ذلك لضرورة التدريب للقتال. فإذا كانت ضرورة مثل هذه جاز، وإلا فلا.

وقد اختلف العلماء في تدريس العلم في المسجد الذي هو أفضل من الجهاد نفسه - على ما ورد النص فيه وليس فيه لعب وهو نفس الطاعة - على قولين: فمن رأى أنه من الدين أجزأه، ومن رأى أنه من كلام البشر، وهو مؤد إلى ارتفاع الأصوات في المسجد منع. فكيف بهم في لعب إنما كان طاعة بحسب النية فيه، ولما يؤول أمره؟ وقد يكون للهو لا غير، فمن باب أولى أن يمنعوه من غير خلاف بينهم إذا عدت الضرورة التي أشرنا إليها.

وقد اختلف علماؤنا، رحمهم الله تعالى، في لعب السودان، هل كان في المسجد أو خارجاً عنه بقربه؟ فقال الشيخ أبو الحسن اللخمي في تبصرته<sup>(٧)</sup>: إن لعب الحبش في العيد في المسجد

(١) شَرَعَ المنزل: دنا من الطريق وأطل عليه، ومنازل شارة إلى المسجد: قرية منه ومطلّة عليه.

(٢) سورة النور، من الآية ٣٦.

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: إذا رأيتم من يبيع أو يتنازع في المسجد، أو ينشد ضالة، فقولوا له: لا أربح الله تجارتك، ولا ردّ عليك ضالتك. فإن المساجد لم تبن لهذا.

(٤) الرّجّة: الأرض الواسعة.

(٥) البُطِيحَاء: الأرض المتسعة يمرّ فيها السيل فيتترك فيها الرمل والحصى.

(٦) الثّقاف والثّقافة: العمل بالسيف والتدريب عليه.

(٧) أبو الحسن اللخمي: علي بن محمد الربيعي، أبو الحسن، المعروف باللخمي. فقيه مالكي، له معرفة بالأدب والحديث. قيرواني الأصل، نزل سفاقس وتوفي بها. صتّف كتباً مفيدة، من أحسنها تعليق كبير على المدونة في=

منسوخ. ونقل الشيخ ابن عطاء الله<sup>(١)</sup> في البيان والتقريب له عن سِنْدٍ<sup>(٢)</sup> أن مالكا، رحمه الله تعالى، كره لعبهم في المسجد. ويحمل الحديث على أنها كانت في المسجد تراهم.

الوجه الثالث: قولها (فإما سألت رسول الله ﷺ وإما قال تشتهين أن تنظري) يُروى: تشتهين وتنظرين وكلاهما بمعنى واحد. وقولها (إما وإما) شك منها في أيهما كان الواقع من الكلام.

الوجه الرابع: قولها (فأقامني وراءه خدي على خده) فيه دليل على تواضع النبي ﷺ وحسن خلقه.

وفيه دليل لما ذهب إليه العلماء من جواز نظر النساء إلى الرجال إذا كن مستترات أو أمراً من الفتنة.

وفيه دليل على أن النظر في اللعب إذا قصد به الطاعة طاعة، لأنه لما كان لعب السودان بنية التدريب للقتال ترك النبي ﷺ عائشة، رضي الله عنها، تنظر إليهم. ولو كان النظر إليهم غير طاعة لم يكن ﷺ ينظر إليهم ولا يترك أهله لذلك، إذ إنه، عليه السلام، وأهل بيته محال في حقهم التصرف في اللهو والنظر إليه، بل كثير من الأولياء ليس لهم تصرف إلا في واجب أو مندوب. فكيف بهم أهل بيت النبوة الذين منهم يورث ذلك، وهم الأصل فيه، وغيرهم فرع منهم وتبع لهم؟

ومما شهد لهذا ما روي عنه، عليه السلام، أنه مرّ بموضع كان بعض الصحابة يتعانون<sup>(٣)</sup> فيه بالرمي، فترع نعليه ومشى فيه حافياً ثم قال (روضة من رياض الجنة). ومعناه أن العمل الذي عُمل فيها يوجب روضة من رياض الجنة. وما كان يوجب روضة من رياض الجنة فالنظر إليه عبادة. ولعل ببركة الحضور معهم يعم الخير على الكل من لعب ومن نظر.

الوجه الخامس: قوله عليه السلام: (دونكم بني أرفدة) بنو أرفدة قبيلة من قبائل السودان، فكان، عليه السلام، يحرضهم بقوله ذلك على الشدة والنهضة فيما هم بسبيله، لأن تحريضه، عليه السلام، لهم يحدث لهم قوة وهمة ليست عندهم قبل.

= فقه المالكية سماه (التبصرة) أورد فيه آراء خرج بها عن المذهب. توفي سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م/ (الأعلام ١٤٨/٥).

(١) ابن عطاء الله: هو أحمد بن محمد بن عبدالكريم أبو الفضل تاج الدين، ابن عطاء الله السكندري. متصوف شاذلي من العلماء، كان من أشد خصوم الشيخ ابن تيمية. له تصانيف كثيرة في التصوف والحكم والوصايا والعظات. توفي بالقاهرة سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م/ (الأعلام ٢١٣/١).

(٢) سِنْد: هو أبو علي سِنْد بن عَنان بن إبراهيم الأسدي المصري. تفقه بأبي بكر الطرطوشي، وانتفع به، وجلس لإلقاء الدروس بعده. ألف كتاب (الطراز) شرح به المدونة نحو الثلاثين سِفرًا، وتوفي قبل إكماله، وله تأليف في الجدَل وغيره. توفي بالإسكندرية سنة ٥٤١هـ.

(٣) يتعانون: يعانون ويتدربون.

وفيه دليل على التعاون في أفعال البر كيفما أمكن بكلام أو فعل أو غيره، لأن كلام النبي ﷺ لهؤلاء عون لهم على التعلم. ومثل هذا أيضاً ما روي أن الحسن والحسين رضي الله عنهما كانا يوماً يتسابقان في الرمي، فقال النبي ﷺ: إزم يا حسين وأنا معك. فأمسك الحسن، فقال له النبي ﷺ: لِمَ لَمْ تَزَمْ؟ فقال: كيف أرمي وأنت معه؟ فقال: إزم وأنا معكما. كل هذا ندب لتعلم القتال للجهاد.

وفيه دليل على تعلم أنواع الخير، وإن لم يكن المتعلم بها مكلفاً، لأن نظر عائشة، رضي الله عنها، إلى لعب الثقاف قد يحصل لها به التعلم، وليس النساء مكلفات بالجهاد حتى يحتجن إلى تعلم الثقاف. لكن من عرفه منهن يحصل لها في معرفته الأجر، وقد يحتجن إليه في بعض الأوقات كما احتجن إليه يوم اليرموك في فتح الشام، حتى دفعن عن أنفسهن، وتلاحق بهن المسلمون ونجوا بذلك من يد العدو، وعاد النصر للمسلمين على ما ذكره أهل التاريخ. ومثال ذلك من كان مشغولاً بطلب العلم وأخذ منه ما يُجزيه لفرضه، فما زاد على ذلك فهو من المرغب فيه، وإن لم يحتج إليه في وقته ذلك، وله الأجر في تعلمه، وقد يعلمه لمن يجب عليه تعليمه. وقد يحتاج إليه في وقت من الأوقات، مثل الفقير يقرأ كتاب الزكاة ويُحكِّمه ثم يرجع مَلِيّاً<sup>(١)</sup>، وما أشبه ذلك.

الوجه السادس: قولها (حتى إذا مللت قال: حسبك؟ قلت: نعم. قال: اذهبي) فيه دليل على جواز الحكم على الباطن بما يظهر في الظاهر، لأن النبي ﷺ استدل على أنها ملّت بما ظهر له من حالها. لكن الحكم بذلك مطلقاً لا يجوز حتى يستيقن ذلك من صاحبه، لأن النبي ﷺ أعرف الناس بذلك الشأن، ثم لم يحكم به حتى استفهمها عنه فأجابت بتحقيق ما ظهر له.

الوجه السابع: فيه دليل على أن التعلم إنما يكون مع الباعث من المتعلم، وإن عُدِم الباعث منه فالترك إذ ذاك لكي تَجُمَّ النفس ثم يأخذها بأهبة، لأنه، عليه السلام، لما أن ظهر له من عائشة، رضي الله عنها، أنها ملّت قال لها: حَسْبُكَ؟ يزيد هذا إيضاحاً قوله، عليه السلام: (رَوَّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ)<sup>(٢)</sup>، ولأن التعلم مع الكسل قَلَّ أن يتأتى منه المقصود.

الوجه الثامن: أنه لا يقتصر بالحديث على ما جاء فيه لا غير، بل هو عام في كل الأمور الدنيوية إذا قصد بها الآخرة عَادَبَ بالقصد ندباً، وإن كان ظاهرها مباحاً، لأن اللعب ظاهره لهو. فلما أن كان القصد به تعلم الثقاف لأجل الجهاد كان طاعة. فكذلك كل فعل قصد به الله تعالى

(١) مَلِيّاً: غنياً، (من الملاءة).

(٢) رواه أبو داود في مراسيله عن ابن شهاب، ورواه القضاعي عن ابن شهاب عن أنس موصولاً.

أو الدار الآخرة وإن كان من أفعال الدنيا فهو بحسن النية فيه مما يتقرب به إلى الله تعالى ويثاب صاحبه عليه، كما يثاب على الأفعال التي ليست تعمل إلا للآخرة. ومن ذلك ما روي عن عمر، رضي الله عنه، حيث قال (إنني لأتزوج النساء وما لي إليهن حاجة، وأطامن وما لي إليهن شهوة، فقليل: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: رجاء أن يخرج الله من ظهري ما يكثر به محمد الأمم يوم القيامة). والله الموفق.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

## حديث عز المؤمن بطاعة الله ورسوله

عَنْ ابْنِ عُمَرَ<sup>(١)</sup>، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمَحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصُّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن رزق النبي ﷺ تحت ظل رمحه، وأن الذلة والصغار واقعان بمن خالف أمره عليه السلام، . والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: أن المخالفة المذكورة في الحديث هل هي عامة أو خاصة؟ ظاهر اللفظ يفيد العموم، وذلك موجود حساً، لأن من خالف أمره، عليه السلام، من كل الجهات - وهم الكفار - أوجب لهم ذلك القتل أو إعطاء الجزية وهم صاغرون. ومن خالف في بعض واتبع في بعض كالمؤمنين من أهل البدع والمعاصي أوجب لهم ذلك ذلة العقوبة من الحد وغيره وكراهية الناس لهم. وأما من اتبع أمره، عليه السلام، في كل الأحوال، من فعل ومقال، فقد ناله العز في الدنيا والآخرة وارتفع عنه الذل، مثل العلماء العاملين والصالحين المتبعين نالهم العز في الدنيا - حتى إن الملوك وأبناء الملوك يأتون في خدمتهم راجين بركة رؤيتهم - ونالهم العز في الآخرة بما أعطوا من الشفاعة في غيرهم، عدا ما أذخر لهم من أنواع الكرامات، ومن خدمة الملائكة لهم، وسكناهم في جوار ربهم.

الوجه الثاني: لقائل أن يقول: لم قال عليه السلام، : (جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمَحِي). ولم يقل في سنان رمحي ولا في غيره من السلاح؟ والجواب عنه من وجوه:

(الأول) أن السنان إنما جُعِلَ لقتل الأعداء الذين هم أرباب الأموال. فإذا قتلوا بسنان الرماح

(١) سلفت ترجمته في الحديث (٥١).

بقيت أموالهم تحت ظلال رماح المسلمين وهي الغنائم، وقد أحلت، بخلاف النبل والسيف؛ فإنهما عند ضرب العدو لم يبق لأحدهما ظل حتى تكون الغنيمة تحته .

(الثاني) أن رايات العرب كانت في أطراف الرماح، ولا تكون إقامة الرماح بالرايات إلا مع النصر والظهور . وقد نصره الله، عز وجل، بالرعب أمامه شهراً، فأحل له ما أوجف عليه بالخيال وما أتاه مدعناً بالرعب، لأنه من خوف الرمح أتى . فهو تحت ظله .

(الثالث) أن السنان جعله، عليه السلام، للجهاد - وهو أكبر الطاعات - فجعل له الرزق في ظله، أي في ضمنه، وإن كان لم يقصده . فالطاعة وامتنال الأمر هي الجالبة للرزق . يؤيد هذا التوجيه الكتاب والسنة . أما الكتاب فقوله تعالى ﴿ وَأَمْرَ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ <sup>(١)</sup> وأما السنة فقوله عليه السلام : ( لا يُنال ما عند الله إلا بطاعة الله )، وقوله عليه السلام : ( تكفل الله برزق طالب العلم ) <sup>(٢)</sup> وهو، عز وجل، قد تكفل بأرزاق الكل <sup>(٣)</sup>، لكن لما أن اشتغل هذا بطلب العلم عن التمسك بأنه رزقه من غير تعب ولا تسبب .

وهنا (إشارة لطيفة) مرغبة في الاتباع وترك الالتفات لما يطرأ على البشرية وما يعرض لها في حال الاتباع، لأنه لما أن جادوا بما طُلب منهم في الجهاد من بذل الروح ولم يُبالوا بها، أُبدلوا منها في الدارين أعلى منازلهما . ففي الآخرة ما جاء عنهم أنهم أحياء عند ربهم يُرزقون، وأنهم تحت ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله، وما أُنبِلوا من الشفاعة، إلى غير ذلك من الآي والأحاديث التي جاءت بالنص في رفع منزلتهم . وفي هذه الدار أُجِلت لهم الغنائم على اختلافها كما قال ﴿ وَأَوْزَكْتُمْ أَرْضَهُمْ وَدِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضَاتِهِمْ تَطَشُّوهُمْ ﴾ <sup>(٤)</sup> وأنبلوا العز، وهو النصر والظهور، وهو أعلى منازل هذه الدار . فإذا كان هذا في الجهاد الأصغر فكيف به في الجهاد الأكبر؟ ولذلك قال تعالى في الجزاء على بعض أفعالهم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ <sup>(٥)</sup> .

ولأجل هذا المعنى أخذ أهل الصوفة في الاتباع في كل اللحظات، وتركوا الالتفات

(١) سورة طه، الآية ١٣٢ .

(٢) قطعة من حديث رواها أبو نعيم في الحلية وابن أبي الدنيا والحاكم والبيهقي في المدخل وقال: منقطع . كذا قال المناوي في فيض القدير ٤٥١/٢ .

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ٨٠/٣ والقضاعي في مسند الشهاب ٢٤٤/١ و٣٩١ والديلمي في مسند الفردوس ٧٥/٤ . ولفظه، كما ورد فيها: مَنْ طلب العلم تكفل الله عز وجل برزقه .

(٤) سورة الأحزاب، من الآية ٢٧ .

(٥) سورة السجدة، الآية ١٧ .



للعوارض ولما يطرأ من التغيرات ، فلم ينظروا إلى الرزق ولم يفكروا فيه ، واشتغلوا بما هم عليه قادمون ، لأن العبد مطلوب والرزق طالب ومضمون ، فلا يشغل بالمضمون عن المطلوب . ثم زاد هذا الحديث تأكيداً لهذا المعنى ، إذ الطاعة تيسر الرزق وتسوقه . ولهذا المعنى يقول بعض الفضلاء : إذا التفت المرید إلى رزقه أحسن الله له العزاء<sup>(١)</sup> في طريقه . والله المستعان .

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .

---

(١) العزاء : الصبر على ما ناله .

## حديث الترخيص في لبس الحرير

عَنْ أَنَسٍ <sup>(١)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَخَّصَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ <sup>(٢)</sup> وَالزُّبَيْرِ <sup>(٣)</sup> فِي قَمِيصٍ مِنْ خَرِيرٍ مِنْ حِكَّةٍ كَانَتْ بِهِمَا.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على جواز لبس الحرير لليلة المذكورة فيه . والكلام عليه من وجوه :  
الوجه الأول : هل يستباح لبس الحرير للضرورة إذا كانت على الإطلاق ، أو الضرورة مقصورة على ما وردت فيه لا غير ؟ ظاهر اللفظ يفيد الاختصار على تلك الضرورة بعينها . وقد اختلف العلماء في ذلك ، فمن ذاهب ذهب إلى اطراد الضرورة حيث وجدها ، ومن ذاهب ذهب إلى الاختصار على ما ورد النص فيه ولم يُعَدَّه . وفائدة اختلافهم تظهر فيمن لم يجد ثوباً للصلاة إلا ثوب حرير وثوباً نجساً ، فمن اقتصر على العلة المنصوص عليها ذهب إلى الصلاة بالثوب النجس ، ومن طرد <sup>(٤)</sup> وقاس قال بالصلاة في ثوب الحرير .

الوجه الثاني : أن النبي ﷺ كان عارفاً بطب الأبدان كما كان عارفاً بطب الأديان ، لأنه ، عليه السلام ، لم يرخّص لهذين في لبس الحرير إلا للمنفعة التي فيه لليلة التي كانت بهما ، فدل هذا على أنه ، عليه السلام ، كان عارفاً بذلك الشأن . ومما يبين هذا ويوضحه ما روي عن أحد الصحابة أنه لقيه أحد مشركي أهل الكتاب ممن كان عارفاً بالطب ، ماهراً فيه ، فقال له : إن عيسى ، عليه السلام ، كان نبياً حكيماً ، ولم يكن نبيكم يعرف الطب . فقال الصحابي : أربع كلمات قالها النبي ﷺ اختصر

(١) سلفت ترجمته في الحديث ٥٢ .

(٢) سلفت ترجمته في الحديث ٩٤ .

(٣) الزُّبَيْرُ ، بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي أبو عبد الله ، الصحابي الشجاع ، أحد المبشرين بالجنة ، وأول من سئل سيفه في الإسلام . وهو ابن عمه النبي ﷺ . أسلم وله (١٢) سنة ، وشهد بدرأً وأحدأً وغيرهما ، وكان على بعض الكراديس في اليرموك ، وشهد الجابية مع عمر بن الخطاب ، وجعله عمر في من يصلح للخلافة بعده . وكان موسراً ، خلف أملاًكاً بيعت بنحو أربعين مليون درهم أو يزيد . قتله ابن جرهموز غيلة يوم الجمل بوادي السباع قرب البصرة سنة ٣٦ هـ / ٦٥٦ . له ٣٨ حديثاً (الأعلام ٣ / ٧٤) .

(٤) طرد الحكم أو القاعدة : أرسلها عامة .

فيها الطَّبُّ . فقال الكتابي : وما هي ؟ فقال : قال عليه السلام ، (المَعِدَّةُ بَيْتُ الداءِ ، والجَمِيَّةُ رَأْسُ الدواءِ ، وأصل كل داء البرَدَة ، ودواء كل بدن بحسب ما اعتاد<sup>(١)</sup> . فقال الكتابي . لم يُبقِ نبيكم من الطَّبِّ شيئاً .

الوجه الثالث : هل لبس الحرير هنا من أجل التداوي أو من أجل لينة عما عداه من الثياب ، لأن غيره من الثياب قد يتأذى صاحب الحِكة بلبسها ولا يتأذى بلبس الحرير لما فيه من اللين ؟ فإذا قلنا : إن لبسه من أجل اللين فيجوز لبسه لصاحب الحِكة مطلقاً إذ ليس له بدل منه . وإن قلنا : إنه للتداوي ، فهل يجوز مع وجود غيره من الأدوية أو لا يجوز إلا عند عدمها ؟ أما عند العدم فجائز بغير خلاف ، وأما مع وجود غيره من الأدوية فموضع يقتضي الخلاف .

الوجه الرابع : أن النبي ﷺ له أن يحلل ويحرم ابتداء من عنده من غير أن ينزل عليه في ذلك قرآن ، لأنه ، عليه السلام ، حرم الحرير من غير أن ينزل عليه فيه نص ، ثم رخص فيه في هذا الموضع ولم ينزل عليه فيه شيء ، وهذا هو المراد بقوله تعالى ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup> لكن قد ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بذلك الحكم بينهم فيما أراد الله ، عز وجل ، من التأويل فيما أنزل عليه ، وليس بالقوي . والصحيح ما ذهب إليه الجمهور وهو أنه عام في المنزل وغير المنزل ، حكمه عليه السلام ، نافذ في الكل ، يجب على المكلف امتثاله . فإن ترك شيئاً منه كان عاصياً بتركه بحسب ما كان الشيء المتروك هل من المفروض أو من المندوب ، لقوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾<sup>(٣)</sup> .

فكل ما يذكر ، عليه السلام ، لا يخلو إما أن يكون حياً بواسطة ، أو بما يظهر له - وهو وحي إلهام - مع أنه ، عليه السلام ، قد نص على هذا المعنى في مسألة خير ، حيث أتاه رجل من اليهود فشكا له أن بعض الصحابة ضرب إماءهم ودخل بعض مواضعهم . فأمر عليه السلام ، بـ (الصلاة جامعة) ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (لا يجلس أحدكم في بيته متكئاً على أريكته يبلغه الحديث عني فيقول : لم أر هذا في كتاب الله ، ألا وإنني قد أخبرتكم وأمرتكم ونهيتمكم بأمر هي مثل كتاب الله وأكثر ، لا يحل لكم أن تضربوا إماء هؤلاء ، ولا تدخلوا منازلهم ، إذا أدوا لكم ما صالحوكم عليه) أو كما قال عليه الصلاة والسلام . فلم يبق للمخالف مع هذا الحديث مقال . والحديث أخرجه أبو داود والله الموفق .

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا .

(١) قال الشيخ عدنان الغشيم : هذا ليس بحديث ، وإنما هو لطبيب العرب ؛ الحارث بن كلدة . والبرَدَة هي : الثَّخَمَة .

(٢) سورة النساء ، من الآية ١٠٥ .

(٣) سورة النجم ، الآية ٣ .

## حديث من أشراف الساعة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا الثُّرُكَ، صِغَارَ الْأَعْيُنِ، حُمَرَ الْوُجُوهِ، ذُلْفَ الْأَنْوْفِ<sup>(١)</sup>، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُ الْمَطْرُقَةُ<sup>(٢)</sup>، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْمًا نَعَالُهُمُ الشَّعْرُ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن الرهطين المذكورين فيه إذا ظهرا فهما علم على اقتراب الساعة . والكلام عليه من وجهين :

الوجه الأول : فيه دليل على أن معجزات النبي ﷺ على قسمين : مشاهد مرئي ، وأخبار يُؤمن بها وتُصدَّق ، وكل الأمة اجتمعت في ذلك أولهم وآخرهم ، وإن كان النبي ﷺ قد انتقل إلى الآخرة ، لكن معجزاته ، عليه السلام ، لم تزل باقية مستمرة إلى قيام الساعة . بيان ذلك أن الصحابة ، رضوان الله عليهم ، عاينوا ما كان في زمانهم من معجزات النبي ﷺ مما أظهر الله على يديه ، وآمنوا بما أخبر به مما يأتي بعدهم .

وأهل هذا الزمان قد حصل لهم الإيمان بمشاهدة ما ورد في هذا الحديث وأشباهه ، والتصديق بما رأى الصحابة ، رضوان الله عليهم ، والإيمان بما يأتي بعد ، وكذلك من يأتي بعدهم لا بد من معجزات يشاهدونها ، وذلك مستمر لا ينقطع إلى قيام الساعة . وهذا من الأدلة الظاهرة على علو منزلته ، عليه السلام ، التي لم تزل معجزاته مشاهدة إلى يوم القيامة .

الوجه الثاني : خروج هذين الرهطين المذكورين هل هو دال على الآخرة كما أخبر ، عليه السلام ، لا غير ، أو فيه معنى زائد؟ على ما يظهر من صيغة لفظه محتمل للوجهين معاً . والمعنى

(١) ذُلْفَ الْأَنْفِ يَذُلْفُ ذُلْفًا؛ صَغُرَ وَاسْتَوَى طَرَفُهُ . فَهُوَ أَذْلَفُ وَهُوَ ذُلْفَاءُ ، وَالْجَمْعُ ذُلْفٌ .

(٢) الْمَجَانُ : جَمْعُ الْمَجْنِ . وَهُوَ الثَّرْسُ وَالتَّرْسَةُ . وَالْمِيمُ زَائِدَةٌ لِأَنَّهُ مِنَ الْجَنَّةِ السُّتْرَةِ . الْمَطْرُقَةُ : مِنَ طَرَقَ الشَّيْءُ ؛ بِالْغِ فِي طَرَقِهِ وَدَقَّهُ .

الزائد هو أن يكون ذلك من جملة الفتن التي تكون عند اقتراب الساعة، مع ما فيه من الدلالة على قرب القيامة .

فإن كان دالاً على قرب الساعة ليس إلا فتكون فائدة الإخبار به أن يُقَطَّعَ الأملُ من هذه الدار عند معاينة ذلك، إذ إنها قد انصرمت، والإقبالُ<sup>(١)</sup> على الآخرة، والعمل على الخلاص فيها إذ إنها قد قربت . فظهر منه، عليه السلام، هنا ما أخبر عز وجل، عنه في كتابه حيث وصفه بقوله ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup> لأنه، عليه السلام، نظر الخير لأمته بكل ممكن أمكنه من إخبار أو حال .

وإن كان المراد بالإخبار به أن يُعَلَّمَ أن ما ذكر فيه من جملة الفتن، مع كونه دالاً على قرب قيام الساعة، فتكون الفائدة فيه المسارعة إلى أخذ الدواء الذي به يقع الخلاص من الفتن . والدواء هو ما قد نص عليه السلام، عليه في غير هذا الحديث، حين ذكر الفتن فقليل له : ما تأمرنا إن أدركنا ذلك؟ فقال عليه السلام، (الجأوا إلى الإيمان والأعمال الصالحات) .

وهذا الوجه الأخير هو الأظهر - والله أعلم - وهو أن يكون المراد بسياق الحديث المعنيين اللذين ذكرناهما في هذا الوجه الأخير بدليل قوله عليه السلام، (اتركوا مقاتلة الترك ما تركوكم)<sup>(٣)</sup> . فلولا أنهم من جملة الفتن ما حض عليه السلام، على ترك قتالهم ما لم يبدأوا بالقتال، وأمر بقتال غيرهم من الكفار مطلقاً، ولأن معنى قوله عليه السلام، (الجأوا إلى الإيمان والأعمال الصالحات) يظهر من قوة الإخبار بهذا الحديث، إذ إن الفتن لا تقع إلا لضعف في الإيمان، أو فترة في كماله، فقد ظهر ما أخبر به، عليه السلام، فوجب الامتثال لما أمر به .

فمن رزق التوفيق لامتنال ما أمر به ضَمِنَ الخلاص بمقتضى الوعد الجميل . والحدَرُ الحدَرُ لمن أراد الخلاص أن يلتفت لفساد الوقت، أو للخلل الواقع في الأحوال، لأن ذلك سبب للهلاك . جعلنا الله مَن قَوِيَ إيمانه، وصَلَحَ عمله . آمين .

وصلَّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .

(١) معطوف على المصدر المؤول من : أن يُقَطَّعَ الأمل .

(٢) سورة التوبة، من الآية ١٢٨ .

(٣) أخرجه الطبراني عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بلفظ : اتركوا الترك ما تركوكم .

## حديث قتال المشركين حتى يعلنوا بكلمة التوحيد

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ.

✻ ✻ ✻

ظاهر الحديث يدل على قتال المشركين حتى يُسَلِّمُوا وَيُعْلِنُوا بالكلمة وحقن دماء المسلمين إلا بحققها. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله عليه السلام، (أُمِرْتُ) هذا الأمر هنا هل هو على الوجوب أو الندب؟ إن كان الخطاب للنبي ﷺ وحده فهو على الوجوب، وإن كان الخطاب له، عليه السلام، ولأمته فهو واجب في أول الأمر، ثم بعد ذلك رجع في بعض الأوقات واجباً، وفي بعضها مندوباً، بحسب قرائن الأحوال على مقتضى أصول الشريعة. أعني بقولي (واجباً) وجوب فرائض الأعيان. وأما المندوب فلا يكون إلا بعد قيام فرض الكفاية، وهو مذكور في كتب الفقه.

الوجه الثاني: فيه دليل على أن المطلوب من الأمر: الامتنال دون النظر إلى علة، لأنه، عليه السلام، قال (أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، ولم يذكر لذلك تعليلاً. إلا أنه، عليه السلام، أخذ إذ ذاك في القتال، ولم ينظر إلى التعليل. فعلى هذا فالاشتغال عن العمل بطلب العلة في الدين علة، إلا حيث نُصِّصَ عليها، أو أُشِيرَ إليها، فهي توسعة ورحمة.

الوجه الثالث: قوله عليه السلام، (أَنْ أَقَاتِلَ) هذا القتال هل المراد به القتال المعهود - وهو القتال بالسيف والرمح وغير ذلك من السلاح - أو المراد به القتال بالحجة والبرهان؟ محتمل للوجهين معاً، بدليل قوله تعالى ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾<sup>(١)</sup> يعني بالقرآن، وبدليل قوله،

(١) سورة الفرقان، من الآية ٥٢.

عليه السلام، (قاتلوا المشركين بالسنتكم)<sup>(١)</sup>، ولأنه، عليه السلام، أمر أولاً أن يقاتل بالحجة والبرهان وذلك قبل الهجرة، ثم بعد الهجرة أمر بقتال خاص، وهو من قاتله أو نازعه فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى ﴿وَأَقْضُوا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمُ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾<sup>(٣)</sup> ثم بعد ثمان من الهجرة أنزلت سورة براءة، وأمر، عز وجل، فيها بقتال المشركين كافة حتى يعلنوا بالكلمة، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون<sup>(٤)</sup>. والظاهر بالقتال هنا - والله أعلم - أن يكون المراد به القتال باللسان وبالحجة والبرهان، لأنه، عليه السلام، لم يذكر فيه الجزية، واحتمل أن يكون المراد به القتال العام، وسكت عن الجزية للعلم بها.

الوجه الرابع: قوله عليه السلام، (أن أقاتل الناس) الألف واللام هنا هل هي للجنس أو للعهد؟ محتمل للوجهين معاً. فإن كان الخطاب للنبي ﷺ فهي للعهد، لأن قتال المؤمنين لا يجوز، ولأنه عليه السلام، قد خصص المؤمنين وأخرجهم من عموم اللفظ بقوله عليه السلام، (حتى يقولوا لا إله إلا الله) ومن قالها فهم المؤمنون، فوقع النص بمنع قتالهم. وإن كان الخطاب للنبي ﷺ ولأمتة فهي للجنس، وهذا هو الأظهر والله أعلم، لأن العادة جارية بأن الخطاب للرسول خطاب لهم ولأمتهم إلا مواضع قلائل لها قرائن تبينها.

الوجه الخامس: قوله عليه السلام، (حتى يقولوا لا إله إلا الله) يعني: على مقتضى ما جئتُ به. وما جاء، عليه السلام، به هو الإقرار بالوحدانية على ما هي عليه من الجلال والكمال، ونفي الشريك وال ضد والصاحبة، والإقرار بالرسالة على ما تقرر في الشريعة. ومثله كثير في السنة العرب، إذا كان لأحدهم حق معلوم منع منه يقول: لا أزال أقاتل حتى آخذ حقي، وبهيمه ولا يعيته، للعلم به.

الوجه السادس: فيه دليل على أن هذا الذكر الخاص، وهو قول<sup>(٥)</sup> (لا إله إلا الله) إذا كانت خالصة أماناً لصاحبها في الظاهر والباطن. فالأمان الذي هو في الظاهر هو ما تضمنه قوله عليه

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وصححه ابن حبان عن أنس رضي الله عنه بلفظ: جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم والسنتكم.

(٢) سورة الحج، من الآية ٣٩.

(٣) سورة النساء، من الآية ٩٠.

(٤) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة التوبة، الآية ٢٩: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

(٥) لعل الصواب: قوله.

السلام، (فقد عصموا مني)، والأمان الذي هو في الباطن ما تضمنه قوله، عز وجل، في كتابه ﴿أَلَا يَنْصَرُّ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾<sup>(١)</sup>.

الوجه السابع: فيه دليل لقول من يقول بأن الكفار ليسوا مخاطبين بفروع الشريعة، لأنه، عليه السلام، أخبر أن القتال إنما يكون على التوحيد دون الفروع. والتوحيد ما ذكر من قوله: لا إله إلا الله.

الوجه الثامن: قوله عليه السلام، (فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله) فيه دليل على أن حرمة المال كحرمة الدم، لأنه، عليه السلام، سوى بينهما في الحكم.

الوجه التاسع: فيه دليل على أن الأموال تابعة للدماء، لأنه إذا استبيح الدم استبيح المال بالضرورة، ما لم يكن في حد من الحدود.

الوجه العاشر: فيه دليل لقول من يقول بأن العبد لا يملك، لأن رقبة العبد ليست له، وإنما هي لسيده والمال تابع للرقبة، على ما قررناه.

الوجه الحادي عشر: قوله عليه السلام، (إلا بحقه) هذا الاستثناء هل هو متصل أو منفصل؟ محتمل للوجهين معاً. فإن كان متصلاً فالضمير عائد على المال، لأنه أقرب مذكور. والحق الذي في المال هو أخذ الزكاة وحقوق الغير وغير ذلك مما لا يجوز منعه. ويبقى الدم، وليس في الحديث ما يدل على حكمه. فيؤخذ حكمه من غير هذا الحديث، وهو قوله عليه السلام، (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس بغير حق)<sup>(٢)</sup>. وإن كان الاستثناء منفصلاً فالضمير عائد على الدين المشار إليه في الحديث، وهو قوله: لا إله إلا الله، لأن من قالها فقد دخل في الدين، وإذا دخل في الدين لزمه حقه، وحقه ما في الأبدان من الحدود، وما في الأموال من الحقوق. وهذا هو الأظهر والله أعلم. وفي هذا زيادة إيضاح وبيان لما قدمناه من الاستدلال لقول من قال بأن الكفار ليسوا مخاطبين بفروع الشريعة.

الوجه الثاني عشر: قوله عليه السلام، (وحسابه على الله) فيه دليل على أن التكليف مطلوب ظاهراً وباطناً، لأنه بعد إعلانهم بالكلمة قال (وحسابه على الله) أي: فيما احتوى باطنه عليه من الإخلاص وضده. فعلى هذا فالظاهر الحكم فيه للبشر، والباطن إلى الله. ولا يخلص المرء إلا الإخلاص في الباطن والاستقامة في الظاهر. وقد نص، عز وجل، على ذلك في كتابه حيث قال:

(١) سورة الرعد، من الآية ٢٨.

(٢) رواه الشيخان عن ابن مسعود، ورواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عثمان، ورواه الإمام أحمد والنسائي عن عائشة رضي الله عنهم جميعاً. وفي بعض الروايات زيادة ألفاظ عن بعضها الآخر.



﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾<sup>(١)</sup> وقال عز وجل ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> وقال عز وجل ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾<sup>(٣)</sup> فكانوا أشد أهل النار عذاباً لكونهم أسروا خلاف ما أظهروا. والآي في ذلك كثيرة.

وقد قال عليه السلام، (إنكم تختصمون إليّ فلعلّ أحدكم يكون ألحنّ بالحجة من أخيه، فأحكم له بحسب ما أسمع، فمن قطعت له من مال أخيه فلا يأخذ منه شيئاً. فإنما أقطع له قطعة من النار)<sup>(٤)</sup> أو كما قال، عليه الصلاة والسلام، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

ومع كثرة هذه الأدلة من القرآن والحديث على منع هذا الوجه ها هو اليوم قد كثر وفشا، لأنهم قد تواطأوا على أشياء بينهم لا تجوز بإجماع المسلمين، فيقيّدونها في الظاهر على صورة تجوز على مذهب بعض العلماء، ثم يأتون إلى الحكام فيحكمون بها بينهم، فكان ذلك مقتضى ما قال عز وجل ﴿ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾<sup>(٥)</sup> فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

الوجه الثالث عشر: في الحديث دليل على أنه ينبغي للمكلف أن يقيم الحجة على نفسه بلسان العلم ما دام في هذه الدار، حتى يكون إيمانه حقيقة دون دعوى، لئلا يكون ممن يأتي يوم القيامة للحساب، فيظهر له الخسران لعدم توفية ما يجب من حق الباطن، حيث الحساب فيه موكول إلى الله تعالى. وحقيقة الإيمان الذي أشرنا إليه هو اتباع الأمر والنهي في الظاهر والباطن، وسلامة الاعتقاد والخوف من الله، والرجاء فيه على مقتضى الكتاب والسنة، وقد قال عليه السلام، (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا)<sup>(٦)</sup>، وقد قال، عليه السلام، حين مديح له رجل فقال: كيف هو في عقله؟ يعني عند الأمر والنهي.

جعلنا الله ممن اتّبع أمره واجتنب نهيه، ووفى بعهده، إنه وليّ كريم. آمين.  
وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

(١) سورة الأعراف، من الآية ٣٣،

(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٨.

(٣) سورة النساء، الآية ١٤٥.

(٤) رواه البخاري في الشهادات ومسلم في الأفضية عن أم سلمة رضي الله عنها ومطلعه. إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ الخ.

(٥) سورة البقرة، من الآية ١٨٨.

(٦) من كلام عمر رضي الله عنه.

## حديث وعظ المجاهدين

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ<sup>(١)</sup> بْنِ أَبِي أَوْفَى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ أَنْتَظَرَ حَتَّى مَالَتْ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ. فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ الشُّيُوفِ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِي السَّحَابِ وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ اهْزِمْنَاهُمْ، وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ.

\*\*\*

ظاهر الحديث يدل على الرعظ للمجاهدين حين إرادتهم القتال. والكلام عليه من وجوه:  
الوجه الأول: قوله (في بعض أيامه التي لقي فيها العدو) يعني في بعض الأيام التي قاتل فيها العدو.

الوجه الثاني: قوله (انتظر حتى مالت الشمس) بمعنى: زالت. وفيه دليل على أن السنة في القتال أن يكون إما غُدْوَةً أو عَشِيَّةً، لأنه، عليه السلام، لم يكن ليقاتل حتى تزول الشمس، ولم يكن هذا إلا إذا فاتته القتال غُدْوَةً، لأنه قد جاء في غير هذا الحديث أنه، عليه السلام، كان يقاتل أول النهار، فإن فاتته أول النهار تركه إلى الزوال، ويقول لأصحابه: (دعوه حتى تهبَّ الأرواح ويدعو لكم إخوانكم المؤمنون)<sup>(٢)</sup>. وقد قال بعض العلماء: إن النصر لا يكون إلا بالريح، لقوله عليه

(١) عبد الله بن أبي أوفى: اسم أبيه علقمة الأسلمي. صحابي ابن صحابي، شهد بيعة الرضوان وخيبر وما بعدهما، ومكث في المدينة حتى توفي الرسول ﷺ فانتقل إلى الكوفة، وهو آخر من مات من أهل الرضوان الذين رضي الله عنهم بنص القرآن ولا يدخل أحد منهم النار بنص السنة. روي له عن رسول الله ﷺ (٩٥) حديثاً، اتفق الشيخان على عشرة. وقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات وكنا نأكل الجراد معه. توفي سنة ٨٦ هـ «من التهذيب وشذرات الذهب».

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي عن النعمان بن مقرن رضي الله عنه وأوله: غزوت مع رسول الله ﷺ غزوات، فكان إذا طلع الفجر أمسك حتى تزول الشمس الخ..

السلام، (نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادُ بِالذُّبُورِ)<sup>(١)</sup> والصَّبَا: ريح شرقية. فعلى هذا فالريح من جملة ما يستعان به على النصر، لأنه قد صار كالسلاح.

وقد ترك بعض جيوش المسلمين هذه السِّنة في زمان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فطال بهم المقام على الحصن الذي كان بإفريقية، ولربما نال العدو منهم، فأرسلوا إلى عمر، رضي الله عنه، يسألونه النجدة، فأرسل إليهم عبد الله بن الزُّبَيْرِ<sup>(٢)</sup> فسألهم عبد الله رضي الله عنه، عن كيفية قتالهم؟ فأخبروه أنهم يزحفون إلى الحصن قبل الزوال، فأنكر ذلك عليهم وقال لهم: خالفتم سِنة نبيكم. ثم أمرهم بامثال السِنة في ترك القتال حتى مالت الشمس، ثم أمرهم بالزحف على الحصن بعد الزوال فنصروا. فانظر كيف كانت أفعاله، عليه السلام، لا يصدر منها شيء إلا وتحتها من الفوائد ما لا ينحصر؟ كيف لا يكون كذلك وقد وصفه الله، عز وجل، في كتابه بأنه رحمة للعالمين؟ فاتِّباعه في الأقوال والأفعال سبب للنصر والظفر، بل هو عين النصر والخير، ومخالفته سبب للذلة كما تقدم في الحديث قبل. فبقدر المخالفة يكون الذل، وبقدر الامتثال والاتباع يكون العز.

الوجه الثالث: قوله (ثم قام في الناس فقال: أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو) وقد تقدم أن ذلك دليل على الوعظ للمجاهدين حين إرادتهم القتال. وفيه دليل على التذكار عند نزول الحوادث المُلِمَّة، وإن كان من نزل به ذلك عارفاً بها، لأن التذكار زيادة قوة للمذكِّر، وإن كان عارفاً بذلك. ومثل هذا ما روي عن أبي بكر، رضي الله عنه، أنه بعد وفاة النبي ﷺ قام في الناس، وخطبهم وذكرهم الآية وهي قوله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾<sup>(٣)</sup> فكانهم الآن عرفوها فتسلَّوا بها، وقويَّ بها إيمانهم ويقينهم، فما يُسمع بشرّاً إلا ويتلوها<sup>(٤)</sup>، مع أن العلم كان لهم بها قبل ذلك.

الوجه الرابع: قوله عليه السلام، (واسألوا الله العافية)<sup>(٥)</sup> فيه دليل على طلب العافية في زمان

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) عبد الله بن الزُّبَيْر: ابن العوّام القرشي الأسدي، أبو بكر، فارس قرشي في زمنه، وأول مولود في المدينة بعد الهجرة، وأمه أسماء بنت الصديق ذات النطاقين. شهد فتح إفريقية زمن عثمان، وبويع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ عقيب موت يزيد بن معاوية، فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام، وجعل قاعدة ملكه المدينة، وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة حتى سبّروا إليه الحجاج الثقفي في أيام عبد الملك، فانتقل إلى مكة، وعسكر الحجاج في الطائف ونشبت بينهما حروب انتهت بمقتل ابن الزبير في مكة بعد أن خذله أصحابه. له في كتب الحديث ٣٣ حديثاً. استشهد سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٢ م.

(٣) سورة آل عمران، من الآية ١٤٤.

(٤) كذا بزيادة الواو قبل «يتلوها».

(٥) رواه الترمذي وصححه عن العباس رضي الله عنه، وأوله: قلت: يا رسول الله، علّمني شيئاً أسأله الله. قال: سل الله العافية الخ. . وروى الترمذي والإمام أحمد وصححه ابن حبان عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قام رسول الله =

المهلة، وقد قال عليه السلام، (إذا سألتكم الله فاسألوه العافية). وقد مرّ، عليه السلام، على رجل به بلاء كثير فقال له (يا هذا، هل دعوت الله بشيء؟ فقال: سألت ربي إن كان لي في الآخرة عذابٌ أن يعجّلَه لي هنا. فقال عليه السلام،: هلا سألتَه العفو والعافية)<sup>(١)</sup>، لأنه، عز وجل، لا يعجزه شيء. فكما يُنجي بفضلَه من الأكبر فكذلك يُنجي من الأصغر، لأن الدارين له وحكمه فيهما نافذ، ما شاء فيهما كان، وما لم يشأ لم يكن. وكذلك فيما نحن بسبيله، هو، عز وجل، قادر على نصر المسلمين من غير أن يقع منهم مقابلة لعدوهم. فتحصل من هذا أن شأن المؤمن أن يسأل الله العافية حيثما كانت، وأن يترك التمني والاختيار لجهة دون أخرى.

الوجه الخامس: قوله عليه السلام، (فإذا لقيتموهم فاصبروا) أي: إذا قابلتم المشركين فاثبتوا وقفوا؛ لأن الثبات عند المقابلة هو المطلوب، والفرار من الكيثر. وفيه دليل على الصبر عند نزول المحنة وترك القنوط إذ ذاك.

الوجه السادس: قوله عليه السلام، (واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) فيه دليل على التذكير بالاجر لأهل المصائب إذا نزلت بهم، وإعلامهم بما لهم من الخير إذا سلّموا لله في قضائه ورضوا به. ومن فعل هذا كان له من الأجر مثل ما للمصاب لقوله، عليه السلام، (من عزى مصاباً فله مثل أجر المصاب)<sup>(٢)</sup>، ولأن تذكيرك إياه بذلك وتعزيتك له عون على الصبر على ما نزل به، فكان لك الأجر لكونك أعتته على حمل ما نزل به.

الوجه السابع: لقائل أن يقول: لِمَ جعل، عليه السلام، هنا الجنة تحت ظلال السيوف، وجعل في الحديث المتقدم الغنائم تحت ظلال الرماح؟ والجواب من وجهين:

(الأول) أن القتال بالسيف لا يكون إلا عند شدة الحرب وحمي الوطيس<sup>(٣)</sup> فيه، وعند هذا الحال يكثر الغبار حتى يعود على المقاتلين كالظل، وذلك الظل صادر عن القتال بالسيف، فأخبر

= عام أول على المنبر، ثم بكى فقال: سلوا الله العفو والعافية، فإن أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية. وفي الباب أحاديث كثيرة في سؤال الله العافية والمعافة في الدنيا والآخرة.

(١) رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه بلفظ: أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فمعجّلَه لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله، لا تطيقه ولا تستطيعه، أفلا قلت: اللهم ربنا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ؟ قال: فدعا الله به فشفاه الله تعالى.

(٢) رواه الترمذي بلفظ: من عزى مُصاباً فله مثل أجره. وفي المعنى روى ابن ماجه عن النبي ﷺ أنه قال: ما من مؤمن يُعزّي أخاه بمصيبة إلا كساه الله من حُلل الكرامة يوم القيامة.

(٣) الوطيس؛ من وَطَس الشيءَ وَطَساً؛ كسره ودقّه. والوطيس: المعركة لأن الخيل تطسّها بحوافرها. والوطيس: التنور، وبه شُبّه حرّ الحرب. وقال النبي ﷺ في حنين: (الآن حمي الوطيس) وهي كلمة لم تُسمع إلا منه، وهو من فصيح الكلام: عبّر به عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق. (اللسان: وطس).

بما هو صادر عنه بظله ؛ لأن العرب تسمي الشيء بأصله أو بما قاربه ، والحرب إذا وصلت إلى هذه الحالة فالغالب فيها القتل . وإذا وقع القتل حصلت الجنة بمضمون الوعد الصادق ، لأنه إن كان المؤمن هو القاتل فقد حصل له ما أمل وما هو المراد بالجهاد ، وحصل له من الثواب ما تقرر في الشريعة ، وإن كان هو المقتول فقد حصلت له الشهادة ، والشهيد في الجنة .

(الثاني) لأن ظل السيف لا يظهر إلا بعد الضرب به ، لأن عادة العرب لا تسلّ السيف إلا عند إرادة الضرب به ، فيخرجونه من غمده إلى الضرب بغير مهلة ، فما يظهر ظله إلا بعد الضرب به ، وعند الضرب يكون القتل . والقاتل هناك له من الخير ما قد عُلِمَ ، والمقتول شهيد ، وقد قال تعالى في الشهداء ﴿ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾<sup>(١)</sup> ففي نفس القتل حصل له الحياة والاستقرار في الجنة بالوعد الصادق . وأما الجواب عن الرمح فقد مر الكلام عليه في الحديث قبل هذا . فسيحان من أيّده بالفصاحة والبلاغة .

الوجه الثامن : قوله عليه السلام ، (اللَّهُم مُتْرَلِ الْكِتَابَ ، وَمُجْرِي السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ ، اهْزِمِهِمْ ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ) يرد على هذا الفصل سؤال وهو أن يقال : ما الفائدة في اختصاصه عليه السلام ، لذكر هذه الصفات الثلاث في هذا المقام ، دون غيرها من الأسماء والصفات ؟

(والجواب) أنه ، عليه السلام ، في هذا المقام يطلب النصرة على الأعداء ، والأعداء كانوا في الكثرة بحيث المنتهى ، على ما قد عُلِمَ من الأخبار المنقولة عنهم ، ولا تقع الغلبة من الجمع اليسير على الجمع الكثير إلا بالقدرة . فطلّب ، عليه السلام ، النصر ، وأحال ذلك على القدرة ، من غير أن يطلب كيفية النصر كيف تكون ، فأتى بتلك الثلاث لأجل ما فيها من هذا المعنى .

بيان ذلك أن السُّحْبَ تجري بين السماء والأرض مثقلة بالماء ، ليست على عَمَدٍ ، ولا علاقة فوقها ، وهي مع ذلك تمرّ مرّ الرياح مع الريح ، وتقف حيث تُؤمّر ، ولا تحركها الريح حين تُؤمّر بالوقوف ، وتمسك الماء ولا تنزله إلا حيث تُؤمّر . فهذه إظهار قدرة بارزة مشاهدة بغير حكمة تغطيها .

وأما هَزَمَ الأحزاب فهو من هذا الباب أيضاً ، لأن الجمع الكثير قد انهزم بالعدد اليسير . وذلك إظهار للقدرة أيضاً ، لأن الجمع الكثير أبداً بمقتضى الحكمة يغلب الجمع اليسير ، وها هنا كانت الغلبة بالقدرة وأبطلت ما جرت به عادة الحكمة ، فكان ذلك مقتضى ما قاله ، عزّ وجلّ في التنزيل ﴿ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأَى الْغَيْبِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقال عزّ وجلّ ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا

(١) سورة آل عمران ، من الآية ١٦٩ .

(٢) سورة آل عمران ، من الآية ١٣ .

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿١﴾ فلم يعلقه بالحكمة، وإنما علقه بعظيم آثار القدرة التي لا يغلبيها شيء، وإنما تفعل ما شئت كيف شئت.

وأما إنزال الكتاب فهو من ذلك الباب أيضاً، لأنه، عليه السلام، لو أراد تعظيمه لتوسل به فقال: بحق الكتاب، ولكنه عدل عن ذلك وأتى بهذه الصيغة التي فيها إظهار القدرة من غير حكمة تغطيها، كما فعل في الوجهين قبله، لكي يأتي بصفة تناسب ما يطلبه في وقته. والقدرة القاهرة التي في الكتاب هي كونه كلام الله القديم الأزلي، ثم يشره، عز وجل، باللغة العربية التي هي صفة المحدث، حتى وقع لنا بذلك الفهم لما أريد منا كيف أريد منا. فعلى هذا فالكلام منزل حقاً، مبسر باللغة حقاً، ولا سبيل إلى طلب الكيفية في اتصال القديم بالمحدث، كما ليس في الشئين المذكورين معه في الحديث سبيل إلى معرفة الكيفية فيهما مع مشاهدتهما عياناً<sup>(٢)</sup>.

وهذا أدل دليل على تحقيق ما ذكرناه في حديث البيعة من أن الكيفية في اتصال القدرة بالمخلوقات ممنوعة، وأن الكيفية في اتصال الكلام القديم بالحروف المحدثه ممنوعة، لأن هذه صفة وهذه صفة، وكذلك يجب في جميع الصفات والذات منع الكيفية مرة واحدة، ولا سبيل إلى طلب شيء من ذلك فيهما، ومن يحاول ذلك فقد ضل عن الطريق، وخرج عن سنن أهل التحقيق. بل يجب الإيمان بالذات وجميع الصفات على ما ينبغي من الجلال والكمال مع نفي التكيف والتحديد، لأنه قد ظهر من فائدة اختصاص ذكره، عليه السلام، بهذه الثلاث في هذا الموطن أنه سأل بصفة عظيمة، وهي القدرة التي ظهر أثرها في هذه المذكورات، وهي من أعظم ما يُستدل به على عظم القدرة، فذكر، عليه السلام، صفة تناسب ما هو بسبيله، وطلب الشيء من بابه.

الوجه التاسع: فيه دليل على أن الداعي إذا دعا فالسنة فيه أن يذكر من أسماء الله تعالى وصفاته ما يكون من نسبة حاجته، لأنه، عليه السلام، لما أن طلب النصرة - وهي من إظهار القدرة - ذكر ما يناسبها كما تقدم. ومثل هذا من يطلب المغفرة والرحمة فليذكر إذ ذاك مثل الغفور والرحيم

(١) سورة الأنفال، من الآية ١٠.

(٢) عقيدة أهل السنة؛ أن الله عز وجل هو المحدث للعالم، وهو الواحد القديم القادر الحيّ العليم السميع البصير الشافي المريد، ليس بعرض ولا جوهر ولا جسم ولا مصور، ولا محدود، ولا معدود، ولا متبعض، ولا متجز، ولا متركب، ولا متناه، ولا يوصف بالماهية ولا بالكيفية، ولا يتمكّن في مكان، ولا يجري عليه زمان، ولا يشبه شيء، ولا يخرج من علمه وقدرته شيء، وله صفات أزلية قائمة بذاته، وهي لا هو ولا غيره، وهي العلم والقدرة، والحياة والسمع والبصر والإرادة والمشئنة والفعل والتخليق والترزيق والكلام. فهو متكلم بكلام هو صفة له أزلية ليس من جنس الحروف والأصوات، وهو صفة منافية للسكوت والآفة، والله تعالى متكلم بها، أمرٌ ناهٍ مخبر. والقرآن كلام الله تعالى غير مخلوق، وهو مكتوب في مصاحفنا، محفوظ في قلوبنا، مقروء بالسنتنا، مسموع بأذاننا، غير حالٍ فيها. (من متن العقائد للنسفي).

والرؤوف، إلى غير ذلك مما يناسب ما هو بسبيله، وهو من أدب الدعاء، ويرجى له القبول لامتناله السنة فيه .

الوجه العاشر: فيه دليل على أن الدعاء عند النوازل من السنة، لأنه، عليه السلام، دعا على الكفار بالهزيمة، ودعا لنفسه المكرومة وللمؤمنين بالنصر حين أراد القتال، وهذا منه، عليه السلام، جَمَعَ بين الحقيقة والشرعية. فالشرعية هي أَخْذُ الْعُدَّةِ من السلاح وغيره والخروجُ للقتال وتحريضُ الصحابة لذلك، والحقيقة هي دعاؤه، عليه السلام، وإظهاره الافتقار، وتعلقه بربه عز وجل. وكذلك كان عليه السلام، يفعل في كل الأشياء، يبالغ في امتثال الحكمة، ثم بعد ذلك يرجع إلى الحقيقة فيتعلق بالله تعالى، ويرُدُّ الأمر إليه .

الوجه الحادي عشر: فيه دليل على وجوب قتال المشركين بالأيدي والأموال والألسنة، لأنه، عليه السلام، أخذ العدة للقتال وأتقنها - وهو الجهاد بالمال - ودعا عليهم بالهزيمة وللمسلمين بالنصر - وهو الجهاد باللسان - وقاتل، عليه السلام، وقاتلت الصحابة، رضوان الله عليهم - وهو الجهاد بالأيدي - وقد صرح، عليه السلام، بهذا في غير هذا الحديث فقال (قاتلوا المشركين بأيديكم وأموالكم وألسنتكم)<sup>(١)</sup>، فبين عليه السلام، بفعله فيما نحن بسبيله ما نص عليه في هذا الحديث .

الوجه الثاني عشر: فيه دليل لأهل الصوفة في المجاهدة التي يأخذون بها أنفسهم في كل ممكن يمكنهم، بالمال وبالأيدي وبالألسنة، لأنه إذا كان في الجهاد الأصغر ذلك فكيف به في الجهاد الأكبر؟ وكيفيته في الجهاد الأكبر ألا يُصَرَّف شيء من ذلك إلا باتباع أمر الله فيه واجتناب نهيه .

الوجه الثالث عشر: فيه دليل لهم أيضاً في كونهم يطلبون العافية بأنفسهم، ولا يعرضون بأنفسهم إلى المجاهدة التي لا قدرة لهم عليها، إلا أن يضطروا إلى ذلك فيفعلون ذلك للاضطرار، لأنه، عليه السلام، في الجهاد الأصغر نهى، عليه السلام، عن تمني لقاء العدو، وأمر بطلب العافية، فكيف به في الجهاد الأكبر؟ فعلى هذا فشأن المرء أن يطلب العافية في كل الأشياء، ولا يعرض نفسه لشيء، وهو لا يقدر عليه، اللهم إلا إن أتاه أمر وفاجأه فوظيفته إذ ذاك الصبر والتثبت والأدب فيما أقيم فيه .

ولأجل ترك النظر إلى هذا المعنى أو الجهل به كان كثير ممن لم ترسخ له قدم في الطريق، ولم يجتمع بأحد من فضلاء أهله يُقَطِّع به في نفس مجاهدته، ويدخل عليه الخلل فيما هو بسبيله، إما بخلل في العقل، وإما بارتداد لعدم وجود الميراث، لأن من دخل في المجاهدة منهم - أعني من

(١) م ذكره قبل قليل، وقلنا: إن مطلع: جاهدوا المشركين الخ .

الفضلاء المتحقيقين - لم يفعل ذلك بنفسه، وإنما هو محمول على حاله، بل إنهم إذا حملوا في شيء من تلك الأحوال لم يقدر أحد منهم أبداً أن يرجع عما أقيم فيه حتى يحول عنه، فإن رجع باختيار نفسه عوقب، ولم يترك لذلك. وهم في كل نفس يسألون العافية الشاملة، ويستنجيرون بالله من الفتنة، وهي أن يردوا إلى قوتهم وحيلتهم. فمن يراهم في الظاهر يفعلون ما يفعلون من المجاهدات يظن أن ذلك من قوة البشر وحيلته، فيريد التشبه بهم فيقطع به عنهم وهيئات هيئات المبتدي يتشبه بأهل النهايات. ذلك محال، لأن هناك مقامات وأحوالاً لا علم لهم بها، بل إنهم لا يدرون كيف يسمعونها. والله الموفق.

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



## حديث صدقات أعضاء بدن الإنسان

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كُلُّ سُلَامَى<sup>(١)</sup> مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ<sup>(٢)</sup> الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على أن من فعل خصلة من الخصال المذكورة فيه فله من الثواب على ذلك الأجر كثواب المتصدق وأجره. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله عليه السلام، (كل سُلَامَى من الناس عليه صدقة) لفظ (السُلَامَى) بضم السين وفتح الميم مع مَدَّها هي أعضاء ابن آدم، فكأنه، عليه الصلاة والسلام، يقول: يصبح على كل عضو من أعضائك صدقة. وقد ورد هذا بالنص، فعلى هذا فيعطي ظاهر الحديث أنه في كل يوم يحتاج المرء إلى ثلاثمائة وستين صدقة على عدد الأعضاء، إذ هي ثلاثمائة وستون، وهذا عسير من جهة أنه ليس كل الناس يقدر على هذا، وهو ثلاثمائة وستون صدقة، ألا ترى أن الله تعالى لما أمر من أراد أن يكلم النبي ﷺ بتقديم الصدقة بقوله تعالى ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً﴾<sup>(٣)</sup> شق ذلك على أكثرهم لقلة ما بأيديهم؟ فلما أن عَلِمَ الله، عز وجل، حقيقة أمرهم عذَرهم وتاب عليهم، لقوله تعالى ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً فَاذْكُرُوا فَعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) السُلَامَى: عظام الأصابع في اليد والقدم، وتجمع على سُلَامِيَّات. ويريد بها هنا: جميع عظام جسم الإنسان.

(٢) أَمِطَ الْأَذَى: نَحَاهُ وَأَبْعَدَهُ. يقال: مَاطَ الْأَذَى وَأَمَاطَهُ.

(٣) سورة المجادلة، من الآية ١٢.

(٤) سورة المجادلة، من الآية ١٣.

وكذلك ما نحن بسبيله من باب أولى لكثرة الضرورات التي تقع لكثير من الناس، فيكون في حق من أتى بعد الصحابة من باب أولى، إذ إن الصحابة، رضوان الله عليهم، لا يوازهم غيرهم في قوة إيمانهم وبقينهم وتعلقهم بربهم. كيف لا والنبي ﷺ بين أظهرهم ونوره منشع عليهم؟ فهم كانوا أجلد على هذا الأمر وأقوى ببركة وجوده ﷺ بينهم. ألا ترى إلى قول بعض الصحابة، رضوان الله عليهم: ما نفضنا أيدينا من التراب حين دفنا النبي ﷺ إلا وجدنا النقص في قلوبنا؟ فعلى هذا فيتعين رفع هذا الحرج فيمن يأتي بعدهم من باب أولى.

وقد ورد عنه ﷺ ما يبين هذا المعنى أنتم بيان حين سأله أصحابه، رضوان الله عليهم، حيث قالوا: فمن لم يستطع؟ قال: أمرٌ بمعروف ونهي عن منكر. قالوا: فإن لم يستطع؟ فعُدَّ لهم حتى قال (ركعتا الضحى تجزىء عنه) <sup>(١)</sup>. فعلى هذا فركعتا الضحى لمن لم يقدر على شيء وعجز تجزىء عن ثلاثمائة وستين صدقة ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ <sup>(٢)</sup> ولاجل ما فيها من هذه البركة قالت عائشة، رضي الله عنها: لو نُشِر لي أبواي ما تركتهما. فعلى هذا فركعتا الضحى تجزىء لمن عجز، ومن قدر فالأمر له بقدر استطاعته. ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ <sup>(٣)</sup>.

والمؤمن ينبغي له أن يكون في الدنيا نهياً، كما قيل: يابن آدم. الليل والنهار ينهبان فيك فانهب فيهما. فالعقل والشرع يقتضي أن من وجد سبيلاً إلى زيادة ذرة من فعل البر من صدقة أو غيرها كان به أولى وأرفع وأعظم. ولا تظن أن الصدقة محالة على هذا الأمر المحسوس من إنفاق الدراهم والدنانير، فالنفقة عامة، فإن لم تكن الدراهم والدنانير كان اللسان، وكانت العينان، وكانت اليدين، وكانت الرجلان. . . ألا ترى إلى ما أشار إليه ﷺ في هذا الحديث بقوله (والكلمة الطيبة صدقة). فكل هذه الأعضاء نفقتها طاعة الله بها. فللسان صدقة، وصدقته أشياء كثيرة منها: تلاوة كتاب الله تعالى، وقراءة حديث النبي ﷺ، ودرس العلوم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الضال، إلى غير ذلك، وهو كثير، وكذلك في جميع الأعضاء، وإنما ذكرت اللسان منها إشارة إلى باقيها. والله الموفق.

الوجه الثاني: قوله، عليه السلام، (كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين اثنين صدقة) العدل هنا يحتمل وجوهاً.

(١) في هذا المعنى أخرج مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليل صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويُجزى عن ذلك ركعتان يركعهما من الضحى.

(٢) سورة البقرة، من الآية ١٧٨.

(٣) سورة البقرة، من الآية ٢٨٦.

(الأول) أن يكون المراد به الحكم بين المتخاصمين، وهذا خاص بالحكام

(الثاني) أن يكون من جهة الأحكام فيما استُرعي المرء عليه من ماله وأهله وعبيده وحواسه، لقوله عليه السلام، (كلكم راعٍ وكل من مسؤول عن رعيته).

(الثالث) أن يكون المراد به التفرقة بين الحق والباطل، وإضافة كل شيء إلى جنسه. وهذا يعم الوجهين المتقدمين وغيرهما مثل الوصايا والصلح بين الناس وغير ذلك على العموم.

لكن يرد على هذا الفصل ثلاثة أسئلة: (الأول) أن يقال: لِمَ ذكر هنا اليوم ولم يذكره فيما قبل ولا فيما بعده؟ (الثاني) لِمَ ذكر طلوع الشمس، وذكر اليوم يُغني عنه؟ (الثالث) لِمَ ذكر النهار ولم يذكر الليل؟

(والجواب) عن الأول: إنه، عليه السلام، لما ذكر العدل - وهو التفرقة بين الحق والباطل على ما مرّ الكلام عليه - فذلك اليوم خير كله، أي هو مأجور فيه من أوله إلى آخره، لأنه إذا قام بالعدل فيه كان فيه مأجوراً، وإن نام في بعضه واستراح فكل ذلك صدقة وخير. يشهد لهذا ما حكى عن معاذ حيث قال: وأَحْتَسِبُ نَوْمِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمِي. فأجاز النبي ﷺ له ذلك وأقرّه عليه، لأن النوم له إعانة على القيام بالعدل.

(والجواب) عن الثاني من وجهين: (الأول) أنه إنما ذكر طلوع الشمس، لأن النهار لغة: من وقت طلوعها، واليوم: من طلوع الفجر للصائم. فأراد، عليه السلام، أن يبين أنه أراد اليوم اللغوي لكون تصرف الناس في غالب أمرهم إنما هو من وقت طلوعها، وعند التصرف يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو العدل المشار إليه. (الثاني) أن يكون، عليه السلام، تحرز بذكر طلوع الشمس من اليوم الذي لا تطلع فيه حتى تطلع بعد من مغربها. وذلك اليوم لا يقبل فيه العمل، لأن ذلك هو المراد بقوله تعالى ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَاهَا أَنْ تَكُنَّ آمِنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾<sup>(١)</sup> لأن ذلك وقت المعاناة، والإيمان والعمل الذي ينفع معه إنما هو ما كان بالغيب، وأما مع المعاناة فلا. وقد آمن فرعون حين رأى البلاء قد حلّ به، وهو الغرق، فلم ينفعه إذ ذاك، لأجل أنه ما آمن حتى عاين.

واليوم الذي تبقى الشمس لا تطلع فيه قد أخبر به، عليه السلام، وجعله علماً على قيام الساعة، وجعله من الآيات الكبرى الدالة على قيامها، فأخبر أن الشمس تأتي في كل ليلة إلى موضع تحت العرش حيث قُدِّر لها فتسجد هناك، وتبقى ساجدة ما شاء الله، فيؤذن لها في القيام والطلوع من موضعها الذي تعهّد، ثم يأتي القمر كذلك فيسجد فيبقى ساجداً ما شاء الله ثم يؤذن له في الرفع

(١) سورة الأنعام، من الآية ١٥٨.

والطلوع من موضعه الذي يَعْهَد. فهما كذلك لا يجتمعان إلى تلك الليلة، فتأتي الشمس فتسجد فينصرف الليل ولا يؤذن لها في الرفع، فتبقى على حالها، فيأتي القمر على عادته فيجدها هناك فيسجد هو أيضاً، ويبقى كذلك ما شاء الله ثم يؤذن لهما بالرفع وأن يطلعا معاً من مغربهما. فمن كان عنده في ذلك الوقت إيمان فهو السعيد، ومن كان غريباً عنه فقد خسر الخسران المبين، لأنه ما بعد المعايضة إلا الثواب لأهل الإيمان، والأعمال والطرْد لأهل الكفر والعناد<sup>(١)</sup>.

(والجواب) عن الثالث أنه، عليه السلام، إنما ذكر اليوم ولم يذكر الليل، لأن الليل جُمِل للنوم، وجُعِل النهار للتكسب والمعاش، وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا. وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾<sup>(٢)</sup> فلما أن كان الليل للنوم في الأغلب أو للتهجد للموفقين، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾<sup>(٤)</sup> سكت عنه عليه السلام، إذ ليس فيه إلا هذان الفعلان غالباً، وذكر النهار لكونه فيه التكسب، فيحتاج فيه إلى العدل. وإن احتيج إلى إقامة العدل بالليل من نصر مظلوم وأداء حق فذلك نادر، والنادر لا يراعى حتى يُحتاج إلى ذكره، وإن وقع فهو مقيس على العدل بالنهار. فترك ذكره إبلاغاً في الاختصار مع حصول الفائدة فيهما معاً.

الوجه الثالث: من البحث المتقدم قوله، عليه السلام (ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة) يحمل أو يرفع شك من الراوي في أيهما قال عليه السلام. والكلام عليه من وجهين:

(الأول) أن المتاع والدابة لشخص واحد، لكن عجز عن رفع المتاع على دابته، فكانت الإعانة له سبباً لتبليغ متاعه على ظهر دابته، فحصل له الأجر على مشاركته له في هذا المقدار اليسير.

(١) في هذا المعنى أخرج مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقر ما تحت العرش، فتخِرُ ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي أرجعي من حيث حيث، فترجع طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخِرُ ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي أرجعي من حيث حيث، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي اصبحي طالعة من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها. أتدرون متى ذاكم؟ حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً.

(٢) سورة النبأ، الآيتان ١٠ و ١١.

(٣) سورة الإسراء، من الآية ٧٩.

(٤) سورة المزمل، الآية ٦.

(الثاني) إنه ليس على العموم. والكلام فيه من ثلاثة أوجه: في الحامل والمحمول والمحمول عليه.

أما الحامل فهو أن يجتنب فيه أن يكون ظالماً أو بدعياً أو فاسقاً وما أشبههم، لأن هجرانهم واجب، فلا تجوز إعانتهم.

وأما المحمول فهو أن يجتنب فيه من حمل خمر أو متاع مغصوب أو ما أشبه ذلك، لأن الممين لذلك كالفاعل له، لأنه، عليه السلام، قد لعن شارب الخمر وحاملها وشاهدها<sup>(١)</sup>، وكذلك سائر الممنوعات.

وأما المحمول عليه فهو ألا يكلف ما لا يطيق، لأن الإعانة على ذلك لا تجوز.

الوجه الرابع: من البحث الأول قوله، عليه السلام (والكلمة الطيبة صدقة) الكلمة الطيبة هنا احتملت وجهين: إن كان المراد بها إدخال السرور على المتكلم معه فليست على العموم لما جاء (أن الرجل يتكلم بالكلمة ليضحك بها أهله لا يبالي بها يهوي بها في النار سبعين خريفاً)<sup>(٢)</sup> ومثل ذلك اليوم كثير لتملق بعضهم لبعض في الظاهر، وبغض بعضهم لبعض في الباطن، وقد أخبر بذلك عليه السلام حيث قال: (يأتي آخر الزمان أقوام أصدقاء العلانية أعداء السرية. قالوا: وكيف يكون ذلك؟ قال: ذلك لرغبة بعضهم لبعض، ورهبة بعضهم من بعض)<sup>(٣)</sup>. فهذا وما أشبهه ممنوع. وإن كان المراد بها في ذاتها فتكون طيبة على مقتضى لسان العلم.

الوجه الخامس: قوله عليه السلام (وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة) ظاهر الحديث أنه معارض لقوله عليه السلام (يكتب له بإحدى خطواته حسنة وتُمحى عنه بالأخرى سيئة)<sup>(٤)</sup> يعني في الخطى إلى المساجد، لكن إن وقع التحقيق في النظر في معناهما فهما لا يتنافيان، إذ إن الصدقة إنما

---

(١) أخرج أبو داود والحاكم في المستدرک والبيهقي في السنن عن ابن عمر والترمذي وابن ماجه عن أنس والطبراني عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنهم جميعاً أن النبي ﷺ قال: لعن الله الخمر وشاربها وساقبها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وأكل ثمنها.

(٢) رواه البيهقي بلفظ: إن العبد ليَقُولَ الكلمة لا يقولها إلا ليضحك بها المجلس يهوي بها أبعد ما بين السماء والأرض. وللنسائي ومسلم والبخاري روايات أخرى من طرق ثانية وكلها في هذا المعنى.

(٣) سلف تخريجه في الحديث (١١٧).

(٤) رواه الإمام مالك في الطهارة وفي معناه البخاري في الجماعة ومسلم في المساجد، ولفظه في الموطأ: من تروأ فأحسن الوضوء، ثم خرج عامداً إلى الصلاة، فإنه في صلاة ما كان يعمد إلى صلاة، وإنه يكتب له بإحدى خطواته حسنة وتُمحى عنه بالأخرى سيئة، فإذا سمع أحدكم الإقامة فلا يَسْعَ، فإن أعظمكم أجراً أبعدكم داراً. قالوا: لم يا أبا هريرة؟ قال: من أجل كثرة الخطى.

هي عبارة عن كسب الحسنه، ولا تمحى السيئه إلا بكسب الحسنه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾<sup>(١)</sup> فالحسنه التي تُكتسب في الخطوة الواحدة تذهب بالسيئه

وقد اختلف العلماء: هل محو السيئات محسوسة أو معنوية؟ على قولين: فمن قال بالمحسوس ذهب إلى أن السيئات تُمحى من السجل حتى يأتي صاحبها يوم القيامة فلا يجدها. ومن قال بالمعنوي ذهب إلى أنها باقية في السجل، لكن إذا جعلت في كفة، والحسنات في كفة، فتساوت فلم يبق عليه في السيئات عقاب، فكانها محوثة لأن عقابها سقط. وهذا هو الأظهر - والله أعلم - لقوله تعالى ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فلو محبت بالحس على ما ذهبت إليه الطائفة الأولى لم يبق ما يوزن.

الوجه السادس: قوله عليه السلام (وتميط الأذى عن الطريق صدقة) الكلام عليه من وجهين: في الإماطة، وفي الأذى. فالإماطة بمعنى: الإزالة. والأذى هو: كل ما يُتأذى منه في الطريق. فيكون الذي يزيله مأجوراً فيه دَقَّ أو جَلَّ. ومثل ذلك ما روى مالك في موطنه عن النبي ﷺ أن رجلاً أَمَاطَ شوكة من الطريق فشكر الله له، فغفر له.

الوجه السابع: في الحديث تنبيه معنوي لأنه إذا كنت مطلوباً بهذا فحسبك به شغلاً. ولهذا المعنى قال عليه السلام (كفى بالعبادة شغلاً)<sup>(٣)</sup>، لأن من لم ينفرد لهذا الشأن فاته من الخير كثير. ولهذا المعنى انقطع أهل التحقيق للعبادة، لأن نظرهم إلى هذه الأشياء وتتبعها لا يسعهم معها غيرها، وهي طريق السعادة. والله الموفق.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) سورة هود، من الآية ١١٤.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ١٠٢.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن عمار بن ياسر رضي الله عنه بلفظ: كفى بالموت واعظاً، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلاً. وقال العراقي: رواه الطبراني والبيهقي عن عمار بسند ضعيف، وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض.

## حديث الحث على اتخاذ الرفيق في السفر

عَنْ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الْوَحْدَةِ مَا أَعْلَمُ مَا سَارَ رَاكِبٌ لَّيْلٍ وَحْدَهُ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على منع سير الراكب بالليل وحده. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله، عليه السلام (لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم) هل هذا عائد على ما ذكره، عليه السلام، في أحاديث غير هذا مما أذكره بعد، أو لأمر ثان غير ذلك، أو لمجموعهما؟ احتمل كل واحد منهما. واحتمل أن يكون عائداً على كليهما - وهذا هو الأظهر - لأنه أبلغ في الزجر وأقوى، وذلك موجود في الشريعة في غير ما موضع. والإيهام لتعظيم الفائدة. فإذا كان المراد هذا الوجه الذي أبديناه فيترتب عليه من الفقه أن ينظر ما هو الأرشد: هل إبداء الحقائق أو الإشارة إليها دون تعيينها؟ فالذي فيه الأصلح منهما يفعل، لأنه، عليه السلام، مرة أشار إلى الحقائق ولم يبينها كما فعل فيما نحن بسبيله، ومرة أبدى الحقائق حين ذكر الثواب على الأعمال وغير ذلك.

الوجه الثاني: هل هذا النهي مقصور على الراكب دون غيره، أو هو من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى؟ احتمل الوجهين معاً. والأظهر أن يكون من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى، لأنه أجمع للفائدة، ولأن الماشي من باب أولئ أن ينهى من الراكب، لأنه يباشر الأرض بنفسه. والراكب لا يباشر الأرض بنفسه، وقد يتأنس بالدابة التي هو عليها راکب؛ ولأن العلة التي لأجلها نهى النبي ﷺ عن ذلك هي - والله أعلم - ما ذكره في حديث غير هذا، حيث أخبر بأن الشياطين تنتشر أول الليل أكثر من آخره، فإذا كان الرجل وحده لا يؤمن عليه من أذاة الشياطين، وكذلك إذا كان هو وغيره ليس معهما ثالث، لقوله، عليه السلام، في حديث غير هذا (الشيطان يهيم بالواحد والاثنين، والثلاثة ركب)<sup>(١)</sup> فإذا كانوا جماعة وقع الأمن من إيذائهم، هذا من جهة الشياطين.

(١) رواه الإمام مالك وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وصححه ابن خزيمة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب.

وفيه معنى آخر وهو: أنه قد يخاف عليه لتأجيله النوم فيفضل عن الطريق، لأن الليل للنوم، أو يأخذه ألم أو نازلة من النوازل فلا يجد من يلجأ إليه ولا من يستعين به ويرتفق. والنبي ﷺ كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، فحضرهم، عليه السلام، على ما هو الأصلح لهم في الدنيا والآخرة.

وهذا النهي ليس على العموم لكل الناس وإنما هو للعوام وبعض الخواص ممن هو متردد في حاله، وأما من كان من الخواص المتحققين فليس يتناوله هذا النهي، لأن النهي إنما ورد فيمن كان وحده، وهذا ليس وحده. يدل على ذلك قوله عليه السلام (أنت صاحب في السفر) <sup>(١)</sup> وقوله عليه السلام إخباراً عن ربه، عز وجل يقول (أنا جليس من ذكرني) <sup>(٢)</sup>. والخواص لا يزالون في الذكر. فإذا حصلت له صحبة مولاه ومجالسته في سفره فهي الطريق المباركة. ومثل ما نحن بسبيله قوله تعالى ﴿وَتَكَرَّذُوا فَاِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ <sup>(٣)</sup> فأمر الله تعالى بالزاد عموماً، ثم نبه لأهل الخصوص بأعلى الزاد وهو التقوى. فمن كان من أهل التقوى فقد أخذ بأعلى الزاد وهو التقوى. ومن لم يكن من أهل التقوى فلا يجوز له السفر إلا بالزاد المحسوس. فإن سافر دونه حكاك عاصياً ودخل في عموم قوله ﴿وَلَا تَلْقُوا يَأْتِيَكُمُ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾ <sup>(٤)</sup> وكذلك فيما نحن بسبيله إن سافر وحده دخل تحت النهي، وألقى بيده إلى التهلكة، إن لم يكن من أهل الخصوص.

وإلى ما نحن بسبيله أشار بعض الفضلاء من أهل الطريق بقوله: إن الحال القوي إذا ورد على الفقير يمشى حيث شاء، فهو في ذمة الله لا يلحقه أذى، وينجح سعيه في كل ما يخطر له من سبل الخير والأمور المباحة، لكن هذا يحتاج إلى بيان، لأن المباح عند أهل الطريق متروك. لكن قد يكون المباح واجباً أو مندوباً إذا كان سبباً لأحدهما، لأنه ما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يتوصل إلى المندوب إلا به فهو مندوب. فإن كان المرید في حاله متردداً فذلك دال على ضعفه، فلا يعمل عليه، شأنه التقيد بلسان العلم، فإن ترك لسان العلم وعمل على الحال الذي ورد عليه مع ضعفه كان مرتكباً للنهي.

الوجه الثالث: في الحديث (إشارة صوفية) وهو أن السفر عند أهل الطريق عبارة عن الانتقال من حال إلى حال، كما هو عند أبناء الدنيا عبارة عن الانتقال من بقعة إلى بقعة. وظلمة الليل عبارة

(١) قطعة من حديث رواه مسلم في الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره.

(٢) روي من طرق ضعيفة عند البيهقي وعبد الرزاق والديلمي وابن شاهين بلفظ: قال موسى: يا رب، أقریب أنت فأناجيك أو بعيد فأناديك؟ فقل له: يا موسى، أنا جليس من ذكرني.

(٣) سورة البقرة، من الآية ١٩٧.

(٤) سورة البقرة، من الآية ١٩٥.



عن الجهل . ووافقهم في هذا أهل الفقه لأن الظلام عند الكل بمعنى الجهل، وضده العلم وهو  
النور، فلا يسافر أحد منهم سफراً فيه ظلمة إلا بموافقة أهل العلم والتقوى، فيصير هو بمن معه ركباً  
يأمن من ضرر الشيطان، وفتن الهوى .

جعلنا الله ممّن صحب ما صحبوا حتى يبلغ ما بلغوا بمتّه . آمين .  
وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا .

## حديث من الجهاد بر الوالدين

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ، فَقَالَ: أَحْيِ وَالِدَاكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ.

• • •

ظاهر الحديث يدل على أن بر الوالدين أكد من الجهاد. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: إن هذا يؤكد ليس على عمره، لأنه إذا كان الجهاد فرض عين لا يُستأذن فيه الأبوان، وإنما يُستأذن فيه إذا كان فرض كفاية، فذلك الذي برهما فيه أكد من الجهاد.

وفيه دليل على أن الغزو لا يُخرج إليه إلا بإذن الإمام، لأن هذا الصحابي، رضي الله عنه، لم يكن ليخرج حتى استأذن النبي ﷺ: هل يخرج أو لا؟

الوجه الثاني: لقائل أن يقول: لم أمر، عليه السلام، هذا بالجلوس مع الأبوين؟ وأمره بترك الجهاد، وهو أعلى الأعمال لقوله، عليه السلام (ما أعمال البر في الجهاد إلا كبزقة في بحر؟)<sup>(١)</sup>.

(والجواب) أنه لم يختلف أحد من العلماء أن الجهاد إذا كان واجباً على الأعيان لا يُستأذن فيه الأبوان، مثل أن يغشى العدو قرية قوم، فيتعين الجهاد على الكل دون استشارة أحدٍ لأحد، لا ولدٍ لوالد، ولا عبدٍ لسيّد. وإذا كان الجهاد فرض كفاية فلا يمكن أن يكون إلا برضا الوالدين، وإلا فخدمتهما أرفع من الجهاد، بمقتضى الحديث الذي نحن بسبيله.

الوجه الثالث: فيه دليل على أن طاعة العالم أو العارف لا تكون إلا بمقتضى لسان العلم

(١) سبق تخريج هذا الحديث الذي يستشهد به الشيخ ابن أبي جمرة كثيراً. . . . . وقلنا فيه: قال العراقي في تخريج الإحياء، باب وجوب الأمر بالمعروف: رواه الديلمي من حديث جابر بإسناد ضعيف. قال الزبيدي في شرح الإحياء: ورواه أبو الشيخ ابن حبان من حديث أنس. ولفظه في مسند الفردوس: ما أعمال العباد كلهم عند المجاهدين في سبيل الله إلا كمثل حطّافٍ أخذ بمنقاره من ماء البحر؛ قال محقق المسند: إن الحافظ ابن حجر قال في (تسديد القوس) ٢٢١: وفي رواية لأبي هريرة: (إِلَّا كَتَفَلَةٍ تَقْلَهُ رَجُلٌ فِي بَحْرِ لُجِّي).

والترجيح فيها، والأخذ بالأعلى فالأعلى بمقتضى الحال، لأن هذا الصحابي، رضي الله عنه، لما أراد الجهاد لما سمع فيه من الترغيب، وعزم على فعله خاف أن يكون هناك فعل أقرب إلى الله تعالى بالنسبة إلى حاله، فسأل النبي ﷺ سؤال استرشاد، ليبين له ما هو الأصلح في حقه، والأقرب إلى الله؟ فذكر له، عليه السلام، الحديث. ولهذا المعنى أشار أهل الصوفة بقولهم: (طاعة الجاهل شهوة وطاعة العارف امتثال). يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾<sup>(١)</sup>.

الوجه الرابع: فيه دليل على جواز العبارة عن الشيء بضده إذا فهم المعنى، لأن صيغة اللفظ وهو قوله، عليه السلام (ففيهما فجاهد) يقتضي على ظاهره إيصال الضرر الذي كان المتوقع أن ينزل بغيرهما ينزل بهما، وليس المراد ذلك، وإنما المقصود: ففي برهما فجاهد نفسك.

الوجه الخامس: فيه دليل على أن بر الأم والوالد على حد سواء، رداً على من يقول بأن ثلثي البر للأم، لأنه، عليه السلام، سوى بينهما في اللفظ. فإن احتج هذا القائل بقوله، عليه السلام في غير هذا الحديث للذي سأل عَمَّنْ أَبْرُ؟ فقال: (أُمَّكَ ثم أُمَّكَ ثم أَبَاكَ)<sup>(٢)</sup> فكرر الأم ثلاثاً. قيل له: إنما كرر النبي ﷺ الأم ثلاثاً لأن العرب كانت تهاب الرجال وتعظمهم، وتستضعف النساء وتستحقرهن، فأكد بالتكرار ليرجعوا عن تلك العادة، ويلحق برُّها برُّ الأب على حد سواء، كما نص عليه في هذا الحديث.

الوجه السادس: فيه دليل على أن بر الوالدين أجل من الجهاد ما لم يكن فرض عين، لأن الجهاد في وقت ما، وبرُّهما لا ينال إلا بدوام المجاهدة طولَ عمرهما، والجهاد الدائم أفضل من جهاد ساعة، ولهذا المعنى قال عليه السلام (هبطتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس)، لأن الجهاد ساعة من الزمان، وجهاد النفس مستمر على الدوام.

الوجه السابع: فيه دليل على أن كل ما يؤلم النفس يسمى جهاداً، لأن الأبوين قد يحملانه ما لا تشتهي النفس، فسماه، عليه السلام، لأجل ذلك جهاداً.

الوجه الثامن: فيه دليل على أنه لا يبلغ حقيقة رضى الوالدين إلا بالمجاهدة الكلية، لأنه،

(١) سورة الإسراء، من الآية ٥٧.

(٢) رواه أبو داود والترمذي عن معاوية بن حيدة القشيري بلفظ: قلت يا رسول الله، من أبر؟ قال: أُمَّكَ. قلت: ثم من؟ قال: أُمَّكَ. قلت: ثم من؟ قال: أباكَ ثم الأقرب فالأقرب. ورواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: جاء رجل فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أُمَّكَ، قال: ثم من؟ قال: أُمَّكَ. قال: ثم من؟ قال: أُمَّكَ، قال: ثم من؟ قال: أبوك. تقدم تخريجه في الحديث (١٣٠).

عليه السلام جعل الجلوس معهما، والامتثال لأمرهما، والصبر عليهما بمثابة المجاهدة في سبيل الله. كيف لا، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِّمَن آفَى وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾<sup>(١)</sup>؟ فإذا منع الله تعالى جوابهما بهذا المقدار من التأفف فكيف لا يكون هذا أكبر من الجهاد وأفضل، لأن ذلك أشق على النفس، وأقوى من لقاء العدو، ومضاربه؟.

الوجه التاسع: فيه دليل على أن المستشار يسأل عن أحوال المستشير حتى يعلمها، وحينئذ يشير عليه بما هو الأصلح في حقه، لأن النبي ﷺ لما أن استشاره هذا الصحابي هل يخرج للجهاد أم لا؟ سأله عن حاله في قوله (أحيى أبواك)؟ حتى علم ما هو الأقرب في حقه بالنسبة إلى حاله، فأرشده إليه.

الوجه العاشر: فيه دليل على أن السنة عند الدخول في السلوك والمجاهدة أن يكون على يد عارف به، فيرشد إلى ما هو الأصلح فيه والأسد بالنسبة إلى حال السالك، لأن هذا الصحابي رضي الله عنه لما أن أراد الخروج إلى الجهاد لم يستبد برأي نفسه في ذلك حتى استشار من هو أعلم منه وأعرف. هذا في الجهاد الأصغر فكيف به في الجهاد الأكبر؟.

وهذا أدل دليل لأهل الصوفة المتحققين الذين لا يدخلون في المجاهدات والسلوك إلا تحت يد شيخ عارف بالسلوك، ويقولون: بأن من دخل في ذلك دون شيخ قل أن يجيء منه شيء، وإن جاء فلا يصل إلى مقام المربي ومعرفته وفطنته، اللهم إلا إن كان ذلك بخرق العادة، وما كان بخرق العادة فليس الكلام عليه، وإنما الكلام على ما جرت به عادة الحكمة. والله المستعان.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الإسراء، من الآية ٢٣.

## حديث تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه سمع النبي ﷺ يقول: لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ، وَلَا تُسَافِرُ امْرَأَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا مَحْرَمٌ. فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اكْتَبْتُ فِي غَزْوَةٍ كَذَا وَخَرَجْتَ امْرَأَتِي حَاجَةً. قَالَ: اذْهَبْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ.

\* \* \*

ظاهر الحديث يدل على منع الخلوة بالمرأة بموضع واحد إذا كانت أجنبية، ومنع سفرها بغير مَحْرَمٍ. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: أن مستمع العلم لا يكون بحثه فيه إلا لمجرد فائدة العمل به، لا لمجرد الكلام والظهور، لأن هذا الصحابي، رضي الله عنه، لما أن سمع حُكْمَيْنِ لم يسأل ولم يبحث إلا فيما احتاج إليه في الوقت، وهو السؤال عن الخروج مع امرأته.

الوجه الثاني: أن الأمر إذا أمر بالمأمور بشيء، ثم سمعه المأمور يبين حكماً آخر ويحض عليه، فله أن يستفسر الأمر، هل يقيم على ما شرع فيه أو ينتقل إلى هذا الأمر الثاني؟ وهذا الوجه إنما يكون بحضور الأمر إذا كان هو المبين للأحكام. وأما الآن فقد ارتفع ذلك، لأن العلم اليوم لا يؤخذ إلا بالنقل. فإذا كان الإنسان على عمل قد تقدم له به علم، ثم استفاد علماً ثانياً، ويكون العمل بالثاني أفضل من الأول، فالمندوب في حقه ترك العمل بالأول والرجوع إلى العمل بالثاني، ما لم يكن العلم بالثاني يوجب عليه فرضاً، فانتقاله للفرض واجب عليه.

الوجه الثالث: جواز ذكر النساء بحضرة الفضلاء، من غير زيادة ما أحدث اليوم من البدع من قولهم عند ذكرهن (حاشاك)، لأنه قد تردد هنا ذكر المرأة من النبي ﷺ والصحابي، ولم يزيدها على ذكر المرأة شيئاً. وبعض أهل هذا الزمان اتخذوا زيادة ذلك من الأدب، وهي بدعة محضة، بل هي بدعة في كل موضع وقع النطق بها، لأنها لم تكن من فعل السلف، والخير كله في اتباعهم. وقد صار حالهم اليوم لشؤم البدعة أن يقع بعضهم في الكفر الصراح، لأنه إذا تناول أحد منهم الختمة أو

حديث النبي ﷺ يقول عند ذلك (حاشاك). ولو اعتقد هذا لقتلناه. لكن ظاهر اللفظ رديء جداً. نسأل الله السلامة، ولأن الله، عز وجل، لما أن ذكر الرجال سوى بين ذكرهم وذكر النساء فقال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾<sup>(١)</sup> فذكرن في القرآن والسنة مع الرجال على حد واحد، لا زيادة لهن في اللفظ.

الوجه الرابع: لقائل أن يقول: لم أمره، عليه السلام، بالخروج مع امرأته وترك الجهاد، والجهاد فيه من الأفضلية ما تقدم في الحديث قبل هذا؟ والجواب: إن خروجه للحج مع امرأته مندوب، وخروجه إلى الجهاد الذي ليس بفرض عين مندوب أيضاً، فلما كان الخروج مع المرأة مندوباً وينضاف إليه مندوب غيره - وهو حجّه عن نفسه بعد الحج الواجب - فمندوب يتضمن مندوبين أولى من مندوب واحد لا يتضمن زيادة.

ويترتب على هذا من الفقه أنه إذا تعارض عملان على حد سواء من طريق الأفضلية أو الندبية، وكان أحدهما يرجع الآخر بزيادة أجر أو سبب إلى فعل يوجب أجراً. فأخذ الراجح وترك المرجوح هو الأولى.

الوجه الخامس: أن الإمام إذا وجه جمعاً إلى وجهة أن السنة فيهم أن يضبطوا بالكتابة، لأنه قال: اكتتبت في غزوة كذا، ولأن الكتابة تمنع من النسيان عن بعض من عُيِّن في تلك الوجهة، وأيضاً فإنهم إذا حُصِرُوا بالكتابة كان ذلك قطع مادة لهم عن أن يتخلف أحد منهم، ويحدث نفسه بذلك، وتحضيضاً لهم في الأهبة لما هم بسبيله.

الوجه السادس: أن الراعي ينظر لرعيته في المنفعة الخاصة والعامة، ويؤثر الأهم فالأهم، لأن النبي ﷺ لما أن جعل هذا الصحابي في الجهاد، وفيه منفعة خاصة وعامة، ثم رأى له زيادة منفعة خاصة حملة على ما هو أنفع له في الخاص به، لأن غيره يسدّ مسدّه في العام. فدل هذا على أن الشخص في نفسه وما يخص بذاته أكد عليه مما يعم بجنسه في الواجبات والمندوبات، ومما يؤيد هذا قوله عليه السلام (ابدأ بنفسك ثم بمن تعول)<sup>(٢)</sup>. وكذا يجب في الرعاية العامة والخاصة. والله المستعان.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) سورة النساء، من الآية ٣٤.

(٢) رواه البخاري وعبد الرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى. وفي مسلم عن أبي أمامة رواية قريية ممّا ذكرنا.

## الفهرس

### تقديم الكتاب

- أ ..... أنا وابن أبي جمرة  
د ..... من هو ابن أبي جمرة  
ز ..... كتاب بهجة النفوس  
ز ..... أصله ومضمونه  
ح ..... مخطوطات الكتاب  
أ ج ..... منهج التحقيق

### كتاب بهجة النفوس وتحليها بما لها وعليها

للشيخ عبد الله بن أبي جمرة

الأزدي الأندلسي

- ٩ ..... مقدمة الإمام ابن أبي جمرة على مختصر صحيح البخاري  
١ ..... ١ - حديث بدء الوحي  
٣٤ ..... ٢ - حديث حلاوة الإيمان  
٣٩ ..... ٣ - حديث البيعة  
٨١ ..... ٤ - حديث قتال المسلمين  
٨٨ ..... ٥ - حديث قيام ليلة القدر  
٩٧ ..... ٦ - حديث إن الدين يُسرُّ  
١٣٢ ..... ٧ - حديث وفد عبد القيس  
١٤٢ ..... ٨ - حديث احتساب النفقة على الأهل  
١٤٧ ..... ٩ - حديث من يُرد الله به خيراً يُفقهه في الدين

- ١٠ - حديث من سلك طريقاً يطلب به عملاً ..... ١٥٤
- ١١ - حديث قيام الأمة المحمدية على الحق إلى يوم القيامة ..... ١٥٩
- ١٢ - حديث سؤال القبر وفتنته ..... ١٦٨
- ١٣ - حديث أسعد الناس من قال لا إله إلا الله ..... ١٨١
- ١٤ - حديث رفع العلم بقبض العلماء ..... ١٩١
- ١٥ - حديث الحساب والعرض ..... ٢٠٠
- ١٦ - حديث القتال في سبيل الله ..... ٢٠٦
- ١٧ - حديث الرجل يخيل إليه أنه يجد ريحاً وهو في الصلاة ..... ٢١٠
- ١٨ - حديث البول والاستنجاء والشرب ..... ٢١٤
- ١٩ - حديث الرأفة بالحيوان ..... ٢١٧
- ٢٠ - حديث النعاس في الصلاة ..... ٢٢٠
- ٢١ - حديث غسل المني من الثوب ..... ٢٢٩
- ٢٢ - حديث غسل دم الحيض ..... ٢٣١
- ٢٣ - حديث كيفية الاغتسال من الحيض ..... ٢٣٥
- ٢٤ - حديث خلق الجنين في بطن أمه ..... ٢٣٩
- ٢٥ - حديث جواز الصلاة في السفينة ..... ٢٤٧
- ٢٦ - حديث جواز التحرز من حرّ الحصباء في السجود ..... ٢٧٠
- ٢٧ - حديث كراهة النخامة في المسجد ..... ٢٥٧
- ٢٨ - حديث حبه ﷺ التَّيْمُن ..... ٢٦٥
- ٢٩ - حديث المسافر إذا قَدِم من سفره يبدأ بالمسجد ..... ٢٦٧
- ٣٠ - حديث صلاة الملائكة على المصلّي ما دام في مصلاه ..... ٢٦٩
- ٣١ - حديث سجود السهو ..... ٢٧٢
- ٣٢ - حديث الشُّرة للمصلّي والمرور بين يديه ..... ٢٧٨
- ٣٣ - حديث فتنة الأهل والمال وكفارتها ..... ٢٨٢
- ٣٤ - حديث تعاقب الملائكة الكرام الكاتبين ..... ٢٨٦
- ٣٥ - حديث من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها ..... ٢٩٢



٢٩٥	٣٦ - حديث الأذان في البادية وفضله .....
٢٩٩	٣٧ - حديث فضل الأذان والصف الأول والعتمة والصبح .....
٣٠٥	٣٨ - حديث إتيان الصلاة بالسكينة .....
٣١١	٣٩ - حديث القيام إلى الصلاة .....
٣١٥	٤٠ - حديث انتظار الإمام .....
٣٢٠	٤١ - حديث سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظل عرشه .....
٣٣٠	٤٢ - حديث تقديم العشاء على الصلاة .....
٣٣٥	٤٣ - حديث تخفيف الصلاة .....
٣٤٢	٤٤ - حديث أصل صلاة التراويح .....
٣٤٨	٤٥ - حديث جواز المشي في الصلاة .....
٣٥٢	٤٦ - حديث وجوب توفية أركان الصلاة .....
٣٥٨	٤٧ - حديث رد المأموم على الإمام بالحمد في الرفع .....
٣٦١	٤٨ - حديث رؤية المولى عز وجل .....
٣٨٨	٤٩ - حديث جواز الدعاء في الصلاة .....
٣٩٣	٥٠ - حديث رفع الصوت بالذكر بعد الصلاة .....
٣٩٧	٥١ - حديث كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته .....
٤٠٨	٥٢ - حديث التبكير والتبريد بالصلاة .....
٤١٢	٥٣ - حديث تحية المسجد والإمام يخطب .....
٤١٧	٥٤ - حديث دعاء الرسول ﷺ .....
٤٢٣	٥٥ - حديث صلاة النوافل قبل الفرائض وبعدها .....
٤٢٩	٥٦ - حديث غزاة بني قريظة .....
٤٣٣	٥٧ - حديث السنة يوم عيد الفطر .....
٤٣٦	٥٨ - حديث العمل في أيام التشريق .....
٤٤١	٥٩ - حديث جواز التنقل على الدابة في السفر .....
٤٤٦	٦٠ - حديث أشراط الساعة .....
٤٥٣	٦١ - حديث إن لنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً .....

- ٦٢ - حديث الاستخارة في الأمور ..... ٤٥٨
- ٦٣ - حديث ما بين بيته ومنبره ﷺ ..... ٤٦٤
- ٦٤ - حديث كراهة الرسول أن يبيت عنده ذهب أو يمسى ..... ٤٧٠
- ٦٥ - قضاء النافلة في وقت الكراهة ..... ٤٧٥
- ٦٦ - سبعة أوامر وسبعة نواه ..... ٤٧٩
- ٦٧ - حديث وفاة الرسول وفضل أبي بكر ..... ٤٨٤
- ٦٨ - جواز بكاء الرحمة على الميت ..... ٤٩٠
- ٦٩ - حديث الرؤيا في تعذيب العصاة ..... ٤٩٧
- ٧٠ - حديث لا حسد إلا في اثنتين ..... ٥١٣
- ٧١ - حديث فضل فالصدقة ..... ٥٢٠
- ٧٢ - حديث صدقة المرأة من مال زوجها ..... ٥٢٤
- ٧٣ - حديث إتلاف أموال الناس ..... ٥٣١
- ٧٤ - حديث الأمر بالصدقة على كل مسلم ..... ٥٣٩
- ٧٥ - حديث أخذ المال بسخاوة نفس ..... ٥٤٥
- ٧٦ - حديث كراهية كثرة السؤال ..... ٥٥١
- ٧٧ - حديث قرآن الحج بالعمرة ..... ٥٥٥
- ٧٨ - حديث الإنابة في الحج ..... ٥٥٩
- ٧٩ - حديث ما يلبس المحرم في الحج ..... ٥٦٦
- ٨٠ - حديث جواز الشرب من السقاية ..... ٥٧٢
- ٨١ - حديث تقديم صلاة الفجر بالمزدلفة يوم النحر ..... ٥٧٨
- ٨٢ - حديث الصدقة بجلال البُذْن التي تُنَحَّر وجلودها ..... ٥٨٢
- ٨٣ - البخاري : قال عطاء رضي الله عنه : إذا تطيّب أو لبس جاهلاً  
أو ناسياً فلا كفارة عليه ..... ٥٨٧
- ٨٤ - حديث بناء مسجد الرسول ﷺ ..... ٥٨٩
- ٨٥ - حديث خروج الدجال وفتنته ..... ٥٩٢
- ٨٦ - حديث حراسة مكة والمدينة من الدجال ..... ٦٠٠

- ٨٧ - حديث من استطاع منكم الباءة فليتزوج ..... ٦٠٥
- ٨٨ - حديث توقيت السحور ..... ٦١٤
- ٨٩ - حديث من أفطر يوماً في رمضان من غير عذر ..... ٦١٩
- ٩٠ - حديث وصية النبي لأبي هريرة بثلاثة أعمال من البر ..... ٦٢٢
- ٩١ - حديث الأمر بترك ما لم يُسمَّ عليه من الصيد ..... ٦٣٠
- ٩٢ - حديث النهي عن الصرف إلا يداً بيد ..... ٦٣٢
- ٩٣ - حديث الحث على العمل وفضل عمل اليد ..... ٦٣٤
- ٩٤ - حديث البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ..... ٦٤٦
- ٩٥ - حديث جواز أخذ الزوجة ما يكفيها من مال زوجها إذا كان شحيحاً ..... ٦٥١
- ٩٦ - حديث النهي عن التصوير ..... ٦٥٤
- ٩٧ - حديث جواز أخذ الأجر على كتاب الله عز وجل ..... ٦٥٧
- ٩٨ - حديث جواز الرُّقى والأجر عليها ..... ٦٦٠
- ٩٩ - حديث لا حمى إلا لله ولرسوله ..... ٦٦٧
- ١٠٠ - حديث من لم يشرك بالله دخل الجنة ..... ٦٧١
- ١٠١ - حديث النهي عن الجلوس على الطريق ..... ٦٧٦
- ١٠٢ - حديث في بيان ما يحل به الذبح وما يحرم ..... ٦٧٩
- ١٠٣ - حديث الاستقامة على حدود الله والنهي عن المنكر ..... ٦٨٨
- ١٠٤ - حديث نفقة الحيوان المرهون على من يركبه أو يشرب لبنه ..... ٦٩٣
- ١٠٥ - حديث الأمر بالعتق عند الكسوف ..... ٦٩٦
- ١٠٦ - حديث إنما الأعمال بالنيات ..... ٦٩٩
- ١٠٧ - حديث الأمر بإطعام القادم من الطعام ..... ٧٠٣
- ١٠٨ - حديث تواضعه وهديه في الهدية والدعوة ..... ٧٠٦
- ١٠٩ - حديث مراتب الضيافة والتيامن فيها سنة من سننه ﷺ ..... ٧٠٩
- ١١٠ - حديث قبول الهدية والإثابة عليها ..... ٧١٢
- ١١١ - حديث من عليه حق فليدفعه أو ليتحلل منه ..... ٧١٤
- ١١٢ - حديث جواز البيع في السفر وأحكام آخر ..... ٧١٧

- ١١٣ - حديث جواز كراء الأراض للمسلم ومنعها عن الذمي ..... ٧٢٠
- ١١٤ - حديث الأمر بتحريم الرجوع في الصدقة ..... ٧٢٢
- ١١٥ - حديث تحليل نكاح المبتوتة لمطلقها الأول ..... ٧٢٥
- ١١٦ - حديث يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب ..... ٧٢٨
- ١١٧ - حديث النهي عن مدح الرجل في وجهه ..... ٧٣١
- ١١٨ - حديث الثلاثة المعذبين ..... ٧٣٥
- ١١٩ - حديث الإفك وبراءة السيدة عائشة أم المؤمنين منه ..... ٧٣٧
- ١٢٠ - حديث يمين الغموس ..... ٧٨٤
- ١٢١ - حديث لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ..... ٧٨٦
- ١٢٢ - حديث جواز الكذب في الخير ..... ٧٩١
- ١٢٣ - حديث صلح الحديبية ..... ٧٩٤
- ١٢٤ - حديث جواز الوصية في الثلث ..... ٧٩٩
- ١٢٥ - حديث إنذار العشيرة ..... ٨٠٨
- ١٢٦ - حديث جواز استعمال بهيمة الصدقة للضرورة ..... ٨١٤
- ١٢٧ - حديث جواز الصدقة عن الميت ووصول ثوابها إليه ..... ٨١٦
- ١٢٨ - حديث جواز اتخاذ الخادم للرجل الصالح ..... ٨١٩
- ١٢٩ - حديث أفضل الأعمال ..... ٨٢٢
- ١٣٠ - حديث لا هجرة بعد الفتح ..... ٨٢٧
- ١٣١ - حديث المشيئة ..... ٨٣١
- ١٣٢ - حديث الشهادة بالطاعون ..... ٨٣٧
- ١٣٣ - حديث حفر الخندق في غزوة الأحزاب ..... ٨٤٣
- ١٣٤ - حديث فضل الصيام في الجهاد ..... ٨٤٦
- ١٣٥ - حديث من أعان غازياً فله مثل أجره ..... ٨٤٨
- ١٣٦ - حديث اقتناء الخيل في سبيل الله تعالى ..... ٨٥٠
- ١٣٧ - حديث عدم الاتكال على العمل ..... ٨٥٣
- ١٣٨ - حديث درجات النية في ربط الخيل ..... ٨٥٨

- ١٣٩ - حديث اللعب بآلات الحرب ومنع البيع والشراء في المساجد ..... ٨٦٢
- ١٤٠ - حديث عز المؤمن بطاعة الله ورسوله ..... ٨٦٧
- ١٤١ - حديث الترخيص في لبس الحرير ..... ٨٧٠
- ١٤٢ - حديث من أشراط الساعة ..... ٨٧٢
- ١٤٣ - حديث قتال المشركين حتى يعلنوا بكلمة التوحيد ..... ٨٧٤
- ١٤٤ - حديث وعظ المجاهدين ..... ٨٧٨
- ١٤٥ - حديث صدقات أعضاء بدن الإنسان ..... ٨٨٥
- ١٤٦ - حديث الحث على اتخاذ الرفيق في السفر ..... ٨٩١
- ١٤٧ - حديث من الجهاد برّ الوالدين ..... ٨٩٤
- ١٤٨ - حديث تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية ..... ٨٩٧